

# فصل القليل

الجامع بين كثر التوراة والقرآن بين علم الطبر

تأليف

عبد الرحمن بن كزيب الشوكاني

( 1777 - 1844 هـ )

ترجمة جريدة المصنفات والمؤلفات

ابن خلدون

دار المصنفات والمؤلفات

دمشق - سورية

دار ابن كثير

دمشق - سورية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# فتح القدير: الجامع بين فنى الروايه والدرايه من علم التفسير

كاتب:

محمد بن على بن محمد الشوكانى

نشرت فى الطباعة:

بى جا

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

# الفهرس

٥	الفهرس
١٧	فتح القدیر: الجامع بین فنی الروایه والدرايه من علم التفسیر المجلد ٥
١٧	اشارة
١٧	سورة الجاثية
١٧	اشارة
١٧	[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ١ الى ١٥]
٢١	[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ١٦ الى ٢٦]
٢٣	[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٢٧ الى ٣٧]
٢٦	سورة الأحقاف
٢٦	اشارة
٢٦	[سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١ الى ٩]
٣٠	[سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١٠ الى ١٦]
٣٤	[سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١٧ الى ٢٠]
٣٦	[سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ٢١ الى ٢٨]
٣٩	[سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ٢٩ الى ٣٥]
٤٢	سورة محمد
٤٢	اشارة
٤٣	[سورة محمد (٤٧): الآيات ١ الى ١٢]
٤٧	[سورة محمد (٤٧): الآيات ١٣ الى ١٩]
٥١	[سورة محمد (٤٧): الآيات ٢٠ الى ٣١]
٥٥	[سورة محمد (٤٧): الآيات ٣٢ الى ٣٨]
٥٧	سورة الفتح
٥٧	اشارة
٥٨	[سورة الفتح (٤٨): الآيات ١ الى ٧]

٦١	..... [سورة الفتح (٤٨): الآيات ٨ الى ١٥]
٦٤	..... [سورة الفتح (٤٨): الآيات ١٦ الى ٢٤]
٦٧	..... [سورة الفتح (٤٨): الآيات ٢٥ الى ٢٩]
٧٢	..... سورة الحجرات -
٧٢	..... اشارة
٧٢	..... [سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١ الى ٨]
٧٦	..... [سورة الحجرات (٤٩): الآيات ٩ الى ١٢]
٨٠	..... [سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١٣ الى ١٨]
٨٣	..... سورة ق -
٨٣	..... اشارة
٨٤	..... [سورة ق (٥٠): الآيات ١ الى ١٥]
٨٨	..... [سورة ق (٥٠): الآيات ١٦ الى ٣٥]
٩٣	..... [سورة ق (٥٠): الآيات ٣٦ الى ٤٥]
٩٥	..... سورة الذاريات -
٩٥	..... اشارة
٩٦	..... [سورة الذاريات (٥١): الآيات ١ الى ٢٣]
١٠١	..... [سورة الذاريات (٥١): الآيات ٢٤ الى ٣٧]
١٠٤	..... [سورة الذاريات (٥١): الآيات ٣٨ الى ٦٠]
١٠٨	..... سورة الطور -
١٠٨	..... اشارة
١٠٨	..... [سورة الطور (٥٢): الآيات ١ الى ٢٠]
١١٢	..... [سورة الطور (٥٢): الآيات ٢١ الى ٣٤]
١١٥	..... [سورة الطور (٥٢): الآيات ٣٥ الى ٤٩]
١١٨	..... سورة النجم -
١١٨	..... اشارة
١١٨	..... [سورة النجم (٥٣): الآيات ١ الى ٢٦]

١٢٦	..... [سورة النجم (٥٣): الآيات ٢٧ الى ٤٢]
١٣١	..... [سورة النجم (٥٣): الآيات ٤٣ الى ٦٢]
١٣٤	..... سورة القمر
١٣٤	..... اشارة
١٣٥	..... [سورة القمر (٥٤): الآيات ١ الى ١٧]
١٤٠	..... [سورة القمر (٥٤): الآيات ١٨ الى ٤٠]
١٤٣	..... [سورة القمر (٥٤): الآيات ٤١ الى ٥٥]
١٤٥	..... سورة الرحمن
١٤٥	..... اشارة
١٤٦	..... [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ١ الى ٢٥]
١٥٠	..... [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٢٦ الى ٤٥]
١٥٥	..... [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٤٦ الى ٧٨]
١٦٢	..... سورة الواقعة
١٦٢	..... اشارة
١٦٢	..... [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ١ الى ٢٦]
١٦٨	..... [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٢٧ الى ٥٦]
١٧٢	..... [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٥٧ الى ٧٤]
١٧٥	..... [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٧٥ الى ٩٦]
١٨١	..... سورة الحديد
١٨١	..... اشارة
١٨١	..... [سورة الحديد (٥٧): الآيات ١ الى ٦]
١٨٣	..... [سورة الحديد (٥٧): الآيات ٧ الى ١١]
١٨٦	..... [سورة الحديد (٥٧): الآيات ١٢ الى ١٥]
١٨٨	..... [سورة الحديد (٥٧): الآيات ١٦ الى ١٩]
١٩٠	..... [سورة الحديد (٥٧): الآيات ٢٠ الى ٢٤]
١٩٣	..... [سورة الحديد (٥٧): الآيات ٢٥ الى ٢٩]

١٩٧	سورة المجادلة
١٩٧	اشارة
١٩٧	[سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١ الى ٤]
٢٠١	[سورة المجادلة (٥٨): الآيات ٥ الى ١٠]
٢٠٤	[سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١١ الى ١٣]
٢٠٧	[سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١٤ الى ٢٢]
٢١٠	سورة الحشر
٢١٠	اشارة
٢١٠	[سورة الحشر (٥٩): الآيات ١ الى ٧]
٢١٥	[سورة الحشر (٥٩): الآيات ٨ الى ١٠]
٢١٩	[سورة الحشر (٥٩): الآيات ١١ الى ٢٠]
٢٢٢	[سورة الحشر (٥٩): الآيات ٢١ الى ٢٤]
٢٢٥	سورة الممتحنة
٢٢٥	اشارة
٢٢٥	[سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ١ الى ٣]
٢٢٧	[سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ٤ الى ٩]
٢٣٠	[سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ١٠ الى ١٣]
٢٣٣	سورة الصف
٢٣٣	اشارة
٢٣٤	[سورة الصف (٦١): الآيات ١ الى ٩]
٢٣٦	[سورة الصف (٦١): الآيات ١٠ الى ١٤]
٢٣٨	سورة الجمعة
٢٣٨	اشارة
٢٣٩	[سورة الجمعة (٦٢): الآيات ١ الى ٨]
٢٤١	[سورة الجمعة (٦٢): الآيات ٩ الى ١١]
٢٤٤	سورة المنافقون

٢٤٤	.....	اشارة
٢٤٤	.....	[سورة المنافقون (٦٣): الآيات ١ الى ٨]
٢٤٧	.....	[سورة المنافقون (٦٣): الآيات ٩ الى ١١]
٢٤٩	.....	سورة التغابن
٢٤٩	.....	اشارة
٢٤٩	.....	[سورة التغابن (٦٤): الآيات ١ الى ٦]
٢٥١	.....	[سورة التغابن (٦٤): الآيات ٧ الى ١٣]
٢٥٣	.....	[سورة التغابن (٦٤): الآيات ١٤ الى ١٨]
٢٥٤	.....	سورة الطلاق
٢٥٤	.....	اشارة
٢٥٤	.....	[سورة الطلاق (٦٥): الآيات ١ الى ٥]
٢٥٩	.....	[سورة الطلاق (٦٥): الآيات ٦ الى ٧]
٢٦٠	.....	[سورة الطلاق (٦٥): الآيات ٨ الى ١٢]
٢٦٣	.....	سورة التحريم
٢٦٣	.....	اشارة
٢٦٣	.....	[سورة التحريم (٦٦): الآيات ١ الى ٥]
٢٦٧	.....	[سورة التحريم (٦٦): الآيات ٦ الى ٨]
٢٦٩	.....	[سورة التحريم (٦٦): الآيات ٩ الى ١٢]
٢٧١	.....	سورة الملك
٢٧١	.....	اشارة
٢٧١	.....	[سورة الملك (٦٧): الآيات ١ الى ١١]
٢٧٥	.....	[سورة الملك (٦٧): الآيات ١٢ الى ٢١]
٢٧٧	.....	[سورة الملك (٦٧): الآيات ٢٢ الى ٣٠]
٢٨٠	.....	سورة القلم
٢٨٠	.....	اشارة
٢٨٠	.....	[سورة القلم (٦٨): الآيات ١ الى ١٦]



٢٨٥	-----	[سورة القلم (٦٨): الآيات ١٧ الى ٣٣]
٢٨٧	-----	[سورة القلم (٦٨): الآيات ٣٤ الى ٥٢]
٢٩٢	-----	سورة الحاقّة
٢٩٢	-----	اشارة
٢٩٢	-----	[سورة الحاقّة (٦٩): الآيات ١ الى ١٨]
٢٩٧	-----	[سورة الحاقّة (٦٩): الآيات ١٩ الى ٥٢]
٣٠٢	-----	سورة المعارج
٣٠٢	-----	اشارة
٣٠٢	-----	[سورة المعارج (٧٠): الآيات ١ الى ١٨]
٣٠٦	-----	[سورة المعارج (٧٠): الآيات ١٩ الى ٣٩]
٣٠٩	-----	[سورة المعارج (٧٠): الآيات ٤٠ الى ٤٤]
٣١١	-----	سورة نوح
٣١١	-----	اشارة
٣١١	-----	[سورة نوح (٧١): الآيات ١ الى ٢٠]
٣١٥	-----	[سورة نوح (٧١): الآيات ٢١ الى ٢٨]
٣١٧	-----	سورة الجنّ
٣١٧	-----	اشارة
٣١٧	-----	[سورة الجنّ (٧٢): الآيات ١ الى ١٣]
٣٢٣	-----	[سورة الجنّ (٧٢): الآيات ١٤ الى ٢٨]
٣٢٩	-----	سورة المزملّ
٣٢٩	-----	اشارة
٣٣٠	-----	[سورة المزملّ (٧٣): الآيات ١ الى ١٨]
٣٣٧	-----	[سورة المزملّ (٧٣): الآيات ١٩ الى ٢٠]
٣٣٩	-----	سورة المدّثر
٣٣٩	-----	اشارة
٣٣٩	-----	[سورة المدّثر (٧٤): الآيات ١ الى ٣٠]

- ٣٤٤ ..... [سورة المدثر (٧٤): الآيات ٣١ الى ٣٧]
- ٣٤٨ ..... [سورة المدثر (٧٤): الآيات ٣٨ الى ٥٦]
- ٣٥١ ..... سورة القيمة
- ٣٥١ ..... اشارة
- ٣٥١ ..... [سورة القيامة (٧٥): الآيات ١ الى ٢٥]
- ٣٥٨ ..... [سورة القيامة (٧٥): الآيات ٢٦ الى ٤٠]
- ٣٦٠ ..... سورة الإنسان
- ٣٦٠ ..... اشارة
- ٣٦١ ..... [سورة الإنسان (٧٦): الآيات ١ الى ١٢]
- ٣٦٧ ..... [سورة الإنسان (٧٦): الآيات ١٣ الى ٢٢]
- ٣٧١ ..... [سورة الإنسان (٧٦): الآيات ٢٣ الى ٣١]
- ٣٧٣ ..... سورة المرسلات
- ٣٧٣ ..... اشارة
- ٣٧٣ ..... [سورة المرسلات (٧٧): الآيات ١ الى ٢٨]
- ٣٧٧ ..... [سورة المرسلات (٧٧): الآيات ٢٩ الى ٥٠]
- ٣٨٠ ..... سورة التبا
- ٣٨٠ ..... اشارة
- ٣٨٠ ..... [سورة النبا (٧٨): الآيات ١ الى ٣٠]
- ٣٨٧ ..... [سورة النبا (٧٨): الآيات ٣١ الى ٤٠]
- ٣٩٠ ..... سورة التازعات
- ٣٩٠ ..... اشارة
- ٣٩٠ ..... [سورة التازعات (٧٩): الآيات ١ الى ٢٦]
- ٣٩٧ ..... [سورة التازعات (٧٩): الآيات ٢٧ الى ٤٦]
- ٤٠١ ..... سورة عبس
- ٤٠١ ..... اشارة
- ٤٠٢ ..... [سورة عبس (٨٠): الآيات ١ الى ٤٢]

٤٠٧	سورة التَّكْوِير
٤٠٧	اشارة
٤٠٨	[سورة التَّكْوِير (٨١): الآيات ١ الى ٢٩]
٤١٥	سورة الانْفِطَار
٤١٥	اشارة
٤١٥	[سورة الانْفِطَار (٨٢): الآيات ١ الى ١٩]
٤١٨	سورة المَطْفِيفِينَ
٤١٨	اشارة
٤١٨	[سورة المَطْفِيفِينَ (٨٣): الآيات ١ الى ١٧]
٤٢٢	[سورة المَطْفِيفِينَ (٨٣): الآيات ١٨ الى ٣٦]
٤٢٦	سورة الانْشِقَاقِ
٤٢٦	اشارة
٤٢٦	[سورة الانْشِقَاقِ (٨٤): الآيات ١ الى ٢٥]
٤٣٢	سورة البروج
٤٣٢	اشارة
٤٣٢	[سورة البروج (٨٥): الآيات ١ الى ٢٢]
٤٤٠	سورة الطَّارِقِ
٤٤٠	اشارة
٤٤٠	[سورة الطَّارِقِ (٨٦): الآيات ١ الى ١٧]
٤٤٤	سورة الأعلى
٤٤٤	اشارة
٤٤٥	[سورة الأعلى (٨٧): الآيات ١ الى ١٩]
٤٥٠	سورة الغَاشِيَةِ
٤٥٠	اشارة
٤٥١	[سورة الغَاشِيَةِ (٨٨): الآيات ١ الى ٢٦]
٤٥٥	سورة الفجر

- ٤٥٥ ..... اشارة
- ٤٥٦ ..... [سورة الفجر (٨٩): الآيات ١ الى ١٤]
- ٤٦٢ ..... [سورة الفجر (٨٩): الآيات ١٥ الى ٣٠]
- ٤٦٥ ..... سورة البلد
- ٤٦٥ ..... اشارة
- ٤٦٥ ..... [سورة البلد (٩٠): الآيات ١ الى ٢٠]
- ٤٧١ ..... سورة الشمس
- ٤٧١ ..... اشارة
- ٤٧١ ..... [سورة الشمس (٩١): الآيات ١ الى ١٥]
- ٤٧٥ ..... سورة الليل
- ٤٧٥ ..... اشارة
- ٤٧٥ ..... [سورة الليل (٩٢): الآيات ١ الى ٢١]
- ٤٧٩ ..... سورة الضحى
- ٤٨٠ ..... اشارة
- ٤٨٠ ..... [سورة الضحى (٩٣): الآيات ١ الى ١١]
- ٤٨٥ ..... سورة الشرح
- ٤٨٥ ..... اشارة
- ٤٨٥ ..... [سورة الشرح (٩٤): الآيات ١ الى ٨]
- ٤٨٨ ..... سورة التين
- ٤٨٨ ..... اشارة
- ٤٨٨ ..... [سورة التين (٩٥): الآيات ١ الى ٨]
- ٤٩٢ ..... سورة العلق
- ٤٩٢ ..... اشارة
- ٤٩٢ ..... [سورة العلق (٩٦): الآيات ١ الى ١٩]
- ٤٩٦ ..... سورة القدر
- ٤٩٦ ..... اشارة

- ٤٩٦ ..... [سورة القدر (٩٧): الآيات ١ الى ٥]
- ٤٩٨ ..... سورة البينة
- ٤٩٩ ..... اشارة
- ٤٩٩ ..... [سورة البينة (٩٨): الآيات ١ الى ٨]
- ٥٠٣ ..... سورة الزلزلة
- ٥٠٣ ..... اشارة
- ٥٠٤ ..... [سورة الزلزلة (٩٩): الآيات ١ الى ٨]
- ٥٠٦ ..... سورة العاديات
- ٥٠٦ ..... اشارة
- ٥٠٧ ..... [سورة العاديات (١٠٠): الآيات ١ الى ١١]
- ٥١١ ..... سورة القارعة
- ٥١١ ..... اشارة
- ٥١١ ..... [سورة القارعة (١٠١): الآيات ١ الى ١١]
- ٥١٣ ..... سورة التكاثر
- ٥١٣ ..... اشارة
- ٥١٤ ..... [سورة التكاثر (١٠٢): الآيات ١ الى ٨]
- ٥١٧ ..... سورة العصر
- ٥١٧ ..... اشارة
- ٥١٧ ..... [سورة العصر (١٠٣): الآيات ١ الى ٣]
- ٥١٨ ..... سورة الهمزة
- ٥١٨ ..... اشارة
- ٥١٨ ..... [سورة الهمزة (١٠٤): الآيات ١ الى ٩]
- ٥٢٠ ..... سورة الفيل
- ٥٢٠ ..... اشارة
- ٥٢١ ..... [سورة الفيل (١٠٥): الآيات ١ الى ٥]
- ٥٢٣ ..... سورة قريش

٥٢٣	.....	اشارة
٥٢٣	.....	[سورة قريش (١٠٦): الآيات ١ الى ٤]
٥٢٥	.....	سورة الماعون
٥٢٥	.....	اشارة
٥٢٥	.....	[سورة الماعون (١٠٧): الآيات ١ الى ٧]
٥٢٨	.....	سورة الكوثر
٥٢٨	.....	اشارة
٥٢٨	.....	[سورة الكوثر (١٠٨): الآيات ١ الى ٣]
٥٣١	.....	سورة الكافرون
٥٣١	.....	اشارة
٥٣٢	.....	[سورة الكافرون (١٠٩): الآيات ١ الى ٦]
٥٣٤	.....	سورة النصر
٥٣٥	.....	اشارة
٥٣٥	.....	[سورة النصر (١١٠): الآيات ١ الى ٣]
٥٣٧	.....	سورة المسد
٥٣٧	.....	اشارة
٥٣٧	.....	[سورة المسد (١١١): الآيات ١ الى ٥]
٥٤٠	.....	سورة الإخلاص
٥٤٠	.....	اشارة
٥٤٢	.....	[سورة الإخلاص (١١٢): الآيات ١ الى ٤]
٥٤٤	.....	سورة الفلق
٥٤٤	.....	اشارة
٥٤٦	.....	[سورة الفلق (١١٣): الآيات ١ الى ٥]
٥٤٨	.....	سورة التاس
٥٤٩	.....	اشارة
٥٤٩	.....	[سورة الناس (١١٤): الآيات ١ الى ٦]

٥٥١ ..... فهرس الموضوعات

٥٥٣ ..... تعريف مركز القائيمة باصفهان للتحريات الكمبيوترية

## فتح القدير: الجامع بين فنى الروايه والدرايه من علم التفسير المجلد ٥

### إشارة

سرشناسه : شوكانى، محمدبن على، ق ١٢٥٠ - ١١٧٣

عنوان و نام پديد آور : فتح القدير: الجامع بين فنى الروايه والدرايه من علم التفسير / تاليف محمدبن على بن محمد الشوكانى؛  
راجعه و علق عليه هشام النجارى خضر عكارى

مشخصات نشر : بيروت : المكتبه المصريه: [بى جا]: مكتبه العبيكان ، ١٤١٨ق. = ١٩٩٧م = ١٣٧٦.

مشخصات ظاهرى : ج ٥

وضيقت فهرست نويسى : فهرست نويسى قبلى

يادداشت : چاپ قبلى: مصطفى البابى الحلبي، ١٣٥١

يادداشت : كتابنامه

موضوع : تفاسير

موضوع : تفاسير اهل سنت

موضوع : تفاسير شيعه

شناسه افزوده : نجارى، هشام ، محقق

شناسه افزوده : عكارى، خضر، محقق

رده بندى كنگره : BP٩١/ش ٩ف ٢

شماره كتابشناسى ملي : م ٨٠-٣٤٦٠٩

### سورة الجاثية

### إشارة

و هى مكيهه كلها فى قول الحسن و جابر و عكرمه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن الزبير أنها نزلت بمكة، و روى عن ابن عباس و قتاده أنهما قالا: إلا آيه منها، و هى قوله: لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ أَيَّامٍ اللَّهُ فَإِنَّهَا نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ فِي عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ؛ كما سيأتى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ١ الى ١٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّهِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤)

وَ اِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥)



تَلَمَّكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعِدَ اللَّهُ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيَلُّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوعًا أَوْلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ (١١) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)

قوله: حم قد تقدّم الكلام فى هذه الفاتحة و فى إعرابها فى فاتحة سورة غافر و ما بعدها، فإن جعل اسما للسورة فمحلّه الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ، و إن جعل حروفا مسرودة على نمط التعديد فلا محلّ له، و قوله: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ خَبْرُ ثَانٍ، وَ عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي خَبْرُ الْمَبْتَدَأِ، وَ عَلَى الْوَجْهِ الثَّلَاثِ خَبْرُ مَبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَوْ مَبْتَدَأٍ وَ خَبْرُهُ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ثُمَّ أَخْبَرَ سَبْحَانَهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى قُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ فَقَالَ: إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ أَى: فِيهَا نَفْسَهَا فَإِنَّهَا مِنْ فَنُونَ الْآيَاتِ، أَوْ فِي خَلْقِهَا. قَالَ الزَّجَّاجُ: وَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قَوْلُهُ: وَ فِي خَلْقِكُمْ أَى: فِي خَلْقِكُمْ أَنْفُسَكُمْ عَلَى أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ. قَالَ مِقَاتِلُ: مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَطْفَةٍ إِلَى أَنْ يَصِيرَ إِنْسَانًا وَ مَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ أَى: وَ فِي خَلْقِ مَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ، وَ ارْتِفَاعِ آيَاتٍ عَلَى أَنَّهَا مَبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ وَ خَبْرُهُ الظرف قبله، وَ بِالرَّفْعِ قَرَأَ الْجُمْهُورُ، وَ قَرَأَ حَمْزَةً وَ الْكَسَائِي «آيَاتٍ» بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى اسْمِ إِنْ، وَ الْخَبْرُ قَوْلُهُ: وَ فِي

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦

خَلْقِكُمْ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَ إِنْ فِي خَلْقِكُمْ وَ مَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ، أَوْ عَلَى أَنَّهَا تَأْكِيدٌ لآيَاتِ الْأُولَى. وَ قَرَأَ الْجُمْهُورُ أَيْضًا آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ بِالرَّفْعِ، وَ قَرَأَ حَمْزَةً وَ الْكَسَائِي بِنَصْبِهَا مَعَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى الْجَزِّ فِي «اِخْتِلَافٍ»، أَمَا جَزَّ «اِخْتِلَافٍ» فَهُوَ عَلَى تَقْرِيرِ حَرْفِ الْجَزِّ، أَى: وَ فِي اِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ آيَاتٍ، فَمِنْ رَفْعِ «آيَاتٍ» فَعَلَى أَنَّهَا مَبْتَدَأٌ، وَ خَبْرُهَا: «فِي اِخْتِلَافٍ»، وَ أَمَا النَّصْبُ فَهُوَ مِنْ بَابِ الْعَطْفِ عَلَى مَعْمُولِي عَامِلِينَ مُخْتَلِفِينَ. قَالَ الْفَرَّاءُ: الرَّفْعُ عَلَى الْاِسْتِثْنَاءِ بَعْدَ إِنْ، تَقُولُ الْعَرَبُ: إِنْ لِي عَلَيْكَ مَالًا وَ عَلَى أَخِيكَ مَالًا، يَنْصَبُونَ الثَّانِي وَ يَرْفَعُونَهُ وَ لِلنَّحَاةِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ كَلَامٌ طَوِيلٌ. وَ الْبَحْثُ فِي مَسْأَلَةِ الْعَطْفِ عَلَى مَعْمُولِي عَامِلِينَ مُخْتَلِفِينَ؛ وَ حُجْجُ الْمَجْزُوزِينَ لَهُ وَ جَوَابَاتُ الْمَانِعِينَ لَهُ مَقْرَّرٌ فِي عِلْمِ النَّحْوِ، مَبْسُوطٌ فِي مَطْوَلَاتِهِ. وَ مَعْنَى مَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ مَا يَفْرَقُهُ وَ يَنْشُرُهُ وَ اِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ تَعَاقُبَهُمَا أَوْ تَفَارُقَهُمَا فِي الطُّولِ وَ الْقَصْرِ، وَ قَوْلُهُ: وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ مَعْطُوفٌ عَلَى اِخْتِلَافِ، وَ الرِّزْقُ: الْمَطْرُ؛ لِأَنَّهُ سَبَبٌ لِكُلِّ مَا يَرْزُقُ اللَّهُ الْعِبَادَ بِهِ، وَ إِحْيَاءُ الْأَرْضِ: إِخْرَاجُ نَبَاتِهَا، وَ مَوْتِهَا خَلْوُهَا عَنِ النَّبَاتِ وَ مَعْنَى تَصْرِيْفِ الرِّيحِ أَنَّهَا تَهَبُ تَارَةً مِنْ جِهَةٍ، وَ تَارَةً مِنْ أُخْرَى، وَ تَارَةً تَكُونُ حَارَّةً، وَ تَارَةً تَكُونُ بَارِدَةً، وَ تَارَةً نَافِعَةٌ، وَ تَارَةً ضَارَّةٌ تَلَمَّكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ أَى: هَذِهِ الْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ هِيَ حُجْجُ اللَّهِ وَ بَرَاهِينُهُ، وَ مَحَلُّ: تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالنَّصْبِ عَلَى الْحَالِ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ عَلَى أَنَّهُ خَبْرُ اسْمِ الْإِشَارَةِ، وَ آيَاتُ اللَّهِ بَيَانٌ لَهُ أَوْ بَدَلٌ مِنْهُ، وَ قَوْلُهُ: بِالْحَقِّ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ تَتْلُو، أَوْ مِنْ مَفْعُولِهِ، أَى: مُحَقِّقِينَ، أَوْ مَتَلَبِّسَةً بِالْحَقِّ، وَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ لِلْسَّبَبِيَّةِ، فَتَتَعَلَّقُ بِنَفْسِ الْفِعْلِ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعَدَ اللَّهُ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ أَى: بَعْدَ حَدِيثِ اللَّهِ وَ بَعْدَ الْآيَاتِ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ: أَعْجَبَنِي زَيْدٌ وَ كَرَمَهُ. وَ قِيلَ: الْمُرَادُ بَعْدَ حَدِيثِ اللَّهِ، وَ هُوَ الْقُرْآنُ كَمَا فِي قَوْلِهِ: اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وَ هُوَ الْمُرَادُ بِالْآيَاتِ، وَ الْعَطْفُ لِمَجْرَدِ التَّغْيِيرِ الْعِنَوَانِي.

قرأ الجمهور «تؤمنون» بالفوقية، وقرأ حمزة و الكسائي بالتحتيه. و المعنى: يؤمنون بأى حديث، و إنما قدّم عليه لأن الاستفهام له صدر الكلام و يُلُّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ أَى: لِكُلِّ كَذَابٍ كَثِيرٍ الْإِثْمِ مَرْتَكِبٍ لِمَا يُوْجِبُهُ، وَ الْوَيْلُ: وَادٍ فِي جَهَنَّمَ. ثُمَّ وَصَفَ هَذَا الْأَفَّاكِ

بصفة أخرى فقال: يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ وَقِيلَ:

إن يسمع في محل نصب على الحال، وقيل: استئناف، والأول أولى، وقوله: تُتْلَى عَلَيْهِ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ ثُمَّ يُصَدَّرُ عَلَى كَفَرِهِ وَيُقِيمُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ حَالٌ كَوْنُهُ مُسَدِّ تَكْبِيرًا أَيْ: يَتِمَادِي عَلَى كَفَرِهِ مَتَعَطِّمًا فِي نَفْسِهِ عَنِ الْإِنْقِيَادِ لِلْحَقِّ، وَالْإِصْرَارُ مَأْخُذٌ مِنْ إِصْرَارِ الْحِمَارِ عَلَى الْعَانَةِ «١»، وَهُوَ أَنْ يَنْحَنِي عَلَيْهَا صَارًا أذْنِيهِ. قَالَ مِقَاتِلٌ: إِذَا سَمِعَ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ شَيْئًا اتَّخَذَهَا هَزْوًا، وَجَمَلُهُ كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ أَوْ مُسْتَأْنَفَةً، وَأَنَّ هِيَ الْمَخْفَفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا ضَمِيرٌ شَأْنٌ مَحذُوفٌ فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ هَذَا مِنْ بَابِ التَّهَكُّمِ؛ أَيْ: فَبَشَّرَهُ عَلَى إِصْرَارِهِ وَاسْتِكْبَارِهِ وَعَدَمِ اسْتِمَاعِهِ إِلَى الْآيَاتِ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا قَرَأَ الْجُمْهُورُ: «عَلِمَ» بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَكَسْرِ اللَّامِ مَخْفَفَةً عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ. وَقَرَأَ قَتَادَةُ

(١). «العانة»: الأتان (الحمارة)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٧

ومطر الوراق على البناء للمفعول. والمعنى: أنه إذا وصل إليه علم شيء من آيات الله اتَّخَذَهَا أَيْ:

الآيات هُزْوًا وَقِيلَ: الضمير في «اتَّخَذَهَا» عائد إلى «شيئًا»؛ لأنه عبارة عن الآيات، والأول أولى.

والإشارة بقوله: أَوْلَيْتَكَ إِلَى كُلِّ أَفَّاكٍ مَتَّصِفٍ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ بِسَبَبِ مَا فَعَلُوا مِنَ الْإِصْرَارِ وَالِاسْتِكْبَارِ عَنِ سَمَاعِ آيَاتِ اللَّهِ وَاتَّخَذَهَا هَزْوًا، وَالْعَذَابُ الْمُهِينُ هُوَ الْمَشْتَمَلُ عَلَى الْإِذْلَالِ وَالْفُضِيحَةِ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمَ أَيْ: مِنْ وَرَاءِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ التَّعَزُّزِ بِالْدُنْيَا وَالتَّكْبِيرِ عَنِ الْحَقِّ جَهَنَّمَ، فَإِنَّهَا مِنْ قَدَامِهِمْ لِأَنَّهُمْ مَتَوَجِّهُونَ إِلَيْهَا، وَعَبَّرَ بِالْوَرَاءِ عَنِ الْقَدَامِ، كَقَوْلِهِ: مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمَ «١» وَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أليس ورائي إن تراخت مبيتي «٢» .....

وقيل: جعلها باعتبار إعراضهم عنها كأنها خلفهم ولا يُعْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا أَيْ: لَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ بُوْجُهُ مِنْ وَجْهِ النِّعَمِ وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ مَعطُوفٍ عَلَى «مَا كَسَبُوا»، أَيْ: وَلَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ مِنَ الْأَصْنَامِ، وَ«مَا» فِي الْمَوْضِعِينَ إِمَّا مَصْدَرِيَّةٌ أَوْ مَوْصُولَةٌ، وَزِيَادَةُ لَا فِي الْجَمَلَةِ الثَّانِيَةَ لِلتَّأْكِيدِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فِي جَهَنَّمَ الَّتِي هِيَ مِنْ وَرَائِهِمْ هَذَا هُدًى جَمَلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ مِنْ مَبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ، يَعْنِي هَذَا الْقُرْآنَ هُدًى لِلْمُهْتَدِينَ بِهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ الْقُرْآنِيَّةِ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ الرَّجْزُ: أَشَدُّ الْعَذَابِ.

قرأ الجمهور: «أليم» بالجرِّ صفةً للرجز. وقرأ ابن كثير و حفص و ابن محيصن بالرفع صفةً لعذاب الله الذي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ أَيْ: جَعَلَهُ عَلَى صِفَةٍ تَتِمَكَّنُونَ بِهَا مِنَ الرُّكُوبِ عَلَيْهِ لِتَجَرِّيِ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ أَيْ: بِإِذْنِهِ وَإِقْدَارِهِ لَكُمْ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ بِالتَّجَارَةِ تَارَةً، وَ الْغُوصِ لِلدَّرِّ، وَ الْمَعَالِجَةَ لِلصَّيْدِ وَ غَيْرَ ذَلِكَ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَيْ: لِكَيْ تَشْكُرُوا النِّعَمَ الَّتِي تَحْصِلُ لَكُمْ بِسَبَبِ هَذَا التَّسْخِيرِ لِلْبَحْرِ وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ أَيْ: سَخَّرَ لِعِبَادِهِ جَمِيعَ مَا خَلَقَهُ فِي سَمَاوَاتِهِ وَ أَرْضِهِ مِمَّا تَتَعَلَّقُ بِهِ مَصَالِحُهُمْ وَ تَقُومُ بِهِ مَعَايِشُهُمْ، وَ مِمَّا سَخَّرَهُ لَهُمْ مِنْ مَخْلُوقَاتِ السَّمَاوَاتِ؛ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ التَّيْرَاتُ وَ الْمَطَرُ وَ السَّحَابُ وَ الرِّيحُ، وَ انْتِصَابُ جَمِيعًا عَلَى الْحَالِ مِنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ أَوْ تَأْكِيدُ لَهُ، وَ قَوْلُهُ «مِنْهُ» يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَحذُوفٍ هُوَ صِفَةٌ لِجَمِيعًا، أَيْ: كَائِنَةٌ مِنْهُ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِسَخَّرَ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ، أَوْ خَبَرِ الْمَبْتَدَأِ مَحذُوفٍ. وَ الْمَعْنَى: أَنْ كُلِّ ذَلِكَ رَحْمَةٌ مِنْهُ لِعِبَادِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ الْمَذْكُورِ مِنَ التَّسْخِيرِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَ حَصَّ الْمُتَفَكِّرِينَ لِأَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا إِلَّا- مِنْ تَفَكُّرِ فِيهَا، فَإِنَّهُ يَنْتَقِلُ مِنَ التَّفَكُّرِ إِلَى الْإِسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى التَّوْحِيدِ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا أَيْ: قُلْ لَهُمْ: اغْفِرُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَزُجُّونَ آيَاتِ اللَّهِ وَقِيلَ: هُوَ عَلَى حَذْفِ اللَّامِ، وَ التَّقْدِيرُ: قُلْ لَهُمْ لِيغْفِرُوا. وَ الْمَعْنَى: قُلْ لَهُمْ:

يتجاوزوا عن الذين لا يرجون وقائع الله بأعدائه، أى: لا يتوقعونها، ومعنى الرجاء هنا الخوف، أى: هو على معناه الحقيقي. و  
المعنى: لا يرجون ثوابه فى الأوقات التى وقتها الله لثواب المؤمنين، و الأول أولى. و الأيام

(١). إبراهيم: ١٦.

(٢). وعجزه: أدب مع الولدان أزحف كالنسر.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٨

يعبر بها عن الوقائع، كما تقدم فى تفسير قوله: وَ ذَكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ «١» قال مقاتل: لا يخشون مثل عذاب الله للأمم الخالية، و ذلك أنهم لا يؤمنون به فلا يخافون عقابه. و قيل: المعنى: لا يأملون نصر الله لأولياته و إيقاعه بأعدائه، و قيل: لا يخافون البعث. قيل: و الآية منسوخة بآية السيف لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ قرأ ابن عامر و حمزة و الكسائى «لنجزى» بالنون؛ أى: لنجزى نحن. و قرأ باقى السبعة بالتحية مبنيًا للفاعل، أى: ليجزى الله. و قرأ أبو جعفر و شيبة و عاصم بالتحية مبنيًا للمفعول مع نصب قوما، فقيل:

النائب عن الفاعل مصدر الفعل، أى: ليجزى الجزاء قوما، و قيل: إن النائب الجاز و المجرور كما فى قول الشاعر «٢»:

و لو ولدت فقيرة «٣» جرو كلب لسبب بذلك الجرو الكلابا

و قد أجاز ذلك الأَخفش و الكوفيون، و منعه البصريون، و الجملة لتعليل الأمر بالمغفرة، و المراد بالقوم المؤمنون، أمروا بالمغفرة ليجزيهم الله يوم القيامة بما كسبوا فى الدنيا من الأعمال الحسنة التى من جملتها الصبر على أذية الكفار و الإغضاء عنهم بكظم الغيظ و احتمال المكروه. و قيل: المعنى: ليجزى الكفار بما عملوا من السيئات، كأنه قال: لا تكافؤهم أنتم لنكافئهم نحن، و الأول أولى. ثم ذكر المؤمنين و أعمالهم و المشركين و أعمالهم فقال: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا و المعنى: أن عمل كل طائفة من إحسان أو إساءة لعامله لا يتجاوزه إلى غيره و فيه ترغيب و تهديد ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ فيجازى كلا بعمله إن كان خيرا فخير، و إن كان شرا فشر.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة، من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله: جَمِيعًا مِنْهُ قَالَ: منه النور و الشمس و القمر. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: كل شىء هو من الله. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن طاوس قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله: مم خلق الخلق؟

قال: من الماء و النور و الظلمة و الهواء و التراب، قال: فمم خلق هؤلاء؟ قال: لا أدرى. ثم أتى الرجل عبد الله ابن الزبير، فسأله فقال مثل قول عبد الله بن عمرو، فأتى ابن عباس فسأله: مم خلق الخلق؟ فقال: من الماء و النور و الظلمة و الريح و التراب، قال: فمم خلق هؤلاء؟ فقرأ ابن عباس: وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ فقال الرجل: ما كان ليأتى بهذا إلا رجل من أهل بيت النبى صلى الله عليه و سلم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا الآية قال: كان نبى الله صلى الله عليه و سلم يعرض عن المشركين إذا آذوه، و كانوا يستهزئون به و يكذبونه، فأمره الله أن يقاتل المشركين كافة، فكان هذا من المنسوخ.

(١). إبراهيم: ٥.

(٢). هو جرير.

(٣). «فغيره»: أم الفرزدق.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٩

### [سورة الباقية (٤٥): الآيات ١٦ الى ٢٦]

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَمْ فَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصِيرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)

قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦)

قوله: وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ المراد بالكتاب التوراة وبالْحُكْمَ والفهم والفقهاء الذي يكون بهما الحكم بين الناس وفصل خصوماتهم، وبالنُّبُوَّةَ من بعثه الله من الأنبياء فيهم وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أى: المستلذات التي أحلها الله لهم، ومن ذلك المنّ والسلوى وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ من أهل زمانهم حيث آتيناهم ما لم تؤت من عداهم من فلق البحر ونحوه، وقد تقدّم بيان هذا في سورة الدخان وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ أى: شرائع واضحات فى الحلال والحرام، أو معجزات ظاهرات، وقيل:

العلم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم وشواهد نبوته، وتعيين مهاجره فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ أى:

فما وقع الاختلاف بينهم فى ذلك الأمر إلا بعد مجيء العلم إليهم ببيانه وإيضاح معناه، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجبا لثبوتها، وقيل: المراد بالعلم يوشع بن نون، فإنه آمن به بعضهم وكفر بعضهم، وقيل: نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فاختلفوا فيها حسدا وبغيا، وقيل: بغيا من بعضهم على بعض بطلب الرئاسة إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ من أمر الدين، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ الشريعة فى اللغة: المذهب، والملء، والمنهاج، ويقال: لمرسة الماء، وهى مورد شاربيه، شريعة، ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد، فالمراد بالشريعة هنا ما شرعه الله لعباده من الدين، والجمع شرائع، وقيل: جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين يوصلك إلى الحق فَاتَّبِعْهَا فاعمل بأحكامها فى أمتك وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ توحيد الله وشرائعه لعباده، وهم كفار قريش ومن وافقهم إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أى: لا يدفعون عنك شيئا مما أَرَادَهُ اللَّهُ بِكَ إن اتبعت أهواءهم وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ أى: أنصار ينصر بعضهم بعضا. قال

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٠

ابن زيد: إن المنافقين أولياء اليهود وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ أى: ناصرهم، والمراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك والمعاصى، والإشارة بقوله: هذا إلى القرآن أو إلى اتباع الشريعة، وهو مبتدأ وخبره بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ أى: براهين ودلائل لهم فيما يحتاجون إليه من

أحكام الدين، جعل ذلك بمنزلة البصائر فى القلوب، و قرئ هذه بصائر أى: هذه الآيات؛ لأن القرآن بمعناها كما قال الشاعر:  
..... سائل بنى أسد ما هذه الصّوت «أ» لأن الصوت بمعنى الصيحة. وَ هُدَىْ أى: رشد، و طريق يُوْدَى إلى الجنة لمن عمل به وَ  
رَحْمِيَّةٌ من الله فى الآخرة لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أى: من شأنهم الإيقان و عدم الشك و التزلزل بالشبه أم حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ  
«أم» هى المنقطعة المقدره ببل و الهمزة و ما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأوّل إلى الثانى، و الهمزة لإنكار الحسبان، و  
الاجتراح: الاكتساب، و منه الجوارح، و قد تقدّم فى المائدة، و الجملة مستأنفة لبيان تباين حالى المسيئين و المحسنين، و هو  
معنى قوله: أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أى: نسوى بينهم، مع اجتراحهم السيئات، و بين أهل الحسنات سواءً  
مَحْيَاهُمْ وَ مَمَاتُهُمْ فى دار الدنيا و فى الآخرة، كلا لا يستون، فإن حال أهل السعادة فيهما غير حال أهل الشقاوة. و قيل:  
المراد إنكار أو يستوا فى الممات كما استوا فى الحياة. قرأ الجمهور «سواء» بالرفع على أنه خبر مقدّم، و المبتدأ:  
محياهم و مماتهم، و المعنى: إنكار حسبانهم أن محياهم و مماتهم سواء. و قرأ حمزة و الكسائى و حفص «سواء» بالنصب على  
أنه حال من الضمير المستتر فى الجار و المجرور فى قوله: كَالَّذِينَ آمَنُوا أو على أنه مفعول ثان لحسب، و اختار قراءة النصب أبو  
عبيد، و قال معناه: نجعلهم سواء، و قرأ الأعمش و عيسى بن عمر «مماتهم» بالنصب على معنى: سواء فى محياهم و مماتهم، فلما  
سقط الخافض انتصب، أو على البدل من مفعول نجعلهم بدل اشتمال ساء ما يَحْكُمُونَ أى: ساء حكمهم هذا الذى حكموا به وَ  
خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بِالْحَقِّ أى: بالحقّ المقتضى للعدل بين العباد، و محل بالحقّ النصب على الحال من الفاعل، أو من  
المفعول، أو الباء للسببية. و قوله: وَ لِيَجْزِيَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْحَقِّ؛ لأن كلا منهما سبب، فعطف السبب  
على السبب، و يجوز أن يكون معطوفا على محذوف، و التقدير: خلق الله السماوات و الأرض ليدلّ بهما على قدرته: «و لتجزى»  
يجوز أن تكون اللام للصيرورة وَ هُمْ لَا يُظَلَّمُونَ أى: النفوس المدلول عليها بكل نفس لا يظلمون بنقص ثواب أو زيادة عقاب.  
ثم عجب سبحانه من حال الكفار فقال: أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ قَالَ الْحَسَنُ وَ قَتَادَةُ: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه؛ فلا  
يهوى شيئا إلا ركه. و قال عكرمة: يعبد ما يهواه أو يستحسنه، فإذا استحسن شيئا و هويه اتخذه إلها. قال

(١). و صدره: يا أيها الراكب المزجى مطيته.

و البيت لرويشد بن كثير الطائى. (شرح المعلمات السبع للزوزنى ص ٢٥٠) طبع دار ابن كثير.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١١

سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به و عبد الآخر. وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمِ أى: على علم قد  
علمه، و قيل: المعنى: أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه. و قال مقاتل: على علم منه أنه ضال لأنه يعلم أن الصنم لا  
ينفع و لا يضر. قال الزجاج: على سوء فى علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، و محل «على علم» النصب على الحال من الفاعل أو  
المفعول: وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ أى: طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ، و طبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى وَ جَعَلَ عَلَى  
بَصِيرِهِ غِشَاوَةً أى: غطاء حتى لا يبصر الرشد. قرأ الجمهور: «غشاوة» بالألف مع كسر الغين. و قرأ حمزة و الكسائى «غشوة» بغير  
ألف مع فتح الغين، و منه قول الشاعر:

لئن كنت ألبستنى غشوة لقد كنت أصفيتك الودّ حينا

و قرأ ابن مسعود و الأعمش كقراءة الجمهور مع فتح الغين، و هى لغه ربيعه. و قرأ الحسن و عكرمة بضمها، و هى لغه عكل فَمَنْ  
يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أى: من بعد إضلال الله له أ فلا تَدَكَّرُونَ تَدَكَّرُونَ حتى تعلموا حقيقة الحال. ثم بين سبحانه بعض  
جهالاتهم و ضلالاتهم فقال: وَ قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا أى: ما الحياة إلا الحياة الدنيا التى نحن فيها نَمُوتُ وَ نَحْيَا أى: يصيبنا

الموت و الحياة فيها، و ليس وراء ذلك حياة، و قيل: نموت نحن و يحيا فيها أولادنا، و قيل: نكون نطفًا ميتة ثم نصير أحياء، و قيل:

في الآية تقديم و تأخير، أى: نحيا و نموت، و كذا قرأ ابن مسعود، و على كل تقدير فمرادهم بهذه المقالة إنكار البعث و تكذيب الآخرة و ما يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ أى: إلا مرور الأيام و الليالي. قال مجاهد: يعنى السنين و الأيام. و قال قتادة: إلا العمر، و المعنى واحد. و قال قطرب: المعنى و ما يهلكنا إلا الموت. و قال عكرمة:

و ما يهلكنا إلا الله و ما لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ أى: ما قالوا هذه المقالة إلا شاكين غير عالمين بالحقيقة.

ثم يبين كون ذلك صادرا منهم لا عن علم، فقال: إِنَّ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ أى: ما هم إلا قوم غايه ما عندهم الظن، فما يتكلمون إلا به، و لا يستندون إلا إليه و إذا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنبَغِ أَى: إذا تليت آيات القرآن على المشركين حال كونها بينات واضحات ظاهرة المعنى و الدلالة على البعث ما كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أنا نبعث بعد الموت، أى: ما كان لهم حجة و لا متمسك إلا هذا القول الباطل الذى ليس من الحجج فى شىء، و إنما سَمَاهُ حُجَّةً تَهَكُّمًا بهم. قرأ الجمهور بنصب حُجَّتَهُمْ على أنه خير كان، و اسمها إِلَّا أَنْ قَالُوا و قرأ زيد بن على و عمرو بن عبيد و عبيد بن عمرو برفع حجتهم على أنها اسم كان، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه و سلم أن يرد عليهم فقال: قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ فى الدنيا ثُمَّ يُمِيتُكُمْ عند انقضاء آجالكم ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بالبعث و النشور لا ريب فيه أى:

فى جمعكم؛ لأن من قدر على ابتداء الخلق قدر على إعادته و لكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ بذلك، فلهذا حصل معهم الشك فى البعث، و جاءوا فى دفعه بما هو أوهن من بيت العنكبوت، و لو نظروا حقَّ النظر لحصلوا على العلم اليقين، و اندفع عنهم الريب، و أراحوا أنفسهم من ورطة الشك و الحيرة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٢

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِنَ الْأَمْرِ يَقول: على هدى من أمر دينه. و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَ مَمَاتُهُمْ قال: المؤمن فى الدنيا و الآخرة مؤمن، و الكافر فى الدنيا و الآخرة كافر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ قال: ذاك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله و لا برهان و أضلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ يَقول: أضله فى سابق علمه. و أخرج النسائى و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عنه قال: كان الرَّجُلُ من العرب يعبد الحجر، فإذا وجد أحسن منه أخذته و ألقى الآخر، فأنزل الله: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل و النهار، فقال الله فى كتابه: وَ قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ قال الله: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر و أنا الدهر، بيدى الأمر ألقب الليل و النهار. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث أبى هريرة: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «قال الله عزَّ و جل: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر و أنا الدهر، بيدى الأمر ألقب الليل و النهار».

### [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٢٧ الى ٣٧]

و لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعِيَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَ تَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِئِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسِيحًا مَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ

كُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١)

وَ إِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعِيَةُ لَا- رَبِّ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعِيَةُ إِنَّ نَظْنَ إِلَّا ظَنًّا وَ مَا نَحْنُ بِمُسْتَيَقِنِينَ (٣٢) وَ بَدَأَ لَهُمْ  
سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَ مَاؤَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ  
مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَ غَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ  
الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦)

وَ لَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)

لما ذكر سبحانه ما احتج به المشركون و ما أجاب به عليهم ذكر اختصاصه بالملك، فقال: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَى:  
هو المتصرف فيهما وحده، لا يشاركه أحد من عباده. ثم توعد أهل الباطل فقال: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومئذٍ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ أَى:  
المكذَّبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل، يظهر في ذلك اليوم خسرتهم لأنهم يصيرون إلى النار، و العامل في «يوم» هو «يخسر»،  
و «يومئذ» بدل منه، و التنوين للعوض عن المضاف إليه المدلول عليه بما أضيف إليه المبدل منه، فيكون التقدير: و يوم تقوم  
الساعة يوم تقوم الساعة، فيكون بدلا توكيديا، و الأولى أن يكون العامل في يوم هو ملك، أَى: و لله ملك يوم تقوم الساعة، و  
يكون «يومئذ» معمولا ليخسر: وَ تَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً الْخَطَابَ لِكُلِّ مَنْ يَصْلِحُ لَهُ،

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٣

أو للنبي صلى الله عليه و سلم، و الأمة: الملة، و معنى جائية: مستوفزة، و المستوفز: الذى لا- يصيب الأرض منه إلا ركبته و  
أطراف أنامله، و ذلك عند الحساب. و قيل: معنى جائية: مجتمعة، قال الفراء: المعنى و ترى أهل كل ذى دين مجتمعين. و قال  
عكرمة: متميزة عن غيرها. و قال مؤرّج: معناه بلغة قريش: خاضعة. و قال الحسن:

باركة على الركب. و الجثو: الجلوس على الركب، تقول. جثا يجثو و يجثى جثوا و جثيا؛ إذا جلس على ركبته، و الأوّل أولى. و  
لا ينافيه ورود هذا اللفظ لمعنى آخر فى لسان العرب. و قد ورد إطلاق الجثوة على الجماعة من كل شىء فى لغة العرب، و منه  
قول طرفة يصف قبرين:

ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد (١)

و ظاهر الآية أنّ هذه الصفة تكون لكل أمة من الأمم من غير فرق بين أهل الأديان المتبعين للرسول و غيرهم من أهل الشرك. و  
قال يحيى بن سلام: هو خاص بالكفار، و الأوّل أولى. و يؤيده قوله: كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا و لقوله فيما سيأتى: فَأَمَّا الَّذِينَ  
آمَنُوا، و معنى «إلى كِتَابِهَا»: إلى الكتاب المنزل عليها، و قيل: إلى صحيفه أعمالها، و قيل: إلى حسابها، و قيل: اللوح المحفوظ، و  
الأوّل أولى. قرأ الجمهور «كل أمة» بالرفع على الابتداء، و خبره: تدعى. و قرأ يعقوب الحضرمي بالنصب على البدل من كل أمة.  
الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ أَى: يقال لهم اليوم تجزون ما كنتم تعملون من خير و شرّ هذا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ هَذَا مِنْ  
تمام ما يقال لهم، و القائل بهذا هم الملائكة. و قيل: هو من قول الله سبحانه، أَى: يشهد عليكم، و هو استعارة، يقال: نطق  
الكتاب بكذا، أَى: بين، و قيل: إنهم يقرءونه فيذكرون ما عملوا، فكأنه ينطق عليهم بالحق الذى لا زيادة فيه و لا نقصان، و محل  
«ينطق» بالنصب على الحال، أو الرفع على أنه خبر آخر لاسم الإشارة، و جملة «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» لتعليل للنطق بالحق،  
أَى: نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم، أَى: بكتبتها و تثبيتها عليكم. قال الواحدى: و أكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح  
المحفوظ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بنى آدم، فيجدون ذلك موافقا لما يعملونه. قالوا: لأن الاستنساخ  
لا- يكون إلا من أصل. و قيل: المعنى: نأمر الملائكة بنسخ ما كنتم تعملون. و قيل: إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمله العبد،  
فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات و السيئات و تركوا المباحات. و قيل: إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله

سبحانه أمر عزّ وجلّ أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب و عقاب، و يسقط منها ما لا ثواب فيه و لا عقاب فأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ أَيْ: الجنة، و هذا تفصيل لحال الفريقين، فالمؤمنون يدخلهم الله برحمته الجنة ذلك أَيْ: الإدخال في رحمته هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ أَيْ: الظاهر الواضح وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُثَلِّي عَلَيْكُمْ أَيْ: فيقال لهم ذلك، و هو استفهام توبيخ، لأن الرسل قد أتتهم و تلت عليهم آيات الله، فكذبوها و لم يعملوا بها فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ أَيْ: تكبرتم عن قبولها و عن الإيمان بها،

(١). «الصم»: الصلب. «المنضد»: الذي جعل بعضه على بعض.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٤

و كنتم من أهل الإجمام، و هي الآثام، و الاجترام: الاكتساب، يقال: فلان جريمة أهله؛ إذا كان كاسبهم، فالمجرم: من كسب الآثام بفعل المعاصي وَ إِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أَيْ: وعده بالبعث و الحساب، أو بجميع ما وعد به من الأمور المستقبلية، واقع لا محالة وَ السَّاعَةُ أَيْ: القيامة لا رَيْبَ فِيهَا أَيْ:

في وقوعها. و قرأ الجمهور «و الساعة» بالرفع على الابتداء، أو العطف على موضع اسم إن، و قرأ حمزة بالنصب عطفا على اسم إن قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ أَيْ: أي شيء هي؟ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا أَيْ: نحس حسدا، نتوهم توهمًا. قال المبرد: تقديره: إن نحن إلا نظن ظنا، و قيل: التقدير: إن نظن إلا أنكم تظنون ظنا، و قيل: إن نظن مضمن معنى نعتقد، أَيْ: ما نعتقد إلا ظنا لا علما، و قيل: إن «ظنا» له صفة مقدّرة، أَيْ: إلا ظنا بينا، و قيل: إن الظن يكون بمعنى العلم و الشك، فكأنهم قالوا: ما لنا اعتقاد إلا الشك وَ مَا نَحْنُ بِمُسْتَيَقِنِينَ أَيْ: لم يكن لنا يقين بذلك، و لم يكن معنا إلا مجرد الظن أن الساعة آتية وَ بَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا أَيْ: ظهر لهم سيئات أعمالهم على الصورة التي هي عليها وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ أَيْ: أحاط بهم، و نزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا أَيْ: نترككم في النار كما تركتم العمل لهذا اليوم، و أضاف اللقاء إلى اليوم توسيحا، لأنه أضاف إلى الشيء ما هو واقع فيه وَ مَاوَأَكُمُ النَّارُ أَيْ: مسكنكم و مستقركم الذي تأوون إليه وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب ذَلِكَم بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا أَيْ: ذلكم العذاب بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزوا و لعبا وَ عَزَّتُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا أَيْ: خدعتكم بزخارفها و أباطيلها، فظننتم أنه لا- دار غيرها و لا- بعث و لا- نشور فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا أَيْ: من النار. قرأ الجمهور «يخرجون» بضم الياء و فتح الراء مبنيًا للمفعول، و قرأ حمزة و الكسائي بفتح الياء و ضم الراء مبنيًا للفاعل، و الالتفات من الخطاب إلى الغيبة لتحقيرهم وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ أَيْ: لا يسترضون و يطلب منهم الرجوع إلى طاعة الله؛ لأنه يوم لا تقبل فيه توبه و لا تنفع فيه معذرة فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا يستحق الحمد سواه. قرأ الجمهور «رب» في المواضع الثلاثة بالجرّ على الصفة للاسم الشريف. و قرأ مجاهد و حميد و ابن محيصن بالرفع في الثلاثة على تقدير مبتدأ، أَيْ: هو ربّ السماوات إلخ وَ لَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَيْ: الجلال و العظمة و السلطان، و خصّ السماوات و الأرض لظهور ذلك فيهما وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أَيْ: العزيز في سلطانه. فلا يغالبه مغالب، الحكيم في كل أفعاله و أقواله و جميع أفضيته.

و قد أخرج سعيد بن منصور، و عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، و ابن أبي حاتم، و البيهقي في البعث، عن عبد الله بن باباه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كأنى أراكم بالكوم دون جهنم جاثين، ثم قرأ سفيان وَ تَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً». و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر في قوله: وَ تَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً قَالَ:

كل أمة مع نبيها حتى يجيء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على كوم، قد علا الخلائق، فذلك المقام المحمود. و أخرج ابن



جرير عن ابن عباس فى قوله: هذا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ قال: هو أم الكتاب، فيه أعمال بنى

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٥

آدم إنا كُنَّا نَسْتَسِخُّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ قال: هم الملائكة يستسخون أعمال بنى آدم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه بمعناه مطوّلاً، فقام الرجل فقال: يا ابن عباس، ما كنا نرى هذا تكتبه الملائكة فى كل يوم و ليلة، فقال ابن عباس: إنكم لستم قوما عربا إنا كُنَّا نَسِيتُ نَسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هل يستسخ الشىء إلا من كتاب؟. و أخرج ابن جرير عنه نحوه أيضا. و أخرج ابن جرير عن على أبى طالب: إن لله ملائكة ينزلون فى كل يوم بشىء يكتبون فيه أعمال بنى آدم. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر نحوه ما روى عن ابن عباس.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: يستسخ الحفظه من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم، فإنما يعمل الإنسان ما استسخ الملك من أم الكتاب. و أخرج نحوه الحاكم عنه و صححه. و أخرج الطبرانى عنه أيضا فى الآية قال: إن الله و كمل ملائكته ينسخون من ذلك العام فى رمضان ليلة القدر ما يكون فى الأرض من حدث إلى مثلها من السنة المقبلة، فيتعارضون به حفظه الله على العباد عشية كل خميس، فيجدون ما رفع الحفظه موافقا لما فى كتابهم ذلك، ليس فيه زيادة و لا نقصان. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: اليَوْمَ نُنسأكُمْ كما نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا قال: نترككم. و أخرج ابن أبى شيبه و مسلم و أبو داود و ابن ماجه و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

«يقول الله تبارك و تعالى: الكبرياء ردائى، و العظمة إزارى، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى النار».

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٦

## سورة الأحقاف

### إشارة

و هى مكية. قال القرطبى: فى قول جميعهم. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن الزبير قالوا: نزلت سورة حم الأحقاف مكه. و أخرج ابن الضريس، و الحاكم و صححه، عن ابن مسعود قال: أقرأنى رسول الله صلى الله عليه و سلم سورة الأحقاف و أقرأها آخر، فخالف قراءته، فقلت: من أقرأكها؟ قال: رسول الله صلى الله عليه و سلم، و الله لقد أقرأنى رسول الله صلى الله عليه و سلم غير ذا، فأتينا رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقلت: يا رسول الله ألم تقرئنى كذا و كذا؟ قال: بلى، و قال الآخر: ألم تقرئنى كذا و كذا؟ قال بلى، فتمعر «١» وجه رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقال: «ليقرأ كل واحد منكما ما سمع، فإنما هلك من كان قبلكم بالاختلاف».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١ الى ٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) ما خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونى ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فى السَّمَاوَاتِ ائْتُونى

بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ آثَارِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤)

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩)

قوله: حم- تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم قد تقدم الكلام على هذا في سورة غافر وما بعدها مستوفى، وذكرنا وجه الإعراب، وبيان ما هو الحق؛ من أن فواتح السور من المتشابه الذي يجب أن يوكل علمه إلى من أنزله ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات بأسرها إلا بالحق هو استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: إلا خلقا ملتبسا بالحق الذي تقتضيه المشيئة الإلهية، وقوله: وَأَجَلٌ مُّسَمًّى معطوف على الحق، أي: إلا بالحق، وبأجل مسمى على تقدير مضاف محذوف، أي: تقدير أجل مسمى، وهذا الأجل هو يوم القيامة، فإنها تنتهي فيه السماوات والأرض وما بينهما، وتبدل الأرض

(١). «تمعر الوجه»: تغيير.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٧

غير الأرض والسماوات. وقيل: المراد بالأجل المسمى هو انتهاء أجل كل فرد من أفراد المخلوقات، والأول أولى. وهذا إشارة إلى قيام الساعة وانقضاء مدة الدنيا، وأن الله لم يخلق خلقه باطلا وعبثا لغير شيء، بل خلقه للثواب والعقاب والذين كفروا عما أنذروا معرضون أي: عما أنذروا وخوفوا به في القرآن من البعث والحساب والجزاء معرضون مولون، غير مستعدين له، والجملة في محل نصب على الحال، أي:

والحال أنهم معرضون عنه غير مؤمنين به، و«ما» في قوله: ما أنذروا يجوز أن تكون الموصولة، ويجوز أن تكون المصدرية قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى: أخبروني ما تعبدون من دون الله من الأصنام أروني ما ذا خلقوا من الأرض أَى: أَى شىء خلقوا منها، وقوله: «أروني» يحتمل أن يكون تأكيدا لقوله أ رأيتم، أَى: أخبروني أروني، والمفعول الثاني لأ رأيتم: «ما ذا خلقوا»، ويحتمل أن لا يكون تأكيدا، بل يكون هذا من باب التنازع، لأن أ رأيتم يطلب مفعولا ثانيا، وأروني كذلك أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ «أم» هذه هي المنقطعة المقدرة ببل والهزمة، والمعنى: بل أ لهم شركة مع الله فيها، والاستفهام للتوبيخ والتقريع اتنوني بكتاب من قبيل هذا هذا تبكيت لهم وإظهار لعجزهم وقصورهم عن الإتيان بذلك، والإشارة بقوله هذا إلى القرآن، فإنه قد صرح ببطلان الشرك، وأن الله واحد لا شريك له، وإن الساعة حق لا ريب فيها، فهل للمشركين من كتاب يخالف هذا الكتاب؟ أو حجة تنافي هذه الحجة؟ أو آثارة من علم قال في الصحاح: أو آثارة من علم: بقيه منه، وكذا الأثره بالتحريك. قال ابن قتيبة:

أى: بقيه من علم الأولين. وقال الفراء والمبرد: يعنى ما يؤثر عن كتب الأولين. قال الواحدي: وهو معنى قول المفسرين. قال عطاء: أو شىء تأثرونه عن نبي كان قبل محمد صلى الله عليه وسلم. قال مقاتل: أو روايه من علم عن الأنبياء. وقال الزجاج: أو آثارة، أَى: علامة، والآثارة: مصدر كالمسماحة والشجاعة، وأصل الكلمة من الأثر، وهى الروايه، يقال: أثرت الحديث آثره أثره و آثارة و أثرا؛ إذا ذكرته عن غيرك. قرأ الجمهور:

«آثارة» على المصدر كالمسماحة والغواية. وقرأ ابن عباس وزيد بن على وعكرمة والسلمى والحسن وأبو رجاء بفتح الهزمة والشاء من غير ألف. وقرأ الكسائي «أثره» بضم الهزمة وسكون الشاء إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فى دعواكم التى تدعونها، وهى قولكم: إن

الله شريكا، و لم تأتوا بشيء من ذلك، فتبين بطلان قولهم لقيام البرهان العقلي و النقلى على خلافه. وَ مَنْ أَضَلَّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ أَى: لا أحد أضلّ منه و لا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع، فكيف يطمع فى الإجابة، فضلا عن جلب نفع أو دفع ضرر؟ فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين و أضلّ الضالين، و الاستفهام للتقريع و التوبيخ. و قوله: إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ غَايَةٌ لِعَدَمِ الاستحابة وَ هُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ الضمير الأول للأصنام، و الثانى لعابديها، و المعنى: و الأصنام التى يدعونها عن دعائهم إياها غافلون عن ذلك، لا يسمعون و لا يعقلون لكونهم جمادات، و الجمع فى الضميرين باعتبار معنى من، و أجرى على الأصنام ما هو للعقلاء لاعتقاد المشركين فيها أنها تعقل وَ إِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً أَى: إذا حشر الناس العابدين للأصنام كان الأصنام لهم أعداء، يتبرأ بعضهم من بعض، و يلعن بعضهم بعضا. و قد قيل: إن الله يخلق الحياة فى الأصنام فتكذبهم. و قيل: المراد

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٨

أنها تكذبهم و تعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال. و أما الملائكة و المسيح و عزيز و الشياطين فإنهم يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة؛ كما فى قوله تعالى: تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ «١». وَ كَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ أَى: كان المعبودون بعبادة المشركين إياهم كافرين، أَى: جاحدين مكذبين. و قيل: الضمير فى «كانوا» للعابدين، كما فى قوله: وَ اللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ «٢»، و الأول أولى. وَ إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا أَى: آيات القرآن حال كونهم بيناتٍ واضحات المعانى ظاهرات الدلالات قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ أَى: لأجله و فى شأنه، و هو عبارة عن الآيات لَمَّا جَاءَهُمْ أَى: وقت أن جاءهم هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ أَى: ظاهر السحرية أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ «أم» هى المنقطعة؛ أَى: بل أ يقولون افتراه؟

و الاستفهام للإنكار و التعجب من صنعهم، و بل للانتقال عن تسميتهم الآيات سحرا إلى قولهم: إن رسول الله افترى ما جاء به، و فى ذلك من التوبيخ و التقريع ما لا يخفى. ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم، فقال: قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لى مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أَى: قل إن افتريته على سبيل الفرض و التقدير: كما تدعون، فلا تقدرتون على أن تردوا عنى عقاب الله، فكيف افترى على الله لأجلكم و أنتم لا تقدرتون على دفع عقابه عنى هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ أَى: تخوضون فيه من التكذيب و الإفاضة فى الشيء: الخوض فيه و الاندفاع فيه، يقال: أفاضوا فى الحديث، أَى: اندفعوا فيه، و أفاض البعير: إذا دفع جزته من كرشه، و المعنى:

الله أعلم بما تقولون فى القرآن و تخوضون فيه من التكذيب له و القول بأنه سحر و كهانة كفى به شهيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ فَإِنَّهُ يشهد لى بأن القرآن من عنده و أنى قد بلغتكم، و يشهد عليكم بالتكذيب و الجحود، و فى هذا وعيد شديد وَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ لمن تاب و آمن و صدق بالقرآن و عمل بما فيه، أَى: كثير المغفرة و الرحمة بليغهما قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ الْبَدْعِ مِنْ كُلِّ شَيْءِ الْمَبْدَأِ، أَى: ما أنا بأول رسول، قد بعث الله قبلى كثيرا من الرسل. قيل: البدع بمعنى البديع كالحف و الخفيف، و البديع: ما لم ير له مثل، من الابتداع و هو الاختراع، و شىء بدع بالكسر، أَى: مبتدع، و فلان بدع فى هذا الأمر، أَى: بديع، كذا قال الأخفش، و أنشد قطرب:

فما أنا بدع من حوادث تعترى رجالا غدت من بعد بؤس بأسعد «٣»

و قرأ عكرمة و أبو حيوة و ابن أبى عبله «بدعا» بفتح الدال على تقدير حذف المضاف، أَى: ما كنت ذا بدع، و قرأ مجاهد بفتح الباء و كسر الدال على الوصف. وَ مَا أَدْرى مَا يُفْعَلُ بى وَ لَا بِكُمْ أَى: ما يفعل بى فيما يستقبل من الزمان هل أبقى فى مكة أو أخرج منها؟ و هل أموت أو أقتل؟ و هل تعجل لكم العقوبة أم تمهلون؟ و هذا إنما هو فى الدنيا. و أما فى الآخرة فقد علم أنه و أمته فى الجنة و أن الكافرين فى النار. و قيل:

إن المعنى: ما أدري ما يفعل بي و لا بكم يوم القيامة، و إنها لما نزلت فرح المشركون و قالوا: كيف نتبع نبيا لا يدري ما يفعل به و لا بنا، و أنه لا فضل له علينا؟ فنزل قوله تعالى:

(١). القصص: ٦٣.

(٢). الأنعام: ٢٣.

(٣). البيت لعدي بن زيد.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٩

لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ «١» و الأول أولى. إِنَّ أَتْبَعَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قرأ الجمهور «يُوحَىٰ مبنيا للمفعول، أى: ما أتبع إلا القرآن و لا أبتدع من عندى شيئا، و المعنى: قصر أفعاله صلى الله عليه و سلم على الوحي لا قصر أتباعه على الوحي و ما أنا إلا نذيرٌ مبينٌ أى أنذركم عقاب الله و أخوفكم عذابه على وجه الإيضاح.

و قد أخرج أحمد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ابن عباس أو آثاره من علم قال: الخط. قال سفيان: لا أعلم إلا عن النبي صلى الله عليه و سلم، يعنى أن الحديث مرفوع لا موقوف على ابن عباس. و أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «كان نبي من الأنبياء يخط، فمن صادف مثل خطه علم» و معنى هذا ثابت فى الصحيح، و لأهل العلم فيه تفاسير مختلفة. و من أين لنا أن هذه الخطوط الرملية موافقة لذلك الخط؟ و أين السند الصحيح إلى ذلك النبي؟ أو إلى نبينا صلى الله عليه و سلم أن هذا الخط هو على صورة كذا؟ فليس ما يفعله أهل الرمل إلا جهالات و ضلالات. و أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه و سلم: أو آثاره من علم قال: «حسن الخط». و أخرج الطبراني فى الأوسط و الحاكم من طريق الشعبى عن ابن عباس أو آثاره من علم قال:

خط كان يخطه العرب فى الأرض. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن ابن عباس أو آثاره من علم يقول: بينه من الأمر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عنه فى قوله: قل ما كنتُ بدعاً من الرُّسل يقول: لست بأول الرسل و ما أدري ما يفعل بي و لا بكم فأنزل الله بعد هذا:

لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ «٢» و قوله: لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ «٣» الآية، فأعلم سبحانه نبيه ما يفعل به و بالمؤمنين جميعا. و أخرج أبو داود فى ناسخه عنه أيضا أن هذه الآية منسوخة بقوله: لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ و قد ثبت فى صحيح البخارى و غيره من حديث أم العلاء قالت: «لما مات عثمان بن مظعون قلت: رحمك الله أبا السائب شهادتى عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

و ما يدريك أن الله أكرمه؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه و إنى لأرجو له الخير، و الله ما أدري و أنا رسول الله ما يفعل بي و لا بكم، قالت أم العلاء: فو الله لا أزكى بعده أحدا».

(١). الفتح: ٢.

(٢). الفتح: ٢.

(٣). الفتح: ٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٠

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْ كُنَّا قَدِيمَ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) وَصَوَّبْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى الْوَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)

قوله قُلْ أَرَأَيْتُمْ أَي: أخبروني إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يعني ما يوحى إليه من القرآن، وقيل:

المراد محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمعنى: إِنْ كَانَ مرسلا من عند غير الله، وقوله: وَكَفَرْتُمْ بِهِ فِي محل نصب على الحال بتقدير قد، وكذلك قوله: وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ والمعنى: أخبروني إِنْ كَانَ ذلك في الحقيقة من عند الله، والحال أنكم قد كفرتم به، وشهد شاهد من بنى إسرائيل العالمين بما أنزل الله في التوراة على مثله، أى: القرآن من المعانى الموجودة في التوراة المطابقة له من إثبات التوحيد والبعث والنشور وغير ذلك، وهذه المثلية هي باعتبار تطابق المعانى وإن اختلفت الألفاظ. وقال الجرجاني: مثل صلة: والمعنى:

وشهد شاهد عليه أنه من عند الله، وكذا قال الواحدى. فَأَمَنْ الشاهد بالقرآن لما تبين له أنه من كلام الله ومن جنس ما ينزله على رسله، وهذا الشاهد من بنى إسرائيل هو عبد الله بن سلام كما قال الحسن ومجاهد وقطادة وعكرمة وغيرهم، وفي هذا نظر فإن السورة مكية بالإجماع، وعبد الله بن سلام كان إسلامه بعد الهجرة، فيكون المراد بالشاهد رجلا من أهل الكتاب قد آمن بالقرآن في مكة وصدقه، واختار هذا ابن جرير، وسيأتى فى آخر البحث ما يترجح به أن عبد الله بن سلام، وأن هذه الآية مدنية لا مكية. وروى عن مسروق أن المراد بالرجل موسى عليه السلام. وقوله: وَاسْتَكْبَرْتُمْ معطوف على شهد، أى: آمن الشاهد واستكبرتم أنتم عن الإيمان إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فحرمهم الله سبحانه الهداية لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان، ومن فقد هداية الله له ضل.

وقد اختلف فى جواب الشرط ماذا هو؟ فقال الزجاج: محذوف تقديره أؤمنون، وقيل: قوله: فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ محذوف بتقديره: فقد ظلمتم؛ لدلالة إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ عليه، أى: تقديره: فمن أضل منكم، كما فى قوله: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ «١» الآية.

وقال أبو على الفارسي: تقديره: أؤمنون عقوبة الله، وقيل: التقدير: أستم ظالمين. ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من أقوالهم الباطلة فقال: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَي: لأجلهم، ويجوز أن تكون هذه اللام هى لام التبليغ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ أى: لو كان ما جاء به محمد من القرآن والنبوة خيرا ما سبقونا إليه لأنهم عند أنفسهم المستحقون للسبق إلى كل مكرمة، ولم يعلموا أن الله سبحانه يختص برحمته من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويصطفى لدينه من يشاء وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ

أى: بالقرآن، وقيل: بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقيل: بالإيمان فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْ كُنَّا قَدِيمًا فجاوزوا نفى خيريه القرآن إلى دعوى أنه كذب قديم، كما قالوا: أساطير الأولين، والعامل في «إذ» مقدر، أى: ظهر عنادهم، ولا يجوز أن يعمل فيه «فسيقولون» لتضاد الزمانين، أعنى المضى والاستقبال ولأجل الفاء أيضا، وقيل:

إن العامل فيه فعل مقدر من جنس المذكور، أى: لم يهتدوا به، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون. وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَىٰ قَرَأَ الْجُمُورُ بِكُسر الميم من «من» على أنها حرف جرّ، وهى مع مجرورها خبر مقدم، وكتاب موسى مبتدأ مؤخر، والجملة فى محل نصب على الحال، أو هى مستأنفة، والكلام مسوق لردّ قولهم:

هذا إِنْ كُنَّا قَدِيمًا فَإِنْ كونه قد تقدّم القرآن كتاب موسى، وهى التوراة، وتوافقا فى أصول الشرائع، يدلّ على أنه حقّ وأنه من عند الله، ويقتضى بطلان قولهم. وقرئ بفتح ميم «من» على أنها موصولة ونصب كتاب، أى: وآتينا من قبله كتاب موسى، ورويت هذه القراءة عن الكلبى إماماً وَرَحْمَةً أَى: يقتدى به فى الدين ورحمة من الله لمن آمن به، وهما منتصبان على الحال. قاله الزجاج وغيره. وقال الأخفش على القطع، وقال أبو عبيدة: أى: جعلناه إماماً ورحمةً وَ هَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ قَبْلَهُ، فإنه مصدق لكتاب موسى الذى هو إمام ورحمة ولغيره من كتب الله، وقيل: مصدق للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانتصاب لساناً عَزِيْزًا عَلَى الْحَالِ الْمُوْطِئَةِ وَصَاحِبَهَا الضمير فى «مصدق» العائد إلى «كتاب»، وجوز أبو البقاء أن يكون مفعولاً لمصدق، والأول أولى، وقيل: هو على حذف مضاف، أى: ذا لسان عربى، وهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَرَأَ الْجُمُورُ: «لينذر» بالتحية على أن فاعله ضمير يرجع إلى الكتاب، أى:

لينذر الكتاب الذين ظلموا، وقيل: الضمير راجع إلى الله، وقيل: إلى الرسول، والأول أولى. وقرأ نافع وابن عامر والبرزى بالفوقية على أن فاعله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد. وقوله: وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ فى محل نصب عطفا على محل «لينذر». وقال الزجاج: الأجود أن يكون فى محل رفع، أى:

وهو بشرى، وقيل: على المصدرية لفعل محذوف، أى: وتبشر بشرى، وقوله: «للمحسنين» متعلق ببشرى إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا أَى: جمعوا بين التوحيد والاستقامة على الشريعة، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة السجدة فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَأَلَمٌ لَّا يَصْحَبُهَا أَى: لا يخافون من وقوع مكروه بهم، ولا يحزنون من فوات محبوب، وأن ذلك مستمر دائم أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَى: أولئك الموصوفون بما ذكر أصحاب الجنة التى هى دار المؤمنين حال كونهم خالدين فيها وفى هذه الآية من الترغيب أمر عظيم، فإن نفى الخوف والحزن على الدوام والاستقرار فى الجنة على الأبد مما لا تطلب الأنفس سواه، ولا تتشوّف إلى ما عداه جزاءً بما كانوا يَعْمَلُونَ أَى: يجزون جزاء بسبب أعمالهم التى عملوها من الطاعات لله وترك معاصيه ووصينا الإنسان بوالديه حسناً قرأ الجمهور حسناً بضم الحاء وسكون السين. وقرأ على والسلمى بفتحهما. وقرأ ابن عباس والكوفيون «إحساناً» وقد تقدم فى سورة العنكبوت وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا مِنْ غَيْرِ اخْتِلَافٍ بَيْنَ الْقُرْآنِ، وَتَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَ سُوْرَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا فَلَعَلَّ هَذَا هُوَ

وجه اختلاف القراء فى هذه الآية، وعلى جميع هذه القراءات فانتصابه على المصدرية، أى: وصيّناه أن يحسن إليهما حسناً، أو إحساناً، وقيل: على أنه مفعول به بتضمين وصينا معنى ألزمتنا، وقيل: على أنه مفعول له حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا قَرَأَ الْجُمُورُ «كرها» فى الموضعين بضم الكاف. وقرأ أبو عمرو وأهل الحجاز بفتحهما. قال الكسائى: وهما لغتان بمعنى واحد. قال أبو حاتم: الكره بالفتح لا يحسن لأنه الغضب والغلبة، واختار أبو عبيدة قراءة الفتح قال: لأن لفظ الكره فى القرآن كله بالفتح

إلا- التي فى سورة البقرة كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ «١» وقيل: إن الكره بالضم ما حمل الإنسان على نفسه، و بالفتح ما حمل على غيره. و إنما ذكر سبحانه حمل الأمّ و وضعها تأكيداً لوجوب الإحسان إليها الذى وصّى الله به، و المعنى: أنها حملته ذات كره و وضعته ذات كره. ثم بيّن سبحانه مدّة حملها و فصالة فقال: وَ حَمْلُهُ وَ فَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا أَى: مدتّهما هذه المدّة من عند ابتداء حملها إلى أن يفصل من الرضاع، أى: يفظم عنه، و قد استدللّ بهذه الآية على أن أقلّ الحمل ستّة أشهر؛ لأنّ مدّة الرضاع سنتان، أى: مدّة الرضاع الكامل، كما فى قوله: حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّمَ الرِّضَاعَةَ «٢» فذكر سبحانه فى هذه الآية أقلّ مدّة الحمل، و أكثر مدّة الرضاع. و فى هذه الآية إشارة إلى أن حقّ الأمّ أكد من حقّ الأب لأنها حملته بمشقة و وضعته بمشقة، و أرضعته هذه المدّة بتعب و نصب و لم يشاركها الأب فى شىء من ذلك. قرأ الجمهور «و فصالة» بالألف، و قرأ الحسن و يعقوب و قتادة و الجحدري «و فصله» بفتح الفاء و سكون الصاد بغير ألف، و الفصل و الفصال بمعنى؛ كالفظم و الفطام و القطف و القطاف حتّى إذا بلغ أشدّه أى: بلغ استحكام قوّته و عقله، و قد مضى تحقيق الأشدّ مستوفى. و لا بدّ من تقدير جملة تكون حتى غاية لها أى: عاش و استمرت حياته حتى بلغ أشدّه، قيل: بلغ عمره ثمانى عشرة سنة، و قيل: الأشدّ: الحلم، قاله الشعبى و ابن زيد. و قال الحسن:

هو بلوغ الأربعين، و الأوّل أولى لقوله: وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سِنَةً فَإِن هَذَا يَفِيدُ أَنَّ بُلُوغَ الْأَرْبَعِينَ هُوَ شَىءٌ وَرَاءَ بُلُوغِ الْأَشَدِّ. قال المفسرون: لم يبعث الله نبيا قط إلا بعد أربعين سنة قال ربّ أوزعنى أى:

ألهمنى. قال الجوهرى: استوزعت الله فأوزعنى؛ أى: استلهمته فألهمنى أن أشكر نعمتك الّتى أنعمت علىّ و علىّ والدّى أى: ألهمنى شكر ما أنعمت به علىّ من الهداية، و على والدّى من التحنن علىّ منهما حين ريبانى صغيرا. و قيل: أنعمت علىّ بالصحة و العافية، و على والدّى بالغنى و الثروة، و الأولى عدم تقييد النعمة عليه و على أبويه بنعمة مخصوصة و أن أعمل صالحاً ترضاه أى: و ألهمنى أن أعمل عملاً صالحاً ترضاه منى و أصلح لى فى ذرّيتى أى: اجعل ذريتى صالحين راسخين فى الصلاح متمكّنين منه.

و فى هذه الآية دليل على أنه ينبغي لمن بلغ عمره أربعين سنة أن يستكثر من هذه الدعوات، و قد روى أنها نزلت فى أبى بكر كما سيأتى فى آخر البحث إنى تُبْتُ إِلَيْكَ من ذنوبى و إنى مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى: المستسلمين لك المنقادين لطاعتك المخلصين لتوحيدك، و الإشارة بقوله: أُولَئِكَ إِلَى الْإِنْسَانِ الْمَذْكُورِ، و الجمع لأنه

(١). البقرة: ٢١٦.

(٢). البقرة: ٢٣٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٣

يراد به الجنس و هو مبتدأ، و خبره: الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا من أعمال الخير فى الدنيا، و المراد بالأحسن الحسن، كقوله: وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ «١» و قيل: إن اسم التفضيل على معناه، و يراد به ما يثاب العبد عليه من الأعمال، لا ما لا يثاب عليه كالمباح فإنه حسن و ليس بأحسن و نتجاوز عن سيئاتهم فلا نعاقبهم عليها. قرأ الجمهور: «يتقبل و يتجاوز» على بناء الفعلين للمفعول. و قرأ حمزة و الكسائى بالنون فيهما على إسنادهما إلى الله سبحانه، و التجاوز: الغفران، و أصله من جرت الشىء؛ إذا لم تقف عليه، و معنى فى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أنهم كائنون فى عدادهم منتظمون فى سلوكهم، فالجاء و المجرور فى محل النصب على الحال، كقولك: أكرمنى الأمير فى أصحابه، أى: كائنا فى جملتهم، و قيل: إن فى بمعنى مع، أى: مع أصحاب الجنة، و قيل: إنهما خبر مبتدأ محذوف، أى: هم فى أصحاب الجنة وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ وعد الصدق مصدر مؤكّد

لمضمون الجملة السابقة، لأن قوله: أَوْلَيْكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ إِيخ في معنى الوعد بالتقبل و التجاوز، و يجوز أن يكون مصدرا لفعل محذوف، أى:

وعدهم الله وعد الصدق الذى كانوا يوعدون به على ألسن الرسل فى الدنيا.

و قد أخرج أبو يعلى و ابن جرير و الطبرانى، و الحاكم و صححه، عن عوف بن مالك الأشجعى قال: انطلق النبى صلى الله عليه و سلم و أنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه و سلم: «يا معشر اليهود أرونى اثنى عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله يحط الله تعالى عن كل يهودى تحت أديم السماء الغضب الذى عليه، فسكتوا؛ فما أجابه منهم أحد، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد ثلاثا، فقال: أبيتم فو الله لأنا الحاشر، و أنا العاقب، و أنا المقفى آمنتكم أو كذبتكم»، ثم انصرف و أنا معه حتى كدنا أن نخرج، فإذا رجل من خلفه فقال: كما أنت يا محمد فأقبل، فقال ذلك الرجل: أى رجل تعلمونى فيكم يا معشر اليهود، فقالوا: و الله ما نعلم فىنا رجلا أعلم بكتاب الله و لا أفقه منك و لا من أبيك و لا من جدك، قال: فإنى أشهد بالله أنه النبى الذى تجدونه مكتوبا فى التوراة و الإنجيل، قالوا: كذبت، ثم ردوا عليه و قالوا شرا، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «كذبتم لن يقبل منكم قولكم»، فخرجنا و نحن ثلاثة، رسول الله صلى الله عليه و سلم و أنا و ابن سلام، فأنزل الله: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَهٌ إِلَى قَوْلِهِ: لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ و صححه السيوطى. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، و فيه نزلت:

وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ و أخرج الترمذى و ابن جرير و ابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال: نزل فى آيات من كتاب الله نزلت فى: وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ و نزل فى: قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ «٢». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قال: عبد الله بن سلام، و قد روى نحو هذا عن جماعة

(١). الزمر: ٥٥.

(٢). الرعد: ٤٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٤

من التابعين. و فيه دليل على أن هذه الآية مدنية فيخصص بها عموم قولهم إن سورة الأحقاف كلها مكية.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة قال: قال ناس من المشركين نحن أعزّ و نحن و نحن، فلو كان خيرا ما سبقنا إليه فلان و فلان، فنزل وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ

و أخرج ابن المنذر عن عون بن أبى شداد قال: كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله: يقال لها زنييرة، و كان عمر يضربها على الإسلام، و كان كفار قريش يقولون: لو كان خيرا ما سبقنا إليه زنييرة، فأنزل الله فى شأنها وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْآيَةَ. و أخرج الطبرانى عن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «بنو غفار و أسلم كانوا لكثير من الناس فتنه، يقولون لو كان خيرا ما جعلهم الله أول الناس فيه».

و أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزل قوله: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ الْآيَةَ إِلَى قَوْلِهِ: وَ عَدَّ الصُّدُقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ فى أبى بكر الصديق. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن نافع بن جبيرة أن ابن عباس أخبره قال: إني لصاحب المرأة التى أتى بها عمر التى وضعت لسته أشهر، فأنكر الناس ذلك. فقلت لعمر: لم تظلم؟ قال: كيف؟ قلت: اقرأ: وَ



حَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ «١» كم الحول؟ قال: سنة، قلت: كم السنة؟ قال: اثنا عشر شهرا، قلت: فأربعه و عشرون شهرا حولان كاملان، و يؤخر الله من الحمل ما شاء و يقدم ما شاء، فاستراح عمر إلى قولى. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن أبي حاتم عنه أنه كان يقول: إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد و عشرون شهرا، و إذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة و عشرون شهرا، و إذا وضعت لسته أشهر فحولان كاملان؛ لأن الله يقول: وَ حَمَلُهُ وَ فِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: أنزلت هذه الآية في أبى بكر الصديق حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سِنَهُ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي الْآيَةَ، فاستجاب الله له، فأسلم والده جميعا و إخوته و ولده كلهم، و نزلت فيه أيضا: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى «٢» إلى آخر السورة.

### [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١٧ الى ٢٠]

وَ الَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفٌّ لَكُمْ أَ تَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَ هُمَا يَسْتَتِعِيَانِ اللَّهَ وَ يُلْكُكَ آمِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أَوْلَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُؤْفِقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذَهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)

لما ذكر سبحانه من شكر نعمته الله سبحانه عليه و على والديه ذكر من قال لهما قولاً يدل على التضجر

(١). البقرة: ٢٣٣.

(٢). الليل: ٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٥

منهما عند دعوتهما له إلى الإيمان، فقال: وَ الَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفٌّ لَكُمْ الموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول، و لهذا أخبر عنه بالجمع، و «أف» كلمة تصدر عن قائلها عند تضجره من شيء يرد عليه. قرأ نافع و حفص أف بكسر الفاء مع التنوين. و قرأ ابن كثير و ابن عامر و ابن محيصن بفتحها من غير تنوين، و قرأ الباقون بكسر من غير تنوين، و هى لغات، و قد مضى بيان الكلام فى هذا فى سورة بنى إسرائيل، و اللام فى قوله: لَكُمْ لبيان التأنيف، أى: التأنيف لكما، كما فى قوله: هَيْتَ لَكَ «١» قرأ الجمهور: أَ تَعِدَانِي بنونين مخففتين، و فتح ياءه أهل المدينة و مكة و أسكنها الباقون. و قرأ أبو حيوة و المغيرة و هشام بإدغام إحدى النونين فى الأخرى، و رويت هذه القراءة عن نافع. و قرأ الحسن و شيبه و أبو جعفر و عبد الوارث عن أبى عمرو بفتح النون الأولى، كأنهم فزوا من توالى مثلين مكسورين. و قرأ الجمهور:

أَنْ أُخْرَجَ بضم الهمزة و فتح الراء مبنيا للمفعول. و قرأ الحسن و نصر و أبو العالیه و الأعمش و أبو معمر بفتح الهمزة و ضم الراء مبنيا للفاعل. و المعنى: أَ تَعِدَانِي أَنْ أبعث بعد الموت، و جملة: وَ قَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أن قد مضت القرون من قبلى فماتوا و لم يبعث منهم أحد، و هكذا جملة: وَ هُمَا يَسْتَتِعِيَانِ اللَّهَ فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أنهما يستغيطان الله له، و يطلبان منه التوفيق إلى الإيمان، و استغاث يتعدى بنفسه و بالباء، يقال: استغاث الله و استغاث به. و قال الرازى:

معناه يستغيطان بالله من كفره، فلما حذف الجار وصل الفعل، و قيل: الاستغاثه الدعاء، فلا حاجة إلى الباء.

قال الفرّاء: يقال أجاز الله دعاءه و غواثه، و قوله: وَ يَلِكُ هُوَ بِتَقْدِيرِ الْقَوْلِ، أَى: يَقُولَانِ لَهُ وَيَلِكُ، و ليس المراد به الدعاء فيه، بل الحث له على الإيمان، و لهذا قالوا: له: آمِنِ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أَى: آمِنِ بِالْبَعْثِ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا لَا خَلْفَ فِيهِ فَيَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ مَكْذَبًا لِمَا قَالَاهُ: مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَى: مَا هَذَا الْعَدَى تَقُولَانِهِ مِنَ الْبَعْثِ إِلَّا أَحَادِيثَ الْأَوَّلِينَ و أَبَاطِيلَهُمُ الَّتِي سَطَّرُوها فِي الْكِتَابِ. قرأ الجمهور:

«إِنْ وَعَدَ اللَّهُ» بكسر إن على الاستئناف أو التعليل، و قرأ عمر بن فائد و الأعرج بفتحها على أنها معموله لآمن بتقدير الباء. أَى: آمِنِ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ بِالْبَعْثِ حَقٌّ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ أَى: أَوْلَيْكَ الْقَائِلُونَ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ هُمُ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ، أَى: وَجِبَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ لِإِبْلِيسَ: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ كَمَا يَفِيدُهُ قَوْلُهُ: فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ وَ جَمَلُهُ إِتْنَهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ «٢» تعليل لما قبله، و هذا يدفع كون سبب نزول الآية عبد الرحمن بن أبى بكر، و أنه العدى قال لوالديه ما قال، فإنه من أفضل المؤمنين، و ليس ممن حقت عليه كلمة العذاب، و سيأتى بيان سبب النزول فى آخر البحث إن شاء الله وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا أَى: لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنَ الْفَرِيقِينَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْكَافِرِينَ مِنَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ مَرَاتِبَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَعْمَالِهِمْ. قال ابن زيد: درجات أهل النار فى هذه الآية تذهب سفلا، و درجات أهل الجنة تذهب علواً وَ يُؤَيِّفُهُمْ أَعْمَالُهُمْ أَى: جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ. قرأ

(١). يوسف: ٢٣.

(٢). ص: ٨٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٦

الجمهور: لنوفيهم بالنون، و قرأ ابن كثير و ابن محيصن و عاصم و أبو عمرو و يعقوب بالياء التحتية. و اختار أبو عبيد القراءة الأولى، و اختار الثانية أبو حاتم وَ هُمْ لَا يُظَلَّمُونَ أَى: لَا يَزَادُ مَسِيءٌ وَ لَا يَنْقُصُ مَحْسَنٌ، بل يوفى كل فريق ما يستحقه من خير و شرّ، و الجملة فى محل نصب على الحال، أو مستأنفة مقررّة لما قبلها وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ الظرف متعلق بمحذوف، أَى: اذكر لهم يا محمد يوم ينكشف الغطاء فينظرون إلى النار و يقربون منها، و قيل: معنى يعرضون يعذبون، من قولهم: عرضه على السيف، و قيل: فى الكلام قلب. و المعنى: تعرض النار عليهم. أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا أَى: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ، و قيل: و هذا المقدر هو الناصب للظرف، و الأول أولى. قرأ الجمهور: أَذْهَبْتُمْ بهمزة واحدة، و قرأ الحسن و نصر أبو العالية و يعقوب و ابن كثير بهمزتين مخففتين، و معنى الاستفهام التفرّيع و التوبيخ. قال الفرّاء و الزجاج: العرب توبخ بالاستفهام و بغيره، فالتوبيخ كائن على القراءة تين. قال الكلبي:

المراد بالطيبات اللذات و ما كانوا فيه من المعاش و استمتعتهم بها أَى: بالطيبات، و المعنى: أنهم اتبعوا الشهوات و اللذات التى فى معاصى الله سبحانه، و لم يبالوا بالذنب تكذيباً منهم لما جاءت به الرّسل من الوعد بالحساب و العقاب و الثواب فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ أَى: الْعَذَابُ الْعَدَى فِيهِ ذَلٌّ لَكُمْ وَ خَزَى عَلَيْكُمْ. قال مجاهد و قتادة: الهون الهوان بلغه قریش بما كُتِبَتْمْ تَشْتَكِبُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أَى:

بسبب تكبركم عن عبادة الله و الإيمان به و توحيده وَ بِمَا كُنتُمْ تَفْسِقُونَ أَى: تَخْرُجُونَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَ تَعْمَلُونَ بِمَعَاصِيهِ، فجعل السبب فى عذابهم أمرين: التكبر عن اتباع الحقّ، و العمل بمعاصى الله سبحانه و تعالى، و هذا شأن الكفرة فإنهم قد جمعوا بينهما.

و قد أخرج البخارى عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبى سفيان، فخطب فجعل يذكر

يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا أنزل فيه وَ الَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن؛ إلا أن الله أنزل عذري.

و أخرج عبد بن حميد و النسائي و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن محمد بن زياد قال:

لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سنه أبي بكر و عمر، فقال عبد الرحمن: سنه هرقل و قيصر، فقال مروان:

هذا الذي قال الله فيه: وَ الَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْ الْآيَةَ، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان و الله ما هو به، و لو شئت أن أسمى الذي نزلت فيه لسميتاه، و لكن رسول الله صلى الله عليه و سلم لعن أبا مروان و مروان في صلبه، فمروان من لعنه الله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: هذا ابن لأبي بكر. و أخرج نحوه أبو حاتم عن السدي، و لا يصح هذا كما قدمنا.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٧

### [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ٢١ إلى ٢٨]

وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَ جِئْنَا لِنُؤْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)

وَ لَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَا أَبْصَارُهُمْ وَ لَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَ صَيَّرْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْ لَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذَلِكَ إِنْكُفُّهُمْ وَ مَا كَانُوا يَنْفَتِرُونَ (٢٨)

قوله: وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ أَى: و اذكر يا محمد لقومك أخا عاد، و هو هود بن عبد الله بن رباح، كان أخاهم فى النسب، لا فى الدين، و قوله: إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بَدَلِ اسْتِمَالِ مِنْهُ، أَى: وقت إنذاره إياهم بِالْأَحْقَافِ و هى ديار عاد، جمع حقف، و هو الرمل العظيم المستطيل المعوج، قاله الخليل و غيره، و كانوا قهروا أهل الأرض بقوتهم. و المعنى أن الله سبحانه أمره أن يذكر لقومه قصتهم ليتعظوا و يخافوا، و قيل: أمره بأن يتذكر فى نفسه قصيتهم مع هود ليقتردى به، و يهون عليه تكذيب قومه. قال عطاء: الأحقاف: رمال بلاد الشحر. و قال مقاتل: هى باليمن فى حضر موت. و قال ابن زيد: هى رمال مبسوطة مستطيلة كهية الجبال، و لم تبلغ أن تكون جبالا وَ قَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَى: و قد مضت الرسل من قبله و من بعده، كذا قال الفراء و غيره. و فى قراءة ابن مسعود «من بين يديه و من بعده». و الجملة فى محل نصب على الحال، و يجوز أن تكون معترضة بين إنذار هود و بين قوله لقومه: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ وَ الْأَوَّلِ أُولَى. و المعنى: أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله و الذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره، ثم رجع إلى كلام هود لقومه، فقال حاكيا عنه: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ و قيل: إن جعل تلك الجملة اعتراضية أولى بالمقام و أوفق بالمعنى قالوا أَ جِئْنَا لِنُؤْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا أَى: لتصرفنا عن عبادتها، و قيل: لتزيلنا، و قيل: لتمنعنا، و المعنى متقارب، و منه قول عروة بن أذينة:

إن تلك عن أحسن الصنيعه «١» مأفوكا ففى آخرين قد أفكوا

يقول: إن لم توفق للإحسان فأنت فى قوم قد صرفوا عن ذلك فَأَتِنَا بِمَا تَعَدُّنَا مِنَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ فى وعدك لنا به قال إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ أَى: إنما العلم بوقت مجيئه عند

(١). الذى فى اللسان: المروءة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٨

الله لا عندى وَ أْبْلَغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنَ الْإِنذَارِ وَالْإِعْذَارِ، فَأَمَّا الْعِلْمُ بِوَقْتِ مَجِيءِ الْعَذَابِ فَمَا أَوْحَاهُ إِلَيَّ وَ لَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ حَيْثُ بَقِيتُمْ مَصْرِينَ عَلَى كُفْرِكُمْ، وَ لَمْ تَهْتَدُوا بِمَا جِئْتُمْ بِهِ، بَلِ اقْتَرَحْتُمْ عَلَيَّ مَا لَيْسَ مِنْ وِظَائِفِ الرِّسْلِ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إِلَى «مَا» فِي قَوْلِهِ «بِمَا تَعَدْنَا». وَ قَالَ الْمَبْرَدُ وَالزَّجَّاجُ: الضَّمِيرُ فِي رَأْوُهُ يَعُودُ إِلَى غَيْرِ مَذْكَورٍ، وَ بَيْنَهُ قَوْلُهُ: عَارِضًا، فَالضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى السَّحَابِ، أَيْ: فَلَمَّا رَأَوْا السَّحَابَ عَارِضًا، فَعَارِضًا نَصَبَ عَلَى التَّكْرِيرِ، يَعْنِي التَّفْسِيرَ، وَ سَمَّى السَّحَابَ عَارِضًا لِأَنَّهُ يَبْدُو فِي عَرْضِ السَّمَاءِ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الْعَارِضُ: السَّحَابُ يَعْتَرِضُ فِي الْأَفْقِ، وَ مِنْهُ قَوْلُهُ: هَذَا عَارِضٌ مُمَطِّرُنَا وَ انْتِصَابَ عَارِضًا عَلَى الْحَالِ أَوْ التَّمْيِيزِ مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ أَيْ:

متوجها نحو أوديتهم. قال المفسرون: كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياما، فساق الله إليهم سحابة سوداء، فخرجت عليهم من واد لهم يقال له: المعتب، فلما رأوه مستقبل أوديتهم استبشروا، وقالوا هذا عارضٌ ممطرنا أى: غيم فيه مطر، و قوله: مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ صفةٌ لعارض لأن إضافته لفظية لا معنوية، فصح وصف النكرة به، و هكذا ممطرنا، فلما قالوا ذلك أجاب عليهم هود، فقال: بَلْ هُوَ مَا اسْتَجَلْتُمْ بِهِ يَعْنِي مِنَ الْعَذَابِ حَيْثُ قَالُوا: فَأَتَيْنَا بِمَا تَعَدْنَا وَ قَوْلُهُ: رِيحٌ بَدَلٌ مِنْ مَا، أَوْ خَبْرٌ مَبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، وَ جَمَلَةٌ فِيهَا عِيَابٌ أَلِيمٌ صفةٌ لريح، و الريح التى عذبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذى رأوه تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا هَذِهِ الْجَمَلَةُ صفةٌ ثانية لريح، أى: تهلك كل شىء مرّت به من نفوس عاد و أموالها، و التدمير: الإهلاك، و كذا الدمار، و قرئ يدمر بالتحية مفتوحة و سكون الدال و ضم الميم و رفع كل على الفاعلية من دمر دمارا. و معنى بِأَمْرِ رَبِّهَا أَنْ ذَلِكَ بِقَضَائِهِ وَ قَدْرِهِ فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ أَيْ: لَا تَرَى أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ أَوْ كُلٌّ مِنْ يَصْلِحُ لِلرُّؤْيَةِ إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ بَعْدَ ذَهَابِ أَنْفُسِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ. قَرَأَ الْجُمْهُورُ لَا تَرَى بِالْفَوْقِيَّةِ عَلَى الْخَطَابِ، وَ نَصَبَ مَسَاكِنَهُمْ. وَ قَرَأَ حَمَزَةً وَ عَاصِمٌ بِالتَّحِيَّةِ مضمومة مبنيا للمفعول و رفع «مساكنهم». قال سيبويه: معناه لا يرى أشخاصهم إلا مساكنهم، و اختار أبو عبيد و أبو حاتم القراءة الثانية. قال الكسائى و الزجاج: معناها لا يرى شىء إلا مساكنهم فهى محمولة على المعنى، كما تقول: ما قام إلا هند، و المعنى: ما قام أحد إلا هند، و فى الكلام حذف، و التقدير: فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ أَيْ: مِثْلَ ذَلِكَ الْجَزَاءِ نَجْزِي هَؤُلَاءِ، وَ قَدْ مَرَّ بَيَانُ هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ قَالَ الْمَبْرَدُ:

«مَا» فِي قَوْلِهِ فِيمَا بِمَنْزِلَةِ الَّذِي وَ إِنْ بِمَنْزِلَةِ مَا: يَعْنِي النَّافِيَةَ، وَ تَقْدِيرُهُ: وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الَّذِي مَا مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ مِنَ الْمَالِ وَ طَوْلِ الْعَمْرِ وَ قُوَّةِ الْأَبْدَانِ، وَ قِيلَ: إِنْ زَائِدَةٌ، وَ تَقْدِيرُهُ: وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِيمَا مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ، وَ بِهِ قَالَ الْقَتَبِيُّ، وَ مِثْلُهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ «١»:

فَمَا إِنْ طَبْنَا «٢» جِبْنَ وَ لَكِنْ مَنَائِيَا وَ دَوْلَةَ آخِرِينَا

(١). هو فروة بن مسيكة المرادى.

(٢). «الطب»: الشان و العادة و الشهوة و الإرادة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٩

و الأول أولى، لأنه أبلغ فى التوبيخ لكفار قريش و أمثالهم وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً أَيْ:

إنهم أعرضوا عن قبول الحجّة و التذکر مع ما أعطاهم الله من الحواس التى تدرك بها الأدلة، و لهذا قال:

فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَا أَبْصَارُهُمْ وَ لَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ أَيْ: فَمَا نَفَعَهُمْ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ حَيْثُ لَمْ يَتَوَصَّلُوا بِهِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَ صَحَّةِ الْوَعْدِ وَ الْوَعِيدِ، وَ قَدْ قَدَّمْنَا مِنَ الْكَلَامِ عَلَى وَجْهِ إِفْرَادِ السَّمْعِ وَ جَمْعِ الْبَصْرِ مَا يَغْنَى عَنِ الْإِعَادَةِ، وَ «مِنْ» فِي مَنْ

شَيْءٍ زَائِدَةٌ، وَ التَّقْدِيرُ: فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ شَيْئًا مِنَ الْإِغْنَاءِ وَ لَا- نَفَعَهُمْ بُوْجِهٍ مِنْ وَجْهِ النَّفْعِ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ الظَّرْفِ مُتَعَلِّقٌ بِأَغْنَى، وَ فِيهَا مَعْنَى التَّعْلِيلِ، أَيْ: لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْحَدُونَ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ أَيْ: أَحَاطَ بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي كَانُوا يَسْتَعْجِلُونَهُ بِطَرِيقِ الْاسْتَهْزَاءِ حَيْثُ قَالُوا: فَأَتَيْنَا بِمَا تَعَدُّنَا. وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى الْخَطَابُ لِأَهْلِ مَكَّةَ، وَ الْمُرَادُ بِمَا حَوْلَهُمْ مِنَ الْقُرَى قُرَى ثَمُودَ، وَ قُرَى لُوطَ، وَ نَحْوَهُمَا مِمَّا كَانَ مَجَاوِرًا لِبِلَادِ الْحِجَازِ، وَ كَانَتْ أَخْبَارُهُمْ مُتَوَاتِرَةً عِنْدَهُمْ وَ صَيَّرْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أَيْ: بَيْنَا الْحِجَجِ وَ نَوَّعْنَاهَا لِكَيْ يَرْجِعُوا عَنْ كُفْرِهِمْ فَلَمْ يَرْجِعُوا. ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَمْ يَنْصِرْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ نَاصِرٌ فَقَالَ: فَلَوْ لَا- نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً أَيْ: فَهَلَّا نَصَرَهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي تَقَرَّبُوا بِهَا بِزَعْمِهِمْ إِلَى اللَّهِ لِتَشْفَعَ لَهُمْ، حَيْثُ قَالُوا: هُوَ لَا شُفْعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ وَ مَنَعْتَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ الْوَاقِعِ بِهِمْ.

قَالَ الْكَسَائِيُّ: الْقُرْبَانُ: كُلُّ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ مِنْ طَاعَةٍ وَ نَسِيكَةٍ، وَ الْجَمْعُ قُرَابِينُ، كَالزَّهْبَانِ وَ الرَّهَابِينِ، وَ أَحَدُ مَفْعُولِي «اتَّخَذُوا» ضَمِيرٌ رَاجِعٌ إِلَى الْمَوْصُولِ، وَ الثَّانِي آلِهَةٌ، وَ قُرْبَانًا حَالٌ، وَ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ قُرْبَانًا مَفْعُولًا ثَانِيًا، وَ آلِهَةٌ بَدَلًا مِنْهُ لِفَسَادِ الْمَعْنَى، وَ قِيلَ: يَصِحُّ ذَلِكَ وَ لَا يَفْسُدُ الْمَعْنَى، وَ رَجَّحَهُ ابْنُ عَطِيَّةَ وَ أَبُو الْبَقَاءِ وَ أَبُو حَيَّانَ، وَ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ فِي الْمَعْنَى فِسَادٌ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ أَيْ: غَابُوا عَنْ نَصْرِهِمْ وَ لَمْ يَحْضُرُوا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ، وَ قِيلَ: بَلْ هَلَكُوا، وَ قِيلَ: الضَّمِيرُ فِي «ضَلُّوا» رَاجِعٌ إِلَى الْكُفَّارِ، أَيْ: تَرَكُوا الْأَصْنَامَ وَ تَبَرَّؤُوا مِنْهَا، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى، وَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: وَ ذَلِكَ إِلَى ضَلَالِ آلِهَتِهِمْ. وَ الْمَعْنَى:

وَ ذَلِكَ الضَّلَالِ وَ الضِّيَاعِ أَثَرِ إِفْكِهِمُ الَّذِي هُوَ اتِّخَاذُهُمْ إِيَّاهَا آلِهَةً وَ زَعْمُهُمْ أَنَّهَا تَقْرِبُهُمْ إِلَى اللَّهِ.

قَرَأَ الْجُمْهُورُ: إِفْكُهُمْ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَ سَكُونِ الْفَاءِ مُصَدَّرَ أَفْكَ يَأْفُكُ إِفْكَ، أَيْ: كَذَبَهُمْ. وَ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَ مُجَاهِدٌ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَ الْكَافِ عَلَى أَنَّهُ فَعَلَ، أَيْ: ذَلِكَ الْقَوْلُ صَرَفَهُمْ عَنِ التَّوْحِيدِ.

وَ قَرَأَ عِكْرَمَةُ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَ تَشْدِيدِ الْفَاءِ، أَيْ: صَيَّرَهُمْ آفَكِينَ. قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: يَعْنِي قَلْبَهُمْ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ، وَ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَرَأَ بِالْمَدِّ وَ كَسْرِ الْفَاءِ، بِمَعْنَى صَارْفَهُمْ وَ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ مَعْطُوفٌ عَلَى إِفْكِهِمْ، أَيْ: وَ أَثَرُ افْتِرَائِهِمْ أَوْ أَثَرُ الَّذِي كَانُوا يَفْتَرُونَهُ. وَ الْمَعْنَى: وَ ذَلِكَ إِفْكُهُمْ، أَيْ: كَذَبَهُمُ الَّذِي كَانُوا يَقُولُونَ إِنَّهَا تَقْرِبُهُمْ إِلَى اللَّهِ وَ تَشْفَعُ لَهُمْ وَ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ أَيْ: يَكْذِبُونَ أَنَّهَا آلِهَةٌ.

وَ قَدْ أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْأَحْقَافُ: جَبَلٌ بِالشَّامِ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرَفِ عَنهُ فِي قَوْلِهِ: هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرُنَا قَالَ: هُوَ السَّحَابُ. وَ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَ مُسْلِمٌ وَ غَيْرُهُمَا عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ مُسْتَجْمَعًا ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ

فَتْحُ الْقَدِيرِ، ج ٥، ص: ٣٠

يَتَبَسَّمُ، وَ كَانَ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عَرَفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، النَّاسُ إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرَحُوا أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَ أَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتَ فِي وَجْهِكَ الْكِرَاهِيَةَ، قَالَ: يَا عَائِشَةُ: وَ مَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عَذَّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ وَ قَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ، فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرُنَا».

وَ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَ التِّرْمِذِيُّ وَ النَّسَائِيُّ وَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَ خَيْرَ مَا فِيهَا وَ خَيْرَ مَا أُرْسَلَتْ بِهِ، وَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَ شَرِّ مَا فِيهَا وَ شَرِّ مَا أُرْسَلَتْ بِهِ، فَإِذَا تَخَيَّلْتَ السَّمَاءَ تَغْيِيرَ لَوْنِهِ، وَ خَرَجَ وَ دَخَلَ، وَ أَقْبَلَ وَ أَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ سَرَى عَنْهُ، فَسَأَلْتَهُ فَقَالَ:

لَا أَدْرِي، لَعَلَّهُ كَمَا قَالَ قَوْمٌ عَادَ هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرُنَا». وَ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ «السَّحَابِ»، وَ أَبُو الشَّيْخِ فِي «العِظْمَةِ»، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا: غَيْمٌ فِيهِ مَطَرٌ، فَأَوَّلَ مَا عَرَفُوا أَنَّهُ عَذَابٌ رَأَوْا مَا كَانَ خَارِجًا مِنْ رِجَالِهِمْ وَ مَوَاشِيهِمْ تَطِيرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ مِثْلَ الرِّيشِ دَخَلُوا بِيوتِهِمْ وَ غَلَقُوا أَبْوَابَهُمْ، فَجَاءَتِ الرِّيحُ فَفَتَحَتْ أَبْوَابَهُمْ وَ مَالَتْ

عليهم بالرمل، فكانوا تحت الرمل سبع ليال و ثمانية أيام حسوما لهم أنين، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل و طرحتهم فى البحر، فهو قوله:

فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ وَأَخْرَجَ عَبْدَ بْنَ حَمِيدٍ وَابْنَ جَرِيرٍ، وَالحَاكِمَ وَصَحَّحَهُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى عَادٍ مِنَ الرِّيحِ إِلَّا- قَدَرَ خَاتَمِي هَذَا. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ يَقُولُ: لَمْ نَمَكِّنْكُمْ. وَأَخْرَجَ ابْنَ الْمُنْذِرِ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ أَيْضًا فِي الْآيَةِ قَالَ: عَادٌ مَكَّنُوا فِي الْأَرْضِ أَفْضَلَ مِمَّا مَكَّنْتَ فِيهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ، وَ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَطْوَلَ أَعْمَارًا.

### [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ٢٩ الى ٣٥]

وَ إِذْ صَيَّرْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٣١) وَ مِنْ لَّا- يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْمَآرِضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْمَآرِضِ وَ لَمْ يَعِيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَ رَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعِيَةً مِنْ نَهَارٍ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ (٣٥)

لَمَّا بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّ فِي الْإِنْسِ مِنْ آمِنٍ، وَ فِيهِمْ مِنْ كَفَرٍ، بَيَّنَّ أَيْضًا أَنَّ فِي الْجِنِّ كَذَلِكَ، فَقَالَ: وَ إِذْ صَيَّرْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ الْعَامِلِ فِي الظَّرْفِ مَقْدَرٍ، أَى: وَ اذْكَرْ إِذْ صَرَفْنَا، أَى: وَ جَهْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ وَ بَعَثْنَاهُمْ إِلَيْكَ، وَ قَوْلُهُ: يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فِي مَحَلِّ نَصَبِ صِفَةٍ ثَانِيَةً لِنَفَرٍ أَوْ حَالٍ لِأَنَّ النُّكْرَةَ قَدْ تَخَصَّصَتْ بِالصِّفَةِ الْأُولَى فَلَمَّا حَضَرُوهُ أَى: حَضَرُوا الْقُرْآنَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ، وَ قِيلَ: حَضَرُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣١

وَ يَكُونُ فِي الْكَلَامِ النِّفَاتِ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغِيْبَةِ، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى قَالُوا أَنْصِتُوا أَى: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ اسْكُتُوا، أَمَرُوا بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِذَلِكَ لِأَجْلِ أَنْ يَسْمَعُوا فَلَمَّا قُضِيَ قَرَأَ الْجُمْهُورُ قُضِيَ مَبْنِيًا لِلْمَفْعُولِ؛ أَى: فَرَّغَ مِنْ تِلَاوَتِهِ. وَ قَرَأَ حَبِيبُ بْنُ عَبِيدٍ اللَّهُ بْنُ الزَّبِيرِ وَ لَا حَقَّ بِنِ حَمِيدٍ وَ أَبُو مَجْلَزٍ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، أَى: فَرَّغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ مِنْ تِلَاوَتِهِ، وَ الْقِرَاءَةُ الْأُولَى تُؤَيِّدُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي حَضَرُوهُ لِلْقُرْآنِ، وَ الْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ تُؤَيِّدُ أَنَّهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ لَوْ أَنَّ قَوْمَهُمْ مُنْذِرِينَ أَى: انصرفوا قاصدين إلى من وراءهم من قومهم منذرين لهم عن مخالفة القرآن و محذرين لهم، وَ انْتِصَابِ «مُنْذِرِينَ» عَلَى الْحَالِ الْمَقْدَرَةِ، أَى: مَقْدَرِينَ الْإِنذَارِ، وَ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ آمَنُوا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، وَ سَيَأْتِي فِي آخِرِ الْبَحْثِ بَيَانُ ذَلِكَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى يَعْنُونَ الْقُرْآنَ؛ وَ فِي الْكَلَامِ حَذْفٌ، وَ التَّقْدِيرُ: فَوَصَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا يَا قَوْمَنَا. قَالَ عَطَاءٌ: كَانُوا يَهُودًا فَأَسْلَمُوا مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ أَى: لَمَّا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمَنْزَلَةِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَى: إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ وَ إِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ أَى: إِلَى طَرِيقِ اللَّهِ الْقَوِيمِ. قَالَ مِقَاتِلٌ: لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَى الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَعْنُونَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أَوْ الْقُرْآنَ يُغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ أَى: بَعْضُهَا، وَ هُوَ مَا عَدَا حَقَّ الْعِبَادَةِ، وَ قِيلَ: إِنْ مِنْ هُنَا لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ. وَ الْمَعْنَى: أَنَّهُ يَقَعُ ابْتِدَاءُ الْغَفْرَانِ مِنَ الذُّنُوبِ ثُمَّ يَنْتَهِي إِلَى غَفْرَانِ تَرْكِ مَا هُوَ الْأُولَى، وَ قِيلَ: هِيَ زَائِدَةٌ وَ

يُجْزَكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَ هُوَ عَذَابُ النَّارِ، وَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ حُكْمَ الْجَنِّ حُكْمُ الْإِنْسِ فِي الثَّوَابِ وَ الْعِقَابِ وَ التَّعْبُدِ بِالْأَوْامِرِ وَ النَّوَاهِي. وَ قَالَ الْحَسَنُ: لَيْسَ لِمُؤْمِنِي الْجَنِّ ثَوَابٌ غَيْرُ نَجَاتِهِمْ مِنَ النَّارِ، وَ بِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ. وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى، وَ بِهِ قَالَ مَالِكٌ وَ الشَّافِعِيُّ وَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى. وَ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، فَقَالَ الْقَائِلُونَ بِهِ أَنَّهُمْ بَعْدَ نَجَاتِهِمْ مِنَ النَّارِ يُقَالُ لَهُمْ: كُونُوا تَرَابًا، كَمَا يُقَالُ لِلْبَهَائِمِ، وَ الثَّانِي أَرْجَحُ. وَ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي مَخَاطَبَةِ الْجَنِّ وَ الْإِنْسِ: وَ لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ - فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ «١» فَامْتَنَ سُبْحَانَهُ عَلَى الثَّقَلَيْنِ بِأَنْ جَعَلَ جَزَاءَ مُحْسِنِهِمُ الْجَنَّةَ، وَ لَا يَنَافِي هَذَا الْاِقْتِصَارُ هَا هُنَا عَلَى ذِكْرِ إِجَارَتِهِمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، وَ مِمَّا يُؤَيِّدُ هَذَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَازَى كَافِرَهُمْ بِالنَّارِ وَ هُوَ مَقَامُ عَدْلِ، فَكَيْفَ لَا يُجَازِي مُحْسِنَهُمْ بِالْجَنَّةِ وَ هُوَ مَقَامُ فَضْلٍ، وَ مِمَّا يُؤَيِّدُ هَذَا أَيْضًا مَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ جَزَاءَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ، وَ جَزَاءَ مِنْ عَمَلِ الصَّالِحَاتِ الْجَنَّةَ؛ وَ جَزَاءَ مِنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْجَنَّةَ، وَ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَ السُّنَّةِ.

وَ قَدْ اِخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ هَلْ أُرْسِلَ اللَّهُ إِلَى الْجِنِّ رِسَالًا مِنْهُمْ أَمْ لَا، وَ ظَاهِرُ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ أَنَّ الرِّسَالَ مِنَ الْإِنْسِ فَقَطْ كَمَا فِي قَوْلِهِ: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى «٢». وَ قَالَ: وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ «٣» وَ قَالَ سُبْحَانَهُ فِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ:

وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ «٤»، فَكُلُّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ هُوَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَ أَمَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ

(١). الرَّحْمَنِ: ٤٦ وَ ٤٧.

(٢). يُوسُفَ: ١٠٩.

(٣). الْفِرْقَانَ: ٢٠.

(٤). الْعَنَكُبُوتَ: ٢٧.

فَتْحُ الْقَدِيرِ، ج ٥، ص: ٣٢

الْأَنْعَامِ: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ «١» فَقِيلَ: الْمُرَادُ مِنْ مَجْمُوعِ الْجَنِّسِينَ وَ صَدَقَ عَلَى أَحَدِهِمَا، وَ هُمُ الْإِنْسُ، كَقَوْلِهِ: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْثُ وَ الْمَرْجَانُ «٢» أَيْ: مِنْ أَحَدِهِمَا وَ مَنْ لَا يُجِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ أَيْ: لَا يَفُوتُ اللَّهَ، وَ لَا يَسْبِقُهُ، وَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْهَرَبِ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ وَ إِنْ هَرَبَ كُلُّ مَهْرَبٍ فَهُوَ فِي الْأَرْضِ لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا، وَ فِي هَذَا تَرْهيبٌ شَدِيدٌ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أَيْ: أَنْصَارٌ يَمْنَعُونَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. يَبَيِّنُ سُبْحَانَهُ بَعْدَ اسْتِحَالَةِ نَجَاتِهِ بِنَفْسِهِ اسْتِحَالَةَ نَجَاتِهِ بِوَسْطَةِ غَيْرِهِ، وَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: أَوْلَيْكَ إِلَى مَنْ لَا يُجِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ، وَ أُخْبِرَ أَنَّهُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ أَيْ: ظَاهِرٍ وَاضِحٍ. ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ دَلِيلًا عَلَى الْبَعْثِ، فَقَالَ: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ الرَّؤْيِيَّةَ هُنَا هِيَ الْقَلْبِيَّةُ الَّتِي بِمَعْنَى الْعِلْمِ وَ الْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ، وَ الْوَاوُ لِلْعَطْفِ عَلَى مَقْدَرٍ، أَيْ: أَلَمْ يَتَفَكَّرُوا وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي خَلَقَ هَذِهِ الْأَجْرَامَ الْعِظَامَ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ ابْتِدَاءً وَ لَمْ يَعْنَى بِخَلْقِهَا أَيْ: لَمْ يَعْبُزْ عَنْ ذَلِكَ وَ لَا ضَعْفَ عَنْهُ، يُقَالُ: عَيَّ بِالْأَمْرِ وَ عَيَّ؛ إِذَا لَمْ يَهْتَدِ لَوْجُهُ، وَ مِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ «٣»:

عَيُّوا بِأَمْرِهِمْ كَمَا عَيَّتْ بِيضْتِهَا الْحَمَامَةُ

قَرَأَ الْجُمْهُورُ: وَ لَمْ يَعْنَى بِسُكُونِ الْعَيْنِ وَ فَتْحِ الْيَاءِ مِضْرَاعَ عَيْ. وَ قَرَأَ الْحَسَنُ بِكُسْرِ الْعَيْنِ وَ سُكُونِ الْيَاءِ. بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَ الْأَخْفَشُ: الْبَاءُ زَائِدَةٌ لِلتَّوَكِيدِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا\* «٤». قَالَ الْكَسَائِيُّ وَ الْفَرَّاءُ وَ الزَّجَّاجُ: الْعَرَبُ تَدْخُلُ الْبَاءَ مَعَ الْجَحْدِ وَ الْاسْتِفْهَامِ، فَتَقُولُ: مَا أَظْنُكَ بِقَائِمٍ، وَ الْجَارُ وَ الْمَجْرُورُ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ عَلَى أَنَّهُمَا خَبِرَ لِأَنَّ، وَ قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَ عَيْسَى بْنُ عَمْرِو وَ الْأَعْرَجُ وَ الْجَحْدَرِيُّ وَ ابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبُ وَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ «يَقْدُرُ» عَلَى صَيْغَةِ الْمِضْرَاعِ، وَ اخْتَارَ أَبُو عُبَيْدَةَ الْقِرَاءَةَ الْأُولَى، وَ اخْتَارَ أَبُو حَاتِمِ الْقِرَاءَةَ الثَّانِيَةَ، قَالَ: لِأَنَّ دَخُولَ الْبَاءِ فِي خَبَرِ أَنْ قَبِيحٌ. بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

لا- يعجزه شيء وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ الظرف متعلق بقول مقدر، أى: يقال ذلك اليوم للذين كفروا أليس هذا بِالْحَقِّ و هذه الجملة هي المحكيه بالقول، و الإشارة بهذا إلى ما هو مشاهد لهم يوم عرضهم على النار، و فى الاكتفاء بمجرّد الإشارة من التهويل للمشار إليه و التفخيم لشأنه ما لا يخفى، كأنه أمر لا يمكن التعبير عنه بلفظ يدلّ عليه قالوا بلى وَ رَبَّنَا اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف، و أكدوا هذا الاعتراف بالقسم؛ لأنّ المشاهدة هي حقّ اليقين الّذى لا يمكن جحده و لا إنكاره قال فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ أى: بسبب كفركم بهذا فى الدنيا و إنكاركم له، و فى هذا الأمر لهم بذوق العذاب تويخ بالغ و تهكم عظيم. لما قرّر سبحانه الأدلة على النبوة و التوحيد و المعاد أمر رسوله بالصبر، فقال: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ و الفاء جواب شرط محذوف، أى: إذا عرفت ذلك و قامت عليه البراهين و لم ينجح فى الكافرين فاصبر كما صبر أولو العزم، أى: أرباب الثبات و الحزم فإنك منهم. قال مجاهد: أولو

(١). الأنعام: ١٣٠.

(٢). الرّحمن: ٢٢.

(٣). هو عبيد بن الأبرص.

(٤). النساء: ٧٩.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٣

العزم من الرسل خمسة: نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد صلّى الله عليه و سلّم، و هم أصحاب الشرائع، و قال أبو العالية: هم نوح و هود و إبراهيم، فأمر الله رسوله أن يكون رابعهم. و قال السدى: هم ستة إبراهيم و موسى و داود و سليمان و عيسى و محمد صلّى الله عليه و سلّم. و قيل: نوح و هود و صالح و شعيب و لوط و موسى. و قال ابن جريج: إن منهم إسماعيل و يعقوب و أيوب و ليس منهم يونس. و قال الشعبي و الكلبي: هم الذين أمروا بالقتال، فأظهروا المكاشفة و جاهدوا الكفرة، و قيل: هم نجباء الرسل المذكورون فى سورة الأنعام، و هم ثمانية عشر: إبراهيم و إسحاق و يعقوب و نوح و داود و سليمان و أيوب و يوسف و موسى و هارون و زكريا و يحيى و عيسى و إلياس و إسماعيل و اليسع و يونس و لوط. و اختار هذا الحسين بن الفضل لقوله بعد ذكرهم: أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدِيَهُ «١» و قيل: إن الرسل كلهم أولو عزم، و قيل: هم اثنا عشر نبيا أرسلوا إلى نبي إسرائيل.

و قال الحسن: هم أربعة: إبراهيم و موسى و داود و عيسى وَ لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ أى: لا تستعجل العذاب يا محمد للكفار. لما أمره سبحانه بالصبر و نهاه عن استعجال العذاب لقومه رجاء أن يؤمنوا قال: كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ أى: كأنهم يوم يشاهدونه فى الآخرة لم يلبثوا فى الدنيا إلا قدر ساعة من ساعات الأيام؛ لما يشاهدونه من الهول العظيم و البلاء المقيم. قرأ الجمهور بِالْبَلَاغِ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مُحذُوفٌ، أى: هذا الذى وعظتهم به بلاغ، أو تلك الساعة بلاغ، أو هذا القرآن بلاغ، أو هو مبتدأ، و الخبر لهم الواقع بعد قوله: «و لا تستعجل» أى: لهم بلاغ، و قرأ الحسن و عيسى بن عمر و زيد بن علىّ بلاغا بالنصب على المصدر، أى: بلغ بلاغا، و قرأ أبو مجلز بلغ بصيغته الأمر. و قرئ بلغ بصيغته الماضى فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ قرأ الجمهور فَهَلْ يُهْلِكُ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ. و قرأ ابن محيصة على البناء للفاعل، و المعنى: أنه لا يهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون عن الطاعة الواقعون فى معاصى الله. قال قتادة: لا يهلك على الله إلا هالك مشرك. قيل: و هذه الآية أقوى آية فى الرجاء. قال الزجاج: تأويله لا يهلك مع رحمة الله و فضله إلا القوم الفاسقون.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن منيع، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و أبو نعيم و السيهقي كلاهما فى الدلائل عن ابن



مسعود قال: هبطوا: يعنى الجن على النبى صلى الله عليه و سلم، و هو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، قالوا: صه، و كانوا تسعة أحدهم زوبعة، فأنزل الله: وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ إِلَى قَوْلِهِ: ضَلَالٌ مُّبِينٌ و أخرج أحمد و ابن جرير و ابن مردويه عن الزبير: وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَشْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ قَالَ: بنخلة، و رسول الله صلى الله عليه و سلم يصلى العشاء الآخرة كأدوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا. و أخرج ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه و إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ أَى: الآية، قال: كانوا تسعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله صلى الله عليه و سلم رسلا إلى قومهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و أبو نعيم عنه نحوه قال: أتوه ببطن نخلة. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه عنه أيضا قال:

(١). الأنعام: ٩٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٤

صرفت الجن إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم مرتين، و كانوا أشراف الجن بنصيبين. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن مسروق قال: سألت ابن مسعود من آذن النبى صلى الله عليه و سلم بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ قال: آذنته بهم شجرة. و أخرج عبد بن حميد و أحمد و مسلم و الترمذى عن علقمة قال: قلت لابن مسعود: هل صحب رسول الله صلى الله عليه و سلم منكم أحد ليلة الجن؟ قال: ما صحبه منا أحد، و لكننا فقدناه ذات ليلة، فقلنا: اغتيل، استطير «١» ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان فى وجه الصبح إذا نحن به يجىء من قبل حراء، فأخبرناه، فقال: «إنه أتانى داعى الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن» فانطلق فأرانا آثارهم و آثار نيرانهم. و أخرج أحمد عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم ليلة الجن. و قد روى نحو هذا من طرق. و الجمع بين الروايات بالحمل على قصتين وقعت منه صلى الله عليه و سلم مع الجن حضر إحداهما ابن مسعود و لم يحضر فى الأخرى. و قد وردت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله صلى الله عليه و سلم مرة بعد مرة و أخذوا عنه الشرائع. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: أولوا العزم من الرسل النبى صلى الله عليه و سلم و نوح و إبراهيم و موسى و عيسى. و أخرج ابن مردويه عنه قال: هم الذين أمروا بالقتال حتى مضوا على ذلك: نوح و هود و صالح و موسى و داود و سليمان. و أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: بلغنى أن أولى العزم من الرسل كانوا ثلاثمائة و ثلاثة عشر. و أخرج ابن أبى حاتم و الديلمى عن عائشة قالت: ظل رسول الله صلى الله عليه و سلم صائما ثم طوى، ثم ظل صائما ثم طوى، ثم ظل صائما قال: يا عائشة إن الدين لا ينبغى لمحمد و لا لآل محمد، يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهاها و الصبر عن محبوبها، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم، فقال: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ و إني و الله لأصبرن كما صبروا جهدى، و لا قوة إلا بالله.»

(١). «استطير»: طارت به الجن.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٥

سورة محمد

إشارة

و تسمى سورة القتال، و سورة الذين كفروا. و هى تسع و ثلاثون آية، و قيل: ثمان و ثلاثون.

و هى مدنية. قال الماوردى: فى قول الجميع، إلا ابن عباس و قتادة فإنهما قالوا: إلا آية منها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة و جعل ينظر إلى البيت و هو يبكى حزنا عليه، فنزل قوله تعالى: وَ كَأَيُّ مَن قَزِيهٖ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَزِيَّتِكَ و قال الثعلبي: إنها مكية. و حكاه ابن هبئه الله عن الضحاك و سعيد بن جبير، و هو غلط من القول، فالسورة مدنية كما لا يخفى. و قد أخرج ابن الصّريس عن ابن عباس قال: نزلت سورة القتال بالمدينة. و أخرج النحاس و ابن مردويه، و البيهقى فى «الدلائل» عنه قال: نزلت سورة محمد بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: نزلت بالمدينة سورة الذين كفروا. و أخرج الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه و سلم كان يقرأ بهم فى المغرب: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة محمد (٤٧): الآيات ١ الى ١٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ (١) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بِأَلْفِهِمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثَخْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدَ وَ إِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصِرَ مِنْهُمْ وَ لَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤)

سَيَهْدِيهِمْ وَ يُضِلُّ بِأَلْفِهِمْ (٥) وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يَثْبُتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَ النَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢)

قوله: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ هم كفار قريش كفروا بالله و صدوا أنفسهم و غيرهم عن سبيل الله، و هو دين الإسلام، بنهيهم عن الدخول فيه، كذا قال مجاهد و السدى. و قال الضحاك. معنى «عن سبيل الله»: عن بيت الله؛ بمنع قاصديه. و قيل: هم أهل الكتاب، و الموصول مبتدأ و خبره أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ أى: أبطلها و جعلها ضائعة. قال الضحاك: معنى «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ»: أبطل كيدهم و مكرهم بالنبى صلى الله عليه و سلم، و جعل الدائرة عليهم فى كفرهم. و قيل: أبطل ما عملوه فى الكفر مما كانوا يسمونه مكارم

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٦

أخلاق؛ من صلة الأرحام و فكّ الأسارى، و قرى الأضياف، و هذه و إن كانت باطلة من أصلها، لكن المعنى أنه سبحانه حكم ببطلانها. و لما ذكر فريق الكافرين أتبعهم بذكر فريق المؤمنين، فقال: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ظاهر هذا العموم، فيدخل تحته كل مؤمن من المؤمنين الذين يعملون الصالحات، و لا يمنع من ذلك خصوص سببها؛ فقد قيل: إنها نزلت فى الأنصار، و قيل: فى ناس من قريش، و قيل: فى مؤمنى أهل الكتاب، و لكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و خصّ سبحانه الإيمان بما أنزل على محمد صلى الله عليه و سلم بالذكر مع اندراجه تحت مطلق الإيمان

المذكور قبله؛ تنيها على شرفه و علو مكانه. و جملة وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ معترضه بين المبتدأ، و هو قوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا، و بين خبره و هو قوله: كَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ و معنى كونه الحق أنه الناسخ لما قبله، و قوله: مِنْ رَبِّهِمْ فى محل نصب على الحال، و معنى «كَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ»، أى: السيئات التى عملوها فيما مضى، فإنه غفرها لهم بالإيمان و العمل الصالح وَ أَصْلَحَ بِالْهَمِّ أى: شأنهم و حالهم. قال مجاهد: شأنهم، و قال قتادة:

حالهم، و قيل: أمرهم، و المعانى متقاربة. قال المبرد: البال: الحال ها هنا. قيل: و المعنى: أنه عصمهم عن المعاصى فى حياتهم، و أرشدهم إلى أعمال الخير، و ليس المراد إصلاح حال دنياهم من إعطائهم المال، و نحو ذلك. و قال النقاش: إن المعنى أصلح نياتهم، و منه قول الشاعر:

فإن تقبلى بالود أقبل بمثله وإن تدبرى أذهب إلى حال باليا

و الإشارة بقوله: ذَلِكَ إشارة إلى ما مرّ مما أوعد به الكفار و وعد به المؤمنين، و هو مبتدأ خبره ما بعده، و قيل: إنه خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمر ذلك بسبب أن الذين كفروا اتبعوا الباطل وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ فالباطل: الشرك، و الحق: التوحيد و الإيمان، و المعنى: أن ذلك الإضلال لأعمال الكافرين بسبب اتباعهم الباطل من الشرك بالله و العمل بمعاصيه، و ذلك التكفير لسيئات المؤمنين و إصلاح بالهم بسبب اتباعهم للحق الذى أمر الله باتباعه من التوحيد و الإيمان و عمل الطاعات كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ أى: مثل ذلك الضرب يبين للناس أمثالهم، أى: أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال فى الغرابة. قال الزجاج: «كذلك يضرب» يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين و إضلال أعمال الكافرين، يعنى أن من كان كافرا أضل الله عمله، و من كان مؤمنا كفر الله سيئاته. فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ لَمَّا بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ حَالِ الْفَرِيقَيْنِ أمر بجهد الكفار، و المراد بالذين كفروا المشركين و من لم يكن صاحب عهد من أهل الكتاب، و انتصاب «ضرب» على أنه مصدر لفعل محذوف. قال الزجاج: أى:

فاضربوا الرقاب ضربا، و خصّ الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بقطعها، و قيل: هو منصوب على الإغراء. قال أبو عبيدة: هو كقولهم: يا نفس صبرا، و قيل: التقدير: اقصدوا ضرب الرقاب. و قيل:

إنما خصّ ضرب الرقاب لأن فى التعبير عنه من الغلظة و الشدة ما ليس فى نفس القتل، و هى حزّ العنق و إطارة العضو الذى هو رأس البدن و علوة و أحسن أعضائه حتّى إذا أُنْحَتَتْهُمْ أى: بالغتم فى قتلهم و أكثرتم القتل فيهم، و هذه غاية للأمر بضرب الرقاب، لا لبيان غاية القتل، و هو مأخوذ من الشىء الثخين، أى:

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٧

الغليظ، و قد مضى تحقيق معناه فى سورة الأنفال فَشُدُّوا الْوُثَاقَ الْوُثَاقَ بالفتح و يجىء بالكسر: اسم الشىء العذى يوثق به كالرباط. قال الجوهري: و أوثقه فى الوثاق، أى: شدّه، قال: و الوثاق بكسر الواو لغة فيه. قرأ الجمهور فَشُدُّوا بضم الشين، و قرأ السلمي بكسرها، و إنما أمر سبحانه بشدّ الوثاق لثلا ينفلتو، و المعنى: إذا بالغتم فى قتلهم فأسروهم و أحيطوهم بالوثاق فإِذَا مَنَّا بَعُدُّوا وَ إِذَا فِدَاءٌ أى:

فإما أن تمّنوا عليهم بعد الأسر منا، أو تفدوا فداء، و المنّ: الإطلاق بغير عوض، و الفداء: ما يفدى به الأسير نفسه من الأسر، و لم يذكر القتل هنا اكتفاء بما تقدّم. قرأ الجمهور: فِدَاءٌ بالمد. و قرأ ابن كثير فدى بالقصر، و إنما قدّم المنّ على الفداء، لأنه من مكارم الأخلاق، و لهذا كانت العرب تفتخر به، كما قال شاعرهم:

و لا نقتل الأسرى و لكن نفكّهم إذا أنقل الأعناق حمل المغارم

ثم ذكر سبحانه الغاية لذلك قال: حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا أوزار الحرب: التى لا تقوم إلا بها من السلاح و الكراع، أسند

الوضع إليها وهو لأهلها على طريق المجاز، والمعنى: أن المسلمين مخيرون بين تلك الأمور إلى غاية هي أن لا يكون حرب مع الكفار، قال مجاهد: المعنى حتى لا يكون دين غير دين الإسلام؛ وبه قال الحسن والكلبي. قال الكسائي: حتى يسلم الخلق. قال الفراء: حتى يؤمنوا ويذهب الكفر. وقيل:

المعنى: حتى يضع الأعداء المحاربون أوزارهم، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادة. وروى عن الحسن وعطاء أنهما قالوا: في الآية تقديم وتأخير، والمعنى: ف ضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها، فإذا أئخنتموهم فشدوا الوثاق. وقد اختلف العلماء في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة؟ فقيل: إنها منسوخة في أهل الأوثان، وأنه لا يجوز أن يفادوا ولا يمن عليهم، والناسخ لها قوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «١» وقوله:

فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ «٢» وقوله: وَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً «٣» وبهذا قال قتادة والضحاك والسدي وابن جريج وكثير من الكوفيين: قالوا: والمائدة آخر ما نزل، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن تؤخذ منه الجزية، وهذا هو المشهور من مذهب أبي حنيفة. وقيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ روى ذلك عن عطاء وغيره. وقال كثير من العلماء: إن الآية محكمة، والإمام مخير بين القتل والأسر، وبعد الأسر مخير بين المن والفداء. وبه قال مالك والشافعي والثوري والأوزاعي وأبو عبيد وغيرهم. وهذا هو الراجح؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده فعلوا ذلك. وقال سعيد بن جبير: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف؛ لقوله: ما كان لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ «٤» فإذا أسر بعد ذلك فلإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره ذَلِكَ وَ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَنْتَصَرَ مِنْهُمْ محل «ذلك» الرفع على أنه خبر مبتدأ

(١). التوبة: ٥.

(٢). الأنفال: ٥٧.

(٣). التوبة: ٣٦.

(٤). الأنفال: ٦٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٨

محذوف، أي: الأمر ذلك، وقيل: في محل نصب على المفعولية بتقدير فعل، أي: افعلوا ذلك، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره محذوف يدل عليه ما تقدم، أي: ذلك حكم الكفار، ومعنى «لو يشاء الله لانتصر منهم» أي: قادر على الانتصار منهم بالانتقام منهم وإهلاكهم وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب وَلَكِنْ أَمْرُكُمْ بِحَرْبِهِمْ لِيَبْلُغُوا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ أَيْ: ليختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين في سبيله والصابرين على ابتلائه ويجزل ثوابهم ويعذب الكفار بأيديهم وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قُرَأَ الْجَمْهُورُ «قاتلوا» مبنيا للفاعل، وقرأ أبو عمرو وحفص قُتِلُوا مبنيا للمفعول، وقرأ الحسن بالتشديد مبنيا للمفعول أيضا. وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر وأبو حيوة «قتلوا» على البناء للفاعل مع التخفيف من غير ألف، والمعنى على القراءة الأولى.

والرابعة: أن المجاهدين في سبيل الله ثوابهم غير ضائع، وعلى القراءة الثانية والثالثة: أن المقتولين في سبيل الله كذلك لا يضيع الله سبحانه أجرهم. قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد. ثم ذكر سبحانه ما لهم عنده من جزيل الثواب فقال: سَيَهْدِيهِمْ أَيْ: سيهديهم الله سبحانه إلى الرشد في الدنيا، ويعطيهم الثواب في الآخرة وَيُضِلِّحْ بِهِمْ أَيْ: حالهم وشأنهم وأمرهم. قال أبو العالية: قد ترد الهداية، والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطريق المفضية إليها، وقال ابن زياد: يهديهم إلى محاجة منكر ونكير وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَافًا لَهُمْ أَيْ: بينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال، وذلك أنهم إذا دخلوا

الجنة تفرقوا إلى منازلهم. قال الواحدى: هذا قول عامه المفسرين. وقال الحسن: وصف الله لهم الجنة فى الدنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفتها. وقيل: فيه حذف، أى: عرفوا طرقها و مساكنها و بيوتها. وقيل: هذا التعريف بدليل يدلهم عليها، وهو الملك الموكل بالعبد يسير بين يديه حتى يدخله منزله، كذا قال مقاتل. وقيل: معنى «عرفها لهم»: طيبها بأنواع الملائك، مأخوذ من العرف، وهو الرائحة. ثم وعدهم سبحانه على نصر دينه بقوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ أَي: إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار و يفتح لكم، و مثله قوله: وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ (١) قال قطرب: إن تنصروا نبي الله ينصركم وَ يُبَيِّتْ أقدامكم أَي: عند القتال. و تثبت الأقدام عبارة عن النصر و المعونة فى مواطن الحرب، و قيل: على الإسلام، و قيل: على الصراط وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ الْمَوْصُولُ فى محل رفع على أنه مبتدأ، و خبره محذوف تقديره فتعسوا بدليل ما بعده، و دخلت الفاء تشبيها للمبتدأ بالشرط، و انتصاب تعسا على المصدر للفعل المقدر خبرا. قال الفراء: مثل سقيا لهم و رعيا، و أصل التعس الانحطاط و العثار. قال ابن السكيت:

التعس: أن يجز على وجهه، و النكس: أن يجز على رأسه، قال: و التعس أيضا الهلاك. قال الجوهري: و أصله الكب و هو ضد الانتعاش، و منه قول مجمع بن هلال:

تقول و قد أفردتها من خليلها تعست كما أتعستنى يا مجمع

قال المبرد: أى: فمكروها لهم، و قال ابن جريج: بعدا لهم، و قال السدى: خزيا لهم. و قال ابن زيد:

(١). الحج: ٤٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٩

شقاء لهم. و قال الحسن: شتما لهم. و قال ثعلب: هلاكا لهم، و قال الضحاك: خيبة لهم. و قيل: قبحا لهم، حكاة النقاش. و قال الضحاك: رغما لهم. و قال ثعلب أيضا: شرا لهم. و قال أبو العالیه: شقوة لهم. و اللام فى «لهم» للبيان كما فى قوله: هَيْتَ لَكَ (١). و قوله: وَ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ معطوف على ما قبله، داخل معه فى خبرية الموصول، و الإشارة بقوله: ذَلِكَ إلى ما تقدم ممّا ذكره الله من التعس و الإضلال، أى: الأمر ذلك، أو ذلك الأمر بأنهم كرهوا ما أنزل الله على رسوله من القرآن، أو ما أنزل على رسله من كتبه لاشتمالها على ما فى القرآن من التوحيد و البعث فأحبط\* الله أعمالهم بذلك السبب، و المراد بالأعمال ما كانوا عملوا من أعمال الخير فى الصورة و إن كانت باطلة من الأصل؛ لأن عمل الكافر لا يقبل قبل إسلامه. ثم خوف سبحانه الكفار و أرشدهم إلى الاعتبار بحال من قبلهم، فقال: أَلَمْ يَسِيرُوا فى الأَرْضِ أَي: ألم يسيروا فى أرض عاد و ثمود و قوم لوط و غيرهم ليعتبروا فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم أى: آخر أمر (٢) الكافرين قبلهم، فإن آثار العذاب فى ديارهم باقية. ثم بين سبحانه ما صنع بمن قبلهم فقال: دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ و الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، و التدمير:

الإهلاك، أى: أهلكهم و استأصلهم، يقال: دمره و دمر عليه بمعنى. ثم توعد مشركى مكة فقال:

وَ لِلْكَافِرِينَ أَمْثالُهَا أَي: لهؤلاء أمثال عاقبة من قبلهم من الأمم الكافرة. قال الزجاج و ابن جرير: الضمير فى «أَمْثالُهَا» يرجع إلى «عاقبة الذين من قبلهم»، و إنما جمع لأن العواقب متعددة بحسب تعدد الأمم المعذبة، و قيل: أمثال العقوبة، و قيل: الهلكة، و قيل: التدمير، و الأول أولى لرجوع الضمير إلى ما هو مذكور قبله، و الإشارة بقوله: ذَلِكَ إلى ما ذكر من أن للكافرين أمثالها بأن الله مولى الذين آمنوا أى: بسبب أن الله ناصرهم وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لا مولى لهم أى: لا ناصر يدفع عنهم. و قرأ ابن مسعود: ذلك بأن الله ولى الذين آمنوا قال قتادة: نزلت يوم أحد إن الله يدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار قد تقدم تفسير الآية فى غير موضع، و تقدم كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات، و الجملة مسوقة لبيان ولاية الله للمؤمنين وَ الَّذِينَ

كَفَرُوا يَمْتَعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ أَى: يتمتعون بمتاع الدنيا و ينتفعون به كأنهم أنعام ليس لهم هممة إلا- بطونهم و فروجهم، ساهون عن العاقبة، لاهون بما هم فيه و النَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ أَى: مقام يقيمون به، و منزل ينزلونه و يستقرّون فيه، و الجملة فى محل نصب على الحال أو مستأنفة.

و قد أخرج الفريابي و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ: هم أهل مكة قريش نزلت فيهم وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قَالَ: هم أهل المدينة الأنصار وَ أَصْلَحَ بِالْهَمِّ قَالَ: أمرهم. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ قَالَ: كانت لهم أعمال فاضلة، و لا يقبل الله مع الكفر

(١). يوسف: ٢٣.

(٢). من تفسير القرطبي (٢٣٥ / ١٦)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٠

عملا. و أخرج النحاس عنه أيضا فى قوله: فَإِمَّا مَنَّا بَعِيدٌ وَ إِمَّا فِدَاءٌ قَالَ: فجعل الله النبى و المؤمنين بالخيار فى الأسارى، إن شأوا قتلوهم، و إن شأوا استعبدوهم، و إن شأوا فادوهم. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: هذا منسوخ، نسختها: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ «١». و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن الحسن قال: أتى الحجاج بأسارى، فدفع إلى ابن عمر رجلا يقتله، فقال ابن عمر: ليس بهذا أمرنا، إنما قال الله حَتَّى إِذَا أَثَخْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعِيدٌ وَ إِمَّا فِدَاءٌ. و أخرج عبد الرزاق فى المصنف و ابن المنذر و ابن مردويه عن ليث قال: قلت لمجاهد: بلغنى أن ابن عباس قال: لا يحل قتل الأسارى؛ لأن الله قال: فَإِمَّا مَنَّا بَعِيدٌ وَ إِمَّا فِدَاءٌ فقال مجاهد: لا تبعأ بهذا شيئا، أدركت أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم و كلهم ينكر هذا، و يقول: هذه منسوخة، إنما كانت فى الهدنة التى كانت بين النبى صلى الله عليه و سلم و بين المشركين، فأما اليوم فلا، يقول الله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «٢» و يقول: فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ إِنْ كَانَ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ لَمْ يَقْبَلْ شَيْءٌ مِنْهُمْ إِلَّا الْإِسْلَامَ، إِنْ لَمْ يَسْلَمُوا فَالْقَتْلُ، و أما من سواهم فإنهم إذا أسروا فالمسلمون فيهم بالخيار إن شأوا قتلوهم و إن شأوا استحيوهم، و إن شأوا فادوهم إذا لم يتحولوا عن دينهم، فإن أظهروا الإسلام لم يفادوا. و نهى رسول الله صلى الله عليه و سلم عن قتل الصغير و المرأة و الشيخ الفانى. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: «يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماما مهديا و حكما عادلا، فيكسر الصليب، و يقتل الخنزير، و توضع الجزية، و توضع الحرب أوزارها».

و أخرج ابن سعد و أحمد و النسائى و البغوى و الطبرانى و ابن مردويه عن سلمة بن نفيل عن النبى صلى الله عليه و سلم من حديث قال: «لا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج بأجوج و مأجوج». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: وَ لِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا قَالَ: لكفار قومك يا محمد [مثل «٣» ما دمرت به القرى فأهلكوا بالسيف.

[سورة محمد (٤٧): الآيات ١٣ الى ١٩]

وَ كَأَيُّنَ مِنْ قَوْمِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَوْمِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ الَّتِي أَهْلَكْنَا هُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أ فَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَ سُقُوا مَاءً

حَمِيمًا فَقَطَعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ آتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)  
 فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعِيَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرُوا  
 لِذُنُوبِكُمْ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَ مَثْوَاكُمْ (١٩)

(١). التوبة: ٥.

(٢). التوبة: ٥.

(٣). من الدر المنثور (٧/ ٤٦٣)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤١

خَوْفٌ سَبْحَانَهُ الْكُفَّارُ بِأَنَّهُ قَدْ أَهْلَكَ مِنْهُمُ، فَقَالَ: وَ كَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ  
 قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ «كَأَيِّنَ» مَرْكَبَةٌ مِنَ الْكَافِ وَ أَيْ، وَ أَنَّهَا بِمَعْنَى كَمِ الْخَبْرِيَّةِ؛ أَيْ: وَ كَمِ مِنْ قَرْيَةٍ، وَ أَنْشَدَ الْأَخْفَشُ قَوْلَ الْوَلِيدِ «١»:

وَ كَأَيِّنَ رَأَيْنَا مِنْ مَلُوكٍ وَ سَوْفَةٍ وَ مِفْتَاحِ قَيْدٍ لِلْأَسِيرِ الْمَكْبَلِ

وَ مَعْنَى الْآيَةِ: وَ كَمِ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ هُمْ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ أَهْلِ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ فَبِالْأُولَى مِنْ هُوَ  
 أَوْضَعُفَ مِنْهُمْ وَ هُمُ قَرِيشُ الَّذِينَ هُمُ أَهْلُ قَرْيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ هِيَ مَكَّةُ، فَالْكَلَامُ عَلَى حَذْفِ الْمِضَافِ؛ كَمَا فِي  
 قَوْلِهِ: وَ سَمِئِلُ الْقَرْيَةِ قَالَ مِقَاتِلُ: أَيُّ أَهْلِكُنَا هُمْ بِالْعَذَابِ حِينَ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ. ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ الْفَرْقَ بَيْنَ حَالِ الْمُؤْمِنِ وَ حَالِ الْكَافِرِ  
 فَقَالَ: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ، وَ الْفَاءُ لِلْعَطْفِ عَلَى مَقْدَرِ كَنْظَائِرِهِ، وَ مِنْ مَبْتَدَأٍ، وَ الْخَبْرُ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ  
 عَمَلِهِ وَ أَفْرَدَ فِي هَذَا بِاعْتِبَارِ لَفْظِ مَنْ، وَ جَمَعَ فِي قَوْلِهِ: وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهَا، وَ الْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَسْتَوِي مَنْ كَانَ عَلَى يَقِينٍ  
 مِنْ رَبِّهِ وَ لَا- يَكُونُ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ، وَ هُوَ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ، وَ الْإِشْرَاقُ بِاللَّهِ، وَ الْعَمَلُ بِمَعَاصِي اللَّهِ، وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ فِي  
 عِبَادَتِهَا، وَ انْهَمَكُوا فِي أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ، بَلْ شَبَّهَهُ تَوَجُّبُ الشُّكِّ فَضْلًا عَنْ حُجَّةِ تَبَيُّرِهِ. ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي  
 الْإِهْتِدَاءِ وَ الضَّلَالِ بَيْنَ الْفَرْقِ فِي مَرْجِعِهِمَا وَ مَالِهِمَا، فَقَالَ: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ وَ الْجَمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ لِشَرْحِ مَحَاسِنِ الْجَنَّةِ وَ  
 بَيَانِ مَا فِيهَا، وَ مَعْنَى «مَثَلُ الْجَنَّةِ» وَصْفُهَا الْعَجِيبِ الشَّانِ، وَ هُوَ مَبْتَدَأٌ وَ خَبْرُهُ مَحْذُوفٌ. قَالَ النَّضْرُ بْنُ شَمِيلٍ: تَقْدِيرُهُ مَا يَسْمَعُونَ، وَ  
 قَدَّرَهُ سَبِيحِيَّةً: فِيمَا يَتَلَى عَلَيْكُمْ مَثَلُ الْجَنَّةِ، قَالَ: وَ الْمَثَلُ هُوَ الْوَصْفُ، وَ مَعْنَاهُ وَصْفُ الْجَنَّةِ، وَ جَمْلَةٌ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ  
 إِخْخ، مَفْسُورَةٌ لِلْمَثَلِ. وَ قِيلَ: إِنَّ «مَثَلًا» زَائِدَةٌ، وَ قِيلَ: إِنَّ مَثَلُ الْجَنَّةِ مَبْتَدَأٌ، وَ الْخَبْرُ فِيهَا أَنْهَارٌ، وَ قِيلَ: خَبْرُهُ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ، وَ الْآسِنُ:  
 الْمَتَغَيِّرُ، يُقَالُ: أَسِنَ الْمَاءُ يَأْسِنُ أَسُونًا؛ إِذَا تَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُ، وَ مِثْلُهُ الْآجِنُ، وَ مِنْهُ قَوْلُ زَهِيرٍ:

قَدْ أَتَرَكَ الْقُرْنَ مَصْفَرًا أَنَامِلَهُ يَمِيدُ فِي الرِّمْحِ مِيدَ الْمَاتِحِ الْآسِنِ

قَرَأَ الْجُمْهُورُ: آسِنٌ بِالْمَدِّ. وَ قَرَأَ حَمِيدٌ وَ ابْنُ كَثِيرٍ بِالْقَصْرِ، وَ هُمَا لَغَتَانِ كَحَاذِرٍ وَ حَذَرٍ. وَ قَالَ الْأَخْفَشُ: إِنَّ الْمَمْدُودَ يَرَادُ بِهِ  
 الْإِسْتِقْبَالَ، وَ الْمَقْصُورُ يَرَادُ بِهِ الْحَالُ وَ أَنْهَارٌ مِنْ لَبِنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ أَيْ:

لَمْ يَحْمُضْ كَمَا تَغْيِيرُ أَلْبَانِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَخْرُجْ مِنْ ضُرُوعِ الْإِبِلِ وَ الْغَنَمِ وَ الْبَقَرِ وَ أَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَحْدَةٌ لِلشَّارِبِينَ أَيْ: لِذَيْدِهِ لَهُمْ،  
 طَبِيبَةُ الشَّرْبِ، لَا- يَتَكَرَّرُ الشَّارِبُونَ، يُقَالُ: شَرَابٌ لَدٌّ وَ لَذِيذٌ فِيهِ لَذَةٌ بِمَعْنَى، وَ مِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ: يَبْضَاءُ لَحْدَةٌ لِلشَّارِبِينَ قَرَأَ  
 الْجُمْهُورُ لَذَةً بِالْحَرْفِ صَفْهُ لَخْمَرٍ، وَ قَرِئَ بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ، أَوْ مَفْعُولٌ لَهُ. وَ قَرِئَ بِالرَّفْعِ صَفْهُ لِأَنَّهَا وَ أَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى  
 أَيْ: مُصَفًّى مِمَّا يَخَالَطُهُ

(١). فى تفسير القرطبي: لبيد.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٢

من الشمع والقذى والعكر والكدر وَ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ أَى: لأهل الجنة فى الجنة مع ما ذكر من الأشرية من كل الثمرات، أَى: من كل صنف من أصنافها، و مِنْ زائده للتوكيد وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ لذنوبهم، و تنكير مغفرة للتعظيم، أَى: و لهم مغفرة عظيمة كائنه من ربهم كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ هو خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير: أم من هو فى نعيم الجنة على هذه الصفة خالد فيها كمن هو خالد فى النار، أو خبر لقوله: مثل الجنة كما تقدم. و رجح الأول الفراء فقال: أراد أمن كان فى هذا النعيم كمن هو خالد فى النار. و قال الزجاج: أَى أ فمن كان على بينه من ربه، و أعطى هذه الأشياء، كمن زين له سوء عمله و هو خالد فى النار؟ فقوله: كَمَنْ بدل من قوله: أ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ و قال ابن كيسان: ليس مثل الجنة التى فيها الثمار و الأنهار كمثل النار التى فيها الحميم و الزقوم، و ليس مثل أهل الجنة فى النعيم كمثل أهل النار فى العذاب الأليم، و قوله: وَ سِئَمُوا مَاءً حَمِيمًا عطف على الصلة عطف جملة فعلية على اسمية، لكنه راعى فى الأولى لفظ من، و فى الثانية معناها، و الحميم: الماء الحار الشديد الغليان، فإذا شربوه قطع أمعاءهم، و هو معنى قوله: فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ لفرط حرارته. و الأمعاء: جمع معى، و هى ما فى البطن من الحوايا. وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ أَى: من هؤلاء الكفار الذين يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام من يستمع إليك، و هم المنافقون. أفرد الضمير باعتبار لفظ من، و جمع فى قوله: حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ باعتبار معناها، و المعنى: أن المنافقين كانوا يحضرون مواقف وعظ رسول الله صلى الله عليه و سلم و مواطن خطبه التى يملئها على المسلمين، حتى إذا خرجوا من عنده قالوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ و هم علماء الصحابة، و قيل: عبد الله بن عباس، و قيل: عبد الله بن مسعود، و قيل: أبو الدرداء، و الأول أولى، أَى:

سألوا أهل العلم، فقالوا لهم: ما ذا قال آنفاً أَى: ماذا قال النبى الساعه على طريقة الاستهزاء، و المعنى:

أنا لم نلتفت إلى قوله، و آنفا يراد به الساعه التى هى أقرب الأوقات، و منه أمر أنف، أَى: مستأنف، و روضة أنف، أَى: لم يرها أحد، و انتصابه على الظرفية، أَى: وقتاً مؤتلفاً، أو حال من الضمير فى قال. قال الزجاج: هو من استأنفت الشىء؛ إذا ابتدأته، و أصله مأخوذ من أنف الشىء لما تقدم منه، مستعار من الجارحة، و منه قول الشاعر «١»:

و يحرم سرّ جارتهم عليهم و يأكل جارهم أنف القصاع

و الإشارة بقوله: أُولَئِكَ إِلَى المذكورين من المنافقين الَّذِينَ طَبَّحَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فلم يؤمنوا و لا توجهت قلوبهم إلى شىء من الخير وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ أَى: فى الكفر و العناد. ثم ذكر حال أضدادهم فقال وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى أَى: و الذين اهتدوا إلى طريق الخير، فأمنوا بالله و عملوا بما أمرهم به زادهم هدى بالتوفيق، و قيل: زادهم النبى صلى الله عليه و سلم، و قيل: زادهم القرآن. و قال الفراء: زادهم إعراض المنافقين و استهزاؤهم هدى. و قيل: زادهم نزول الناسخ هدى، و على كل تقدير فالمراد أنه زادهم إيماناً و علماً

(١). هو الحطيئة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٣

و بصيرة فى الدين وَ آتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ أَى: ألهمهم إياها و أعانهم عليها. و التقوى فى الربيع: هى الخشية.

و قال السدى: هى ثواب الآخرة. و قال مقاتل: هى التوفيق للعمل المذى يرضاه، و قيل: العمل بالناسخ و ترك المنسوخ، و قيل: ترك الرخص و الأخذ بالعزائم فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعِيَةَ أَى: القيامة أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً أَى: فجأة، و فى هذا وعيد للكفار شديد، و



قوله: أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً بَدَلٍ مِنَ السَّاعَةِ بَدَلٍ اشْتِمَالًا.

وقرأ أبو جعفر الرؤاسي: «إن تأتاهم» يان الشرطية فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا أَي: أماراتها وعلاماتها، و كانوا قد قرءوا في كتبهم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخر الأنبياء، فبعثته من أشراطها، قاله الحسن والضحاك. والأشراط:

جمع شرط بسكون الراء وفتحها. وقيل: المراد بأشراطها هنا: أسبابها التي هي دون معظمها. وقيل: أراد بعلامات الساعة انشقاق القمر والدخان، كذا قال الحسن، وقال الكلبي: كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام وقلة الكرام وكثرة اللثام، و منه قول أبي الأسود:

فإن كنت قد أزمعت بالصَّرم بيننا فقد جعلت أشراط أوله تبدو

فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ذِكْرَاهُمْ مَبْتَدَأٌ وَخَبْرُهُ فَإِنِّي لَهُمْ، أَي: أني لهم التذکر إذا جاءتهم الساعة، كقوله: يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى «١» و «إذا جاءتهم» اعتراض بين المبتدأ والخبر فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَي: إذا علمت أن مدار الخير هو التوحيد والطاعة، و مدار الشر هو الشرك والعمل بمعاصي الله فاعلم أنه لا إله غيره ولا رب سواه، والمعنى: اثبت على ذلك واستمر عليه، لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد كان عالما بأنه لا إله إلا الله قبل هذا، وقيل: ما علمته استدلالا فاعلمه خبرا يقينا. وقيل: المعنى: فاذكر أنه لا إله إلا الله، فعبر عن الذكر بالعلم وَاسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ أَي: استغفر الله أن يقع منك ذنب، أو استغفر الله ليعصمك، أو استغفره مما ربما يصدر منك من ترك الأولى. وقيل: الخطاب له، والمراد الأمة، و يَأْبَى هَذَا قَوْلَهُ: وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهِ اسْتِغْفَارَهُ لِدُنُوبِ أُمَّتِهِ بِالِدَعَاءِ لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ عَمَّا فَرَطَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبُكُمْ فِي أَعْمَالِكُمْ وَ مَثَوَاكُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وقيل: متقلبكم في أعمالكم نهارا و مثواكم في ليلكم نياما. وقيل: متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات و مثواكم في الأرض، أَي:

مقامكم فيها. قال ابن كيسان: متقلبكم من ظهر إلى بطن في الدنيا، و مثواكم في القبور.

وقد أخرج عبد بن حميد و أبو يعلى و ابن جرير و ابن حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس: «أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة و قال: أنت أحب بلاد الله إلي، و لو لا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج، فأعتى الأعداء من عتا على الله في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بدخول الجاهلية» فأنزل الله: وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَا وَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا جُرَيْرًا وَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ مَثَوَاكُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، و أخرجه أحمد، و الترمذي و صححه، و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقي في البعث، عن معاوية بن حيدة سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «في الجنة بحر اللبن و بحر الماء و بحر العسل و بحر

(١). الفجر: ٢٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٤

الخمير، ثم تشقق الأنهار منها». و أخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده، و البيهقي عن كعب قال: نهر النيل نهر العسل في الجنة، و نهر دجلة نهر اللبن في الجنة، و نهر الفرات نهر الخمر في الجنة، و نهر سيحان نهر الماء في الجنة. و أخرج ابن جرير، و الحاكم و صححه، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا قَالَ: كنت فيمن يسأل. و أخرج عبد بن حميد من وجه آخر عنه في الآية قال: أنا منهم. و في هذا منقبة لابن عباس جلييلة لأنه كان إذ ذاك صبيا غير بالغ، فإن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات و هو في سن البلوغ، فسؤال الناس له عن معاني القرآن في حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و وصف الله سبحانه للمستولين بأنهم الذين أوتوا العلم و هو منهم من أعظم الأدلة على سعة علمه و مزيد

فقهه في كتاب الله و سنة رسوله، مع كون أتراه و أهل سنه إذ ذاك يلعبون مع الصبيان. و أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمه قال: كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه و سلم، فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس: ماذا قال آنفا؟ فيقول: كذا و كذا، و كان ابن عباس أصغر القوم، فأنزل الله الآية، فكان ابن عباس من الذين أتوا العلم. و أخرج ابن أبي شيبة و ابن عساكر عن ابن بريده في الآية قال: هو عبد الله بن مسعود. و أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: هو عبد الله بن مسعود. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ آتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ قال: لما أنزل القرآن آمنوا به، فكان هدى، فلما تبين الناسخ من المنسوخ زادهم هدى. و أخرج ابن المنذر عنه فقد جاء أشراطها قال:

أول الساعات. و قد ثبت في الصحيحين و غيرهما من حديث أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «بعثت أنا و الساعة كهاتين، و أشار بالوسطى و السبابة» و مثله عند البخارى من حديث سهل بن سعد. و في الباب أحاديث كثيرة فيها بيان أشراط الساعة و بيان ما قد وقع منها و ما لم يكن قد وقع، و هى تأتى فى مصنف مستقل فلا نطيل بذكرها. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه و الديلمى عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: «أفضل الذكر لا- إله إلا- الله، و أفضل الدعاء الاستغفار» ثم قرأ: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد، و الترمذى و صححه، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة فى قوله: وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إنى لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة». و أخرج أحمد و مسلم و الترمذى و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عبد الله بن سرجس قال: «أتيت النبى صلى الله عليه و سلم فأكلت معه من طعام، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله، قال: و لك، فقيل: أستغفر لك رسول الله صلى الله عليه و سلم؟ قال: نعم و لكم، و قرأ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ . و قد ورد أحاديث فى استغفاره صلى الله عليه و سلم لنفسه و لأمته و ترغيبه فى الاستغفار. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ فى الدنيا وَ مَثْوَاكُمْ فى الآخرة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٥

### [سورة محمد (٤٧): الآيات ٢٠ الى ٣١]

وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَى لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فى الْأَرْضِ وَ تَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَمْ فَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمَلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنَطِعُكُمْ فى بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩)

وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فى لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَ لَنُبَلِّغَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (٣١)

سأل المؤمنون ربهم عزّ وجلّ أن ينزل على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سورة يأمرهم فيها بقتال الكفار؛ حرصاً منهم على الجهاد، ونيل ما أعدَّ اللهُ للمجاهدين من جزيل الثواب، فحكى اللهُ عنهم ذلك بقوله: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ أَى: هلا نزلت فإذا أنزلت سورةٌ مُحْكَمَةٌ أَى: غير منسوخةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ أَى: فرض الجهاد. قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشدّ القرآن على المنافقين، وفي قراءة ابن مسعود «فإذا أنزلت سورةٌ محدثة» أَى: محدثة النزول. قرأ الجمهور: فَإِذَا أُنزِلَتْ وَ ذكر على بناء الفعلين للمفعول. وقرأ زيد بن عليّ و ابن عمير «نزلت» (و ذكر) على بناء الفعلين للفاعل و نصب القتال رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَى: شك، و هم المنافقون يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ أَى: ينظرون إليك نظر من شخص بصره عند الموت لجبنهم عن القتال و ميلهم إلى الكفار. قال ابن قتيبة و الزجاج: يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم، و ينظرون إليك نظراً شديداً، كما ينظر الشاخص بصره عند الموت فأولى لهم قال الجوهري: و قولهم: أولى لك، تهديد و وعيد، و كذا قال مقاتل و الكلبي و قتادة. قال الأصمعي: معنى قولهم في التهديد: أولى لك، أَى: وليك قاربك ما تكره، و أنشد قول الشاعر:

فعدى بين هاديتين منهاو أولى أن يزيد على الثلاث

أَى: قارب أن يزيد. قال ثعلب: و لم يقل (أحد) «١» في أولى أحسن ممّا قاله الأصمعي. و قال المبرد: يقال لمن همّ بالعطب ثم أفلت: أولى لك؛ أَى: قاربت العطب. و قال الجرجاني: هو مأخوذ من الويل؛

(١). من تفسير القرطبي (١٦/ ٢٤٤)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٦

أَى: فويل لهم، و كذا قال في الكشاف. قال قتادة أيضاً: كأنه قال: العقاب أولى لهم، و قوله: طاعةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ كلام مستأنف، أَى: أمرهم طاعةً، أو طاعةً و قول معروف خير لكم. قال الخليل و سيويه: إن التقدير طاعةً و قول معروف أحسن و أمثل لكم من غيرهما. و قيل: إن طاعةً خبر أولى، و قيل:

إن طاعةً صفةٌ لسورة، و قيل: إن لهم خبر مقدّم و طاعةً مبتدأ مؤخر، و الأول أولى. فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ عَزَمَ الْأَمْرُ: جدّ الأمر، أَى: جدّ القتال و وجب و فرض، و أسند العزم إلى الأمر و هو لأصحابه مجازاً، و جواب «إذا» قيل: هو فَلَوْ صَدَّقُوا اللَّهَ وَ قِيلَ: محذوف تقديره كرهوه. قال المفسرون: معناه إذا جدّ الأمر و لزم فرض القتال خالفوا و تخلّفوا فَلَوْ صَدَّقُوا اللَّهَ في إظهار الإيمان و الطاعة لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ من المعصية و المخالفة فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ هذا خطاب للذين في قلوبهم مرض بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ و التقرّيع. قال الكلبي: أَى: فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم. و قال كعب: أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ أَى: بقتل بعضكم بعضاً، و قال قتادة: إن توليتم عن طاعة كتاب الله عزّ و جلّ أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء و تقطعوا أرحامكم. و قال ابن جريج:

إن توليتم عن الطاعة، و قيل: أعرضتم عن القتال و فارقتم أحكامه. قرأ الجمهور: تَوَلَّيْتُمْ مبنياً للفاعل، و قرأ عليّ بن أبي طالب: بضم التاء و الواو و كسر اللام مبنياً للمفعول، و بها قرأ ابن أبي إسحاق و ورش عن يعقوب، و معناها: فهل عسيتم إن ولى عليكم و لامة جائرین أن تخرجوا عليهم في الفتنة و تحاربوهم و تقطعوا أرحامكم بالبغي و الظلم و القتل. و قرأ الجمهور: وَ تَقَطَّعُوا بالتشديد على التكثير، و قرأ أبو عمرو في رواية عنه و سلام و عيسى و يعقوب بالتخفيف من القطع، يقال: عسيت أن أفعل كذا، و عسيت، بالفتح و الكسر لغتان، ذكره الجوهري و غيره، و خبر عسيتم هو أن تفسدوا، و الجملة الشرطية بينهما اعتراض، و الإشارة بقوله: أُولَئِكَ إلى المخاطبين بما تقدّم و هو مبتدأ و خبره الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ أَى: أبعدهم من رحمته و طردهم عنها

فَاصْبِرْ لَهُمْ عَنِ اسْتِمَاعِ الْحَقِّ وَ أَعْمَى أَبْصَارَهُمْ عَنِ مَشَاهِدَةِ مَا يَسْتَدْلُونَ بِهِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَ الْبَعْثِ وَ حَقِّيهِ سَائِرَ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، وَ الْاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ لِلْإِنْكَارِ؛ وَ الْمَعْنَى: أَفَلَا يَتَفَهَمُونَهُ فَيَعْلَمُونَ بِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ الزَّاجِرَةِ، وَ الْحِجْجِ الظَّاهِرَةِ، وَ الْبِرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ؛ الَّتِي تَكْفِي مَنْ لَهُ فَهْمٌ وَ عَقْلٌ، وَ تَزْجِرُهُ عَنِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَ الْإِشْرَاقِ بِهِ وَ الْعَمَلِ بِمَعَاصِيهِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا «أَمْ» هِيَ الْمُنْقَطِعَةُ، أَى: بَلْ أَعْلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا فَهْمٌ لَا يَفْهَمُونَ وَ لَا يَعْقِلُونَ. قَالَ مِقَاتِلُ:

يَعْنِي الطَّبَعُ عَلَى الْقُلُوبِ، وَ الْأَقْفَالُ اسْتِعَارَةٌ لِانْغْلَاقِ الْقَلْبِ عَنِ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، وَ إِضَافَةُ الْأَقْفَالِ إِلَى الْقُلُوبِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا مَا هُوَ لِلْقُلُوبِ بِمَنْزِلَةِ الْأَقْفَالِ لِلْأَبْوَابِ، وَ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ وَ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا الْكُفْرُ وَ الشُّرْكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ قَدْ طَبِعَ عَلَيْهَا، وَ الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْقُلُوبِ قُلُوبُ هَؤُلَاءِ الْمَخَاطِبِينَ. قَرَأَ الْجُمْهُورُ:

أَقْفَالُهَا بِالْجَمْعِ، وَ قَرَأَ: «إِقْفَالُهَا» بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ عَلَى أَنَّهُ مُصَدَّرٌ كَالْإِقْبَالِ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ أَى: رَجَعُوا كَفَارًا كَمَا كَانُوا. قَالَ قَتَادَةُ: هُمْ كَفَارُ أَهْلِ الْكِتَابِ كَفَرُوا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ بَعْدَ مَا عَرَفُوا نَعْتَهُ عِنْدَهُمْ، وَ بِهِ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ. وَ قَالَ الضَّحَّاكُ وَ السَّدْيِيُّ: هُمُ الْمُنَافِقُونَ قَعَدُوا عَنِ الْقِتَالِ، وَ هَذَا أَوْلَى؛

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٧

لِأَنَّ السِّيَاقَ فِي الْمُنَافِقِينَ مِنْ بَعِيدٍ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَى بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ الظَّاهِرَةِ وَ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ أَى: زَيَّنَ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ وَ سَهَّلَ لَهُمُ الْوُقُوعَ فِيهَا، وَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ خَبَرٌ إِنْ، وَ مَعْنَى وَ أَمَلَى لَهُمْ أَنَّهُ الشَّيْطَانُ مَدَّ لَهُمْ فِي الْأَمَلِ وَ وَعَدَهُمْ طَوْلَ الْعَمْرِ، وَ قِيلَ: إِنْ أَمَلَى لَهُمْ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ لَمْ يَعْجَلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ. قَرَأَ الْجُمْهُورُ أَمَلَى مَبْنِيًا لِلْفَاعِلِ، وَ قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَ ابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ وَ عَيْسَى بْنُ عَمْرٍو وَ أَبُو جَعْفَرٍ وَ شَيْبَةُ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ. قِيلَ: وَ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ يَكُونُ الْفَاعِلُ هُوَ اللَّهُ أَوْ الشَّيْطَانُ كَالْقِرَاءَةِ الْأَوْلَى، وَ قَدْ اخْتَارَ الْقَوْلَ بِأَنَّ الْفَاعِلَ اللَّهُ الْفَرَاءُ وَ الْمَفْضُلُ، وَ الْأَوْلَى اخْتِيَارُ أَنَّهُ الشَّيْطَانُ لِتَقَدُّمِ ذِكْرِهِ قَرِيبًا، وَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ذَلِكَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ ارْتِدَادِهِمْ، وَ هُوَ مُبْتَدَأٌ وَ خَبَرُهُ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ أَى: بِسَبَبِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ، وَ هُمْ الْمَشْرُكُونَ سَيُنْطِئُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ هَذَا الْبَعْضُ هُوَ عِدَاوَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ مَخَافَةُ مَا جَاءَ بِهِ. وَ قِيلَ الْمَعْنَى: إِنْ الْمُنَافِقِينَ قَالُوا لِلْيَهُودِ: سَنُطِئُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ، وَ قِيلَ: إِنْ الْقَائِلِينَ الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْمُنَافِقُونَ، وَ قِيلَ: إِنْ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ذَلِكَ إِلَى الْإِمْلَاءِ، وَ قِيلَ: إِنْ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ذَلِكَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَ قِيلَ: إِلَى التَّسْوِيلِ، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى. وَ يُؤَيِّدُ كَوْنَ الْقَائِلِينَ الْمُنَافِقِينَ وَ الْكَارِهِينَ الْيَهُودَ قَوْلَهُ تَعَالَى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لَا نُطِئُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ «١» وَ لَمَّا كَانَ قَوْلُهُمُ الْمَذْكُورَ لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِطَرِيقَةِ السَّرِّ بَيْنَهُمْ. قَالَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ قَرَأَ الْجُمْهُورُ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ، جَمْعُ سَرٍّ، وَ اخْتَارَ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ أَبُو عَيْبَةَ وَ أَبُو حَاتِمٌ. وَ قَرَأَ الْكُوفِيُّونَ وَ حَمَزَةُ وَ الْكَسَائِيُّ وَ حَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ وَ ابْنُ وَثَابٍ وَ الْأَعْمَشُ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ عَلَى الْمَصْدَرِ، أَى: إِخْفَاءِهِمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ الْفَاءَ لِتَرْتِيبِ مَا بَعْدَهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا، وَ «كَيْفَ» فِي مَحَلِّ رَفْعٍ عَلَى أَنَّهَا خَبَرٌ مُقَدَّمٌ، وَ التَّقْدِيرُ، فَكَيْفَ عِلْمُهُ بِأَسْرَارِهِمْ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، أَوْ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ بِفِعْلِ مُحذُوفٍ: أَى فَكَيْفَ يَصْنَعُونَ، أَوْ خَبَرٌ لِكَانٍ مُقَدَّرَةٌ: أَى فَكَيْفَ يَكُونُونَ، وَ الظَّرْفُ مَعْمُولٌ لِلْمُقَدَّرِ، قَرَأَ الْجُمْهُورُ تَوَفَّتْهُمُ وَ قَرَأَ الْأَعْمَشُ «تَوْفَاهُمْ» وَ جُمْلَةُ يَضْرِبُونَ وَ جُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ مِنْ فَاعِلٍ تَوَفَّتْهُمُ أَوْ مِنْ مَفْعُولِهِ، أَى: ضَارِبِينَ وَجُوهِهِمْ وَ ضَارِبِينَ أَدْبَارِهِمْ، وَ فِي الْكَلَامِ تَخْوِيفٌ وَ تَشْدِيدٌ، وَ الْمَعْنَى: أَنَّهُ إِذَا تَأَخَّرَ عَنْهُمْ الْعَذَابُ فَسَيَكُونُ حَالُهُمْ هَذَا، وَ هُوَ تَصْوِيرٌ لِتَوْفِيهِمْ عَلَى أَقْبَحِ حَالٍ وَ أَشْنَعِهِ. وَ قِيلَ: ذَلِكَ عِنْدَ الْقِتَالِ نَصْرَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، وَ قِيلَ: ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى. وَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ذَلِكَ إِلَى التَّوْفِي الْمَذْكُورِ عَلَى الصِّفَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَ هُوَ مُبْتَدَأٌ وَ خَبَرُهُ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسِيخَطَ اللَّهُ أَى: بِسَبَبِ اتِّبَاعِهِمْ مَا يَسِيخَطُ اللَّهُ مِنْ

الكفر والمعاصي، وقيل:

كتمانهم ما فى التوراه من نعت نبينا صلى الله عليه وسلم، والأول أولى لما فى الصيغه من العموم وَ كَرِهُوا رِضْوَانَهُ أَى: كرهوا ما يرضاه الله من الإيمان والتوحيد والطاعة فَأَحْبَبَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ بهذا السبب، والمراد

(١). الحشر: ١١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٨

بأعمالهم الأعمال التى صورتها صورة الطاعة؛ وإلا فلا عمل لكافر، أو ما كانوا قد عملوا من الخير قبل الردة أم حسب الذين فى قلوبهم مرض يعنى المنافقين المذكورين سابقا، و «أم» هى المنقطعة، أى: بل أحسب المنافقون أن لن يخرج الله أضغانهم الإخراج بمعنى الإظهار، والأضغان: جمع ضغن، وهو ما يضر من المكروه. و اختلف فى معناه، فقيل: هو الغش، وقيل: الحسد، وقيل: قال الجوهري: الضغن والضغينة: الحقد، وقال قطرب: هو فى الآيه العداوة، وأن هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدر و لو نشاء لآرئنا كهم أى: لأعلمنا كهم و عرفنا كهم بأعيانهم معرفة تقوم مقام الرؤية، تقول العرب:

سأريك ما أصنع، أى: سأعلمك فلعرفتهم بسيماهم أى: بعلاقتهم الخاصة بهم التى يتميزون بها. قال الزجاج: المعنى لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة، وهى السيماء فلعرفتهم بتلك العلامة، و الفاء لترتيب المعرفة على الإرادة، و ما بعدها معطوف على جواب لو، و كررت فى المعطوف للتأكيد، و أما اللام فى قوله:

و لتعرفنهم فى لحن القول فهى جواب قسم محذوف. قال المفسرون: لحن القول: فحواه و مقصده و مغزاه و ما يعرضون به من تهجين أمرك و أمر المسلمين، و كان بعد هذا لا يتكلم منافق عنده إلا عرفه. قال أبو زيد: لحت له اللحن: إذا قلت له قولا يفقهه عنك و يخفى على غيره، و منه قول الشاعر «١»:

منطق صائب و تلحن أحيانا و خير الكلام ما كان لحنا

أى: أحسنه ما كان تعريضا يفهمه المخاطب و لا يفهمه غيره لفطنته و ذكائه، و أصل اللحن إمالة الكلام إلى نحو من الأنحاء لغرض من الأغراض و الله يعلم أعمالكم لا تخفى عليه منها خافية فيجازيكم بها، و فيه و عيد شديد و لتبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم و الصابرين أى: لنعاملنكم معاملة المختبر، و ذلك بأن نأمركم بالجهاد حتى نعلم من امتثل الأمر بالجهاد و صبر على دينه و مشاق ما كلف به. قرأ الجمهور الأفعال الثلاثة بالنون، و قرأ أبو بكر عن عاصم بالتحية فيها كلها، و معنى و تبلوا أخباركم نظهرها و نكشفها امتحانا لكم ليظهر للناس من أطاع ما أمره الله به، و من عصى، و من لم يمتثل. و قرأ الجمهور و تبلوا بنصب الواو عطفا على قوله: حتى نعلم و روى ورش عن يعقوب إسكانها على القطع عما قبله.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن، فقال: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم أما ترضى أن أصل من وصلك و أقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذلك لك؛ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرءوا إن شئتم فهل عسيتم الآية إلى قوله: أم على قلوب أفعالها» و الأحاديث فى صلة الرحم كثيرة جدا. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: إن الذين ارتدوا على أذبارهم قال: هم أهل النفاق. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

(١). هو الفزارى.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٩

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ قَالَ: أعمالهم خبثهم و الحسد الذى فى قلوبهم، ثم دلّ الله تعالى النبى صلى الله عليه و سلم بعد على المنافقين، فكان يدعو باسم الرجل من أهل النفاق. و أخرج ابن مردويه و ابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى فى قوله: وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ قَالَ: يبغضهم على بن أبى طالب.

### [سورة محمد (٤٧): الآيات ٣٢ الى ٣٨]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا- تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهْتُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمْ الْأَعْلُونَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتَّزُكُمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهُوَ وَ إِنْ تَوَمَّنَا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦)

إِنْ يَسْئَلْكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَ يُخْرِجَ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَ مَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)

قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ المراد بهؤلاء هم المنافقون، و قيل: أهل الكتاب، و قيل: هم المطعمون يوم بدر من المشركين، و معنى صدّهم عن سبيل الله: منعهم للناس عن الإسلام و أتباع الرسول صلى الله عليه و سلم و معنى شاقوا الرسول عادوه و خالفوه مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى أى: علموا أنه صلى الله عليه و سلم نبى من عند الله بما شاهدوا من المعجزات الواضحة و الحجج القاطعة لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً بتركهم الإيمان و إصرارهم على الكفر و ما ضرّوا إلا أنفسهم وَ سَيَحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ أى: يبطلها، و المراد بهذه الأعمال ما صورته صورة أعمال الخير كإطعام الطعام و صلة الأرحام و سائر ما كانوا يفعلونه من الخير و إن كانت باطلة من الأصل؛ لأن الكفر مانع، و قيل: المراد بالأعمال المكائد التى نصبوها لإبطال دين الله، و الغوائل التى كانوا يبغونها برسول الله صلى الله عليه و سلم، ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته و طاعته رسوله فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فِيمَا أَمَرْتُمْ بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمَذْكُورَةِ فى كتاب الله و سنّة رسوله، ثم نهاهم عن أن يبطلوا أعمالهم كما أبطلت الكفار أعمالها بالإصرار على الكفر، فقال: وَ لَا- تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ قَالَ الحسن: أى لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصى. و قال الزهرى: بالكبائر. و قال الكلبي و ابن جريج: بالرياء و السمعة. و قال مقاتل: بالمنّ. و الظاهر النهى عن كل سبب من الأسباب التى توصل إلى بطلان الأعمال، كائنا ما كان، من غير تخصيص بنوع معين. ثم بيّن سبحانه أنه لا يغفر للمصرّين على الكفر و الصدّ عن سبيل الله، فقال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ فَقَيِّدْ سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر؛ لأن باب التوبة و طريق المغفرة لا يغلقان على من كان حيا، و ظاهر الآية العموم و إن كان السبب خاصا. ثم نهى سبحانه المؤمنين عن الوهن و الضعف فقال: فَلَا تَهْتُوا أى: تضعفوا عن القتال، و الوهن: الضعف وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ أى: و لا تدعوا الكفار إلى الصلح ابتداء منكم،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٠

فتح القدير ج ٥، ص: ٩٩

فإن ذلك لا يكون إلا عند الضعف. قال الزجاج: منع الله المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح و أمرهم بحربهم حتى يسلموا. و قرأ أبو عبد الرحمن السلمى وَ تَدْعُوا بِتَشْدِيدِ الدَّالِ، من ادعى القوم و تداعوا.

قال قتادة: معنى الآية: لا تكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتهما.

و اختلف أهل العلم فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة؟ فقيل: إنها محكمة، و إنها ناسخة لقوله:

وَإِنْ جُنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَقِيلَ: مَنْسُوخَةٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ. وَلَا يَخْفَاكَ أَنَّهُ لَا مَقْتَضَى لِلْقَوْلِ بِالنَّسْخِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ نَهَى الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَنِ أَنْ يَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ ابْتِدَاءً، وَلَمْ يَنْهَ عَنْ قَبُولِ السَّلَامِ إِذَا جُنَحَ إِلَيْهِ الْمَشْرُكُونَ، فَالْآيَتَانِ مُحْكَمَتَانِ، وَلَمْ يَتَوَارَدَ عَلَى مَحَلِّ وَاحِدٍ حَتَّى يَحْتَاجَ إِلَى دَعْوَى النَّسْخِ أَوْ التَّخْصِيسِ، وَجَمَلَةٌ: وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ فِي مَحَلِّ نَصْبِ عَلَى الْحَالِ، أَوْ مَسْتَأْنَفَةٌ مَقْرَّرَةٌ لِمَا قَبْلَهَا مِنَ النَّهْيِ، أَيْ: وَأَنْتُمْ الْغَالِبُونَ بِالسَّيْفِ وَالْحِجَّةِ. قَالَ الْكَلْبِيُّ: أَيْ آخِرَ الْأَمْرِ لَكُمْ وَإِنْ غَلِبَكُمْ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، وَكَذَا جَمَلَةٌ قَوْلِهِ:

وَاللَّهُ مَعَكُمْ فِي مَحَلِّ نَصْبِ عَلَى الْحَالِ، أَيْ: مَعَكُمْ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ عَلَيْهِمْ وَلَنْ يَتَرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ أَيْ: لَنْ يَنْقُصَكُمْ شَيْئًا مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِكُمْ، يُقَالُ: وَتَرَهُ يَتَرَهُ وَتَرَاهُ إِذَا نَقَصَهُ حَقَّهُ. وَأَصْلُهُ مِنْ وَتَرْتَ الرَّجُلَ:

إِذَا قَتَلْتَ لَهُ قَرِيبًا، أَوْ نَهَبْتَ لَهُ مَالًا، وَيُقَالُ: فَلَانَ مَوْتُورًا: إِذَا قَتَلَ لَهُ قَتِيلًا وَلَمْ يُوْخِذْ بِدَمِهِ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ:

أَيْ لَنْ يَنْقُصَكُمْ فِي أَعْمَالِكُمْ، كَمَا تَقُولُ: دَخَلْتَ الْبَيْتَ؛ وَأَنْتَ تَرِيدُ فِي الْبَيْتِ. قَالَ الْفَرَاءُ: هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْوَتْرِ وَهُوَ الذَّلْحُ «(١)»، وَقِيلَ: مُشْتَقٌّ مِنَ الْوَتْرِ وَهُوَ الْفَرْدُ، فَكَأَنَّ الْمَعْنَى: وَلَنْ يَفْرِدَكُمْ بِغَيْرِ ثَوَابٍ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهُوَ أَيْ: بَاطِلٌ وَ غُرُورٌ، لَا أَصْلَ لَشَيْءٍ مِنْهَا وَلَا ثَبَاتَ لَهُ وَلَا اعْتِدَادَ بِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ أَيْ: إِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِيَ يُؤْتِكُمْ جِزَاءَ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، وَالْأَجْرُ:

الثَّوَابُ عَلَى الطَّاعَةِ وَلَا يَسْئَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ أَيْ: لَا يَأْمُرُكُمْ بِإِخْرَاجِهَا جَمِيعًا فِي الزَّكَاةِ وَ سَائِرِ وَجُوهِ الطَّاعَاتِ، بَلْ أَمْرُكُمْ بِإِخْرَاجِ الْقَلِيلِ مِنْهَا وَهُوَ الزَّكَاةُ. وَقِيلَ الْمَعْنَى: لَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِنَّمَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَهُ لِأَنَّهُ أَمْلَكَ لَهَا، وَهُوَ الْمَنْعَمُ عَلَيْكُمْ بِإِعْطَائِهَا. وَقِيلَ: لَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ أَجْرًا عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ:

مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ\* وَالْأَوَّلُ أَوْلَى إِنْ يَسْئَلُكُمْ بِهَا أَيْ: أَمْوَالَكُمْ كُلِّهَا فَيُخْفِكُمْ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: يَجْهَدُكُمْ وَيَلْحَفُ عَلَيْكُمْ بِمَسْأَلَةِ جَمِيعِهَا، يُقَالُ: أَحْفَى بِالْمَسْأَلَةِ وَالْحَفُّ وَالْحَفُّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَالْحَفِيُّ:

الْمُسْتَقْصَى فِي السُّؤَالِ، وَالْإِحْفَاءُ: الْإِسْتِقْصَاءُ فِي الْكَلَامِ، وَمِنْهُ إِحْفَاءُ الشَّارِبِ، أَيْ: اسْتِئْصَالُهُ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ قَوْلُهُ: تَبْخُلُوا أَيْ: إِنْ يَأْمُرُكُمْ بِإِخْرَاجِ جَمِيعِ أَمْوَالِكُمْ تَبْخُلُوا بِهَا وَتَمْتَنَعُوا مِنَ الْإِمْتِثَالِ وَ يُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ مَعْطُوفٌ عَلَى جَوَابِ الشَّرْطِ، وَ لِهَذَا قَرَأَ الْجُمْهُورُ يُخْرِجُ بِالْجَزْمِ، وَ رَوَى عَنْ أَبِي عَمْرٍو أَنَّهُ قَرَأَ بِالرَّفْعِ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ، وَ رَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَرَأَ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَ ضَمِّ الرَّاءِ وَ رَفَعَ أَضْغَانَكُمْ، وَ رَوَى عَنْ يَعْقُوبِ الْحَضْرَمِيِّ أَنَّهُ قَرَأَ بِالنُّونِ، وَ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ مُجَاهِدٌ وَ ابْنُ مِحْصِنٍ وَ حَمِيدٌ بِالْفَوْقِيَّةِ الْمَفْتُوحَةِ مَعَ ضَمِّ الرَّاءِ. وَ عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ فَالْفَاعِلُ ضَمِيرٌ يَعُودُ إِلَى اللَّهِ سَبَّحَانَهُ، أَوْ إِلَى الْبَخْلِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِتَبْخُلُوا. وَ الْأَضْغَانُ: الْأَحْقَادُ،

(١). «الذَّلْحُ»: الْحَقْدُ وَالْعِدَاوَةُ وَ الشَّارِبُ.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥١

والمعنى: أنها تظهر عند ذلك. قال قتادة: قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله أي ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون لتنفقوا في الجهاد و في طريق الخير فممنكم من يبخل بما يطلب منه و يدعى إليه من الإنفاق في سبيل الله، و إذا كان منكم من يبخل باليسير من المال، فكيف لا تبخلون بالكثير و هو جميع الأموال. ثم بين سبحانه أن ضرر البخل عائد على النفس، فقال:

وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ أَيْ: يَمْنَعُهَا الْأَجْرَ وَ الثَّوَابَ بِبَخْلِهِ، وَ بَخْلٌ يَتَعَدَّى بِعَلَى تَارَةً وَ بَعْنٌ أُخْرَى. وَقِيلَ: إِنْ أَصْلَهُ أَنْ يَتَعَدَّى بِعَلَى، وَ لَا يَتَعَدَّى بِعَنْ إِلَّا إِذَا ضَمَّنَ مَعْنَى الْإِمْسَاكِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ الْمَطْلُوقُ، الْمَتَزَّهِ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَ إِلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَ الرَّحْمَةِ، وَ جَمَلَةٌ وَ إِنْ تَوَلَّوْا يَسِيرًا يَتَبَدَّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ مَعْطُوفَةٌ عَلَى الشَّرْطِيَّةِ الْمَتَقَدِّمَةِ وَ هِيَ «وَ إِنْ

تُؤْمِنُوا»، والمعنى: وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى يستبدل قوما آخرين يكونون مكانكم هم أطوع لله منكم ثم لا- يَكُونُوا أمثالكم في التولى عن الإيمان والتقوى. قال عكرمة: هم فارس والروم. وقال الحسن: هم العجم. وقال شريح بن عبيد: هم أهل اليمن، وقيل: الأنصار، وقيل: الملائكة، وقيل: التابعون. وقال مجاهد: هم من شاء الله من سائر الناس. قال ابن جرير: والمعنى ثم لا يَكُونُوا أمثالكم أى: فى البخل بالإنفاق فى سبيل الله.

وقد أخرج عبد بن حميد، ومحمد بن نصر فى كتاب «الصلاة»، وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال:

كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضرم مع لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفخ مع الشرك عمل، حتى نزلت أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ ولا- تُبطلوا أعمالكم فخافوا أن يبطل الذنب العمل، ولفظ عبد ابن حميد: فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم. وأخرج ابن نصر وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر قال:

كنا معشر أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم نرى أنه ليس شىء من الحسنات إلا- مقبول، حتى نزلت أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ ولا- تُبطلوا أعمالكم فلما نزلت هذه الآية قلنا: ما هذا الذى يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، فكنا إذا رأينا من أصاب شيئا منها قلنا قد هلك، حتى نزلت هذه الآية إن الله لا يغفر أن يُشركَ بهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ\* فلما نزلت كفنا عن القول فى ذلك، وكنا إذا رأينا أحدا أصاب منها شيئا خفنا عليه، وإن لم يصب منها شيئا رجونا. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله:

يَتْرِكُمْ قال: يظلمكم. وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه قال: لما نزلت: وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ قالوا: من هؤلاء؟ وسلمان إلى جانب النبى صلى الله عليه وسلم، فقال: «هم الفرس، هذا وقومه». وفى إسناده مسلم بن خالد الزنجى وقد تفرد به، وفيه مقال معروف.

وأخرجه عنه عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذى. وابن جرير وابن أبى حاتم، والطبرانى فى الأوسط، والبيهقى فى الدلائل، عن أبى هريرة قال: «تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ فقالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان ثم قال: هذا وقومه، والذى نفسى بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس» وفى إسناده أيضا مسلم بن خالد الزنجى. وأخرج ابن مردويه من حديث جابر نحوه.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٢

## سورة الفتح

### إشارة

وهى مدينة قال القرطبى: بالإجماع. وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الفتح بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج ابن إسحاق، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الدلائل، عن المسور بن مخرمة و مروان قالوا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديدية من أولها إلى آخرها. وهذا لا ينافى الإجماع على كونها مدينة؛ لأن المراد بالسور المدنية النازلة بعد الهجرة من مكة. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن مغفل قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح فى مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها. وفى الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير



معه ليلا، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم سأله فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر بن الخطاب: هلكت أم عمر، نزلت «(١) رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، فقال عمر: فحرّكت بعيري ثم تقدّمت أمام الناس و خشيت أن ينزل في قرآن، فما نشبت «(٢) أن سمعت صارخا يصرخ بي؛ فقلت: لقد خشيت أن يكون قد نزل في قرآن، فجئت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلمت عليه، فقال: «لقد أنزلت على سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»، ثم قرأ:

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا وَ فِي صَاحِحِ مُسْلِمٍ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُمْ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا الْآيَةَ إِلَى قَوْلِهِ: فَوُزِيَ عَظِيمًا مَرَجَعَهُ مِنَ الْحَدِيثِ، وَ هُم يَخَالِطُهُمُ الْحُزْنَ وَ الْكَآبَةَ، وَ قَدْ نَحَرَ الْهَدْيَ بِالْحَدِيثِ، فَقَالَ: «لقد أنزلت على آية هي أحب إلي من الدنيا جميعها».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الفتح (٤٨): الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ يُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَ يُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا (٧)

(١). «نزلت»: أي ألححت عليه و بالغت في السؤال.

(٢). «ما نشبت»: أي ما لبثت.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٣

قوله: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا اختلف في تعيين هذا الفتح، فقال الأكثر: هو صلح الحديبية، و الصِّلح قد يسمّى فتحا. قال الفراء: و الفتح قد يكون صلحا، و معنى الفتح في اللغة: فتح المغلق، و الصِّلح الذي كان مع المشركين بالحديبية كان مسدودا متعذرا حتى فتحه الله. قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، و ذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام في قلوبهم، و أسلم في ثلاث سنين خلق كثير، و كثر بهم سواد الإسلام. قال الشعبي: لقد أصاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديبية ما لم يصب في غزوة، غفر الله له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخر، و بويع بيعة الرضوان، و أطعموا نخل خيبر، و بلغ الهدى محله، و ظهرت الروم على فارس، و فرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس. و قال قوم:

إنه فتح مكة. و قال آخرون: إنه فتح خيبر. و الأول أرجح، و يؤيده ما ذكرناه قبل هذا من أن السورة أنزلت في شأن الحديبية. و قيل: هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتوح، و قيل: هو ما فتح له من النبوة و الدعوة إلى الإسلام، و قيل: فتح الروم، و قيل: المراد بالفتح في هذه الآية الحكم و القضاء، كما في قوله: افْتَحَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ فَكَانَهُ قَالَ: إِنَّا قَضَيْنَا لَكَ قَضَاءَ مَبِينَا، أَيْ: ظَاهِرًا وَاضِحًا مَكشُوفًا لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ اللام متعلقه بفتحنا، و هي لام العلة. قال ابن الأنباري: سألت أبا

العباس، يعنى المبرد، عن اللام فى قوله: لِيُغْفَرَ لَكَ اللهُ فَقَالَ: هى لام كى، معناها: إنا فتحنا لك فتحا مينا لكى يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة فى الفتح، فلما انضم إلى المغفرة شىء حادث واقع؛ حسن معنى كى، و غلط من قال ليس الفتح سبب المغفرة. وقال صاحب الكشاف: إن اللام لم تكن علمة للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة و هى: المغفرة، و إتمام النعمة، و هداية الصراط المستقيم، و النصر العزيز، كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة و نصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين، و أعراض العاجل و الآجل. و هذا كلام غير جيد، فإن اللام داخلة على المغفرة فهى علمة للفتح. فكيف يصح أن تكون معللة؟ و قال الرازى فى توجيه التعليل: إن المراد بقوله: لِيُغْفَرَ لَكَ اللهُ التعريف بالمغفرة تقديره: إنا فتحنا لك لنعرف أنك مغفور لك معصوم. و قال ابن عطية: المراد أن الله فتح لك لكى يجعل الفتح علامة لغفرانه لك. فكأنها لام الصيرورة. و قال أبو حاتم: هى لام القسم و هو خطأ، فإن لام القسم لا تكسر و لا ينصب بها.

و اختلف فى معنى قوله: مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ فَقِيلَ: مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ قَبْلَ الرِّسَالَةِ، و ما تأخر بعدها، قاله مجاهد و سفيان الثورى و ابن جرير و الواحدى و غيرهم. و قال عطاء: مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ:

يعنى ذنب أبويك آدم و حواء، و ما تأخر من ذنوب أمتك. و ما أبعد هذا عن معنى القرآن! و قيل: مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ أَيْبِكَ أَيْبِكَ إِبْرَاهِيمَ، و ما تأخر من ذنوب النبيين من بعده، و هذا كالذى قبله. و قيل: مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ يَوْمَ بَدْرٍ، و ما تأخر من ذنب يوم حنين، و هذا كالكولين الأولين فى البعد. و قيل: لَوْ كَانَ ذَنْبٌ قَدِيمٌ أَوْ حَدِيثٌ لَغَفَرْنَا لَكَ، و قيل: غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا لَا وَجْهَ لَهُ، و الأول أولى. و يكون المراد بالذنب بعد الرسالة ترك ما هو الأولى، و سَمِيَ ذَنْبًا فِي حَقِّهِ لِجَلَالَةِ قَدْرِهِ وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ ذَنْبًا فِي حَقِّ غَيْرِهِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ بِإِظْهَارِ دِينِكَ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، و قيل: بِالْجَنَّةِ، و قيل: بِالنَّبْوَةِ وَ الْحِكْمَةِ، و قيل: بِفَتْحِ مَكَّةَ وَ الطَّائِفِ وَ خَيْبَرَ، وَ الْأُولَى أَنْ

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٤

يكون المعنى؛ ليجمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة و الهداية إلى صراط مستقيم، و هو الإسلام، و معنى «يهديك»: يشتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه وَ يُضْرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا أَى: غالبًا منيعًا لا يتبعه ذلّ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ أَى: السكون و الطمأنينة بما يسره لهم من الفتح؛ لثلاث تزعج نفوسهم لما يرد عليهم لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ أَى: ليزدادوا بسبب تلك السكينة إيمانًا منضمًا إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل. قال الكلبي: كلما نزلت آية من السماء فصدقوا بها ازدادوا تصديقًا إلى تصديقهم، و قال الربيع بن أنس: خشية مع خشيتهم. و قال الضحاك: يقينا مع يقينهم وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ وَ الْإِنْسَ وَ الْجِنَّ وَ الشَّيَاطِينَ يَدْبُرُ أَمْرَهُمْ كَيْفَ يَشَاءُ، وَ يَسْلُطُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَ يَحُوطُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَ كَانَ اللهُ عَلِيمًا كَثِيرَ الْعِلْمِ بَلِيغَهُ حَكِيمًا فِي أَعْمَالِهِ وَ أَقْوَالِهِ.

لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هَذِهِ اللَّامُ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحذُوفٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، تَقْدِيرُهُ: يَتَلَى بِتِلْكَ الْجُنُودِ مِنْ يَشَاءُ، فَيَقْبَلُ الْخَيْرَ مِنْ أَهْلِهِ وَ الشَّرَّ مِنْ قَضَى لَهُ بِهِ لِيَدْخُلَ وَ يَعْذِبَ، وَ قِيلَ:

مُتَعَلِّقَةٌ بِقَوْلِهِ: إِنَّا فَتَحْنَا كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ مَا فَتَحْنَا لِيَدْخُلَ وَ يَعْذِبَ، وَ قِيلَ: مُتَعَلِّقَةٌ بِنَصْرِكَ:

أَى نصرك الله بالمؤمنين ليدخل و يعذب، و قيل: متعلقة بيزدادوا، أَى: يزدادوا «ليدخل» و «يعذب»، و الأول أولى. وَ يُكْفَرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ أَى: يسترها و لا يظهرها و لا يعذبهم بها، و قدّم الإدخال على التكفير مع أن الأمر بالعكس؛ للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى، و المقصد الأسنى وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا أَى: و كان ذلك الوعد بإدخالهم الجنة و تكفير سيئاتهم عند الله و فى حكمه فوزًا عظيمًا، أَى:

ظفرا بكل مطلوب و نجاه من كل غمّ، و جلبا لكل نفع، و دفعا لكل ضرر، و قوله: عِنْدَ اللهِ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحذُوفٍ عَلَى أَنَّهُ حَالٌ مِنْ فَوْزًا؛

لأنه صفة في الأصل، فلما قدم صار حالاً، أى: كائنا عند الله، و الجملة معترضة بين جزاء المؤمنين و جزاء المنافقين و المشركين. ثم لما فرغ مما وعد به صالحى عبادہ ذكر ما يستحقه غيرهم، فقال: وَ يُعَذَّبُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ وَ هُوَ مُعْطُوفٌ عَلَى «يَدْخُلُ»، أى: يعذبهم فى الدنيا بما يصل إليهم من الهموم و الغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام و قهر المخالفين له، و بما يصابون به من القهر و القتل و الأسر، و فى الآخرة بعذاب جهنم، و فى تقديم المنافقين على المشركين دلالة على أنهم أشد منهم عذاباً، و أحق منهم بما وعدهم الله به. ثم وصف الفريقين، فقال: الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ وَ هُوَ ظَنُّهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَغْلِبُ؛ وَ أَنَّ كَلِمَةَ الْكُفْرِ تَعْلُو كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ.

وَمَا ظَنُّوهُ مَا حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ نَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا.

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ أَى: ما يظنونه و يتربصونه بالمؤمنين دائر عليهم، حائق بهم، و المعنى: أن العذاب و الهلاك العذى يتوقعونه للمؤمنين واقعان عليهم نازلان بهم. و قال الخليل و سيويه: السوء هنا الفساد. قرأ الجمهور السوء بفتح السين. و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بضمها وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا لَمَّا بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّ دَائِرَةَ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ فِى الدُّنْيَا بَيْنَ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ مَعَ ذَلِكَ مِنَ الْغَضَبِ وَ اللَّعْنَةِ وَ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ وَ الشَّيَاطِينِ فَتَحَ الْقَدِيرِ، ج ٥، ص: ٥٥

وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا كَرَّرَ هَذِهِ الْآيَةَ لِقَصْدِ التَّأْكِيدِ. وَ قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْجُنُودِ هُنَا جُنُودَ الْعَذَابِ كَمَا يَفِيدُهُ التَّعْبِيرُ بِالْعَزَّةِ هُنَا مَكَانَ الْعِلْمِ هُنَا لَكَ.

و قد أخرج ابن أبى شيبه و أحمد و أبو داود و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن مجتمّع بن جارية الأنصارى قال: شهدنا الحديدية، فلما انصرفنا عنها حتى بلغنا كراع الغميم (١)، إذ الناس يهزون الأباغر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ فقالوا: أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، فخرجنا مع الناس نوجف (٢)، فإذا رسول الله صلى الله عليه و سلم على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه فقروا عليهم: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا، فقال رجل: أى رسول الله أو فتح هو؟ قال:

إِى وَ الْعَذَى نَفْسَ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَفَتَحَ. فقسمت خبير على أهل الحديدية، لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديدية، فقسمها رسول الله صلى الله عليه و سلم ثمانية عشر سهماً، و كان الجيش ألفاً و خمسمائة، منهم ثلاثمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، و أعطى الراجل سهماً. و أخرج ابن أبى شيبه و أحمد، و البخارى فى تاريخه، و أبو داود و النسائى و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن مسعود قال: أقبلنا من الحديدية مع رسول الله صلى الله عليه و سلم، فبينما نحن نسير إذا أتاه الوحى، و كان إذا أتاه اشتد عليه، فسرى عنه و به من السرور ما شاء الله، فأخبرنا أنه أنزل عليه: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا. و أخرج البخارى و غيره عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، و قد كان فتح مكة فتحاً، و نحن نعدّ الفتح بيعه الرضوان يوم الحديدية. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا قال: «فتح مكة». و أخرج البخارى و مسلم و غيره هما عن المغيرة بن شعبه قال: «كان النبى صلى الله عليه و سلم يصلى حتى ترم قدماه، فليل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً» و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس فى قوله: هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ قال: السكينة هى الرحمة، و فى قوله: لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ قال: إن الله بعث نبيه صلى الله عليه و سلم بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدّق بها المؤمنون زادهم الصلاة، فلما صدّقوا بها زادهم الصيام، فلما صدّقوا به زادهم الزكاة، فلما صدّقوا بها زادهم الحجّ، فلما صدّقوا به زادهم الجهاد.

ثم أكمل لهم دينهم فقال: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا «٣».

قال ابن عباس: فأوثق إيمان أهل السماء وأهل الأرض وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ قَالَ: تصديقا مع تصديقهم. وأخرج البخاري ومسلم

(١). «كراع الغميم»: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة.

(٢). «نوجف»: نسرع السير.

(٣). المائدة: ٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٦

وغيرهما عن أنس قال: لما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ مرجعه من الحديدية. قال: «لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي مما على الأرض، ثم قرأها عليهم. فقالوا: هنيئا مريئا يا رسول الله، قد بين الله لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا. فزلت عليه لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ حتى بلغ فوزاً عظيماً».

### [سورة الفتح (٤٨): الآيات ٨ الى ١٥]

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا (٨) لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَفَّقُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ آصِيًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) سَيَقُولُ لِمَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَ أَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَ زَيَّنَّ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢)

وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)

قوله: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا أَي: على أمتك بتبليغ الرسالة إليهم وَ مُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ لِلْمُطِيعِينَ وَ نَذِيرًا لِأَهْلِ الْمَعْصِيَةِ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ قَرَأَ الْجُمْهُورُ: لِيُؤْمِنُوا بِالْفَوْقِيَّةِ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتحتية، فعلى القراءة الأولى الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأمته، وعلى القراءة الثانية المراد المبشرين والمنذرين، وانتصاب شاهدا ومبشرا ونذيرا على الحال المقدره وتُعزِّزُوهُ وَ تُوَفَّقُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ الْخَلَافِ بَيْنَ الْقَرَاءِ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْأَفْعَالِ كَالْخَلَافِ فِي لِيُؤْمِنُوا كَمَا سَلَفَ، وَمَعْنَى تَعَزَّرُوهُ وَ تَفَخَّمُوهُ؛ قَالَ الْحَسَنُ وَ الْكَلْبِيُّ، وَ الْعَزِيزُ: التَّعْظِيمُ وَ التَّوْقِيرُ. وَ قَالَ قَتَادَةُ: تَنْصَرُوهُ وَ تَمْنَعُوا مِنْهُ. وَ قَالَ عِكْرَمَةُ: تَقَاتَلُونَ مَعَهُ بِالسِّيفِ، وَ مَعْنَى تَوَقَّرُوهُ: تَعْظُمُوهُ. وَ قَالَ السُّدِّيُّ: تَسُودُوهُ، وَ قِيلَ: وَ الضَّمِيرَانِ فِي الْفَعْلَيْنِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَ هُنَا وَقَفَ تَامًا، ثُمَّ يَبْتَدِئُ وَ تَسْبِيحُوهُ، أَي: تَسْبِيحُوا اللَّهَ عَزَّ وَ جَلَّ بُكْرَةً وَ آصِيًا أَي: غَدْوَةً وَ عَشِيَّةً، وَ قِيلَ: الضَّمَائِرُ كُلُّهَا فِي الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ، فَيَكُونُ مَعْنَى تَعَزَّرُوهُ وَ تَوَقَّرُوهُ: تَثْبُتُونَ لَهُ التَّوْحِيدَ وَ تَنْفُونَ عَنْهُ الشُّرَكَاءَ، وَ قِيلَ: تَنْصَرُوا دِينَهُ وَ تَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ. وَ فِي التَّسْبِيحِ وَ جِهَانِ، أَحَدُهُمَا التَّنْزِيهِ لَهُ سُبْحَانَهُ مِنْ كُلِّ قَبِيحٍ، وَ الثَّانِي الصَّلَاةُ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ يَعْنِي بِيَعَةُ الرِّضْوَانِ بِالْحَدِيثِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ بَايَعُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ عَلَى قِتَالِ قَرِيشٍ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذِهِ الْبَيْعَةُ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هِيَ بَيْعَةُ لَهُ،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٧

كما قال: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ «١» وذلك لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنه، و جمله: يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ مستأنفة لتقرير ما قبلها على طريق التخييل، في محل نصب على الحال، و المعنى: أن عقد الميثاق مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كعقده مع الله سبحانه من غير تفاوت. و قال الكلبي: المعنى: إن نعمه الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة. و قيل: يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء. و قال ابن كيسان: قُوَّةُ اللَّهِ و نصرته فوق قُوَّتِهِمْ و نصرتهم فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ أَي: فمن نقض ما عقد من البيعة فإنما ينقض على نفسه؛ لأن ضرر ذلك راجع إليه لا يجاوزه إلى غيره وَ مَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ أَي:

ثبت على الوفاء بما عاهد عليه في البيعة لرسوله. قرأ الجمهور: فَسَيُؤْتِيهِمُ بِالتَّحْتِيَّةِ، و قرأ نافع و ابن كثير و ابن عامر بالنون، و اختار القراءة الأولى أبو عبيد و أبو حاتم، و اختار القراءة الثانية الفراء سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ هُمُ الَّذِينَ خَلَفَهُمُ اللَّهُ عَنِ صَحْبَةِ رَسُولِهِ حِينَ خَرَجَ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ. قال مجاهد و غيره: يعنى أعراب غفار و مزينة و جهينة و أسلم و أشجع و الدئل، و هم الأعراب الذين كانوا حول المدينة.

و قيل: تخلفوا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين سافر إلى مكة عام الفتح بعد أن كان قد استنفرهم ليخرجوا معه، و المخلف: المتروك شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَ أَهْلُونَا أَي: منعنا عن الخروج معك ما لنا من الأموال و النساء و الذراري، و ليس لنا من يقوم بهم و يخلفنا عليهم فَاسْتَعْفِرْنَا لَنَا لِيَغْفِرَ اللَّهُ لَنَا ما وقع منا من التخلف عنك بهذا السبب، و لما كان طلب الاستغفار منهم ليس عن اعتقاد بل على طريقة الاستهزاء، و كانت بواطنهم مخالفة لظواهرهم فضحهم الله سبحانه بقوله: يَقُولُونَ بِاللَّيْلِ تَنَبَّهْتُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ و هذا هو صنيع المنافقين.

و الجملة مستأنفة لبيان ما تنطوى عليه بواطنهم، و يجوز أن تكون بدلا من الجملة الأولى. ثم أمر الله سبحانه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجيب عنهم، فقال: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أَي: فمن يمنعكم مما أَرَادَ اللَّهُ بِكُمْ من خير و شر، ثم بين ذلك فقال: إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَي: إنزال ما يضرركم من ضياع الأموال و هلاك الأهل. قرأ الجمهور: ضَرًّا بفتح الضاد، و هو مصدر ضررته ضَرًّا. و قرأ حمزة و الكسائي بضمها، و هو اسم ما يضر، و قيل: هما لغتان أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً أَي: نصرا و غنيمه، و هذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدفع عنه الضر، و يجلب لهم النفع، ثم أضر ب سبحانه عن ذلك و قال: بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا أَي: إن تخلفكم ليس لما زعمتم، بل كان الله خبيرا بجميع ما تعملونه من الأعمال التي من جملتها تخلفكم، و قد علم أن تخلفكم لم يكن لذلك، بل للشك و النفاق و ما خطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة بالله، و لهذا قال: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا و هذه الجملة مفسرة لقوله: بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا لما فيها من الإبهام، أَي:

بل ظننتم أن العدو يستأصل المؤمنين بالمره فلا يرجع منهم أحد إلى أهله، فلأجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم من

(١). النساء: ٨٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٨

المعاذير الباطلة وَ زَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ أَي: و زين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم فقبلتموه. قرأ الجمهور وَ زَيْنَ مبنيا للمفعول، و قرئ مبنيا للفاعل. وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَ السُّوءِ أَنْ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، و هذا الظن إما هو الظن الأول، و التكرير للتأكيد و التوبيخ، و المراد به ما هو أعم من الأول، فيدخل الظن الأول تحته دخولا أوليا وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا أَي: هلكي. قال الزجاج: هالكين عند الله، و كذا قال مجاهد. قال الجوهرى: البور: الرجل الفاسد الهالك الهدى لا خير فيه. قال أبو عبيد قَوْمًا بُورًا هلكي، و هو

جمع بائر، مثل حائل و حول، و قد بار فلان، أى: هلك، و أباره الله: أهلكه و مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا هَذَا الْكَلَامُ مُسْتَأْنَفٌ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ غَيْرَ دَاخِلٍ تَحْتَ مَا أَمَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَهُ، أى: و من لم يؤمن بهما كما صنع هؤلاء المخلفون، فجزاؤهم ما أعدّه الله لهم من عذاب السعير و لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، و إِنَّمَا تَعَبَّدَهُمْ بِمَا تَعَبَّدَهُمْ لِشَيْبٍ مِنْ أَحْسَنِ وَ يِعَاقِبُ مِنْ أَسَاءِ، و لهذا قال: يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ أَنْ يَعْذِِبَهُ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ «١». وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا أى: كثير المغفرة و الرحمة بليغها، يخصّ بمغفرته و رحمته من يشاء من عباده سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا الْمُخَلَّفُونَ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورُونَ سَابِقًا، و الظرف متعلق بقوله سَيَقُولُ و المعنى:

سيقولون عند انطلاقكم أيها المسلمون إلى مغانمٍ يعنى مغانمٍ خيبرٍ لِتَأْخُذُوهَا لِتَحُوزُوهَا ذُرُونًا نَتَّبِعْكُمْ أى: اتركونا نتبعكم و نشهد معكم غزوة خيبر. و أصل القصة أنه لما انصرف النبي صلى الله عليه و سلم و من معه من المسلمين من الحديبية و عدهم الله فتح خيبر، و خصّ بغنائمها من شهد الحديبية، فلما انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلفون: ذرونا نتبعكم، فقال الله سبحانه: يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ أَى: يغيروا كلام الله، و المراد بهذا الكلام الذى أرادوا أن يبدلوه هو مواعيد الله لأهل الحديبية خاصة بغنيمة خيبر. و قال مقاتل:

يعنى أمر الله لرسوله أن لا يسير معه أحد منهم. و قال ابن زيد: هو قوله تعالى: فَاسْتَأْذِنُوا كَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عِدًّا «٢» و اعترض على هذا ابن جرير و غيره بأن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر و بعد فتح مكة، و الأول أولى، و به قال مجاهد و قتادة، و رجحه ابن جرير و غيره. قرأ الجمهور:

كَلَامَ اللَّهِ وَ قرأ حمزة و الكسائي «كلم الله» قال الجوهرى: الكلام اسم جنس يقع على القليل و الكثير، و الكلام لا يكون أقل من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة، مثل نبقه و نبق. ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه و سلم أن يمنعهم من الخروج معه فقال: قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا هَذَا النِّفَى هُوَ فِي مَعْنَى النِّهَى، و المعنى: لا تتبعونا كذلككم قال الله مِنْ قَبْلِ أَى: من قبل رجوعنا من الحديبية أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة ليس لغيرهم فيها نصيب فَسَيَقُولُونَ يعنى المنافقين عند سماع هذا القول، و هو قوله: «لَنْ تَتَّبِعُونَا» بَلْ تَحْسُدُونَنَا أَى: بل ما يمنعكم من خروجنا معكم إلا الحسد لئلا نشارككم فى الغنيمة، و ليس ذلك

(١). الأنبياء: ٢٣.

(٢). التوبة: ٨٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٩

بقول الله كما تزعمون. ثم ردّ الله سبحانه عليهم بقوله: يَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا أَى: لا يعلمون إلا علما قليلا، و هو علمهم بأمر الدنيا، و قيل: لا يفقهون من أمر الدين إلا فقها قليلا، و هو ما يصنعونه نفاقا بطواهرهم دون بواطنهم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ تُعَزِّرُوهُ يعنى الإجلال وَ تُوقِّرُوهُ يعنى التعظيم، يعنى محمد صلى الله عليه و سلم. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عنه فى قوله: وَ تُعَزِّرُوهُ قال: تضربوا بين يديه بالسيف. و أخرج ابن عدى و ابن مردويه و الخطيب، و ابن عساكر فى تاريخه، عن جابر بن عبد الله قال: «لما أنزلت على رسول الله صلى الله عليه و سلم هذه الآية وَ تُعَزِّرُوهُ قال لأصحابه: ما ذاك؟ قالوا: الله و رسوله أعلم، قال: لتنصروه». و أخرج أحمد و ابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسول الله صلى الله عليه و سلم على السمع و الطاعة فى النشاط و الكسل، و على النّفقة فى العسر و اليسر، و على الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و على أن نقول فى الله لا تأخذنا فيه لومة الكسل، و على النّفقة فى العسر و اليسر، و على الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و على أن نقول فى الله لا تأخذنا فيه لومة

لائم، و على أن ننصره إذا قدم علينا يثرب، فمنعه مما نمنع منه أنفسنا و أزواجنا و أبناءنا و لنا الجنة، فمن وفى وفى الله له، و من نكث فإنما ينكث على نفسه». و فى الصحيحين من حديث جابر: «أنهم كانوا فى بيعه الرضوان خمس عشرة مائة» و فيهما عنه أنهم كانوا أربعه عشرة مائة، و فى البخارى من حديث قتادة عن سعيد بن المسيب أنه سأله كم كانوا فى بيعه الرضوان قال: خمس عشرة مائة، فقال له: إن جابرا قال: كانوا أربع عشرة مائة، قال رحمه الله: و هم، هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة.

### [سورة الفتح (٤٨): الآيات ١٦ الى ٢٤]

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرٌ تَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأَسْ شَدِيدٍ تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعْذِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠)

و أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَ لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَّلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سِيئَةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسِيئَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) قوله: قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ هُمُ الْمَذْكُورُونَ سَابِقًا سِتْرٌ تَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بِأَسْ شَدِيدٍ قَالَ عطاء بن أبى رباح و مجاهد و ابن أبى ليلى و عطاء الخراسانى: هُمُ فَارِسُ. وَ قَالَ كعب و الحسن: هُمُ الرُّومُ.

و روى عن الحسن أيضا أنه قال: هُمُ فَارِسُ وَ الرُّومُ. وَ قَالَ سعيد بن جبیر: هُمُ هُوَازِنُ وَ ثَقِيفُ. وَ قَالَ عكرمة: فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٠

هوازن. و قال قتادة: هوازن و غطفان يوم حنين. و قال الزهرى و مقاتل: هُمُ بنو حنيفه أهل اليمامة أصحاب مسيلمه. و حكى هذا القول الواحدى عن أكثر المفسرين. تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ أَى: يكون أحد الأمرين: إما المقاتله، أو الإسلام، لا ثالث لهما، و هذا حكم الكفار الذين لا تؤخذ منهم الجزية. قال الزجاج: التقدير: أو هم يسلمون، و فى قراءة أبى أو يسلموا أَى: حتى يسلموا فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَ هُوَ الْغَنِيمَةُ فى الدنيا و الجنة فى الآخرة و إِنْ تَوَلَّوْا أَى: تعرضوا كما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ وَ ذَلِكَ عام الحديبيه يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا بِالْقَتْلِ وَ الْأَسْرِ وَ الْقَهْرِ فى الدنيا و بعذاب النار فى الآخرة لتضاعف جرمكم. لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَ لَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ أَى: ليس على هؤلاء المعذورين بهذه الأعذار حرج فى التخلف عن الغزو لعدم استطاعتهم. قال مقاتل: عذر الله أهل الزمانه الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبيه بهذه الآيه، و الحرج: الإثم وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ وَ نَهَاهُ عَنْهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ قَرَأَ الْجُمْهُورُ: يُدْخِلْهُ بِالتَّحْتِ، و اختار هذه القراءة أبو حاتم و أبو عبيد، و قرأ نافع و ابن عامر بالنون. وَ مَنْ يَتَوَلَّ يَعْذِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا أَى: و من يعرض عن الطاعة يعذبه الله عذابا شديدا الألم. ثم ذكر سبحانه الذين أخلصوا نياتهم و شهدوا بيعه الرضوان، فقال:

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَى: رضى الله عنهم وقت تلك البيعه، و هى بيعه الرضوان، و كانت بالحديبيه، و العامل فى «تحت» إما يبايعونك، أو محذوف على أنه حال من المفعول، و هذه الشجرة المذكورة هى شجرة كانت

بالحديبية، وقيل: سدره. وكانت البيعة على أن يقاتلوا قريشا ولا يفروا. وروى أنه بايعهم «أ» على الموت، وقد تقدم ذكر عدد أهل هذه البيعة قريبا، والقصة مبسوطه في كتب الحديث و السير فعلم ما في قلوبهم معطوف على يبايعونك. قال الفراء: أى: علم ما في قلوبهم من الصدق والوفاء. وقال قتادة وابن جريج: من الرضى بأمر البيعة على أن لا يفروا. وقال مقاتل: من كراهة البيعة على الموت فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ معطوف على رضى. و السكينة: الطمأنينة و سكون النفس كما تقدم، وقيل: الصبر و أُنَابَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا هو فتح خيبر عند انصرافهم من الحديبية. قاله قتادة و ابن أبى ليلى و غيرهما، وقيل: فتح مكة، و الأول أولى و مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا أى: و أثابكم مغانم كثيرة، أو: و آتاكم، و هى غنائم خيبر، و الالتفات لتشريفهم بالخطاب و كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا أى: غالبا مصدرا أفعاله و أقواله على أسلوب الحكمة و وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فى هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم إلى يوم القيامة يأخذونها فى أوقاتها التى قَدَّرَ وقوعها فيها فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ أى: غنائم خيبر، قاله مجاهد و غيره، و قيل: صلح الحديبية و كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ أى: و كفَّ أيدى قريش عنكم يوم الحديبية بالصلح، و قيل: كفَّ أيدى أهل خيبر و أنصارهم عن قتالكم، و قذف فى قلوبهم الرعب. و قال قتادة: كفَّ أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج النبىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ و سَلَّمَ إلى الحديبية و خيبر،

(١). فى مسند أحمد (٤/ ٥١): فبايعوه.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦١

و رويح هذا ابن جرير، قال: لأن كفَّ أيدى الناس بالحديبية مذكور فى قوله: وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ و قيل: كفَّ أيدى الناس عنكم؛ يعنى عينه بن حصن الفزارى، و عوف بن مالك النضرى، و من كان معهما، إذا جاءوا لينصروا أهل خيبر عند حصار النبىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ و سَلَّمَ لهم و لَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ اللام يجوز أن تتعلق بفعل محذوف يقدر بعده، أى: فعل ما فعل من التعجيل و الكفَّ لتكون آية، أو على علة محذوفة تقديرها: وعد فعجل و كفَّ لتتفعوا بذلك و لتكون آية. و قيل: إن الواو مزيدة و اللام لتعليل ما قبله؛ أى:

و كفَّ لتكون؛ و المعنى: ذلك الكفَّ آية يعلم بها صدق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ و سَلَّمَ فى جميع ما يعدكم به و يَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا أى: يزيدكم بتلك الآية هدى، أو يثبتكم على الهداية إلى طريق الحق و أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا معطوف على «هذه»، أى: فعجّل لكم هذه المغانم، و مغانم أُخْرَى لم تقدروا عليها، و هى الفتوح التى فتحها الله على المسلمين من بعد كفارس و الروم و نحوهما، كذا قال الحسن و مقاتل و ابن أبى ليلى. و قال الضحاك و ابن زيد و ابن أبى إسحاق: هى خيبر وعدّها الله نبيه قبل أن يفتحها و لم يكونوا يرجونها. و قال قتادة: فتح مكة. و قال عكرمة: حنين، و الأول أولى قد أحاط الله بها صفة ثانية لأخرى. قال الفراء: أحاط الله بها لكم حتى تفتحوها و تأخذوها، و المعنى: أنه أعدّها لهم و جعلها كالشئ الذى قد أحيط به من جميع جوانبه، فهو محصور لا يفوت منه شئ، فهم و إن لم يقدروا عليها فى الحال فهى محبوسة لهم لا تفوتهم، و قيل: معنى أحاط: علم أنها ستكون لهم و كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا لا يعجزه شئ، و لا تختص قدرته ببعض المقدورات دون بعض و لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَارَ قَالَ قتادة:

يعنى كفار قريش بالحديبية، و قيل: أسد و غطفان الذين أرادوا نصر أهل خيبر، و الأول أولى ثم لا يجدون و لِيَا يواليهم على قتالكم و لا نصيرا ينصرهم عليكم سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ أى: طريقته و عادته التى قد مضت فى الأمم من نصر أوليائه على أعدائه، و انتصاب «سنه» على المصدرية بفعل محذوف، أى: بين الله سنة الله، أو هو مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة و لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا أى:



لن تجد لها تغييرا، بل هي مستمرة ثابتة وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ أَى: كَفَّ أَيْدَى الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ وَ أَيْدَى الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا جَاءُوا يَصُدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ مِنْ مَعَهُ عَنِ الْبَيْتِ عَامِ الْحَدِيثِ، وَ هِيَ: الْمَرَادُ بِبَطْنِ مَكَّةَ. وَ قِيلَ: إِنْ ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَبَطُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ مِنْ قَبْلِ جَبَلِ التَّنْعِيمِ مُتَسَلِحِينَ يَرِيدُونَ غَزَاةَ «١» النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَأَخَذَهُمُ الْمُسْلِمُونَ ثُمَّ تَرَكُوهُمْ. وَ فِي رِوَايَةٍ اخْتَلَفَ سِيَاتِي بِيَانِهِ آخِرَ الْبَحْثِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ.

وَ قَدْ أَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: أَوْلَى يَأْسٍ شَدِيدٍ يَقُولُ: فَارِسٍ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُمْ الْأَكْرَادُ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدُويهِ عَنِ

(١). «الغزوة»: الغفلة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٢

ابن عباس قال: فارس و الروم. و أخرج الفريابي و ابن مردويه عنه قال: هوازن و بني حنيفة. و أخرج الطبراني - قال السيوطي - بسند حسن عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه و سلم، و إنى لواضع القلم على أذني، إذ أمر بالقتال إذ جاء أعمى فقال: كيف لى و أنا ذاهب البصر؟ فتزلت لئس على الأعمى حرج الآية. قال هذا فى الجهاد، و ليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال: «بيننا نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه و سلم: أيها الناس البيعة البيعة، نزل روح القدس، فسرنا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَبَايَعَ لِعِثْمَانَ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى، فَقَالَ النَّاسُ: هُنَيْئًا لَا يَنْ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَ نَحْنُ هَاهُنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: لَوْ مَكَثَ كَذَا وَ كَذَا سَنَةً مَا طَافَ حَتَّى أَطَافَ».

وَ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْمُصَنَّفِ» عَنِ نَافِعٍ قَالَ: بَلَغَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ نَاسًا يَأْتُونَ الشَّجَرَةَ الَّتِي بُويعَ تَحْتِهَا، فَأَمَرَ بِهَا. فَقَطَعَتْ. وَ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنِ سَلْمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ قَالَ: بَايَعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، قِيلَ: عَلَى أَى شَيْءٍ كُنْتُمْ تَبَايَعُونَهُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: عَلَى الْمَوْتِ. وَ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَ غَيْرُهُ عَنِ جَابِرٍ قَالَ:

بَايَعَنَاهُ عَلَى أَلَّا نَفَرُ، وَ لَمْ نَبَايَعِهِ عَلَى الْمَوْتِ. وَ أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَ أَبُو دَاوُدَ وَ التِّرْمِذِيُّ عَنِ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ». وَ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِهِ مِثْلَهُ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ قَالَ: إِنَّمَا أَنْزَلَتِ السَّكِينَةُ عَلَى مَنْ عَلِمَ مِنْهُ الْوَفَاءَ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ وَ ابْنُ مَرْدُويهِ عَنْهُ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ يَعْنِي الْفَتْحَ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدُويهِ عَنْهُ أَيْضًا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ يَعْنِي خَيْرٌ وَ كَفَّ أَيْدَى النَّاسِ عَنْكُمْ يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ أَنْ يَسْتَحِلُّوا حَرَمَ اللَّهِ، وَ يَسْتَحِلُّ بِكُمْ وَ أَنْتُمْ حَرَمٌ وَ لَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ قَالَ: سَنَةٌ مِنْ بَعْدِكُمْ. وَ أَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَ ابْنُ مَرْدُويهِ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ، عَنْهُ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَالَ: هَذِهِ الْفَتْوحُ الَّتِي تَفْتَحُ إِلَى الْيَوْمِ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ وَ ابْنُ مَرْدُويهِ عَنْهُ أَيْضًا وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَالَ: هِيَ خَيْرٌ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ أَحْمَدُ وَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَ مُسْلِمٌ وَ أَبُو دَاوُدَ وَ التِّرْمِذِيُّ وَ النَّسَائِيُّ وَ ابْنُ جُرَيْرٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ ابْنُ مَرْدُويهِ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ، عَنِ أَنَسِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ الْحَدِيثِ، هَبَطَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ أَصْحَابُهُ ثَمَانُونَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فِي السَّلَاحِ مِنْ قَبْلِ جَبَالِ التَّنْعِيمِ يَرِيدُونَ غَزَاةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ فَأَخَذُوا فَعَفَا عَنْهُمْ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ

و في صحيح مسلم وغيره: أنها نزلت في نفر أسرهم سلمة بن الأكوع يوم الحديبية. و أخرج أحمد و النسائي، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و أبو نعيم في الدلائل، في سبب نزول الآية: «إن ثلاثين شابا من المشركين خرجوا يوم الحديبية على المسلمين في السلاح، فثاروا في وجوههم، فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه و سلم فأخذ الله بأسماعهم - و لفظ الحاكم: بأبصارهم - فقام إليهم المسلمون فأخذوهم، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه و سلم: هل جئتم في عهد أحد، أو هل جعل لكم أحد أمانا؟ فقالوا: لا، فخلّى سبيلهم، فنزلت هذه الآية».

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٣

### [سورة الفتح (٤٨): الآيات ٢٥ الى ٢٩]

هُم الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ الْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَ لَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمُ فَتَضَيَّبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بغير علم لِيُدْخَلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلَزَمَهُمُ الْكَلِمَةَ التَّقْوَى وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلِهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَهُمْ وَ مُتَقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَاجِدًا يُبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَ عِدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)

قوله: هُم الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ يعني كفار مكة، و معنى صدّهم عن المسجد الحرام: أنهم منعوهم أن يطوفوا به و يحلوا عن عمرتهم و الْهَدْيِ مَعْكُوفًا قرأ الجمهور بنصب «الهدى» عطفًا على الضمير المنصوب في «صدوكم»، و قرأ أبو عمرو في روايته عنه بالجرّ عطفًا على «المسجد»، و لا بدّ من تقدير مضاف، أي: عن نحر الهدى. و قرئ بالرفع على تقدير: و صد الهدى، و قرأ الجمهور بفتح الهاء من الهدى و سكون الدال، و روى عن أبي عمرو و عاصم بكسر الدال و تشديد الياء. و انتصاب معكوفًا على الحال من الهدى، أي: محبوسًا. قال الجوهري: عكفه، أي: حبسه و وقفه، و منه: وَ الْهَدْيِ مَعْكُوفًا و منه الاعتكاف في المسجد، و هو الاحتباس. و قال أبو عمرو بن العلاء: معكوفًا: مجموعًا، و قوله: أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ أَي: عن أن يبلغ محله، أو هو مفعول لأجله، و المعنى: صدّوا الهدى كراهة أن يبلغ محله، أو هو بدل من الهدى بدل اشتمال، و محله: منحره، و هو حيث يحلّ نحره من الحرم، و كان الهدى سبعين بدنه، و رخص الله سبحانه لهم بجعل ذلك الموضع الذي وصلوا إليه و هو الحديبية محلا للنحر.

و للعلماء في هذا كلام معروف في كتب الفروع. و لَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ يعني المستضعفين من المؤمنين بمكة، و معنى: «لم تعلموهم» لم تعرفوهم، و قيل: لم تعلموا أنهم مؤمنون أَنْ تَطَّوُّهُمُ يجوز أن يكون بدلا من رجال و نساء، و لكنه غلب الذكور، و أن يكون بدلا من مفعول «تعلموهم»، و المعنى أن تطئوهم بالقتل و الإيقاع بهم، يقال: وطئت القوم، أي: أوقعت بهم، و ذلك أنهم لو كسبوا مكة و أخذوها عنوة بالسيف لم يتميز المؤمنون الذين هم فيها من الكفار، و عند ذلك لا- يأمنوا أن يقتلوا المؤمنين فتلزمهم الكفارة و تلحقهم سبّه، و هو معنى قوله: فَتَضَيَّبِكُمْ مِنْهُمْ أَي: من جهتهم مَعْرَةٌ أَي: مشقة؛ بما يلزمهم في قتلهم من كفارة و عيب، و أصل المعرّة: العيب، مأخوذة من العرّ؛

وهو الجرب، وذلك أن المشركين سيقولون: إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم. قال الزجاج: لو لا أن تقتلوا رجالاً مؤمنين و نساء مؤمنات فتصيبكم منهم معزة، أى: إثم، وكذا قال الجوهري، و به قال ابن زيد. وقال الكلبي و مقاتل و غيرهما: المعزة: كفسارة قتل الخطأ، كما فى قوله: فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقِيَّتِهِ مُؤْمِنَةٌ (١) و قال ابن إسحاق: المعزة: غرم الدينة. و قال قطرب: المعزة: الشدة، و قيل: الغم، و بغير علم متعلق بأن تطوهم، أى: غير عالمين، و جواب لو لا- محذوف، و التقدير: لأذن الله لكم أو لما كف أيديكم عنهم، و اللام فى لِيَدْخُلَ اللَّهُ فى رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ متعلقه بما يدل عليه الجواب المقدر، أى: و لكن لم يأذن لكم، أو كف أيديكم ليدخل الله فى رحمته بذلك من يشاء من عباده و هم المؤمنون و المؤمنات الذين كانوا فى مكة، فيتمم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهرانى الكفار و يفك أسرهم، و يرفع ما كان ينزل بهم من العذاب. و قيل: اللام متعلقه بمحذوف غير ما ذكر، و تقديره: لو قتلتموهم لأدخلهم الله فى رحمته، و الأول أولى. و قيل: إن «من يشاء» عباده ممن رغب فى الإسلام من المشركين لو تزيّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً التريل: التميز، أى: لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا منهم لعذبنا الذين كفروا، و قيل: التريل: التفرق، أى: لو تفرّق هؤلاء من هؤلاء، و قيل: لو زال المؤمنون من بين أظهرهم، و المعانى متقاربة، و العذاب الأليم هو القتل و الأسر و القهر، و الظرف فى قوله: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَنْصُوبٌ بفعل مقدر، أى: اذكر وقت جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية الجاهلية و قيل:

متعلق بعذبنا، و الحمية: الأنفة، يقال: فلان ذو حمية، أى: ذو أنفة و غضب، أى: جعلوها ثابتة راسخة فى قلوبهم، و الجعل بمعنى الإلقاء، و حمية الجاهلية بدل من الحمية. قال مقاتل بن سليمان و مقاتل بن حيان:

قال أهل مكة: قد قتلوا أبناءنا و إخواننا و يدخلون علينا فى منازلنا، فتحدث العرب أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفنا، و اللات و العزى لا يدخلونها علينا. فهذه الحمية هى حمية الجاهلية التى دخلت قلوبهم. و قال الزهري: حميتهم: أنفتهم من الإقرار للنبي صلى الله عليه و سلم بالرسالة. قرأ الجمهور: «لَوْ تَزَيَّلُوا» و قرأ ابن أبى عبله و أبو حيوة و ابن عون لو تزيّلوا و التريل: التباين. فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أى: أنزل الطمأنينة و الوقار على رسوله و على المؤمنين؛ حيث لم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحمية، و قيل: ثبتهم على الرضى و التسليم و أَلَزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى و هى «لا إله إلا الله» كذا قال الجمهور، و زاد بعضهم «محمد رسول الله» صلى الله عليه و سلم و زاد بعضهم «وحده لا شريك له». و قال الزهري هى: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» و ذلك أن الكفار لم يقروا بها، و امتنعوا من كتابتها فى كتاب الصلح الذى كان بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه و سلم كما ثبت ذلك فى كتب الحديث و السير، فخص الله بهذه الكلمة المؤمنين و أَلَزَمَهُمْ بها، و الأول أولى؛ لأن كلمة التوحيد هى التى يتقى بها الشرك بالله، و قيل: كلمة التقوى هى الوفاء بالعهد و الثبات عليه و كانوا أحنّ بها و أهلها أى: و كان المؤمنون أحنّ بهذه الكلمة من الكفار و المستأهلين لها دونهم؛ لأن الله سبحانه أهلهم لدينه و صحبة رسوله صلى الله عليه و سلم لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ قال الواحدى: قال

(١). النساء: ٩٢.

المفسرون: إن الله سبحانه أرى نبيه صلى الله عليه و سلم فى المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية كأنه هو و أصحابه حلّقوا و قصّروا، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا و حسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك، فلما رجعوا من الحديبية و لم يدخلوا مكة قال المنافقون: و الله ما حلّقنا و لا قصّيرنا و لا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل الله هذه الآية، و قيل: إن الرؤيا كانت بالحديبية. و قوله:

بالحقّ صفةً لمصدر محذوف، أى: صدقا متلبسا بالحقّ، و جواب القسم المحذوف المدلول عليه باللام الموطئة هو قوله: لَتَدْخُلَنَّ  
الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَي: فى العام القابل، و قوله:

إِنْ شَاءَ اللَّهُ تعلق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه كما فى قوله: وَ لَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ  
اللَّهُ «١» قال ثعلب: إن الله استثنى فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون. و قيل:

كان الله سبحانه علم أنه يموت بعض هؤلاء الذين كانوا معه فى الحديدية، فوقع الاستثناء لهذا المعنى، قاله الحسن ابن الفضل. و  
قيل: معنى إن شاء الله: كما شاء الله. و قال أبو عبيدة: «أن» بمعنى إذ، يعنى إذ شاء الله حيث أرى رسوله ذلك، و انتصاب آمينين  
على الحال من فاعل لتدخلن، و كذا مُحَلِّقِينَ رُؤْسِيكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ أَي: آمينين من العدو، و محلّقا بعضكم و مقصّيرا بعضكم، و  
الحلق و التقصير خاصّ بالرجال، و الحلق أفضل من التقصير كما يدلّ على ذلك الحديث الصحيح فى استغفاره صلّى الله عليه و  
سَلَّمَ للمحلّقين فى المرّة الأولى و الثانية، و القائل يقول له: و للمقصرين؟ فقال فى الثالثة: و للمقصرين، و قوله: لا تخافون فى  
محل نصب على الحال أو مستأنف، و فيه زيادة تأكيد لما قد فهم من قوله: آمينين فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَي: ما لم تعلموا من  
المصلحة فى الصلح؛ لما فى دخولكم فى عام الحديدية من الضرر على المستضعفين من المؤمنين، و هو معطوف على «صدق»،  
أى: صدق رسوله الرؤيا، فعلم ما لم تعلموا به فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا أَي: فجعل من دون دخولكم مكة، كما أرى  
رسوله، فتحا قريبا. قال أكثر المفسرين:

هو صلح الحديدية. و قال ابن زيد و الضحاك: فتح خير. و قال الزهري: لا فتح فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديدية، و لقد  
دخل فى تلك الستين فى الإسلام مثل من كان قد دخل فيه قبل ذلك بل أكثر، فإن المسلمين كانوا فى سنة ست، و هى سنة  
الحديبية ألفا و أربعمائة، و كانوا فى سنة ثمان عشرة آلاف. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى أَي: إرسالا متلبسا بالهدى و دين  
الْحَقِّ وَ هُوَ الْإِسْلَامُ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ أَي: يعليه على كل الأديان كما يفيدته تأكيد الجنس، و قيل: ليظهر رسوله، و الأول  
أولى. و قد كان ذلك بحمد الله، فإن دين الإسلام قد ظهر على جميع الأديان و انقهر له كل أهل الملل و كفى بِاللَّهِ شَهِيدًا الْبَاءُ  
زائدة كما تقدّم فى غير موضع، أى: كفى الله شهيدا على هذا الإظهار الذى وعد المسلمين به و على صحة نبوة نبيه صلّى الله  
عليه و سَلَّمَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ مَبْتَدَأُ، و رسول الله خبره، أو هو خبر مبتدأ محذوف، و رَسُولُ اللَّهِ بدل منه، و قيل: محمد  
مبتدأ و رسول الله نعت له. وَ الَّذِينَ مَعَهُ مَعْطُوفٌ عَلَى الْمَبْتَدَأِ وَ مَا بَعْدَهُ الْخَبَرُ، و الأول أولى، و الجملة مبينة لما هو من جملة  
المشهود به وَ الَّذِينَ مَعَهُ قِيلَ: هم أصحاب الحديدية، و الأولى

(١). الكهف: ٢٣ و ٢٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٦

الحمل على العموم أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ أَي: غلاظ عليهم كما يغلظ الأسد على فريسته، و هو جمع شديد رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ أَي:  
متوادون متعاطفون، و هو جمع رحيم، و المعنى: أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدّة و الصلابة، و لمن وافقه الرحمة و الرأفة.  
قرأ الجمهور برفع أَشَدَّاءُ وَ رُحَمَاءُ على أنه خبر للموصول، أو خبر لمحمد و ما عطف عليه كما تقدم. و قرأ الحسن بنصبهما على  
الحال أو المدح، و يكون الخبر على هذه القراءة تراهم رُكْعًا شَيْدًا أَي: تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين، و على قراءة  
الجمهور هو خبر آخر أو استئناف، أعنى قوله «تراهم». يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا أَي: يطلبون ثواب الله لهم و رضاه عنهم، و  
هذه الجملة خبر ثالث على قراءة الجمهور، أو فى محل نصب على الحال من ضمير «تراهم»، و هكذا سَيَمَاهُمْ فى وُجُوهِهِمْ مِنْ  
أَثَرِ السُّجُودِ السَيَمَا: العلامة، و فيها لغتان المدّ و القصر، أى: تظهر علامتهم فى جباههم من أثر السجود فى الصلاة و كثرة التعبد

بالليل والنهار. وقال الضحّاك: إذا سهر الرجل أصبح مصفرا، فجعل هذا هو السيماء. وقال الزهري: مواضع السجود أشدّ وجوههم بياضا يوم القيامة. وقال مجاهد: هو الخشوع والتواضع، وبالأول: أعنى كونه ما يظهر في الجباه من كثرة السجود، قال سعيد بن جبير ومالك. وقال ابن جرير: هو الوقار. وقال الحسن: إذا رأيتهم مرضى وما هم بمرضى، وقيل: هو البهاء في الوجه وظهور الأنوار عليه، وبه قال سفيان الثوري. والإشارة بقوله: ذلك إلى ما تقدّم من هذه الصفات الجليلة، وهو مبتدأ وخبره قوله: مثلهم في التّوراة أي: وصفهم الذي وصفوا به في التوراة ووصفهم الذي وصفوا به في الإنجيل وتكرير ذكر المثل لزيادة تقريره وللتنبية على غرابته وأنه جار مجرى الأمثال في الغرابة كزّرع أخرج شطأه إلخ كلام مستأنف، أي: هم كزرع إلخ، وقيل: هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهمّة لم يرد به ما تقدّم من الأوصاف، وقيل: هو خبر، لقوله: و مثلهم في الإنجيل أي: و مثلهم في الإنجيل كزرع، قال الفراء: فيه وجهان: إن شئت قلت ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل، يعني كمثلم في القرآن، فيكون الوقف على الإنجيل، وإن شئت قلت: ذلك مثلهم في التوراة، ثم تبتدئ: ومثلهم في الإنجيل كزرع، قرأ الجمهور شطأه بسكون الطاء، وقرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتحها، وقرأ أنس ونصر بن عاصم ويحيى بن وثّاب «شطأه» كعصاه. وقرأه الجحدري وابن أبي إسحاق شطه بغير همزة، وكلها لغات. قال الأخفش والكسائي: شطأه: أي طرفه. قال الفراء:

أشطا الزرع فهو مشطى إذا خرج. قال الزجاج: أخرج شطأه أي: نباته. وقال قطرب: الشطء:

شوك السنبل. وروى عن الفراء أيضا أنه قال: هو السنبل. وقال الجوهري: شطء الزرع والنبات:

[فراخه «١»]، والجمع أشطاء. وقد أشطا الزرع خرج شطؤه. فأزره أي: قواه وأعانه وشده، وقيل: المعنى: إن الشطء قوى الزرع، وقيل: إن الزرع قوى الشطء، ومما يدل على أن الشطء خروج النبات قول الشاعر:

أخرج الشطء على وجه الثرى ومن الأشجار أفنان الثمر

(١). من تفسير القرطبي (٢٩٤/١٦)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٧

قرأ الجمهور فأزره بالمد. وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة وحامد بن قيس بالقصر، وعلى قراءة الجمهور قول امرئ القيس:

بمحنية «١» قد أزر الضّال «٢» نبتهمجرّ جيوش غانمين و خيب

قال الفراء: آزرت فلانا آزره آزرا؛ إذا قويته فاستغلظ أي: صار ذلك الزرع غليظا بعد أن كان دقيقا فاستغوى على سوقه أي: فاستقام على أعواده، والسوق: جمع ساق. وقرأ قبل: سوقه بالهمزة الساكنة يُعجبُ الزّراع أي: يعجب هذا الزرع زارعه؛ لقوته وحسن منظره، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأنهم يكونون في الابتداء قليلا، ثم يزدادون ويكثرون ويقوون كالزرع، فإنه يكون في الابتداء ضعيفا، ثم يقوى حالا بعد حال حتى يغلظ ساقه. قال قتادة: مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل أنه سيخرج من قوم يبتون نبات الزرع يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر. ثم ذكر سبحانه علّه تكثيره لأصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم وتقويته لهم، فقال: ليغيظ بهم الكفّار أي: كثّهم وقواهم ليكونوا غيظا للكافرين، واللام متعلقة بمحذوف، أي: فعل ذلك ليغيظ وعيد الله الذين آمنوا وعملوا الصّالحات منهم مغفّرةً وأجراً عظيماً أي: وعد سبحانه هؤلاء الذين مع محمد صلى الله عليه وسلم أن يغفر ذنوبهم، ويجزل أجرهم بإدخالهم الجنة؛ التي هي أكبر نعمه وأعظم منّه.

وقد أخرج أحمد، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: نحروا يوم الحديبية سبعين بدنة، فلما صدّت عن البيت حنّت كما تحنّ إلى أولادها. وأخرج الحسن بن سفيان وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن قانع والباوردي والطبراني وابن

مردويه، قال السيوطي: بسند جيد، عن أبي جميعه جند بن سبيع قال: «قابلت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَ النَّهَارِ كَافِرًا، وَ قَابَلْتِ مَعَهُ آخِرَ النَّهَارِ مُسْلِمًا، وَ فِينَا نَزَلَتْ وَ لَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَ نِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ وَ كُنَّا تَسْعُهُ نَفْرَ سَبْعَةِ رِجَالٍ وَ امْرَأَاتِهِ» وَ فِي رِوَايَةٍ عِنْدَ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ: «كُنَّا ثَلَاثَةَ رِجَالٍ وَ تِسْعَ نِسَاءٍ». وَ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ لَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَ نِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَمْ تَعْلَمُوهُمُ قَالَ: حِينَ رَدُّوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ تَطَّوُّهُمُ بِقَتْلِكُمْ إِيَاهُمْ لَوْ تَزَيَّلُوا يَقُولُ: لَوْ تَزِيلُ الْكُفَّارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَعَذَّبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا بِقَتْلِكُمْ إِيَاهُمْ. وَ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَ مُسْلِمٌ وَ غَيْرُهُمَا عَنِ سَهْلِ بْنِ حَنِيفٍ أَنَّهُ قَالَ: يَوْمَ صَفِّينَ: [أَيُّهَا النَّاسُ] «(٣) اتَّهَمُوا أَنْفُسَكُمْ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، يَعْنِي الصَّلْحَ الَّذِي كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، وَ لَوْ نَرَى قِتَالًا لِقَاتِنَا، فَجَاءَ عَمْرٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَ هُمْ عَلَى الْبَاطِلِ؟ أَلَيْسَ قِتَالُنَا فِي الْجَنَّةِ وَ قِتَالَهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَفِيمَ نَعْطَى الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا وَ نَرْجِعُ وَ لَمَّا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ؟ قَالَ: «يَا بَنَ الْخَطَابِ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَ لَنْ يَضِيعَنِي اللَّهُ

(١). «المحنية»: معطف الأودية.

(٢). «الضال»: شجرة السدر.

(٣). من صحيح مسلم (١٧٨٥)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٨

أبدا». فرجع متغيظًا، فلم يصبر حتى جاء أبو بكر فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق و هم على الباطل؟

قال: بلى، قال: أليس قتالنا في الجنة و قتالهم في النار؟ قال: بلى. قال: ففيم نعطي الدية في ديننا؟ قال:

يا بن الخطاب إنه رسول الله و لن يضيعه الله أبدا، فنزلت سورة الفتح، فأرسل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عَمْرٍ فَأَقْرَأَهُ إِيَاهَا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفْتَحَ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ». وَ أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي زَوَائِدِ الْمُسْنَدِ، وَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَ الدَّارِ قُطْنِي فِي الْأَفْرَادِ، وَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَ الصِّفَاتِ، عَنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَ فِي إِسْنَادِهِ الْحَسَنُ بْنُ قُرْعَةَ، قَالَ التِّرْمِذِيُّ بَعْدَ إِخْرَاجِهِ: حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِهِ، وَ كَذَا قَالَ أَبُو زُرْعَةَ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ سَلْمَةَ ابْنِ الْأَكْوَعِ مَرْفُوعًا مِثْلَهُ. وَ أَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَ الْفَرِيَابِيُّ وَ عَبْدِ بَنِ حَمِيدٍ وَ ابْنُ جَرِيرٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَ الصِّفَاتِ، عَنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مِثْلَهُ فِي قَوْلِهِ. وَ أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَ ابْنُ حَبَانَ وَ الْحَاكِمُ مِنْ قَوْلِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ نَحْوَهُ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَ الصِّفَاتِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَهُ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَ الدَّارِ قُطْنِي فِي الْأَفْرَادِ، عَنِ الْمَسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَ مَرْوَانَ نَحْوَهُ. وَ رَوَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ نَحْوَ ذَلِكَ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبَا بِالْحَقِّ قَالَ: هُوَ دَخَلَ مُحَمَّدَ الْبَيْتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ مَحَلِّقِينَ وَ مَقْصِرِينَ، وَ قَدْ وَرَدَ فِي الدُّعَاءِ لِلْمَحَلِّقِينَ وَ الْمَقْصِرِينَ فِي الصَّحِيحِينَ وَ غَيْرِهِمَا أَحَادِيثٌ مِنْهَا مَا قَدَّمْنَا الْإِشَارَةَ إِلَيْهِ، وَ هُوَ فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِ وَ فِيهِمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا. وَ أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي يَرُونَهُ، وَ لَكِنَّهُ سَيِّمَةُ الْإِسْلَامِ وَ سَمْتُهُ وَ خَشُوعُهُ. وَ أَخْرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرِ فِي كِتَابِ «الصَّلَاةِ» وَ ابْنُ جَرِيرٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ قَالَ:

هو السمت الحسن. وَ أَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَ الصَّغِيرِ، وَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ، قَالَ السُّيُوطِيُّ: بِسَنَدٍ حَسَنٍ، عَنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ قَالَ:

«النور يوم القيامة». و أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن نصر عن ابن عباس فى الآية قال: بياض يغشى وجوههم يوم القيامة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس ذلك مَثَلُهُمْ فى التَّورَةِ: يعنى نعتهم مكتوب فى التوراة و الإنجيل قبل أن يخلق الله السماوات و الأرض. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أنس كَرَزِعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ قال: نباته: فروخه. فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٩

## سورة الحجرات

### إشارة

هى ثمانى عشرة آية و هى مدينه، قال القرطبي: بالإجماع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس و ابن الزبير أنها نزلت بالمدينه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)

وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَ زِينَةً فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّةً إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)

قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ قرأ الجمهور تُقَدَّمُوا بضم المثناة الفوقية و تشديد الدال مكسورة. و فيه وجهان: أحدهما: أنه متعد و حذف مفعوله لقصد التعميم، أو ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل، كقولهم: هو يعطى و يمنع. و الثانى: أنه لازم نحو وجه توجهه، و يعضده قراءة ابن عباس و الضحاك و يعقوب «تقدّموا» بفتح التاء و القاف و الدال. قال الواحدي: قدم ها هنا بمعنى تقدّم، و هو لازم، قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا تقدّم بين يدي الإمام و بين يدي الأب، أى: لا تعجل بالأمر دونه و النهي؛ لأن المعنى: لا- تقدّموا قبل أمرهما و نهيهما، و بين يدي الإمام عبارة عن الإمام لا ما بين يدي الإنسان، و معنى الآية: لا- تقطعوا أمرا دون الله و رسوله و لا- تعجلوا به. و قيل: المراد معنى بين يدي فلان: بحضرته؛ لأن ما يحضره الإنسان فهو بين يديه وَ اتَّقُوا اللَّهَ فى كلّ أموركم، و يدخل تحتها الترك للتقدّم بين يدي الله و رسوله دخولا أوليا. ثم علّل ما أمر به من التقوى بقوله: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لِكُلِّ مَسْمُوعٍ عَلِيمٌ بكلّ معلوم يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ يحتمل أن المراد حقيقة رفع الصوت، لأن ذلك يدلّ على قلة الاحترام و ترك الاحترام؛ لأن خفض الصوت و عدم رفعه

من لوازم التعظيم و التوقير. و يحتمل أن يكون المراد المنع من كثرة الكلام و مزيد اللغظ. و الأول أولى. و المعنى: لا ترفعوا

فتح القدير، ج ٥، ص: ٧٠

أصواتكم إلى حدّ يكون فوق ما يبلغه صوت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال المفسرون: المراد من الآية تعظيم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و توقيره و أن لا- ينادوه كما ينادى بعضهم بعضا و لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَى: لا تجهروا بالقول إذا كلمتموه، كما تعتادونه من الجهر بالقول إذا كلم بعضكم بعضا. قال الزجاج: أمرهم الله بتبجيل نبيه و أن يغضوا أصواتهم و يخاطبوه بالسكينة و الوقار، و قيل: المراد بقوله: و لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ لا تقولوا: يا محمد، و يا أحمد، و لكن يا نبيّ الله، و يا رسول الله، توقيرا له، و الكاف في محل نصب على أنها مصدر محذوف، أَى: جهرا مثل جهر بعضكم لبعض، و ليس المراد برفع الصوت و بالجهر في القول هو ما يقع على طريقة الاستخفاف فإن ذلك كفر، و إنما المراد أن يكون الصوت في نفسه غير مناسب لما يقع في مواقف من يجب تعظيمه و توقيره. و الحاصل: أن النهى هنا وقع عن أمور: الأول: عن التقدّم بين يديه بما لا يأذن به من الكلام. و الثانى: عن رفع الصوت البالغ إلى حدّ يكون فوق صوته، سواء كان في خطابه أو في خطاب غيره. و الثالث: ترك الجفاء في مخاطبته و لزوم الأدب في مجاورته؛ لأنّ المقالة المجهورة إنما تكون بين الأكفاء الذين ليس لبعضهم على بعض مزية توجب احترامه و توقيره. ثم علل سبحانه ما ذكره بقوله:

أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ قَالَ الزَّجَاجُ: «أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ» التَّحْبِيطُ لَأَنَّ تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ، أَى: فَتَحْبَطُ، فَاللَّامُ الْمَقْدَرَةُ لَامُ الصِّيْرُورَةِ كَذَا قَالَ، وَ هَذِهِ الْعَلْمَةُ يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ لِلنَّهْيِ، أَى: نَهَاكَمُ اللَّهُ عَنِ الْجَهْرِ خَشِيَةً أَنْ تَحْبِطَ، أَوْ كِرَاهَةً أَنْ تَحْبِطَ، أَوْ عِلَّةً لِلنَّهْيِ، أَى: لَا تَفْعَلُوا الْجَهْرَ فَإِنَّهُ يُوَدِّى إِلَى الْحَبُوطِ، فَكَلَامُ الزَّجَاجِ يَنْظُرُ إِلَى الْوَجْهِ الثَّانِي لَا إِلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ، وَ جُمْلَةُ: وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ فِي مَحَلِّ نَصْبِ عَلَى الْحَالِ، وَ فِيهِ تَحْذِيرٌ شَدِيدٌ وَ وَعِيدٌ عَظِيمٌ. قَالَ الزَّجَاجُ: وَ لَيْسَ الْمُرَادُ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ يَوْجِبُ أَنْ يَكْفُرَ الْإِنْسَانُ وَ هُوَ لَا- يَعْلَمُ، فَكَمَا لَا- يَكُونُ الْكَافِرُ مُؤْمِنًا إِلَّا بِاخْتِيَارِهِ الْإِيمَانَ عَلَى الْكُفْرِ، كَذَلِكَ لَا يَكُونُ الْكَافِرُ كَافِرًا مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ. ثُمَّ رَغَّبَ سَبْحَانَهُ فِي امْتِثَالِ مَا أَمَرَ بِهِ، فَقَالَ: إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ أَصْلُ الْغَضِّ النَّقْصُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَ مِنْهُ نَقْصُ الصَّوْتِ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِتَتَّقُوا قَالَ الْفَرَاءُ:

أخلص قلوبهم للتقوى كما يمتحن الذهب بالنار، فيخرج جيده من رديئه و يسقط خبيثه. و به قال مقاتل و مجاهد و قتادة. و قال الأخفش: اختصها للتقوى، و قيل: طهرها من كل قبيح، و قيل: وسرّحها و سرّحها، من منحت الأديم؛ إذا أوسعته. و قال أبو عمرو: كلّ شيء جهده فقد محنته، و اللام في «للتقوى» متعلّقة بمحذوف، أَى: صالحة للتقوى، كقولك: أنت صالح لكذا، أو للتعليل الجارى مجرى بيان السبب، كقولك: جئتك لأداء الواجب، أَى: ليكون مجيئى سببا لأداء الواجب لهم مغفرةً و أجرًا عظيمًا أَى: أولئك لهم، فهو خبر آخر لاسم الإشارة، و يجوز أن يكون مستأنفا لبيان ما أعد الله لهم فى الآخرة إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون هم جفأ بنى تميم كما سيأتى بيانه، و وراء الحجرات.

خارجها و خلفها، و الحجرات: جمع حجرة، كالعرفات جمع غرفة، و الظلمات: جمع ظلمة، و قيل:

الحجرات جمع حجر، و الحجر جمع حجرة، فهو جمع الجمع. و الحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، و هى فعلة بمعنى مفعولة. قرأ الجمهور: الحجرات بضم الجيم. و قرأ أبو جعفر بن القعقاع و شبيهه

فتح القدير، ج ٥، ص: ٧١

بفتحها تخفيفا، و قرأ ابن أبى عبله: بإسكانها، و هى لغات، و من فى من وراء لابتداء الغاية، و لا- وجه للمنع من جعلها لهذا المعنى أكثرهم لا يعقلون لغلبة الجهل عليهم و كثرة الجفاء فى طباعهم و لو أنّهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم أَى: لو انتظروا خروجك، و لم يعجلوا بالمناداة، لكان أصلح لهم فى دينهم و دنياهم، لما فى ذلك من رعايته حسن الأدب مع رسول



اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و رعاية جانبه الشريف و العمل بما يستحقه من التعظيم و التبجيل. و قيل: إنهم جاءوا شفعا في أسارى، فأعتق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نصفهم و فادى نصفهم، و لو صبروا لأعتق الجميع، ذكر معناه مقاتل. وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ كثير المغفرة و الرحمة، بليغهما، لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا قَرَأَ الْجُمُورُ: فَتَبَيَّنُوا مِنَ التَّبَيَّنِ، و قرأ حمزة و الكسائي: «فتثبتوا» من التثبت، و المراد من التبين التعرّف و التفحص، و من التثبت: الأناة و عدم العجلة، و التبصّر في الأمر الواقع، و الخبر الوارد حتى يتّضح و يظهر. قال المفسرون: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط كما سيأتي بيانه إن شاء الله. و قوله أَنْ تُصَيَّبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ مفعول له، أى: كراهة أن تصيبوا، أو لثلا تصيبوا؛ لأن الخطأ ممّن لم يتبين الأمر و لم يتثبت فيه هو الغالب و هو جهالة، لأنه لم يصدر عن علم، و المعنى:

متلبسين بجهالة بحالهم فَتَصَيَّبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ بِهِمْ مِنْ إِصَابَتِهِمْ بِالْخَطِئِ نَادِمِينَ عَلَى ذَلِكَ مغممين له مهتمين به. ثم وعظهم الله سبحانه فقال: وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ فَلَ تَقُولُوا قَوْلًا بَاطِلًا وَ لَا تَسْرَعُوا عِنْدَ وَصُولِ الْخَبَرِ إِلَيْكُمْ مِنْ غَيْرِ تَبَيَّنٍ، وَ «أَنَّ» وَ مَا فِي حِيزِهَا سَادَةٌ مَسَدٌ مَفْعُولِي «اعلموا»، و جملة لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَتُّمُ فِي مَحَلِّ نَصَبٍ عَلَى الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ فِيكُمْ أَوْ مُسْتَأْنَفَةٌ، وَ الْمَعْنَى:

لو يطيعكم في كثير مما تخبرونه به من الأخبار الباطلة، و تشيرون به عليه من الآراء التي ليست بصواب لوقعتم في العنت؛ و هو التعب، و الجهد، و الإثم، و الهلاك، و لكنه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له، و لا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ أَى: جعله أحب الأشياء إليكم، أو محبوبا لديكم، فلا يقع منكم إلا ما يوافقه و يقتضيه من الأمور الصالحة، و ترك التسرع في الأخبار، و عدم التثبت فيها، قيل: و المراد بهؤلاء من عدا الأولين لبيان براءتهم عن أوصاف الأولين، و الظاهر: أنه تذكير للكل بما يقتضيه الإيمان و توجهه محبته التي جعلها الله في قلوبهم وَ زَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ أَى: حسنه بتوفيقه حتى جروا على ما يقتضيه في الأقوال و الأفعال وَ كَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ أَى:

جعل كل ما هو من جنس الفسوق و من جنس العصيان مكروها عندكم. و أصل الفسوق الخروج على الطاعة، و العصيان جنس ما يعصى الله به، و قيل: أراد بذلك الكذب خاصة، و الأول أولى أولئك هُمُ الرَّاشِدُونَ أَى: الموصوفون بما ذكرهم الراشدون. و الرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب، من الرّشادة: و هي الصخرة فضلاً مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةٌ أَى: لأجل فضله و إنعامه، و المعنى: أنه حبب إليكم ما حبب، و كرهه لأجل فضله و إنعامه، أو جعلكم راشدين لأجل ذلك، و قيل: النصب بتقدير فعل: أَى تبتغون فضلا و نعمة وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ مَعْلُومٍ حَكِيمٌ فِي كُلِّ مَا يَقْضَى بِهِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَ يَقْدَرُهُ لَهُمْ.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٧٢

و قد أخرج البخارى و غيره عن عبد الله بن الزبير قال: «قدم ركب من بنى تميم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد، و قال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافاك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فأنزل الله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ حَتَّى انْقَضَتِ الْآيَةُ». و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ قَالَ: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه. و أخرج عن عائشة في الآية قالت: لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم. و أخرج البخارى في تاريخه عنها قالت: كان أناس يتقدمون بين يدي رمضان بصيام؛ يعنى يوما أو يومين، فأنزل الله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنها أيضا: أن ناسا كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنزل الله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا الْآيَةَ. و أخرج البزار و ابن عدى و الحاكم و ابن مردويه عن أبي بكر الصديق قال: أنزلت هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ قُلْتُ:

يا رسول الله: والله لا أكلمك إلا كأخى السرار، وفي إسناده حصين بن عمر، وهو ضعيف، ولكنه يؤيده ما أخرجه عبد بن حميد، والحاكم وصححه، من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال: لما نزلت إن الذين يعضون أصواتهم عند رسول الله قال أبو بكر: والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخى السرار حتى ألقى الله. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال: «لما نزلت يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي إلى قوله: وأنتم لا تشعرون» وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت، فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حبط عملي، أنا من أهل النار، وجلس في بيته حزينا، ففقد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا: فقدك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما لك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي وأجهر له بالقول، حبط عملي، أنا من أهل النار، فأثوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك، فقال: «لا، بل هو من أهل الجنة». فلما كان يوم اليمامة قتل. وفي الباب أحاديث بمعناه.

أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي الآية: قال: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة في قوله: أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى «منهم ثابت بن قيس بن شماس». وأخرج أحمد وابن جرير وأبو القاسم البغوي والطبراني وابن مردويه، قال السيوطي: بسند صحيح، من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس:

«أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد أخرج إلينا، فلم يجبه، فقال: يا محمد إن حمدي زين وإن ذمي شين، فقال: ذاك الله، فأنزل الله: إن الذين ينادونك من وراء الحجرات قال ابن منيع: لا أعلم روى الأقرع مسندا غير هذا. وأخرج الترمذي وحسينه، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب في قوله: إن الذين ينادونك من وراء الحجرات قال: جاء رجل فقال: يا محمد إن حمدي زين وإن ذمي شين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ذاك الله». وأخرج ابن راهويه ومسدد وأبو يعلى وابن

فتح القدير، ج ٥، ص: ٧٣

جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه، قال السيوطي: بإسناد حسن، عن زيد بن أرقم قال: اجتمع ناس من العرب فقالوا: انطلقوا إلى هذا الرجل فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكا نعش بجناحه، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قالوا، فجاؤوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه: يا محمد! فأنزل الله: إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذني وجعل يقول: «لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد». وفي الباب أحاديث.

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مندة وابن مردويه، قال السيوطي: بسند جيد- عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال: قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، وترسل إلي يا رسول الله رسولا- لإتيان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت، فظن الحارث أن قد حدث فيه سخط من الله ورسوله، فدعا سراوات «١» قومه فقال لهم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وقت لي وقتا يرسل إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله الخلف، ولا- أرى حبس رسول الله صلى الله عليه وسلم من سخطه، فانطلقوا فنأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق «٢» فرجع، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي، فضرب رسول الله صلى

الله عليه و سلم البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقلَّ البعث و فصل عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث؟ فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: و لم؟ قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعه الزكاه و أردت قتله، قال: لا و الذي بعث محمداً بالحق ما رأيت و لا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «منعت الزكاه و أردت قتل رسولي؟» قال: لا و الذي بعثك بالحق ما رأيت و لا رأني، و ما أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسول رسول الله صلى الله عليه و سلم خشيت أن تكون سخطة من الله و رسوله صلى الله عليه و سلم، فنزل: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبِيٍّ إِلَى قَوْلِهِ: حَكِيمٌ قال ابن كثير: هذا من أحسن ما روى في سبب نزول الآية. و قد رويت روايات كثيرة متفقاً على أنه سبب نزول الآية، و أنه المراد بها و إن اختلفت القصص.

### [سورة الحجرات (٤٩): الآيات ٩ إلى ١٢]

وَ إِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَ أَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَ لَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لَا تَجَسَّسُوا وَ لَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)

(١). «سورات»: أى زعماء.

(٢). أى خاف.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٧٤

قوله: وَ إِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا قرأ الجمهور: اقْتَتَلُوا باعتبار كل فرد من أفراد الطائفتين كقوله: هَذَا خَصِيْمَانِ اخْتَصِمَا «١» و الضمير فى قوله: بَيْنَهُمَا عائد إلى الطائفتين باعتبار اللفظ. و قرأ ابن أبى عبله: «اقتلتا» اعتباراً بلفظ طائفتان، و قرأ زيد بن على و عبيد بن عمير: «اقتتلا» و تذكير الفعل فى هذه القراءة باعتبار الفريقين أو الرهطين. و البغى: التعدى بغير حق و الامتناع من الصلح الموافق للصواب، و الفىء: الرجوع. و المعنى: أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم و يدعوهم إلى حكم الله، فإن حصل بعد ذلك التعدى من إحدى الطائفتين على الأخرى، و لم تقبل الصلح، و لا دخلت فيه، كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله و حكمه، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيتها و أجابت الدعوة إلى كتاب الله و حكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين فى الحكم، و يتحرروا الصواب المطابق لحكم الله، و يأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم، و تؤدى ما يجب عليها للأخرى. ثم أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا فى كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتلتين فقال: وَ أَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ أى: و اعدلوا إن الله يحب العادلين، و محبته لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء. قال الحسن و قتاده و السدى: فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بالدعاء إلى حكم كتاب الله، و الرضى بما فيه لهما و عليهما فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا و طلبت ما ليس لها، و لم ترجع إلى الصلح فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حتى ترجع إلى طاعة الله و الصلح الذى أمر الله به، و جملة: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإصلاح، و المعنى: أنهم راجعون إلى أصل واحد و هو الإيمان. قال الزجاج:

الدِّينَ يَجْمَعُهُمْ، فَهَمَّ إِخْوَةٌ إِذَا كَانُوا مُتَّفِقِينَ فِي دِينِهِمْ، فَجَعُوا بِالِاتِّفَاقِ فِي الدِّينِ إِلَى أَصْلِ النَّسَبِ؛ لِأَنَّهِمْ لِآدَمَ وَحَوَاءَ فَأَصْلُهُمْ حَوَاءٌ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ يَعْنِي كُلَّ مُسْلِمِينَ تَخَاصُّمًا وَتَقَاتُلًا، وَتَخْصِيصَ الْاِثْنَيْنِ بِالذِّكْرِ لِإِثْبَاتِ وَجُوبِ الْإِصْلَاحِ فِيمَا فَوْقَهُمَا بِطَرِيقِ الْأُولَى. قَرَأَ الْجُمْهُورُ: بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ عَلَى التَّثْنِيَةِ، وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٌ وَالْحَسَنُ وَحَمَادُ بْنُ سَلْمَةَ وَابْنُ سِيرِينَ «إِخْوَانَكُمْ» بِالْجَمْعِ، وَرَوَى عَنْ أَبِي عَمْرٍو وَنَصْرِ بْنِ عَاصِمٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالْجَحْدَرِيِّ وَيَعْقُوبِ أَنَّهُمْ قَرَأُوا: «بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ» بِالْفَوْقِيَّةِ عَلَى الْجَمْعِ أَيْضًا.

قال أبو عليّ الفارسيّ في توجيه قراءة الجمهور: أراد بالأخوين الطائفتين؛ لأن لفظ التثنية قد يرد ويراد به الكثرة. وقال أبو عبيدة: أي: أصلحوا بين كل أخوين و اتقوا الله في كل أموركم لعلكم ترحموا

(١). الحج: ١٩.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٧٥

بسبب التقوى، و الترجى باعتبار المخاطبين، أي: راجين أن ترحموا، وفي هذه الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرّر بغيتها على الإمام، أو على أحد من المسلمين، وعلى فساد قول من قال بعدم الجواز مستدلًا بقوله صلى الله عليه وسلم: «قتال المسلم كفر» فإن المراد بهذا الحديث وما ورد في معناه قتال المسلم الذي لم يبغ. قال ابن جرير:

لو كان الواجب في كلّ اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه و لزوم المنازل لما أقيم حقّ، و لا- أبطل باطل و لوجد أهل النفاق و الفجور سببا إلى استحلال كل ما حرّم الله عليهم من أموال المسلمين، و سبى نسائهم، و سفك دمائهم بأن يتحزبوا عليهم، و لكفّ المسلمين أيديهم عنهم، و ذلك مخالف لقوله صلى الله عليه وسلم:

«خذوا على أيدي سفهائكم». قال ابن العربي: هذه الآية أصل في قتال المسلمين، و عمدة في حرب المتأولين، و عليها عوّل الصحابة، و إليها لجأ الأعيان من أهل الملّة، و إياها عنى النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله: «تقتل عمارا الفئة الباغية»، و قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الخوارج: «يخرجون على حين فرقة من الناس، تقتلهم أولى الطائفتين بالحق». يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ السَّخِرِيَّةُ: الاستهزاء.

و حكى أبو زيد: سخرت به و ضحكت به و هزأت به. و قال الأخفش: سخرت منه و سخرت به، و ضحكت منه و ضحكت به، و هزئت منه و هزئت به، كل ذلك يقال: و الاسم السخريّة و السخري، و قرئ بهما في: لَيْتَيْدَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا «١»، و معنى الآية: النهي للمؤمنين عن أن يستهزئ بعضهم ببعض، و علل هذا النهي بقوله: عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ أي: أن يكون المسخور بهم عند الله خيرا من الساخرين بهم، و لما كان لفظ قوم مختصا بالرجال، لأنهم القوم على النساء أفرد النساء بالذكر فقال: وَ لَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءٍ أَيْ: وَ لَا يَسْخَرُ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ الْمَسْخُورُ بِهِنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ يَعْنِي خَيْرًا مِنْ السَّخِرَاتِ مِنْهُنَّ، و قيل: أفرد النساء بالذكر لأن السخريّة منهنّ أكثر وَ لَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ اللَّمْزُ: العيب، و قد مضى تحقيقه في سورة براءة عند قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ «٢» قال ابن جرير: اللّمز باليد و العين و اللسان و الإشارة، و الهمز لا يكون إلا باللسان، و معنى: لَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ لَا يَلْمِزُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، كما في قوله: وَ لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ «٣» و قوله: فَاسْلُمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ «٤» قال مجاهد و قتادة و سعيد بن جبيرة: لا- يطعن بعضكم على بعض. و قال الضحاك: لا- يلعن بعضكم بعضا وَ لا- تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ التنازب: التفاعل من التّبز بالتسكين و هو المصدر، و التّبز بالتحريك اللقب، و الجمع أنباز، و الألقاب جمع لقب، و هو اسم غير الذي سمى به الإنسان، و المراد هنا لقب السوء، و التنازب بالألقاب بأن يلقب بعضهم بعضا. قال الواحدى: قال المفسرون: هو أن يقول لأخيه المسلم: يا فاسق، يا منافق. أو يقول لمن أسلم: يا يهودى، يا نصرانى، قال عطاء: هو كلّ شيء أخرجت به أخاك من الإسلام، كقولك يا

كلب، يا حمار، يا خنزير. قال الحسن و مجاهد: كان الرجل يعير بكفره، فيقال له: يا يهودى يا نصرانى، فنزلت، و به قال قتاده و أبو العالى و عكرمة بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان أى: بئس الاسم الذى

(١). الزخرف: ٣٢.

(٢). التوبة: ٥٨.

(٣). النساء: ٢٩.

(٤). النور: ٦١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٧٦

يذكر بالفسوق بعد دخولهم فى الإيمان، و الاسم هنا بمعنى الذكر. قال ابن زيد: أى بئس أن يسمى الرجل كافرا أو زانيا بعد إسلامه و توبته. و قيل: أن من فعل ما نهى عنه من السخريه و اللمز و النبذ فهو فاسق. قال القرطبي: إنه يستثنى من هذا من غلب عليه الاستعمال كالأعرج و الأحدب، و لم يكن له سبب يجد فى نفسه منه عليه، فجوزته الأئمة و اتفق على قوله أهل اللغة اه. و مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ لارتكابهم ما نهى الله عنه و امتناعهم من التوبة، فظلموا من لقبوه، و ظلمهم أنفسهم بما لزمها من الإثم. يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ الظَّنُّ هُنَا: هو مجرد التهمة التى لا سبب لها كمن يتهم غيره بشىء من الفواحش و لم يظهر عليه ما يقتضى ذلك، و أمر سبحانه باجتنب الكثير ليفحص المؤمن عن كل ظن يظنه حتى يعلم وجهه؛ لأن من الظن ما يجب اتباعه، فإن أكثر الأحكام الشرعية مبنية على الظن، كالقياس، و خبر الواحد، و دلالة العموم، و لكن هذا الظن الذى يجب العمل به قد قوى بوجه من الوجوه الموجبة للعمل به؛ فارتفع عن الشك و التهمة. قال الزجاج: هو أن يظن بأهل الخير سوءا، فأما أهل سوء و الفسوق قلنا أن نظن بهم مثل الذى ظهر منهم. قال مقاتل بن سليمان و مقاتل بن حيان: هو أن يظن بأخيه المسلم سوءا، و لا بأس به ما لم يتكلم به، فإن تكلم بذلك الظن و أبداه أثم. و حكى القرطبي عن أكثر العلماء: أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، و أنه لا حرج فى الظن القبيح بمن ظاهره القبيح، و جملة إن بغض الظن إثم تعليل لما قبلها من الأمر باجتنب كثير من الظن، و هذا البعض هو ظن سوء أهل الخير، و الإثم:

هو ما يستحقه الظان من العقوبة. و مما يدل على تقييد هذا الظن بالمأمور باجتنبه بظن سوء قوله تعالى:

وَظَنَنْتُمْ ظَنَّنَ السُّوءِ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١) فلا يدخل فى الظن المأمور باجتنبه شىء من الظن المأمور باتباعه فى مسائل الدين، فإن الله قد تعيّد عباده باتباعه، و أوجب العمل به جمهور أهل العلم، و لم ينكر ذلك إلا بعض طوائف المبتدعة كيدا للدين، و شذوذا عن جمهور المسلمين، و قد جاء التعبد بالظن فى كثير من الشريعة المطهرة بل فى أكثرها. ثم لما أمرهم الله سبحانه باجتنب كثير من الظن نهاهم عن التجسس فقال: وَ لَا تَجَسَّسُوا وَ التَّجَسُّسُ: البحث عما ينكتكم عنك من عيوب المسلمين و عوراتهم، نهاهم الله سبحانه عن البحث عن معائب الناس و مثالبهم. قرأ الجمهور تجسسوا بالجيم، و معناه ما ذكرنا. و قرأ الحسن و أبو رجاء و ابن سيرين بالحاء. قال الأخفش: ليس يبعد أحد هما من الآخر؛ لأن التجسس بالجيم: البحث عما ينكتكم عنك، و التجسس بالحاء: طلب الأخبار و البحث عنها. و قيل: إن التجسس بالجيم هو البحث، و منه قيل رجل جاسوس؛ إذا كان يبحث عن الأمور، و بالحاء ما أدركه الإنسان ببعض حواسه. و قيل: إنه بالحاء فيما يطلبه الإنسان لنفسه، و بالجيم أن يكون رسولا لغيره، قاله ثعلب. وَ لَا يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضًا أَى:

لا- يتناول بعضكم بعضا بظهر الغيب بما يسوءه، و الغيبة: أن تذكر الرجل بما يكرهه، كما فى حديث أبى هريرة الثابت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «أ تدرؤن ما الغيبة؟ قالوا: الله و رسوله أعلم، قال: ذكر ك

أحاك بما يكره، فقيل: أفرأيت إن كان في أخى ما أقول؟ فقال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه فقد بهته» أ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا مَثَلِ سَبْحَانِهِ الْغَيْبَةُ بِأَكْلِ الْمَيْتَةِ، لِأَنَّ الْمَيْتَ لَا يَعْلَمُ بِأَكْلِ لَحْمِهِ، كَمَا أَنَّ الْحَيَّ لَا يَعْلَمُ بِغَيْبِهِ مِنْ اغْتَابِهِ. ذَكَرَ مَعْنَاهُ الزَّجَاجُ. وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ عَرَضَ الْإِنْسَانِ كُلِّحْمِهِ، وَأَنَّهُ كَمَا يَحْرَمُ أَكْلَ لَحْمِهِ يَحْرَمُ الْإِسْتِطَالَةَ فِي عَرَضِهِ «١»، وَفِي هَذَا مِنَ التَّنْفِيرِ عَنِ الْغَيْبَةِ وَالتَّوْبِيخِ لَهَا وَالتَّوْبِيخِ لِفَاعِلِهَا وَالتَّشْنِيعِ عَلَيْهِ مَا لَا يَخْفَى، فَإِنَّ لَحْمَ الْإِنْسَانِ مِمَّا تَنْفَرُ عَنْ أَكْلِهِ الطَّبَاعُ الْإِنْسَانِيَّةُ، وَتَسْتَكْرَهُهُ الْجِبَلَةُ الْبَشَرِيَّةُ، فَضِلَا عَنْ كَوْنِهِ مَحْرَمًا شَرْعًا فَكِرِهْتُمُوهُ قَالَ الْفَرَاءُ: تَقْدِيرُهُ فَقَدْ كَرِهْتُمُوهُ فَلَا تَفْعَلُوا، وَ الْمَعْنَى: فَكَمَا كَرِهْتُمْ هَذَا فَاجْتَنِبُوا ذِكْرَهُ بِالسُّوءِ غَائِبًا. قَالَ الرَّازِيُّ: الْفَاءُ فِي تَقْدِيرِ جَوَابِ كَلَامِهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا يَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ فَكَرِهْتُمُوهُ إِذَا. وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: عَرَضَ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ بترك ما أمركم باجتنابه إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ لَمَنْ اتَّقَاهُ وَ تَابَ عَمَّا فَطَرَ مِنْهُ مِنَ الذَّنْبِ وَ مَخَالَفَةِ الْأَمْرِ.

وقد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أنس قال: قيل للنبي صلى الله عليه و سلم: «لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه و ركب حمارا، و انطلق المسلمون يمشون و هي أرض سبخة» (٢)، فلما انطلق إليه قال: إليك عنى، فو الله لقد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: و الله لحمار رسول الله صلى الله عليه و سلم أطيب ريحا منك، فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد (٣) و الأيدي و النعال، فنزلت فيهم: وَ إِنَّ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا بِالْآيَةِ». و قد روى نحو هذا من وجوه آخر.

و أخرج الحاكم و صححه، و البيهقي عن ابن عمر قال: ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدت في نفسي من هذه الآية، إنى لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرنى الله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: إن الله أمر النبي صلى الله عليه و سلم و المؤمنين إذا اقتتلت طائفة من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله و ينصف بعضهم من بعض، فإذا أجابوا حكم فيهم بحكم كتاب الله حتى ينصف المظلوم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، و حق على إمام المؤمنين و المؤمنين أن يقاتلوهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، و يقرؤا بحكم الله.

و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس وَ إِنَّ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا بِالْآيَةِ. قال: كان قتال بالنعال و العصي، فأمرهم أن يصلحوا بينهما. و أخرج ابن مردويه و البيهقي عن عائشة قالت: ما رأيت مثل ما رغبت عنه هذه الأمة فى هذه الآية: وَ إِنَّ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا. و أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل فى قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسِيحُوا قَوْمًا مِنْ قَوْمٍ قَالَ: نزلت فى قوم من بنى تميم استهزءوا من بلال و سلمان و عمار و خباب و صهيب و ابن فهيرة و سالم مولى أبى حذيفة. و أخرج عبد

(١). «الاستطالة فى العرض»: أى استحقاره و الترفع عليه و الوقعة فيه.

(٢). «أرض سبخة»: أى لا تنبت.

(٣). «الجريد»: سعف النخل، أى أغصانه.

ابن حميد، و البخارى فى الأدب، و ابن أبى الدنيا فى ذم الغيبة، و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن ابن عباس فى قوله: **وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ** قال: لا يطعن بعضكم على بعض.

و أخرج أحمد و عبد بن حميد، و البخارى فى الأدب، و أهل السنن الأربع و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن حبان، و الشيرازى فى الألقاب، و الطبرانى، و ابن السنى فى عمل يوم و ليلة، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب، عن أبى جبير بن الضحاك قال: **فِينَا نَزَلَتْ فِي بَنِي سَلْمَةَ وَ لَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ** قدم رسول الله صلى الله عليه و سلم المدينة و ليس فىنا رجل إلا و له اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا واحدا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله إنه يكرهه، فنزلت: **وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ** و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: التنابز بالألقاب: أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها و راجع الحق، فنهى الله أن يعير بما سلف من عمله. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى الآية قال: إذا كان الرجل يهوديا فأسلم فيقول: يا يهودى، يا نصرانى، يا مجوسى، و يقول للرجل المسلم: يا فاسق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن ابن عباس فى قوله: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ** قال: نهى الله المؤمن أن يظنَّ بالمؤمن سوءا.

و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: **«إِيَّاكُمْ وَ الظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَ لَا تَجَسَّسُوا، وَ لَا تَحَسَّسُوا، وَ لَا تَنَافَسُوا، وَ لَا تَحَاسَدُوا، وَ لَا تَبَاغَضُوا، وَ كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَ لَا يَخْطُبُ الرَّجُلُ عَلَى خُطْبَةِ أَخِيهِ حَتَّى يَنْكَحَ أَوْ يَتَرَكَ»**. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: **وَلَا تَجَسَّسُوا** قال: نهى الله المؤمن أن يتتبع عورات المؤمن. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبه و عبد بن حميد و أبو داود و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن زيد بن وهب قال: أتى ابن مسعود فقيل: هذا فلان تقطر لحيته خمرا، فقال ابن مسعود:

إنا قد نهينا عن التجسس، و لكن إن يظهر لنا شيء نأخذه. و قد وردت أحاديث فى النهى عن تتبع عورات المسلمين و التجسس على عيوبهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: **وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا** الآية قال: حرم الله أن يغتاب المؤمن بشيء كما حرم الميتة. و الأحاديث فى تحريم الغيبة كثيرة جدا، معروفة فى كتب الحديث.

### [سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١٣ الى ١٨]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)  
قَالَتِ الْمَغْرَبَاتُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قَوْلُوا اسْلِمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ إِنَّ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزَازِبُوا وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامُكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧)  
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٧٩

قوله: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى** هما آدم و حواء، و المقصود أنهم متساوون لاتصالهم بنسب واحد، و كونه يجمعهم أب واحد و أم واحدة، و أنه لا موضع للتفاخر بينهم بالأنساب، و قيل: المعنى:





فى الماضى و الكسر فى المضارع، و اختار قراءة أبى عمرو أبو حاتم لقوله:

وَ مَا أَلْتَأْتُهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ «١» و عليها قول الشاعر:

أبلغ بنى أسد «٢» عَنى مغلغلة جهر الرّسالة لا ألتا و لا كذبا

و اختار أبو عبيدة قراءة الجمهور، و عليها قول رؤبة بن العجاج:

و ليلة ذات ندى سریت و لم يلتنى عن سراها لیت

و هما لغتان فصیحتان إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ أی: بلیغ المغفرة لمن فرط منه ذنب رَحِيمٌ بلیغ الرحمة لهم. ثم لما ذكر سبحانه أن أولئك الذين قالوا آمنا لم يؤمنوا و لا دخل الإيمان فى قلوبهم بین المؤمنین المستحقین لإطلاق اسم الإيمان عليهم، فقال إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ يَعْنى إیماننا صحیحا خالصا عن مواطأة القلب و اللسان ثُمَّ لَمْ يَزْتَأُوا أی: لم یدخل قلوبهم شیء من الريب، و لا خالطهم شك من الشكوك وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أی: فى طاعته و ابتغاء مرضاته، و یدخل فى الجهاد الأعمال الصالحة التى أمر الله بها، فإنها من جملة ما یجاهد المرء به نفسه حتى یقوم به و یؤدیه كما أمر الله سبحانه، و الإشارة بقوله: أُولَئِكَ إِلَى الجامعین بین الأمور المذكورة و هو مبتدأ، و خبره قوله: هُمُ الصَّادِقُونَ أی: الصادقون فى الاتصاف بصفة الإيمان و الدخول فى عداد أهله، لا من عداهم مَمَّنْ أظهر الإسلام بلسانه، و ادعى أنه مؤمن، و لم یطمئن بالإیمان قلبه، و لا وصل إليه معناه، و لا عمل بأعمال أهله، و هم الأعراب الذين تقدّم ذكرهم و سائر أهل النفاق. ثم أمر الله سبحانه رسوله أن یقول لأولئك الأعراب و أمثالهم قولا آخر لما ادعوا أنهم مؤمنون، فقال: قُلْ أ تَعْلَمُونَ اللَّهَ بِعِدْنِكُمْ التعلیم ها هنا بمعنى الإعلام، و لهذا دخلت الباء فى دینکم، أی: أ تخبرونه بذلك حيث قلمت آمنا وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ

(١). الطور: ٢١.

(٢). فى تفسیر القرطبی (١٦ / ٣٤٩): ثعل.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٨١

فکیف یخفى علیه بطلان ما تدعونه من الإیمان. و الجملة من محل النصب على الحال من مفعول تعلمون وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا تخفى علیه من ذلك خافية، و قد علم ما تبطنونه من الكفر و تظهورونه من الإسلام لخوف الضراء و رجاء النفع. ثم أخبر الله سبحانه رسوله بما یقوله لهم عند المنّ علیه منهم بما يدعونه من الإسلام، فقال:

يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلِمُوا أی: یعدّون إسلامهم منه عليك، حيث قالوا: جنناک بالأثقال و العیال، و لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان و بنو فلان قُلْ لا تَمُنُوا عَلَیْ إِسْلَامِكُمْ أی: لا تعدّوه علیّ، فإن الإسلام هو المنّة التى لا یطلب مولیها ثوابا لمن أنعم بها علیه، و لهذا قال: بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ أی: أرشدكم إليه و أراكم طريقه، سواء وصلتكم إلى المطلوب أم لم تصلوا إليه، و انتصاب إسلامکم إما على أنه مفعول به على تضمین یمنون معنى یعدّون، أو بنزع الخافض، أی: لأن أسلموا، و هكذا قوله: أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ فَإِنَّهُ یَحْتَمِلُ الْوَجْهَيْنِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِيمَا تَدْعُونَهُ، و الجواب محذوف یدلّ علیه ما قبله؛ أی:

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَلِلَّهِ الْمَنَّةُ عَلَيْكُمْ، قرأ الجمهور: أَنْ هَدَاكُمْ بفتح أن، و قرأ عاصم بكسرها. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أی: ما غاب فیهما وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ لا یخفى علیه من ذلك شیء، فهو مجازیکم بالخير خیرا و بالشرّ شرّا. قرأ الجمهور تَعْمَلُونَ على الخطاب، و قرأ ابن كثير على الغيبة.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن أبى ملیكة قال: لما كان يوم الفتح رقى بلال فأذن على الكعبة، فقال بعض الناس: أ هذا العبد الأسود یؤذّن على ظهر الكعبة؟! و قال بعضهم:

إن يسخط الله هذا يغيره، فنزلت: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَأَخْرَجَ ابْنَ الْمُنْذِرِ عَنْ ابْنِ جَرِيرٍ نَحْوَهُ. و أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ فِي مَرَاسِيلِهِ، وَ ابْنَ مَرْدَوِيهِ، وَ الْبَيْهَقِي فِي سَنَنِهِ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنِي بِيَاضَةَ أَنْ يَزُوجُوا أَبَا هِنْدَ امْرَأَةً مِنْهُمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُنزِجُ بَنَاتَنَا مَوَالِينَا؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وَ أَخْرَجَ ابْنَ مَرْدَوِيهِ عَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ هِيَ مَكِيَّةٌ، وَ هِيَ لِلْعَرَبِ خَاصَّةٌ الْمَوَالِي، أَيُّ قَبِيلَهُ لَهُمْ، وَ أَيُّ شُعَابٍ، وَ قَوْلُهُ: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ قَالَ: أَتَقَاكُمْ لِلشَّرْكِ. وَ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَ ابْنَ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الشُّعُوبُ: الْقَبَائِلُ الْعِظَامُ، وَ الْقَبَائِلُ: الْبَطُونُ. وَ أَخْرَجَ الْفَرِيَابِيُّ وَ ابْنَ جَرِيرٍ وَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ قَالَ: الشُّعُوبُ: الْجَمَاعُ، وَ الْقَبَائِلُ: الْأَفْخَاذُ الَّتِي يَتَعَارَفُونَ بِهَا. وَ أَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَ ابْنَ جَرِيرٍ عَنْهُ أَيْضًا قَالَ: الْقَبَائِلُ الْأَفْخَاذُ، وَ الشُّعُوبُ: الْجُمْهُورُ مِثْلُ مَضْرُ. وَ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَ غَيْرُهُ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ. قَالُوا: لَيْسَ عَنِ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ. قَالُوا: لَيْسَ عَنِ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: فَعَنِ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَفَهُوا» وَ قَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ فِي الصَّحِيحِ وَ غَيْرِهِ أَنَّ التَّقْوَى هِيَ الَّتِي يَتَفَاوَضَلُ بِهَا الْعِبَادُ.

وَ أَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَ ابْنَ جَرِيرٍ وَ ابْنَ الْمُنْذِرَ عَنِ مَجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قَالَ: أَعْرَابُ فَتَحِ الْقَدِيرِ، ج ٥، ص: ٨٢

بَنِي أَسَدٍ وَ خَزِيمَةَ، وَ فِي قَوْلِهِ: وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا اسْتَسْلَمْنَا «١» مَخَافَةَ الْقَتْلِ وَ السَّبِي. وَ أَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ عَنِ قَتَادَةَ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي بَنِي أَسَدٍ. وَ أَخْرَجَ ابْنَ الْمُنْذِرِ وَ الطَّبْرَانِي وَ ابْنَ مَرْدَوِيهِ، قَالَ السِّيُوطِيُّ: بِسَنَدٍ حَسَنٍ، عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى: أَنَّ نَاسًا مِنَ الْعَرَبِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْلَمْنَا وَ لَمْ نَقَاتِلْكَ كَمَا قَاتَلْتَكَ بَنُو فُلَانٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا. وَ أَخْرَجَ النَّسَائِيُّ وَ الْبُزَارِيُّ وَ ابْنَ مَرْدَوِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَهُ، وَ ذَكَرَ أَنَّهُمْ بَنُو أَسَدٍ.

(١). من الدر المنثور (٧/ ٥٨٢)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٨٣

## سورة ق

### إشارة

وَ هِيَ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا فِي قَوْلِ الْحَسَنِ وَ عِكْرَمَةَ وَ عَطَاءَ وَ جَابِرٍ. وَ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَ قَتَادَةَ أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ إِلَّا آيَةَ، وَ هِيَ قَوْلُهُ: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ مَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ وَ هِيَ أَوَّلُ الْمَفْصَلِ عَلَى الصَّحِيحِ، وَ قِيلَ: مِنَ الْحِجْرَاتِ. وَ أَخْرَجَ ابْنَ الضَّرِيرِ وَ النَّجَّاسُ وَ ابْنَ مَرْدَوِيهِ وَ الْبَيْهَقِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَتْ سُورَةُ قَ بِمَكَّةَ. وَ أَخْرَجَ ابْنَ مَرْدَوِيهِ عَنِ ابْنِ الزَّبِيرِ مِثْلَهُ. وَ قَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَ غَيْرُهُ عَنِ قُتَيْبَةَ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ فِي الرُّكْعَةِ الْأُولَى قِ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ» وَ أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَ مُسْلِمٌ وَ أَهْلُ السَّنَنِ عَنِ أَبِي وَقْدِ اللَّيْثِيِّ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدِ بِقَافٍ وَ اقْتَرَبَتْ». وَ أَخْرَجَ ابْنَ أَبِي شَيْبَةَ وَ أَبُو دَاوُدَ وَ ابْنَ مَاجَةَ وَ الْبَيْهَقِيُّ عَنِ امِّ هِشَامِ ابْنَةِ حَارِثَةَ قَالَتْ: مَا أَخَذْتُ قِ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ إِلَّا- مِنْ فِئِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يَقْرَأُ بِهَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ عَلَى الْمِنْبَرِ إِذَا خَطَبَ النَّاسَ. وَ هُوَ فِي

صحيح مسلم.  
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## [سورة ق (٥٠): الآيات ١ الى ١٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)  
بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) أ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَ زَيَّنَّاهَا وَ مَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَ أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أُنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبَصَّرَةٌ وَ ذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَ نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ (٩)  
وَ النَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحَابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ (١٢) وَ عَادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)  
أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)  
قوله: ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ الكلام فى إعراب هذا كالكلام الذى قدّمنا فى قوله: ص وَ الْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ. و فى قوله: حم وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ و اختلف فى ق، فقال الواقدى: قال المفسرون:  
هو اسم جبل يحيط بالدنيا من زبرجد و السماء مقببته عليه، و هو وراء الحجاب الذى تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنه «١». قال الفراء: كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب فى ق لأنه اسم، و ليس بهجاء. قال:

(١). قال أبو حيان: (ق) حرف هجاء، و قد اختلف المفسرون فى مدلوله على أحد عشر قولاً متعارضة، لا دليل على صحته شىء منها.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٨٤

و لعل القاف وحدها ذكرت من اسمه كقول القائل:

قلت لها قفى لنا قالت قاف أى: أنا واقفة. و حكى الفراء و الزجاج: أن قوما قالوا معنى ق: قضى الأمر و قضى ما هو كائن، كما قيل فى حم: حمّ الأمر. و قيل: هو اسم من أسماء الله أقسم به. و قال قتادة: هو اسم من أسماء القرآن.

و قال الشعبي: فاتحة السورة. و قال أبو بكر الوراق معنا: قف عند أمرنا و نهينا و لا تتعداهما، و قيل غير ذلك ممّا هو أضعف منه. و الحق أنه من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه كما حققنا ذلك فى فاتحة سورة البقرة، و معنى المجيد: أنه ذو مجد و شرف على سائر الكتب المنزلة. و قال الحسن: الكريم، و قيل: الرفيع القدر، و قيل:

الكبير القدر، و جواب القسم قال الكوفيون هو قوله: يَلْ عَجِبُوا و قال الأخفش: جوابه محذوف، كأنه قال: ق و القرآن المجيد لتبعثن، يدلّ عليه أ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا و قال ابن كيسان جوابه: ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ و قيل هو: قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ بتقدير اللام، أى: لقد علمنا، و قيل:

هو محذوف و تقديره أنزلناه إليك لتنذر، كأنه قيل ق و القرآن المجيد أنزلناه إليك لتنذر به الناس. قرأ الجمهور قاف بالسكون. و قرأ الحسن و ابن أبى إسحاق و نصر بن عاصم بكسر الفاء. و قرأ عيسى الثقفى بفتح الفاء.

و قرأ هارون و محمد بن السميع بالضم بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ بل للإضراب عن الجواب على اختلاف الأقوال، و أن فى موضع نصب على تقدير: لأن جاءهم. و المعنى: بل عجب الكفار لأن جاءهم منذر منهم و هو محمد صلى الله عليه و سلم، و لم يكتفوا بمجرد الشك و الرد، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة، و قيل:

هو إضراب عن وصف القرآن بكونه مجيدا. و قد تقدم تفسير هذا فى سورة ص. ثم فسر ما حكاه عنهم من كونهم عجبوا بقوله: فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ و فيه زيادة تصريح و إيضاح. قال قتادة: عجبهم أن دعوا إلى إله واحد، و قيل: تعجبهم من البعث، فيكون لفظ هذا إشارة إلى مبهم يفسره ما بعده من قوله: أ إِذَا مِتْنَا إِنْخِ، و الأول أولى. قال الرازى: الظاهر أن قولهم هذا إشارة إلى مجيء المنذر، ثم قالوا: أ إِذَا مِتْنَا و أيضا قد وجدها هنا بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر يؤدى معنى التعجب، و هو قولهم: ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ فإنه استبعاد و هو كالتعجب، فلو كان التعجب بقولهم هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ عائدا إلى قولهم: «أ إِذَا» لكان كالتكرار، فإن قيل: التكرار الصريح يلزم من قولك: هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أنه يعود إلى مجيء المنذر، فإن تعجبهم منه علم من قوله: بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ فَقَوْلُهُمْ: هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ يكون تكرارا، فنقول: ذلك ليس بتكرار، بل هو تقرير؛ لأنه لما قال بل عجبوا بصيغة الفعل و جاز أن يتعجب الإنسان مما لا يكون عجبا، كقوله: أ تَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ و يقال فى العرف: لا وجه لتعجبك مما ليس بعجب، فكأنهم لما عجبوا قيل لهم: لا معنى لتعجبكم، فقالوا: هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ فكيف لا نعجب منه، و يدل على ذلك قوله ها هنا: فَقَالَ الْكَافِرُونَ بِالْفَاءِ، فإنها تدل على أنه مترتب على ما قدم، قرأ الجمهور أ إِذَا مِتْنَا بالاستفهام. و قرأ ابن عامر فى رواية عنه و أبو جعفر و الأعمش و الأعرج بهمزة واحدة، فيحتمل الاستفهام كقراءة الجمهور، و همزة الاستفهام مقدرة، و يحتمل أن معناه الإخبار،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٨٥

و العامل فى الظرف مقدر، أى: أ يبعثنا، أو أ نرجع إذا متنا لدلالة ما بعده عليه، هذا على قراءة الجمهور، و أما على القراءة الثانية فجواب إذا محذوف، أى: رجعنا، و قيل: ذلك رجوع، و المعنى: استنكارهم للبعث بعد موتهم و مصيرهم ترابا. ثم جزموا باستبعادهم للبعث فقالوا: ذَلِكَ أَى: البعث رَجْعٌ بَعِيدٌ أى: بعيد عن العقول أو الأفهام أو العادة أو الإمكان، يقال: رجعت أرجعه رجعا، و رجوع هو يرجع رجوعا.

ثم رد سبحانه ما قالوه فقال: قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ أَى: ما تأكل من أجسادهم فلا يضل عنا شىء من ذلك، و من أحاط علمه بشىء حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى فى القبور لا- يصعب عليه البعث و لا- يستبعد منه، و قال السدى: النقص هنا الموت، يقول: قد علمنا من يموت منهم و من يبقى؛ لأن من مات دفن، فكان الأرض تنقص من الأموات، و قيل: المعنى: من يدخل فى الإسلام من المشركين، و الأول أولى وَ عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ أَى: حافظ لعدتهم و أسمائهم و لكل شىء من الأشياء، و هو اللوح المحفوظ، و قيل: المراد بالكتاب هنا العلم و الإحصاء، و الأول أولى. و قيل: حفيظ بمعنى محفوظ، أى:

محفوظ من الشياطين، أو محفوظ فيه كل شىء. ثم أضرب سبحانه عن كلامهم الأول، و انتقل إلى ما هو أشنع منه، فقال: بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ فإنه تصريح منهم بالتكذيب بعد ما تقدم عنهم من الاستبعاد، و المراد بالحق هنا القرآن. قال الماوردى: فى قول الجميع، و قيل: هو الإسلام، و قيل: محمد، و قيل: النبوة الثابتة بالمعجزات لَمَّا جَاءَهُمْ أَى: وقت مجيئه إليهم من غير تدبر و لا تفكر و لا إمعان نظر، قرأ الجمهور:

بفتح اللام و تشديد الميم. و قرأ الجحدري: بكسر اللام و تخفيف الميم فَهُمْ فى أمرٍ مَرِيحٍ أَى: مختلط مضطرب، يقولون مرة ساحر، و مرة شاعر، و مرة كاهن؛ قاله الزجاج و غيره. و قال قتادة: مختلف. و قال الحسن: ملتبس، و المعنى متقارب، و قيل:

فاسد، و المعانى متقاربة. و منه قولهم: مرجت أمانات الناس:

أى فسدت، و مرج الدين و الأمر اختلط أ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ أَى: الاستفهام للتقريع و التوبيخ: أى كيف غفلوا عن النظر إلى السماء فوقهم كَيْفَ بَيْنَاهَا وَ جَعَلْنَاهَا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ مَرْفُوعَةً بِغَيْرِ عِمَادٍ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ وَ زَيَّنَّاهَا بِمَا جَعَلْنَا فِيهَا مِنَ الْمَصَابِيحِ وَ مَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ أَى: فتوق و شقوق و صدوع، و هو جمع فرج، و منه قول امرئ القيس:

تَسَدُّ بِهِ فَرْجَهَا مِنْ دَبْرٍ «١» قَالَ الْكَسَائِيُّ: لَيْسَ فِيهَا تَفَاوُتٌ وَ لَا اخْتِلَافٌ وَ لَا فَتُوقٌ وَ الْأَرْضُ مَيِّدٌ ذُنَاهَا أَى: بسطناها وَ أَلَقَيْنَا فِيهَا رِوَايَتِي أَى: جبالا ثوابت، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة الرعد وَ أُنْبِتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ أَى: من كل صنف حسن. و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة الحج تَبَصَّرَةٌ وَ ذِكْرِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُبِيبٍ هُمَا عَلْتَانٍ لَمَّا تَقَدَّمَ مُنْتَصِبَانِ بِالْفِعْلِ الْأَخِيرِ مِنْهَا، أَوْ بِمَقْدَرٍ، أَى: فعلنا ما فعلنا للتبصير و التذكير، قاله الزجاج.

و قال أبو حاتم: انتصبا على المصدرية، أَى: جعلنا ذلك تبصرة و ذكرى. و المنيب الراجع إلى الله بالتوبة،

(١). و صدره: لها ذنب مثل ذيل العروس.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٨٦

المتدبر فى بديع صنعه و عجائب مخلوقاته. و فى سياق هذه الآيات تذكير لمنكرى البعث و إيقاظ لهم عن سنه الغفلة، و بيان لإمكان ذلك و عدم امتناعه، فإن القادر على مثل هذه الأمور يقدر عليه، و هكذا قوله:

وَ نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا أَى: نزلنا من السحاب ماء كثير البركة لانتفاع الناس به فى غالب أمورهم فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَاتٍ أَى: أنبتنا بذلك الماء بساتين كثيرة وَ حَبِّ الْحَصِيدِ أَى: ما يقات و يحصد من الحبوب، و المعنى: و حَبِّ الزَّرْعِ الْحَصِيدِ، وَ حَبِّ الْحَبِّ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ، كَذَا قَالَ الْبَصْرِيُّونَ. وَ قَالَ الْكُوفِيُّونَ: هُوَ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَى نَفْسِهِ كَمَسْجِدِ الْجَامِعِ، حَكَاهُ الْفَرَّاءُ. قَالَ الضَّحَّاكُ: حَبِّ الْحَصِيدِ: الْبَرِّ وَ الشَّعِيرِ، وَ قِيلَ: كُلُّ حَبِّ يَحْصَدُ وَ يَدَّخِرُ وَ يَقْتَاتُ وَ النَّخْلُ بِاسْتِغْنَاءِ لَهَا طَلْعُ نَضِيدٍ هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى جَنَاتٍ؛ أَى: وَ أَنْبَتْنَا بِهِ النَّخْلَ، وَ تَخْصِيصُهَا بِالذِّكْرِ مَعَ دُخُولِهَا فِي الْجَنَاتِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى فَضْلِهَا عَلَى سَائِرِ الْأَشْجَارِ، وَ انْتِصَابِ بَاسِقَاتٍ عَلَى الْحَالِ، وَ هِيَ حَالٌ مَقْدَرَةٌ لِأَنَّهَا وَقْتُ الْإِنْبَاتِ لَمْ تَكُنْ بَاسِقَةً.

قال مجاهد و عكرمة و قتادة: الباسقات: الطوال، و قال سعيد بن جبيرة: مستويات. و قال الحسن و عكرمة و الفراء: مواقير حوامل، يقال للشاة بسقت إذا ولدت، و الأشهر فى لغة العرب الأوّل، يقال: بسقت النخلة بسوقا؛ إذا طالت، و منه قول الشاعر:

لنا خمر و ليست خمر كرم و لكن من نتاج الباسقات

كرام فى السماء ذهبن طولاً و فات ثمارها أيدى الجناة

و جملة لها طلع نضيد فى محل نصب على الحال من النخل، و الطلع: هو أوّل ما يخرج من ثمر النخل، يقال: طلع الطلع طلوعاً. و النضيد: المتراكب الذى نضد بعضه على بعض، و ذلك قبل أن يفتح فهو نضيد فى أكمامه، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد رِزْقًا لِلْعِبَادِ انْتِصَابُهُ عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ، أَى: رزقناهم رزقا، أو على العلة، أَى: أنبتنا هذه الأشياء للرزق وَ أَحْيَيْنَا بِهِ بِلْدَةً مَيِّتًا أَى: أحينا بذلك الماء بلدة مجدبة لا ثمار فيها و لا زرع، و جملة كذلك الخُزُوجُ مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث كمثل هذا الإحياء الذى أحيا الله به الأرض الميتة، قرأ الجمهور مَيِّتًا عَلَى التَّخْفِيفِ، وَ قَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ وَ خَالِدٌ بِالتَّثْقِيلِ. ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةَ فَقَالَ: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحَابُ الرِّسِّ هُمُ الْقَوْمُ شَعِيبٌ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ، وَ قِيلَ: هُمُ الَّذِينَ جَاءَهُمْ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى، وَ هُمُ مِنْ قَوْمِ عِيسَى. وَ قِيلَ: هُمُ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ. وَ الرِّسُّ: إِمَّا مَوْضِعٌ نَسَبُوا إِلَيْهِ، أَوْ فِعْلٌ، وَ هُوَ حَفْرُ الْبَثْرِ، يُقَالُ: رَسٌّ؛ إِذَا حَفَرَ بَثْرًا وَ ثُمُودٌ- وَ عَادٌ وَ فِرْعَوْنُ أَى: فرعون و قومه وَ إِخْوَانٌ لُوطٍ جَعَلَهُمْ إِخْوَانَهُمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَارَهُ، وَ قِيلَ: هُمُ

من قوم إبراهيم، و كانوا من معارف لوط و أَصِحَابِ الْأَيْكَةِ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى الْأَيْكَةِ، و اختلف القراء فيها فى سورة الشعراء مستوفى، و نبههم الذى بعثه الله إليهم شعيب و قَوْمٌ تَبِعَ هُوَ تَبِعَ الْحَمِيرَى الَّذِى تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ فى قوله: أَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تَبِعَ و اسمه سعد أبو كرب، و قيل: أسعد. قال قتادة: ذم الله قوم تبع، و لم يذمه. كُلُّ كَذَبِ الرُّسُلِ التَّنَوِينِ عوض عن المضاف إليه؛ أى: كل واحد من هؤلاء كذب رسوله الذى أرسله الله إليه، و كذب ما جاء به من الشرع، و اللام فى الرسل تكون للعهد،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٨٧

و يجوز أن تكون للجنس؛ أى: كل طائفة من هذه الطوائف كذبت جميع الرسل، و أفراد الضمير فى كذب باعتبار لفظ كل، و فى هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه و سلم، كأنه قيل له: لا- تحزن و لا- تكثر غمك لتكذيب هؤلاء لك، فهذا شأن من تقدمك من الأنبياء، فإن قومهم كذبوهم و لم يصدقهم إلا القليل منهم فَحَقَّ وَعِيدِ أى: وجب عليهم وعيدى، و حقت عليهم كلمة العذاب، و حل بهم ما قدره الله عليهم من الخسف و المسخ و الإهلاك بالأنواع التى أنزلها الله بهم من عذابه أفعينا بِالْخَلْقِ الْمَأُولِ الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و الجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث الذى أنكرته الأمم؛ أى: أفعجزنا بالخلق حين خلقناهم أولا- و لم يكونوا شيئا، فكيف نعجز عن بعثهم، يقال: عييت بالأمر؛ إذا عجزت عنه و لم أعرف وجهه. قرأ الجمهور بكسر الياء الأولى بعدها ياء ساكنة. و قرأ ابن أبى عبله بتشديد الياء من غير إشباع. ثم ذكر أنهم فى شك من البعث، فقال: بَلْ هُمْ فى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ أى: فى شك و حيرة و اختلاط من خلق مستأنف، و هو بعث الأموات، و معنى الإضراب أنهم غير منكرين لقدرة الله على الخلق الأول بل هُمْ فى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ق قال: هو اسم من أسماء الله. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: خلق الله من وراء هذه الأرض بحرا محيطا، ثم خلق وراء ذلك جبلا يقال له: ق، السماء الدنيا مرفرفة عليه، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها، ثم خلق وراء ذلك جبلا، يقال له قاف، السماء الثانية مرفرفة عليه، حتى عد سبع أرضين و سبعة أبحر و سبعة أجبل و سبع سموات، قال: و ذلك قوله: وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ «١» قال ابن كثير: لا يصح سنده عن ابن عباس. و قال أيضا: و فيه انقطاع. و أخرج ابن أبى الدنيا و أبو الشيخ عنه أيضا قال: هو جبل، و عروقه إلى الصخرة التى عليها الأرض، فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك ذلك العرق الذى يلى تلك القرية فيزلزلها و يحركها، فمن ثم يحرك القرية دون القرية «٢». و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أيضا: وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ قال: الكريم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: القرآن المجيد ليس شىء أحسن منه و لا أفضل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا: قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ قال: أجسادهم و ما يذهب منها. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: ما تأكل من لحومهم و عظامهم و أشعارهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا قال: المريج:

الشىء المتغير. و أخرج الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن قطبة قال: «سمعت النبى صلى الله عليه و سلم يقرأ فى الصبح ق، فلما أتى على هذه الآية وَ النَّخْلَ بِاسْمَاتٍ فَجَعَلَتْ أَقُول: ما بسوقها؟ قال: طولها». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ النَّخْلَ بِاسْمَاتٍ قال: الطول.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ قال: متراكم بعضه على بعض. و أخرج

(١). لقمان: ٢٧.

(٢). هذا الكلام لا يستند إلى أصل شرعى و يتنافى مع الحقائق العلمية فلا يعتد به.

ابن جرير و ابن حاتم عنه أيضا في قوله: أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ يقول: لم يعينا الخلق الأول، و في قوله: بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ في شك من البعث.

### [سورة ق (٥٠): الآيات ١٦ الى ٣٥]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَ نَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَ جَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَ نُنْفِخُ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ (٢٠)

وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَ قَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَتِيدٍ (٢٤) مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٌ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَعْتَهُ وَ لَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَمْؤَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَخْفَى (٢٨) مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَمَدَى وَ مَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠)

وَ أُرْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَ نَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر بعض القدرة الربانية. و المراد بالإنسان الجنس، و قيل: آدم. و الوسوسة هي في الأصل: الصوت الخفي، و المراد بها هنا ما يختلج في سره و قلبه و ضميره، أي: نعلم ما يخفي و يكن في نفسه، و من استعمال الوسوسة في الصوت الخفي قول الأعشى:

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت «١» فاستعمل لما خفي من حديث النفس وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ هو حبل العاتق، و هو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه، و هما وريدان من عن يمين و شمال. و قال الحسن: الوريد الوتين، و هو عرق معلق بالقلب. و هو تمثيل للقرب بقرب ذلك العرق من الإنسان، أي: نحن أقرب إليه من حبل وريده، و الإضافة بيانية، أي: حبل هو الوريد. و قيل: الحبل هو نفس الوريد، فهو من باب مسجد الجامع. ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به و كل به ملكين يكتبان و يحفظان عليه عمله إلزاما للحجة فقال: إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ الظرف منتصب بما في أَقْرَبُ من معنى الفعل، و يجوز أن يكون منصوبا بمقدّر هو اذكر، و المعنى: أنه أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان، و هما الملكان الموكلان به ما يلفظ به و ما يعمل به، أي: يأخذان ذلك و يثبتانه، و التلقى: الأخذ، أي: نحن أعلم بأحواله غير محتاجين إلى الحفظه الموكلين به، و إنما جعلنا

(١). و عجزه: كما استعان بريح عشرق زجل.

ذلك إلزاما للحجة و توكيدا للأمر. قال الحسن و قتادة و مجاهد: المتلقيان: ملكان يتلقيان عملك أحد هما عن يمينك يكتب حسناتك، و الآخر عن شمالك يكتب سيئاتك. و قال مجاهد أيضا: و كل الله بالإنسان ملكين بالليل و ملكين بالنهار يحفظان عمله و يكتبان أثره عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ إنما قال قعيد و لم يقل قعيدان و هما اثنان، لأن المراد عن اليمين قعيد و عن الشمال قعيد. فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، كذا قال سيويه، كقول الشاعر «١»:

نحن بما عندنا و أنت بما عندك راض و الرأى مختلف

و قول الفرزدق:

و أبى فكان و كنت غير غدور «٢» أى: و كان غير غدور و كنت غير غدور، و قال الأخفش و الفراء: إن لفظ قعيد يصلح للواحد و الاثنين و الجمع، و لا- يحتاج إلى تقدير فى الأول. قال الجوهرى و غيره من أئمة اللغوة و النحو: فعيل و فعمل مما يستوى فيه الواحد و الاثنان و الجمع، و القعيد: المقاعد كالجلس بمعنى المجالس ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ أى: ما يتكلم من كلام، فيلفظه و يرميه من فيه إلا لديه، أى: على ذلك اللفظ رقيب، أى:

ملك يرقب قوله و يكتبه، و الرقيب: الحافظ المتتبع لأمر الإنسان الذى يكتب ما يقوله من خير و شرّ، فكاتب الخير هو ملك اليمين، و كاتب الشرّ ملك الشمال. و العتيد: الحاضر المهيأ. قال الجوهرى: العتيد: الحاضر المهيأ، يقال: عتيدته تعتيدها و أعتده إعتاداً، أى: أعدّه، و منه: وَ أَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَتَكاً «٣» و المراد هنا أنه معدّ للكتابة مهياً لها وَ جَاءَتْ سَيِّكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ لما بين سبحانه أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة ذكر بعده ما ينزل بهم من الموت، و المراد بسكرة الموت شدّته و غمرته التى تغشى الإنسان و تغلب على عقله، و معنى بالحق: أنه عند الموت يتضح له الحق و يظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث و الوعد و الوعيد، و قيل: الحق هو الموت، و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، أى: و جاءت سكرة الموت بالحق، و كذا قرأ أبو بكر الصديق و ابن مسعود. و السكره: هى الحق، فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين، و قيل: الباء للملابسة كالتى فى قوله: تَثَبَّتْ بِالذُّهْنِ «٤» أى: متلبسة بالحق، أى: بحقيقته الحال، و الإشارة بقوله:

ذَلِكَ إِلَى الْمَوْتِ، و الحيد: الميل، أى: ذلك الموت الذى كنت تميل عنه و تفرّ منه، يقال: حاد عن الشىء يحيد حيوداً و حيدةً و حيدودة؛ مال عنه و عدل، و منه قول طرفه:

أبا منذر رمت الوفاء فهبته وحدث كما حاد البعير عن الدّحض

(١). هو قيس بن الخطيم.

(٢). و صدره: إتنى ضمنت لمن أتانى ما جنى.

(٣). يوسف: ٣١.

(٤). المؤمنون: ٢٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٩٠

و قال الحسن: تحيد: تهرب وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ عَبرَ عنه بالماضى لتحقّق وقوعه، و هذه هى النفخة الآخرة للبعث ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ أى: ذلك الوقت الذى يكون فيه النفخ فى الصور يوم الوعيد الذى أوعده الله به الكفار. قال مقاتل: يعنى بالوعيد العذاب فى الآخرة، و خصص الوعيد مع كون اليوم هو يوم الوعد و الوعيد جميعاً لتحويله وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ أى: جاءت كل نفس من النفوس معها من يسوقها و من يشهد لها أو عليها.

و اختلف فى السائق و الشهيد، فقال الضحاك: السائق من الملائكة، و الشهيد من أنفسهم: يعنى الأيدى و الأرجل. و قال الحسن و قتادة: سائق يسوقها و شاهد يشهد عليها بعملها. و قال ابن مسلم: السائق قربنها من الشياطين، سمى سائقها لأنه يتبعها و إن لم يحثها. و قال مجاهد: السائق و الشهيد ملكان. و قيل: السائق الملك، و الشهيد العمل، و قيل: السائق كاتب السيئات، و الشهيد كاتب الحسنات. و محل الجملة نصب على الحال. لَقَدْ كُنْتُ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا أى: يقال له: لقد كنت فى غفلة من هذا، و الجملة فى محل نصب على الحال من نفس أو مستأنفة، كأنه قيل ما يقال له؟ قال الضحاك: و المراد بهذا المشركون لأنهم كانوا



في غفلة من عواقب أمورهم. و قال ابن زيد: الخطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أى: لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة. و قال أكثر المفسرين: المراد به جميع الخلق برّهم و فاجرهم، و اختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور بفتح التاء من كُنْتُ و فتح الكاف في غطاءك و بصرك، حملا على ما في لفظ كل من التذكير. و قرأ الجحدري و طلحة بن مصرف بالكسر في الجميع؛ على أن المراد النفس فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا، يعنى: رفعنا الحجاب الذي كان بينك و بين أمور الآخرة، و رفعنا ما كنت فيه من الغفلة عن ذلك فَبَصَّرَكَ الْيَوْمَ حَدِيدًا أى: نافذ تبصر به ما كان يخفى عليك في الدنيا. قال السدي: المراد بالغطاء أنه كان في بطن أمه فولد، و قيل: إنه كان في القبر فنشر، و الأول أولى. و البصر قيل: هو بصر القلب، و قيل: بصر العين. و قال مجاهد: بصرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك و سيئاتك، و به قال الضحاك. و قال قَرِينُهُ هذا ما لَدَى عَتِيدٍ أى: قال الملك الموكل به: هذا ما عندي من كتاب عملك عتيد حاضر قد هيأته، كذا قال الحسن و قتادة و الضحاك. و قال مجاهد: إن الملك يقول للرب سبحانه: هذا الذي وكلتني به من بنى آدم قد أحضرته و أحضرت ديوان عمله. و روى عنه أنه قال: إن قرينه من الشياطين، يقول ذلك، أى:

هذا ما قد هيأته لك يا غواثي و إضلالي. و قال ابن زيد: إن المراد هنا قرينه من الإنس، و عتيد مرفوع على أنه صفة لما إن كانت موصوفة، و إن كانت موصولة فهو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ هذا خطاب من الله عزّ و جلّ للسائق و الشهيد. قال الزجاج: هذا أمر للملكين الموكلين به، و هما السائق و الشهيد. «كل كفّار» للنعم، «عنيد» بجانب للإيمان مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ لا يبذل خيرا مُعْتَدٍ ظالم لا يقترّ بتوحيد الله مُرِيبٍ شاكّ في الحق، من قولهم: أراب الرجل؛ إذا صار ذا ريب. و قيل: هو خطاب للملكين من خزنة النار، و قيل: هو خطاب لواحد على تنزيل تشبيه الفاعل منزلة تشبيه الفعل و تكريره. قال الخليل و الأخفش: هذا كلام العرب الصحيح أن يخاطب الواحد بلفظ الاثنين

فتح القدير، ج ٥، ص: ٩١

يقولون: ارحلها و ازجراها، و خذها و أطلقها للواحد. قال الفراء: العرب تقول للواحد: قوما عنا. و أصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل في إبله و غنمه و رفقته في سفره اثنان، فجرى كلام الرجل للواحد على ذلك، و منه قولهم للواحد في الشعر: خليلي، كما قال امرؤ القيس:

خليلِي مَرَا بِي عَلَى أُمِّ جَنْدَبٍ نَقَضَ لِبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمَعْدَبِ  
و قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل بسقط اللوى بين الدّخول فحومل

و قول الآخر «١»:

فإن تزجراني يا ابن عَفَانٍ أَنْزَجِرُوا إِن تَدْعَانِي أَحْمَ عَرَضًا مَمْنَعًا

قال المازني: قوله: أَلْقِيَا يَدِلْ عَلَى أَلْقَى. قال المبرد: هي تشبيه على التوكيد، فتاب «ألقيا» مناب ألقى ألقى. قال مجاهد و عكرمة: العنيد: المعاند للحق، و قيل: المعرض عن الحق، يقال: عند يعند بالكسر عنودا؛ إذا خالف الحق الذي جعل مع الله إلهًا آخَرَ يجوز أن يكون بدلا من كل، أو منصوبا على الذم، أو بدلا من كفار، أو مرفوعا بالابتداء أو الخبر فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ تأكيداً للأمر الأول أو بدل منه قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مُسْتَأْنَفَةً لِبَيَانِ مَا يَقُولُهُ الْقَرِيبُ، و المراد بالقرين هنا الشيطان الذي قِيضَ لهذا الكافر، أنكر أن يكون أطعاه، ثم قال: وَ لَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ أى:

عن الحق فدعوته فاستجاب لي، و لو كان من عبادك المخلصين لم أقدر عليه، و قيل: إن قرينه الملك الذي كان يكتب سيئاته. و إن الكافر يقول: ربّ إنه أعجلني فيجيئه بهذا، كذا قال مقاتل و سعيد بن جبير. و الأول أولى، و به قال الجمهور. قال لا

تَخْتَصِمُوا لَدَىٰ هَذِهِ الْجُمْلَةِ مُسْتَأْنَفُهُ جَوَابُ سَوَالٍ مُّقَدَّرٌ كَأَنَّهُ قِيلَ:

فماذا قال الله؟ فقيل: قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىٰ يَعْنِي الْكَافِرِينَ وَ قَرْنَائِهِمْ، نَهَاہُمْ سَبْحَانَهُ عَنِ الْاِخْتِصَامِ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ، وَ جُمْلَةٌ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ، أَى: وَ الْحَالُ أَنَّ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ بِإِرْسَالِ الرِّسْلِ وَ إِنْزَالِ الْكُتُبِ، وَ الْبَاءُ فِي «بِالْوَعِيدِ» مَزِيدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ، أَوْ عَلَى تَضْمِينِ قَدَّمَ مَعْنَى تَقَدَّمَ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَمَدَى أَى: لَا خَلْفَ لَوْعَدَى، بَلْ هُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَ قَدْ قَضَيْتُ عَلَيْكُمْ بِالْعَذَابِ فَلَا تَبْدِيلَ لَهُ، وَ قِيلَ: هَذَا الْقَوْلُ هُوَ قَوْلُهُ: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا (٢) وَ قِيلَ: هُوَ قَوْلُهُ: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ \* (٣) وَ قَالَ الْفَرَاءُ وَ ابْنُ قَتَيْبَةَ: مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّهُ مَا يَكْذِبُ عِنْدِي بِزِيَادَةٍ فِي الْقَوْلِ وَ لَا يَنْقُصُ مِنْهُ لِعِلْمِي بِالْغَيْبِ، وَ هُوَ قَوْلُ الْكَلْبِيِّ.

وَ اخْتَارَهُ الْوَاحِدِيُّ لِأَنَّهُ قَالَ لَدَىٰ وَ لَمْ يَقُلْ: وَ مَا يَبْدَلُ قَوْلِي، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى. وَ قِيلَ: إِنْ مَفْعُولٌ قَدَّمْتُ

(١). الشاعِر هو سويد بن كراع، و البيت في الأغاني (١١/١٢٣)، و شرح المعلقات السبع للزوزني ص (٣٣)

(٢). الأنعام: ١٦٠.

(٣). هود: ١١٩.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٩٢

إِلَيْكُمْ هُوَ مَا يَبْدَلُ، أَى: وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ هُوَ مَا يَبْدَلُ، أَى: وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ مُلْتَبِسًا بِالْوَعِيدِ، وَ هَذَا بَعِيدٌ جَدًّا وَ مَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ أَى: لَا أَعْدَبُهُمْ ظَلَمًا بِغَيْرِ جَرْمِ اجْتِرْمُوهُ وَ لَا ذَنْبِ أَذْنَبُوهُ. وَ لَمَّا كَانَ نَفَى الظَّلَامِ لَا يَسْتَلْزِمُ نَفَى مَجْرَدِ الظُّلْمِ قِيلَ: إِنَّهُ هُنَا بِمَعْنَى الظَّالِمِ كَالثَّمَارِ بِمَعْنَى الثَّامِرِ. وَ قِيلَ: إِنْ صِغَةُ الْمَبَالِغَةِ لِلتَّأْكِيدِ هَذَا الْمَعْنَى بِإِرْزَاقِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ التَّعْذِيبِ بِغَيْرِ ذَنْبٍ فِي مَعْرُضِ الْمَبَالِغَةِ فِي الظُّلْمِ. وَ قِيلَ: صِغَةُ الْمَبَالِغَةِ لِرِعَايَةِ جَمْعِيَةِ الْعَبِيدِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: فَلَانَ ظَالِمٌ لِعَبْدِهِ وَ ظَلَامٌ لِعَبِيدِهِ، وَ قِيلَ: غَيْرُ ذَلِكَ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَ فِي سُورَةِ الْحَجِّ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَيَلِ امْتَلَأَتْ وَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ قَرَأَ الْجُمْهُورُ نَقُولُ بِالنُّونِ. وَ قَرَأَ نَافِعٌ وَ أَبُو بَكْرٍ بِالْيَاءِ. وَ قَرَأَ الْحَسَنُ «أَقُولُ». وَ قَرَأَ الْأَعْمَشُ: «يَقَالُ» وَ الْعَامِلُ فِي الظَّرْفِ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَمَدَى أَوْ مَحذُوفٌ، أَى: أَذْكَرُ، أَوْ أَنْذَرُهُمْ، وَ هَذَا الْكَلَامُ عَلَى طَرِيقَةِ التَّمْثِيلِ وَ التَّخْيِيلِ، وَ لَا سَوَالٍ وَ لَا جَوَابٍ، كَذَا قِيلَ، وَ الْأَوْلَى أَنَّهُ عَلَى طَرِيقَةِ التَّحْقِيقِ، وَ لَا يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ عَقْلٌ وَ لَا شَرْعٌ. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: قَالَ الْمَفْسُورُونَ: أَرَاهَا اللَّهُ تَصْدِيقُ قَوْلِهِ: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ \* فَلَمَّا امْتَلَأَتْ قَالَ لَهَا:

هَلِ امْتَلَأَتْ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ أَى: قَدْ امْتَلَأَتْ وَ لَمْ يَبْقَ فِي مَوْضِعٍ لَمْ يَمْتَلِئْ، وَ بِهَذَا قَالَ عَطَاءٌ وَ مُجَاهِدٌ وَ مُقَاتِلُ بْنُ سَلِيمَانَ. وَ قِيلَ: إِنْ هَذَا الِاسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى الِاسْتِرَادَةِ، أَى: أَنَّهَا تَطْلُبُ الزِّيَادَةَ عَلَى مَنْ قَدْ صَارَ فِيهَا. وَ قِيلَ: إِنْ الْمَعْنَى أَنَّهَا طَلَبَتْ أَنْ يَزَادَ فِي سَعَتِهَا لِتَضَائِقِهَا بِأَهْلِهَا، وَ الْمَزِيدُ إِمَّا مَصْدَرٌ كَالْمَجِيدِ، أَوْ اسْمٌ مَفْعُولٌ كَالْمَنْعِجِ، فَالْأَوَّلُ بِمَعْنَى: هَلْ مِنْ زِيَادَةٍ، وَ الثَّانِي بِمَعْنَى: هَلْ مِنْ شَيْءٍ تَزِيدُونِيهِ. ثُمَّ لَمَّا فَرِغَ مِنْ بَيَانِ حَالِ الْكَافِرِينَ شَرَعَ فِي بَيَانِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: وَ أَرْزَلَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ أَى: قَرَّبَتْ لِلْمُتَّقِينَ تَقْرِيْبًا غَيْرَ بَعِيدٍ أَوْ مَكَانَ غَيْرَ بَعِيدٍ مِنْهُمْ، بِحَيْثُ يَشَاهِدُونَهَا فِي الْمَوْقِفِ، وَ يَنْظُرُونَ مَا فِيهَا مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَ لَا أَذْنَ سَمِعَتْ، وَ لَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ انْتِصَابٌ غَيْرَ بَعِيدٍ عَلَى الْحَالِ. وَ قِيلَ: الْمَعْنَى: أَنَّهَا زَيَّنَتْ قُلُوبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالرَّغْبِ وَ التَّرْهيبِ، فَصَارَتْ قَرِيبَةً مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى. وَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: هَذَا مَا تُوعَدُونَ إِلَى الْجَنَّةِ الَّتِي أَرْزَلَتْ لَهُمْ، عَلَى مَعْنَى: هَذَا الَّذِي تَرَوْنَهُ مِنْ فَنُونِ نَعِيمِهَا مَا تُوعَدُونَ، وَ الْجُمْلَةُ بِتَقْدِيرِ الْقَوْلِ، أَى: يُقَالُ لَهُمْ هَذَا مَا تُوعَدُونَ. قَرَأَ الْجُمْهُورُ: تُوعَدُونَ بِالْفَوْقِيَّةِ. وَ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ بِالْتَحْتِيَّةِ. لِكُلِّ أَوَابٍ حَفِيطٍ هُوَ بَدَلٌ مِنَ «لِلْمُتَّقِينَ» بِإِعَادَةِ الْخَافِضِ، أَوْ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِ مَحذُوفٍ هُوَ حَالٌ، أَى: مَقُولًا لَهُمْ لِكُلِّ أَوَابٍ، وَ الْأَوَابُ: الرَّجَاعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّوْبَةِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَ قِيلَ: هُوَ الْمَسْبُوحُ، وَ قِيلَ: هُوَ الذَّاكِرُ لِلَّهِ فِي الْخُلُوءِ.

قال الشعبي و مجاهد: هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلوة فيستغفر الله منها.

وقال عبيد بن عمير: هو الذى لا يجلس مجلسا حتى يستغفر الله فيه، و الحفيظ: هو الحافظ لذنوبه حتى يتوب منها. و قال قتادة: هو الحافظ لما استودعه الله من حقه و نعمته، قاله مجاهد. و قيل: هو الحافظ لأمر الله.

وقال الضحاك: هو الحافظ لوصية الله له بالقبول من خشية الرحمن بالغيب الموصول فى محل جزّ بدلا أو بيانا لكل أوّاب، و قيل: يجوز أن يكون بدلا بعد بدل من المتقين، و فيه نظر لأنه لا يتكرر البدل، و المبدل منه واحد، و يجوز أن يكون فى محل رفع على الاستئناف، و الخبر «ادخلوها» بتقدير: يقال لهم: ادخلوها، و الخشية بالغيب أن يخاف الله و لم يكن رآه. و قال الضحاك و السدى: يعنى فى الخلوة حيث لا يراه أحد.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٩٣

قال الحسن: إذا أرخى الستر و أعلق الباب، «و بالغيب» متعلق بمحذوف هو حال أو صفة لمصدر خشى و جاء بقلب منيب أى: راجع إلى الله مخلص لطاعته، و قيل: المنيب: المقبل على الطاعة، و قيل: السليم ادخلوها هو بتقدير القول، أى: يقال لهم ادخلوها، و الجمع باعتبار معنى من، أى: ادخلوا الجنة بسلام أى: بسلامة من العذاب، و قيل: بسلام من الله و ملائكته، و قيل: بسلامة من زوال النعم، و هو متعلق بمحذوف هو حال، أى: متلبسين بسلام، و الإشارة بقوله: ذلك إلى زمن ذلك اليوم كما قال أبو البقاء، و خبره يوم الخلود و سماه يوم الخلود لأنه لا انتهاء له، بل هو دائم أبدا لهم ما يشاؤون فيها أى: فى الجنة ما تشتهى أنفسهم و تلد أعينهم من فنون النعم و أنواع الخير و لدينا مزيد من النعم التى لم تخطر لهم على بال، و لا مرت لهم فى خيال. و قد أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: «نزل الله من ابن آدم أربع منازل: هو أقرب إليه من حبل الوريد، و هو يحول بين المرء و قلبه، و هو آخذ بناصية كل دابة، و هو معهم أينما كانوا».

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: من حبل الوريد قال: عروق العنق. و أخرج ابن المنذر عنه قال: هو نياط القلب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا، فى قوله: ما يلفظ من قول إلا لمدية رقيب عتيد قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله: أكلت و شربت ذهبت جئت رأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله و عمله فأقر منه ما كان من خير أو شر و ألقى سائر، فذلك قوله: يمحوا الله ما يشاء و يثبت و أخرج ابن أبى شيبه و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس فى الآية قال: إنما يكتب الخير و الشر، لا يكتب: يا غلام أسرج الفرس، يا غلام اسقنى الماء. و قد ثبت فى الصحيحين و غيرهما عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال: «إن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم». و أخرج ابن أبى شيبه، و أحمد فى الزهد، و الحكيم و الترمذى و أبو نعيم، و البيهقى فى الشعب، عن عمرة بن ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

«إن الله عند لسان كل قائل، فليقلق الله عبدا، و لينظر ما يقول». و أخرج الحكيم الترمذى عن ابن عباس مرفوعا مثله. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم فى الكنى، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، و ابن عساکر عن عثمان بن عفان أنه قرأ: و جاءت كل نفس معها سائق و شهيد قال: سائق يسوقها إلى أمر الله، و شهيد يشهد عليها بما عملت. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم فى الكنى، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن أبى هريرة فى الآية قال:

السائق: الملك، و الشهيد: العمل. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: السائق: من الملائكة، و الشهيد: شاهد عليه من نفسه.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه لقد كنت فى غفلة من هذا قال: هو الكافر.

و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عنه أيضا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَ كَ قال: الحياه بعد الموت. و أخرج ابن فتح القدير، ج ٥، ص: ٩٤

جرير عنه أيضا، و قَالَ قَرِينُهُ قال: شيطانه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم في قوله: لا تَخْتَصِمُوا لَدَى قال: إنهم اعتذروا بغير عذر فأبطل الله حجَّتْهم و ردَّ عليهم قولهم. و أخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله: و ما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ قال: ما أنا بمعذب من لم يجترم (١). و أخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا، في قوله: يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ قال: و هل في من مكان يزداد في؟ و أخرج البخاري و مسلم و غيرهما عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «لا تزال جهنم يلقى فيها و تقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض و تقول: قط قط، و عزتك و كرمك. و لا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنهم في فضول الجنة». و أخرج أيضا من حديث أبي هريرة نحوه، و في الباب أحاديث. و أخرج ابن جرير، و البيهقي في الشعب، عن ابن عباس في قوله: لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ قال: حفظ ذنوبه حتى رجع عنها. و أخرج البزار و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه، و البيهقي في البعث و النشور، عن أنس، في قوله: وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ قال: يتجلى لهم الرب تبارك و تعالى في كل جمعة. و أخرج البيهقي في الرؤية، و الديلمي عن علي في الآية قال: يتجلى لهم الرب عز و جل. و في الباب أحاديث.

### [سورة ق (٥٠): الآيات ٣٦ الى ٤٥]

وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ مَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلِ الْغُرُوبِ (٣٩) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ ادْبَارِ الشُّجُودِ (٤٠) وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِنَّا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَ مَا أَنْتَ بِنَجَّارٍ فَدَكُّوْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)

خَوْف سبجانه أهل مكه بما اتفق للقرن الماضيه قبلهم أي: قبل قريش و من وافقهم من قرن أي: من أمه هم أشد منهم بطشاً أي: قوة كعاد و ثمود و غيرهما فنقَّبوا في البلاد أي: ساروا و تقلبوا فيها و طافوا بقاعها. و أصله من النقب، و هو الطريق. قال مجاهد: ضربوا و طافوا. و قال النضر بن شميل: دُوروا. و قال المؤرِّج: تباعدوا. و الأول أولى. و منه قول امرئ القيس:

و قد نقت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمه بالاياب

و مثله قول الحارث بن حلزة:

نقَّبوا في البلاد من حذر الموت و جالوا في الأرض كل مجال

(١). «يجترم»: يرتكب الذنب.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٩٥

و قرأ ابن عباس و الحسن و أبو العاليه و أبو عمرو في رواية: نقبوا بفتح القاف مخففة، و النقب: هو الخرق و الطريق في الجبل و كذا المنقب و المنقبه، كذا قال ابن السكيت، و جمع النقب نقوب. و قرأ السلمي و يحيى بن يعمر بكسر القاف مشددة على الأمر للتهديد، أي: طوفوا فيها و سيروا في جوانبها. و قرأ الباقون بفتح القاف مشددة على الماضي. هل من محيص أي: هل لهم من

مهرب يهريون إليه، أو مخلص يتخلصون به من العذاب. قال الزجاج: لم يروا محيصا من الموت، و المحيص مصدر حاص عنه يحيص حيصا و حيوصا و محيصا و محاصا و حيصانا، أى: عدل و حاد، و الجملة مستأنفة لبيان أنه لا مهرب لهم، و فى هذا إنذار لأهل مكة أنهم مثل من قبلهم من القرون لا يجدون من الموت و العذاب مفرا إن فى ذلك لذكرى أى:

فيما ذكر من قصتهم تذكرة و موعظة لمن كان له قلب أى: عقل. قال الفراء: و هذا جائز فى العريية، تقول: ما لك قلب، و ما قلبك معك، أى: ما لك عقل، و ما عقلك معك، و قيل: المراد القلب نفسه، لأنه إذا كان سليما أدرك الحقائق و تفكر كما ينبغي. و قيل: لمن كان له حياة و نفس مميزة، فعبر عن ذلك بالقلب لأنه وطنها و معدن حياتها، و منه قول امرئ القيس:

أغرّك منى أن حبك قاتلى و أنك مهمما تأمرى النفس «١» تفعل

أو ألقى السمع أى: استمع ما يقال له، يقال: ألقى سمعك إلى، أى: استمع منى، و المعنى:

أنه ألقى السمع إلى ما يتلى عليه من الوحى الحاكى لما جرى على تلك الأمم. قرأ الجمهور: ألقى مبنيا للفاعل. و قرأ السلمى و طلحة و السدى على البناء للمفعول و رفع السمع و هو شهيد أى: حاضر الفهم أو حاضر القلب؛ لأن من لا يفهم فى حكم الغائب و إن حضر بجسمه فهو لم يحضر بفهمه. قال الزجاج:

أى: و قلبه حاضر فيما يسمع. قال سفيان: أى لا يكون حاضرا و قلبه غائب. قال مجاهد و قتادة: هذه الآية فى أهل الكتاب، و كذا قال الحسن. و قال محمد بن كعب و أبو صالح: إنها فى أهل القرآن خاصة و لقد خلقنا السماوات و الأرض و ما بينهما فى ستة أيام قد تقدّم تفسير هذه الآية فى سورة الأعراف و غيرها و ما مسنا من لغوب اللغوب: التعب و الإعياء، تقول: لغب يلغب بالضم لغوبا. قال الواحدى: قال جماعة المفسرين: إن اليهود قالوا: خلق الله السماوات و الأرض و ما بينهما فى ستة أيام، أولها الأحد و آخرها الجمعة، و استراح يوم السبت، فكذبهم الله تعالى بقوله: و ما مسنا من لغوب - فاضبر على ما يقولون هذه تسلية للنبي صلى الله عليه و سلم و أمر لهم بالصبر على ما يقوله المشركون، أى: هوّن عليك، و لا تحزن لقولهم و تلق ما يرد عليك منه بالصبر و سيبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس و قبل الغروب أى: نزه الله عما لا يليق بجناحه العالى متلبسا بحمده وقت الفجر و وقت العصر، و قيل: المراد صلاة الفجر و صلاة العصر، و قيل: الصلوات الخمس، و قيل: صلّ ركعتين قبل طلوع الشمس و ركعتين قبل غروبها، و الأول أولى و من الليل فيسبحه من للتبويض: أى سبحه بعض الليل، و قيل: هى صلاة الليل، و قيل: ركعتا الفجر، و قيل: صلاة العشاء،

(١). و فى رواية: القلب.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٩٦

و الأول أولى و أدبار السجود أى: و سبحه أعقاب الصلوات. قرأ الجمهور: أدبار بفتح الهمزة جمع دبر. و قرأ نافع و ابن كثير و حمزة بكسرها على المصدر، من أدبر الشيء إدبارا؛ إذا ولى. و قال جماعة من الصحابة و التابعين: إدبار السجود الركعتان بعد المغرب، و إدبار النجوم: الركعتان قبل الفجر. و قد اتفق القراء السبعة فى إدبار النجوم أنه بكسر الهمزة كما سيأتى و استمع يوم يُنادى المُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ أى: استمع ما يوحى إليك من أحوال القيامة؛ يوم ينادى المناد، و هو إسرافيل أو جبريل، و قيل: استمع النداء أو الصوت أو الصيحة، و هى صيحة القيامة، أعنى النفخة الثانية فى الصور من إسرافيل، و قيل: إسرافيل ينفخ، و جبريل ينادى أهل المحشر، و يقول: هلموا للحساب، فالنداء على هذا فى المحشر. قال مقاتل: هو إسرافيل ينادى بالحشر فيقول: يا أيها الناس هلموا للحساب مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ بحيث يصل النداء إلى كل فرد من أفراد أهل المحشر. قال قتادة: كنا نحدّث أنه ينادى من صخرة بيت المقدس. قال الكلبي: و هى أقرب الأرض إلى السماء باثنى عشر ميلا. و قال كعب: بثمانية عشر ميلا يوم

يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ هُوَ بَدَلٌ مِنْ يَوْمِ يَنَادَى، يَعْنِي صَيْحَةَ الْبَعْثِ، وَ «بِالْحَقِّ» مُتَعَلِّقٌ بِالصَّيْحَةِ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ أَيْ: يَوْمُ الْخُرُوجِ مِنَ الْقُبُورِ. قَالَ الْكَلْبِيُّ: مَعْنَى بِالْحَقِّ: بِالْبَعْثِ. وَقَالَ مِقَاتِلٌ: يَعْنِي أَنَّهَا كَائِنُهُ حَقًّا إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ أَيْ: نَحْيِي فِي الْآخِرَةِ وَ نُمِيتُ فِي الدُّنْيَا، لَا- يَشَارِكُنَا فِي ذَلِكَ مُشَارِكٌ، وَ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ لِتَقْرِيرِ أَمْرِ الْبَعْثِ وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ فَجَزَايُ كُلِّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ قَرَأَ الْجُمْهُورُ بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الشَّيْنِ. وَقَرَأَ الْكُوفِيُّونَ بِتَخْفِيفِ الشَّيْنِ عَلَى حَذْفِ إِحْدَى التَّائِينَ تَخْفِيفًا. وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ: تَشَقَّقُ بِإِثْبَاتِ التَّاءِ عَلَى الْأَصْلِ، وَقَرَأَ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، وَ انْتِصَابِ سِتْرَاعًا عَلَى أَنَّهُ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي عَنْهُمْ، وَ الْعَامِلُ فِي الْحَالِ تَشَقَّقُ، وَقِيلَ: الْعَامِلُ فِي الْحَالِ هُوَ الْعَامِلُ فِي يَوْمٍ، أَيْ: مُسْرِعِينَ إِلَى الْمَنَادَى الَّذِي نَادَاهُمْ ذَلِكَ حَشْرًا أَيْ: بَعَثَ وَ جَمَعَ عَلَيْنَا يَسِيرًا هِينًا. ثُمَّ عَزَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَقَالَ:

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ يَعْنِي مِنْ تَكْذِيبِكَ فِيمَا جِئْتَ بِهِ وَ مِنْ إِنْكَارِ الْبَعْثِ وَ التَّوْحِيدِ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ أَيْ: بِمَسَلِّطٍ يَجْبِرُهُمْ وَ يَقْهَرُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَ عِيدِ أَيْ: مَنْ يَخَافُ وَ عِيدِي لِعَصَاتِي بِالْعَذَابِ، وَ أَمَّا مِنْ عَدَاهُمْ فَلَا تَشْتَغَلُ بِهِمْ. ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْقِتَالِ.

وَ قَدْ أَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَ مَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ قَالَ: مِنْ نَصَبٍ. وَ أَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَ ابْنُ عَسَاكِرٍ عَنْ جُرَيْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: وَ سَيُخَيِّجُ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ «صَلَاةَ الصُّبْحِ» وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ «صَلَاةَ الْعَصْرِ». وَ أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَ ابْنُ جُرَيْرٍ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ، وَ ابْنُ مَرْدُويه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «بَتَّ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ فَقَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ رَكَعَتَانِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ إِدْبَارِ النُّجُومِ وَ رَكَعَتَانِ بَعْدَ الْمَغْرَبِ إِدْبَارِ السُّجُودِ». وَ أَخْرَجَ مُسَدَّدٌ فِي مُسْنَدِهِ، وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ ابْنُ مَرْدُويه عَنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عَنِ إِدْبَارِ النُّجُومِ وَ إِدْبَارِ السُّجُودِ، فَقَالَ: إِدْبَارِ السُّجُودِ رَكَعَتَانِ

فَتْحَ الْقَدِيرِ، ج ٥، ص: ٩٧

بَعْدَ الْمَغْرَبِ، وَ إِدْبَارِ النُّجُومِ رَكَعَتَانِ قَبْلَ الْغَدَاةِ». وَ أَخْرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرِ فِي الصَّلَاةِ، وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: إِدْبَارِ السُّجُودِ رَكَعَتَانِ بَعْدَ الْمَغْرَبِ، وَ إِدْبَارِ النُّجُومِ رَكَعَتَانِ قَبْلَ الْفَجْرِ. وَ أَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ وَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ ابْنُ نَصْرِ وَ ابْنُ جُرَيْرٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَ الصِّفَاتِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مِثْلَهُ.

وَ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ ابْنُ نَصْرِ وَ ابْنُ جُرَيْرٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ ابْنُ مَرْدُويه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِثْلَهُ. وَ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَ غَيْرُهُ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمْرُهُ أَنْ يَسْبَحَ فِي أَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا. وَ أَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْهُ وَ اسْتَمَعَ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ قَالَ: هِيَ الصَّيْحَةُ. وَ أَخْرَجَ الْوَاسِطِيُّ عَنْهُ أَيْضًا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ قَالَ:

مِنْ صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْهُ أَيْضًا ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ قَالَ: يَوْمَ يَخْرُجُونَ إِلَى الْبَعْثِ مِنَ الْقُبُورِ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْهُ أَيْضًا قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ خَوَّفْتَنَا، فَتَزَلْتُمْ: فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَ عِيدِ.

فَتْحَ الْقَدِيرِ، ج ٥، ص: ٩٨

## سورة الذاريات

### إشارة

و هي مكية. قال القرطبي: في قول الجميع.

و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه، و البيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: نزلت سورة الذاريات بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الذاريات (٥١): الآيات ١ الى ٢٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ الذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا (٤)

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ (٥) وَ إِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أْفِكَ (٩) قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرِهِ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عَيْوُنٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَ بِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (١٩) وَ فِي الْمَآرِضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣)

قوله: وَ الذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا يقال: ذرت الريح التراب تذروه ذروا؛ و أذرته تذريه ذريا. أقسم سبحانه بالرياح التي تذري التراب، و انتصاب ذروا على المصدرية، و العامل فيها اسم الفاعل، و المفعول محذوف.

قرأ أبو عمرو و حمزة بإدغام تاء الذاريات في ذال ذروا، و قرأ الباقون بدون إدغام. و قيل: المقسم به مقدر و هو ربّ الذاريات و ما بعدها، و الأول أولى فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا هي السحاب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر، و انتصاب «وِقْرًا» على أنه مفعول به، كما يقال: حمل فلان عدلا ثقيلًا. قرأ الجمهور: وِقْرًا بكسر الواو اسم ما يوقر، أي: يحمل، و قرئ بفتحها على أنه مصدر و العامل فيه اسم الفاعل، أو على تسمية المحمول بالمصدر مبالغة فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا هي السفن الجارية في البحر بالرياح جريا سهلا، و انتصاب «يسرا» على المصدرية، أو صفة لمصدر محذوف، أو على الحال، أي: جريا ذا يسر. و قيل: هي الرياح، و قيل: السحاب، و الأول أولى، و اليسر: السهل في كل شيء فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا هي الملائكة التي تقسم الأمور. قال الفراء: تأتي بأمر مختلف، جبريل بالغظة، و ميكائيل صاحب الرحمة، و ملك الموت يأتي بالموت، و قيل: تأتي بأمر مختلف من الجذب و الخصب و المطر و الموت و الحوادث. و قيل: هي السحب التي يقسم الله بها أمر العباد، و قيل: إن المراد بالذاريات و الحاملات و الجاريات و المقسمات: الرياح، فإنها توصف بجميع ذلك لأنها تذرو التراب، و تحمل السحاب، و تجرى في الهواء، و تقسم الأمطار، و هو ضعيف جدا.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٩٩

و انتصاب «أمرًا» على المفعول به، و قيل: على الحال، أي: مأورة، و الأول أولى إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ هذا جواب القسم، أي: إنما توعدون من الثواب و العقاب لكائن لا محالة. و ما يجوز أن تكون موصولة و العائد محذوف، و أن تكون مصدرية. و وجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها كونها أمورا بديعة مخالفة لمقتضى العادة، فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود به وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ قرأ الجمهور: الْحُبُوكِ بضم الحاء و الباء، و قرئ بضم الحاء و سكون الباء و بكسر الحاء و فتح الباء، و بكسر الحاء و ضم الباء. قال ابن عطية: هي لغات، و المراد بالسماء هنا هي المعروفة، و قيل: المراد بها السحاب، و الأول أولى.

و اختلف المفسرون فى تفسير الحبك؛ فقال مجاهد و قتاده و الربيع و غيرهم: المعنى ذات الخلق المستوى الحسن. قال ابن الأعرابى: كل شىء أحكمته و أحسنت عمله فقد حبكته و احتبكته. و قال الحسن و سعيد ابن جبير: ذات الزينه. و روى عن الحسن أيضا أنه قال: ذات النجوم. و قال الضحاک: ذات الطرائق، و به قال الفراء، يقال لما تراه من الماء و الرمل إذا أصابته الريح: حبك. قال الفراء: الحبك تكسير كل شىء كالرمل إذا مرّت به الريح الساكنة، و الماء إذا مرّت به الريح، و يقال لدرع الحديد: حبك، و منه قول الشاعر:

كأنما جللها الحواك طنفسه فى وشيها حباك

أى: طرق، و قيل: الحبك الشدة، و المعنى: و السماء ذات الشدة، و المحبوك: الشديد الخلق من فرس أو غيره، و منه قول الشاعر:

قد غدا يحملنى فى أنفه لاحق الإطلين «١» محبوك ممر

و قول الآخر «٢»:

مرج الدين فأعددت له مشرف الحارك محبوك الكند «٣»

قال الواحدى بعد حكاية القول الأول: هذا قول الأكثرين إنكم لفى قولٍ مُخْتَلِفٍ هذا جواب القسم بالسماء ذات الحبك. أى: إنكم يا أهل مكة لفى قول مختلف متناقض فى محمد صلى الله عليه و سلم. بعضكم يقول:

إنه شاعر. و بعضكم يقول: إنه ساحر، و بعضكم يقول: إنه مجنون. و وجه تخصيص القسم بالسماء المتصفة بتلك الصفة تشبيه أقوالهم فى اختلافها باختلاف طرائق السماء، و استعمال الحبك فى الطرائق هو الذى عليه أهل اللغة، و إن كان الأكثر من المفسرين على خلافه. على أنه يمكن أن ترجع تلك الأقوال فى تفسير الحبك إلى هذا، و ذلك بأن يقال: إن ما فى السماء من الطرائق يصح أن يكون سببا لمزيد حسنها و استواء خلقها

(١). «الإطل»: الخاصة.

(٢). هو أبو دؤاد.

(٣). «الكند»: هو مجتمع الكتفين من الإنسان و الفرس.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٠٠

فتح القدير ج ٥ ١٤٩

و حصول الزينه فيها و مزيد القوة لها. و قيل: إن المراد بكونهم فى قول مختلف أن بعضهم ينفى الحشر و بعضهم يشك فيه، و قيل: كونهم يقرون أن الله خالقهم و يعبدون الأصنام يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ أى: يصرف عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه و سلم و بما جاء به، أو عن الحق، و هو البعث و التوحيد من صرف. و قيل: يصرف عن ذلك الاختلاف من صرفه الله عنه بالعصمة و التوفيق، يقال: أفكه يأفكه أفكا، أى: قلبه عن الشىء، و صرفه عنه، و منه قوله تعالى: قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَا «١» و قال مجاهد: يؤفن عنه من أفن، و الأفن: فساد العقل، و قيل: يحرمه من حرم. و قال قطرب: يخدع عنه من خدع. و قال اليزيدى: يدفع عنه من دفع قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ هذا دعاء عليهم. و حكى الواحدى عن المفسرين جميعا أن المعنى: لعن الكذابون.

قال ابن الأنبارى: و القتل إذا أخبر به عن الله كان بمعنى اللعن؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك.

قال الفراء: معنى «قتل»: لعن. و الخراصون: الكذابون الذين يتخرون فيما لا يعلمون، فيقولون:

إن محمدا مجنون، كذاب، شاعر، ساحر. قال الزجاج: الخراصون: هم الكذابون، و الخرص: حزر ما على النخل من الرطب تمرا،



و الخِزَاص: العُدَى يخرصها، و ليس هو المراد هنا. ثم قال: الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ أَي: فِي غَفْلَةٍ و عَمَى و جهالُهُ عن أمور الآخرة. و معنى ساهون: لاهون غافلون، و السهو: الغفلة عن الشيء و ذهابه عن القلب، و أصل الغمرة ما ستر الشيء و غطاه، و منها غمرات الموت يَسْتِئْلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ أَي: يقولون متى يوم الجزاء تكذيبا منهم و استهزاء. ثم أخبر سبحانه عن ذلك اليوم فقال: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ أَي: يحرقون و يعدَّبون، يقال: فتنت الذهب؛ إذا أحرقتة لتختبره؛ و أصل الفتنة: الاختبار. قال عكرمة: ألم تر أن الذهب إذا أدخل النار قيل: فتن. و انتصاب يوم بمضمر: أي الجزاء: يوم هم على النار، و يجوز أن يكون بدلا من يوم الدين، و الفتح للبناء لكونه مضافا إلى الجملة، و قيل: هو منصوب بتقدير أعنى. و قرأ ابن أبي عبله برفع يَوْمَ على البدل من يوم الدين، و جملة: ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هي بتقدير القول، أَي: يقال لهم ذوقوا عذابكم، قاله ابن زيد. و قال مجاهد: حريقكم، و رجح الأول الفزاء، و جملة هذا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ من جملة ما هو محكى بالقول، أَي: هذا ما كنتم تطلبون تعجيله استهزاء منكم، و قيل: هي بدل من فتنتم إِنْ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ لما ذكر سبحانه حال أهل النار ذكر حال أهل الجنة، أَي: هم في بساتين فيها عيون جارية لا يبلغ وصفها الواصفون آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ أَي: قابلين ما أعطاهم ربهم من الخير و الكرامة، و جملة إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ تعليل لما قبلها، أَي: لأنهم كانوا في الدنيا محسنين في أعمالهم الصالحة من فعل ما أمروا به، و ترك ما نهوا عنه. ثم بين إحسانهم الَّذِي وصفهم به فقال: كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ الهجوع: النوم بالليل دون النهار، و المعنى: كانوا قليلا ما ينامون من الليل، و «ما» زائدة، و يجوز أن تكون مصدرية أو موصولة، أَي: كانوا قليلا من الليل هجوعهم أو ما يهجعون فيه، و من ذلك قول أبي قيس بن الأسلت:

(١). الأحقاف: ٢٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٠١ قد حصت البيضة رأسى فما أطعم نوما غير تهجاع

و التهجاع: القليل من النوم، و فى ذلك قول عمرو بن معدى كرب:

أمن ريحانة الداعى السميع يهيجنى و أصحابى هجوع «١»

و قيل: «ما» نافية، أَي: ما كانوا ينامون قليلا من الليل، فكيف بالكثير منه؟! و هذا ضعيف جدا.

و هذا قول من قال: إن المعنى كان عددهم قليلا. ثم ابتداء فقال: ما يَهْجَعُونَ و به قال ابن الأنبارى، و هو أضعف مما قبله. و قال

قتادة فى تفسير هذه الآية: كانوا يصلون بين العشاءين، و به قال أبو العالیه و ابن وهب و بالأشجارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ أَي: يطلبون فى

أوقات السحر من الله سبحانه أن يغفر ذنوبهم.

قال الحسن: مدّوا الصلاة إلى الأسحار، ثم أخذوا بالأسحار الاستغفار. و قال الكلبي و مقاتل و مجاهد: هم بالأسحار يصلون، و

ذلك أن صلاتهم طلب منهم للمغفرة. و قال الضحّاك: هي صلاة الفجر. ثم ذكر سبحانه صدقاتهم فقال: وَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ

لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ أَي: يجعلون فى أموالهم على أنفسهم حقا للسائل و المحروم تقربا إلى الله عزّ و جلّ. و قال محمد بن سيرين

و قتادة: الحق هنا الزكاة المفروضة، و الأول أولى، فيحمل على صدقة النفل و صلة الرحم و قرى الضيف؛ لأن السورة مكية، و

الزكاة لم تفرض إلا- بالمدينة، و سيأتى فى سورة: سأل سائل و الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ- لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ «٢» بزيادة

معلوم، و السائل:

هو الذى يسأل الناس لفاقته.

و اختلف فى تفسير المحروم، فقيل: هو الذى يتعقّف عن السؤال حتى يحسبه الناس غنيا فلا يتصدّقون عليه، و به قال قتادة و

الزهرى. و قال الحسن و محمد بن الحنفية: هو الذى لا سهم له فى الغنيمه و لا يجرى عليه من الفىء شىء. و قال زيد بن أسلم:

هو الّذى أصيب ثمره أو زرعه أو ماشيته. قال القرطبي: هو الّذى أصابته الجائحة، و قيل: الّذى لا يكتسب، و قيل: هو الّذى لا يجد غنى يغنيه، و قيل: هو الّذى يطلب الدنيا و تدبر عنه، و قيل: هو الملوک، و قيل: الكلب، و قيل: غير ذلك. قال الشعبي: لى اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم، فما أنا اليوم بأعلم منى فيه يومئذ. و الّذى ينبغى التعويل عليه ما يدلّ عليه المعنى اللغوى، و المحروم فى اللّغة: الممنوع، من الحرمان و هو المنع، فيدخل تحته من حرم الرزق من الأصل، و من أصيب ماله بجائحة أذهبته، و من حرم العطاء، و من حرم الصدقة لتعفّفه. ثم ذكر سبحانه ما نصبه من الدلائل على توحيد الله و صدق وعده و وعيده فقال: وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ أَى: دلائل واضحة و علامات ظاهرة من الجبال و البرّ و البحر و الأشجار و الأنهار و الثمار، و فيها آثار الهلاك للأمم الكافرة المكذّبة لما جاءت به رسل الله و دعوتهم إليه، و خصّ الموقنين بالله لأنهم الذين يعترفون بذلك و يتدبرون فيه فينتفعون

(١). هذا البيت قاله عمرو بن معدى كرب يتشوّق أخته، و كان قد أسرها الصّمة أبو دريد بن الصّمة.

(٢). المعارج: ٢٤-٢٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٠٢

به وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَى: و فى أنفسكم آيات تدلّ على توحيد الله و صدق ما جاءت به الرّسل، فإنه خلقهم نطفة ثم علقه ثم مضغه ثم عظما إلى أن ينفخ فيه الروح، ثم تختلف بعد ذلك صورهم و ألوانهم و طبائعهم و ألسنتهم، ثم نقش خلقهم على هذه الصفة العجيبة الشأن من لحم و دم و عظم و أعضاء و حواس و مجارى و مناسف. و معنى أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَفلا تنظرون بعين البصيرة، فتستدلون بذلك على الخالق الرزاق المتفرد بالألوهية، و أنه لا شريك له و لا ضدّ و لا ندّ، و أن وعده الحقّ، و قوله الحقّ و أن ما جاءت إليكم به رسله هو الحقّ الّذى لا شك فيه و لا شبهة تعتريه، و قيل: المراد بالأنفس الأرواح، أَى: و فى نفوسكم التى بها حياتكم آيات وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ أَى: سبب رزقكم، و هو المطر فإنه سبب الأرزاق. قال سعيد ابن جبير و الضحّاك: الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر و ثلج. و قيل: المراد بالسماء السحاب، أَى:

و فى السحاب رزقكم، و قيل: المراد بالسماء المطر، و سمّاه سماء لأنه ينزل من جهتها، و منه قول الشاعر «١»:

إذا نزل السّماء بأرض قوم رعيناها و إن كانوا غضابا

و قال ابن كيسان: يعنى و على ربّ السماء رزقكم، قال: و نظيره: وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا «٢» و هو بعيد. و قال سفيان الثوري: أى عند الله فى السماء رزقكم. و قيل: المعنى: و فى السماء تقدير رزقكم. قرأ الجمهور رِزْقُكُمْ بالإفراد، و قرأ يعقوب و ابن محيصن و مجاهد «و أرزاقكم» «٣» بالجمع. وَ مَا تُوعَدُونَ مِنَ الْجَنَّةِ وَ النَّارِ، قاله مجاهد. قال عطاء: من الثواب و العقاب، و قال الكلبي:

من الخير و الشرّ، قال ابن سيرين: ما توعدون من أمر الساعة، و به قال الربيع. و الأولى الحمل على ما هو أعمّ من هذه الأقوال، فإن جزاء الأعمال مكتوب فى السماء، و القضاء و القدر ينزل منها، و الجنة و النار فيها.

ثم أقسم سبحانه بنفسه فقال: فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ أَى: ما أخبركم به فى هذه الآيات.

قال الزجاج: هو ما ذكر من أمر الرزق و الآيات. قال الكلبي: يعنى ما قصّ فى الكتاب. و قال مقاتل:

يعنى من أمر الساعة. و قيل: إن ما فى قوله: وَ مَا تُوعَدُونَ مبتدأ و خبره «فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ»، فيكون الضمير ل «ما».

ثم قال سبحانه: مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ قرأ الجمهور بنصب مِثْلَ على تقدير: كمثّل نطقكم، و «ما» زائدة، كذا قال بعض الكوفيين إنه منصوب ينزع الخافض.

وقال الزجاج و الفراء: يجوز أن ينتصب على التوكيد، أى: لحقّ حقاً مثل نطقكم. و قال المازنى: إن مثل مع ما بمنزلة شىء واحد فبنى على الفتح. و قال سيبويه: هو مبنى لإضافته إلى غير متمكن، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم. و قرأ حمزة و الكسائى و أبو بكر و الأعمش مثل بالرفع على أنه

(١). هو معوّد الحكماء معاوية بن مالك.

(٢). هود: ٦.

(٣). فى تفسير القرطبي (١٧ / ٤١): رازقكم.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٠٣

صفةً لحقّ؛ لأن مثل نكرة و إن أضيفت فهى لا تتعرّف بالإضافةً كغير. و رجّح قول المازنى أبو علىّ الفارسى، قال: و مثله قول حميد:

.....

و يحا لمن لم يدر ما هنّ و يحما فبنى و يح مع ما و لم يلحقه التنوين، و معنى الآية تشبيه تحقيق ما أخبر الله عنه بتحقيق نطق الآدمى و وجوده، و هذا كما تقول: إنه لحق كما أنك ها هنا، و إنه لحق كما أنك تتكلم، و المعنى: أنه فى صدقه و وجوده كالذى تعرفه ضرورة.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى، و الدار قطنى فى الأفراد، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، من طرق عن على بن أبى طالب فى قوله:

وَ الدَّارِيَاتِ ذُرُوءًا قَالَ: الرِّيحُ: فَالْحَامِلَاتِ وَ قُرَأَ قَالَ: السَّحَابُ: فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا قَالَ: السَّفْنُ فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا قَالَ: الملائكة، و أخرج البزار، و الدار قطنى فى الأفراد، و ابن مردويه و ابن عساكر عن عمر بن الخطاب مثله و رفعه إلى رسول الله صلّى الله عليه و سلّم، و فى إسناده أبو بكر بن أبى سبرة و هو لئى الحديث، و سعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث، كذا قال البزار. قال ابن كثير: فهذا الحديث ضعيف رفعه، و أقرب ما فيه أنه موقوف على عمر. و أخرج الفريابى و ابن مردويه عن ابن عباس مثل قول علىّ. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن عباس وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الحُجِيِّكَ قَالَ: حسنّها و استواؤها. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عنه فى الآية قال: ذات البهاء و الجمال و إن بنيانها كالبرد المسلسل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: ذات الخلق الحسن. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عمر مثله.

و أخرج ابن منيع عن علىّ قال: هى السماء السابعة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُوتِكَ قَالَ: يضلّ عنه من ضلّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قَتَلَ الحَرَاصُونَ قَالَ: لعن المرتابون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: هم الكهنة الَّذِينَ هُمْ فى غَمْرَةٍ سَاهُونَ قَالَ: فى غفلة لا هون. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الغمرة: الكفر و الشك.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: فى ضلالتهم يتمادون، و فى قوله: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ قَالَ: يعدّبون. و أخرج هؤلاء عنه أيضا فى قوله: آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ قَالَ: الفرائض إِنْهُمْ كانوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ قَالَ: قبل أن تنزل الفرائض يعملون.

و أخرج هؤلاء أيضا و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عنه أيضا كانوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا

يَهْجُونَ قَالَ: ما تأتي عليهم ليلته ينامون حتى يصبحوا إلا يصلون فيها. و أخرج ابن نصر و ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا في الآية يقول: قليلا ما كانوا ينامون. و أخرج أبو داود و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقي في سننه، عن أنس في الآية قال:

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٠٤

كانوا يصلون بين المغرب و العشاء. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبي شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عمر و بالأشجار هم يشيخون قال: يصلون. و أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في أموالهم حق قال: سوى الزكاة، يصل بها رحما، أو يقرى بها ضيفا، أو يعين بها محروما. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه قال: السائل الذي يسأل الناس، و المحروم الذي ليس له سهم في فء المسلمين. و أخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال: المحروم هو المحارف الذي يطلب الدنيا و تدبر عنه و لا يسأل الناس، فأمر الله المؤمنين برفده. و أخرج ابن أبي حاتم عن عائشة في الآية: قالت:

هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه. و أخرج الترمذي، و البيهقي في سننه، عن فاطمة بنت قيس أنها سألت النبي صلى الله عليه و سلم عن هذه الآية قال: «إن في المال حقا سوى الزكاة» و تلا هذه الآية ليس البر أن تولوا وجوهكم إلى قوله: و في الرقاب و أقام الصلاة و آتى الزكاة و أخرج الفريابي و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و البيهقي في الشعب، عن عبد الله بن الزبير في قوله: و في أنفسكم أ فلا تبصرون قال: سبيل الغائط و البول.

### [سورة الذاريات (٥١): الآيات ٢٤ الى ٣٧]

هَلْ أَتَاكَ خَبْرٌ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فَصَبَّتْ وَ جَهَّازَتْ وَ قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧)

قوله: هل أتاك خبرٌ ضيف إبراهيم المكرمين ذكر سبحانه قصة إبراهيم لبيّن أنه أهلك بسبب التكذيب من أهلك. و في الاستفهام تنبيه على أن هذا الحديث ليس مما قد علم به رسول الله، و أنه إنما علمه بطريق الوحي. و قيل: إن «هل» بمعنى قد، كما في قوله: هل أتى على الإنسان حين من الدهر «١» و الضيف مصدر يطلق على الواحد و الاثنين و الجماعة، و قد تقدم الكلام على قصة ضيف إبراهيم في سورة هود و سورة الحجر، و المراد بكونهم مكرمين: أنهم مكرمون عند الله سبحانه لأنهم ملائكة جاءوا إليه في صورة بني آدم، كما قال تعالى في وصفهم في آية أخرى: بل عباد مكرمون «٢» و قيل: هم جبريل و ميكائيل و إسرافيل.

و قال مقاتل و مجاهد: أكرمهم إبراهيم و أحسن إليهم و قام على رؤوسهم، و كان لا يقوم على رؤوس الضيف، و أمر امرأته أن تخدمهم. و قال الكلبي: أكرمهم بالعجل إذ دخلوا عليه العامل في الظرف «حديث»، أي: هل أتاك حديثهم الواقع في وقت دخولهم عليه، أو العامل فيه ضيف لأنه مصدر، أو العامل فيه

(١). الإنسان: ١.

(٢). الأنبياء: ٢٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٠٥

المكرمين، أو العامل فيه فعل مضمر، أى: اذكر فقالوا سِلاماً أى: نسلم عليك سلاماً قال سِلاماً أى: قال إبراهيم سلام. قرأ الجمهور بنصب سلاماً الأول و رفع الثانى، فنصب الأول على المصدرية بتقدير الفعل كما ذكرنا، والمراد به التحية، و يحتمل أن يكون المعنى: فقالوا كلاماً حسناً لأنه كلام سلم به المتكلم من أن يلغو، فيكون على هذا مفعولاً به. و أما الثانى فرفعه على أنه مبتدأ محذوف الخبر، أى:

عليكم سلام، و لهذا قال أهل المعانى: إن سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة. و قرئ بالرفع فى الموضعين، و قرئ بالنصب فيهما. و قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً بكسر السين، و قرئ «سلم» فيهما. قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ارتفاع قوم على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: أنتم قوم منكرون. قيل: إنه قال هذا فى نفسه و لم يخاطبهم به؛ لأن ذلك يخالف الإِكرام. قيل: إنه أنكرهم لكونهم ابتداءوا بالسلام و لم يكن ذلك معهوداً عند قومه، و قيل: لأنه رأى فيهم ما يخالف بعض الصور البشرية، و قيل: لأنه رآهم على غير صورة الملائكة الذين يعرفهم، و قيل: غير ذلك فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ قَالَ الرَّجُلُ: أى عدل إلى أهله، و قيل: ذهب إليهم فى خفية من ضيوفه، و المعنى متقارب، و قد تقدّم تفسيره فى سورة الصافات. يقال: راغ و ارتاغ بمعنى طلب، و ماذا يريغ: أى يرصد و يطلب، و أراغ إلى كذا: مال إليه سرّاً و حاد فجاءَ بِعِجَلٍ سَمِينٍ أى: فجاء ضيفه بعجل قد شواه لهم، كما فى سورة هود بِعِجَلٍ حَنِيدٍ و فى الكلام حذف تدل عليه الفاء الفصيحة، أى: فذبح عجلاً فحنذه فجاء به ففَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ أى: قَرَّبَ العجل إليهم و وضعه بين أيديهم ف قال أ لا- تَأْكُلُونَ الاستفهام للإنكار، و ذلك أنه لما قربه إليهم لم يأكلوا منه. قال فى الصِّحاح: العجل ولد البقر، و العجول مثله، و الجمع العجاجيل و الأثى عجله، و قيل: العجل فى بعض اللغات الشاء فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ حَيْفَةً أى: أحسّ فى نفسه خوفاً منهم لما لم يأكلوا ممّا قرّبه إليهم. و قيل: معنى أوجس أضمر، و إنما وقع له ذلك لما لم يتحرموا بطعامه، و من أخلاق الناس أن من أكل من طعام إنسان صار آمناً منه، فظن إبراهيم أنهم جاءوا للشرّ و لم يأتوا للخير. و قيل: إنه وقع فى قلبه أنهم ملائكة، فلما رأوا ما ظهر عليه من أمارات الخوف قالوا لا تَخَفْ و أعلموه أنهم ملائكة مرسلون إليه من جهة الله سبحانه وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ أى: بشروه بغلام يولد له كثير العلم عند ما يبلغ مبالغ الرجال، و المبشّر به عند الجمهور هو إسحاق. و قال مجاهد وحده: إنه إسماعيل، و هو مردود بقوله: وَ بَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ و قد قدّمنا تحقيق هذا المقام بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فى صَرَّةٍ لم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان، و إنما هو كقولك: أقبل يشتمنى، أى: أخذ فى شتمى، كذا قال الفراء و غيره. و الصرّة: الصيحة و الضجّة، و قيل:

الجماعة من الناس. قال الجوهري: الصرّة: الضجّة و الصيحة، و الصرّة: الجماعة، و الصرّة، الشدة من كرب أو غيره، و المعنى: أنها أقبلت فى صيحة، أو فى ضجّة، أو فى جماعة من الناس يستمعون كلام الملائكة، و من هذا قول امرئ القيس:

فألحقه بالهاديات و دونه جوارحها فى صرّة لم تزيّل «١»

(١). «الهاديات»: أوائل بقر الوحش. «جوارحها»: متخلفاتها. «لم تزيّل»: لم تتفرق.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٠٦

و قوله: فى صِرَّةٍ فى محل نصب على الحال فَصَيَّرَتْ وَجْهَهَا أى: ضربت بيدها على وجهها؛ كما جرت بذلك عادة النساء عند التعجب. قال مقاتل و الكلبي: جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجباً، و معنى الصكّ: ضرب الشيء بالشيء العريض، يقال صكّه،

أى: ضربه وَ قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ أَى: كيف ألد و أنا عجوز عقيم؟ استبعدت ذلك لكبر سنها، و لكونها عقيماً لا تلد قالوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ أَى:

كما قلنا لك و أخبرناك قال: ربك فلا تشكى فى ذلك و لا تعجىبى منه، فإن ما أراد الله كائن لا محالة و لم نقل ذلك من جهة أنفسنا، و قد كانت إذ ذاك بنت تسع و تسعين سنه، و إبراهيم ابن مائة سنه، و قد سبق بيان هذا مستوفى، و جمله إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ تعليل لما قبلها، أَى: حكيم فى أفعاله و أقواله، عليم بكل شىء، و جمله قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ مستأنفة جواباً عن سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال إبراهيم بعد هذا القول من الملائكة، و الخطب: الشأن و القصة، و المعنى: فما شأنكم و ما قصتكم أيها المرسلون من جهة الله، و ما ذاك الأمر الذى لأجله أرسلكم سوى هذه البشارة قالوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ يريدون قوم لوط لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ أَى: لنرجمهم بحجارة من طين متحجر، و انتصاب مُسَوِّمَةً على الصفة لحجارة، أو على الحال فى الضمير المستكن فى الجار و المجرور، أو من الحجارة لكونها قد وصفت بالجار و المجرور، و معنى: مُسَوِّمَةً معلمة بعلامات تعرف بها، و قيل: كانت مخططة بسواد و بياض، و قيل: بسواد و حمرة، و قيل: معروفة بأنها حجارة العذاب، و قيل: مكتوب على كل حجر من يهلك بها، و قوله: عِنْدَ رَبِّكَ ظَرْفٌ لِمُسَوْمَةٍ، أَى: معلمة عنده للمُسْرِفِينَ المتمادين فى الضلالة المجاوزين الحد فى الفجور. و قال مقاتل: للمشركين، و الشرك أسرف الذنوب و أعظمها فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ هذا كلام من جهة الله سبحانه، أَى: لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان فى قري قوم لوط من قومه المؤمنين به فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَى:

غير أهل بيت. يقال: بيت شريف و يراد به أهله، و قيل: و هم أهل بيت لوط، و الإسلام: الانقياد و الاستسلام لأمر الله سبحانه، فكل مؤمن مسلم، و من ذلك قوله: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا «١» و قد أوضح رسول الله صلى الله عليه و سلم الفرق بين الإسلام و الإيمان فى الحديث فى الصحيحين و غيرهما، الثابت من طرق، أنه سئل عن الإسلام فقال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله، و تقيم الصلاة.

و تؤتى الزكاة، و تحج البيت، و تصوم رمضان»، و سئل عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله، و القدر خيره و شره» «٢» فالمرجع فى الفرق بينهما هو هذا الذى قاله الصادق المصدوق، و لا التفات إلى غيره مما قاله أهل العلم فى رسم كل واحد منهما برسوم مضطربة مختلفة متناقضة، و أما ما فى الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الإسلام و الإيمان فذلك باعتبار المعانى اللغوية و الاستعمالات العربية، و الواجب

(١). الحجرات: ١٤.

(٢). سقط من الحديث: و اليوم الآخر.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٠٧

تقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية، و الحقيقة الشرعية هى هذه التى أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه و سلم؛ و إجابته سؤال السائل له عن ذلك بها وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ أَى: و تركنا فى تلك القرى علامة و دلالة تدل على ما أصابهم من العذاب، كل من يخاف عذاب الله و يخشاه من أهل ذلك الزمان و من بعدهم، و هذه الآية هى آثار العذاب فى تلك القرى، فإنها ظاهرة بينة، و قيل: هى الحجارة التى رجموا بها، و إنما خصّ الذين يخافون العذاب الأليم لأنهم الذين يتعظون بالمواعظ و يتفكرون فى الآيات دون غيرهم ممن لا يخاف ذلك، و هم المشركون المكذبون بالبعث و الوعد و الوعيد. و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عباس فى قوله: فِي صَيْرَةٍ قَالَ: فى صيحة فصية كَتْ وَجْهَهَا قَالَ: لطمت. و

أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله: فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ: لوط و ابنتيه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: كانوا ثلاثة عشر.

## [سورة الذاريات (٥١): الآيات ٣٨ الى ٦٠]

وَ فِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَ قَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَ فِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّيمِ (٤٢) وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَ مَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَ الْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَ لَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢)

أ تَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَ ذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)

قوله: وَ فِي مُوسَى معطوف على قوله «فيها» بإعادة الخافض، و التقدير: و تركنا فى قصة موسى آية، أو معطوف على وَ فِي الْأَرْضِ وَ التقدير: و فى الأرض و فى موسى آيات، قاله الفراء و ابن عطية و الزمخشري. قال أبو حيان: و هو بعيد جدا ينزه القرآن عن مثله. و يجوز أن يكون متعلقا بجعلنا مقدر لدلالة وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ قِيلَ: و يجوز أن يعطف على «و تركنا» على طريقة قول القائل: علفتها تبا و ماء باردا و التقدير: و تركنا فيها آية، و جعلنا فى موسى آية. قال أبو حيان: و لا حاجة إلى إضمار و جعلنا؛ لأنه قد أمكن أن يكون العامل فى المجرور: و تركنا. و الوجه الأول هو الأولى، و ما عداه متكلف متعسف لم تلجئ فتح القدير، ج ٥، ص: ١٠٨

إليه حاجة، و لا دعت إليه ضرورة إذ أرسلناه إلى فرعون بسُلْطَانٍ مُّبِينٍ الظرف متعلق بمحذوف هو نعت لآية، أى: كائنه وقت أرسلناه، أو بآية نفسها، و الأول أولى. و السلطان المبين: الحجّة الظاهرة الواضحة، و هى العصى و ما معه من الآيات فتوَلَّى بِرُكْنِهِ التولى: الإعراض، و الركن: الجانب.

قاله الأَخفش. و المعنى: أعرض بجانبه كما فى قوله: أَعْرَضَ وَ نَأَى بِجَانِبِهِ\* «١» قال الجوهري: ركن الشىء جانبه الأقوى، و هو يأوى إلى ركن شديد، أى: عزّ و منعه. و قال ابن زيد و مجاهد و غيرهما: الركن جمعه و جنوده الذين كان يتقوى بهم، و منه قوله تعالى: أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ «٢» أى: عشيرة و منعه، و قيل: الركن: نفس القوة، و به قال قتادة و غيره، و منه قول عنترة:

فما أوهى مراس الحرب ركنى و لكن ما تقادم من زمانى

وَ قَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أى: قال فرعون فى حق موسى: هو ساحر أو مجنون، فردد فيما رآه من أحوال موسى بين كونه ساحرا أو مجنونا، و هذا من اللعين مغالطة و إيهام لقومه، فإنه يعلم أن ما رآه من الخوارق لا يتيسر على يد ساحر، و لا يفعل من به جنون. و قيل: إن «أو» بمعنى واو، لأنه قد قال ذلك جميعا و لم يتردد، قاله المورّج و الفراء، كقوله: وَ لَا تُطْعِ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا «٣»

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ أَي: طرحناهم في البحر، و جملة وَ هُوَ مُلِيمٌ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ، أَي: آت بما يلام عليه حين ادعى الربوبية، و كفر بالله، و طغى في عصيانه وَ فِي عَادِ أَي: و تركنا في قصة عاد آية إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ وَ هِيَ الَّتِي لَا خَيْرَ فِيهَا وَ لَا بَرَكَهَ، لَا تَلْقَحُ شَجْرًا وَ لَا تَحْمِلُ مَطْرًا، إِنَّمَا هِيَ رِيحُ الْإِهْلَاكِ وَ الْعَذَابِ، ثُمَّ وَصَفَ سَبْحَانَهُ هَذِهِ الرِّيحَ فَقَالَ: مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ أَي: مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ مَرَّتْ عَلَيْهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَنْعَامِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالشَّيْءِ الْهَالِكِ الْبَالِي. قَالَ الشَّاعِرُ «٤»:

تركتني حين كفّ الدهر من بصرى و إذ بقيت كعظم الرّمّة البالي

و قال قتادة: إنه الّذى ديس من يابس النبات، و قال السّدى و أبو العالية: إنه التراب المدقوق، و قال قطرب: إنه الرماد، و أصل الكلمة من رمّ العظم: إذا بلى فهو رميم، و الرّمّة: العظام البالية وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ أَي: و تركنا في قصة ثمود آية وقت قلنا لهم: عيشوا بالدنيا إلى حين وقت الهلاك، و هو ثلاثة أيام، كما في قوله: تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ «٥» فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ أَي: تكبروا عن امتثال أمر الله فَأَخَذَ تَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هِيَ كُلُّ عَذَابٍ مَهْلِكٍ. قرأ الجمهور: الصّاعقة و قرأ عمر

(١). الإسراء: ٨٣.

(٢). هود: ٨٠.

(٣). هو جرير.

(٤). الإنسان: ٢٤.

(٥). هود: ٦٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٠٩

ابن الخطاب و حميد و ابن محيصن و مجاهد و الكسائي «الصّاعقة». و قد مرّ الكلام على الصّاعقة في البقرة، و في مواضع وَ هُمْ يَنْظُرُونَ أَي: يرونها عيانا، و الجملة في محل نصب على الحال، و قيل: إن المعنى:

ينتظرون ما وعدوه من العذاب، و الأوّل أولى فَمَا اشْتِطَّاعُوا مِنْ قِيَامِ أَي: لم يقدرُوا على القيام. قال قتادة: من نهوض، يعنى لم ينهضوا من تلك الصّرع، و المعنى: أنهم عجزوا عن القيام فضلا عن الهرب، و مثله قوله: فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ \* «١». و ما كانوا مُتَّصِرِينَ أَي: ممتنعين من عذاب الله بغيرهم وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ أَي: من قبل هؤلاء المهلكين، فإن زمانهم متقدّم على زمن فرعون و عاد و ثمود إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ أَي: خارجين عن طاعة الله. قرأ حمزة و الكسائي و أبو عمرو بخفض قوم أَي: و في قوم نوح آية، و قرأ الباقر بالنصب، أَي: و أهلكتنا قوم نوح، أو هو معطوف على مفعول أخذتهم الصّاعقة، أو على مفعول نبذناهم، أَي: نبذناهم و نبذنا قوم نوح، أو يكون العامل فيه اذكر وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدِي أَي: بقوة و قدرة، قرأ الجمهور بنصب السماء على الاشتغال، و التقدير: و بنينا السماء بنيناها. و قرأ أبو السّمالي و ابن مقسم برفعها على الابتداء وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ الموسع: ذو الوسع و السّعة، و المعنى: إنا لذو سعة بخلقها و خلق غيرها لا نعجز عن ذلك، و قيل: لقادرون، من الوسع بمعنى الطاقه و القدرة، و قيل: إنا لموسعون الرزق بالمطر. قال الجوهرى: و أوسع الرجل: صار ذا سعة و غنى وَ الْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا قرأ الجمهور بنصب الْأَرْضَ على الاشتغال. و قرأ أبو السّمالي و ابن مقسم برفعها، كما تقدّم في قوله: وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا و معنى فرشناها: بسطناها كالفرش فَنَعَمَ الْمَاهِدُونَ أَي: نحن، يقال: مهدت الفراش: بسطته و وطّأته، و تمهيد الأمور: تسويتها و إصلاحها وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ أَي: صنفين و نوعين من ذكر و أنثى، و برّ و بحر، و شمس و قمر، و حلو و مرّ، و سماء و أرض، و ليل و نهار، و نور و ظلمة، و جنّ و إنس، و خير و شر لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أَي: خلقنا ذلك هكذا لتذكروا فتعرفوا أنه خالق كل شيء، و تستدلوا



بذلك على توحيده و صدق وعده و وعيده فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ أى: قل لهم يا محمد: ففرّوا إلى الله بالتوبه من ذنوبكم عن الكفر و المعاصي، و جمله إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ تعليل للأمر بالفرار، و قيل: معنى: فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ اخرجوا من مكه. و قال الحسين بن الفضل: احترزوا من كل شىء غير الله، فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع منه. و قيل: فرّوا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن، و قيل: فرّوا من الجهل إلى العلم، و معنى إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ أى: من جهته منذر بين الإنذار و لا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ نهاهم عن الشرك بالله بعد أمرهم بالفرار إلى الله، و جمله:

إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ للتعليل للنهي كذلك ما أتى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ فى هذا تسليته لرسول الله صلى الله عليه و سلم ببيان أن هذا شأن الأمم المتقدمه، و أن ما وقع من العرب من التكذيب لرسول الله، و وصفه بالسحر و الجنون، قد كان ممّن قبلهم لرسولهم، و كذلك فى محل رفع على أنه

(١). الأعراف: ٧٨.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١١٠

خير محذوف، أى: الأمر كذلك. ثم فسّر ما أجمله بقوله: ما أتى إلخ، أو فى محل نصب نعتا لمصدر محذوف، أى: أنذركم إنذارا كأنذار من تقدّمى من الرسل الذين أنذروا قومهم، و الأول أولى أ تَوَاصَوْا بِهِ الاستفهام للتقريع و التوبيخ و التعجيب من حالهم، أى: هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب و تواطؤوا عليه بل هم قومٌ طاغونٌ إضراب على التواصى إلى ما جمعهم من الطغيان، أى: لم يتواصوا بذلك، بل جمعهم الطغيان و هو مجاوزة الحد فى الكفر. ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه و سلم بالإعراض عنهم فقال: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ أى: أعرض عنهم، و كفّ عن جدالهم و دعائهم إلى الحق، فقد فعلت ما أمرك الله به و بلغت رسالته فما أنت بمُلوّم عند الله بعد هذا لأنك قد أدّيت ما عليك، و هذا منسوخ بآية السيف. ثم لما أمره بالإعراض عنهم أمره بأن لا يترك التذكير و الموعظة بالتى هى أحسن، فقال: وَ ذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ قال الكلبي: المعنى عظ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم. و قال مقاتل: عظ كفار مكه فإن الذكرى تنفع من كان فى علم الله أنه يؤمن. و قيل: ذكّره بالعقوبة و أيام الله، و خصّ المؤمنين بالتذكير لأنهم المنتفعون به، و جمله وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مستأنفه مقرّره لما قبلها؛ لأن كون خلقهم لمجرد العبادة مما ينشط رسول الله صلى الله عليه و سلم للتذكير، و ينشطهم للإجابة. قيل: هذا خاصّ فى من سبق فى علم الله سبحانه أنه يعبد، فهو عموم مراد به الخصوص. قال الواحدى: قال المفسرون: هذا خاصّ لأهل طاعته، يعنى من أهل من الفريقين. قال: و هذا قول الكلبي و الضحاك و اختيار الفراء و ابن قتيبه.

قال القشيري: و الآية دخلها التخصيص بالقطع، لأن المجانين لم يؤمروا بالعبادة و لا أرادها منهم، و قد قال:

وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ «١» و من خلق لجهنم لا يكون ممّن خلق للعبادة. فالآية محموله على المؤمنين منهم، و يدل عليه قراءة ابن مسعود و أبى بن كعب: «و ما خلقت الجنّ و الإنس من المؤمنين إلا ليعبدون. و قال مجاهد: إن المعنى: إلا ليعرفونى. قال الثعلبي: و هذا قول حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده و توحيده. و روى عن مجاهد أنه قال: المعنى إلا لأمرهم و أنهاهم، و يدلّ عليه قوله: وَ مَا أُمِّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ «٢» و اختار هذا الزجاج. و قال زيد بن أسلم:

هو ما جبلوا عليه من السعادة و الشقاوة، فخلق السعداء من الجن و الإنس للعبادة، و خلق الأشقياء للمعصية.

و قال الكلبي: المعنى إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيوحده فى الشدة و الرخاء، و أما الكافر فيوحده فى الشدة دون النعمة، كما فى قوله: وَ إِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ «٣» و قال جماعة: إلا ليخضعوا لى و يتذلّلوا، و معنى العبادة فى اللغة:

الذل و الخضوع و الانقياد، و كل مخلوق من الإنس و الجن خاضع لقضاء الله، متذلل لمشيئته، منقاد لما قدره عليه. خلقهم على ما أراد، و رزقهم كما قضى، لا يملك أحد منهم لنفسه نفعا و لا ضرا. و وجه تقديم الجن على الإنس ها هنا تقدم وجودهم ما أُريدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُريدُ أَنْ يُطْعَمُونَ هذه الجملة فيها بيان استغناؤه سبحانه عن عبادته، و أنه لا يريد منهم منفعة كما تريده السادة

(١). الأعراف: ١٧٩.

(٢). التوبة: ٣١.

(٣). لقمان: ٣٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١١١

من عبيدهم، بل هو الغنى المطلق الرزاق المعطى. و قيل: المعنى: ما أريد منهم أن يرزقوا أحدا من خلقى و لا أن يرزقوا أنفسهم، و لا- يطعموا أحدا من خلقى و لا- يطعموا أنفسهم، و إنما أسند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق عيال الله، فمن أطعم عيال الله فهو كمن أطعمه. و هذا كما ورد فى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «يقول الله عبدى استطعمتك فلم تطعمنى» أى: لم تطعم عبادى، و «من» فى قوله: مِنْ رِزْقٍ زائده لتأكيد العموم.

ثم يبين سبحانه أنه هو الرزاق لا غيره، فقال: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ لا رزاق سواه و لا معطى غيره، فهو الذى يرزق مخلوقاته، و يقوم بما يصلحهم، فلا يشتغلوا بغير ما خلقوا له من العبادة ذو القُوَّةِ الْمُتَيْنِ ارتفاع المتين على أنه وصف للرزاق، أو لذو، أو خبر مبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر. قرأ الجمهور:

الرَّزَّاقُ و قرأ ابن محيصن: «الرزاق» و قرأ الجمهور: الْمُتَيْنِ بالرفع، و قرأ يحيى بن وثاب و الأعمش بالجرّ صفة للقوة، و التذكير لكون تأنيثها غير حقيقى. قال الفراء: كان حقه المتينة، فذكرها لأنه ذهب بها إلى الشىء المبرم المحكم القتل، يقال: حبل متين، أى: محكم القتل، و معنى المتين: الشديد القوة هنا فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ أى: ظلموا أنفسهم بالكفر و المعاصى، فإن لهم ذنوبا، أى: نصيبا من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السابقة. قال ابن الأعرابى: يقال يوم ذنوب، أى: طويل الشرّ لا ينقضى، و أصل الذنوب فى اللغة الدلو العظيمة، و من استعمال الذنوب فى النصب من الشىء قول الشاعر «١»:

لعمر ك و المنايا طارقات لكل بنى أب منها ذنوب

و ما فى الآية مأخوذ من مقاسمة السقاء الماء بالدلو الكبير، فهو تمثيل، جعل الذنوب مكان الحظ و النصيب، قاله ابن قتيبة فلا يَسِيءُ تَعْجِلُونَ أى: لا- يطلبوا منى أن أعجل لهم العذاب، كما فى قولهم: فَأَتَيْنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ \* «٢». فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ قيل: هو يوم القيامة، و قيل: يوم بدر، و الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر فى قوله: فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ عن ابن عباس قال: بقومه. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، عنه فى قوله: الرِّيحُ الْعَقِيمَ قال: الشديدة التى لا تلقح شيئا. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: لا تلقح الشجر و لا تثير السحاب، و فى قوله: إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ قال: كالشىء الهالك. و أخرج الفريابى و ابن المنذر عن على بن أبى طالب قال: الريح:

العقيم النكباء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و السيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: وَ السَّمَاءُ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ قال: بقوة. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن المنذر فى قوله: فَتَوَلَّى عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ قال: أمره الله أن يتولى عنهم ليعذبهم، و عذر محمدا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، ثم قال: وَ ذَكَرْ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ فنسختها. و أخرج ابن جرير

و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

(١). هو أبو ذؤيب.

(٢). الأعراف: ٧٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١١٢

قال: ليقروا بالعبودية طوعاً أو كرهاً. و أخرج ابن المنذر عنه فى الآية قال: على ما خلقتهم عليه من طاعتي و معصيتي و شقوتي و سعادتي. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم، و البيهقي فى الأسماء و الصفات، عنه أيضاً فى قوله: الْمَتِينُ يقول: الشديد. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضاً فى قوله:

ذُنُوبًا قال: دلوا.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١١٣

## سورة الطور

### إشارة

و هى مكية، قال القرطبي: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت الطور بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقرأ فى المغرب بالطور. و أخرج البخارى و غيره عن أم سلمة:

«أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يصلى إلى جنب البيت بالطور و كتاب مسطور».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الطور (٥٢): الآيات ١ الى ٢٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ الطُّورِ (١) وَ كِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِى رَقٍّ مَّنْشُورٍ (٣) وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤)

وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩)

وَ تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِى حَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ

النَّارُ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤)

أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اضْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى

جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ (١٧) فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩)

مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّضْفُوفَةٍ وَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)

قوله: وَ الطُّورِ قال الجوهري: هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى. قال مجاهد: الطور بالسريانية الجبل، و المراد به طور سيناء. قال مقاتل بن حيان: هما طوران: يقال لأحد هما طور سيناء، و للآخر طور زيتا، لأنهما ينبتان التين و الزيتون. و قيل: هو جبل مدين، و قيل: إن الطور كل جبل ينبت، و ما لا- ينبت فليس بطور، أقسم الله سبحانه بهذا الجبل تشريفا له و تكريما. وَ كِتَابٍ مَسْطُورٍ

المسطور: المكتوب، و المراد بالكتاب: القرآن، و قيل: هو اللوح المحفوظ، و قيل: جميع الكتب المنزلة، و قيل: ألواح موسى، و قيل: ما تكتبه الحفظة، قاله الفراء وغيره، و مثله: وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا «١» و قوله: وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ «٢» فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ متعلق بمسطور، أى: مكتوب فى رَقٍّ. قرأ الجمهور: فى رَقٍّ بفتح الراء، و قرأ أبو السمال بكسرهما. قال الجوهري: الرَقُّ بالفتح ما يكتب فيه، و هو جلد رقيق، و منه قوله تعالى: فى رَقٍّ مَنْشُورٍ قال المبرد: الرَقُّ: ما رَقَّ من الجلد ليكتب فيه، و المنشور: المبسوط. قال أبو عبيدة: و جمعه رقوق، و من هذا قول المتلمس:

(١). الإسراء: ١٣.

(٢). التكوير: ١٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١١٤ فكأنما هى من تقادم عهد هارق أتيح كتابها مسطور و أما الرَقُّ بالكسر فهو المملوك، يقال عبد رَقٍّ و عبد مرقوق و الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ فى السماء السابعة. و قيل: فى سماء الدنيا، و قيل: هو الكعبة، فعلى القولين الأولين كون وصفه بالعمارة باعتبار من يدخل إليه من الملائكة و يعبد الله فيه. و على القول الثالث يكون وصفه بالعمارة حقيقة أو مجازاً؛ باعتبار كثرة من يتعبد فيه من بنى آدم و السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ يعنى السماء، سماها سقفا لكونها كالسقف للأرض، و منه قوله:

وَ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا «١» و قيل: هو العرش و الْبَيْتِ الْمَسْجُورِ أى: الموقد، من السجر:

و هو إيقاد النار فى التنور، و منه قوله: وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ «٢» و قد روى أن البحار تسجر يوم القيامة فتكون نارا، و قيل: المسجور: المملوء، و قيل: إنه من أسماء الأضداد، يقال: بحر مسجور، أى: مملوء، و بحر مسجور، أى: فارغ، و قيل: المسجور: الممسوك، و منه ساجور الكلب، لأنه يمسكه. و قال أبو العالية: المسجور الذى ذهب ماؤه، و قيل: المسجور المفجور، و منه: وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ «٣» و قال الريبع ابن أنس: هو الذى يختلط فيه العذب بالمالح. و الأول أولى، و به قال مجاهد و الضحاك و محمد بن كعب و الأخفش و غيرهم إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ هذا جواب القسم، أى: كائن لا محالة لمن يستحقه ما له مِنْ دَافِعٍ يدفعه و يرده عن أهل النار، و هذه الجملة خبر ثان لأن، أو صفة لواقع، و «من» مزيدة للتأكيد. و وجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها أنها عظيمة دالة على كمال القدرة الربانية يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا العامل فى الظرف «لواقع» أى: إنه لواقع فى هذا اليوم، و يجوز أن يكون العامل فيه دافع. و المور:

الاضطراب و الحركة. قال أهل اللغة: مار الشىء يمور مورا؛ إذا تحرك و جاء و ذهب، قاله الأخفش و أبو عبيدة، و أنشد بيت الأعشى:

كَأَنَّ مَشِيَّتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارْتِهَا مَشَى «٤» السَّحَابَةُ لَا رَيْثَ وَلَا عَجَلَ

و ليس فى البيت ما يدل على ما قاله إلا إذا كانت هذه المشية المذكورة فى البيت يطلق المور عليها لغة.

و قال الضحاك: يموج بعضها فى بعض، و قال مجاهد: تدور دورا، و قيل: تجرى جريا، و منه قول الشاعر «٥»:

و ما زالت القتلى تمور دماؤها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل «٦»

و يطلق المور على الموج، و منه ناقة مؤارة اليد، أى: سريعة تموج فى مشيها موجا، و معنى الآية أن العذاب

(١). الأنبياء: ٣٢.

(٢). التكوير: ٦.

(٣). الانفطار: ٣.

(٤). فى تفسير القرطبى: مور.

(٥). هو جرير.

(٦). «الأشكال»: ما فيه بياض و حمرة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١١٥

يقع بالعصاة و لا يدفعه عنهم دافع فى هذا اليوم الذى تكون فيه السماء هكذا، و هو يوم القيامة. و قيل: إن السماء ها هنا الفلك، و موره: اضطراب نظمه و اختلاف سيره و تَسِيرُ الْجِبَالِ سَيْرًا أَى: تزول عن أماكنها، و تسير عن مواضعها كسير السحاب، و تكون هباء منبثًا، و قيل: و وجه تأكيد الفعلين بالمصدر الدالة على غرابتهما و خروجهما عن المعهود، و قد تقدّم تفسير مثل هذا فى سورة الكهف فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ و بيل: كلمة تقال للهالك، و اسم واد فى جهنم، و إنما دخلت الفاء لأن فى الكلام معنى المجازاة، أَى: إذا وقع ما ذكر من مور السماء و سير الجبال فويل لهم. ثم وصف المكذّبين بقوله: الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ أَى: فى تردّد فى الباطل و اندفاع فيه يلهون لا يذكرون حسابا و لا يخافون عقابا. و المعنى:

أنهم يخوضون فى أمر محمد صلى الله عليه و سلم بالكذب و الاستهزاء، و قيل: يخوضون فى أسباب الدنيا و يعرضون عن الآخرة يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا الدَّعِ: الدفع بعنف و جفوة، يقال: دَعَتْهُ أَدَعَهُ دَعَا، أَى: دفعته، و المعنى: أنهم يدفعون إلى النار دفعا عينا شديدا. قال مقاتل: تغلّ أيديهم إلى أعناقهم، و تجمع نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يدفعون إلى جهنم دفعا على وجوههم. قرأ الجمهور: بفتح الدال و تشديد العين. و قرأ على و السلمى و أبو رجاء و زيد بن على و ابن السيميق بسكون الدال و تخفيف العين مفتوحة، أَى: يدعون إلى النار من الدعاء. و «يوم» إما بدل من يوم تمور، أو متعلق بالقول المقدر فى الجملة التى بعد هذه، و هى هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَى: يقال لهم ذلك يوم يدعون إلى نار جهنم دعا، أَى: هذه النار التى تشهدونها هى النار التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا، و القائل لهم بهذه المقالة هم خزنة النار، ثم وبّخهم سبحانه أو أمر ملائكته بتوبيخهم، فقال: أَفَسِحْرٌ هَذَا الَّذِي ترون و تشهدون كما كنتم تقولون لرسل الله المرسله و لكتبه المنزله، و قدّم الخبر هنا على المبتدأ لأنه الذى وقع الاستفهام عنه و توجه التوبيخ إليه أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ أَى: أَمْ أَنْتُمْ عَمَى عَنْ هَذَا كَمَا كُنْتُمْ عَمَى عَنْ الْحَقِّ فى الدنيا اضِلُّوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا أَى: إذا لم يمكنكم إنكارها، و تحققتم أن ذلك ليس بسحر، و لم يكن فى أبصاركم خلل، فالآن ادخلوها و قاسوا شدتها، فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا، و افعلوا ما شئتم، فالأمران سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ فى عدم النفع، و قيل: أيضا تقول لهم الملائكة هذا القول، و سواء خبر مبتدأ محذوف، أَى: الأمران سواء، و يجوز أن يكون مبتدأ و الخبر محذوف، أَى: سواء عليكم الصبر و عدمه، و جملة: إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ تعليل للاستواء، فإن الجزاء بالعمل إذا كان واقعا حتما كان الصبر و عدمه سواء إِنَّ الْمُتَّقِينَ فى جَنَاتٍ وَ نَعِيمٍ لما فرغ سبحانه من ذكر حال المجرمين ذكر حال المتقين، و هذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة، و يجوز أن تكون من جملة ما يقال للكفار زيادة فى غمهم و حسرتهم، و التثوين فى جَنَاتٍ وَ نَعِيمٍ للتفخيم فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ يقال رجل فاكه، أَى: ذو فاكهة، كما قيل: لابن، و تامر. و المعنى: أنهم ذوو فاكهة من فواكه الجنة، و قيل: ذوو نعمه و تلذذ بما صاروا فيه ممّا أعطاهم الله عزّ و جلّ مما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر، و قد تقدّم بيان معنى هذا. قرأ الجمهور: فَاكِهِينَ بالألف و النصب على الحال. و قرأ خالد: «فاكهون» بالرفع على أنه خير بعد خبر. و قرأ ابن عباس: «فكهين»

فتح القدير، ج ٥، ص: ١١٦

بغير ألف، و الفكه: طيب النفس، كما تقدم في الدخان، و يقال للأشر و البطر، و لا يناسب التفسير به هنا و وقاهم ربهم عذاب الجحيم معطوف على آتاهم، أو على خير إن، أو الجملة في محل نصب على الحال بإضمار قد كلوا و اشربوا هنيئاً أى: يقال لهم ذلك، و الهنيء: ما لا تنغيص فيه و لا نكد و لا كدر.

قال الزجاج: أى ليهنئكم ما صرتم إليه هنيئاً و المعنى: كلوا طعاماً هنيئاً، و اشربوا شراباً هنيئاً، و قد تقدم تفسير هنيئاً في سورة النساء، و قيل: معنى هنيئاً: أنكم لا تموتون متكئين على سيرر مصفوفة انتصابه على الحال من فاعل كلوا، أو من مفعول آتاهم، أو من مفعول وقاهم، أو من الضمير المستكن في الظرف، أو من الضمير في فاكهين. قرأ الجمهور: على سيرر بضم الراء الأولى. و قرأ أبو السمال: بفتحها، و السرر: جمع سرير. و المصفوفة: المتصل بعضها ببعض حتى تصير صفاً و زوجناهم بحور عين أى: قرناهم بها. قال يونس بن حبيب: تقول العرب زوجته امرأة و تزوجت بامرأة، و ليس من كلام العرب زوجته بامرأة. قال: و قول الله تعالى: و زوجناهم بحور عين أى: قرناهم بهن. و قال الفراء: زوجته بامرأة لغة أزد شنوءة، و قد تقدم تفسير الحور العين في سورة الدخان. قرأ الجمهور: بحور عين من غير إضافة. و قرأ عكرمة بإضافة الحور إلى العين.

و قد أخرج ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه عن ابن عباس و الطور قال: جبل. و أخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «الطور: جبل من جبال الجنة» و كثير: ضعيف جدا. و أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في رَقِّ منشور قال: في الكتاب. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة»، و في الصحيحين و غيرهما: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: «ثم رفع إلى البيت المعمور، و إذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه». و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن الأنباري في المصاحف، عن أبي الطفيل أن ابن الكوّاء سأل علياً عن البيت المعمور فقال: ذلك الضراح بيت فوق سبع سماوات تحت العرش يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه أبداً إلى يوم القيامة. و أخرج ابن جرير نحوه عن ابن عباس. و أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر و رفعه. قال: إن البيت المعمور لبحيال الكعبة، لو سقط منه شيء لسقط عليها، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفاً، ثم لا يعودون إليه. و أخرج الطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه، و ضعف إسناده السيوطي. و أخرج ابن راهويه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و أبو الشيخ في العظمة، و الحاكم و صححه، و البيهقي في الشعب، عن علي بن أبي طالب في قوله: وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ قال:

السماء. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله: وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ قال: بحر في السماء تحت العرش. و أخرج ابن جرير عن ابن عمر مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: المسجور: المحبوس. و أخرج ابن المنذر عنه قال: المسجور:

فتح القدير، ج ٥، ص: ١١٧

المرسل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضاً يوم تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً قال: تحرك، و في قوله: يَوْمَ يُدْعُونَ قال: يدفعون. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عنه أيضاً: يَوْمَ يُدْعُونَ إلى نارِ جَهَنَّمَ دَعَاً قال: يدفع في أعناقهم حتى يردوا النار. و أخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: كُلُّوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً أى: لا- تموتون فيها، فعندها قالوا: أَمَا نَحْنُ بِمَيِّينَ - إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَ مَا نَحْنُ بِمُعَدَّيْنِ «١».

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ (٢١) وَ أَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأَسَا لَا لَعُوْ فِيهَا وَلَا تَأْتِيْمٌ (٢٣) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥)

قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَ وَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَ لَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمْتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَئِلًا - يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة على العموم ذكر حال طائفة منهم على الخصوص، فقال: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ الموصول مبتدأ، وخبره أَلْحَقْنَا بِهِمْ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا بِفِعْلِ مَقْدَرٍ، أَيْ: وَ أَكْرَمْنَا الَّذِينَ آمَنُوا، وَ يَكُونُ «أَلْحَقْنَا» مَفْسَرًا لِهَذَا الْفِعْلِ الْمَقْدَرِ. قرأ الجمهور:

وَ اتَّبَعَتْهُمْ بِإِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَى الذَّرِيَّةِ. وَ قرأ أبو عمرو: «أتبعناهم» بِإِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ، كَقَوْلِهِ:

أَلْحَقْنَا. وَ قرأ الجمهور: ذُرِّيَّتَهُمْ بِالْإِفْرَادِ. وَ قرأ نافع وَ ابن عامر وَ أبو عمرو وَ يعقوب على الجمع، وَ جملة:

وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ مَعْطُوفٌ عَلَى آمَنُوا، أَوْ مَعْتَرِضَةٌ، وَ «بِإِيمَانٍ» مُتَعَلِّقٌ بِالِاتِّبَاعِ، وَ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ:

أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِ إِلَيْهِ وَ إِنْ كَانُوا دُونَهُ فِي الْعَمَلِ؛ لِتَقَرُّبِ عَيْنِهِ، وَ تَطْيِيبِ نَفْسِهِ، بِشَرَطِ أَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، فَيَخْتَصُّ ذَلِكَ بِمَنْ يَتَّصِفُ بِالإِيمَانِ مِنَ الذَّرِيَّةِ وَ هُمُ الْبَالِغُونَ دُونَ الصَّغَارِ، فَإِنَّهُمْ وَ إِنْ كَانُوا لِأَحْقَنِ بِأَبَائِهِمْ فَبَدِيلٌ آخَرَ غَيْرَ هَذِهِ الْآيَةِ. وَ قِيلَ: إِنْ الذَّرِيَّةُ تَطَلَّقَ عَلَى الْكِبَارِ وَ الصَّغَارِ كَمَا هُوَ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةُ، فَيَلْحَقُ بِالْآبَاءِ الْمُؤْمِنِينَ صَغَارَ ذُرِّيَّتِهِمْ وَ كِبَارِهِمْ، وَ يَكُونُ قَوْلُهُ: بِإِيمَانٍ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ، أَيْ: بِإِيمَانٍ مِنَ الْآبَاءِ. وَ قِيلَ: إِنْ الضَّمِيرُ فِي «بِهِمْ» رَاجِعٌ إِلَى الذَّرِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ أَوَّلًا، أَيْ: أَلْحَقْنَا بِالذَّرِيَّةِ الْمَتَّبِعَةِ لِأَبَائِهِمْ بِإِيمَانٍ ذُرِّيَّتِهِمْ. وَ قِيلَ: الْمُرَادُ بِالَّذِينَ آمَنُوا الْمُهَاجِرُونَ وَ الْأَنْصَارَ فَقَطْ، وَ ظَاهِرُ الْآيَةِ الْعُمُومُ، وَ لَا يُوجِبُ تَخْصِيصَهَا بِالْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ كَوْنُهُمُ السَّبَبُ فِي نَزْوْلِهَا إِنْ صَحَّ ذَلِكَ، فَالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وَ مَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ قرأ الجمهور بفتح اللام من أَلَتْنَاهُمْ وَ قرأ ابن كثير بكسرها،

(١). الصافات: ٥٨ - ٥٩.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١١٨

أى: وَ مَا نَقَصْنَا الْآبَاءَ بِالْحَاقِ ذُرِّيَّتِهِمْ بِهِمْ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِهِمْ شَيْئًا، فَضْمِيرُ الْمَفْعُولِ عَائِدٌ إِلَى الَّذِينَ آمَنُوا. وَ قِيلَ:

المعنى: وَ مَا نَقَصْنَا الذَّرِيَّةَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ لِقَصْرِ أَعْمَارِهِمْ، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى، وَ قَدْ قَدَّمْنَا تَحْقِيقَ مَعْنَى لَاتِهِ وَ أَلَاتِهِ فِي سُورَةِ الْحَجَرَاتِ. وَ قرأ ابن هرمز «١» أَلَتْنَاهُمْ بِالْمَدِّ، وَ هُوَ لُغَةٌ. قَالَ فِي الصَّحَاحِ: يُقَالُ: مَا أَلَتْهُ مِنْ عَمَلِهِ شَيْئًا، أَيْ: مَا نَقَصَهُ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ رَهِيْنٌ بِمَعْنَى مَرهُونٍ، وَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ عَامٌّ، وَ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ مَرْتَهَنٌ بِعَمَلِهِ، فَإِنْ قَامَ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ فَكَّهُ وَ إِلاَّ أَهْلَكَهُ. وَ قِيلَ: هُوَ بِمَعْنَى رَاهِنٍ، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ دَائِمٌ ثَابِتٌ. وَ قِيلَ: هَذَا خَاصٌّ بِالْكَفَّارِ لِقَوْلِهِ: كُفِّلْ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةً - إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ «٢» ثُمَّ ذَكَرَ سَبَّحَانَهُ مَا أَمَدَّهُمْ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ فَقَالَ: وَ أَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ أَيْ: زَدْنَاهُمْ عَلَى مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ بِفَاكِهَةٍ مُتَوَعَّعَةٍ، وَ لَحْمٍ مِنْ أَنْوَاعِ اللَّحْمَانِ مِمَّا تَشْتَهِيهِ أَنْفُسُهُمْ وَ يَسْتَطِيبُونَهُ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأَسَا أَيْ: يَتَعَاطُونَ وَ

يتناولون كأساً، و الكأس: إناء الخمر، و يطلق على كل إناء مملوء من خمر أو غيره، فإذا فرغ لم يسم كأساً لا لَعُوَّ فِيهَا وَ لَا تَأْتِيْمُ قال الزجاج: لا يجرى بينهم ما يلغى و لا ما فيه إثم يجرى بين من يشرب الخمر فى الدنيا، و التأثيم: تفعيل من الإثم، و الضمير فى فيها راجع إلى الكأس، و قيل: «لا لَعُوَّ فِيهَا» أى: فى الجنة و لا يجرى فيها ما فيها إثم، و الأول أولى. قال ابن قتيبة: لا- تذهب بعقولهم فيلغوا كما يكون من خمر الدنيا، و لا يكون منهم ما يؤثمهم. و قال الضحّاك: «لا تَأْتِيْمُ» أى: لا كذب. قرأ الجمهور: لا- لَعُوَّ فِيهَا وَ لا- تَأْتِيْمُ بالرفع و التنوين فيهما. و قرأ ابن كثير و ابن محيصن بفتحهما من غير تنوين. قال قتادة: اللغو: الباطل. و قال مقاتل بن حيان: لا فضول فيها. و قال سعيد ابن المسيب: لا رثت فيها. و قال ابن زيد: لا سباب و لا تخاصم فيها. و الجملة فى محل نصب على الحال صفه لكأساً وَ يَطُوْفُ عَلَيْهِمْ غُلْمَانٌ لَهُمْ أى: يطوف عليهم بالكأس و الفواكه و الطعام و غير ذلك مماليك لهم، و قيل: أولادهم كَأَنَّهُمْ فى الحسن و البهاء لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ أى: مستور مصون فى الصّدف لم تمسه الأيدي. قال الكسائى: كنت الشىء: سترته و صنته من الشمس، و أكننته: جعلته فى الكنّ، و منه: كنت الجارية، و أكننتها، فهى مكنونة وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ أى: يسأل بعضهم بعضاً فى الجنة عن حاله، و ما كان فيه من تعب الدنيا و خوف العاقبة، فيحمدون الله الذى أذهب عنهم الحزن و الخوف و الهم، و ما كانوا فيه من الكدّ و النكد بطلب المعاش و تحصيل ما لا بدّ منه من الرزق. و قيل: يقول بعضهم لبعض:

بم صرتم فى هذه المنزلة الرفيعة؟ و قيل: إن التساؤل بينهم عند البعث من القبور. و الأول أولى لدلالة السياق على أنهم قد صاروا فى الجنة، و جملة قالوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قال بعضهم لبعض عند التساؤل؟ فقيل: قالوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ، أى: قبل الآخرة، و ذلك فى الدنيا فى أَهْلِنَا خَائِفِينَ و جِلِينَ من عذاب الله، أو كنا خائفين من عصيان الله فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا بِالْمَغْفِرَةِ وَ الرَّحْمَةِ أَوْ بِالتَّوْفِيقِ لَطَاعَتِهِ وَ وَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ يعنى عذاب جهنم، و السّموم من أسماء جهنم، كذا قال

(١). فى تفسير القرطبي (١٧/٦٧): أبو هريرة.

(٢). المدثر: ٣٨-٣٩.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١١٩

الحسن و مقاتل. و قال الكلبي و أبو عبيدة: هو عذاب النار. و قال الزجاج: سموم جهنم ما يوجد من حرّها. قال أبو عبيدة: السّموم بالنهار، و قد يكون بالليل، و الحرور بالليل، و قد يكون بالنهار، و قد يستعمل السموم فى لفح البرد، و فى لفح الشمس و الحرّ أكثر، و منه قول الشاعر:

اليوم يوم بارد سموه من جزع اليوم فلا ألومه

و قيل: سميت الريح سموماً لأنها تدخل المسامّ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ أى: نوحّد الله و نعبدّه، أو نسأله أن يمنّ علينا بالمغفرة و الرّحمة إِنَّهُ هُوَ الْعَبْرُ الرَّحِيمُ قرأ الجمهور بكسر الهمزة على الاستناف، و قرأ نافع و الكسائى بفتحها، أى لأنه، و البرّ: كثير الإحسان، و قيل: اللطيف، و الرّحيم: كثير الرّحمة لعباده فَذَكَّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَ لَا مَجْنُونٍ أى: اثبت على ما أنت عليه من الوعظ و التذكير، و الباء متعلّقة بمحذوف هو حال، أى: ما أنت متلبسا بنعمة ربك التى أنعم بها عليك من رجاحة العقل و النبوّة بكاهن و لا مجنون، و قيل: بمحذوف يدل عليه الكلام، أى: ما أنت فى حال إذكارك بنعمة ربك بكاهن و لا مجنون، و قيل: الباء سببية متعلّقة بمضمون الجملة المنفية، و المعنى: انتفى عنك الكهانة و الجنون بسبب نعمة الله عليك، كما تقول: ما أنا بمعسر بحمد الله. و قيل: الباء للقسم متوسطة بين اسم ما و خبرها، و التقدير:

ما أنت و نعمة الله بكاهن و لا مجنون، و الكاهن: هو الذى يوهّم أنه يعلم الغيب من دون وحى، أى: ليس ما تقوله كهانة، فإنك



إنما تنطق بالوحي الّلهى أمرك الله بإبلاغه. و المقصود من الآية ردّ ما كان يقوله المشركون: إنه كاهن أو مجنون أمّ يَقُولُونَ شاعرٌ نَتَرَبِّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ «أم» هي المنقطعة، و قد تقدّم الخلاف هل هي مقدّرة ببل و الهمزة، أو ببل وحدها. قال الخليل: هي هنا للاستفهام. قال سيبويه:

خوطف العباد بما جرى فى كلامهم. قال النحاس: يريد سيبويه أنّ «أم» فى كلام العرب للخروج من حديث إلى حديث، و «نتربص» فى محل رفع صفة لشاعر، و «ريب المنون»: صروف الدهر، و المعنى: ننتظر به حوادث الأيام فيموت كما مات غيره، أو يهلك كما هلك من قبله، و المنون يكون بمعنى الدهر، و يكون بمعنى المنية. قال الأخفش: المعنى نتربص إلى ريب المنون، فحذف حرف الجرّ، كما تقول: قصدت زيدا، و قصدت إلى زيد، و من هذا قول الشاعر:

تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوما أو يموت حليلها

و قول أبى ذؤيب الهذلى:

أمن المنون و ريبه تتوجع و الدهر ليس بمعتب من يجزع

قال الأصمعى: المنون واحد لا جمع له. قال الفراء: يكون واحدا و جمعا. و قال الأخفش: هو جمع لا واحد له. ثم أمره سبحانه أن يجيب عنهم، فقال: قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أى:

انتظروا موتى أو هلاكى، فإنى معكم من المتربصين لموتكم أو هلاككم. قرأ الجمهور «نتربص» بإسناد الفعل إلى جماعة المتكلمين. و قرأ زيد بن علىّ على البناء للمفعول. أمّ تأمّرهم أخلأهم بهذا أى: بل

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٢٠

أ تأمرهم عقولهم بهذا الكلام المتناقض، فإن الكاهن هو المفرط فى الفطنة و الذكاء، و المجنون: هو ذاهب العقل فضلا عن أن يكون له فطنة و ذكاء. قال الواحدى: قال المفسرون: كانت عظماء قريش توصف بالأحلام، و جاوزوا الحدّ فى العناد، فقالوا ما قالوا، و هذه الاضطرابات من شىء إلى شىء مع الاستفهام كما هو مدلول «أم» المنقطعة تدل على أن ما تعقبها أشنع ممّا تقدّمها، و أكثر جرأه و عنادا أمّ يَقُولُونَ تَقَوْلُهُ أى: اختلق القرآن من جهة نفسه و افعله، و التقول لا يستعمل إلا فى الكذب فى الغالب، و إن كان أصله تكلف القول، و منه اقتال عليه، و يقال اقتال عليه: بمعنى تحكّم، و منه قول الشاعر «١»:

و منزلة فى دار صدق و غبطة و ما اقتال فى حكم علىّ طيب

ثم أضرب سبحانه عن قولهم: تَقَوْلُهُ و انتقل إلى ما هو أشدّ شناعة عليهم فقال: بَلْ لا يُؤْمِنُونَ أى: سبب صدور هذه الأقوال. المتناقضة عنهم كونهم كفارا لا يؤمنون بالله، و لا يصدقون ما جاء به رسوله صلّى الله عليه و سلّم. ثم تحدّاهم سبحانه و ألزمهم الحجّة فقال: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ أى: مثل القرآن فى نظمه، و حسن بيانه، و بديع أسلوبه إن كانوا صادقين فيما زعموا من قولهم: إن محمدا صلّى الله عليه و سلّم تقوله و جاء به من جهة نفسه مع أنه كلام عربى، و هم رؤوس العرب و فصحاؤهم و الممارسون لجميع الأوضاع العربية من نظم و نثر.

و قد أخرج سعيد بن منصور و هناد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و البيهقى عن ابن عباس قال: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه فى درجته فى الجنة و إن كانوا دونه فى العمل لتقرّ بهم عينه. ثم قرأ:

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمُ الْآيَةَ. و أخرجه السباز و ابن مردويه عنه مرفوعا. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه أيضا أن النبىّ صلّى الله عليه و سلّم قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه و زوجته و ولده، فيقال:

إنهم لم يبلغوا درجتك و عملك، فيقول: يا ربّ قد عملت لى و لهم، فيؤمر بإلحاقهم به» و قرأ ابن عباس وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمُ الْآيَةَ. و أخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند عن على بن أبى طالب قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و

سَلَّمَ: «إن المؤمنين و أولادهم في الجنة، و إن المشركين و أولادهم في النار» ثم قرأ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الْآيَةَ. و إسناده هكذا. قال عبد الله بن أحمد: حَدَّثَنَا عثمان بن أبي شيبة، حَدَّثَنَا محمد بن فضيل، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن علي بن أبي طالب قال: «سألت خديجة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: هما في النار، فلما رأى الكراهة في وجهها قال: لو رأيت مكانهما لأبغضتهما، قالت: يا رسول الله فولدتي منك. قال: في الجنة، قال: ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: إن المؤمنين و أولادهم في الجنة، و إن المشركين و أولادهم في النار، ثم قرأ: وَ الَّذِينَ آمَنُوا الْآيَةَ. و قال الإمام أحمد في المسند: حَدَّثَنَا يزيد، حَدَّثَنَا حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب

(١). هو كعب بن سعد الغنوي.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٢١

من أين لي هذا، فيقول: باستغفار ولدك لك». و إسناده صحيح. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم عن ابن عباس و ما أَلْتَنَاهُمْ قال: ما نقصناهم. و أخرج ابن أبي حاتم عنه لا لَعُوَ فِيهَا يقول: باطل و لا- تَأْتِيَمُ يقول: كذب. و أخرج البزار عن أنس قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا، فيتحدّثان فيتكئ ذا و يتكئ ذا فيتحدّثان بما كانوا في الدنيا، فيقول أحد هما: يا فلان تدرى أي يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا في موضع كذا و كذا، فدعونا الله فغفر لنا». و أخرج ابن المنذر عن عائشة قالت: لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قد الأنملة لأحرقت الأرض و من عليها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: إِنَّهُ هُوَ الْجَبْرُ قال: اللطيف. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير عنه: أن قريشا لما اجتمعوا إلى دار الندوة في أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قال قائل منهم: احبسوه في وثاق، تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء: زهير و النابغة، إنما هو كأحدهم، فأنزل الله في ذلك أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَّبِصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله: رَيْبَ الْمُنُونِ قال: الموت.

### [سورة الطور (٥٢): الآيات ٣٥ إلى ٤٩]

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَ لَكُمْ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَ إِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤) فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَ إِن لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِبْرَارَ النُّجُومِ (٤٩)

قوله: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ «أم» هذه هي المنقطعة كما تقدّم فيما قبلها، و كما سيأتي فيما بعدها، أي: بل أخلقوا على هذه الكيفية البديعة و الصنعة العجيبة من غير خالق لهم. قال الزجاج: أي: أخلقوا باطلا- لغير شيء لا يحاسبون و لا يؤمرون و لا ينهون؟! و جعل من بمعنى اللام. قال ابن كيسان: أم خلقوا عبثا و تركوا سدى لا يؤمرون و لا ينهون. و قيل: المعنى: أم خلقوا من

غير أب و لا- أم، فهم كالجماد لا- يفهمون و لا- تقوم عليهم حجّة أم هم الخالقون أي: بل أ يقولون هم الخالقون لأنفسهم، فلا يؤمرون و لا ينهون مع أنهم يقرون أن الله خالقهم، و إذا أقرّوا لزمّتهم الحجّة أم خلّقوا السّمواتِ و الأرض و هم لا يدعون ذلك فلزمّتهم الحجّة، و لهذا أضرب عن هذا و قال: بل لا يؤقنون أي: ليسوا على يقين من الأمر، بل يخبطون في ظلمات الشك في وعد الله و وعيده أم عندهم خزائن ربك أي: خزائن أرزاق العباد، و قيل: مفاتيح الرحمة. قال مقاتل: يقول: أ بأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة فيضعونها حيث شاؤوا؟

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٢٢

و كذا قال عكرمة. و قال الكلبي: خزائن المطر و الرزق أم هم المصيطرون أي: المسلطون الجبارون. قال في الصّيحاح: المسيطر: المسلط على الشىء ليشرف عليه، و يتعهد أحواله، و يكتب عمله، و أصله من السّيطر لأن الكتاب يسطر. و قال أبو عبيدة: تسيطر على: اتخذتني خولا لك. قرأ الجمهور «المصيطرون» بالصاد الخالصة، و قرأ ابن محيصن و حميد و مجاهد و قنبل و هشام بالسّين الخالصة، و رويت هذه القراءة عن حفص، و قرأ خلاد «١» بصاد مشمّة زايا أم لهم سلّم يسّتمون فيه أي: بل أ يقولون إن لهم سلما منصوبا إلى السماء يصعدون به، و يستمعون فيه كلام الملائكة و ما يوحى إليهم، و يصلون به إلى علم الغيب كما يصل إليه محمد صلى الله عليه و سلّم بطريق الوحي. و قوله: فيه صفة لسلم، و هى للظرفية على بابها، و قيل: هى بمعنى على، أي: يستمعون عليه كقوله: و لأصيّبناكم فى حُدُوع النَّخْلِ «٢» قاله الأَخفش. و قال أبو عبيدة: يستمعون به. و قال الزجاج: المعنى: أنهم كجبريل اللّذى يأتى النّبىّ صلى الله عليه و سلّم بالوحي، و قيل: هى فى محلّ نصب على الحال، أي: صاعدين فيه فلّيات مسّتمهم إن ادعى ذلك بسّيطانٍ مُبينٍ أي: بحجّة واضحة ظاهرة أم له البنات و لكم البنون أي: بل أ تقولون لله البنات و لكم البنون. سّفه سبحانه أحلامهم، و ضلّ عقولهم و وبّخهم، أي: أ يضيفون إلى الله البنات و هى أضعف الصّنفين، و يجعلون لأنفسهم البنين و هم أعلاهما، و فيه إشعار بأن من كان هذا رأيه فهو بمحلّ سافل فى الفهم و العقل، فلا يستبعد منه إنكار البعث و جحد التوحيد. ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله صلى الله عليه و سلّم فقال: أم تسألهم أجراً أي: بل أ تسألهم أجرا يدفعونه إليك على تبليغ الرسالة فهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ أي: من الترام غرامة تطلبها منهم مثقلون، أي: مجهودون بحملهم ذلك المغمم الثقيل. قال قتادة: يقول: هل سألت هؤلاء القوم أجرا يجهدهم فلا يستطيعون الإسلام أم عندهم الغيب فهُمْ يَكْتُبُونَ أي: بل أ يدعون أن عندهم علم الغيب، و هو ما فى اللوح المحفوظ فهم يكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب. قال قتادة: هذا جواب لقولهم: نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ يقول الله: أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمدا يموت قبلهم فهم يكتبون. قال ابن قتيبة: معنى يكتبون يحاكمون بما يقولون أم يريدون كيدا أي: مكر برسول الله صلى الله عليه و سلّم، فيهلكونه بذلك المكر فالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ أي: الممكور بهم، المجزيون بكيدهم، فضرر كيدهم يعود عليهم و لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله و قد قتلهم الله فى يوم بدر، و أذلهم فى غير موطن، و مكر سبحانه بهم: وَ مَكْرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ «٣» أم لهم إله غير الله أي:

بل أ يدعون أن لهم إله غير الله يحفظهم و يرزقهم و ينصرهم. ثم نزه سبحانه نفسه عن هذه المقالة الشنعاء فقال: سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ أي: عن شركهم به، أو عن الذين يجعلونهم شركاء له. ثم ذكر سبحانه بعض جهالاتهم، فقال: وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ الكسف جمع

(١). فى تفسير القرطبي (١٧/٧٥): حمزة.

(٢). طه: ٧١.

كسفة، و هي القطعة من الشيء، و انتصاب ساقطا على الحال، أو على أنه المفعول الثاني، و المركوم: المجعول بعضه على بعض. والمعنى: أنهم إن يروا كسفا من السماء ساقطا عليهم لعذابهم لم ينتهوا عن كفرهم، بل يقولون: هو سحاب متراكم بعضه على بعض، و قد تقدّم اختلاف القراء في «كسفا». قال الأخفش: من قرأ كسفا، يعنى بكسر الكاف و سكون السين جعله واحدا، و من قرأ كسافا، يعنى بكسر الكاف و فتح السين جعله جمعا. ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه و سلم أن يتركهم، فقال: فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ أَى: اتركهم و خلّ عنهم حتى يلاقوا يوم موتهم، أو يوم قتلهم بيد، أو يوم القيامة. قرأ الجمهور: يُلاقُوا و قرأ أبو حيوة «يلقوا» و قرأ الجمهور: «يصعقون» على البناء للفاعل. و قرأ ابن عامر و عاصم على البناء للمفعول، و الصعقة: الهلاك على ما تقدّم بيانه يوم لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً هو بدل من يومهم، أَى: لا ينفعهم في ذلك اليوم كيدهم المذى كادوا به رسول الله صلى الله عليه و سلم في الدنيا و لا هم يُنصِرُونَ أَى: و لا يمنع عنهم العذاب النازل بهم مانع، بل هو واقع بهم لا محالة و إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ أَى: لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر و المعاصى عذابا في الدنيا دون عذاب يوم القيامة، أَى: قبله، و هو قتلهم يوم بدر. و قال ابن زيد: هو مصائب الدنيا من الأوجاع و الأسقام و البلايا، و ذهاب الأموال و الأولاد. و قال مجاهد: هو الجوع و الجهد سبع سنين، و قيل: عذاب القبر، و قيل: المراد بالعذاب هو القحط، و بالعذاب المذى يأتي بعده هو قتلهم يوم بدر و لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ما يصيرون إليه من عذاب الله، و ما أعدّه لهم في الدنيا و الآخرة و اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إلى أن يقع لهم العذاب المذى وعدناهم به فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا أَى: بمرأى و منظر منا، و فى حفظنا و حمايتنا، فلا تبال بهم. قال الزجاج: إنك بحيث نراك و نحفظك و نرعاك فلا يصلون إليك و سَيَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ أَى: نزه ربك عما لا يليق به، متلبسا بحمد ربك على إنعامه عليك حين تقوم من مجلسك. قال عطاء و سعيد بن جبير و سفيان الثوري و أبو الأحوص: يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول: سبحان الله و بحمده، أو سبحانك اللهم و بحمدك؛ عند قيامه من كل مجلس يجلسه. و قال محمد بن كعب و الضحاك و الربيع بن أنس: حين تقول إلى الصلاة. قال الضحاك يقول: الله أكبر كبيرا، و الحمد لله كثيرا، و سبحان الله بكرة و أصيلا. و فيه نظر لأن التكبير يكون بعد القيام لا حال القيام، و يكون التسييح بعد التكبير، و هذا غير معنى الآية، فالأول أولى. و قيل: المعنى:

صلّ لله حين تقوم من منامك، و به قال أبو الجوزاء و حسان بن عطية. و قال الكلبي: و اذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة، و هي صلاة الفجر و مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ أَمْره الله سبحانه أن يسبحه فى بعض الليل. قال مقاتل: أَى صلّ المغرب و العشاء، و قيل: ركعتي الفجر و إدبار النجوم أَى: وقت إدبارها من آخر الليل، و قيل: صلاة الفجر، و اختاره ابن جرير، و قيل: هو التسييح فى إدبار الصلوات، و قرأ الجمهور إدبار بكسر الهمزة على أنه مصدر، و قرأ سالم بن أبى الجعد و محمد بن السَّمِيع و يعقوب و المنهال بن عمر بفتحها على الجمع، أَى: أعقاب النجوم، و أدبارها: إذا غربت، و دبر الأمر: آخره، و قد تقدم الكلام على هذا فى سورة «ق».

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَمْ هُمُ الْمُضْطَرِبُونَ قال: المسلطون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: أم هم المنزلون. و أخرج عنه أيضا عذاباً دُونَ ذَلِكَ قال: عذاب القبر قبل يوم القيامة. و أخرج ابن أبى شيبه و أبو داود و النسائي و الحاكم و بان مردويه عن أبى برزة الأسلمى قال: «كان رسول الله صلى الله عليه و سلم بآخرة إذا قام من المجلس يقول: سبحانك اللهم و بحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك و أتوب إليك،

فقال رجل: يا رسول الله؛ إنك لتقول قولاً- ما كنت تقوله فيما مضى، قال كفارة لما يكون في المجلس». و أخرجه النسائي و الحاكم من حديث الربيع بن أنس عن أبي العالبيه عن رافع بن خديج عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. و أخرج الترمذى و ابن جرير عن أبي هريره عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال:

«من جلس في مجلس فكش فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم و بحمدك، أشهد أن لا إله إلا- أنت، أستغفرك و أتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه». قال الترمذى: حسن صحيح.

و في الباب أحاديث مسنده و مرسله.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ قال: حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة. و أخرج ابن مردويه عن أبي هريره عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ قال: الركعتان قبل صلاة الصبح. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن ابن عباس وَ إِذْ بَارَ النَّجُومِ قال: ركعتي الفجر.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٢٥

## سورة النجم

### إشارة

هى إحدى و ستون آية، و قيل ثنتان و ستون آية و هى مكية جميعها فى قول الجمهور. و روى عن ابن عباس و عكرمة أنها مكية إلا آية منها. و هى قوله: الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ الْآيَةَ. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة النجم بمكة. و أخرج أيضا عن ابن الزبير مثله. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة و النجم، فسجد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و سجد الناس كلهم، إلا رجلا رأيتاه أخذ كفا من تراب فسجد عليه، فرأيتاه بعد ذلك قتل كافرا، و هو أمية بن خلف. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: أول سورة استعان بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرؤها و النجم. و أخرج ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عمر قال: «صلى بنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقرا النجم، فسجد بنا فأطال السجود». و أخرج ابن مردويه عن عائشة: «أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ النجم، فلما بلغ السجدة سجد فيها». و أخرج الطيالسى و ابن أبى شيبة و أحمد و البخارى و مسلم و أبو داود و الترمذى و النسائى و الطبرانى و ابن مردويه عن زيد بن ثابت قال: قرأت النجم عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يسجد فيها. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسجد فى النجم بمكة، فلما هاجر إلى المدينة تركها. و أخرج أيضا عنه أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يسجد فى شىء من المفصل منذ تحوّل إلى المدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة النجم (٥٣): الآيات ١ الى ٢٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَا عَوَى (٢) وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)  
عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩)  
فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى (١٢) وَ لَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ

سِدْرَةُ الْمُتَنَهِّي (١٤)

عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصِيرُ وَ مَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩)

وَ مَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولَى (٢٥) وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَرْضَى (٢٦) قوله: وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَى التعريف للجنس، و المراد به جنس النجوم، و به قال جماعة من المفسرين،

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٢٦

و منه قول عمر بن أبي ربيعة:

أَحْسَنَ النَّجْمِ فِي السَّمَاءِ الثَّرِيَاوِ الثَّرِيَا فِي الْأَرْضِ زَيْنَ النَّسَاءِ

و قيل: المراد به الثريا، و هو اسم غلب فيها، تقول العرب: النجم و تريد به الثريا، و به قال مجاهد و غيره.

و قال السدّي: النجم هنا هو الزهرة؛ لأن قوما من العرب كانوا يعبدونها، و قيل: النجم هنا النبت الذي لا ساق له، كما في قوله: وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (١) قاله الأخفش. و قيل: النجم محمد صلى الله عليه و سلم، و قيل:

النجم القرآن، و سمى نجما لكونه نزل منجما مفرقا، و العرب تسمى التفريق تنجيما، و المفروق: المنجم، و به قال مجاهد و الفراء و غيرهما، و الأول أولى. قال الحسن: المراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة.

و قيل: المراد بها النجوم التي ترحم بها الشياطين، و معنى هويه: سقوطه من علو، يقال: هوى النجم يهوى هويًا؛ إذا سقط من علو إلى سفلى، و قيل: غروبه، و قيل: طلوعه، و الأول أولى، و به قال الأصمعي و غيره، و منه قال زهير:

فَشَجَّ بِهَا الْأَمَاعِزُ وَ هِيَ تَهْوَى هَوَى الدَّلْوِ أَسْلَمَهَا الرِّشَاءُ

و يقال: هوى فى السير؛ إذا مضى؛ و منه قول الشاعر:

بَيْنَمَا نَحْنُ بِالْبَلَاكِثِ فَالْقَاعِ سَرَاعَا وَ الْعَيْسُ تَهْوَى هَوِيَا

خطرت خطرة على القلب من ذكراك و هنا فما استطعت مضيا

و معنى الهوى على قول من فسّر النجم بالقرآن؛ أنه نزل من أعلى إلى أسفل، و أما على قول من قال إنه الشجر الذى لا ساق له، أو أنه محمد صلى الله عليه و سلم، فلا يظهر للهوى معنى صحيح، و العامل فى الظرف فعل القسم المقدّر، و جواب القسم قوله:

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَا غَوَى أَى: مَا ضَلَّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عَنِ الْحَقِّ وَ الْهُدَى وَ لَا عَدَلَ عَنْهُ، وَ الْغَى: ضَدُّ الرِّشْدِ، أَى: مَا صَارَ غَاوِيَا، وَ لَا تَكَلَّمَ بِالْبَاطِلِ، وَ قِيلَ: مَا خَابَ فِيمَا طَلَبَ، وَ الْغَى: الْخِيْبَةُ، وَ مِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

فَمَنْ يَلْقُ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرَهُ مِنْ يَغْوَى لَا يَعْدَمُ عَلَى الْغَى لَأَمَّا

و فى قوله: صَاحِبُكُمْ إِشَارَةٌ بِأَنَّهِمُ الْمُطَّلَعُونَ عَلَى حَقِيقَةِ حَالِهِ، وَ الْخَطَابُ لِقَرِيْشٍ وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهُوَى أَى: مَا يَصْدُرُ نَطْقُهُ عَنِ الْهُوَى لَا بِالْقُرْآنِ وَ لَا بغيره، فَعَنْ عَلَى بَابِهَا. وَ قَالَ أَبُو عبيدة: إِنَّ عَنْ بَمَعْنَى الْبَاءِ، أَى: بِالْهُوَى. قَالَ قَتَادَةُ: أَى: مَا يَنْطِقُ بِالْقِرَاءَةِ عَنِ هَوَاهُ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحَى يُوحى أَى:

مَا هُوَ الْمَدَى يَنْطِقُ بِهِ إِلَّا وَحَى مِنْ اللَّهِ يُوْحِيهِ إِلَيْهِ. وَ قَوْلُهُ: يُوحى صَفَةً لَوْحَى تَفْيِيدَ الْإِسْتِمْرَارِ التَّجَدُّدِ، وَ تَفْيِيدَ نَفَى الْمَجَازِ، أَى: هُوَ وَحَى حَقِيقَةٌ لَا لِمَجْرَدِ التَّسْمِيَةِ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى الْقُوَى: جَمْعُ قُوَّةٍ، وَ الْمَعْنَى: أَنَّهُ عَلِمَهُ جَبْرِيلُ الَّذِى هُوَ شَدِيدُ قُوَاهُ، هَكَذَا قَالَ

أَكْثَرَ الْمَفْسَرِينَ إِنْ الْمُرَادُ جَبْرِيلُ. وَ قَالَ الْحَسَنُ:

(١). الرَّحْمَن: ٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٢٧

هو الله عزّ وجلّ، والأوّل أولى، وهو من باب إضافة الصفة إلى الموصوف. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى المِرَّة: القوّة والشدّة في الخلق، وقيل: ذو صحّة جسم و سلامته من الآفات، ومنه قول النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تحلّ الصدقة لغنيّ، ولا لذي مِرَّة سوى «١»». وقيل: ذو حصافة عقل و متانته رأي. قال قطرب: العرب تقول لكلّ من هو جزل الرأي حصيف العقل: ذو مِرَّة، ومنه قول الشاعر:

قد كنت قبل لقاكم ذا مِرَّة عندي لكلّ مخاصم ميزانه

و التفسير للمِرَّة بهذا أولى؛ لأن القوّة والشدّة قد أفادها قوله: شَدِيدُ الْقُوَى قال الجوهري: المِرَّة:

إحدى الطبائع الأربع، والمِرَّة: القوّة و شدّة العقل، و الفاء في قوله: فَاسْتَوَى للعطف على علمه، يعني جبريل، أي: ارتفع و علا إلى مكانه في السماء بعد أن علم محمدا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قاله سعيد بن المسيّب و سعيد بن جبير. وقيل: معنى استوى قام في صورته التي خلقه الله عليها؛ لأنه كان يأتي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صورة الأدميين، وقيل: المعنى: فاستوى القرآن في صدره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. و قال الحسن: فاستوى: يعني الله عزّ وجلّ على العرش وَ هُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى هذه الجملة في محل نصب على الحال، أي: فاستوى جبريل حال كونه بالأفق الأعلى، والمراد بالأفق الأعلى: جانب المشرق، و هو فوق جانب المغرب، وقيل: المعنى: فاستوى عاليا، و الأفق:

ناحية السماء، و جمعه آفاق. قال قتادة و مجاهد: هو الموضع الذي تطلع منه الشمس، وقيل: هو يعني جبريل و النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأفق الأعلى ليلة المعراج، و يجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى أَي: دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى، أي: قرب من الأرض، فتدلى، فنزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالوحي، وقيل:

في الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: ثم تدلى فدنا، قاله ابن الأنباري و غيره، قال الزجاج: معنى دنا فتدلى واحد، أي: قرب و زاد في القرب، كما تقول: فدنا مني فلان و قرب، و لو قلت: قرب مني و دنا جاز.

قال الفراء: الفاء في «فتدلى» بمعنى الواو، و التقدير: ثم تدلى جبريل و دنا، و لكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحدا أن تقدّم أيهما شئت. قال الجمهور: و الذي دنا فتدلى هو جبريل؛ وقيل: هو النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و المعنى:

دنا منه أمره و حكمه، و الأوّل أولى، وقيل: و من قال: إن الذي استوى هو جبريل و محمد، فالمعنى عنده:

ثم دنا محمد من ربه دنوّ كرامة فتدلى، أي: هوى للسجود، و به قال الضحّاك. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى أَي: فكان مقدار ما بين جبريل و محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو ما بين محمد و ربه قاب قوسين، أي: قدر قوسين عربيين. و القاب و القيب، و القاد و القيد: المقدار، ذكر معناه في الصّيحاح. قال الزجاج: أي: فيما تقدّرون أنتم، و الله سبحانه عالم بمقادير الأشياء، و لكنه يخاطبنا على ما جرت به عادة المخاطبة فيما بيننا. وقيل «أو» بمعنى الواو، أي: و أدنى، وقيل: بمعنى بل، أي: بل أدنى. و قال سعيد بن جبير و عطاء و أبو إسحاق الهمداني و أبو وائل شقيق بن سلمة فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ قدر ذراعين، و القوس: الذّراع يقاس بها كل شيء، و هي لغة بعض الحجازيين، وقيل: هي لغة أزد شنوءة. و قال الكسائي: «فكان قاب قوسين» أراد قوسا

(١). «السوى»: صحيح الأعضاء.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٢٨

واحدة فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَزِيدِهِ مَا أَوْحَىٰ أَي: فأوحى جبريل إلى محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أوحى، وفيه تفخيم للوحي الَّذِي أوحى إليه، والوحي: إلقاء الشيء بسرعة، ومنه الوحاء وهو السرعة، والضمير في عبده يرجع إلى الله، كما في قوله: مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ (١) وقيل: المعنى: فأوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى، وبالأوّل قال الربيع والحسن وابن زيد وقتادة. وقيل: فأوحى الله إلى عبده محمد. قيل: وقد أبهم الله سبحانه ما أوحاه جبريل إلى محمد، أو ما أوحاه الله إلى عبده جبريل، أو إلى محمد، ولم يبينه لنا، فليس لنا أن نتعرّض لتفسيره. وقال سعيد بن جبیر: الَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْهِ هُوَ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ إلخ «٢»، وَأَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ إلخ «٣». وقيل: أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها [يا محمد] «٤»، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك. وقيل: إن «ما» للعموم لا للإبهام، والمراد كل ما أوحى به إليه، والحمل على الإبهام أولى لما فيه من التعظيم ما كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ أَي: ما كذب فؤاد محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما رآه بصره ليلة المعراج، يقال: كذبه؛ إذا قال له الكذب ولم يصدقه. قال المبرد: معنى الآية أنه رأى شيئاً فصدق فيه. قال الجمهور ما كَذَبَ مخففاً، وقرأ هشام وأبو جعفر بالتشديد؛ و«ما» في ما رَأَىٰ موصولة أو مصدرية، في محل نصب بكذب، مخففاً ومشدداً أفتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ قَرَأَ الجمهور: أفتَمَارُونَهُ بالألف من المماراة، وهي المجادلة والملاحاة، وقرأ حمزة والكسائي: «أفتَمرونه» بفتح التاء وسكون الميم، أَي: أفتجحدونه، واختار أبو عبيد القراءه الثانية: قال: لأنهم لم يماروه وإنما جحدوه، يقال: مراة حقه، أَي: جحدته، ومريته أنا: جحدته. قال: ومنه قول الشاعر:

لئن هجوت أخا صدق ومكرمة لقد مريت أخا ما كان يمرىكا

أَي: جحدته. قال المبرد: يقال مراة عن حقه وعلى حقه: إذا منعه منه ودفعه عنه «٥». وقيل: على بمعنى عن. وقرأ ابن مسعود والشعبي ومجاهد والأعرج «أفتَمرونه» بضم التاء من أمرت، أَي: أتريبونه وتشكّون فيه. قال جماعة من المفسرين: المعنى على قراءة الجمهور: أفتجادلونه، وذلك أنهم جادلوه حين أسرى به، فقالوا: صف لنا مسجد بيت المقدس، أَي: أفتجادلونه جدالاً ترمون به دفعه عمّا شاهدته وعلمه، واللام في قوله: وَ لَقَدْ رَأَىٰ نَزْلَةَ أُخْرَىٰ هِيَ الموطئة للقسم، أَي: والله لقد رآه نزلة أخرى، والنزلة: المرة من النزول، فانتصابها على الظرفية، أو منتصبه على المصدر الواقع موقع الحال، أَي: رأى جبريل نازلاً نزلة أخرى؛ أو على أنه صفة مصدر مؤكد محذوف، أَي: رآه رؤية أخرى. قال جمهور المفسرين: المعنى أنه رأى محمد جبريل مرّة أخرى، وقيل: رأى محمد ربّه مرّة أخرى بفؤاده عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى الظرف منتصب برآه، والسدر: هو شجر النبق، وهذه السدره هي في السماء السادسة كما في الصحيح،

(١). فاطر: ٤٥.

(٢). الشرح: ١-٨.

(٣). الضحى: آية ٦ إلى آخر السورة.

(٤). من تفسير القرطبي (١٧/٩٢).

(٥). من تفسير القرطبي (١٧/٩٣).

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٢٩

وروى أنها في السماء السابعة. و«الْمُنْتَهَى»: مكان الانتهاء، أو هو مصدر ميمي، والمراد به الانتهاء نفسه، وقيل: تنتهي إليها أرواح الشهداء، وقيل: غير ذلك. وإضافة الشجرة إلى المنتهى من إضافة الشيء إلى مكانه. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى أَي: عند تلك السدره جنة تعرف بجنة المأوى، وسميت جنة المأوى لأنه أوى إليها آدم، وقيل: إن أرواح



المؤمنين تأوى إليها. قرأ الجمهور جَنَّهُ برفع جنه على أنها مبتدأ وخبرها الظرف المتقدم. وقرأ على و أبو الدرداء و أبو هريرة و ابن الزبير و أنس و زرّ بن حبيش و محمد بن كعب و مجاهد و أبو سبرة الجهني «جَنَّهُ» فعلا- ماضيا من جنّ يجن، أى: ضمّه الميت، أو ستره إيواء الله له. قال الأخفش:

أدركه كما تقول جَنَّهُ الليل، أى: ستره و أدركه، و الجملة في محل نصب على الحال إذ يَغْشَى السُّدْرَةَ ما يَغْشَى العامل في الظرف رآه أيضا، و هو ظرف زمان، و العدى قبله ظرف مكان، و الغشيان بمعنى التغطية و السرّ، و بمعنى الإتيان، يقال: فلان يغشاني كل حين، أى: يأتيني، و فى الإبهام فى قوله: ما يَغْشَى

من التفخيم ما لا يخفى، و قيل: يغشاها جراد من ذهب، و قيل: طوائف الملائكة. و قال مجاهد: رفر ف أخضر، و قيل: رفر ف من طيور خضر، و قيل: غشياها أمر الله، و المعجىء بالمضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا للصورة البديعة، أو للدلالة على الاستمرار التجددى ما زاعَ البَصِيرُ أى: ما مال بصر النبى عما رآه و ما طغى أى: ما جاوز ما رأى، و فى هذا وصف أدب النبى صَلَّى الله عليه و سلم فى ذلك المقام حيث لم يلتفت، و لم يمل بصره، و لم يمدّه إلى غير ما رأى، و قيل: ما جاوز ما أمر به لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى أى: و الله لقد رأى تلك الليلة من آيات ربه العظام ما لا يحيط به الوصف، و قيل: رأى رفر فَا سَدَّ الأفق، و قيل: رأى جبريل فى حلّة خضراء، قد ملأ ما بين السماء و الأرض، له ستمائة جناح، كذا فى صحيح مسلم و غيره، و قال الضحّاك: رأى سدره المنتهى، و قيل: هو كل ما رآه تلك الليلة فى مسراه و عوده، و «من» للتبعيض، و مفعول «رأى»: «الكبرى»، و يجوز أن يكون المفعول محذوفاً، أى رأى شيئا عظيما من آيات ربه، و يجوز أن تكون «من» زائدة أفرأيتُم اللات و العزى - و مناة الثالثة الأخرى لما قصّ الله سبحانه هذه الأفاصيص قال للمشركين موبخا و مقرّعا: أفرأيتُم أى: أخبرونى عن الآلهة التى تعبدونها من دون الله هل لها قدرة توصف بها؟ و هل أوحى إليكم شيئا كما أوحى الله إلى محمد؟ أم هى جمادات لا تعقل و لا تنفع؟ ثم ذكر هذه الأصنام الثلاثة التى اشتهرت فى العرب و عظم اعتقادهم فيها. قال الواحدى و غيره: و كانوا يشقون لها اسما من أسماء الله تعالى، فقالوا من الله اللات، و من العزيز العزى، و هى تأنيث الأعز بمعنى العزيزة، و مناة من منى الله الشىء إذا قدره. قرأ الجمهور: اللات بتخفيف التاء، فقليل:

هو مأخوذ من اسم الله سبحانه كما تقدّم، و قيل: أصله لات يليت، فالتاء أصلية، و قيل: هى زائدة، و أصله لوى يلوى؛ لأنهم كانوا يلون أعناقهم إليها، أو يلتون عليها، و يطوفون بها. و اختلف القراء هل يوقف عليها بالتاء أو بالهاء؟ فوقف عليها الجمهور بالتاء و وقف عليها الكسائى بالهاء، و اختار الزجاج و الفراء الوقف بالتاء لاتباع رسم المصحف فإنها تكتب بالتاء، و قرأ ابن عباس و ابن الزبير و مجاهد و منصور بن المعتمر و أبو الجوزاء و أبو صالح و حميد اللات بتشديد التاء، و رويت القراءة عن ابن كثير، فقليل: هو اسم رجل كان

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٣٠

يلت السويق و يطعمه الحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه، فهو اسم فاعل فى الأصل غلب على هذا الرجل. قال مجاهد: كان رجلا فى رأس جبل [له غنيمه يسلى (١) منها السمن، و] (٢) يتخذ من لبنها و سمنها حيسا (٣)، و يطعم الحاج، و كان يبطن نخلة، فلما مات عبده. و قال الكلبي: كان رجلا من ثقيف له صرمة غنم، و قيل: إنه عامر بن الظرب العدوانى، و كان هذا الصنم لثقيف، و فيه يقول الشاعر (٤):

لا تنصروا اللات إنّ الله مهلكهاو كيف ينصركم من ليس ينتصر

قال فى الصحاح: و اللات اسم صنم لثقيف، و كان بالطائف، و بعض العرب يقف عليها بالتاء، و بعضهم بالهاء. و العزى صنم قريش و بنى كنانة. قال مجاهد: هى شجرة كانت بغطفان، و كانوا يعبدونها، فبعث إليها النبى صَلَّى الله عليه و سلم خالد بن

الوليد فقطعها، وقيل: كانت شيطانه تأتي ثلاث سمرات بيطن نخلة. وقال سعيد بن جبير: العزى: حجر أبيض كانوا يعبدونه. وقال قتادة: هي بيت كان بيطن نخلة و مناة صنم بنى هلال. وقال ابن هشام: صنم هذيل و خزاعة. وقال قتادة: كانت للأنصار. قرأ الجمهور مناة بألف من دون همزة، و قرأ ابن كثير و ابن محيصن و حميد و مجاهد و السلمى بالمد و الهمز «ه». فأما قراءة الجمهور فاشتقاقها من منى يمنى، أى صب؛ لأن دماء النساء كانت تصب عندها يتقربون بذلك إليها. و أما على القراءة الثانية فاشتقاقها من النوء، و هو المطر لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء، وقيل: هما لغتان للعرب، و مما جاء على القراءة الأولى قول جرير:

أزيد مناة توعد يا ابن تميم تأمل أين تاه بك الوعيد

و مما جاء على القراءة الأخرى قول الحارثي:

ألا هل أتى التميم بن عبد مناة على الشنء فيما بيننا ابن تميم

وقف جمهور القراء عليها بالتاء اتباعا لرسم المصحف، و وقف ابن كثير و ابن محيصن عليها بالهاء. قال في الصحاح: و مناة اسم صنم كان بين مكة و المدينة، و الهاء للتأنيث و يسكت عليها بالتاء، و هي لغة. قوله:

الثالثة الأخرى هذا وصف لمناة، و صفها بأنها ثالثة و بأنها أخرى، و الثالثة لا تكون إلا أخرى. قال أبو البقاء: فالوصف بالأخرى للتأكيد، و قد استشكل وصف الثالثة بالأخرى، و العرب إنما تصف به الثانية، فقال الخليل: إنما قال ذلك لوفاق رؤوس الآي كقوله: مآربٌ أخرى «٤» و قال الحسين بن الفضل:

(١). «يسلى»: يجمع.

(٢). من تفسير القرطبي (١٧/ ١٠٠)

(٣). «الحيس»: الطعام المتخذ من التمر و الأقط و السمن.

(٤). هو شداد بن عارض الجشمي.

(٥). أى: مناة.

(٦). طه: ١٨.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٣١

فيه تقديم و تأخير، و التقدير: أفرأيتم اللات و العزى الأخرى و مناة الثالثة. و قيل: إن وصفها بالأخرى لقصد التعظيم لأنها كانت عند المشركين عظيمة، و قيل: إن ذلك للتحقير و الدم، و إن المراد المتأخرة الوضيعة كما فى قوله: قالت أخواهم لأولاهم «١» أى: وضعواهم لرؤسائهم. ثم كثر سبحانه توبيخهم و تفريعهم بمقالة شعاء قالوها فقال: ألكم الذكرو له الأناثى أى: كيف تجعلون لله ما تكرهون من الإناث، و تجعلون لأنفسكم ما تحبون من الذكور، قيل: و ذلك قولهم إن الملائكة بنات الله، و قيل: المراد كيف تجعلون اللات و العزى و مناة، و هى إناث، فى زعمكم شركاء لله، و من شأنهم أن يحتقروا الإناث. ثم ذكر سبحانه أن هذه التسمية و القسمة المفهومة من الاستفهام قسمة جائزة، فقال: تلك إذا قسمة ضيزى قرأ الجمهور:

ضيزى بياء ساكنة بغير همزة، و قرأ ابن كثير بهمزة ساكنة، و المعنى: أنها قسمة خارجة عن الصواب جائزة عن العدل مائلة عن الحق. قال الأخفش: يقال: ضاز فى الحكم، أى: جار، و ضاز حقه يضيئه ضيزا، أى: نقصه و بخسه، قال: و قد يهمز، و أنشد:

فإن تأننا ننتقصك و إن تغب «٢» فحقك «٣» مضئوز و أنفك راغم

و قال الكسائي: ضاز يضيئ ضيزا، و ضاز يضوز ضوزا؛ إذا تعدى و ظلم و بخس و انتقص، و منه قول الشاعر «٤»:

ضازت بنو أسد بحكمهم إذ يجعلون الرأس كالذنب

قال الفراء: و بعض العرب يقول: ضئزى بالهمز، و حكى أبو حاتم عن أبي زيد أنه سمع العرب تهمز «ضيزى». قال البغوى: ليس فى كلام العرب فعلى بكسر الفاء فى النعوت، إنما تكون فى الأسماء مثل ذكرى.

قال المؤرّج: كرهوا ضم الضاد فى ضيزى، و خافوا انقلاب الياء واوا، و هى من بنات الواو، فكسروا الضاد لهذه العلة، كما قالوا فى جمع أبيض بيض، و كذا قال الزجاج: و قيل: هى مصدر كذكرى، فىكون المعنى:

قسمة ذات جور و ظلم. ثم ردّ سبحانه عليهم بقوله: **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ أَى:**

ما الأوثان أو الأصنام باعتبار ما تدعونه من كونها آلهة إلا أسماء محضة، ليس فيها شىء من معنى الألوهية التى تدعونها؛ لأنها لا تبصر و لا- تسمع، و لا- تعقل و لا تفهم، و لا تضرّ و لا تنفع، فليست إلا مجرد أسماء سمّيتوها أنتم و آباؤكم، قلّدت الآخر فيها الأوّل، و تبع فى ذلك الأبناء الآباء. و فى هذا من التحقير لشأنها ما لا يخفى، كما تقول فى تحقير رجل: ما هو إلا اسم، إذا لم يكن مشتتلا على صفة معتبرة، و مثل هذه الآية قوله تعالى:

ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا «٥» يقال: سمّيته زيدا و سمّيته بزيدا، فقوله «سمّيتوها» صفة

(١). الأعراف: ٣٨.

(٢). فى تفسير القرطبي: تقم.

(٣). فى تفسير القرطبي: فقسّمك.

(٤). هو امرؤ القيس.

(٥). يوسف: ٤٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٣٢

لأصنام، و الضمير يرجع إلى الأسماء لا إلى الأصنام، أى: جعلتموها أسماء لا جعلتم لها اسما. و قيل: إن قوله:

هِيَ راجع إلى الأسماء الثلاثة المذكورة، و الأوّل أولى. ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ أَى: ما أنزل بها من حجة و لا برهان. قال مقاتل: لم ينزل لنا كتابا لكم فيه حجة كما تقولون إنها آلهة، ثم أخبر عنهم بقوله:

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ أَى: ما يتبعون فيما ذكر من التسمية و العمل بموجبها إلا- الظنّ الّذى لا- يغنى من الحق شيئا، و التفت من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم و تحقيرا لشأنهم، فقال: وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ أَى: تميل إليه و تشتهي؛ من غير التفات إلى ما هو الحق الّذى يجب الاتباع له. قرأ الجمهور: يَتَّبِعُونَ بالتحتية على الغيبة، و قرأ عيسى بن عمر و أيوب و ابن السّميقع بالفوقية على الخطاب، و رويت هذه القراءة عن ابن مسعود و ابن عباس و طلحة و ابن وثّاب. وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى أَى: البيان الواضح الظاهر بأنها ليست بآلهة، و الجملة فى محل نصب على الحال من فاعل يتبعون، و يجوز أن يكون اعتراضا، و الأوّل أولى. و المعنى: كيف يتبعون ذلك و الحال أن قد جاءهم ما فيه هدى لهم من عند الله؛ على لسان رسوله الّذى بعثه الله بين ظهرانيهم، و جعله من أنفسهم أمّ لِلْإِنْسَانِ ما تَمَنَّى «أم» هى المنقطعة المقدرة ببل و الهمزة التى للإنكار، فأضرب عن اتباعهم الظنّ الّذى هو مجرد التوهم، و عن اتباعهم هوى الأنفس و ما تميل إليه، و انتقل إلى إنكار أن يكون لهم ما يتمنون من كون الأصنام تنفعهم و تشفع لهم. ثم علّل انتفاء أن يكون للإنسان ما تمنى بقوله: فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولَى أَى: أن أمور الآخرة و الدنيا بأسرها لله عزّ و جلّ، فليس لهم معه أمر من الأمور، و من جملة ذلك أمنياتهم الباطلة و أطماعهم الفارغة، ثم أكّد ذلك و زاد فى إبطال ما يتمنونه فقال: وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً و «كم» هنا هى الخبرية المفيدة للتكثير، و محلها الرفع على الابتداء، و

الجملة بعدها خبرها، و لما فى كم من معنى التكثير جمع الضمير فى شفاعتهم مع أفراد الملك، و المعنى: التوبخ لهم بما يتمنون و يطمعون فيه من شفاعه الأصنام مع كون الملائكة مع كثرة عبادتها و كرامتها على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له، فكيف هذه الجمادات الفاقدة للعقل و الفهم، و هو معنى قوله: «إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُمْ بِالشَّفَاعَةِ لِمَنْ يَشَاءُ أَنْ يَشْفَعُوا لَهُ وَ يَرْضَى بِالشَّفَاعَةِ لَهُ لكونه من أهل التوحيد، و ليس للمشركين فى ذلك حظ، و لا يأذن الله بالشفاعه لهم، و لا يرضاها؛ لكونهم ليسوا من المستحقين لها.

و قد أخرج ابن جرير و عن ابن عباس وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَى قَالَ: إِذَا انصَبَّ. و أخرج ابن المنذر عنه قال: هو الثريا إذا تدلت. و أخرج عنه أيضا قال: أقسم الله أنه ما ضلَّ محمد و لا غوى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا فى قوله: ذُو مِرَّةٍ قَالَ: ذُو خَلْقٍ حَسَنٍ. و أخرج أحمد و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن مسعود «أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ لم ير جبريل فى صورته إلا- مرّتين، أما واحدة فإنه سأله أن يراه فى صورته فأراه صوته فسَدَّ الأُفُقَ، و أما الثانية فإنه كان معه حيث صعد فذلك قوله: وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى قَالَ: خلق جبريل. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عنه أن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قال: «رَأَيْتَ جَبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى لَهُ سِتْمَانَةُ جَنَاحٍ» فتح القدير، ج ٥، ص: ١٣٣

و أخرجه أحمد عنه أيضا. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى قَالَ: مطلع الشمس. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن مسعود فى قوله: فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى قَالَ: «رَأَى النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ جَبْرِيلَ لَهُ سِتْمَانَةُ جَنَاحٍ». و أخرج الفريابى و عبد بن حميد، و الترمذى و صححه، و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى فى قوله: مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى قَالَ: «رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ حَلَّتَا رِفْرَفَ أَخْضَرٍ، قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ». و أخرج ابن أبي حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عنه قال: دنا ربه فتدلى. و أخرج قال: هو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ دنا فتدلى إلى ربه. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه قال: دنا ربه فتدلى. و أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله: فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ قَالَ: دنا جبريل منه حتى كان قدر ذراع أو ذراعين. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس قال: القاب: القيد، و القوسين: الذراعين. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: لما أسرى بالنبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ اقترب من ربه، فكان قاب قوسين أو أدنى، ألم تر إلى القوس ما أقربها من الوتر. و أخرج النسائى و ابن المنذر و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فَأَوْحَى إِلَيْهِ عَبْدُهُ مَا أَوْحَى قَالَ: عبده محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ.

و أخرج مسلم و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عنه فى قوله: مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى وَ لَقَدْ رَأَى نَزْلَةَ أُخْرَى قَالَ: رأى محمد ربه بقلبه مرّتين. و أخرج نحوه عنه عبد بن حميد، و الترمذى و حسنه، و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه. و أخرج ابن مردويه عن أنس قال: رأى محمد ربه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ رأى ربه بعينه. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه قال: رأى محمد ربه مرّتين، مرّة ببصره و مرّة بفؤاده. و أخرج الترمذى و حسنه، و الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى عنه أيضا قال: لقد رأى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ربه عزّ و جلّ. و أخرج النسائى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عنه أيضا قال: أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، و الكلام لموسى، و الرؤية لمحمد؟ و قد روى نحو هذا عنه من طرق. و أخرج مسلم و الترمذى و ابن مردويه عن أبى ذرّ قال: «سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: هل رأيت ربك؟» قال: نور أنى أراه؟». و أخرج مسلم و ابن مردويه عنه «أنه سأل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ:

هل رأيت ربك؟ قال: رأيت نورا». و أخرج عبد بن حميد و النسائي و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا قال: رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم ربه بقلبه و لم يره ببصره. و أخرج مسلم عن أبي هريرة في قوله: وَ لَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى قَالَ جَبْرِيْلُ. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و مسلم و الترمذى و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقى عن ابن مسعود:

«لما أسرى برسول الله صلى الله عليه و سلم انتهى إلى سدره المنتهى، و هى فى السماء السادسة، إليها ينتهى ما يصعد من الأرواح فيقبض منها، و إليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيقبض منها» إِذِ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى قَالَ: فَرَأَسْتُ مِنَ الذَّهَبِ. و أخرج أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن مسعود قال: «الجنة فى السماء السابعة العليا، و النار فى الأرض السابعة السفلى». و أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس قال: كان اللات رجالا يلبت السويق للحاج. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه: أن العزى كانت يبطن نخلة، و أن اللات كانت بالطائف، و أن

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٣٤

مناة كانت بقديد. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس ضيزى قال: جائرة، لا حق لها.

### [سورة النجم (٥٣): الآيات ٢٧ الى ٤٢]

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسَّيْمُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَى (٢٧) وَ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى (٣٠) وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١)

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى (٣٢) أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَ أَعْطَى قَلِيلًا وَ أَكْذَبَى (٣٤) أ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَوَّ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦)

وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا- تَرَى وَازِرَةً وَ زَرَ أُخْرَى (٣٨) وَ أَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَ أَنَّ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)

وَ أَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢)

قوله: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسَّيْمُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَى أى: أن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث و ما بعده من الدار الآخرة، و هم الكفار، يضمون إلى كفرهم مقالة شنعاء و جهالة جهلاء، و هى أنهم يسمون الملائكة المنزهين عن كل نقص تسمية الأنثى، و ذلك أنهم زعموا أنها بنات الله، فجعلوهم إناثا، و سموهم بنات و ما لهم به من علم جملة فى محل نصب على الحال، أى: يسمونهم هذه التسمية و الحال أنهم غير عالمين بما يقولون، فإنهم لم يعرفوهم، و لا شاهدوهم، و لا بلغ إليهم ذلك من طريق من الطرق التى يخبر المخبرون عنها، بل قالوا ذلك جهلا- و ضلالة و جرأة. و قرئ «ما لهم بها» أى: بالملائكة أو التسمية إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ أى: ما يتبعون فى هذه المقالة إلا مجرد الظن و التوهم. ثم أخبر سبحانه عن الظن و حكمه فقال: وَ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا أى: إن جنس الظن لا- يغنى من الحق شيئا من الإغناء، و الحق هنا العلم. و فيه دليل على أن مجرد الظن لا- يقوم قيام العلم، و أن الظان غير عالم. و هذا فى الأمور التى يحتاج فيها إلى العلم و هى المسائل العلمية، لا فيما يكتفى فيه بالظن، و هى الحقائق العملية، و قد قدمنا تحقيق هذا. و لا بد من هذا التخصيص، فإن دلالة العموم و القياس و خبر الواحد و نحو ذلك ظنية، فالعمل بها عمل بالظن، و قد وجب علينا العمل به فى مثل هذه الأمور، فكانت أدلة و جوبه العمل بما فيها

مخصصة لهذا العموم، وما ورد في معناه من الذم لمن عمل بالظن والنهي عن اتباعه فأعرض عن من تولى عن ذكرنا أي: أعرض عن عرض عن ذكرنا، والمراد بالذكر هنا القرآن، أو ذكر الآخرة، أو ذكر الله على العموم، وقيل: المراد بالذكر هنا الإيمان، والمعنى: اترك مجادلتهم فقد بلغت إليهم ما أمرت به، وليس عليك إلا البلاغ، وهذا منسوخ بآية السيف ولم يرد إلا الحياة الدنيا أي: لم يرد سواها، ولا طلب غيرها، بل قصر نظره عليها؛ فإنه غير متأهل للخير، ولا مستحق للاعتناء بشأنه. ثم صغر سبحانه شأنهم، وحق أمرهم فقال: ذَلِكَ مَبْلُغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ أَي: إن ذلك التولى وقصر الإرادة على الحياة الدنيا هو مبلغهم من العلم، ليس لهم غيره،

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٣٥

ولا يلتفتون إلى سواه من أمر الدين. قال الفراء: أي: ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة، وقيل: الإشارة بقوله: ذَلِكَ إلى جعلهم للملائكة بنات الله، وتسميتهم لهم تسمية الأنثى، والأول أولى. والمراد بالعلم هنا مطلق الإدراك الذي يندرج تحته الظن الفاسد، والجملة مستأنفة لتقرير جهلهم واتباعهم مجرد الظن. وقيل: معترضة بين المعلل والعلمة، وهي قوله: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى فَإِن هَذَا تَعْلِيلٌ لِلأَمْرِ بِالْإِعْرَاضِ، والمعنى: أنه سبحانه أعلم بمن حاد عن الحق، وأعرض عنه، ولم يهتد إليه، وأعلم بمن اهتدى فقبل الحق وأقبل إليه وعمل به، فهو مجاز كل عامل بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإرشاد له بأنه لا يتعب نفسه في دعوة من أصر على الضلالة وسبقت له الشقاوة، فإن الله قد علم حال هذا الفريق الضال كما علم حال الفريق الراشد. ثم أخبر سبحانه عن سعة قدرته وعظيم ملكه، فقال: وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَي: هو المالك لذلك والمتصرف فيه لا يشاركه فيه أحد، واللام في لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بما عملوا متعلقة بما دل عليه الكلام، كأنه قال: هو مالك ذلك، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء؛ ليجزي المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه. وقيل: إن قوله: وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ معترضة، والمعنى: إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى؛ ليجزي. وقيل: هي لام العاقبة، أي: وعاقبه أمر الخلق الذين فيهم المحسن والمسيء أن يجزي الله كلا منهما بعمله. وقال مكى: إن اللام متعلقة بقوله: لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظِ وَمِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى. قرأ الجمهور لِيَجْزِيَ بِالتَّحْتِيَةِ. وقرأ زيد ابن علي بالنون، ومعنى بِالْحُسَيْنَى أَي: بالمشوبة الحسنى وهي الجنة، أو بسبب أعمالهم الحسنى، ثم وصف هؤلاء المحسنين فقال: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ فَهَذَا الموصول في محل نصب على أنه نعت للموصول الأول في قوله: الَّذِينَ أَحْسَبْنَاهُ وَقِيلَ بَدَلُ مِنْهُ، وَقِيلَ بَيَانُ لَهُ، وَقِيلَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَدْحِ بِإِضْمَارِ أَعْنَى، أَوْ فِي رَفْعٍ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، أَي: هم الذين يجتنبون كبائر الإثم. قرأ الجمهور:

كَبَائِرَ عَلَى الْجَمْعِ. وقرأ حمزة والكسائي والأعمش ويحيى بن وثاب كبير على الأفراد، والكبائر:

كل ذنب توعد الله عليه بالنار، أو ذم فاعله ذميا شديدا، ولأهل العلم في تحقيق الكبائر كلام طويل. وكما اختلفوا في تحقيق معناها وماهيتها اختلفوا في عددها، والفواحش: جمع فاحشة، وهي ما فحش من كبائر الذنوب كالزنا ونحوه. وقال مقاتل: كبائر الإثم كل ذنب ختم بالنار، والفواحش: كل ذنب فيه الحد. وقيل:

الكبائر: الشرك، والفواحش: الزنا، وقد قدمنا في سورة النساء ما هو أبسط من هذا وأكثر فائدة، والاستثناء بقوله: إِلَّا اللَّمَمَ منقطع «١». وأصل اللمم في اللغة ما قل وصغر، منه: ألم بالمكان قل لبثه فيه، وألم بالطعام قل أكله منه، قال المبرد: أصل اللمم أن تلم بالشئ من غير أن تركبه. يقال: ألم بكذا إذا قاربه ولم يخالطه. قال الأزهرى: العرب تستعمل الإمام في معنى الدنو والقرب، ومنه قول جرير:

(١). فى تفسير القرطبى (١٧/ ١٠٨): متصل.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٣٦ بنفسى من تجنّبه عزيزعلّى و من زيارته لمام  
و قول الآخر:

متى تأتتا تلّم بنا فى ديارنا تجد حطبا جزلا «١» و نارا تأججا

قال الزجاج: أصل اللّم و الإلمام ما يعمله الإنسان المرّة بعد المرّة، و لا يتعمق فيه، و لا يقيم عليه، يقال:

ألّمت به؛ إذا زرتّه و انصرفت عنه، و يقال: ما فعلته إلا لماما، أى: الحين بعد الحين، و منه إلمام الخيال. قال الأعشى:

ألّم خيال من قتيلة بعد ماهى حبلها من حبلنا فتصرّما

قال فى الصحاح: ألّم الرجل من اللّم و هو صغائر الذنوب، و يقال: هو مقاربه المعصية من غير واقعة، و أنشد غيره:

بزينب ألمم قبل أن يرحل الرّكب و قل إن تملينا فما ملك القلب

و قد اختلفت أقوال أهل العلم فى تفسير هذا اللّم المذكور فى الآية، فالجمهور على أنه صغائر الذنوب، و قيل: هو ما كان دون

الزنا من القبلة و الغمزة و النظرة، و قيل: هو الرجل يلم بذنوب ثم يتوب، و به قال مجاهد و الحسن و الزهري و غيرهم، و منه:

إن تغفر اللهم تغفر جمّاو أى عبد لك لا ألّمّا؟

اختار هذا القول الزجاج و النحاس. و قيل: هو ذنوب الجاهلية، فإن الله لا يؤاخذ بها فى الإسلام، و قال نفطويه: هو أن يأتى

بذنوب لم يكن له بعبادة. قال: و العرب تقول: ما تأتينا إلا إلماما، أى: فى الحين بعد الحين. قال: و لا يكون أن يلمّ و لا يفعل؛ لأن

العرب لا- تقول ألّم بنا إلا- إذا فعل، لا- إذا همّ و لم يفعل، و الراجح الأول، و جملة: إن ربك واسع المغفرة تعليل لما تضمنه

الاستثناء، أى: إن ذلك و إن خرج عن حكم المؤاخذه فليس يخلو عن كونه ذنبا يفتقر إلى مغفرة الله و يحتاج إلى رحمته، و

قيل: إنه سبحانه يغفر لمن تاب عن ذنبه. ثم ذكر سبحانه إحاطة علمه بأحوال عباده فقال: هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض

أى: خلقكم منها فى ضمن خلق أبيكم آدم. و قيل: المراد آدم فإنه خلقه من طين و إذ أنتم أجنّة أى: هو أعلم بأحوالكم وقت

كونكم أجنّة، و الأجنّة: جمع جنين هو الولد ما دام فى البطن، سمى بذلك لاجتنانه، أى: استتاره، و لهذا قال: فى بطون أمهاتكم

فلا يسمّى من خرج عن البطن جنينا، و الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها فلا تزكوا أنفسكم أى لا تمدحوها و لا تبرئوها عن الآثام و

لا تشوا عليها، فإن ترك تركية النفس أبعد من الرياء و أقرب إلى الخشوع، و جملة: هو أعلم بمن أتقى مستأنفة مقررة

(١). «الجزل»: الكثير العظيم.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٣٧

للنهي، أى: هو أعلم بمن أتقى عقوبه الله و أخلص العمل له. قال الحسن: و قد علم سبحانه من كلّ نفس ما هى عاملة، و ما هى

صانعة، و إلى ما هى صائرة. ثم لما بين سبحانه جهالة المشركين على العمون خصّ بالذمّ بعضهم، فقال: أفرأيت الذى تولى أى:

تولى عن الخير، و أعرض عن اتباع الحق و أعطى قليلا و أكدى أى: أعطى عطاء قليلا، و أعطى شيئا قليلا، و قطع ذلك و أمسك

عنه، و أصل أكدى من الكدية و هى الصيّلابة، يقال: لمن حفر بئرا ثم بلغ فيها إلى حجر لا- يتهيا له فيه حفر: قد أكدى، ثم

استعملته العرب لمن أعطى فلم يتمّ، و لمن طلب شيئا فلم يبلغ آخره، و منه قول الحطيئة:

فأعطى قليلا ثم أكدى عطاءه و من يبذل المعروف فى الناس يحمده

قال الكسائى و أبو زيد: [أكدى الحافر و أجبل: إذا بلغ فى حفره كدية أو جبلا، فلا يمكنه أن يحفر.

و حفر فأكدى: إذا بلغ إلى الصّلب «١». و يقال: كديت أصابعه: إذا محلت «٢» من الحفر، و كديت يده: إذا كلت فلم تعمل شيئا،

و كدت الأرض: إذا قلّ نباتها، و أكديت الرجل عن الشيء رددته، و أكدي الرجل: إذا قلّ خيره. قال الفراء: معنى الآية: أمسك من العطيّة و قطع. و قال المبرد: منعه منعاً شديداً.

قال مجاهد و ابن زيد و مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، و كان قد اتبع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ على دينه، فعيره بعض المشركين فترك و رجع إلى شركه. قال مقاتل: كان الوليد مدح القرآن، ثم أمسك عنه فأعطى قليلاً من لسانه من الخير ثم قطعه. و قال الضحاك: نزلت في النضر بن الحارث. و قال محمد بن كعب القرظي: نزلت في أبي جهل. أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى الاسْتِفْهَامَ لِلتَّقْرِيعِ وَ التَّوْبِيخِ، وَ الْمَعْنَى: أَعِنْدَ هَذَا الْمَكْدِيِّ عِلْمٌ مَا غَابَ عَنْهُ أَمْرُ الْعَذَابِ، فَهُوَ يَعْلَمُ ذَلِكَ أَمْ لَمْ يُبَيَّنْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى أَى: أَلَمْ يَخْبِرْ وَ لَمْ يَحْدِثْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى؟ يَعْنِي أَسْفَارَهُ، وَ هِيَ التَّوْرَةُ، وَ بِمَا فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى، أَى: تَمَّ وَ أَكْمَلَ مَا أَمْرَ بِهِ. قَالَ الْمَفْسُورُونَ: أَى: بَلَغَ قَوْمَهُ مَا أَمْرَ بِهِ وَ أَدَّاهُ إِلَيْهِمْ، وَ قِيلَ: بِالْبَلْغِ فِي الْوَفَاءِ بِمَا عَاهَدَ اللهُ عَلَيْهِ. ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ مَا فِي صُحُفِهِمَا فَقَالَ: أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى أَى: لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ حَامِلَةً حَمْلَ نَفْسٍ أُخْرَى، وَ مَعْنَاهُ: لَا تَتَّخِذْ نَفْسٌ بِذَنْبِ غَيْرِهَا، وَ «أَنْ» هِيَ الْمَخْفِضَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَ اسْمُهَا ضَمِيرٌ شَأْنٌ مَقْدَرٌ، وَ خَبَرُهَا الْجُمْلَةُ بَعْدَهَا، وَ مَحَلُّ الْجُمْلَةِ الْجَزْرُ عَلَى أَنَّهَا بَدَلٌ مِنْ صُحُفِ مُوسَى وَ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ، أَوْ الرَّفْعُ عَلَى أَنَّهَا خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، وَ قَدْ مَضَى تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَ أَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: أَلَّا تَزِرُ وَ هَذَا أَيْضاً مِمَّا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَ الْمَعْنَى: لَيْسَ لَهُ إِلَّا أَجْرُ سَعْيِهِ وَ جِزَاءُ عَمَلِهِ، وَ لَا يَنْفَعُ أَحَدًا عَمَلُ أَحَدٍ، وَ هَذَا الْعَمُومُ مَخْصُوصٌ بِمِثْلِ قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ «٣»، وَ بِمِثْلِ مَا وَرَدَ فِي شَفَاعَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمَلَائِكَةِ لِلْعِبَادِ وَ مَشْرُوعِيَّةِ دَعَاءِ الْأَحْيَاءِ لِلْأَمْوَاتِ وَ نَحْوِ ذَلِكَ،

(١). من تفسير القرطبي (١١٢ / ١١)

(٢). في تفسير القرطبي: كَلَّتْ.

(٣). الطور: ٢١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٣٨

و لم يصب من قال: إن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور، فإن الخاص لا ينسخ العام، بل يخصه، فكل ما قام الدليل على أن الإنسان ينتفع به و هو من غير سعيه كان مخصصاً لما في هذه الآية من العموم. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى أَى: يَعْرَضُ عَلَيْهِ وَ يَكْشِفُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يُجْزَاهُ أَى: يَجْزِي الْإِنْسَانَ سَعْيَهُ، يُقَالُ: جَزَاهُ اللهُ بِعَمَلِهِ وَ جَزَاهُ عَلَى عَمَلِهِ، فَالضَّمِيرُ الْمَرْفُوعُ عَائِدٌ إِلَى الْإِنْسَانِ وَ الْمَنْصُوبُ إِلَى سَعْيِهِ. وَ قِيلَ:

إن الضمير المنصوب راجع إلى الجزاء المتأخر و هو قوله: الجزاء الأوفى فيكون الضمير راجعاً إلى متأخر عنه هو مفسر له، و يجوز أن يكون الضمير المنصوب راجعاً إلى الجزاء الذي هو مصدر يجزاه، و يجعل الجزاء الأوفى تفسيراً للجزاء المدلول عليه بالفعل، كما في قوله: اغْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ «١» قال الأخفش: يقال: جزيته الجزاء «٢» و جزيته بالجزاء سواء لا- فرق بينهما وَ أَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى أَى: الْمَرْجِعُ وَ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ لَا إِلَى غَيْرِهِ فَيَجْزِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ قَالَ: الْكَبَائِرُ:

ما سَمِيَ اللهُ فِيهِ النَّارَ، وَ الْفَوَاحِشُ: مَا كَانَ فِيهِ حَدُّ الدُّنْيَا. وَ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَ مُسْلِمٌ وَ غَيْرُهُمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حِظَّهُ مِنَ الزَّانَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مُحَالَةً، فَزَنَا الْعَيْنَ النَّظْرَ، وَ زَنَا اللِّسَانَ النَّطْقَ، وَ النَّفْسَ تَمَنَّى وَ تَشْتَهَى، وَ الْفَرْجَ يَصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يَكْذِبُهُ». وَ أَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَ عَبْدُ بَنٍ حَمِيدٌ وَ ابْنُ جَرِيرٌ وَ ابْنُ الْمُنْذِرُ، وَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ، وَ الْبَيْهَقِيُّ، فِي الشَّعْبِ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: إِلَّا اللَّمَمَ قَالَ: زَنَا



العينين: النظر، وزنا الشفتين:

التقيل، وزنا الديدن: البطش، وزنا الرجلين: المشى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه، فإن تقدم بفرجه كان زانيا، وإلا فهو اللمم. وأخرج مسدد وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنه سئل عن قوله: **إِلَّا اللَّمَمَ** قال: هي النظرة والغمزة والقبلة والمباشرة، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل، وهو الزنا.

وأخرج سعيد بن منصور، والترمذي وصححه، والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس قال في قوله: **إِلَّا اللَّمَمَ** هو الرجل يلثم بالفاحشة ثم يتوب منها. قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرَ جَمَاوِ أَيِّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلْمَا؟

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله: **إِلَّا اللَّمَمَ** يقول: إلا ما قد سلف. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن أبي هريرة في قوله: **إِلَّا اللَّمَمَ** قال:

اللمة: من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللمة: من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود، فذلك الإلمام. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس قال: اللمم كل شيء بين الحدين حد الدنيا وحد الآخرة يكفره الصلاة، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا؛ وأما حد الآخرة فكل شيء

(١). المائدة: ٨.

(٢). من تفسير القرطبي (١١٥ / ١٧)

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٣٩

ختمه الله بالنار وأخر عقوبته إلى الآخرة. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا: هو صدق، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «كذبت يهود ما من نسمة يخلقها في بطن أمها إلا أنه شقي أو سعيد، فأنزل الله عند ذلك هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض الآية كلها». وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود عن زينب بنت أبي سلمة أنها سميت برة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم، سموها زينب». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **وَ أَعْطَى قَلِيلًا وَ أَكْثَدَى** قال: قطع، نزلت في العاص بن وائل. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال: أطاع قليلا ثم انقطع. وأخرج سعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه، والشيرازي في الألقاب، والديلمي، قال السيوطي: بسند ضعيف، عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أتدرون ما قوله: **وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: وفي عمل يومه بأربع ركعات كان يصلين، وزعم أنها صلاة الضحى» وفي إسناده جعفر بن الزبير، وهو ضعيف. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس قال: سهام الإسلام ثلاثون سهما لم يتمها أحد قبل إبراهيم عليه السلام قال الله: **وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى** وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: يقول إبراهيم الذي استكمل الطاعة فيما فعل بآبائه حين رأى الرؤيا، والذي في صحف موسى. **أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** إلى آخر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن سهل بن معاذ ابن أنس عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وفى؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: **فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ** إلى آخر الآية» وفي إسناده ابن لهيعة. وأخرج عبد بن حميد، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس. قال: لما نزلت: **وَ النَّجْمِ فَبَلِّغْ وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى** قال: وفي **أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** إلى قوله: **مِنْ**

## التُّذْرِ الْأُولَى

و أخرج أبو داود و النحاس كلاهما فى الناسخ، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عنه قال: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ «١»، فأدخل الله الأبناء الجنة بصلاح الآباء. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا قرأ: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَ أَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى استرجع و استكان. و أخرج الدارقطني فى الأفراد، و البغوى فى تفسيره، عن أبي بن كعب عن النبى صلى الله عليه و سلم فى قوله: وَ أَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى قال: «لا فكرة فى الرب» «٢».

## [سورة النجم (٥٣): الآيات ٤٣ الى ٦٢]

وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَكَ وَ أَبْكَى (٤٣) وَ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَ أَحْيَا (٤٤) وَ أَنَّهُ خَلَقَ الرَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧) وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَ أَقْنَى (٤٨) وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى (٤٩) وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَ تَمُودَ فَمَا أَبْقَى (٥١) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغَى (٥٢) وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤) فَبِأَى آلٍ رَبَّكَ تَتَمَارَى (٥٥) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ التُّذْرِ الْأُولَى (٥٦) أَرْفَتِ الْأَرْفَةَ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَ تَضَحَّكُونَ وَ لَا تَتَّبِعُونَ (٦٠) وَ أَنْتُمْ سَامِتُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا (٦٢)

(١). الطور: ٢١.

(٢). أى لا تحيط به الفكرة. [تفسير البغوى: ٢٥٥ / ٤].

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٤٠

قوله: وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَكَ وَ أَبْكَى أى: هو الخالق لذلك و القاضى بسببه. قال الحسن و الكلبي:

أضحك أهل الجنة فى الجنة، و أبكى أهل النار فى النار. و قال الضحاك: أضحك الأرض بالنبات، و أبكى السماء بالمطر، و قيل: أضحك من شاء فى الدنيا بأن سره، و أبكى من شاء بأن غمه. و قال سهل بن عبد الله:

أضحك المطيعين بالرحمة، و أبكى العاصين بالسخط وَ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَ أَحْيَا أى: قضى أسباب الموت و الحياة، و لا يقدر على ذلك غيره، و قيل: خلق نفس الموت و الحياة، كما فى قوله: خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيَاةَ «١» و قيل: أمات الآباء و أحيا الأبناء، و قيل:

أمات فى الدنيا و أحيا للبعث و قيل: المراد بهما النوم و اليقظة. و قال عطاء: أمات بعدله و أحيا بفضله، و قيل: أمات الكافر و أحيا المؤمن، كما فى قوله: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ «٢» وَ أَنَّهُ خَلَقَ الرَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى المراد بالزوجين الذكر و الأنثى من كل حيوان، و لا يدخل فى ذلك آدم و حواء فإنهما لم يخلقا من النطفة، و النطفة: الماء القليل، و معنى: إِذَا تُمْنَى إِذَا تَصَبَّ فى الرحم و تدفق فيه، كذا قال الكلبي و الضحاك و عطاء بن أبى رباح و غيرهم، يقال: منى الرجل و أمنى، أى:

صب المنى. و قال أبو عبيدة إِذَا تُمْنَى إِذَا تَقَدَّرَ، يقال:

منيت الشيء: إِذَا قَدَّرْتَهُ، و منى له أى: قَدَّرَ له، و منه قول الشاعر «٣»:

حَتَّى تَلْقَى مَا يَمْنَى لَكَ الْمَانَى «٤» و المعنى: أنه يقدر منها الولد. وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى أى: إعادة الأرواح إلى الأجسام عند

البعث وفاء بوعده. قرأ الجمهور: النَّشَأُ بالقصر بوزن الضربة، وقرأ ابن كثير و أبو عمرو بالمدّ بوزن الكفالة، و هما على القراءتين مصدران وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَ أَقْنَى أى: أغنى من شاء و أفقر من شاء، و مثله قوله: يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ\* «٥» و قوله: يَقْبِضُ وَ يَقْبِضُ «٦» قاله ابن زيد، و اختاره ابن جرير، و قال مجاهد و قتادة و الحسن: أغنى: مؤل، و أقنى: أخدم، و قيل: معنى أقنى: أعطى القني، و هى ما يتأثّل من الأموال. و قيل: معنى أقنى: أرضى بما أعطى، أى: أغناه، ثم رضاه بما أعطاه. قال الجوهري: قنى الرجل قنى، مثل غنى غنى، أى: أعطاه ما يقتنى، و أقناه: أرضاه، و القنى: الرضا. قال أبو زيد: تقول

(١). الملك: ٢.

(٢). الأنعام: ١٢٢.

(٣). هو أبو قلابه الهذلى.

(٤). و صدره: و لا تقولن لشيء سوف أفعله.

(٥). الرعد: ٢٦.

(٦). البقرة: ٢٤٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٤١

العرب من أعطى مائة من البقر فقد أعطى القنى، و من أعطى مائة من الضأن فقد أعطى الغنى، و من أعطى مائة من الإبل فقد أعطى المنى. قال الأَخفش و ابن كيسان: أقنى: أفقر، و هو يؤيد القول الأوّل وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى هى كوكب خلف الجوزاء كانت خزاعة تعبدها، و المراد بها الشعرى التى يقال لها العبور، و هى أشدّ ضياء من الشعرى التى يقال لها الغميصاء. و إنما ذكر سبحانه أنه ربّ الشعرى مع كونه ربا لكلّ الأشياء للردّ على من كان يعبدها، و أوّل من عبدها أبو كبشة، و كان من أشرف العرب، و كانت قريش تقول لرسول الله صلّى الله عليه و سلّم ابن أبى كبشة تشبيها له به لمخالفته دينهم كما خالفهم أبو كبشة، و من ذلك قول أبى سفيان يوم الفتح: لقد أمر أمر ابن أبى كبشة: وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى وصف عاداً بالأولى لكونهم كانوا من قبل ثمود. قال ابن زيد: قيل لها عاداً الأولى، لأنهم أوّل أمة أهلكت بعد نوح. و قال ابن إسحاق: هما عادان، فالأولى أهلكت بالضرصر، و الأخرى أهلكت بالصيحة. و قيل: عاد الأولى قوم هود و عاد الأخرى إرم.

قرأ الجمهور: عاداً الأولى بالتنوين و الهمز، و قرأ نافع و ابن كثير و ابن محيصن بنقل حركة الهمزة على اللام و إدغام التنوين فيها وَ ثَمُودَ فَمَا أَبْقَى أى: و أهلك ثمودا كما أهلك عاداً، فما أبقي من الفريقين، و ثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة، و قد تقدّم الكلام على عاد و ثمود فى غير موضع وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ أَى:

و أهلك قوم نوح من قبل إهلاك عاد و ثمود إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغَى أى: أظلم من عاد و ثمود و أطغى منهم، أو أظلم و أطغى من جميع الفرق الكفريّة، أو أظلم و أطغى من مشركى العرب، و إنما كانوا كذلك لأنهم عتوا على الله بالمعاصى مع طول مدة دعوة نوح لهم، كما فى قوله: فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سِنِينَ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً «١» وَ الْمُؤْتَفِكَاهُ أهوى الائتفاك: الانقلاب، و المؤتفكة: مدائن قوم لوط، و سميت المؤتفكة.

لأنها انقلبت بهم و صار عاليها سافلها، تقول: أفكته إذا قلبته، و معنى أهوى: أسقط، أى: أهواها جبريل بعد أن رفعها. قال المبرد: جعلها تهوى فَعَشَّاهَا ما عَشَّى أى: ألبسها ما ألبسها من الحجارة التى وقعت عليها، كما فى قوله: فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَ أَمَطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ «٢» و فى هذه العبارة تهويل للأمر الذى غشاها به و تعظيم له، و قيل: إن الضمير راجع إلى جميع الأمم المذكورة، أى: فَعَشَّاهَا من العذاب ما عَشَّى على اختلاف أنواعه فَبَأَى آلاءِ رَبِّكَ تَمَارَى هذا خطاب للإنسان المكذب، أى:

فبأى نعم ربك أيها الإنسان المكذب تشكك و تمترى، و قيل: الخطاب لرسول الله صلى الله عليه و سلم تعريضا لغيره، و قيل: لكل من يصلح له، و إسناد فعل التمارى إلى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه، و سمي هذه الأمور المذكورة آلاء، أى: نعماً مع كون بعضها نقماً لا نعماً، لأنها مشتملة على العبر و المواعظ، و لكون فيها انتقام من العصاة، و فى ذلك نصرة للأنبياء و الصالحين. قرأ الجمهور: تَمَارَى من غير إدغام، و قرأ يعقوب و ابن محيصن بإدغام إحدى التاءين فى الأخرى هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى أى: هذا محمد رسول إليكم من الرسل المتقدمين قبله فإنه أنذركم كما أنذروا قومهم، كذا قال ابن جريج و محمد بن كعب و غيرهما. و قال

(١). العنكبوت: ١٤.

(٢). الحجر: ٧٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٤٢

قتادة: يريد القرآن، و أنه أنذر بما أنذرت به الكتب الأولى، و قيل: هذا الذى أخبرنا به عن أخبار الأمم تخويف لهذه الأمة أن ينزل بهم ما نزل بأولئك، كذا قال أبو مالك. و قال أبو صالح: إن الإشارة بقوله: هذا إلى ما فى صحف موسى و إبراهيم، و الأول أولى أَرْفَتِ الأَرْفَةُ أى: قربت الساعة و دنت، سمّاها آَرْفَةً لقرب قيامها، و قيل: لدنوّها من الناس، كما فى قوله: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ «١» أخبرهم بذلك ليستعدّوا لها.

قال فى الصحاح: أَرْفَتِ الأَرْفَةُ: يعنى القيامة، و أَرْفَ الرجل عَجَلَ، و منه قول الشاعر:

أَرْفَ التَّرْحَلَ غيرَ أنْ رُكَابِنَالِمَا تَزَلُ بِرَحَالِنَا وَ كَأَنَّ قَد

وَ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ أى: ليس لها نفس قادرة على كشفها عند وقوعها إلا الله سبحانه، و قيل: كاشفة بمعنى انكشاف، و الهاء فيها كالهاء فى العاقبة و الداهية، و قيل: كاشفة بمعنى كاشف، و الهاء للمبالغة كرواية، و الأول أولى، و كاشفة صفة لموصوف محذوف كما ذكرنا، و المعنى: أنه لا يقدر على كشفها إذا غشت الخلق بشدائدها و أهوالها أحد غير الله، كذا قال عطاء و الضحّاك و قتادة و غيرهم. ثم وبّخهم سبحانه فقال: أَمْ مِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ المراد بالحديث القرآن، أى: كيف تعجبون منه تكديبا و تضحكون منه استهزاء مع كونه غير محلّ للتكذيب و لا موضع للاستهزاء و لا تَبْكُونَ خوفا و انزجارا لما فيه من الوعيد الشديد، و جملة: وَ أَنْتُمْ سَامِدُونَ فى محل نصب على الحال، و يجوز أن تكون مستأنفة لتقرير ما فيها، و السمود: الغفلة و السهو عن الشيء. و قال فى الصحاح: سمد سمودا رفع رأسه تكبرا، فهو سآمد، قال الشاعر «٢»:

سوامد الليل خفاف الأزواد و قال ابن الأعرابي: السيمود: اللهو، و السآمد: اللاهى، يقال للقينة: أسمدينا، أى: ألهيها بالغناء، و قال المبرد: سآمدون: خامدون. قال الشاعر:

رمى الحدّان نسوّة آل عمرو بمقدار سمدن له سمودا

فردّ شعورهنّ السّود بيضاو ردّ وجوههنّ البيض سودا

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا لِمَا وَبَّخَ سبحانه المشركين على الاستهزاء بالقرآن و الضحك منه و السخرية به و عدم الانتفاع بمواعظه و زواجه؛ أمر عباده المؤمنين بالسّجود لله و العبادة له، و الفاء جواب شرط محذوف، أى: إذا كان الأمر من الكفار كذلك، فاسجدوا لله و اعبدوا، فإنه المستحقّ لذلك منكم، و قد تقدم فى فاتحة السورة أن النبى صلى الله عليه و سلم سجد عند تلاوة هذه الآية، و سجد معه الكفار، فيكون المراد بها سجود التلاوة، و قيل: سجود الفرض.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ أَنَّهُ هُوَ أَعْنَى وَ أَقْنَى قال: أعطى

(١). القمر: ١.

(٢). هو رؤية بن العجاج.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٤٣

و أَرْضَى. و أخرج ابن جرير عنه وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى قَالَ: هُوَ الْكَوْكَبُ الَّذِي يَدْعَى الشَّعْرَى.

و أخرج الفاكهي عنه أيضا قال: نزلت هذه الآية في خزاعه، و كانوا يعبدون الشَّعْرَى، و هو الكوكب الذي يتبع الجوزاء. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا في قوله: هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذْرِ الْأُولَى قَالَ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الْأَزْفَةُ مِنَ أَسْمَاءِ الْقِيَامَةِ. و أخرج ابن أبي شيبة، و أحمد في الزهد، و هناد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن صالح أبي الخليل قال: لما نزلت هذه الآية أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ - وَ تَضْحَكُونَ وَ لَا تَبْكُونَ فما ضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك إلا أن يتبسم. و لفظ عبد بن حميد:

فما رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضاحكا و لا متبسما حتى ذهب من الدنيا. و أخرج عبد الرزاق و الفريابي و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: سَامِدُونَ قَالَ:

لَاهُونَ مَعْرُضُونَ عَنْهُ. و أخرج الفريابي، و أبو عبيد في فضائله، و عبد بن حميد، و ابن أبي الدنيا في ذم الملاحى، و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و البيهقي في سننه، عنه: وَ أَنْتُمْ سَامِدُونَ قَالَ: الْغَنَاءُ بِالْيَمَانِيَّةِ، كَانُوا إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَغَنَّوْا لِعِبَا. و أخرج الفريابي و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عنه أيضا في قوله: سَامِدُونَ قَالَ: كَانُوا يَمْرُونَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَامِخِينَ، أَلَمْ تَرِ إِلَى الْبَعِيرِ كَيْفَ يَخْطُرُ شَامِخًا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير عن أبي خالد الوالبي قال: خرج علي بن أبي طالب علينا و قد أقيمت الصلاة و نحن قيام ننتظره ليتقدم، فقال: مالكم سَامِدُونَ؟ لا أنتم في صلاة، و لا أنتم في جلوس تنتظرون؟

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٤٤

## سورة القمر

### إشارة

و يقال سورة اقتربت، و هى خمس و خمسون آية و هى مكية كلها فى قول الجمهور. و قال مقاتل: هى مكية إلا ثلاث آيات من قوله: أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ إِلَى قَوْلِهِ: وَ السَّاعَةُ أَدْهَى وَ أَمْرٌ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَ لَا يَصَحُّ. و أخرج ابن الضريس و ابن مردويه و النحاس، و البيهقي فى الدلائل، عن ابن عباس:

أنها نزلت بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البيهقي فى الشعب، عن ابن عباس قال:

«اقتربت» تدعى فى التوراة المبيضة؛ تبيض وجه صاحبها يوم تبيض الوجوه. قال البيهقي: منكر. و أخرج ابن الضريس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، رفعه: «من قرأ اقتربت الساعة فى كل ليلتين بعثه الله يوم القيامة و وجهه كالقمر ليله البدر». و أخرج ابن الضريس نحوه عن ليث بن معن عن شيخ من همدان رفعه، و قد تقدم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ بقاف و اقتربت الساعة فى الأضحى و الفطر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤)

حِكْمَةٌ بِالْعِغَّةِ فَمَا تُغْنِ النُّذُرَ (٥) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ (٦) خُشِعَ أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّتَسَرِّبٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَا عَلَى ذَاتِ أَلْوَابٍ وَدُسرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤)

وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ (١٦) وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٧)

قوله: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ أى: قربت ولا شك أنها قد صارت، فاعتبار نسبة ما بقى بعد قيام النبوة المحمدية إلى ما مضى من الدنيا قريبة. ويمكن أن يقال: إنها لما كانت متحققه الوقوع لا محالة كانت قريبة، فكل آت قريب وانشق القمر أى: وقد انشق القمر، وكذا قرأ حذيفة بزيادة قد، والمراد:

الانشقاق الواقع فى أيام النبوة معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، و إلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف. قال الواحدى: وجماعة المفسرين على هذا إلا ما روى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: المعنى سينشق القمر، والعلماء كلهم على خلافه. قال: وإنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر؛ لأن انشقاقه من علامات نبوة محمد

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٤٥

صلى الله عليه وسلم ونبوته وزمانه من أشراط اقتراب الساعة. قال ابن كيسان: فى الكلام تقديم وتأخير، أى: انشق القمر و اقتربت الساعة. وحكى القرطبى عن الحسن مثل قول عطاء: أنه الانشقاق الكائن يوم القيامة. وقيل: معنى وانشق القمر: وضح الأمر وظهر، والعرب تضرب بالقمر المثل فيما وضح. وقيل: انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه، وطلوعه فى أثنائها، كما يسمّى الصبح فلما لانفلاق الظلمة عنه. قال ابن كثير: قد كان الانشقاق فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت ذلك فى الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. قال: وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات. قال الزجاج، زعم قوم عندوا عن القصد وما عليه أهل العلم أن تأويله: أن القمر ينشق يوم القيامة، والأمر بين فى اللفظ وإجماع أهل العلم، لأن قوله: وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ يدل على أن هذا كان فى الدنيا لا فى القيامة. انتهى. ولم يأت من خالف الجمهور وقال: إن الانشقاق سيكون يوم القيامة؛ إلا بمجرد استبعاد، فقال: لأنه لو انشق فى زمن النبوة لم يبق أحد إلا رآه لأنه آية، والناس فى الآيات سواء. ويجاب عنه بأنه لا يلزم أن يراه كل أحد لا عقلا ولا شرعا ولا عادة، ومع هذا فقد نقل إلينا بطريق التواتر، وهذا بمجرد يدفع الاستبعاد ويضرب به فى وجه قائله.

والحاصل أنا إذا نظرنا إلى كتاب الله، فقد أخبرنا بأنه انشق، ولم يخبرنا بأنه سينشق، وإن نظرنا إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ثبت فى الصحيح وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك فى أيام النبوة، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم فقد اتفقوا على هذا، ولا يلتفت إلى شذوذ من شذ، واستبعاد من استبعد، وسيأتى ذكر بعض ما ورد فى ذلك إن شاء الله وإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ قال الواحدى: قال المفسرون: لما انشق القمر قال المشركون: سحرنا محمد، فقال الله: وَإِنْ

يَرَوْا آيَةً يَعْنِي انشقاق القمر يعرضوا عن التصديق والإيمان بها، و يقولوا: سحر قوى شديد يعلو كل سحر، من قولهم: استمرّ الشيء؛ إذا قوى و استحكم، و قد قال بأن معنى مستمرّ: قوى شديد؛ جماعة من أهل العلم. قال الأخفش: هو مأخوذ من إمرار الحبل، و هو شدّة فتله، و به قال أبو العالیه و الضحاك، و اختاره النحاس، و منه قول لقيط:

حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شِزْرِ مَرِيرَتِهِ صَدَقَ الْعَزِيمَةُ لَا رَتَا وَ لَا ضَرَعَا (١)

و قال الفراء و الكسائي و أبو عبيدة سَحَرٌ مُسْتَمِرٌّ أَيْ: ذَاهِبٌ، مِنْ قَوْلِهِمْ: مَرَّ الشَّيْءُ وَ اسْتَمَرَ؛ إِذَا ذَهَبَ، وَ بِهِ قَالَ قَتَادَةُ وَ مُجَاهِدٌ وَ غَيْرُهُمَا، وَ اخْتَارَهُ النَّحَّاسُ. وَ قِيلَ: مَعْنَى مُسْتَمِرٍّ: دَائِمٌ مُطْرَدٌ، وَ مِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ (٢):

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا لِيَالٍ وَ أَعْصَرُو لَيْسَ عَلَى شَيْءٍ قَوِيمٌ بِمُسْتَمِرِّ

(١). «الرتة»: ردّة قبيحة في اللسان من العيب. «الضرع» اللين الذليل.

(٢). هو امرؤ القيس.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٤٦

أى: بدائم باق، و قيل: مستمرّ: باطل، روى هذا عن أبى عبيدة أيضا. و قيل: يشبه بعضه بعضا، و قيل: قد مرّ من الأرض إلى السماء، و قيل: هو من المرارة، يقال: مرّ الشيء صار مرّا، أى: مستبشع عندهم. و فى هذه الآية أعظم دليل على أن الانشقاق قد كان كما قرّرناه سابقا. ثم ذكر سبحانه تكذيبهم فقال:

وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ أَيْ: وَ كَذَّبُوا رَسُولَ اللَّهِ، وَ مَا عَانُوا مِنْ قَدْرَةِ اللَّهِ، وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَ مَا زَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ، وَ جَمَلُهُ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ مُسْتَأْنَفٌ لِتَقْرِيرِ بَطْلَانِ مَا قَالُوهُ مِنَ التَّكْذِيبِ وَ اتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ، أَيْ: وَ كُلُّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ مَنْتَهَى إِلَى غَايَةٍ، فَالْخَيْرُ يَسْتَقَرُّ بِأَهْلِ الْخَيْرِ، وَ الشَّرُّ يَسْتَقَرُّ بِأَهْلِ الشَّرِّ. قَالَ الْفَرَّاءُ: يَقُولُ: يَسْتَقَرُّ قَرَارٌ تَكْذِيبُهُمْ وَ قَرَارٌ قَوْلُ الْمُصَدِّقِينَ حَتَّى يَعْرِفُوا حَقِيقَتَهُ بِالثَّوَابِ وَ الْعِقَابِ. قَالَ الْكَلْبِيُّ:

المعنى لكل أمر حقيقة ما كان منه فى الدنيا فسيظهر، و ما كان منه فى الآخرة فسيعرف. قرأ الجمهور:

مُسْتَقَرٌّ بِكَسْرِ الْقَافِ، وَ هُوَ مَرْتَفِعٌ عَلَى أَنَّهُ خَيْرٌ مَبْتَدَأٌ وَ هُوَ «كَلٌّ». وَ قَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ وَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بِجَرٍّ مُسْتَقَرٌّ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِأَمْرٍ، وَ قَرَأَ شَيْبَةُ بِفَتْحِ الْقَافِ، وَ رُوِيَ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ عَنْ نَافِعٍ. قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:

و لا وجه لها، و قيل: لها وجه بتقدير مضاف محذوف، أى: و كلّ أمر ذو استقرار، أو زمان استقرار، أو مكان استقرار، على أنه مصدر، أو ظرف زمان، أو ظرف مكان وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌّ أَيْ: وَ لَقَدْ جَاءَ كُفْرًا مَكَّةَ، أَوْ الْكُفْرَ عَلَى الْعَمُومِ مِنَ الْأَنْبَاءِ، وَ هِيَ أَخْبَارُ الْأُمَمِ الْمَكْدُوبَةُ الْمَقْصُوصَةُ عَلَيْنَا فِي الْقُرْآنِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌّ أَيْ: ازْدَجَارَ عَلَى أَنَّهُ مُصَدَّرٌ مِمِّيٌّ، يُقَالُ: زَجَرْتَهُ إِذَا نَهَيْتَهُ عَنِ السُّوءِ وَ وَعَظْتَهُ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْمَ مَكَانٍ، وَ الْمَعْنَى: جَاءَهُمْ مَا فِيهِ مَوْضِعٌ ازْدَجَارَ، أَيْ: إِنَّهُ فِي نَفْسِهِ مَوْضِعٌ لِذَلِكَ، وَ أَصْلُهُ مَزْتَجَرٌ، وَ تَاءُ الْاِفْتِعَالِ تَقْلِبُ دَالًا مَعَ الزَايِ وَ الدَّالِ وَ الذَّالِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ، وَ قَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ مَزْجَرَ بِقَلْبِ تَاءِ الْاِفْتِعَالِ زَايَا وَ إِدْغَامِ الزَايِ فِي الزَايِ، وَ «مِنْ» فِي قَوْلِهِ: مِنَ الْأَنْبَاءِ لِلتَّبْعِيضِ، وَ هِيَ وَ مَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ فِي مَحَلِّ نَصْبِ عَلَى الْحَالِ، وَ اِرْتِفَاعِ حِكْمِيَّةً بِالِغَمَّةِ عَلَى أَنَّهَا خَيْرٌ مَبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، أَوْ بَدَلٌ مِنْ «مَا»، بَدَلٌ كُلِّ مِنْ كُلِّ، أَوْ بَدَلٌ اِسْتِمَالًا، وَ الْمَعْنَى: إِنَّ الْقُرْآنَ حِكْمَةٌ قَدْ بَلَغَتْ الْغَايَةَ، لَيْسَ فِيهَا نَقْصٌ وَ لَا خَلَلٌ، وَ قُرِئَ بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهَا حَالٌ مِنْ «مَا»، أَيْ: حَالٌ كَوْنٌ مَا فِيهِ مَزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بِالِغَمَّةِ فَمَا تُغْنِي النَّذْرُ «مَا» يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ اسْتِفْهَامِيَّةً وَ أَنْ تَكُونَ نَافِيَّةً، أَيْ: أَيْ شَيْءٍ تُغْنِي النَّذْرُ؟ أَوْ: لَمْ تُغْنِ النَّذْرُ شَيْئًا، وَ الْفَاءُ لِتَرْتِيبِ عَدَمِ الْإِغْنَاءِ عَلَى مَجِيءِ الْحِكْمَةِ بِالِغَمَّةِ، وَ النَّذْرُ جَمْعُ نَذِيرٍ بِمَعْنَى الْمُنْذِرِ، أَوْ بِمَعْنَى الْإِنْذَارِ عَلَى أَنَّهُ مُصَدَّرٌ. ثُمَّ أَمْرُهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ فَقَالَ: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ أَيْ: أَعْرَضَ عَنْهُمْ حَيْثُ لَمْ يُوَثِّرْ فِيهِمُ الْإِنْذَارَ، وَ هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السِّيفِ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ

إلى شئٍ نُكِرَ انتصاب الظرف إما بفعل مقدر، أى: اذكر، وإما يخرجون المذكور بعده، وإما بقوله: فَمَا تُغْنِ وَيَكُونُ قَوْلُهُ: فَتَوَلَّى عَنْهُمْ اعْتِرَاضًا، أو بقوله: يَقُولُ الْكَافِرُونَ أو بقوله: خُشِعًا وَسَقَطَتِ الْوَاوُ مِنْ يَدَعِ اتِّبَاعًا لِلْفِطْرِ، وَقَدْ وَقَعَتْ فِي الرَّسْمِ هَكَذَا وَحُذِفَتِ الْيَاءُ مِنَ الدَّاعِ لِلتَّخْفِيفِ وَاكْتِفَاءً بِالْكَسْرَةِ، وَالدَّاعِ هُوَ إِسْرَافِيلُ، وَالشَّيْءُ النُّكْرُ: الْأَمْرُ الْفِطْرِيُّ الَّذِي يَنْكُرُونَهُ اسْتِعْظَامًا لَهُ لِعَدَمِ تَقَدُّمِ الْعَهْدِ لَهُمْ بِمِثْلِهِ. قَرَأَ الْجُمْهُورُ بِضَمِّ الْكَافِ.

وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ بِسُكُونِهَا تَخْفِيفًا. وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ بِكَسْرِ الْكَافِ وَفَتْحِ الرَّاءِ عَلَى صِيغَةِ الْفِعْلِ الْمَجْهُولِ

فَتْحِ الْقَدِيرِ، ج ٥، ص: ١٤٧

خُشِعًا أَبْصَارُهُمْ قَرَأَ الْجُمْهُورُ: خُشِعًا جَمْعُ خَاشِعٍ. وَقَرَأَ حَمَزَةُ وَالكَسَائِي وَ أَبُو عَمْرٍو خَاشِعًا عَلَى الْإِفْرَادِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ «١»:  
و شَبَابٌ حَسَنٌ أَوْجِهَهُمْ مِنْ إِيَادِ بْنِ نَزَارِ بْنِ مَعْدٍ

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ خَاشِعَةً قَالَ الْفَرَاءُ: الصِّفَةُ إِذَا تَقَدَّمَتْ عَلَى الْجَمَاعَةِ جَازَ فِيهَا التَّذْكِيرُ وَالتَّنْثِيثُ وَالجَمْعُ، يَعْنِي جَمْعَ التَّكْسِيرِ لَا جَمْعَ السَّلَامَةِ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ فَاعِلَيْنِ، وَ مِثْلُ قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ «٢»:

وَقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطْيِهِمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَى وَ تَجَلَّدْ

وَ انْتِصَابِ «خُشِعًا» عَلَى الْحَالِ مِنْ فَاعِلٍ «يَخْرُجُونَ»، أَوْ مِنَ الضَّمِيرِ فِي «عَنْهُمْ»، وَ الْخُشُوعُ فِي الْبَصْرِ الْخُضُوعُ وَ الذَّلَّةُ، وَ أَضَافَ الْخُشُوعَ إِلَى الْأَبْصَارِ لِأَنَّ الْعِزَّ وَ الذَّلَّ يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَمَا أَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ أَيْ: يَخْرُجُونَ مِنَ الْقُبُورِ، وَ وَاحِدَ الْأَجْدَاثِ: جَدَثٌ، وَ هُوَ الْقَبْرُ، كَأَنَّهُمْ لَكثَرَتِهِمْ وَ اخْتِلَاطِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضِ جَرَادٍ مُنْتَشِرٍ، أَيْ: مُنْبَثٌّ فِي الْأَقْطَارِ، مُخْتَلِطٌ بِبَعْضِهِ بَعْضٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ الْإِهْطَاعِ:

الإِسْرَاعِ، أَيْ: قَالَ كَوْنَهُمْ مُسْرِعِينَ إِلَى الدَّاعِي، وَ هُوَ إِسْرَافِيلُ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

بِدَجَلَةٍ دَارَهُمْ وَ لَقَدْ أَرَاهُمْ بِدَجَلَةٍ مَهْطِعِينَ إِلَى السَّمَاعِ

أَيْ: مُسْرِعِينَ إِلَيْهِ. وَ قَالَ الضَّحَّاكُ: مُقْبِلِينَ. وَ قَالَ قَتَادَةُ: عَامِدِينَ. وَ قَالَ عِكْرَمَةُ: فَاتِحِينَ آذَانَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى، وَ بِهِ قَالَ أَبُو عَيْبَةَ وَ غَيْرُهُ، وَ جَمَلَةٌ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ فِي مَحَلِّ نَصَبِ عَلَى الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ «مَهْطِعِينَ»، وَ الرَّابِطُ مُقَدَّرٌ أَوْ مُسْتَأْنَفَةٌ جَوَابُ سَوْأَلِ مُقَدَّرٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَمَاذَا يَكُونُ حِينْتِذْ؟ وَ الْعَسْرُ: الصَّعْبُ الشَّدِيدُ، وَ فِي إِسْنَادِ هَذَا الْقَوْلِ إِلَى الْكُفَّارِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْيَوْمَ لَيْسَ بِشَدِيدٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ تَفْصِيلًا بَعْضُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَنْبَاءِ الْمَجْمَلَةِ فَقَالَ: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٍ أَيْ:

كَذَّبُوا نَبِيَّهُمْ، وَ فِي هَذَا تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ قَوْلُهُ: فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا تَفْسِيرٌ لِمَا قَبْلَهُ مِنَ التَّكْذِيبِ الْمُبْهَمِ، وَ فِيهِ مَزِيدٌ تَقْرِيرٌ وَ تَأْكِيدٌ، أَيْ: فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا نُوحًا، وَ قِيلَ: الْمَعْنَى: كَذَّبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الرَّسْلِ، فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا نُوحًا بِتَكْذِيبِهِمْ لِلرَّسْلِ؛ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ. ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى مَجْرَدِ التَّكْذِيبِ فَقَالَ: وَ قَالُوا مَجْنُونٌ أَيْ: نَسَبُوا نُوحًا إِلَى الْجُنُونِ، وَ قَوْلُهُ: وَ أزدَجَرَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَالُوا، أَيْ: وَ زَجَرَ عَنْ دَعْوَى النُّبُوَّةِ وَ عَنْ تَبْلِيغِ مَا أُرْسِلَ بِهِ بِأَنْوَاعِ الزَّجْرِ، وَ الدَّالُّ بَدَلٌ مِنْ تَاءِ الْإِفْتِعَالِ كَمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا، وَ قِيلَ: إِنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَجْنُونٍ، أَيْ: وَ قَالُوا إِنَّهُ أزدَجَرَ، أَيْ: أزدَجَرْتَهُ الْجَنِّ وَ ذَهَبَتْ بَلْبَهُ، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى. قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ أَخْبَرَ عَنْهُ بِأَنَّهُ انْتَهَرَ وَ زَجَرَ بِالسَّبِّ وَ أَنْوَاعِ الْأَذَى. قَالَ الرَّازِي: وَ هَذَا أَصَحُّ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ

(١). هُوَ الْحَرِثُ بْنُ دُوسِ الْإِيَادِي، وَ يَرُوي لَأَبِي دُؤَادِ الْإِيَادِي.

(٢). الْبَيْتُ لَطَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ. انظُرْ: شَرْحُ الْمَعْلَقَاتِ السَّبْعِ لِلزُّوزَنِيِّ ص (٨٨)

فَتْحِ الْقَدِيرِ، ج ٥، ص: ١٤٨

تَقْوِيَةُ قَلْبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ بِذِكْرِ مَنْ تَقَدَّمَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ أَيْ: دَعَا نُوحٌ رَبَّهُ عَلَى قَوْمِهِ بِأَنِّي مَغْلُوبٌ مِنْ



جهة قومي لتمردهم عن الطاعة و زجرهم لي عن تبليغ الرسالة، فانتصر لي، أي: انتقم لي منهم.

طلب من ربه سبحانه النصره عليهم لما آيس من إجابتهم، و علم تمردهم و عتوهم و إصرارهم على ضلالتهم.

قرأ الجمهور أني بفتح الهمزة، أي: بأني. وقرأ ابن أبي إسحاق و الأعمش بكسر الهمزة، و رويت هذه القراءة عن عاصم على

تقدير إضمار القول، أي: فقال. ثم ذكر سبحانه ما عاقبهم به فقال: فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ أَي: منصب انصبابا شديدا، و

الهمر: الصب بكثرة؛ يقال: همر الماء و الدمع يهمر همرا و همورا؛ إذا كثر، و منه قول الشاعر:

أ عيني جودا بالدموع الهوامر على خير باد من معد و حاضر

و منه قول امرئ القيس يصف غيثا:

راح تمرية الصبا ثم انتحى فيه شؤبوب جنوب منهمر «١»

قرأ الجمهور: فَفَتَحْنَا مَخْفَاً. وقرأ ابن عامر و يعقوب بالتشديد وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا أَي:

جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة، و الأصل: فججنا عيون الأرض. قرأ الجمهور: فَجَّرْنَا بالتشديد، وقرأ ابن مسعود و أبو حيوة و

عاصم في رواية عنه بالتخفيف. قال عبيد بن عمير: أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجرت بالعيون فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ

قَدْرٍ أَي: التقى ماء السماء و ماء الأرض على أمر قد قضى عليهم، أي: كائنا على حال قدرها الله و قضى بها. و حكى ابن قتيبة

أن المعنى على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر، بل كان ماء السماء و ماء الأرض على سواء. قال قتادة: قَدَّرَ لَهُمْ إِذْ كَفَرُوا أَنْ

يغرقوا.

و قرأ الجحدري: فَالْتَقَى الْمَاءُ و قرأ الحسن فَالْتَقَى الْمَاءُ و رويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب و محمد بن كعب. وَ

حَمَلْنَا عَلَى ذَاتِ أَلْوَابٍ وَ دُسِيرٍ أَي: و حملنا نوحا على سفينة ذات ألواح، و هي الأخشاب العريضة وَ دُسِيرٍ قَالَ الزَّجَّاجُ: هِيَ

المسامير التي تشدُّ بها الألواح، واحدا دسار، و كل شيء أدخل في شيء يشده فهو الدسر، و كذا قال قتادة و محمد بن كعب و

ابن زيد و سعيد بن جبير و غيرهم.

و قال الحسن و شهر بن حوشب و عكرمة: الدسر: ظهر السفينة التي يضربها الموج، سميت بذلك لأنها تدرس الماء، أي: تدفعه، و

الدسر: الدفع، و قال الليث: الدسار: خيط تشدُّ به ألواح السفينة. قال في الصحاح:

الدسار واحد الدسر، و هي خيوط تشدُّ بها ألواح السفينة، و يقال: هي المسامير تجرى بأعنيننا أي:

بمنظر و مرأى منا و حفظ لها، كما في قوله: وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْنِينَا «٢» و قيل: بأمرنا، و قيل: بوحينا، و قيل:

بالأعين النابعة من الأرض، و قيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها جزاءً لِمَنْ كَانَ كَفِرًا قَالَ الْفَرَّاءُ: فعلنا به و بهم ما

فعلنا من إنجائه و إغراقهم ثوابا لمن كفر به و جحد أمره، و هو نوح عليه السلام،

(١). «راح» عاد في الرواح. «تمرية»: تستدره. «الشؤبوب» الدفعة من المطر.

(٢). هود: ٣٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٤٩

فإنه كان لهم نعمه كفروها، فانتصاب «جزاء» على العلة، و قيل: على المصدرية بفعل مقدر، أي: جازيناهم جزاء. قرأ الجمهور:

كُفِرَ مَبْنِيَا لِلْمَفْعُولِ، و المراد به نوح. و قيل: هو الله سبحانه، فإنهم كفروا به و جحدوا نعمته. و قرأ يزيد بن رومان و قتادة و

مجاهد و حميد و عيسى «كفر» بفتح الكاف و الفاء مبنيا للفاعل، أي: جزاء و عقابا لمن كفر بالله وَ لَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً أَي: السفينة

تركها الله عبرة للمعتبرين، و قيل: المعنى: و لقد تركنا هذه الفعلة التي فعلناها بهم عبرة و موعظة فهُلْ مِنْ مُدْكِرٍ أَصْلُهُ مَذْكَرٌ،

فأبدلت التاء دالا مهملة، ثم أبدلت المعجمة مهملة لتقاربهما، وأدغمت الدال فى الذال و المعنى: هل من متعظ و معتبر يتعظ بهذه الآية و يعتبر بها فكيف كان عذابى و نُذِرَ أَى: إنذارى. قال الفراء: الإنذار و النذر مصدران، و الاستفهام للتهويل و التعجيب، أَى: كانا على كيفية هائلة عجيبة لا يحيط بها الوصف، و قيل:

نذر جمع نذير، و نذير بمعنى الإنذار، كنكير بمعنى الإنكار و لَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ أَى: سهّلناه للحفظ، و أعنا عليه من أراد حفظه، و قيل: هيأناه للتذكّر و الاعتاض فَهَلْ مِنْ مُدِّكِرٍ أَى: متعظ بمواعظه و معتبر بعبه. و فى الآية الحث على درس القرآن، و الاستكثار من تلاوته، و المسارعة فى تعلمه. و مذكر أصله مذتكر كما تقدّم قريبا.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أنس: «أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما». و روى عنه من طريق أخرى عند مسلم و الترمذى و غيرهم قال:

فنزلت اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انشَقَّ الْقَمَرُ و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن مسعود قال: «انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم فرقتين، فرقة فوق الجبل، و فرقة دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: اشهدوا» و أخرج عبد بن حميد، و الحاكم، و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عنه قال: رأيت القمر منشقا شقتين مرتين، مرة بمكة قبل أن يخرج النبى صلى الله عليه و سلم؛ شقة على أبى قبيس، و شقة على السويداء ... و ذكر أن هذا سبب نزول الآية. و أخرج أحمد و عبد بن حميد، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و أبو نعيم عنه أيضا قال: رأيت القمر و قد انشق، و أبصرت الجبل بين فرجتى القمر. و له طرق عنه. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عباس قال: انشق القمر فى زمن النبى صلى الله عليه و سلم. و له طرق عنه. و أخرج مسلم و الترمذى و غيرهما عن ابن عمر فى قوله: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انشَقَّ الْقَمَرُ قال: كان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم انشق فرقتين: فرقة من دون الجبل، و فرقة خلفه، فقال النبى صلى الله عليه و سلم، اللهم أشد، و أخرج أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن جبير بن مطعم عن أبيه فى قوله:

وَ انشَقَّ الْقَمَرُ قال: انشق القمر و نحن بمكة على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى صار فرقة على هذا الجبل و فرقة على هذا الجبل، فقال الناس: سحرنا محمد، فقال رجل: إن كان سحركم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. و أخرج ابن أبى شيبه و عبد بن حميد، و عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن مردويه و أبو نعيم عن أبى عبد الرحمن السلمى قال: «خطبنا حذيفة بن اليمان بالمداين، فحمد الله و أثنى عليه، ثم قال: اقتربت الساعة و انشق القمر، ألا و إن الساعة قد اقتربت، ألا و

إن القمر قد انشق على عهد رسول

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٥٠

فتح القدير ج ٥ ١٩٩

الله صلى الله عليه و سلم، ألا و إن الدنيا قد آذنت بفراق، اليوم المضمار و غدا السباق» و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مُهْطِعِينَ قال: ناظرين. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ قال: كثير، لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم و لا بعده إلا من السحاب، و فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماء ان. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا على ذاتِ أَلْوَا حِ وَ دُسِيرٍ قال: الألواح: ألواح السفينة، و الدسر: معاريضها التى تشد بها السفينة.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: وَ دُسِيرٍ قال: المسامير. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: الدسر: كلكل السفينة. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى عنه أيضا فى قوله: وَ لَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ قال: لولا أن الله

يسيره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلموا بكلام الله. و أخرج الديلمي عن أنس مرفوعا مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ قَالَ: هل من متذكر.

### [سورة القمر (٥٤): الآيات ١٨ الى ٤٠]

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذْرِي (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذْرِي (٢١) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢)  
كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَالٍ وَ سِجْرٍ (٢٤) أَلْقَى الذُّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اضْطَبِرْ (٢٧) وَ تَبَيَّنْهُمْ أَنَّنِ الْمَاءَ قِسْمَهُ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذْرِي (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٣٢)  
كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَ لَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَ نُذْرِي (٣٧) وَ لَقَدْ صَبَّبْهُمْ بُكْرَةً عَذَابٍ مُسْتَقِرًّا (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَ نُذْرِي (٣٩) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٤٠)

قوله: كَذَّبَتْ عَادٌ هم قوم عاد فكيف كان عذابي و نُذْرِي أي: فاسمعوا كيف كان عذابي لهم و إنذارى إياهم، و «نذر» مصدر بمعنى إنذار كما تقدم تحقيقه، و الاستفهام للتهويل و التعظيم إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا هذه الجملة مبينة لما أجمله سابقا من العذاب، و الصرصر: شدة البرد، أي: ريح شديدة البرد، و قيل: الصرصر: شدة الصوت، و قد تقدم بيانه في سورة حم السجدة في يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ أي: دائم الشؤم استمر عليهم بنحوه، و قد كانوا يتشاءمون بذلك اليوم. قال الزجاج: قيل:

في يوم الأربعاء في آخر الشهر. قرأ الجمهور: «في يوم نحس» بإضافة يوم إلى نحس مع سكون الحاء، و هو من إضافة الموصوف إلى الصفة، أو على تقدير مضاف، أي: في يوم عذاب نحس. و قرأ الحسن بتنوين يوم على أن نحس صفة له. و قرأ هارون بكسر الحاء. قال الضحاك: كان ذلك اليوم مرًا عليهم. و كذا

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٥١

حكى الكسائي عن قوم أنهم قالوا: هو من المرارة، و قيل: هو من المرّة بمعنى القوّة، أي: في يوم قوى الشؤم مستحكمة؛ كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطاق نقضه، و الظاهر أنه من الاستمرار، لا من المرارة و لا من المرّة، أي: دام عليهم العذاب فيه حتى أهلكهم، و شمل بهلاكه كبيرهم و صغيرهم، و جملة تَنْزِعُ النَّاسَ في محل نصب على أنها صفة لريحا أو حال منها و يجوز أن يكون استئنافا، أي: تقلعهم من الأرض من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها. قال مجاهد: كانت تقلعهم من الأرض فترمى بهم على رؤوسهم، فتدق أعناقهم، و تبين رؤوسهم من أجسادهم، و قيل: الناس من البيوت، و قيل: من قبورهم؛ لأنهم حفروا حفائر و دخلوها كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ الأعجاز: جمع عجز، و هو مؤخر الشيء، و المنقعر: المنقطع المنقطع من أصله، يقال: قعرت النخلة؛ إذا قلعته من أصلها حتى تسقط. شبّههم في طول قاماتهم حين صرعتهم الريح و طرحتهم على وجوههم بالنخل الساقط على الأرض التي ليست لها رؤوس، و ذلك أن الرّيح قلعته رؤوسهم أولا، ثم كبتهم على وجوههم. و تذكير منقعر مع كونه صفة لأعجاز نخل و هي مؤنثة اعتبارا باللفظ، و يجوز تأنيثه اعتبارا بالمعنى كما قال: أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ «١» قال المبرد: كل ما ورد عليك من هذا الباب إن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرا، أو إلى المعنى تأنيثا. و قيل: إن النخل و النخيل يذكر و يؤنث فكيف كان عذابي وَ نُذْرِي قد تقدم تفسيره قريبا، و كذلك قوله: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ. ثم لما ذكر سبحانه

تكذيب عاد أتبعه بتكذيب ثمود فقال: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ يجوز أن يكون جمع نذير، أى: كذبت بالرسول المرسلين إليهم، و يجوز أن يكون مصدرا بمعنى الإنذار، أى: كذبت بالإنذار الذى أُنذروا به، و إنما كان تكذبيهم لرسولهم و هو صالح تكذبا للرسول؛ لأن من كذب واحدا من الأنبياء فقد كذب سائرهم لاتفاقهم فى الدعوة إلى كليات الشرائع فقالوا أ بَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ الاستفهام للإنكار، أى: كيف نتبع بشرا كائنا من جنسنا منفردا وحده لا متابع له على ما يدعو إليه؟ قرأ الجمهور بنصب «بشرا» على الاشتغال، أى: أ نتبع بشرا واحدا؟ و قرأ أبو السَّيِّمَالِ أنه قرأ برفع: «بشرا» و نصب بالرفع على الابتداء، و واحدا صفتة، و نتبعه خبره. و روى عن أبى السَّيِّمَالِ أنه قرأ برفع: «بشرا» و نصب «واحدا» على الحال. إِنَّا إِذَا لَقِىَ ضَلَالًا أَى: إِنَّا إِذَا اتَّبَعْنَاهُ لَفِى خَطَا وَ ذَهَابٍ عَنِ الْحَقِّ وَ سِجْرِ أَى: عَذَابٍ وَ عَنَاءٍ وَ شِدَّةٍ، كَذَا قَالَ الْفَرَاءُ وَ غَيْرُهُ. وَ قَالَ أَبُو عَيْبَةَ: هُوَ جَمْعٌ سَعِيرٍ، وَ هُوَ لَهَبُ النَّارِ، وَ السَّعْرُ:

الجنون يذهب كذا و كذا لما يلتهب به من الحدّة. و قال مجاهد: «و سعرا» و بعد عن الحق. و قال السدى: فى احتراق، و قيل: المراد به هنا الجنون، من قولهم: ناقة مسعورة، أى: كأنها من شدّة نشاطها مجنونة، و منه قول الشاعر يصف ناقة:

تخال بها سعرا إذ السفر هزها ذميل و إيقاع من السير متعب  
ثم كزروا الإنكار و الاستبعاد، فقالوا: أ أَلْقَى الذُّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا أَى: كيف خصّ من بيننا بالوحي

(١). الحاقّة: ٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٥٢

و النبوة، و فينا من هو أحقّ بذلك منه؟ ثم أضربوا عن الاستنكار و انتقلوا إلى الجزم بكونه كذابا أشرا، فقالوا:  
بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ وَ الْأَشْرُ: المرح و النشاط، أو البطر و التكبر، و تفسيره بالبطر و التكبر أنسب بالمقام، و منه قول الشاعر:  
أشرتم بلبس الخزّ لَمَّا لبستم و من قبل لا تدرون من فتح القرى  
قرأ الجمهور «أشرا» كفتح. و قرأ أبو قلابه و أبو جعفر بفتح الشين و تشديد الرّاء على أنه أفعل تفضيل.  
و نقل الكسائى عن مجاهد أنه قرأ بضم الشين مع فتح الهمزة. ثم أجاب سبحانه عليهم بقوله: سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرُ وَ المراد بقوله: «غدا» وقت نزول العذاب بهم فى الدنيا، أو فى يوم القيامة جريا على عادة الناس فى التعبير بالغد عن المستقبل من الأمر و إن بعد، كما فى قولهم: إن مع اليوم غدا، و كما فى قول الحطيئة:  
للموت فيها سهام غير مخطئه من لم يكن ميتا فى اليوم مات غدا  
و منه قول الطّرمّاح:

ألا عللانى قبل نوح التّوائح و قبل اضطراب النّفس بين الجوانح  
و قبل غدا يا لهف نفسى على غدا إذا راح أصحابى و لست برائح

قرأ الجمهور: «سيعلمون» بالتحية، إخبار من الله سبحانه لصالح عن وقوع العذاب عليهم بعد مدة. و قرأ أبو عمرو و ابن عامر و حمزة بالفوقية على أنه خطاب من صالح لقومه، و جملة: إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ مستأنفة لبيان ما تقدّم إجماله من الوعيد، أى: إِنَّا مخرجوها من الصخرة على حسب ما اقترحوه فتنه لهم أى: ابتلاء و امتحاننا، و انتصاب فتنه على العلة فأزّقتهم أى: انتظر ما يصنعون و اضطرّ على ما يصيبك من الأذى منهم وَ تَبَّهْمُ أَنْ الْمَاءَ قَسِمَةٌ بَيْنَهُمْ أى: بين ثمود و بين الناقه، لها يوم و لهم يوم، كما فى قوله: لَهَا شَرِبٌ وَ لَكُمْ شَرِبٌ يَوْمٍ مَعْلُومٍ «١» و قال: بَيْنَهُمْ بضمير العقلاء تغليا كُلُّ شَرِبٍ مُخْتَصَرٌ الشَّرْبِ: بكسر الشين:

الحظ من الماء. و معنى محتضر: أنه يحضره من هو له، فالناقة تحضره يوما و هم يحضرونه يوما. قال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم، فيشربون، و يحضرون يوم نوبتها فيحتلبون. قرأ الجمهور: «قسمه» بكسر القاف بمعنى مقسوم، و قرأ أبو عمرو في روايته عنه بفتحها فنادوا صاحبهم أى: نادى ثمود صاحبهم و هو قدار بن سالف عاقر الناقة يحضونه على عقرها فتعاطى فعقر أى: تناول الناقة بالعقر فعقرها، أو اجترأ على تعاطى أسباب العقر فعقر.

قال محمد بن إسحاق: كمن لها فى أصل شجرة على طريقها، فرماها بسهم فانتظم به ساقها، ثم شد عليها بالسيف فكسر عرقوبها ثم نحرها، و التعاطى: تناول الشيء بتكلف فكيف كان عذابي و نذر قد تقدم

(١). الشعراء: ١٥٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٥٣

تفسيره فى هذه السورة. ثم بين ما أجمله من العذاب فقال: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً قَالَ عطاء: يريد صيحة جبريل، و قد مضى بيان هذا فى سورة هود و فى الأعراف فكأنوا كهشيم المحتظر قرأ الجمهور بكسر الظاء، و الهشيم: حطام الشجر و يابسه، و المحتظر: صاحب الحظيرة، و هو الذى يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها عن برد الريح، يقال: احتظر على غنمه؛ إذا جمع الشجر و وضع بعضه فوق بعض. قال فى الصحاح: و المحتظر: الذى يعمل الحظيرة. و قرأ الحسن و قتادة و أبو العالية بفتح الظاء، أى: كهشيم الحظيرة، فمن قرأ بالكسر أراد الفاعل للاحتظار، و من قرأ بالفتح أراد الحظيرة، و هى فعلية بمعنى مفعولة، و معنى الآية أنهم صاروا كالشجر إذا يبس فى الحظيرة و داسته الغنم بعد سقوطه، و منه قول الشاعر:

أثرن عجاجة كدخان نار تشب بغرقد بال هشيم

و قال قتادة: هو العظام النخرة المحترقة. و قال سعيد بن جبيرة: هو التراب المتناثر من الحيطان فى يوم ريح.

و قال سفيان الثورى: هو ما يتناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصى. قال ابن زيد: العرب تسمى كل شيء كان رطبا فييس هشيمًا و منه قول الشاعر:

ترى جيف المطى بجانيه كأن عظامها خشب الهشيم

و لَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ قَدْ تَقَدَّمَ تفسير هذا فى هذه السورة. ثم أخبر سبحانه عن قوم لوط بأنهم كذبوا رسل الله كما كذبهم غيرهم فقال: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذُرِّ و قد تقدم تفسير النذر قريبا. ثم بين سبحانه ما عذبهم به فقال: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا أى: ريحا ترميهم بالحصباء، و هى الحصى. قال أبو عبيدة و النضر بن شميل: الحاصب: الحجارة فى الريح. قال فى الصحاح: الحاصب: الريح الشديدة التى تثير الحصباء، و منه قول الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام يضربها بحاصب كنديف القطن منشور

إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَيْحٍ يعنى لوطا و من تبعه، و السحر: آخر الليل، و قيل: هو فى كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض أول النهار، و انصرف سحر لأنه نكرة لم يقصد به سحر ليلة معينة و لو قصد معينا لامتنع. كذا قال الزجاج و الأخصف و غيرهما، و انتصاب نعمة من عندنا على العلة، أو على المصدرية، أى: إنعاما منا على لوط و من تبعه كذلك نجزي من شكرك أى: مثل ذلك الجزاء نجزي من شكر نعمتنا و لم يكفرها و لقد أنذرهم بطشنا أى: أنذر لوط قومه بطشه الله بهم، و هى عذابه الشديد و عقوبته البالغة فتماروا بالنذر أى: شكوا فى الإنذار و لم يصدقوه، و هو تفاعل من المريبة، و هى الشك و لقد راودوه عن ضيفه أى: أرادوا منه تمكينهم ممن أتاه من الملائكة ليفجروا بهم كما هو دأبهم، يقال:

راودته عن كذا مرادة و روادا، أى: أردته، و راد الكلام يروده رودا: أى طلبه، و قد تقدم تفسير المرادة مستوفى فى سورة هود

فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ أَي: صيرنا أعينهم ممسوحة لا يرى لها شق، كما تطمس الرياح الأعلام بما تسفى عليها من التراب. وقيل: أذهب الله نور أبصارهم مع بقاء العين على صورتها. قال

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٥٤

الضحاك: طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل فرجعوا فذوقوا عذابي وَ نَذِرٍ قَدْ تَقَدَّمَ تفسيره في هذه السورة وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ أَي: أتاهم صباحا عذاب مستقر بهم نازل عليهم لا يفارقهم و لا ينفك عنهم. قال مقاتل: استقر بهم العذاب بكرة، و انصراف بكرة لكونه لم يرد بها وقتا بعينه كما سبق في «بسحر» فذوقوا عذابي وَ نَذِرٍ- وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ قَدْ تَقَدَّمَ تفسير هذا في هذه السورة، و لعل وجه تكرير تيسير القرآن للذكر في هذه السورة الإشعار بأنه منه عظمة، لا ينبغي لأحد أن يغفل عن شكرها.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا قَالَ: باردة في يوم نحس قال: أيام شداد. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «يوم الأربعاء يوم نحس مستمر». و أخرجه عنه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا. و أخرجه ابن مردويه عن علي مرفوعا. و أخرج ابن مردويه أيضا عن أنس مرفوعا، و فيه «قيل: و كيف ذاك يا رسول الله؟

قال: أغرق الله فيه فرعون و قومه، و أهلك فيه عادا و ثمودا». و أخرج ابن مردويه و الخطيب بسند، قال السيوطي: ضعيف، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر». و أخرج ابن المنذر عنه كأنهم أعجاز نخل قال: أصول النخل مُنْقَعِرٍ قال: منقلع.

و أخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا في الآية قال: أعجاز سواد النخل. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا وَ سُيُجِرُ قَالَ: شقاء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا قال: كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ قَالَ: كحظائر من الشجر محترقة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا في الآية قال: كالعظام المحترقة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه قال: كالحشيش تأكله الغنم.

### [سورة القمر (٥٤): الآيات ٤١ الى ٥٥]

وَ لَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ (٤٤) سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَ يُؤَلُّونَ الذُّبُرُ (٤٥) بَلِ السَّاعِيَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَدْحَى وَ أَمْرٌ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَ سُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يَسْجُبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَ مَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٥١) وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَ كُلُّ صَاحِبٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطِرٌّ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهْرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)

النُّذُرُ يجوز أن يكون جمع نذير، و يجوز أن يكون مصدرا كما تقدم، و هي الآيات التي أنذرهم بها موسى، و هذا أولى لقوله: كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فإنه بيان لذلك، و المراد بها الآيات التسع التي تقدم ذكرها فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ أَي: أخذناهم بالعذاب أخذ غالب في انتقامه، قادر على إهلاكهم، لا يعجزه شيء. ثم خوف سبحانه كفار مكة فقال: أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ وَ الاستفهام للإنكار،

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٥٥

و المعنى النفي، أَي: ليس كفاركم يا أهل مكة، أو يا معشر العرب، خير من كفار من تقدمكم من الأمم الذين أهلكوا بسبب

كفرهم، فكيف تطمعون في السلامة من العذاب و أنتم شرّ منهم. ثم أضرب سبحانه عن ذلك و انتقل إلى تبيكيتهم بوجه آخر هو أشد من التبيكيت بالوجه الأول، فقال: **أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ** و الزبر: هي الكتب المنزلة على الأنبياء، و المعنى: إنكار أن تكون لهم براءة من عذاب الله في شيء من كتب الأنبياء. ثم أضرب عن هذا التبيكيت، و انتقل إلى التبيكيت لهم بوجه آخر، فقال: **أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ** أي: جماعة لا تطاق لكثرة عدونا و قوتنا، أو أمرنا مجتمع لا نغلب، و أفرد منتصرا اعتبارا بلفظ «جميع». قال الكلبي: المعنى: نحن جميع أمرنا، نتصر من أعدائنا، فردّ الله سبحانه عليهم بقوله: **سَيُيْهِزُ الْجَمْعُ** أي: جمع كفار مكة، أو كفار العرب على العموم. قرأ الجمهور «سيهزم» بالتحية مبني للمفعول. و قرأ ورش عن يعقوب «سنهزم» بالنون و كسر الزاي و نصب الجمع. و قرأ أبو حيوة و ابن أبي عبله بالتحية مبني للفاعل، و قرئ بالفوقية مبني للفاعل و **يُولُونَ الدُّبُرَ** قرأ الجمهور «يولون» بالتحية، و قرأ عيسى و ابن أبي إسحاق و ورش عن يعقوب بالفوقية على الخطاب، و المراد بالدبر: الجنس، و هو في معنى الإدبار، و قد هزمهم الله يوم بدر و ولّوا الأدبار، و قتل رؤساء الشرك و أساطين الكفر، فله الحمد **بِلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ** أي: موعد عذابهم الأخرى، و ليس هذا العذاب الكائن في الدنيا بالقتل و الأسر و القهر هو تمام ما وعدوا به من العذاب، و إنما هو مقدّمة من مقدماته، و طليعة من طلائعه، و لهذا قال: **وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَ أَمْرٌ** أي: و عذاب الساعة أعظم في الضرّ و أفضح، مأخوذ من الدهاء، و هو النكر و الفطاعة، و معنى أمر: أشد مرارة من عذاب الدنيا، يقال: دهاه أمر كذا، أي: أصابه دهوا و دهيا **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَ سُعْرٍ** أي: في ذهاب عن الحق و بعد عنه، و قد تقدّم في هذه السورة تفسير «و سر» فلا نعيده **يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ** و الظرف منتصب بما قبله، أي: كائنون في ضلال و سر يوم يسحبون، أو بقول مقدّر بعده، أي: يوم يسحبون يقال لهم: **ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ** أي: قاسوا حرّها و شدّة عذابها، و سقر: علم لجهنم. و قرأ أبو عمرو في رواية عنه بإدغام سين «مس» في سين «سقر» **إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** قرأ الجمهور بنصب كل على الاشتغال. و قرأ أبو السيمال بالرفع، و المعنى: أن كل شيء من الأشياء خلقه الله سبحانه متلبسا بقدر قدره و قضاء قضاء سبق في علمه، مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه. و

القدر: التقدير، و قد قدّمنا الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى.

**وَ مَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** أي: إلا مرة واحدة، أو كلمة كلمح بالبصر في سرعته، و اللحم: النظر على العجلة و السرعة. و في الصحاح: لمح و ألمح؛ إذا أبصره بنظر خفيف، و الاسم للمحة. قال الكلبي: و ما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا- كطرف البصر **وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ** أي: أشباهكم و نظراءكم في الكفر من الأمم، و قيل: أتباعكم و أعوانكم **فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ يَتَذَكَّرُ** و يتعظ بالمواعظ و يعلم أن ذلك حق، فيخاف العقوبة و أن يحل به ما حلّ بالأمم السالفة **وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ** أي: جميع ما فعلته الأمم من خير أو شرّ مكتوب في اللوح المحفوظ، و قيل: في كتب الحفظة **وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ**

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٥٦

**مُسِيئَةً** أي: كل شيء من أعمال الخلق و أقوالهم و أفعالهم مسطور في اللوح المحفوظ، صغيره و كبيره، و جليله و حقيره. يقال: سطر يسطر سطرًا: كتب، و استطر مثله. ثم لما فرغ سبحانه من ذكر حال الأتقياء ذكر حال السعداء فقال: **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهْرٍ** أي: في بساتين مختلفه و جنان متنوعه و أنهار متدفقة.

قرأ الجمهور «و نهر» بفتح الهاء على الأفراد، و هو جنس يشمل أنهار الجنة و قرأ مجاهد و الأعرج و أبو السمال بسكون الهاء و هما لغتان، و قرأ أبو مجلز و أبو نهشل و الأعرج و طلحة بن مصرف و قتادة «نهر» بضم النون و الهاء على الجمع **فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ** أي: في مجلس حق لا لغو فيه و لا تأثيم، و هو الجنة **عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** أي: قادر على ما يشاء لا يعجزه شيء، و عند هاهنا كناية عن الكرامة و شرف المنزلة، و قرأ عثمان البتي «في مقاعد صدق».

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أ كَفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ يَقُول: ليس كفاركم خير من قوم نوح وقوم لوط. و أخرج ابن أبي شيبة و ابن منيع و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عنه في قوله: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُؤَلُّونَ الدُّبْرَ قَالَ: كان ذلك يوم بدر قالوا: نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ فنزلت هذه الآية. و في البخارى و غيره عنه أيضا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَالَ وَ هُوَ فِي قَبْهَ لَهُ يَوْمَ بَدْرٍ: «أَنْشِدْكَ عَهْدَكَ وَ وَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شئتَ لَمْ تَعْبُدْ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَدًا، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ وَ قَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلْحَحْتَ عَلَيَّ رَبِّكَ، فَخَرَجَ وَ هُوَ يَثِبُ فِي الدَّرْعِ وَ يَقُولُ: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُؤَلُّونَ الدُّبْرَ - بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَذْهَى وَ أَمْرٌ. وَ أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَ عَبْدُ بَنِ حَمِيدٍ وَ مُسْلِمٌ وَ التِّرْمِذِيُّ وَ ابْنُ مَاجَةَ وَ غَيْرُهُمْ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَخَاصِمُونَهُ فِي الْقَدْرِ، فَنَزَلَتْ: يَوْمَ يُسَيِّحُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَمْرِو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدْرِ حَتَّى الْعِجْزُ وَ الْكَيْسُ». وَ أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: وَ كُدُّ لِّ صَاحِبِ الْكَبِيرِ مُسْتَهْزَأٌ قَالَ: مَسْطُورٌ فِي الْكِتَابِ.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٥٧

## سورة الرَّحْمَنِ

### إشارة

و هي مكية. قال القرطبي: كلها في قول الحسن و عروة بن الزبير و عكرمة و عطاء و جابر قال: قال ابن عباس: إلا آية منها، و هي قوله: يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الْآيَةَ. و قال ابن مسعود و مقاتل: هي مدينة كلها، و الأول أصح، و يدل عليه ما أخرجه النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة الرَّحْمَنِ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: أنزل بمكة سورة الرَّحْمَنِ. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة الرَّحْمَنِ - عَلَّمَ الْقُرْآنَ بمكة. و أخرج أحمد و ابن مردويه، قال السيوطي: بسند حسن، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَقْرَأُ وَ هُوَ يَصَلِّي نَحْوَ الرُّكْنِ قَبْلَ أَنْ يَصْطَلِبَ بِمَا يُؤْمَرُ وَ الْمُشْرِكُونَ يَسْمَعُونَ: فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبُّكُمْ تُكذَّبَانِ وَ يُؤَيِّدُ الْقَوْلَ الثَّانِي مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ الضَّرِيرِ وَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَتْ سُورَةُ الرَّحْمَنِ بِالْمَدِينَةِ، وَ يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ بِأَنَّهُ نَزَلَ بَعْضُهَا بِمَكَّةَ وَ بَعْضُهَا بِالْمَدِينَةِ. وَ أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ، وَ أَبُو الشَّيْخِ فِي الْعِظْمَةِ، وَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ، وَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عَلَى أَصْحَابِهِ. فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوْلَاهَا إِلَى آخِرِهَا فَسَكَتُوا، فَقَالَ: مَا لِي أَرَأَيْتُمْ لَقَدْ قَرَأْتُمْهَا عَلَى الْجَنِّ لَيْلَةَ الْجَنِّ، فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ، كَلِمًا أَتَيْتَ عَلَيَّ قَوْلُهُ: فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبُّكُمْ تُكذَّبَانِ\*» قَالُوا: وَ لَا بَشَىءَ مِنْ نَعْمِكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ» قَالَ التِّرْمِذِيُّ بَعْدَ إِخْرَاجِهِ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ زُهَيْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ. وَ حَكَى عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَنْكِرُ رَوَايَتَهُ عَنْ زُهَيْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ. وَ قَالَ الْبَزَارِيُّ: لَا نَعْرِفُهُ يَرُوى إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَ أَخْرَجَهُ الْبَزَارِيُّ وَ ابْنُ جُرَيْرٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ، وَ الدَّارِ قُطْنِي فِي الْأَفْرَادِ، وَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍ، وَ صَحَّحَ السِّيُوطِيُّ إِسْنَادَهُ، وَ قَالَ الْبَزَارِيُّ: لَا نَعْلَمُهُ يَرُوى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ بِهَذَا الْإِسْنَادِ. وَ أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَقُولُ: «لِكُلِّ شَيْءٍ عَرُوسٌ، وَ عَرُوسُ الْقُرْآنِ الرَّحْمَنِ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا  
الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)

وَالْمَازُضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا  
تُكذَّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)

وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ  
(١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩)

بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (٢٣) وَ  
لَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤)

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (٢٥)

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٥٨

قوله: الرَّحْمَنُ - عَلَّمَ الْقُرْآنَ ارتفاع الرَّحْمَن على أنه مبتدأ و ما بعده من الأفعال أخبار له، و يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف،  
أى: الله الرَّحْمَن. قال الزجاج: معنى عَلَّمَ الْقُرْآنَ يَسْرَهُ. قال الكلبي:

عَلَّمَ الْقُرْآنَ محمداً و علمه محمد أمته، و قيل: جعله علامة لما يعبد الناس به، قيل: نزلت هذه الآية جواباً لأهل مكة حين قالوا:  
إنما يعلمه بشر، و قيل: جواباً لقولهم: و ما الرَّحْمَن؟ و لما كانت هذه السورة لتعداد نعمه التي أنعم بها على عباده قدّم النعمة التي  
هي أجلها قدراً، و أكثرها نفعاً، و أتمها فائدة، و أعظمها عائده، و هي نعمة تعليم القرآن، فإنها مدار سعادة الدارين، و قطب  
رحى الخيرين، و عماد الأمرين. ثم امتنّ بعد هذه النعمة بنعمة الخلق التي هي مناط كل الأمور و مرجع جميع الأشياء فقال: خَلَقَ  
الْإِنْسَانَ ثم امتنّ ثالثاً بتعليمه البيان الّذى يكون به التفاهم، و يدور عليه التّخاطب، و تتوقف عليه مصالح المعاش و المعاد؛ لأنه لا  
يمكن إبراز ما فى الضمائر و لا إظهار ما يدور فى الخلد إلا به. قال قتادة و الحسن: المراد بالإنسان آدم، و المراد بالبيان أسماء  
كلّ شىء، و قيل: المراد به اللغات. و قال ابن كيسان: المراد بالإنسان هاهنا محمد صلى الله عليه و سلّم، و بالبيان بيان الحلال من  
الحرام، و الهدى من الضلال، و هو بعيد. و قال الضحاك: البيان: الخير و الشرّ. و قال الربيع بن أنس:

هو ما ينفعه ممّا يضره، و قيل: البيان: الكتابة بالقلم. و الأولى حمل الإنسان على الجنس، و حمل البيان على تعليم كلّ قوم لسانهم  
الّذى يتكلمون به الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ أى: يجريان بحساب و منازل لا يعدوانها، و يدلان بذلك على عدد الشهور و السنين.  
قال قتادة و أبو مالك: يجريان بحسبان فى منازل لا- يعدوانها و لا يحيدان عنها. و قال ابن زيد و ابن كيسان: يعنى أن بهما  
تحسب الأوقات و الآجال و الأعمار، و لو لا الليل و النهار و الشمس و القمر لم يدر أحد كيف يحسب؛ لأن الدهر يكون كله  
ليلاً أو نهاراً. و قال الضحاك:

معنى بحسبان: بقدر. و قال مجاهد: بحسبان كحسبان الرحى، يعنى قطبهما الّذى يدوران عليه. قال الأخفش: الحسبان جماعة  
الحساب، مثل شهب و شهبان. و أما الحسبان بالضمّ فهو العذاب؛ كما مضى فى سورة الكهف و النَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ النجم:  
ما لا ساق له من النبات، و الشجر: ما له ساق.

قال الشاعر «١»:

لقد أنجم القاع الكبير عضاهه و تم به حيا تميم و وائل

و قال زهير:

مكلل بأصول النجم تنسجه ريح الجنوب لضاحي مائه حبك

(١). هو صفوان بن أسد التميمي.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٥٩

و المراد بسجودهما انقياد هما لله تعالى انقياد الساجدين من المكلفين. و قال الفراء: سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت، ثم يميلان معها حين ينكسر الفء. و قال الزجاج: سجودهما دوران الظل معهما، كما في قوله: يَنْفَيْؤًا ظِلَالُهُ «١» و قال الحسن و مجاهد: المراد بالنجم نجم السماء و سجوده طلوعه، و رَجَّح هذا ابن جرير. و قيل: سجوده أفوله، و سجود الشجر: تمكينها من الاجتناء لثمارها. قال النحاس: أصل السجود الاستسلام و الانقياد لله، و هذه الجملة و التي قبلها خبران آخران للرحمن، و ترك الرباط فيهما لظهوره، كأنه قيل: الشمس و القمر بحسبانه، و النجم و الشجر يسجدان له و السماء رَفَعَهَا قرأ الجمهور بنصب السماء على الاشتغال. و قرأ أبو السمال بالرفع على الابتداء، و المعنى: أنه جعل السماء مرفوعة فوق الأرض و وَضَعَ الْمِيزَانَ المراد بالميزان العدل، أي: وضع في الأرض العدل الذي أمر به، كذا قال مجاهد و قتادة و السدي و غيرهم. قال الزجاج: المعنى أنه أمرنا بالعدل، و يدل عليه قوله: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ أي: لا تجاوزوا العدل. و قال الحسن و الضحاك: المراد به آلة الوزن ليتوصل بها إلى الإنصاف و الانتصاف. و قيل: الميزان القرآن لأن فيه بيان ما يحتاج إليه، و به قال الحسين بن الفضل، و الأول أولى. ثم أمر سبحانه بإقامة العدل بعد إخباره للعباد بأنه وضعه لهم، فقال: وَ أَقِيمُوا الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ أي: قوموا و وزنكم بالعدل، و قيل:

المعنى: أقيموا لسان الميزان بالعدل، و قيل: المعنى: أنه وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال، و «أن» في قوله: أَلَّا تَطْغَوْا مصدرية، أي: لئلا تطغوا، و «لا» نافية، أي: وضع الميزان لئلا تطغوا، و قيل:

هي مفسرة، لأن في الوضع معنى القول، و الطغيان: مجاوزة الحد، فمن قال: الميزان العدل، قال: طغيانه الجور، و من قال: الميزان الآلة التي يوزن بها، قال: البخس و لا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ أي: لا تنقصوه، أمر سبحانه أولا بالتسوية، ثم نهى عن الطغيان الذي هو المجاوزة للحد بالزيادة، ثم نهى عن الخسران الذي هو النقص و البخس. قرأ الجمهور: «تخسروا» بضم التاء و كسر السين من أخسر، و قرأ بلال بن أبي بردة و أبان بن عثمان و زيد بن علي بفتح التاء و السين بن خسر، و هما لغتان. يقال أخسرت الميزان خسرتة. ثم لما ذكر سبحانه أنه رفع السماء ذكر أنه وضع الأرض فقال: وَ الْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ أي: بسطها على الماء لجميع الخلق مميا له روح و حياة، و لا- وجه لتخصيص الأنام بالإنس و الجن. قرأ الجمهور: بنصب الأرض على الاشتغال، و قرأ أبو السمال بالرفع على الابتداء، و جملة فيها فَاكِهَةٌ في محل نصب على أنها حال من الأرض مقدره، و قيل: مستأنفة لتقرير مضمون الجملة التي قبلها، و المراد بها كل ما يتفكك به من أنواع الثمار. ثم أفرد سبحانه النخل بالذكر لشرفه و مزيد فائدته على سائر الفواكه، فقال: وَ النَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ الْأَكْمَامِ: جمع كم بالكسر، و هو وعاء التمر. قال الجوهري: و الكم بالكسر و الكمامة وعاء الطلع و غطاء الثور، و الجمع كمام و أكمة و أكمام. قال الحسن: ذات الأكمام، أي: ذات الليف، فإن النخلة تكمم بالليف و كمامها ليفها، و قال ابن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفتق. و قال عكرمة: ذات الأحمال. وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرَّيْحَانُ الْحَبُّ: هو جميع ما يقات من الحبوب و العصف. قال السدي و الفراء: هو بقل الزرع،

(١). النحل: ٤٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٦٠

وهو أول ما ينبت به. قال ابن كيسان: يبدو أولا ورقا، وهو العصف، ثم يبدو له ساق، ثم يحدث الله فيه أكماما، ثم يحدث في الأكمام الحب. قال الفراء: والعرب تقول خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرك، وكذا قال الصحاح. وقال الحسن: العصف: التبن، وقال مجاهد: هو ورق الشجر والزرع.

وقيل: هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رأسه وبيس، ومنه قوله: كَعَصْفٍ مَا أُكُولُ «١»، وقيل: هو الزرع الكثير، يقال: قد أعصف الزرع، ومكان معصف، أي: كثير الزرع، ومنه قول أبي قيس بن الأسلت:

إذا جمادى منعت قطرهازان جنابى عطن معصف

والريحان: الورق في قول الأكثر. وقال الحسن وقادة والضحاك وابن زيد: إنه الريحان الذي يشم.

وقال سعيد بن جبير: هو ما قام على ساق. وقال الكلبي: إن العصف: هو الورق الذي لا يؤكل، والريحان:

هو الحب المأكول. وقال الفراء أيضا: العصف: المأكول من الزرع، والريحان: ما لا يؤكل، وقيل: الريحان كل بقله طيبة الريح. قال ابن الأعرابي: يقال شيء ريحاني وروحاني. وقال في الصحاح: الريحان نبت معروف، والريحان: الرزق، تقول: خرجت أبتغي ريحان الله. قال النمر بن توبل:

سلام الإله وريحانه ورحمته وسماء درر

وقيل: العصف: رزق البهائم، والريحان: رزق الناس. قرأ الجمهور: وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرِّيحَانُ بَرَفِ الثَّلَاثَةِ عَطْفَا عَلَى فَكِهِة. وقرأ ابن عامر وأبو حيوة والمغيرة بنصبهما عطفا على الأرض، أو على إضممار فعل، أي: وخلق الحب ذا العصف والريحان. وقرأ حمزة والكسائي والريحان بالجر عطفا على العصف. فَبَأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ الخطاب للجن والإنس؛ لأن لفظ الأنام يعمهما وغيرهما، ثم خصص بهذا الخطاب من يعقل. وبهذا قال الجمهور من المفسرين، ويدل عليه قوله فيما سيأتي: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّهَ الثَّقَلَانِ ويدل على هذا ما قدمنا في فاتحة هذه السورة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها على الجن والإنس، وقيل: الخطاب للإنس، وثناه على قاعدة العرب في خطاب الواحد بلفظ التثنية كما قدمنا في قوله: أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ «٢» والآء: النعم. قال القرطبي: وهو قول جميع المفسرين، واحداها إلى مثل معى وعصا. وقال ابن زيد: إنها القدرة، أي: فبأى قدرة ربكما تكذبان، وبه قال الكلبي. وكثر سبحانه هذه الآية في هذه السورة تقريرا للنعمه وتأكيدا للتذكير بها على عادة العرب في الاتساع. قال القتيبي: إن الله عدد في هذه السورة نعماءه، وذكر خلقه آلاءه، ثم أتبع كل خلة وضعها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررهم بها كما تقول لمن تتابع له إحسانك، وهو يكفره: ألم تكن فقيرا فأغنيتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن راجلا فحملتك؟ أفتنكر هذا؟ والتكرير حسن في مثل هذا، ومنه قول الشاعر:

لا تقتلى رجلا إن كنت مسلمة إياك من دمه إياك إياك

قال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغلة، وتأكيد للحجة. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ

(١). الفيل: ٥.

(٢). ق: ٢٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٦١

لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير، و هو السماء و الأرض و ما فيهما، ذكر خلق العالم الصغير، و المراد بالإنسان هنا آدم. قال القرطبي: باتفاق من أهل التأويل، و لا يبعد أن يراد الجنس لأن بنى آدم مخلوقون فى ضمن خلق أبيهم آدم، و الصلصال: الطين اليابس الذى يسمع له صلصلة، و قيل: هو طين خلط برمل، و قيل: هو الطين المتين، يقال: صل اللحم و أصل إذا أنتن، و قد تقدم بيانه فى سورة الحجر، و الفخار:

الخزف الذى طبخ بالنار، و المعنى: أنه خلق الإنسان من طين يشبه فى يسه الخزف. وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ يعنى خلق أبا الجن أو جنس الجن من مارج من نار، و المارج: اللهب الصافى من النار، و قيل: الخالص منها، و قيل: لسانها العذى يكون فى طرفها إذا التهبت، و قال الليث: المارج: الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد. و قال المبرد: المارج: النار المرسله التى لا تمنع، و قال أبو عبيدة: المارج: خلط النار، من مرج إذا اختلط و اضطرب. قال الجوهرى: «مارج من نار»: نار لا دخان لها، خلق منها الجان.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فإنه أنعم عليكم فى تضاعيف خلقكما من ذلك بنعم لا تحصى رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ قرأ الجمهور: «رب» بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو رب المشرقين و المغربين، و قيل: مبتدأ و خبره مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ و ما بينهما اعتراض، و الأول أولى، و المراد بالمشرقين مشرقا الشتاء و الصيف، و بالمغربين مغرباها فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فإن فى ذلك من النعم ما لا- يحصى و لا- يتيسر لمن أنصف من نفسه تكذيب فرد من أفراد مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ المريج: التخليه و الإرسال، يقال: مرجت الدابة؛ إذا أرسلتها، و أصله الإهمال كما تمرج الدابة فى المرعى، و المعنى: أنه أرسل كل واحد منهما، يلتقيان: أى يتجاوزان لا فصل بينهما فى مرأى العين، و مع ذلك فلم يختلطا، و لهذا قال: يَبِينَهُمَا بَرْزَخٌ أى: حاجز يحجز بينهما لا يَبِينَانِ أى: لا يبغي أحدهما على الآخر بأن يدخل فيه و يختلط به. قال الحسن و قتادة: هما بحر فارس و الروم. و قال ابن جريج: هما البحر المالح و الأنهار العذبة، و قيل:

بحر المشرق و المغرب، و قيل: بحر اللؤلؤ و المرجان، و قيل: بحر السماء و بحر الأرض. قال سعيد بن جبير: يلتقيان فى كل عام، و قيل: يلتقى طرفاهما. و قوله: يَلْتَقِيَانِ فى محل نصب على الحال من البحرين، و جملة يَبِينَهُمَا بَرْزَخٌ يجوز أن تكون مستأنفة، و أن تكون حالا فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فإن هذه الآيه و أمثالها لا يتيسر تكذيبها بحال يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْؤُ وَ الْمَرْجَانُ قرأ الجمهور: «يَخْرُجُ» بفتح الياء و ضم الرء مبني للفاعل، و قرأ نافع و أبو عمرو بضم الياء و فتح الرء مبني للمفعول، و اللؤلؤ: الدر، و المرجان: الخرز الأحمر المعروف. و قال الفراء: اللؤلؤ: العظام، و المرجان ما صغر. قال الواحدى: و هو قول جميع أهل اللغة. و قال مقاتل و السدى و مجاهد: اللؤلؤ صغاره، و المرجان كباره، و قال: يَخْرُجُ مِنْهُمَا و إنما يخرج ذلك من المالح لا من العذب، لأنه إذا خرج من أحد هما فقد خرج منهما، كذا قال الزجاج و غيره. و قال أبو على الفارسى: هو من باب حذف المضاف، أى: من أحدهما، كقوله: عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ «١». و قال الأخفش: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب، و قيل: هما بحران يخرج من

(١). الزخرف: ٣١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٦٢

أحدهما اللؤلؤ، و من الآخر المرجان، و قيل: هما بحر السماء و بحر الأرض، فإذا وقع ماء السماء فى صدف البحر انعقد لؤلؤا فصار خارجا منهما فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فإن فى ذلك من الآيات ما لا يستطيع أحد تكذيبه و لا يقدر على إنكاره وَ لَهُ الْجَوَارِ الْمُنشآتُ فى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ المراد بالجوار: السفن الجارية فى البحر، و المنشآت: المرفوعات التى رفع بعض خشبها على

بضع و ركب، حتى ارتفعت و طالت، حتى صارت في البحر كالأعلام، و هي الجبال، و العلم: الجبل الطويل. و قال قتادة: المنشآت: المخلوقات للجرى. و قال الأخفش: المنشآت: المجريات. و قد مضى بيان الكلام في هذا في سورة الشورى. قرأ الجمهور: «الجوار» بكسر الراء و حذف الياء لالتقاء الساكنين، و قرأ ابن مسعود و الحسن و أبو عمرو في رواية عنه رفع الراء تناسبا للحذف، و قرأ يعقوب: بإثبات الياء، و قرأ الجمهور: المنشآت بفتح الشين، و قرأ حمزة و أبو بكر في رواية عنه: بكسر الشين فَبَأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْوُضُوحِ وَ الظُّهُورِ بَحِثْ لَا يُمْكِنُ تَكْذِيبُهُ وَ لَا إِنْكَارَهُ.

و قد أخرج الفريابي و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و الحاكم و صححه، عن ابن عباس في قوله: الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ قال: بحساب و منازل يرسلان. و أخرج الفريابي و ابن أبي حاتم عنه وَ الْأَرْضُ وَصَعَهَا لِلْأَنَامِ قال: للناس. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا قال: للخلق. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: كل شيء فيه روح. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا: وَ النَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ قال: أوعية الطلع. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله:

وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ قال: التبن وَ الرِّيحَانُ قال: خضرة الزرع. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الْعَصْفِ ورق الزرع إذا يبس وَ الرِّيحَانُ ما أنبتت الأرض من الرياح المذى يشم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا قال: الْعَصْفِ الزرع أول ما يخرج بقلا- وَ الرِّيحَانُ حتى يستوى على سوقه و لم يسنبل. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: كل ريحان في القرآن فهو رزق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا فَبَأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ\* قال: يعني بأى نعمة الله.

و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عنه أيضا في الآية قال: يعنى الجَنِّ و الإنس. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ قال: من لهب النار. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا في الآية قال: خالص النار. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله: رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ قال: للشمس مطلع في الشتاء، و مغرب في الصيف، و مطلع في الصيف، غير مطلعها في الشتاء و غير مغربها في الشتاء. و أخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال: مشرق الفجر و مشرق الشفق. و مغرب الشمس و مغرب الشفق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ قال: أرسل البحرين بينهما بَرَزَخُ قال: حاجز لا يَبْغِيَانِ لا يختلطان. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: بحر السماء و بحر الأرض، و أخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا بينهما بَرَزَخُ لا يَبْغِيَانِ قال: بينهما من البعد ما لا يبغى

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٦٣

كل واحد منهما على صاحبه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجَانُ قال: إذا مطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهاها، فما وقع فيها من قطر السماء فهو اللؤلؤ. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن علي بن أبي طالب قال: المرجان: عظام اللؤلؤ. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: اللؤلؤ: ما عظم منه، و المرجان: اللؤلؤ الصغار. و أخرج عبد الرزاق و الفريابي و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الطبراني عن ابن مسعود قال: المرجان: الخرز الأحمر.

### [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٢٦ الى ٤٥]

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَ يَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ (٢٧) فَبَأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبَأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسِلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٍ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥)

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠)

يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يُطَوَّفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)

قوله: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ أَى: كُلٌّ من على الأرض من الحيوانات هالك، و غلب العقلاء على غيرهم، فعبر عن الجميع بلفظ من، و قيل: أراد من عليها من الجن والإنس و يبقى وَجْه رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ الوجه عبارة عن ذاته سبحانه و وجوده، و قد تقدّم فى سورة البقرة بيان معنى هذا، و قيل: معنى يَبْقَى وَجْه رَبِّكَ تبقى حجته التى يتقرّب بها إليه، و الجلال: العظمة و الكبرياء، و استحقاق صفات المدح، يقال: جلّ الشىء، أى: عظم، و أجلته، أى: أعظمته، و هو اسم من جلّ. و معنى ذو الإكرام:

إنه يكرم عن كل شىء لا يليق به، و قيل: إنه ذو الإكرام لأوليائه، و الخطاب فى قوله: ربك، للنبيّ صلى الله عليه و سلم، أو لكل من يصلح له. قرأ الجمهور: ذُو الْجَلَالِ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لَوَجْهِهِ، و قرأ أبى و ابن مسعود: «ذى الجلال» على أنه صفة لربّ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وجه النعمة فى فناء الخلق أن الموت سبب النقلة إلى دار الجزاء و الثواب. و قال مقاتل: وجه النعمة فى فناء الخلق التسوية بينهم فى الموت، و مع الموت تستوى الأقدام يَسْتَيْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أى: يسألونه جميعاً لأنهم محتاجون إليه لا يستغنى عنه أحد منهم. قال أبو صالح: يسأله أهل السماوات المغفرة و لا يسألونه الرزق، و أهل الأرض يسألونه الأمرين جميعاً. و قال مقاتل: يسأله أهل الأرض الرزق و المغفرة، و تسأل لهم الملائكة أيضاً الرزق و المغفرة، و كذا قال ابن جريج. و قيل: يسألونه الرحمة. قال قتادة: لا- يستغنى عنه أهل السماء و لا أهل الأرض. و الحاصل أنه يسأله كل مخلوق من مخلوقاته بلسان المقال أو لسان الحال، من خيرى الدارين أو من خيرى إحداهما

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٦٤

كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ انتصاب «كلّ» بالاستقرار الذى تضمنه الخبر، و التقدير: استقرّ سبحانه فى شأنه كل وقت من الأوقات، و اليوم عبارة عن الوقت، و الشأن هو الأمر، و من جملة شؤونه سبحانه إعطاء أهل السماوات و الأرض ما يطلبونه منه على اختلاف حاجاتهم و تباين أغراضهم. قال المفسرون: من شأنه أنه يحيى و يميت، و يرزق و يفقر، و يعزّ و يذلّ، و يمرض و يشفى، و يعطى و يمنع، و يغفر و يعاقب، إلى غير ذلك مما لا يحصى.

و قيل: المراد باليوم المذكور هو يوم الدنيا و يوم الآخرة. قال ابن بحر: الدّهر كله يومان: أحدهما مدّة أيام الدنيا، و الآخر يوم القيامة. و قيل: المراد كل يوم من أيام الدنيا فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فإن اختلاف شؤونه سبحانه فى تدبير عباده نعمة لا يمكن جحدها، و لا يتيسر لمكذب تكذيبها سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ هذا وعيد شديد من الله سبحانه للجنّ و الإنس. قال الزجاج و الكسائى و ابن الأعرابى و أبو على الفارسى:

إن الفراغ هاهنا ليس هو الفراغ من شغل، و لكن تأويله القصد، أى: سنقصد لحسابكم. قال الواحدى حاكياً عن المفسرين: إن هذا تهديد منه سبحانه لعباده، و من هذا قول القائل لمن يريد تهديده: إذن أنفرغ لك، أى: أقصد قصدك، و فرغ يجىء بمعنى قصد، و أنشد ابن الأنبارى قول الشاعر «١»:

الآن و قد فرغت إلى نمير فهذا حين كنت لها عذابا

يريد: و قد قصدت، و أنشد النحاس قول الشاعر (٢):

...

فرغت إلى القين المقيّد في الحجل (٣) أى: قصدت. و قيل: إن الله سبحانه وعد على التقوى و أوعد على المعصية، ثم قال: سنفرغ لكم مما وعدناكم و نوصل كلا إلى ما وعدناه، و به قال الحسن و مقاتل و ابن زيد، و يكون الكلام على طريق التمثيل. قرأ الجمهور: سَنَفْرُغُ بالنون و ضمّ الراء، و قرأ حمزة و الكسائي بالتحية مفتوحة مع ضم الراء، أى: سيفرغ الله، و قرأ الأعرج بالنون مع فتح الراء. قال الكسائي: هي لغة تميم، و قرأ عيسى الثقفي بكسر النون و فتح الراء، و قرأ الأعمش و إبراهيم بضمّ الياء و فتح الراء على البناء للمفعول. و سمى الجنّ و الإنس ثقلين لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من حيوانات الأرض، و قيل: سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياء و أمواتا، كما فى قوله: وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٤) و قال جعفر الصادق: سيما ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب، و جمع فى قوله: لَكُمْ ثم قال: أَيُّهُ الثَّقَلَانِ لأنهما فريقان، و كل فريق جمع. قرأ الجمهور: بفتح الهاء، و قرأ أهل الشام بضمها فَبَأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فَإِنْ من جملتها ما فى هذا التهديد من النعم، فمن ذلك أنه ينزجر به المسىء عن إساءته، و يزداد به المحسن إحسانا فيكون ذلك سببا للفوز بنعيم الدار الآخرة الذى

(١). هو جرير.

(٢). هو جرير أيضا.

(٣). و صدره: و لَمَّا اتَّقَى القين العراقى باسته.

(٤). الزلزلة: ٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٦٥

هو النعيم فى الحقيقة يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ قَدِمَ الْجَنِّ هُنَا لِكُونَ خَلْقَ أَبِيهِمْ مَتَقَدِّمًا عَلَى خَلْقِ آدَمَ، و لوجود جنسهم قبل جنس الإنس إِنْ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَنْفَعُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَى: إِنْ قَدَرْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا مِنْ جَوَانِبِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ نَوَاحِيهِمَا هَرَبًا مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَ قَدْرِهِ فَانْفَعُوا مِنْهَا وَ خَلِّصُوا أَنْفُسَكُمْ، يقال: نفذ الشيء من الشيء؛ إذا خلص منه كما يخلص السهم لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ أَى: لا تقدرُونَ على النفوذ إلا بقوة و قهر، و لا قوة لكم على ذلك و لا قدرة، و السلطان: القوة التى يتسلط بها صاحبها على الأمر، و الأمر بالنفوذ أمر تعجيز. قال الضحاک: بينما الناس فى أسواقهم إذ انفتحت السماء و نزلت الملائكة فهرب الجنّ و الإنس فتحدق بهم الملائكة، فذلك قوله: لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ قال ابن المبارك: إِنْ ذَلِكَ يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ. و قال الضحاک أيضا: معنى الآية: إِنْ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَهْرَبُوا مِنَ الْمَوْتِ فَاهْرَبُوا.

و قيل: إِنْ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَعْلَمُوا مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَاعْلَمُوهُ، و لن تعلموه إلا بسلطان، أى: بيئته من الله. و قال قتادة: معناها لا- تنفذوا إلا- بملك و ليس لكم ملك. و قيل الباء بمعنى إلى، أى: لا تنفذون إلا إلى سلطان فَبَأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ و من جملتها هذه النعمة الحاصلة بالتحذير و التهديد، فإنها تزيد المحسن إحسانا، و تكفّ المسىء عن إساءته، مع أن من حذركم و أنذركم قادر على الإيقاع بكم من دون مهلة يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ شُؤَاطٌ مِنْ نَارٍ قرأ الجمهور: يُرْسَلُ بالتحية مبنيا للمفعول، و قرأ زيد بن علىّ بالنون و نصب شُؤَاطٌ. و الشواظ: اللهب الذى لا دخان معه. و قال مجاهد: الشواظ اللهب الأخضر المتقطع من النار. و قال الضحاک: هو الدخان الذى يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب. و قال الأخفش و أبو عمرو: هو النار و الدخان جميعا. قرأ الجمهور: شُؤَاطٌ بضمّ الشين، و قرأ ابن كثير بكسرها و هما لغتان، و قرأ الجمهور و نحاسٌ بالرفع عطفًا على شواظ، و قرأ ابن كثير و ابن محيصن و مجاهد و أبو عمرو بخفضه عطفًا على نار، و قرأ الجمهور: نُحَاسٌ بضمّ النون، و قرأ مجاهد و عكرمة و

حميد و أبو العالیه بكسرهما. و قرأ مسلم بن جندب و الحسن

«و نحس». و النحاس: الصّفر المذاب يصبّ على رؤوسهم، قاله مجاهد و قتاده و غيرهما. و قال سعيد بن جبیر: هو الدخان الذي لا لهب له، و به قال الخليل.

و قال الضحاك: هو درديّ الزيت المغلي. و قال الكسائي: هو النار التي لها ريح شديدة، و قيل: هو المهل فلا تتصّيران أي: لا تقدران على الامتناع من عذاب الله فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان فإن من جملتها هذا الوعيد المذموم يكون به الانزجار عن الشرّ و الرجوب في الخير فإذا انشقت السماء أي: انصدعت بنزول الملائكة يوم القيامة فكانت و زده كالدّهان أي: كورده حمراء. قال سعيد بن جبیر و قتاده:

المعنى: فكانت حمراء، و قيل: فكانت كلون الفرس الورد، و هو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة أو الصّفرة.

قال الفراء و أبو عبيدة: تصير السماء كالأديم لشدة حرّ النار. و قال الفراء أيضا: شبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل، و شبه الورد في ألوانها بالدهن و اختلاف ألوانه. و الدهان: جمع دهن، و قيل: المعنى تصير السماء في حمرة الورد، و جريان الدهن، أي: تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، و تصير مثل الدهن لذوبانها، و قيل: الدهان: الجلد الأحمر. و قال الحسن: «كالدّهان» أي: كصيب

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٦٦

الدهن، فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانا. و قال زيد بن أسلم: إنها تصير كعكر الزيت. قال الزجاج: إنها اليوم خضراء و سيكون لها لون أحمر. قال الماوردي: و زعم «١» المتقدّمون أن أصل لون السماء الحمرة، و أنها لكثرة الحوائل و بعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان فإن من جملتها ما في هذا التهديد و التخويف من حسن العاقبة بالإقبال على الخير و الإعراض عن الشرّ فيؤمئذ لا يسئل عن ذنبه إنس و لا جان أي: يوم تنشق السماء لا يسأل أحد من الإنس و لا من الجنّ عن ذنبه، لأنهم يعرفون بسيماهم عند خروجهم من قبورهم، و الجمع بين هذه الآية و بين مثل قوله: فَو رَبِّكَ لَنَسِيئَتُهُمْ أَجْمَعِينَ «٢» أن ما هنا يكون في موقف و السؤال في موقف آخر من مواقف القيامة. و قيل: إنهم لا يسألون هنا سؤال استفهام عن ذنوبهم، لأن الله سبحانه قد أحصى الأعمال و حفظها على العباد، و لكن يسألون سؤال توبيخ و تفرّيع، و مثل هذه الآية قوله: وَ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ «٣» قال أبو العالیه: المعنى لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم. و قيل: إن عدم السؤال هو عند البعث، و السؤال هو في موقف الحساب فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان فإن من جملتها هذا الوعيد الشديد لكثرة ما يترتب عليه من الفوائد يُعرفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ هذه الجملة جارية مجرى التعليل لعدم السؤال. السيماء: العلامة. قال الحسن: سيماهم: سواد الوجوه و زرقه الأعين، كما في قوله: وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا «٤» و قال: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ «٥» و قيل: سيماهم ما يعلوهم من الحزن و الكآبة فيؤخذ بالنواصي و الأقدام و الجار و المجرور في محل رفع على أنه النائب، و النواصي: شعور مقدم الرؤوس، و المعنى: أنها تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي، و تلقيهم الملائكة في النار. قال الضحاك: يجمع بين ناصيته و قدمه في سلسلة من وراء ظهره. و قيل: تسحبهم الملائكة إلى النار، تارة تأخذ بنواصيهم و تجرّهم على وجوههم، و تارة تأخذ بأقدامهم و تجرّهم على رؤوسهم فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان فإن من جملتها هذا الترهيب الشديد و الوعيد البالغ الذي ترجف له القلوب و تضطرب لهوله الأحشاء هذه جهنّم التي يكذب بها الْمُجْرِمُونَ أي: يقال لهم عند ذلك هذه جهنم التي تشاهدونها و تنظرون إليها، مع أنكم كنتم تكذبون بها و تقولون إنها لا تكون، و الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا يقال لهم عند الأخذ بالنواصي و الأقدام؟ فقيل: يقال لهم: هذه جهنم، تقرّعا لهم و توبيحا يطوفون بينها أي: بين جهنم فتحرقهم و بين حميمٍ آن فتصبّ على وجوههم، و الحميم: الماء الحارّ، و الآن: الذي قد انتهى حرّه و بلغ غايته. كذا قال الفراء. قال الزجاج:



أنى يأنى أنى فهو آن: إذا انتهى فى النضح و الحرارة، و منه قول النابغة الدبباني:  
و تخضب لحيه غدرت و خانت بأحمر من نجيع الجوف آن  
و قيل: هو واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار، فيغمسون فيه. قال قتادة: يطوفون مره بين

(١). الزعم: القول يشك فيه.

(٢). الحجر: ٩٢.

(٣). القصص: ٧٨.

(٤). طه: ١٠٢.

(٥). آل عمران: ١٠٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٦٧

الحميم و مره بين الجحيم فبأى آلاء ربكمما تكذبان فإن من جملتها النعمة الحاصلة بهذا التخويف و ما يحصل به من الترغيب فى الخير و الترهيب عن الشر.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: ذو الجلال و الأكرام قال: ذو الكبرياء و العظمة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه يسئله من فى السماوات قال: مسألة عباده إياه الرزق و الموت و الحياة كل يوم هو فى ذلك. و أخرج الحسن بن سفيان فى مسنده و البزار و ابن جرير و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن منده و ابن مردويه و أبو نعيم و ابن عساکر عن عبد الله بن منيب قال: «تلا علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم هذه الآية كل يوم هو فى شأن فقلنا: يا رسول الله و ما ذلك الشأن؟ قال: أن يغفر ذنبا، و يفرج كربا، و يرفع قوما و يضع آخرين». و أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن ماجه و ابن أبى عاصم و البزار و ابن جرير و ابن المنده و ابن أبى حاتم و ابن حبان و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه و ابن عساکر، و البيهقى فى الشعب، عن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه و سلم فى الآية قال: «من شأنه أن يغفر ذنبا، و يفرج كربا، و يرفع قوما، و يضع آخرين». زاد البزار «و يجيب داعيا»، و قد رواه البخارى تعليقا، و جعله من كلام أبى الدرداء. و أخرج البزار عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه و سلم فى الآية قال: «يغفر ذنبا و يفرج كربا». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: سنفزع لكم آية الثقلان قال: هذا وعيد من الله لعباده، و ليس بالله شغل، و فى قوله: لا تنفذون إلا بسيفنا يقول: لا تخرجون من سلطاني. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: يُرسل عليكم شواظ من نار قال: لهب النار و نحاس قال: دخان النار. و أخرج ابن جرير عنه أيضا و نحاس

قال: الصفر يعذبون به. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فكانت و ردة يقول: حمراء كالدهان قال: هو الأديم الأحمر. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فكانت و ردة كالدهان قال: مثل لون الفرس الورد. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: فيؤميد لا يسئل عن ذنبه إنس و لا جان قال: لا يسألهم هل عملتم كذا و كذا، لأنه أعلم بذلك منهم، و لكن يقول لهم: لم عملتم كذا و كذا. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى البعث و النشور عنه أيضا فى قوله: فيؤخذ بالنواصي و الأقدام قال: تأخذ الزبانية بناصيته و قدميه و يجمع فيكسر كما يكسر الحطب فى التنور. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: و بين حميم أن قال: هو الذى انتهى حره.

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠)

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥)

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا بِيَأْنُ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَمَا أَنْهَقَتِ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥)

فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠)

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا بِيَأْنُ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥)

مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَ عَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ (٧٨)  
فتح القدير، ج ٥، ص: ١٦٨

لما فرغ سبحانه من تعداد النعم الدنيوية على الثقلين ذكر نعمه الأخروية التي أنعم بها عليهم، فقال:  
وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ مَقَامَهُ سَبْحَانَهُ: هو الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب، كما في قوله:

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ «١» فالمقام مصدر بمعنى القيام، وقيل: المعنى: خاف قيام ربه عليه، وهو إشرافه على أحواله و اطلاعه على أفعاله و أقواله، كما في قوله: أَمَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ «٢» قال مجاهد و النخعي: هو الرجل يهيم بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه.

و اختلف في الجنتين، فقال مقاتل: يعني جنه عدن و جنه النعيم، وقيل: إحداهما التي خلقت له و الأخرى ورثها. وقيل: إحداهما منزله و الأخرى منزل أزواجه. وقيل: إحداهما أسافل القصور و الأخرى أعاليها.

وقيل: جنه للخائف الإنسي، و جنه للخائف الجنى. وقيل: جنه لفعل الطاعة و أخرى لترك المعصية، وقيل: جنه للعقيدة التي يعتقدها، و أخرى للعمل الذي يعملها، وقيل: جنه بالعمل و جنه بالتفضل، وقيل: جنه روحانية و جنه جسمانية، وقيل: جنه لخوفه من ربه و جنه لتركه شهوته، و قال الفراء: إنما هي جنه واحدة، و التثنية لأجل موافقه رؤوس الآى. قال النحاس: و هذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله، فإن الله يقول:

«جنتان» و يصفهما بقوله فيهما إلخ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فإن من جملتها هذه النعمة العظيمة، و هى إعطاء الخائف من مقام ربّه جنتين متصفيتين بالصفات الجليلة العظيمة ذواتا أفنانٍ هذه صفة للجنتين، و ما بينهما اعتراض، و الأفنان: الأغصان، واحدها فن، و هو الغصن المستقيم طولا، و بهذا قال مجاهد و عكرمة و عطية و غيرهم. و قال الزجاج: الأفنان: الألوان، واحدها فن، و هو الضرب من كل شىء، و به قال عطاء و سعيد بن جبير، و جمع عطاء بين القولين، فقال: فى كلّ غصن فنون من الفاكهة، و من إطلاق الفنن على الغصن قول النابغة:

(١). المطففين: ٦.

(٢). الرعد: ٣٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٦٩ ما هاج شوقك من هديل حمامة تدعو على فن الغصون حماما  
وقيل: معنى ذواتا أفنان ذواتا فضل وسعة على ما سواهما، قاله قتادة، وقيل: الأفنان: ظل الأغصان على الحيوان، روى هذا عن  
مجاهد و عكرمة فبأى آلاء ربكمما تكذبان فإن كل واحد منها ليس بمحل للتكذيب ولا بموضع للإنكار فيهما عينا تَجْرِيَانِ هذا  
أيضا صفة أخرى ل «جنتان»، أى: فى كل واحدة منهما عين جارية. قال الحسن: إحداهما السلسيل والأخرى التسنيم. وقال  
عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين، قيل: كل واحدة منهما مثل الدنيا أضعافا مضاعفة فبأى آلاء  
ربكمما تكذبان فإن من جملتها هذه النعمة الكائنة فى الجنة لأهل السعادة فيهما من كل فاكهته زوجان هذا صفة ثالثة لجنتان، و  
الزوجان: الصنفان والنوعان، والمعنى: أن فى الجنتين من كل نوع يتفكه به ضربين يستلذ بكل نوع من أنواعه، قيل: أحد  
الصنفين رطب والآخر يابس، لا يقصر أحدهما عن الآخر فى الفضل والطيب فبأى آلاء ربكمما تكذبان فإن فى مجرد تعداد هذه  
النعمة و وصفها فى هذا الكتاب العزيز من الترغيب إلى فعل الخير و الترهيب عن فعل الشر ما لا يخفى على من يفهم، و ذلك  
نعمة عظمى و منة كبرى، فكيف بالتنعم به عند الوصول إليه متكئين على فرش بطائنها من إستبرق انتصاب متكئين على الحال  
من فاعل قوله: وَ لِمَنْ خَافَ و إنما جمع حملا على معنى من، و قيل: عاملها محذوف، و التقدير:

يتنعمون متكئين. و قيل: منصوب على المدح، و الفرش: جمع فراش، و البطائن: هى التى تحت الظهائر، و هى جمع بطانة. قال  
الزجاج: هى ما يلى الأرض، و الإستبرق: ما غلظ من الديباج، و إذا كانت البطائن من إستبرق فكيف تكون الظهائر؟ قيل لسعيد  
بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال: هذا مما قال الله فيه: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ (١) قيل: إنما اقتصر  
على ذكر البطائن؛ لأنه لم يكن أحد فى الأرض يعرف ما فى الظهائر. و قال الحسن: بطائنها من إستبرق من نور جامد. و قال  
الحسن:

البطائن هى الظهائر، و به قال الفراء. و قال: قد تكون البطانة الظهارة و الظهارة البطانة؛ لأن كل واحد منهما يكون وجهها، و العرب  
تقول: هذا ظهر السماء، و هذا بطن السماء لظاهرها الذى نراه، و أنكر ابن قتيبة هذا، و قال: لا- يكون هذا إلا- فى الوجهين  
المتساويين وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ مبتدأ و خبر، و الجنى:

ما يجتنى من الثمار، قيل: إن الشجرة تدنو حتى يجنيها من يريد جناها. و منه قول الشاعر (٢):

هذا جناى و خياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

قرأ الجمهور: فُرْشٍ بضمين، و قرأ أبو حيوة بضمه و سكون، و قرأ الجمهور: جَنَى بفتح الجيم، و قرأ عيسى بن عمر بكسرهما، و  
قرأ عيسى أيضا بكسر النون على الإمالة فبأى آلاء ربكمما تكذبان فإنها كلها بموضع لا يتيسر لمكذب أن يكذب بشيء منها؛ لما  
تشتمل عليه من الفوائد العاجلة

(١). السجدة: ١٧.

(٢). هو عمرو بن عدى اللخمي.

و الآجلة فِيهِنَّ قاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَي: في الجنتين المذكورتين. قال الزجاج: و إنما قال فِيهِنَّ؛ لأنه عنى الجنتين و ما أعد لصاحبهما فيهما من النعيم، و قيل فِيهِنَّ: أي في الفرش التي بطائنها من إستبرق. و معنى قاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَنهِنَّ يقصرن أبصارهِنَّ على أزواجهنَّ لا- ينظرن إلى غيرهم، و قد تقدّم تفسير هذا في سورة الصافات لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنَّسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا بَجانُ قال الفراء: الطمئ: الافتضاض، و هو النكاح بالتدمية، يقال: طمئ الجارية: إذا فترعها. قال الواحدي: قال المفسرون: لم يطأهن و لم يغشهنَّ و لم يجامعهنَّ قبلهم أحد. قال مقاتل: لأنهن خلقن في الجنة، و الضمير في «قبلهم» يعود إلى الأزواج المدلول عليه بقاصرات الطرف، و قيل: يعود إلى متكئين، و الجملة في محل رفع صفة لقاصرات؛ لأن إضافتها لفظية، و قيل: الطمئ: المس، أي: لم يمسهنَّ، قاله أبو عمرو. و قال المبرد: أي: لم يذللهنَّ، و الطمئ:

التذليل، و من استعمال الطمئ فيما ذكره الفراء قول الفرزدق:

وقن إليّ لم يطمئن قبلي و هنّ أصحّ من بيض النعام

قرأ الجمهور: يَطْمِئِنَّهُنَّ بكسر الميم، و قرأ الكسائي بضمها، و قرأ الجحدري و طلحة بن مصرف بفتحها، و في هذه الآية بل في كثير من آيات هذه السورة دليل أن الجنّ يدخلون الجنة إذا آمنوا بالله سبحانه و عملوا بفرائضه و انتهوا عن مناهيه فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ فإن في مجرّد هذا الترغيب في هذه النعم جليلة و منة عظيمة، لأن به يحصل الحرص على الأعمال الصالحة و الفرار من الأعمال الطالحة، فكيف بالوصول إلى هذه النعم و التمتع بها في جنات النعيم بلا انقطاع و لا زوال كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَ الْمَرْجانُ هذا صفة لقاصرات، أو حال منهنَّ، شبههنَّ سبحانه في صفاء اللون مع حرمة بالياقوت و المرجان، و الياقوت:

هو الحجر المعروف، و المرجان قد قدّمنا الكلام فيه في هذه السورة على الخلاف في كونه صغار الدرّ، أو الأحمر المعروف. قال الحسن: هنّ في صفاء الياقوت و بياض المرجان، و إنما خصّ المرجان على القول بأنه صغار الدرّ؛ لأن صفاءها أشدّ من صفاء كبار الدرّ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ فإن نعمه كلها لا يتيسر تكذيب شيء منها كائنه ما كانت، فكيف بهذه النعم الجليلة و المنن الجزيلة؟ هلّ جزاء الإحسانِ إِلَّا الإحسانُ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها، و المعنى ما جزاء من أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة، كذا قال ابن زيد و غيره. قال عكرمة: هلّ جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة، و قال الصادق: هلّ جزاء من أحسنت عليه في الأزل إلا- حفظ الإحسان عليه في الأبد. قال الرازي: في هذه الآية وجوه كثيرة، حتى قيل: إن في القرآن ثلاث آيات في كل واحدة منها مائة قول، إحداها قوله تعالى: فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ «١» و ثانيها وَ إِنِ عُدْتُمْ عَدْنَا «٢» و ثالثها هلّ جزاء الإحسانِ إِلَّا الإحسانُ قال محمد بن الحنفية: هي للبرّ و الفاجر، البرّ في الآخرة، و الفاجر في الدنيا فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ فإن من جملتها الإحسان إليكم في الدنيا و الآخرة بالخلق و الرزق، و الإرشاد إلى العمل الصالح، و الزجر عن العمل العذّي لا يرضاه

(١). البقرة: ١٥٢.

(٢). الإسراء: ٨.

وَ مِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ أَي: و من دون تينك الجنتين الموصوفتين بالصفات المتقدّمة جنتان أخريان لمن دون أصحاب الجنتين السابقتين من أهل الجنة، و معنى «من دونهما» أي: من أمامهما و من قبلهما، أي: هما أقرب منهما و أدنى إلى العرش، و قيل: الجنتان الأوليان جنّة عدن و جنّة النعيم، و الأخريان جنّة الفردوس و جنّة المأوى. قال ابن جريج: هي أربع جنات: جنتان منهما

للسابقين المقرّبين فيهما من كلّ فاكهته زَوْجَانِ و «عينان تجريان»، و جنتان لأصحاب اليمين فيهما فاكهته وَ نَخْلٌ وَ رُمَانٌ وَ فيهما عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ قال ابن زيد: إن الأوليين من ذهب للمقرّبين، و الآخرين من ورق «١» لأصحاب اليمين فَبَائِي آلَاءِ رَبُّكُمَا تُكذَّبَانِ فإنها كلها حقّ و نعم لا يمكن جحدّها. ثم وصف سبحانه هاتين الجنتين الآخرين فقال: مُدْهَمَّتَانِ و ما بينهما اعتراض. قال أبو عبيدة و الزجاج: من خضرتهما قد اسودّتا من الرّزى، و كل ما علاه السواد ربا فهو مدهم. قال مجاهد: مسودتان، و اللّهمّة فى اللّغة: السواد، يقال فرس أدهم و بعير أدهم؛ إذا اشتدّت زرقته حتى ذهب البياض الذى فيه فَبَائِي آلَاءِ رَبُّكُمَا تُكذَّبَانِ فإن جميعها نعم ظاهرة واضحة لا تجحد و لا تنكر فيهما عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ النضخ: فوران الماء من العين، و المعنى:

أن فى الجنتين المذكورتين عينين فوّارتين. قال أهل اللّغة: و النضخ بالخاء المعجمة أكثر من النضخ بالحاء المهملة.

قال الحسن و مجاهد: تنضخ على أولياء الله بالمسك و العنبر و الكافور فى دور أهل الجنة كما ينضخ رش المطر.

و قال سعيد بن جبیر: إنها تنضخ بأنواع الفواكه و الماء فَبَائِي آلَاءِ رَبُّكُمَا تُكذَّبَانِ فإنها ليست بموضع للتكذيب و لا بمكان للجحد فيهما فاكهته وَ نَخْلٌ وَ رُمَانٌ هذا من صفات الجنتين المذكورتين قريبا، و النخل و الرمان و إن كانا من الفاكهة لكنهما خصّصا بالذكر لمزيد حسنهما و كثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه؛ كما حكاه الزجاج و الأزهرى و غيرهما. و قيل: إنّما خصّيهما لكثرتهما فى أرض العرب، و قيل: خصّيهما لأن النخل فاكهته و طعام، و الرمان فاكهته و دواء. و قد ذهب إلى أنهما من جملة الفاكهة جمهور أهل العلم، و لم يخالف فى ذلك إلا أبو حنيفة، و قد خالفه صاحبه أبو يوسف و محمد فَبَائِي آلَاءِ رَبُّكُمَا تُكذَّبَانِ فإن من جملتها هذه النعم التى فى جنات النعيم، و مجرد الحكاية لها أثر فى نفوس السامعين و تجذبهم إلى طاعة رب العالمين فيهنّ خيراتٌ حسانٌ قرأ الجمهور: خيراتٌ بالتخفيف، و قرأ قتادة و ابن السّميق و أبو رجاء العطاردى و بكر بن حبيب السهمى و ابن مقسم و النهدي بالتشديد، فعلى القراءة الأولى هى جمع خيرة بزنة فعلة بسكون العين، يقال: امرأة خيرة و أخرى شرّة، أو جمع خيرة مخفّف خيرة، و على القراءة الثانية جمع خيرة بالتشديد. قال الواحدى: قال المفسرون: الخيرات: النساء خيرات الأخلاق و حسان الوجوه.

قيل: و هذه الصفة عائده إلى الجنان الأربع، و لا وجه لهذا، فإنه قد وصف نساء الجنتين الأوليين بأنهنّ قاصرات الطرف كأنهنّ الياقوت و المَرْجَانُ و بين الصفتين بون بعيد فَبَائِي آلَاءِ رَبُّكُمَا تُكذَّبَانِ فإن شيئا منها كائنا ما كان لا يقبل التكذيب حورٌ مَقْصُورَاتٌ فى الخيامِ أى: محبوسات، و منه القصر، لأنه يجبس من فيه، و الحور جمع حوراء، و هى شديدة بياض العين شديدة سوادها، و قد تقدّم بيان معنى الحوراء

(١). «ورق»: فضة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٧٢

و الخلاف فيه. و قيل معنى «مَقْصُورَاتٌ»: أنهنّ قصرن على أزواجهنّ فلا يردن غيرهم، و حكاه الواحدى عن المفسرين. و الأوّل أولى، و به قال أبو عبيدة و مقاتل و غيرهما. قال فى الصّيحاح: قصرت الشىء أقصره قصرا: حبسته، و المعنى: أنهنّ خدّرن فى الخيام. و الخيام جمع خيمة، و قيل: جمع خيم، و الخيم: جمع خيمة، و هى أعواد تنصب و تظلل بالثياب، فتكون أبرد من الأخبية. قيل: الخيمة من خيام الجنة درة مجوّفة فرسخ فى فرسخ. و ارتفاع «حور» على البدلية من خيرات لم يطمئنهنّ إنس قبلهم و لا جانّ قد تقدّم تفسيره فى صفة الجنتين الأوليين فَبَائِي آلَاءِ رَبُّكُمَا تُكذَّبَانِ فإنها كلها نعم لا تكفر و ممن لا تجحد مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ انتصاب «مُتَكَبِّرِينَ» على الحال أو المدح كما سبق، قال أبو عبيدة: الرفارف: البسط، و به قال الحسن و مقاتل و الضحاك و غيرهم. و قال ابن عيينة: هى الزرابى. و قال ابن كيسان: هى المرافق.

و روى عن أبي عبيدة أنه قال: هي حاشية الثوب. وقال الليث: ضرب من الثياب الخضرة. وقيل: الفرش المرتفعة، وقيل: كل ثوب عريض. قال في الصحاح: والرّفرف: ثياب خضرة تتخذ منها المحابس، الواحدة رفرفة. وقال الزجاج: قالوا الرّفرف هنا رياض الجنة، وقالوا: الرّفرف: الوسائد، وقالوا: الرّفرف:

المحابس اه. و من القائلين بأنها رياض الجنة سعيد بن جبير، و اشتقاق الرّفرف من رَفَّ يرفّ؛ إذا ارتفع، و منه رفرفة الطائر، و هي تحريك جناحيه فى الهواء. قرأ الجمهور: رَفْرَفٍ على الإفراد. و قرأ عثمان بن عفان و الحسن و الجحدري رفارف على الجمع و عَبْقَرِيٌّ حسان العبقرى: الزرابى و الطنافس الموشية. قال أبو عبيدة: كلّ و شى من البسط عبقرى، و هو منسوب إلى أرض يعمل فيه الوشى. قال الفراء:

العبقرى: الطنافس الثخان. و قيل: الزرابى، و قيل: البسط، و قيل: الديقاج. قال ابن الأنبارى: الأصل فيه أن عبقرية تسكنها الجن ينسب إليها كل فائق، قال الخليل: العبقرى عند العرب كل جليل فاضل فاخر من الرجال و النساء، و منه قول زهير:

بخيل عليها جنّة عبقرية جديرون يوما أن ينالوا فيستعلوا

قال الجوهري: العبقرى موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن. قال لبيد:

كهل و شبان كجنّة عبقر (١) ثم نسبوا إليه كل شىء تعجبوا من حدقه و جودة صنعته و قوته فقالوا: عبقرى، و هو واحد و جمع. قرأ الجمهور: عَبْقَرِيٌّ و قرأ عثمان بن عفان و الحسن و الجحدري «عبقرى» و قرئ «عباقر» و هما نسبة إلى عباقر اسم بلد. و قال قطرب: ليس بمنسوب، و هو مثل كرسى و بختى و بخاتى. قرأ الجمهور خُضِرَ بضم الخاء و سكون الضاد، و قرئ بضمهما و هي لغة قليلة. فَبَأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فإن كل واحد منها أجلّ من أن يتطرق إليه التكذيب، و أعظم من أن يجحده جاحد أو ينكره منكر، و قد

---

(١). و صدره: و من فاد من إخوانهم و بنيتهم.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٧٣

قدّمنا فى أوّل هذه السورة وجه تكرير هذه الآية فلا نعيده تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ تبارك:

تفاعل، من البركة، قال الرّازى: و أصل التبارك من التبرّك، و هو الدوام و الثبات، و منه برك البعير و بركة الماء فإن الماء يكون دائما، و المعنى: دام اسمه و ثبت أو دام الخير عنده، لأن البركة و إن كانت من الثبات لكنها تستعمل فى الخير، أو يكون معناه علا و ارتفع شأنه. و قيل معناه: تنزيه الله سبحانه و تقديسه، و إذا كان هذا التبارك منسوبا إلى اسمه عزّ و جلّ، فما ظنك بذاته سبحانه، و قيل: الاسم بمعنى الصفة، و قيل:

هو مقحم كما فى قول الشاعر:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما من يبيك حولا كاملا فقد اعتذر

و قد تقدّم تفسير ذى الجلال و الإكرام فى هذه السورة. قرأ الجمهور: «ذى الجلال» على أنه صفة للربّ سبحانه. و قرأ ابن عامر ذو الجلال على أنه صفة لاسم.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ قال: وعد الله المؤمنين الذين خافوا مقامه فأدوا فرائضه الجنة. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية يقول: خاف ثم اتقى، و الخائف:

من ركب طاعة الله و ترك معصيته. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن عطاء: أنها نزلت فى أبى بكر. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن شوذب مثله. و أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود فى الآية قال: لمن خافه فى الدنيا. و أخرج ابن أبى

شيبه و أحمد و ابن منيع و الحاكم و الترمذى و النسائى و البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى الدرداء: «أن النبى صلى الله عليه و سلم قرأ هذه الآية و لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ فقلت: و إن زنى و إن سرق يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم الثانية: و لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ فقلت: و إن زنى و إن سرق يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم الثانية: و لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ فقلت: و إن زنى و إن سرق، فقال الثالثة: و لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ فقلت:

و إن زنى و إن سرق، قال نعم: و إن رغم أنف أبى الدرداء». و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «و لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ فقال أبو الدرداء: و إن زنى و إن سرق يا رسول الله؟ قال: و إن زنى و إن سرق، و إن رغم أنف أبى الدرداء». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن يسار مولى لآل معاوية عن أبى الدرداء فى قوله: و لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ قال: قيل لأبى الدرداء: و إن زنى و إن سرق؟ قال: من خاف مقام ربه و لم يزن و لم يسرق. و أخرج ابن مردويه عن ابن شهاب قال:

كنت عند هشام بن عبد الملك، فقال قال أبو هريرة: «قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: و لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ قال أبو هريرة: و إن زنى و إن سرق؟ فقلت: إنما كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض، فلما نزلت الفرائض ذهب هذا». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «جنان الفردوس أربع جنات: جنتان من ذهب حليتهما و أبنيتهما و ما فيهما، و جنتان من فضة حليتهما و أبنيتهما و ما فيهما، و ما بين القوم و بين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه و سلم فى قوله: و لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ و فى قوله:

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٧٤

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ قال: «جنتان من ذهب للمقربين، و جنتان من ورق لأصحاب اليمين». و أخرج ابن أبى شيبه و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن أبى موسى فى قوله: و لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ قال: جنتان من ذهب للسابقين، و جنتان من فضة للتابعين.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ذَوَاتَا أَفْنَانٍ قال: ذواتا ألوان.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ذَوَاتَا أَفْنَانٍ قال: ذواتا ألوان.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: فَنَّ غَصُونَهُمَا يَمَسُّ بَعْضُهَا بَعْضًا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا قال: الفَنُّ: الغصن. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد، و عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن ابن مسعود فى قوله:

مُتَّكِّئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ قال: أخبرتم بالبطائن، فكيف الظهائر؟ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس أنه قيل له: بطائنها من إستبرق، فما الظواهر؟ قال: ذلك مما قال الله:

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عنه فى قوله: وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ قال: جناها: ثمرها، و الدانى: القريب منك يناله القائم و القاعد. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عنه أيضا فى قوله:

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ يقول: عن غير أزواجهن لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ يقول: لم يدن منهن أو لم يدمهن.

و أخرج أحمد و ابن حبان، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى البعث، عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه و سلم فى

قوله: كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ قَالَ: تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة، و إن أدنى لؤلؤة عليها لتضىء ما بين المشرق والمغرب، و إنه يكون عليها سبعون ثوبا، و ينفذها بصره حتى يرى مَخَّ ساقها من وراء ذلك». و أخرج ابن أبي شيبة و هناد بن السرى و الترمذى، و ابن أبي الدنيا فى صفة الجنة، و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه و سلم قال:

«إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلّة، حتى يرى مَخَّها، و ذلك أن الله يقول: كأنهنّ الياقوت و المرجان، فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه» و قد رواه الترمذى موقوفا، و قال: هو أصح. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، و ضعفه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم فى «قوله: هَيْلُ جَزَاءِ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ قَالَ: ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة». و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و البغوى فى تفسيره، و الديلمى فى مسند الفردوس، و ابن النجار فى تاريخه، عن أنس مرفوعا مثله، و أخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا فى الآية قال: «هل جزاء من أنعمت عليه بالإسلام إلا أن أدخله الجنة». و أخرج ابن النجار فى تاريخه، عن على بن أبى طالب مرفوعا مثل حديث ابن عمر. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: هَيْلُ جَزَاءِ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ قَالَ: هل جزاء من قال لا إله إلا الله فى الدنيا إلا الجنة فى الآخرة. و أخرج ابن عدى و أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى، و البيهقى فى الشعب، و ضعفه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أنزل الله على هذه الآية فى

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٧٥

سورة الرحمن للكافر و المسلم: هل جزاء الإحسان إلا الإحسان». و أخرجه ابن مردويه مرفوعا على ابن عباس. و أخرج هناد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: مُدْهَامَتَانِ قَالَ: هما خضراوان. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: قد اسودتا من الخضرة من الرى من الماء.

و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير عن ابن عبد الله بن الزبير نحوه. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى قال: سألت النبى صلى الله عليه و سلم عن قوله: مُدْهَامَتَانِ قَالَ: خضراوان.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس نَصَّاحَتَانِ قَالَ: فائضتان. و أخرج عبد بن حميد عنه قال: ينضخان بالماء. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: خَيْرَاتُ حِسَانٍ قَالَ: لكل مسلم خيرة، و لكل خيرة خيمة و لكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها من الله كل يوم تحفة و كرامة و هدية لم تكن قبل ذلك، لا-مراحت، و لا طمّاحات، و لا بخرات «١»، و لا-دفرات «٢»، حور عين كأنهن بيض مكنون. و أخرجه ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعا. و أخرج عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: حُورٌ قَالَ: بيض مَقْصُورَاتٌ قَالَ: محبوسات فى الخيام قال: فى بيوت اللؤلؤ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم قال:

الحور: سود الحدق. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: «الخيام درّ مجوّف». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه و سلم «الخيمة درّة مجوّفة طولها فى السماء ستون ميلا، فى كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن». و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: مُتَّكِبِينَ عَلَى رَفْرَفٍ قَالَ: فضول المحابس و الفرش و البسط. و أخرج عبد بن حميد عن على بن أبى طالب قال: هى فضول المحابس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن المنذر، و البيهقى فى البعث، من طرق عن ابن عباس رَفْرَفٍ حُضْرٍ قَالَ:



المحاسب وَ عَبْقَرِيٌّ حَسَانٌ قَالَ: الزرّابي. وَ أخرج عبد بن حميد عنه في الآية قال: الرّفرف: الرّياض، وَ العبقرى: الزرّابي.

(١). بخر الفم: أنتنت رائحته.

(٢). دفر الشيء: خبث رائحته. وَ الأدفرف: من فاح ريح صنانه. وَ الدّفار: المنتنه.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٧٦

## سورة الواقعة

### إشارة

هي سبع و تسعون، أو ست و تسعون آية و هي مكية في قول الحسن و عكرمة و جابر و عطاء. و قال ابن عباس و قتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة و هي قوله تعالى: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ «١» و قال الكلبي: إنها مكية إلا أربع آيات منها، و هي أ فَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ- وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ «٢» و قوله: ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ- وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ «٣». و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه، و البيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: نزلت سورة الواقعة بمكة. و أخرج عن ابن الزبير مثله.

و أخرج أبو عبيد في فضائله، و ابن الضريس و الحارث بن أبي أسامة و أبو يعلى و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب، عن ابن مسعود: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا». و أخرج ابن عساكر عن ابن عباس عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «سورة الواقعة سورة الغنى، فاقروها، و علموها أولادكم». و أخرج الديلمي عن أنس قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «علموا نساءكم سورة الواقعة فإنها سورة الغنى» و قد تقدّم قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «شيبتنى هود و الواقعة» ١٥.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ١ الى ٢٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَ بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُتَّبَثًا (٦) وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩)

وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَ أَبَارِيقٍ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَ لَا يُنْزَفُونَ (١٩)

وَ فَاكِهِهٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَ لَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَ حُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جِزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لَا تَأْتِيهِنَّ (٢٥) إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)

قوله: إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ الْوَاقِعَةُ: اسم للقيامه كالآزفة وغيرها، وسميت واقعة لأنها كائنه لا محاله، أو لقرب وقوعها، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد، وانتصاب «إذا» بمضمر، أى: اذكر وقت وقوع الواقعة، أو بالنفى المفهوم من قوله: لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبُهُ أَى: لا يكون عند وقوعها تكذيب، والكاذبه مصدر كالعاقبه، أى: ليس لمجيئها وظهورها كذب أصلا، وقيل: «إذا» شرطية وجوابها مقدر،

(١). الواقعة: ٨٢.

(٢). الواقعة: ٨١-٨٢.

(٣). الواقعة: ١٣-١٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٧٧

أى: إذا وقعت كان كيت و كيت، والجواب هذا هو العامل فيها، وقيل: إنها شرطية، والعامل فيها الفعل الذى بعدها، واختار هذا أبو حيان، وقد سبقه إلى هذا مكى فقال: والعامل وقعت. قال المفسرون: والواقعة هنا هى النفخة الآخرة، ومعنى الآية: أنها إذا وقعت النفخة الآخرة عند البعث لم يكن هناك تكذيب بها أصلا، أو لا يكون هناك نفس تكذيب على الله و تكذيب بما أخبر عنه من أمور الآخرة. قال الزجاج: «ليس لوقعتها كاذبه» أى: لا يردّها شيء، و به قال الحسن و قتادة. و قال الثورى: ليس لوقعتها أحد يكذب بها.

و قال الكسائى: ليس لها تكذيب، أى: لا ينبغى أن يكذب بها أحد خافضة رافعة قرأ الجمهور برفعهما على إضمار مبتدأ، أى: هى خافضة رافعة. و قرأ الحسن و عيسى الثقفى بنصبهما على الحال. قال عكرمة و السدى و مقاتل: خففت الصوت فأسمعت من دنا، و رفعت الصوت فأسمعت من نأى، أى: أسمعت القريب و البعيد. و قال قتادة: خففت أقواما فى عذاب الله، و رفعت أقواما إلى طاعة الله. و قال محمد بن كعب: خففت أقواما كانوا فى الدنيا مرفوعين، و رفعت أقواما كانوا فى الدنيا مخفوضين. و العرب تستعمل الخفض و الرفع فى المكان و المكانة و العز و الإهانة، و نسبة الخفض و الرفع إليها على طريق المجاز، و الخافض و الرافع فى الحقيقة هو الله سبحانه. إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا أَى: إِذَا حَرَّكَتْ حَرَكَةً شَدِيدَةً، يقال: رَجَّه يَرْجُه رَجًّا إِذَا حَرَّكَه، و الرَّجَّةُ: الاضطراب، و ارتج البحر: اضطرب. قال المفسرون: ترتج كما يرتج الصبى فى المهد حتى ينهدم كل ما عليها، و ينكسر كل شيء من الجبال و غيرها. قال قتادة و مقاتل و مجاهد: معنى رجت:

زلزلت، و الظرف متعلق بقوله: خافضة رافعة أى: تخفض و ترفع وقت رج الأرض و بس الجبال؛ لأنه عند ذلك يرتفع ما هو منخفض و ينخفض ما هو مرتفع. و قيل: إنه بدل من الظرف الأول ذكره الزجاج، فىكون معنى وقوع الواقعة هو رج الأرض، و بس الجبال. وَ بَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا الْبَسُّ: الفت، يقال: بس الشيء إذا فته حتى يصير فتاتا، و يقال: بس السوق: إذابته بالسمن أو بالزيت. قال مجاهد و مقاتل: المعنى أن الجبال فتت فتا. و قال السدى: كسرت كسرا. و قال الحسن: قلعت من أصلها. و قال مجاهد أيضا.

بست كما يبس الدقيق بالسمن أو بالزيت، و المعنى: أنها خلطت فصارت كالدقيق الملتوت. و قال أبو زيد:

البس السوق، و المعنى على هذا: سقت الجبال سوقا. قال أبو عبيد: بس الإبل و أبسها لغتان؛ إذا زجرها.

و قال عكرمة: المعنى هدت هذا فكانت هباءً مُبْتَأً أَى: غبارا متفرقا منتشرا. قال مجاهد: الهباء الشعاع الذى يكون فى الكوة كهية الغبار، و قيل: هو الزهج الذى يسطع من حوافر الدواب ثم يذهب، و قيل:

ما تطاير من النار إذا اضطرت على سورة الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئا، و قد تقدم بيانه فى الفرقان عند تفسير قوله: فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً

مَنْشُوراً «١» قرأ الجمهور مُتَّبِعاً بالمثلثة. وقرأ مسروق والنخعي وأبو حيوة بالتاء المشناة من فوق. أى: منقطعاً، من قولهم: بته الله، أى: قطعه. ثم ذكر سبحانه أحوال الناس واختلافهم فقال: وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً و الخطاب لجميع الناس أو للأمة الحاضرة، و الأزواج:

الأصناف، والمعنى: و كنتم فى ذلك اليوم أصنافاً ثلاثة. ثم فسّر سبحانه هذه الأصناف فقال:

(١). الفرقان: ٢٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٧٨

فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ أى: أصحاب اليمين، و هم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، أو الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، و أصحاب الميمنة مبتدأ، و خبره: ما أصحاب الميمنة، أى: أى شىء هم فى حالهم وصفتهم، و الاستفهام للتعظيم و التفخيم، و تكرير المبتدأ هنا بلفظه مغن عن الضمير الرابط، كما فى قوله:

الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ «١» و الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ «٢» و لا يجوز مثل هذا إلا فى مواضع التفخيم و التعظيم، و الكلام فى أصحاب الْمَشْئِمَةِ ما أَصْحَابُ الْمَشْئِمَةِ كالكلام فى أصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة، و المراد الذى يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، أو يأخذون صحائف أعمالهم بشمالهم، و المراد تعجب السامع من حال الفريقين فى الفخامة و الفظاعة، كأنه قيل: فأصحاب الميمنة فى نهاية السعادة و حسن الحال، و أصحاب المشأمة فى نهاية الشقاوة و سوء الحال. و قال السدى: أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه، و أصحاب المشأمة هم الذين كانوا عن شماله. و قال زيد بن أسلم: أصحاب الميمنة هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن، و أصحاب المشأمة هم الذين أخذوا من شقه الأيسر. و قال ابن جريج: أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات، و أصحاب المشأمة هم أهل السيئات. و قال الحسن و الربيع: أصحاب الميمنة هم الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة، و أصحاب المشأمة هم المشائيم على أنفسهم بالأعمال القبيحة. و قال المبرد: أصحاب الميمنة أصحاب التقدم، و أصحاب المشأمة أصحاب التأخر، و العرب تقول:

اجعلنى فى يمينك و لا تجعلنى فى شمالك، أى: اجعلنى من المتقدمين و لا تجعلنى من المتأخرين، و منه قول ابن الدمينه:

أبَيْتِي أفى يمينى يديك جعلتنى فأفرح أم صيرتنى فى شمالك

ثم ذكر سبحانه الصنف الثالث فقال: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ و التكرير فيه للتفخيم و التعظيم كما مرّ فى القسمين الأولين، كما تقول أنت أنت و زيد زيد، و السابقون مبتدأ، و خبره السابقون. و فيه تأويلان:

أحد هما أنه بمعنى السابقون هم الذين اشتهرت حالهم بذلك. و الثانى: أن متعلق السابقين مختلف، و التقدير:

و السابقون إلى الإيمان السابقون إلى الجنة. و الأول أولى لما فيه من الدلالة على التفخيم و التعظيم. قال الحسن و قتادة: هم السابقون إلى الإيمان من كل أمة. و قال محمد بن كعب: إنهم الأنبياء. و قال ابن سيرين:

هم الذين صلّوا إلى القبلتين. و قال مجاهد: هم الذين سبقوا إلى الجهاد، و به قال الضحاك. و قال سعيد بن جبیر: هم السابقون إلى التوبة و أعمال البرّ. و قال الزجاج: المعنى و السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله. و قيل: و وجه تأخير هذا الصنف الثالث مع كونه أشرف من الصنفين الأولين هو أن يقترن به ما بعده، و هو قوله: أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فى جنّات النعيم فالإشارة هى إليهم، أى: المقربون إلى جزيل ثواب الله و عظيم كرامته، أو الذين قربت درجاتهم و أعليت مراتبهم عند الله. و قوله: فى جنّات النعيم متعلق بالمقربون، أى مقربون عند الله فى جنّات النعيم. و يجوز أن يكون خبراً ثانياً لأولئك، و أن يكون

حالا من

(١). الحاقه: ١-٢.

(٢). القارعة: ١-٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٧٩

الضمير في المقربون، أى: كائنين فيها. قرأ الجمهور: فى جَنَاتٍ بالجمع، وقرأ طلحة بن مصرف «فى جنه» بالإفراد، وإضافة الجنات إلى النعيم من إضافة المكان إلى ما يكون فيه كما يقال: دار الضيافة ودار الدعوة ودار العدل، وارتفاع ثلث من الأولين على أنه خير مبتدأ محذوف، أى: هم ثلث، وثلث الجماعة التي لا يحصر عددها. قال الزجاج: معنى ثلث معنى فرقة، من ثلث الشئ؛ إذا قطعت، والمراد بالأولين هم الأمم السابقة من لدن آدم إلى نبينا صلى الله عليه وسلم وقليل من الآخرين أى: من هذه الأمة، وسموا قليلا بالنسبة إلى من كان قبلهم، وهم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم وكثرة من أجابهم. قال الحسن: سابقوا من مضى أكثر من سابقينا. قال الزجاج: الذين عاينوا جميع الأنبياء وصدقوا بهم أكثر ممن عاين النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يخالف هذا ما ثبت فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم: «إنى لأرجو أن تكونوا ريع أهل الجنة». ثم قال: ثلث أهل الجنة، ثم قال: نصف أهل الجنة» لأين قوله: ثلث من الأولين\* وقليل من الآخرين إنما هو تفصيل للسابقين فقط كما سيأتى فى ذكر أصحاب اليمين أنهم ثلث من الأولين وثلث من الآخرين، فلا يمتنع أن يكون فى أصحاب اليمين من هذه الأمة من هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم، فيجتمع من قليل سابقى هذه الأمة و من ثلث أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة، والمقابلة بين الثلثين فى أصحاب اليمين لا تستلزم استواءهما لجواز أن يقال: هذه الثلث أكثر من هذه الثلث، كما يقال: هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة وهذه الفرقة أكثر من هذه الفرقة، وهذه القطعة أكثر من هذه القطعة. وبهذا تعرف أنه لم يصب من قال إن هذه الآية منسوخة بالحديث المذكور. ثم ذكر سبحانه حالة أخرى للسابقين المقربين فقال: على سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ قرأ الجمهور سُرُرٍ بضم السين والراء الأولى، وقرأ أبو السيمال وزيد بن عليّ بفتح الراء، وهى لغة كما تقدم، والموضونة: المنسوجة: والوضن: النسج المضاعف. قال الواحدى: قال المفسرون: منسوجة بقضبان الذهب، وقيل: مشبكة بالدرّ والياقوت والزبرجد، وقيل: إن الموضونة: المصفوفة. وقال مجاهد:

الموضونة: المرمولة «١» بالذهب، وانتصاب مُتَكَيِّفٍ عَلَيْهَا على الحال، وكذا انتصاب مُتَقَابِلِينَ والمعنى: مستقرين على سرر متكئين عليها متقابلين لا ينظر بعضهم قفا بعض يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلِدَانٌ مُّخَلَّدُونَ الجملة فى محل نصب على الحال من المقربين، أو مستأنفة لبيان بعض ما أعد الله لهم من النعيم، والمعنى يدور حولهم للخدمة غلمان لا يهرمون ولا يتغيرون، بل شكلهم شكل الولدان دائما. قال مجاهد: المعنى لا يموتون.

وقال الحسن والكلبى: لا يهرمون ولا يتغيرون. قال الفراء: والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط إنه لمخلد. وقال سعيد بن جبير: مخلدون مقرطون. قال الفراء: ويقال مخلدون: مقرطون، يقال: خلد جاريتته؛ إذا حلاها بالخلدة، وهى القرط. وقال عكرمة: مخلدون: منعمون، ومنه قول امرئ القيس:

وهل ينعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال

وقيل: مستورون بالحلية، وروى نحوه عن الفراء، ومنه قول الشاعر:

(١). «مرمولة»: منسوجة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٨٠ و مخلدات باللجين كأنما أعجازهن أفاوز «١» الكشبان

وقيل: مخلدون: منطلقون، قيل: وهم ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً ولا- حسنة لهم ولا- سيئة، وقيل: هم أطفال المشركين، ولا يبعد أن يكونوا مخلوقين في الجنة للقيام بهذه الخدمة، والأكواب: هي الأقداح المستديرة الأفواه التي لا آذان لها ولا عرى، وقد مضى بيان معناها في سورة الزخرف، والأباريق: هي ذات العرا والخراطيم، واحدها إبريق، وهو الذي يبرق لونه من صفائه وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ أَي: من خمر جارية أو من ماء جار، والمراد به هاهنا الخمر الجارية من العيون، وقد تقدم بيان معنى الكأس في سورة الصافات لا- يُصَيِّدُ دَعْوَانَ عَنُهَا أَي: لا تصدع رؤوسهم من شربها كما تصدع من شرب خمر الدنيا. و الصداع:

هو الداء المعروف الذي يلحق الإنسان في رأسه، وقيل: لا يصدعون لا يتفرقون كما يتفرق الشراب، ويقوى هذا المعنى قراءة مجاهد يصدعون بفتح الياء و تشديد الصاد، والأصل يتصدعون، أَي: يتفرقون، و الجملة مستأنفة لبيان ما أعد الله لهم من النعيم، أو في محل نصب على الحال، و جملة وَ لَا يُنْزِفُونَ معطوفة على الجملة التي قبلها، و قد تقدم اختلاف القراءة في هذا الحرف في سورة الصافات، و كذلك تقدم تفسيره، أَي: لا يسكرون فتذهب عقولهم، من أنزف الشارب؛ إذا نفذ عقله أو شربه، و منه قول الشاعر (٢):

لعمري لئن أنزفتم أو صحتم لبئس الندامى كنتم آل أبحرا

وَ فَاكِهَةٌ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ أَي: يختارونه، يقال: تخيرت الشيء: إذا أخذت خيره. قرأ الجمهور وَ فَاكِهَةٌ بالجر وَ كذا لحم عطفاً على أكواب، أَي: يطوفون عليهم بهذه الأشياء المأكول والمشروب والمتفكه به. و قرأ زيد بن علي و أبو عبد الرحمن برفعهما على الابتداء، و الخبر مقدر، أَي: و لهم فاكهة و لحم، و معنى مِمَّا يَشْتَهُونَ مِمَّا يَتَمَنُونَهُ و تشتهيه أنفسهم وَ حُورٌ عَيْنٌ - كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ قرأ الجمهور: وَ حُورٌ عَيْنٌ برفعهما عطفاً على ولدان، أو على تقدير مبتدأ، أَي: نساؤهم حور عين، أو على تقدير خبر، أَي: و لهم حور عين، و قرأ حمزة و الكسائي بجرهما عطفاً على أكواب. قال الزجاج: و جائز أن يكون معطوفاً على جنات، أَي: هم في جنات و في حور على تقدير مضاف محذوف، أَي: و في معاشره حور. قال الفراء: في توجيه العطف على أكواب إنه يجوز الجر على الاتباع في اللفظ و إن اختلفا في المعنى؛ لأن الحور لا يطاف بهن، كما في قول الشاعر:

إذا ما الغايات برزن يوماً وزججن الحواجب و العيونا

و العين لا تزجج و إنما تكحل. و من هذا قول الشاعر:

علفتها تنبا و ماء باردا

(١). «الأقاوز»: جمع قوز: و هو كتيب من الرمل صغير؛ شبه به أرداف النساء.

(٢). هو الحطيئة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٨١

و قول الآخر:

مقلداً سيفاً و رمحاً (١) قال قطرب: هو معطوف على الأ-كواب و الأباريق من غير حمل على المعنى. قال: و لا ينكر أن يطاف عليهم بالحور، و يكون لهم في ذلك لذة. و قرأ الأشهب العقيلي و النخعي و عيسى بن عمر بنصبهما على تقدير إضمار فعل، كأنه قيل: و يزوجون حورا عينا، أو و يعطون، و رجح أبو عبيد و أبو حاتم قراءة الجمهور.

ثم شبههن سبحانه باللؤلؤ المكنون، و هو الذي لم تمسه الأيدي و لا وقع عليه الغبار، فهو أشد ما يكون صفاء، و انتصاب جزاء في قوله: جزاء بما كانوا يعملون على أنه مفعول له، أَي: يفعل بهم ذلك كله للجزاء بأعمالهم. و يجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لفعل محذوف، أَي: يجوزون جزاء، و قد تقدم تفسير الحور العين في سورة الطور و غيرها لا يسهَمُونَ فِيهَا لَعْوًا وَ لَا تَأْتِيماً اللغو:

الباطل من الكلام، و التأثيم النسبة إلى الإثم. قال محمد بن كعب: لا يؤثم بعضهم بعضا، و قال مجاهد: لا يسمعون شتما و لا ماثما، و المعنى:

أنه لا- يقول بعضهم لبعض أئمت لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم إلا قِيلًا سَيِّئًا سَيِّئًا قِيلًا سَيِّئًا سَيِّئًا القيل: القول، و الاستثناء منقطع، أى: لكن يقولون قِيلا أو يسمعون قِيلا و انتصاب سلاما سلاما على أنه بدل من «قِيلا»، أو صفة له، أو هو مفعول به لقِيلا، أى: إلا أن يقولوا سلاما سلاما، و اختار هذا الزجاج، أو على أنه منصوب بفعل هو محكى بقِيلا، أى: إلا قِيلا سلموا سلاما سلاما، و المعنى فى الآية: أنهم لا يسمعون إلا تحية بعضهم لبعض. قال عطاء: يحيى بعضهم بعضا بالسلام، و قيل: إن الاستثناء متصل و هو بعيد، لأن التحية ليست مميّا يندرج تحت اللغو و التأثيم، و قرئ سلام سلام بالرفع. قال مكى: و يجوز الرفع على معنى سلام عليكم مبتدأ و خبر.

و قد أخرج ابن أبى شيبه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ قَالَ: يوم القيامة لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَادِيَةٌ قَالَ: ليس لها مرد يرد خافضة رافعة قال: تخفض ناسا و ترفع آخرين. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه خافضة رافعة قال: أسمعت القريب و البعيد. و أخرج ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب خافضة رافعة قال: الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، و رفعت أولياء الله إلى الجنة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا قَالَ: زلزلت و بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا قَالَ: فتت فكانت هباءً مئبًا قال: شعاع الشمس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فكانت هباءً مئبًا قال: الهباء الذى يطير من النار إذا أضمرت يطير منها الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئا. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال: الهباء: ما يثور مع شعاع الشمس، و انبثائه تفرقه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن علي بن أبى طالب قال: الهباء المنبث: رهج الدواب، و الهباء المنثور: غبار الشمس الذى تراه فى شعاع الكوّة. و أخرج ابن

(١). و صدره: و رأيت زوجك فى الوغى.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٨٢

أبى حاتم عن ابن عباس وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجًا قَالَ: أصنافا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً قَالَ: هى التى فى سورة الملائكة: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ «١». و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ قَالَ: يوشع بن نون سبق إلى موسى، و مؤمن آل ياسين سبق إلى عيسى، و على بن أبى طالب سبق إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: نزلت فى حزقيل مؤمن آل فرعون، و حبيب النجار الذى ذكر فى يس، و على بن أبى طالب، و كل رجل منهم سابق أمته، و على أفضلهم سبقا. و أخرج أحمد عن معاذ بن جبل «أن رسول الله صلى الله عليه و سلم تلا هذه الآية وَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ وَ أَصْحَابُ الشَّمَالِ فقبض بيديه قبضتين فقال: هذه فى الجنة و لا أبالى، و هذه فى النار و لا أبالى». و أخرج أحمد أيضا عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: «أ تدررون من السابقون إلى ظلّ الله يوم القيامة؟ قالوا: الله و رسوله أعلم، قال: الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، و إذا سئلوا بدلوا، و حكموا للناس كحكمهم لأنفسهم». و أخرج أحمد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: لما نزلت: ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ - وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ شَقَّ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، فنزلت: ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ فقال النبى صلى الله عليه و سلم: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة و تقاسمونها النصف الثانى». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس: على سرر مؤصونته قال: مصفوفة.

و أخرج سعيد بن منصور و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و البيهقي في البعث، عنه قال: مرمولة بالذهب. و أخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة، و البزار، و ابن مردويه في البعث، عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيختر بين يديك مشويا». و أخرج أحمد و الترمذي و الضياء عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى في شجر الجنة، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن هذه الطير لناعمة، قال: آكلها أنعم منها، و إنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها» و في الباب أحاديث. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ قال: الذي في الصدف. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه لا يسمعون فيها لغواً قال: باطلاً و لا تأثيماً قال: كذبا.

### [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٢٧ الى ٥٦]

وَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَ طَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٩) وَ ظِلِّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَ مَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَ فَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَ لَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَ فُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً (٣٦) عُرْبًا أَتْرَاباً (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى (٣٩) وَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠) وَ أَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ (٤٢) وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَ لَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَ كَانُوا يُصْرُوفُونَ عَلَى الْحِثِّ الْعَظِيمِ (٤٦) وَ كَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مَنَّا وَ كُنَّا تُرَاباً وَ عِظَاماً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوْلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأُولَى وَ الْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَأَكَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ (٥٢) فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ (٥٥) هَذَا نُزِّلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦)

(١). فاطر: ٣٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٨٣

لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال السابقين و ما أعدّه لهم من النعيم المقيم، ذكر أحوال أصحاب اليمين فقال: وَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ قد قدّمنا وجه إعراب هذا الكلام، و ما في هذه الجملة الاستفهامية من التفخيم و التعظيم، و هي خبر المبتدأ. و هو أصحاب اليمين، و قوله: فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف، أى: هم في سدر مخضود، و السدر: نوع من الشجر، و المخضود: الذي خضد شوكه، أى: قطع فلا شوك فيه. قال أمية بن أبي الصلت يصف الجنة: إِنَّ الْحِدَائِقَ فِي الْجَنَانِ ظَلِيلَةٌ فِيهَا الْكُوعَابُ سَدْرَهَا مَخْضُودٌ

و قال الضحاك و مجاهد و مقاتل بن حيان: إن السدر المخضود: الموقر حملا وَ طَلْحٍ مَّنْضُودٍ قال أكثر المفسرين: إن الطلح في الآية هو شجر الموز. و قال جماعة: ليس هو شجر الموز، و لكنه الطلح المعروف، و هو أعظم أشجار العرب. قال الفراء و أبو عبيدة: هو شجر عظام لها شوك. قال الزجاج: الطلح هو أم غيلان. و لها نور طيب، فخطبوا و وعدوا بما يحبون، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا. قال: و يجوز أن يكون في الجنة و قد أزيل شوكه. قال السدي: طلح الجنة يشبه طلح الدنيا، لكن له ثمر أحلى من العسل، و المنضود: المتراكب العذى قد نضد أوله و آخره بالحمل ليس له سوق

بارزة.

قال مسروق: أشجار الجنة من عروقتها إلى أفنانها نضيد، ثم كله، كلما أخذت ثمرة عاد مكانها أحسن منها وظلّ ممدودٍ أى: دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس. قال أبو عبيدة: والعرب تقول لكل شيء طويل لا ينقطع ممدود، ومنه قوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ (١) والجنة كلها ظل لا شمس معه.

قال الربيع بن أنس: يعنى ظلّ العرش، ومن استعمال العرب للممدود فى الدائم الذى لا ينقطع قول لبيد:

غلب العزاء و كنت غير مغلب دهر طويل دائم ممدود

و ماءٍ مَسِيكُوبٍ أى: منصّب يجرى بالليل والنهار أينما شأوا لا- ينقطع عنهم، فهو مسكوب يسكبه الله فى مجاريه، وأصل السكب: الصب، يقال سكب سكباً، أى: صبّه وَ فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ أى: ألوان متنوعه متكررة لا مَقْطُوعَةٌ فى وقت من الأوقات كما تنقطع فواكه الدنيا فى بعض الأوقات وَ لا مَمْنُوعَةٌ أى: لا تمتنع على من أرادها فى أى وقت على أى صفة، بل هى معدة لمن أرادها لا يحول بينه

(١). الفرقان: ٤٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٨٤

وبينها حائل. قال ابن قتيبة: يعنى أنها غير محظورة عليها كما يحظر على بساتين الدنيا وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ أى:

مرفوع بعضها فوق بعض، أو مرفوعة على الأسرّة. وقيل: إن الفرش هنا كناية عن النساء اللواتى فى الجنة، وارتفاعها كونها على الأرائك، أو كونها مرتفعات الأقدار فى الحسن والكمال إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً أى:

خلقناهن خلقاً جديداً من غير توالد، وقيل: المراد نساء بنى آدم، والمعنى: أن الله سبحانه أعادهن بعد الموت إلى حال الشباب، والنساء وإن لم يتقدم لهن ذكر لكنهن قد دخلن فى أصحاب اليمين، وأما على قول من قال:

إن الفرش المرفوعة عين النساء فمرجع الضمير ظاهر فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا. لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ\* (١). عُرْبًا أَتْرَابًا العرب: جمع عروب، وهى المتحبيبة إلى زوجها، قال المبرد: هى العاشقة لزوجها، ومنه قول لبيد:

وفى الخباء عروب غير فاحشة رياء الزوادف يعشى ضوءها البصرا (٢)

وقال زيد بن أسلم: هى الحسنه الكلام. قرأ الجمهور بضم العين والراء. وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بإسكان الراء وهما لغتان فى جمع فعول، والأتراب: هن اللواتى على ميلاد واحد و سنّ واحد. وقال مجاهد:

أتراباً: أمثالا وأشكالاً. وقال السدى: أتراباً فى الأخلاق لا تباغض بينهم ولا تحاسد. قوله: لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ متعلق بأنشأناهن، أو

بجعلنا، أو بأترابا، والمعنى: أن الله أنشأهن لأجلهم، أو خلقهن لأجلهم، أو هن مساويات لأصحاب اليمين فى السنّ، أو هو خبر لمبتدأ محذوف، أى: هن لأصحاب اليمين ثلّة من الأولين - وَ ثَلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ هذا راجع إلى قوله: وَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ما أصحاب

اليمين أى: هم ثلّة من الأولين و ثلّة من الآخرين، وقد تقدّم تفسير الثلّة عند ذكر السابقين، والمعنى: أنهم جماعة أو أمه أو فرقة أو قطعة من الأولين، وهم من لدن آدم إلى نبينا صلى الله عليه وسلم و جماعة أو أمه أو فرقة أو قطعة من الآخرين وهم أمه

محمد صلى الله عليه وسلم. وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبى رباح والضحاك: «ثَلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ» يعنى: من سابقى هذه الأمة، «وَ ثَلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ»: من هذه الأمة من آخرها. ثم لما فرغ سبحانه مما أعدّه لأصحاب اليمين شرع فى ذكر أصحاب

الشمال وما أعدّه لهم فقال: وَ أَصْحَابِ الشُّمَالِ ما أصحابُ الشُّمَالِ الكلام فى إعراب هذا وما فيه من التفخيم كما سبق فى أصحاب اليمين، وقوله: فى سَيُّمٍ وَ حَمِيمٍ إما خبر ثان لأصحاب الشمال أو خبر مبتدأ محذوف، و السموم: حرّ النار، و الحميم:



الماء الحارّ الشديد الحرارة، و قد سبق بيان معناه. و قيل: السموم: الريح الحارة التي تدخل في مسامّ البدن و ظلّ من يحموم  
اليحموم يفعلون من الأحم، و هو الأسود؛ و العرب تقول: أسود يحموم؛ إذا كان شديد السواد، و المعنى: أنهم يفزعون إلى الظلّ  
فيجدونه ظلاً- من دخان جهنم شديد السواد. و قيل: و هو مأخوذ من الحم و هو الشّحم المسودّ باحتراق النار. و قيل: مأخوذ من  
الحمم و هو الفحم. قال الضحاك: النار سوداء، و أهلها سود،

(١). الرّحمن: ٥٦ و ٧٤.

(٢). في تفسير القرطبي: يغشى دونها البصر.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٨٥

و كل ما فيها أسود. ثم وصف هذا الظلّ بقوله: لا باردٍ و لا كريمٍ أى: ليس كغيره من الظلال التي تكون باردة، بل هو حار لأنه  
من دخان نار جهنم. قال سعيد بن المسيب: «و لا- كريم»، أى: ليس فيه حسن منظر و كل ما لا- خبر فيه فليس بكريم. قال  
الضحّاك: و لا- كريم و لا- عذب. قال الفراء: العرب تجعلّ الكريم تابعا لكلّ شىء نفت عنه و صفا تنوى به الدم، تقول: ما هو  
بسمين و لا بكريم، و ما هذه الدار بواسعة و لا كريمة. ثم ذكر سبحانه أعمالهم التي استحقّوا بها هذا العذاب فقال: إِنَّهُمْ كَانُوا  
قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ و هذه الجملة تعليل لما قبلها، أى: إنهم كانوا قبل هذا العذاب مترفين في الدنيا، أى: منعمين بما لا يحلّ  
لهم، و المترف: المتنعم. و قال السدي: مشركين، و قيل: متكبرين، و الأوّل أولى و كانوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ الْحِنثُ:  
الذنب، أى: يصرون على الذنب العظيم. قال الواحدي: قال أهل التفسير:

عنى به الشرك، أى: كانوا لا يتوبون عن الشرك. و به قال الحسن و الضحاك و ابن زيد. و قال قتادة و مجاهد:

هو الذنب العظيم الّذى لا- يتوبون عنه. و قال الشعبي: هو اليمين الغموس، و كانوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَ إِنَّا  
لَمَبْعُوثُونَ الهمزة في الموضوعين للإنكار و الاستبعاد، و قد تقدّم الكلام على هذا في الصافات، و في سورة الرعد، و المعنى: أنهم  
أنكروا و استبعدوا أن يبعثوا بعد الموت، و قد صاروا عظاما و ترابا، و المراد أنه صار لحمهم و جلودهم ترابا، و صارت عظامهم  
نخرة باليه، و العامل في الظرف ما يدلّ عليه مبعوثون، لأن ما بعد الاستفهام لا يعمل فيما قبله، أى: أ نبعث إذا متنا؟ إلخ أ و آباؤنا  
الأوّلون معطوف على الضمير في لمبعوثون لوقوع الفصل بينهما بالهمزة، و المعنى: أن بعث آباؤهم الأوّلين أبعد لتقدّم موتهم، و  
قرئ و آباؤنا. ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم و يردّ استبعادهم فقال: قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ أَى: قل  
لهم يا محمد إن الأوّلين من الأمم و الآخريين منهم الذين أنتم من جملةهم لمجموعون بعد البعث إلى ميقات يوم معلوم و هو يوم  
القيامة ثمّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكذِّبُونَ هذا و ما بعده من جملة ما هو داخل تحت القول، و هو معطوف على إنَّ الْأَوَّلِينَ و  
وصفهم سبحانه بوصفين قبيحين، و هما الضلال عن الحقّ و التكذيب له لآكلون من شجرٍ من زقوم أَى: لآكلون في الآخرة من  
شجر كرية المنظر كرية الطعام، و قد تقدّم تفسيره في سورة الصافات، و من الأولى لابتداء الغاية، و الثانية بيانية، و يجوز أن  
تكون الأولى مزيدة، و الثانية بيانية، و أن تكون الثانية مزيدة، و الأولى للابتداء فَمَا لَوْ مِنْهَا الْبُطُونَ أَى: مالمون من شجر الزقوم  
بطونكم لما يلحقكم من شدّة الجوع فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ الضمير في عليه إلى الزقوم، و الحميم: الماء الّذى قد بلغ حرّه إلى  
الغاية، و المعنى: فشاربون على الزقوم عقب أكله من الماء الحارّ، و يجوز أن يعود الضمير إلى شجر لأنه يذكّر و يؤنث. و يجوز  
أن يعود إلى الأكل المدلول عليه بقوله: لآكلون و قرئ «من شجرة» بالافراد فَشَارِبُونَ شَرِبَ الْهَيْمِ قرأ الجمهور:

شَرِبَ الْهَيْمِ بفتح الشين، و قرأ نافع و عاصم و حمزة بضمها، و قرأ مجاهد و أبو عثمان النهدي بكسرها، و هى لغات. قال أبو  
زيد: سمعت العرب تقول بضم السين و فتحها و كسرها. قال المبرد: الفتح على أصل المصدر و الضم اسم المصدر، و الهيم:

الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها، و هذه الجملة بيان لما قبلها:

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٨٦

أى: لا يكون شربكم شربا معتادا بل يكون مثل شرب الهيم التي تعطش و لا تروى بشرب الماء، و مفرد الهيم:

أهيم، و الأثنى هيماء. قال قيس بن الملوح:

يقال به داء الهيام أصابه و قد علمت نفسى مكان شفائها

و قال الضحاك و ابن عيينة و الأخفش و ابن كيسان: الهيم: الأرض السهلة ذات الرمل، و المعنى: أنهم يشربون كما تشرب هذه الأرض الماء و لا يظهر له فيها أثر. قال فى الصحاح: الهيام بالضم: أشد العطش، و الهيام كالجنون من العشق، و الهيام: داء يأخذ الإبل تهيم فى الأرض لا ترعى، يقال: ناقه هيماء، و الهيماء أيضا: المفازة لا ماء بها، و الهيام بالفتح: الرمل الذى لا يتماسك فى اليد للينه، و الجمع هيم، مثل قذال و قذل، و الهيام بالكسر الإبل العطاش. هذا نُزِّلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ قرأ الجمهور: نُزِّلَهُمْ بضمين، و روى عن أبى عمرو و ابن محيصن بضمه و سكون، و قد تقدم أن النزول ما يعد للضيف، و يكون أول ما يأكله، و يوم الدين يوم الجزاء و هو يوم القيامة، و المعنى: أن ما ذكر من شجر الزقوم و شراب الحميم هو الذى يعد لهم و يأكلونه يوم القيامة، و فى هذا تهكم بهم؛ لأن النزول هو ما يعد للأضياف تكرمه لهم، و مثل هذا قوله:

فَبَشَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ\* (١).

و قد أخرج الحاكم و صححه، و البيهقى عن أبى أمامة قال: «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم يقولون:

إن الله ينفعنا بالأعراب و مسائلهم، أقبل أعرابى يوما فقال: يا رسول الله ذكر فى القرآن شجرة مؤذية، و ما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها. قال: و ما هى؟ قال: السدر فإن لها شوكا، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: أليس الله يقول: فى سدرٍ مَخْضُودٍ؟ يخضد الله شوكة فيجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها تنبت ثمرا يتفتق الثمر منها عن اثنين و سبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر». و أخرج ابن أبى داود و الطبرانى، و أبو نعيم فى الحلية، و ابن مردويه عن عيينة بن عبد السلمى قال: «كنت جالسا مع النبى صلى الله عليه و سلم، فجاء أعرابى فقال: يا رسول الله أسمعك تذكر فى الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكا منها: يعنى الطلح، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصية التيس الملبود- يعنى: الخصى منها- فيها سبعون لونا من الطعام لا يشبه لون آخر» و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: سدرٍ مَخْضُودٍ قال: خضده: وقره من الحمل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر من طرق عنه قال: المخبود: الذى لا شوكة فيه. و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال: المخبود:

الموقر الذى لا شوكة فيه. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن مردويه عن على بن أبى طالب فى قوله: وَ طَلَحٍ مَّنْضُودٍ قال: هو الموز. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر من طرق عن ابن عباس مثله. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن

(١). آل عمران: ٢١ و التوبة: ٣٤ و الانشقاق: ٢٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٨٧

أبى هريرة مثله. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب أنه قرأ: و طلع منضود و أخرج ابن جرير، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن قيس بن عباد قال: قرأت على على بن أبى طالب وَ طَلَحٍ مَّنْضُودٍ فقال على: ما بال الطلح، أما تقرأ: و طلع؟ ثم قال: «و طلع نضيد» ف قيل له: يا أمير

المؤمنين أن يحكّمها في المصحف؟ قال: لا يهاج القرآن اليوم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: مَنْصُودٍ قال: بعضه على بعض. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث أبى هريرة عن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجْرَةَ يَسِيرِ الرَّابِكِ فِي ظِلِّهَا مِائَةٌ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، اقْرءُوا إِن شِئْتُمْ: وَ ظِلٌّ مَمْدُودٍ». و أخرج البخارى و غيره نحوه من حديث أنس. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما نحوه من حديث أبى سعيد. و أخرج أحمد، و الترمذى و حسّنه، و النسائى و غيرهم عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: وَ فُرْشٌ مَرْفُوعَةٌ قال:

ارتفاعها كما بين السماء و الأرض، و مسيرة ما بينهما خمسمائة عام. قال الترمذى بعد إخراجها: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد انتهى، و رشدين ضعيف. و أخرج الفريابى و هناد و عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى في البعث، عن أنس قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «إِنَّا أَنْشَأْنَا هُنَّ» إِنْشَاءً قال: «إِنِ الْمُنْشَأَاتُ اللَّاتِي كُنَّ فِي الدُّنْيَا عَجَائِزَ عَمَشَا رَمَصًا» قال الترمذى بعد إخراجها: غريب، و موسى و يزيد ضعيفان. و أخرج الطيالسى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه و ابن قانع، و البيهقى في البعث، عن سلمة بن يزيد الجعفى سمعت النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في قوله: «إِنَّا أَنْشَأْنَا هُنَّ» إِنْشَاءً قال: «الْثِيَابُ وَ الْأَبْكَارُ اللَّاتِي كُنَّ فِي الدُّنْيَا». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: خَلَقَهُنَّ الْأَوَّلُ. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أبكاراً قال: عذارى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى في البعث، من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس في قوله: «عُرْبًا» قال: عواشق أتراباً يقول: مستويات. و أخرج ابن أبى حاتم عنه عُرْبًا قال: عواشق لأزواجهن، و أزواجهن لهن عاشقون أتراباً قال: في سنّ واحد ثلاثاً و ثلاثين سنة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضاً قال: العروب الملقّة لزوجها. و أخرج مسدّد في مسنده و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه بسند حسن عن أبى بكره عن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ» قال:

«جميعهما من هذه الأمة». و أخرج أبو داود الطيالسى و مسدّد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبى بكره في قوله: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ - وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ» قال: هما جميعاً من هذه الأمة. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن عدى و ابن مردويه. قال السيوطى بسند ضعيف عن ابن عباس «في قوله: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ» قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هما جميعاً من أمتى».

و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال: الثلثان جميعاً من هذه الأمة. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٨٨

في قوله: وَ ظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ قال: من دخان أسود، و فى لفظ: من دخان جهنم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله: شُرْبَ الْهَيْمِ قال: الإبل العطاش.

### [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٥٧ الى ٧٤]

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْ لَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَمْ فَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَمْ أَنْتُمْ خَالِقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ يُبَدَّلَ أَمْثَالِكُمْ وَ نُشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَ لَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَاءَ الْأُولَى فَلَوْ لَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمْ فَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَمْ أَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حِطَامًا فَظَلَّمْتُمْ نَفْسَكُمْ (٦٥) إِنَّا لَمُعْرِمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَمْ فَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَمْ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَاغًا

فَلَوْ لَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَمْ فَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١)

أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَرَمَازًا لِلْمُقِيمِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)  
قوله: نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْ لَا تَصَدَّقُونَ التفت سبحانه إلى خطاب الكفرة تبكيًا لهم و إلزامًا للحجة، أى: فهلا تصدقون بالبعث أو بالخلق. قال مقاتل: خلقناكم و لم تكونوا شيئًا و أنتم تعلمون ذلك فهلا تصدقون بالبعث؟ أَمْ فَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أى: ما تقذفون و تصبون فى أرحام النساء من النطف، و معنى أَمْ فَرَأَيْتُمْ:

أخبرونى، و مفعولها الأول ما تمنون، و الثانى: الجملة الاستفهامية، و هى أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ أى: تقدرونه و تصورونه بشرًا أم نحن المقدرون المصورون له، و «أم» هى المتصلة، و قيل: هى المنقطعة، و الأول أولى. قرأ الجمهور: «تَمْنُونَ» بضم الفوقية من أمنى يمنى. و قرأ ابن عباس و أبو السَّيِّمَال و محمد ابن السَّيِّمِيق و الأشهب العقيلي بفتحها من منى يمنى، و هما لغتان، و قيل: معناهما مختلف، يقال: أمنى إذا أنزل عن جماع، و منى إذا أنزل عن احتلام، و سُمى المنى منىا لأنه يمنى، أى: يراق، نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ قرأ الجمهور قَدَرْنَا بالتشديد، و قرأ مجاهد و حميد و ابن محيصن و ابن كثير بالتخفيف، و هما لغتان، يقال: قدرت الشيء و قدرته، أى: قسمناه عليكم و وقتناه لكل فرد من أفرادكم، و قيل: قضينا، و قيل: كتبنا، و المعنى متقارب. قال مقاتل: فمنكم من يموت كبيرًا و منكم من يموت صغيرًا. و قال الضَّحَّاك: معناه أنه جعل أهل السماء و أهل الأرض فيه سواء، وَ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ بمغلوبين، بل قادرين على أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ أى: نأتى بخلق مثلكم. قال الزجاج: إن أردنا أن نخلق خلقًا غيركم لم يسبقنا سابق و لا يفوتنا. قال ابن جرير: المعنى نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبذل أَمْثَالَكُمْ بعد موتكم بآخرين من جنسكم و ما نحن بمسبوقين فى آجالكم، أى: لا يتقدم متأخر و لا يتأخر متقدم وَ نُشْئُكُمْ فى ما لا تَعْلَمُونَ من الصور و الهيئات. قال الحسن: أى نجعلكم قرده و خنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم، و قيل: المعنى: نشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا. و قال سعيد بن المسيب: «فيما لا تعلمون»: يعنى فى حواصل طيور سود تكون ببرهوت كأنها الخطاطيف. و برهوت واد باليمن. و قال مجاهد:

فى ما لا تَعْلَمُونَ يعنى فى أى خلق شئنا، و من كان قادرا على هذا فهو قادر على البعث

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٨٩

وَ لَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى وَ هى ابتداء الخلق من نطفه، ثم من علقه، ثم من مضغه و لم تكونوا قبل ذلك شيئًا. و قال قتادة و الضحَّاك: يعنى خلق آدم من تراب فَلَوْ لَا تَذْكُرُونَ أى: فهلا تذكرون قدرة الله سبحانه على النشأة الأخيرة و تقيسونها على النشأة الأولى. قرأ الجمهور: النَّشْأَةَ بالقصر، و قرأ مجاهد و الحسن و ابن كثير و أبو عمرو بالمد، و قد مضى تفسير هذا فى سورة العنكبوت أَمْ فَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أى: أخبرونى ما تحرثون من أرضكم فطرحون فيه البذر أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أى: تبتونه و تجعلونه زرعًا فىكون فيه السنبل و الحب أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ أى: المنبتون له الجاعلون له زرعًا لا أنتم. قال المبرد: يقال زرعه الله، أى: أنماه؛ فإذا أقررتم بهذا فكيف تنكرون البعث لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا أى: لو نشاء جعلناه ما تحرثون حطامًا، أى: متحطما متكسرا، و الحطام: الهشيم الذى لا ينتفع به و لا يحصل منه حب و لا شىء مما يطلب من الحرث فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ أى: صرتم تعجبون. قال الفراء: تفكّهون تعجبون فيما نزل بكم فى زرعكم. قال فى الصحاح: و تفكّه: تعجب، و يقال: تندم. قال الحسن و قتادة و غيرهما: معنى الآية:

تعجبون من ذهابها و تندمون ممّا حلّ بكم. و قال عكرمة: تلاومون و تندمون على ما سلف منكم من معصية الله. و قال أبو عمرو و الكسائى: هو التلهف على ما فات. قرأ الجمهور: فَظَلْتُمْ بفتح الظاء مع لام واحدة. و قرأ أبو حيوة و أبو بكر فى رواية عنه بكسر الظاء. و قرأ ابن عباس و الجحدري «فظلتم» بلامين، أولاهما مكسورة على الأصل، و روى عن الجحدري فتحها، و هى

لغته. وقرأ الجمهور: تَفَكَّهُونَ وقرأ أبو حزام العكلى تَفَكَّنونَ بالنون مكان الهاء، أى: تندمون. قال ابن خالويه: تفكّه: تعجب.  
و تفكَّن: تندم. و فى الصحاح: التفكن: التندم إنا لَمُغْرَمُونَ قرأ الجمهور بهمزة واحدة على الخبر، وقرأ أبو بكر والمفضل وزر  
بن حبيش بهمزيين على الاستفهام، و الجملة بتقدير القول، أى: تقولون إنا لمغرمون، أى: ملزمون غربا بما هلك من زرعنا، و  
المغرم المذى ذهب ماله بغير عوض، قال الضحاك و ابن كيسان. و قيل: إنا لمعدبون، قال قتادة و غيره. و قال مجاهد و عكرمة:  
لمولع بنا، و منه قول النمر بن تولب:

سلا عن تذكره تكتماو كان رهينا بها مغرما

يقال: أغرم فلان بفلانة، أى: أولع. و قال مقاتل: مهلكون. قال النحاس: مأخوذ من الغرام، و هو الهلاك، و منه قول الشاعر «١»:

يوم النَّسار و يوم الجفار كانا عليكم عذابا مقيما «٢»

و الظاهر من السياق المعنى الأول، أى: إنا لمغرمون بذهاب ما حرثناه و مصيره حطاما، ثم أضربوا عن قولهم هذا و انتقلوا، فقالوا:  
بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أى: حرمتنا رزقنا بهلاك زرعنا، و المحروم: الممنوع

(١). هو بشر بن أبى حازم.

(٢). فى تفسير القرطبي. و كان عذابا و كان غراما.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٩٠

من الرزق الذى لا حظ له فيه، و هو المحارف. أ فرَأَيْتُمُ الماءَ الذى تَشْرَبُونَ فتسكنون به ما يلحقكم من العطش، و تدفعون به ما  
ينزل بكم من الظمأ. و اقتصر سبحانه على ذكر الشرب مع كثرة فوائد الماء و منافعه، لأنه أعظم فوائده و أجل منافعه أ أنتم  
أنزلتموه من المزنِ أى: السحاب: قال فى الصحاح:

قال أبو زيد: المزنة: السحابة البيضاء. و الجمع مزن. و المزنة: المطرة. قال الشاعر «١»:

ألم تر أنّ الله أنزل مزنه و عفر الظباء فى الكناس تقمّع

و ممّا يدلّ على أنه السحاب قول الشاعر:

فنحن كماء المزن ما فى نصابنا كهام و لا فىنا يعدّ بخيل «٢»

و قول الآخر:

فلا مزنه و دقت و دقهاو لا أرض أبقل إبقالها

أم نحن المُنزِلُونَ له بقدرتنا دون غيرنا، فإذا عرفتم ذلك، فكيف لا تقرّون بالتوحيد و تصدقون بالبعث. ثم بين لهم سبحانه أنه لو  
يشاء لسلبهم هذه النعمة فقال: لو نشاء جَعَلْنَا أَجَاجاً الأجاج:

الماء الشديد الملوحة الذى لا يمكن شربه، و قال الحسن: هو الماء المرّ الذى لا ينتفعون به فى شرب و لا زرع و لا غير هما فلو  
لا تَشْكُرُونَ أى: فهلا تشكرون نعمة الله الذى خلق لكم ماء عذبا تشربون منه و تنتفعون به أ فرَأَيْتُمُ النَّارَ التى تُورُونَ أى: أخبرونى  
عنها، و معنى تورون: تستخرجونها بالقدح من الشجر الرطب، يقال: أوريت النار إذا قدحتها أ أنتم أنشأتم شجرتها التى يكون  
منها الرّناد، و هى المرخ و العفار، تقول العرب: فى كل شجر نار، و استمجد المرخ و العفار أم نحن المُنشِئُونَ لها بقدرتنا دونكم.  
و معنى الإنشاء الخلق، و عبّر عنه بالإنشاء للدلالة على ما فى ذلك من بديع الصنعة و عجب القدرة نحنُ جَعَلْنَا تَذَكِّرَةً أى:  
جعلنا هذه النار التى فى الدنيا تذكرةً لنار جهنم الكبرى. قال مجاهد و قتادة:

تبصرة للناس فى الظلام، و قال عطاء: موعظةً ليتّعظ به المؤمن و متاعاً للمُؤمِنِينَ أى: منفعةً للذين ينزلون بالقواء، و هى الأرض

القفر كالمسافرين و أهل البوادي النازلين فى الأراضى المقفرة، يقال: أرض قواء بالمد و القصر، أى: مقفرة، و منه قول النابغة:  
يا دارميه بالعلياء فالسند أقوت و طال عليها سالف الأمد  
و قال عنترة:

حييت من طلل تقادم عهده أقوى و أقفر بعد أم الهيثم

(١). هو أوس بن حجر.

(٢). «نصاب» أصل. «كهام»: ثقيل، لا غناء عنده.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٩١

و قول الآخر «١»:

ألم تسأل الرّبع القواء فينطق؟ و هل تخبرنك اليوم بيدا سملق؟ «٢»

و يقال: أقوى إذا سافر، أى: نزل القوى. و قال مجاهد: المقوين: المستمتعين بها من الناس أجمعين فى الطبخ و الخبز و الاصطلاء  
و الاستضاءء، و تذكر نار جهنم. و قال ابن زيد: للجائعين فى إصلاح طعامهم، يقال: أقوى منذ كذا و كذا، أى: ما أكلت شيئا، و  
بات فلان القوى، أى: بات جائعا، و منه قول الشاعر «٣»:

و إنى لأختار القوى طاوى الحشى محافظةً من أن يقال لثيم

و قال قطرب: المقوى من الأضداد يكون بمعنى الفقر، و يكون بمعنى الغنى؛ يقال: أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد، و أقوى إذا  
قويت دوابه و كثر ماله. و حكى الثعلبى عن أكثر المفسرين القول الأوّل، و هو الظاهر فسّيح باسم ربك العظيم الفاء لترتيب ما  
بعدها من ذكر الله سبحانه، و تنزيه على ما قبلها مما عدده من النعم التى أنعم بها على عباده و جوده المشركين لها و تكذيبهم  
بها.

و قد أخرج البزار و ابن جرير و ابن مردويه و أبو نعيم، و البيهقى فى الشعب، و ضعفه، عن أبى هريرة.

قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «لا يقولن أحدكم زرعت، و لكن يقول: حرثت». قال أبو هريرة: ألم تسمعوا الله يقول:  
أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ و أخرج ابن جرير عن ابن عباس تفكّهون قال: تعجبون. و أخرج ابن جرير  
و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس. قال:

المُزَنِ السحاب. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس نحن  
جعلناها تذكراً قال: تذكراً للنار الكبرى و متاعاً للمقوين قال: للمسافرين.

### [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٧٥ الى ٩٦]

فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَ إِنَّهُ لَفَسِيحٌ لِّمُتَعَلِّمِينَ عَظِيمٍ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا  
الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ  
(٨٣) وَ أَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤)

وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ  
مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَ رِيحَانٌ وَ جِنَّةٌ نَعِيمٍ (٨٩)

وَ أَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَ أَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَتَزَلُّ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَ تَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ (٩٤)  
إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)

(١). هو جميل.

(٢). «سملق»: هي الأرض المستوية.

(٣). هو حاتم الطائي.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٩٢

قوله: فلا أقسم ذهب جمهور المفسرين إلا- أن «لا» مزيدة للتوكيد، والمعنى: فأقسم، و يؤيد هذا قوله بعد وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ وَ قَالَ جماعه من المفسرين: إنها لنفى، و إن المنفى بها محذوف، و هو كلام الكفار الجاحدين. قال الفراء: هي نفى، و المعنى: ليس الأمر كما تقولون. ثم استأنف فقال: أقسم، و ضعف هذا بأن حذف اسم لا و خبرها غير جائز، كما قال أبو حيان و غيره. و قيل: إنها لام الابتداء، و الأصل:

فلا أقسم فأشبع الفتحة فتولد منها ألف، كقول الشاعر:

أعوذ بالله من العقراب «١» و قد قرأ هكذا فلا أقسم بدون ألف الحسن و حميد و عيسى بن عمر، و على هذا القول، و هذه القراءة؛ يقدر مبتدأ محذوف، و التقدير: فلأنا أقسم بذلك. و قيل: إن «لا» هنا بمعنى ألا التي للتنبيه، و هو بعيد. و قيل: «لا» هنا على ظاهرها، و إنها لنفى القسم، أى: فلا أقسم على هذا لأن الأمر أوضح من ذلك، و هذا مدفوع بقوله: وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَغْلَمُونَ عَظِيمٌ مع تعيين المقسم به و المقسم عليه، و معنى قوله: بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ مساقطها، و هي مغاربها، كذا قال قتادة و غيره. و قال عطاء بن أبي رباح:

منزلها. و قال الحسن: انكدارها و انتشارها يوم القيامة، و قال الضحاك: هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون: مطرنا بنوء كذا. و قيل: المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوما من اللوح المحفوظ، و به قال السدي و غيره، و حكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن. قرأ الجمهور: بِمَوَاقِعِ عَلَى الْجَمْعِ، و قرأ ابن مسعود و النخعي و حمزة و الكسائي و ابن محيصن و ورش «٢» عن يعقوب «بموقع» على الإفراد. قال المبرد: «موقع» هاهنا مصدر، فهو يصلح للواحد و الجمع. ثم أخبر سبحانه عن تعظيم هذا القسم و تفخيمه فقال: وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَغْلَمُونَ عَظِيمٌ هذه الجملة معترضة بين المقسم به و المقسم عليه، و قوله: لَوْ تَغْلَمُونَ جملة معترضة بين جزأى الجملة المعترضة، فهو اعتراض فى اعتراض. قال الفراء و الزجاج: هذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن، و الضمير فى «إنه» على القسم الذى يدل عليه أقسم، و المعنى أن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون. ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ أى: كرمه الله و أعزه و رفع قدره على جميع الكتب، و كرمه عن أن يكون سحرا أو كهانة أو كذبا، و قيل: إنه كريم لما فيه من كرم الأخلاق و معالى الأمور، و قيل: لأنه يكرم حافظه و يعظم قارئه.

و حكى الواحدى عن أهل المعانى أن وصف القرآن بالكريم، لأن من شأنه أن يعطى الخير الكثير بالدلائل التي تؤدى إلى الحق فى الدين. قال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمده، و القرآن كريم يحمده لما فيه من الهدى و البيان و العلم و الحكمة فى كتاب مكنون أى: مستور مصون، و قيل: محفوظ عن الباطل، و هو اللوح

(١). و تتمته في تاج العروس:

الشَّائِلَاتِ عَقْدَ الْأَذْنَابِ وَالشَّاهِدِ فِي قَوْلِهِ: «عُقْرَابٌ» حَيْثُ أَشْبَعَتِ الرَّاءُ الْمَفْتُوحَةَ فَصَارَتْ عُقْرَابٌ. وَالْأَصْلُ: عُقْرَبٌ.

(٢). فِي تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ: رُوِيَ بِدَلِّ وَرَشٍ.

فَتْحُ الْقَدِيرِ، ج ٥، ص: ١٩٣

المحفوظ، قاله جماعة. وقيل: هو كتاب. وقال عكرمة: هو التوراة والإنجيل فيهما ذكر القرآن ومن ينزل عليه، وقال السدي: هو الزبور. وقال مجاهد و قتادة: هو المصحف الذي في أيدينا لا يمسه إلا المطهرون قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الكتاب المكنون، أي: لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون، وهم الملائكة، وقيل: هم الملائكة والرسل من بنى آدم، ومعنى «لا يمسه» المس الحقيقي، وقيل: معناه: لا ينزل به إلا المطهرون، وقيل: معناه: لا يقرؤه، وعلى كون المراد الكتاب المكنون هو القرآن، فقيل لا يمسه إلا المطهرون من الأحداث والأنجاس. كذا قال قتادة وغيره: وقال الكلبي:

المطهرون من الشرك. وقال الربيع بن أنس: المطهرون من الذنوب والخطايا. وقال محمد بن الفضل وغيره:

معنى لا يمسه: لا يقرؤه، إلا المطهرون أي: إلا الموحدون. وقال الفراء: لا يجد نفعه وبركته إلا المطهرون، أي: المؤمنون. وقال الحسين بن الفضل: لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق.

وقد ذهب الجمهور إلى منع المحدث من مس المصحف، وبه قال عليّ وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وسعيد ابن زيد و عطاء والزهرى والنخعي والحكم و حماد و جماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي. و روى عن ابن عباس والشعبي و جماعة منهم أبو حنيفة، أنه يجوز للمحدث مسه، وقد أوضحنا ما هو الحق في هذا في شرحنا للمنتقى فليرجع إليه. قرأ الجمهور: الْمُطَهَّرُونَ بتخفيف الطاء و تشديد الهاء مفتوحة اسم مفعول. و قرأ سلمان الفارسي بكسر الهاء على أنه اسم فاعل، أي: المطهرون أنفسهم. و قرأ نافع و ابن عمر، و في رواية عنهما عيسى بن عمر، بسكون الطاء و فتح الهاء خفيفة، اسم مفعول من أظهر، و قرأ الحسن و زيد بن عليّ و عبد الله بن عوف بتشديد الطاء و كسر الهاء، و أصله المتطهرون. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ قرأ الجمهور بالرفع، و قرئ بالنصب، فالرفع على أنه صفة أخرى للقرآن، أو خير مبتدأ محذوف، و النصب على الحال أ فَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ الإشارة إلى القرآن المنعوت بالنعوت السابقة، و المدهن و المدهن المنافق.

كذا قال الزجاج وغيره و قال عطاء وغيره: هو الكذاب. و قال مقاتل بن سليمان و قتادة: «مدهنون»:

كافرون، كما في قوله: وَدُّوا لَوْ تَدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ و قال الضحّاك: «مدهنون»: معرضون، و قال مجاهد: مماثلون للكفار على الكفر، و قال أبو كيسان: المدهن: الذي لا يعقل حق الله عليه و يدفعه بالعلل.

و الأول أولى؛ لأن أصل المدهن الذي ظاهره خلاف باطنه كأنه يشبه الدهن في سهولته. قال المؤرّج: المدهن:

المنافق الذي يلين جانبه ليخفى كفره، و الإدهان و المدهانة: التكذيب و الكفر و النفاق، و أصله اللين، و أن يسرّ خلاف ما يظهر، و قال في الكشف: «مدهنون» أي: متهاونون به، كمن يدهن في الأمر، أي:

يلين جانبه و لا يتصلب فيه تهاونا به، انتهى. قال الراغب: و الإدهان في الأصل مثل التدهين لكن جعل عبارة عن المداراة و الملاينة، و ترك الجذ: كما جعل التقريد، و هو نزع القراء عبارة عن ذلك، و يؤيد ما ذكره قول أبي قيس بن الأسلت:

الحزم و القوّة خير من الإدهان و الفهّة و الهاع «١»

(١). «الفهّة»: العي. «الهاع»: سوء الحرص مع ضعف.



وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ فِي الْكَلَامِ مضاف محذوف، كما حكاه الواحدى عن المفسرين، أى: تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون بنعمة الله فتضعون التكذيب موضع الشكر. وقال الهيثم: إن أزد شنوءة يقولون: ما رزق فلان؟ أى: ما شكره. و على هذه اللغة لا يكون فى الآية مضاف محذوف بل معنى الرزق و الشكر. و وجه التعبير بالرزق عن الشكر أن الشكر يفيض زيادة الرزق فيكون الشكر رزقا تعبيراً بالسبب عن المسبب، و مما يدخل تحت هذه الآية قول الكفار إذا سقاهم الله، و أنزل عليهم المطر: سقيناً بنوء كذا، و مطرنا بنوء كذا. قال الأزهري: معنى الآية و تجعلون بدل شكركم رزقكم الذى رزقكم الله التكذيب بأنه من عند الله الرزاق. و قرأ على و ابن عباس «و تجعلون شكركم» و قرأ الجمهور أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ بالتشديد من التكذيب، و قرأ على و عاصم فى رواية عنه بالتخفيف من الكذب. فَلَوْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ أى: فهلا إذا بلغت الروح، أو النفس، الحلقوم عند الموت، و لم يتقدم لها ذكر؛ لأن المعنى مفهوم عندهم إذا جاءوا بمثل هذه العبارة، و منه قول حاتم طى:

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً و ضاق بها الصدر

وَ أَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ إِلَى مَا هُوَ فِيهِ ذَلِكَ الَّذِي بَلَغَتْ نَفْسَهُ أَوْ رُوحَهُ الْحُلُقُومَ. قال الزجاج: و أنتم يا أهل الميت فى تلك الحال ترون الميت قد صار إلى أن تخرج نفسه، و المعنى أنهم فى تلك الحال لا يمكنهم الدفع عنه، و لا يستطيعون شيئاً ينفعه أو يخفف عنه ما هو فيه وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ أى: بالعلم و القدرة و الرؤية، و قيل: أراد و رسلنا الذين يتولون قبضه أقرب إليه منكم وَ لَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ أى: لا تدركون ذلك لجهلكم بأن الله أقرب إلى عبده من جبل الوريد، أو لا تبصرون ملائكة الموت الذين يحضرون الميت و يتولون قبضه فَلَوْ لَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ - تَرْجِعُونَهَا يقال: دان السلطان رعيته؛ إذا ساسهم و استعبدهم. قال الفراء: دنته ملكته، و أنشد للحطيئة:

لقد دينت أمر بنيك حتى تركتهم أذق من الطحين

أى: ملكت، و يقال دانه؛ إذا أذله و استعبده، و قيل: معنى مدينين محاسبين، و قيل: مجزيين، و منه قول الشاعر:

و لم يبق سوى العدوان دنأهم كما دانوا

و المعنى الأمول ألصق بمعنى الآية، أى: فهلا إن كنتم غير مربيين و مملوكين ترجعونها، أى: النفس التى قد بلغت الحلقوم إلى مقرها الذى كانت فيه إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ و لن ترجعوها، فبطل زعمكم إنكم غير مربيين و لا مملوكين، و العامل فى قوله: إذا بلغت هو قوله: ترجعونها، و لو لا الثانية تأكيد للأولى. قال الفراء: و ربما أعادت العرب الحرفين و معناهما واحد. ثم ذكر سبحانه طبقات الخلق عند الموت و بعده فقال:

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ أى: السابقين من الثلاثة الأصناف المتقدم تفصيل أحوالهم فَرُوحٌ وَ رِيحَانٌ وَ جَنَّةٌ نَعِيمٌ قرأ الجمهور فَرُوحٌ بفتح الراء، و معناه الراحة من الدنيا و الاستراحة من أحوالها. و قال

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٩٥

الحسن: الروح: الرحمة. و قال مجاهد: الروح: الفرح. و قرأ ابن عباس و عائشة و الحسن و قتادة و نصر بن عاصم و الجحدري فَرُوحٌ بضم الراء، و رويت هذه القراءة عن يعقوب، قيل: و معنى هذه القراءة الرحمة لأنها كالحياء للمرحوم، و الريحان: الرزق فى الجنة، قاله مجاهد و سعيد بن جبير و مقاتل. هو الرزق بلغة حمير، يقال خرجت أطلب ريحان الله: أى رزقه، و منه قول التمر بن تولى:

سلام الإله و ريحانه و رحمته و سماء درر

و قال قتادة: إنه الجنة. و قال الضحاك: هو الرحمة. و قال الحسن: هو الريحان المعروف الذى يشم.

قال قتادة و الربيع بن خثيم: هذا عن الموت، و الجنة مخبوءة له إلى أن يبعث، و كذا قال أبو الجوزاء و أبو العالية، و معنى «و جنة

نعيم»: أنها ذات تنعم، وارتفاع روح و ما بعده على الابتداء، و الخبر محذوف، أى: فله روح. وَ أَمَّا إِنْ كَانَ ذَلِكَ الْمَتَوَفَى مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ وَ تَفْصِيلُ أَحْوَالِهِمْ وَ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ فَسَيَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ أَى: لست ترى فيهم إلا ما تحب من السلامة، فلا تهتم بهم، فإنهم يسلمون من عذاب الله، و قيل: المعنى: سلام لك منهم، أى: أنت سالم من الاغتمام بهم، و قيل المعنى: إنهم يدعون لك و يسلمون عليك، و قيل: إنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَحِينُ بِالسَّلَامِ إِكْرَامًا، وَ قِيلَ: هُوَ إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِتَسْلِيمِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَ قِيلَ: الْمَعْنَى: سَلَامٌ لَكَ يَا صَاحِبَ الْيَمِينِ مِنْ إِخْوَانِكَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَ أَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ أَى: المكذبين بالبعث الضالين عن الهدى، و هم أصحاب الشمال المتقدم ذكرهم، و تفصيل أحوالهم فَنَزَّلَ مِنْ حَمِيمٍ أَى: فله نزل يعدّ لنزوله من حميم، و هو الماء الذى قد تناهت حرارته، و ذلك بعد أن يأكل من الزقوم كما تقدم بيانه وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ يُقَالُ: أَصْلَاهُ النَّارُ وَ صَلَاةٌ، أَى: إِذَا جَعَلَهُ فِي النَّارِ، وَ هُوَ مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْمَفْعُولِ، أَوْ إِلَى الْمَكَانِ. قَالَ الْمَبْرَدُ: وَ جَوَابُ الشَّرْطِ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ مَحْذُوفٌ، وَ التَّقْدِيرُ: مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فَرُوحٌ إِخْجُ. وَ قَالَ الْأَخْفَشُ: إِنْ الْفَاءُ فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ هِيَ جَوَابٌ أَمَّا، وَ جَوَابُ حَرْفِ الشَّرْطِ. قَرَأَ الْجُمْهُورُ: وَ تَصْلِيَةُ بِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى فَنَزَلَ. وَ قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ بِالْجَرِّ عَطْفًا عَلَى حَمِيمٍ، أَى: فَنَزَلَ مِنْ حَمِيمٍ وَ مِنْ تَصْلِيَةِ جَحِيمٍ. إِنْ هَذَا لَهَوٌ حَقُّ الْيَقِينِ الْإِشَارَةُ إِلَى مَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، أَوْ إِلَى الْمَذْكُورِ قَرِيبًا مِنْ أَحْوَالِ الْمُتَفَرِّقِينَ لَهُ حَقُّ الْيَقِينِ، الْإِشَارَةُ إِلَى مَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، أَوْ إِلَى الْمَذْكُورِ قَرِيبًا مِنْ أَحْوَالِ الْمُتَفَرِّقِينَ لَهُ حَقُّ الْيَقِينِ، أَى:

محض اليقين و خالصه، و إضافة حق إلى اليقين من باب إضافة الشيء إلى نفسه. قال المبرّد: هو كقولك عين اليقين و محض اليقين، هذا عند الكوفيين و جوزوا ذلك لاختلاف اللفظ؛ و أما البصريون فيجعلون المضاف إليه محذوفًا، و التقدير: حق الأمر اليقين أو الخبر اليقين، و الفاء فى فَسَيَبْحُ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى: نزّهه عمّا لا يليق بشأنه، و الباء متعلقة بمحذوف، أى: فسبح متلبسا باسم ربك للتبرك به. و قيل: المعنى: فصلّ بذكر ربك: و قيل: الباء زائدة، و الاسم بمعنى الذات. و قيل: هى للتعدية لأن سبح يتعدى بنفسه تارة و يتعدى بالحرف أخرى، و الأوّل أولى.

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٩٦

و قد أخرج النسائى و ابن جرير و محمد بن نصر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن فى ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم فُزِقَ فى السنين، و فى لفظ: ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوما. ثم قرأَ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و محمد بن نصر و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عنه فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ قال القرآن وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ قال: القرآن. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: نجوم القرآن حين ينزل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى المعرفة، من طرق عن ابن عباس أيضا لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ قال الكتاب المنزل فى السماء لا يمسّه إلا الملائكة.

و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن أنس لا- يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ قال: الملائكة. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن علقمة قال: أتينا سلمان الفارسى فخرج علينا من كنيف، فقلنا له: لو توضأت يا أبا عبد الله ثم قرأت علينا سورة كذا و كذا، قال: إنما قال الله: فى كتاب مكنون- لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ و هو الذى فى السماء لا يمسّه إلا الملائكة، ثم قرأ علينا من القرآن ما شننا. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى داود و ابن المنذر عن عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم عن أبيه قال فى كتاب النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ لعمرو بن حزم: «لا- تمس القرآن إلا- على طهر». و أخرجه مالك فى الموطأ، عن عبد الله بن أبى بكر، و أخرجه أبو داود فى المراسيل، من حديث الزهري قال: قرأت فى صحيفة عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قال: «و لا يمس القرآن إلا طاهر» و قد أسنده الدارقطنى عن عمرو بن حزم و عبد الله بن عمر و عثمان ابن

أبي العاص، وفي أسانيدنا نظر. وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر أنه كان لا يمس المصحف إلا متوضئا.

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر، والحاكم وصححه، عن عبد الرحمن بن زيد قال: كنا مع سلمان فانطلق إلى حاجته، فتواري عنا ثم خرج إلينا، فقلنا: لو توضأت فسألناك عن أشياء من القرآن، فقال: سلوني، فإنني لست أمسه، إنما يمسّه المطهرون، ثم تلا: لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يمس القرآن إلا طاهر». وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل: «أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن كتب له في عهده: أن لا يمس القرآن إلا طاهر». وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عباس في قوله: أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ قال: مكذبون. وأخرج مسلم وابن المنذر وابن مردويه عن عباس قال: «مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة وضعها الله. وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فنزلت هذه الآية فلا أقسم بمواقع النجوم حتى بلغ وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ . وأصل الحديث بدون ذكر أنه سبب نزول الآية ثابت في الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهني، ومن حديث أبي سعيد الخدري، وفي الباب أحاديث. وأخرج أحمد وابن منيع وعبد بن حميد، والترمذي وحسبه، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، والضياء في المختارة، عن علي بن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله:

وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ قال: «شكركم، تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا و بنجم كذا وكذا».

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٩٧

وأخرج ابن عساکر في تاريخه، عن عائشة قالت: ما فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن إلا آيات يسيرة، قوله: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ قال: «شكركم». وأخرج ابن مردويه عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ: «و تجعلون شكركم». وأخرج أبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «و تجعلون شكركم» قال: يعني الأنواء، وما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافرا كانوا يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا، فأنزل الله: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ وأخرج ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي أنه قرأ: «و تجعلون شكركم» وقال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها كذلك. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: غَيْرَ مَدِينِينَ قال: غير محاسنين. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن خثيم فأما إن كان من الْمُقَرَّبِينَ الآية قال: هذا له عند الموت وَ جَنَّةٌ نَعِيمٌ تخبأ له الجنة إلى يوم يبعث وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ - فَنَزَلَ مِنْ حَمِيمٍ قال: هذا عند الموت وَ تَصَلِيَةٌ جَحِيمٍ قال:

تخبأ له الجحيم إلى يوم يبعث. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: فَرُوحٌ قال:

رائحة وَ رِيحَانٌ قال: استراحة. وأخرج ابن جرير عنه قال: يعني بالريحان: المستريح من الدنيا وَ جَنَّةٌ نَعِيمٍ يقول: مغفرة و رحمة. وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال: الريحان: الرزق. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا في قوله: فَسَيَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ قال: تأتيه الملائكة بالسلام من قبل الله تسلم عليه و تخبره أنه من أصحاب اليمين. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا: إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ قال:

ما قصصنا عليك في هذه السورة. وأخرج عنه أيضا: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ قال: فصل لربك.

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو داود وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن عقبه بن

عامر الجهني قال: «لما نزلت على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ قال: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت: سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى قال: اجعلوها في سجودكم».

فتح القدير، ج ٥، ص: ١٩٨

## سورة الحديد

### إشارة

وهي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحديد بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج الطبراني و ابن مردويه، قال السيوطي: بسند ضعيف، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نزلت سورة الحديد يوم الثلاثاء، و خلق الله الحديد يوم الثلاثاء، و قتل ابن آدم أخاه يوم الثلاثاء، و نهى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الحجامه يوم الثلاثاء». و أخرج الديلمي عن جابر مرفوعا: «لا تحتجموا يوم الثلاثاء، فإن سورة الحديد أنزلت على يوم الثلاثاء». و أخرج أحمد، و الترمذي و حسنه، و النسائي و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب، عن العرابض بن سارية: «أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد و قال: إن فيهن آية أفضل من ألف آية». و في إسناده بقيه بن الوليد، و فيه مقال معروف. و قد أخرجه النسائي عن خالد بن معدان قال: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و لم يذكر العرابض بن سارية، فهو مرسل. و أخرج ابن الضريس عن يحيى ابن أبي كثير قال: «كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينام حتى يقرأ المسبحات، و كان يقول: إن فيهن آية أفضل من ألف آية» قال يحيى: فنراها الآية التي في آخر الحشر. و قال ابن كثير في تفسيره: و الآية المشار إليها و الله أعلم هي قوله: هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْبَاطِنُ الآية. و المسبحات المذكورة هي: الحديد، و الحشر، و الصف، و الجمعة، و التغابن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الحديد (٥٧): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ  
(٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْبَاطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)  
لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)

قوله: سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أى: نزهه و مجيده. قال المقاتلان: يعني كل شيء من ذى روح و غيره، و قد تقدم الكلام فى تسييح الجمادات عند تفسير قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ «١» و المراد بالتسييح المسند إلى ما فى السماوات و الأرض من العقلاء و غيرهم

والحيوانات والجمادات: هو ما يعمّ التسييح بلسان المقال؛ كتسييح الملائكة والإنس والجن، و بلسان الحال كتسييح غيرهم، فإن كل موجود يدل على الصانع. وقد أنكر الزجاج أن يكون تسييح غير العقلاء هو تسييح الدلالة، وقال: لو كان هذا تسييح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة، فلم قال: وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ وإنما هو تسييح مقال. واستدل بقوله: وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ «١» فلو كان هذا التسييح من الجبال تسييح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة. وفعل التسييح قد يتعدى بنفسه تارة، كما في قوله: وَ سَبَّحُوهُ وَ بِاللَّامِ أُخْرَى كهذه الآية، وأصله أن يكون متعديا بنفسه؛ لأن معنى سبّحته:

بعده عن السوء، فإذا استعمل باللام فهي إما مزيدة للتأكيد كما في شكرته وشكرت له، أو هي للتعليل، أي: افعل التسييح لأجل الله سبحانه خالصا له، وجاء هذا الفعل في بعض الفواتح ماضيا كهذه الفاتحة، وفي بعضها مضارعا، وفي بعضها أمرا للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبّحة في كل الأوقات، لا يختص تسييحها بوقت دون وقت، بل هي مسبّحة أبدا في الماضي، وستكون مسبّحة أبدا في المستقبل وَ هُوَ الْعَزِيزُ أَى:

القادر الغالب الذي لا ينازعه أحد ولا يمانعه ممانع كائنا ما كان الحكيم الذي يفعل أفعال الحكمة والصواب له ملك السموات والأرض يتصرف فيه وحده ولا ينفذ غير تصرفه وأمره، وقيل: أراد خزائن المطر والنبات وسائر الأرزاق يحيى ويميت الفعلان في محل رفع على أنهما خبر لمبتدأ محذوف، أو في محل نصب على الحال من ضمير له، أو كلام مستأنف لبيان بعض أحكام الملك، والمعنى: أنه يحيى في الدنيا ويميت الأحياء، وقيل: يحيى النطف وهي موات ويميت الأحياء، وقيل: يحيى الموات للبعث وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه شيء كائنا ما كان هُوَ الْأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ الْآخِرُ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، أي: الباقي بعد فناء خلقه وَ الظَّاهِرُ الْعَالِي الْغَالِبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، أو الظاهر وجوده بالأدلة الواضحة وَ الْبَاطِنُ أَى: العالم بما بطن، من قولهم فلان يبطن أمر فلان، أي: يعلم داخله أمره، ويجوز أن يكون المعنى المحتجب عن الأبصار والعقول، وقد فسّر هذه الأسماء الأربعة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي، فيتعين المصير إلى ذلك وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا يعزب عن علمه شيء من المعلومات هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ هذا بيان لبعض ملكه للسموات والأرض. وقد تقدّم تفسيره في سورة الأعراف وفي غيرها مستوفى يعلّم ما يلج في الأرض أي: يدخل فيها من مطر وغيره وما يخرج منها من نبات وغيره وما ينزل من السماء من مطر وغيره وما يخرج فيها أي: يصعد إليها من الملائكة وأعمال العباد، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة سبأ وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ أَى: بقدرته وسلطانه وعلمه، وهذا تمثيل للإحاطة بما يصدر منهم أينما داروا في الأرض من برّ و بحر وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لا يخفى عليه من أعمالكم شيء له ملك السموات والأرض هذا التكرير للتأكيد وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ لا إلى غيره. قرأ الجمهور: «ترجع» مبنيا للمفعول. وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر على البناء للفعل يُولج اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَ يُولج النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ قد تقدّم تفسير هذا في سورة آل عمران، وفي مواضع

وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَى: بضمائر الصدور ومكنوناتها، لا يخفى عليه من ذلك خافية.

وقد أخرج ابن أبي شيبة ومسلم والترمذي والبيهقي عن أبي هريرة قال: جاءت فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

تسأله خادما، فقال قولي: «اللهم رب السموات السبع و رب العرش العظيم، و ربنا و رب كل شىء، منزل التوراه و الإنجيل و الفرقان، فالق الحب و النوى، أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شىء، و أنت الآخر فليس بعدك شىء، و أنت الظاهر فليس فوقك شىء، و أنت الباطن فليس دونك شىء، اقض عنا الدين، و أغننا من الفقر». و أخرج أحمد و مسلم و غيرهما من حديث أبى هريره من وجه آخر مرفوعا مثل هذا فى الأربعة الأسماء المذكوره و تفسيرها. و أخرج أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن عمر و أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: «لا يزال الناس يسألون عن كل شىء حتى يقولوا: هذا الله كان قبل كل شىء، فماذا كان قبل الله؟ فإن قالوا لكم ذلك فقولوا: هو الأول قبل كل شىء، و الآخر فليس بعده شىء، و هو الظاهر فوق كل شىء، و هو الباطن دون كل شىء، و هو بكل شىء عليم». و أخرج أبو داود عن أبى زميل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شىء أجده فى صدري، قال: ما هو؟ قلت:

و الله لا أتكلم به، قال: فقال لى: أشىء من شك؟ قال: و ضحكك، قال: ما نجا من ذلك أحد، قال: حتى أنزل الله: فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك «١» الآية قال: و قال لى: إذا وجدت فى نفسك شيئا فقل: هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكل شىء عليم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ قَالَ: عالم بكم أينما كنتم.

### [سورة الحديد (٥٧): الآيات ٧ الى ١١]

آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَ مَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَ قَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَ مَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قَاتَلَ أَوْلِيَاءِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَ قَاتَلُوا وَ كَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسَيْنِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)

قوله: آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ أى: صدقوا بالتوحيد و بصحة الرسالة، و هذا خطاب لكفار العرب، و يجوز أن يكون خطابا للجميع، و يكون المراد بالأمر بالإيمان فى حق المسلمين الاستمرار عليه، أو الازدياد منه. ثم لما أمرهم بالإيمان أمرهم بالإنفاق فى سبيل الله فقال: وَ أَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ أى:

جعلكم خلفاء فى التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة، فإن المال مال الله و العباد خلفاء الله فى أمواله، فعليهم أن يصرفوها فيما يرضيه. و قيل: جعلكم خلفاء من كان قبلكم ممن تروثونه، و سينتقل إلى غيركم ممن يرثكم،

(١). يونس: ٩٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٠١

فلا تبخلوا به. كذا قال الحسن و غيره. و فيه الترغيب إلى الإنفاق فى سبيل الخير قبل أن ينتقل عنهم و يصير إلى غيرهم. و الظاهر أن معنى الآية الترغيب فى الإنفاق فى الخير، و ما يرضاه الله على العموم، و قيل: هو خاص بالزكاة المفروضة، و لا وجه لهذا التخصيص. ثم ذكر سبحانه ثواب من أنفق فى سبيل الله، فقال:

فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ أى: الذين جمعوا بين الإيمان بالله و رسوله، و بين الإنفاق فى سبيل الله لهم أجر كبير، و هو الجنة و ما لكم لا تؤمنون بالله هذا الاستفهام للتوبيخ و التقريع، أى:

أى عذر لكم، و أى مانع من الإيمان، و قد أزيحت عنكم العلل؟ و «ما» مبتدأ و «لكم» خبره و لا تؤمنون فى محل نصب على الحال من الضمير فى «لكم»، و العامل «ما» فيه من معنى الاستقرار، و قيل: المعنى:

أى شىء لكم من الثواب فى الآخرة إذا لم تؤمنوا؟ و جملة: وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ فى محل نصب على الحال من ضمير لا تؤمنون على التداخل، و «لتؤمنوا» متعلق بیدعوكم، أى: یدعوكم للإيمان، و المعنى: أى عذر لكم فى ترك الإيمان و الرسول یدعوكم إليه و يتبهمكم عليه؟ و جملة: وَ قَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ فى محل نصب على الحال من فاعل یدعوكم على التداخل أيضا، أى: و الحال أن قد أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم، أو بما نصب لكم من الأدلة الدالة على التوحيد و جوب الإيمان. قرأ الجمهور: «و قد أخذ» مبنيا للفاعل، و هو الله سبحانه لتقدم ذكره. و قرأ أبو عمرو على البناء للمفعول إن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ بما أخذ عليكم من الميثاق، أو بالحجج و الدلائل، أو إن كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب، فهذا من أعظم أسبابه و أوضح موجباته هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ أى: واضحات ظاهرات، و هى الآيات القرآنية، و قيل: المعجزات و القرآن أعظمها لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ أى: ليخرجكم الله بتلك الآيات من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، أو ليخرجكم الرسول بتلك الآيات، أو بالدعوة وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ أى: لكثير الرأفة و الرحمة بليغهما، حيث أنزل كتبه و بعث رسله لهداية عباده، فلا رأفة و لا رحمة أبلغ من هذه، و الاستفهام فى قوله: وَ مَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فى سَبِيلِ اللَّهِ للتقريع و التوبيخ، و الكلام فى إعراب هذا كالكلام فى إعراب قوله: وَ مَا لَكُمْ لَّا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ و فى هذه الآية دليل على أن الإنفاق المأمور به فى قوله: وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ هو الإنفاق فى سبيل كما بينا ذلك، و المعنى: أى عذر لكم و أى شىء يمنعكم من الإنفاق فى ذلك الوجه؟ و الأصل: فى أن لا- تنفقوا، و قيل: إن أن زائده، و جملة وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فى محل نصب على الحال من فاعل «ألا- تنفقوا» أو من مفعوله، و المعنى: أى شىء يمنعكم من الإنفاق فى ذلك الوجه؟ و الحال أن كل ما فى السماوات و الأرض راجع إلى الله سبحانه بانقراض العالم؛ كرجوع الميراث إلى الوارث، و لا يبقى لهم منه شىء، و هذا أدخل فى التوبيخ و أكمل فى التقريع، فإن كون تلك الأموال تخرج عن أهلها، و تصير لله سبحانه، و لا يبقى أحد من مالكيها أقوى فى إيجاب الإنفاق عليهم من كونها لله فى الحقيقة، و هم خلفاؤه فى التصرف فيها. ثم بين سبحانه فضل من سبق بالإنفاق فى سبيل الله فقال: لَّا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ قِيل: المراد بالفتح فتح مكة، و به قال أكثر المفسرين. و قال الشعبي و الزهري: فتح الحديبية. قال قتادة: كان قتالان أحدهما أفضل

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٠٢

من الآخر، و نفقتان إحداهما أفضل من الأخرى، كان القتال و النفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال و النفقة بعد ذلك، و كذا قال مقاتل و غيره، و فى الكلام حذف، و التقدير: لا يستوى من أنفق من قبل الفتح و قاتل و من أنفق من بعد الفتح و قاتل، فحذف لظهوره و لدلالة ما سيأتى عليه، و إنما كانت النفقة و القتال بعد الفتح؛ لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر، و هم أقل و أضعف، و تقديم الإنفاق على القتال للإيدان بفضيلة الإنفاق لما كانوا عليه من الحاجة، فإنهم كانوا يجودون بأنفسهم و لا يجدون ما يجدون به من الأموال:

و الجود بالنفس أقصى غاية الجود «١» و الإشارة بقوله: أُولَئِكَ إلى «من» باعتبار معناها، و هو مبتدأ و خبره أَعْظَمُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعِيدٍ وَ قَاتَلُوا أى: أرفع منزلة و أعلى رتبة من الذين أنفقوا أموالهم فى سبيل الله من بعد الفتح و قاتلوا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم. قال عطاء: درجات الجنة تتفاضل؛ فالذين أنفقوا من قبل الفتح فى أفضلها. قال الزجاج: لأن المتقدمين نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، و كانت بصائرهم أيضا أنفذ.

و قد أرشد صلى الله عليه و سلم إلى هذه الفضيلة بقوله فيما صح عنه: لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم و لا

نصيفه» و هذا خطاب منه صَلَّى اللهُ عليه و سَلَّمَ للمتأخرين و صحبه كما يرشد إلى ذلك السبب الَّذِي ورد فيه هذا الحديث وَ كَلَّا وَعَدَ اللهُ الْحُسَيْنِي أَي: و كلِّ واحد من الفريقين وعد الله المثوبة الحسنی، و هي الجنة مع تفاوت درجاتهم فيها. قرأ الجمهور: «و كلاً» بالنصب على أنه مفعول به للفعل المتأخر. و قرأ ابن عامر بالرفع على الابتداء، و الجملة بعده خبره و العائد محذوف، أو على أنه خير مبتدأ محذوف، و مثل هذا قول الشاعر «٢»:

قد أصبحت أم الخيار تدعى عليّ ذنبا كله لم أصنع

وَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لا يخفى عليه من ذلك شيء. ثم رَغِبَ سبحانه في الصدقة فقال: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا أَي: من ذا الَّذِي ينفق ماله في سبيل الله، فإنه كمن يقرضه، و العرب تقول لكل من فعل فعلا حسنا قد أقرض، و منه قول الشاعر «٣».

و إذا جوزيت قرضا فاجزه إنما يجزي الفتى ليس الجمل

قال الكلبي قَرْضًا أَي: صدقة حَسَنًا أَي: محتسبا من قلبه بلا مَنِّ و لا أذى. قال مقاتل:

حسنا طيبة به نفسه، و قد تقدم تفسير الآية في سورة البقرة فَيُضَاعَفُ لَهُ قَرَأَ ابن عامر و ابن كثير «فيضعفه» بإسقاط الألف، إلا أن ابن عامر و يعقوب نصبوا الفاء. و قرأ نافع و أهل الكوفة و البصرة «فيضاعفه» بالألف و تخفيف العين، إلا أن عاصما نصب الفاء و رفع الباقون. قال ابن عطية: الزفع على العطف على يقرض، أو الاستئناف و النصب لكون الفاء في جواب الاستفهام. و ضعف النصب أبو على

(١). و صدره: تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها. و البيت لمسلم بن الوليد.

(٢). هو لييد.

(٣). هو لييد.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٠٣

الفارسي، قال: لأن السؤال لم يقع على القرض، و إنما وقع عن فاعل القرض، و إنما تنصب الفاء فعلا مردودا على فعل مستفهم عنه، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى، كأن قوله: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ بَمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ: أ يُقْرِضُ اللَّهُ أَحَدًا وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ و هو الجنة، و المضاعفة هنا هي كون الحسنه بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف؛ على اختلاف الأحوال و الأشخاص و الأوقات.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه، و أبو نعيم في الدلائل، من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: «خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عليه و سَلَّمَ عام الحديبية حتى إذا كان بعسفان؛ قال رسول الله صَلَّى اللهُ عليه و سَلَّمَ: يوشك أن يأتي قوم يحقرون أعمالكم مع أعمالهم، قلنا: من هم يا رسول الله؟

أ قريش؟ قال: لا، و لكنهم أهل اليمن هم أرق أفئدة و ألين قلوبا، فقلنا: أهم خير منا يا رسول الله؟

قال: لو كان لأحدهم جبل من ذهب ما أدرك مدّ أحدكم و لا نصيفه، إلا أن هذا فصل ما بيننا و بين الناس لا يَشْتَبِهُ مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قَاتَلَ الْآيَةَ» و هذا الحديث قال ابن كثير: هو غريب بهذا الإسناد، و قد رواه ابن جرير و لم يذكر فيه الحديبية. و أخرج أحمد عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد و بين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن:

تستطيون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فبلغ النبي صَلَّى اللهُ عليه و سَلَّمَ فقال: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغت أعمالهم».

و الَّذِي فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ بَلْفُظٍ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مدّ أحدهم و لا نصيفه»، و في لفظ: «ما بلغ مدّ أحدهم و لا نصيفه» أخرج هذا الحديث البخاري و مسلم و



غيرهما من حديث أبي سعيد الخدرى. و أخرج ابن أبى شيبه عن ابن عمر قال: لا تسبوا أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم، فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره.

## [سورة الحديد (٥٧): الآيات ١٢ الى ١٥]

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بلى وَ لَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمْ الْآمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ عَزَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوْكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَ بئسَ الْمَصِيرُ (١٥)

قوله: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ العامل في الطرف مضمر و هو اذكر، أو «كريم»، أو «فيضاعفه»، أو العامل في لهم و هو الاستقرار، و الخطاب لكل من يصلح له، و قوله: يَسْعَى نُورُهُمْ في محل نصب على الحال من مفعول ترى، و النور: هو الضياء العذى يرى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ و ذلك على الصراط يوم القيامة، و هو دليلهم إلى الجنة. قال قتادة: إن المؤمن يضىء له نور كما بين عدن إلى صنعاء، حتى إن من المؤمنين من لا يضىء له نوره إلا موضع قدميه. و قال الضحاك و مقاتل: و بأيمانهم كتبهم التى

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٠٤

أعطوها، فكتبهم بأيمانهم، و نورهم بين أيديهم. قال الفراء: الباء بمعنى فى، أى: فى أيمانهم، أو بمعنى عن. قال الضحاك أيضا: نورهم هداهم، و بأيمانهم كتبهم، و اختار هذا ابن جرير الطبرى، أى: يسعى إيمانهم و عملهم الصالح بين أيديهم، و فى أيمانهم كتب أعمالهم، قرأ الجمهور: «بأيمانهم» جمع يمين. و قرأ سهل ابن سعد الساعدى و أبو حيوة «بأيمانهم» بكسر الهمزة على أن المراد بالإيمان ضد الكفر، و قيل: هو القرآن، و الجار و المجرور فى الموضعين فى محل نصب على الحال من نورهم، أى: كائنا بين أيديهم و بأيمانهم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا «بشراكم» مبتدأ، و خبره «جنات» على تقدير مضاف، أى: دخول جنات، و الجملة مقول قول مقدر، أى: يقال لهم هذا، و القائل لهم هم الملائكة. قال مكى:

و أجاز الفراء نصب جنات على الحال، و يكون «اليوم» خبر «بشراكم»، و هذا بعيد جدا. «خالدين فيها» حال مقدره، و الإشارة بقوله ذلك إلى النور و البشرى، و هو مبتدأ و خبره هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أى:

لا- يقادر قدره حتى كأنه لا فوز غيره، و لا اعتداد بما سواه يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ «يوم» بدل من «يوم» الأول، و يجوز أن يكون العامل فيه هو الفوز العظيم، و يجوز أن يكون منصوبا بفعل مقدر، أى: اذكر للذين آمنوا اللام للتبليغ كظائرها. قرأ الجمهور: انظُرُونَا أَمَّا بوصول الهمزة و ضم الظاء من النظر بمعنى الانتظار، أى: انتظرونا، يقولون ذلك لما رأوا المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة. و قرأ الأعمش و حمزة و يحيى بن وثاب بقطع الهمزة و كسر الظاء من الإنظار، أى: أمهلونا و آخرونا، يقال: أنظرته و استنظرته، أى: أمهلته و استمهلته، قال الفراء: تقول العرب أنظرنى، أى: انتظرنى، و أنشد قول عمرو ابن كلثوم:

أبا هند فلا تعجل علينا و أنظرنا نخبرك اليقينا

و قيل: معنى انظرونا: انظروا إلينا؛ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنورهم نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ أى: نستضىء منه، و القبس: الشعلة من النار و السراج، فلما قالوا ذلك قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ أى: قال لهم المؤمنون أو الملائكة زجرا لهم و

تهكماً بهم، أى: ارجعوا وراءكم إلى الموضع الذى أخذنا منه النور فَالْتَمِسُوا نُوراً أى: اطلبوا هنالك نورا لأنفسكم، فإنه من هنالك يقتبس، وقيل:

المعنى: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بما التمسناه به من الإيمان و الأعمال الصالحة، وقيل: أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة تهكماً بهم فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورِ السور: هو الحاجز بين الشئيين، والمراد به هنا الحاجز بين الجنة و النار، أو بين أهل الجنة و أهل النار. قال الكسائى: و الباء فى سُورٍ زائدة: ثم وصف سبحانه السور المذكور فقال: لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ أى: باطن ذلك السور. و هو الجانب الذى يلي أهل الجنة فيه الرحمة و هى الجنة و ظاهرة و هو الجانب الذى يلي أهل النار مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ أى: من جهته عذاب جهنم، وقيل: إن المؤمنين يسبقونهم فيدخلون الجنة، و المنافقون يجعلون فى العذاب و بينهم السور، وقيل: إن الرحمة التى فى باطنه نور المؤمنين، و العذاب الذى فى ظاهره ظلمة المنافقين، و لما ضرب بالسور بين المؤمنين و المنافقين أخبر الله سبحانه عما قاله المنافقون إذ ذاك، فقال: يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٠٥

أى: موافقين لكم فى الظاهر، نصلى بصلاتكم فى مساجدكم، و نعمل بأعمال الإسلام مثلكم، و الجملة مستأنفة كأنه قيل: فماذا قال المنافقون بعد ضرب السور بينهم و بين المؤمنين؟ فقال: يُنَادُونَهُمْ ثم أخبر سبحانه عما أجابهم به المؤمنون فقال: قَالُوا بلى أى: كنتم معنا فى الظاهر و لكنكم فتنتم أنفسكم بالنفاق و إبطان الكفر. قال مجاهد: أهلكتموها بالنفاق، و قيل: بالشهوات و اللذات و تَرَبَّصْتُمْ بمحمد صلى الله عليه و سلم و بمن معه من المؤمنين حوادث الدهر، و قيل: تَرَبَّصْتُمْ بالتوبة، و الأول أولى. و ارْتَبَّصْتُمْ أى: شككتهم فى أمر الدين، و لم تصدقوا بما نزل من القرآن و لا بالمعجزات الظاهرة و عَزَّيْتُمْ الأمانى الباطلة التى من جملتها ما كنتم فيه من التربص، و قيل: هو طول الأمل، و قيل: ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين. و قال قتادة: الأمانى هنا غرور الشيطان، و قيل: الدنيا، و قيل: هو طمعهم فى المغفرة، و كل هذه الأشياء تدخل فى مسمى الأمانى حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ و هو الموت، و قيل: نصره سبحانه لنبيه صلى الله عليه و سلم. و قال قتادة: هو إلقاءهم فى النار و عَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ قرأ الجمهور: «الغرور» بفتح الغين، و هو صفة على فعول، و المراد به الشيطان، أى: خدعكم بحلم الله و إمهاله الشيطان. و قرأ أبو حيوة و محمد ابن السميقي و سماك بن حرب بضمها و هو مصدر فالتَّوَمُّ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ تفدون بها أنفسكم من النار أيها المنافقون و لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ ظاهراً و باطناً مَاوَأَكُمُ النَّارُ أى: منزلكم الذى تأوون إليه النار هِيَ مَوْلَاكُمْ أى: هى أولى بكم، و المولى فى الأصل من يتولى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن يلازمه، و قيل: معنى مولاكم: مكانكم عن قرب، من الولي و هو القرب. و قيل: إن الله يركب فى النار الحياة و العقل، فهى تتميز غيظاً على الكفار، و قيل: المعنى: هى ناصركم، على طريقة قول الشاعر:

تحيه بينهم ضرب و جيع و بنس المصير الذى تصيرون إليه هو النار.

و قد أخرج ابن أبى شيبه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، عن ابن مسعود يسهى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، يمرّون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، و منهم من نوره مثل النخلة، و أدناهم نورا من نوره على إبهامه يطفأ مرّة و يوقد أخرى. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس قال: بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله نورا، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، و كان النور دليلهم من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا إلى النور تبعوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذ: انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ فَإِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ فى الدنيا، قال المؤمنون: ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ من حيث جئتم من الظلمة فَالْتَمِسُوا هنالك النور. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترنا منه على عباده، و أما عند الصراط فإن الله يعطى كل مؤمن نورا و كل منافق نورا، فإذا استوتوا على الصراط سلب الله نور المنافقين و المنافقات، فقال المنافقون:

انظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ وَقَالَ الْمُؤْمِنُونَ:

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٠٦

رَبَّنَا أَتَمِّمْ لَنَا نُورَنَا «١» فلا يذكر عند ذلك أحد أحدا» وفي الباب أحاديث وآثار. وأخرج عبد بن حميد عن عبادة بن الصامت: أنه كان على سور بيت المقدس فبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ها هنا أخبرنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رأى جهنم. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إن السور الذي ذكره الله في القرآن فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ هو السور الذي ببيت المقدس الشرقي باطنه فيه الرَّحْمَةُ المسجد وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ يعنى وادى جهنم وما يليه.

ولا يخفاك أن تفسير السور المذكور في القرآن في هذه الآية بهذا السور الكائن ببيت المقدس فيه من الإشكال ما لا يدفعه مقال، ولا سيما بعد زيادة قوله: «باطنه فيه الرحمة»: المسجد، فإن هذا غير ما سيقته الآية وغير ما دلّت عليه، وأين يقع بيت المقدس أو سوره بالنسبة إلى السور الحاجز بين فريقى المؤمنين والمنافقين؟ وأى معنى لذكر مسجد بيت المقدس ها هنا؟ فإن كان المراد أن الله سبحانه ينزع سور بيت المقدس، ويجعله فى الدار الآخرة سورا مضروبا بين المؤمنين والمنافقين، فما معنى تفسير باطن السور وما فيه من الرحمة بالمسجد، وإن كان المراد أن الله يسوق فريقى المؤمنين والمنافقين إلى بيت المقدس فيجعل المؤمنين داخل السور فى المسجد، ويجعل المنافقين خارجه، فهم إذ ذاك على الصراط وفى طريق الجنة وليسوا ببيت المقدس، فإن كان مثل هذا التفسير ثابتا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلناه وآمنّا به، وإلا فلا كرامة ولا قبول. وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: وَ لِكِنِّكُمْ فَتَنَّتُمْ أَنْفُسَكُمْ قال: بالشهوات واللذات وَ تَرَبَّصْتُمْ قال: بالتوبة وَ عَزَّتْكُمْ الْأَمَانِيَّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قال: الموت وَ عَزَّكُمْ بِاللَّهِ الْعَزُورُ قال: الشيطان.

### [سورة الحديد (٥٧): الآيات ١٦ الى ١٩]

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْمَوتُوتَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ آيَاتِنا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَ الْمُصَدِّقَاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسِينًا يُضَاعَفْ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَ الشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) قوله: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا يقال: أنى لك يا أنى إنى؛ إذا حان، قرأ الجمهور: «ألم يأن» و قرأ الحسن و أبو السيمال «ألما يأن» و أنشد ابن السكيت:

ألما يئن لى أن تجلى عمايتى و أقصر عن ليلى بلى قد أنى ليا

و أن تخشع قلوبهم فاعل يأن، أى: ألم يحضر خشوع قلوبهم و يجىء وقته، و منه قول الشاعر:

(١). التحريم: ٨.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٠٧ ألم يأن لى يا قلب أن أترك الجهلاو أن يحدث الشيب المنير لنا عقلا هذه الآية نزلت فى المؤمنين. قال الحسن: يستبطنهم و هم أحب خلقه إليه. و قيل: إن الخطاب لمن آمن بموسى و عيسى دون محمد. قال الزجاج: نزلت فى طائفة من المؤمنين، حثوا على الرقة و الخشوع، فأما من وصفهم الله بالرقة و الخشوع فطبقه فوق هؤلاء. و قال السدى و غيره: المعنى ألم يأن للذين آمنوا فى الظاهر و أسروا الكفر أن تخشع قلوبهم لذكر الله و سيأتى فى آخر

البحث ما يقوى قول من قال: إنها نزلت في المسلمين، والخشوع: لين القلب و رفته. و المعنى: أنه ينبغي أن يورثهم الذكر خشوعا و رقة، و لا يكونوا كمن لا يلين قلبه للذكر و لا يخشع له و ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ مَعُطُوفٍ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ، و المراد بما نزل من الحق القرآن، فيحمل الذكر المعطوف عليه ما عداه مما فيه ذكر الله سبحانه باللسان، أو خطور بالقلب، و قيل: المراد بالذكر هو القرآن، فيكون هذا العطف من باب عطف التفسير، أو باعتبار تغاير المفهومين.

قرأ الجمهور: «نزل» مشددا مبنيا للفاعل. و قرأ نافع و حفص بالتخفيف مبنيا للفاعل. و قرأ الجحدري و أبو جعفر و الأعمش و أبو عمرو و في رواية عنه مشددا مبنيا للمفعول. و قرأ ابن مسعود «أنزل» مبنيا للفاعل و لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ قَرَأَ الْجُمْهُورُ بِالتَّحْتِيَةِ عَلَى الْغِيَةِ جَرِيًّا عَلَى مَا تَقَدَّمَ. و قرأ أبو حيوة و ابن أبي عبله بالفوقية على الحساب التفاتا، و بها قرأ عيسى و ابن إسحاق، و الجملة معطوفة على «تخشع» أى: ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم و لا يكونوا، و المعنى: النهى لهم عن أن يسلكوا سبيل اليهود و النصرى الذين أوتوا التوراة و الإنجيل من قبل نزول القرآن فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ أَي: طال عليهم الزمان بينهم و بين أنبيائهم. قرأ الجمهور: «الأمد» بتخفيف الدال، و قرأ ابن كثير فى رواية عنه بتشديدها، أى:

الزمن الطويل، و قيل: المراد بالأمد على القراءة الأولى الأجل و الغاية، يقال: أمد فلان كذا، أى: غايته فَقَسَّتْ قُلُوبُهُمْ بِذَلِكَ السَّبَبِ، فَلِذَلِكَ حَزَفُوا وَ بَدَّلُوا، فنهى الله سبحانه أمة محمد صلى الله عليه و سلم أن يكونوا مثلهم و كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِتَقُونَ أَي: خارجون عن طاعة الله لأنهم تركوا العمل بما أنزل إليهم، و حَزَفُوا وَ بَدَّلُوا و لم يؤمنوا بما نزل على محمد صلى الله عليه و سلم، و قيل: هم الذين تركوا الإيمان بعيسى و محمد صلى الله عليه و سلم، و قيل: هم الذين ابتدعوا الرهبانية، و هم أصحاب الصوامع اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ الْأَجْسَامَ بَعْدَ مَوْتِهَا، و يلين القلوب بعد قسوتها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ الَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا هَذِهِ الْآيَاتُ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أَي: كى تعقلوا ما تضمنته من المواعظ و تعملوا بموجب ذلك إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَ الْمُصَدِّقَاتِ قَرَأَ الْجُمْهُورُ بِتَشْدِيدِ الصَّادِ فِي الْمَوْضِعِينَ مِنَ الصَّدَقَةِ، و أصله المتصدقين و المتصدقات، فأدغمت التاء فى الصاد. و قرأ أبى: «المتصدقين و المتصدقات» يثبت التاء على الأصل. و قرأ ابن كثير بتخفيف الصاد فيهما من التصديق، أى: صدقوا رسول الله صلى الله عليه و سلم فيما جاء به وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا مَعُطُوفٍ عَلَى اسْمِ الْفَاعِلِ فِي الْمَصْدُقِينَ؛ لأنه لما وقع صلة للألف و اللام الموصولة حل محل الفعل، فكأنه قال:

إن الذين تصدقوا و أقرضوا، كذا قال أبو على الفارسي و غيره. و قيل: جملة و أقرضوا معترضه بين اسم إن و خبرها، و هو يُضَاعَفُ و قيل: هى صلة لموصول محذوف، أى: و الذين أقرضوا، و القرض

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٠٨

الحسن: عبارة عن التصديق و الإنفاق فى سبيل الله مع خلوص نية، و صحة قصد، و احتساب أجر. قرأ الجمهور: يُضَاعَفُ لَهُمْ بفتح العين على البناء للمفعول، و القائم مقام الفاعل إما الجار و المجرور، أو ضمير يرجع إلى المصدقين على حذف مضاف، أى: ثوابهم، و قرأ الأعمش: «يضاعفه» بكسر العين و زيادة الهاء.

و قرأ ابن كثير و ابن عامر و يعقوب «يضعف» بتشديد العين و فتحها وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ و هو الجنة، و المضاعفه هنا أن الحسنه بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ جَمِيعًا، و الإشارة بقوله: أُولَئِكَ إِلَى الْمَوْصُولِ، و خبره قوله: هُمْ الصَّادِقُونَ وَ الشُّهَدَاءُ و الجملة خبر الموصول.

قال مجاهد: كل من آمن بالله و رسله فهو صديق. قال مقاتلان: هم الذين لم يشكوا فى الرسل حين أخبروهم و لم يكذبوهم. و قال مجاهد: هذه الآية للشهداء خاصة، و هم الأنبياء الذين يشهدون للأمم و عليهم، و اختار هذا الفراء و الزجاج. و قال مقاتل بن سليمان: هم الذين استشهدوا فى سبيل الله، و كذا قال ابن جرير، و قيل: هم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة لأنبيائهم بالتبليغ،

و الظاهر أن معنى الآية: إن الذين آمنوا بالله و رسله جميعا بمنزلة الصديقين و الشهداء المشهورين بعلو الدرجة عند الله، و قيل: إن الصديقين هم المبالغون في الصدق حيث آمنوا بالله و صدّقوا جميع رسله، و القائمون لله سبحانه بالتوحيد. ثم بين سبحانه ما لهم من الخير بسبب ما اتّصفوا به من الإيمان بالله و رسله فقال: لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ الضمير الأول راجع إلى الموصول، و الضميران الآخران راجعان إلى الصديقين و الشهداء، أى: لهم مثل أجرهم و نورهم، و أما على قول من قال: إن الذين آمنوا بالله و رسله هم نفس الصديقين و الشهداء، فالضمائر الثلاثة كلها راجعة إلى شىء واحد، و المعنى: لهم الأجر و النور الموعودان لهم. ثم لما ذكر حال المؤمنين و ثوابهم ذكر حال الكافرين و عقابهم فقال: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَى: جمعوا بين الكفر و تكذيب الآيات، و الإشارة بقوله: أُولَئِكَ إلى الموصول باعتبار ما فى صلته من اتصافهم بالكفر و التكذيب، و هذا مبتدأ و خبره أصحاب الجحيم يعذبون بها، و لا أجر لهم و لا نور، بل عذاب مقيم و ظلمة دائمة.

و قد أخرج ابن مردويه عن أنس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «استبأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن، فأنزل الله: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا الْآيَةَ». و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت:

«خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم على نفر من أصحابه فى المسجد و هم يضحكون، فسحب رداءه محمرا وجهه فقال: أ تضحكون و لم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم؟! و لقد أنزل على فى ضحككم آية: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ قَالُوا: يا رسول الله فما كفارة ذلك؟ قال: تبكون بقدر ما ضحكتم». و أخرج مسلم و النسائي و ابن ماجه و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا و بين أن عاتبنا الله بهذه الآية أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَّا أَرْبَع سِنِينَ. و أخرج نحوه عنه ابن المنذر و الطبراني، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه من طريق أخرى. و أخرج أبو يعلى و ابن مردويه عنه أيضا قال:

لما نزلت هذه الآية أقبل بعضنا على بعض: أى شىء أحدثنا؟ أى شىء صنعنا؟. و أخرج ابن حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: إن الله استبأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٠٩

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا الْآيَةَ.

و أخرج ابن أبي شيبة فى المصنف، عن عبد العزيز بن أبي رواد أن أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم ظهر فيهم المزاح و الضحك، فنزلت هذه الآية: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا. و أخرج ابن المبارك عن ابن عباس اغلّموا أن الله يحيى الأرض بعيد موتها قال: يعنى أنه يلين القلوب بعد قسوتها. و أخرج ابن جرير عن البراء بن عازب:

سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «مؤمنو أمتى شهداء، ثم تلا النبي صلى الله عليه و سلم وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصّٰدِقُونَ وَ الشّٰهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ . و أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال: كل مؤمن صديق و شهيد.

و أخرج الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال: «إن الرجل ليموت على فراشه و هو شهيد، ثم تلا هذه الآية» و أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصّٰدِقُونَ قال: هذه مفصلة: وَ الشّٰهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ و أخرج ابن حبان عن عمرو بن مرة الجهني: قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال: يا رسول الله أ رأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله و أنك رسول الله و صليت الصلوات الخمس و أدت الزكاة و صمت رمضان و قمته، فممن أنا؟ قال: من الصّٰدِقِينَ وَ الشّٰهَدَاءِ».

اعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاءُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرَاهُ مُضِيًّا فَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٌ وَ مَا الْحَيَاءُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَ لَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَخْلُونُ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)

قوله: اعْلَمُوا أَنَّهَا الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ لما ذكر سبحانه حال الفريق الثاني و ما وقع منهم من الكفر و التكذيب، و ذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا و تأثيرها، بين لهم حقارتها، و أنها أحقر من أن تؤثر على الدار الآخرة، و اللعب: هو الباطل، و اللهو: كل شيء يتلهى به ثم يذهب. قال قتادة: «لعب و لهو»:

أكل و شرب. قال مجاهد: كل لعب لهو، و قيل: اللعب: ما رغب في الدنيا، و اللهو: ما ألهى عن الآخرة و شغل عنها، و قيل: اللعب: الاقتناء، و اللهو: النساء، و قد تقدّم تحقيق هذا في سورة الأنعام، و الزينة:

التزين بمتاع الدنيا من دون عمل للآخرة وَ تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ قرأ الجمهور بتونين «تفاخر» و الظرف صفة له، و قرأ السلمي بالإضافة، أى: يفتخر به بعضكم على بعض، و قيل: يتفاخرون بالخلقة و القوة، و قيل:

بالأنساب و الأحساب كما كانت عليه العرب وَ تَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ أى: يتكاثرون بأموالهم

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢١٠

و أولادهم، و يتناولون بذلك على الفقراء. ثم بين سبحانه لهذه الحياة شبيها، و ضرب لها مثلا، فقال:

كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ أى: كمثل مطر أعجب الزراع نباته، و المراد بالكفار هنا الزراع لأنهم يكفرون البذر، أى: يغطونه بالتراب، و معنى نباته: النبات الحاصل به ثُمَّ يَهِيحُ أى: يجف بعد خضرته و يبس فتراه مُضِيًّا فَرًّا أى: متغيّرا عما كان عليه من الخضرة و الرّونق إلى لون الصفرة و الذبول ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا أى: فتاتا هشيما متكسرا متحطما بعد يبسه، و قد تقدّم تفسير هذا المثل في سورة يونس و الكهف. و المعنى: أن الحياة كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته و كثرة نضارته، ثم لا يلبث أن يصير هشيما تبنا كأن لم يكن. و قرئ «مصفاّرا» و الكاف في محل نصب على الحال، أو في محل رفع على أنها خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف. ثم لما ذكر سبحانه حقارة الدنيا و سرعة زوالها؛ ذكر ما أعدّه للعصاة في الدار الآخرة فقال: وَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ أَتْبَعَهُ مَا أَعَدَّهُ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ فَقَالَ: وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٌ وَ التَّنْكِيرُ فِيهَا لِلتَّعْظِيمِ. قال قتادة: عذاب شديد لأعداء الله، و مغفرة من الله و رضوان لأوليائه و أهل طاعته. قال الفراء: التقدير في الآية إما عذاب شديد، و إما مغفرة، فلا يوقف على «شديد».

ثم ذكر سبحانه بعد الترهيب و الترغيب حقارة الدنيا فقال: وَ مَا الْحَيَاءُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ لمن اغترّب بها و لم يعمل لآخرتها. قال سعيد بن جبيرة: متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة. و من اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه. و هذه الجملة مقرّرة للمثل المتقدم و مؤكدة له. ثم ندب عباده إلى المسابقة إلى ما يوجب المغفرة من التوبة و العمل الصالح؛ فإن ذلك سبب إلى الجنة، فقال: سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أى: سارعوا مسارعة السابقين بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم، و توبوا ممّا وقع منكم من المعاصي، و قيل: المراد بالآية التكبيرة الأولى مع الإمام، قاله مكحول، و قيل: المراد الصف الأول، و لا وجه لتخصيص ما في الآية بمثل هذا، بل هو من جملة ما تصدق عليه صدقا شموليا أو بدليا وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أى: كعرضهما، و إذا كان هذا قدر عرضها فما ظنك بطولها. قال الحسن:

يعنى جميع السماوات و الأرضين مبسوطات كل واحدة إلى صاحبته، و قيل: المراد بالجنة التي عرضها هذا العرض هي جنة كل

واحد من أهل الجنة. وقال ابن كيسان: عنى به جنه واحده من الجنات، و العرض أقل من الطول، و من عادة العرب أنها تعبر عن [سعة] «١» الشىء بعرضه دون طوله، و من ذلك قول الشاعر:

كأن بلاد الله و هى عريضه على الخائف المطلوب كفه حابل

و قد مضى تفسير هذا فى سورة آل عمران. ثم وصف سبحانه تلك الجنة بصفه أخرى فقال: أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةً. و فى هذا دليل على أن استحقاق الجنة يكون بمجرد الإيمان بالله و رسله، و لكن هذا مقيد بالأدلة الدالة على أنه لا يستحقها إلا من عمل بما فرض الله عليه، و اجتنب ما نهاه الله عنه، و هى أدلة كثيرة فى الكتاب و السنه، و الإشارة بقوله: ذَلِكَ إِلَى مَا وَعَدَ بِهِ

(١). من تفسير القرطبي (٢٥٦/١٧)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢١١

سبحانه من المغفرة و الجنة، و هو مبتدأ و خبره فَضَّلَ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ أَى: يعطيه من يشاء إعطاءه إياه تفضلاً و إحساناً و الله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ فهو يتفضل على من يشاء، لا- مانع لما أعطى و لا- معطى لما منع، و الخير كله بيده، و هو الكريم المطلق و الجواد الذى لا يبخل. ثم بين سبحانه أن ما يصاب به العباد من المصائب قد سبق بذلك قضاؤه و قدره، و ثبت فى أم الكتاب، فقال: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ مِنْ قَحْطٍ مطر، و ضعف نبات، و نقص ثمار. قال مقاتل: القحط و قلة النبات و الثمار، و قيل: الجوائح فى الزرع و لا فى أنفسكم قال قتادة: بالأوصاب و الأسقام. و قال مقاتل: إقامة الحدود. و قال ابن جريج:

ضيق المعاش إلا فى كتاب فى محل نصب على الحال من «مصيبه»، أى: إلا حال كونها مكتوبة فى كتاب، و هو اللوح المحفوظ، و جمله من قبل أن نبرأها فى محل جر صفة لكتاب، و الضمير فى نبرأها عائد إلى المصيبه، أو إلى الأنفس، أو إلى الأرض، أو إلى جميع ذلك، و معنى نبرأها نخلقها إن ذلك على الله يسير أى: إن إثباتها فى الكتاب على كثرته على الله يسير غير عسير، لكيلا تأسوا على ما فاتكم أى: اختبرناكم بذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا و لا تفرحوا بما آتاكم منها، أى: أعطاكم منها، فإن ذلك يزول عن قريب، و كل زائل عن قريب لا يستحق أن يفرح بحصوله، و لا يحزن على فواته، و مع أن الكل بقضاء الله و قدره، فلن يعدو أمر ما كتب له، و ما كان حصوله كائناً لا محاله فليس بمستحق للفرح بحصوله و لا للحزن على فوته، قيل: و الحزن و الفرح المنهى عنهما هما اللذان يتعدى فيهما إلى ما لا- يجوز، و إلا- فليس من أحد إلا- و هو يحزن و يفرح. قرأ الجمهور: بما آتاكم بالمد، أى: أعطاكم، و قرأ أبو العالیه و نصر بن عاصم و أبو عمره بالقصر، أى: جاءكم، و اختار القراءة الأولى أبو حاتم، و اختار القراءة الثانية أبو عبيد و الله لا يحب كل مختال فخور أى: لا يحب من اتصف بهاتين الصفتين و هما الاختيال و الافتخار، قيل: هو ذم للفرح الذى يختال فيه صاحبه و يبطر، و قيل: إن من فرح بالحظوظ الدنيوية، و عظمت فى نفسه، اختال و افتخر بها، و قيل: المختال: الذى ينظر إلى نفسه، و الفخور: الذى ينظر إلى نفسه، و الفخور: الذى ينظر إلى الناس بعين الاستحقار. و الأولى تفسير هاتين الصفتين بمعناهما الشرعى ثم اللغوى، فمن حصلنا فيه فهو الذى لا يحبه الله الذين يبخلون و يأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ الموصول فى محل رفع بالابتداء، و هو كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله، و الخبر مقدر، أى: الذين يبخلون فالله غنى عنهم، و يدل على ذلك قوله: وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ و قيل: الموصول فى محل جر بدل من «مختال»، و هو بعيد، فإن هذا البخل بما فى اليد، و أمر الناس بالبخل، ليس هو معنى المختال الفخور، لا لغة و لا شرعاً. و قيل: هو فى محل جر نعت له، و هو أيضا بعيد. قال سعيد بن جبیر: الذين يبخلون بالعلم و يأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ به لئلا يعلموا الناس شيئاً. و قال زيد بن أسلم: إنه البخل بأداء حق الله، و قيل: إنه البخل بالصدق، و قال طاوس:

إنه البخل بما في يديه، وقيل: أراد رؤساء اليهود الذين بخلوا ببيان صفته محمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم لئلا يؤمن به الناس فتذهب مآكلهم، قاله السدي والكلبي. قرأ الجمهور: بِالْبُخْلِ بضم و سكون الخاء. وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى بن يعمر ومجاهد وحميد وابن محيصن وحمزة والكسائي بفتحيتين، وهي لغة الأنصار.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢١٢

وقرأ أبو العالية وابن السميع بفتح الباء وإسكان الخاء. وقرأ نصر بن عاصم بضمهما، وكلها لغات ومن يتوَلَّى فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ أَي: ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غني محمود عند خلقه لا يضره ذلك.

قرأ الجمهور هو الغني بإثبات ضمير الفصل. قرأ نافع وابن عامر فإن الله الغني الحميد بحذف الضمير.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ يَقُولُ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا قَالَ: نَخْلُقُهَا لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ مِنْهَا. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ عَنْهُ فِي الْآيَةِ قَالَ: هُوَ شَيْءٌ قَدْ فَرَّغَ مِنْهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَبْرَأَ الْأَنْفُسَ. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي شَيْبَةَ وَعَبْدَ بْنَ حَمِيدٍ وَابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ الْمُنْذِرِ، وَالْحَاكِمَ وَصَحَّحَهُ، وَابِيهَقِي فِي الشَّعْبِ عَنْهُ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ الْآيَةَ قَالَ: لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَحْزَنُ وَيَفْرَحُ، وَلَكِنْ مِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ جَعَلَهَا صَبْرًا، وَمِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ جَعَلَهُ شُكْرًا. وَأَخْرَجَ ابْنَ الْمُنْذِرِ عَنْهُ فِي الْآيَةِ قَالَ: يَرِيدُ مَصَائِبَ الْمَعَاشِ، وَلَا يَرِيدُ مَصَائِبَ الدِّينِ، إِنَّهُ قَالَ: لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ مَصَائِبِ الدِّينِ، أَمْرُهُمْ أَنْ يَأْسُوا عَلَى السَّيْئَةِ وَيَفْرَحُوا بِالْحَسَنَةِ.

### [سورة الحديد (٥٧): الآيات ٢٥ إلى ٢٩]

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُقِيمُوا النَّاسَ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

قوله: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ أَي: بالمعجزات البينة والشرائع الظاهرة وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ المراد الجنس، فدخل فيه كتاب كل رسول وَالْمِيزَانَ لِيُقِيمُوا النَّاسَ بِالْقِسْطِ قال قتادة ومقاتل ابن حيان: الميزان: العدل، والمعنى: أمرناهم بالعدل، كما في قوله: وَ السَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ «١» وقوله: اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ «٢» وقال ابن زيد: هو ما يوزن به ويتعامل به، ومعنى لِيُقِيمُوا النَّاسَ بِالْقِسْطِ لِيَتَّبِعُوا مَا أَمَرُوا بِهِ مِنَ الْعَدْلِ فَيَتَعَامَلُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ بِالنِّصْفَةِ، والقسط: العدل، وهو يدل على أن المراد بالميزان العدل، ومعنى إنزاله: إنزال أسبابه وموجباته. وعلى القول

(١). الرحمن: ٧.

(٢). الشورى: ١٧.



بأن المراد به الآلة التي يوزن بها فيكون إنزاله بمعنى إرشاد الناس إليه و إلهامهم الوزن به، و يكون الكلام من باب:

علفتها تبنا و ماء باردا ..... ..

و أنزلنا الحديد أى خلقناه كما فى قوله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (١) و المعنى: أنه خلقه من المعادن و علم الناس صنعته، و قيل: إنه نزل مع آدم فيه بأس شديد لأنه تتخذ منه آلات الحرب.

قال الزجاج: يمتنع به و يحارب، و المعنى: أنه تتخذ منه آلة للدفع و آلة للضرب. قال مجاهد: فيه جنه و سلاح، و معنى و منافع للناس أنهم ينتفعون به فى كثير مما يحتاجون إليه مثل السكين و الفأس و الإبرة و آلات الزراعة و النجارة و العمارة و ليعلم الله من ينصره و رسله بالغيب معطوف على قوله: «ليقوم الناس» أى:

لقد أرسلنا رسلنا و فعلنا كيت و كيت ليقوم الناس و ليعلم، و قيل: معطوف على عله مقدره، كأنه قيل:

ليستعلموه و ليعلم الله، و الأول أولى. و المعنى: أن الله أمر فى الكتاب الذى أنزل بنصره دينه و رسله فمن نصر دينه و رسله علمه ناصرا، و من عصى علمه بخلاف ذلك و بالغيب فى محل نصب على الحال من فاعل ينصره أو من مفعوله، أى: غائبا عنهم أو غائبين عنه إن الله قوى عزيز أى: قادر على كل شىء غالب لكل شىء، و ليس له حاجة فى أن ينصره أحد من عباده و ينصره رسله، بل كلفهم بذلك لينتفعوا به إذا امتثلوا، و يحصل له ما وعد به عباده المطيعين و لقد أرسلنا نوحا و إبراهيم لما ذكر سبحانه إرسال الرسل إجمالا أشار هنا إلى نوع تفصيل، فذكر رسالته لنوح و إبراهيم، و كثر القسم للتوكيد و جعلنا فى ذريتهما النبوة و الكتاب أى: جعلنا فيهم النبوة و الكتب المنزلة على الأنبياء منهم، و قيل: جعل بعضهم أنبياء و بعضهم يتلون الكتاب فمنهم مهتد أى: فمن الذرية من اهتدى بهدى نوح و إبراهيم، و قيل: المعنى: فمن الرسل إليهم من قوم الأنبياء مهتد بما جاء به الأنبياء من الهدى و كثير منهم فاستقون خارجون عن الطاعة ثم قفينا على آثارهم برسلنا أى: أتبعنا على آثار الذرية أو على آثار نوح و إبراهيم برسلنا الذين أرسلناهم إلى الأمم كموسى و إياس و داود و سليمان و غيرهم و قفينا بعيسى ابن مريم أى: أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم، و هو من ذرية إبراهيم من جهة أمه و آتينا الإنجيل و هو الكتاب الذى أنزله الله عليه، و قد تقدم ذكر اشتقاقه فى سورة آل عمران. قرأ الجمهور: الإنجيل بكسر الهمزة، و قرأ الحسن بفتحها و جعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رافة و رحمة الذين اتبعوه هم الحواريون جعل الله فى قلوبهم مودة لبعضهم البعض، و رحمة يتراحمون بها، بخلاف اليهود فإنهم ليسوا كذلك، و أصل الرافة:

اللين، و الرحمة: الشفقة، و قيل: الرافة أشد الرحمة و رهبانية ابتدعوها انتصاب رهبانية على الاشتغال، أى: و ابتدعوا رهبانية ابتدعوها، و ليس بمعطوفة على ما قبلها، أى: و جعلنا فى قلوبهم رافة و رحمة و رهبانية مبتدعة من عند أنفسهم. و الأول أولى، و رجحه أبو على الفارسي غيره، و جملة ما كتبناها عليهم صفة ثانية لرهبانية، أو مستأنفة مقررة لكونها مبتدعة من جهة أنفسهم، و المعنى: ما فرضناها عليهم،

(١). الزمر: ٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢١٤

و الرهبانية بفتح الراء و ضمها، و قد قرئ بهما. و هى بالفتح الخوف من الرهب، و بالضم منسوبة إلى الرهبان، و ذلك لأنهم غلوا فى العبادة، و حملوا على أنفسهم المشتقات فى الامتناع من المطعم و المشرب و المنكح، و تعلقوا بالكهوف و الصوامع؛ لأن ملوكهم غيروا و بدلوا و بقى منهم نفر قليل فترهبوا و تبتلوا، ذكر معناه الضحاك و قتادة و غيرهما إلا ابتغاء رضوان الله بدلا من الهاء و الألف فى كتبناها، و المعنى: ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها أى: لم يرعوا هذه الرهبانية التى

ابتدعوها من جهة أنفسهم، بل صنعوها و كفروا بدين عيسى، و دخلوا في دين الملوك الذين غيروا و بدلوا و تركوا الترهيب؛ و لم يبق على دين عيسى إلا- قليل منهم، و هم المرادون بقوله: فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمُ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ بِالْإِيمَانِ، و ذلك لأنهم آمنوا بعيسى و ثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ و سَلَّمَ لما بعثه الله و كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسْتَقْبَلُوا خَارِجُونَ عَنِ الْإِيمَانِ بما أمروا أن يؤمنوا به، و وجه الذم لهم على تقدير أن الاستثناء منقطع أنهم قد كانوا ألزموا أنفسهم الرهبانية معتقدين أنها طاعة و أن الله يرضاهما، فكان تركها و عدم رعايتها حق الرعاية يدل على عدم مبالاتهم بما يعتقدونه ديناً. و أما على القول بأن الاستثناء متصل، و أن التقدير: ما كتبناها عليهم لشيء من الأشياء إلا لبيتغوا بها رضوان الله بعد أن وقفناهم لابتداعها فوجه الذم ظاهر. ثم أمر سبحانه المؤمنين بالرسول المتقدمين بالتقوى و الإيمان بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ و سَلَّمَ فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ بترك ما نهاكم عنه و آمِنُوا بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ و سَلَّمَ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ أَي: نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل، و أصل الكفل: الحظ و النصيب، و قد تقدّم الكلام على تفسيره في سورة النساء و يَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ يَعْنِي عَلَى الصِّرَاطِ كَمَا قَالَ: نُورُهُمْ يَبِينُ أَيْدِيَهُمْ (١) و قيل:

المعنى: و يجعل لكم سيلاً واضحاً في الدين تهتدون به و يَغْفِرُ لَكُمْ ما سلف من ذنوبكم و اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَي: يبلغ المغفرة و الرحمة لئلا يعلم أهل الكتاب اللام متعلقة بما تقدّم من الأمر بالإيمان و التقوى، و التقدير: اتقوا و آمنوا يؤتكم كذا و كذا ليعلم الذين لم يتقوا و لا- آمنوا من أهل الكتاب أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ و «لا» في قوله: لئلا زائدة للتوكيد، قاله الفراء الأ-خفش و غيرهما، و أن في قوله: أَلَّا يَقْدِرُونَ هِيَ الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، و اسمها ضمير شأن محذوف، و خبرها ما بعدها، و الجملة في محل نصب على أنها مفعول يعلم، و المعنى: ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرُونَ على أن ينالوا شيئاً من فضل الله الذي تفضل به على من آمن بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ و سَلَّمَ، و لا يقدرُونَ على دفع ذلك الفضل الذي تفضل الله به على المستحقين له، و جملة و أَنَّ الْفَضْلَ يَبِيدُ اللَّهُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، أَي:

ليعلموا أنهم لا يقدرُونَ و ليعلموا أن الفضل بيد الله سبحانه، و قوله: يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ خَيْرٌ ثَانٍ لِأَنَّ، أو هو الخبر، و الجارّ و المجرور في محل نصب على الحال و اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، و المراد بالفضل هنا ما تفضل به على الذين اتقوا و آمنوا برسوله من الأجر المضاعف. و قال الكلبي:

(١). التحريم: ٨.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢١٥

هو رزق الله، و قيل: نعم الله التي لا تحصى، و قيل: هو الإسلام، و قد قيل: إن «لا» في «لئلا» غير مزيدة، و ضمير «لا يقدرُونَ» للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ و سَلَّمَ و أصحابه. و المعنى: لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي و المؤمنون على شيء من فضل الله الذي هو عبارة عما أوتوه، و الأول أولى. و قرأ ابن مسعود «لكيلا يعلم» و قرأ حطّان بن عبد الله: «لأن يعلم» و قرأ عكرمة: «ليعلم» و قرئ: «ليلا» بقلب الهمزة ياء، و قرئ بفتح اللام.

و قد أخرج عبد بن حميد، و الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب، من طرق عن ابن مسعود قال: «قال لي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ و سَلَّمَ: يا عبد الله، قلت: لبيك يا رسول الله ثلاث مرات، قال: هل تدري أي عرى الإسلام أوتق؟

قلت: الله و رسوله أعلم، قال: أفضل الناس أفضلهم عملاً إذا فقهوا في دينهم؛ يا عبد الله هل تدري أيّ الناس أعلم؟ قلت: الله و رسوله أعلم، قال: فإن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس و إن كان مقصراً بالعمل و إن كان يزحف على استه، و

اختلف من كان قبلنا على اثنتين و سبعين فرقة نجا منها ثلاث و هلك سائرهما، فرقة وازت الملوك و قاتلتهم على دين الله و عيسى ابن مريم، و فرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك فأقاموا بين ظهراني قومهم فدعوهم إلى دين الله و دين عيسى فقتلهم الملوك و نشرتهم بالمناسير، و فرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك و لا بالمقام معهم فساحوا في الجبال و ترهبوا فيها و هم الذين قال الله:

وَ رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِى وَ صَدَّقُونِى وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ الَّذِينَ جحدونى و كفروا بى». و أخرج النسائي، و الحكيم و الترمذى فى نوادر الأصول، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال:

«كانت ملوك بعد عيسى بدلت التوراة و الإنجيل، فكان منهم مؤمنون يقرءون التوراة و الإنجيل، فليل لملوكمهم: ما نجد شيئاً أشد من شتم يشتمنا هؤلاء، إنهم يقرءون: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ «١» وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ «٢» فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ \* «٣» مع ما يعيونا به من أعمالنا فى قراءتهم، فدعوهم فليقرءوا كما نقرأ و ليؤمنوا كما آمننا، فدعاهم فجمعهم و عرض عليهم القتل، أو ليركوا التوراة و الإنجيل إلا ما بدلوا منهما، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك؟

دعونا، فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا و شرابنا و لا نرد عليكم، و قالت طائفة: دعونا نسيح فى الأرض و نهييم و نأكل مما تأكل منه الوحوش و نشرب مما تشرب، فإن قدرتم علينا فى أرضكم فاقتلونا، و قالت طائفة: ابنوا لنا دوراً فى القيافى و نحترق الآبار و نحترق البقول فلا نرد عليكم و لا نمربكم، و ليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم ففعلوا ذلك، فأنزل الله: رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا وَ قَالَ الآخرون ممن تعبد من أهل الشرك

(١). المائدة: ٤٤.

(٢). المائدة: ٤٥.

(٣). المائدة: ٤٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢١٦

و فنى من فنى منهم قالوا: نتعبد كما تعبد فلان و نسيح كما ساح فلان و نتخذ دوراً كما اتخذ فلان و هم على شركهم، لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم، فلما بعث النبى صلى الله عليه و سلم و لم يبق منهم إلا القليل انحط صاحب الصومعة من صومعته و جاء السائح من سياحته و صاحب الدير من ديره، فآمنوا به و صدقوه، فقال الله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ أَجْرِينَ بِإِيمَانِهِمْ بَعِيسَى وَ نَصَبَ أَنفُسَهُمْ وَ التَّورَةَ وَ الْإِنجِيلَ، وَ بِإِيمَانِهِمْ بِمُحَمَّدٍ وَ تَصَدِيقِهِمْ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ الْقُرْآنَ وَ اتَّبَاعَهُمُ النَّبِىَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ.

و أخرج أحمد و الحكيم الترمذى و أبو يعلى، و البيهقى فى الشعب، عن أنس أن النبى صلى الله عليه و سلم قال: «إن لكل أمة رهبانية و رهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله». و أخرج ابن أبى شيبه و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعري فى قوله: كِفْلَيْنِ قَالَ: ضعفين، و هى بلسان الحبشة. و أخرج الفريابى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عمر فى قوله: يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ قَالَ: الكفل ثلاثمائة جزء و خمسون جزءاً من رحمة الله.

## سورة المجادلة

## إشارة

و هي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع، إلا-رواية عن عطاء أن العشر الأول منها مدني. و باقيها مكى. و قال الكلبي: نزلت جميعها بالمدينة غير قوله: ما يكون من نجوى ثلاثه إلا هو رابعهم نزلت بمكة. و أخرج ابن الضريس و النحاس، و أبو الشيخ في العظمة، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة المجادلة بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## [سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَ زُورًا وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَمْ تَوْعُظُونَ بِهِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصَةَ يَوْمَ شَهْرَيْنِ مُتتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)

قوله: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ أَبُو عمرو و حمزة و الكسائي يادغام الدال في السين، و قرأ الباقون بالإظهار.

قال الكسائي: من بين الدال عند السين فلسانه أعجمي و ليس بعربي قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا أَي: تراجعك الكلام في شأنه وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ معطوف على «تجادلك». و المجادلة هذه الكائنة منها مع رسول الله أنه كان كلما قال لها: قد حرمت عليه، قالت: و الله ما ذكر طلاقا، ثم تقول: أشكو إلى الله فاقتي و وحدتي، و إن لي صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا، و إن ضممتهم إلى جاعوا، و جعلت ترفع رأسها إلى السماء و تقول: اللهم إني أشكوا إليك، فهذا معنى قوله: وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ قال الواحدى:

قال المفسرون: نزلت هذه الآية في خولة بنت ثعلبة و زوجها أوس بن الصامت و كان به لمم «١»، فاشتد به لممه ذات يوم فظاهر منها، ثم ندم على ذلك، و كان الظهار طلاقا في الجاهلية. و قيل: هي خولة بنت حكيم، و قيل: اسمها جميلة، و الأول أصح، و قيل: هي بنت خويلد. و قال الماوردي: إنها نسبت تارة إلى أبيها، و تارة إلى جدّها و أحدهما أبوها و الآخر جدّها، فهي خولة بنت ثعلبة بن خويلد، و جملة وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا فِي محل نصب على الحال، أو مستأنفة جارية مجرى التعليل لما قبلها، أى: و الله يعلم تراجعكما

(١). «اللمم»: طرف من الجنون يلمّ بالإنسان، أى يعتريه.

شأن الظهار في نفسه، و ذكر حكمه، فقال: الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ قَرَأَ الْجُمُوهُورَ «يُظَاهِرُونَ» بالتشديد مع فتح حرف المضارعة. و قرأ ابن عامر و حمزة و الكسائي «يُظَاهِرُونَ» بفتح الياء و تشديد الظاء و زيادة ألف، و قرأ أبو العالية و عاصم و زر بن حبیش «يُظَاهِرُونَ» بضم الياء و تخفيف الظاء و كسر الهاء. و قد تقدم مثل هذا في سورة الأحزاب. و قرأ أبي «يتظاهرون» بفك الإدغام. و معنى الظهار أن يقول لامرأته: أنت على كظهر أمي، أي: و لا خلاف في كون هذا ظهارا.

و اختلفوا إذا قال: أنت على كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم؛ فذهب جماعة منهم أبو حنيفة و مالك إلى أنه ظهار، و به قال الحسن و النخعي و الزهري و الأوزاعي و الثوري. و قال جماعة منهم قتادة و الشعبي: إنه لا يكون ظهارا، بل يختص الظهار بالأم وحدها. و اختلفت الرواية عن الشافعي، فروى عنه كالقول الأول، و روى عنه كالقول الثاني، و أصل الظهار مشتق من الظهر.

و اختلفوا إذا قال لامرأته: أنت على كراس أمي أو يدها أو رجلها أو نحو ذلك، هل يكون ظهارا أم لا، و هكذا إذا قال: أنت على كأمي، و لم يذكر الظهر، و الظاهر أنه إذا قصد بذلك الظهار كان ظهارا. و روى عن أبي حنيفة أنه إذا شبهها بعضو من أمه يحل له النظر إليه لم يكن ظهارا. و روى عن الشافعي أنه لا يكون الظهار إلا في الظهر وحده.

و اختلفوا إذا شبه امرأته بأجنبية؛ فقيل: يكون ظهارا، و قيل: لا، و الكلام في هذا مبسوط في كتب الفروع، و جملة ما هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ في محل رفع على أنها خبر الموصول. أي: ما نسأؤهم بأمهاتهم، فذلك كذب منهم، و في هذا توييح للمظاهرين و تبكيت لهم. قرأ الجمهور: «أمهاتهم» بالنصب على اللغة الحجازية في إعمال «ما» عمل ليس، و قرأ أبو عمرو و السلمي بالرفع على عدم الإعمال، و هي لغة نجد و بني أسد.

ثم بين سبحانه لهم أمهاتهم على الحقيقة فقال: إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَ لَمَدَنَّهُمْ أَي: ما أمهاتهم إلا النساء اللاتي ولدنهم. ثم زاد سبحانه في توييحهم و تقريعهم فقال: وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَ زُورًا أَي: و إن المظاهرين ليقولون بقولهم هذا منكرًا من القول، أي: فظيحا من القول ينكره الشرع، و الزور:

الكذب، و انتصاب منكرًا و زورا على أنهما صفة لمصدر محذوف، أي: قولًا منكرًا و زورا وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ أَي: بليغ العفو و المغفرة، إذ جعل الكفارة عليهم مخصصة لهم من هذا القول المنكر. وَ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا لما ذكر سبحانه الظهار إجمالًا و وبخ فاعليه؛ شرع في تفصيل أحكامه، و المعنى: و الذين يقولون ذلك القول المنكر الزور، ثم يعودون لما قالوا، أي: ما قالوا بالتدارك و التلافي، كما في قوله: أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ «١» أَي: إلى مثله. قال الأخفش لما قالوا و «إلى ما

(١). النور: ١٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢١٩

قالوا] واحد، و اللام و إلى «١» يتعاقبان. قال: وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا «٢» و قال:

فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ «٣» و قال: بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا «٤» و قال: وَ أَوْحَى إِلَى نُوحٍ «٥» و قال الفراء: اللام بمعنى عن، و المعنى: ثم يرجعون عما قالوا و يريدون الوطاء. و قال الزجاج:

المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا. قال الأخفش أيضا: الآية فيها تقديم و تأخير، و المعنى:

و الذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما كانوا عليه من الجماع فتحرير رقبته لما قالوا، أي: فعليهم تحرير رقبته من أجل ما قالوا، فالجار في قوله: لما قالوا متعلق بالمحذوف الذي هو خبر المبتدأ و هو:

فعلهم.

و اختلف أهل العلم فى تفسير العود المذكور على أقوال: الأول: أنه العزم على الوطء، و به قال العراقيون أبو حنيفة و أصحابه، و روى عن مالك. و قيل: هو الوطء نفسه، و به قال الحسن، و روى أيضا عن مالك.

و قيل: هو أن يمسكها زوجته بعد الظهر مع القدرة على الطلاق، و به قال الشافعى. و قيل: هو الكفارة، و المعنى: أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة، و به قال الليث بن سعد، و روى عن أبى حنيفة. و قيل: هو تكرير الظهر بلفظه، و به قال أهل الظاهر. و روى عن بكير بن الأشج و أبى العالىة و الفراء. و المعنى. ثم يعودون إلى قول ما قالوا. و الموصول مبتدأ و خبره فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ عَلَى تَقْدِيرٍ: فعليهم تحرير رقبة كما تقدم، أو فالواجب عليهم إعتاق رقبة، يقال: حررته، أى: جعلته حرا، و الظاهر أنها تجزئ أى رقبة كانت، و قيل:

يشترط أن تكون مؤمنة كالرقبة فى كفارة القتل؛ و بالأول قال أبو حنيفة و أصحابه و بالثانى قال مالك و الشافعى، و اشترطا أيضا سلامتها من كل عيب مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا المراد الاستمتاع بالجماع أو اللمس أو النظر إلى الفرج بشهوة، و به قال مالك، و هو أحد قولى الشافعى، و الإشارة بقوله: ذَلِكَ إِلَى الْحُكْمِ المذكور و هو مبتدأ و خبره تُوعَظُونَ بِهِ أى: تؤمرون به، أو تزجرون به عن ارتكاب الظهار، و فيه بيان لما هو المقصود من شرع الكفارة. قال الزجاج: معنى الآية: ذلكم التغليظ فى الكفارة توعظون به، أى:

إن غلظ الكفارة و عظ لكم حتى تركوا الظهار وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لا يخفى عليه شىء من أعمالكم، فهو مجازيكم عليها. ثم ذكر سبحانه حكم العاجز عن الكفارة فقال: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا أى: فمن لم يجد الرقبة فى ملكه، و لا تمكّن من قيمتها، فعليه صيام شهرين متتابعين متواليين لا يفطر فيهما، فإن أفطر استأنف إن كان الإفطار لغير عذر، و إن كان لعذر من سفر أو مرض فقال سعيد بن المسيب و الحسن و عطاء بن أبى رباح و عمرو بن دينار و الشعبى و الشافعى و مالك: إنه يبنى و لا- يستأنف. و قال أبو حنيفة: إنه يستأنف، و هو مروى عن الشافعى؛ و معنى مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا هو ما تقدم قريبا، فلو وطئ ليلا أو نهارا عمدا أو خطأ استأنف، و به قال أبو حنيفة و مالك. و قال الشافعى:

(١). من تفسير القرطبي (١٧/ ٢٨٢)

(٢). الأعراف: ٤٣.

(٣). الصافات: ٢٣.

(٤). الزلزلة: ٥.

(٥). هود: ٣٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٢٠

لا يستأنف إذا وطئ ليلا لأنه ليس محلا للصوم، و الأول أولى فَمَنْ لَمْ يَشِ تَطْعَ يَعْنِي صِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا أى: فعليه أن يطعم ستين مسكينا، لكل مسكين مدان، و هما نصف صاع، و به قال أبو حنيفة و أصحابه. و قال الشافعى و غيره: لكل مسكين مد واحد، و الظاهر من الآية أن يطعمهم حتى يشبعوا مرة واحدة، أو يدفع إليهم ما يشبعهم، و لا يلزمه أن يجمعهم مرة واحدة، بل يجوز له أن يطعم بعض الستين فى يوم، و بعضهم فى يوم آخر، و الإشارة بقوله: ذَلِكَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ مِنَ الْأَحْكَامِ، و هو مبتدأ و خبره مقدّر، أى: ذلك واقع لثُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ و يجوز أن يكون اسم الإشارة فى محل نصب، و التقدير: فعلنا ذلك لثُؤْمِنُوا، أى: لتصدّقوا أن الله أمر به و شرعه، أو لتطيعوا الله و رسوله فى الأوامر و النواهي، و تفقوا عند حدود الشرع و لا تتعدوها، و لا تعودوا إلى الظهار المذموم هو منكر من القول و زور، و الإشارة بقوله: وَ تِلْكَ إِلَى الْأَحْكَامِ المذكورة و

هو مبتدأ، وخبره حُدُودُ اللَّهِ فلا تجاوزوا حدوده التي حدّها لكم، فإنه قد بين لكم أن الظهار معصية، وأن كفّارته المذكورة توجب العفو والمغفرة وللكافرين الذين لا يقفون عند حدود الله ولا يعملون بما حدّه الله لعباده عذاباً أليماً وهو عذاب جهنم، وسمّاه كفراً تغليظاً وتشديداً.

وقد أخرج ابن ماجه و ابن أبي حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و البيهقي عن عائشة قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة و يخفي على بعضه، و هي تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، و هي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، و نثرت له بطني، حتى إذا كبر سني و انقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها و هو أوس بن الصامت. و أخرج النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال:

كان أول من ظاهر في الإسلام أوس، و كانت تحته ابنة عم له يقال لها خولة بنت خويلد، فظاهر منها فأسقط في يده و قال: ما أراك إلا و قد حرمت على، فانطلقى إلى النبي صلى الله عليه و سلم فأسأله، فأنت النبي صلى الله عليه و سلم فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فأخبرته، فقال: يا خولة ما أمرنا في أمرك بشيء، فأنزل الله على النبي صلى الله عليه و سلم فقال:

يا خولة أبشري. قالت: خيراً. قال: خيراً، فقرأ عليها: قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها الآيات. و أخرج أحمد و أبو داود و ابن المنذر و الطبراني و ابن مردويه و البيهقي من طريق يوسف بن عبد الله ابن سلام قال: «حدثني خولة بنت ثعلبة قالت: في الله و في أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، و كان شيخاً قد ساء خلقه، فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء، فغضب، فقال: أنت عليّ كظهر أمي، ثم رجع فجلس في نادى قومه ساعة، ثم دخل عليّ فإذا هو يريدني عن نفسي، قلت:

كلا و الذي نفس خولة بيده، لا تصل إليّ، و قد قلت ما قلت، حتى يحكم الله و رسوله فينا، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فذكرت ذلك له، فما برحت حتى نزل القرآن، فتغشى رسول الله صلى الله عليه و سلم ما كان يغشاه ثم سرى عنه، فقال لي: يا خولة قد أنزل الله فيك و في صاحبك، ثم قرأ عليّ قد سمع الله قول التي تجادلك إلى قوله: عذاباً أليماً فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: مريه فليعتق رقبة قلت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٢١

قال: فليصم شهرين متتابعين، قلت: و الله إنه لشيخ كبير ما به من صيام، قال: فليطعم ستين مسكيناً و سقا من تمر، قلت: و الله ما ذاك عنده، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: فأنا سأعينه بعرق من تمر، فقلت: و أنا يا رسول الله سأعينه بعرق آخر، فقال: قد أصبت و أحسنت فاذهبي فتصدقى به عنه ثم استوصى بابن عمك خيراً، قالت: ففعلت» و في الباب أحاديث. و أخرج ابن المنذر، و البيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله:

ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا قَالَ: هو الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، فإذا قال ذلك فليس يحلّ له أن يقربها بنكاح و لا غيره حتى يكفر بعق رقبة فمن إن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتمأسا و المسس النكاح فمن إن لم يشيطع فأطعم ستين مسكيناً و إن هو قال لها: أنت علي كظهر أمي إن فعلت كذا فليس يقع في ذلك ظهار حتى يحنث، فإن حنث فلا يقربها حتى يكفر، و لا يقع في الظهار طلاق. و أخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال: ثلاث فيه مدّ: كفارة اليمين، و كفارة الظهار، و كفارة الصيام.

و أخرج البزار و الطبراني و الحاكم و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: «أتى رجل النبي صلى الله عليه و سلم فقال: إني ظاهرت من امرأتي، فرأيت بياض خلخالها في ضوء القمر، فوقع عليها قبل أن أكفر، فقال النبي صلى الله عليه و سلم:

ألم يقل الله: مَنْ قَبِيلٍ أَنْ يَتَمَّاسًا قَالَ: قد فعلت يا رسول الله، قال: أمسك عنها حتى تكفر». و أخرج عبد الرزاق و أبو داود و الترمذى و النسائى و ابن ماجه و الحاكم و البيهقى عن ابن عباس «أن رجلا قال: يا رسول الله إني ظاهرت من امرأتى فوعدت عليها قبل أن أكفر، فقال: و ما حملك على ذلك؟ قال: رأيت خلخالها فى ضوء القمر، قال: فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله» و أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد و أبو داود، و الترمذى و حسيه، و ابن ماجه و الطبرانى و البغوى فى معجمه، و الحاكم و صححه، عن سلمه بن صخر الأنصارى قال: كنت رجلا قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيرى، فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتى حتى ينسلخ رمضان فرقا من أن أصيب منها فى ليلى فأتتبع فى ذلك و لا أستطيع أن أنزع حتى يدركنى الصبح، فبينما هى تخدمنى ذات ليلة إذ انكشف لى منها شىء فوثب عليها، فلما أصبحت غدوت على قومى فأخبرتهم خبرى، فقلت: انطلقوا معى إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فأخبره بأمرى، فقالوا: لا، و الله لا نفع لنا نتخوف أن ينزل فىنا القرآن، أو يقول فىنا رسول الله صلى الله عليه و سلم مقالته يبقى علينا عارها، و لكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك، قال: فخرجت فأتيت رسول الله صلى الله عليه و سلم فأخبرته خبرى، فقال: أنت بذاك «(١)؟ قلت: أنا بذاك، قال: أنت بذاك؟ قلت: أنا بذاك، قال: أنت بذاك؟ قلت: أنا بذاك و ها أنا ذا فامض فى حكم الله فإنى صابر لذلك، قال: أعتق رقبة، فضربت عنقى بيدي فقلت: لا و المذى بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها، قال: فصم شهرين متتابعين، فقلت: هل أصابنى إلا فى الصيام؟ قال: فأطعم ستين مسكينا، قلت: و الذى بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه و حشين «(٢) ما لنا عشاء، قال: اذهب إلى صاحب صدقة بنى زريق، فقل له فليدفعها إليك فأطعم عنك منها و سقا ستين مسكينا، ثم استعن بسائرهما عليك و على

(١). «أنت بذاك»: أى أنت متلبس بذلك الفعل؟

(٢). «وحشين»: رجل وحش، أى جائع لا طعام له.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٢٢

عيالك. فرجعت إلى قومى فقلت: وجدت عندكم الضيق و سوء الرأى، و وجدت عند رسول الله صلى الله عليه و سلم السعة و البركة، أمر لى بصدقتكم فادفعوها إلى، فدفعوها إليه».

## [سورة المجادلة (٥٨): الآيات ٥ الى ١٠]

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَنَجَّوْنَ بِالْأَيْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ إِذَا جَاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُيْهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْأَيْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ تَنَاجَوْا بِالْبَرِّ وَ التَّقْوَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩)

إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠)

قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لما ذكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين، و المحادة: المشاقفة و المعادة و المخالفة، و مثله قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ قال الزجاج: المحادة:



أن تكون في حدّ يخالف صاحبك، و أصلها الممانعة، و منه الحديد، و منه الحدّاد للبوّاب كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَى: أذلوا و أخزوا، يقال: كبت الله فلانا إذا أذله، و المردود بالذل يقال له مكبوت.

قال المقاتلان: أخزوا كما أخزى الذي من قبلهم من أهل الشرك، و كذا قال قتادة. و قال أبو عبيدة و الأخفش:

أهلكوا. و قال ابن زيد، عذبوا. و قال السدى: لعنوا. و قال الفراء: أغيطوا، و المراد بمن قبلهم: كفار الأمم الماضية المعادين لرسول الله، و عبّر عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيها على تحقّق وقوعه، و قيل: المعنى: على المضى، و ذلك ما وقع للمشركين يوم بدر، فإن الله كبتهم بالقتل و الأسر و القهر، و جملة و قد أنزلنا آيات بينات في محل نصب على الحال من الواو في كتبوا، أى: و الحال أنا قد أنزلنا آيات واضحة فيمن حادّ الله و رسله من الأمم المتقدمة، و قيل: المراد الفرائض التي أنزلها الله سبحانه، و قيل: هي المعجزات و للكافرين عذاب مهين أى: للكافرين بكل ما يجب الإيمان به، فتدخل الآيات المذكورة هنا دخولا أوليا، و العذاب المهين: العذاب يهين صاحبه و يذله و يذهب بعزه يوم يبعثونهم الله جميعاً الظرف منتصب بإضمار اذكر، أو بمهين، أو بما تعلق به اللام من الاستقرار، أو بأحصاء المذكور بعده، و انتصاب جميعاً على الحال، أى: مجتمعين في حالة واحدة، أو يبعثهم كلهم لا يبقى منهم أحد غير مبعوث فيبعثهم بما عملوا أى: يخبرهم بما عملوه في الدنيا من الأعمال القبيحة تويخا لهم و تبيكتا و لتكميل الحجّة عليهم، و جملة أخصاء الله و نسوة مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: كيف ينبتهم بذلك على كثرته

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٢٣

و اختلاف أنواعه، فقيل: أخصاء الله جميعاً و لم يفته منه شيء، و الحال أنهم قد نسوه و لم يحفظوه، بل وجدوه حاضرا مكتوبا في صحائفهم و الله على كل شيء شهيد لا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل هو مطلع و ناظر. ثم أكد سبحانه بيان كونه عالما بكل شيء، فقال: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ أَى: ألم تعلم أن علمه محيط بما فيهما بحيث لا يخفى عليه شيء مما فيهما، و جملة ما يكون من نجوى ثلاثة إلخ مستأنفة لتقرير شمول علمه و إحاطته بكل المعلومات. قرأ الجمهور «يكون» بالتحتية.

و قرأ أبو جعفر بن القعقاع و الأعرج و أبو حيوة بالفوقية، و «كان» على القراءتين تامة، و «من» مزيدة للتأكيد، و «نجوى» فاعل كان، و النجوى: السرار، يقال: قوم نجوى، أى: ذوو نجوى، و هى مصدر.

و المعنى: ما يوجد من تناجى ثلاثة أو من ذوى نجوى، و يجوز أن تطلق النجوى على الأشخاص المتناجين؛ فعلى الوجه الأول انخفاض ثلاثة بإضافة نجوى إليه، و على الوجهين الآخرين يكون انخفاضها على البدل من نجوى أو الصفة لها. قال الفراء: ثلاثة نعت للنجوى فانخفضت، و إن شئت أضفت نجوى إليها، و لو نصبت على إضمار فعل جاز، و هى قراءة ابن أبى عبله، و يجوز رفع ثلاثة على البدل من موضع نجوى إلّا هو رابعهم هذه الجملة فى موضع نصب على الحال، و كذا قوله: إلّا هو سادسهم إلّا هو معهم أى: ما يوجد شيء من هذه الأشياء إلا فى حال من هذه الأحوال، فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، و معنى رابعهم جاعلهم أربعة، و كذا سادسهم جاعلهم ستة من حيث إنه يشاركهم فى الاطلاع على تلك النجوى و لا خمسة أى: و لا نجوى خمسة، و تخصيص العدد بالذكر؛ لأن أغلب عادات المتناجين أن يكونوا ثلاثة أو خمسة؛ أو كانت الواقعة التى هى سبب النزول فى متناجين كانوا ثلاثة فى موضع و خمسة فى موضع.

قال الفراء: العدد غير مقصود لأنه سبحانه مع كل عدد قل أو كثر يعلم السر و الجهر، لا تخفى عليه خافية و لا أذنى من ذلك و لا أكثر إلّا هو معهم أى: و لا أقل من العدد المذكور: كالواحد، و الاثنين، و لا أكثر منه: كالسته و السبعة؛ إلا- هو يعلم ما يتناجون به لا يخفى عليه من شيء، قرأ الجمهور: «و لا أكثر» بالجر بالفتحة عطفا على لفظ نجوى. و قرأ الحسن و الأعمش و ابن إسحاق و أبو حيوة و يعقوب و أبو العالية و نصر و عيسى بن عمر و سلام بالرفع عطفا على محل نجوى. و قرأ الجمهور: «و لا

أكثر» بالمثلثة.

وقرأ الزهري و عكرمة بالموحدة. قال الواحدى: قال المفسرون: إن المنافقين و اليهود كانوا يتناجون فيما بينهم و يوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوؤهم، فيحزنون لذلك، فلما طال ذلك و كثر شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك و عادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله هذه الآيات، و معنى أَيْنَ ما كانوا إحاطة علمه بكل تناج يكون منهم فى أى مكان من الأمكنة ثُمَّ يُبَيِّنُهُمْ أَى:

يخبرهم بما عملوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ توبيخا و تبيكتا و إلزاما للحجة إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا يخفى عليه شىء كائنا ما كان أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعْوَدُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ هؤلاء الذين نهوا، ثم عادوا لما نهوا عنه هم من تقدم ذكره من المنافقين و اليهود. قال مقاتل: كان بين النبي صلى الله عليه و سلم و بين اليهود مواعده، فإذا مرّ بهم الرجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شرا فنهاهم الله فلم ينتهوا، فنزلت. و قال ابن

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٢٤

زيد: كان الرجل يأتي النبي صلى الله عليه و سلم فيسأله الحاجة و يناجيه و الأرض يومئذ حرب، فيتوهمون أنه يناجيه فى حرب أو بليء أو أمر مهم؛ فيفزعون لذلك وَ يَتَنَاجُونَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ قرأ الجمهور:

«يتناجون» بوزن يتفاعلون، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم لقوله فيما بعد: إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا و قرأ حمزة و خلف و ورش عن يعقوب «و ينتجون» بوزن يفتعلون، و هى قراءة ابن مسعود و أصحابه، و حكى سيبويه أن تفاعلا و افتعلوا يأتيان بمعنى واحد، نحو: تخاصموا و اختصموا، و تقاتلوا و اقتتلوا، و معنى الإثم ما هو إثم فى نفسه كالكذب و الظلم، و العدوان ما فيه عدوان على المؤمنين و معصية الرسول مخالفته. قرأ الجمهور: «و معصية» بالإفراد. و قرأ الضحاك و حميد و مجاهد «و معصيات» بالجمع. وَ إِذَا جَاؤُكَ حَيُّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ قال القرطبي: إن المراد بها اليهود، كانوا يأتون النبي صلى الله عليه و سلم فيقولون:

السام عليك، يريدون ذلك السلام ظاهرا، و هم يعنون الموت باطنا، فيقول النبي صلى الله عليه و سلم: «عليكم». و فى روايه أخرى: «و عليكم». وَ يَقُولُونَ فى أَنْفُسِهِمْ أَى: فيما بينهم لو لا يُعَذِّبْنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ أَى: هلا يعذبنا بذلك، و لو كان محمد نبيا لعذبنا بما يتضمّن قولنا من الاستخفاف به، و قيل: المعنى: لو كان نبيا لاستجيب له فينا حيث يقول: و عليكم، و وقع علينا الموت عند ذلك. حَسْبُ جُهَنَّمَ عَذَابًا يَصْرِفُونَهَا يَدْخُلُونَهَا فَبَسَّ الْمَصِيرُ أَى: المرجع، و هو جهنم، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجُوا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ لما فرغ سبحانه عن نهى اليهود و المنافقين عن النجوى؛ أرشد المؤمنين إذا تناجوا فيما بينهم أن لا يتناجوا بما فيه إثم و عدوان و معصية لرسول الله كما يفعله اليهود و المنافقون.

ثم بين لهم ما يتناجون به فى أندبتهم و خلواتهم، فقال: وَ تَنَاجُوا بِالْبُرِّ وَ التَّقْوَى أَى: بالطاعة و ترك المعصية، و قيل: الخطاب للمنافقين، و المعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى، و الأول أولى، ثم خوفهم سبحانه فقال: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فيجزىكم بأعمالكم. ثم بين سبحانه أن ما يفعله اليهود و المنافقون من التناجى هو من جهة الشيطان، فقال: إِنَّمَا النَّجْوَى يعنى بالإثم و العدوان و معصية الرسول مِنَ الشَّيْطَانِ لا من غيره، أَى: من تزينه و تسويله لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا أَى: لأجل أن يوقعهم فى الحزن بما يحصل لهم من التوهم أنها فى مكيدة يكادون بها وَ لَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا أَوْ: و ليس الشيطان أو التناجى الذى يزينه الشيطان بضار المؤمنين شيئا من الضرر إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أَى: بمشيئته، و قيل: بعلمه وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ أَى: يكون أمرهم إليه، و يفوضونه فى جميع شؤونهم، و يستعيذون بالله من الشيطان، و لا يبالون بما يزينه من النجوى.

و قد أخرج أحمد و عبد بن حميد و البزار و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، قال السيوطى: بسند

جيد، عن ابن عمر: إن اليهود كانوا يقولون لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: السام عليك، يريدون بذلك شتمه، ثم يقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول، فنزلت هذه الآية: وَإِذَا جَاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَأَخْرَجَ أَحْمَدَ وَعَبْدَ بْنَ حَمِيدٍ وَالبخارى، و الترمذى و صحَّحه، عن أنس: «أن يهوديا أتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه فقال: السام عليكم، فردَّ عليه القوم، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل تدرّون ما قال

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٢٥

هذا؟ قالوا: الله أعلم، سلّم يا نبي الله، قال: لا، ولكنه قال كذا وكذا، ردّوه عليّ، فردّوه، قال: قلت السام عليكم؟ قال: نعم، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ذلك: إذا سلّم عليكم أحد من أهل الكتاب، فقولوا: عليك، قال: عليك ما قلت. قال: وَإِذَا جَاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن عائشة قالت: «دخل على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم؟ فقالت عائشة: عليكم السام واللعنة، فقال: يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا المفتحش، قلت: ألا تسمعهم يقولون السام؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أو ما سمعتنى أقول و عليكم؟ فأنزل الله:

وَ إِذَا جَاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ . و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى هذه الآية قال: كان المنافقون يقولون لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حيّوه: سام عليك، فنزلت. و أخرج ابن مردويه عنه قال: «كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بعث سرية و أغزاها التقى المنافقون فأغضوا رؤوسهم إلى المسلمين و يقولون: قتل القوم، و إذا رأوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تناجوا و أظهروا الحزن، فبلغ ذلك من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و من المسلمين، فأنزل الله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجُوا بِالْأَيْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ الْآيَةَ». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه». و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى سعيد قال: كنا نتناوب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يطرقه أمر، أو يأمر بشىء، فكثرت أهل التوب و المحتسبون ليله حتى إذا كنا أندية نتحدّث، فخرج علينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الليل فقال: ما هذه النجوى؟ ألم تنهوا عن النجوى؟ قلنا: يا رسول الله إنا كنا فى ذكر المسيح فرقا منه، فقال: ألا أخبركم مما هو أخوف عليكم عندى منه؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الشرك الخفى أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل». قال ابن كثير: هذا إسناد غريب، و فيه بعض الضعفاء.

### [سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١١ الى ١٣]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) أَسْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)

قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ يُقال: فسح له يفسح فسحا، أى:

وسع له، و منه قولهم: بلد فسيح. أمر الله سبحانه بحسن الأدب مع بعضهم بعضا بالتوسعة فى المجلس و عدم التضايق فيه. قال قتادة و مجاهد و الضحاك: كانوا يتنافسون فى مجلس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض. و قال الحسن و يزيد بن أبى حبيب: هو مجلس القتال إذا اصطفوا للحرب كانوا يتشاحون على الصف الأول، فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة فى القتال لتحصيل الشهادة فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ أى: فوسّعوا

يوسع الله لكم في الجنة، أو في كل ما تريدون التفسح فيه من المكان و الرزق و غيرهما، قرأ الجمهور: «تفسحوا في المجلس» و قرأ السلمى و زر بن حبيش و عاصم في المَجَالِسِ على الجمع؛ لأن لكل واحد منهم مجلسا، و قرأ قتادة و الحسن و داود بن أبي هند و عيسى بن عمر «تفاسحوا». قال الواحدى: و الوجه التوحيد في المجلس، لأنه يعنى به مجلس النبي صلى الله عليه و سلم. و قال القرطبي: الصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير و الأجر؛ سواء كان مجلس حرب، أو ذكر، أو يوم الجمعة، فإن كل واحد أحق بمكانه الذى سبق إليه، و لكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه، و يؤيد هذا: حديث ابن عمر عند البخارى و مسلم و غيرهما عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: «لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه»، [و عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه و يجلس فيه آخر] «١» و لكن تفسحوا و توسعوا».

وَ إِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا قرأ الجمهور بكسر الشين فيها، و قرأ نافع و ابن عامر و عاصم بضمها فيهما، و هما لغتان بمعنى واحد، يقال: نشز، أى: ارتفع، ينشز و ينشز، كعكف يعكف و يعكف، و المعنى:

إذا قيل لكم انهضوا فانهموا. قال جمهور المفسرين: أى: انهضوا إلى الصلاة و الجهاد و عمل الخير. و قال مجاهد و الضحاك و عكرمة: كان رجال يتناقلون عن الصلاة، ف قيل لهم: إذا نودى للصلاة فانهموا. و قال الحسن: انهضوا إلى الحرب. و قال ابن زيد: هذا فى بيت النبي صلى الله عليه و سلم، كان كل رجل منهم يجب أن يكون آخر عهده بالنبي صلى الله عليه و سلم، فقال الله تعالى: وَ إِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا عن النبي صلى الله عليه و سلم فَأَنْشُرُوا فإن له حوائج فلا تمكثوا. و قال قتادة: المعنى أجيئوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف، و الظاهر حمل الآية على العموم؛ و المعنى:

إذا قيل لكم: انهضوا إلى أمر من الأمور الدينية فانهموا و لا- تتناقلوا و لا يمنع من حملها على العموم كون السبب خاصا، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو الحق، و يندرج ما هو سبب النزول فيها اندراجا أوليا، و هكذا يندرج ما فيه السياق و هو التفسيح فى المجلس اندراجا أوليا، و قد قدمنا أن معنى نشر ارتفع، و هكذا يقال نشز ينشز؛ إذا تنحى عن موضعه، و منه امرأة ناشز، أى: متنحية عن زوجها، و أصله مأخوذ من النشز، و هو ما ارتفع من الأرض و تنحى، ذكر معناه النحاس يرفع الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ فى الدنيا و الآخرة بتوفير نصيبهم فيهما وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ أى: و يرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات عالية فى الكرامة فى الدنيا و الثواب فى الآخرة، و معنى الآية أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات و يرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان و العلم رفعه الله بإيمانه درجات ثم رفعه بعلمه درجات، و قيل: المراد بالذين آمنوا من الصحابة و كذلك الذين أوتوا العلم، و قيل: المراد بالذين أوتوا العلم الذين قرءوا القرآن. و الأولى حمل الآية على العموم فى كل مؤمن و كل صاحب علم من علوم الدين من جميع أهل هذه الملة، و لا دليل يدل على تخصيص الآية بالبعض دون البعض، و فى هذه الآية فضيلة عظيمة للعلم و أهله، و قد دل على فضله و فضلهم آيات قرآنية و أحاديث نبوية وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

(١). من تفسير القرطبي (١٧ / ٢٩٨)

لا- يخفى عليه شىء من أعمالكم من خير و شر، فهو مجازيكم بالخير خيرا و بالشر شرا يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ الْمَنَاجَاة: المساررة، و المعنى: إذا أردتم مساررة الرسول فى أمر من أموركم فقدّموا بين يدي

مساررتكم له صدقة. قال الحسن: نزلت بسبب أن قوما من المسلمين كانوا يستخلون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يناجونه، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى، فشق عليهم ذلك، فأمرهم الله بالصدقة عند النجوى لتقطعهم عن استخلائه. وقال زيد بن أسلم: نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقولون: إنه أذن يسمع كل ما قيل له، وكان لا يمنع أحدا من مناجاته، وكان ذلك يشق على المسلمين؛ لأن الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم ناجوه بأن جموعا اجتمعت لقتاله، فأنزل الله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجُوا بِالْأَيْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ (١) فلم ينتهوا، فأنزل الله هذه الآية فانتهى أهل الباطل عن النجوى لأنهم لم يقدموا بين يدي نجواهم صدقة، وشق ذلك على أهل الإيمان، وامتنعوا عن النجوى، لضعف كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم بالآية التي بعد هذه، والإشارة بقوله: ذَلِكَ إِلَى مَا تَقْدَمُ مِنْ تَقْدِيمِ الصَّدَقَةِ بَيْنَ يَدَيْ النُّجْوَى، وهو مبتدأ وخبره خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ لِمَا فِيهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وتقييد الأمر يكون امتثاله خيرا لهم من عدم الامتثال وأطهر لنفوسهم يدل على أنه أمر نذب لا أمر وجوب فإن لم تجدوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ يعني من كان منهم لا يجد تلك الصدقة المأمور بها بين يدي النجوى، فلا حرج عليه في النجوى بدون صدقة أشفقتكم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات أي: أخفتم الفقر والعيلة لأن تقدموا ذلك، والإشفاق: الخوف من المكروه والاستفهام للتقرير. وقيل المعنى: أ بخلتم، وجمع الصدقات هنا باعتبار المخاطبين. قال مقاتل بن حيان: إنما كان ذلك عشر ليال ثم نسخ. وقال الكلبي: ما كان ذلك إلا ليلة واحدة. وقال قتادة: ما كان إلا ساعة من النهار فإذا لم تفعلوا ما أمرتم به من الصدقة بين يدي النجوى، وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدق به ولم يفعل، وأما من لم يجد فقد تقدم الترخيص له بقوله: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بأن رخص لكم في الترك، «وإذا» على بابها في الدلالة على المضى، وقيل: هي بمعنى إن، وتاب معطوف على لم تفعلوا، أي: وإذا لم تفعلوا وإذا تاب عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة والمعنى: إذا وقع منكم التناقل عن امتثال الأمر بتقديم الصدقة بين يدي النجوى فاثبتوا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله؛ فيما تؤمرون به وتنهون عنه والله خيرٌ بما تعملون لا يخفى عليه من ذلك شيء فهو مجازيكم، وليس في الآية ما يدل على تقصير المؤمنين في امتثال هذا الأمر، أما الفقراء منهم فالأمر واضح، وأما من عداهم من المؤمنين فإنهم لم يكلفوا بالمناجاة حتى تجب عليهم الصدقة بل أمروا بالصدقة إذا أرادوا المناجاة، فمن ترك المناجاة فلا يكون مقصرا في امتثال الأمر بالصدقة، على أن في الآية ما يدل على أن الأمر للنذب كما قدمنا. وقد استدلل بهذه الآية من قال بأنه يجوز النسخ قبل إمكان الفعل، وليس هذا

(١). المجادلة: ٩.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٢٨

الاستدلال بصحيح، فإن النسخ لم يقع إلا بعد إمكان الفعل، وأيضا قد فعل ذلك البعض، فتصدق بين يدي نجواه كما سيأتي. وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: أنزلت هذه الآية إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس يوم الجمعة ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ في الصفقة، وفي المكان ضيق وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: السلام عليكم أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فردّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم، ثم سلّموا على القوم بعد ذلك فردّوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرّف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يحملهم على القيام، فلم يفسح لهم، فشق ذلك عليه، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: قم يا فلان وأنت يا فلان، فلم يزل يقيمهم بعدة نفر الذين هم قيام من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، فنزلت هذه الآية. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: ذلك في مجلس القتال وإذا قيل انشؤوا قال:

إلى الخير و الصلاة. و أخرج ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و البيهقي في المدخل، عن ابن عباس في قوله: يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ قَالَ: يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤمنوا درجات. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن مسعود في تفسير هذه الآية قال: يرفع الله الذين آمنوا و أوتوا العلم على الذين آمنوا و لم يؤتوا العلم درجات. و أخرج ابن المنذر عنه قال: ما خصَّ الله العلماء في شيء من القرآن ما خصَّهم في هذه الآية، فضَّل الله الذين آمنوا و أوتوا العلم على الذين آمنوا و لم يؤتوا العلم.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ الْآيَةَ قَالَ: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه، فلما قال ذلك ضنَّ كثير من الناس و كفوا عن المسألة؛ فأنزل الله بعد هذا أَسْفَقْتُمُ الْآيَةَ، فوسع الله عليهم و لم يضيق. و أخرج ابن أبي شيبة و عبد بن حميد، و الترمذي و حسنه، و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و النحاس و ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَهُ قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما ترى ديناراً؟ قلت: لا يطيقونه. قال: فنصف دينار؟ قلت لا يطيقونه، قال: فكم؟ قلت: شعيرة، قال: إنك لزهيد، قال: فنزلت: أَسْفَقْتُمُ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتِ الْآيَةَ، فبى خفف الله عن هذه الأمة» و المراد بالشعيرة هنا وزن شعيرة من ذهب، و ليس المراد واحدة من حب الشعير. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عنه قال: ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت، و ما كانت إلا ساعة: يعنى آية النجوى. و أخرج سعيد ابن منصور و ابن راهويه و ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه عنه أيضاً قال: إن فى كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلى و لا يعمل بها أحد بعدى آية النجوى يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَهُ كَانَ عِنْدِي دِينَارٌ فَبَعْتُهُ بِعَشْرَةِ دَرَاهِمٍ، فَكَانَتْ كُلَّمَا نَاجَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمْتَ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَايَ دَرَاهِمًا، ثُمَّ نَسَخْتُ فَلَمْ يَعْمَلْ بِهَا أَحَدٌ، فَنَزَلَتْ:

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٢٩

أَسْفَقْتُمُ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتِ الْآيَةَ. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند ضعيف، عن سعد بن أبى وقاص قال: «نزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً فَقَدِمْتُ شَعِيرَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنك لزهيد»، فنزلت الآية الأخرى: أَسْفَقْتُمُ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتِ .

## [سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١٤ الى ٢٢]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨)

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يَحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لِمَآ غَلِبْنَ أَنَا وَ رَسُولِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَ آيَدَهُمْ

بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)

قوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا أَى: والوهم. قال قتادة: هم المنافقون تولوا اليهود. وقال السدى ومقاتل: هم اليهود تولوا المنافقين، ويدل على الأول قوله: غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ\* فَإِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ هُمُ الْيَهُودُ، ويدل على الثانى قوله: مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ فَإِنَّ هَذِهِ صِفَةُ الْمُنَافِقِينَ، كما قال الله فيهم: مُدْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ (١) وجملة مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ فى محل نصب على الحال، أو هى مستأنفة وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ أَى: يحلفون أنهم مسلمون، أو يحلفون أنهم ما نقلوا الأخبار إلى اليهود، و الجملة عطف على تولوا داخله فى حكم التعجب من فعلهم، و جملة وَ هُمْ يَعْلَمُونَ فى محل نصب على الحال، أَى: والحال أنهم يعلمون بطلان ما حلفوا عليه، و أنه كذب لا حقيقة له أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا بسبب هذا التولّى و الحلف على الباطل إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ من الأعمال القبيحة اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً قَرَأَ الْجُمُورُ: «أيمانهم» بفتح الهمزة، جمع يمين، و هى ما كانوا يحلفون عليه من الكذب بأنهم من المسلمين توقيا من القتل، فجعلوا هذه الأيمان وقاية و ستره دون دمائهم، كما يجعل المقاتل الجنّة وقاية له من أن يصاب بسيف أو رمح أو سهم. و قرأ الحسن و أبو العالئة: «أيمانهم» بكسر الهمزة، أَى: جعلوا تصديقهم جنّة من القتل، فأمنت ألسنتهم من خوف القتل و لم تؤمن قلوبهم فَصَيَّدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَى: منعوا الناس عن الإسلام بسبب ما يصدر عنهم من التّشيط، و تهوين أمر المسلمين، و تضعيف

(١). النساء ١٤٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٣٠

شوكتهم، و قيل: المعنى: فصدّوا المسلمين عن قتالهم بسبب إظهارهم للإسلام فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ أَى:

يهينهم و يخزيهم، قيل: هو تكرير لقوله: أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا للتأكيد، و قيل: الأول عذاب القبر، و هذا عذاب الآخرة، و لا وجه للقول بالتركرار، فَإِنَّ الْعَذَابَ الْمَوْصُوفَ بِالشَّدَّةِ غَيْرَ الْعَذَابِ الْمَوْصُوفِ بِالْإِهَانَةِ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أَى: لن تغنى عنهم من عذابه شيئا من الإغناء.

قال مقاتل: قال المنافقون: إن محمدا يزعم أنه ينصر يوم القيامة؛ لقد شقينا إذا! فو الله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا و أموالنا و أولادنا إن كانت قيامة، فنزل الآية أُولَئِكَ الْمَوْصُوفَ بِمَا ذَكَرَ أَصْحَابُ النَّارِ لَا يَفَارِقُونَهَا هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا الظرف منصوب بقوله: مهين، أو بمقدر، أَى: اذكر فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ أَى: يحلفون الله يوم القيامة على الكذب كما يحلفون لكم فى الدنيا، و هذا من شدة شقاوتهم و مزيد الطبع على قلوبهم، فَإِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَدْ انْكَشَفَتِ الْحَقَائِقُ وَ صَارَتِ الْأُمُورُ مَعْلُومَةً بِضُرُورَةِ الْمَشَاهِدَةِ، فكيف يجترءون على أن يكذبوا فى ذلك الموقف، و يحلفون على الكذب وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَى: يحسبون فى الآخرة أنهم بتلك الأيمان الكاذبة على شىء مما يجلب نفعا، أو يدفع ضررا، كما كانوا يحسبون ذلك فى الدنيا أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ أَى: الكاملون فى الكذب، المتهالون عليه، البالغون فيه إلى حدّ لم يبلغ غيرهم إليه؛ بإقدامهم عليه و على الأيمان الفاجرة فى موقف القيامة بين يدى الرّحمن اسْتِخْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ أَى: غلب عليهم و استولى و استولى. قال المبرّد: استخوذ على الشىء: حواه و أحاط به، و قيل: قوى عليهم، و قيل: جمعهم، يقال: أحوذ الشىء، أَى: جمعه و ضمّ بعضه إلى بعض، و المعانى متقاربة؛ لأنه إذا جمعهم فقد قوى عليهم و غلبهم و استولى عليهم و أحاط بهم فَانْسَأَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أَى: أوامره و العمل بطاعته، فلم يذكروا شيئا من ذلك. و قيل: زواجه فى النهى عن معاصيه، و قيل: لم يذكروه بقلوبهم و لا بألسنتهم، و الإشارة بقوله: أُولَئِكَ إِلَى الْمَذْكُورِينَ الْمَوْصُوفِينَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ، و هو مبتدأ و خبره حِزْبُ

الشَّيْطَانِ أَي: جنوده و أتباعه و رهطه أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الْخَاسِرُونَ أَي: الكاملون في الخسران، حتى كأن خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران؛ لأنهم باعوا الجنة و الهدى بالضلالة، و كذبوا على الله و على نبيه، و حلفوا الأيمان الفاجرة في الدنيا و الآخرة. إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ تَقَدَّمْ مَعْنَى الْمَحَادَّةِ لِلَّهِ وَ لِرَسُولِهِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَ الْجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِمَا قَبْلَهَا أَوْلَيْكَ فِي الْأَذَلِّينَ أَي: أولئك المحادون لله و رسوله، المتصنفون بتلك الصفات المتقدمة، من جملة من أذله الله من الأمم السابقة و اللاحقة؛ لأنهم لما حادوا الله و رسوله صاروا من الذل بهذا المكان.

قال عطاء: يريد الذل في الدنيا و الخزي في الآخرة كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رَسُولِي الْجُمْلَةَ مُسْتَأْنَفَةٌ لِتَقْرِيرِ مَا قَبْلَهَا مَعَ كَوْنِهِمْ فِي الْأَذَلِّينَ، أَي: كتب في اللوح المحفوظ، و قضى في سابق علمه: لأغلبن أنا و رسلي بالحجة و السيف. قال الزجاج: معنى غلبه الرسل على نوعين: من بعث منهم بالحرب فهو غالب في الحرب، و من بعث منهم بغير الحرب فهو غالب بالحجة. قال الفراء: كتب بمعنى قال، و قوله: «أنا» توكيد، ثم ذكر مثل قول الزجاج. إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ فَهُوَ قَوِيٌّ عَلَى نَصْرِ أَوْلِيَائِهِ، غَالِبٌ لِأَعْدَائِهِ، لَا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٣١

لا- تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ الْخَطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، أَوْ لِكُلِّ مَنْ يَصِلِحُ لَهُ، أَي: يحبون و يوالون من عادى الله و رسوله و شاقهما، و جملة «يوادون» في محل نصب على أنها المفعول الثاني لتجد إن كان متعديا إلى مفعولين، أَوْ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ إِنْ كَانَ مُتَعَدِّيًا إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، أَوْ صِفَةً أُخْرَى ل «قوما»، أَي: جامعون بين الإيمان و الموادة لمن حاد الله و رسوله وَ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أَي: و لو كان المحادون لله و رسوله آباء المودين إلخ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ يَزْجُرُ عَنْ ذَلِكَ وَ يَمْنَعُ مِنْهُ، وَ رِعَايَتُهُ أَقْوَى مِنْ رِعَايَةِ الْأَبْوَةِ وَ الْبَنُوَّةِ وَ الْأَخُوَّةِ وَ الْعَشِيرَةِ أَوْلَيْكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ يَعْنِي الْإِيمَانَ لَآ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ، وَ مَعْنَى كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ خَلَقَهُ، وَ قِيلَ:

أثبتته، و قيل: جعله، و قيل: جمعه، و المعانى متقاربة وَ أَيْدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ أَي: قواهم بنصر منه على عدوهم في الدنيا، و سَمِيَ نَصْرَهُ لَهُمْ رُوحًا لِأَنَّهُ بِهِ يَحْيَا أَمْرَهُمْ، وَ قِيلَ: هُوَ نُورُ الْقَلْبِ. وَ قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ:

بالقرآن و الحجّة، و قيل: بجبريل، و قيل: بالإيمان، و قيل: برحمته. قرأ الجمهور «كتب» مبنيا للمفاعل و نصب الإيمان على المفعولية. و قرأ زرّ بن حبيش و المفضل عن عاصم على البناء للمفعول و رفع الإيمان على النيابة. و قرأ زرّ بن حبيش: «عشيراتهم» بالجمع، و رويت هذه القراءة عن عاصم وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا عَلَى الْأَبَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَي: قبل أعمالهم، و أفاض عليهم آثار رحمته العاجلة و الآجلة وَ رَضُوا عَنْهُ أَي: فرحوا بما أعطاهم عاجلا و آجلا أَوْلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ أَي: جنده الذين يمثلون أوامره و يقاتلون أعداءه و ينصرون أولياءه، و في إضافتهم إلى الله سبحانه تشریف لهم عظيم و تكريم فخير أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَي: الفائزون بسعادة الدنيا و الآخرة، الكاملون في الفلاح الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل، حتى كان فلاح غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم ك: لا فلاح.

و قد أخرج أحمد و السبازر و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: «كان رسول الله صلى الله عليه و سلم جالسا في ظل حجرة من حجره، و عنده نفر من المسلمين، فقال: إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعين شيطان، فإذا جاءكم فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق، فقال حين رآه: علام تشتمني أنت و أصحابك؟ فقال: ذرني آتيك بهم، فحلفوا و اعتذروا، فأنزل الله: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ الْآيَةَ وَ الَّتِي بَعْدَهَا». و أخرج ابن أبي حاتم و الطبراني و الحاكم، و أبو نعيم في الحلية، و البيهقي في سننه، عن عبد الله بن شاذب قال:



جعل والد أبي عبيدة بن الجراح يتقصاه، لأبي عبيدة، يوم بدر، و جعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله، فنزلت: لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْآيَةَ.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٣٢

## سورة الحشر

### إشارة

و هي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحشر بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البخاري و مسلم و غيرهما عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: سورة النضير؛ يعني أنها نزلت في بني النضير كما صرح بذلك في بعض الروايات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الحشر (٥٩): الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَ لَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لَا رِكَابٍ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِإِذَى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُونَ دُولَهُ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)

قوله: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ قد تقدم تفسير هذا في سورة الحديد هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ هم بنو النضير، و هم رهط من اليهود من ذرية هارون، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل انتظاراً منهم لمحمد صلى الله عليه و سلم، فغدروا بالنبي صلى الله عليه و سلم بعد أن عاهدوه، و صاروا عليه مع المشركين، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى رضوا بالجلاء. قال الكلبي: كانوا أول من أجلي من أهل الذمة من جزيرة العرب، ثم أجلي آخرهم في زمن عمر بن الخطاب، فكان جلاؤهم أول حشر من المدينة، و آخر حشر إجلاء عمر لهم. و قيل: إن أول الحشر إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، و آخر الحشر إخراجهم من خيبر إلى الشام. و قيل: آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر، و هي الشام. قال عكرمة: من شك أن المحشر يوم القيامة في الشام فليقرأ هذه الآية، و أن النبي صلى الله عليه و سلم قال لهم: اخرجوا، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر. قال ابن العربي: الحشر أول و أوسط

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٣٣

و آخر، فالأول إجلاء بني النضير، و الأوسط إجلاء أهل خيبر، و الآخر يوم القيامة.

وقد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المذكورين في الآية هم بنو النضير، و لم يخالف في ذلك إلا الحسن البصرى فقال: هم بنو قريظة، و هو غلط. فإن بنى قريظة ما حشروا، بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه، فحكم عليهم بأن تقتل مقاتلتهم، و تسبى ذراريهم، و تغنم أموالهم، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم لسعد: لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة. و اللام فى «الأول الحشر» متعلقه ب «أخرج»، و هى لام التوقيت، كقوله:

لِتَدُلُّوكِ الشَّمْسِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا هَذَا خِطَابٌ لِلْمُسْلِمِينَ، أَى: ما ظننتم أيها المسلمون أن بنى النضير يخرجون من ديارهم لعزتهم و منعتهم، و ذلك أنهم كانوا أهل حصون مانعة و عقار و نخيل واسعة، و أهل عدد و عدّة و ظنوا أنّهم مانعتهم حصونهم من الله أى: و ظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، و قوله «ما نعتهم» خبر مقدّم، و «حصونهم» مبتدأ مؤخر، و الجملة خبر «أنهم»، و يجوز أن يكون «ما نعتهم» خبر «أنهم»، و «حصونهم» فاعل «ما نعتهم». و رويح الثانى أبو حيان، و الأول أولى فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا أى: أتاهم أمر الله من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة، و هو أنه سبحانه أمر نبيه صلى الله عليه و سلم بقتالهم و إجلائهم و كانوا لا يظنون ذلك، و قيل: هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف، قاله ابن جريج و السدى و أبو صالح، فإن قتله أضعف شوكتهم. و قيل: إن الضمير فى «أتاهم» و «لم يحتسبوا» للمؤمنين، أى: فأتاهم نصر الله من حيث لم يحتسبوا، و الأول أولى؛ لقوله:

وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَإِنِ قَذَفَ الرُّعْبَ كَانَ فِي قُلُوبِ بَنِي النَّضِيرِ، لا فى قلوب المسلمين. قال أهل اللغة: الرعب: الخوف الذى يربع الصدر، أى: يملؤه، و قذفه: إثباته فيه. و قيل: كان قذف الرعب فى قلوبهم بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، و الأولى عدم تقييده بذلك و تفسيره به، بل المراد بالرعب الذى قذفه الله فى قلوبهم هو الذى ثبت فى الصحيح من قوله صلى الله عليه و سلم: «نصرت بالرعب مسيرة شهر». يُخْرِبُونَ بِيوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ وَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا أَيقِنُوا بِالْجِلاءِ حَسَدُوا الْمُسْلِمِينَ أَن يَسْكُنُوا مَنَازِلَهُمْ، ففعلوا يخربونها من داخل، و المسلمون من خارج. قال قتادة و الضحاك: كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا، و اليهود من داخل لينوا به ما خرّب من حصنهم. قال الزجاج: معنى تخريبها بأيدى المؤمنين أنهم عرضوها لذلك. قرأ الجمهور: يُخْرِبُونَ بالتخفيف، و قرأ الحسن و السلمى و نصر بن عاصم و أبو العالیه و أبو عمرو بالتشديد. قال أبو عمرو: إنما اخترت القراءة بالتشديد، لأن الإخراب ترك الشىء خرابا، و إنما خربوها بالهدم. و ليس ما قاله بمسلم، فإن التخريب و الإخراب عند أهل اللغة بمعنى واحد. قال سيويه: إن معنى فعلت و أفعلت يتعاقبان، نحو: أخبرتته و خبرتته، و أفرحتته و فرحتته، و اختارت القراءة الأولى أبو عبيد و أبو حاتم.

قال الزهرى و ابن زيد و عروة بن الزبير: لما صالحهم النبى صلى الله عليه و سلم على أن لهم ما أقلت الإبل؛ كانوا يستحسنون الخشب أو العمود فيهدمون بيوتهم، و يحملون ذلك على إبلهم، و يخرب المؤمنون باقيها. و قال الزهرى أيضا: يخربون بيوتهم بنقض المعاهدة، و أيدى المؤمنين بالمقاتلة. و قال أبو عمرو: بأيديهم فى تركهم لها، و بأيدي المؤمنين فى إجلائهم عنها، و الجملة إما مستأنفة لبيان ما فعلوه، أو فى محل نصب على الحال فأعْتَبِرُوا يا

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٣٤

أولى الأبصار أى: اتعظوا و تدبروا و انظروا فيما نزل بهم يا أهل العقول و البصائر. قال الواحدى: و معنى الاعتبار: النظر فى الأمور ليعرف بها شىء آخر من جنسها و لو لا أن كتب الله عليهم الجلاء لعدبهم فى الدنيا أى: لو لا أن كتب الله عليهم الخروج من أوطانهم على ذلك الوجه و قضى به عليهم لعذبهم بالقتل و السبى فى الدنيا كما فعل بنى قريظة. و الجلاء: مفارقة الوطن، يقال: جلا بنفسه جلاء، و أجلاه غيره إجلاء.

و الفرق بين الجلاء و الإخراج، و إن كان معناهما فى الإبعاد واحدا، من جهتين: إحداهما: أن الجلاء ما كان مع الأهل و الولد، و

الإخراج قد يكون مع بقاء الأهل و الولد. الثاني: أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة، و الإخراج يكون لجماعة و لواحد، كذا قال الماوردي. وَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ هذه الجملة مستأنفة، غير متعلّقة بجواب لولا، متضمنة لبيان ما يحصل لهم في الآخرة من العذاب؛ و إن نجوا من عذاب الدنيا، و الإشارة بقوله: ذَلِكَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ مِنَ الْجَلَاءِ فِي الدُّنْيَا و العذاب فِي الآخِرَةِ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أَي: بسبب المشاقّة منهم لله و لرسوله؛ بعدم الطاعة، و الميل مع الكفار، و نقض العهد وَ مَنْ يُشَاقُّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ اقتصرها هنا على مشاقّة الله، لأن مشاقته مشاقّة لرسوله. قرأ الجمهور: يُشَاقُّ بِالْإِدْغَامِ، و قرأ طلحة بن مصرف و محمد بن السيمع يشاقق بالفكّ ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينِهِ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ قَالَ مجاهد: إن بعض المهاجرين وقعوا في قطع النخل فنهاهم بعضهم، و قالوا: إنما هي مغانم للمسلمين، و قال الذين قطعوا: بل هو غيظ للعدوّ، فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطع النخل و تحليل من قطعه من الإثم، فقال: مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينِهِ قَالَ قَتَادَةُ و الضحّاك: إنهم قطعوا من نخيلهم و أحرقوا ست نخلات. و قال محمد بن إسحاق: قطعوا نخلة و أحرقوا نخلة، فقال بنو النضير و هم أهل كتاب: يا محمد أ لست تزعم أنك نبيّ تريد الصلاح، أ فمن الصلاح قطع النخل و حرق الشجر؟ و هل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه و سلّم و وجد المسلمون في أنفسهم فنزلت الآية، و معنى الآية: أَي شَيْءٍ قَطَعْتُمْ مِنْ ذَلِكَ أَوْ تَرَكْتُمْ فَبِإِذْنِ اللَّهِ، و الضمير في تَرَكْتُمُوهَا عائد إلى ما لتفسيرها باللين، و كذا في قوله: قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا و معنى على أصولها:

أنها باقية على ما هي عليه.

و اختلف المفسرون في تفسير اللينة، فقال الزهري و مالك و سعيد بن جبيرة و عكرمة و الخليل: إنها النخل كله إلا العجوة. و قال مجاهد: إنها النخل كله، و لم يستثن عجوة و لا غيرها. و قال الثوري: هي كرام النخل.

و قال أبو عبيدة: إنها جميع أنواع التمر سوى العجوة و البرني. و قال جعفر بن محمد: إنها العجوة خاصة، و قيل: هي ضرب من النخل، يقال لتمره: اللون، تمره أجود التمر. و قال الأصمعي: هي الدقل، و أصل اللينة لونه، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، و جمع اللينة: لين، و قيل: ليان. و قرأ ابن مسعود «ما قطعتم من لينه و لا تركتم قوما على أصولها» أي: قائمه على سوقها، و قرئ: «على أصلها» و قرئ: «قائمة على أصولها». وَ لِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ أَي: ليدلّ الخارجين عن الطاعة، و هم اليهود، و يغيظهم في قطعها و تركها؛ لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون في أموالهم كيف شاؤوا من القطع و الترك ازدادوا غيظا. قال الزجاج:

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٣٥

و ليخزي الفاسقين بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المؤمنون كيف أحبوا من قطع و ترك، و التقدير: و ليخزي الفاسقين أذن في ذلك، يدل على المحذوف قوله: فَبِإِذْنِ اللَّهِ و قد استدللّ بهذه الآية على جواز الاجتهاد و على تصويب المجتهدين، و البحث مستوفى في كتب الأصول و ما أفاء الله على رسوله منهم أي: ما ردّه عليه من أموال الكفار، يقال: فاء يفاء إذا رجع، و الضمير في «منهم» عائد إلى بنى النضير فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لا رِكَابٍ يُقَالُ: وَجَفَ الْفَرَسُ وَ الْبَعِيرُ يَجْفُ وَ جَفَا: وَ هُوَ سُرْعَةُ السَّيْرِ، وَ أَوْجَفَهُ صَاحِبُهُ: إِذَا حَمَلَهُ عَلَى السَّيْرِ السَّرِيعِ، وَ مِنْهُ قَوْلُ تَمِيمِ بْنِ مِقْبِلٍ:

مداويد بالبيض الحديث صقالها عن الركب أحيانا إذا الركب أوجفوا

و قال نصيب:

ألا ربّ ركب قد قطعت و جيفهم إليك و لو لا أنت لم يوجف الركب

و ما في فَمَا أَوْجَفْتُمْ نافية، و الفاء جواب الشرط إن كانت ما في قوله: مَا أَفَاءَ اللَّهُ شَرْطِيَّةً، و إن كانت موصولة فالفاء زائدة. و مِنْ فِي قَوْلِهِ: مِنْ خَيْلٍ زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ، و الركب: ما يركب من الإبل خاصة، و المعنى: أن ما ردّ الله على رسوله من أموال بنى النضير

لم تركبوا لتحصيله خيلا- ولا إبلا، ولا تجشمتم لها شقة، ولا لقيتم بها حربا ولا مشقة، وإنما كانت من المدينة على ميلين، فجعل الله سبحانه أموال بني النضير لرسوله صلى الله عليه وسلم خاصة لهذا السبب، فإنه افتتحها صلحا وأخذ أموالها، وقد كان سأله المسلمون أن يقسم لهم فنزلت الآية وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ أَعْدَائِهِ، وفي هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم دون أصحابه؛ لكونهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب، بل مشوا إليها مشيا، ولم يقاسوا فيها شيئا من شدائد الحروب وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يسَلِّطُ مَنْ يَشَاءُ عَلَى مَنْ أَرَادَ، ويعطى من يشاء ويمنع من يشاء لا يُسَيِّئُ لِمَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُسَيِّئُونَ «١» وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى هذا بيان لمصارف الفىء بعد بيان أنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة، والتكرير لقصد التقرير والتأكيد، ووضع أهل القرى موضع قوله: منهم أى: من بني النضير للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببني النضير وحدهم، بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم صلحا، ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب. قيل: والمراد بالقرى: بنو النضير وقريظة وفدك وخيبر. وقد تكلم أهل العلم فى هذه الآية والتى قبلها؟ هل معناهما متفق أو مختلف، فقيل: معناهما متفق كما ذكرنا، وقيل:

مختلف، وفى ذلك كلام لأهل العلم طويل. قال ابن العربى: لا إشكال أنها ثلاثة معان فى ثلاث آيات. أما الآية الأولى، وهى قوله: وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فهِى خَاصَّةٌ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَالِصَةٌ لَهُ، وهى أموال بني النضير وما كان مثلها. وأما الآية الثانية، وهى قوله: مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَهَذَا كَلَامٌ مُبْتَدَأٌ غَيْرَ الْأَوَّلِ بِمُسْتَحَقِّ غَيْرِ الْأَوَّلِ، وإن اشتركت هى والأولى فى أن كل واحدة منهما تضمنت

(١). الأنبياء: ٢٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٣٦

شيئا أفاءه الله على رسوله، واقتضت الآية أنه حاصل بغير قتال، واقتضت آية الأنفال، وهى الآية الثالثة، أنه حاصل بقتال، وعريت الآية الثانية، وهى قوله: مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى عَنْ ذِكْرِ حَصُولِهِ بِقِتَالٍ أَوْ بِغَيْرِ قِتَالٍ، فنشأ الخلاف من هنا؛ فطائفة قالت: هى ملحقة بالأولى، وهى مال الصلح، وطائفة قالت: هى ملحقة بالثالثة وهى آية الأنفال. والذين قالوا إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا هل هى منسوخة أو محكمة، هذا معنى حاصل كلامه. وقال مالك: إن الآية الأولى من هذه السورة خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم، والآية الثانية هى فى بنى قريظة، ويعنى أن معناها يعود إلى آية الأنفال. ومذهب الشافعى أن سبيل خمس الفىء سبيل خمس الغنيمه، وأن أربعة أخماسه كانت للنبي صلى الله عليه وسلم وهى بعده لمصالح المسلمين فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَ لِلَّذِينَ قُرِبُوا مِنَ الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ المراد بقوله: لله أنه يحكم فيه بما يشاء وَلِلرَّسُولِ يكون ملكا له وَ لِلَّذِينَ قُرِبُوا وَ هم بنو هاشم و بنو المطلب، لأنهم قد منعوا من الصدقة، فجعل لهم حقا فى الفىء. قيل: تكون القسمة فى هذا المال على أن يكون أربعة أخماسه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وخمسه يقسم أخماسا: للرسول خمس، ولكل صنف من الأصناف الأربعة المذكورة خمس، وقيل: يقسم أسداسا. السادس: سهم الله سبحانه، ويصرف إلى وجوه القرب؛ كعمارة المساجد ونحو ذلك كنى لا يكون دولةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ أى: كيلا يكون الفىء دولةً بين الأغنياء دون الفقراء، والدولة: اسم للشىء يتداوله القوم بينهم، يكون لهذا مرة، ولهذا مرة. قال مقاتل: المعنى أنه يغلب الأغنياء الفقراء فيقسمونه بينهم. قرأ الجمهور: يَكُونُ بِالتَّحْتِيَةِ دولةً بالنصب، أى: كيلا يكون الفىء دولةً.

وقرأ أبو جعفر والأعرج وهشام وأبو حيوة تكون بالفوقية دولةً بالرفع، أى: كيلا تقع أو توجد دولة، وكان تامه. وقرأ الجمهور دولةً بضم الدال. وقرأ أبو حيوة والتيمى بفتحها. قال عيسى بن عمر ويونس والأصمعى: هما لغتان بمعنى واحد. وقال أبو

عمرو بن العلاء: الدَّولَةُ بِالْفَتْحِ الْعَدَى يَتَدَاوَلُ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَ بِالضَّمِّ الْفِعْلُ. وَ كَذَا قَالَ أَبُو عبيدَةَ. ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ لَهُمْ سُبْحَانَهُ مَصَارِفَ هَذَا الْمَالِ أَمْرَهُمْ بِالْإِقْتِدَاءِ بِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: وَ مَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا أَيْ: مَا أَعْطَاكُمْ مِنْ مَالِ الْغَنِيمَةِ فَخُذُوهُ، وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْ أَخْذِهِ فَانْتَهُوا عَنْهُ وَ لَا تَأْخُذُوهُ. قَالَ الْحَسَنُ وَ السَّدى: مَا أَعْطَاكُمْ مِنْ مَالِ الْفَيْءِ فَاقْبَلُوهُ، وَ مَا مَنَعَكُمْ مِنْهُ فَلَا تَطْلُبُوهُ. وَ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَا آتَاكُمْ مِنْ طَاعَتِي فَافْعَلُوا، وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِي فَاجْتَنِبُوهُ.

وَ الْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَأْتِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وَ إِنْ كَانَ السَّبَبُ خَاصًا فَلَا يُعْتَبَرُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ، وَ كُلُّ شَيْءٍ آتَانَا بِهِ مِنَ الشَّرْعِ فَقَدْ أَعْطَانَا إِيَّاهُ وَ أَوْصَلَهُ إِلَيْنَا، وَ مَا أَنْفَعَ هَذِهِ الْآيَةَ وَ أَكْثَرَ فَاثِدَتِهَا. ثُمَّ لَمَّا أَمْرَهُمْ بِأَخْذِ مَا أَمْرَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ، وَ تَرَكَ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ، أَمْرَهُمْ بِتَقْوَاهُ، وَ خَوْفَهُمْ شِدَّةَ عِقَابِهِ، فَقَالَ: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ فَهُوَ مُعَاقِبٌ مَنْ لَمْ يَأْخُذْ مَا آتَاهُ الرَّسُولُ وَ لَمْ يَتَرَكَ مَا نَهَاَهُ عَنْهُ.

وَ قَدْ أُخْرِجَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ، وَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَتْ غَزْوَةُ بَنِي النُّضَيْرِ، وَ هُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، عَلَى رَأْسِ سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ وَقَعَةِ بَدْرٍ، وَ كَانَ مِنْزِلُهُمْ وَ نَخْلُهُمْ فِي نَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٣٧

فحاصرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى نزلوا على الجلاء، و على أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة و الأموال إلا الحلقة، يعنى السلاح، فأنزل الله فيهم: سَيَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ إِلَى قَوْلِهِ: لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا فَقَاتَلَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى صَالَحَهُمْ عَلَى الْإِجْلَاءِ وَ جَلَاهُمْ إِلَى الشَّامِ، وَ كَانُوا مِنْ سَبَطِ لَمْ يَصِبْهُمْ جَلَاءٌ فِيمَا خَلَا، وَ كَانَ اللَّهُ قَدْ كَتَبَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَ لَوْ لَا ذَلِكَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَ السَّبْيِ، وَ أَمَّا قَوْلُهُ: لِأَوَّلِ الْحَشْرِ فَكَانَ إِجْلَاؤُهُمْ ذَلِكَ أَوَّلَ حَشْرِ فِي الدُّنْيَا إِلَى الشَّامِ. وَ أُخْرِجَ الْبَزَارُ وَ ابْنُ الْمُنْذِرُ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْبَعْثِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَنْ شَكَّ أَنَّ الْمُحَشَّرَ بِالشَّامِ فَلْيَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ:

«اخرجوا، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر». وَ أُخْرِجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ، وَ ابْنُ عَسَاكِرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ حَاصَرَهُمْ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُمْ كُلَّ مَبْلَغٍ، فَأَعْطَوْهُ مَا أَرَادَ مِنْهُمْ، فَصَالَحَهُمْ عَلَى أَنْ يَحْقِنَ لَهُمْ دِمَاءَهُمْ، وَ أَنْ يَخْرِجَهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ وَ أَوْطَانِهِمْ، وَ أَنْ يَسِيرُوا إِلَى أُضْرَعَاتِ الشَّامِ، وَ جَعَلَ لِكُلِّ ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ بَعِيرًا وَ سَقَاءً. وَ فِي الْبُخَارِيِّ وَ مُسْلِمٍ وَ غَيْرِهِمَا عَنْ ابْنِ عَمْرٍ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَقَ نَخْلَ بَنِي النُّضَيْرِ وَ قَطَعَ، وَ هِيَ الْبُوَيْرَةُ «١»، وَ لَهَا يَقُولُ حَسَانُ:

فهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير

فأنزل الله: مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ

وَ أُخْرِجَ التِّرْمِذِيُّ وَ حَسِينَهُ، وَ النَّسَائِيُّ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ قَالَ: اللَّيْنَةُ النَّخْلَةُ وَ لِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ قَالَ: اسْتَنْزَلُوهُمْ مِنْ حَصُونِهِمْ، وَ أَمَرُوا بِقَطْعِ النَّخْلِ، فَحَكَّ فِي صَدُورِهِمْ «٢»، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: قَدْ قَطَعْنَا بَعْضًا وَ تَرَكَنا بَعْضًا، فَلَنَسْأَلَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ لَنَا فِيمَا قَطَعْنَا مِنْ أَجْرٍ؟ وَ هَلْ عَلَيْنَا فِيمَا تَرَكَنا مِنْ وَزْرٍ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ الْآيَةَ، وَ فِي الْبَابِ أَحَادِيثٌ، وَ الْكَلَامُ فِي صَلْحِ بَنِي النُّضَيْرِ مَبْسُوطٌ فِي كِتَابِ السَّيْرِ. وَ أُخْرِجَ الْبُخَارِيُّ وَ مُسْلِمٌ وَ غَيْرُهُمَا عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النُّضَيْرِ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَ مِمَّا لَمْ يَوْجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَ لَا رِكَابٍ، وَ كَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً، فَكَانَ يَنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ مِنْهَا نَفَقَةَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السَّلَاحِ وَ الْكِرَاعِ عَدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: فَمَا أُوجِفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ فَجَعَلَ مَا أَصَابَ رَسُولَهُ اللَّهُ يَحْكُمُ فِيهِ مَا أَرَادَ، و لم يكن يومئذ خيل و لا ركاب يوجف بها. قال: و الإيجاف: أن يوضعوا السير، و هي لرسول الله، فكان من ذلك خير و فذك و قرى عرينه «٣». و أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يعمد لينبع،

(١). هي مكان بين المدينة و تيماء، من جهة مسجد قباء إلى جهة الغرب.

(٢). حك الشيء في النفس: إذا لم يكن الإنسان منشراح الصبر به، و كان في قلبه منه شيء من الشك و الريب، و أوهم أنه ذنب و خطيئة.

(٣). في الدر المنثور (٨/ ١٠٠): عريئة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٣٨

فأتاها رسول الله صلى الله عليه و سلم فاحتواها كلها، فقال ناس: هلا قسمها الله، فأنزل الله عذره فقال: ما أفاء الله على رسوله من أهيل القرى الآية. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: كان ما أفاء الله على رسوله من خير نصف لله و رسوله، و النصف الآخر للمسلمين، فكان الذي لله و رسوله من ذلك الكثيب و الوطيح و سلالم و وخذة، و كان الذي للمسلمين الشق، و الشق ثلاثة عشر سهما، و نطاة «١» خمسة أسهم، و لم يقسم رسول الله صلى الله عليه و سلم من خير لأحد من المسلمين إلا لمن شهد الحديبية. و لم يأذن رسول الله صلى الله عليه و سلم لأحد من المسلمين تخلف عنه عند مخرجه إلى الحديبية أن يشهد معه خير إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري.

و أخرج أبو داود و ابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: كان لرسول الله صلى الله عليه و سلم صفايا «٢» في النضير و خير و فذك؛ فأما بنو النضير فكانت حبسا لنوائبه، و أما فذك فكانت لابن السبيل، و أما خير فجزأها ثلاثة أجزاء: قسم منها جزءين بين المسلمين، و حبس جزءا لنفسه و لنفقة أهله، فما فضل عن نفقة أهله ردها على فقراء المهاجرين. و أخرج عبد الرزاق و ابن سعد و ابن أبي شيبة، و ابن زنجويه في الأموال، و عبد بن حميد و ابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال: ما على وجه الأرض مسلم إلا و له في هذا الفيء حق إلا ما ملكت أيما نكم.

و أخرج البخاري و مسلم و غيرهما عن ابن مسعود قال: «لعن الله الواشحات و المستوشحات و المتنصبات و المتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله» فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أم يعقوب، فجاءت ابن مسعود، فقالت: بلغني أنك لعنت كيت و كيت، قال: و ما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو في كتاب الله؟ قالت: لقد قرأت الدفتين فما وجدت فيه شيئا من هذا، قال: لئن كنت قرأته لقد وجدته، أما قرأت و ما آتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه.

### [سورة الحشر (٥٩): الآيات ٨ إلى ١٠]

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ يُوَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَ مَنْ يُوقِ شَحْنًا فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَ لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٠)

قوله: لِلْفُقَرَاءِ قِيل: هو بدل من لذي القربى و ما عطف عليه، و لا يصح أن يكون بدلا من الرسول و ما بعده؛ لئلا يستلزم وصف

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالفقر، وقيل: التقدير كَيْ لَا يَكُونُ دَوْلَةً وَلَكِنْ يَكُونُ لِلْفُقَرَاءِ، وقيل: التقدير: اعجبوا للفقراء، و  
قيل: التقدير: والله شديد العقاب للفقراء، أى:

(١). «النِّطَاءُ»: علم لخبير، أو حصن بها.

(٢). «الصفايا»: جمع صفى، وهو ما يصطفيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عرض الغنيمه من شىء قبل أن يخمس: عبد أو جارية أو  
فرس أو سيف أو غيرها- وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخصوصا بذلك مع الخمس الذى كان له خاصة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٣٩

شديد العقاب للكفار بسبب الفقراء، وقيل: هو عطف على ما مضى بتقدير الواو، كما تقول: المال لزيد لعمر ولبكر، والمراد ب  
المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَغْبَةً فِي الدِّينِ وَنَصْرَةً لَهُ. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون هم الذين  
تركوا الديار والأموال والأهلين، ومعنى أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ أَنْ كَفَرُوا بِمَكَّةَ أُخْرِجُوهُمْ مِنْهَا وَاضْطُرُّوهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ، وَكَانُوا  
مَائَةً رَجُلٍ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا أَيْ: يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يُفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِالرِّزْقِ فِي الدُّنْيَا، وَبِالرِّضْوَانِ فِي الْآخِرَةِ وَ يُنْصَرِّوْنَ  
اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِالْجِهَادِ لِلْكَفَّارِ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى «يَتَّبِعُونَ»، وَمَحَلُّ الْجُمْلَتَيْنِ النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ، الْأُولَى مَقَارَنَةٌ، وَالثَّانِيَّةُ  
مَقْدَرَةٌ، أَيْ: نَاوِينَ لِذَلِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَالًا مَقَارَنَةً لِأَنَّ خُرُوجَهُمْ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ نَصْرَةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ:  
أُولَئِكَ إِلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ اتَّصَفَهُمْ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ وَخَبْرُهُ هُمْ الصَّادِقُونَ أَيْ: الْكَامِلُونَ فِي الصِّدْقِ، الرَّاسِخُونَ فِيهِ. ثُمَّ  
لَمَّا فَرَّغَ مِنْ مَدْحِ الْمُهَاجِرِينَ مَدَحَ الْأَنْصَارَ فَقَالَ:

وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ الْمَرَادُ بِالْأَنْصَارِ الْمَدِينَةَ، وَ هِيَ دَارُ الْهَجْرَةِ، وَ مَعْنَى تَبَوَّأَهُمُ الدَّارَ وَالْإِيمَانَ أَنَّهُمْ اتَّخَذُواهَا  
مَبَاءً، أَيْ: تَمَكَّنُوا مِنْهَا تَمَكُّنًا شَدِيدًا، وَ التَّبَوُّءُ فِي الْأَصْلِ إِنَّمَا يَكُونُ لِلْمَكَانِ، وَ لَكِنَّهُ جَعَلَ الْإِيمَانَ مِثْلَهُ لِتَمَكُّنِهِمْ فِيهِ تَنْزِيلًا لِلْحَالِ  
مَنْزِلَةَ الْمَحَلِّ، وَ قِيلَ: إِنْ الْإِيمَانَ مَنْصُوبٌ بِفَعْلٍ غَيْرِ الْفِعْلِ الْمَذْكُورِ، وَ التَّقْدِيرُ: وَ اعْتَقَدُوا الْإِيمَانَ، أَوْ وَ أَخْلَصُوا الْإِيمَانَ، كَذَا قَالَ  
أَبُو عَلِيٍّ الْفَارَسِيُّ. وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَذْفٍ مِضَافًا، أَيْ: تَبَوَّأُوا مِضْمَنًا لِمَعْنَى لَزَمُوا، وَ التَّقْدِيرُ: لَزَمُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ. وَ  
مَعْنَى «مَنْ قَبْلَهُمْ»: مَنْ قَبْلَ هِجْرَةِ الْمُهَاجِرِينَ، فَلَا بَدَّ مِنْ تَقْدِيرِ مِضَافٍ؛ لِأَنَّ الْأَنْصَارَ إِنَّمَا آمَنُوا بَعْدَ إِيْمَانِ الْمُهَاجِرِينَ، وَ الْمَوْصُولُ  
مُبْتَدَأٌ وَ خَبْرُهُ يُجِئُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَحْسَنُوا إِلَى الْمُهَاجِرِينَ وَ أَشْرَكُوهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَ مَسَاكِنِهِمْ وَ لَا يَجِدُونَ فِي  
صُدُورِهِمْ حَاجَةً أَيْ: لَا يَجِدُ الْأَنْصَارُ فِي صُدُورِهِمْ حَسَدًا وَ غِيظًا وَ حَزَازَةً مِمَّا أَوْتُوا أَيْ:

مِمَّا أَوْتَى الْمُهَاجِرُونَ دُونَهُمْ مِنَ الْفِيءِ، بَلْ طَابَتْ أَنْفُسُهُمْ بِذَلِكَ، وَ فِي الْكَلَامِ مِضَافٌ مَحْذُوفٌ، أَيْ: لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ  
مَسَّ حَاجَةٍ أَوْ أَثَرَ حَاجَةٍ، وَ كَلَّ مَا يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ فِي صَدْرِهِ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَهُوَ حَاجَةٌ. وَ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ فِي دُورِ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا  
غَنِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنِي النَّضِيرِ دَعَا الْأَنْصَارَ وَ شَكَرَهُمْ فِيمَا صَنَعُوا مَعَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ إِتْرَالِهِمْ إِيَّاهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَ  
إِشْرَاكَهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ، ثُمَّ قَالَ: «إِنْ أَحْبَبْتُمْ قَسَمْتُ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ» وَ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى  
مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّيْكَنَى فِي مَسَاكِنِكُمْ وَ الْمَشَارِكَةَ لَكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ، وَ إِنْ أَحْبَبْتُمْ أُعْطِيْتُمْ ذَلِكَ وَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ، فَرَضُوا  
بِقِسْمَةِ ذَلِكَ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَ طَابَتْ أَنْفُسُهُمْ وَ يُؤَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خِصَاصَةٌ الْإِيثَارِ: تَقْدِيمُ الْغَيْرِ عَلَى النَّفْسِ فِي  
حُظُوظِ الدُّنْيَا رَغْبَةً فِي حُظُوظِ الْآخِرَةِ، يُقَالُ: آثَرْتَهُ بِكَذَا، أَيْ: خِصَصْتَهُ بِهِ، وَ الْمَعْنَى: وَ يَقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي  
حُظُوظِ الدُّنْيَا وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خِصَاصَةٌ أَيْ: حَاجَةٌ وَ فَقْرٌ، وَ الْخِصَاصَةُ مَأْخُودَةٌ مِنْ خِصَاصِ الْبَيْتِ، وَ هِيَ الْفَرْجُ الَّتِي تَكُونُ فِيهِ، وَ  
جُمْلَةٌ «وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خِصَاصَةٌ» فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ؛ وَ قِيلَ: إِنْ الْخِصَاصَةُ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْإِخْتِصَاصِ، وَ هُوَ الْإِنْفِرَادُ بِالْأَمْرِ،  
فَالْخِصَاصَةُ: الْإِنْفِرَادُ بِالْحَاجَةِ، وَ مِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أما الرِّبِّيع إذا تكون خصاصه عاش السقيم به و أثرى المقتر

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٤٠

وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قرأ الجمهور: يُوق بسكون الواو و تخفيف القاف من الوقاية. و قرأ ابن أبي عبلة و أبو حيوة بفتح الواو و تشديد القاف. و قرأ الجمهور: شُحَّ نَفْسِهِ بضم الشين. و قرأ ابن عمر و ابن أبي عبلة بكسرها. و الشح: البخل مع حرص، كذا في الصحاح، و قيل:

الشح أشد من البخل. قال مقاتل: شح نفسه: حرص نفسه. قال سعيد بن جبير: شح النفس هو أخذ الحرام و منع الزكاة. قال ابن زيد: من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه، و لم يمنع شيئاً أمره الله بأدائه، فقد وقى شح نفسه. قال طاوس: البخيل: أن يبخل الإنسان بما في يده، و الشح: أن يشح بما في أيدي الناس، يحب أن يكون له ما في أيديهم بالحلال و الحرام، لا يقنع. و قال ابن عيينة: الشح: الظلم. و قال الليث:

ترك الفرائض و انتهاك المحارم. و الظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم شح النفس بشيء من الأشياء التي يقبح الشح بها شرعاً من زكاة أو صدقة أو صلة رحم أو نحو ذلك، كما تفيد إضافة الشح إلى النفس. و الإشارة بقوله: فَأُولَئِكَ إِلَى مَنْ باعتبار معناها، و هو مبتدأ و خبره هُمُ الْمُفْلِحُونَ و الفلاح: الفوز و الظفر بكل مطلوب. ثم لما فرغ سبحانه من الثناء على المهاجرين و الأنصار، ذكر ما ينبغي أن يقوله من جاء بعدهم، فقال: وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ و هم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة، و قيل: هم الذين هاجروا بعد ما قوى الإسلام، و الظاهر شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة المتأخر إسلامهم في عصر النبوة، و من تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوة إلى يوم القيامة؛ لأنه يصدق على الكل أنهم جاءوا بعد المهاجرين الأولين و الأنصار، و الموصول مبتدأ و خبره: يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لِأَخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ و يجوز أن يكون الموصول معطوفاً على قوله: وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ فَيَكُونُ «يقولون» في محل نصب على الحال، أو مستأنف لا محل له، و المراد بالأخوة هنا أخوة الدين، أمرهم الله أن يستغفروا لأنفسهم و لمن تقدمهم من المهاجرين و الأنصار وَ لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَى:

غشاً و بغضاً و حسداً. أمرهم الله سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين و الأنصار أن يطلبوا من الله سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغل للذين آمنوا على الإطلاق، فيدخل في ذلك الصحابة دخولا أولياً لكونهم أشرف المؤمنين، و لكون السياق فيهم، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم و يطلب رضوان الله لهم فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية، فإن وجد في قلبه غلا لهم فقد أصابه نزغ من الشيطان، و حلّ به نصيب وافر من عصيان الله؛ بعداوة أوليائه و خير أمه نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، و انفتح له باب من الخذلان يفد به على نار جهنم؛ إن لم يتدارك نفسه باللجوء إلى الله سبحانه و الاستغاثة به؛ بأن ينزع عن قلبه ما طرقة من الغل لخير القرون و أشرف هذه الأمة، فإن جاوز ما يجده من الغل إلى شتم أحد منهم، فقد انقاد للشيطان بزمام و وقع في غضب الله و سخطه، و هذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلى بمعلم من الرافضة، أو صاحب من أعداء خير الأمة؛ الذين تلاعب بهم الشيطان، و زين لهم الأكاذيب المختلفة و الأقاصيص المفتراة و الخرافات الموضوعية، و صرفهم عن كتاب الله العزى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و عن سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ المنقولة إلينا بروايات الأئمة الأكابر في كل عصر من العصور، فاشتروا الضلالة بالهدى، و استبدلوا الخسران العظيم بالربح الوافر، و ما

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٤١

زال الشيطان الرجيم ينقلهم من منزلة إلى منزلة، و من رتبة إلى رتبة، حتى صاروا أعداء كتاب الله، و سنة رسوله، و خير أمته، و صالحى عبادته، و سائر المؤمنين، و أهملوا فرائض الله، و هجروا شعائر الدين، و سعوا في كيد الإسلام و أهله كل السعى، و رموا



الدين و أهله بكل حجر و مدر، و الله من ورائهم محيط رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ أى: كثير الرأفة و الرحمة، بلغهما لمن يستحق ذلك من عبادك.

و قد أخرج البخارى عن عمر بن الخطاب أنه قال: أوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، و يحفظ لهم حرمتهم، و أوصيه بالأنصار الذين تبوءوا الدار و الإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم و يتجاوز من مسيئهم. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال:

يا رسول الله؟ أصابنى الجهد، فأرسل إلى نساءه فلم يجد عندهن شيئا فقال: ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمة الله، فقال رجل من الأنصار، و فى رواية فقال أبو طلحة الأنصارى: أنا يا رسول الله، فذهب به إلى أهله، فقال لامرأته: أكرمى ضيف رسول الله صلى الله عليه و سلم لا تدخره شيئا، قالت: و الله ما عندى إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنؤميهم و تعالى فأطفتى السراج؛ و نظوى بطوننا الليل لضيف رسول الله صلى الله عليه و سلم، ففعلت، ثم غدا الضيف على النبى صلى الله عليه و سلم فقال: «لقد عجب الله الليلة من فلان و فلانة»، و أنزل فيهما:

و يُؤَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ. و أخرج الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عمر قال: أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم رأس شاة فقال: إن أخى فلانا و عياله أحوج إلى هذا منا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة آيات حتى رجعت إلى الأول، فنزلت فيهم و يُؤَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ. و أخرج الفريابى و سعيد ابن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مسعود أن رجلا قال: إني أخاف أن أكون قد هلكت، قال:

و ما ذاك؟ قال: إني سمعت الله يقول: وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ و أنا رجل شحيح لا يكاد يخرج منى شىء، فقال له ابن مسعود: ليس ذاك بالشح، و لكنه البخل، و لا خير فى البخل. و إن الشح الذى ذكره الله فى القرآن أن تأكل مال أخيك ظلما. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عمر فى الآية قال: ليس الشح أن يمنع الرجل ماله، و لكنه البخل و إنه لشح، إنما الشح أن تطمع عين الرجل إلى ما ليس له. و أخرج ابن المنذر عن على بن أبى طالب قال: من أذى زكاه ماله فقد و قى شح نفسه. و أخرج الحكيم الترمذى و أبو يعلى و ابن مردويه عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «ما محق الإسلام محق الشح شىء قط». و أخرج أحمد، و البخارى فى الأدب، و مسلم و البيهقى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، و اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، و استحلوا محارمهم». و قد وردت أحاديث كثيرة فى ذم الشح.

و أخرج الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال: الناس على ثلاث منازل، قد مضت منزلتان و بقيت منزلة، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التى بقيت، ثم قرأ:

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٤٢

وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ الْآيَةُ. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى المصاحف، و ابن مردويه عن عائشة قالت: أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبى صلى الله عليه و سلم فسبوهم، ثم قرأت هذه الآية وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه سمع رجلا- و هو يتناول بعض المهاجرين فقرا عليه: لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الْآيَةُ، ثم قال: هؤلاء المهاجرون أ فمنهم أنت؟ قال: لا، ثم قرأ عليه:

وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ الْآيَةُ. ثم قال: هؤلاء الأنصار أ فأنت منهم؟ قال: لا، ثم قرأ عليه:

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ الْآيَةُ، ثم قال: أ فمن هؤلاء أنت؟ قال: أرجو، قال: ليس من هؤلاء من سب هؤلاء.

## [سورة الحشر (٥٩): الآيات ١١ الى ٢٠]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُولُنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْيَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرَىٍّ مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥)

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرُوا قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)

لما فرغ سبحانه من ذكر الطبقات الثلاث من المؤمنين، ذكر ما جرى بين المنافقين و اليهود من المقالفة لتعجب المؤمنين من حالهم، فقال: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا و الخطاب لرسول الله، أو لكل من يصلح له، و الذين نافقوا هم: عبد الله بن أبي و أصحابه، و جملة: يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مستأنفة لبيان المتعجب منه، و التعبير بالمضارع لاستحضار الصورة، أو للدلالة على الاستمرار، و جعلهم إخوانا لهم لكون الكفر قد جمعهم، و إن اختلف نوع كفرهم فهم إخوان في الكفر، و اللام في «الإخوانهم» هي لام التبليغ، و قيل: هو من قول بنى النضير لبنى قريظة، و الأول أولى؛ لأن بنى النضير و بنى قريظة هم يهود، و المنافقون غيرهم، و اللام في قوله: لَئِن أُخْرِجْتُمْ هي الموطئة للقسم، أى:

و الله لئن أخرجتم من دياركم لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ هذا جواب القسم، أى: لنخرجن من ديارنا فى صحبتكم و لا نُطِيعُ فِيكُمْ أى: فى شأنكم، و من أجلكم أَحَدًا مَمَّنْ يريد أن يمنعنا من الخروج معكم و إن طال الزمان، و هو معنى قوله: أَيْدَاءً. ثم لما وعدوهم بالخروج معهم و عدوهم بالنصرة لهم، فقالوا:

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٤٣

وَ إِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ على عدوكم. ثم كذبهم سبحانه فقال: وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فيما وعدوهم به من الخروج معهم و النصره لهم. ثم لما أجمل كذبهم فيما وعدوا به فصل ما كذبوا فيه فقال:

لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ و قد كان الأمر كذلك، فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود و هم بنو النضير و من معهم، و لم ينصروا من قوتل من اليهود و هم بنو قريظة و أهل خيبر و لَئِن نَصَرُوهُمْ أى: لو قدر وجود نصرهم إياهم؛ لأن ما نفاه الله لا يجوز وجوده، قال الزجاج:

معناه لو قصدوا نصر اليهود لَيُولُنَّ الْأَدْبَارَ منهزمين ثم لا يَنْصُرُونَ يعنى اليهود لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصرهم، و هم المنافقون، و قيل: يعنى لا يصير المنافقون منصورين بعد ذلك، بل يذلهم الله، و لا ينفعهم نفاقهم، و قيل: معنى الآية: لا ينصرونهم طائعين، و لئن نصروهم مكرهين ليولن الأدبار، و قيل:

معنى «لا ينصرونهم»: لا يدومون على نصرهم، و الأول أولى، و يكون من باب قوله: وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ «١» لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْيَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ أى: لأنتم يا معاشر المسلمين أشد خوفا و خشية فى صدور المنافقين، أو صدور اليهود، أو صدور

الجميع من الله، أى: من رهبة الله، و رهبة هنا بمعنى المرهوبية، لأنها مصدر من المبني للمفعول، و انتصابها على التمييز ذلك بأنهم قوم لا يفقهون أى:

ما ذكر من رهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم لشيء من الأشياء، و لو كان لهم فقه لعلموا أن الله سبحانه هو الذى سلطكم عليهم، فهو أحق بالرهبة منه دونكم، ثم أخبر سبحانه بمزيد فشلهم و ضعف نكايتهم، فقال:

لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا يَعْنَى لَا يَبْرُزُ الْيَهُودُ وَ الْمَنَافِقُونَ مَجْتَمِعِينَ لِقِتَالِكُمْ، وَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ بِالْدُرُوبِ وَ الدُّورِ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ جَدْرٍ، أَى: مِنْ خَلْفِ الْحِيطَانِ الَّتِي يَسْتَتِرُونَ بِهَا لِجَبْنِهِمْ وَ رَهْبَتِهِمْ. قرأ الجمهور جُدْرٍ بالجمع، و قرأ ابن عباس و مجاهد و ابن محيصة و ابن كثير و أبو عمرو و جدار بالفراد. و اختار القراءة الأولى أبو عبيد و أبو حاتم لأنها موافقة لقوله «قرى محصنة». و قرأ بعض المكيين جُدْرٍ بفتح الجيم و إسكان الدال، و هى لغة فى الجدار. بِأَسْهُمٍ يَبْتَنَّهُمْ شَدِيدٌ أَى:

بعضهم غليظ فظ على بعض، و قلوبهم مختلفة، و نباتهم متباينة. قال السدى: المراد اختلاف قلوبهم حيث لا يتفقون على أمر واحد. و قال مجاهد: بأسهم بينهم شديد بالكلام و الوعيد: ليفعلن كذا، و المعنى: أنهم إذا انفردوا نسبوا أنفسهم إلى الشدة و البأس، و إذا لاقوا عدوا ذلوا و خضعوا و انهزموا، و قيل: المعنى أن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد، و إنما ضعفهم بالنسبة إليكم لما قذف الله فى قلوبهم من الرعب، و الأول أولى لقوله:

تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اجْتِمَاعَهُمْ إِنَّمَا هُوَ فِي الظَّاهِرِ مَعَ تَخَالُفِ قُلُوبِهِمْ فِي الْبَاطِنِ، وَ هَذَا التَّخَالُفُ هُوَ الْبَاسُ الَّذِي بَيْنَهُمُ الْمَوْصُوفُ بِالشَّدَةِ، وَ مَعْنَى شَتَّى: مُتَفَرِّقَةٌ، قَالَ مَجَاهِدٌ: يَعْنَى الْيَهُودَ وَ الْمَنَافِقِينَ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى. وَ رَوَى عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: الْمَرَادُ الْمَنَافِقُونَ. وَ قَالَ الثَّوْرِيُّ: هُمُ الْمُشْرِكُونَ وَ أَهْلُ الْكِتَابِ. قَالَ قَتَادَةُ: «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا» أَى: مَجْتَمِعِينَ عَلَى أَمْرٍ وَ رَأَى، وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى مُتَفَرِّقَةٌ، فَأَهْلُ

(١). الأنعام: ٢٨.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٤٤

الباطن مختلفة آراؤهم، مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم، و هم مجتمعون فى عداوة أهل الحق. و قرأ ابن مسعود: «و قلوبهم أشت» أَى: أَشَدَّ اخْتِلَافًا ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ أَى: ذَلِكَ الْاِخْتِلَافُ وَ التَّشْتُّ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا، وَ لَوْ عَقَلُوا لَعَرَفُوا الْحَقَّ وَ اتَّبَعُوهُ كَمَا تَلَّى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَى:

مثالهم كمثل الذين من قبلهم، و المعنى: أن مثل المنافقين و اليهود كمثل الذين من قبلهم من كفار المشركين قريباً يعنى فى زمان قريب، و انتصاب قريباً على الظرفية، أَى: يَشْبَهُونَهُمْ فِي زَمَانٍ قَرِيبٍ، وَ قِيلَ: الْعَامِلُ فِيهِ ذَاقُوا، أَى: ذَاقُوا فِي زَمَانٍ قَرِيبٍ، وَ مَعْنَى ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ أَى: سَوَاءٌ عَاقِبَةُ كُفْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا بِقَتْلِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَ كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ غَزْوَةِ بَنِي النَّضِيرِ بِسَنَةِ أَشْهَرٍ، قَالَ مَجَاهِدٌ وَ غَيْرُهُ، وَ قِيلَ: الْمَرَادُ بَنُو النَّضِيرِ حَيْثُ أَمَكَّنَ اللَّهُ مِنْهُمْ، قَالَ قَتَادَةُ. وَ قِيلَ: قَتَلَ بَنُو قَرِيظَةَ، قَالَ الضَّحَّاكُ. وَ قِيلَ: هُوَ عَامٌ فِي كُلِّ مَنْ انْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُ بِسَبَبِ كُفْرِهِ، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَى: فِي الْآخِرَةِ. ثُمَّ ضَرَبَ لِلْيَهُودِ وَ الْمَنَافِقِينَ مَثَلًا آخَرَ فَقَالَ: كَمَا تَلَّى الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ أَى: مِثْلَهُمْ فِي تَخَاذُلِهِمْ وَ عَدَمِ تَنَاصُرِهِمْ، فَهُوَ إِذَا خَبَرَ مَبْتَدَأَ مُحَذِّفٍ، أَوْ خَبَرَ آخَرَ لِلْمَبْتَدَأِ الْمَقْدَّرِ قَبْلَ قَوْلِهِ: كَمَا تَلَّى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ حَرْفِ الْعَطْفِ، كَمَا تَقُولُ: أَنْتَ عَاقِلٌ، أَنْتَ عَالِمٌ، أَنْتَ كَرِيمٌ. وَ قِيلَ: الْمَثَلُ الْأَوَّلُ خَاصٌّ بِالْيَهُودِ، وَ الثَّانِي خَاصٌّ بِالْمَنَافِقِينَ، وَ قِيلَ: الْمَثَلُ الثَّانِي بَيَانٌ لِلْمَثَلِ الْأَوَّلِ. ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ وَجْهَ الشَّبهِ فَقَالَ: إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ أَى: أَغْرَاهُ بِالْكَفْرِ، وَ زَيَّنَّ لَهُ، وَ حَمَلَهُ عَلَيْهِ، وَ الْمَرَادُ بِالْإِنْسَانِ هُنَا جِنْسٌ مِنْ أَطْعَامِ الشَّيْطَانِ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ، وَ قِيلَ: هُوَ عَابِدٌ كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ حَمَلَهُ الشَّيْطَانُ عَلَى الْكُفْرِ فَأَطَاعَهُ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ أَى: فَلَمَّا كَفَرَ

الإنسان مطاوعة للشيطان، وقبولا لتزيينه، قال الشيطان: إني برىء منك. وهذا يكون منه يوم القيامة. وجملة إني أخاف الله رب العالمين تعليل لبراءته من الإنسان بعد كفره، وقيل:

المراد بالإنسان هنا أبو جهل، والأول أولى. قال مجاهد: المراد بالإنسان هنا جميع الناس في غرور الشيطان إياهم، قيل: وليس قول الشيطان إني أخاف الله على حقيقته، إنما هو على وجه التبرى من الإنسان، فهو تأكيد لقوله: إني برىء منك قرأ الجمهور: إني بإسكان الياء. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتحها فكان عاقبتهم أنهما في النار قرأ الجمهور: عاقبتهم بالنصب على أنه خير كان، واسمها «أنهما في النار». وقرأ الحسن وعمر بن عبيد بالرفع على أنها اسم كان، والخبر ما بعده؛ والمعنى: فكان عاقبة الشيطان وذلك الإنسان الذي كفر أنهما صائران إلى النار خالدَيْن فيها قرأ الجمهور خالدَيْن بالنصب على الحال، وقرأ ابن مسعود والأعمش وزيد بن عليّ وابن أبي عبيدة «خالدان» على أنه خير أن والظرف متعلق به وذلك جزاء الظالمين أي: الخلود في النار جزاء الظالمين، ويدخل هؤلاء فيهم دخولا أوليا. ثم رجع سبحانه إلى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة فقال: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله أي: اتقوا عقابه بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه ولتنتظروا أنفس ما قدمت لغيره أي: لتنتظروا أي شيء قدمت من الأعمال ليوم القيامة، والعرب تكنى عن المستقبل بالغد، وقيل: ذكر الغد تنبيها على قرب الساعة و اتقوا الله كثر الأمر بالتقوى للتأكيد إن الله خبير بما تعملون لا تخفى عليه من

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٤٥

ذلك خافية، فهو مجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير، وإن شرا فشر ولا تكونوا كالدّين نسوا الله أي:

تركوا أمره، أو ما قدره حق قدره، أو لم يخافوه، أو جميع ذلك فأنساهم أنفسهم أي: جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له، فلم يشتغلوا بالأعمال التي تنجيهم من العذاب، ولم يكفوا عن المعاصي التي توقعهم فيه، ففي الكلام مضاف محذوف، أي: أنساهم حظوظ أنفسهم. قال سفيان: نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم، وقيل: نسوا لله في الرخاء فأنساهم أنفسهم في الشدائد أولئك هم الفاسقون أي: الكاملون في الخروج عن طاعة الله لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة في الفضل والرتبة، والمراد الفريقان على العموم، فيدخل في فريق أهل النار من نسي الله منهم دخولا أوليا، ويدخل في فريق أهل الجنة الذين اتقوا دخولا أوليا لأن السياق فيهم، وقد تقدم الكلام في معنى مثل هذه الآية في سورة المائدة، وفي سورة السجدة، وفي سورة ص. ثم أخبر سبحانه وتعالى عن أصحاب الجنة بعد نفي التساوي بينهم وبين أهل النار فقال:

أصحاب الجنة هم الفائزون أي: الظافرون بكلّ مطلوب، الناجون من كلّ مكروه.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ألم تر إلى الذين نافقوا قال: عبد الله بن أبي سلول، ورفاعة بن تابوت، وعبد الله بن نبتل، وأوس بن قيطي، وإخوانهم بنو النضير. وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر، وأبو نعيم في الدلائل، عنه: أن رهطا من بنى عوف بن الحارث منهم عبد الله بن أبي سلول، ووديعة بن مالك، وسويد وداعس بعثوا إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لا نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة «١»، فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام.

وأخرج ابن مردويه عنه أيضا في قوله: تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى قال: هم المشركون. وأخرج عبد الرزاق وابن راهويه، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن عليّ بن أبي طالب أن رجلا كان يتعبد في صومعة، وأن امرأة كان لها إخوة، فعرض لها شيء فأتته بها فزينت له نفسه فوقع عليها فحملت، فجاءه الشيطان فقال:

اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت فقتلها و دفنها، فجأوه فأخذوه فذهبوا به، فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال: إني أنا الذى زينت لك فاسجد لى سجدة أنجيك، فسجد له، فذلك قوله: كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ الآية. و هذا لا يدل على أن هذا الإنسان هو المقصود بالآية، بل يدل على أنه من جملة من تصدق عليه. و قد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس بأطول من هذا، و ليس فيه ما يدل على أنه المقصود بالآية. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود

(١). «الحلقة»: السلاح، و قيل: الدروع خاصة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٤٦

فى قوله: كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ قال: ضرب الله مثل الكفار و المنافقين الذين كانوا على عهد النبى صلى الله عليه و سلم كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر.

### [سورة الحشر (٥٩): الآيات ٢١ الى ٢٤]

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة و أهل النار، و بين عدم استوائهم فى شىء من الأشياء، ذكر تعظيم كتابه الكريم، و أخبر عن جلالته، و أنه حقيق بأن تخشع له القلوب، و ترق له الأفتدة، فقال: لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ أَى: من شأنه، و عظمته، و جوده ألفاظه، و قوّة مبانيه، و بلاغته، و اشتماله على المواعظ التى تلين لها القلوب؛ أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة فى الأرض لرأيتته مع كونه فى غاية القسوة و شدة الصلابة و ضخامة الجرم خاشعا متصدعا، أى: متشققا من خشية الله سبحانه؛ حذرا من عقابه، و خوفا من أن لا يؤدى ما يجب عليه من تعظيم كلام الله، و هذا تمثيل و تخيل يقتضى علو شأن القرآن و قوّة تأثيره فى القلوب، و يدل على هذا قوله: وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فيما يجب عليهم التفكير فيه ليتعضوا بالمواعظ و ينزجروا بالزواجر، و فيه توبيخ و تقرير للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن، و لا اتعضوا بمواعظه، و لا انزجروا بزواجره، و الخاشع: الذليل المتواضع.

و قيل: الخطاب للنبى صلى الله عليه و سلم، أى: لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت و لتصدع من نزوله عليه، و قد أنزلناه عليك و ثبتناك له و قويناك عليه، فيكون على هذا من باب الامتنان على النبى صلى الله عليه و سلم؛ لأن الله سبحانه ثبتته لما لا تثبت له الجبال الرواسى. ثم أخبر سبحانه بربوبيته و عظمته، فقال: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ فى هذا تقرير للتوحيد و دفع للشرك عالم الغيب و الشهادة أى: عالم ما غاب من الإحساس و ما حضر، و قيل: عالم السرّ و العلانية، و قيل: ما كان و ما يكون، و قيل: الآخرة و الدنيا، و قدّم الغيب على الشهادة لكونه متقدّما وجودا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ قد تقدّم تفسير هذين الاسمين هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كثره للتأكيد و التقرير لكون التوحيد حقيقا بذلك الملك القدوس أى: الطاهر من كل عيب، المنزه عن كل نقص، و القدس: بالتحريك فى لغة أهل الحجاز السطل؛ لأنه يتطهر به، و منه القادوس لواحد الأوانى التى يستخرج بها الماء. قرأ الجمهور: الْقُدُّوسُ بضم القاف. و قرأ أبو ذرّ و أبو السيمال بفتحها، و كان سيبويه يقول: سبوح قدوس بفتح أولهما، و حكى أبو

حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائي أعرابيا فصيحا يقرأ: الْقُدُّوسُ بفتح القاف. قال ثعلب: كل اسم على فعول فهو مفتوح الأول إلا السبوح والقدوس،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٤٧

فإن الضم فيهما أكثر، وقد يفتحان. السَّلَامُ أى: الذى سلم من كل نقص و عيب، وقيل: المسلم على عباده فى الجنة، كما قال: سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ «١» وقيل: الذى سلم الخلق من ظلمه، و به قال الأكثر، وقيل: المسلم لعباده، و هو مصدر وصف به للمبالغة. الْمُؤْمِنُ أى: الذى وهب لعباده الأمن من عذابه، وقيل: المصدق لرسله بإظهار المعجزات، وقيل: المصدق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب، و المصدق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب، يقال: آمنه من الأمن و هو ضدّ الخوف، و منه قول النابغة:

و المؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكّة بين الغيل و السند «٢»

و قال مجاهد: المؤمن الذى وحد نفسه بقوله: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. قرأ الجمهور:

الْمُؤْمِنُ بكسر الميم اسم فاعل من آمن بمعنى آمن. و قرأ أبو جعفر محمد بن على بن الحسين بفتحها بمعنى المؤمن به على الحذف كقوله: وَ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ «٣» و قال أبو حاتم: لا تجوز هذه القراءة لأن معناه أنه كان خائفا فأمنه غيره. الْمُهَيِّمُ أى: الشهيد على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم. كذا قال مجاهد و قتادة و مقاتل: يقال: همين يهيمن فهو مهيم؛ إذا كان رقبيا على الشئ. قال الواحدى: و ذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله مؤيمن من آمن يؤمن، فيكون بمعنى المؤمن، و الأول أولى، و قد قدمنا الكلام على المهيم فى سورة المائدة، العَزِيْزُ الذى لا يوجد له نظير، و قيل: القاهر، و قيل: الغالب غير المغلوب، و قيل: القوى، العَبَّارُ جبروت الله: عظمته، و العرب تسمى الملك الجبار، و يجوز أن يكون من جبر:

إذا أغنى الفقير، و أصلح الكسير، و يجوز أن يكون من جبره على كذا إذا أكرهه على ما أراد، فهو الذى جبر خلقه على ما أراد منهم، و به قال السدى و مقاتل، و اختاره الزجاج و الفراء، قال: هو من أجبره على الأمر، أى: قهره. قال: و لم أسمع فعلا من أفعال إلا فى جبار من أجبر، و دراك من أدرك، و قيل: الجبار الذى لا تطاق سطوته. الْمُتَكَبِّرُ أى: الذى تكبر عن كل نقص، و تعظم عما لا يليق به، و أصل التكبر الامتناع و عدم الانقياد، و منه قول حميد بن ثور:

عفت مثل ما يعفو الفصيل فأصبحت بها كبرياء الصّعب و هى ذلول

و الكبر فى صفات الله مدح، و فى صفات المخلوقين ذمّ. قال قتادة: هو الذى تكبر عن كل سوء. قال ابن الأنبارى: المتكبر: ذو الكبرياء، و هو الملك، ثم نزه سبحانه نفسه عن شرك المشركين، فقال:

(١). يس: ٥٨.

(٢). «العائذات»: ما عاذ بالبيت من الطير.

«الغيل»: الشجر الكثيف الملتف.

«السند»: ما قابلك من الجبل و علا عن السفح.

(٣). الأعراف: ١٥٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٤٨

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ أى: عمّا يشركونه أو عن إشراكهم به هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ أى: المقدّر للأشياء على مقتضى إرادته و مشيئته الباريّ أى: المنشئ، المخترع للأشياء، الموجد لها. و قيل: المميّز لبعضها من بعض.

المُصَوَّرُ أَي: الموجد للصور، المركب لها على هياث مختلفة، فالتصوير مترتب على الخلق والبرائة و تابع لهما، و معنى التصوير التخطيط و التشكيل، قال النابغة:

الخالق البارئ المصوّر فى الأرحام ماء حتى يصير دما

و قرأ حاطب بن أبى بلتعة الصحابى: «المصوّر» بفتح الواو و نصب الرء على أنه مفعول له للبارئ، أى: الذى برأ المصوّر، أى: ميّزه. له الأسماء الحُسنى قد تقدّم بيانها و الكلام فيها عند تفسير قوله:

و لله الأسماء الحُسنى فادعوه بها «١» يُسَبِّحُ لَهُ ما فى السّماواتِ و الأرضِ أى: ينطق بتنزيهه بلسان الحال، أو المقال كل ما فيهما و هو العزير الحكيم أى: الغالب لغيره الذى لا يغالبه مغالب، الحكيم فى كل الأمور التى يقضى بها.

و قد أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس، فى قوله: لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ قال: يقول لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل، حملته إياه، تصدّع و خشع من ثقله و من خشية الله، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة و التخشع. قال: و يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ و أخرج الديلمى عن ابن مسعود و على مرفوعا فى قوله: لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ إلى آخر السورة قال: هى رقية الصداق. رواه الديلمى بإسنادين لا ندرى كيف حال رجالهما.

و أخرج الخطيب فى تاريخه، بإسناده إلى إدريس بن عبد الكريم الحداد قال: قرأت على خلف، فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإنى قرأت على حمزة، فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإنى قرأت على الأعمش ثم ساق الإسناد مسلسلا هكذا إلى ابن مسعود فقال: فإنى قرأت على النبى صلى الله عليه و سلم، فلما بلغت هذه الآية قال لى: «ضع يدك على رأسك، فإن جبريل لما نزل بها قال لى: ضع يدك على رأسك، فإنها شفاء من كل داء إلا السام، و السام الموت». قال الذهبي: هو باطل. و أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم و الليلة، و ابن مردويه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أمر رجلا- إذا آوى إلى فراشه أن يقرأ آخر سور الحشر و قال: «إن متّ متّ شهيدا». و أخرج ابن مردويه عن أبى أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من تعوذ بالله من الشيطان ثلاث مرات، ثم قرأ آخر سورة الحشر بعث الله سبعين ملكا يطردون عنه شياطين الإنس و الجنّ، إن كان ليلا- حتى يصبح، و إن كان نهارا حتى يمسى» و أخرج أحمد و الدارمى، و الترمذى و حسنه، و الطبرانى و ابن الضريس، و البيهقى فى الشعب، عن معقل بن يسار عن النبى صلى الله عليه و سلم قال:

«من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر، و كلّ الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى، و إن مات ذلك اليوم مات

(١). الأعراف: ١٨٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٤٩

شهيدا، و من قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة». قال الترمذى بعد إخراجها: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. و أخرج ابن عدى و ابن مردويه و الخطيب، و البيهقى فى الشعب، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من قرأ خواتيم الحشر فى ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته أوجب الله له الجنة». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: عالم الغيب و الشهادة قال: السرّ و العلانية. و فى قوله:

المؤمن قال: المؤمن خلقه من أن يظلمهم، و فى قوله: المهيمن قال: الشاهد.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٥٠

وهي مدنيّة، قال القرطبي: في قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الممتحنة بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و الممتحنة، بكسر الحاء، اسم فاعل أضيف الفعل إليها مجازاً؛ كما سميت سورة براءة الفاضحة؛ لكشفها عن عيوب المنافقين، و قيل: الممتحنة بفتح الحاء اسم مفعول أضافه إلى المرأة التي نزلت فيها، و هي أم كلثوم بنت عقبه بن أبي معيط، لقوله سبحانه: فَأَمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ «١».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ١ الى ٣]

فتح القدير ج ٥ ٢٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِدُوِّي وَعِدْوَكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَتَّقِفُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسِيْرُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوُدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣)

قال المفسرون: نزلت: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِدُوِّي وَعِدْوَكُمْ أَوْلِيَاءَ فِي حَاطَبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ؛ حين كتب إلى مشركي قريش يخبرهم بمسير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، و سيأتي ذكر القصة آخر البحث إن شاء الله، و قوله: عِدُوِّي هو المفعول الأول و عِدْوَكُمْ معطوف عليه، و المفعول الثاني «أولياء»، و أضاف سبحانه العدو إلى نفسه تعظيماً لجرمهم، و العدو مصدر يطلق على الواحد و الاثنين و الجماعة، و الآية تدل على النهي عن موالاة الكفار بوجه من الوجوه. تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ أَي: توصلون إليهم المودة، على أن الباء زائدة، أو هي سببية. و المعنى: تلقون إليهم أخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبب المودة التي بينكم و بينهم.

قال الزجاج: تلقون إليهم أخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و سرّه بالمودة التي بينكم و بينهم، و الجملة في محل نصب على الحال من ضمير «تتخذوا»، و يجوز أن تكون مستأنفة لقصد الإخبار بما تضمنته أو لتفسير موالاتهم إياهم، و يجوز أن تكون في محل نصب صفة لأولياء، و جملة: وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ فِي محل نصب على الحال من فاعل تلقون، أو من فاعل «لا تتخذوا»، و يجوز أن تكون مستأنفة لبيان حال الكفار. قرأ الجمهور:

بِمَا جَاءَكُمْ بِالْبَاءِ الْمَوْحَدَةِ. و قرأ الجحدري و عاصم في روايته عنه: لَمَا جَاءَكُمْ بِاللَّامِ، أَي: لأجل

(١). الممتحنة: ١٠.

مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى حَذْفِ الْمَكْفُورِ بِهِ، أَي: كفروا بالله و الرسول لأجل ما جاءكم من الحق، أو على جعل ما هو سبب للإيمان سبباً للكفر توبيخاً لهم يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ لِبَيَانِ كَفْرِهِمْ، أَوْ فِي مَحَلِّ نَصْبِ عَلَى الْحَالِ، وَ قَوْلُهُ: أَنْ



تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ تَعْلِيلٌ لِلإِخْرَاجِ، أَى: يَخْرُجُونَكُمْ لِأَجْلِ إِيمَانِكُمْ، أَوْ كِرَاهَهُ أَنْ تُؤْمِنُوا إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي جَوَابُ الشَّرْطِ مَحذُوفٌ:

إِنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ فَلَا تَلْقُوا إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ، أَوْ إِنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ فَلَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ، وَابْتِصَابُ جِهَاداً وَابْتِغَاءَ عَلَى الْعِلَّةِ: أَى إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ لِأَجْلِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِي وَ لِأَجْلِ ابْتِغَاءِ مَرْضَاتِي، وَجُمْلَةُ: تُسَرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ مُسْتَأْنَفَةٌ لِلتَّقْرِيعِ وَ التَّوْيِيخِ، أَى: تُسَرُّونَ إِلَيْهِم الْأَخْبَارَ بِسَبَبِ الْمُودَةِ، وَقِيلَ: هِيَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ:

«تَلْقُونَ». ثُمَّ أَخْبَرَ بِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِهِمْ شَيْءٌ، فَقَالَ: وَ أَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَ مَا أَعْلَنْتُمْ وَ الْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ، أَى: بِمَا أَضْمَرْتُمْ وَ مَا أَظْهَرْتُمْ، وَ الْبَاءُ فِي «بِمَا» زَائِدَةٌ. يُقَالُ: عَلِمْتَ كَذَا وَ عَلِمْتَ بِكَذَا، هَذَا عَلَى أَنْ «أَعْلَمُ» مُضَارِعٌ، وَ قِيلَ: هُوَ أَفْعَلٌ تَفْضِيلٌ، أَى: أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ بِمَا تَخْفُونَ وَ مَا تَعْلَنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلُهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ أَى: مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ الْإِتِّخَاذَ لِعَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ، وَ يَلْقَى إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ، فَقَدْ أَخْطَأَ طَرِيقَ الْحَقِّ وَ الصَّوَابِ، وَ ضَلَّ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ إِنْ يَتَّفَعُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْيَاداً أَى: إِنْ يَلْقَوَكُمْ وَ يَصَادِفُوكُمْ يَظْهَرُوا لَكُمْ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ، وَ مِنْهُ الْمَثَاقِفَةُ: وَ هِيَ طَلَبُ مَصَادِفَةِ الْغَرَّةِ فِي الْمَسَافِقَةِ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى: إِنْ يَظْفَرُوا بِكُمْ وَ يَتِمَكَّنُوا مِنْكُمْ، وَ الْمَعْنِيَانِ مُتَقَارِبَانِ وَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ أَى: يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ بِالضَّرْبِ وَ نَحْوِهِ، وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالشَّتْمِ وَ نَحْوِهِ وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ هَذَا مَعْطُوفٌ عَلَى جَوَابِ الشَّرْطِ، أَوْ عَلَى جُمْلَةِ الشَّرْطِ وَ الْجُزْءِ، وَ رَجَّحَ هَذَا أَبُو حِيَانَ. وَ الْمَعْنَى:

أَنَّهُمْ تَمَنَّوْا ارْتِدَادَهُمْ وَ وَدُّوا رَجُوعَهُمْ إِلَى الْكُفْرِ «١» لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَ لَا أَوْلَادُكُمْ أَى: لَا تَنْفَعُكُمُ الْقَرَابَاتُ عَلَى عَمُومِهَا وَ لَا- الْأَوْلَادُ، وَ خَصَّيْهِمْ بِالذِّكْرِ مَعَ دُخُولِهِمْ فِي الْأَرْحَامِ لِمَزِيدِ الْمَحَبَّةِ لَهُمْ وَ الْحَنَوِّ عَلَيْهِمْ، وَ الْمَعْنَى: أَنْ هَؤُلَاءِ لَا يَنْفَعُونَكُمْ حِينَ تَوَالُوا الْكُفْرَانَ لِأَجْلِهِمْ؛ كَمَا وَقَعَ فِي قِصَّةِ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، بَلِ الَّذِي يَنْفَعُكُمْ هُوَ مَا أَمْرَكَمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ مَعَادَاةِ الْكُفْرَانِ وَ تَرْكِ مَوَالِيهِمْ. وَ جُمْلَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ مُسْتَأْنَفَةٌ لِيُبَيِّنَ عَدَمَ نَفْعِ الْأَرْحَامِ وَ الْأَوْلَادِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَ مَعْنَى يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ يَفْرَقُ بَيْنَكُمْ، فَيَدْخُلُ أَهْلُ طَاعَتِهِ الْجَنَّةَ، وَ أَهْلُ مَعْصِيَتِهِ النَّارَ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْفَصْلِ بَيْنَهُمْ أَنَّهُ يَفْرَقُ كُلَّ مِنْهُمْ مِنَ الْآخَرِ مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: يَوْمَ يَفْرَقُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ «٢» الْآيَةُ. قِيلَ: وَ يَجُوزُ أَنْ يَتَّعَلَقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا قَبْلَهُ، أَى: لَنْ تَنْفَعُكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَ لَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ عَلَيْهِ، وَ يَبْتَدَأُ بِقَوْلِهِ: يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَ الْأَوْلَى أَنْ يَتَّعَلَقَ بِمَا بَعْدَهُ كَمَا ذَكَرْنَا وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَقْوَالِكُمْ وَ أَعْمَالِكُمْ، فَهُوَ مُجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ.

قَرَأَ الْجُمْهُورُ: يَفْصَلُ بِضَمِّ الْيَاءِ وَ تَخْفِيفِ الْفَاءِ وَ فَتْحِ الصَّادِ مَبْنِيَا لِلْمَفْعُولِ، وَ اخْتَارَ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ أَبُو عُبَيْدٍ.

(١). الْمَقْصُودُ أَنَّ الْكَافِرِينَ تَمَنَّوْا ارْتِدَادَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْحَقِّ وَ رَجُوعَهُمْ إِلَى الْكُفْرِ.

(٢). عَبَسَ: ٣٤.

فَتْحُ الْقَدِيرِ، ج ٥، ص: ٢٥٢

وَ قَرَأَ عَاصِمٌ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَ كَسْرِ الصَّادِ مَبْنِيَا لِلْفَاعِلِ. وَ قَرَأَ حَمْزَةً وَ الْكَسَائِيَّ بِضَمِّ الْيَاءِ وَ فَتْحِ الْفَاءِ وَ كَسْرِ الصَّادِ مُشَدَّدَةً. وَ قَرَأَ عُلْقَمَةُ بِالنُّونِ. وَ قَرَأَ قَتَادَةُ وَ أَبُو حَيَوَةَ بِضَمِّ الْيَاءِ وَ كَسْرِ الصَّادِ مُخَفَّفَةً.

وَ قَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَ مُسْلِمٌ وَ غَيْرُهُمَا عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أَنَا وَ الزُّبَيْرُ وَ الْمُقَدَّادُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخَ «١» فَإِنْ بَهَا ظَعِينَةٌ «٢» مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا فَاتُونِي بِهِ، فَخَرَجْنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرُّوضَةَ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَعِينَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرَجَنِي الْكِتَابُ، قَالَتْ: مَا مَعِيَ مِنْ كِتَابٍ، فَقُلْنَا: لَتَخْرُجَنَّ الْكِتَابُ أَوْ لَتَلْقَيْنَ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجْتَهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَاتَيْنَا بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أَنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

ما هذا يا حاطب؟ قال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت امرأ ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يدا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

صدق، فقال عمر: دعني أضرب عنقه، فقال: إنه شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. ونزلت: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ. وفي الباب أحاديث مسنده ومرسله متضمنه لبيان هذه القصة، وأن هذه الآيات إلى قوله: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَأُ حَسَنَةً فِي إِبْرَاهِيمَ (٣) نازله في ذلك.

### [سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ٤ الى ٩]

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَأُ حَسَنَةً فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أَسْوَأُ حَسَنَةً لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَبَادِئًا وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَإِنْ يَنْهَكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَ ظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)

لما فرغ سبحانه من النهي عن موالاته المشركين، والذم لمن وقع منه ذلك، ضرب لهم إبراهيم مثلا حين

(١). «روضة خاخ»: موضع بين مكة والمدينة، على اثني عشر ميلا من المدينة.

(٢). «الظعينة»: هي المرأة في اليهودج.

(٣). الممتحنة: ٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٥٣

تبرأ من قومه، فقال: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَأُ حَسَنَةً، أي: خصلته حميدة تقتدون بها، يقال: لى به أسوة في هذا الأمر، أي: اقتداء، فأرشدهم سبحانه إلى الاقتداء به في ذلك إلا في استغفاره لأبيه. قرأ الجمهور إسوة بكسر الهمزة، وقرأ عاصم بضمها و هما لغتان، وأصل الأسوة بالضم والكسر: القدوة، ويقال:

هو أسوتك، أي: مثلك وأنت مثله، وقوله: «في إبراهيم والذين معه» متعلق بأسوة، أو بحسنه، أو هو نعت لأسوة، أو حال من الضمير المستتر في «حسنه»، أو خبر كان، «و لكم» للبيان، «والذين معه» هم أصحابه المؤمنون. وقال ابن زيد: هم الأنبياء. قال الفراء: يقول أفلا- تأسيت يا حاطب بإبراهيم، فتتبرأ من أهلكت كما تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه؟! والظرف في قوله: إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ هو خبر كان، أو متعلق به، أي: وقت قولهم لقومهم الكفار إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ جمع برىء، مثل: شركاء وشريك، وظرفاء و ظريف. قرأ الجمهور: بُرَآءُ بضم الباء وفتح الراء وألف بين همزتين، ككرماء في كريم. وقرأ عيسى ابن عمر و ابن أبي إسحاق بكسر الباء و همزة واحدة بعد ألف، ككرام في جمع كريم. وقرأ أبو جعفر بضم الباء و همزة بعد ألف وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ

اللَّهِ وَ هِيَ الْأَصْنَامُ كَفَرْنَا بِكُمْ أَى: بما آمنتم به من الأوثان، أو بدينكم، أو بأفعالكم وَ بَدَا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَ الْبُغْضَاءُ أَبَدًا أَى: هذا دأبنا معكم ما دتم على كفركم حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ خِدَعُهُ وَ تتركوا ما أنتم عليه من الشرك، فإذا علمت ذلك صارت تلك العداوة موالاةً و البغضاء محبةً إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتغْفِرَنَّ لَكَ مَا أَسْتَغْفِرُ لَكَ مِنْ قَوْلِهِ «فِي إِبْرَاهِيمَ» بتقدير مضاف محذوف ليصح الاستثناء، أَى: قد كانت لكم أسوة حسنة في مقالات إبراهيم إلا قوله لأبيه، أو من «أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»، و صح ذلك لأن القول من جملة الأسوة، كأنه قيل: قد كانت أسوة حسنة في إبراهيم في جميع أقواله و أفعاله إلا قوله لأبيه، أو من التبري و القطيعة التي ذكرت، أَى: لم يواصله إلا قوله، ذكر هذا ابن عطية، أو هو منقطع، أَى: لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك، فلا تأتسوا به، فتستغفرون للمشركين، فإنه كان عن موعده وعداها إياه، أو أن ذلك إنما وقع منه لأنه ظن أنه قد أسلم، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ وَ قد تقدم تحقيق هذا في سورة براءة وَ مَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْقَوْلِ الْمُسْتَشْنَى، يعنى ما أغنى عنك، و ما أَدْفَعُ عَنْكَ، من عذاب الله شيئا، و الجملة في محل نصب على الحال من فاعل «لَأَسْتَغْفِرَنَّ»، فالاستثناء متوجه إلى الاستغفار لا إلى هذا القيد، فإنه إظهار للعجز و تفويض للأمر إلى الله، و ذلك من خصال الخير. رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَ إِلَيْكَ أَنْبَأْنَا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ هَذَا مِنْ دَعَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِهِ وَ مِمَّا فِيهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ يَقْتَدَى بِهَا، و قيل: هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا القول، و التوكل: هو تفويض الأمور إلى الله، و الإنابة: الرجوع، و التصير: المرجع، و تقديم الجارّ و المجرور لقصر التوكل و الإنابة و المصير على الله رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا قَالَ الزَّجَّاجُ: لَا تَطْهَرُهُمْ عَلَيْنَا فَيُظَنُّوا أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ؛ فَيَفْتِنُوا بِذَلِكَ. و قال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم و لا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا وَ اغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ أَى: الغالب الذى لا يغالب الحكيم ذو الحكمة البالغة لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ أَى: لقد كان لكم في إبراهيم و الذين معه قدوة حسنة،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٥٤

و كرّر هذا للمبالغة و التأكيد، و قيل: إن هذا نزل بعد الأول بمدة لمن كان يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ بدل من قوله «لكم» بدل بعض من كل، و المعنى: أن هذه الأسوة إنما تكون لمن يخاف الله و يخاف عقاب الآخرة، أو يطمع فى الخير من الله فى الدنيا و فى الآخرة وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ أَى:

يعرض عن ذلك، فإن الله هو الغنى عن خلقه، الحميد إلى أوليائه عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَ ذلك بأن يسلموا فيصيروا من أهل دينكم، و قد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة، و حسن إسلامهم، و وقعت بينهم و بين من تقدّمهم فى الإسلام مودة، و جاهدوا، و فعلوا الأفعال المقربة إلى الله، و قيل:

المراد بالمودة هنا تزويج النبى صلى الله عليه و سلم بأم حبيبة بنت أبى سفيان. و لا وجه لهذا التخصيص، و إن كان من جملة ما صار سببا إلى المودة، فإن أبا سفيان بعد ذلك ترك ما كان عليه من العداوة لرسول الله صلى الله عليه و سلم، و لكنها لم تحصل المودة إلا بإسلامه يوم الفتح و ما بعده، وَ اللَّهُ قَدِيرٌ أَى: بليغ القدرة كثيرها، وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَى: بليغهما، كثيرهما. ثم لما ذكر سبحانه ما ينبغى للمؤمنين من معاداة الكفار و ترك موادتهم فصل القول فيمن يجوز برّه منهم و من لا يجوز، فقال: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَى: لا- ينهاكم عن هؤلاء أَنْ تَبْرُوهُمْ هَذَا بَدَلٌ مِنَ الْمَوْصُولِ بَدَلِ اشْتِمَالِ، وَ كَذَا قَوْلُهُ: وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ يُقَالُ: أَقْسَطْتُ إِلَى الرَّجُلِ؛ إِذَا عَامَلْتَهُ بِالْعَدْلِ. قَالَ الزَّجَّاجُ:

المعنى: و تعدلوا فيما بينكم و بينهم من الوفاء بالعهد إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ أَى: العادلين؛ و معنى الآية: أن الله سبحانه لا ينهى عن برّ أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال، و على أن لا- يظاهروا الكفار عليهم، و لا- ينهى عن معاملتهم بالعدل. قال ابن زيد: كان هذا فى أول الإسلام عند المودعة و ترك الأمر بالقتال، ثم نسخ. قال قتادة: نسختها: فَأَقْتُلُوا

الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «١» و قيل:

هذا الحكم كان ثابتاً في الصلح بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم. وقيل: هي خاصة في حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم ومن بينه وبينه عهد، قاله الحسن. وقال الكلبي: هم خزاعة و بنو الحارث ابن عبد مناف. وقال مجاهد: هي خاصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا، وقيل: هي خاصة بالنساء والصبيان.

وحكى القرطبي عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة. ثم بين سبحانه من لا يحلّ بزه ولا العدل في معاملته فقال: إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَ هُم صِنَادِيدُ الْكُفْرِ مِنْ قَرِيشٍ وَ ظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَي: عاونوا الذين قاتلوكم على ذلك، و هم سائر أهل مكة من دخل معهم في عهدهم، وقوله: أَنْ تَوَلَّوْهُم بِدَلِّ اشْتِمَالٍ مِنَ الْمَوْصُولِ كَمَا سَلَفَ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ أَي: الكاملون في الظلم؛ لأنهم تولوا من يستحق العداوة لكونه عدواً لله و لرسوله و لكتابه، و جعلوهم أولياء لهم.

وقد أخرج ابن المنذر، و الحاكم و صححه، عن ابن عباس إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ قَالَ: نَهَا أَنْ يَتَأَسُوا

(١). التوبة: ٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٥٥

بإستغفار إبراهيم لأبيه، وقوله: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعَذِّبْنَا بِأَيْدِيهِمْ، و لا بعذاب من عندك، فيقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و الحاكم و صححه، عنه لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ قَالَ: فِي صَنِيعِ إِبْرَاهِيمَ كُلِّهِ إِلَّا- فِي الْإِسْتِغْفَارِ لِأَبِيهِ، وَ هُوَ مُشْرِكٌ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا قَالَ: لَا تَسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا فَيَفْتِنُونَا. و أخرج ابن مردويه عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: أَوَّلُ مَنْ قَاتَلَ أَهْلَ الرِّدَّةِ عَلَىٰ إِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَ فِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً. و أخرج ابن أبي حاتم عن الزهري: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ اسْتَعْمَلَ أَبَا سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ عَلَىٰ بَعْضِ الْيَمَنِ، فَلَمَّا قَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أَقْبَلَ فَلَقِيَ ذَا الْخَمَارِ مُرْتَدًّا، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَاتَلَ فِي الرِّدَّةِ وَ جَاهَدَ عَنِ الدِّينِ. قَالَ: وَ هُوَ فِيمَنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِ: عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن عدى و ابن مردويه، و البيهقي في الدلائل، و ابن عساکر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في الآية قال: كَانَتِ الْمَوَدَّةُ الَّتِي جَعَلَ بَيْنَهُمْ تَرْوِجُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سَفْيَانَ، فَصَارَتْ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، فَصَارَ مَعَاوِيَةَ خَالَ الْمُؤْمِنِينَ. وَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ ثَلَاثَ أَعْطَيْتَنِي، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: تَوَمَّرَنِي حَتَّىٰ أَقَاتَلَ الْكُفْرَانَ كَمَا كُنْتُ أَقَاتِلُ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَ مَعَاوِيَةَ تَجْعَلُهُ كَاتِبًا بَيْنَ يَدَيْكَ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ:

وَ عِنْدِي أَحْسَنُ الْعَرَبِ وَ أَجْمَلُهُ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سَفْيَانَ أَرْوَجُكُمَا» الْحَدِيثُ. وَ أَخْرَجَ الطَّيَالِسِيُّ وَ أَحْمَدُ وَ الْبَزَارُ وَ أَبُو يَعْلَى وَ ابْنُ جُرَيْرٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَ النَّحَّاسُ فِي نَاسِخِهِ، وَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ، وَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَدِمَتْ قَتِيلَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْعَزِيِّ عَلَى ابْنَتِهَا أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ بِهَدَايَا: ضَبَابٍ وَ أَقْطُ «١» وَ سَمْنٍ وَ هِيَ مُشْرِكَةٌ، فَأَبَتْ أَسْمَاءُ أَنْ تَقْبَلَ هَدِيَّتَهَا، أَوْ تَدْخُلَهَا بَيْتَهَا؛ حَتَّىٰ أُرْسِلَتْ إِلَىٰ عَائِشَةَ أَنْ سَلَىٰ عَنْ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَسَأَلَتْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ الْآيَةَ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَقْبَلَ هَدِيَّتَهَا وَ تَدْخُلَهَا بَيْتَهَا. وَ زَادَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: فِي الْمَدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ قَرِيشٍ وَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ. وَ فِي الْبُخَارِيِّ وَ غَيْرِهِ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ: «أَتَنَنِي أُمِّي رَاغِبَةٌ وَ هِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قَرِيشٍ إِذْ عَاهَدُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: أَأَصْلُهَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ

الآية: فقال: نعم صلى أمك».

(١). «ضباب»: جمع ضبته، وهي جلد الضب يدبغ ليوضع فيه السمن.

«أقط»: لبن مجفف يابس متحجر يطبخ به.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٥٦

### [سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ١٠ إلى ١٣]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ وَشِئْلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَا يُسْئَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصَيْنَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَعْفِفْنَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبْئَسُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)

لما ذكر سبحانه حكم فريقى الكافرين فى جواز البرِّ والإقساط للفريق الأول دون الفريق الثانى؛ ذكر حكم من يظهر الإيمان، فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ مِنْ بَيْنِ الْكُفَّارِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا صَالِحَ قَرِيشًا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ مَنْ جَاءَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَيْهِ النَّسَاءُ أَبِي اللَّهِ أَنْ يَرُدُّنَّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَ أَمْرٌ بِامْتِحَانِهِنَّ فَقَالَ: فَامْتَحِنُوهُنَّ أَى: فَاخْتَبِرُوهُنَّ. وَ قَدْ اخْتَلَفَ فِيهَا كَمَا كَانَ يَمْتَحِنُ بِهِ، فَقِيلَ: كَيْفَ يَسْتَحْلِفْنَ بِاللَّهِ مَا خَرَجْنَ مِنْ بَغْضِ زَوْجٍ، وَلَا رِغْبَةً مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ، وَلَا لالْتِمَاسِ دُنْيَا، بَلْ حَبَا لِلَّهِ وَ لِرَسُولِهِ وَ رِغْبَةً فِي دِينِهِ، فَإِذَا حَلَفْتَ كَذَلِكَ أُعْطِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَوْجَهَا مَهْرَهَا، وَ مَا أَنْفَقَ عَلَيْهَا، وَ لَمْ يَرُدَّهَا إِلَيْهِ. وَ قِيلَ: الْامْتِحَانُ هُوَ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَ قِيلَ:

ما كان الامتحان إلا بأن يتلو عليهن رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية، و هي: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ إِلَى آخِرِهَا. وَ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ هَلْ دَخَلَ النِّسَاءُ فِي عَهْدِ الْهَدْيَةِ أَمْ لَا؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، فَعَلَى الْقَوْلِ بِالْدُخُولِ: تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ مَخْصُصَةً لَذَلِكَ الْعَهْدِ، وَ بِهِ قَالَ الْأَكْثَرُ. وَ عَلَى الْقَوْلِ بَعْدَهُ: لَا نَسْخَ وَ لَا تَخْصِيصَ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ لِبَيَانِ أَنَّ حَقِيقَةَ حَالِهِنَّ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَ لَمْ يَتَعَبَّدْ كَمِ بَذَلِكَ، وَ إِنَّمَا تَعَبَّدْ كَمِ بِامْتِحَانِهِنَّ حَتَّى يَظْهَرَ لَكُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ دَعْوَاهِنَّ فِي الرِّغُوبِ فِي الْإِسْلَامِ فَإِنَّ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ أَى: عَلِمْتُمْ ذَلِكَ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ بَعْدَ الْامْتِحَانِ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ أَى:

إلى أزواجهن الكافرين، و جملة لا- هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ عَنْ إِرجاعهنَّ. وَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَةَ لَا تَحِلُّ لِكُفَّارٍ، وَ أَنَّ إِسْلَامَ الْمَرْأَةِ يَوْجِبُ فِرْقَتَهَا مِنْ زَوْجِهَا، لَا مَجْرَدَ هِجْرَتِهَا، وَ التَّكْرِيرُ لِتَأْكِيدِ الْحَرَمَةِ، أَوِ الْأَوَّلُ: لِبَيَانِ زَوَالِ النِّكَاحِ، وَ الثَّانِي: لِامْتِنَاعِ النِّكَاحِ الْجَدِيدِ وَ آتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا أَى: وَ أُعْطُوا أَزْوَاجَهُنَّ هُوَلاءِ اللَّاتِي هَاجَرْنَ وَ أُسْلِمْنَ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا عَلَيْهِنَّ مِنَ الْمَهْورِ. قَالَ الشَّافِعِيُّ: وَ إِذَا طَلَبَهَا غَيْرُ الزَّوْجِ مِنْ قَرَابَاتِهَا مَنَعَ مِنْهَا بِلَا عَوْضٍ وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ لِأَنَّهُنَّ قَدْ صَرْنَ مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ أَى: مَهْورَهُنَّ، وَ ذَلِكَ بَعْدَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهِنَّ كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ أُدْلُهُ وَ جُوبِ الْعِدَّةِ، وَ لَا تُمْسِكُوا

بِعَصْمِ الْكُوفَرِ قرأ الجمهور تُمَسِّكُوا بالتخفيف من الإمساك، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، لقوله: فَأَمَسَّ كَوْهَنَّ بِمَعْرُوفٍ \* (١) و قرأ الحسن و أبو العالية و أبو عمرو بالتشديد من التمسك،

(١). البقرة: ٢٣١ و الطلاق: ٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٥٧

و العصم: جمع عصمة، و هى ما يعتصم به، و المراد هنا عصمة عقد النكاح، و المعنى أن من كانت له امرأة كافرة فليست له بامرأة لانقطاع عصمتها باختلاف الدين. قال النخعي: هى المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر، و كان الكفار يتزوجون المسلمات، و المسلمون يتزوجون المشركات، ثم نسخ ذلك بهذه الآية، و هذا خاص بالكوافر المشركات دون الكوافر من أهل الكتاب. و قيل: عامة فى جميع الكوافر مخصية بإخراج الكتابيات منها. و قد ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه إذا أسلم و ثنى أو كتابى لا يفرق بينهما إلا بعد انقضاء العدة. و قال بعض أهل العلم: يفرق بينهما بمجرد إسلام الزوج، و هذا إنما هو إذا كانت المرأة مدخولا بها، و أما إذا كانت غير مدخول بها فلا خلاف بين أهل العلم فى انقطاع العصمة بينهما بالإسلام إذ لا عدة عليها و سئلوا ما أنفقتم أى: اطلبوا مهور نساءكم اللاهقات بالكفار و لَيْسَ ثَلُومًا مَا أَنْفَقُوا قال المفسرون: كان من ذهب من المسلمات مرتدة إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار: هاتوا مهرها، و يقال للمسلمين إذا جاءت امرأة من الكفار إلى المسلمين و أسلمت: ردوا مهرها على زوجها الكافر ذَلِكَ كُفْرُكُمْ اللَّهُ أَى: ذلك المذكور من إرجاع المهور من الجهتين حكم الله، و قوله: يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فى محل نصب على الحال. أو مستأنفة و اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ أَى: بليغ العلم لا تخفى عليه خافية، بليغ الحكمة فى أقواله و أفعاله. قال القرطبي: و كان هذا مخصوصا بذلك الزمان فى تلك النازلة خاصة بإجماع المسلمين و إِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ لما نزلت الآية المتقدمة قال المسلمون: رضينا بحكم الله و كتبوا إلى المشركين فامتنعوا، فنزل قوله: و إِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ مما دفعتم إليهم من مهور النساء المسلمات، و قيل: المعنى: و إن انفلت منكم أحد من نساءكم إلى الكفار بأن ارتدت المسلمة فَعَاقِبْتُمْ قال الواحدى: قال المفسرون: فعاقبتم فغنمتم. قال الزجاج: تأويله: و كانت العقبي لكم، أَى: كانت الغنيمة لكم حتى غنمتم فَآتَوْا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا من مهر المهاجرة التى تزوجوها و دفعوه إلى الكفار، و لا تؤتوه زوجها الكافر. قال قتادة و مجاهد: إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهبوا أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفىء و الغنيمة، و هذه الآية منسوخة قد انقطع حكمها بعد الفتح. و حاصل معناها أن مِنْ أَزْوَاجِكُمْ يجوز أن يتعلق بفاتكم، أَى: من جهة أزواجكم، و يراد بالشىء المهر الذى غرمه الزوج، و يجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه صفة لشيء. ثم يجوز فى شىء أن يراد به المهر، و لكن لا بد على هذا من مضاف محذوف، أَى: من مهر أزواجكم ليتطابق الموصوف و صفته، و يجوز أن يراد بشىء النساء: أَى نوع و صنف منهن، و هو ظاهر قوله: مِنْ أَزْوَاجِكُمْ و قوله: فَآتَوْا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ و المعنى: أنهم يعطون من ذهب زوجها إلى المشركين فكفرت، و لم يرد عليه المشركون مهرها، كما حكم الله مثل ذلك المهر الذى أنفقه عليها من الغنيمة و اتَّقُوا اللَّهَ الذى أنتم به مؤمنون أَى: احذروا أن تتعرضوا لشيء مما يوجب العقوبة عليكم، فإن الإيمان الذى أنتم متصفون به يوجب على صاحبه ذلك يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ أَى: قاصدات لمبايعتك على الإسلام، و على أن لا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا من الأشياء كائنا ما كان، هذا كان يوم فتح مكة، فإن نساء أهل مكة أتين رسول الله صلى الله عليه و سلم يبايعنه، فأمره الله

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٥٨

أن يأخذ عليهن أن لا يشركن و لا يسيرفن و لا يزنيين و لا يقتلن أولادهن و هو ما كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات و لا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهن و أزواجهن أَى: لا يلحقن بأزواجهن ولدا ليس منهم.

قال الفراء: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هذا ولدى منك، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن، وذلك أن الولد إذا وضعت الأم سقط بين يديها ورجليها، وليس المراد هنا أنها تنسب ولدها من الزنا إلى زوجها، لأن ذلك قد دخل تحت النهى عن الزنا ولا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ أَى: في كل أمر هو طاعة لله. قال عطاء: في كل برّ وتقوى، وقال المقاتلان: عنى بالمعروف النهى عن النوح، وتمزيق الثياب، وجز الشعر، وشقّ الجيب، وخمش الوجوه، والدعاء بالويل، وكذا قال قتادة وسعيد بن المسيب ومحمد ابن السائب وزيد بن أسلم، ومعنى القرآن أوسع مما قالوه. قيل: ووجه التقييد بالمعروف، مع كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يأمر إلا به التنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق فَبَايَعَهُنَّ هذا جواب إذا، والمعنى: إذا بايعنك على هذه الأمور فبايعهن، ولم يذكر في بيعتهن الصلاة والزكاة والصيام والحج؛ لوضوح كون هذه الأمور ونحوها من أركان الدين وشعائر الإسلام. وإنما خصّ الأمور المذكورة لكثرة وقوعها من النساء وَاسْتَيْغْفِرُ لَهُنَّ اللهُ أَى: اطلب من الله المغفرة لهنّ بعد هذه المبايعة لهنّ منك إِنَّ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَى: بليغ المغفرة والرحمة لعباده يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ هم جميع طوائف الكفر، وقيل: اليهود خاصة، وقيل: المنافقون خاصة. وقال الحسن: اليهود والنصارى. والأول أولى؛ لأن جميع طوائف الكفر تتصف بأن الله سبحانه غضب عليها قَدْ يَسُّوا مِنَ الْآخِرَةِ «من» لا ابتداء الغاية، أَى: إنهم لا يوقنون بالآخرة البتة بسبب كفرهم كما يَسُّسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ أَى: كيأسهم من بعث موتاهم لاعتقادهم عدم البعث، وقيل: كما يسس الكفار الذين قد ماتوا منهم من الآخرة؛ لأنهم قد وقفوا على الحقيقة، وعلّموا أنه لا نصيب لهم في الآخرة، فتكون من على الوجه الأول ابتدائية، وعلى الثاني بيانية، والأول أولى.

وقد أخرج البخارى عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء مسلمات، فأنزل الله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ حَتَّى بَلَغَ: وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ فَطَلَّقَ عَمْرُ يَوْمئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشَّرْكِ. وأخرجه أيضا من حديثهما بأطول من هذا، وفيه و كانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط مَمَّنْ خَرَجَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ عَاتِقُ «١»، فَجَاءَ أَهْلُهَا يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَرْجِعَهَا إِلَيْهِمْ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ فِي الْمُؤْمِنَاتِ مَا أَنْزَلَ. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: فَامْتَحِنُوهُنَّ قَالَ: كَانَ امْتَحَانَهُنَّ أَنْ يَشْهَدَنَّ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَإِذَا عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ حَقٌّ مِنْهُنَّ لَمْ يَرْجِعْنَ إِلَى الْكُفَّارِ، وَأُعْطِيَ بَعْلَهُمَا فِي الْكُفَّارِ الَّذِينَ عَقَدَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَاقَهَا الَّذِي أَصْدَقَهَا وَأَحْلَهُنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا آتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ. وأخرج ابن مردويه

(١). «العاتق»: الشابة أول ما تدرك (النهاية ٣/ ١٧٨)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٥٩

عنه قال: نزلت سورة الممتحنة بعد ذلك الصلح، فكان من أسلم من نسائهم، فسئلت: ما أخرجك؟ فإن كانت خرجت فرارا من زوجها ورغبة عنه ردت، وإن كانت خرجت رغبة في الإسلام أمسك و ردّ على زوجها مثل ما أنفق. وأخرج ابن أبي أسامة و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و الطبراني في الكبير، و ابن مردويه، بسند حسن كما قال السيوطي، عن ابن عباس في قوله: إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ قَالَ: كَانَ إِذَا جَاءَتِ الْمَرْأَةُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَلْفَهَا عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِاللَّهِ مَا خَرَجَتْ رَغْبَةً بِأَرْضٍ عَنْ أَرْضٍ، وَبِاللَّهِ مَا خَرَجَتْ مِنْ بَغْضِ زَوْجٍ، وَبِاللَّهِ مَا خَرَجَتْ التَّمَّاسَ دُنْيَا، وَبِاللَّهِ مَا خَرَجَتْ إِلَّا حَبَا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. وأخرج ابن منيع من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: أسلم عمر بن الخطاب و تأخرت امرأته في المشركين، فأنزل الله: وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ. وأخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و البخارى و الترمذى

و ابن المنذر و ابن مردويه عن عائشة: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ إِلَى قَوْلِهِ: غَفُورٌ رَحِيمٌ فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: قد بايعتك - كلاما-، و الله ما مسّت يده يد امرأة قط من المبايعات ما بايعهنّ إلا بقوله: قد بايعتك على ذلك. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن سعد و أحمد و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن ماجه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن أميمة بنت رقيقة قالت: «أتيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فى نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما فى القرآن أن لا نشرك بالله شيئا حتى بلغ: وَ لَا يَعْصِيَنَّكَ فِى مَعْرُوفٍ فَقَالَ: فيما استطعتن و أطقتن، فقلنا: الله و رسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: إني لا أصافح النساء، إنما قولى لمرأة كقولى لامرأة واحدة» و فى الباب أحاديث. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فقال:

«بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا، و لا تسرقوا، و لا تزنوا، و قرأ آية النساء، فمن وفى منكم فأجره على الله، و من أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له، و من أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله، إن شاء عذبه و إن شاء غفر له». و أخرج ابن المنذر من طريق ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ لَا يَأْتِيَنَّ بَيْهَاتِنِ يَفْتَرِينَهُ قَالَ: كانت الحرّة تولد لها الجارية فتجعل مكانها غلاما. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى الآية. قال لا يلحقن بأزواجهنّ غير أولادهنّ وَ لَا يَعْصِيَنَّكَ فِى مَعْرُوفٍ قَالَ: إنما هو شرط شرطه الله للنساء. و أخرج ابن سعد و ابن أبى شيبه و أحمد و عبد بن حميد، و الترمذى و حسنه، و ابن ماجه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أم سلمة الأنصارية قالت: قالت امرأة من النسوة ما هذا المعروف الذى لا ينبغى لنا أن نعصيك فيه؟ قال: «لا تنحن، قلت: يا رسول الله إن بنى فلان أسعدونى على عمى لا بدّ لى من قضائهنّ. فأبى على فعاودته مرارا فأذن لى فى قضائهنّ، فلم أنح بعد، و لم يبق من النسوة امرأة إلا و قد ناحت غيرى». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أم عطية قالت: «بايعنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فقرا علينا أن لا نشرك بالله شيئا و نهانا عن النياحة، فقبضت امرأة منا يدها فقالت: يا رسول الله إن فلانة أسعدتنى و أنا أريد أن أجزبها، فلم يقل لها شيئا. فذهبت

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٦٠

ثم رجعت فقالت: ما وفّت منا امرأة إلا- أم سليم و أم العلاء و بنت أبى سبرة امرأة معاذ أو بنت أبى سبرة و امرأة معاذ». و قد وردت أحاديث كثيرة فى النهى عن النوح. و أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر عن ابن عباس قال:

كان عبد الله بن عمرو و زيد بن الحارث يودان رجلا من اليهود، فأنزل الله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْآيَةَ. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن ابن مسعود فى قوله:

قَدْ يَسُّوْا مِنَ الْآخِرَةِ قَالَ: فلا يؤمنون بها و لا يرجونها كما يئس الكافر إذا مات و عاين ثوابه و اطلع عليه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال: هم الكفار أصحاب القبور الذين يسّوا من الآخرة. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم، أو يبعثهم الله.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٦١

## سورة الصّف

### إشارة

و هى مدنية. قال الماوردى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة





يُقَاتِلُونَ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ. وقرأ زيد بن عليّ على البناء للمفعول، وقرئ «يقتلون» بالتشديد، وجملة كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ فِي محل نصب على الحال من فاعل يقاتلون، أو من الضمير في «صفا» على تقدير أنه مؤول بصافين أو مصفوفين، و معنى مرصوص: ملتصق بعضه ببعض، يقال: رصصت البناء أرصه رصاً؛ إذا ضمنت بعضه إلى بعض. قال الفراء: مرصوص بالرصاص. قال المبرد: هو مأخوذ من رصصت البناء؛ إذا لاءمت بينه وقربت حتى يصير كقطعة واحدة، وقيل: هو من الرصيص، وهو ضم الأشياء بعضها إلى بعض، والتراص: التلاصق. وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ لِمَا ذَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ يَحِبُّ الْمُقَاتِلِينَ فِي سَبِيلِهِ بَيْنَ أَنْ مُوسَى وَعِيسَى أَمْرًا بِالْتَّوْحِيدِ، وَجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَحَلَّ الْعِقَابِ بَيْنَ خَالَفَهُمَا، وَالظَّرْفِ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ هُوَ إِذْكَرَ، وَأَيُّ: أَذْكَرَ يَا مُحَمَّدَ لِهَؤُلَاءِ الْمَعْرُضِينَ وَقْتَ قَوْلِ مُوسَى، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَجْهَ ذِكْرِ قِصَّةِ مُوسَى وَعِيسَى بَعْدَ مَحَبَّةِ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ التَّحْذِيرَ لِأُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَفْعَلُوا مَعَ نَبِيِّهِمْ مَا فَعَلَهُ قَوْمُ مُوسَى وَعِيسَى مَعَهُمَا يَا قَوْمَ لِمَ تُؤَدُّونَنِي هَذَا مَقُولَ الْقَوْلِ، أَيُّ: لِمَ تُؤَدُّونَنِي بِمُخَالَفَةِ مَا أَمَرَكَ بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الَّتِي افْتَرَضَهَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ، أَوْ لِمَ تُؤَدُّونَنِي بِالشُّتْمِ وَالْإِنْتِقَاصِ، وَ مِنْ ذَلِكَ رَمِيهِ بِالْأُدْرَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ هَذَا فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ، وَجَمَلُهُ وَقَدْ تَعَلَّمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فِي مَحَلِّ نَصْبِ عَلَى الْحَالِ، وَقَدْ تَحَقَّقَ الْعِلْمُ أَوْ لِتَأْكِيدِهِ، وَصِيغَةُ الْمُضَارِعِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْاسْتِمْرَارِ، وَالْمَعْنَى: كَيْفَ تُؤَدُّونَنِي مَعَ عِلْمِكُمْ بِأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَالرَّسُولُ يَحْتَرَمُ وَيُعْظَمُ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَكُمْ شَكٌّ فِي الرِّسَالَةِ لِمَا قَدْ شَاهَدْتُمْ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ الَّتِي تَوْجِبُ عَلَيْكُمْ الْإِعْتِرَافَ بِرِسَالَتِي، وَتَفِيدُكُمْ الْعِلْمَ بِهَا عِلْمًا يَقِينًا فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ أَيُّ: لِمَا أَصْرَوُا عَلَى الزَّيْغِ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ، أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْهُدَى؛ وَصَرَفَهَا عَنِ قَبُولِ الْحَقِّ، وَقِيلَ: فَلَمَّا زَاغُوا عَنِ الْإِيمَانِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الثَّوَابِ. قَالَ مِقَاتِلٌ: لِمَا عَدَلُوا عَنِ الْحَقِّ أَمَالَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنْهُ، يَعْنِي أَنَّهُمْ لَمَّا تَرَكَوا الْحَقَّ بِإِيذَاءِ نَبِيِّهِمْ أَمَالَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْحَقِّ جَزَاءً بِمَا ارْتَكَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَقْرَّرَةٌ لِمُضْمُونِ مَا قَبْلَهَا. قَالَ الزَّجَّاجُ: لَا يَهْدِي مِنْ سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ فَاسِقٌ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَهْدِي كُلَّ مُتَّصِفٍ بِالْفَسَقِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ جَمَلَتِهِمْ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَعْطُوفٌ عَلَى وَإِذْ قَالَ مُوسَى مَعْمُولٌ لِعَامِلِهِ، أَوْ

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٦٣

معمول لعامل مقدر معطوف على عامل الظرف الأول يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة أي: إني رسول الله إليكم بالإنجيل مصدقاً لما بين يدي من التوراة لأنني لم آتكم بشيء يخالف التوراة، بل هي مشتملة على التبشير بي، فكيف تنفرون عني وتخالفونني، وانتصاب مصدقاً على الحال، وكذا مبشراً، والعامل فيهما ما في الرسول من معنى الإرسال، والمعنى: أني أرسلت إليكم حال كوني مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً بمن يأتي بعدي، وإذا كنت كذلك في التصديق والتبشير فلا مقتضى لتكذيبي، وأحمد اسم نبينا صلى الله عليه وسلم وهو علم منقول من الصفة، وهي تحتمل أن تكون مبالغه من الفاعل، فيكون معناها أنه أكثر حمداً لله من غيره، أو من المفعول فيكون معناها أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره، قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والسلمي وزر بن حبيش وأبو بكر عن عاصم من بعدي بفتح الياء. وقرأ الباقون بإسكانها فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبین أي: لما جاءهم عيسى بالمعجزات قالوا هذا الذي جاءنا به سحر واضح ظاهر، وقيل: المراد محمد صلى الله عليه وسلم أي لما جاءهم بذلك قالوا هذه المقالة، والأول أولى. قرأ الجمهور: سحر وقرأ حمزة والكسائي: «ساحر». وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ أَيُّ: لَا أَحَدٌ أَكْثَرَ ظُلْمًا مِنْهُ حَيْثُ يَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ، وَالْحَالُ أَنَّهُ يَدْعَى إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ خَيْرُ الْأَدْيَانِ وَأَشْرَفُهَا؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَحَقَّهُ أَنْ لَا يَفْتَرِيَ عَلَى غَيْرِهِ الْكُذْبَ، فَكَيْفَ يَفْتَرِيهِ عَلَى رَبِّهِ. قرأ الجمهور: وَهُوَ يُدْعَى مِنَ الدَّعَاءِ مَبْنِيًا لِلْمَفْعُولِ. وقرأ طلحة ابن مصرف يدعى بفتح الياء وتشديد الدال من الادعاء مبنياً للفاعل، وإنما عدى بإلى لأنه ضمن معنى الانتماء والانساب والله لا يهدي القوم الظالمين هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها. والمعنى: لا يهدي من اتصف بالظلم، والمذكورون من جملتهم

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ الْإِطْمَاءَ: الإخماد، وأصله في النار، واستعير لما يجرى مجراها من الظهور. والمراد بنور الله القرآن، أى: يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول، أو الإسلام، أو محمد صلى الله عليه وسلم، أو الحجج والدلائل، أو جميع ما ذكر، ومعنى بأفواههم: بأقوالهم الخارجة من أفواههم المتضمنة للطعن والله مُتِمُّ نُورِهِ يَظْهَرُهُ فِي الْآفَاقِ وَإِعْلَانِهِ عَلَى غَيْرِهِ. قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم مُتِمُّ نُورِهِ بِالْإِضَافَةِ وَالْبَاقُونَ بِتَنْوِينِ مَتَمَّ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، و الجملة في محل نصب على الحال. قال ابن عطية: و اللام في «ليطفئوا» لام مؤكدة دخلت على المفعول؛ لأن التقدير: يريدون أن يطفئوا، و أكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدّم، كقولك:

لزيد ضربت، و لرؤيتك قصدت، و قيل: هى لام العلة، و المفعول محذوف، أى: يريدون إبطال القرآن أو دفع الإسلام أو هلاك الرسول ليطفئوا، و قيل: إنها بمعنى أن الناصبة و أنها ناصبة بنفسها. قال الفراء:

العرب تجعل لام كى فى موضع أن فى أراد و أمر، و إليه ذهب الكسائي، و مثل هذا قوله: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ «١» و جملة: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ مستأنفة مقررة لما قبلها، و الهدى: القرآن أو المعجزات، و معنى دين الحق: الملة الحقّة، و هى

(١). النساء: ٢٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٦٤

ملة الإسلام؛ و معنى ليظهره: ليجعله ظاهرا على جميع الأديان، عاليا عليها غالبا لها، و لو كره المشركون ذلك فإنه كائن لا محالة. قال مجاهد: ذلك إذا نزل عيسى لم يكن فى الأرض دين إلا دين الإسلام، و الدين مصدر يعبر به عن الأديان المتعددة، و جواب «لو» فى الموضوعين محذوف، و التقدير: أتمه و أظهره.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: وددنا لو أن الله أخبرنا بأحب الأعمال فنعمل به، فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن أحب الأعمال إيمان بالله لا شك فيه، و جهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان و لم يقرّوا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين و شقّ عليهم أمره، فقال الله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى قوله: كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ قال: هذه الآية فى القتال وحده، و هم قوم كانوا يأتون النبى صلى الله عليه وسلم فيقول الرجل: قاتلت و ضربت بسيفى و لم يفعلوا، فنزلت.

و أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه عنه أيضا قال: قالوا لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لفعلناه، فأخبرهم الله فقال: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُفَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ فَكْرَهُوا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا: كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ قال: مثبت لا يزول ملصق بعضه على بعض. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لى أسماء: أنا محمد، و أنا أحمد، و أنا الحاشر الذى يحشر الله الناس على قدمى، و أنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر، و أنا العاقب:

و العاقب الذى ليس بعده نبى».

[سورة الصف (٦١): الآيات ١٠ الى ١٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّا تَطَائِفُكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيْدِنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)

قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ جعل العمل المذكور بمنزلة التجارة لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها، وذلك بدخولهم الجنة و نجاتهم من النار. قرأ الجمهور: تُنْجِيكُمْ بالتخفيف من الإنجاء. و قرأ الحسن و ابن عامر و أبو حيوه بالتشديد من التنجيه. ثم بين سبحانه هذه التجارة التي دلَّ عليها فقال: تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ و هو خبر في معنى الأمر للإيدان بوجوب الامتثال، فكأنه قد وقع فأخبر بوقوعه، و قدّم ذكر الأموال على الأنفس لأنها

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٦٥

هي التي يبدأ بها في الإنفاق و التجهّز إلى الجهاد. قرأ الجمهور: تُؤْمِنُونَ و قرأ ابن مسعود: «آمنوا و جاهدوا» على الأمر. قال الأـخفش: تؤمنون عطف بيان لتجارة، و الأولى أن تكون الجملة مستأنفة مبيّنة لما قبلها، و الإشارة بقوله: ذَلِكَ إِلَىٰ مَا ذَكَرَ مِنَ الْإِيمَانِ وَ الْجِهَادِ، و هو مبتدأ و خبره خَيْرٌ لَكُمْ أَى: هذا الفعل خير لكم من أموالكم و أنفسكم إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَى: إِنْ كُنْتُمْ مِمَّنْ يَعْلَمُ فَإِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ، لا- إذا كنتم من أهل الجهل فإنكم لا تعلمون ذلك يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ هذا جواب الأمر المدلول عليه بلفظ الخبر، و لهذا جزم. قال الزجاج و المبرد: قوله: تُؤْمِنُونَ في معنى آمنوا، و لذلك جاء يغفر لكم مجزوما. و قال الفراء: يغفر لكم جواب الاستفهام فجعله مجزوما لكونه جواب الاستفهام، و قد غلّظه بعض أهل العلم. قال الزجاج: ليسوا إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم إنما يغفر لهم إذا آمنوا و جاهدوا.

و قال الرازى في توجيه قول الفراء: إِنْ «هل أدلكم» في معنى الأمر عنده، يقال: هل أنت ساكت؟ أَى:

اسكت، و بيانه أن هل بمعنى الاستفهام، ثم يتدرّج إلى أن يصير عرضا و حثا، و الحث كالإغراء، و الإغراء أمر. و قرأ زيد بن عليّ: «تؤمنوا، و تجاهدوا» على إضمار لا- الأمر. و قيل: إِنْ يَغْفِرْ لَكُمْ مجزوم بشرط مقدّر، أَى: إِنْ تَوَمَّنُوا يَغْفِرْ لَكُمْ، و قرأ بعضهم بالإدغام في يغفر لكم، و الأولى ترك الإدغام لأن الراء حرف متكرر فلا- يحسن إدغامه في اللام و يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ قد تقدّم بيان كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات و مساكين طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ أَى: في جنات إقامة ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أَى: ذلك المذكور من المغفرة، و إدخال الجنات الموصوفة بما ذكر هو الفوز الذي لا فوز بعده، و الظفر الذي لا- ظفر يماثله و أُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا، قال الأـخفش و الفراء: «أخرى» معطوفة على «تجارة» فهي في محل خفض، أَى: و هل أدلكم على خصلة أخرى تحبونها في العاجل مع ثواب الآخرة، و قيل: هي في محل رفع، أَى: و لكم خصلة أخرى، و قيل: في محل نصب، أَى: و يعطيكم خصلة أخرى. ثم بين سبحانه هذه الأخرى فقال: نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ أَى: هي نصر من الله لكم، و فتح قريب يفتحه عليكم، و قيل: نصر بدل من أخرى على تقدير كونها في محل رفع، و قيل: التقدير: و لكم نصر و فتح قريب.

قال الكلبي: يعنى النصر على قريش و فتح مكة. و قال عطاء: يريد فتح فارس و الروم وَ بَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ معطوف على محذوف، أَى: قل يا أيها الذين آمنوا و بشر، أو على تؤمنون لأنه في معنى الأمر، و المعنى:

و بشر يا محمد المؤمنين بالنصر و الفتح، أو بشرهم بالنصر في الدنيا و الفتح، و بالجنة في الآخرة، أو و بشرهم بالجنة في الآخرة.

ثم حَضَّ سبحانه المؤمنين على نصرته دينه فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ أَي: دوموا على ما أنتم عليه من نصرته الدين. قرأ ابن كثير و أبو عمرو و نافع أنصارَ الله بالتنوين و ترك الإضافة. و قرأ الباقر بالإضافة، و الرسم يحتمل القراءتين معا، و اختار أبو عبيد قراءة الإضافة لقوله: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ بِالْإِضَافَةِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ أَي انصروا دين الله مثل نصرته الحواريين لما قال لهم عيسى مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ فَقَالُوا: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ وَ الْكَافِ فِي كَمَا قَالَ نَعْتِ مصدر محذوف تقديره: كونوا كونا كما قال، و قيل: الكاف في محل نصب على إضمار الفعل،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٦٦

و قيل: هو كلام محمول على معناه دون لفظه، و المعنى: كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم من أنصاري إلى الله و قوله: إِلَى اللَّهِ قِيلَ: إِلَى بِمَعْنَى مَعَ، أَي مِنْ أَنْصَارِي مَعَ اللَّهِ، وَ قِيلَ التَّقْدِيرُ: مِنْ أَنْصَارِي فِيمَا يَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ. وَ قِيلَ: التَّقْدِيرُ: مِنْ أَنْصَارِي مُتَوَجِّحًا إِلَى نَصْرَةِ اللَّهِ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ. وَ الْحَوَارِيُّونَ: هُمُ أَنْصَارُ الْمَسِيحِ وَ خَلَصَ أَصْحَابُهُ، وَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُمْ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ كَفَرَتْ طَائِفَةٌ أَي آمَنْتَ طَائِفَةٌ بَعِيسَى وَ كَفَرَتْ بِهِ طَائِفَةٌ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمَّا اخْتَلَفُوا بَعْدَ رَفْعِهِ تَفَرَّقُوا وَ تَقَاتَلُوا فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيَّ عَدُوَّهُمْ أَي: قوينَا المحققين منهم على المبطلين فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ أَي: عَالِينَ غَالِبِينَ، وَ قِيلَ الْمَعْنَى: فَأَيَّدْنَا الْآنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْفِرْقَتَيْنِ جَمِيعًا.

و قد أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قالوا: لو كنا نعلم أي الأعمال أحب إلى الله؟ فنزلت: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ فَكُرِهُوا فَنَزَلَتْ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ إِلَى قَوْلِهِ: بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ «١». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة في قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ قَالَ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ بِحَمْدِ اللَّهِ جَاءَهُ سَبْعُونَ رَجُلًا فَبَايَعُوهُ عِنْدَ الْعُقْبَةِ وَ آوَوْهُ وَ نَصَرُوهُ حَتَّى أَظْهَرَ اللَّهُ دِينَهُ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَ ابْنُ سَعْدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي بَكْرٍ بِنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ لِلنَّفَرِ الَّذِينَ لَقَوْهُ بِالْعُقْبَةِ: «أَخْرَجُوا إِلَيَّ اثْنَيْ عَشَرَ مِنْكُمْ يَكُونُونَ كِفْلَاءً عَلَيَّ قَوْمَهُمْ كَمَا كَفَلْتُ الْحَوَارِيُونَ لِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ». وَ أَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ لَبِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ لِلنَّبِيَاءِ: «إِنَّكُمْ كِفْلَاءٌ عَلَيَّ قَوْمِكُمْ كَكِفَالَةِ الْحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَ أَنَا كَفِيلٌ قَوْمِي، قَالُوا: نَعَمْ». وَ أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا قَالَ:

فقوينَا الذين آمنوا. و أخرج ابن أبي حاتم عنه: فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ أُمَّتِهِ عَلَيَّ عَدُوَّهُمْ فَأَصْبَحُوا الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ

(١). الصف: ٢-٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٦٧

## سورة الجمعة

### إشارة

و هي مدينة. قال القرطبي: في قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه، و البيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: نزلت سورة الجمعة بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله.

و أخرج مسلم و أهل السنن عن أبي هريرة: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يقرأ في الجمعة سورة الجمعة و إذا جاءك

الْمُنَافِقُونَ و أخرج مسلم و أهل السنن عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن حبان، و البيهقي في سننه، عن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في صلاة المغرب ليلته الجمعة ب قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ و قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، و كان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة، ليله الجمعة، سورة الجمعة و المنافقون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## [سورة الجمعة (٦٢): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)

مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تَتَفَرَّغُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)

قوله: يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ قد تقدم تفسير هذا في أول سورة الحديد، و ما بعدها من المسبحات الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ قرأ الجمهور بالجرّ في هذه الصفات الأربع على أنها نعت لله، و قيل: على البدل، و الأول أولى. و قرأ أبو وائل بن محارب و أبو العاليه و نصر بن عاصم و رؤبه بالرفع على إضمار مبتدأ. و قرأ الجمهور: الْقُدُّوسِ بضم القاف، و قرأ زيد بن علي بفتحها، و قد تقدم تفسيره. هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ المراد بالأميين العرب، من كان يحسن الكتابه منهم و من لا يحسنها، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب، و الأمي في الأصل الذي لا يكتب و لا يقرأ المكتوب، و كان غالب العرب كذلك، و قد مضى بيان معنى الأمي في سورة البقره، و معنى مِنْهُمْ من أنفسهم و من جنسهم و من جملتهم، و ما كان حي من أحياء العرب إلا و لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهم قرابه، و وجه الامتتان بكونه

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٦٨

منهم أن ذلك أقرب إلى الموافقه، لأن الجنس أميل إلى جنسه و أقرب إليه يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ يعني القرآن مع كونه أميا لا يقرأ و لا يكتب و لا تعلم ذلك من أحد، و الجملة صفة ل «رسولا»، و كذا قوله: وَيُزَكِّيهِمْ قال ابن جريج و مقاتل: أي يطهرهم من دنس الكفر و الذنوب، و قال السدي: يأخذ زكاه أموالهم، و قيل:

يجعلهم أزكيا القلوب بالإيمان وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ هذه صفة ثالثه ل «رسولا»، و المراد بالكتاب:

القرآن، و بالحكمة: السِّيئه، كذا قال الحسن. و قيل: الكتاب: الخط بالقلم، و الحكمة: الفقه في الدين، كذا قال مالك بن أنس «١» و إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ أي: و إن كانوا من قبل بعثته فيهم في شرك و ذهاب عن الحق و آخَرِينَ مِنْهُمْ معطوف على الأميين، أي: بعث في آخرين منهم لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ذلك الوقت، و سيلحقون بهم من بعد، أو هو معطوف على المفعول الأول في «يعلمهم»، أي: و يعلم آخرين، أو على مفعول «يزكيهم» أي: يزكيهم و يزكي آخرين منهم، و المراد بالآخرين من جاء بعد الصحابه إلى يوم القيامة، و قيل: المراد بهم من أسلم من غير العرب. و قال عكرمة:

هم التابعون. و قال مجاهد: هم الناس كلهم، و كذا قال ابن زيد و السدي. و جمله: لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ صفة لآخرين، و الضمير في

«منهم» و «بهم» راجع إلى الأميمين، و هذا يؤيد أن المراد بالآخرين هم من يأتي بعد الصحابة من العرب خاصة إلى يوم القيامة، و هو صَلَّى اللهُ عليه و سَلَّمَ و إن كان مرسلًا إلى جميع الثقلين، فتخصيص العرب ها هنا لقصد الامتتان عليهم، و ذلك لا ينافي عموم الرسالة، و يجوز أن يراد بالآخرين العجم؛ لأنهم و إن لم يكونوا من العرب، فقد صاروا بالإسلام منهم و المسلمون كلهم أمة واحدة، و إن اختلفت أجناسهم وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أَى: بليغ العزة و الحكمة، و الإشارة بقوله: ذَلِكَ إلى ما تقدّم ذكره. و قال الكلبي: يعنى الإسلام. و قال قتادة: يعنى الوحى و النبوة. و قيل: إلحاق العجم بالعرب، و هو مبتدأ و خبره فَضَّلَ اللهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ أَى: يعطيه من يشاء من عباده وَ اللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ الَّذِى لا يساويه فضل و لا يدانيه مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ضَرْبٌ سَبْحَانَهُ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ تَرَكَوا الْعَمَلَ بِالتَّوْرَةِ مَثَلًا فَقَالَ: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ أَى: كَلَّفُوا الْقِيَامَ بِهَا وَ الْعَمَلَ بِهَا فِيهَا ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا أَى:

لم يعملوا بموجبها، و لا أطاعوا ما أمروا به فيها كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَالًا هِىَ جَمْعُ سَفَرٍ، وَ هُوَ الْكِتَابُ الْكَبِيرُ، لِأَنَّهُ يَسْفِرُ عَنِ الْمَعْنَى إِذَا قُرِئَ. قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدرى أسفر على ظهره أم زبيل «٢»؛ فهكذا اليهود. و قال الجرجاني: هو يعنى حملوا من الحمالة بمعنى الكفالة، أَى: ضَمَّنُوا أَحْكَامَ التَّوْرَةِ، وَ قَوْلُهُ: يَحْمِلُ فِي مَحَلِّ نَصَبٍ عَلَى الْحَالِ، أَوْ صِفَةً لِلْحِمَارِ إِذْ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ حِمَارًا مَعِينًا، فَهُوَ فِي حَكْمِ النُّكْرَةِ، كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَ لَقَدْ أَمَرَ عَلَى اللَّثِيمِ يَسْبُنِي فَمَضَيْتُ ثُمَّ قَلْتُ: لَا يَعْنِينِي

(١). فى تفسير القرطبي (١٨ / ٩٢): أن تفسير الكتاب بالخط بالقلم هو قول ابن عباس، و أن تفسير الحكمة بالفقه فى الدين من قول مالك بن أنس.

(٢). «الزبيل»: الزبل و القفّة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٦٩

بَسَسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أَى: بس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، على أن التمييز محذوف، و الفاعل المفسّر به مضمّر، و مثل القوم هو المخصوص بالذمّ، أو مثل القوم فاعل بسس، و المخصوص بالذمّ الموصول بعده على حذف مضاف، أَى: مثل الذين كذبوا، و يجوز أن يكون الموصول صفة للقوم، فيكون فى محل جرّ، و المخصوص بالذمّ محذوف، و التقدير بسس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء وَ اللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ يعنى على العموم، فيدخل فيهم اليهود دخولا أوليا قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ الْمُرَادُ بِالَّذِينَ هَادُوا الَّذِينَ تَهَوَّدُوا، وَ ذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ ادَّعَوْا الْفَضِيلَةَ عَلَى النَّاسِ، وَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ، كَمَا فِي قَوْلِهِمْ: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ «١» وَ قَوْلِهِمْ:

لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى «٢» فَأَمَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ لِمَا ادَّعَوْا هَذِهِ الدَّعْوَى الْبَاطِلَةَ: فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ لِتَصِيرُوا إِلَى مَا تَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْكِرَامَةِ فِي زَعْمِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي هَذَا الزَّعْمِ، فَإِنْ مِنْ أَعْلَمَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَحَبَّ الْخُلُوصِ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ. قرأ الجمهور:

فَتَمَنَّوْا بضم الواو، و قرأ ابن السميّق بفتحها تخفيفًا، و حكى الكسائي إبدال الواو همزة. ثم أخبر الله سبحانه أنهم لا يفعلون ذلك أبدا بسبب ذنوبهم، فقال: وَ لَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَيْدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ أَى: بسبب ما عملوا من الكفر و المعاصى و التحريف و التبديل وَ اللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ يعنى على العموم، و هؤلاء اليهود داخلون فيهم دخولا أوليا. ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم بأن الفرار من الموت لا ينجيهم و أنه نازل بهم، فقال: قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ لَا مَحَالَةَ، وَ نَازَلَ بِكُمْ بِلَا شَكٍّ، وَ الْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: فَإِنَّهُ دَاخِلَةٌ لِتُضْمِنَ الْأَسْمَ مَعْنَى الشَّرْطِ، قَالَ الزَّجَّاجُ: لَا يَقَالُ إِنْ زَيْدًا فَمَنْطَلِقُ، وَ هَا هُنَا قَالَ: «فإنه ملاقيكم»



لما فى معنى «الذى» من الشرط و الجزاء، أى: إن فررتم منه فإنه ملاقيكم، و يكون مبالغه فى الدلاله على أنه لا ينفع الفرار منه. و قيل: إنها مزیده، و قيل: إن الكلام قد تم عند قوله: تَفَرُّونَ مِنْهُ ثم ابتداء فقال: فَإِنَّهُ مَلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ وَ ذلك يوم القيامة فَيَبْتُلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من الأعمال القبيحة و يجازيكم عليها.

و قد أخرج ابن المنذر و الحاكم، و البيهقى فى الشعب، عن عطاء بن السائب عن ميسره أن هذه الآية مكتوبه فى التوراه بسبعمائته آيه يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فى الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ أَوَّلِ سُورَةِ الْجُمُعَةِ. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: «إنا أمة أُمِيه لا نكتب و لا نحسب». و أخرج البخارى و غيره عن أبى هريره قال: «كنا جلوسا عند النبى صلى الله عليه و سلم حين نزلت سورة الجمعة فتلاها، فلما بلغ: وَ آخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ قال له رجل: يا رسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فوضع يده على سلمان الفارسى و قال: وَ الذى نفسى بيده لو كان الإيمان بالثريا لئله رجال من هؤلاء». و أخرجه أيضا مسلم من حديثه مرفوعا بلفظ: «لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجال

(١). المائدة: ١٨.

(٢). البقرة: ١١١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٧٠

من فارس، أو قال من أبناء فارس». و أخرج سعيد بن منصور و ابن مردويه عن قيس بن سعد بن عباده أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «لو كان الإيمان بالثريا لئله ناس من أهل فارس». و أخرج الطبرانى و ابن مردويه و الضياء عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن فى أصلاب أصلاب رجال من أصحابى رجالا و نساء من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب، ثم قرأ: وَ آخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ قال: الذين.

و أخرج عبد بن حميد من طريق الكلبي عن أبى صالح عنه: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا قال: اليهود. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: أسفاراً قال: كتباً.

## [سورة الجمعة (٦٢): الآيات ٩ الى ١١]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَ تَرَكَوْكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَ مِنَ التِّجَارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)

قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أى: وقع النداء لها، و المراد به الأذان إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة، لأنه لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم نداء سواه، و قوله: مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ بيان لإذنا و تفسير لها. و قال أبو البقاء: إن «من» بمعنى «فى»، كما فى قوله: أَرُونِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ \* (١) أى فى الأرض. قرأ الجمهور: «الجمعة» بضم الميم. و قرأ عبد الله بن الزبير و الأعمش بإسكانها تخفيفا. و هما لغتان، و جمعها جمع و جمعات. قال الفراء: يقال الجمعة بسكون الميم و بفتحها و بضمها. و هى صفة لليوم، أى: يوم يجمع الناس، قال الفراء أيضا و أبو عبيد: و التخفيف أخف و أقيس، نحو: غرفة و غرف، و طرفه و طرف، و حجرة و حجر. و فتح الميم لغة عقيل. و قيل: إنما سميت جمعة لأن الله جمع فيها خلق آدم، و قيل: لأن الله فرغ فيها من خلق كل شىء فاجتمعت فيها جميع المخلوقات، و قيل:



لاجتماع الناس فيها للصلاة فَاسْتَبَعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ قَالَ عطاء: يعنى الذهاب و المشى إلى الصلاة. و قال الفراء: المضى و السعى و الذهاب فى معنى واحد، و يدلّ على ذلك قراءة عمر بن الخطاب و ابن مسعود فامضوا إلى ذكر الله و قيل: المراد القصد. قال الحسن: و الله ما هو بسعى على الأقدام، و لكنه قصد بالقلوب و النيات، و قيل: هو العمل كقوله: مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ «٢» و قوله:

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى «٣» و قوله: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى «٤» قال القرطبي: و هذا قول

(١). فاطر: ٤٠ و الأحقاف: ٤.

(٢). الإسراء: ١٩.

(٣). الليل: ٨٤.

(٤). النجم: ٣٩.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٧١ سعى بعدهم قوم لكى يدركوهم «١» و قال أيضا:

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعد ما تبزل ما بين العشيرة بالدم «٢»

أى فاعملوا على المضى إلى ذكر الله، و اشتغلوا بأسبابه من الغسل و الوضوء و التوجه إليه، و يؤيد هذا القول قول الشاعر:  
أسعى على جلّ بنى مالك كل امرئ فى شأنه ساعى

وَ ذَرُّوا الْبَيْعَ أَى: اتركوا المعاملة به و يلحق به سائر المعاملات. قال الحسن: إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحلّ الشراء و البيع، و الإشارة بقوله: ذَلِكُمْ إِلَى السَّعَى إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ و ترك البيع، و هو مبتدأ و خبره خَيْرٌ لَكُمْ أَى: خير لكم من فعل البيع و ترك السعى، لما فى الامتثال من الأجر و الجزاء. و فى عدمه من عدم ذلك إذا لم يكن موجبا للعقوبة إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَى: إن كنتم من أهل العلم، فإنه لا يخفى عليكم أن ذلكم خير لكم فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ أَى: إذا فعلتم الصلاة و أدبتموها و فرغتم منها فَانْتَشَرُوا فى الْأَرْضِ للتجارة و التصرف فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أَى: من رزقه الذى يتفضل به على عباده بما يحصل لهم من الأرباح فى المعاملات و المكاسب، و قيل: المراد به ابتغاء ما عند الله من الأجر بعمل الطاعات و اجتناب ما لا يحلّ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا أَى: ذكرا كثيرا بالشكر له على ما هداكم إليه من الخير الأخرى و الدينوى، و كذا اذكروه بما يقربكم إليه من الأذكار، كالحمد و التسبيح و التكبير و الاستغفار و نحو ذلك لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أَى: كى تفوزوا بخير الدارين و تظفروا به وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَ تَرَكَوْكَ قَائِمًا سبب نزول هذه الآية أنه كان بأهل المدينة فاقه و حاجه، فأقبلت غير «٣» من الشام و النبى صلى الله عليه و سلم يخطب يوم الجمعة، فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا فى المسجد. و معنى: «انفضوا إليها» تفرقوا خارجين إليها. و قال المبرد: مالوا إليها، و الضمير للتجارة، و خصت بإرجاع الضمير إليها دون اللهو لأنها كانت أهم عندهم، و قيل: التقدير: و إذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو لهوا انفضوا إليه، فحذف الثانى لدلالة الأول عليه كما فى قول الشاعر:

نحن بما عندنا و أنت بما عندك راض و الرأى مختلف

و قيل: إنه اقتصر على ضمير التجارة؛ لأن الانفضاض إليها إذا كان مذموما مع الحاجة إليها فكيف

(١). و عجزه: فلم يفعلوا و لم يلاموا و لم يألوا.

(٢). «غيظ بن مرة»: حى من غطفان بن سعد. «تبزل بالدم»: أى تشقق.

(٣). «الغير»: الإبل تحمل الطعام، ثم غلب على كل قافلة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٧٢

بالانفصاض إلى اللهو، وقيل غير ذلك: وَ تَرَكَكَ قَائِمًا أَي: على المنبر، ثم أمره الله سبحانه أن يخبرهم بأن العمل للآخرة خير من العمل للدنيا، فقال: قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ يَعْنَى مِنَ الْجَزَاءِ الْعَظِيمِ وَ هُوَ الْجَنَّةُ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التَّجَارَةِ الَّذِينَ ذَهَبْتُمْ إِلَيْهَا وَ تَرَكْتُمْ الْبَقَاءَ فِي الْمَسْجِدِ وَ سَمَاعَ خُطْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ لِأَجْلِهَا وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ فَمَنْهُ ااطلبوا الرزق، و إليه توسلوا بعمل الطاعة، فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق و أعظم ما يجلبه.

وقد أخرج سعيد بن منصور و ابن مردويه عن أبي هريرة قال: «قلت: يا رسول الله لأى شىء سمي يوم الجمعة؟ قال: لأن فيه جمعت طينة أبيكم آدم، و فيه الصعقة و البعثة، و فى آخره ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها بدعوة استجاب له». و أخرج سعيد بن منصور و أحمد و النسائي و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه عن سلمان قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «أتدرى ما يوم الجمعة؟ قلت: الله و رسوله أعلم، قالها ثلاث مرات، ثم قال فى الثالثة: هو اليوم الذى جمع الله فيه أبائكم آدم، أفلا أحدثكم عن يوم الجمعة» الحديث. و أخرج أحمد و مسلم و الترمذى و ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم و فيه أدخل الجنة، و فيه أخرج منها، و لا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة» و فى الباب أحاديث مصرحة بأنه خلق فيه آدم.

و ورد فى فضل يوم الجمعة أحاديث كثيرة، و كذلك فى فضل صلاة الجمعة و عظيم أجرها، و فى الساعة التى فيها، و أنه يستجاب الدعاء فيها، و قد أوضحت ذلك فى شرحى للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره.

و أخرج أبو عبيد فى فضائله، و سعيد بن منصور و ابن أبي شيبة و ابن المنذر، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن خرشة بن الحر قال: رأى معى عمر بن الخطاب لوحا مكتوبا فيه: إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ فَقَالَ: من أملى عليك هذا؟ قلت: أبى بن كعب، قال: إِنْ آيَا أقرأنا للمسنوخ أقرأها:

«فامضوا إلى ذكر الله» و روى هؤلاء ما عدا أبا عبيد عن ابن عمر قال: لقد توفى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ و ما نقرأ هذه الآية التى فى سورة الجمعة إلا «فامضوا إلى ذكر الله»، و أخرجه عنه أيضا الشافعى فى الأم، و عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن أبي حاتم. و أخرجوا كلهم أيضا عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: «فامضوا إلى ذكر الله» قال: و لو كان فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائى. و أخرج عبد بن حميد عن أبى بن كعب أنه قرأ كذلك. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ قَالَ: فامضوا. و أخرج عبد ابن حميد عنه أن السعى: العمل. و أخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب: أن رجلين من أصحاب النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ كانا يختلفان فى تجارتها إلى الشام، فربما قدما يوم الجمعة و رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يخطب فيدعونه و يقومون، فنزلت الآية: وَ ذَرُّوا بَيْعَ فحرم عليهم ما كان قبل ذلك. و أخرج ابن جرير عن أنس قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فى قوله: فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ قَالَ: ليس لطلب دنيا، و لكن عيادة مريض، و حضور جنازة، و زيارة أخ فى الله». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: لم تؤمروا بشىء من طلب الدنيا إنما هو عيادة مريض و حضور جنازة و زيارة أخ فى الله. و أخرج

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٧٣

البخارى و مسلم و غيرهما عن جابر بن عبد الله قال: بينما النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يخطب يوم الجمعة قائما إذ قدمت غير المدينة، فابتدرها أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلا أنا فيهم و أبو بكر و عمر، فأنزل الله: وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى الآية قال: جاءت غير عبد

الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ تَحْمِلُ الطَّعَامَ، فَخَرَجُوا مِنَ الْجُمُعَةِ بَعْضُهُمْ يَرِيدُ أَنْ يَشْتَرِيَ، وَبَعْضُهُمْ يَرِيدُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى دَحِيئِهِ، وَتَرَكَوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا عَلَى الْمَنْبَرِ، وَبَقِيَ فِي الْمَسْجِدِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا وَسَعِ نِسْوَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ خَرَجُوا كُلُّهُمْ لَأَضْطَرُّمُ الْمَسْجِدَ عَلَيْهِمْ نَارًا. وَفِي الْبَابِ رَوَايَاتٌ مُتَضَمِّنَةٌ لِهَذَا الْمَعْنَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ. فَتَحَ الْقَدِيرُ، ج ٥، ص: ٢٧٤

## سورة المنافقون

### إشارة

وهي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة المنافقين بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج سعيد بن منصور والطبراني في الأوسط، قال السيوطي: بسند حسن، عن أبي هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة فيحرض بها المؤمنين، وفي الثانية بسورة المنافقين فيقرع بها المنافقين. وأخرج البزار والطبراني عن أبي عتبة الخولاني مرفوعاً نحوه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة المنافقون (٦٣): الآيات ١ إلى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصِيدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمِعَ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خُشْبٌ مِسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا لَوًّا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لِنَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٨)

قوله: إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ أَي: إِذَا وَصَلُوا إِلَيْكَ وَحَضَرُوا مَجْلِسَكَ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ قَالُوا، وَقِيلَ:

مَحْذُوفٌ، وَقَالُوا: حَالٌ، وَالتَّقْدِيرُ: جَاءُوكَ قَائِلِينَ كَيْتَ وَكَيْتَ فَلَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ، وَقِيلَ: الْجَوَابُ: اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً وَهُوَ بَعِيدٌ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ أَكْدُوا شَهَادَتَهُمْ بَيِّنًا، وَاللَّامُ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّهَا صَادِرَةٌ مِنْ صَمِيمِ قُلُوبِهِمْ مَعَ خُلُوصِ اعْتِقَادِهِمْ، وَالْمُرَادُ بِالْمُنَافِقِينَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَأَصْحَابَهُ، وَمَعْنَى نَشْهَدُ: نَحْلِفُ، فَهُوَ يَجْرِي مَجْرَى الْقَسْمِ، وَلِذَلِكَ يَتَلَقَى بِمَا يَتَلَقَى بِهِ الْقَسْمُ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ قَيْسِ بْنِ ذَرِيحٍ:

وَ أَشْهَدُ عِنْدَ اللَّهِ أَنِّي أَحْبَبْتُ هَذَا لَهَا عِنْدِي فَمَا عِنْدَهَا لِيَا

وَمِثْلُ نَشْهَدُ نَعْلَمُ، فَإِنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى الْقَسْمِ، كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ لِتَأْتِيَنَّ مَيِّتِي إِنْ الْمَنِيَا لَا تَطِيْشُ سَهَامِيَا

وجمله وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ معترضه مقرره لمضمون ما قبلها، وهو ما أظهره من الشهادة، وإن كانت بواطنهم على خلاف ذلك وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ أى فى شهادتهم التى زعموا أنها من صميم القلب و خلوص الاعتقاد؛ لا إلى منطوق كلامهم، و هو الشهادة بالرسالة، فإنه حق، و المعنى:

و الله يشهد إنهم لكاذبون فيما تضمنه كلامهم من التأكيد الدال على أن شهادتهم بذلك صادرة عن خلوص اعتقاد و طمأنينة قلب و موافقة باطن لظاهر اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً أى: جعلوا حلفهم الذى حلفوا لكم به إنهم لمنكم و إن محمدا لرسول الله و قايه تقيهم منكم، و ستره يستترون بها من القتل و الأسر، و الجملة مستأنفة لبيان كذبهم و حلفهم عليه، و قد تقدّم قول من قال إنها جواب الشرط. قرأ الجمهور: «أيمانهم» بفتح الهمزة، و قرأ الحسن بكسرها، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة المجادلة فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى: منعوا الناس عن الإيمان و الجهاد و أعمال الطاعة بسبب ما يصدر منهم من التشكيك و القدح فى النبوة. هذا معنى الصّدِّ الذى بمعنى الصِّرف، و يجوز أن يكون من الصدود، أى: أعرضوا عن الدخول فى سبيل الله و إقامة أحكامه إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ من النفاق و الصّدِّ، و فى ساء معنى التعجب و الإشارة بقوله:

ذَلِكَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ مِنَ الْكُذْبِ وَ الصِّدِّ وَ قِيحِ الْأَعْمَالِ، وَ هُوَ مُبْتَدَأٌ وَ خَبْرُهُ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا أى:

بسبب أنهم آمنوا فى الظاهر نفاقاً ثُمَّ كَفَرُوا فى الباطن، أو أظهروا الإيمان للمؤمنين و أظهروا الكفر للكافرين، و هذا صريح فى كفر المنافقين، و قيل: نزلت الآية فى قوم آمنوا ثم ارتدوا. و الأوّل أولى كما يفيد السياق فَطُغِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أى: ختم عليها بسبب كفرهم. قرأ الجمهور: «فطبع» على البناء للمفعول، و القائم مقام الفاعل الجار و المجرور بعده، و قرأ زيد بن على على البناء للفاعل، و الفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه، و يدل على هذه قراءة الأعمش «فطبع الله على قلوبهم» فَهَمْ لَا يَفْقَهُونَ ما فيه من صلاحهم و رشادهم و هو الإيمان وَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ أى: هيئاتهم و مناظرهم، يعنى أن لهم أجساما تعجب من يراها لما فيها من النضارة و الرونق وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ فتحسب أن قولهم حق و صدق لفصاحتهم و ذلاقه ألسنتهم، و قد كان عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين فصيحاً جسيماً جميلاً، و كان يحضر مجلس النبى صلى الله عليه و سلم، فإذا قال سمع النبى صلى الله عليه و سلم مقالته. قال الكلبي: المراد عبد الله بن أبيّ، و جدّ بن قيس، و معتب ابن قشير، كانت لهم أجسام و منظر و فصاحة، و الخطاب للنبي صلى الله عليه و سلم، و قيل: لكلّ من يصلح له، و يدل على قراءة من قرأ «يسمع» على البناء للمفعول، و جملة: كَانَتْهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ مستأنفة لتقرير ما تقدّم من أن أجسامهم تعجب الرائي و تروق الناظر، و يجوز أن تكون فى محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، شبهوا فى جلوسهم فى مجالس رسول الله صلى الله عليه و سلم مستندين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط التى لا تفهم و لا تعلم، و هم كذلك لخلوّهم عن الفهم النافع و العلم الذى ينتفع به صاحبه، قال الزجاج: وصفهم بتمام الصور، ثم أعلم أنهم فى ترك الفهم و الاستبصار بمنزلة الخشب. قرأ الجمهور: «خشب» بضمّتين، و قرأ أبو عمرو و الكسائي و قبله بإسكان الشين، و بها قرأ البراء بن عازب، و اختارها أبو عبيد؛ لأن واحدها خشبة كبدنة و بدن، و اختار القراءة الأولى أبو حاتم. و قرأ سعيد بن جبير و سعيد بن المسيب بفتحيتين، و معنى مسندة

أنها أسندت إلى غيرها، من قولهم: أسندت كذا إلى كذا، و التشديد للتكثير. ثم عابهم الله سبحانه بالجبن فقال: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ أى: يحسبون كل صيحة يسمعونها واقعة عليهم، نازلة بهم، لفرط جنهم و رعب قلوبهم، و فى المفعول الثانى للحسبان و جهان: أحدهما أنه عليهم، و يكون قوله: هُمُ الْعُدُوُّ جملة مستأنفة لبيان أنهم الكاملون فى العداوة لكونهم يظهرون غير ما يبطنون، و الوجه الثانى أن المفعول الثانى للحسبان هو قوله: هُمُ الْعُدُوُّ، و يكون قوله: عَلَيْهِمْ متعلقاً بصيحة، و إنما جاء بضمير

الجماعة باعتبار الخير، و كان حقه أن يقال: هو العدو، و الوجه الأوّل أولى. قال مقاتل و السدي: أى: إذا نادى مناد فى العسكر، أو انفلتت دابه، أو أنشدت ضالّة، ظنوا أنهم المرادون لما فى قلوبهم من الرعب، و من هذا قول الشاعر (١):

ما زلت تحسب كل شىء بعدهم خيلاً تكثر عليهم و رجالاً

و قيل: كان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم، و يبيح دماءهم و أموالهم. ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يأخذ حذره منهم فقال: فَأَخَذَ رُؤُسَهُمْ أَنْ يَتِمَكَّنُوا مِنْ فِرْسِهِ مِنْكَ، أو يطلعوا على شىء من أسرارك لأنهم عيون لأعدائك من الكفار. ثم دعا عليهم بقوله: قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ أى: لعنهم الله، و قد تقول العرب هذه الكلمة على طريقة التعجب، كقولهم: قاتله الله من شاعر، أو ما أشعره، و ليس بمراد هنا، بل المراد ذمهم و توبيخهم، و هو طلب من الله سبحانه طلبه من ذاته عزّ و جلّ أن يلعنهم و يخزيهم، أو هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا ذلك؛ و معنى أَنَّى يُؤْفَكُونَ كيف يصرفون عن الحق و يميلون عنه إلى الكفر. قال قتادة: معناه يعدلون عن الحق. و قال الحسن: معناه يصرفون عن الرشد و إذا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ أى: إذا قال لهم القائل من المؤمنين: قد نزل فيكم ما نزل من القرآن، فتوبوا إلى الله و رسوله، و تعالوا يستغفر لكم رسول الله لَوَا رُؤُسَهُمْ أى: حرّكوها استهزاء بذلك. قال مقاتل: عطفوا رؤوسهم رغبة عن الاستغفار. قرأ الجمهور: «لَوَا» بالتشديد. و قرأ نافع بالتخفيف، و اختار القراءة الأولى أبو عبيد و رأيتهم يصدّون أى: يعرضون عن قول من قال لهم: تعالوا يستغفر لكم رسول الله، أو يعرضون عن رسول الله صلى الله عليه و سلّم، و جملة: وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ فى محل نصب على الحال من فاعل الحال الأولى، و يه يصدّون؛ لأن الرؤية بصرية فيصدّون فى محل نصب على الحال، و المعنى:

و رأيتهم صادين مستكبرين سيّءاء عليهم أسدّ تغفرت لهم أم لم تسيّ تغفرو لهم أى: الاستغفار و عدمه سواء لا- ينفعهم ذلك؛ لإصرارهم على النفاق و استمرارهم على الكفر. قرأ الجمهور: «أستغفرت» بهمزة مفتوحة من غير مدّ، و حذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة أم عليها. و قرأ يزيد بن القعقاع بهمزة ثم ألف لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ أى: ما داموا على النفاق إنّ الله لا- يهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ أى: الكاملين فى الخروج عن الطاعة و الانهماك فى معاصى الله، و يدخل فيهم المنافقون دخولا أولياً. ثم ذكر سبحانه بعض قبائحهم فقال:

(١). هو الأخطل.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٧٧

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُسُوا أى: حتّى يتفرقوا عنه، يعنون بذلك فقراء المهاجرين، و الجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل لفسقهم، أو لعدم مغفرة الله لهم. قرأ الجمهور:

«ينفصوا» من الانفصاض، و هو التفرّق، و قرأ الفضل بن عيسى الرقاشى «ينفصوا» من أنفض القوم؛ إذا فנית أزوادهم، يقال: أنفض الرجل وعاءه من الزاد فانفضّ. ثم أخبر سبحانه بسعة ملكه فقال: وَ لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أى: إنه هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين؛ لأن خزائن الرزق له فيعطى من شاء ما شاء و يمنع من شاء ما شاء و لكنّ المنافقين لا يفقهون ذلك و لا يعلمون أن خزائن الأرزاق بيد الله عزّ و جلّ و أنه الباسط القابض المعطى المانع. ثم ذكر سبحانه مقالة شعاء قالوها فقال: يَقُولُونَ لِنَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْمَاعِزُ مِنْهَا الْأَذَلَّ الْقَائِلَ لِهَذِهِ الْمَقَالَةُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بن أبى رأس المنافقين، و عنى بالأعزّ نفسه و من معه، و بالأذلّ رسول الله صلى الله عليه و سلّم و من معه، و مراده بالرجوع رجوعهم من تلك الغزوة، و إنما أسند القول إلى المنافقين مع كون القائل هو فرد من أفرادهم، و هو عبد الله بن أبى، لكونه كان رئيسهم و صاحب أمرهم، و هم راضون بما يقوله سامعون

له مطيعون. ثم ردّ الله سبحانه على قائل تلك المقالة فقال: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَى: القوّة و الغلبه لله وحده و لمن أفاضها عليه من رسله و صالحى عباده لا غيرهم.

اللهم كما جعلت العزّة للمؤمنين على المنافقين فاجعل العزّة للعادلين من عبادك، و أنزل الذلّة على الجائرين الظالمين وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا- يَعْلَمُونَ بما فيه النفع فيفعلونه، و بما فيه الضرر فيجتنبونه، بل هم كالأنعام لفرط جهلهم و مزيد حيرتهم و الطبع على قلوبهم.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن زيد بن أرقم قال: «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم فى سفر فأصاب الناس شدّة، فقال عبد الله بن أبى لأصحابه: لا- تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِهِ، و قال: لَيْسَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ فَأَتَيْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَأَخْبَرْتَهُ بِذَلِكَ فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فَسَأَلَهُ، فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ مَا فَعَلَ، فَقَالُوا: كَذَبَ زَيْدُ رَسُولِ اللَّهِ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوا شَدَّةً، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقِي فِي إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ فَدَعَاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ فَلَوْأَوْ رَأَوْسَهُمْ، وَ هُوَ قَوْلُهُ: كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مَسِينَدَةٌ قَالَ: كَانُوا رَجَالًا أَجْمَلُ شَيْءٍ. وَ أَخْرَجَهُ عَنْهُ بِأُطُولٍ مِنْ هَذَا ابْنُ سَعْدٍ وَ عَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَ التِّرْمِذِيُّ وَ صَحَّحَهُ، وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ الطَّبْرَانِيُّ، وَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ، وَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَ الْبَيْهَقِيُّ.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إنما سمّاهم الله منافقين لأنهم كتموا الشرك و أظهروا الإيمان. و أخرج ابن المنذر عنه اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً قَالَ: حَلَفَهُمْ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ اجْتَنَبُوا بِأَيْمَانِهِمْ مِنَ الْقَتْلِ وَ الْحَرْبِ.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مَسِينَدَةٌ قَالَ: نَخْلٌ قِيَامٌ. و أخرج ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عنه أيضا، قال: نزلت هذه الآية هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا فِي عَسِيفٍ (١) لعمر بن الخطاب. و أخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم و ابن مسعود أنهما قرءا:

(١). «العسيف»: الأجير المستهان به.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٧٨

لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن جابر ابن عبد الله قال: «كنا مع النبى صلى الله عليه و سلم فى غزاه، قال سفيان: يرون أنها غزوة بنى المصطلق فكسع (١) رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال المهاجرى: يا للمهاجرين، و قال الأنصارى: يا للأنصار، فسمع ذلك النبى صلى الله عليه و سلم فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار، فقال النبى صلى الله عليه و سلم: «دعوا فإنها منتنة»، فسمع ذلك عبد الله بن أبى فقال: و قد فعلوها، و الله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه و سلم، فقام عمر فقال: يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبى صلى الله عليه و سلم: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه» زاد الترمذى:

«فقال له ابنه عبد الله، و الله لا تنفقت (٢) حتى تقرّ أنك الذليل، و رسول الله العزيز، ففعل.»

### [سورة المنافقون (٦٣): الآيات ٩ الى ١١]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا- تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَ لَا- أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَ أَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لَا- أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَحْسَنِ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَ لَنْ

يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)

لما ذكر سبحانه قبائح المنافقين رجع إلى خطاب المؤمنين مرغباً لهم في ذكره فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ فحذرهم عن أخلاق المنافقين الذين ألتهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله، ومعنى لا- تلهكم: لا تشغلکم، والمراد بالذكر فرائض الإسلام، قاله الحسن. وقال الضحاک:

الصلوات الخمس. وقيل: قراءة القرآن، وقيل: هو خطاب للمنافقين، و وصفهم بالإيمان لكونهم آمنوا ظاهراً، والأول أولى وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ أَى: يلهى بالدنيا عن الدين فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ أَى:

الکاملون في الخسران وَ أَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ الظاهر أن المراد الإنفاق في الخير على عمومه، و من للتبعض، أَى: أنفقوا بعض ما رزقناكم في سبيل الخير، وقيل: المراد الزكاة المفروضة مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ بأن تنزل به أسبابه و يشاهد حضور علاماته، و قدّم المفعول على الفاعل للاهتمام فيقول رَبِّ لَوْ لَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ أَى: يقول عند نزول ما نزل به منادياً لربه هلا- أمهلتني و أخرت موتي إلى أجل قريب، أَى: أمد قصير فَأَصْدَقَ أَى: فأصدق بمالي وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ قرأ الجمهور: «فأصدق» بإدغام التاء في الصاد، و انتصابه على أنه جواب التمني، و قيل: إن «لا» في لو لا زائدة، و الأصل: لو أخرتني.

و قرأ أبى و ابن مسعود و سعيد بن جبیر «فأصدق» بدون إدغام على الأصل. و قرأ الجمهور: «و أكن» بالجزم على محل فأصدق، كأنه قيل: إن أخرتني أصدق و أكن: قال الزجاج: معناه هلا أخرتني، و جزم

(١). «كسع»: ضرب عجيزته و دبره، بيد أو رجل أو سيف، أو غيره.

(٢). «تنفلت»: أى لا ترجع.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٧٩

«أكن» على موضع فأصدق لأنه على معنى إن أخرتني أصدق و أكن. و كذا قال أبو علي الفارسي و ابن عطية و غيرهم. و قال سيبويه حاكياً عن الخليل: إنه جزم على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني، و جعل سيبويه هذا نظير قول زهير: بدا لي أنني لست مدرک ما مضى و لا سابق شيئاً «١» إذا كان جائياً

فخفض «و لا سابق» عطفاً على «مدرک» الذي هو خبر ليس على توهم زيادة الباء فيه. و قرأ أبو عمرو و ابن محيصة و مجاهد «و أكون» بالنصب عطفاً على «فأصدق»، و وجهها واضح. و لكن قال أبو عبيد:

رأيت في مصحف عثمان «و أكن» بغير واو، و قرأ عبيد بن عمير: «و أكون» بالرفع على الاستئناف، أَى:

و أنا أكون. قال الضحاک: لا ينزل بأحد الموت لم يحج و لم يؤدّ زكاة إلا سأل الرجعة، و قرأ هذه الآية؛ ثم أجاب الله سبحانه عن هذا المتمنى فقال: وَ لَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا أَى: إذا حضر أجلها و انقضى عمرها وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ لا يخفى عليه شيء منه، فهو مجازيكم بأعمالكم. قرأ الجمهور:

«تَعْمَلُونَ» بالفوقية على الخطاب، و قرأ أبو بكر عن عاصم و السلمى بالتحتية على الخبر.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ في قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ الْآيَةُ قال: هم عباد من أمتي الصالحون منهم لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر الله، و عن الصلوات الخمس المفروضة.

و أخرج عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «من كان له مال يبلغه حج بيت الله، أو تجب عليه فيه الزكاة، فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابن عباس اتق الله، فإنما يسأل الرجعة الكافر، فقال: سأتلوا عليكم بذلك قرآنا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى

آخر السورة». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فَأَصْدَقَ وَ أَكْرَمَ مِنَ الصَّالِحِينَ قال: أحج.

(١). في الديوان ص (٢٨٧): و لا سابقى شىء.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٨٠

## سورة التغابن

### إشارة

و هي مدينة في قول الأكثر. و قال الضحاك: هي مكية. و قال الكلبي: هي مدينة و مكية. و أخرج ابن الضريس و ابن مردويه، و البيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، و أخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بمكة إلا آيات من آخرها نزلن بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جفاء أهله و ولده، فَأَنْزَلَ اللهُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ (١). و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير عن عطاء بن يسار نحوه. و أخرج ابن حبان في «الضعفاء»، و الطبراني و ابن مردويه و ابن عساكر عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من مولود يولد إلّا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن» قال ابن كثير: و هو غريب جدًا، بل منكر. و أخرج البخاري في تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال: ما من مولود يولد إلّا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من أول سورة التغابن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة التغابن (٦٤): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)

قوله: يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَي: ينزهه سبحانه جميع مخلوقاته التي في سماواته و أرضه عن كل نقص و عيب له الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ يختص به ليس لغيره منهما شىء، و ما كان لعباده منهما فهو من فيضه و راجع إليه وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه شىء هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ أَي: فبعضكم كافر و بعضكم مؤمن. قال الضحاك: فمنكم كافر في السر مؤمن في العلانية كالمنافق، و منكم مؤمن في السر كافر في العلانية كعمار بن ياسر و نحوه ممن أكره على الكفر. و قال عطاء: فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب، و منكم مؤمن بالله كافر بالكواكب. قال الزجاج: إن الله خلق الكافر، و كفره فعل له و كسب، مع أن الله خالق الكفر. و خلق المؤمن و إيمانه فعل له و كسب، مع أن



الله خالق الإيمان. و الكافر يكفر و يختار الكفر بعد خلق الله إياه؛ لأن الله تعالى قدر ذلك عليه و علمه منه؛ لأن وجود خلاف المقدور عجز، و وجود خلاف المعلوم جهل. قال القرطبي: و هذا أحسن الأقوال و هو العذبي عليه جمهور الأمة، و قدم الكافر على المؤمن لأنه الأغلب عند نزول القرآن و الله بما تعملون بصير لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيكم بأعمالكم. ثم لما ذكر سبحانه خلق العالم الصغير أتبعه بخلق العالم الكبير فقال: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بِالْحَقِّ أَيْ: بالحكمة البالغة. و قيل: خلق ذلك خلقا يقينا لا-ريب فيه، و قيل: الباء بمعنى اللام، أَيْ: خلق ذلك لإظهار الحق، و هو أن يجزي المحسن بإحسانه و المسيء بإساءته. ثم رجع سبحانه إلى خلق العالم الصغير فقال:

وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ قِيل: المراد آدم، خلقه بيده كرامة له، كذا قال مقاتل، و قيل: المراد جميع الخلائق، و هو الظاهر، أَيْ: أنه سبحانه خلقهم في أكمل صورة و أحسن تقويم و أجمل شكل.

و التصوير: التخطيط و التشكيل. قرأ الجمهور: فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ بضم الصاد، و قرأ زيد بن علي و الأعمش و أبو زيد بكسرها. وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، لا إلى غيره. يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لا تخفى عليه من ذلك خافية وَ يَعْلَمُ مَا تُسْتَرُونَ وَ مَا تُغْلِبُونَ أَيْ: ما تخفونه و ما تظهرونه، و التصريح به مع اندراجه فيما قبله لمزيد التأكيد في الوعد و الوعيد وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ هذه الجملة مقررة لما قبلها من شمول علمه لكل معلوم، و هي تذييلية أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ وَ هُمْ كَفَّارُ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ كقوم نوح و عاد و ثمود، و الخطاب لكفار العرب فذاقوا وبال أمرهم بسبب كفرهم، و الوبال: الثقل و الشدة، و المراد بأمرهم هنا ما وقع منهم من الكفر و المعاصي، و بالوبال ما أصيبوا به من عذاب الدنيا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ وَ هُوَ عَذَابُ النَّارِ؛ و الإشارة بقوله: ذَلِكْ إِلَى ما ذكر من العذاب في الدارين، و هو مبتدأ و خبره بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أَيْ: بسبب أنها كانت تأتيهم الرسل المرسله إليهم بالمعجزات الظاهرة فقالوا أ بَشَرٌ يَهْدُونَنَا أَيْ: قال كل قوم منهم لرسولهم هذا القول منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر، متعجبين من ذلك، و أراد بالبشر الجنس، و لهذا قال يهدوننا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا أَيْ: كفروا بالرسول و بما جاءوا به، و أعرضوا عنهم، و لم يتدبروا فيما جاءوا به، و قيل:

كفروا بهذا القول الذي قالوه للرسول وَ اسْتَتْنَى اللَّهُ عَنْ إِيْمَانِهِمْ وَ عِبَادَتِهِمْ. و قال مقاتل: استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان، و أوضحه من المعجزات، و قيل: استغنى بسلطانه عن طاعة عباده وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ أَيْ: غير محتاج إلى العالم و لا إلى عبادتهم له، محمود من كل مخلوقاته بلسان المقال و الحال.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إذا مكث المني في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس، فعرج به إلى الرب فيقول: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضى الله ما هو قاض، فيقول: أشقى أم سعيد؟ فيكتب ما هو لاق، و قرأ أبو ذر من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله: وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ». و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «العبد يولد مؤمنا و يعيش مؤمنا و يموت مؤمنا، و العبد يولد كافرا

و يعيش كافرا و يموت كافرا، و إن العبد يعمل برهه من دهره بالسعادة ثم يدركه ما كتب له فيموت شقيا، و إن العبد يعمل برهه من دهره بالشقاء ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيدا».

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ  
الَّذِي أُنزِلْنَا وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَبِّهِ لَيَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ  
سَبِيلًا وَيُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ  
أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ  
(١١)

وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ  
(١٣)

قوله: زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا الزَّعَم: هو القول بالظن، و يطلق على الكذب. قال شريح: لكل شيء كنية، و كنية الكذب  
زعموا، و أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قائم مقام مفعول زعم، و «أَنْ» هي المخففة من الثقلية لا- المصدرية لئلا- يدخل ناصب على ناصب، و  
المراد بالكفار كفار العرب؛ و المعنى:

زعم كفار العرب أن الشأن لن يبعثوا أبدا. ثم أمر سبحانه رسول الله صلى الله عليه و سلم بأن يردّ عليهم و يبطل زعمهم فقال: قُلْ  
بَلَىٰ وَ رَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ «بل» هي التي لا يجاب النفي، فالمعنى: بل تبعثون. ثم أقسم على ذلك، و جواب القسم لتبعثن، أى:  
لتخرجن من قبوركم لتنبؤن بما عملتم أى: لتخبرن بذلك إقامة للحجة عليكم، ثم تجزون به وَ ذَلِكِ الْبَعْثُ وَ الْجَزَاءُ عَلَى اللَّهِ  
يَسِيرٌ إِذِ الْإِعَادَةُ أَيْسَرُ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ الْفَاءُ هِيَ الْفَصِيحَةُ الدَّالَّةُ عَلَى شَرْطِ مَقْدَرٍ، أَيْ: إِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَصَدَّقُوا  
بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ النَّورِ الَّذِي أُنزِلْنَا وَ هُوَ الْقُرْآنُ؛ لِأَنَّهُ نُورٌ يَهْتَدَى بِهِ مِنْ ظُلْمَةِ الضَّلَالِ. وَ اللَّهُ بِمَا  
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لَا- يخفى عليه شيء من أقوالكم و أفعالكم، فهو مجازيكم على ذلك يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ العامل في الظرف  
«لتنبؤن»، قاله النحاس. و قال غيره: العامل فيه خبير، و قيل: العامل فيه محذوف هو اذكر. و قال أبو البقاء: العامل فيه ما دلّ عليه  
الكلام، أى: تتفاوتون يوم يجمعكم. قرأ الجمهور «يَجْمَعُكُمْ» بفتح الياء و ضم العين، و روى عن أبي عمرو إسكانها، و لا وجه  
لذلك إلا التخفيف و إن لم يكن هذا موضعا له، كما قرئ في وَ مَا يُشْعِرُكُمْ «١» بسكون الراء، و كقول الشاعر:

فاليوم أشرب غير مستحقب إنما «٢» من الله و لا واغل «٣»

(١). الأنعام: ١٠٩.

(٢). «استحقب الإثم»: ارتكبه.

(٣). «و اغل»: و غل في الشيء: أمعن فيه و ذهب و أبعده.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٨٣

ياسكان باء أشرب، و قرأ زيد بن علي و الشعبي و يعقوب و نصر و ابن أبي إسحاق و الجحدري:

«نجمعكم» بالنون، و معنى لِيَوْمِ الْجَمْعِ ليوم القيامة؛ فإنه يجمع فيه أهل المحشر للجزاء، و يجمع فيه بين كل عامل و عمله، و بين  
كل نبي و أمته، و بين كل مظلوم و ظالمه ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ يعني أن يوم القيامة هو يوم التغابن، و ذلك أنه يغبن فيه بعض أهل  
المحشر بعضا، فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل، و يغبن فيه أهل الإيمان أهل الكفر، و أهل الطاعة أهل المعصية، و لا غبن أعظم  
من غبن أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة و هؤلاء النار، فنزلوا منازلهم التي كانوا سينزلونها لو لم يفعلوا ما يوجب

النار، فكان أهل النار استبدلوا الخير بالشرّ، والجيد بالردىء، و النعيم بالعذاب، و أهل الجنة على العكس من ذلك. يقال: غبنت فلاناً؛ إذا بايعته أو شاربته فكان النقص عليه و الغلبة، كذا قال المفسرون، فالمغبون من غبن أهله و منازلهم في الجنة و مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلُ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ أَى: من وقع منه التصديق مع العمل الصالح استحق تكفير سيئاته، قرأ الجمهور: «يُكَفِّرُ» (وَ يُدْخِلُهُ) بالتحتية، و قرأ نافع و ابن عامر بالنون فيهما، و انتصاب خالدين فيها أبداً على أنها حال مقدره، و الإشارة بقوله: ذَلِكَ إِلَى مَا ذَكَرَ مِنَ التَّكْفِيرِ وَ الإِدْخَالِ، و هو مبتدأ و خبره الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أَى: الظفر العذى لا- يساويه ظفر. وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَ بَسَّ الْمَصِيرُ المراد بالآيات إما التنزيلية أو ما هو أعمّ منها. ذكر سبحانه حال السعداء و حال الأشقياء ها هنا لبيان ما تقدم من التغابن، و أنه سيكون بسبب التكفير و إدخال الجنة للطائفة الأولى، و بسبب إدخال الطائفة الثانية النار و خلودهم فيها ما أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أَى: ما أصاب كل أحد من مصيبة من المصائب إلا بإذن الله، أَى: بقضائه و قدره، قال الفراء:

إلا- بإذن الله، أَى: بأمر الله، و قيل: إلا بعلم الله. قيل: و سبب نزولها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب في الدنيا و مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ أَى: من يصدق و يعلم أنه لا يصيبه إلا ما قدره الله عليه يهد قلبه للصبر و الرضا بالقضاء. قال مقاتل بن حيان: يهد قلبه عند المصيبة فيعلم أنها من الله فيسلم لقضائه و يسترجع. و قال سعيد بن جبيرة: يهد قلبه عند المصيبة فيقول: إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ «١» و قال الكلبي: هو إذا ابتلى صبر، و إذا أنعم عليه شكر، و إذا ظلم غفر. قرأ الجمهور: «يهد» بفتح الياء و كسر الدال، أَى: يهده الله، و قرأ قتادة و السلمي و الضحاك و أبو عبد الرحمن بضم الياء و فتح الدال على البناء للمفعول، و قرأ طلحة بن مصرف و الأعرج و سعيد بن جبيرة و ابن هرمز و الأزرق «نهد» بالنون، و قرأ مالك بن دينار و عمرو بن دينار و عكرمة «يهدأ» بهمزة ساكنة، و رفع قلبه، أَى:

يطمئن و يسكن وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ أَى: بليغ العلم لا تخفى عليه من ذلك خافية وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ أَى: هونوا على أنفسكم المصائب، و اشتغلوا بطاعة الله و طاعة رسوله فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَى: أعرضتم عن الطاعة فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ليس عليه غير ذلك و قد فعل، و جواب الشرط

(١). البقرة: ١٥٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٨٤

محذوف و التقدير فلا بأس على الرسول، و جملة فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا تعليل للجواب المحذوف، ثم أرشد إلى التوحيد و التوكل فقال: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَى: هو المستحق للعبودية دون غيره، فوحده و لا تشركوا به وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ أَى: يفوضوا أمورهم إليه و يعتمدوا عليه، لا على غيره.

و قد أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و البيهقي و ابن مردويه عن ابن مسعود أنه قيل له: ما سمعت النبي صلى الله عليه و سلم يقول في زعموا؟ قال: سمعته يقول: «بس مطية الرجل». و أخرج ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عنه: أنه كره زعموا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: يوم التغابن من أسماء يوم القيامة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه في قوله: ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ قال: غبن أهل الجنة أهل النار. و أخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود في قوله: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ قَالَتْ: هِيَ الْمَصِيبَاتُ تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم لها و يرضى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: يَهْدِ قَلْبَهُ قال: يعنى يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، و ما أخطأه لم يكن ليصيبه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤)  
 إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ وَمَنْ  
 يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تَقَرُّضُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمِ  
 الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٨)

قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ يعني أنهم يعادونكم و يشغلونكم عن الخير، و يدخل في ذلك سبب النزول دخولا- أوليا، و هو أن رجالا- من مكة أسلموا و أرادوا أن يهاجروا، فلم يدعهم أزواجهم و لا- أولادهم، فأمر الله سبحانه بأن يحذروهم فلا يطيعوهم في شيء مما يريدونه منهم؛ مما فيه مخالفة لما يريد الله، و الضمير في فاحذروهم يعود إلى العدو، أو إلى الأزواج و الأولاد، لكن لا- على العموم، بل إلى المتصفين بالعداوة منهم، و إنما جاز جمع الضمير على الوجه الأول، لأن العدو يطلق على الواحد و الاثنين و الجماعة. ثم أرشدهم الله إلى التجاوز فقال: وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا أَيْ: تعفوا عن ذنوبهم التي ارتكبوها، و تتركوا التثريب عليها، و تستروها فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ بالغ المغفرة و الرحمة لكم و لهم، قيل: كان الرجل الذي ثبطه أزواجه و أولاده عن الهجرة إذا رأى الناس قد سبقوه إليها، و فقهوا في الدين، هم أن يعاقب أزواجه و أولاده، فأنزل الله: وَإِنْ تَعَفَّوْا الْآيَةَ، و الآية تعم و إن كان السبب خاصا كما عرّفناك غير مرة. قال مجاهد: و الله ما عادوهم في الدنيا، و لكن حملتهم مودتهم على أن أخذوا لهم الحرام فأعطوهم إياه.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٨٥

ثم أخبر الله سبحانه بأن الأموال و الأولاد فتنة فقال: إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ أَيْ: بلاء و اختبار و محنة، يحملونكم على كسب الحرام و منع حق الله، فلا تطيعوهم في معصية الله و الله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ لمن آثر طاعة الله و ترك معصيته في محبة ماله و ولده. ثم أمرهم سبحانه بالتقوى و الطاعة فقال: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ أَيْ: ما أطقتم، و بلغ إليه جهدكم. و قد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله سبحانه: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ «١» و منهم قتادة و الربيع بن أنس و السدي و ابن زيد، و قد أوضحنا الكلام في قوله: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ «٢» و معنى وَاسْمَعُوا وَاطِيعُوا أَيْ: اسمعوا ما تؤمرون به، و أطيعوا الأوامر. قال مقاتل: «اسمعوا» أَيْ: اصغوا إلى ما ينزل عليكم و أطيعوا لرسوله فيما يأمركم و ينهاكم.

وقيل: معنى «اسمعوا»: اقبلوا ما تسمعون؛ لأنه لا فائدة في مجرد السماع و أَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ أَيْ: أنفقوا من أموالكم التي رزقكم الله إياها في وجوه الخير، و لا تبخلوا بها، و قوله: خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ منتصب بفعل دل عليه أنفقوا، كأنه قال: اتنوا في الإنفاق خيرا لأنفسكم، أو قدموا خيرا لها، كذا قال سيويه. و قال الكسائي و الفراء: هو نعت لمصدر محذوف، أَيْ: إنفاقا خيرا. و قال أبو عبيدة: هو خير لكان المقدره، أَيْ: يكن الإنفاق خيرا لكم. و قال الكوفيون: هو منتصب على الحال، و قيل: هو مفعول به لأنفقوا، أَيْ: فأنفقوا، أَيْ: فأنفقوا خيرا. و الظاهر في الآية الإنفاق مطلقا من غير تقييد بالزكاة الواجبة، و قيل: المراد زكاة الفريضة، و قيل: النافلة، و قيل: النفقة في الجهاد و مَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَيْ: و من يوق شح نفسه، فيفعل ما أمر به من الإنفاق، و لا يمنعه ذلك منه، فأولئك هم الظافرون بكل خير، الفائزون بكل مطلب، و قد تقدم تفسير هذه الآية إِنْ تَقَرُّضُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا فتصرفون أموالكم في وجوه الخير بإخلاص نية و طيب نفس يُضَاعِفْهُ لَكُمْ فيجعل الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائه ضعف، و قد تقدم تفسير هذه الآية و اختلاف القراء في قراءتها في سورة البقرة و سورة الحديد و يَغْفِرْ لَكُمْ أَيْ: يضم لكم إلى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم و الله شَكُورٌ حَلِيمٌ يثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة، و لا يعاجل من عصاه بالعقوبة عالم الغيب

وَ الشَّهَادَةُ أَي: مَا غَابَ وَ مَا حَضَرَ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ خَافِيَةٌ، وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أَي: الْغَالِبُ الْقَاهِرُ، ذُو الْحِكْمَةِ الْبَاهِرَةِ. وَ قَالَ ابْنُ الْأَثَرِيِّ: الْحَكِيمُ: هُوَ الْمَحْكَمُ لِخَلْقِ الْأَشْيَاءِ.

وَ قَدْ أَخْرَجَ الْفَرِيَابِيُّ وَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَ التِّرْمِذِيُّ وَ صَحَّحَهُ، وَ ابْنُ جَرِيرٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَ الطَّبْرَانِيُّ، وَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ، وَ ابْنُ مَرْدُويهَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَ أَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ اسْلَمُوا وَ أَرَادُوا أَنْ يَأْتُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، فَأَبَى أَزْوَاجَهُمْ وَ أَوْلَادَهُمْ أَنْ يَدْعُوهُمْ، فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَرَأَوْا النَّاسَ قَدْ فَهَمُوا فِي الدِّينِ هَمُّوا أَنْ يَعْقِبُوهُمْ، فَنَزَلَتْ إِلَيْ قَوْلِهِ: فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ أَحْمَدُ وَ أَبُو دَاوُدَ وَ التِّرْمِذِيُّ وَ النَّسَائِيُّ وَ ابْنُ مَاجَةَ،

(١). آل عمران: ١٠٢.

(٢). آل عمران: ١٠٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٨٦

وَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ، وَ ابْنُ مَرْدُويهَ عَنْ بَرِيدَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَخُطِبُ، فَأَقْبَلَ الْحَسَنَ وَ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَ يَعْتِرَانِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ مِنَ الْمَنْبَرِ فَحَمَلَهُمَا وَاحِدًا مِنْ ذَا الشَّقِّ وَ وَاحِدًا مِنْ ذَا الشَّقِّ، ثُمَّ صَعِدَ الْمَنْبَرَ فَقَالَ: «صَدَقَ اللَّهُ: إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، إِنِّي لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الْغَلَامَيْنِ يَمْشِيَانِ وَ يَعْتِرَانِ لَمْ أَصْبِرْ أَنْ قَطَعْتَ كَلَامِي وَ نَزَلْتَ إِلَيْهِمَا». وَ أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «يَقُولُ اللَّهُ: اسْتَقْرَضْتَ عَبْدِي، فَأَبَى أَنْ يَقْرَضَنِي، وَ شَتَمَنِي عَبْدِي وَ هُوَ لَا يَدْرِي، يَقُولُ: وَادَّهَرَاهُ وَادَّهَرَاهُ وَ أَنَا الدَّهْرُ، ثُمَّ تَلَا أَبُو هُرَيْرَةَ: إِنَّ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٨٧

## سورة الطلاق

### إشارة

وَ هِيَ مَدِينَةٌ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: فِي قَوْلِ الْجَمِيعِ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ الضَّرِيرِ وَ ابْنُ النَّحَّاسِ وَ ابْنُ مَرْدُويهَ وَ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَتْ سُورَةُ الطَّلَاقِ بِالْمَدِينَةِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الطلاق (٦٥): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَ أَحْضُوا الْعِدَّةَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَ لَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلَهُنَّ فَأَمْسِيَنَّ كُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ أَشْهَدُوا دَوَىٰ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَ أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ

أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَيْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ  
وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤)  
ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥)

قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ نَادَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَا تَشْرِيفًا لَهُ، ثُمَّ خَاطَبَهُ مَعَ أُمَّتِهِ، أَوِ الْخَطَابَ لَهُ خَاصَّةً، وَ  
الْجَمْعَ لِلتَّعْظِيمِ، وَ أُمَّتَهُ أَسْوَتَهُ فِي ذَلِكَ، وَ الْمَعْنَى: إِذَا أَرَدْتُمْ تَطْلِيقَهُنَّ وَ عَزَمْتُمْ عَلَيْهِ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ أَي: مُسْتَقْبَلَاتٍ لِعِدَّتِهِنَّ، أَوْ  
فِي قَبْلِ عِدَّتِهِنَّ، أَوْ لِقَبْلِ عِدَّتِهِنَّ. وَ قَالَ الْجُرْجَانِيُّ: إِنْ اللّامُ فِي «لِعِدَّتِهِنَّ» بِمَعْنَى فِي، أَي: فِي عِدَّتِهِنَّ. وَ قَالَ أَبُو حِيَانَ: هُوَ عَلَى  
حَذْفِ مُضَافٍ، أَي: لِاسْتِقْبَالِ عِدَّتِهِنَّ، وَ اللّامُ لِلتَّقْوِيَةِ، نَحْوُ: لَقِيْتَهُ لَيْلَةً بَقِيَتْ مِنْ شَهْرِ كَذَا. وَ الْمُرَادُ أَنْ يَطْلُقُوهُنَّ فِي طَهْرٍ لَمْ يَقَعْ  
فِيهِ جَمَاعٌ ثُمَّ يَتَرَكْنَ حَتَّى تَنْقُضِيَ عِدَّتِهِنَّ، فَإِذَا طَلَّقُوهُنَّ هَكَذَا فَقَدْ طَلَّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ، وَ سَيَأْتِي بَيَانُ هَذَا مِنَ السَّنَةِ فِي آخِرِ الْبَحْثِ  
إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ أَي: أَحْفَظُوا الْوَقْتَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الطَّلَاقُ حَتَّى تَتِمَّ الْعِدَّةُ، وَ هِيَ ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ، وَ الْخَطَابُ  
لِلزَّوْجِ، وَ قِيلَ: لِلزَّوْجَاتِ، وَ قِيلَ: لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى الْعُمُومِ، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى لِأَنَّ الضَّمَائِرَ كُلَّهَا لَهُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ فَلَا تَعْصُوهُ فِيمَا  
أَمَرَكُمْ وَ لَا- تَضَارُّوهُنَّ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ أَي: الَّتِي كُنَّ فِيهَا عِنْدَ الطَّلَاقِ مَا دَمِنَ فِي الْعِدَّةِ، وَ أَضَافَ الْبُيُوتَ إِلَيْهِنَّ وَ هِيَ  
لِلزَّوْجِ لَتَأْكِيدِ النَّهْيِ، وَ بَيَانَ

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٨٨

كمال استحقاقهن للسكنى في مدة العدة، و مثله قوله: وَ أَذْكَرْنَ مَا يُثَلَّى فِي بُيُوتِكُنَّ (١) وَ قوله:

وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ (٢) ثُمَّ لَمَّا نَهَى الْأَزْوَاجَ عَنِ إِخْرَاجِهِنَّ مِنَ الْبُيُوتِ الَّتِي وَقَعَ الطَّلَاقُ وَ هُنَّ فِيهَا نَهَى الزَّوْجَاتِ عَنِ الْخُرُوجِ أَيْضًا،  
فَقَالَ: وَ لَا يَخْرُجْنَ أَي: لَا يَخْرُجْنَ مِنْ تِلْكَ الْبُيُوتِ مَا دَمِنَ فِي الْعِدَّةِ؛ إِلَّا لِأَمْرٍ ضَرُورِيٍّ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ، وَ قِيلَ: الْمُرَادُ لَا  
يَخْرُجْنَ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ إِلَّا- إِذَا أُذِنَ لَهُنَّ الْأَزْوَاجُ فَلَا- بِأَسْ، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ هَذَا الْاسْتِثْنَاءُ هُوَ مِنَ الْجُمْلَةِ  
الْأَوْلَى، أَي: لَا تَخْرُجْنَ مِنْ بُيُوتِهِنَّ، لَا مِنَ الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: أَكْثَرُ الْمَفْسَرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَاحِشَةِ هُنَا الزَّانَا، وَ  
ذَلِكَ أَنْ تَرْنِي فَتَخْرُجَ لِإِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهَا. وَ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَ غَيْرُهُ: هِيَ الْبِذَاءُ فِي اللِّسَانِ وَ الْاسْتِطَالَةُ بِهَا عَلَى مَنْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهَا فِي  
ذَلِكَ الْبَيْتِ، وَ يُؤَيِّدُ هَذَا مَا قَالَ عِكْرَمَةُ: إِنْ فِي مَصْحَفِ أَبِي «إِلَّا أَنْ يَفْحَشْنَ عَلَيْكُمْ» وَ قِيلَ: الْمَعْنَى:

إِلَّا أَنْ يَخْرُجْنَ تَعْدِيًا، فَإِنَّ خُرُوجَهُنَّ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ فَاحِشَةٌ، وَ هُوَ بَعِيدٌ، وَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: وَ تِلْكَ إِلَى مَا ذَكَرَ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَ هُوَ  
مَبْتَدَأٌ، وَ خَبْرُهُ حُدُودُ اللَّهِ وَ الْمَعْنَى: إِنْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ الَّتِي بَيْنَهَا لِعِبَادَةِ هِيَ حُدُودُهَا الَّتِي حُدَّهَا لَهُمْ، لَا يَحِلُّ لَهُمْ أَنْ يَتَجَاوَزُوا إِلَى  
غَيْرِهَا وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ أَي: يَتَجَاوَزُهَا إِلَى غَيْرِهَا، أَوْ يَخْلُ بِشَيْءٍ مِنْهَا فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِإِرَادَتِهِ مَوْرِدَ الْهَلَاكِ، وَ أَوْعَقَهَا فِي  
مَوَاقِعِ الضَّرْرِ بِعُقُوبَةِ اللَّهِ لَهُ عَلَى مَجَاوَزَتِهِ لِحُدُودِهِ وَ تَعْدِيَةِ لِرَسْمِهِ، وَ جُمْلَةُ: لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا مُسْتَأْنَفَةً  
لِتَقْرِيرِ مَضْمُونِ مَا قَبْلُهَا وَ تَعْلِيلِهِ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: قَالَ جَمِيعُ الْمَفْسَرِينَ: أَرَادَ بِالْأَمْرِ هُنَا الرِّغْبَةَ فِي الرِّجْعَةِ؛ وَ الْمَعْنَى:

التَّحْرِيزُ عَلَى طَّلَاقِ الْوَاحِدَةِ وَ النَّهْيُ عَنِ الثَّلَاثِ، فَإِنَّهُ إِذَا طَلَّقَ ثَلَاثًا أَضْرَرَ نَفْسَهُ عِنْدَ النَّدَمِ عَلَى الْفِرَاقِ وَ الرِّغْبَةَ فِي الْارْتِجَاعِ، فَلَا  
يَجِدُ إِلَى الْمَرَاجَعَةِ سَبِيلًا. وَ قَالَ مِقَاتِلُ بَعْدَ ذَلِكَ: أَي بَعْدَ طَلْقِهِ أَوْ طَلْقَتَيْنِ أَمْرًا بِالْمَرَاجَعَةِ.

قال الواحدي: الأمر الذي يحدث أن يوقع في قلب الرجل المحبة لرجعتها بعد الطلقة و الطلقتين. قال الزجاج:

وَ إِذَا طَلَّقَهَا ثَلَاثًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ فَلَا مَعْنَى لِقَوْلِهِ: لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا. فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ أَي: قَارِبِينَ انْقِضَاءِ أَجْلِ الْعِدَّةِ،  
وَ شَارِفِينَ آخِرِهَا فَأَمْسَتْ كُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَي: رَاجِعُوهُنَّ بِحَسَنِ مَعَاشِرَةٍ وَ رَغْبَةٍ فِيهِنَّ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ إِلَى مَضَارَةِ لَهُنَّ أَوْ فَارِقُوهُنَّ  
بِمَعْرُوفٍ أَي: اتْرُكُوهُنَّ حَتَّى تَنْقُضِيَ عِدَّتِهِنَّ، فَيَمْلِكْنَ نَفُوسَهُنَّ مَعَ إِيفَائِهِنَّ بِمَا هُوَ لَهُنَّ عَلَيْكُمْ مِنَ الْحَقُوقِ وَ تَرَكَ الْمَضَارَةَ لَهُنَّ  
وَ أَشْهَدُوا دَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ عَلَى الرِّجْعَةِ، وَ قِيلَ: عَلَى الطَّلَاقِ، وَ قِيلَ: عَلَيْهِمَا قِطْعًا لِلتَّنَازَعِ وَ حَسْمًا لِمَادَةِ الْخِصُومَةِ، وَ الْأَمْرُ لِلنَّدْبِ

كما في قوله: وَ أَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ و قيل: إنه للوجوب، و إليه ذهب الشافعي، قال: الإِشهاد واجب في الرجعة، مندوب إليه في الفرقة، و إليه ذهب أحمد بن حنبل. و في قول للشافعي: إن الرجعة لا تفتقر إلى الإِشهاد كسائر الحقوق، و روى نحو هذا عن أبي حنيفة و أحمد وَ أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ هَذَا أَمْرٌ لِلشَّهَادَةِ بِأَنْ يَأْتُوا بِمَا شَاهَدُوا بِهِ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ، و قد تقدم تفسير هذا في سورة البقرة. و قيل: الأَمْرُ لِلأَزْوَاجِ بِأَنْ يَقِيمُوا الشَّهَادَةَ، أَيْ: الشَّهَادَةَ عِنْدَ الرَّجْعَةِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: وَ أَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ أَمْرًا بِنَفْسِ الإِشْهَادِ، وَ يَكُونُ قَوْلُهُ: وَ أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ أَمْرًا بِأَنْ تَكُونَ خَالِصَةً لِلَّهِ، وَ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ذَلِكَ

(١). الأحزاب: ٣٣.

(٢). الأحزاب: ٣٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٨٩

إلى ما تقدم من الأَمْرِ بِالإِشْهَادِ وَ إِقَامَةِ الشَّهَادَةِ لِلَّهِ، وَ هُوَ مُبْتَدَأٌ وَ خَبْرُهُ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ خَصَّ الْمُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لِأَنَّهُ الْمُنْتَفَعُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا أَيْ: مَنْ يَتَّقِ عَذَابَ اللَّهِ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَ اجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ وَ الْوُقُوفِ عَلَى حُدُودِهِ الَّتِي حَدَّهَا لِعِبَادَتِهِ وَ عَدَمِ مَجَاوَزَتِهَا يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا مِمَّا وَقَعَ فِيهِ مِنَ الشَّدَائِدِ وَ الْمُحَنِّ وَ يَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ أَيْ: مِنْ وَجْهِ لَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ وَ لَا يَكُونُ فِي حِسَابِهِ. قَالَ الشَّعْبِيُّ وَ الضَّحَّاكُ: هَذَا فِي الطَّلَاقِ خَاصَّةً، أَيْ: مَنْ طَلَّقَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ يَكُنْ لَهُ مَخْرَجٌ فِي الرَّجْعَةِ فِي الْعِدَّةِ، وَ أَنَّهُ يَكُونُ كَأَحَدِ الْخَطَّابِ بَعْدَ الْعِدَّةِ. وَ قَالَ الْكَلْبِيُّ: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا مِنَ النَّارِ إِلَى الْجَنَّةِ. وَ قَالَ الْحَسَنُ: مَخْرَجًا مِمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ. وَ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: مَخْرَجًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ضَاقَ عَلَى النَّاسِ. وَ قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فِي آدَاءِ الْفَرَائِضِ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا مِنَ الْعُقُوبَةِ وَ يَرْزُقُهُ الثَّوَابَ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، أَيْ: يَبَارِكُ لَهُ فِي مَا آتَاهُ. وَ قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فِي اتِّبَاعِ السَّنَةِ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا مِنَ عِقُوبَةِ أَهْلِ الْبَدْعِ وَ يَرْزُقُهُ الْجَنَّةَ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَ قِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ.

وَ ظَاهِرُ الْآيَةِ الْعَمُومِ، وَ لَا وَجْهَ لِلتَّخْصِيسِ بِنَوْعٍ خَاصٍّ وَ يَدْخُلُ مَا فِيهِ السِّيَاقُ دَخُولًا أَوْلِيَاً وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ أَيْ: وَ مَنْ وَثِقَ بِاللَّهِ فِيمَا نَابَهُ كَفَاهُ مَا أَهَمَّهُ إِنَّ اللَّهَ بِالْبَالِغِ أَمْرِهِ قَرَأَ الْجُمْهُورُ: «بَالِغِ أَمْرِهِ» بِتَنْوِينِ الْبَالِغِ وَ نَصْبِ أَمْرِهِ، وَ قَرَأَ حَفْصٌ بِالإِضَافَةِ، وَ قَرَأَ ابْنُ أَبِي عِبْلَةَ وَ دَاوُدُ بْنُ أَبِي هِنْدٍ وَ أَبُو عَمْرٍو فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ بِتَنْوِينِ الْبَالِغِ وَ رَفَعَ أَمْرَهُ عَلَى أَنَّهُ فَاعِلٌ بِالْبَالِغِ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ أَمْرُهُ مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ، وَ بِالْبَالِغِ خَبْرٌ مُقَدَّمٌ. قَالَ الْفَرَّاءُ فِي تَوْجِيهِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ: أَيْ أَمْرُهُ بِالْبَالِغِ؛ وَ الْمَعْنَى عَلَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى وَ الثَّانِيَةِ: أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ بِالْبَالِغِ مَا يَرِيدُهُ مِنَ الْأَمْرِ، لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ، وَ لَا يَعْجِزُهُ مَطْلُوبٌ، وَ عَلَى الْقِرَاءَةِ الثَّلَاثَةِ: أَنَّ اللَّهَ نَافِذٌ أَمْرَهُ لَا يَرُدُّهُ شَيْءٌ. وَ قَرَأَ الْمَفْضَلُ:

«بَالِغًا» بِالنَّصْبِ عَلَى الْحَالِ، وَ يَكُونُ خَبْرٌ إِنْ قَوْلُهُ: قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا أَيْ: تَقْدِيرًا وَ تَوْقِيئًا، أَوْ مَقْدَارًا. فَقَدْ جَعَلَ سَبَّحَانَهُ لِلشَّدَةِ أَجْلًا تَنْتَهَى إِلَيْهِ، وَ لِلرِّخَاءِ أَجْلًا يَنْتَهَى إِلَيْهِ. وَ قَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ قَدْرُ الْحَيْضِ وَ الْعِدَّةِ وَ اللَّائِي يَنْشُرُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ وَ هُنَّ الْكِبَارُ اللَّاتِي قَدْ انْقَطَعَ حَيْضُهُنَّ وَ أَيْسَنَ مِنْهُ إِنْ ارْتَبْتُمْ أَيْ: شَكِكْتُمْ وَ جَهَلْتُمْ كَيْفَ عَدْتِهِنَّ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةٌ أَشْهُرٌ وَ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ لَصَغُرِهِنَّ وَ عَدَمِ بُلُوغِهِنَّ سِنَ الْمَحِيضِ، أَيْ: فَعَدْتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، وَ حَذَفَ هَذَا لِدَلَالَةِ مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ وَ أَوْلَاتِ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ أَيْ: انْتِهَاءَ عَدْتِهِنَّ وَضَعُ الْحَمْلِ، وَ ظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّ عِدَّةَ الْحَوَامِلِ بِالْوَضْعِ، سِوَاءِ كُنَّ مَطْلُوقَاتٍ أَوْ مَتَوَفَّيَاتٍ عَنْهُنَّ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي هَذَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مُسْتَوْفَى، وَ حَقَّقْنَا الْبَحْثَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْرًا «١» وَ قِيلَ: مَعْنَى إِنْ ارْتَبْتُمْ إِنْ تَيْقَنْتُمْ، وَ رَجَّحَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهُ بِمَعْنَى الشُّكِّ وَ هُوَ الظَّاهِرُ. قَالَ الزَّجَّاجُ: إِنْ ارْتَبْتُمْ فِي حَيْضِهَا وَ قَدْ انْقَطَعَ عَنْهَا الْحَيْضُ وَ كَانَتْ مَمَّنْ يَحِيضُ مِثْلَهَا. وَ قَالَ مُجَاهِدٌ: إِنْ ارْتَبْتُمْ يَعْنِي لَمْ تَعْلَمُوا عِدَّةَ الْآيِسَةِ وَ الَّتِي لَمْ تَحِضْ فَالْعِدَّةُ هَذِهِ. وَ قِيلَ: الْمَعْنَى: إِنْ ارْتَبْتُمْ فِي الدَّمِ الَّذِي يَظْهَرُ مِنْهَا هَلْ هُوَ حَيْضٌ

أم لا بل استحاضة؛ فالعدة ثلاثة أشهر و من يتق الله يجعل له من أمره يسرا أي: من يتقه في امتثال

(١). البقرة: ٢٣٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٩٠

وأمره واجتناب نواهيه يسهل عليه أمره في الدنيا والآخرة. وقال الضحاك: من يتق الله فليطلق للسنة يجعل له من أمره يسرا في الرجعة. وقال مقاتل: من يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسرا في توفيقه للطاعة، والإشارة بقوله: ذلك إلى ما ذكر من الأحكام، أي: ذلك المذكور من الأحكام أمر الله أنزله إليكم أي: حكمه الذي حكم به بين عباده و شرعه الذي شرعه لهم، ومعنى أنزله إليكم أنزله في كتابه على رسوله و بينه لكم و فصل أحكامه و أوضح حاله و حرامه و من يتق الله بترك ما لا- يرضاه يكفر عنه سيئاته التي اقترفها، لأن التقوى من أسباب المغفرة للذنوب و يُعْظِمُ لَهُ أَجْرًا أي: يعطيه من الأجر في الآخرة أجرا عظيما و هو الجنة.

و قد أخرج ابن أبي حاتم عن أنس قال: طلق رسول الله صلى الله عليه و سلم حفصة فأتت أهلها، فأنزل الله: يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن فليلقنهن قليل له: راجعها فإنها صائمة قوامه، و هي من أزواجك في الجنة. و أخرجه ابن جرير عن قتادة مرسلا. و أخرج الحاكم عن ابن عباس قال: طلق عبد يزيد أبو ركانة أم ركانة، ثم نكح امرأة من مزينه، فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالت: يا رسول الله ما يغني عنى إلا ما تغني عنى هذه الشعرة، لشعرة أخذتها من رأسها، فأخذت رسول الله صلى الله عليه و سلم حمية عند ذلك، فدعا رسول الله صلى الله عليه و سلم ركانة و إخوته، ثم قال لجلسائه: أترون كذا من كذا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم لعبد يزيد: طلقها، ففعل، فقال لأبي ركانة: ارتجعها، فقال: يا رسول الله إني طلقتها، قال: قد علمت ذلك فارتجعها، فنزلت:

يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن قال الذهبي: إسناده واه، و الخبر خطأ، فإن عبد يزيد لم يدرك الإسلام. و أخرج البخارى و مسلم و غيره عن ابن عمر: «أنه طلق امرأته و هي حائض، فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه و سلم، فتعيط رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم قال: ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض و تطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسه، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء، وقرأ النبي صلى الله عليه و سلم «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن»». و أخرج عبد الرزاق فى المصنف، و ابن المنذر و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قرأ: «فطلقوهن في قبل عدتهن». و أخرج ابن الأنبارى عن ابن عمر أنه قرأ: «فطلقوهن لقبل عدتهن». و أخرج ابن الأنبارى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و البيهقى عن مجاهد أنه قرأ كذلك. و أخرج عبد الرزاق و أبو عبيد فى فضائله، و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس أنه قرأ كذلك. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: من أراد أن يطلق للسنة كما أمره الله، فليطلقها طاهرا فى غير جماع. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله: فطلقوهن لعدتهن قال: طاهرا من غير جماع. و فى الباب أحاديث. و أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود و أحصوا العدة قال: الطلاق طاهرا فى غير جماع.

و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن ابن عمر فى قوله: و لا يخرجن إلا أن يأتيين بفاحشة مبينة قال: خروجها قبل انقضاء العدة من بيتها هي

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٩١



الفاحشه المبيئه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس إلاً أن يأتين بفاحشه مبيئه قال: الزنا.

و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن راهويه و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن مردويه و البيهقي من طرق عن ابن عباس قال: الفاحشه المبيئه أن تبتذو «(١) المرأة على أهل الرجل، فإذا بذت عليهم بلسانها فقد حلّ لهم إخراجها. و أخرج ابن أبي حاتم عن فاطمه بنت قيس في قوله: لعلّ الله يُخْرِدُ بَعِيدَ ذَلِكَ أَمْرًا قالت: هي الرجعة. و أخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين أن رجلاً سأل عمران بن حصين: أن رجلاً طلق و لم يشهد، و أرجع و لم يشهد. قال: بئس ما صنع، طلق في بدعة، و ارتجع في غير سنّه، فليشهد على طلاقه و على مراجعته و يستغفر الله. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا قال: مخرجه أن يعلم أنه قبل أمر الله، و أن الله هو الذي يعطيه و هو يمنعه، و هو يبتليه و هو يعافيه، و هو يدفع عنه، و في قوله: وَ يَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ قال: من حيث لا يدري. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله:

وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا قال: ينجيّه من كل كرب في الدنيا و الآخرة. و أخرج الحاكم و صححه، و ضعفه الذهبي، من طريق سالم بن أبي الجعد عن جابر قال: نزلت هذه الآية وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا في رجل من أشجع كان فقيراً، خفيف ذات اليد، كثير العيال، فأتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال:

اتق الله و اصبر، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابن له بغنم كان العدو أصابوه، فأتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسأله عنها و أخبره خبرها، فقال: كلها، فنزلت وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ الْآيَةَ. و أخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله إن ابني أسره العدو و جزعت أمه، فما تأمرني؟ قال: آمرك و إياها أن تستكثرا من قول: لا- حول و لا- قوة إلا بالله، فقالت المرأة: نعم ما أمرك، فجعلنا يكثران منها، فتغفل عنه العدو، فاستاق غنمهم، فجاء بها إلى أبيه، فنزلت: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا الْآيَةَ. و في الباب روايات تشهد لهذا. و أخرج ابن أبي حاتم عن عائشة في الآية قالت: يكفيه هم الدنيا و غمها. و أخرج أحمد و صححه، و ابن مردويه، و أبو نعيم في المعرفة، و البيهقي عن أبي ذرّ قال: «جعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتلو هذه الآية: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَ يَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ فجعل يردّها حتى نعست، ثم قال: يا أبا ذرّ لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتمهم» و في الباب أحاديث. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ قال: ليس المتوكل اللذي يقول: تقضى حاجتي، و ليس كل من يتوكل على الله كفاه ما أهمه، و دفع عنه ما يكره، و قضى حاجته، و لكن الله جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئاته، و يعظم له أجرا، و في قوله: إِنَّ اللَّهَ بِالْأَعْمَالِ قَاضٍ قال: يقول قاضي أمره على من توكل و على من لم يتوكل، و لكن المتوكل يكفر عنه سيئاته و يعظم له أجرا، و في قوله: فَدَجَّعِلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا قال: يعنى أجلا و منتهى ينتهى إليه. و أخرج ابن المبارك و الطيالسي و أحمد و عبد بن حميد

(١). تبتذو: تفحش في القول.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٩٢

و الترمذی و النسائي و ابن ماجه و أبو يعلى و الحاكم، و صححه، و البيهقي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خماصا و تروح بطانا».

و أخرج إسحاق بن راهويه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و البيهقي في سننه عن أبي بن كعب: أن ناسا من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية في البقرة في عدة النساء قالوا: لقد بقي من عدة النساء عددا لم تذكر في القرآن: الصغار و الكبار اللاتي قد انقطع حيضهن و ذوات الحمل، فأنزل الله: وَ اللَّائِي يَنْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ الْآيَةَ. و أخرج عبد

الله بن أحمد في زوائد المسند، و أبو يعلى، و الضياء في المختارة، و ابن مردويه عن أبي بن كعب قال: «قلت للنبي صلى الله عليه و سلم: و أولات الأحمال أجلهن أن يرضعن حملهن أهي المطلقة ثلاثا، أو المتوفى عنها؟ قال: هي المطلقة ثلاثا و المتوفى عنها». و أخرج نحوه عنه مرفوعا ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الدار قطنى من وجه آخر. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و أبو داود و النسائي و ابن ماجه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبرانى و ابن مردويه من طرق عن ابن مسعود أنه بلغه أن عليا قال: تعتد آخر الأجلين، فقال: من شاء لاعنته، إن الآية التي في سورة النساء القصرى «١» نزلت بعد سورة البقرة و أولات الأحمال أجلهن أن يرضعن حملهن بكذا و كذا أشهر، و كل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها. و روى نحوه هذا عنه من طرق و بعضها في صحيح البخارى. و قد ثبت في الصحيحين و غيرهما من حديث أم سلمة: أن سبيعة الأسلمية توفى عنها زوجها و هي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فأنكحها رسول الله صلى الله عليه و سلم. و فى الباب أحاديث.

### [سورة الطلاق (٦٥): الآيات ٦ الى ٧]

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ أَتَمَّرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَايَرْتُمْ فَسْتَزِجْ لِهْ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)

قوله: أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان ما يجب للنساء من السكنى، و من للتبعيض، أى: بعض مكان سكناكم، و قيل: زائده مِنْ وُجْدِكُمْ أى: من سعتكم و طاقتكم، و الوجد: القدرة. قال الفراء: يقول: على ما يجد، فإن كان موسعا عليه وسع عليها فى المسكن و النفقة، و إن كان فقيرا فعلى قدر ذلك. قال قتادة: إن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه. و قد اختلف أهل العلم فى المطلقة ثلاثا، هل لها سكنى و نفقة أم لا؟ فذهب مالك و الشافعى أن لها السكنى و لا نفقة لها. و ذهب أبو حنيفة و أصحابه أن لها السكنى و النفقة. و ذهب أحمد و إسحاق و أبو ثور أنه لا نفقة

(١). أى سورة الطلاق.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٩٣

لها و لا سكنى، و هذا هو الحق، و قد قررته فى شرحى للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره. و لا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ نهى سبحانه عن مضارتهن بالتضييق عليهن فى المسكن و النفقة. و قال مجاهد: فى المسكن.

و قال مقاتل: فى النفقة. و قال أبو الضحى: هو أن يطلقها، فإذا بقى يومان من عدتها راجعها، ثم طلقها.

وَ إِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ أى: إلى غاية هى وضعهن للحمل. و لا خلاف بين العلماء فى وجوب النفقة و السكنى للحامل المطلقة؛ فأما الحامل المتوفى عنها زوجها، فقال على و ابن عمر و ابن مسعود و شريح و النخعى و الشعبي و حماد و ابن أبى ليلى و سفيان و أصحابه: ينفق عليها من جميع المال حتى تضع. و قال ابن عباس و ابن الزبير و جابر بن عبد الله و مالك و الشافعى و أبو حنيفة و أصحابه: لا ينفق عليها إلا من نصيبها، و هذا هو الحق للأدلة الواردة فى ذلك من السنة فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ أَوْلَادَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ أى: أجور إرضاعهن، و المعنى: أن المطلقات إذا أرضعن أولاد الأزواج المطلقين لهن منهن فلهن أجورهن على ذلك وَ أَتَمَّرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ هو خطاب للأزواج و الزوجات، أى: تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر، و يقبل بعضكم من بعض [ما أمره به «١» من المعروف الجميل، و أصل معناه ليأمر بعضكم

بعضاً بما هو متعارف بين الناس غير منكر عندهم. قال مقاتل: المعنى ليتراض الأب و الأم على أجر مسمى، قيل: و المعروف الجميل من الزوج أن يوفر لها الأجر، و المعروف الجميل منها أن لا تطلب ما يتعاسره الزوج من الأجر و إن تعاسرتم أي: في أجر الرضاع فأبى الزوج أن يعطى الأم الأجر، و أبت الأم أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر فسترضع له أخرى أي: يستأجر مرضعه أخرى ترضع ولده، و لا- يجب عليه أن يسلم ما تطلبه الزوجة، و لا- يجوز له أن يكرهها على الإرضاع بما يريد من الأجر. قال الضحاك: إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم تقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر ليُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ فِيهِ الأَمْرُ لِأَهْلِ السَّعَةِ بِأَنْ يَوْسِعُوا عَلَى الْمَرْضَعَاتِ مِنْ نِسَائِهِمْ عَلَى قَدْرِ سَعَتِهِمْ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ أَي: كان رزقه بمقدار القوت، أو مضيق ليس بموسع فليُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ أَي: مِمَّا أعطاه من الرزق ليس عليه غير ذلك لا- يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا أَي: ما أعطاه من الرزق، فلا يكلف الفقير بأن ينفق ما ليس في وسعه، بل عليه ما يقدر عليه و تبلغ إليه طاقته مما أعطاه الله من الرزق سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا أَي: بعد ضيق و شدة سعة و غنى.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: مِنْ وَجْدِكُمْ قَالَ: من سعتمكم و لا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ قَالَ: في المسكن. و أخرج ابن المنذر عنه في قوله: وَ إِنْ كُنَّ أَوْلَاتٍ حَمِيلٍ الْآيَةَ، قَالَ: فهذه في المرأة يطلقها زوجها و هي حامل، فأمره الله أن يسكنها و ينفق عليها حتى تضع، و إن أرضعت حتى تفطم، فإن أبان طلاقها و ليس بها حمل فلها السكنى حتى تنقضي عدتها و لا نفقة لها. و أخرج عبد بن حميد عن أبي سنان قال: سأل عمر بن الخطاب عن أبي عبيدة، فقيل: إنه يلبس الغليظ من الثياب و يأكل

(١). من تفسير القرطبي (١٨ / ١٦٩)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٩٤

أخشن الطعام، فبعث إليه بألف دينار، و قال للرسول: انظر ماذا يصنع بها إذا أخذها؟ فما لبث أن لبس ألين الثياب، و أكل أطيب الطعام، فجاء الرسول فأخبره، فقال: رحمه الله، تأول هذه الآية لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ

### [سورة الطلاق (٦٥): الآيات ٨ الى ١٢]

وَ كَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَ رُسُلِهِ فَحَاسِبْنَا بِهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَ عَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسِيرًا (٩) أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدَاً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)

لما ذكر سبحانه ما تقدم من الأحكام، حذر من مخالفتها، و ذكر عتو قوم خالفوا أوامره، فحل بهم عذابه، فقال: وَ كَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَ رُسُلِهِ يَعْنِي عَصَتْ، و المراد أهلها، و المعنى: و كم من أهل قرية عصوا أمر الله و رسله، أو أعرضوا عن أمر الله و رسله؛ على تضمين عتت معنى أعرضت، و قد قدمنا الكلام في كآين في سورة آل عمران و غيرها فحاسبنا بها حساباً شديداً أي: شددنا على أهلها في الحساب بما عملوا. قال مقاتل: حاسبها الله بعملها في الدنيا فجازاها بالعذاب، و هو معنى قوله:

وَ عَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا أَي: عذبنا أهلها عذاباً عظيماً منكرًا في الآخرة، و قيل: في الكلام تقديم و تأخير، أي: عذبنا أهلها عذاباً نكراً في الدنيا بالجوع و القحط و السيف و الخسف و المسخ، و حاسبناهم في الآخرة حساباً شديداً. و النكر المنكر فذاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا

أى: عاقبه كفرها وَ كَانَ عَاقِبَتُهُ أَمْرًا خُسْرًا أى: هلاكاً فى الدنيا و عذاباً فى الآخرة أَعِيدَ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فى الآخرة، و هو عذاب النار، و التكرير للتأكيد فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ أى: يا أولى العقول الراجحة، و قوله: الَّذِينَ آمَنُوا فى محل نصب بتقدير، أعنى بيانا للمنادى بقوله: يَا أُولِي الْأَلْبَابِ أَوْ عَطْفَ بَيَانٍ لَهُ، أَوْ نَعْتٌ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا - رَسُولًا قَالَ الزَّجَاجُ: إنزال الذكر دليل على إضمار أرسل، أى: أنزل إليكم قرآنا، و أرسل إليكم رسولا، و قال أبو على الفارسي: إن رسولا - منصوب بالمصدر، و هو ذكرا؛ لأن المصدر المنون يعمل. و المعنى: أنزل إليكم ذكر الرسول. و قيل: إن رسولا بدل من ذكرا، و كأنه جعل الرسول نفس الذكر مبالغة. و قيل: إنه بدل منه على حذف مضاف من الأول تقديره: أنزل ذا ذكر رسولا، أو صاحب ذكر رسولا. و قيل: إن رسولا نعت على حذف مضاف، أى: ذكرا ذا رسول، فذا رسول نعت للذكر.

و قيل: إن «رسولا» بمعنى رسالته، فيكون «رسولا» بدلا صريحا من غير تأويل، أو بيانا.

و قيل: إن رسولا منتصب على الإغراء، كأنه قال: الزموا رسولا. و قيل: إن الذكر ها هنا بمعنى الشرف

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٩٥

كقوله: لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ «١» و قوله: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ «٢». ثم بين هذا الشرف فقال: رَسُولًا وَ قَدْ ذَهَبَ الْأَكْثَرُ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالرَّسُولِ هُنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ. و قال الكلبي: هو جبريل، و المراد بالذكر القرآن، و يختلف المعنى باختلاف وجوه الإعراب السابقة كما لا يخفى. ثم نعت سبحانه الرسول المذكور بقوله: يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ أى: حال كونها مبينات، قرأ الجمهور:

«مبينات» على صيغة اسم المفعول، أى: بينها الله و أوضحها، و قرأ ابن عامر و حفص و حمزة و الكسائي على صيغة اسم الفاعل، أى: الآيات تبين للناس ما يحتاجون إليه من الأحكام. و روي القراء الأولى أبو حاتم و أبو عبيد لقوله: قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ\*. لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ اللام متعلقة ببتلو، أى: ليخرج الرسول الذى يتلو الآيات الذين آمنوا و عملوا الصالحات من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية، و يجوز أن تتعلق اللام بأنزل، فيكون المخرج هو الله سبحانه و مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحًا أى: يجمع بين التصديق، و العمل بما فرضه الله عليه، مع اجتناب ما نهاه عنه يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ قرأ الجمهور: «يُدْخِلُهُ» بالتحية، و قرأ نافع و ابن عامر بالنون، و جمع الضمير فى خالدين فيها أبداً باعتبار معنى من، و وحده فى «يُدْخِلُهُ»\* باعتبار لفظها، و جملة قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا فى محل نصب على الحال من الضمير فى خالدين على التدخل، أو من مفعول يدخله على الترادف؛ و معنى قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا أى: وسَّعَ لَهُ رِزْقَهُ فى الجنةِ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ الاسم الشريف مبتدأ و خبره الموصول مع صلته وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ أى: و خلق من الأرض مثلهن يعنى سبعا.

و اختلف فى كيفية طبقات الأرض. قال القرطبي فى تفسيره: و اختلف فيهن على قولين: أحدهما: و هو قول الجمهور أنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض، بين كل أرض و أرض مسافة كما بين السماء و السماء، و فى كل أرض سكان من خلق الله. و قال الضحاك: إنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات. و الأول أصح «٣»؛ لأن الأخبار دالة عليه فى الترمذى و النسائي و غيرهما، و قد مضى ذلك مبينا فى البقرة قال: و فى صحيح مسلم عن سعيد بن زيد قال: سمعت النبي صلى الله عليه و سلم يقول: «من أخذ شبرا من الأرض ظلما فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين» إلى آخر كلامه، و سيأتى فى آخر البحث ما يقوى قول الجمهور. قرأ الجمهور: «مثلهن» بالنصب عطفا على «سبع سموات» أو على تقدير فعل، أى: و خلق من الأرض مثلهن. و قرأ عاصم فى رواية عنه بالرفع على الابتداء، و الجار و المجرور قبله خبره يَنْتَزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ الجملة مستأنفة، و يجوز أن تكون صفة لما قبلها، و الأمر الوحى. قال مجاهد: ينتزل الأمر من السموات السبع إلى الأرضين السبع. و قال الحسن: بين كل سماءين أرض و أمر. و قال قتادة: فى كل أرض من أرضه و سماء من سمائه خلق من خلقه، و أمر من أمره، و قضاء من

قضائه، وقيل: بينهن إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التي هي أدناها، و بين السماء السابعة التي هي أعلاها، وقيل: هو ما يدبر فيهن

(١). الأنبياء: ١٠.

(٢). الزخرف: ٤٤.

(٣). هذا الكلام لا يعتمد على قرآن أو سنة، وقد أثبت العلم خلافه.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٩٦

من عجيب تدبيره، فينزل المطر و يخرج النبات، و يأتي بالليل و النهار، و الصيف و الشتاء، و يخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها و هيئاتها فينقلهم من حال إلى حال. قال ابن كيسان: و هذا هو مجال اللغة و اتساعها، كما يقال للموت: أمر الله، و للريح و السحاب و نحوها. قرأ الجمهور: «يتنزل الأمر» من التنزل و رفع الأمر على الفاعلية، و قرأ أبو عمرو في رواية عنه «ينزل» من الإنزال، و نصب الأمر على المفعولية و الفاعل الله سبحانه، و اللام في لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ متعلق بخلق، أو بيتنزل أو بمقدر، أى: فعل ذلك لتعلموا كمال قدرته و إحاطته بالأشياء، و هو معنى وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا فلا يخرج عن علمه شيء منها كائنا ما كان، و انتصاب علما على المصدرية، لأن أحاط بمعنى علم، أو هو صفة لمصدر محذوف، أى: أحاط إحاطة علما، و يجوز أن يكون تمييزا.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا يقول: لم ترحم و عَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا يقول: عظيما منكرا. و أخرج ابن مردويه قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا- رَسُولًا قال: محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق سعيد بن جبیر عن ابن عباس أنه قال له رجل: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَمَآوَاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، فقال ابن عباس:

ما يؤمنك أن أخبرك بها فتكفر؟. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب، من طريق أبى الضحى عن ابن عباس فى قوله: وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ قال: سبع أرضين فى كل أرض نبي كنيكم، و آدم كآدم، و نوح كنوح، و إبراهيم كإبراهيم، و عيسى كعيسى. قال البيهقى: هذا إسناد صحيح، و هو شاذ بمره، لا أعلم لأبى الضحى عليه متابعا. و أخرج ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، عن ابن عمرو قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «إن الأرضين بين كل أرض و التى تليها مسيرة خمسمائة عام، و العليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه فى السماء، و الحوت على صخرة، و الصخرة بيد ملك. و الثانية مسخر الريح، فلما أراد الله أن يهلك عادا أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا يهلك عادا، فقال: يا رب أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور؟ فقال له الجبار: إذن تكفأ «١» الأرض و من عليها، و لكن أرسل عليهم بقدر خاتم، فهى التى قال الله فى كتابه: مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ «٢». و الثالثة فيها حجارة جهنم، و الرابعة فيها كبريت جهنم، فقالوا: يا رسول الله أ للنار كبريت؟ قال: نعم، و الهدى نفسى بيده؛ إن فيها لأودية من كبريت، لو أرسل فيها الجبال الرواسى لماعت» إلى آخر الحديث. قال الذهبى متعقبا للحاكم: هو حديث منكر. و أخرج عثمان بن سعيد الدارمى عن ابن عباس قال: سيد السموات السماء التى فيها العرش، و سيد الأرضين الأرض التى نحن فيها.

(١). فى المستدرک للحاكم: تكفى.

(٢). الذاريات: ٤٢.

## سورة التحريم

## إشارة

و هي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع، و تسمى سورة النبي. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة التحريم بالمدينة، و لفظ ابن مردويه سورة المحرم. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزلت بالمدينة سورة النساء يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ  
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## [سورة التحريم (٦٦): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَ إِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا تَبَأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا تَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ تَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَ إِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤)  
عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مَسْلَمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَ أَبْكَارًا (٥)  
قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ اختلف في سبب نزول الآية على أقوال: الأول قول أكثر المفسرين. قال الواحدى: قال المفسرون: كان النبي صلى الله عليه و سلم فى بيت حفصة فزارت أباه، فلما رجعت أبصرت مارية فى بيتها مع النبي صلى الله عليه و سلم، فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت، فلما رأى النبي صلى الله عليه و سلم فى وجه حفصة الغيرة و الكآبة قال لها: لا تخبرى عائشة و لك على أن لا أقربها أبدا، فأخبرت حفصة عائشة و كانتا متصافيتين، فغضبت عائشة و لم تزل بالنبي صلى الله عليه و سلم حتى حلف أن لا يقرب مارية، فأنزل الله هذه السورة.

قال القرطبي: أكثر المفسرين على أن الآية نزلت فى حفصة، و ذكر القصة. و قيل: السبب أنه كان صلى الله عليه و سلم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة و حفصة أن تقولوا له إذا دخل عليهما: إنا نجد منك ريح مغاير. و قيل: السبب المرأة التى وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه و سلم. و سيأتى دليل هذه الأقوال آخر البحث إن شاء الله، و ستعرف كيفية الجمع بينهما، و جملة تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ مستأنفة، أو مفسره لقوله:

«تحرم»، أو فى محل نصب على الحال من فاعل تحرم، أى: مبتغيا به مرضاة أزواجك، و مرضاة اسم مصدر، و هو الرضى، و أصله مرضوة، و هو مضاف إلى المفعول، أى: أن ترضى أزواجك، أو إلى الفاعل، أى: أن يرضين هن و الله غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: بليغ المغفرة و الرحمة لما فرط منك من تحريم ما أحل الله لك،

قيل: و كان لك ذنبا من الصغائر، فلذا عاتبه الله عليه، و قيل: إنها معاتبته على ترك الأولى «١» قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ  
أى: شرع لكم تحليل أيمانكم، و بين لكم ذلك، و تحلة أصلها تحللة، فأدغمت.

و هي من مصادر التفعيل كالتوصية و التسمية، فكأن اليمين عقد، و الكفارة حلّ، لأنها تحلّ للحالف ما حرّمه على نفسه. قال مقاتل: المعنى قد بين الله كفارة أيمانكم في سورة المائدة. أمر الله نبيه صلى الله عليه و سلم أن يكفر يمينه و يراجع وليدته فأعتق رقبته. قال الزجاج: و ليس لأحد أن يحرم ما أحلّ الله.

قلت: و هذا هو الحق أن تحريم ما أحلّ الله لا- ينعقد و لا- يلزم صاحبه. فالتحليل و التحريم هو إلى الله سبحانه لا إلى غيره، و معاتبته لنبيه صلى الله عليه و سلم في هذه السورة أبلغ دليل على ذلك، و البحث طويل و المذاهب فيه كثيرة و المقالات فيه طويلة، و قد حققناه في مؤلفاتنا بما يشفى.

و اختلف العلماء هل مجرد التحريم يمين يوجب الكفارة أم لا؟ و في ذلك خلاف، و ليس في الآية ما يدل على أنه يمين؛ لأن الله سبحانه عاتبه على تحريم ما أحلّ له، ثم قال: قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحَلَّةَ أَيْمَانِكُمْ و قد ورد في القصة التي ذهب أكثر المفسرين إلى أنها سبب نزول الآية أنه حرم أولاً ثم حلف ثانياً كما قدمنا و اللَّهُ مَوْلَاكُمْ أَيْ: و ليكم و ناصركم و المتولّى لأموركم و هُوَ الْعَلِيمُ بما فيه صلاحكم و فلاحكم الْحَكِيمُ في أفعاله و أقواله.

وَ إِذْ أَسْرَى النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا قَالَ أَكْثَرُ الْمَفْسُرِينَ: هي حفصة كما سبق، و الحديث هو تحريم مارية، أو العسل، أو تحريم التي وهبت نفسها له، و العامل في الظرف فعل مقدر، أَيْ: و اذكر إذ أسر. و قال الكلبي: أسر إليها أن أباك و أبا عائشة يكونان خليفتي على أمتي من بعدى فَلَمَّا تَبَأْتُ بِهِ أَيْ أَخْبَرْتُ بِهِ غَيْرَهَا وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ أَيْ: أطلع الله نبيه على ذلك الواقع منها من الإخبار لغيرها عَرَفَ بَعْضُهُ أَيْ: عَرَفَ حِفْصَةَ بَعْضٌ مَا أَخْبَرْتُ بِهِ. قرأ الجمهور: «عرف» مشدداً من التعريف، و قرأ على و طلحة بن مصرف و أبو عبد الرحمن السلمي و الحسن و قتادة و الكسائي بالتخفيف. و اختار أبو عبيد و أبو حاتم القراءة الأولى لقوله: وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضِ أَيْ: لم يعرفها إياه، و لو كان مخففاً لقال في ضده: و أنكر بعضاً وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضِ أَيْ و أعرض عن تعريف بعض ذلك كراهة أن ينتشر في الناس، و قيل: ألمدى أعرض عنه هو حديث مارية. و للمفسرين ها هنا خبط و خلط، و كل جماعة منهم ذهبوا إلى تفسير التعريف و الإعراض بما يطابق بعض ما ورد في سبب النزول، و سنوضح لك ذلك إن شاء الله فَلَمَّا تَبَأَهَا بِهِ أَيْ:

أخبرها بما أفشت من الحديث قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا أَيْ: من أخبرك به قَالَ: تَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ أَيْ: أخبرني الذي لا تخفى عليه خافية. إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا الْخَطَابُ لِعَائِشَةَ وَ حِفْصَةَ، أَيْ: إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ وَجَدَ مِنْكُمْ مَا يُوْجِبُ التَّوْبَةَ، وَ مَعْنَى صَغَتْ عَدَلَتْ وَ مَالَتْ عَنِ الْحَقِّ، وَ هُوَ

(١). قال القرطبي (١٨/ ١٨٤): و الصحيح أنه معاتبه على ترك الأولى، و أنه لم تكن له صغيرة و لا كبيرة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٩٩

أنهما أحبتا ما كره رسول الله صلى الله عليه و سلم، و هو إفشاء الحديث. و قيل: المعنى: إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ مَالَتْ قُلُوبُكُمَا إِلَى التَّوْبَةِ، وَ قَالَ قُلُوبُكُمَا وَ لَمْ يَقُلْ قَلْبًا كَمَا لِأَنَّ الْعَرَبَ تَسْتَكْرِهُ الْجَمْعَ بَيْنَ تَنْثِينِ فِي لَفْظٍ وَاحِدٍ وَ إِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ أَيْ: تَظَاهَرَا، قرأ الجمهور: «تظاهرا» بحذف إحدى التاءين تخفيفاً. و قرأ عكرمة «تظاهرا» على الأصل. و قرأ الحسن و أبو رجاء و نافع و عاصم في رواية عنهم «تظَّهرا» بتشديد الظاء و الهاء بدون ألف، و المراد بالتظاهر: التعاضد و التعاون، و المعنى: و إِنْ تَعَاضَدَا وَ تَعَاوَنَا فِي الْغِيْرَةِ عَلَيْهِ مِنْكُمْ وَ إِفْشَاءَ سِرِّهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ أَيْ: فَإِنَّ اللَّهَ يَتَوَلَّى نَصْرَهُ، وَ كَذَلِكَ جِبْرِيلُ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَنْ يَعمَدَ نَاصِرًا يَنصُرُهُ وَ الْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ أَيْ: بَعْدَ نَصْرِ اللَّهِ وَ نَصْرِ جِبْرِيلُ وَ صَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ ظَهِيرٌ أَيْ: أعوان يظاهرونه، و الملائكة مبتدأ، و خبره ظهير. قال أبو على الفارسي: قد جاء فعيل للكثرة، كقوله: وَ لَا يَسْتَلُّ حَمِيمٌ حَمِيمًا

«١» قال الواحدى: وهذا من الواحد الذى يؤدى عن الجمع كقوله: وَحَسَنَ أَوْلِيكَ رَفِيقًا «٢» وقد تقرر فى علم النحو أن مثل جريح و صبور و ظهير يوصف به الواحد و المثنى و الجمع. و قيل: كان التّظاهر بين عائشة و حفصة فى التحكم على النّبي صلّى الله عليه و سلّم فى النفقة عسى ربّه إن طلقك أن يُبدله أزواجاً خيراً منكّن أى: يعطيه بذلك أزواجاً أفضل منكّن، و قد علم الله سبحانه أنه لا يطلقهن، و لكن أخبر عن قدرته على أنه إن وقع منه الطلاق أبدله خيراً منهن تخويفاً لهن، و هو كقوله:

وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ «٣» فإنه إخبار عن القدرة و تخويف لهم. ثم نعت سبحانه الأزواج بقوله: مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ أَيْ: قائمات بفرائض الإسلام، مصدقات بالله و ملائكته و كتبه و رسله و القدر خيره و شره. و قال سعيد بن جبیر: مُسْلِمَاتٍ أَيْ: مخلصات. و قيل معناه: مسلمات لأمر الله و رسوله قانتات مطيعات لله. و القنوت: الطاعة، و قيل: مصلّيات تائبات يعنى من الذنوب عابدات لله متذللات له. قال الحسن و سعيد بن جبیر: كثيرات العبادة. سائحات أَيْ:

صائمات. و قال زيد بن أسلم: مهاجرات، و ليس فى أمه محمد صلّى الله عليه و سلّم سياحة إلا الهجرة. قال ابن قتيبة و الفراء و غيرهما: و سمي الصيام سياحة لأن السائح لا زاد معه. و قيل المعنى: ذاهبات فى طاعة الله، من ساح الماء إذا ذهب، و أصل السياحة: الجولان فى الأرض، و قد مضى الكلام على السياحة فى سورة براءة. تَيِّبَاتٍ وَ أَبْكَارًا وسط بينهما العاطف لتتأفهما، و التيبات: جمع تيب، و هى المرأة التى قد تزوجت ثم ثابت عن زوجها فعادت كما كانت غير ذات زوج. و الأبكار: جمع بكر، و هى العذراء، سميت بذلك لأنها على أول حالها التى خلقت عليه.

و قد أخرج البخارى و غيره عن عائشة أن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم كان يمكث عند زينب بنت جحش و يشرب عندها لبناً أو عسلاً، فتواصيت أنا و حفصة أن أئتنا دخل عليها النّبي صلّى الله عليه و سلّم فلتقل: إني أجد منك ريح مغاير، فدخل على إحداهما فقالت ذلك له، فقال: لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، و لن أعود، فنزلت:

(١). المعارج: ١٠.

(٢). النساء: ٦٩.

(٣). محمد: ٣٨.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٠٠

فتح القدير ج ٥ ص ٣٤٩

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ إِلَى قَوْلِهِ: إِنَّ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ لِعَائِشَةَ وَ حَفْصَةَ وَ إِذْ أَسِرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا لِقَوْلِهِ: بل شربت عسلاً. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند صحيح، عن ابن عباس قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه و سلّم شرب من شراب عند سودة من العسل، فدخل على عائشة فقالت: إني أجد منك ريحاً، فدخل على حفصة فقالت: إني أجد منك ريحاً، فقال: أراه من شراب شربته عند سودة، و الله لا أشربه أبداً، فأنزل الله: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ الْآيَةَ». و أخرج ابن سعد عن عبد الله بن رافع قال: سألت أم سلمة عن هذه الآية يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ قَالَتْ: كانت عندى عكة «١» من عسل أبيض، فكان النّبي صلّى الله عليه و سلّم يلعق منها و كان يحبه، فقالت له عائشة:

نحلها تجرس عرفطاً «٢»، فحرّمها، فنزلت الآية. و أخرج النسائى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن أنس: أن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم كانت له أمة يطؤها، فلم تزل عائشة و حفصة حتى جعلها على نفسه حراماً، فأنزل الله هذه الآية يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ و أخرج البزار و الطبرانى، قال السيوطى: بسند صحيح، عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ قال: عائشة و حفصة، و كان بدو الحديث فى شأن مارية القبطية أم إبراهيم أصابها النّبي صلّى الله عليه و سلّم فى بيت



حفصة في يومها، فوجدت حفصة فقالت: يا رسول الله لقد جئت إلي بشيء ما جئته إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري على فراشي، قال: ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها أبدا؟ قالت: بلى، فحرمها وقال: لا تذكرى ذلك لأحد، فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه، فأنزل الله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ الْآيَاتِ كُلَّهَا، فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كَفَّرَ عن يمينه، وأصاب مارية. وأخرجه ابن سعد وابن مردويه عنه بأطول من هذا. وأخرجه ابن مردويه أيضا من وجه آخر عنه بأخصر منه، وأخرجه ابن المنذر والطبراني وابن مردويه عنه مختصرا بلفظ قال: حَرَّمَ سرّيته، وجعل ذلك سبب النزول في جميع ما روى عنه من هذه الطرق، وأخرج الهيثم بن كليب في مسنده، والضياء المقدسي في المختارة، من طريق نافع عن ابن عمر قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لحفصة: لا- تحدثي أحدا، وإن أم إبراهيم علي حرام، فقالت: أتحرم ما أحل الله لك؟ قال: فوالله لا أقربها. فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، فأنزل الله:

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَأَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ سَبَبَ نَزُولِ الْآيَةِ تَحْرِيمَ مَارِيَةَ كَمَا سَلَفَ، وَسَنَدُهُ ضَعِيفٌ. فَهَذَا سَبَبَانِ صَحِيحَانِ لِنَزُولِ الْآيَةِ، وَالْجَمْعُ مُمْكِنٌ بِوُقُوعِ الْقِصَّتَيْنِ: قِصَّةُ الْعَسَلِ، وَقِصَّةُ مَارِيَةَ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ فِيهِمَا جَمِيعًا، وَفِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنَّهُ أَسْرَ الْحَدِيثِ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ، وَأَمَّا مَا قِيلَ مِنْ أَنَّ السَّبَبَ هُوَ تَحْرِيمُ الْمَرْأَةِ الَّتِي وَهَبَتْ نَفْسَهَا، فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ إِلَّا مَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ فِي الْمَرْأَةِ الَّتِي وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ السَّيُوطِيُّ: وَسَنَدُهُ ضَعِيفٌ. وَيُرَدُّ هَذَا أَيْضًا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ

(١). «العكة»: زَقَّ صَغِيرًا لِلسَّمَنِ.

(٢). «تجرس»: تَأْكُلُ. وَ«العرفط»: شَجَرٌ.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٠١

يقبل تلك الواهبة لنفسها، فكيف يصح أن يقال إنه نزل في شأنها: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ فَإِنَّ مِنْ رَدِّ مَا وَهَبَ لَهُ لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ حَرَمَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَيْضًا لَا يَنْطَبِقُ عَلَى هَذَا السَّبَبِ قَوْلُهُ: وَإِذْ أَسْرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا إِلَى آخِرِ مَا حَكَاهُ اللَّهُ. وَأَمَّا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ وَغَيْرِهِمَا: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سَأَلَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَنِ الْمَرْأَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَظَاهَرَتَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُمَا عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ، ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ الْإِيْلَاءِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الطَّوِيلِ، فَلَيْسَ فِي هَذَا نَفْيٌ لِكُونَ السَّبَبِ هُوَ مَا قَدَّمْنَا مِنْ قِصَّةِ الْعَسَلِ وَقِصَّةِ السَّرِيَّةِ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَخْبَرَهُ بِالْمُتَظَاهِرَتَيْنِ، وَذَكَرَ فِيهِ أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرَاغِبْنَ وَتَهْجِرْنَ إِحْدَاهُنِ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ، وَأَنَّ ذَلِكَ سَبَبُ الْإِعْتِزَالِ لَا- سَبَبُ نَزُولِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ وَ يُؤَيِّدُ هَذَا مَا قَدَّمْنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ لِعُمَرَ: مِنَ الْمَرْأَتَانِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا؟ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُمَا حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ، وَبَيَّنَّ لَهُ أَنَّ السَّبَبَ قِصَّةُ مَارِيَةَ. هَذَا مَا تَسِيرُ مِنْ تَلْخِيصِ سَبَبِ نَزُولِ الْآيَةِ، وَدَفْعِ الْإِخْتِلَافِ فِي شَأْنِهِ، فَاشْدُدْ عَلَيْهِ يَدَيْكَ لِتَنْجُو بِهِ مِنَ الْخِطْبِ وَالْخَلْطِ الَّذِي وَقَعَ لِلْمُفْسِّرِينَ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: فِي الْحَرَامِ يَكْفُرُ، وَقَالَ: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (١). وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذَرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْهُ أَنَّهُ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنِّي جَعَلْتُ امْرَأَتِي عَلَى حَرَامٍ، فَقَالَ: كَذَبْتَ لَيْسَتْ عَلَيْكَ بِحَرَامٍ، ثُمَّ تَلَا: لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ قَالَ: عَلَيْكَ أَغْلَظُ الْكُفَّارَاتِ عَتَقَ رَقَبَةً. وَأَخْرَجَ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي أُسَامَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «لَمَّا حَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ لَا يَنْفِقَ عَلَى مَسْطَحٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ فَأَحَلَّ يَمِينَهُ وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ». وَأَخْرَجَ ابْنُ عَدِيٍّ وَابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ عَائِشَةَ فِي قَوْلِهِ: وَإِذْ أَسْرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا قَالَتْ: أَسْرَّ إِلَيْهَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي. وَأَخْرَجَ ابْنُ عَدِيٍّ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الصَّحَابَةِ، وَالْعِشَارِيُّ فِي فَصَائِلِ الصَّدِيقِ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ

ابن عساكر من طرق عن عليّ و ابن عباس قال: و الله إن إمارة أبي بكر و عمر لفي الكتاب: وَ إِذْ أَسِيرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَرِيدًا قَالَ لِحَفْصَةَ: «أبوك و أبو عائشة و اليا الناس بعدى، فإياك أن تخبرى أحدا بهذا». قلت: و هذا ليس فيه أنه سبب نزول قوله: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ بَلْ فِيهِ أَنْ الْحَدِيثَ الَّذِي أَسْرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ هُوَ هَذَا، فعلى فرض أن له إسنادا يصلح للاعتبار هو معارض بما سبق من تلك الروايات الصحيحة، و هى مقدّمة عليه و مرجّحة بالنسبة إليه. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا قَالَ: زَاغَتْ وَ أَثْمَتْ. و أخرج ابن المنذر عنه قال: مالك. و أخرج ابن عساكر من طريق عبد الله بن بريده عن أبيه فى قوله: وَ صَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: أبو بكر و عمر. و أخرج ابن عساكر عن ابن مسعود مثله.

و أخرج الطبرانى و ابن مردويه، و أبو نعيم فى فضائل الصحابة، من وجه آخر عنه مثله. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر و ابن عباس مثله. و أخرج الحاكم عن أبي أمامة مرفوعا مثله. و أخرج ابن أبي حاتم، قال السيوطى: بسند ضعيف، عن عليّ مرفوعا قال: «هو عليّ بن أبي طالب». و أخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «وَ صَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي تَالِبٍ». و أخرج ابن مردويه و ابن

(١). الأحزاب: ٢١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٠٢

عساكر عن ابن عباس فى قوله: وَ صَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: هو عليّ بن أبي طالب. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن بريده فى قوله: نَبِيَّاتٍ وَ أَبْكَارًا قَالَ: وعد الله نبيه صلى الله عليه و سلم فى هذه أن يزوجه بالثيب آسية امرأة فرعون، و بالبكر مريم بنت عمران.

### [سورة التحريم (٦٦): الآيات ٦ الى ٨]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بَأْيَمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَ غَفِرُوا لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)

قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ بفعل ما أمركم به و ترك ما نهاكم عنه وَ أَهْلِيكُمْ بأمرهم بطاعته الله، و نهيمهم عن معاصيه نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ أى: نارا عظيمة تتوقد بالناس و بالحجارة كما يتوقد غيرها بالحطب، و قد تقدم بيان هذا فى سورة البقرة. قال مقاتل بن سليمان: المعنى: قوا أنفسكم و أهليكم، بالأدب الصالح، النار فى الآخرة. و قال قتادة و مجاهد: قوا أنفسكم بأفعالكم، و قوا أهليكم بوصيتكم. قال ابن جرير: فعلينا أن نعلم أولادنا الدين و الخير و ما لا يستغنى عنه من الأدب، و من هذا قوله:

وَ أَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَ اضْطَبَّرَ عَلَيْهَا «١» و قوله: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ «٢». عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ أى: على النار خزنة من الملائكة يلون أمرها و تعذيب أهلها، غلاظ على أهل النار، شداد عليهم، لا يرحمونهم إذا استرحموهم؛ لأن الله سبحانه خلقهم من غضبه، و حبب إليهم تعذيب خلقه، و قيل:

المراد غلاظ القلوب شداد الأبدان، و قيل: غلاظ الأقوال شداد الأفعال، و قيل: الغلاظ ضخام الأجسام، و الشداد: الأقوياء لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ أى: لا يخالفونه فى أمره، و «ما» فى ما أَمَرَهُمْ يجوز أن تكون موصولة و العائد محذوف، أى: لا يعصون

الله الذي أمرهم به، و يجوز أن تكون مصدرية، أي: لا- يعصون الله أمره، على أن يكون ما أمرهم بدل اشتغال من الاسم الشريف، أو على تقدير نزع الخافض، أي: لا- يعصون الله في أمره وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ أي: يؤدونه في وقته من غير تراخ، لا يؤخرونه عنه ولا- يقدمونه يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ أي: يقال لهم هذا القول عند إدخالهم النار تأييساً لهم و قطعاً لأطماعهم إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ من الأعمال في الدنيا، و مثل هذا قوله: فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعِذَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا أي: تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب عنه، و صفت بذلك على الإسناد المجازي، و هو في الأصل وصف للتائبين أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم بالعزم على الترك للذنب و ترك المعاودة له.

(١). طه: ١٣٢.

(٢). الشعراء: ٢١٤.

(٣). الروم: ٥٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٠٣

و التوبة فرض على الأعيان. قال قتادة: التوبة النصوح: الصادقة، و قيل: الخالصة. و قال الحسن: التوبة النصوح: أن يبغض الذنب الذي أحبه و يستغفر منه إذا ذكره. و قال الكلبي: التوبة النصوح الندم بالقلب، و الاستغفار باللسان، و الإقلاع بالبدن، و الاطمئنان على أن لا يعود. و قال سعيد بن جبيرة: هي التوبة المقبولة.

قرأ الجمهور: «نصوحاً» بفتح النون على الوصف للتوبة، أي: توبة بالغة في النصح، و قرأ الحسن و خارجه و أبو بكر عن عاصم بضمها، أي: توبة نصح لأنفسكم، و يجوز أن يكون جمع ناصح، و أن يكون مصدراً، يقال: نصح نصاحه و نصوحاً. قال المبرّد: أراد توبة ذات نصح. عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم و يدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار بسبب تلك التوبة، و عسى و إن كان أصلها للإطعام فهي من الله واجبة، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، و يدخلكم معطوف على يكفر منصوب بناصبه و بالنصب قرأ الجمهور، و قرئ بالجزم عطفاً على محل عيسى، كأنه قال: توبوا يوجب تكفير سيئاتكم و يدخلكم يوم لا يخزي الله النبي الظرف متعلق بیدخلكم، أي: يدخلكم يوم لا يخزي الله النبي و الذين آمنوا معه و الموصول معطوف على النبي، و قيل: الموصول مبتدأ، و خبره: نورهم يشي عى بين أيديهم و بأيمانهم و الأول أولى، و تكون جملة نورهم يشي عى في محل نصب على الحال أو مستأنفة لبيان حالهم، و قد تقدّم في سورة الحديد أن النور يكون معهم حال مشيهم على الصراط، و جملة يقولون ربنا أتمم لنا نورنا و اغفر لنا إنك على كل شئ قدير في محل نصب على الحال أيضاً، و على الوجه الآخر تكون خبراً آخر، و هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين، كما تقدّم بيانه و تفصيله.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابي و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، عن علي بن أبي طالب في قوله: قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً قال: علموا أنفسكم و أهليكم الخير و أدبواهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: اعلموا بطاعة الله و اتقوا معاصي الله، و أمروا أهلكم بالذكر ينجمكم الله من النار. و أخرج عبد بن حميد عنه في الآية قال: أدبوا أهليكم.

و أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، عن أبي عمران الجوني قال: بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر، ما بين منكبي أحدهم مسيرة مائة خريف، ليس في قلوبهم رحمة، إنما خلقوا للعذاب، يضرب الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحناً من لدن قرنه إلى قدمه. و أخرج عبد الرزاق و الفريابي و سعيد بن منصور و ابن أبي شيبه و هناد و ابن منيع و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب، عن النعمان بن بشير أن عمر بن



الخالصة وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ الكَلَامَ فِي هَذَا كَالكَلَامِ فِي المِثْلِ الَّذِي قَبْلَهُ، أَى:

جعل الله حال امرأة فرعون مثلاً لحال المؤمنين ترغيباً لهم في الثبات على الطاعة، و التمسك بالدين، و الصبر في الشدة، و أن صولته الكفر لا تضرهم، كما لم تضر امرأة فرعون، و قد كانت تحت أكفر الكافرين، و صارت بإيمانها بالله في جنات النعيم إذ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ الظرف متعلق بضرب أو بمثلاً، أَى: ابن لى بيتاً قريباً من رحمتك، أو فى أعلى درجات المقربين منك، أو فى مكان لا يتصرف فيه إلا بإذنك و هو الجنة وَ نَجَّيْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قال الكلبي: هم أهل مصر. و قال مقاتل: هم القبط. قال الحسن و ابن كيسان: نجاها الله أكرم نجاه، و رفعها إلى الجنة فهى تأكل و تشرب وَ مَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا نَسَبَهَا معطوف على امرأة فرعون، أَى: و ضرب الله مثلاً- للذين آمنوا مريم ابنة عمران، أَى: حالها و صفتها، و قيل: إن الناصب لمريم فعل مقدر، أَى: و اذكر مريم، و المقصود من ذكرها أن الله سبحانه جمع لها بين كرامة الدنيا و الآخرة، و اصطفاه على نساء العالمين مع كونها بين قوم كافرين الَّتِي أَحْصَيْنَا نَسَبَهَا أَى: عن الفواحش، و قد تقدم تفسير هذا فى سورة النساء. قال المفسرون: المراد بالفرج هنا الجيب؛ لقوله: فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا «١» و ذلك أن جبريل نفخ فى جيب درعها فجلت بعيسى وَ صَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا يعنى شرائعه التى شرعها لعباده، و قيل: المراد بالكلمات هنا هو قول جبريل لها: إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ «٢» الآية. و قال مقاتل: يعنى بالكلمات عيسى. قرأ الجمهور: «و صدقت» بالتشديد، و قرأ حميد و الأعمى و يعقوب و قتادة و أبو مجلز و عاصم فى رواية عنه بالتخفيف. و قرأ الجمهور: «بكلمات» بالجمع، و قرأ الحسن و مجاهد و الجحدري «بكلمة» بالإنفراد. و قرأ الجمهور: «و كتابه» بالإنفراد، و قرأ أهل البصرة و حفص «كتبه» بالجمع، و المراد على قراءة الجمهور الجنس فيكون فى معنى الجمع، و هى الكتب المنزلة على الأنبياء وَ كَانَتْ مِنَ الْقَائِنِينَ قال قتادة: من القوم المطيعين لربهم. و قال عطاء: من المصلين، كانت تصلى بين المغرب و العشاء، و يجوز أن يراد بالقائنين رهطها و عشيرتها الذين كانت منهم، و كانوا مطيعين أهل بيت صلاح و طاعة، و قال: من القائنين، و لم يقل من القائنات؛ لتغليب الذكور على الإناث.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابي و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، من طرق عن ابن عباس فى قوله: فَخَانَتْهُمَا قال: ما زنتا، أما خيانه امرأة نوح فكانت تقول للناس: إنه مجنون؛ و أما خيانه امرأة لوط فكانت تدل على الضيف، فتلك خيانتها. و أخرج ابن المنذر عنه قال: ما بغت امرأة نبى قط، و قد رواه ابن عساکر مرفوعاً. و أخرج ابن أبى شيبه و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب، عن سلمان قال:

كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، و كانت ترى بيتها فى الجنة.

(١): الأنبياء: ٩١.

(٢): مريم: ١٩.

و أخرج عبد بن حميد عن أبى هريرة: إن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد، و أضجعها على صدرها «١»، و جعل على صدرها رحي و استقبال بها عين الشمس، فرفعت رأسها إلى السماء، ف قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ إِلَى قوله: مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ففرج الله لها عن بيتها فى الجنة فرأته. و أخرج أحمد و الطبرانى، و الحاكم و صححه، عن ابن عباس قال: قال رسول

اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، و مريم بنت عمران، و آسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قصَّ الله علينا من خبرها في القرآن قالت رَبِّ ابْنِ لِيْ عِنْدَكَ بَيْتًا» الآية. و في الصحيحين و غيرهما من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كامل من الرجال كثير، و لم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون و مريم بنت عمران و خديجة بنت خويلد، و إن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». و أخرج وكيع في «الغرر»، عن ابن عباس في قوله: وَ نَجِّنِيْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ قَالَ: من جماعته.

(١). لعله: على ظهرها؛ بدليل قوله بعد: و جعل على صدرها.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٠٧

## سورة الملك

### إشارة

و هي مكية. قال القرطبي: في قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت بمكة سورة تبارك الملك. و أخرج أحمد و أبو داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجه و ابن الضريس، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له تبارك الذي بيده الملك قال الترمذي: هذا حديث حسن. و أخرج الطبراني في الأوسط، و ابن مردويه، و الضياء في المختارة، عن أنس قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة تبارك الذي بيده الملك . و أخرج الترمذي، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و ابن نصر، و البيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: «ضرب بعض أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خباءه على قبر، و هو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر». قال الترمذي بعد إخرجه: هذا حديث غريب من هذا الوجه. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تبارك هي المانعة من عذاب القبر»، و أخرجه أيضا النسائي و صححه، و الحاكم. و أخرج ابن مردويه عن رافع بن خديج و أبي هريرة أنهما سمعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:

«أنزلت على سورة تبارك، و هي ثلاثون آية جملة واحدة، و هي المانعة في القبور». و أخرج عبد بن حميد في مسنده، و الطبراني، و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال لرجل: ألا أتخفك بحديث تفرح به؟ قال بلى: قال: اقرأ: تبارك الذي بيده الملك و علمها أهلك و جميع ولدك و صبيان بيتك و جيرانك، فإنها المنجية، و المجادلة تجادل يوم القيامة عند ربها لقارئها، و تطلب له أن ينجيه الله من عذاب النار، و ينجو بها صاحبها من عذاب القبر. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة الملك (٦٧): الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَهْسُنْ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ  
(٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ  
كَرْتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِنًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)

وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَ  
بِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَجَعُوا لَهَا سَهْقًا وَ هِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ  
يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَ قُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩)  
وَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٠٨

قوله: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ تبارك: تفاعل من البركة، و البركة: النماء و الزيادة، و قيل: تعالى و تعاضم عن صفات  
المخلوقين، و قيل: دام فهو الدائم الذي لا أول لوجوده و لا آخر لدوامه. و قال الحسن:

تبارك: تقدس، و صيغته التفاعل للمبالغة، و اليد مجاز عن القدرة و الاستيلاء، و الملك: هو ملك السماوات و الأرض في الدنيا  
و الآخرة، فهو يعز من يشاء و يذل من يشاء، و يرفع من يشاء و يضع من يشاء، و قيل:

المراد بالملك ملك النبوة، و الأول أولى؛ لأن الحمل على العموم أكثر مدحا و أبلغ ثناء، و لا وجه للتخصيص وَهُوَ عَلَى كُلِّ  
شَيْءٍ قَدِيرٌ أى: بليغ القدرة، لا يعجزه شىء من الأشياء، يتصرف فى ملكه كيف يريد من إنعام و انتقام، و رفع و وضع، و إعطاء و  
منع الذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيَاةَ الموت: انقطاع تعلق الروح بالبدن و مفارقتها له، و الحياة: تعلق الروح بالبدن و اتصاله به، و قيل:  
هى ما يصح بوجوده الإحساس، و قيل:

ما يوجب كون الشىء حيا، و قيل: المراد الموت فى الدنيا و الحياة فى الآخرة. و قدّم الموت على الحياة؛ لأن أصل الأشياء عدم  
الحياة، و الحياة عارضة لها، و قيل: لأن الموت أقرب إلى القهر. و قال مقاتل: خَلَقَ الْمَوْتَ يعنى النطفة و المضغعة و العلقه، وَ  
الْحَيَاةَ يعنى خلقه إنسانا و خلق الروح فيه، و قيل: خلق الموت على صورة كبش لا- يمر على شىء إلا مات، و خلق الحياة على  
صورة فرس لا- تمر بشىء إلا- حيا، قاله مقاتل و الكلبي. و قد ورد فى التنزيل: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (١) و  
قوله: وَ لَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ (٢) و قوله: تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا (٣) و قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (٤) و غير ذلك  
من الآيات. لِيُبْلُوَكُمْ أَهْسُنْ عَمَلًا اللام متعلقة بخلق، أى: خلق الموت و الحياة ليعاملكم معاملة من يختبركم أيكم أحسن  
عملا، فيجازيكم على ذلك، و قيل: المعنى: ليلوكم أيكم أكثر للموت ذكرا و أشد منه خوفا، و قيل: أيكم أسرع إلى طاعة الله،  
و أروع عن محارم الله. و قال الزجاج:

اللام متعلق بخلق الحياة، لا بخلق الموت، و قال الزجاج أيضا و الفراء: أن قوله: «ليلوكم» لم يقع على أى؛ لأن فيما بين البلوى و  
أى إضمار فعل، كما تقول: بلوكم لأنظر أيكم أطوع، و مثله قوله: سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٥) أى: سلّمهم ثم انظر أيهم، فأيكم  
فى الآية مبتدأ و خبره أحسن، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، و إيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لجميع أعمالهم  
المنقسمة إلى الحسن و القبيح لا إلى الحسن و الأحسن فقط للإيدان بأن المراد بالذات و المقصد الأصلي من الابتلاء هو ظهور  
كمال إحسان المحسنين وَهُوَ الْعَزِيزُ أى: الغالب الذي لا يغالب الغفور لمن تاب و أناب الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا الموصول  
يجوز أن يكون تابعا للعزيز الغفور نعتا أو بيانا أو بدلا، و أن يكون منقطعا عنه على أنه خبر مبتدأ

(١). السجدة: ١١.

(٢). الأنفال: ٥٠.

(٣). الأنعام: ٦١.

(٤). الزمر: ٤٢.

(٥). القلم: ٤٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٠٩

محذوف، أو منصوب على المدح، و طباقاً صفة لسبع سماوات، أى: بعضها فوق بعض، و هو جمع طبق، نحو جبل و جبال، أو جمع طبقه، نحو رجة و رحاب، أو مصدر طابق، يقال: طابق مطابقه و طباقاً، و يكون على هذا الوجه الوصف بالمصدر للمبالغة أو على حذف مضاف، أى: ذات طبق، و يجوز أن يكون منتصباً على المصدرية بفعل محذوف، أى: طوبقت طباقاً ما ترى فى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ صَفَةً ثَانِيَةً لِسَبْعِ سَمَاوَاتٍ، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها، و الخطاب لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، أو لكل من يصلح له، و من مزيدة لتأكيد النفي. قرأ الجمهور: «من تفاوت»، و قرأ ابن مسعود و أصحابه و الكسائي «تفاوت» مشدداً بدون ألف، و هما لغتان، كالتعاهد و التعهد، و التحامل و التحمل؛ و المعنى على القراءتين: ما ترى فى خلق الرحمن من تناقض و لا- تباين و لا- اعوجاج و لا تخالف، بل هى مستوية مستقيمة دالمة على خالقها، و إن اختلفت صورها و صفاتها فقد اتفقت من هذه الحيثية فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورِ الْفُطُورِ:

الشقوق و الصدوع و الخروق، أى: اردد طرفك حتى يتضح لك ذلك بالمعينة. أخبر أولاً بأنه لا تفاوت فى خلقه، ثم أمر ثانياً بترديد البصر فى ذلك لزيادة التأكيد و حصول الطمأنينة. قال مجاهد و الضحاك: الفطور و الشقوق جمع فطر، و هو الشق. و قال قتادة: هل ترى من خلل. و قال السدى: هل ترى من خروق، و أصله من التفطر و الانفطار، و هو التشقق و الانشقاق، و منه قول الشاعر:

بنى لكم بلا عمد سماء وزينها فما فيها فطور

و قول الآخر

شقت القلب ثم ذررت فيه هواك فليم فالتأم الفطور

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ أَى: رجعتين مرة بعد مرة، و انتصابه على المصدر، و المراد بالثنية الكثير، كما فى ليك و سعديك، أى: رجعة بعد رجعة و إن كثرت. و وجه الأمر بتكرير النظر على هذه الصفة أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب فى النظرة الأولى و لا فى الثانية. و لهذا قال أولاً: ما ترى فى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ثُمَّ قَالَ ثَانِيًا: فَارْجِعِ الْبَصَرَ ثُمَّ قَالَ ثَالِثًا: ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَأَقْطَعُ لِلْمَعْدِرَةِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصِيرُ خَاسِئًا أَى: يرجع إليك البصر ذليلاً صاغراً عن أن يرى شيئاً من ذلك، و قيل: معنى خاسئاً: مبعداً مطروداً عن أن يبصر ما التمسه من العيب، يقال:

خسأت الكلب، أى: أبعدته و طردته. قرأ الجمهور: «ينقلب» بالجزم جواباً للأمر. و قرأ الكسائي فى رواية بالرفع على الاستئناف وَ هُوَ حَسِيْبٌ أَى: كليل منقطع. قال الزجاج: أى: و قد أعيا من قبل أن يرى فى السماء خللاً، و هو فعيل بمعنى فاعل من الحسور، و هو الإعياء، يقال: حسر بصره يحسر حسورا، أى: كل و انقطع، و منه قول الشاعر:

نظرت إليها بالمحصب من منى فعاد إلى الطرف و هو حسير

وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ بَيْنَ سَبْحَانِهِ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ، وَ خَلْوَاهَا مِنَ الْعَيْبِ وَ الْخَلْلِ؛

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣١٠



أنه زينها بهذه الزينة، فصارت في أحسن خلق، و أكمل صورة، و أبهج شكل، و المجيء بالقسم لإبراز كمال العناية، و المصاييح: جمع مصباح، و هو السراج، و سميت الكواكب مصاييح لأنها تضيء كإضاءة السراج و بعض الكواكب و إن كان في غير سماء الدنيا من السماوات التي فوقها، فهي تتراءى كأنها كلها في سماء الدنيا؛ لأن أجرام السماوات لا تمنع من رؤيته ما فوقها مما له إضاءة؛ لكونها أجراماً صقيلة شفاقة و جعلناها رُجوماً للشياطين أي: و جعلنا المصاييح رجوماً يرمم بها الشياطين، و هذه فائدة أخرى غير الفائدة الأولى و هي كونها زينة للسماء الدنيا؛ و المعنى أنها يرمم بها الشياطين الذين يسترقون السمع، و الرجوم: جمع رجم بالفتح، و هو في الأصل مصدر أطلق على المرجوم به، كما في قولهم: الدرهم ضرب الأمير، أي: مضروبه، و يجوز أن يكون باقياً على مصدريته، و يقدر مضاف محذوف، أي: ذات رجم، و جمع المصدر باعتبار أنواعه.

و قيل: إن الضمير في قوله: وَ جَعَلْنَاهَا رَاجِعٌ إِلَى الْمَصَايِحِ عَلَى حَذْفِ مِصْرَفٍ، أي: شهبها، و هي نارها المقتبسة منها، لا هي أنفسها؛ لقوله: إِيَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١) و وجه هذا أن المصاييح التي زين الله بها السماء الدنيا لا تزول و لا يرمم بها، كذا قال أبو علي الفارسي جواباً لمن سأله:

كيف تكون المصاييح زينة و هي رجوم؟ قال القشيري: و أمثل من قوله هذا أن نقول: هي زينة قبل أن يرمم بها الشياطين. قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، و رجوماً للشياطين، و علامات يهتدى بها في البرّ و البحر، فمن تكلم فيها بغير ذلك فقد تكلم فيما لا يعلم و تعدى و ظلم؛ و قيل: معنى الآية:

و جعلناها ظنونا للشياطين الإنس، و هم المنجمون. وَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ أَي: و أعتدنا للشياطين في الآخرة بعد الإحراق في الدنيا بالشهب عذاب السعير، أي: عذاب النار، و السعير: أشدّ الحريق، يقال:

سعرت النار فهي مسعورة. وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ مِنْ كُفَّارِ الْفَرِيقَيْنِ عَذَابٌ جَهَنَّمُ قَرَأَ الْجُمْهُورُ بَرَفَعِ «عَذَابٌ» عَلَى أَنَّهُ مَبْتَدَأٌ وَ خَبْرُهُ «لِلَّذِينَ كَفَرُوا». وَ قَرَأَ الْحَسَنُ وَ الضَّحَّاكُ وَ الْأَعْرَجُ بِنَصْبِهِ عَطْفًا عَلَى «عَذَابِ السَّعِيرِ» وَ بِسِسِّ الْمَصْرُورِ مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ، وَ هُوَ جَهَنَّمُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا أَي: طرحوا فيها كما يطرح الحطب في النار سَجِعُوا لَهَا شَهِيْقًا أَي: صوتاً كصوت الحمير عند أول نهيقتها، و هو أقبح الأصوات، و قوله: لَهَا فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ، أَي: كائنات لها؛ لأنه في الأصل صفة، فلما قدّمت صارت حالاً. وَ قَالَ عَطَاءٌ: الشَّهِيقُ هُوَ مِنَ الْكُفَّارِ عِنْدَ إِقَائِهِمْ فِي النَّارِ، وَ جُمْلَةٌ وَ هِيَ تَقُورُ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ: أَي وَ الْحَالُ أَنَّهَا تَعْلَى بِهِمْ غَلِيَانِ الْمَرْجُلِ، وَ مِنْهُ قَوْلُ حَسَّانَ:

تَرَكْتُمْ قَدْرَكُمْ لَا شَيْءَ فِيهَا\* وَ قَدْرُ الْغَيْرِ «٢» حَامِيَةٌ تَقُورُ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ أَي: تكاد تتقطع و ينفصل بعضها من بعض من تغليظها عليهم. قال ابن قتيبة:

تَكَادُ تَنْشَقُّ غِيْظًا عَلَى الْكُفَّارِ. قَرَأَ الْجُمْهُورُ: «تَمَيِّزُ» بَتَاءٍ وَاحِدَةً مَخْفَفَةً، وَ الْأَصْلُ تَمَيِّزُ بَتَاءَيْنِ. وَ قَرَأَ طَلْحَةُ بَتَاءَيْنِ عَلَى الْأَصْلِ. وَ قَرَأَ الْبَزِي عَنْ ابْنِ كَثِيرٍ بِتَشْدِيدِهَا بِإِدْغَامِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ فِي الْآخِرَى. وَ قَرَأَ الضَّحَّاكُ:

(١). الصافات: ١٠.

(٢). في تفسير القرطبي: القوم.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣١١

«تمايز» بالألف و تاء واحدة، و الأصل تمايز، و قرأ زيد بن علي «تمايز» من ماز يميز، و الجملة في محل نصب على الحال، أو في محل رفع على أنها خبر آخر لمبتدأ، و جملة كلّمأ ألقى فيها فوج سألهم خزنتها مستأنفة لبيان حال أهلها، أو في محل نصب على الحال من فاعل تمايز، و الفوج: الجماعة من الناس، أي: كلما ألقى في جهنم جماعة من الكفار سألهم خزنتها من الملائكة سؤال

توبيخ و تفریح أَلَمْ يَأْتِكُمْ فِي الدُّنْيَا نَذِيرٌ يَنْذِرُكُمْ هَذَا الْيَوْمَ وَيَحْذِرُكُمْ مِنْهُ؟ وَجَمَلُهُ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ مُسْتَأْنَفُهُ جَوَابُ سُؤَالِ مَقْدَرٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَمَاذَا قَالُوا بَعْدَ هَذَا السُّؤَالِ؟ فَقَالَ: قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَأَنْذَرْنَا وَخَوْفْنَا وَ أَخْبَرْنَا بِهَذَا الْيَوْمِ فَكَذَّبْنَا ذَلِكَ النَّذِيرَ وَقُلْنَا مَا نَزَلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَلْسِنَتِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ أَى: فِي ذَهَابٍ عَنِ الْحَقِّ وَ بَعْدَ عَنِ الصَّوَابِ، وَ الْمَعْنَى أَنَّهُ: قَالَ كُلُّ فَوْجٍ مِنْ تِلْكَ الْأَفْوَاجِ حَاكِيًا لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ مَا قَالَهُ لِمَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ: مَا أَنْتُمْ أَيُّهَا الرِّسْلُ فِيمَ تَدَّعُونَ أَنْ اللَّهُ نَزَلَ عَلَيْكُمْ آيَاتٍ تَنْذِرُونَا بِهَا إِلَّا فِي ذَهَابٍ عَنِ الْحَقِّ وَ بَعْدَ عَنِ الصَّوَابِ كَبِيرٍ لَا يَقَادِرُ قَدْرَهُ. ثُمَّ حَكَى عَنْهُمْ مَقَالَهُ أُخْرَى قَالُوا بَعْدَ تِلْكَ الْمَقَالَةِ فَقَالَ: وَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ أَى: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ مَا خَاطَبَنَا بِهِ الرِّسْلُ، أَوْ نَعْقِلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ مَا كُنَّا فِي عِدَادِ أَهْلِ النَّارِ، وَ مِنْ جَمَلُهُ مِنْ يَعْذَبُ بِالسَّعِيرِ، وَ هُمُ الشَّيَاطِينُ كَمَا سَلَفَ.

قال الزجاج: لو كنا نسمع سمع من يعي، أو نعقل عقل من يميز، و ينظر، ما كنا من أهل النار، فلما اعترفوا هذا الاعتراف قال الله سبحانه: فَأَعْتَرَفُوا بِعَدْنِهِمْ الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ عَذَابَ النَّارِ، وَ هُوَ الْكُفْرُ وَ تَكْذِيبُ الْأَنْبِيَاءِ فَسَيُحَقَّقُ لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ أَى: فَبَعْدًا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ رَحْمَتِهِ. وَ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَ أَبُو صَالِحٍ:

هو واد في جهنم يقال له السَّيِّحُ. قرأ الجمهور: «فسحقا» بإسكان الحاء. و قرأ الكسائي و أبو جعفر بضمها، و هما لغتان، مثل السَّحْتِ وَ الرَّعْبِ. قال الزجاج و أبو عليّ الفارسي: فسحقا منصوب على المصدر، أَى: أسحقهم الله سحقا. قال أبو عليّ الفارسي: و كان القياس إسحاقا فجاء المصدر على الحذف، و اللام في لأصحاب السَّعِيرِ للبيان كما في: هَيْتَ لَكَ «١».

و قد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله: سَبَّحَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا قَالَ: بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه في قوله: مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ قَالَ: مَا تَفَوَّتَ بَعْضُهُ بَعْضًا تَفَاوُتًا مَفْرُقًا. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عنه أيضا في قوله: مِنْ تَفَاوُتٍ قَالَ: مِنْ تَشَقُّقٍ، وَ فِي قَوْلِهِ: هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ قَالَ: شَقُوقٌ، وَ فِي قَوْلِهِ: خَاسِنًا قَالَ: ذَلِيلًا وَ هُوَ حَسِيرٌ كَلِيلٌ. و أخرج ابن جرير عنه أيضا. قَالَ: الْفُطُورُ: الْوَهْيُ. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا: مِنْ فُطُورٍ قَالَ: مِنْ تَشَقُّقٍ أَوْ خَلَلٍ، وَ فِي قَوْلِهِ: يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصِيرُ قَالَ: يَرْجِعُ إِلَيْكَ خَاسِنًا صَاغِرًا وَ هُوَ حَسِيرٌ قَالَ: يَعْبَى وَ لَا يَرَى شَيْئًا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا خَاسِنًا قَالَ: ذَلِيلًا وَ هُوَ حَسِيرٌ قَالَ: عَيْبٌ مَرْتَجِعٌ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس

(١). يوسف: ٢٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣١٢

تَكَادُ تَمَيَّزُ قَالَ: تَتَفَرَّقُ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا تَكَادُ تَمَيَّزُ قَالَ: يَفَارِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا: فَسُحْقًا قَالَ: بَعْدًا.

## [سورة الملك (٦٧): الآيات ١٢ الى ٢١]

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَ أَسْرَتُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْمَأْرُضَ ذُلُولًا. فَأَمْسُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَ كَلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦)

أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَمْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَ يَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بِصِيرٌ (١٩) أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ

يَنْصُرْكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَزُوقَكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ (٢١) قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَمَّا فَرَّغَ سُبْحَانَهُ مِنْ ذِكْرِ أَحْوَالِ أَهْلِ النَّارِ ذَكَرَ أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَ «بِالْغَيْبِ» حَالُ مَنْ الْفَاعِلُ أَوْ الْمَفْعُولُ، أَيْ: غَائِبِينَ عَنْهُ، أَوْ غَائِبًا عَنْهُمْ، وَ الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ عَذَابَهُ وَ لَمْ يَرَوْهُ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ خَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ حَالُ كَوْنِهِمْ غَائِبِينَ عَنِ عَيْنِ النَّاسِ وَ ذَلِكَ فِي خُلُوتِهِمْ، أَوْ الْمُرَادُ بِالْغَيْبِ كَوْنُ الْعَذَابِ غَائِبًا عَنْهُمْ لِأَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَ هُوَ إِنَّمَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَكُونُ الْبَاءُ عَلَى هَذَا سَبَبِيَّةً لَهُمْ مَغْفِرَةً عَظِيمَةً يَغْفِرُ اللَّهُ بِهَا ذُنُوبَهُمْ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ وَ هُوَ الْجَنَّةُ، وَ مِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ: مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ «١». ثُمَّ عَادَ سُبْحَانَهُ إِلَى خُطَابِ الْكُفَّارِ فَقَالَ: وَ أَسِئَرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ مُسَوِّقَةٌ لِيَبَانَ تَسَاوَى الْإِسْرَارِ وَ الْجَهْرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ الْمَعْنَى: إِنْ أَخْفَيْتُمْ كَلَامَكُمْ أَوْ جَهَرْتُمْ بِهِ فِي أَمْرٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، فَكُلَّ ذَلِكَ يَعْلَمُهُ اللَّهُ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ خَافِيَةٌ، وَ جُمْلَةٌ: إِنَّهُ عَلِيمٌ بِعَذَابِ الصُّدُورِ تَعْلِيلٌ لِلْإِسْتِوَاءِ الْمَذْكُورِ، وَ ذَاتِ الصُّدُورِ هِيَ مَضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ، وَ الْإِسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ لِلْإِنْكَارِ، وَ الْمَعْنَى: أَلَا يَعْلَمُ السِّرَّ وَ مَضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ مِنْ خَلْقِ ذَلِكَ وَ أَوْجَدَهُ، فَالْمَوْصُولُ عِبَارَةٌ عَنِ الْخَالِقِ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عِبَارَةً عَنِ الْمَخْلُوقِ، وَ فِي «يَعْلَمُ» ضَمِيرٌ يَعُودُ إِلَى اللَّهِ، أَيْ: أَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَخْلُوقَ الَّذِي هُوَ مِنْ جُمْلَةِ خَلْقِهِ، فَإِنَّ الْإِسْرَارَ وَ الْجَهْرَ وَ مَضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ مِنْ جُمْلَةِ خَلْقِهِ، وَ جُمْلَةٌ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ فِي مَحَلِّ نَصْبِ عَلَى الْحَالِ مِنْ فَاعِلٍ يَعْلَمُ، أَيْ: الَّذِي لَطَفَ عِلْمَهُ بِمَا فِي الْقُلُوبِ، الْخَبِيرُ بِمَا تَسْرَهُ وَ تَضْمُرُهُ مِنَ الْأُمُورِ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ خَافِيَةٌ. ثُمَّ امْتَنَّ سُبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ فَقَالَ: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا أَيْ: سَهْلَةً لِيَنُتَهَى تَسْتَقَرُّونَ عَلَيْهَا، وَ لَمْ يَجْعَلْهَا خَشْنَةً بَحِيثٌ يَمْتَنِعُ عَلَيْكُمْ السُّكُونُ فِيهَا وَ الْمَشْيُ عَلَيْهَا، وَ الذُّلُولُ فِي الْأَصْلِ: هُوَ الْمُنْقَادُ الَّذِي يَذَلُّ لَكَ وَ لَا يَسْتَصْعَبُ عَلَيْكَ، وَ الْمَصْدَرُ الذَّلُّ، وَ الْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: فَامْشُوا فِي مَنَازِلِهَا لِتُرْتِيبِ الْأَمْرِ بِالْمَشْيِ عَلَى الْجَعْلِ الْمَذْكُورِ، وَ الْأَمْرُ لِلْإِبَاحَةِ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَ الْكَلْبِيُّ وَ مِقَاتِلٌ: مَنَازِلُهَا: طَرَفُهَا وَ أَطْرَافُهَا وَ جَوَانِبُهَا. وَ قَالَ قَتَادَةُ وَ شَهْرُ بْنُ

(١). ق: ٣٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣١٣

حوشب: مَنَازِلُهَا: جِبَالُهَا، وَ أَصْلُ الْمَنَكِبِ الْجَانِبُ، وَ مِنْهُ مَنْكَبُ الرَّجْلِ، وَ مِنْهُ الرِّيحُ التَّنَكُّبَاءُ، لِأَنَّهَا تَأْتِي مِنْ جَانِبِ دُونَ جَانِبٍ وَ كَلُّوا مِنْ رِزْقِهِ أَيْ: مَمَّا رَزَقَكُمْ وَ خَلَقَهُ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ أَيْ: وَ إِلَيْهِ الْبَعْثُ مِنْ قُبُورِكُمْ، لَا إِلَى غَيْرِهِ، وَ فِي هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ. ثُمَّ خَوَّفَ سُبْحَانَهُ الْكُفَّارَ. فَقَالَ: أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ قَالَ الْوَاحِدِيُّ: قَالَ الْمَفْسُورُونَ: يَعْنِي عَقُوبَهُ مِنْ فِي السَّمَاءِ، وَ قِيلَ «مَنْ فِي السَّمَاءِ»: قُدْرَتُهُ وَ سُلْطَانُهُ وَ عَرْشُهُ وَ مَلَائِكَتُهُ، وَ قِيلَ: مَنْ فِي السَّمَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَ قِيلَ: الْمُرَادُ جِبْرِيْلُ، وَ مَعْنَى أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ يَقْلَعُهَا مَلْتَبَسَةً بِكُمْ كَمَا فَعَلَ بَقَارُونَ بَعْدَ مَا جَعَلَهَا لَكُمْ ذُلُولًا تَمْشُونَ فِي مَنَازِلِهَا، وَ قَوْلُهُ: أَنْ يَخْسِفَ بَدَلَ اشْتِمَالٍ مِنَ الْمَوْصُولِ، أَيْ: أَأَمِنْتُمْ خَسْفَهُ، أَوْ عَلَى حَذْفٍ مِنْ، أَيْ: مَنْ أَنْ يَخْسِفَ فَإِذَا هِيَ تَمْوَرُ أَيْ: تَضْطَرِبُ وَ تَتَحَرَّكُ عَلَى خِلَافِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ السُّكُونِ. قَرَأَ الْجُمْهُورُ: «ءَأَمِنْتُمْ» بِهَمْزَيْنِ، وَ قَرَأَ الْبَصْرِيُّونَ وَ الْكُوفِيُّونَ بِالْتَخْفِيفِ، وَ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ بِقَلْبِ الْأُولَى وَ أَوَّاءُ. ثُمَّ كَثَّرَ سُبْحَانَهُ التَّهْدِيدَ لَهُمْ بِوَجْهِ آخِرٍ فَقَالَ: أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا أَيْ: حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ كَمَا أَرْسَلَهَا عَلَى قَوْمِ لُوطٍ وَ أَصْحَابِ الْفِيلِ، وَ قِيلَ: سَحَابٌ فِيهِ حِجَارَةٌ، وَ قِيلَ:

ريح فيها حجارة فَسْتَغْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ أَيْ: إِذْأَرَى إِذَا عَايَنْتُمْ الْعَذَابَ وَ لَا يَنْفَعُكُمْ هَذَا الْعِلْمُ، وَ قِيلَ:

النذير هنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، قَالَهُ عَطَاءٌ وَ الضَّحَّاكُ. وَ الْمَعْنَى: سَتَعْلَمُونَ رَسُولِي وَ صَدَقَهُ، وَ الْأَوَّلُ أُولَى. وَ الْكَلَامُ فِي أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا كَالْكَلَامِ فِي أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَهُوَ إِمَّا بَدَلَ اشْتِمَالٍ، أَوْ بِتَقْدِيرِ مَنْ. وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَيْ: الَّذِينَ قَبْلَ كُفَّارِ مَكَّةَ مِنْ كُفَّارِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ؛ كَقَوْمِ نُوحٍ وَ عَادَ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ لُوطٍ وَ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ وَ أَصْحَابِ الرِّسِّ وَ قَوْمِ

فرعون فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ أَي: فكيف كان إنكارى عليهم بما أصبتهم به من العذاب الفظيع أ و لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ الهمزة للاستفهام و الواو للعطف على مقدر، أَي: أغفلوا و لم ينظروا، و معنى صَافَاتٍ أنها صافئة لأجنحتها فى الهواء و تبسيطها عند طيرانها وَ يَقْبِضَنَّ أَي: يضممن أجنحتهن. قال النحاس: يقال للطائر إذا بسط جناحيه:

صَافٍ، و إذا ضَمَّهما: قابض؛ لأنه يقبضهما، و هذا معنى الطيران، و هو بسط الجناح و قبضه بعد البسط، و منه قول أبى خراش:

يبادر جنح الليل فهو موائل (١) يحث الجناح بالتبسط و القبض

و إنما قال: وَ يَقْبِضَنَّ و لم يقل قابضات كما قال صافات، لأن القبض يتجدد تارة فتارة، و أما البسط فهو الأصل، كذا قيل. و قيل: إن معنى وَ يَقْبِضَنَّ قبضهن لأجنحتهن عند الوقوف من الطيران، لا قبضها فى حال الطيران، و جملة ما يُؤمِّسِ كَهَنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ فى محل نصب على الحال من فاعل يقبضن، أو مستأنفة لبيان كمال قدرة الله سبحانه، و المعنى: أنه ما يمسكهن فى الهواء عند الطيران إلا- الرَّحْمَنُ القادر على كل شىء إِنَّهُ بِكُلِّ شَىءٍ بَصِيرٌ لا يخفى عليه شىء كائنا ما كان أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ

(١). «وآءل الطير»: لجأ. و فى اللسان: مهاذ، و المهاذة: الإسراع.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣١٤

الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و المعنى أنه لا جند لكم يمنعكم من عذاب الله، و الجند: الحزب و المنعة. قرأ الجمهور: «أمن» هذا بتشديد الميم على إدغام ميم أم فى ميم من، و أم بمعنى بل، و لا- سبيل إلى تقدير الهمزة بعدها كما هو الغالب فى تقدير أم المنقطعة ببل و الهمزة، لأن بعدها هنا من الاستفهامية فأغنت عن ذلك التقدير، و من الاستفهامية مبتدأ، و اسم الإشارة خبره، و الموصول مع صلته صفة اسم الإشارة، و ينصركم صفة لجند، و من دون الرحمن فى محل نصب على الحال من فاعل ينصركم، و المعنى: بل من هذا الحقيق الذى هو فى زعمكم جند لكم متجاوزا نصر الرحمن. و قرأ طلحة بن مصرف بتخفيف الأولى و تثقيل الثانية، و جملة إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فى غُرُورٍ معترضة مقررة لما قبلها، ناعية عليهم ما هم فيه من الضلال، و المعنى: ما الكافرون إلا- فى غرور عظيم من جهة الشيطان يغرهم به أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَزُوقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ الْكَلَامُ فى هذا كالكلام فى الذى قبله قراءة و إعرابا، أَي: من الذى يدرك عليكم الأرزاق من المطر و غيره إن أمسك الله ذلك عنكم و منعه عليكم بَلْ لَجُؤا فى عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ أَي: لم يتأثروا لذلك، بل تمادوا فى عناد و استكبار عن الحق و نفور عنه، و لم يعتبروا، و لا- تفكروا، و جواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، أَي: إن أمسك رزقه فمن يرزقكم غيره، و العتو: العناد و الطغيان، و النفور: الشroud.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس إِنْ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ قال: أبو بكر و عمر و على و أبو عبيدة بن الجراح. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى قوله: فى مَنَابِئِهَا قال: جبالها. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: أطرافها. و أخرج الطبرانى و ابن عدى، و السهقى فى الشعب، و الحكيم الترمذى عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن الله يحب العبد المؤمن المحترف». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بَلْ لَجُؤا فى عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ قال: فى ضلال.

### [سورة الملك (٦٧): الآيات ٢٢ الى ٣٠]

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فى الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَ يَقُولُونَ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦)

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَيَتَعَلَّمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)

ضرب سبحانه مثلا للمشرك و الموحّد لإيضاح حالهما و بيان مآلهما، فقال: أَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى و المَكْبُ و المنكب: الساقط على وجهه، يقال: كبته فأكب و انكب، و قيل: هو الذي يكب رأسه فلا ينظر يمينا و لا شمالا و لا أماما، فهو لا يأمن العثور و الانكباب على وجهه. و قيل: أراد به الأعمى الذي لا يهتدى إلى الطريق فلا يزال مشيه ينكسه على وجهه. قال قتادة: هو الكافر يكب على معاصي

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣١٥

اللّه في الدنيا فيحشره الله يوم القيامة على وجهه. و الهمزة للاستفهام الإنكاري، أي: هل هذا الذي يمشى على وجهه أهدي إلى المقصد الذي يريده أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا مَعْتَدِلًا نَاطِرًا إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ أَي: على طريق مستو لا اعوجاج به و لا انحراف فيه، و خبر «من» محذوف لدلالة خبر «من» الأولى و هو «أهدى» عليه، و قيل: لا حاجة إلى ذلك، لأن «من» الثانية معطوفة على «من» الأولى عطف المفرد، كقولك: أزيد قائم أم عمرو؟ و قيل: أراد بمن يمشى مكبا على وجهه من يحشر على وجهه إلى النار، و من يمشى سويا من يحشر على قدميه إلى الجنة، و هو كقول قتادة الذي ذكرناه، و مثله قوله: وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ (١). قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ أَمْرَ سَبْحَانِهِ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يُخْبِرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَهُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى وَ جَعَلَ لَهُمُ السَّمْعَ لِيَسْمَعُوا بِهِ وَ الْأَبْصَارَ لِيَبْصُرُوا بِهَا، وَ وَجْهَ إِفْرَادِ السَّمْعِ مَعَ جَمْعِ الْأَبْصَارِ أَنَّهُ مَصْدَرٌ يُطْلَقُ عَلَى الْقَلِيلِ وَ الْكَثِيرِ، وَ قَدْ قَدَّمْنَا بَيَانَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ مَعَ زِيَادَةِ فِي الْبَيَانِ وَ الْأَفْتِدَةِ الْقُلُوبِ الَّتِي يَتَفَكَّرُونَ بِهَا فِي مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ، فَذَكَرَ سَبْحَانَهُ هَا هُنَا أَنَّهُ قَدْ جَعَلَ لَهُمْ مَا يَدْرِكُونَ بِهِ الْمَسْمُوعَاتِ وَ الْمَبْصُرَاتِ وَ الْمَعْقُولَاتِ إِضَاحًا لِلْحُجَّةِ، وَ قَطْعًا لِلْمَعْذَرَةِ، وَ ذَمًّا لَهُمْ عَلَى عَدَمِ شُكْرِ نِعْمِ اللَّهِ، وَ لِهَذَا قَالَ: قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ وَ انْتِصَابَ قَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ نَعْتٌ مَصْدَرٌ مَحْذُوفٌ، وَ «مَا» مَزِيدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ، أَي: شُكْرًا قَلِيلًا أَوْ زَمَانًا قَلِيلًا، وَ قِيلَ: أَرَادَ بَقْلَهُ الشُّكْرَ عَدَمَ وَجُودِهِ مِنْهُمْ. قَالَ مَقَاتِلُ:

يعني أنكم لا تشكرون رب هذه النعم فتوحدونه قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ أَمْرَ اللَّهِ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يُخْبِرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نَشَرَهُمْ فِيهَا، وَ فَرَقَهُمْ عَلَى ظَهْرِهَا، وَ أَنْ حَشَرَهُمْ لِلْجِزَاءِ إِلَيْهِ لَا إِلَى غَيْرِهِ. ثم ذكر سبحانه أنهم يستعجلون العذاب فقال: وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَي: متى هذا الوعد الذي تذكرونه لنا من الحشر و القيامة و النار و العذاب إن كنتم صادقين في ذلك، و الخطاب منهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ لِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَ جَوَابَ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، وَ التَّقْدِيرُ: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَأُخْبِرُونَا بِهِ أَوْ فَيَبِينُونَا، وَ هَذَا مِنْهُمْ اسْتِهْزَاءٌ وَ سَخَرِيَّةٌ. ثم لما قالوا هذا القول أمر الله سبحانه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يُجِيبَ عَلَيْهِمْ، فقال: قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ أَي: إن وقت قيام الساعة علمه عند الله لا يعلمه غيره، و مثله قوله: قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي ثُمَّ أَخْبِرَهُمْ أَنَّهُ مَبْعُوثٌ لِلْإِنذَارِ لَا لِلْإِخْبَارِ بِالْغَيْبِ، فقال: وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْذَرَكُمْ وَ أَخَوَفَكُمْ عَاقِبَةَ كُفْرِكُمْ، وَ أَبَيَّنَ لَكُمْ مَا أَمَرَنِي اللَّهُ بَيَانَهُ. ثم ذكر الله سبحانه حالهم عند معانته العذاب فقال: فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً يَعْنِي رَأَوْا الْعَذَابَ قَرِيبًا، وَ زُلْفَةً مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ، أَي:

مزدلفا، أو حال من مفعول رأوا بتقدير مضاف، أي: ذا زلفه و قرب، أو ظرف، أي: رأوه في مكان ذي زلفه. قال مجاهد: أي قريبا. و قال الحسن: عيانا. قال أكثر المفسرين: المراد عذاب يوم القيامة، و قال مجاهد: المراد عذاب بدر، و قيل: رأوا ما وعدوا به من الحشر قريبا منهم، كما يدل عليه قوله: وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَ قِيلَ: لَمَّا رَأَوْا عَمَلَهُمُ السَّيِّئِ قَرِيبًا سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَي: اسودّت، و علتها

الكآبة، و غشيتها الذلّة، يقال: ساء الشيء يسوء فهم سيئ؛ إذا قبح. قال الزجاج: المعنى تبين فيها السوء، أى: ساءهم ذلك العذاب فظهر عليهم بسببه فى وجوههم ما يدل على كفرهم كقوله: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ «١». قرأ الجمهور بكسر السين بدون إشمام، و قرأ نافع و ابن عامر و الكسائى و ابن محيصن بالإشمام و قيل هذا الذى كُنتُمْ بِهِ تَدْعُونَ أى: قيل لهم توييخا و تقرىعا هذا المشاهد الحاضر من العذاب هو العذاب الذى كنتم به تدعون فى الدنيا: أى تطلبونه و تستعجلون به استهزاء، على أن معنى تدعون الدعاء.

قال الفراء: تفتعلون من الدعاء، أى: تتمنون و تسألون، و بهذا قال الأكثر من المفسرين. و قال الزجاج:

هذا الذى كنتم به تدعون الأباطيل و الأحاديث. و قيل: معنى تدعون: تكذبون، و هذا على قراءة الجمهور:

«تدعون» بالتشديد، فهو إما من الدعاء كما قال الأكثر، أو من الدعوى كما قال الزجاج و من وافقه، و المعنى:

أنهم كانوا يدعون أنه لا بعث و لا حشر و لا جنه و لا نار. و قرأ قتادة و ابن أبى إسحاق و يعقوب و الضحاك:

تدعون مخففا، و معناها ظاهر. و قال قتادة: هو قولهم: رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا «٢» و قال الضحاك: هو قولهم: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ

الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ «٣» الآية. قال النحاس: تدعون تدعون بمعنى واحد، كما تقول: قدر و اقتدر، و

عدى و اعتدى، إلا أن افتعل معناه مضى شيئا بعد شيء، و فعل يقع على القليل و الكثير قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِى اللَّهُ وَ مَنْ مَعِى

أى: أخبرونى إن أهلكنى الله بموت أو قتل، و من معى من المؤمنين أو رحمتنا بتأخير ذلك إلى أجل، و قيل المعنى: إن أهلكنى

الله و من معى بالعذاب، أو رحمتنا، فلم يعذبنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم أى: فمن يمنعهم و يؤمنهم من العذاب. و

المعنى: أنه لا- ينجيهم من ذلك أحد سواء أهلك الله الرسول و المؤمنين معه كما كان الكفار يتمنون، أو أمهلهم. و قيل:

المعنى؛ إنا مع إيماننا بين الخوف و الرجاء، فمن يجيركم مع كفركم من العذاب، و وضع الظاهر موضع المضمرة للتسجيل عليهم

بالكفر، و بيان أنه السبب فى عدم نجاتهم قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ وَحده، لا نشرك به شيئا و عليه توكّلنا لا على غيره، و التوكّل:

تفويض الأمور إليه عزّ و جلّ فَسَيَتَعَلَّمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ منا و منكم، و فى هذا تهديد شديد مع إخراج الكلام مخرج

الإنصاف. قرأ الجمهور: «ستعلمون» بالفوقية على الخطاب. و قرأ الكسائى بالتحية على الخبر، ثم احتج سبحانه عليهم ببعض

نعمه، و خوفهم بسلب تلك النعمة عنهم فقال: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا أى: أخبرونى إن صار ماؤكم غائرا فى الأرض

بحيث لا- يبقى له وجود فيها أصلا، أو صار ذاهبا فى الأرض إلى مكان بعيد بحيث لا تناله الدلاء. يقال: غار الماء غورا، أى:

نضب، و الغور: الغائر، وصف بالمصدر للمبالغة، كما يقال رجل عدل، و قد تقدم مثل هذا فى سورة الكهف فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ

مَعِينٍ أى: ظاهر تراه العيون، و تناله الدلاء، و قيل: هو من معن الماء، أى: كثر. و قال قتادة و الضحاك: أى جار، و قد تقدم معنى

المعين فى سورة المؤمن. و قرأ ابن عباس: «فمن يأتيكم بماء عذب».

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أ فَمَنْ يَمْشِي مُكَبًّا قَالَ: فِي الضَّلَالَةِ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا قَالَ: مَهْتَدِيًا. وَ أَخْرَجَ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ، وَ ابْنُ النُّجَارِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اشْتَكَى ضَرْسَهُ فَلْيَضَعْ إصْبَعَهُ عَلَيْهِ، وَ لِيَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ». وَ أَخْرَجَ الدَّارِقُطْنِي فِي الْأَفْرَادِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«مَنْ اشْتَكَى ضَرْسَهُ فَلْيَضَعْ إصْبَعَهُ عَلَيْهِ، وَ لِيَقْرَأْ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ سَبْعَ مَرَاتٍ وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ إِلَى يَفْقَهُونَ (١) وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ فَإِنَّهُ يَبْرَأُ بِإِذْنِ اللَّهِ». وَ أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: إِنَّ أَصْيَحَّ مَأْوُكُمْ غَوْرًا قَالَ: دَاخِلًا فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ قَالَ: الْجَارِي. وَ أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْهُ إِنَّ أَصْيَحَّ مَأْوُكُمْ غَوْرًا قَالَ: يَرْجِعُ فِي الْأَرْضِ. وَ أَخْرَجَ عَبْدُ بِنِ حَمِيدٌ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ أَيْضًا بِمَاءٍ مَعِينٍ قَالَ: ظَاهِرٌ. وَ أَخْرَجَ عَبْدُ بِنِ حَمِيدٍ عَنْهُ أَيْضًا بِمَاءٍ مَعِينٍ قَالَ: عَذَبٌ.

(١). الأنعام: ٩٨.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣١٨

## سورة القلم

### إشارة

و هي مكية في قول الحسن و عكرمة و عطاء و جابر. و روى عن ابن عباس و قتادة أن من أولها إلى قوله: سَنَسِئُمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ مَكِّيٌّ، وَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ: مِنَ الصَّالِحِينَ مَدَنِيٌّ، وَ بَاقِيهَا مَكِّيٌّ، كَذَا قَالَ الْمَوَارِدِيُّ، وَ أَخْرَجَ ابْنُ الضَّرِيرِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتْ إِذَا نَزَلَتْ فَاتِحَةُ سُورَةِ بَمَكَّةَ كَتَبَتْ بِمَكَّةَ ثُمَّ يَزِيدُ اللَّهُ فِيهَا مَا يَشَاءُ، وَ كَانَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ أَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ ثُمَّ نون، ثُمَّ المزمّل، ثُمَّ المدثر. وَ أَخْرَجَ النُّحَاسُ وَ ابْنُ مَرْدُويهِ وَ الْبَيْهَقِيُّ عَنْهُ قَالَ: نَزَلَتْ سُورَةُ ن بَمَكَّةَ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدُويهِ عَنْ عَائِشَةَ مِثْلَهُ. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة القلم (٦٨): الآيات ١ إلى ١٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)  
 فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)  
 وَلَا تُطِعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَ بَنِينَ (١٤)

إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ (١٥) سَنَسِئُمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)

قوله: ن قرأ أبو بكر و ورش و ابن عامر و الكسائي و ابن محيصة و هبيرة بإدغام النون الثانية من هجائها في الواو، و قرأ الباقون

بالإظهار. وقرأ أبو عمرو و عيسى بن عمر بالفتح على إضمام فعل. وقرأ ابن عامر «أ» و نصر و ابن أبي إسحاق بكسرها على إضمام القسم، أو لأجل التقاء الساكنين، وقرأ محمد بن السَّمِيع و هارون بضمها على البناء. قال مجاهد و مقاتل و السدي: هو الحوت الذي يحمل الأرض، و به قال مَرَّةُ الهمداني و عطاء الخراساني و الكلبي. و قيل: إن نون آخر حرف من حروف الرّحمن. و قال ابن زيد:

هو قسم أقسم الله به. و قال ابن كيسان: هو فاتحة السورة. و قال عطاء و أبو العالیه: هي النون من نصير و ناصر. قال محمد بن كعب: أقسم الله تعالى بنصره للمؤمنين، و قيل: هو حرف من حروف الهجاء، كالفواتح الواقعة في أوائل السور المفتحة بذلك، و قد عرّفناك ما هو الحق في مثل هذه الفواتح في أول سورة البقرة، و الواو في قوله: وَ الْقَلَمِ وَاو الْقِسْمِ، أقسم الله بالقلم لما فيه من البيان و هو واقع على كل قلم يكتب به، و قال جماعة من المفسرين: المراد به القلم الذي كتب به اللوح المحفوظ، أقسم الله به تعظيماً له.

(١). في تفسير القرطبي: ابن عباس.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣١٩

قال قتادة: القلم من نعمة الله على عباده وَ مَا يَسْطُرُونَ «ما» موصولة، أي: و الذي يسطرون، و الضمير عائد إلى أصحاب القلم المدلول عليهم بذكره؛ لأن ذكر آلة الكتابة تدل على الكاتب. و المعنى:

و الذي يسطرون، أي: يكتبون كل ما يكتب، أو الحفظه على ما تقدّم. و يجوز أن تكون ما مصدرية، أي:

و سطرهم، و قيل: الضمير راجع إلى القلم خاصة من باب إسناد الفعل إلى الآلة و إجرائها مجرى العقلاء، و جواب القسم قوله: ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ما نافية، و أنت اسمها، و بمجنون خبرها. قال الزجاج: أنت هو اسم ما، و بمجنون خبرها، و قوله: بِنِعْمَةِ رَبِّكَ كلام وقع في الوسط، أي: انتفى عنك الجنون بنعمة ربك، كما يقال: أنت بحمد الله عاقل، قيل: الباء متعلقة بمضمّر هو حال، كأنه قيل:

أنت برىء من الجنون متلبساً بنعمة الله التي هي النبوة و الرياسة العامة. و قيل: الباء للقسم، أي: و ما أنت و نعمة ربك بمجنون. و قيل: النعمة هنا الرحمة، و الآية رد على الكفار حيث قالوا: يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ «١» وَ إِنَّ لَكَ لَأَجْرًا أَى: ثواباً على ما تحملت من أثقال النبوة، و قاسيت من أنواع الشدائد غَيْرَ مَمْنُونٍ أَى: غير مقطوع، يقال: مننت الحبل إذا قطعت. و قال مجاهد: غَيْرَ مَمْنُونٍ غير محسوب، و قال الحسن: غَيْرَ مَمْنُونٍ غير مكدر بالمن. و قال الضحّاك: أجرا بغير عمل. و قيل: غير مقدر، و قيل: غير ممنون به عليك من جهة الناس وَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ قيل:

هو الإسلام و الدين، حكى هذا الواحدى عن الأكثرين. و قيل: هو القرآن، روى هذا عن الحسن و العوفى.

و قال قتادة: هو ما كان ياتمر به من أمر الله و ينتهى عنه من نهى الله. قال الزجاج: المعنى إنك على الخلق المذمى أمرك الله به فى القرآن، و قيل: هو رفقته بأتمته و إكرامه إياهم، و قيل: المعنى: إنك على طبع كريم. قال الماوردى: و هذا هو الظاهر، و حقيقة الخلق فى اللغة ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأدب. و قد ثبت فى الصحيح عن عائشة أنها سئلت عن خلق النبى صلى الله عليه و سلم، فقالت: كان خلقه القرآن. و هذه الجملة و التى قبلها معطوفتان على جملة جواب القسم. فَسْتَبْصِرْ وَ يُبْصِرُونَ أَى: ستبصر يا محمد و يبصر الكفار إذا تبين الحق و انكشف الغطاء، و ذلك يوم القيامة بِأَيُّكُمْ الْمَفْتُونُ الباء زائدة للتأكيد، أَى: أيكم المفتون بالجنون، كذا قال الأخفش و أبو عبيدة و غيرهما، و مثله قول الشاعر:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج نضرب بالسيف و نرجو بالفرج



وقيل: ليست الباء زائدة، و المفتون مصدر جاء على مفعول، كالمعقول و الميسور، و التقدير: بأيكم الفتون أو الفتنة، و منه قول الشاعر الراعي:

حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحما و لا لفؤاده معقولا

أى: عقلا. و قال الفراء: إن الباء بمعنى فى، أى: فى الفريق الآخر. و يؤيد هذا قراءة ابن أبى عبله «فى أيكم المفتون» و قيل: الكلام على حذف مضاف، أى: بأيكم فتن المفتون، فحذف المضاف و أقيم المضاف

(١). الحجر: ٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٢٠

إليه مقامه، روى هذا عن الأخفش أيضا. و قيل: المفتون: المعدب، من قول العرب فتنت الذهب بالنار إذا أحميته، و منه قوله: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١) و قيل: المفتون هو الشيطان؛ لأنه مفتون فى دينه، و المعنى: بأيكم الشيطان. و قال قتادة: هذا وعيد لهم بعذاب يوم بدر، و المعنى: سترى و يرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب بيدر بأيكم المفتون، و جملة إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ تَعْلِيلٌ لِلْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، فإنها تتضمن الحكم عليهم بالجنون لمخالفتهم لما فيه نفعهم فى العاجل و الآجل، و اختيارهم ما فيه ضررهم فيهما، و المعنى: هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله الموصول إلى سعادة الدارين وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ إلى سبيله الموصول إلى تلك السعادة الآجلة و العاجلة، فهو مجاز كلَّ عامل بعمله، إن خيرا فخير، و إن شرا فشر فلا تُطْعِ الْمُكَدِّبِينَ نهاء سبحانه عن ممايلة (٢) المشركين، و هم رؤساء كفار مكة، لأنهم كانوا يدعونهم إلى دين آبائهم، فنهاء عن طاعتهم؛ أو هو تعريض بغيره عن أن يطيع الكفار، أو المراد بالطاعة مجرد المداراة بإظهار خلاف ما فى الضمير، فنهاء الله عن ذلك، كما يدل عليه قوله: وَدَّوَا لَوْ تَذَهَبْنَ فَيَذَهُنَّ فَإِنَّ الْأَدْهَانَ: هو الملاينة و المسامحة و المداراة. قال الفراء: المعنى لو تلين فيلينا لك، و كذا قال الكلبي.

و قال الضحاك و السدى: وَدَّوَا لَوْ تَكْفُرَ فَيَتَمَادُوا عَلَى الْكُفْرِ. و قال الريح بن أنس: وَدَّوَا لَوْ تَكْذِبَ فَيَكْذِبُونَ.

و قال قتادة: وَدَّوَا لَوْ تَذَهَبَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ فَيَذَهُنَّ مَعَكَ. و قال الحسن: وَدَّوَا لَوْ تَصَانَعَهُمْ فِي دِينِكَ فَيَصَانَعُونَكَ. و قال مجاهد: وَدَّوَا لَوْ تَرَكْنَ إِلَيْهِمْ وَ تَرَكَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ فَيَمَّا يَلُونَكَ. قال ابن قتيبة:

كانوا أرادوه على أن يعبد آلهتهم مدَّة، و يعبدوا الله مدَّة. و قوله: فَيَذَهُنَّ عَطْفٌ عَلَى تَدَهْنٍ، داخل فى حيز «لو»، أو هو خبر مبتدأ محذوف، أى: فهم يذهنون. قال سيبويه: و زعم قالون أنها فى بعض المصاحف «وَدَّوَا لَوْ تَدَهْنُ فَيَذَهُنَّ» بدون نون، و النصب على جواب التمنى المفهوم من ودَّوا، و الظاهر من اللغة فى معنى الادهان هو ما ذكرناه أولا. وَ لَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ أَى: كثير الحلف بالباطل مَهِينٌ فَعِيلٌ مِنَ الْمَهَانَةِ، و هى القلة فى الرأى و التمييز. و قال مجاهد: هو الكذاب. و قال قتادة: المكثار فى الشرِّ، و كذا قال الحسن. و قيل: هو الفاجر العاجز، و قيل: هو الحقير عند الله، و قيل: هو الذليل، و قيل: هو الوضيع هَمَّازٌ مَشَاءٌ بِنَمِيمٍ الهماز المغتاب للناس. قال ابن زيد: هو الذى يهزم بأخيه، و قيل: الهماز:

الَّذِى يَذُكُرُ النَّاسَ فِي وَجْهِهِمْ، وَ اللَّمَّازُ: الَّذِى يَذُكُرُهُمْ فِي مَغْيِبِهِمْ، كَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَ الْحَسَنُ وَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، وَ قَالَ مَقَاتِلٌ عَكْسَ هَذَا. وَ الْمَشَاءُ بِنَمِيمٍ: الَّذِى يَمْشَى بِالنَّمِيمَةِ بَيْنَ النَّاسِ لِيُفْسِدَ بَيْنَهُمْ، يُقَالُ:

نَمَّ يَنْمُ؛ إِذَا سَعَى بِالْفَسَادِ بَيْنَ النَّاسِ، وَ مِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَ مَوْلَى كَبَيْتِ النَّمْلِ لَا خَيْرَ عِنْدَهُ لِمَوْلَاهُ إِلَّا سَعِيهِ بِنَمِيمٍ

و قيل: النميم: جمع نميمة مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ أَى: بخيل بالمال لا ينفقه فى وجهه، و قيل: هو الذى يمنع أهله و عشيرته عن الإسلام. قال الحسن: يقول لهم من دخل منكم فى دين محمد لا أنفعه بشىء أبدا مُعْتَدٍ أَثِيمٍ

(١). الذاريات: ١٣.

(٢). «مايله»: ماله.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٢١

أى: متجاوز الحدّ فى الظلم، كثير الإثم عُتِلَ قال الواحدى: المفسرون يقولون هو الشديد الخلق الفاحش الخلق. و قال الفراء: هو الشديد الخصومة فى الباطل. و قال الزجّاج: هو الغليظ الجافى. و قال الليث: هو الأكل المنوع، يقال: عتلت الرجل أعتله؛ إذا جذبته جذبا عنيفا، و منه قول الشاعر «١»:

نفرعه فرعا و لسنا نعتله بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمِ أَى: هو بعد ما عدّ من معاييه زنيم، و الزنيم و الدّعَى: الملتصق بالقوم و ليس هو منهم؛ مأخوذ من الزنمة المتدلية فى حلق الشاة، أو الماعز، و منه قول حسان:

زنيم تداعاه الرّجال زيادة كما زيد فى عرض الأديم الأكارع

و قال سعيد بن جبير: الزنيم: المعروف بالشرّ، و قيل: هو رجل من قريش كان له زنمة كزنمة الشاة، و قيل: هو الظلوم. أن كان ذا مالٍ و بَيْنَ متعلق بقوله: لا- تُطْعَ أَى: لا- تطع من هذه مثالبه لكونه ذا مال و بنين. قال الفراء و الزجّاج: أَى لأن كان، و المعنى: لا تطعه لماله و بنيه. قرأ ابن عامر و أبو جعفر و المغيرة و أبو حيوة أن كان بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام. و قرأ حمزة و أبو بكر و المفضل أن كان بهمزيين مخففتين، و قرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر، و على قراءة الاستفهام يكون المراد به التويخ و التفرّيع حيث جعل مجازاة النعم التى خوّله الله من المال و البنين أن كفر به و برسوله. و قرأ نافع فى رواية عنه بكسر الهمزة على الشرط، و جملة إذا تُتلى عَلَيْهِ آياتنا قال أساطيرُ الأوّلين مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهى، و قد تقدّم معنى أساطير الأوّلين فى غير موضع سنسّمهُ عَلَى الخُرطومِ أَى: سنسمه بالكى على خرطومه. قال أبو عبيدة و أبو زيد و المبرد: الخرطوم: الأنف. قال مقاتل: سنسمه بالسواد على الأنف، و ذلك أنه يسود وجهه قبل دخول النار. قال الفراء: و الخرطوم و إن كان قد خصّ بالسّمة فإنه فى مذهب «٢» الوجه، لأن بعض الوجه يؤدى عن بعض. قال الزجّاج: سيجعل له فى الآخرة العلم المذى يعرف به أهل النار من اسوداد وجوههم. و قال قتادة: سنلحق به شيئا لا يفارقه، و اختار هذا ابن قتيبة، قال:

و العرب تقول: قد و سمه ميسم سوء؛ يريدون ألصق به عارا لا- يفارقه، فالمعنى: أن الله ألحق به عارا لا يفارقه، كالوسم على الخرطوم، و قيل: معنى سنسمه: سنحطمه بالسيف. و قال النضر بن شميل: المعنى سنحدّه على شرب الخمر، و قد يسمى الخمر بالخرطوم، و منه قول الشاعر:

تظلّ يومك فى لهو و فى طرب و أنت باللّيل شراب الخراطيم

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و الخطيب فى

(١). هو أبو النجم الرّاجز.

(٢). فى تفسير القرطبي: معنى.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٢٢

تاريخه، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس قال: إن أول شىء خلقه الله القلم، فقال له: اكتب، فقال:

يا ربّ و ما أكتب؟ قال: اكتب القدر، فجرى من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، ثم طوى الكتاب و رفع القلم، و

كان عرشه على الماء، فارتفع بخار الماء ففتقت منه السماوات، ثم خلق النون فبسطت الأرض عليه، و الأرض على ظهر النون «١»، فاضطرب النون فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة، ثم قرأ ابن عباس ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ و أخرج ابن أبي شيبة و عبد بن حميد، و الترمذى و صححه، و ابن مردويه عن عبادة بن الصامت سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:

«إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى الأبد». و أخرج ابن جرير من حديث معاوية بن قرة عن أبيه مرفوعا نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قال: إن الله خلق النون، و هى الدواة، و خلق القلم، فقال: اكتب، قال: و ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. و أخرج الحكيم الترمذى عن أبي هريرة مرفوعا نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس قال: ن الدواة. و أخرج ابن مردويه عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النون: السمكة التى عليها قرار الأرضين، و القلم الذى خط به ربنا عزّ و جلّ القدر خيره و شرّه و ضرّه و نفعه، و ما يَسْطُرُونَ قال: الكرام الكاتبون». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، من طرق عن ابن عباس فى قوله: «و ما يَسْطُرُونَ قال: ما يكتبون. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه و ما يَسْطُرُونَ قال: و ما يعلمون. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و مسلم و ابن المنذر و الحاكم و ابن مردويه عن سعد بن هشام قال: أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين أخبرينى بخلق رسول الله، قالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن و إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ و أخرج ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، و الواحدى عنها قالت: «ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما دعاه أحد من أصحابه و لا من أهل بيته إلا قال: لبيك، فلذلك أنزل الله: و إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه؛ و البيهقى فى الدلائل، عن أبى الدرداء قال: «سئلت عائشة عن خلق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت:

كان خلقه القرآن، يرضى لرضاه و يسخط لسخطه». و أخرج ابن أبى شيبة، و الترمذى و صححه، و ابن مردويه عن أبى عبد الله الجدلى قال: «قلت لعائشة: كيف كان خلق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قالت: لم يكن فاحشا و لا متفاحشا، و لا صحابا فى الأسواق، و لا يجزى بالسيئة السيئة، و لكن يعفو و يصفح». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: فَسْتَبْصِرْ وَ يَبْصُرُونَ قال: تعلم و يعلمون يوم القيامة بِأَيُّكُمْ الْمَفْتُونُونَ قال: الشيطان، كانوا يقولون: إنه شيطان و إنه مجنون. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال:

بأيكم المجنون. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَدُّوا لَوْ تَدْرَهُنَّ فَيَذْنُونَهُنَّ يقول:

لو ترخص لهم فيرخصون. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا و لا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ الآية قال: يعنى الأسود بن عبد يغوث. و أخرج ابن مردويه عن أبى عثمان النهدي قال: «قال مروان لما بايع الناس ليزيد:

(١). «النون»: الحوت.

سنه أبى بكر و عمر، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر: إنها ليست بسنة أبى بكر و عمر، و لكنها سنة هرقل، فقال مروان: هذا الذى أنزل فيه: وَ الَّذِى قَالَ لَوْلَدَيْهِ أَفْ لَكُمَا «١» الآية، قال: فسمعت ذلك عائشة فقالت: إنها لم تنزل فى عبد الرحمن، و لكن نزل فى أيبك: وَ لَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ - هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ . و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «نزل على النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَ لَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ - هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ فلم نعرفه حتى نزل عليه بَعِيدٌ ذَلِمَكَ زَنِيمٌ فعرفناه له زنمه كزنمه الشاء». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: العتل: هو الدعى، و الزنيم: هو المريب العدى

يعرف بالشرّ. و أخرج عبد بن حميد و ابن عساكر عنه قال: الزنيم: هو الدعى. و أخرج الفريابي و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، عنه أيضا قال: الزنيم: الذى يعرف بالشرّ كما تعرف الشاء بزمنتها. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: هو الرجل يمرّ على القوم، فيقولون: رجل سوء. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: زَنِيمٌ قال: ظلوم، و قد قيل: إن هذه الآيات نزلت فى الأخنس بن شريق، و قيل: فى الوليد بن المغيرة.

### [سورة القلم (٦٨): الآيات ١٧ الى ٣٣]

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَ لَا يَسْتَتِنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَ هُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَزْبِكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخَفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤) وَ غَدُوا عَلَى حَزْبٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١)

عسى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) قوله: إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ يعنى كفار مكة، فإن الله ابتلاهم بالجوع و القحط بدعوة رسول الله صلى الله عليه و سلم عليهم، و الابتلاء: الاختبار، و المعنى: أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليطروا، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع و القحط كما بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ المعروف خبرهم عندهم، و ذلك أنها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدى حق الله منها، فمات و صارت إلى أولاده، فمنعوا الناس خيرها، و بخلوا بحق الله فيها.

قال الواحدى: هم قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين، ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات و زرع و نخيل، و كان أبوهم يجعل ممًا فيها من كل شىء حظًا للمساكين عند الحصاد و الصرام، فقالت بنوه: المال قليل، و العيال كثير، و لا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا، و عزموا على حرمان المساكين، فصارت عاقبتهم إلى ما قصّ الله فى كتابه. قال الكلبي: كان بينهم و بين صنعاء فرسخان ابتلاهم الله بأن حرق جنتهم. و قيل: هى جنة كانت بضوران، و ضوران على فراسخ من صنعاء، و كان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى بيسير إذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ أى: حلفوا ليقطعنها داخلين فى وقت الصباح، و الصرم: القطع للثمر

(١). الأحقاف: ١٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٢٤

و الزرع، و انتصاب مُصْبِحِينَ على الحال من فاعل ليصرمنها، و الكاف فى كَمَا بَلَوْنَا نعت مصدر محذوف، أى: بلوناهم ابتلاء كما بلونا، و ما مصدرية، أو بمعنى اللذى، و «إذ» ظرف لبلونا منتصب به، و ليصرمنها جواب القسم وَ لَا يَسْتَتِنُونَ يعنى: و لا يقولون إن شاء الله، و هذه الجملة مستأنفة لبيان ما وقع منهم، أو حال. و قيل: المعنى: و لا يستنون للمساكين من جملة ذلك القدر اللذى كان يدفعه أبوهم إليهم، قاله عكرمة: فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَ هُمْ نَائِمُونَ أى: طاف على تلك الجنة طائف من جهة الله سبحانه، و الطائف قيل: هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء، كذا قال مقاتل. و قيل: الطائف جبريل اقتلعها، و جملة وَ هُمْ نَائِمُونَ فى محل نصب على الحال فَاصْبِحَتْ كَالصَّرِيمِ أى: كالشىء الذى صرمت ثماره، أى: قطعت، فعيل بمعنى مفعول، و قال الفراء: كالصريم المظلم، و منه قول الشاعر:

تطاول ليلك الجون الصريم فما ينجاب عن صبح بهيم

و المعنى: أنها حرقت فصارت كالليل الأسود، قال: و الصريم: الرماد الأسود بلغة خزيمه. و قال الأخفش: أى كالصبح انصرم من الليل، يعنى أنها يبست و ابيضت. و قال المبرد: الصريم: الليل، و الصريم:

النهار، أى: ينصرم هذا عن هذا، و ذاك عن هذا، و قيل: سَمَى الليل صريماً لأنه يقطع بظلمته عن التصرف.

و قال المؤرج: الصريم: الرمله لأنها لا يثبت عليها شىء ينتفع به. و قال الحسن: صرم منها الخير، أى: قطع فتنادوا مُصِرِّحِينَ أى: نادى بعضهم بعضاً داخلين فى الصباح. قال مقاتل: لما أصبحوا قال بعضهم لبعض أن اغدوا على حزبكم و أن فى قوله: أن اغدوا هى المفسره؛ لأن فى التنادى معنى القول، أو هى المصدرية، أى: بأن اغدوا، و المراد اخرجوا غدوة، و المراد بالحرث: الثمار و الزرع إن كُنْتُمْ صَارِمِينَ أى: قاصدين للصرم، و الغدو يتعدى يالى و على، فلا حاجه إلى تضمينه معنى الإقبال كما قيل: و جواب الشرط محذوف، أى: إن كنتم صارمين فاغدوا، و قيل، معنى صارمين ماضين فى العزم، من قولك سيف صارم فأنطلقوا و هم يتخافتون أى: ذهبوا إلى جنتهم و هم يسرون الكلام بينهم لئلا يعلم أحد بهم، يقال: خفت يخفت؛ إذا سكن و لم يبين، و منه قول دريد بن الصمه:

و إني لم أهلك سلالاً و لم أمت خفاتاً و كلأ ظنه بى عودى

و قيل: المعنى: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم، فيقصدوهم كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد، و الأول أولى لقوله: أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكيناً فإن «أن» هى المفسره للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول. و المعنى: يسر بعضهم إلى بعض هذا القول، و هو لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين، فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم و غدوا على حرد قادرين الحرد يكون بمعنى المنع و القصد. قال قتاده و مقاتل و الكلبي و الحسن و مجاهد: الحرد هنا بمعنى القصد؛ لأن القاصد إلى الشىء حارد، يقال: حرد يحرد إذا قصد، تقول: حردت حردك، أى: قصدت قصدك، و منه قول الراجز:

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٢٥ أقبل سيل جاء من عند الله يحرد حرد الجنة المغلة

و قال أبو عبيد و المبرد و القتيبي: على حرد على منع، من قولهم حاردت الإبل حرداً؛ إذا قلت ألبانها، و الحرد من النوق هى القليلة اللبن. و قال السدى و سفيان و الشعبي على حرد على غضب، و منه قول الشاعر:

إذا جراد الخيل جاءت تردى مملوءة من غضب و حرد

و قول الآخر:

تساقوا على حرد دماء الأسود و منه قيل: أسد حارد. و روى عن قتاده و مجاهد أيضاً أنهما قالوا: على حرد أى: على حسد.

و قال الحسن أيضاً: على حاجه و فاقه. و قيل: على حرد: على انفراد، يقال: حرد يحرد حرداً أو حروداً؛ إذا تنحى عن قومه و نزل منفرداً عنهم و لم يخالطهم، و به قال الأصمعى و غيره. و قال الأزهري:

حرد اسم قريتهم، و قال السدى: اسم جنتهم. قرأ الجمهور حرد بسكون الراء. و قرأ أبو العالیه و ابن السميقي بفتحها، و انتصاب قادرين على الحال. قال الفراء: و معنى قادرين: قد قدروا أمرهم و بنوا عليه، و قال قتاده: قادرين على جنتهم عند أنفسهم. و قال الشعبي: يعنى قادرين على المساكين فلما رأوها أى: لما رأوا جنتهم و شاهدوا ما قد حلّ بها من الآفة التى أذهبت ما فيها قالوا إننا لَصَّالُونَ أى: قال بعضهم لبعض: قد ضللنا جنتنا و ليست هذه، ثم لما تأملوا و علموا أنها جنتهم، و أن الله سبحانه قد عاقبهم بإذهاب ما فيها من الثمر و الزرع قالوا: يَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أى حرمتنا جنتنا بسبب ما وقع منا من العزم على منع المساكين من خيرها، فأضربوا عن قولهم الأول إلى هذا القول، و قيل: معنى قولهم:

إننا لَصَّالُونَ أنهم ضلوا عن الصواب بما وقع منهم قال أوسيه طهم أى: أمثلهم و أعقلهم و خيرهم أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تَسْتَبْجُونَ أى:

هَلَا تَسْبِحُونَ، يعنى تستنون، و سَمَى الاستثناء تسيحا؛ لأنه تعظيم لله و إقرار به، و هذا يدل على أن أوسطهم كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه، و قال مجاهد و أبو صالح و غير هما:

كان استثناءهم تسيحا. قال النحاس: أصل التسيح التنزيه لله عزّ و جلّ، فجعل التسيح فى موضع إن شاء الله. و قيل: المعنى: هلا تستغفرون الله من فعلكم و تتوبون إليه من هذه النية التى عزمتم عليها، و كان أوسطهم قد قال لهم ذلك بعد مشاهدتهم للجنة على تلك الصفة قالوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ أى: تنزيها له عن أن يكون ظالما فيما صنع بجننتنا، فإن ذلك بسبب ذنبا الذى فعلناه، و قيل: معنى تسيحهم الاستغفار، أى نستغفر ربنا من ذنبا إنا كنا ظالمين لأنفسنا فى منعنا للمساكين فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ أى: يلوم بعضهم بعضا فى منعهم للمساكين و عزمهم على ذلك، ثم نادوا على أنفسهم بالويل حيث قالوا يا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ أى: عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء و ترك الاستثناء. قال ابن كيسان:

أى: طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل، ثم رجعوا إلى الله و سألوه أن يعوضهم بخير منها،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٢٦

فقالوا: عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا لَمَا اعترفوا بالخطيئة رجوا من الله عزّ و جلّ أن يبدلهم جنة خيرا من جنتهم، قيل: إنهم تعاقدوا فيما بينهم، و قالوا: إن أبدلنا الله خيرا منها لنصنعن كما صنع أبونا، فدعوا الله و تضرّعوا فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها. قرأ الجمهور: يُبَدِّلُنَا بالتخفيف، و قرأ أبو عمرو و أهل المدينة بالتشديد، و هما لغتان، و التبديل: تغيير ذات الشىء، أو تغيير صفته، و الإبدال: رفع الشىء جملة و وضع آخر مكانه، كما مضى فى سورة سبأ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ أى: طالبون منه الخير، راجون لعفوه، راجعون إليه. و عدى يالى و هو إنما يتعدى بعن أو فى لتضمنه معنى الرجوع كَذَلِكَ الْعَذَابُ أى:

مثل ذلك العذاب الذى بلوناهم به و بلونا أهل مكة بعذاب الدنيا، و العذاب مبتدأ مؤخر، و كذلك خبره و لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أى: أشدّ و أعظم لو كان المشركون يعلمون أنه كذلك، و لكنهم لا يعلمون.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كَمَا بَلَّوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ قال: هم ناس من الحبشة كان لأبيهم جنة و كان يطعم منها المساكين، فمات أبوهم، فقال بنوه: إن كان أبونا لأحمق، كان يطعم المساكين أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْرِمِينَ و أن لا يطعموا مسكينا. و أخرج ابن جرير عنه فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ قال: أمر من الله. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

«إياكم و المعصية، فإن العبد ليدنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم، و إن العبد ليدنب فيحرم به قيام الليل، و إن العبد ليدنب الذنب فيحرم به رزقا قد كان هبى له. ثم تلا رسول الله صلى الله عليه و سلم: فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نَائِمُونَ فَأَصْرِمَتْ كَالصَّرِيمِ قد حرموا خير جنتهم بذنبيهم». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كَالصَّرِيمِ قال:

مثل الليل الأسود. و أخرج ابن المنذر عنه وَ هُمْ يَتَخَفَتُونَ قال: الأسرار و الكلام الخفى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا على حَزْدٍ قَادِرِينَ يقول: ذوى قدرة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: إِنَّا لَصَالُونَ قال: أضلنا مكان جنتنا. و أخرج عنه أيضا قال أَوْسَطُهُمْ قال: أعدلهم.

[سورة القلم (٦٨): الآيات ٣٤ الى ٥٢]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٣٤) أَمْ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ

تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨)

أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَهْدِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَأَلْتَهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣)

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَدِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨)

لَوْ لَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنَدَبَ بِالْعِرَاءِ وَهُوَ مَيْدُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٢٧

لما فرغ سبحانه من ذكر حال الكفار، وتشبيه ابتلائهم بابتلاء أصحاب الجنة المذكورة ذكر حال المتقين، وما أعدّه لهم من الخير، فقال: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ أَي: للمتقين ما يوجب سخطه - من الكفر والمعاصي - عنده عزّ وجلّ في الدار الآخرة جنات النعيم الخالص؛ الذي لا يشوبه كدر ولا ينغصه خوف زوال أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ الاستفهام للإنكار. و كان صناديد كفار قريش يرون وفور حظّهم في الدنيا، وقلمه حظوظ المسلمين فيها، فلما سمعوا بذكر الآخرة، وما يعطى الله المسلمين فيها قالوا: إن صح ما يزعمه محمد لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا، فقال الله مكذبا لهم رادّا عليهم: أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ الْآيَةَ، والفاء للعطف على مقدر كظائره. ثم وبّخهم الله، فقال: مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ هذا الحكم الأعوج؛ كأنّ أمر الجزاء مفوّض إليكم تحكمون فيه بما شئتم أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ أَي: تقرأون فيه فتجدون المطيع كالعاصي، و مثل هذا قوله تعالى: أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ - فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ «١»، ثم قال سبحانه:

إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ قرأ الجمهور بكسر إن على أنها معمولة لتدرسون، أَي: تدرسون في الكتاب إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ فلما دخلت اللام كسرت الهمزة، كقوله: علمت إنك لعاقل بالكسر، أو على الحكاية للمدرّوس، كما في قوله: وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ - سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ «٢» وقيل:

قد تمّ الكلام عند قوله: تَدْرُسُونَ ثم ابتداء فقال: إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ أَي: ليس لكم ذلك، و قرأ طلحة بن مصرف و الضحاك إِنَّ لَكُمْ بفتح الهمزة على أن العامل فيه تدرسون مع زيادة لام التأكيد، و معنى تَخَيَّرُونَ تختارون و تشتتون. ثم زاد سبحانه في التوبيخ فقال: أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَهْدِ أَي: عهود مؤكدة موثقة متناهية، و المعنى: أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَى اللَّهِ اسْتَوَقَّعْتُمْ بِهَا فِي أَنْ يَدْخُلَكُمْ الْجَنَّةَ، و قوله:

إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ متعلق بالمقدر في لكم، ثابتة لكم إلى يوم القيامة، لا نخرج عن عهدها حتى يحكمكم يومئذ، و جواب القسم قوله: إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ لأن معنى أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ أَي: أَمْ أَقْسَمْنَا لَكُمْ.

قال الرازي: و المعنى أَمْ ضَمْنَا لَكُمْ، و أقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية في التوكيد. وقيل: قد تمّ الكلام عند قوله: إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثم ابتداء فقال: إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ أَي: ليس الأمر كذلك. قرأ الجمهور: بِالْعَهْدِ بِالرَّفْعِ عَلَى النِّعْتِ لِأَيْمَانٍ، و قرأ الحسن و زيد بن عليّ بنصبها على الحال من أيمان؛ لأنها قد تخصّصت بالوصف، أو من الضمير في لكم أو من الضمير في علينا سَأَلْتَهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ أَي:

سل يا محمد الكفار، موبّخا لهم و مقرّعا، أيهم بذلك الحكم الخارج عن الصواب، كفيل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين

فيها. و قال ابن كيسان: الزعيم هنا القائم بالحجة و الدعوى. و قال الحسن: الزعيم:  
الرسول أم لهم شركاء يشاركونهم في هذا القول و يوافقونهم فيه فليأتوا بشر كائهم إن كانوا صادقين

(١). الصفات: ١٥٦-١٥٧.

(٢). الصفات: ٧٨-٧٩.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٢٨

فيما يقولون، و هو أمر تعجيز. و قيل: المعنى أم لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين في الآخرة يوم يكشف عن ساق يوم ظرف،  
لقوله فليأتوا، أى: فليأتوا بها يوم يكشف عن ساق، و يجوز أن يكون ظرفا لفعل مقدر، أى: اذكر يوم يكشف. قال الواحدى: قال  
المفسرون فى قوله: عن ساق عن شدة من الأمر. قال ابن قتيبة: أصل هذا أن الرجل إذا وقع فى أمر عظيم يحتاج إلى الجد فيه  
شمر عن ساقه، فيستعار الكشف عن الساق فى موضع الشدة، و أنشد لدريد بن الصمة:

كميش الإزار خارج نصف ساقه صبور على الجلاء طلاع أنجد

و قال: و تأويل الآية يوم يشتد الأمر كما يشتد ما يحتاج فيه إلى أن يكشف عن ساق. قال أبو عبيدة:

إذا اشتد الحرب و الأمر قيل: كشف الأمر عن ساقه، و الأصل فيه: من وقع فى شىء يحتاج فيه إلى الجد شمر عن ساقه، فاستعير  
الساق و الكشف عن موضع الشدة، و هكذا قال غيره من أهل اللغة، و قد استعملت ذلك العرب فى أشعارها، و من ذلك قول  
الشاعر «١»:

أخو الحرب إن عصت به الحرب عضهاو إن شممت عن ساقها الحرب شمرا

و قول آخر:

و الخيل تعدو عند وقت الإشراق و قامت الحرب بنا على ساق

و قول آخر أيضا:

قد كشفت عن ساقها فشدواو جدت الحرب بكم فجدوا

و قول آخر أيضا:

فى سنة قد كشفت عن ساقها حمراء تبرى اللحم عن عراقها «٢».

و قيل: ساق الشىء: أصله و قوامه كساق الشجرة، و ساق الإنسان، أى: يوم يكشف عن ساق الأمر فتظهر حقائقه، و قيل: يكشف  
عن ساق جهنم، و قيل: عن ساق العرش، و قيل: هو عبارة عن القرب، و قيل: يكشف الرب سبحانه عن نوره، و سيأتى فى آخر  
البحث ما هو الحق، و إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

قرأ الجمهور يُكشَفُ بالتحية مبنيا للمفعول، و قرأ ابن مسعود و ابن عباس و ابن أبى عبله تكشف بالفوقية مبنيا للفاعل، أى:  
الشدة أو الساعة، و قرئ بالفوقية مبنيا للمفعول، و قرئ بالنون، و قرئ بالفوقية المضمومة و كسر الشين من أكشف الأمر، أى:  
دخل فى الكشف و يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ قال الواحدى: قال المفسرون: يسجد الخلق كلهم لله سجدة واحدة، و  
يبقى الكفار و المنافقون يريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون؛ لأن أصلا بهم تيبس فلا تلين للسجود. قال الربيع بن أنس: يكشف

(١). هو حاتم الطائى.

(٢). «العراق»: العظم بغير لحم.



عن الغطاء فيقع من كان آمن بالله في الدنيا فيسجدون له، و يدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون؛ لأنهم لم يكونوا آمنوا بالله في الدنيا، و انتصاب خاشعَةً أَبْصَارُهُمْ على الحال من ضمير «يدعون»، و «أبصارهم» مرتفع به على الفاعلية، و نسبة الخشوع إلى الأبصار، و هو الخضوع و الذلة لظهور أثره فيها تَرْهَقُهُمْ ذَلَّةٌ أَى: تغشاهم ذلة شديدة و حسرة و ندامه و قد كانوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ أَى:

في الدنيا وَ هُمْ سَالِمُونَ أَى: معافون عن العلل متمكنون من الفعل. قال إبراهيم التيمي: يدعون بالأذان و الإقامة فيأبون. و قال سعيد بن جبیر: يسمعون حَى على الفلاح فلا- يجيبون. قال كعب الأحبار: و الله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات. و قيل: يدعون بالتكليف المتوجه عليهم بالشرع فلا يجيبون، و جملة وَ هُمْ سَالِمُونَ في محل نصب على الحال من ضمير يدعون فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَى: حل بيني و بينه و كل أمره إِيَّيْنا أَكْفِيكِهِ. قال الزجاج: معناه لا يشتغل به قلبك، كله إِيَّيْنا أَكْفِكِ أَمْرِهِ. و الفاء لترتيب ما بعدها من الأمر على ما قبلها، و مَنْ منصوب بالعطف على ضمير المتكلم أو على أنه مفعول معه، و المراد بهذا الحديث القرآن، قاله السدي. و قيل: يوم القيامة، و في هذا تسلية لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ و جملة سَنَسِيْ تَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ مستأنفة لبيان كيفية التعذيب لهم المستفاد من قوله: فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَ الضمير عائد إلى «من» باعتبار معناها، و المعنى: سنأخذهم بالعذاب على غفلة، و نسوقهم إليه درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه؛ من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج؛ لأنهم يظنونهم إنعاما و لا يفكرون في عاقبته و ما سيلقون في نهايته. قال سفيان الثوري:

يسبغ عليهم النعم و ينسيهم الشكر. و قال الحسن: كم من مستدرج بالإحسان إليه! و كم من مفتون بالثناء عليه! و كم من مغرور بالستر عليه! و الاستدراج: ترك المعاجلة، و أصله النقل من حال إلى حال، و يقال: استدراج فلان فلانا، أَى: استخرج ما عنده قليلا قليلا، و يقال: درّجه إلى كذا و استدراجه، بمعنى، أَى «١» أدناه إلى التدرّج فدرّج هو. ثم ذكر سبحانه أنه يمهّل الظالمين، فقال: وَ أَمْلَى لَهُمْ أَى: أمهلهم ليزدادوا إثما.

و قد مضى تفسير هذا في سورة الأعراف و الطور، و أصل الملاوة: المدّة من الدهر، يقال: أملى الله له، أَى: أطال له المدّة، و الملا، مقصور: الأرض الواسعة، سمّيت به لامتدادها إِنْ كَيْدِي مَتِيْنٌ أَى: قوى شديد فلا يفوتني شيء، و سمى سبحانه إحسانه كيدا، كما سمّاه استدراجا؛ لكونه في صورة الكيد باعتبار عاقبته و وصفه بالمتانة لقوة أثره في التسبب للهلاك أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا أَعَاد سبحانه الكلام إلى ما تقدّم من قوله: أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ أَى: أم تلتمس منهم ثوابا على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ المغرم: الغرامة، أَى: فهم من غرامة ذلك الأجر، و «مثقلون» أَى: يتقل عليهم حملة لشحهم ببذل المال، فأعرضوا عن إجابتك بهذا السبب، و الاستفهام للتوبيخ لهم، و المعنى: أنك لم تسألهم ذلك و لم تطلبه منهم أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أَى: اللوح المحفوظ، أو كل ما غاب عنهم، فهم

(١). من تفسير القرطبي (١٨ / ٢٥٢)

من ذلك الغيب يكتبون ما يريدون من الحجج التي يزعمون أنها تدلّ على قولهم، و يخاصمونك بما يكتبونه من ذلك و يحكمون لأنفسهم بما يريدون و يستغنون بذلك عن الإجابة لك و الامتثال لما تقوله: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ أَى: لقضائه الذي قد قضاه في سابق علمه، قيل: و الحكم هنا هو إمهالهم و تأخير نصره رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عليهم، و قيل: هو ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة، قيل: و هذا منسوخ بآية السيف و لا تُكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ يعنى يونس عليه السلام، أَى: لا تكن مثله في

الغضب و الضجر و العجلة. و الظرف فى قوله: إِذْ نَادَىٰ مَنْصُوبٌ بِمُضَافٍ مَحذُوفٍ، أَى: لا تكن حالك كحالهِ وقت نداءهِ، و جملةٌ وَ هُوَ مَكْظُومٌ فى محل نصب على الحال من فاعل نادى، و المكظوم: المملوء غيظا و كربا. قال قتادة: إن الله يعزى نبيه صلى الله عليه و سلم و يأمره بالصبر و لا يعجل كما عجل صاحب الحوت، و قد تقدّم بيان قصته فى سورة الأنبياء و يونس و الصّافات، و كان النداء منه بقوله: لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ «١» و قيل:

إن المكظوم: المأخوذ بكظمه و هو مجرى النفس. قاله المبرّد، و قيل: هو المحبوس، و الأوّل أولى، و منه قول ذى الرّمة:

و أنت من حبّ مئى مضمّر حزنا عانى الفؤاد قريح القلب مكظوم

لَوْ لَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ أَى: لو لا أن تدارك صاحب الحوت نعمة من الله و هى توفيقه للتوبة فتاب الله عليه لَنَبَذَ بِالْغَرَاءِ أَى: لألقى من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات وَ هُوَ مَيِّذُومٌ أَى: يذمّ و يلام بالذنب الذى أذنبه و يطرد من الرحمة، و الجملة فى محل نصب على الحال من ضمير نبذ. قال الضحاك: النعمة هنا للنبوة. و قال سعيد بن جبیر: عبادته التى سلفت. و قال ابن زيد: هى نداؤه بقوله: لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ و قيل: مذموم: مبعّد. و قيل: مذنب. قرأ الجمهور: تَدَارَكَهُ على صيغة الماضى، و قرأ الحسن و ابن هرمز و الأعمش بتشديد الدال، و الأصل تداركه بقاء بين مضارعا فأدغم، و تكون هذه القراءة على حكاية الحال الماضية، و قرأ أبى و ابن مسعود و ابن عباس تداركته بقاء التأنيث فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ أَى: استخلصه و اصطفاه و اختاره للنبوة فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ أَى: الكاملين فى الصلاح و عصمه من الذنب، و قيل: ردّ إليه النبوة و شفعه فى نفسه و فى قومه، و أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون كما تقدّم وَ إِنَّ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ إِنْ هِيَ الْمَخْفِفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ. قرأ الجمهور: لَيُزْلِقُونَكَ بضم الياء من أزلقه، أَى: أزلّ رجله، يقال: أزلقه عن موضعه إذا نحاه، و قرأ نافع و أهل المدينة بفتحها من زلق عن موضعه؛ و إذا تنحى. قال الهروى: أَى: فيغتالونك بعيونهم فيزلقونك عن مقامك الذى أقامك الله فيه عداوة لك، و قرأ ابن عباس و ابن مسعود و الأعمش و مجاهد و أبو وائل ليرهقونك أَى: يهلكونك. و قال الكلبي: لَيُزْلِقُونَكَ أَى: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة، و كذا قال السدى و سعيد بن جبیر. و قال النضر بن شميل و الأخفش: يفتنونك. و قال

(١). الأنبياء: ٨٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٣١

الحسن و ابن كيسان: ليقتلونك. قال الزجاج فى الآية: مذهب أهل اللغة و التأويل أنهم من شدة إغاضهم و عداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك، و هذا مستعمل فى الكلام، يقول القائل نظر إلى نظرا يكاد يصرعنى، و نظرا يكاد يأكلنى. قال ابن قتيبة: ليس يريد الله أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، و إنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظرا شديدا بالعداوة و البغضاء يكاد يسقطك، كما قال الشاعر:

يتقارضون إذا التقوا فى مجلس نظرا يزيل مواطئ الأقدام

لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ أَى: وقت سماعهم للقرآن لكراحتهم لذلك أشدّ كراهة، و لما: ظرفية منصوبة بيزلقونك، و قيل: هى حرف، و جوابها محذوف لدلالة ما قبله عليه أَى لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ أَى: ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن، فردّ الله عليهم بقوله: وَ مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ و الجملة مستأنفة، أو فى محل نصب على الحال من فاعل يقولون، أَى: و الحال أنه تذكير و بيان لجميع ما يحتاجون إليه، أو شرف لهم كما قال سبحانه: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ و قيل: الضمير لرسول الله صلى الله عليه و سلم و إنه مذكر للعالمين أو شرف لهم.

وقد أخرج البخارى وغيره عن أبى سعيد قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا» وهذا الحديث ثابت من طرق فى الصحيحين وغيرهما، وله ألفاظ فى بعضها طول، وهو حديث مشهور معروف. وأخرج ابن مندة عن أبى هريرة فى الآية قال: يكشف الله عز وجل عن ساقه. وأخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن مندة عن ابن مسعود فى الآية قال: يكشف عن ساقه تبارك و تعالى. وأخرج أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن مردويه فى الأسماء و الصفات، و ضعفه و ابن عساكر عن أبى موسى عن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى الآية قال: «عن نور عظيم فيخزون له سجدا». و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن مندة و البيهقى عن إبراهيم النخعى عن ابن عباس فى الآية قال: يكشف عن أمر عظيم، ثم قال: قد قامت الحرب على ساق. قال: و قال ابن مسعود: يكشف عن ساقه فيسجد كل مؤمن، و يقسو ظهر الكافر فيصير عظما واحدا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ قَالَ: إذا خفى عليكم شىء من القرآن فابتغوه فى الشعر فإنه ديوان العرب، أما سمعتم قول الشاعر: و قامت الحرب بنا على ساق «١» قال ابن عباس: هذ يوم كرب شديد، روى عنه نحو هذا من طرق أخرى، و قد أغنانا الله سبحانه فى

(١). جاء هذا القول على المثل. كما فى اللسان (مادة سوق)، و تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص (٤٨١)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٣٢

تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما عرفت، و ذلك لا يستلزم تجسيما و لا تشبيها فليس كمثله شىء.

دعوا كل قول عند قول محمدا فما آمن فى دينه كمخاطر

و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سَالِمُونَ قَالَ:

هم الكفار يدعون فى الدنيا و هم آمنون فالיום يدعون و هم خائفون. و أخرج البيهقى فى الشعب عنه فى الآية قال: الرجل يسمع الأذان فلا يجيب الصلاة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: لَيُرْلَقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ قَالَ: ينفذونك بأبصارهم.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٣٣

## سورة الحاقة

### إشارة

هى إحدى و خمسون آية، و قيل: اثنتان و خمسون و هى مكية. قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحاقة بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج الطبرانى عن أبى برزة قال: «إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ فى الفجر بالحاقة و نحوها».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحاقة (٦٩): الآيات ١ الى ١٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عَادُ بِالْقَارِعَةِ (٤)

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَ أَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَنِعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ

فِيهَا صَرَغِي كَأَنَّهُمْ كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَ جَاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ الْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩)

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكَرَةً وَ نَعِيهَا أُذُنًا وَعَيْتَةً

(١٢) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤)

فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَ انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَ الْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَ يُحْمَلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ

ثَمَانِيَةَ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)

قوله: الْحَاقَّةُ هي القيامة؛ لأن الأمر يحنق فيها، و هي تحق في نفسها من غير شك. قال الأزهرى:

يقال: حاقفته فحققته أحقه: غالبته فغلبته أغلبه، فالقيامة حاقه لأنها تحق كل محاق في دين الله بالباطل و تخضم كل مخاصم. و

قال في الصحاح: حاقه أى خاصمه فى صغار الأشياء، و يقال: ما له فيها حق و لا حقاق، أى: خصومه، و التحاق: التخاصم، و

الحاقه و الحقه و الحق ثلاث لغات بمعنى. قال الواحدي: هي القيامة فى قول كل المفسرين، و سميت بذلك لأنها ذات الحواق

من الأمور، و هي الصادقة الواجبة الصدق، و جميع أحكام القيامة صادقة واجبة الوقوع و الوجود. قال الكسائى و المؤرج: الحاقه

يوم الحق، و قيل: سميت بذلك لأن كل إنسان فيها حقيق بأن يجزى بعمله، و قيل: سميت بذلك لأنها أحقت لقوم النار، و

أحقت لقوم الجنة، و هي مبتدأ و خبرها قوله: مَا الْحَاقَّةُ عَلَى أَنْ «ما» الاستفهامية مبتدأ ثان و خبره «الحاقه»، و الجملة خبر للمبتدأ

الأول، و المعنى: أى شىء هي فى حالها أو صفاتها، و قيل: إن «ما» الاستفهامية خبر لما بعدها، و هذه الجملة و إن كان لفظها

لفظ الاستفهام فمعناها التعظيم و التفخيم لشأنها، كما تقول: زيد ما زيد، و قد قدمنا تحقيق هذا المعنى فى سورة الواقعة. ثم زاد

سبحانه فى تفخيم أمرها و تفضيع شأنها و تهويل حالها فقال: وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ أَي: أى شىء أعلمك ما هي؟ أى: كأنك

لست تعلمها إذ لم

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٣٤

تعانيها و تشاهد ما فيها من الأهوال فكانها خارجة عن دائرة علم المخلوقين. قال يحيى بن سلام: بلغنى أن كل شىء فى القرآن وَ

ما أَدْرَاكَ\* فقد أدراه إياه و علمه، و كل شىء قال فيه: وَ مَا يُدْرِيكَ\* [فهو مما لم يعلمه. و قال سفيان بن عيينة: كل شىء قال

فيه: وَ مَا أَدْرَاكَ\*] [١] فإنه أخبره به، و «ما» مبتدأ، و خبره «أدراك»، و «ما الحاقه» جملة من مبتدأ و خبر محلها نصب بإسقاط

الخافض؛ لأن أدرى يتعدى إلى المفعول الثانى بالباء كما فى قوله: وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت فى

موضع المفعول الثانى، و بدون الهمزة يتعدى إلى مفعول واحد بالباء نحو: دريت بكذا، و إن كان بمعنى العلم تعدى إلى

مفعولين، و جملة «و ما أدراك» معطوفة على جملة «ما الحاقه». كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عَادُ بِالْقَارِعَةِ أَي:

بالقيامة، و سميت بذلك لأنها تفرع الناس بأهوالها. و قال المبرد: عنى بالقارعة القرآن الذى نزل فى الدنيا على أنبيائهم، و كانوا

يخوفونهم بذلك فيكذبونهم، و قيل: القارعة مأخوذة من القرعة لأنها ترفع أقواما و تحط آخرين، و الأول أولى، و يكون وضع

القارعة موضع ضمير الحاقه للدلالة على عظيم هولها و فظاعة حالها، و الجملة مستأنفة لبيان بعض أحوال الحاقه فأما ثَمُودُ

فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ثمود: هم قوم صالح، و قد تقدم بيان هذا فى غير موضع و بيان منازلهم و أين كانت، و الطاغية الصيحة التى

جاوزت الحد، و قيل: بطغيانهم و كفرهم، و أصل الطغيان: مجاوزة الحد وَ أَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاد: هم قوم هود، و قد

تقدم بيان هذا، و ذكر منازلهم و أين كانت فى غير موضع، و الريح الصرصر: هي الشديدة البرد، مأخوذ من الصرّ و هو البرد، و

قيل: هي الشديدة الصوت. وقال مجاهد: الشديدة السموم، و العاتية: التي عنت عن الطاعة؛ فكانها عنت على خزائنها فلم تطعمهم، و لم يقدرُوا على رَدِّها لشِدَّةِ هبوبها، أو عنت على عاد؛ فلم يقدرُوا على رَدِّها، بل أهلكتهم سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَيِّحَ لَيَالٍ هذه الجملة مستأنفة لبيان كيفية إهلاكهم، و معنى سَخَّرَهَا: سلَّطَهَا، كذا قال مقاتل، و قيل: أرسلها. و قال الزجاج: أقامها عليهم كما شاء، و التسخير: استعمال الشيء بالاعتدال، و يجوز أن تكون هذه الجملة صفة لريح، و أن تكون حالا منها لتخصيصها بالصفة، أو من الضمير في عاتية، وَ ثَمَانِيَّةٌ أَيَّامٌ معطوف على سبع ليال، و انتصاب حُسُومًا على الحال، أى: ذات حسوم، أو على المصدر بفعل مقدر، أى: تحسمهم حسوما، أو على أنه مفعول به، و الحسوم: التابع، فإذا تتابع الشيء و لم ينقطع أوَّله عن آخره قيل له: الحسوم. قال الزجاج:

الَّذِي توجبه اللغة في معنى قوله حسوما، أى: تحسمهم حسوما: تفنيهم و تذهبهم. قال النضر بن شميل: حسمتهم: قطعتهم و أهلكتهم. و قال الفراء: الحسوم: التباع، من حسم الداء و هو الكي، لأن صاحبه يكوى بالمكواه، ثم يتابع ذلك عليه، و منه قول أبي داود «٢»: يفرِّق بينهم زمن طويل تتابع فيه أعواما حسوما «٣»

(١). من تفسير القرطبي (٢٥٧/١٨)

(٢). في تفسير القرطبي: عبد العزيز بن زرارَةَ الكلابي.

(٣). في تفسير القرطبي: يفرِّق بين بينهم زمان تتابع فيه أعوام حسوم فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٣٥

و قال المبرِّد: هو من قولك: حسمت الشيء؛ إذا قطعته و فصلته عن غيره، و قيل: الحسم:

الاستئصال، و يقال للسيف حسام؛ لأنه يحسم العدوَّ عما يريد من بلوغ عداوته، و المعنى: أنها حسمتهم، أى: قطعتهم و أذهبتهم، و منه قول الشاعر:

فأرسلت ريحا دبوراً عقيما فدارت عليهم فكانت حسوما

قال ابن زيد: أى حسمتهم فلم تبق منهم أحدا. و روى عنه أنه قال: حسمت الأيام و الليالي حتى استوفتها، لأنها بدأت بطلوع الشمس من أوَّل يوم و انقطعت بغروب الشمس من آخر يوم. و قال الليث: الحسوم هي الشؤم، أى: تحسم الخير عن أهلها، كقوله: فِي أَيَّامِ نَحْسَاتٍ «١».

و اختلف في أوَّلها، فقيل: غداة الأحد، و قيل: غداة الجمعة، و قيل: غداة الأربعاء. قال وهب: و هذه الأيام هي التي تسميها العرب أيام العجوز، كان فيها برد شديد و ريح شديدة، و كان أوَّلها يوم الأربعاء، و آخرها يوم الأربعاء. فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَيْرَعِي الخُطاب لكل من يصلح له على تقدير أنه لو كان حاضرا حينئذ لرأى ذلك، و الضمير في فيها يعود إلى الليالي و الأيام، و قيل: إلى مهاب الريح، و الأوَّل أولى. و صرعى:

جمع صريع، يعنى: موتى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ أى: أصول نخل ساقطة، أو بالية، و قيل: خالية لا جوف فيها، و النخل يذكر و يؤنث، و مثله قوله: كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْفَعِرٍ «٢» و قد تقدّم تفسيره، و هو إخبار عن عظم أجسامهم. قال يحيى بن سلام: إنما قال خاوية لأن أبدانهم خوت من أرواحهم مثل النخل الخاوية فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ أى: من فرقة باقية، أو من نفس باقية، أو من بقيّة، على أن باقية مصدر كالعاقبة و العافية. قال ابن جريج: أقاموا سبع ليال و ثمانية أيام أحياء في عذاب الريح، فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا، فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر و جاء فِرْعَوْنَ وَ مَنْ قَبْلَهُ أى: من الأمم الكافرة.

قرأ الجمهور قبله بفتح القاف و سكون الباء، أى: و من تقدّمه من القرون الماضية و الأمم الخالية، و قرأ أبو عمرو و الكسائي

بكسر القاف وفتح الباء، أى: و من هو فى جهته من أتباعه، و اختار أبو حاتم و أبو عبيد القراءه الثانیه لقراءه ابن مسعود و أبى «و من معه»، و لقراءه أبى موسى «و من تلقاه» وَ الْمُؤْتَفِكَاتُ قرأ الجمهور: الْمُؤْتَفِكَاتُ بالجمع و هى قرى قوم لوط، و قرأ الحسن و الجحدري: المؤتفكئة بالإفراد، و اللام للجنس، فهى فى معنى الجمع، و المعنى: و جاءت المؤتفكات بِالْخَاطِئَةِ أى: بالفعله الخاطئه، أو الخطأ على أنها مصدر. و المراد أنها جاءت بالشرك و المعاصى. قال مجاهد: بالخطايا. و قال الجرجاني: بالخطيا العظیم فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ أى: فعصت كل أمة رسولها المرسل إليها. قال الكلبي: هو موسى: و قيل: لوط لأنه أقرب، و قيل: و رسول هنا بمعنى رساله، و منه قول الشاعر «٣»:

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بسرّ و لا أرسلتهم برسول

(١). فصلت: ١٦.

(٢). القمر: ٢٠.

(٣). هو كثير عزة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٣٦

أى: برسالة. فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً أى: أخذهم الله أخذه نامية زائدة على أخذات الأمم، و المعنى: أنها بالغه فى الشدة إلى الغاية، يقال: ربا الشيء يربو؛ إذا زاد و تضاعف. قال الزجاج: تزيد على الأخذات. قال مجاهد: شديده إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ أى: تجاوز فى الارتفاع و العلو، و ذلك فى زمن نوح لما أصرّ قومه على الكفر و كذبه، و قيل: طغى على خزانه من الملائكة غضبا لربه فلم يقدروا على حبسه. قال قتادة:

زاد على كل شيء خمسة عشر ذراعا حَمَلْنَاكُمْ فى الْجَارِيَةِ أى: فى أصلاب آبائكم، أو حملناهم و حملناكم فى أصلابهم تغليبا للمخاطبين على الغائبين. و الجارية: سفينة نوح، و سميت جارية لأنها تجرى فى الماء، و محل «فى الجارية» النصب على الحال، أى: رفعناكم فوق الماء حال كونكم فى السفينة، و لما كان المقصود من ذكر قصص هذه الأمم، و ذكر ما حلّ بهم من العذاب، زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم فى معصية الرسول، قال: لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذِكْرًا أى: لنجعل هذه الأمور المذكورة لكم، يا أمة محمّد، عبرة و موعظة؛ تستدلون بها على عظيم قدرة الله و بديع صنعه، أو لنجعل هذه الفعله التى هى عبارة عن إنجاء المؤمنين و إغراق الكافرين لكم تذكرة، وَ تَعِيَهَا أُذُنٌ وَاَعْيَتْهُمُ أى: تحفظها بعد سماعها أذن حافظه لما سمعت. قال الزجاج:

يقال وعيت كذا، أى: حفظته فى نفسى، أعيه وعيا، و وعيت العلم، و وعيت ما قلته؛ كله بمعنى، و أوعيت المتاع فى الوعاء، و يقال لكل ما وعيته فى غير نفسك: أوعيته بالألف، و لما حفظته فى نفسك: وعيته بغير ألف.

قال قتادة فى تفسير الآية: أذن سمعت و عقلت ما سمعت. قال الفراء: المعنى لتحفظها كل أذن؛ عظه لمن يأتى بعد. قرأ الجمهور تَعِيَهَا بكسر العين. و قرأ طلحة بن مصرف و حميد الأعرج و أبو عمرو فى روايه عنه بإسكان العين، تشبيها لهذه الكلمه برحم و شهد، و إن لم تكن من ذلك. قال الرازى: و روى عن ابن كثير إسكان العين، جعل حرف المضارعه مع ما بعده بمنزله كلمه واحده، فخفف و أسكن، كما أسكن الحرف المتوسط من فخذ و كبد و كتف انتهى. و الأولى أن يكون هذا من باب إجراء الوصل مجرى الوقف، كما فى قراءة من قرأ وَ مَا يُشْعِرُكُمْ «١» بسكون الراء، قال القرطبي: و اختلفت القراءة فيها عن عاصم و ابن كثير، يعنى تعيها فإذا نُفِخَ فى الصُّورِ نَفْحَةٌ وَاِحِدَةٌ هذا شروع فى بيان الحاقه، و كيف وقوعها، بعد بيان شأنها بإهلاك المكذبين. قال عطاء: يريد النفخة الأولى. و قال الكلبي و مقاتل: يريد النفخة الأخيرة.

قرأ الجمهور: نَفْحَةٌ وَاِحِدَةٌ بالرفع فهما على أن نفخه مرتفعه على النيايه، و واحده تأكيد لها، و حسن تذكير الفعل لوقوع الفصل،

و قرأ أبو السَّمَال بنصبهما على أن النائب هو الجار والمجرور. قال الزجاج: قوله:

فِي الصُّورِ يَقُومُ مَقَامَ مَا لَمْ يَسْمُ فَاعِلُهُ وَ حُمِلَتِ الأَرْضُ وَ الجِبَالُ أَي: رفعت من أماكنها و قلعت عن مقارّها بالقدره الإلهية. قرأ الجمهور: حُمِلَتِ بتخفيف الميم. و قرأ الأعمش و ابن أبي عبله و ابن مقسم و ابن عامر في رواية عنه بتشديدها للتكثير أو للتعدية فَدَكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً أَي: فكسرتا كسرة واحدة لا زيادة عليها، أو ضربتا ضربه واحدة بعضهما ببعض حتى صارتا كثيبا مهيلا و هباء منبثا. قال الفراء: و لم

(١). الأنعام: ١٠٩.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٣٧

يقول فد ككن لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة، و مثله قوله تعالى: أَو لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا (١) و قيل: دكّتا: بسطنا بسطة واحدة، و منه اندك سنام البعير؛ إذا انفرش على ظهره فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ أَي: قامت القيامة وَ انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ أَي: انشقت بنزول ما فيها من الملائكة، فهي في ذلك اليوم ضعيفة مسترخية. قال الزجاج: يقال: لكل ما ضعف جدا قد و هي فهو واه، و قال الفراء: وهيها: تشققها وَ المَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا أَي: جنس الملك على أطرافها و جوانبها، و هي جمع رجا مقصور، و تثنيته رجوان، مثل قفا و قفوان، و المعنى: أنها لما تشققت السماء، و هي مساكنهم، لجئوا إلى أطرافها. قال الضحاك: إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشقت، و تكون الملائكة على حافات حيث يأمرهم الرب فيزلون إلى الأرض، و يحيطون بالأرض و من عليها. و قال سعيد بن جبيرة: المعنى: و الملك على حافات الدنيا، أَي: يزلون إلى الأرض، و قيل: إذا صارت السماء قطعا يقف الملائكة على تلك القطع التي ليست متشقة في أنفسها وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ أَي: يحمله فوق رؤوسهم يوم القيامة ثمانية أملاك، و قيل: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله عز و جل، و قيل: ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة، قاله الكلبي و غيره يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ أَي: تعرض العباد على الله لحسابهم، و مثله: وَ عُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا (٢)، و ليس ذلك العرض عليه سبحانه ليعلم به ما لم يكن عالما به. و إنما هو عرض الاختبار و التوبيخ بالأعمال، و جملة لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ في محل نصب على الحال من ضمير تعرضون، أَي: تعرضون حال كونه لا- يخفى على الله سبحانه من ذواتكم أو أقوالكم و أفعالكم خافية كائنه ما كانت، و التقدير: أَي نفس خافية، أو فعلة خافية.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الحَاقَّةُ من أسماء القيامة. و أخرج الفريابي و عبد بن حميد و ابن جرير عنه قال: ما أرسل الله شيئا من ريح إلا- بمكيال، و لا قطرة من ماء إلا بمكيال؛ إلا يوم نوح و يوم عاد. فأما يوم نوح فإن الماء طغى على خزانه فلم يكن لهم عليه سبيل، ثم قرأ: إِنَّا لَمَّا طَغَى المَاءُ وَ أما يوم عاد فإن الريح عنت على خزانه فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ: بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. و أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب نحوه. و أخرج البخاري و مسلم و غيره عن ابن عباس عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قال: «نصرت بالصبا، و أهلكت عاد بالدبور». و أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر مرفوعا:

«قال ما أمر الخزان أن يرسلوا على عاد إلا مثل موضع الخاتم من الريح، فعتت على الخزان فخرجت من نواحي الأبواب» فذلك قوله: بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ قال: عتوها: عنت على الخزان. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ قال: الغالبة. و أخرج عبد الرزاق و الفريابي و سعيد ابن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الطبراني، و الحاكم و صححه، عن ابن مسعود في قوله:

حُسُومًا قَالَ: متتابعات. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير من طرق عن ابن عباس في قوله:

(١). الأنبياء: ٣٠.

(٢). الكهف: ٤٨.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٣٨

حُسُومًا قَالَ: تباعا، و في لفظ: متتابعات. و أخرج ابن المنذر عنه كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ قَالَ:

هي أصولها، و في قوله: خَاوِيَةٌ قَالَ: خربة. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عنه أيضا في قوله:

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ قَالَ: طغى على خزانه فتزل، و لم ينزل من السماء ماء إلا- بمكيال أو ميزان إلا زمن نوح فإنه طغى على خزانه فتزل بغير كيل و لا وزن. و أخرج سعيد بن منصور و ابن مردويه، و أبو نعيم في الحلية، من طريق مكحول عن علي بن أبي طالب في قوله: وَ تَعِيهَا أُذُنٌ وَاَعِيَةٌ قَالَ: قال رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم:

«سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي» فقال علي: ما سمعت من رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم شيئا فنسيته. قال ابن كثير:

و هو حديث مرسل. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و الواحدى و ابن مردويه و ابن عساكر و ابن النجار عن بريده قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم لعلي: «إن الله أمرني أن أدنيك و لا- أقصيك، و أن أعلمك، و أن تعي، و حق لك أن تعي، فتزلت هذه الآية وَ تَعِيهَا أُذُنٌ وَاَعِيَةٌ فأنت أذن و اعية، لعلي» قال ابن كثير:

و لا- يصح. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عمر في قوله: أُذُنٌ وَاَعِيَةٌ قَالَ: أذن عقلت عن الله. و أخرج الحاكم، و البيهقي في البعث، عن أبي بن كعب في قوله: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاِحِدَةً قَالَ: تصيران غبرة على وجوه الكافرين لا على وجوه المؤمنين، و ذلك قوله: وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ- تَزْهَقُهَا فَتَرَةٌ «١». و أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاِهِيَةٌ قَالَ:

متخرقة. و أخرج الفريابي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه في قوله: وَ الْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا قَالَ:

على حافاتهما على ما لم يهيبى منها. و أخرج عبد بن حميد، و عثمان بن سعيد الدارمي في الرد على الجهمية، و أبو يعلى و ابن المنذر و ابن خزيمة، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و الخطيب في تالى التلخيص، عنه أيضا في قوله: وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ قَالَ: ثمانية أملاك على صورة الأوعال. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا من طرق في الآية قال: يقال ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله، و يقال: ثمانية أملاك رؤوسهم عند العرش في السماء السابعة و أقدامهم في الأرض السفلى، و لهم قرون كقرون الوعلة، ما بين أصل قرن أحدهم إلى منتهاه خمسمائة عام. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و ابن ماجه و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي موسى قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجداول و معاذير، و أما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف فى الأيدي؛ فأخذ بيمينه و أخذ بشماله». و أخرج ابن جرير، و البيهقي فى البعث، عن ابن مسعود نحوه.

### [سورة الحاقة (٦٩): الآيات ١٩ الى ٥٢]

فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَفْرُوا كِتَابِيهِ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣)

كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَ أَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ (٢٥) وَ لَمْ أَذْرَ مَا



حَسَابِيَه (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَه (٢٧) مَا أَعْنَى عَنِّي مَالِيَه (٢٨)  
هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه (٢٩) خَذُوهُ فَعَلُوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلْوَهُ (٣١) ثُمَّ فِي سَلْسَلَمَهْ ذَرَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا  
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣)  
وَلَا يَحْضُرُ عَلَيَّ طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)  
فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨)  
وَمَا لَا تَبْصُرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَدْكُرُونَ  
(٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣)  
وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَ  
إِنَّهُ لَتَذَكَّرٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨)  
وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)

(١). عبس: ٤٠-٤١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٣٩

لما ذكر سبحانه العرض ذكر ما يكون فيه، فقال: فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ أَى: أعطى كتابه الّذى كتبه الحفظه عليه من أعماله  
فَيَقُولُ هَؤُومٌ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهْ يَقول ذلك سرورا و ابتهاجا. قال ابن السكيت و الكسائى: العرب تقول: هاء يا رجل، و للاثنين هاؤما يا  
رجلان، و للجمع هاؤم يا رجال، و قيل:

و الأصل هاكم، فأبدلت الهمزة من الكاف، قال ابن زيد: و معنى هاؤم: تعالوا. و قال مقاتل: هلم، و قيل:

خذوا، فهى اسم فعل، و قد يكون فعلا صريحا لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها، و فيها ثلاث لغات كما هو معروف فى علم  
الإعراب، و قوله: كِتَابِيَهْ معمول لقوله: أَقْرَأُوا لأنه أقرب الفعلين، و معمول هاؤمٌ محذوف يدل عليه معمول أَقْرَأُوا و التقدير: هاؤم  
كتابه اقرءوا كتابيه، و الهاء فى كتابيه و حسابيه و سلطانيه و ماله هى هاء السكت. قرأ الجمهور فى هذه يا ثبات الهاء وقفا و  
وصلا مطابقة لرسم المصحف، و لو لا ذلك لحذفت فى الوصل كما هو شأن هاء السكت، و اختار أبو عبيد أن يتعمد الوقف  
عليها ليوافق اللغة فى إلحاق الهاء فى السكت و يوافق الخط، يعنى خط المصحف. و قرأ ابن محيصن و ابن أبى إسحاق و حميد  
و مجاهد و الأعمش و يعقوب بحذفها وصلا و إثباتها وقفا فى جميع الألفاظ. و رويت هذه القراءة عن حمزة، و اختار أبو  
حاتم هذه القراءة اتباعا للغة. و روى عن ابن محيصن أنه قرأ بحذفها وصلا و وقفا.

إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ أَى: علمت و أيقنت فى الدنيا أنى أحاسب فى الآخرة، و قيل: المعنى:

إنى ظننت أن يأخذنى الله بسيئاتى فقد تفضّل علىّ بعفوه و لم يؤاخذنى. قال الضحّاك: كل ظنّ فى القرآن من المؤمن فهو  
يقين، و من الكافر فهو شك. قال مجاهد: ظن الآخرة يقين، و ظن الدنيا شك. قال الحسن فى هذه الآية: إن المؤمن أحسن الظنّ  
بربه، فأحسن العمل للآخرة، و إن الكافر أساء الظنّ بربه فأساء العمل.

قيل: و التعبير بالظنّ هنا للإشعار بأنه لا يقدر فى الاعتقاد ما يهيجس فى النفس من الخطرات التى لا تنفك عنها العلوم النظرية  
غالبا فهو فى عيشه راضيه أَى: فى عيشه مرضيه لا مكروهه، أو ذات رضى، أَى:

يرضى بها صاحبها. قال أبو عبيده و الفراء: راضيه أَى مرضيه، كقوله: ماءٍ دافقٍ «١» أَى: مدفوق، فقد أسند إلى العيشه ما هو  
لصاحبها، فكان ذلك من المجاز فى الإسناد فى جنه عاليه أَى: مرتفعه المكان لأنها فى السماء، أو مرتفعه المنازل، أو عظيمه فى

(١). الطارق: ٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٤٠

ما يقطف من الثمار، و القطف بالفتح المصدر، و القطف بالفتح و الكسر وقت القطف، و المعنى: أن ثمارها قريبة ممن يتناولها من قائم أو قاعد أو مضطجع كَلُوا وَ اشْرَبُوا أى: يقال لهم كلوا و اشربوا فى الجنة هَنِيئًا أى: أكلا و شربا هنيئا لا تكدير فيه و لا تنغيص بما أَسْلَفْتُمْ فى الأَيَّامِ الخَالِيَةِ أى: بسبب ما قدتم من الأعمال الصالحة فى الدنيا. و قال مجاهد: هى أيام الصيام وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشَهَادَةٍ فَيَقُولُ حَزْنَا وَ كَرَبْنَا لِمَا رَأَى فِيهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ: يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهُ أى: لم أعط كتابيه وَ لَمْ أُذْرَ مَا حِسَابِيَهُ أى: لم أدر أى شىء حسابى؛ لأن كَلَّهُ عليه يا لَيْتَهَا كَانَتْ القَاضِيَةَ أى: ليت الموتة التى مَتَّهَا كَانَتْ القَاضِيَةَ و لم أحي بعدها، و معنى: القَاضِيَةُ: القاطعة للحياة، و المعنى: أنه تمنى دوام الموت و عدم البعث لما شاهد من سوء عمله و ما يصير إليه من العذاب، فالضمير فى ليتها يعود إلى الموتة التى قد كان ماتها و إن لم تكن مذكورة؛ لأنها لظهورها كانت كالمذكورة. قال قتادة: تمنى الموت و لم يكن فى الدنيا شىء عنده أكره منه، و شر من الموت ما يطلب منه الموت. و قيل: الضمير يعود إلى الحالة التى شاهدها عند مطالعة الكتاب، و المعنى: يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التى قضيت على ما أغنى عَنِّي مَالِيَهُ أى: لم يدفع عنى من عذاب الله شيئا، على أن ما نافية أو استفهامية، و المعنى: أى شىء أغنى عنى مالى هَلَكَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهُ أى: هلكت عنى حجتى و ضللت عنى، كذا قال مجاهد و عكرمة و السدى و الضحاک. و قال ابن زيد: يعنى سلطانى الذى فى الدنيا، و هو الملك، و قيل: تسلطى على جوارحى. قال مقاتل: يعنى حين شهدت عليه الجوارح بالشرك، و حينئذ يقول الله عزَّ وَ جَلَّ: خُذُوهُ فَغُلُّوهُ أى: اجمعوا يده إلى عنقه بالأغلال ثُمَّ الْجَحِيمَ صَيَّلُوهُ أى: أدخلوه الجحيم، و المعنى: لا تصلوه إلا الجحيم، و هى النار العظيمة ثُمَّ فى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ السِّلْسَلَةُ: حلق منتظمة، و ذرعها: طولها. قال الحسن:

الله أعلم بأى ذراع هو. قال نوف الشامى: كل ذراع سبعون باعا أبعد مما بينك و بين مكة، و كان نوف فى رجة الكوفة. قال مقاتل: لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص، و معنى فَاسْلُكُوهُ فاجعلوه فيها، يقال: سلكته الطريق إذا أدخلته فيه. قال سفيان: بلغنا أنها تدخل فى دبره حتى تخرج من فيه. قال الكلبي: تسلك سلك الخيط فى اللؤلؤ. و قال سويد بن أبي نجیح: بلغنى أن جميع أهل النار فى تلك السلسلة. و تقديم السلسلة للدلالة على الاختصاص كتقديم الجحيم، و جملة إِنَّهُ كَانَ لَا- يُؤْمِنُ بِاللَّهِ العَظِيمِ تعليل لما قبلها وَ لَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ المَسْكِينِ أى: لا يحث على إطعام المسكين من ماله، أو لا يحث الغير على إطعامه، و وضع الطعام موضع الإطعام كما يوضع العطاء موضع الإعطاء، كما قال الشاعر «١»:

أ كَفَرَا بَعْدَ رَدِّ مَوْتِي عَنِّي وَ بَعْدَ عَطَائِكَ المَائَةَ الرِّتَاعَا «٢»

(١). هو القطامى.

(٢). «الرتاع»: التى ترتع.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٤١

أى: بعد إعطائك، و يجوز أن يكون الطعام على معناه غير موضوع موضع المصدر، و المعنى: أنه لا- يحث نفسه أو غيره على بذل نفس طعام المسكين، و فى جعل هذا قرينا لترك الإيمان بالله من الترغيب فى التصدق على المساكين و سد فاقتهم، و حث النفس و الناس على ذلك؛ ما يدلّ أبلغ دلالة، و يفيد أكمل فائدة، على أن منعهم من أعظم الجرائم و أشد المآثم فَلَيْسَ لَهُ اليَوْمَ

هاهنا حَمِيمٌ أى: ليس له يوم القيامة فى الآخرة قريب ينفعه، أو يشفع له؛ لأنه يوم يفتر فيه القريب من قريبه، و يهرب عنده الحبيب من حبيبه و لا- طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلَيْنِ أى: و ليس له طعام يأكله إلا- من صديد أهل النار، و ما يغسل من أبدانهم من القيح و الصديد، و غسلين: فعلين، من الغسل. و قال الضحاک و الربيع بن أنس: هو شجر يأكله أهل النار. و قال قتادة: هو شرّ الطعام. و قال ابن زيد: لا- يعلم ما هو و لا- ما الزقوم إلا الله تعالى. و قال سبحانه فى موضع آخر لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ فيجوز أن يكون الضريح هو الغسلين، و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و المعنى فليس له اليوم ها هنا حميم من غسلين على أن الحميم هو الماء الحار و لا طَعَامٌ أى: ليس لهم طعام يأكلونه. و لا ملجئ لهذا التقديم و التأخير، و جملة لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ صفة لغسلين، و المراد أصحاب الخطايا و أرباب الذنوب. قال الكلبي: المراد: الشرك. قرأ الجمهور: الْخَاطِئُونَ مهموزا، و هو اسم فاعل من خطيء إذا فعل غير الصواب متعمدا، و المخطئ: من يفعله غير متعمد. و قرأ الزهري و طلحة بن مصرف و الحسن «الخطيون» بياء مضمومة بدل الهمزة. و قرأ نافع فى رواية عنه بضم الطاء بدون همزة. فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبَيِّنُونَ- و ما لا تُبَيِّنُونَ هذا ردّ لكلام المشركين كأنه قال: ليس الأمر كما تقولون، و «لا» زائدة، و التقدير: فأقسم بما تشاهدونه و ما لا تشاهدونه. قال قتادة: أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها و ما لا يبصر، فيدخل فى هذا جميع المخلوقات، و قيل: إن «لا» ليست زائدة، بل هى لنفى القسم، أى: لا- أحتاج إلى قسم لوضوح الحقّ فى ذلك، و الأوّل أولى إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ أى: إن القرآن لتلاوة رسول كريم، على أن المراد بالرسول محمد صلّى الله عليه و سلّم، أو إنه لقول يبلغه رسول كريم.

قال الحسن و الكلبي و مقاتل: يريد به جبريل، دليله قوله: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ- ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ «١» و على كل حال فالقرآن ليس من قول محمد صلّى الله عليه و سلّم، و لا من قول جبريل عليه السلام؛ بل هو قول الله، فلا بدّ من تقدير التلاوة أو التبليغ و ما هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ كما تزعمون؛ لأنه ليس من أصناف الشعر و لا مشابه لها قليلا ما تُؤْمِنُونَ أى: إيماننا قليلا تؤمنون، و تصديقا يسيرا تصدقون، و «ما» زائدة و لا بِقَوْلِ كَاهِنٍ كما تزعمون، فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها و بين هذا قليلا ما تَدَكَّرُونَ أى: تذكرا قليلا أو زمانا قليلا- تذكرون، و «ما» زائدة، و القلمة فى الموضوعين بمعنى النفى، أى: لا تؤمنون و لا تذكرون أصلا تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو تنزيل. و قرأ أبو السّمّال بالنصب على المصدرية بإضمار فعل، أى: نزل تنزيلا،

(١). التكوير: ١٩- ٢٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٤٢

و المعنى: إنه لقول رسول كريم، و هو تنزيل من ربّ العالمين على لسانه و لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ أى: و لو تقوّل ذلك الرسول، و هو محمد، أو جبريل على ما تقدّم، و التقوّل: تكلف القول، و المعنى: لو تكلف ذلك و جاء به من جهة نفسه، و سُمى الافتراء تقوّلًا- لأنه قول متكلف، و كلّ كاذب يتكلف ما يكذب به. قرأ الجمهور: تَقَوَّلَ مبنيا للفاعل. و قرئ مبنيا للمفعول مع رفع بعض. و قرأ ابن ذكوان و لو يقول على صيغة المضارع، و الأقاويل: جمع أقوال، و الأقوال: جمع قول لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ أى: بيده اليمين، قال ابن جرير: إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس فى الأخذ بيد من يعاقب.

و قال الفراء و المبرد و الزجاج و ابن قتيبة: لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ أى: بالقوة و القدرة. قال ابن قتيبة: و إنما أقام اليمين مقام القوة؛ لأن قوّة كلّ شىء فى ميامنه، و من هذا قول الشاعر «١»:

إذا ما راية نصبت لمجد تلقاها عرابه «٢» باليمين

و قول الآخر:

و لما رأيت الشمس أشرق نورها تناولت منها حاجتي يميني

ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ الْوَتِينَ: عرق يجرى فى الظهر حتى يتصل بالقلب، و هو تصوير لإهلا-كه بأفضع ما يفعله الملوكة بمن يغضبون عليه. قال الواحدى: و المفسرون يقولون: إنه نياط القلب انتهى. و من هذا قول الشاعر:

إذا بلغتنى و حملت رحلى عرابه فاشرقى «٣» بدم الوتين

فَمَا مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٌ عَنْهُ حَاجِزِينَ أَى: ليس منكم أحد يحجزنا عنه و يدفعنا منه، فكيف يتكلف الكذب على الله لأجلكم؛ مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاقبناه، و لا تقدرُونَ على الدفع منه، و الحجز: المنع، و حاجزِينَ صفة لأحد، أو خير لما الحجازية وَ إِنَّهُ لَتِذْكَرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ أَى: إن القرآن لتذكرة لأهل التقوى لأنهم المنتفعون به وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ أَى: أن بعضكم يكذب بالقرآن فنحن نجازيهم على ذلك، و فى هذا وعيد شديد وَ إِنَّهُ لَحَسِيرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ أَى: و إن القرآن لحسرة و ندامة على الكافرين يوم القيامة عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين، و قيل: هى حسرتهم فى الدنيا حين لم يقدرُوا على معارضته عند تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ أَى: و إن القرآن لكونه من عند الله حق فلا يحوم حوله ريب، و لا يتطرق إليه شك فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ أَى: نزهه عما لا يليق به، و قيل: فصل لربك، و الأول أولى.

(١). هو الشماخ.

(٢). هو عرابه بن أوس الأوسى الأنصارى، من سادات المدينة الأجواد، أدرك حياة النبى صلى الله عليه و سلم، و أسلم، و توفى بالمدينة.

(٣). «شرق»: غص.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٤٣

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: إِنِّى ظَنَنْتُ قَالَ: أيقنت. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى حاتم عن البراء بن عازب قُطُوفُهَا دَائِيَةٌ قَالَ: قريبة. و أخرج ابن أبى شيبه و عبد بن حميد و ابن المنذر عن البراء فى الآية قال: يتناول الرجل من فواكهها و هو قائم. و أخرج ابن أبى حاتم و البيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله: فَاسْمُكُوهُ قَالَ: السلسلة تدخل فى استه ثم تخرج من فيه، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد فى العود، ثم يشوى. و أخرج أبو عبيد و عبد بن حميد و ابن المنذر عن أبى الدرداء قال: إن لله سلسلة لم تزل تغلى منها مراحل النار منذ خلق الله جهنم إلى يوم تلقى فى أعناق الناس، و قد نجانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم، فحصى على طعام المسكين يا أم الدرداء. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: الغسلين: الدّم و الماء و الصديد الذى يسيل من لحومهم. و أخرج الحاكم و صححه، عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: «لو أن دلوا من غسلين يهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: الغسلين: اسم طعام من أطمعه أهل النار. و أخرج ابن جرير عنه فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ - وَ مَا لَا تُبْصِرُونَ يقول: بما ترون و ما لا ترون. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ قَالَ: بقدره. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه قال الْوَتِينَ عرق القلب. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم عنه أيضا قال: الْوَتِينَ نياط القلب. و أخرج ابن المنذر، و الحاكم و صححه، عنه أيضا قال: قال: هو حبل القلب الذى فى الظهر.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٤٤

وهي مكية. قال القرطبي: باتفاق. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة سأل بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة المعارج (٧٠): الآيات ١ الى ١٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعِ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)

فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَ لَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمئِذٍ بِنِينِهِ (١١) وَ صَاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ (١٢) وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤)

كَلَّا إِنَّهَا لَلظَى (١٥) نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى (١٧) وَ جَمَعَ فَأَوْعَى (١٨)

قوله: سَيَّأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعِ قرأ الجمهور: سَأَلَ بالهمزة، و قرأ نافع و ابن عامر بغير همزة، فمن همز فهو من السؤال، و هي اللغة الفاشية، و هو إما مضمّن معنى الدعاء، فلذلك عدّى بالباء، كما تقول: دعوت لكذا، و المعنى: دعا داع على نفسه بعذاب واقع، و يجوز أن يكون على أصله، و الباء بمعنى عن، كقوله: فَسَيَّأَلَ بِهِ خَبِيرًا «١» و من لم يهمز، فهو إما من باب التخفيف بقلب الهمزة ألفا، فيكون معناها معنى قراءة من همز، أو يكون من السيلان، و المعنى: سال: واد في جهنم يقال له سائل، كما قال زيد بن ثابت. و يؤيده قراءة ابن عباس: سأل سيل و قيل: إن سال بمعنى التمس، و المعنى: التمس ملتمس عذابا للكفار، فتكون الباء زائدة، كقوله: تَثَبَّتْ بِالذَّهْنِ وَ الْوَجْهَ الْأَوَّلُ هو الظاهر. و قال الأخفش:

يقال خرجنا نسأل عن فلان و بفلان. قال أبو علي الفارسي: و إذا كان من السؤال فأصله أن يتعدّى إلى مفعولين، و يجوز الاقتصار على أحدهما و يتعدّى إليه بحرف الجر، و هذا السائل هو النضر بن الحارث حين قال: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ «٢» و هو ممّن قتل يوم بدر صبرا، و قيل: هو أبو جهل، و قيل: هو الحارث بن النعمان الفهري. و الأوّل أولى لما سيأتى. و قرأ أبيّ و ابن مسعود سال سال مثل مال مال على أن الأصل سائل، فحذفت العين تخفيفا، كما قيل: شاك في: شائك السلاح. و قيل: السائل هو نوح عليه السلام، سأل العذاب للكافرين، و قيل:

(١). الفرقان: ٥٩.

(٢). الأنفال: ٣٢.

هو رسول الله صلى الله عليه و سلم دعا بالعقاب عليهم، و قوله: بِعَذَابٍ وَقَعِ يعنى إما في الدنيا كيوم بدر، أو في الآخرة، و قوله: لِلْكَافِرِينَ صفة أخرى لعذاب، أى: كائن للكافرين، أو متعلق بواقع، و اللام للعلمة، أو بسأل على تضمينه معنى دعا، أو في محل

رفع على تقدير: هو للكافرين، أو تكون اللام بمعنى على: و يؤيده قراءة أبيّ بعذاب واقع على الكافرين. قال الفراء: التقدير بعذاب للكافرين واقع بهم، فالواقع من نعت العذاب، و جملة لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ صفه أخرى لعذاب، أو حال منه، أو مستأنفه، و المعنى: أنه لا يدفع ذلك العذاب الواقع به أحد، و قوله: مَنْ اللَّهِ متعلق بواقع، أى: واقع من جهته سبحانه، أو بدافع، أى: ليس له دافع من جهته تعالى ذى المَعَارِجِ أى: ذى الدرجات التى تصعد فيها الملائكة، و قال الكلبي: هى السّماوات، و سمّاها معارج لأن الملائكة تعرج فيها، و قيل: المعارج مراتب نعم الله سبحانه على الخلق، و قيل: المعارج: العظمة، و قيل: هى الغرف. و قرأ ابن مسعود: «ذى المعاريح» بزيادة الياء، يقال: معارج و معاريح مثل مفاتيح و مفاتيح تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ أى: تصعد فى تلك المعارج التى جعلها الله لهم، و قرأ الجمهور: تَعْرُجُ بالفوقية، و قرأ ابن مسعود و أصحابه و الكسائي و السلمى بالتحية، و الروح: جبريل، أفراد بالذكر بعد الملائكة لشرفه، و يؤيد هذا قوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ و قيل: الروح هنا ملك آخر عظيم غير جبريل. و قال أبو صالح: إنّه خلق من خلق الله سبحانه كهية الناس و ليسوا من الناس. و قال قبيصة بن ذؤيب: إنه روح الميت حين تقبض، و الأول أولى. و معنى إِلَيْهِ أى: إلى المكان الذى ينتهون إليه، و قيل: إلى عرشه، و قيل: هو كقول إبراهيم: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي أى: حيث أمرنى ربي فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قال ابن إسحاق و الكلبي و وهب ابن منبه: أى: عروج الملائكة إلى المكان الذى هو محلها فى وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة، و به قال مجاهد. و قال عكرمة، و روى عن مجاهد: أن مدة عمر الدنيا هذا المقدار لا يدري أحد كم مضى و لا كم بقى، و لا يعلم ذلك إلا الله. و قال قتادة و الكلبي و محمد بن كعب: إن المراد يوم القيامة، يعنى أن مقدار الأمر فيه لو تولاه غيره سبحانه خمسون ألف سنة، و هو سبحانه يفرغ منه فى ساعة، و قيل: إن مدّة موقف العباد للحساب هى هذا المقدار، ثم يستقرّ بعد ذلك أهل الجنة فى الجنة و أهل النار فى النار. و قيل:

إن مقدار يوم القيامة على الكافرين خمسون ألف سنة، و على المؤمنين مقدار ما بين الظهر و العصر، و قيل:

ذكر هذا المقدار لمجرد التمثيل و التخيل لغاية ارتفاع تلك المعارج و بعد مداها، أو لطول يوم القيامة باعتبار ما فيه من الشدائد و المكاره، كما تصف العرب أيام الشدة بالطول و أيام الفرح بالقصر، و يشبهون اليوم القصير بإبهام القطاة، و الطويل بظل الرمح، و منه قول الشاعر (١):

و يوم كظّل الرّمح قصّر طولهم الرّزق عنا و اصطفاق المزاير (٢)

(١). هو شبرمة بن الطفيل.

(٢). «الرزق»: وعاء من جلد. و دم الرزق: الخمر. «المزاير»: العيدان. و اصطفاق المزاير: تجاوب بعضها بعضا.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٤٦

و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، أى: ليس له دافع من الله ذى المعارج فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة و الروح إليه، و قد قدّمنا الجمع بين هذه الآية و بين قوله فى سورة السجدة: فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ (١) فارجع إليه. و قد قيل فى الجمع: إن من أسفل العالم إلى العرش خمسين ألف سنة، و من أعلى سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة، لأن غلظ كل سماء خمسمائة عام، و ما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة عام، فالمعنى: أن الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش كان مسافة ذلك خمسين ألف سنة، و إن عرجوا من هذه الأرض التى نحن فيها إلى باطن هذه السماء التى هى سماء الدنيا كان مسافة ذلك ألف سنة، و سيأتى فى آخر البحث ما يؤيد هذا عن ابن عباس. ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه و سلم بالصبر فقال: فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا أى: اصبر يا محمد على تكذيبهم لك و كفرهم بما جئت به صبرا جميلا، لا جزع فيه و لا

شكوى إلى غير الله، وهذا معنى الصبر الجميل، وقيل: هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدري بأنه مصاب. قال ابن زيد وغيره: هي منسوخة بآية السيف إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً أَى:

يرون العذاب الواقع بهم، أو يرون يوم القيامة بعيداً، أَى: غير كائن لأنهم لا يؤمنون به، فمعنى بَعِيداً أَى: مستبعداً محالاً، وليس المراد أنهم يرونه بعيداً غير قريب. قال الأعمش: يرون البعث بعيداً لأنهم لا يؤمنون به، كأنهم يستبعدونه على جهة الاستحالة، كما تقول لمن تناظره: هذا بعيد، أَى: لا يكون وَ نَرَاهُ قَرِيباً أَى: نعلمه كائناً قريباً؛ لأن ما هو آت قريب. وقيل: المعنى: و نراه هينا فى قدرتنا غير متعسير ولا متعذر، و الجملة تعليل للأمر بالصبر. ثم أخبر سبحانه متى يقع بهم العذاب، فقال: يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ و الظرف متعلق بمضمّر دلّ عليه واقع، أو بدل من قوله: فى يَوْمٍ على تقدير تعلّقه بواقع، أو متعلق بقريبا، أو مقدّر بعده: أَى يوم تكون إلخ كان كيت و كيت، أو بدل من الضمير فى نراه و الأوّل أولى. و التقدير يقع بهم العذاب يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ و المهل: ما أذيب من النحاس و الرصاص و الفضة. و قال مجاهد: هو القيح من الصديد و الدم. و قال عكرمة و غيره: هو دردىّ الزيت، و قد تقدّم تفسيره فى سورة الكهف و الدخان وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ أَى: كالصوف المصبوغ، و لا يقال للصوف عهن إلا- إذا كان مصبوغاً. قال الحسن: تكون الجبال كالعهن، و هو الصوف الأحمر، و هو أضعف الصوف، و قيل: العهن: الصوف ذو الألوان، فشبهه الجبال به فى تَكُونُهَا ألوانا كما فى قوله: جِدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ وَ غَرَابِيبٌ سُودٌ «٢» فإذا بست و طيرت فى الهواء أشبهت العهن المنقوض إذا طيرته الريح. وَ لا- يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا أَى: لا يسأل قريب قريبه عن شأنه فى ذلك اليوم لما نزل بهم من شدّة الأهوال التى أذهلت القريب عن قريبه، و الخليل عن خليله، كما قال سبحانه: لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ و قيل: المعنى:

لا يسأل حميم عن حميم، فحذف الحرف و وصل الفعل. قرأ الجمهور: لا يَسْئَلُ مبنياً للفاعل، قيل:

و المفعول الثانى محذوف، و التقدير: لا يسأله نصره و لا شفاعته، و قرأ أبو جعفر و أبو حيوة و شيبه و ابن كثير

(١). السجدة: ٥.

(٢). فاطر: ٢٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٤٧

فى روايه عنه على البناء للمفعول. و روى هذه القراءة البرزى عن عاصم. و المعنى: لا- يسأل حميم إحضار حميمه، و قيل: هذه القراءة على إسقاط حرف الجزّ، أَى: لا- يسأل حميم عن حميم، بل كلّ إنسان يسأل عن نفسه و عن عمله، و جملة يُبَصِّرُونَهُمْ مستأنفة، أو صفة لقوله: حَمِيمًا أَى: يبصر كلّ حميم حميمه، لا يخفى منهم أحد عن أحد. و ليس فى القيامة مخلوق إلا و هو نصب عين صاحبه، و لا يتساءلون و لا يكلم بعضهم بعضاً؛ لاشتغال كلّ أحد منهم بنفسه، و قال ابن زيد: يبصر الله الكفار فى النار الذين أضلّوهم فى الدنيا، و هم الرؤساء المتبوعون. و قيل: إن قوله: يُبَصِّرُونَهُمْ يرجع إلى الملائكة، أَى: يعرفون أحوال الناس لا يخفون عليهم، و إنما جمع الضمير فى يبصرونهم، و هما للحميمين، حملا على معنى العموم؛ لأنهما نكرتان فى سياق النفى، قرأ الجمهور: يُبَصِّرُونَهُمْ بالثديد، و قرأ قتادة بالتخفيف. ثم ابتدأ سبحانه الكلام فقال: يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ المراد بالمجرم الكافر، أو كلّ مذنب ذنبا يستحق به النار، لو يفتدى من عذاب يوم القيامة الذى نزل به بينه- و صاحبه و أخيه فإن هؤلاء أعزّ الناس عليه و أكرمهم لديه، فلو قبل منه الفداء لفدى بهم نفسه، و خلص مما نزل به من العذاب، و الجملة مستأنفة لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ إلى حدّ يود الافتداء من العذاب بمن ذكر. قرأ الجمهور: مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بإضافة عذاب إلى يومئذ. و قرأ أبو حيوة بتنوين عذاب و قطع الإضافة. و قرأ الجمهور:

يَوْمِيذٍ بِكسر الميم، وقرأ نافع والكسائي والأعرج وأبو حيوة بفتحها وَفَصِلَتْهُ الَّتِي تُؤْوِيهِ أَى:

عشيرته الأقربين الذين يَضْمُونَهُ فِي النَّسَبِ أَوْ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَيَأْوِي إِلَيْهِمْ. قَالَ أَبُو عَيْدٍ: الْفَصِيلَةُ: دُونَ الْقَبِيلَةِ.

وَقَالَ ثَعْلَبٌ: هُمُ آبَاؤُهُمُ الْأَدْنُونَ. قَالَ الْمَبْرَدُ: الْفَصِيلَةُ: الْقِطْعَةُ مِنْ أَعْضَاءِ الْجَسَدِ. وَسَمَّيْتُ عَشِيرَةَ الرَّجُلِ فَصِيلَةً تَشْبِيهَا لَهَا بِالْبَعْضِ مِنْهُ. وَقَالَ مَالِكٌ: إِنْ الْفَصِيلَةُ هِيَ الَّتِي تَرْبِيهِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً أَى: وَيُؤَدِّ الْمَجْرِمَ لَوْ افْتَدَى بِمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنَ الثَّقَلَيْنِ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْخَلَائِقِ. وَقَوْلُهُ: ثُمَّ يُنَجِّهِ مَعْطُوفٌ عَلَى يَفْتَدِي، أَى: يُوَدِّ لَوْ يَفْتَدِي ثُمَّ يَنْجِيهِ الْاِفْتِدَاءُ، وَكَانَ الْعَطْفُ بِشَمِّ لِدَلَالَتِهَا عَلَى اسْتِبْعَادِ النِّجَاةِ، وَقِيلَ: إِنْ يُوَدِّ تَقْتَضِي جَوَاباً كَمَا فِي قَوْلِهِ: وَدُّوا لَوْ تَدُهْنُ فَيُدْهِنُونَ وَالْجَوَابُ «ثُمَّ يُنَجِّهِ»، وَالْأَوَّلُ أَوَّلِي. وَقَوْلُهُ:

كَلَّا رَدَعَ لِلْمَجْرِمِ عَنِ تِلْكَ الْوُدَادَةِ، وَبَيَانَ امْتِنَاعِ مَا وَدَّهَ مِنَ الْاِفْتِدَاءِ، وَكَلَّا يَأْتِي بِمَعْنَى حَقًّا، وَبِمَعْنَى لَا مَعَ تَضَمُّنِهَا لِمَعْنَى الزَّجْرِ وَالرَّدْعِ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: إِنَّهَا لَطَى عَائِدٌ إِلَى النَّارِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهَا لِذِكْرِ الْعَذَابِ، أَوْ هُوَ ضَمِيرٌ مَبْهَمٌ يَفْسِرُهُ مَا بَعْدَهُ، وَ«لَطَى» عِلْمٌ لَجَهَنَّمَ، وَاسْتِثْقَاةٌ مِنَ التَّلَطُّيِ فِي النَّارِ وَهُوَ التَّلَهَّبُ، وَقِيلَ: أَصْلُهُ لَطَطَ بِمَعْنَى دَوَامِ الْعَذَابِ، فَحَبَلْتُ إِحْدَى الظَّائِنِ الْفَاءِ، وَقِيلَ: لَطَى: هِيَ الدَّرَكَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ طَبَاقِ جَهَنَّمَ نَزَاعَةً لِلشَّوَى قَرَأَ الْجُمْهُورُ نَزَاعَةً بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ ثَانٍ لِإِنَّ، أَوْ خَبَرٌ مَبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، أَوْ تَكُونُ «لَطَى» بَدَلًا مِنَ الضَّمِيرِ الْمَنْصُوبِ، وَ«نَزَاعَةً» خَبَرٌ إِنَّ، أَوْ عَلَى أَنَّ «نَزَاعَةً» صِفَةٌ لِلطَّى عَلَى تَقْدِيرِ عَدَمِ كَوْنِهَا عِلْمًا، أَوْ يَكُونُ الضَّمِيرُ فِي إِهْنَا لِلْقِصَّةِ، وَيَكُونُ «لَطَى» مَبْتَدَأً وَ«نَزَاعَةً» خَبَرُهُ، وَالجُمْلَةُ خَبَرٌ إِنَّ، وَقَرَأَ حَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ وَأَبُو عَمْرٍو فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ وَأَبُو حَيَوَةَ وَالزَّعْفَرَانِيُّ وَالتَّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَقْسَمٍ «نَزَاعَةً» بِالنَّصْبِ عَلَى الْحَالِ. وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارَسِيُّ: حَمَلَهُ عَلَى الْحَالِ بَعِيدٍ لَيْسَ فِي الْكَلَامِ مَا

فَتَحَ الْقَدِيرِ، ج ٥، ص: ٣٤٨

يَعْمَلُ فِي الْحَالِ، وَقِيلَ: الْعَامِلُ فِيهَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ مِنْ مَعْنَى التَّلَطُّيِ، أَوْ النَّصْبِ عَلَى الْاِخْتِصَاصِ، وَالشَّوَى: الْأَطْرَافُ، أَوْ جَمْعُ شِوَاءٍ، وَهِيَ جِلْدَةُ الرَّأْسِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَعْشَى:

قَالَتْ قَتِيلَةُ مَا لَهْ قَدْ جَلَّتْ شَبَابًا شِوَاتَهُ

وَقَالَ الْحَسَنُ وَثَابِتُ الْبَنَانِيُّ: نَزَاعَةً لِلشَّوَى أَى: لِمَكَارِمِ الْوَجْهِ وَحَسَنِهِ، وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَقَتَادَةُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: تَبْرَى اللَّحْمَ وَالْجِلْدَ عَنِ الْعِظْمِ؛ حَتَّى لَا تَتَرَكَ فِيهِ شَيْئًا. وَقَالَ الْكَسَائِيُّ: هِيَ الْمَفَاصِلُ.

وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: هِيَ أَطْرَافُ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ تَدْعُوْنَ مَنْ أَدْبَرَ أَى: تَدْعُو لَطَى مِنْ أَدْبَرَ عَنِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَتَوَلَّى أَى: أَعْرَضَ عَنْهُ وَجَمَعَ فَأَوْعَى أَى: جَمَعَ الْمَالَ فَجَعَلَهُ فِي وَعَاءٍ، وَقِيلَ: إِنَّهَا تَقُولُ إِلَيَّ يَا مُشْرِكُ، إِلَيَّ يَا مُنَافِقُ، وَقِيلَ: مَعْنَى تَدْعُو: تَهْلِكُ، تَقُولُ الْعَرَبُ: دَعَاكَ اللَّهُ، أَى: أَهْلَكَكَ، وَقِيلَ:

لَيْسَ هُوَ الدَّعَاءُ بِاللِّسَانِ، وَلَكِنْ دَعَاؤُهَا إِيَاهُمْ تَمَكَّنْهَا مِنْ عَذَابِهِمْ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَنَّ خِزْنَةَ جَهَنَّمَ تَدْعُو الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فَاسْتَدَّ الدَّعَاءُ إِلَى النَّارِ؛ مِنْ بَابِ إِسْنَادِ مَا هُوَ لِلْحَالِ إِلَى الْمَحَلِّ، وَقِيلَ: هُوَ تَمَثِيلٌ وَتَخْيِيلٌ، وَلَا دَعَاءَ فِي الْحَقِيقَةِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَصِيرَهُمْ إِلَيْهَا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَلَقَدْ هَبَطْنَا الْوَادِيَيْنِ فَوَادِيَا يَدْعُو الْأَنْبِيَاءُ بِهِ الْعُضْيُضُ الْأَبْكَمِ

وَالْعُضْيُضُ الْأَبْكَمِ: الذُّبَابُ، وَهُوَ لَا يَدْعُو «١».

وَفِي هَذَا ذَمٌّ لِمَنْ جَمَعَ الْمَالَ فَأَوْعَاهُ، وَكَتْرَهُ وَ لَمْ يَنْفِقْهُ فِي سَبْلِ الْخَيْرِ، أَوْ لَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ.

وَقَدْ أَخْرَجَ الْفَرِيَابِيُّ وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَرْدُودِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: سَأَلَ سَائِلٌ قَالَ: هُوَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ «٢» وَفِي قَوْلِهِ: بِعَذَابٍ



واقع قال: كائن لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ - مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ قال: ذى الدرجات. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه فى قوله:

سَيَأَلُّ سَائِلٌ قال: سال: واد فى جهنم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ذى الْمَعَارِجِ قال: ذى العلو و الفواضل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قال: منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سموات مقدار خمسين ألف سنة، و «يوم كان مقداره ألف سنة» قال: يعنى بذلك ينزل الأمر من السماء إلى الأرض و من الأرض إلى السماء فى يوم واحد، فذلك مقدار ألف سنة؛ لأن ما بين السماء و الأرض مسيرة خمسمائة عام.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: غلظ كل أرض خمسمائة عام، و غلظ كل سماء خمسمائة عام، و بين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام، و من السماء إلى السماء خمسمائة عام، فذلك أربعة عشر ألف عام، و بين السماء

(١). فى القرطبي (١٨ / ٢٨٩): و إنما طينته تبه عليه فدعا إليه.

(٢). الأنفال: ٣٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٤٩

السابعة و بين العرش مسيرة سته و ثلاثين ألف عام، فذلك قوله: فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى البعث، عنه أيضا فى قوله: فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ «١» قال: هذا فى الدنيا تعرج الملائكة فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون، و فى قوله: فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فهذا يوم القيامة جعله الله على الكافر مقدار خمسين ألف سنة. و أخرج ابن أبى حاتم و البيهقى عنه أيضا فى قوله: فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قال: لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم. قال: يعنى يوم القيامة. و قد قدمنا عن ابن عباس الوقف فى الجمع بين الآيتين فى سورة السجدة. و أخرج أحمد و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن أبى سعيد الخدرى قال: «سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ما أطول هذا اليوم! فقال: و الذى نفسى بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصلحها فى الدنيا».

و فى إسناده دراج عن أبى الهيثم، و هما ضعيفان. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم، و البيهقى فى البعث، عن أبى هريرة مرفوعا قال: «ما قدر طول يوم القيامة على المؤمنين إلا كقدر ما بين الظهر و العصر». و أخرج الحكيم الترمذى فى «نوادير الأصول» عن ابن عباس فى قوله: فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا قال: لا تشك إلى أحد غيرى. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الخطيب فى المتفق و المفتوق، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس فى قوله: يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ قال: كدردى الزيت. و أخرج ابن جرير عنه قال:

يُبَصَّرُونَهُمْ يعرف بعضهم بعضا و يتعارفون، ثم يفرّ بعضهم من بعض. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: نَزَّاعِيَةٌ لِّلشَّوَى قال: تنزع أم الرأس.

### [سورة المعارج (٧٠): الآيات ١٩ الى ٣٩]

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صِيَائِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣)

وَ الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨)

وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣)

وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥) فَمَا لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشَّمَالِ عَزِيزِينَ (٣٧) أَيْطَمُّعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨)

كَأَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩)

قوله: إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلِقًا هَلُوعًا قال فى الصحاح: الهلع فى اللغة: أشد الحرص و أسوأ الجزع و أفحشه، يقال: هلع بالكسر فهو هلع و هلوع، على التكثر. و قال عكرمة: هو الضجور. قال الواحدى:

و المفسرون يقولون تفسير الهلع ما بعده يعنى قوله: إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُزُوعًا- وَ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مُنُوعًا

(١). السجدة: ٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٥٠

فتح القدير ج ٥٣٩٥

أى: إذا أصابه الفقر و الحاجة أو المرض أو نحو ذلك فهو جزوع، أى: كثير الجزع، و إذا أصابه الخير من الغنى و الخصب و السعة و نحو ذلك فهو كثير المنع و الإمسак. و قال أبو عبيدة: الهلوع: هو الذى إذا مسه الخير لم يشكر، و إذا مسه الشر لم يبصر. قال ثعلب: قد فسر الله الهلوع؛ هو الذى إذا أصابه الشر أظهر شدة الجزع، و إذا أصابه الخير بخل به و منعه الناس، و العرب تقول: ناقة هلواعة و هلواع؛ إذا كانت سريعة السير خفيفته، و منه قول الشاعر «١»:

صكاء «٢» ذعلبة إذا استدبرتها هلواع إذا استقبلتها هلواع

و الذعلبة: الناقة السريعة، و انتصاب هلوعا و جزوعا و منوعا على أنها أحوال مقدرة، أو محققة؛ لكونها طبائع جبل الإنسان عليها، و الظرفان معمولان لجزوعا و منوعا إلاً المصليين أى: المقيمين للصلاة، و قيل: المراد بهم أهل التوحيد، يعنى أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع، و الجزع، و المنع، و أنهم على صفات محمودة و خلال مرضية؛ لأن إيمانهم و ما تمسكوا به من التوحيد و دين الحق يزجرهم عن الاتصاف بتلك الصفات، و يحملهم على الاتصاف بصفات الخير. ثم بينهم سبحانه، فقال: الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ أى: لا يشغلهم عنها شاغل، و لا يصرفهم عنها صارف، و ليس المراد بالدوام أنهم يصلون أبدا.

قال الزجاج: هم الذين لا يزيلون وجوههم عن سمت القبلة. و قال الحسن و ابن جريج: هو التطوع منها.

قال النخعي: المراد بالمصلين الذين يؤدون الصلاة المكتوبة، و قيل: الذين يصلونها لوقتها، و المراد بالآية جميع المؤمنين، و قيل: الصحابة خاصة، و لا وجه لهذا التخصيص لاتصاف كل مؤمن بأنه من المصلين وَ الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ قال قتادة و محمد بن سيرين: المراد الزكاة المفروضة. و قال مجاهد: سوى الزكاة، و قيل: صلة الرحم، و الظاهر أنه الزكاة لوصفه بكونه معلوما و لجعله قرينا للصلاة، و قد تقدم تفسير السائل و المحروم فى سورة الذاريات مستوفى وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ أى: بيوم الجزاء، و هو يوم القيامة لا يشكون فيه و لا يجحدونه، و قيل: يصدقونه بأعمالهم فيتعبون أنفسهم فى الطاعات وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ أى: خائفون وجلون؛ مع ما لهم من أعمال الطاعة استحقارا لأعمالهم، و اعترافا بما يجب لله سبحانه عليهم. و جملة إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ مقررة لمضمون ما قبلها، مبينة أن ذلك مما لا ينبغي أن يأمنه أحد، و أن حق كل أحد أن

يخافه وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَى قَوْلِهِ: فَأَوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَوْفَى وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رَاعُونَ أَى:

لَا يَخْلُونَ بِشَىءٍ مِنَ الْأَمَانَاتِ الَّتِي يُؤْتَمِنُونَ عَلَيْهَا، وَ لَا يَنْقُضُونَ شَيْئًا مِنَ الْعُهُودِ الَّتِي يَعْقِدُونَهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ. قرأ الجمهور: لِأَمَانَتِهِمْ بِالْجَمْعِ، وَ قرأ ابن كثير وَ ابن محيصة لِأَمَانَتِهِمْ بِالْإِفْرَادِ، وَ المراد الجنس وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ أَى: يَقِيمُونَهَا عَلَى مَنْ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ، أَوْ رَفِيعٍ أَوْ وَضِيعٍ، وَ لَا يَكْتُمُونَهَا وَ لَا يَغَيِّرُونَهَا، وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي الشَّهَادَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، قرأ الجمهور: بِشَهَادَتِهِمْ

(١). هو المسيب بن علس.

(٢). «صكاء»: شبيهة بالنعامة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٥١

بِالْإِفْرَادِ، وَ قرأ حفص وَ يعقوب وَ هى رواية عن ابن كثير بِالْجَمْعِ. قال الواحدى: وَ الْإِفْرَادُ أَوْلَى لِأَنَّهُ مُصَدَّرٌ، وَ مِنْ جَمْعِ ذَهَبٍ إِلَى اخْتِلَافِ الشَّهَادَاتِ. قال الفراء: وَ يَدُلُّ عَلَى قِرَاءَةِ التَّوْحِيدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ «١». وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صِيْلَانِهِمْ يُحَافِظُونَ أَى: عَلَى أَذْكَارِهَا وَ أَرْكَانِهَا وَ شَرَائِطِهَا لَا يَخْلُونَ بِشَىءٍ مِنْ ذَلِكَ. قال قتادة: عَلَى وَضُوءِهَا وَ رُكُوعِهَا وَ سُجُودِهَا. وَ قال ابن جريج: المراد التَّطَوُّعُ، وَ كَرَّرَ ذِكْرَ الصَّلَاةِ لِاخْتِلَافِ مَا وَصَفَهُمْ بِهِ أَوْلَا، وَ مَا وَصَفَهُمْ بِهِ ثَانِيًا، فَإِنَّ مَعْنَى الدَّوَامِ: هُوَ أَنْ لَا يَشْتَغَلَ عَنْهَا بِشَىءٍ مِنَ الشَّوَاغِلِ كَمَا سَلَفَ؛ وَ مَعْنَى الْمَحَافِظَةِ: أَنْ يَرَاعَى الْأُمُورَ الَّتِي لَا تَكُونُ صَلَاةً بِدُونِهَا، وَ قِيلَ: المراد يَحَافِظُونَ عَلَيْهَا بَعْدَ فِعْلِهَا مِنْ أَنْ يَفْعَلُوا مَا يَحْبِطُهَا وَ يَبْطِلُ ثَوَابُهَا، وَ كَرَّرَ الْمُوصُولَاتِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنْ كُلِّ وَصْفٍ مِنْ تِلْكَ الْأَوْصَافِ لِجَلَالَتِهِ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَسْتَقَلَّ بِمُوصُوفٍ مُنْفَرِدٍ، وَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: أَوْلَئِكَ إِلَى الْمُوصُوفِينَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ فِي جَنَاتٍ مُكْرَمُونَ أَى: مُسْتَقَرُّونَ فِيهَا مُكْرَمُونَ بِأَنْوَاعِ الْكِرَامَاتِ، وَ خَيْرِ الْمَبْتَدَأِ قَوْلِهِ: فِي جَنَاتٍ وَ قَوْلِهِ: مُكْرَمُونَ خَيْرَ آخِرٍ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخَيْرُ مُكْرَمُونَ، وَ فِي جَنَاتٍ مُتَعَلِّقٌ بِهِ فَمَا لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ أَى: أَى شَىءٍ لَهُمْ حَوَالِيكَ مُسْرِعِينَ. قال الأَخْفَشُ: مُهْطِعِينَ: مُسْرِعِينَ، وَ مِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

بِمَكَّةَ أَهْلُهَا وَ لَقَدْ أَرَاهُمْ إِلَيْهِ مُهْطِعِينَ إِلَى السَّمْعِ

وَ قِيلَ: الْمَعْنَى: مَا بِالْهَمْ يَسْرِعُونَ إِلَيْكَ يَجْلِسُونَ حَوَالِيكَ وَ لَا يَعْمَلُونَ بِمَا تَأْمُرُهُمْ، وَ قِيلَ: مَا بِالْهَمْ مُسْرِعِينَ إِلَى التَّكْذِيبِ، وَ قِيلَ: مَا بِالِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَسْرِعُونَ إِلَى السَّمْعِ إِلَيْكَ فَيَكْذِبُونَكَ وَ يَسْتَهْزِئُونَ بِكَ. وَ قال الكلبي: إِنْ مَعْنَى: مُهْطِعِينَ نَاطِرِينَ إِلَيْكَ. وَ قال قتادة: عَامِدِينَ، وَ قِيلَ: مُسْرِعِينَ إِلَيْكَ، مَا دَى أَعْنَاقِهِمْ، مَدِيْمِي النَّظَرَ إِلَيْكَ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشَّمَالِ عَزِينَ أَى: عَنِ يَمِينِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ عَنِ شِمَالِهِ جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَ عَزِينَ: جَمْعُ عَزَةٍ، وَ هِيَ الْعَصْبَةُ مِنَ النَّاسِ، وَ مِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

تَرَانَا عِنْدَهُ وَ اللَّيْلُ دَاجٌ عَلَى أَبْوَابِهِ حَلَقًا عَزِينَا

وَ قَالَ الرَّاعِي:

أَخْلِيْفَةُ الرَّحْمَنِ إِنَّ عَشِيرَتِي أَمْسَى سِرَاتِهِمْ إِلَيْكَ عَزِينَا

وَ قَوْلُ عَنْتَرَةَ:

وَ قَرْنٌ قَدْ تَرَكْتُ لَدَى وَلِيِّ عَلَيْهِ الطَّيْرُ كَالْعَصْبِ الْعَزِينَ

وَ قِيلَ: أَصْلُهَا عَزْوَةٌ مِنَ الْعَزْوِ، كَأَنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ تَعْتَزِي إِلَى غَيْرٍ مِنْ تَعْتَزِي إِلَيْهِ الْآخَرَى. قال فى الصحاح:

وَ الْعَزَّةُ: الْفِرْقَةُ مِنَ النَّاسِ، وَ الْهَاءُ عَوْضٌ مِنَ التَّاءِ، وَ الْجَمْعُ عَزَى وَ عَزُونَ، وَ قَوْلُهُ: عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشَّمَالِ مُتَعَلِّقٌ بِعَزِينَ، أَوْ

بمطعنين. أَيْطَمُّعُ كُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ قال المفسرون:

(١). الطلاق: ٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٥٢

كان المشركون يقولون لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلن قبلمهم، فنزلت الآية، قرأ الجمهور: أَنْ يُدْخَلَ مَبْنِيَا لِلْمَفْعُولِ، وقرأ الحسن و زيد بن علي و طلحة بن مصرف و الأعرج و يحيى بن يعمر و أبو رجاء و عاصم في رواية عنه على البناء للفاعل. ثم رد الله سبحانه عليهم فقال: كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ أَيْ:

من القدر الذين يعلمون به فلا ينبغي لهم هذا التكبر، وقيل المعنى: إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون، وهو امتثال الأمر والنهي و تعرضهم للثواب والعقاب كما في قوله: وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيُعْبُدُونِ «١» و منه قول الأعشى:

أ أزمت من آل ليلي ابتكارا و شطت على ذي هوى أن تزارا

وقد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن الهلوع فقال: هو كما قال الله: إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا - وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا. و أخرج ابن المنذر عنه هَلُوعًا قال: الشره. و أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن ابن مسعود اللذين هم على صلاتهم دائمون قال: على مواقيتها. و أخرج ابن أبي شيبة و ابن المنذر عن عمران بن حصين اللذين هم على صلاتهم دائمون قال: اللذين لا يلتفت في صلاته. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن عقبه بن عامر اللذين هم على صلاتهم دائمون قال: هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا.

و أخرج ابن المنذر من طريق أخرى عنه نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فما ل الذين كفروا قبلك مطعنين قال: ينظرون عن اليمين و عن الشمال عزين قال: [العزيرين «٢»]: العصب من الناس، عن يمين و شمال، معرضين، يستهزئون به. و أخرج مسلم و غيره عن جابر قال: دخل علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم المسجد و نحن حلق متفرقون فقال: «مالى أراكم عزين». و أخرج أحمد و ابن ماجه و ابن سعد و ابن أبي عاصم و الباوردي و ابن قانع و الحاكم، و البيهقي في الشعب، و الضياء عن بسر بن جياش قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه و سلم فما ل الذين كفروا قبلك مطعنين إلى قوله: كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ثم بزق رسول الله صلى الله عليه و سلم على كفه و وضع عليها إصبعه و قال: «يقول الله: ابن آدم أنى تعجزنى و قد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سويتك و عدلتك مشيت بين بردين، و للأرض منك وئيد، فجمعت و منعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: [أتصدق «٣»]، و أنى أوان الصدقة».

### [سورة المعارج (٧٠): الآيات ٤٠ الى ٤٤]

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْنَاهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)

(١). الذاريات: ٥٦.

(٢). من تفسير الطبري (٨٥ / ٢٩)

(٣). من سنن ابن ماجه (٢٧٠٧)

قوله: «فَلَا أُقْسِمُ «لا» زائده كما تقدّم قريبا، والمعنى: فأقسم بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ يعني: مشرق كل يوم من أيام السنة و مغربه. قرأ الجمهور: الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ بالجمع وقرأ أبو حيوه و ابن محيصر و حميد بالافراد إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ أى: على أن نخلق أمثل منهم، و أطوع لله، حين عصوه، و نهلك هؤلاء و ما نحنُ بِمَسْبُوقِينَ أى: بمغلوبين إن أردنا ذلك، بل نفعل ما أردنا لا يفوتنا شىء و لا يعجزنا أمر، و لكن مشيئتنا و سابق علمنا اقتضيا تأخير عقوبه هؤلاء، و عدم تبدلهم بخلق آخر فَدَرَّهْمٌ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا أى: اتركهم يخوضوا فى باطلهم، و يلعبوا فى دنياهم، و اشتغل بما أمرت به، و لا يعظمنّ عليك ما هم فيه، فليس عليك إلا البلاغ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ و هو يوم القيامة، و هذه الآية منسوخه بآيه السيف. قرأ الجمهور: «يلاقوا»، وقرأ أبو جعفر و ابن محيصر و حميد و مجاهد «حتى يلقوا» يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا «يوم» بدل من «يومهم»، و «سراعا» منتصب على الحال من ضمير «يخرجون»، قرأ الجمهور: يخرجون على البناء للفاعل، وقرأ السلمى و الأعمش و المغيرة و عاصم فى رواية على البناء للمفعول، و الأجداث: جمع جدث، و هو القبر كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ قرأ الجمهور: نصب بفتح النون و سكون الصاد. وقرأ ابن عامر و حفص: بضم النون و الصاد، وقرأ عمرو بن ميمون و أبو رجاء بضم النون و إسكان الصاد. قال فى الصحاح: و النَّصْبُ: ما نصب فعبد من دون الله، و كذا النَّصْبُ بالضم، و قد يحرك. قال الأعشى:

و ذا النَّصْبِ المنصوب لا تعبدنه و لا تعبد الشيطان و الله فاعبدا «١»

و الجمع: الأنصاب، و قال الأخفش و الفراء: النَّصْبُ جمع النَّصْبِ، مثل رهن و رهن، و الأنصاب: جمع النَّصْبِ، فهو جمع الجمع، و قيل: النَّصْبُ جمع نصاب، و هو حجر أو صنم يذبح عليه، و منه قوله: وَ مَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ و قال النحاس: نصب و نصب [و نصب «٢» بمعنى واحد، و قيل: معنى إلى نُصْبٍ إلى غاية، و هى التى تنصب إليها بصرک، و قال الكلبي: إلى شىء منصوب علم أو رايه، أى:

كأنهم إلى علم يدعون إليه، أو رايه تنصب لهم يوفضون، قال الحسن: كانوا يتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التى كانوا يعبدونها من دون الله لا يلوى أولهم على آخرهم. و قال أبو عمرو: النصب: شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها مخافة انفلاته. و معنى يُوفُضُونَ يسرعون، و الإيفاض:

الإسراع. يقال: أوفض إيفاضا: أى أسرع إسراعا، و منه قول الشاعر:

فوارس ذبيان تحت الحديد كالجنّ يوفضن من عبقر

(١). الذى فى تفسير القرطبي (٢٩٦ / ١٨): و ذا النَّصْبِ المنصوب لا تنسكته لعافية و الله ربك فاعبدا

(٢). من تفسير القرطبي (٢٩٧ / ١٨)

و عبقر: قرية من قرى الجن كما تزعم العرب. و منه قول لبيد:

كهول و شبان كجنه عبقر «١» و انتصاب خاشعةً أبصارهم على الحال من ضمير يوفضون، و أبصارهم مرتفعة به، و الخشوع:

الذلة و الخضوع، أى: لا يرفعونها لما يتوقعونه من العذاب تَزَهَقُهُمْ ذَلَّةٌ أى: تغشاهم ذلة شديدة.

قال قتادة: هى سواد الوجوه، و منه غلام مراهق؛ إذا غشيه الاحتلام، يقال: رهقه بالكسر يرهقه رهقا، أى: غشيه، و مثل هذا قوله: وَ لا يَزْهَقُ وُجُوهُهُمْ فَتَرَّ وَ لا ذَلَّةٌ «٢» و الإشارة بقوله: ذَلِكَ إلى ما تقدّم ذكره. و هو مبتدأ و خبره: التيوم الذى كانوا يُوعَدُونَ أى: الذى كانوا يوعدهونه فى الدنيا على ألسنة الرسل قد حاق بهم و حضر، و وقع بهم من عذابه ما وعدهم الله به، و إن كان مستقبلا،

فهو فى حكم الذى قد وقع لتحقق وقوعه.

وقد أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: **فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ** قال: للشمس كل يوم مطلع تطلع فيه، و مغرب تغرب فيه؛ غير مطلعها بالأمس و غير مغربها بالأمس. و أخرج ابن جرير عنه إلى نُصْبٍ يُوفُضُونَ قال: إلى علم يستبقون «٣».

(١). و صدره: و من فاد من إخوانهم و بنيتهم.

(٢). يونس: ٢٦.

(٣). الذى فى تفسير الطبرى و الدر المنثور: يسعون.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٥٥

## سورة نوح

### إشارة

هى تسع و عشرون آية، أو ثمان و عشرون آية و هى مكية، و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت سورة إنا أرسلنا نوحاً بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة نوح (٧١): الآيات ١ الى ٢٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُوا (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَ إِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَ اسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَ أَصْرُوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩)

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَ يُنَادِيكُمْ بِأَمْوَالِ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلُ لَكُمْ جَنَاتٍ وَ يَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَ اللَّهُ أَنْتَبْتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠)

قوله: **إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ** قد تقدم أن نوحا أول رسول أرسله الله، و هو نوح بن لامك ابن متوشلخ بن أخنوخ «١» بن قينان بن شيث بن آدم، و قد تقدم مدة لبثه فى قومه، و بيان جميع عمره، و بيان السنّ التى أرسل و هو فيها فى سورة العنكبوت أن **أَنْذِرْ قَوْمَكَ** أى: بأن أنذر، على أنها مصدرية، و يجوز أن تكون هى المفسّرة؛ لأن فى الإرسال معنى القول. و قرأ ابن مسعود

أُنذِرُ بدون أن، و ذلك على تقدير القول، أى: فقلنا له أنذر من قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أى: عذاب شديد الألم، و هو عذاب النار. و قال الكلبي: هو ما نزل بهم من الطوفان، و جملةُ قالِ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ مستأنفةٌ استثنافاً بيانياً على تقدير سؤال، كأنه قيل: فماذا قال نوح؟ فقال: قال لهم ... إلخ. و المعنى: إني لكم منذر من عقاب الله، و مخوف لكم، و مبين لما فيه نجاتكم أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُوا «أن» هى التفسيرية لنذير، أو هى المصدرية، أى: بأن اعبدوا الله و لا تشركوا به غيره و اتقوه، أى: اجتنبوا ما يوقعكم فى عذابه،

(١). فى تفسير القرطبي: و هو إدريس بن يردين مهلايل بن أنوش.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٥٦

و أطيعون فيما أمركم به؛ فإننى رسول إليكم من عند الله يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ هذا جواب الأمر، و «من» للتبويض، أى: بعض ذنوبكم، و هو ما سلف منها قبل طاعة الرسول و إجابة دعوته. و قال السدى: المعنى يغفر لكم ذنوبكم، فتكون «من» على هذا زائدة، و قيل: المراد بالبعض ما لا يتعلق بحقوق العباد، و قيل: هى لبيان الجنس، و قيل: يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها وَ يُؤَخِّرُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى أى: يؤخر موتكم إلى الأمد الأقصى الذى قدره الله لكم بشرط الإيمان و الطاعة فوق ما قدره لكم، على تقدير بقائكم على الكفر و العصيان، و قيل: التأخير بمعنى البركة فى أعمارهم إن آمنوا، و عدم البركة فيها إن لم يؤمنوا. قال مقاتل: يؤخركم إلى منتهى آجالكم. و قال الزجاج: أى يؤخركم عن العذاب فموتوا غير ميتة المستأصلين بالعذاب. و قال الفراء: المعنى لا- يميتكم غرقاً و لا حرقاً و لا قتلاً إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ أى: ما قدره لكم على تقدير بقائكم على الكفر من العذاب إذا جاء، و أنتم باقون على الكفر، لا يؤخر، بل يقع لا محالة، فبادروا إلى الإيمان و الطاعة. و قيل: المعنى: إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ وَهُوَ الْمَوْتُ إِذَا جَاءَ لَا- يمكنكم الإيمان، و قيل: المعنى: إذا جاء الموت لا يؤخر سواء كان بعذاب أو بغير عذاب لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أى: شيئاً من العلم لسارعتم إلى ما أمرتكم به، أو لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر قال رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهَاراً أى: قال نوح منادياً لربه و حاكياً له ما جرى بينه و بين قومه، و هو أعلم به منه: إني دعوت قومي إلى ما أمرتني بأن أدعوهم إليه من الإيمان دعاء دائماً فى الليل و النهار من غير تقصير فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً عَمَّا دَعَوْتُهُمْ إِلَيْهِ وَ بَعْدًا عَنْهُ. قال مقاتل: يعنى تباعداً من الإيمان، و إسناد الزيادة إلى الدعاء لكونه سببها، كما فى قوله: زَادَتْهُمْ إِيمَانًا\*. قرأ الجمهور: دعائى بفتح الياء، و قرأ الكوفيون و يعقوب و الدورى عن أبى عمرو بإسكانها، و الاستثناء مفرغٌ وَ إِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ أى: كلما دعوتهم إلى سبب المغفرة، و هو الإيمان بك، و الطاعة لك جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ لئلا يسمعون صوتى وَ اسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ أى: غطوا بها وجوههم لئلا يرونى، و قيل: جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا- يسمعون كلامى، فيكون استغشاء الثياب على هذا زيادة فى سدّ الآذان، و قيل: هو كناية عن العداوة، يقال: لبس فلان ثياب العداوة، و قيل: استغشوا ثيابهم لئلا يعرفهم فيدعوهم وَ أَصَبَرُوا أى: استمروا على الكفر، و لم يقلعوا عنه، و لا تابوا منه وَ اسْتَكْبَرُوا عن قبول الحق، و عن امثال ما أمرهم به اسْتِكْبَاراً شديداً ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً أى: مظهرها لهم الدعوة، مجاهراً لهم بها ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ أى: دعوتهم معلناً لهم بالدعاء وَ اسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً أى: و أسررت لهم الدعوة إسراراً كثيراً، قيل: المعنى: أن يدعوا الرجل بعد الرجل يكلمه سرا فيما بينه و بينه، و المقصود أنه دعاهم على وجوه متخالفه و أساليب متفاوتة، فلم ينبج ذلك فيهم. قال مجاهد: معنى أعلنت: صحت، و قيل: معنى أسررت: أتيهم فى منازلهم فدعوتهم فيها. و انتصاب جهارا على المصدرية؛ لأن الدعاء يكون جهاراً و يكون غير جهار، فالجهار نوع من الدعاء، كقولهم: قعد القرفصاء، و يجوز أن يكون نعت مصدر محذوف، أى: دعاء جهاراً، و أن يكون مصدراً فى موضع الحال، أى: مجاهراً، و معنى ثُمَّ الدلالة

على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار، و الجمع بين الأمرين أغلظ من أحدهما. قرأ الجمهور إني بسكون الياء، و قرأ أبو عمرو و الحرميون بفتحها فقلتُ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً أي:

سلوه المغفرة من ذنوبكم السابقة بإخلاص النية، إنه كان غفاراً أي: كثير المغفرة للمذنبين، و قيل:

معنى استغفروا: توبوا عن الكفر إنه كان غفارا للتائبين، يُرسل السماء عليكم مدراراً أي: يرسل ماء السماء عليكم، ففيه إضمار، و قيل: المراد بالسماء المطر، كما في قول الشاعر «١»:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه و إن كانوا غضابا

و المدرار: الدرور، و هو التحلب بالمطر، و انتصابه إما على الحال من السماء، و لم يؤنث لأن مفعلاً لا يؤنث؛ تقول: امرأة مئاث و مذكار، أو على أنه نعت لمصدر محذوف، أي: إرسالا مدرارا، و قد تقدم الكلام عليه في سورة الأنعام، و جزم يرسل لكونه جواب الأمر. و في هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر و حصول أنواع الأرزاق، و لهذا قال: وَيُمِيدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنَ وَ يَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ يَعْنِي بساتين وَ يَجْعَلُ لَكُمْ أَنهَاراً جارية. قال عطاء: المعنى يكثر أموالكم و أولادكم. أعلمهم نوح عليه السلام أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة الخصب و الغنى في الدنيا. ما لكم لا ترجون لله وقاراً أي: أي عذر لكم في ترك الرجاء، و الرجاء هنا بمعنى الخوف، أي: ما لكم لا تخافون الله، و الوقار: العظمة من التوقير و هو التعظيم، و المعنى لا تخافون حق عظمته فتوحده و تطيعونه، و لا ترجون في محل نصب على الحال من ضمير المخاطبين، و العامل فيه معنى الاستقرار في «لكم»، و من إطلاق الرجاء على الخوف قول الهذلي:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها و قال سعيد بن جبيرة و أبو العالئة و عطاء بن أبي رباح: ما لكم لا ترجون لله ثواباً، و لا تخافون منه عقاباً.

و قال مجاهد و الضحاك: ما لكم لا تبالون لله عظمته. قال قطرب: هذه لغة حجازية، و هذيل و خزاعة و مضر يقولون: لم أرج: لم أبال. و قال قتادة: ما لكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان. و قال ابن كيسان: ما لكم لا ترجون في عبادة الله و طاعته أن يشيكم على توقيركم خيراً. و قال ابن زيد: ما لكم لا تؤدّون لله طاعة.

و قال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقاً و لا تشكرون له نعمه. و جملة و قد خلقكم أطواراً في محل نصب على الحال، أي: و الحال أنه سبحانه قد خلقكم على أطوار مختلفة: نطفة، ثم مضغة، ثم علقه إلى تمام الخلق، كما تقدم بيانه في سورة المؤمنين. و الطور في اللغة: المرّة، و قال ابن الأنباري: الطور الحال، و جمعه أطوار، و قيل: أطوارا صبيانا ثم شبانا ثم شيوخا، و قيل: الأطوار اختلافهم في الأفعال و الأقوال و الأخلاق، و المعنى: كيف تقصرون في توقير من خلقكم على هذه الأطوار البديعة ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً الخطاب لمن يصلح له، و المراد الاستدلال بخلق السماوات على كمال قدرته و بديع

(١). هو معاوية بن مالك، معود الحكماء.

صنعه، و أنه الحقيقي بالعبادة. و الطباق: المتطابقة بعضها فوق بعض، كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب.

قال الحسن: خلق الله سبع سماوات على سبع أرضين، بين كل سماء و سماء، و أرض و أرض، خلق و أمر، و قد تقدم تحقيق هذا في قوله: وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ «١» و انتصاب طباقاً على المصدرية، تقول طباقه مطابقة و طباقاً، أو حال بمعنى ذات طباق، فحذف ذات و أقام طباقاً مقامه، و أجاز الفراء في غير القرآن جرّ «طباقاً» على النعت. وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً أي: منورا لوجه الأرض، و



جعل القمر في السماوات على كونها في سماء الدنيا؛ لأنها إذا كانت في إحداهن، فهي فيهن، كذا قال ابن كيسان. قال الأخفش: كما تقول أتاني بنو تميم، والمراد بعضهم. وقال قطرب: فيهن بمعنى معهن، أي: خلق القمر والشمس مع خلق السماوات والأرض، كما في قول امرئ القيس:

وهل ينعمن من كان آخر عهده ثلاثين شهرا في ثلاثة أحوال

أي: مع ثلاثة أحوال. وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً أَي: كالمصباح لأهل الأرض ليتوضّوا بذلك إلى التصرف فيما يحتاجون إليه من المعاش وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً يَعْنِي آدَمَ خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ، والمعنى: أنشأكم منها إنشاء، فاستعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكوين، و«نباتا» إما مصدر لأنبت على حذف الزوائد، أو مصدر لفعل محذوف، أي: أنبتكم من الأرض فنبتم نباتا. وقال الخليل والزجاج: هو مصدر محمول على المعنى؛ لأن معنى أنبتكم: جعلكم تنبتون نباتا. وقيل: المعنى: والله أنبت لكم من الأرض النبات، فنباتا على هذا مفعول به. قال ابن بحر: أنبتهم في الأرض بالكبر بعد الصغر وبالطول بعد القصر. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا أَي فِي الْأَرْضِ وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً يَعْنِي يَخْرِجُكُمْ مِنْهَا بِالْبَعثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطاً أَي: فرشها وبسطها لكم، تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم في بيوتكم لتسئلوا منها سؤبلاً فجاءاً أي: طرقا واسعة، والفجاج: جمع فج، وهو الطريق الواسع، كذا قال الفراء وغيره، وقيل: الفجج: المسلك بين الجبلين، وقد مضى تحقيق هذا في سورة الأنبياء وفي سورة الحج مستوفى.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ قَالَ: لئلا يسمعوا ما يقول وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً قَالَ: تركوا التوبة.

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً قَالَ: غَطُّوا وجوههم لئلا يروا نوحا ولا يسمعوا كلامه. وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد، والبيهقي في الشعب، عنه أيضا في قوله: مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً قَالَ: لا تعلمون لله عظمه. وأخرج ابن جرير والبيهقي عنه أيضا وَقَاراً قَالَ عَظْمُهُ. وفي قوله: وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً قَالَ: نطفة ثم علقه ثم مضغه. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا في الآية قال: لا تخافون لله عظمه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال: لا

(١). الطلاق: ١٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٥٩

تخشون له عقابا ولا ترجون له ثوابا. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، عن علي بن أبي طالب: «أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ناسا يغتسلون عراة ليس عليهم أزر، فوقف فنادى بأعلى صوته: مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً».

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، عن عبد الله بن عمرو قال: الشمس والقمر وجوهما قبل السماء وأقبيتها قبل الأرض، وأنا أقرأ بذلك عليكم آية من كتاب الله وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، عن عبد الله بن عمرو قال: تضيء لأهل السماوات كما تضيء لأهل الأرض. وأخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال: اجتمع عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب الأحبار وقد كان بينهما بعض العتب فتعابتا فذهب ذلك، فقال عبد الله بن عمرو لكعب: سلني عما شئت، فلا تسألني عن شيء إلا أخبرتك بتصديق قولي من القرآن، فقال له: أ رأيت ضوء الشمس والقمر أهو في السماوات السبع كما هو في الأرض؟ قال: نعم، ألم تروا إلى قول الله: خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً. وأخرج عبد ابن حميد، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، عن ابن عباس وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً قَالَ:

وجهه فى السماء إلى العرش و قفاه إلى الأرض. و أخرج عبد بن حميد من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا قَالَ: خلق فيهن خلقهن ضياء لأهل الأرض، و ليس فى السماء من ضوئه شىء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا سُبُلًا فِجَاجًا قَالَ: طرقا مختلفه.

## [سورة نوح (٧١): الآيات ٢١ إلى ٢٨]

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَ وَّلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَ مَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَ قَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لَا سُوعَاً وَ لَا يَعْوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْرًا (٢٣) وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَ لَا تَرِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطَبْنَا بِهِمُ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥)

وَ قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنَاهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلِدُوا إِلَّا فِجْرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِيَوْمِ الدِّينِ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ لَا تَرِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)

قوله: قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي أى: استمروا على عصياني و لم يجيبوا دعوتى، شكاهم إلى الله عزّ و جلّ، و أخبره بأنهم عصوه و لم يتبعوه، و هو أعلم بذلك وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَ وَّلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا أى: اتبع الأصغر رؤساءهم، و أهل الثروة منهم؛ الذين لم يزدهم كثرة المال و الولد إلا ضلالا فى الدنيا و عقوبه فى الآخرة. قرأ أهل المدينة و الشام و عاصم «و ولده» بفتح الواو و اللام. و قرأ الباقر بسكون اللام، و هى لغه فى الولد، و يجوز أن يكون جمعا، و قد تقدّم تحقيقه، و معنى «و اتبعوا»: أنهم استمروا على اتباعهم لا أنهم أحدثوا الاتباع وَ مَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا أى: مكرًا كبيرًا عظيمًا، يقال: كبير و كبار و كبار، مثل عجيب و عجاب و عجاب، و جميل و جمال و جمال. قال المبرد: كبارا بالتشديد للمبالغه، و مثل كبارا: قراء؛ لكثير القراءة، و أنشد ابن السكيت:

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٦٠ بيضاء تصطاد القلوب و تستبى بالحسن قلب المسلم القراء

قرأ الجمهور: كُبَّارًا بالتشديد. و قرأ ابن محيصن و حميد و مجاهد بالتخفيف. قال أبو بكر: هو جمع كبير؛ كأنه جعل مكرًا مكان ذنوب أو أفاعيل، فلذلك وصفه بالجمع. و قال عيسى بن عمر: هى لغه يمانية.

و اختلف فى مكرهم هذا ما هو؟ فقيل: هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح، و قيل: هو تغريهم على الناس بما أوتوا من المال و الولد، حتى قال الضعفة: لو لا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم. و قال الكلبى:

هو ما جعلوه لله من الصاحبه و الولد. و قال مقاتل: هو قول كبرائهم لأتباعهم: لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ و قيل:

مكرهم: كفرهم وَ قَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ أى: لا تتركوا عبادة آلِهَتِكُمْ، و هى الأصنام و الصور التى كانت لهم، ثم عبدتها العرب من بعدهم، و بهذا قال الجمهور: وَ لَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لَا سُوعَاً وَ لَا يَعْوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْرًا أى: لا تتركوا عبادة هذه. قال محمد بن كعب: هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم و نوح، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم فى العبادة، فقال لهم إبليس: لو صورتم صورهم كان أنشط لكم و أسوق إلى العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت، و سميت هذه الصور بهذه الأسماء؛ لأنهم صوروها على صورة أولئك القوم. و قال عروة بن الزبير و غيره: إن هذه كانت أسماء لأولاد آدم، و كان ودّ أكبرهم. قال الماوردى:

فأما ودّ فهو أول صنم معبود، سمي ودّا لودّهم له، و كان بعد قوم نوح لكلب بدومه الجندل فى قول ابن عباس و عطاء و مقاتل، و فيه يقول شاعرهم:

حيّاك ودّ فإننا لا يحلّ لناهو النساء و إنّ الدين قد عزمنا

و أما سواع فكان لهذيل بساحل البحر، و أما يعقوب فكان لغطيف من مراد بالجوف من سبأ، في قول قتادة. و قال المهدي: لمراد ثم لغطفان؛ و أما يعقوب فكان لهمدان، في قول قتادة و عكرمة و عطاء. و قال الثعلبي: كان لكهلان بن سبأ، ثم توارثوه حتى صار في همدان، و فيه يقول مالك بن نمط الهمداني:

يريش الله في الدنيا و يبرى و لا يبرى يعوق و لا يريش

و أما نسر فكان لذي الكلاع من حمير، في قول قتادة و مقاتل. قرأ الجمهور: وَدًّا بفتح الواو.

و قرأ نافع بضمها. قال الليث: وَدَّ بضم الواو صنم لقريش، و بفتحها صنم كان لقوم نوح، و به سمي عمور ابن وَدِّ. قال في الصحاح، و الوَدُّ بالفتح: الوتد في لغة أهل نجد، كأنهم سَكَنُوا التاء و أدغموها في الدال.

و قرأ الجمهور: و لا- يَغُوثٌ و يَغُوثٌ بغير تنوين، فإن كانا عربيين فالمنع من الصرف للعلمية و وزن الفعل، و إن كانا أعجميين فللعجمة و العلمية. و قرأ الأعمش: و لا يغوثا و يعوقا بالصرف. قال ابن عطية:

و ذلك و هم. و وجه تخصيص هذه الأصنام بالذكر مع دخولها تحت الآلهة؛ لأنها كانت أكبر أصنامهم و أعظمها و قد أضلوا كثيراً أي: أضل كبراً و رؤساً و هم كثيرا من الناس، و قيل: الضمير راجع إلى الأصنام،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٦١

أي: ضل بسببها كثير من الناس كقول إبراهيم رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيراً مِنَ النَّاسِ «١» و أجرى عليهم ضمير من يعقل؛ لاعتقاد الكفار الذين يعبدونها أنها تعقل و لا- تَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً معطوف على رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي و وضع الظاهر موضع المضمرة تسجيلاً عليهم بالظلم. و قال أبو حيان: إنه معطوف على «قد أضلوا»، و معنى «إلا ضلالاً»: إلا عذاباً، كذا قال ابن بحر، و استدل على ذلك بقوله: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ «٢»، و قيل: إلا خساراً، و قيل: إلا فتنهً بالمال و الولد، و قيل: الضياع، و قيل: ضلالاً- في مكرهم. مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا «ما» مزيدة للتأكيد، و المعنى: من خطبتهم، أي: من أجلها و بسببها أغرقوا بالطوفان فمأذخولوا ناراً عقب ذلك، و هي نار الآخرة، و قيل: عذاب القبر. قرأ الجمهور: خَطَبْتَهُمْ على جمع السلامة، و قرأ أبو عمرو: خَطَبَاتِهِمْ على جمع التكسير، و قرأ الجحدري و عمرو بن عبيد و الأعمش و أبو حيوه و أشهب العقيلي «خطبتهم» على الأفراد. قال الضحاك: عذبوا بالنار في الدنيا مع الغرق في حالة واحدة، كانوا يغرقون في جانب و يحترقون في جانب.

قرأ الجمهور: أُغْرِقُوا من أغرق، و قرأ زيد بن علي غرقوا بالتشديد فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً أي: لم يجدوا أحداً يمنعهم من عذاب الله و يدفعه عنهم و قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا- تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً معطوف على قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي لما أيس نوح عليه السلام من إيمانهم و إقلاعهم عن الكفر دعا عليهم بالهلاك. قال قتادة: دعا عليهم بعد أن أوحى إليه أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ فَأَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ و أغرقهم. و قال محمد بن كعب و مقاتل و الربيع بن أنس و ابن زيد و عطية:

إنما قال هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم و أرحام نسائهم، و أعقم أرحام النساء و أصلاب الآباء قبل العذاب بسبعين سنة، و قيل: بأربعين. قال قتادة: لم يكن فيهم صبي وقت العذاب. و قال الحسن و أبو العافية: لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذاباً من الله لهم و عدلاً فيهم، و لكن أهلك ذريتهم و أطفالهم بغير عذاب، ثم أهلكهم بالعذاب، و معنى «دياراً»: من يسكن الديار، و أصله ديوار على فيعال، من دار يدور، فقلبت الواو ياء، و أدغمت إحداهما في الأخرى، مثل القيام؛ أصله قيوام، و قال القتيبي: أصله من الدار؛ أي نازل بالدار، يقال: ما بالدار ديار، أي: أحد، و قيل: الديار: صاحب الديار، و المعنى: لا تدع أحداً منهم إلا أهلكته إنك إن تذرهم يضلوا عبادك إن تتركهم على الأرض يضلوا عبادك عن طريق الحق و لا يلدوا إلا فاجراً كفاراً أي: إلا- فاجراً بترك طاعتك كفاراً لنعمتك، أي: كثير الكفران لها، و المعنى: إلا من سيفجر و يكفر. ثم لما دعا على الكافرين

أتبعه بالدعاء لنفسه و والديه و المؤمنين، فقال: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوَالِدَيَّ وَ كَانَا مُؤْمِنِينَ، و أبوه: لامك بن متوشلخ كما تقدم، و أمه شمخي بنت أنوش، و قيل:

أراد آدم و حواء. و قال سعيد بن جبیر: أراد بوالديه أباه و جدّه. و قرأ سعيد بن جبیر: وَ لِوَالِدَيَّ بِكُسر الدال على الأفراد. وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي قَالَ الضحاک و الكلبي: یعنی مسجده، و قيل: منزله الذي هو

(١). إبراهيم: ٣٦.

(٢). القمر: ٤٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٦٢

ساكن فيه، و قيل: سفينته، و قيل: لمن دخل في دينه، و انتصاب مؤمناً على الحال، أى: لمن دخل بيتي متصفاً بصفة الإيمان، فيخرج من دخله غير متصف بهذه الصفة كما رآته و ولده الذي قال: سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ. ثم عمم الدعوة، فقال: وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ أَى: و اغفر لكل متصف بالإيمان من الذكور و الإناث. ثم عاد إلى الدعاء على الكافرين، فقال: وَ لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً أَى:

لا تزد المتصفين بالظلم إلا هلاكاً و خساراً و دماراً، و قد شمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة، كما شمل دعاؤه للمؤمنين و المؤمنات كل مؤمن و مؤمنة إلى يوم القيامة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: وَ لَا تَذَرُنَّ وِدًّا وَ لَا سُوعًا وَ لَا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْرًا قال: هذه الأصنام كانت تعبد في زمن نوح. و أخرج البخاري و ابن المنذر و ابن مردويه عنه قال:

صارت الأوثان التي كانت تعبد في قوم نوح في العرب. أما وِدٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل، و أما سُوعٌ فكانت لهذيل، و أما يَغُوثٌ فكانت لمراد ثم لبني غطيف، و أما يعوق فكانت لهمدان، و أما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجلسهم الذي كانوا يجلسون فيه أنصباباً، و سموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى هلك أولئك، و نسخ العلم؛ فعبدت.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٦٣

## سورة الجن

### إشارة

و هي مكية. قال القرطبي: في قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الجن بمكة. و أخرج ابن مردويه عن عائشة و ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة الجن (٧٢): الآيات ١ إلى ١٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَ أَنَّهُ

تعالى جَدُّ رَبَّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَهُ وَ لَا وَلَدًا (٣) وَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤)

وَ أَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَ أَنَا لَمَسِينَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا حَرَسًا شَدِيدًا وَ شُهُبًا (٨) وَ أَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩)

وَ أَنَا لَا نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَ أَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا (١١) وَ أَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَ أَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُهَيْدِيَ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَ لَا رَهَقًا (١٣)

قوله: قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ قُرْآنُ الْجُمْهُورِ: أُوْحَىٰ رباعيا. وقرأ ابن أبي عبلة و أبو إياس و العتكي عن أبي عمرو و أحى ثلاثيا، و هما لغتان. و اختلف هل رآهم النبي صلى الله عليه و سلم أم لم يرهم؟ فظاهر القرآن أنه لم يرهم؛ لأن المعنى: قل يا محمد لأمتك أُوْحَىٰ إِلَيَّ عَلَى لِسَانِ جَبْرِيْلَ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ وَ مِثْلَهُ قَوْلُهُ: وَ إِذْ صَيَّرْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَشْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ «١» و يؤيد هذا ما ثبت في الصحيح عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله صلى الله عليه و سلم على الجن، و ما رآهم. قال عكرمة: و السورة التي كان يقرؤها رسول الله صلى الله عليه و سلم هي: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ «٢» و قد تقدّم في سورة الأحقاف ذكر ما يفيد زيادة في هذا. قوله: أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ هَذَا هُوَ الْقَائِمُ مَقَامَ الْفَاعِلِ، وَ لِهَذَا فَتَحَتْ أَنْ، وَ الضَّمِيرُ لِلشَّانِ. وَ عِنْدَ الْكُوفِيِّينَ وَ الْأَخْفَشِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْقَائِمُ مَقَامَ الْفَاعِلِ الْجَارِّ وَ الْمَجْرُورِ، وَ النْفَرُ: اسْمٌ لِلْجَمَاعَةِ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ. قَالَ الضَّحَّاكُ: وَ الْجِنُّ وَلَدُ الْجَانِّ وَ لَيْسُوا شَيَاطِينًا. وَ قَالَ الْحَسَنُ: إِنَّهُمْ وَلَدُ إِبْلِيسَ. قِيلَ: هُمْ أَجْسَامٌ عَاقِلَةٌ خَفِيَّةٌ تَغْلِبُ عَلَيْهِمُ النَّارِيَّةُ وَ الْهَوَائِيَّةُ، وَ قِيلَ: نَوْعٌ مِنَ الْأَرْوَاحِ الْمَجْرَدَةِ، وَ قِيلَ: هِيَ النَّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ الْمَفَارِقَةُ لِأَبْدَانِهَا.

(١). الأحقاف: ٢٩.

(٢). العلق: ١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٦٤

و قد اختلف أهل العلم في دخول مؤمنى الجن الجنة كما يدخل عصاتهم النار؛ لقوله في سورة تبارك:

وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ «١» و قول الجن فيما سيأتى في هذه السورة:

وَ أَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا وَ غير ذلك من الآيات، فقال الحسن: يدخلون الجنة، و قال مجاهد: لا يدخلونها و إن صرفوا عن النار. و الأوّل أولى؛ لقوله في سورة الرحمن: لَمْ يَطْمِئِنُّوا فِيهَا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا مَأْوَىٰ وَ فِي سُوْرَةِ الرَّحْمَنِ آيَاتٌ غَيْرُ هَذِهِ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، فراجعها، و قد قدّمنا أن الحق أنه لم يرسل الله إليهم رسلا منهم، بل الرسل جميعا من الإنس، و إن أشعر قوله: أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ \* بخلاف هذا، فهو مدفوع الظاهر بآيات كثيرة في الكتاب العزيز؛ دالّة على أن الله سبحانه لم يرسل الرسل إلا من بنى آدم، و هذه الأبحاث الكلام فيها يطول، و المراد الإشارة بأخصر عبارة. فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا أَى:

قالوا لقومهم لما رجعوا إليهم، أَى: سمعنا كلاما مقروءا عجا في فصاحته و بلاغته، و قيل: عجا في مواعظه، و قيل: في بركته، و عجا مصدر وصف به للمبالغة، أو على حذف المضاف، أَى: ذا عجب، أو المصدر بمعنى اسم الفاعل، أَى: معجبا يهيدى إلى الرُّشْدِ أَى: إلى مرشد الأمور، و هى الحقّ و الصواب، و قيل: إلى معرفة الله، و الجملة صفة أخرى للقرآن فآمنّا به أَى: صدّقنا به بأنه من عند الله وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، وَ لَا نَتَّخِذُ مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ؛ لِأَنَّهُ الْمَتَفَرِّدُ بِالرَّبُوبِيَّةِ، وَ فِي هَذَا تَوْبِيخٌ لِلْكَفَّارِ مِنْ بَنِي آدَمَ؛ حَيْثُ آمَنَتِ الْجِنُّ بِسَمَاعِ الْقُرْآنِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَ انْتَفَعُوا بِسَمَاعِ آيَاتِ يَسِيرَةٍ مِنْهُ، وَ أَدْرَكُوا بِعَقُولِهِمْ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَ آمَنُوا بِهِ،

و لم ينتفع كفّار الإنس؛ لا سيما رؤساؤهم و عظاماؤهم بسماعه مرّات متعدّدة و تلاوته عليهم في أوقات مختلفه؛ مع كون الرسول منهم يتلوه عليهم بلسانهم، لا- جرم صرّعهم الله أذلّ مصرع، و قتلهم أقبح مقتل، و لعذاب الآخرة أشدّ لو كانوا يعلمون و أنّه تعالى جَدُّ رَبِّنَا قرأ حمزة و الكسائي و ابن عامر و حفص و علقمة و يحيى بن وثّاب و الأعمش و خلف و السّلمي و أنّه تعالى بفتح أن، و كذا قرءوا فيما بعدها ممّا هو معطوف عليها، و ذلك أحد عشر موضعا إلى قوله: و أنّه لَمَّا قام عبْدُ الله و قرأ الباقون بالكسر في هذه المواضع كلها إلا في قوله: و أنّ الْمَسَاجِدَ لِلّهِ فإنهم اتفقوا على الفتح، أما من قرأ بالفتح في هذه المواضع، فعلى العطف على محل الجار و المجرور في فَاَمَّنَّا بِهِ كأنه قيل: فصَدَقناه و صدّقنا أنه تعالى جدُّ ربنا إلخ، و أما من قرأ بالكسر في هذه المواضع فعلى العطف على إنا سمعنا، أي: فقالوا: إنا سمعنا قرآنا، و قالوا: إنه تعالى جدُّ ربنا إلى آخره. و اختار أبو حاتم و أبو عبيد قراءة الكسر؛ لأنه كلّ من كلام الجنّ، و ممّا هو محكيّ عنهم بقوله: «فقالوا إنا سمعنا». و قرأ أبو جعفر و شعبة بالفتح في ثلاثة مواضع، و هي:

وَ أنّه تعالى جَدُّ رَبِّنَا وَ أنّه كَانَ يَقُولُ سَيَفِيهْنَا وَ أنّه كَانَ رِجَالًا مِنَ الْإِنْسِ قَالَا: لأنه من الوحي، و كسرا ما بقى لأنه من كلام الجنّ. و قرأ الجمهور: وَ أنّه لَمَّا قام عبْدُ الله بالفتح لأنه معطوف على قوله: «أنه استمع». و قرأ نافع و ابن عامر و شيبه و زرّ بن حبّيش و أبو بكر و المفضل عن عاصم بالكسر

(١). الملك: ٥.

(٢). الرّحمن: ٥٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٦٥

في هذا الموضع عطفًا على «فآمنا به» بذلك التقدير السابق، و اتفقوا على الفتح في أنّه اسْتَمَعَ كما اتفقوا على الفتح في أنّ الْمَسَاجِدَ و في وَ أنّ لَوْ اسْتَقَامُوا و اتفقوا على الكسر في فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا و قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي و قُلْ إِنْ أَدْرِي و قُلْ إِنِّي لَا أملكُ لَكُمْ و الجدّ عند أهل اللغة:

العظمة و الجلال، يقال: جدّ في عيني: أي عظم، فالمعنى: ارتفعت عظمة ربنا و جلاله، و به قال عكرمة و مجاهد. و قال الحسن: المراد تعالى غناه، و منه قيل للحظ: جدّ، و رجل مجدود، أي: محظوظ، و في الحديث: «و لا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ»، قال أبو عبيد و الخليل: أي لا ينفع ذا الغنى منك الغنى، أي:

إنما تنفعه الطاعة، و قال القرظيّ و الضحاك: جدّه: آلاؤه و نعمه على خلقه. و قال أبو عبيد و الأخفش:

ملكه و سلطانه. و قال السّديّ: أمره. و قال سعيد بن جبّير: وَ أنّه تعالى جَدُّ رَبِّنَا أي: تعالى ربنا، و قيل: جدّه قدرته. و قال محمد بن عليّ بن الحسين و ابنه جعفر الصادق و الربيع بن أنس: ليس لله جدّ، و إنما قالته الجنّ للجهالة. قرأ الجمهور: جدّ بفتح الجيم، و قرأ عكرمة و أبو حيوة و محمد بن السّميّع بكسر الجيم، و هو ضدّ الهزل، و قرأ أبو الأشهب: جدا ربنا أي: جدواه و منفعته. و روى عن عكرمة أيضا أنه قرأ بتنوين جد و رفع ربنا على أنه بدل من جدّ. مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَ لَا وَلَدًا هذا بيان لتعالى جدّه سبحانه. قال الزجاج: تعالى جلال ربنا و عظمته عن أن يتخذ صاحبة أو ولدا، و كأن الجنّ نهوا بهذا على خطأ الكفار الذين ينسبون إلى الله صاحبة و الولد، و نزهوا الله سبحانه عنهما وَ أنّه كَانَ يَقُولُ سَيَفِيهْنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا الضمير في أنه للحديث أو الأمر، و «سفيها» يجوز أن يكون اسم كان، و «يقول» الخبر، و يجوز أن يكون «سفيها» فاعل يقول: و الجملة خبر كان، و اسمها ضمير يرجع إلى الحديث أو الأمر. و يجوز أن تكون كان زائدة، و مرادهم بسفيهم: عصاتهم و مشركوهم. و قال مجاهد و ابن جريج و قتادة: أرادوا به إبليس، و الشطط: الغلوّ في الكفر. و قال أبو مالك: الجور، و قال الكلبي: الكذب، و أصله البعد عن القصد و

مجاوزه الحد، و منه قول الشاعر:

بأية حال حكّموا فيك فاشتطّوا ما ذاك إلّا حيث يممك الوخط (١)

وَأَنَا ظَنَّنَا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَى: إنا حسبنا أن الإنس و الجنّ كانوا لا يكذبون على الله بأن له شريكا و صاحبة و ولدا، فلذلك صدقناهم في ذلك حتى سمعنا القرآن؛ فعلمنا بطلان قولهم، و بطلان ما كنّا نظنه بهم من الصّدق، و انتصاب كذبا على أنه مصدر مؤكّد ليقول؛ لأنّ الكذب نوع من القول، أو صفة لمصدر محذوف، أى: قولا كذبا. و قرأ يعقوب و الجحدري و ابن أبي إسحاق أن لَنْ تَقُولَ من التَقُولَ، فيكون على هذه القراءة كذبا مفعول به وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالًا مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ قَالَ الْحَسَنُ وَ ابْنُ زَيْدٍ وَ غَيْرُهُمَا: كان العرب إذا نزل الرجل بواد قال: أعوذ بسيد هذا الوادى من شرّ سفهاء قومه، فبييت في جواره حتى يصبح، فنزلت هذه الآية. قال مقاتل: كان أول من تعوذ بالجنّ

(١). «بممك»: قصدك. «الوخط»: الطعن بالرمح، و الشيب.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٦٦

قوم من أهل اليمن، ثم من بنى حنيفة، ثم فشا ذلك في العرب، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله و تركوهم فرأوهم رهقا أى: زاد رجال الجنّ من تعوذ بهم من رجال الإنس رهقا، أى: سفها و طغيانا، أو تكبرا و عتوا، أو: زاد المستعيذون من رجال الإنس من استعاذوا بهم من رجال الجنّ رهقا؛ لأن المستعاذ بهم كانوا يقولون: سدنا الجنّ و الإنس. و بالأول قال مجاهد و قتادة، و بالثاني قال أبو العالية و قتادة و الربيع ابن أنس و ابن زيد. و الرهق فى كلام العرب: الإيثم و غشيان المحارم، و رجل رهق؛ إذا كان كذلك، و منه قوله: تَزَهَقُهُمْ ذَلَّةٌ \* (١) أى: تغشاهم، و منه قول الأعشى:

لا شيء ينفعنى من دون رؤيتها هل يشتفى عاشق ما لم يصب رهقا

يعنى إثما. و قيل الرهق: الخوف، أى: أن الجنّ زادت الإنس بهذا التعوذ بهم خوفا منهم، و قيل: كان الرجل من الإنس يقول: أعوذ بفلان من سادات العرب من جنّ هذا الوادى، و يؤيد هذا ما قيل من أن لفظ رجال لا- يطلق على الجنّ، فيكون قوله «برجال» و صفا لمن يستعيذون به من رجال الإنس، أى: يعوذون بهم من شرّ الجنّ، و هذا فيه بعد، و إطلاق لفظ رجال على الجنّ، على تسليم عدم صحته لغه، لا مانع من إطلاقه عليهم هنا من باب المشاكلة وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا هذا من قول الجنّ للإنس، أى: و إن الجنّ ظنوا كما ظننتم أيها الإنس أنه لا بعث. و قيل: المعنى: و إن الإنس ظنوا كما ظننتم أيها الجنّ، و المعنى: أنهم لا يؤمنون بالبعث كما أنكم لا تؤمنون وَ أَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ هذا من قول الجنّ أيضا، أى:

طلبنا خبرها كما به جرت عادتنا فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع، و الحرس: جمع حارس، و شديداً صفة لحرسا، أى: قويا وَ شُهَبًا جمع: شهاب، و هو الشعلة المقتبسة من نار الكوكب، كما تقدّم بيانه فى تفسير قوله: وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ و محل قوله:

مُلِئَتْ حَرَسًا شديداً النصب على أنه ثانى مفعولى وجدنا؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين، و يجوز أن يكون متعديا إلى مفعول واحد، فيكون محل الجملة النصب على الحال بتقدير قد، و حرسا منصوب على التمييز، و وصفه بالمفرد اعتبارا باللفظ، كما يقال السلف الصالح، أى: الصالحين وَ أَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ أى: و إنا كنا معشر الجنّ قبل هذا نقعد من السماء مقاعد للسمع، أى: مواضع نقعد فى مثلها لاستماع الأخبار من السماء، و «للسمع» متعلق بنقعد، أى: لأجل السمع، أو بمضمّر هو صفة لمقاعد، أى: مقاعد كائنة للسمع، و المقاعد: جمع مقعد، اسم كان، و ذلك أن مرده الجنّ كانوا يفعلون ذلك ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء فيلقونها إلى الكهنة، فحرسها الله سبحانه ببعثه رسوله صلى الله عليه و سلم بالشهب المحرقة، و هو معنى قوله:

فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا أَي: أرصد له ليرمى به، أو لأجله لمنعه من السماع، وقوله:  
الآن هو ظرف للحال، واستعير للاستقبال، وانتصاب «رصدا» على أنه صفة ل «شهابا»، أو مفعول له، وهو مفرد ويجوز أن يكون  
اسم جمع كالحرس.

(١). يونس: ٢٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٦٧

وقد اختلفوا هل كانت الشياطين ترمى بالشهب قبل المبعث أم لا؟ فقال قوم: لم يكن ذلك. وحكى الواحدى عن معمر قال:  
قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم فى الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أفرأيت قوله:

وَ أَنَا كُنَّا نَقْعِدُ مِنْهَا الْآيَةَ، قال: غلظت و شدد أمرها حين بعث محمد صلى الله عليه و سلم. قال ابن قتيبة: إن الرجم قد كان قبل  
مبعثه، و لكنه لم يكن مثله فى شدة الحراسة بعد مبعثه، و كانوا يسترقون فى بعض الأحوال، فلما بعث منعوا من ذلك أصلا. و  
قال عبد الملك بن سابور: لم تكن السماء تحرس فى الفترة بين عيسى و محمد، فلما بعث محمد صلى الله عليه و سلم حرس  
السماء، و رميت الشياطين بالشهب، و منعت من الدنو إلى السماء. و قال نافع بن جبير: كانت الشياطين فى الفترة تسمع فلا ترمى،  
فلما بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم رميت بالشهب، و قد تقدم البحث عن هذا و أنا لا ندرى أ شتر أريد بمن فى الأرض أم  
أراد بهم ربهم رشداً أى: لا ندرى أشر أريد بأهل الأرض بسبب هذه الحراسة للسماء، أم أراد بهم ربهم رشداً، أى: خيرا. قال ابن  
زيد:

قال إبليس: لا ندرى أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذابا، أو يرسل إليهم رسولا، و ارتفاع أ شتر على الاشتغال، أو  
على الابتداء، و خبره ما بعده، و الأول أولى، و الجملة سادة مسد مفعولى ندرى، و الأولى أن هذا من قول الجن فيما بينهم، و  
ليس من قول إبليس كما قال ابن زيد و أنا من الصالحون أى: قال بعض لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد صلى الله  
عليه و سلم: و أنا كنا قبل استماع القرآن منا الموصوفون بالصلاح، و منّا دون ذلك أى: قوم دون ذلك، أى: دون الموصوفين  
بالصلاح، و قيل: أراد ب «الصالحون» المؤمنين، و بمن هم دون ذلك الكافرين، و الأول أولى، و معنى كُنَّا طرائق قَدَدًا أى:  
جماعات متفرقة و أصنافا مختلفة، و القدة: القطعة من الشيء، و صار القوم قددا؛ إذا تفرقت أحوالهم، و منه قول الشاعر:

القباض الباسط الهادى لطاعته فى فتنه الناس إذ أهواؤهم قدد

و المعنى: كنا ذوى طرائق قددا، أو كانت طرائقنا طرائق قددا، أو كنا مثل طرائق قددا، و من هذا قول لبيد:

لم تبلغ العين كل نهمتها يوم تمشى الجياد بالقدد

و قوله أيضا:

و لقد قلت و زيد حاسريوم و لت خيل عمرو قددا

قال السدى و الضحاك: أديانا مختلفة، و قال قتادة: أهواء متباينة. و قال سعيد بن المسيب: كانوا مسلمين و يهود و نصارى و  
مجوس، و كذا قال مجاهد. قال الحسن: الجن أمثالكم قدرية و مرجئة و رافضة و شيعة، و كذا قال السدى: و أنا ظننا أن لن نعجز  
الله فى الأرض الظن هنا بمعنى العلم و اليقين، أى: و إنا علمنا أن الشأن لن نعجز الله فى الأرض أينما كنا فيها، و لن نفوته إن  
أراد بنا أمرا و لن نعجزه هرباً أى: هارين منها، فهو مصدر فى موضع الحال و أنا لَمَّا سَجِمْنَا الْهُدَى يعنون القرآن آمنا به و صدقنا  
أنه من

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٦٨



عند الله، و لم نكذب به؛ كما كذبت به كفره الإنس فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا أَي:

لا يخاف نقصا في عمله و ثوابه، و لا ظلما و مكروها يغشاه، و البخس: النقصان، و الرهق: العدوان و الطغيان، و المعنى: لا يخاف أن ينقص من حسناته و لا أن يزداد في سيئاته، و قد تقدّم تحقيق الرهق قريبا.

قرأ الجمهور: بَخْسًا بسكون الخاء، وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها. وقرأ يحيى بن وثاب و الأعمش فلا يخف جزما على جواب الشرط، و لا وجه لهذا بعد دخول الفاء، و التقدير: فهو لا يخاف، و الأمر ظاهر.

و قد أخرج أحمد و البخارى و مسلم و الترمذى و غيرهم عن ابن عباس قال: انطلق النبى صلى الله عليه و سلم فى طائفه من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، و قد حيل بين الشياطين و بين خبر السماء، و أرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا و بين خبر السماء و أرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم و بين خبر السماء إلا شىء حدث، فاضربوا مشارق الأرض و مغاربها؛ لتعرفوا ما هذا الأمر الذى حال بينكم و بين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبى صلى الله عليه و سلم و هو بنخله عامدين إلى سوق عكاظ، و هو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا و الله الذى حال بينكم و بين خبر السماء، فهناك رجعوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا إنا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ وَإِنَّمَا أُوْحِيَ إِلَيْهِ قَوْلَ الْجِنِّ.

و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ قال: كانوا من جن نصيبين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا قال: آلاؤه و عظمته.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: أمره و قدرته. و أخرج ابن مردويه و الديلمى، قال السيوطى: بسند واه، عن أبى موسى الأشعري مرفوعا فى قوله: وَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا قال: إبليس.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و العقيلى فى الضعفاء، و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه و ابن عساكر عن كردم بن أبى السائب الأنصارى قال: خرجت مع أبى إلى المدينة فى حاجه، و ذلك أول ما ذكر رسول الله صلى الله عليه و سلم بمكة، فأوانا المبيت إلى راعى غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم، فوثب الراعى فقال: يا عامر الوادى أنا جارك، فنادى مناد: يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشتد حتى دخل فى الغنم، و أنزل الله على رسوله بمكة: وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ الْآيَةَ. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: فَزَادُوهُمْ رَهَقًا قال: إنما. و أخرج ابن مردويه عنه قال: كان القوم فى الجاهلية إذا نزلوا بالوادى قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادى من شر ما فيه، فلا يكون بشىء أشد ولعا منهم بهم، فذلك قوله: فَزَادُوهُمْ رَهَقًا. و أخرج ابن أبى شيبه و أحمد و عبد ابن حميد، و الترمذى و صححه، و النسائى و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن ابن عباس قال: كانت الشياطين لهم مقاعد فى السماء يسمعون فيها الوحى، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا، فأما

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٦٩

الكلمة فتكون حقا، و أما ما زادوا فيكون باطلا فلما بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، و لم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم: ما هذا إلا من أمر قد حدث فى الأرض، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه و سلم قائما يصلى بين جبلين بمكة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذى حدث فى الأرض. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ أَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذَلِكَ يقول:

مِنَّا الْمُسْلِمَ، وَ مِنَّا الْمُشْرِكَ، وَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا أَهْوَاءِ شَتَى. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فلا يخاف بَخْسًا وَلَا

رَهَقًا قَالَ: لَا يَخَافُ نَقْصًا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَلَا زِيَادَةً فِي سَيِّئَاتِهِ.

## [سورة الجن (٧٢): الآيات ١٤ إلى ٢٨]

وَ أَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَ أَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَ أَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَ أَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨)

وَ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَ لَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَ رِسَالَاتِهِ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)

حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَ أَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِنُعَلِّمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)

قوله: وَ أَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ هم الذين آمنوا بالنبى صلى الله عليه و سلم وَ مِنَّا الْقَاسِطُونَ أى: الجائرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق، و مالوا إلى طريق الباطل، يقال: قسط؛ إذا جار، و أقسط؛ إذا عدل فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا أى: قصدوا طريق الحق. قال الفراء: أموا الهدى وَ أَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا أى: وقودا للنار توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس وَ أَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ هذا ليس من قول الجن بل هو معطوف على أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ وَ الْمَعْنَى: و أوحى إلى أن الشأن لو استقام الجن أو الإنس أو كلاهما على الطريقة، و هى طريقة الإسلام، و قد قدمنا أن القراء اتفقوا على فتح «أن» ها هنا. قال ابن الأنبارى: و الفتح هنا على إضمار يمين تأويلها: و الله أن لو استقاموا على الطريقة كما يقال فى الكلام: و الله أن قمت لقمت، و الله لو قمت لقمت، كما فى قول الشاعر:

أما و الله أن لو كنت حرًا ما بالحر أنت و لا العتيق

قال: أو على «أوحى إلى أنه استمع»، «و أن لو استقاموا»، أو على «آمنا به»: أى آمنا به، و بأن لو استقاموا. قرأ الجمهور بكسر الواو من «لو» للالتقاء الساكنين. و قرأ ابن وثاب و الأعمش بضمها

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٧٠

لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا أى: كثيرا واسعا. قال مقاتل: ماء كثيرا من السماء، و ذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين. و قال ابن قتيبة: المعنى لو آمنوا جميعا لوسعنا عليهم فى الدنيا، و ضرب الماء الغدق مثلا؛ لأن الخير كله و الرزق بالمطر، و هذا كقوله: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا «١» الآية، و قوله:

وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا - وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ «٢» و قوله: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا - يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا - وَ يُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنِينَ «٣» الآية. و قيل المعنى: و أن لو استقام أبوهم على عبادته، و سجد لآدم، و لم يكفر، و تبعه و لده على الإسلام؛ لأنعمنا عليهم، و اختار هذا الزجاج. و الماء الغدق: هو الكثير فى لغة العرب لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ أى: لنختبرهم؛ فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم.

و قال الكلبي: المعنى و أن لو استقاموا على الطريقة التى هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفارا؛ لأوسعنا أرزاقهم مكرابهم و استدراجا؛ حتى يفتنوا بها؛ فنعدبهم فى الدنيا و الآخرة. و به قال الربيع بن أنس و زيد بن أسلم و ابنه عبد الرحمن و الثمالى و

يمان بن رباب و ابن كيسان و أبو مجلز، و استدلوا بقوله: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ «٤» و قوله: وَ لَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سِقْفًا مِنْ فِضَّةٍ «٥» الآية، و الأول أولى. وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا أَى: و من يعرض عن القرآن، أو عن العبادة، أو عن الموعظة، أو عن جميع ذلك يسلكه، أى:

يدخله عذابا صعبا، أى: شاقا صعبا. قرأ الجمهور نَسْلُكُهُ بالنون مفتوحة. و قرأ الكوفيون و أبو عمرو فى روايه عنه بالياء التحتية، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم لقوله: عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ و لم يقل عن ذكرنا. و قرأ مسلم بن جندب و طلحة بن مصرف و الأعرج بضم النون و كسر اللام، من أسلكه، و قراءة الجمهور من سلكه. و الصعد فى اللغة: المشقة، تقول: تصعدنى الأمر: إذا شقَّ عليك، و هو مصدر سعد، يقال: سعد صعدا و صعودا، فوصف به العذاب مبالغة؛ لأنه يتصعد المعذب، أى: يعلوه و يغلبه فلا يطيقه.

قال أبو عبيد: الصِّعد مصدر، أى: عذابا ذا سعد. و قال عكرمة: الصِّعد: هو صخرة ملساء فى جهنم يكلف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم، كما فى قوله: سَأَرْهَقُهُ صَعُودًا «٦» و الصعود:

العقبة الكؤود وَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ قَدْ قَدَّمْنَا اتِّفَاقَ الْقِرَاءِ هُنَا عَلَى الْفَتْحِ فَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى أَنَّهُ اسْتَمَعَ، أَى:

و أوحى إلى أن المساجد مختصة بالله. و قال الخليل: التقدير و لأن المساجد. و المساجد: المواضع التى بنيت للصلاة فيها. قال سعيد بن جبیر: قالت الجن: كيف لنا أن نأتى المساجد، و نشهد معك الصلاة، و نحن ناؤون عنك؟ فنزلت. و قال الحسن: أراد بها كل البقاع لأن الأرض كلها مسجد. و قال سعيد بن المسيب و طلق بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التى يسجد عليها العبد، و هى القدمان و الركبتان و اليدان و الجبهة،

(١). المائدة: ٦٥.

(٢). الطلاق: ٢-٣.

(٣). نوح: ١٠-١٢.

(٤). الأنعام: ٤٤.

(٥). الزخرف: ٣٣.

(٦). المدثر: ١٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٧١

و يقول: هذه أعضاء أنعم الله بها عليك فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمه الله، و كذا قال عطاء. و قيل: المساجد هى الصلاة؛ لأن السجود من جملة أركانها، قاله الحسن فلا تدعوا مع الله أحداً من خلقه كائنا ما كان و أنه لما قام عبد الله قد قدمنا أن الجمهور قرءوا هنا بفتح أن، عطفا على أنه استمع: أى و أوحى إلى أن الشأن لما قام عبد الله، و هو النبى صلى الله عليه و سلم يدعوه أى: يدعوه الله و يعبده، و ذلك ببطن نخلة «١» كما تقدم حين قام رسول الله صلى الله عليه و سلم يصلى و يتلو القرآن، و قد قدمنا أيضا قراءة من قرأ بكسر «إن» هناك، و فيها غموض و بعد عن المعنى المراد كأدوا يكونون عليه لبدأ أى: كاد الجن يكونون على رسول الله لبدأ، أى: متراكمين من ازدحامهم عليه لسماع القرآن منه. قال الزجاج: و معنى لبدأ: يركب بعضهم بعضا، و من هذا اشتقاق هذه اللبود التى تفرش. قرأ الجمهور لبدأ بكسر اللام و فتح الباء. و قرأ مجاهد و ابن محيصة و هشام بضم اللام و فتح الباء، و قرأ أبو حيوة و محمد بن السميع و العقبلى و الجحدري بضم الباء و اللام. و قرأ الحسن و أبو العالية و الأعرج بضم اللام و تشديد الباء مفتوحة. فعلى القراءة الأولى المعنى ما ذكرناه، و على قراءة اللام يكون المعنى كثيرا، كما فى قوله: أَهْلَكْتُ

مَالاً لُبْدًا «٢» وقيل المعنى: كاد المشركون يركب بعضهم بعضا حرذا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقال الحسن و قتادة و ابن زيد: لما قام عبد الله محمد بالدعوة، تلبدت الإنس و الجن على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله إلا أن ينصره، و يتم نوره. و اختار هذا ابن جرير. قال مجاهد: لُبْدًا أى: جماعات، و هو من تلبد الشيء على الشيء، أى: اجتمع، و منه اللبد: الذى يفرش لتراكم صوفه، و كل شيء أَلصقته إصصاقا شديدا فقد لُبْدته، و يقال للشعر الذى على ظهر الأسد: لبدته، و جمعها لبد، و يقال للجراد الكثير: لبد؛ و يطلق اللبد بضم اللام و فتح الباء على الشيء الدائم، و منه قيل لنسر لقمان لبد لطول بقائه، و هو المقصود بقول النابغة:

أخنى عليها الذى أخنى على لبد «٣» قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّيَ أَى: قال عبد الله إنما أَدْعُو رَبِّي و أعبده و لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا من خلقه. قرأ الجمهور: قال و قرأ عاصم و حمزة «قل» على الأمر. و سبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنك جئت بأمر عظيم، و قد عادت الناس كلهم، فارجع عن هذا فنحن نجيرك قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا أَى: لا أقدر أن أَدفع عنكم ضرا، و لا أسوق إليكم خيرا، و قيل: الضر: الكفر، و الرشد: الهدى، و الأول أولى لوقوع النكرتين فى سياق النفي، فهما يعلمان كل ضرر و كل رشد فى الدنيا و الدين قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ أَى: لا يدفع عنى أحد عذابه إن أنزله بى و لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا أَى: ملجأ و معدلا و حرزا، و الملتحد معناه فى اللغة: الممال؛ أى: موضعا أميل إليه. قال قتادة: مولى. و قال السدى: حرزا، و قال الكلبى: مدخلا فى الأرض مثل السرب، و قيل: مذهبا و مسلكا،

(١). «بطن نخلة»: موضع بين مكة و الطائف.

(٢). البلد: ٦.

(٣). و صدره: أضحى خلاء و أضحى أهلها احتملوا.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٧٢

و المعنى متقارب، و منه قول الشاعر:

يا لهف نفسى و لهفى غير مجدیه عنى و ما من قضاء الله ملتحد

و الاستثناء فى قوله: إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ هو من قوله لا أملك، أى: لا أملك ضرا و لا رشدا إلا التبليغ من الله، فإن فيه أعظم الرشد، أو من ملتحدا، أى: لن أجد من دونه إلا التبليغ. قال مقاتل: ذلك الذى يجيرنى من عذابه. و قال قتادة: إلا بلاغا من الله، فذلك الذى أملكه بتوفيق الله، فأما الكفر و الإيمان فلا- أملكهما. قال الفراء: لكن أبلغكم ما أرسلت به، فهو على هذا منقطع. و قال الزجاج: هو منصوب على البدل من قوله: مُلْتَحَدًا أَى: و لن أجد من دونه ملتحدا؛ إلا أن أبلغ ما يأتى من الله، و قوله: وَ رِسَالَاتِهِ مَعْطُوفٌ عَلَى بَلَاغَا، أَى: إلا- بلاغا من الله و إلا- رسالاته التى أرسلنى بها إليكم، أو إلا- أن أبلغ عن الله و أعمل برسالاته، فأخذ نفسى بما أمر به غيرى. و قيل: الرسالات معطوفة على الاسم الشريف، أى: إلا بلاغا عن الله و عن رسالاته، كذا قال أبو حيان و رجحه و مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فى الأمر بالتوحيد لأن السياق فيه فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ قرأ الجمهور بكسر إن؛ على أنها جملة مستأنفة. و قرئ بفتح الهمزة؛ لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء، و التقدير: فجزاؤه أن له نار جهنم، أو: فحكمه أن له نار جهنم، و انتصاب خالدين فيها على الحال، أى: فى النار أو فى جهنم، و الجمع باعتبار معنى من كما أن التوحيد فى قوله: فَإِنَّ لَهُ باعتبار لفظها، و قوله: أَبَدًا تأكيد لمعنى الخلود، أى: خالدين فيها بلا نهاية حتى إذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ يعنى من العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة. و المعنى: لا يزالون على ما هم عليه من الإصرار على الكفر و عداوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و المؤمنين؛ حتى إذا رَأَوْا الذى يوعدون به فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أضعف ناصرا و أقل عيدا أَى: من هو أضعف جندا ينتصر به و أقل عددا، أهم أم

المؤمنون؟ قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تُوعِدُونَ أَى: ما أدري أ قريب حصول ما توعدون من العذاب أم يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا أَى: غاية و مدّة، أمره الله سبحانه أن يقول لهم هذا القول لما قالوا له: متى يكون هذا الذي توعدنا به؟ قال عطاء: يريد أنه لا يعرف يوم القيامة إلا الله وحده، و المعنى أن علم وقت العذاب علم غيب لا يعلمه إلا الله. قرأ الجمهور رَبِّي ياسكان الياء. و قرأ الحرميان و أبو عمرو بفتحها.

و مَنْ فِي مَنْ أَضْعَفُ مَوْصُولُهُ، و أضعف خبر مبتدأ محذوف، أَى: هو أضعف، و الجملة صلة الموصول، و يجوز أن تكون استفهامية مرتفعة على الابتداء، و أضعف: خبرها. و الجملة في محل نصب سادة مسدّ مفعولي «أدري»، و قوله: أ قَرِيبٌ خبر مقدّم و ما تُوعِدُونَ مبتدأ مؤخر عالم الغيب قرأ الجمهور بالرفع على أنه بدل من «ربي»، أو بيان له، أو خبر مبتدأ محذوف، و الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من عدم الدراية. و قرئ بالنصب على المدح. و قرأ السري «علم الغيب» بصيغة الفعل و نصب الغيب، و الفاء في فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا لترتيب عدم الإظهار على تفرّده بعلم الغيب، أَى: لا يطلع على الغيب الذي يعلمه، و هو ما غاب عن العباد، أحدا منهم، ثم استثنى فقال: إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ أَى: إلا من اصطفاه من الرسل، أو من ارتضاه منهم لإظهاره على بعض غيبه؛ ليكون ذلك دالًّا

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٧٣

على نبوته. قال القرطبي: قال العلماء: لما تمدّح سبحانه بعلم الغيب، و استأثر به دون خلقه، كان فيه دليل أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضى من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، و جعله معجزة لهم، و دلالة صادقة على نبوتهم، و ليس المنجم و من ضاهاه ممّن يضرب بالحصى، و ينظر في الكتب، و يزجر بالطير، ممّن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه، فهو كافر بالله، مفتر عليه بحدسه و تخمينه و كذبه. و قال سعيد بن جبير: إلا من ارتضى من رسول هو جبريل، و فيه بعد. و قيل:

المراد بقوله: إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَطَّلِعُ عَلَىٰ غَيْبِهِ، و هو ما يتعلّق برسالته كالمعجزة و أحكام التكليف و جزاء الأعمال و ما يبينه من أحوال الآخرة، لا ما لا يتعلّق برسالته من الغيوب، كوقت قيام الساعة و نحوه. قال الواحدي: و في هذا دليل على أنّ من ادّعى أن النجوم تدلّه على ما يكون من حادث فقد كفر بما في القرآن. قال في الكشاف: و في هذا إبطال للكرامات؛ لأنّ الذين تضاف إليهم و إن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل، و قد خصّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب، و إبطال للكهانة و التنجيم؛ لأنّ أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء، و أدخله في السّيخط. قال الرازي: و عندى لا دلالة في الآية على شيء مما قالوه؛ إذ لا صيغة عموم في غيبه، فتحمل على غيب واحد و هو وقت القيامة لأنه واقع بعد قوله: أ قَرِيبٌ ما تُوعِدُونَ الآية. فإن قيل: فما معنى الاستثناء حينئذ؟ قلنا: لعله إذا قربت القيامة يظهره، و كيف لا؟ و قد قال: يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ بِالْغَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا «١» فتعلم الملائكة حينئذ قيام القيامة، أو هو استثناء منقطع، أَى: من ارتضاه من رسول يجعل من بين يديه، و من خلفه حفظة؛ يحفظونه من شرّ مردة الجنّ و الإنس. و يدلّ على أنه ليس المراد به لا يطلع أحدا على شيء من المغيبات أنه ثبت كما يقارب التواتر أن شقًا و سطيحا كانا كاهنين، و قد عرفا بحديث النبي صلى الله عليه و سلّم قبل ظهوره، و كانا مشهورين بهذا العلم عند العرب حتى رجع إليهما كسرى. فثبت أن الله تعالى قد يطلع غير الرسل على شيء من المغيبات، و أيضا أطبق أهل الملل على أن معبر الرؤيا يخبر عن أمور مستقبله، و يكون صادقًا فيها، و أيضا قد نقل السلطان سنجر بن ملك شاه كاهنه من بغداد إلى خراسان، و سأله عن أمور مستقبله، فأخبرته بها، فوقع على وفق كلامها. قال: و أخبرني ناس محققون في علم الكلام و الحكمة أنها أخبرت عن أمور غائبة بالتفصيل، فكانت على وفق خبرها. و بالغ أبو البركات في كتاب «التعبير» في شرح حالها و قال: فحصدت عن حالها ثلاثين سنة، فتحققت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخبارًا مطابقًا. و أيضا فإننا نشاهد

ذلك في أصحاب الإلهامات الصادقة، وقد يوجد ذلك في السحرة أيضا، وقد نرى الأحكام النجومية مطابقة وإن كانت قد تتخلف، ولو قلنا:

إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة؛ لتطرق الطعن إلى القرآن، فيكون التأويل ما ذكرنا، انتهى كلامه.  
قلت: أما قوله: إذ لا صيغة عموم في غيبه، فباطل، فإن إضافة المصدر و اسم الجنس من صيغ العموم

(١). الفرقان: ٢٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٧٤

كما صرح به أئمة الأصول وغيرهم. و أما قوله: أو هو استثناء منقطع فمجرد دعوى ياباه النظم القرآني.

و أما قوله: إن شقًا و سطوحًا إلخ، فقد كانا في زمن تسترق فيه الشياطين السمع، و يلقون ما يسمعونه إلى الكهان، فيخلطون الصديق بالكذب، كما ثبت في الحديث الصحيح. و في قوله: إِلَّا مَنْ خَطَفَ الْخَطْفَةَ «١» و نحوها من الآيات، فباب الكهانة قد ورد بيانه في هذه الشريعة، و أنه كان طريقًا لبعض الغيب بواسطة استراق الشياطين؛ حتى منعوا ذلك بالبعثة المحمدية. و قالوا: أَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَحَّيْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَ شُهْبًا - وَ أَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا «٢» فباب الكهانة في الوقت الذي كانت فيه مخصوص بأدلتها، فهو من جملة ما يخصص به هذا العموم، فلا يرد ما زعمه من إيراد الكهانة على هذه الآية. و أما حديث المرأة الذي أورده فحديث خرافة، و لو سلم وقوع شيء مما حكاها عنها من الأخبار لكان من باب ما ورد في الحديث: «إن في هذه الأمة محدثين و إن منهم عمر»، فيكون كالتخصيص لعموم هذه الآية لا انقضاء لها، و أما ما اجترأ به على الله و على كتابه من قوله في آخر كلامه؛ فلو قلنا: إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلى القرآن، فيقال له:

ما هذه بأول زلة من زلاتك، و سقطه من سقطاتك، و كم لها لديك من أشباه و نظائر، نبض بها عرق فلسفتك، و ركض بها الشيطان الذي صار يتخبطك في مباحث تفسيرك، يا عجا لك أي يكون ما بلغك من خبر هذه المرأة و نحوه موجبًا لتطرق الطعن إلى القرآن؟! و ما أحسن ما قاله بعض أدباء عصرنا:

و إذا رامت الذبابة للشمس غطاء مدت عليها جناحا

و قلت من أبيات:

مهب رياح سدّه بجناح و قابل بالمصباح ضوء صباح

فإن قلت: إذن قد تقرّر بهذا الدليل القرآني أن الله يظهر من ارتضى من رسله على ما شاء من غيبه، فهل للرسول الذي أظهره الله على ما شاء من غيبه أن يخبر به بعض أمته؟ قلت: نعم و لا مانع من ذلك.

و قد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه و سلم من هذا ما لا يخفى على عارف بالسنة المطهرة، فمن ذلك ما صح أنه قام مقامًا أخبر فيه بما سيكون إلى يوم القيامة، و ما ترك شيئًا مما يتعلّق بالفتن و نحوها، حفظ ذلك من حفظه، و نسيه من نسيه، و كذلك ما ثبت من أن حذيفة بن اليمان كان قد أخبره رسول الله صلى الله عليه و سلم بما يحدث من الفتن بعده، حتى سأله عن ذلك أكابر الصحابة و رجعوا إليه. و ثبت في الصحيح وغيره «أن عمر بن الخطاب سأله عن الفتنة التي تموج كموج البحر، فقال: إن بينك و بينها بابا، فقال عمر: هل يفتح أو يكسر؟ فقال: بل يكسر، فعلم عمر أنه الباب، و أن كسره قتله» كما في الحديث الصحيح المعروف؛ أنه قيل لحذيفة: هل كان عمر يعلم ذلك؟ فقال: نعم كان يعلم أن دون غد الليلة. و كذلك ما ثبت من إخباره لأبي ذرّ بما يحدث

(١). الصفات: ١٠.

(٢). الجن: ٨ - ٩.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٧٥

له، وإخباره لعلي بن أبي طالب بخبر ذى الثدية، ونحو هذا مما يكثر تعدده، و لو جمع ل جاء منه مصنف مستقل. وإذا تقرّر هذا فلا مانع من أن يختص بعض صلحاء هذه الأمة بشيء من أخبار الغيب التي أظهرها الله لرسوله، وأظهرها رسوله لبعض أمتة؛ وأظهرها هذا البعض من الأمة لمن بعدهم، فتكون كرامات الصالحين من هذا القبيل، والكل من الفيض الرباني بواسطة الجناب النبوي.

ثم ذكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الغيب الذي يطالع عليه الرسول فقال: فَإِنَّهُ يَسْمُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصْدًا وَ الْجَمْلَةُ تَقْرِيرٌ لِلإِظْهَارِ الْمُسْتَفَادِ مِنَ الْإِسْتِثْنَاءِ، وَ الْمَعْنَى: أَنَّهُ يَجْعَلُ سَبْحَانَهُ بَيْنَ يَدَى الرَّسُولِ وَ مِنْ خَلْفِهِ حِرْسًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْرُسُونَهُ مِنْ تَعَرُّضِ الشَّيَاطِينِ لِمَا أَظْهَرَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْغَيْبِ، أَوْ يَجْعَلُ بَيْنَ يَدَى الْوَحَى وَ خَلْفِهِ حِرْسًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحُوطُونَهُ مِنْ أَنْ تَسْتَرْقَهُ الشَّيَاطِينُ، فَتَلْقِيهِ إِلَى الْكُهْنَةِ، وَ الْمُرَادُ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ.

قال الضحاك: ما بعث الله نبيًا إلا و معه ملائكة يحفظونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك، فإذا جاءه شيطان في صورة الملك قالوا: هذا شيطان فاحذره، و إن جاءه الملك قالوا: هذا رسول ربك. قال ابن زيد:

رَصْدًا أَيْ: حَفَظَةً يَحْفَظُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ مِنْ أَمَامِهِ وَ وَرَائِهِ مِنَ الْجَنِّ وَ الشَّيَاطِينِ. قَالَ قَتَادَةُ وَ سَعِيدُ بْنُ الْمَسِيْبِ: هُمْ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَفَظَةٌ. وَ قَالَ الْفَرَاءُ: الْمُرَادُ جَبْرِيلُ. قَالَ فِي الصَّحَاحِ: الرَّصْدُ: الْقَوْمُ يَرِصُدُونَ كَالْحِرْسِ، يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَ الْجَمْعُ وَ الْمَذْكُورُ وَ الْمُؤَنَّثُ، وَ الرَّصْدُ لِلشَّيْءِ: الرَّاقِبُ لَهُ، يُقَالُ: رِصَدَهُ يَرِصُدُهُ رِصْدًا وَ رِصْدًا وَ التَّرْصُدُ: التَّرَقُّبُ، وَ الْمُرْصِدُ: مَوْضِعُ الرَّصْدِ لِيُعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ اللَّامُ مُتَعَلِّقٌ بِسِلْكَ، وَ الْمُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ الْمُتَعَلِّقُ بِالْإِبْلَاحِ الْمَوْجُودِ بِالْفِعْلِ، وَ أَنَّ هِيَ الْمَخْفِيفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَ اسْمُهَا ضَمِيرُ الشَّأْنِ، وَ الْخَبْرُ الْجَمْلَةُ، وَ الرِّسَالَاتُ: عِبَارَةٌ عَنِ الْغَيْبِ الَّذِي أُرِيدُ إِظْهَارَهُ لِمَنْ ارْتِضَاهُ اللَّهُ مِنْ رَسُولٍ، وَ ضَمِيرُ «أَبْلَغُوا» يَعُودُ إِلَى الرَّصْدِ. وَ قَالَ قَتَادَةُ وَ مِقَاتِلُ: لِيُعْلَمَ مُحَمَّدٌ أَنَّ الرِّسْلَ قَبْلَهُ قَدْ أَبْلَغُوا الرِّسَالَةَ كَمَا بَلَغَ هُوَ الرِّسَالَةَ، وَ فِيهِ حَذْفٌ تَتَعَلَّقُ بِهِ اللَّامُ، أَيْ: أَخْبَرْنَاهُ بِحَفَظْنَا الْوَحَى لِيُعْلَمَ أَنَّ الرِّسْلَ قَبْلَهُ كَانُوا عَلَى حَالَتِهِ مِنَ التَّبْلِيغِ. وَ قِيلَ: لِيُعْلَمَ مُحَمَّدٌ أَنَّ جَبْرِيلَ وَ مِنْ مَعَهُ قَدْ أَبْلَغُوا إِلَيْهِ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِيلَ. وَ قِيلَ:

لِيُعْلَمَ الرِّسْلَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ. وَ قِيلَ: لِيُعْلَمَ إبْلِيسُ أَنَّ الرِّسْلَ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ مِنْ غَيْرِ تَخْلِيْطٍ. وَ قَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ: أَيْ لِيُعْلَمَ الْجَنُّ أَنَّ الرِّسْلَ قَدْ أَبْلَغُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ، وَ لَمْ يَكُونُوا هُمُ الْمُبْلَغِينَ بِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ عَلَيْهِمْ. وَ قَالَ مُجَاهِدٌ: لِيُعْلَمَ مِنْ كَذْبِ الرِّسْلِ أَنَّ الرِّسْلَ قَدْ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ. قَرَأَ الْجُمْهُورُ «لِيُعْلَمَ» بِفَتْحِ التَّحْتِيَّةِ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ. وَ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ مُجَاهِدٌ وَ حَمِيدٌ وَ يَعْقُوبُ وَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بِضَمِّهَا عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، أَيْ: لِيُعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ الرِّسْلَ قَدْ أَبْلَغُوا. وَ قَالَ الزُّجَاجِيُّ: لِيُعْلَمَ اللَّهُ أَنَّ رِيسْلَهُ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِهِ، أَيْ: لِيُعْلَمَ ذَلِكَ عَنْ مَشَاهِدَةٍ كَمَا عَلِمَهُ غَيْبًا. وَ قَرَأَ ابْنُ أَبِي عِبْلَةَ وَ الزُّهْرِيُّ بِضَمِّ الْيَاءِ وَ كَسْرِ اللَّامِ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ أَيْ: بِمَا عِنْدَهُ الرَّصْدُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ بِمَا عِنْدَ الرِّسْلِ الْمُبْلَغِينَ لِرِسَالَاتِهِ، وَ الْجَمْلَةُ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ مِنْ فَاعِلٍ يَسْلُكُ بِإِضْمَارٍ قَدْ، أَيْ: وَ الْحَالُ أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنَ الْأَحْوَالِ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِيلَ: لِيُعْلَمَ أَنَّ رَبَّهُمْ قَدْ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ فَبَلَّغُوا رِسَالَاتِهِ وَ أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي كَانَتْ وَ الَّتِي سَتَكُونُ، وَ هُوَ مُعْطُوفٌ عَلَى أَحَاطَ، وَ عَدَدًا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُنْتَصِبًا عَلَى التَّمْيِيزِ مَحْوَلًا مِنَ الْمَفْعُولِ

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٧٦

به، أى: و أحصى عدد كل شىء، كما فى قوله: وَ فَجَزْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ، أَوْ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ: معدودا، و المعنى: أن علمه سبحانه بالأشياء ليس على وجه الإجمال، بل على وجه التفصيل، أى: أحصى كل فرد من مخلوقاته على حدة.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الْقَاسِطُونَ الْعَادِلُونَ عَنِ الْحَقِّ. وَ أَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: وَ أَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ قَالَ: أَقَامُوا مَا أَمَرُوا بِهِ لِأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا قَالَ: معينا.

وَ أَخْرَجَ عَبْدَ بَنِ حَمِيدٍ وَ ابْنَ جَرِيرٍ عَنِ السَّدِيِّ قَالَ: قَالَ عُمَرُ: وَ أَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ قَالَ: حَيْثَمَا كَانَ الْمَاءُ كَانَ الْمَالُ، وَ حَيْثَمَا كَانَ الْمَالُ كَانَتِ الْفِتْنَةُ. وَ أَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ قَالَ: لِنَبْتْلِيَهُمْ بِهِ. وَ فِي قَوْلِهِ: وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا قَالَ: مَشَقَّةٌ مِنَ الْعَذَابِ يَصْعَدُ فِيهَا. وَ أَخْرَجَ هِنَادٌ وَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ، وَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ، عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا قَالَ: جَبَلًا فِي جَهَنَّمَ. وَ أَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ عَنْهُ أَيْضًا عَذَابًا صَعَدًا قَالَ: لَا رَاحَةَ فِيهِ. وَ أَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: وَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ قَالَ: لَمْ يَكُنْ يَوْمَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْأَرْضِ مَسْجِدًا إِلَّا مَسْجِدَ الْحَرَامِ، وَ مَسْجِدَ إِبِلْيَاءَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ. وَ أَخْرَجَ ابْنَ مَرْدَوَيْهِ، وَ أَبُو نَعِيمٍ فِي الدَّلَائِلِ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ إِلَى نَوَاحِي مَكَّةَ فَخَطَّ لِي خَطًّا، وَ قَالَ: لَا تَحْدِثْنَ شَيْئًا حَتَّى آتِيكَ» ثُمَّ قَالَ: «لَا يَهُولَنَّكَ شَيْءٌ تَرَاهُ» فَتَقَدَّمَ شَيْئًا؛ ثُمَّ جَلَسَ إِذَا رَجُلٌ سَوْدٌ كَانَهُمْ رِجَالُ الزُّطِّ، وَ كَانُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا. وَ أَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ وَ ابْنَ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ قَالَ: «لَمَّا سَمِعُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَتْلُو الْقُرْآنَ كَادُوا يَرْكَبُونَهُ مِنَ الْحَرَصِ لَمَّا سَمِعُوهُ، وَ دَنُوا مِنْهُ فَلَمْ يَعْلَمْ بِهِمْ حَتَّى أَتَاهُ الرَّسُولُ، فَجَعَلَ يَقْرَأُهُ: قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ وَ أَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَ التِّرْمِذِيُّ وَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ، وَ ابْنَ مَرْدَوَيْهِ، وَ الضَّيَاءَ فِي الْمُخْتَارَةِ، عَنْهُ أَيْضًا فِي الْآيَةِ قَالَ: «لَمَّا أَتَى الْجِنُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَ هُوَ يَصَلِي بِأَصْحَابِهِ يَرْكَعُونَ بِرُكُوعِهِ وَ يَسْجُدُونَ بِسُجُودِهِ، فَعَجَبُوا مِنْ طَوَاعِيهِ أَصْحَابَهُ، فَقَالُوا لِقَوْمِهِمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا. وَ أَخْرَجَ ابْنَ الْمُنْذِرِ وَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا قَالَ: أَعْوَانًا. وَ أَخْرَجَ ابْنَ الْمُنْذِرِ وَ ابْنَ مَرْدَوَيْهِ عَنْهُ أَيْضًا فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا- إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ قَالَ: أَعْلَمَ اللَّهُ الرَّسُلَ مِنَ الْغَيْبِ الْوَحْيِ، وَ أَظْهَرَهُمْ عَلَيْهِ، مِمَّا أَوْحَى إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْبِهِ، وَ مَا يَحْكُمُ اللَّهُ، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ غَيْرَهُ. وَ أَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَ ابْنَ مَرْدَوَيْهِ عَنْهُ أَيْضًا رَضِيدًا قَالَ: هِيَ مَعْقَبَاتٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَ رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الشَّيَاطِينِ حَتَّى يَبَيِّنَ الْهَدَى أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ بِهِ، وَ ذَلِكَ حَتَّى يَقُولَ أَهْلُ الشَّرْكِ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ. وَ أَخْرَجَ ابْنَ مَرْدَوَيْهِ عَنْهُ أَيْضًا قَالَ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا وَ مَعَهَا أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَهَا؛ حَتَّى يُوَدِّدَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، ثُمَّ قَرَأَ: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا- إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَضِيدًا يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ الْأَرْبَعَةَ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ

فتح القدير، ج 5، ص: 377

## سورة المزمل

### إشارة

هى تسع عشرة آية، و قيل عشرون آية و هى مكية. قال الماوردى: كلها فى قول الحسن و عكرمة و جابر، قال: و قال ابن عباس و قتادة: إلا- آيتين منها و اصبر على ما يقولون «1» و التى تليها. و قال الثعلبي: إلا- قوله: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ «2» إلى آخر



السورة، فإنه نزل بالمدينة. و أخرج ابن الضريس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة المزمّل بمكة إلا آيتين «٣» إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى «٤». و أخرج البزار، و الطبراني في الأوسط، و أبو نعيم في الدلائل، عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سمّوا هذا الرجل اسماً تصدّون الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن؛ قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون؛ قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، ففتزق المشركون على ذلك، فبلغ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فتزمل في ثيابه و تدثر فيها، فأتاه جبريل، فقال: يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ «٥» يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ «٦» قال البزار: بعد إخراجهم من طريق معلى بن عبد الرحمن: إن معلى قد حدّث عنه جماعة من أهل العلم و احتملوا حديثه، لكنه إذا تفرّد بالأحاديث لا يتابع عليها. و أخرج أبو داود، و البيهقي في السنن، عن ابن عباس قال: «بتّ عند خالتي ميمونة، فقام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يصلي من الليل، فصلى ثلاث عشرة ركعة منها ركعتا الفجر، فحزرت قيامه في كل ركعة بقدر يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة المزمّل (٧٣): الآيات ١ الى ١٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤)  
 إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَ أَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَتَبُّلاً (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)  
 وَ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا- (١٠) وَ ذُرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَ مَهْلُكِهِمْ قَلِيلاً- (١١) إِنَّ لِمَدْيَنَ أَنْكَالًا وَ جَحِيمًا (١٢) وَ طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ وَ كَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيْبًا مَهِيلاً (١٤)  
 إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨)

(١). المزمّل: ١٠.

(٢). المزمّل: ٢٠.

(٣). كذا في الأصل، و الصواب: آية.

(٤). المزمّل: ٢٠.

(٥). المزمّل: ١.

(٦). المدثر: ١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٧٨

قوله: يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ أصله المزمّل؛ فأدغمت التاء في الزاي، و التزمّل: التلّف في الثوب. قرأ الجمهور: «المزمّل» بالإدغام. و قرأ أبي: «المتمزّل» على الأصل. و قرأ عكرمة بتخفيف الزاي، و مثل هذه القراءة قول امرئ القيس:

كأن ثبيراً في أفانين و بله كبير أناس في بجاد مزمّل

و هذا الخطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، و قد اختلف في معناه، فقال جماعة: إنه كان يتزمل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ بثيابه في

أول ما جاءه جبريل بالوحي فرقا منه حتى أنس به، وقيل: المعنى: يا أيها المزمّل بالنبوة وملتزم للرسالة. و بهذا قال عكرمة و كان يقرأ يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ بتخفيف الزاي و فتح الميم مشددة اسم مفعول. و قيل المعنى: يا أيها المزمّل بالقرآن. و قال الضحاك: تزمّل بثيابه لمنامه، و قيل: بلغه من المشركين سوء قول، فتزمّل في ثيابه و تدثر، فنزلت يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ و يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. و قد ثبت أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ و سَلَّمَ لما سمع صوت الملك و نظر إليه أخذته الرعدة، فأتى أهله و قال: زمّلوني دثروني، و كان خطابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ و سَلَّمَ بهذا الخطاب في أول نزول الوحي.

ثم بعد ذلك خوطب بالنبوة و الرسالة. قُمِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا أَي: قم للصلاة في الليل. قرأ الجمهور:

قُمِ بكسر الميم لالتقاء الساكنين. و قرأ أبو السّمّال بضمها اتباعا لضمه القاف. قال عثمان بن جنى:

الغرض بهذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين، فبأى حركة تحرك فقد وقع الغرض. و انتصاب الليل على الظرفية. و قيل: إن معنى قم: صلّ، عبّر به عنه و استعير له. و اختلف: هل كان هذا القيام العدى أمر به فرضا عليه أو نفلًا؟ و سيأتى إن شاء الله ما روى في ذلك. و قوله: إِلَّا قَلِيلًا استثناء من الليل، أى:

صلّ الليل كلّه إلا يسيرا منه، و القليل من الشيء: هو ما دون النصف، و قيل: ما دون السدس. و قيل:

ما دون العشر. و قال مقاتل و الكلبي: المراد بالليل هنا الثلث، و قد أغنانا عن هذا الاختلاف قوله:

نِصْفُهُ إِلَّا خ، و انتصاب «نصفه» على أنه بدل من الليل. قال الزجاج: «نصفه» بدل من الليل، و «إلا قليلا» استثناء من النصف، و الضمير في «منه» و «عليه» عائد إلى النصف. و المعنى: قم نصف الليل، أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث، أو زد عليه قليلا إلى الثلثين، فكأنه قال: قم ثلثي الليل، أو نصفه، أو ثلثه. و قيل: إن «نصفه» بدل من قوله «قليلا»، فيكون المعنى: قم الليل إلا نصفه، أو أقل من نصفه، أو أكثر من نصفه، قال الأخفش: نِصْفُهُ أَي: أو نصفه، كما يقال: أعطه درهما، درهمين، ثلاثة، يريد أو درهمين أو ثلاثة. قال الواحدي: قال المفسرون: أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث، أو زد على النصف إلى الثلثين، جعل له سعة في مدة قيامه في الليل، و خيره في هذه الساعات للقيام، فكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ و سَلَّمَ و طائفة معه يقومون على هذه المقادير، و شق ذلك عليهم، فكان الرجل لا يدري كم صَلَّى، أو كم بقى من الليل، فكان يقوم الليل كلّ حتى خفف الله عنهم، و قيل: الضميران في «منه» و «عليه» راجعان للأقل من النصف، كأنه قال: قم أقل من نصفه، أو قم أنقص من ذلك الأقل، أو أزيد منه قليلا، و هو بعيد جدّا، و الظاهر أن «نصفه» بدل من «قليلا»، و الضميران راجعان إلى النصف المبدل من «قليلا».

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٧٩

و اختلف في الناسخ لهذا الأمر، فقيل: هو قوله: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ «١» إلى آخر السورة، و قيل: هو قوله: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ «٢» و قيل: هو قوله: عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى «٣» و قيل: هو منسوخ بالصلوات الخمس، و بهذا قال مقاتل و الشافعي و ابن كيسان، و قيل: هو قوله: فَأَقْرَأْ مَا تيسَّرَ مِنْهُ «٤» و ذهب الحسن و ابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم و لو قدر حلب شاة وَ رَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْبِيًّا أَي: اقرأه على مهل مع تدبّر. قال الضحاك: اقرأه حرفا حرفا. قال الزجاج: هو أن يبين جميع الحروف، و يوفى حقها من الإشباع. و أصل الترتيل: التنضيد و التنسيق و حسن النظام، و تأكيد الفعل بالمصدر يدلّ على المبالغة على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض، و لا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم من استيفاء حركته المعترية إنا سَنُنَلِّقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا أَي: سنوحى إليك القرآن، و هو قول ثقيل. قال قتادة: ثقيل و الله فرائضه و حدوده.

قال مجاهد: حلاله و حرامه. قال الحسن: العمل به. قال أبو العالية: ثقيلًا بالوعد و الوعيد، و الحلال و الحرام. و قال محمد بن كعب: ثقيل على المنافقين و الكفار؛ لما فيه من الاحتجاج عليهم، و البيان لضلالهم، و سبّ آلهتهم. و قال السدي: ثقيل بمعنى:

كريم، و من قولهم: فلان ثقيل عليّ، أى: يكرم عليّ، قال الفراء:

ثقيلاً: رزينا ليس بالخفيف السِّفساف؛ لأنه كلام ربنا. و قال الحسين بن الفضل: ثقيلاً لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق، و نفس مزينة بالتوحيد. و قيل: وصفه بكونه ثقيلاً- حقيقة لما ثبت أن النبي صلى الله عليه و سلم كان إذا أوحى إليه و هو على ناقته وضعت جرانها «٥» على الأرض، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى «٦» عنه إن ناشئة الليل أى: ساعاته و أوقاته، لأنها تنشأ أولاً فأولاً، يقال: نشأ الشيء ينشأ؛ إذا ابتداءً و أقبل شيئاً بعد شيء فهو ناشئ، و أنشأه الله فنشأ، و منه نشأت السحاب؛ إذا بدأت، فناشئة فاعله من نشأت تنشأ فهي ناشئة. قال الزجاج: ناشئة الليل كل ما نشأ منه؛ أى حدث، فهو ناشئة. قال الواحدي: قال المفسرون: الليل كله ناشئة، و المراد أن ساعات الليل الناشئة، فاكتمى بالوصف عن الاسم الموصوف. و قيل:

إن ناشئة الليل هي النفس التي تنشأ من مضجعتها للعبادة: أى تنهض، من نشأ من مكانه: إذا نهض. و قيل:

الناشئة بالحبشية قيام الليل، و قيل: إنما يقال لقيام الليل ناشئة إذا كان بعد نوم. قال ابن الأعرابي: إذا نمت من أول الليل ثم قمت فتلك المنشأة و النشأة، و منه: ناشئة الليل. قيل: و ناشئة الليل هي: ما بين المغرب و العشاء، لأن معنى نشأ ابتداءً، و منه قول نصيب: و لو لا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسى النشأ الصغار

قال عكرمة و عطاء: إن ناشئة الليل: بدو الليل. و قال مجاهد و غيره: هي فى الليل كله؛ لأنه ينشأ بعد النهار، و اختار هذا مالك. و قال ابن كيسان: هي القيام من آخر الليل. قال فى الصحاح: ناشئة الليل أول

(١). المزمّل: ٢٠.

(٢). المزمّل: ٢٠.

(٣). المزمّل: ٢٠.

(٤). المزمّل: ٢٠.

(٥). «جرانها»: أى صدرها.

(٦). أى الوحى.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٨٠

ساعاته. و قال الحسن: هي ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح. هي أشد و طئناً قرأ الجمهور: و طئناً بفتح الواو و سكون الطاء، مقصورة، و اختار هذه القراءة أبو حاتم. و قرأ أبو العالية و ابن أبى إسحاق و مجاهد و أبو عمرو و ابن عامر و حميد و ابن محيصن و المغيرة و أبو حيوة بكسر الواو و فتح الطاء ممدودة، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، فالمعنى على القراءة الأولى: أن الصلاة فى ناشئة الليل أثقل على المصلى من صلاة النهار؛ لأن الليل للنوم. قال ابن قتيبة: المعنى أنها أثقل على المصلى من ساعات النهار، من قول العرب: اشتدّت على القوم وطأة السلطان؛ إذا ثقل عليهم ما يلزمهم منه، و منه قوله صلى الله عليه و سلم: «اللهم اشدد و طأتك على مضر». و المعنى على القراءة الثانية أنها أشدّ مواطأة، أى: موافقة، من قولهم: واطأت فلانا على كذا مواطأة و وطأة؛ إذا وافقته عليه. قال مجاهد و ابن أبى مليكة: أى أشد موافقة بين السمع و البصر و القلب و اللسان؛ لانقطاع الأصوات و الحركات فيها، و منه: لِيُوطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ «١» أى: ليوافقوا. و قال الأخفش:

أشدّ قياماً. و قال الفراء: أى أثبت للعمل، و أدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة، و الليل وقت الفراغ عن الاشتغال بالمعاش، فعبادته تدوم و لا- تنقطع. و قال الكلبي: أشدّ نشاطاً. و أقوم قيلماً أى: و أشدّ مقالاً- و أثبت قراءة؛ لحضور القلب فيها و هدوء الأصوات، و أشدّ استقامة و استمراراً على الصواب؛ لأن الأصوات فيها هادئة، و الدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلى ما يقرؤه.

قال قتادة و مجاهد: أى أصوب للقراءة و أثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم. قال أبو عليّ الفارسي: أَوْفُومٌ قِيْلًا أى: أشدّ استقامته لفراغ البال بالليل.

قال الكلبي: أى: أيّين قولاً- بالقرآن. و قال عكرمة: أى: أتمّ نشاطاً و إخلاصاً، و أكثر بركه. و قال ابن زيد: أجدر أن يتفقّه فى القرآن، و قيل: أعجل إجابةً للدعاء. إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا قرأ الجمهور سَبْحًا بالحاء المهملة، أى: تصرفاً فى حوائجك و إقبالا و إدباراً، و ذهاباً و مجيئاً، و السبح: الجرى و الدوران، و منه السابح فى الماء لتقلبه ببدنه و رجله، و فرس سابح: أى: شديد الجرى. و قيل: السبح:

الفراغ، أى: إن لك فراغاً بالنهار للحاجات؛ فضل بالليل. قال ابن قتيبة: أى تصرفاً و إقبالا و إدباراً فى حوائجك و أشغالك. و قال الخليل: إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا أى: نوماً، و التسيح: التمّدد. قال الزجاج: المعنى: إن فاتك فى الليل شىء فلك فى النهار فراغ للاستدراك. و قرأ يحيى بن يعمر و أبو وائل و ابن أبى عبله سبخاً بالخاء المعجمة، قيل: و معنى هذه القراءة: الخفة و السعة و الاستراحة. قال الأصمعي:

يقال: سَبَّخَ اللهُ عَنْكَ الحَمَى، أى: خفّفها، و سَبَّخَ الحَرَّ: فتر و خفّ، و منه قول الشاعر:

فَسَبَّخْ عَلَيْكَ الهَمَّ و اعلم بأنه إذا قدّر الرّحمن شيئاً فكائن

أى: خفف عنك الهَمَّ. و التسيخ من القطن ما يسيخ بعد النّدف. و منه قول الأخطل:

فأرسلوهنّ يذرين التراب كما يذرى سبائخ قطن ندف أوتار

قال ثعلب: السَّبَّخُ بالخاء المعجمة: التردّد و الاضطراب، و السَّبَّخُ: السكون. و قال أبو عمرو: السَّبَّخُ:

النوم و الفراغ وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ أى: ادعه بأسمائه الحسنى، و قيل: اقرأ باسم ربك فى ابتداء صلاتك،

(١). التوبة: ٣٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٨١

و قيل: اذكر اسم ربك فى وعده و وعيده؛ لتوفّر على طاعته و تبعده عن معصيته، و قيل المعنى: دم على ذكر ربك ليلاً و نهاراً و استكثر من ذلك. و قال الكلبي: المعنى صلّ لربك. وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا أى: انقطع إليه انقطاعاً بالاشتغال بعبادته، و التبتل: الانقطاع، يقال: بتلت الشىء: أى قطعتة و ميزته من غيره، و صدقته بتلته، أى: منقطعه من مال صاحبها، و يقال للراهب: متبتل؛ لانقطاعه عن الناس، و منه قول الشاعر (١):

تضىء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب (٢) متبتل.

و وضع تبتيلاً مكان تبتلاً لرعاية الفواصل. قال الواحدي: و التبتل: رفض الدنيا و ما فيها، و التماس ما عند الله. رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ قرأ حمزة و الكسائي و أبو بكر و ابن عامر بجرّ «ربّ» على النعت «لربك» أو البدل منه، أو البيان له. و قرأ الباقون برفعه على أنه مبتدأ و خبره لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو ربّ المشرق. و قرأ زيد بن عليّ بنصبه على المدح. و قرأ الجمهور: الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ مفردين، و قرأ ابن مسعود و ابن عباس «المشارق و المغارب» على الجمع، و قد قدّمنا تفسير المشرق و المغرب، و المشرقين و المغربين، و المشارق و المغارب فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا أى: إذا عرفت أنه المختصّ بالربوبية فاتخذه وكيلاً، أى: قائماً بأمورك، و عوّل عليه فى جميعها، و قيل: كفيلاً بما وعدك من الجزاء و النصر وَ اضْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ من الأذى و السب و الاستهزاء، و لا تجزع من ذلك وَ اهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا أى: لا تعرّض لهم، و لا تشتغل بمكافأتهم، و قيل: الهجر الجميل: الّذى لا- جزع فيه، و هذا كان قبل الأمر بالقتال وَ دَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أى: دعنى و إيّاهم، و لا تهتم بهم، فإنى أكفيك

أمرهم، و أنتقم لك منهم. قيل: نزلت في المطعمين يوم بدر، و هم عشرة، و قد تقدّم ذكرهم. و قال يحيى بن سلّام: هم بنو المغيرة. و قال سعيد بن جبير: أخبرت أنهم اثنا عشر. أُولَى النَّعْمَةِ أَي: أرباب الغنى و السعة و الترفه و اللذة في الدنيا وَ مَهْلُهُمْ قَلِيلًا أَي: تمهيلة- قليلا- على أنه نعت لمصدر محذوف، أو زمانا قليلا- على أنه صفة لزمان محذوف، و المعنى: أمهلهم إلى انقضاء آجالهم، و قيل: إلى نزول عقوبة الدنيا بهم كيوم بدر، و الأول أولى لقوله: إِنَّ لَمَدِينًا أَنْكَالًا و ما بعده، فإنه وعيد لهم بعذاب الآخرة، و الأنكال: جمع نكل، و هو القيد، كذا قال الحسن و مجاهد و غيرهما، و قال الكلبي: الأنكال: و الأغلال، و الأول أعرف في اللغة، و منه قول الخنساء:

أتوك فقطعت أنكالهم (٣) و قد كنّ قبلك لا تقطع

و قال مقاتل: هي أنواع العذاب الشديد. و قال أبو عمران الجوني: هي قيود لا تحلّ وَ جَحِيمًا أَي: نارا مؤججة وَ طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ أَي: لا يسوغ في الحلق، بل ينشب فيه، فلا ينزل و لا يخرج.

(١). هو امرؤ القيس.

(٢). «ممسى راهب»: أي إمساؤه.

(٣). في تفسير القرطبي (١٩/٤٦): دعاك فقطعت أنكاله.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٨٢

قال مجاهد: هو الزقوم. و قال الزجاج: هو الضريع كما قال: لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (١) قال: و هو شوكة العوسج. قال عكرمة: هو شوكة يأخذ بالحلق لا يدخل و لا يخرج، و الغصة: الشجيرة في الحلق، و هو ما ينشب فيه من عظم أو غيره، و جمعها: غصص وَ عَذَابًا أَلِيمًا أَي: و نوعا آخر من العذاب غير ما ذكر يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ انْتِصَابَ الظرف إما بذرنى، أو بالاستقرار المتعلق به لدينا، أو هو صفة لعذاب فيتعلق بمحذوف، أَي: عذابا واقعا يوم ترجف، أو متعلق باليما. قرأ الجمهور: تَرْجُفُ بفتح التاء و ضم الجيم مبنيا للفاعل، و قرأ زيد بن عليّ على البناء للمفعول، مأخوذ من أرجفها، و المعنى:

تتحرك و تضطرب بمن عليها، و الرجفة: الزلزلة و الرعدة الشديدة وَ كَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا أَي:

و تكون الجبال، و إنما عبر عنه بالماضى لتحقيق وقوعه، و الكثيب: الرمل المجتمع، و المهيل: الذي يمرّ تحت الأرجل. قال الواحدى: أي رملا سائلا، يقال لكل شيء أرسلته إرسالا من تراب أو طعام: أهله هिला.

قال الضحاك و الكلبي: المهيل: الذي إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها، و إذا أخذت أسفله انهال، و منه قول حسان:

عرفت ديار زينب بالكثيب كخطّ الوحي في الورق القشيب (٢)

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ الْخَطَابَ لِأهل مكة، أو لكفار العرب، أو لجميع الكفار، و الرسول محمد صلّى الله عليه و سلم، و المعنى: يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم كما أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا يعنى موسى فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْهِ، و كذّبه، و لم يؤمن بما جاء به، و محل الكاف النصب على أنها نعت لمصدر محذوف، و المعنى: إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا فعصيتموه، كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصاه فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا أَي: شديدا ثقيلا غليظا، و المعنى: عاقبنا فرعون عقوبة شديدة غليظة بالغرق؛ و فيه تخويف لأهل مكة أنه سينزل بهم من العقوبة مثل ما نزل به؛ و إن اختلف نوع العقوبة. قال الزجاج: أي ثقيلا غليظا، و منه قيل للمطر: وابل. و قال الأَخْفَش: شديدا، و المعنى متقارب، و منه طعام وبيبل؛ إذا كان لا يستمرأ، و منه قول الخنساء:

لقد أكلت بجيلة يوم لاقت فوارس مالك أكلا وبيلا

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ أَي: كيف تقون أنفسكم إن كَفَرْتُمْ أَي: إن بقيتم على كفركم يَوْمًا أَي: عذاب يوم يَجْعَلُ الْوَلِدَانَ شِيبًا لشدّه هولهُ، أَي: يصير الولدان شيوخا، والشيب: جمع أشيب، وهذا يجوز أن يكون حقيقة، وأنهم يصيرون كذلك، أو تمثيلا؛ لأن من شاهد الهول العظيم تقاصرت قواه، و ضعفت أعضاؤه، و صار كالشيخ فى الضعف و سقوط القوّة، و فى هذا تفرّيع لهم شديد و توبيخ عظيم. قال الحسن: أى كيف تتقون يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم، و كذا قرأ ابن مسعود و عطية، و «يوما» مفعول به لتتقون. قال ابن الأنبارى: و منهم من نصب اليوم بكفرتم، و هذا قبيح. و الولدان: الصبيان. ثم زاد فى

(١). الغاشية: ٦.

(٢). «الوحى»: - هنا- الكتابة. «القشيب»: الجديد.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٨٣

وصف ذلك اليوم بالشدّة فقال: السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ أَي: متشققة به بشدّته و عظيم هولهُ، و الجملة صفة أخرى ليوم، و الباء سببية، و قيل: هى بمعنى فى، أَي: منفطر فيه، و قيل: بمعنى اللام، أَي: منفطر له، و إنما قال منفطر و لم يقل منفطرة لتنزيل السماء منزلة شىء لكونها قد تغيرت، و لم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشىء.

و قال أبو عمرو بن العلاء: لم يقل منفطرة؛ لأن مجازها «١» السقف، كما قال الشاعر:

فلو رفع السَّماء إليه قوما لحقنا بالسَّماء و بالسحاب

فيكون هذا كما فى قوله: وَ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَيْفًا مَّحْفُوظًا و قال الفراء: السماء تذكر و تؤنث. و قال أبو على الفارسى: هو من باب الجراد المنتشر، و الشجر الأخضر، و أعجازُ نخلٍ مُنْقَعِرٍ «٢» قال أيضا: أى السماء ذات انفطار كقولهم: امرأة مرضع، أى: ذات إرضاع على طريق النسب، و انفطارها لنزول الملائكة، كما قال: إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ «٣» و قوله: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ «٤» و قيل: منفطر به، أَي: بالله، و المراد بأمره، و الأوّل أولى كان وَعْدُهُ مَفْعُولًا أَي:

و كان وعد الله بما وعد به من البعث و الحساب و غير ذلك كائنا لا محالة، و المصدر مضاف إلى فاعله، أو:

و كان وعد اليوم مفعولا، فالمصدر مضاف إلى مفعوله. و قال مقاتل: كان وعده أن يظهر دينه على الدّين كلّهُ.

و قد أخرج أحمد و مسلم و أبو داود و النسائي، و محمد بن نصر فى كتاب الصلاة، و البيهقى فى سننه، عن سعد بن هشام قال: قلت لعائشة: أنبئنى عن قيام رسول الله صلى الله عليه و سلم، قالت: أ لست تقرأ هذه السورة يا أَيُّهَا الْمُرَّمَّلُ «٥» قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل فى أوّل هذه السورة، فقام رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم، و أمسك الله خاتمها فى السماء اثنى عشر شهرا، ثم أنزل التخفيف فى آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعا من بعد فرضه» و قد روى هذا الحديث عنها من طرق.

و أخرج ابن أبى شيبه و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و محمد بن نصر و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس قال: لما نزلت أوّل المزمّل كانوا يقومون نحوا من قيامهم فى شهر رمضان حتى نزل آخرها، و كان بين أوّلها و آخرها نحو من سنة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن نصر عن أبى عبد الرحمن السّلمى قال: لما نزلت يا أَيُّهَا الْمُرَّمَّلُ قاموا حولا حتى و رمت أقدامهم و سوقهم حتى نزلت: فَأَقْرُوا ما تيسّر منه «٦» فاستراح الناس. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن نصر و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، من طريق عكرمه عن ابن عباس قال: فى المزمّل قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا- نِصْفَهُ نَسَخْتَهَا الْآيَةَ الَّتِي فِيهَا عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَأَقْرُوا ما تيسّر مِنَ الْقُرْآنِ و ناشئه الليل أوّله.

كانت صلاتهم أوّل الليل. يقول: هذا أجدر أن تحصوا ما فرض الله عليكم من قيام الليل، و ذلك أن الإنسان

(١). «مجازها»: معناها.

(٢). القمر: ٢٠.

(٣). الانفطار: ١.

(٤). الشورى: ٥.

(٥). المزمل: ١.

(٦). المزمل: ٢٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٨٤

إذا نام لم يدر متى يستيقظ. وقوله: أَقْوَمُ قِيلاً هو أجدر أن يفقه قراءة القرآن، وقوله: إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا يقول: فراغا طويلا- وأخرج الحاكم و صححه، عنه في قوله: يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ قال: زملت هذا الأمر فقم به. وأخرج ابن المنذر عنه في الآية أيضا قال: يتزمل «١» بالثياب. وأخرج الفريابي عن أبي صالح عنه أيضا وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَزْتِيلًا قال: تقرأ آيتين ثلاثا ثم تقطع لا تهدر. وأخرج ابن أبي شيبة و عبد بن حميد، و ابن منيع في مسنده، و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و محمد بن نصر عنه أيضا وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَزْتِيلًا قال: بينه تبيينا. وأخرج العسكري في المواعظ، عن علي بن أبي طالب مرفوعا نحوه.

وأخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن نصر، و الحاكم و صححه، عن عائشة «أن النبي صلى الله عليه و سلم كان إذا أوحى إليه و هو على ناقته وضعت جرانها، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه، و تلت: إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن نصر، و البيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ قال: قيام الليل بلسان الحبشة، إذا قام الرجل قالوا:

نشأ. و أخرج البيهقي عنه قال ناشئته الليل أوله. و أخرج ابن المنذر و ابن نصر عنه أيضا قال: الليل كله ناشئة. و أخرج ابن أبي شيبة و ابن أبي حاتم، و الحاكم و صححه، عن ابن مسعود قال: ناشئته الليل بالحبشة قيام الليل. و أخرج ابن أبي شيبة في المصنف، و ابن نصر، و البيهقي في سننه، عن أنس بن مالك قال: ناشئته الليل ما بين المغرب و العشاء. و أخرج عبد بن حميد و ابن نصر و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و الحاكم في الكنى، عن ابن عباس في قوله: إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا قال: السبح الفراغ للحاجة و النوم. و أخرج أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و البيهقي في الدلائل، عن عائشة قالت:

لما نزلت وَ ذُرِّي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَ مَهْلَهُمْ قَلِيلًا لم يكن إلا يسيرا حتى كانت وقعة بدر. و أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا قال: قيودا. و أخرج عبد بن حميد، و عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و البيهقي عن ابن عباس وَ طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ قال: شجرة الزقوم. و أخرج الحاكم و صححه عنه في قوله: كَثِيرًا مَهِيلًا قال: المهيل اللى إذا أخذت منه شيئا تبعك آخره. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا كَثِيرًا مَهِيلًا قال: الرمل السائل، و في قوله: أَخْذًا وَبِيًّا قال: شديدا. و أخرج الطبراني و ابن مردويه عنه أيضا «أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قرأ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا قال: ذلك يوم القيامة، و ذلك يوم يقول الله لآدم: قم فابعث من ذريتك بعثا إلى النار، قال: من كم يا رب؟ قال: من كل ألف تسعمائة و تسعة و تسعين، و ينجو واحد، فاشتد ذلك على المسلمين، فقال حين أبصر ذلك في وجوههم: إن بنى آدم كثير، و إن يأجوج و مأجوج من ولد آدم، إنه لا يموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه ألف رجل، ففيهم و في أشباههم جنه لكم». و أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود نحوه بأخصر منه. و أخرج الفريابي و ابن جرير و ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن

(١). في الدر المنثور (٨/ ٣١٢): يتدثر.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٨٥

ابن عباس في قوله: السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ قَالَ: ممتلئ، بلسان الحبشة. و أخرج ابن أبي حاتم عنه قال: مثقله موقرة. و أخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا في الآية قال: يعنى تشقق السماء.

### [سورة المزمل (٧٣): الآيات ١٩ الى ٢٠]

إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَ اللَّهُ يُعَدِّدُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصِيَهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَ مَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَ أَعْظَمَ أَجْرًا وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠)

الإشارة بقوله: إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ: و التذكرة: الموعظة، و الإشارة إلى جميع آيات القرآن، لا إلى ما فى هذه السورة فقط فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا أى: اتخذ بالطاعة التى أهم أنواعها التوحيد إلى ربّه طريقا توصله إلى الجنة إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ معنى أدنى: أقل، استعير له الأدنى لأن المسافة بين الشئيين إذا دنت قل ما بينهما وَ نِصْفَهُ معطوف على أدنى وَ ثُلُثَهُ معطوف على نصفه، و المعنى: أن الله يعلم أن رسوله صلى الله عليه و سلم يقوم أقل من ثلثى الليل، و يقوم نصفه، و يقوم ثلثه، و بالنصب قرأ ابن كثير و الكوفيون، و قرأ الجمهور: وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ بالجرّ، عطفا على ثلثى الليل، و المعنى: أن الله يعلم أن رسوله صلى الله عليه و سلم يقوم أقل من ثلثى الليل، و أقل من نصفه، و أقل من ثلثه، و اختار قراءة الجمهور أبو عبيد و أبو حاتم لقوله: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فكيف يقومون نصفه و ثلثه و هم لا يحصونه.

و قال الفراء: القراءة الأولى أشبه بالصواب؛ لأنه قال: أقل من ثلثى الليل، ثم فسر القلة. وَ طَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ معطوف على الضمير فى تقوم، أى: و تقوم ذلك القدر معك طائفة من أصحابك وَ اللَّهُ يُعَدِّدُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ أى: يعلم مقادير الليل و النهار على حقائقها، و يختصّ بذلك دون غيره؛ و أنتم لا تعلمون ذلك على الحقيقة. قال عطاء: يريد لا يفوته علم ما تفعلون، أى: أنه يعلم مقادير الليل و النهار، فيعلم قدر العدى تقومونه من الليل عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ أن لن تطيقوا علم مقادير الليل و النهار على الحقيقة، و فى «أن» ضمير شأن محذوف، و قيل المعنى: لن تطيقوا قيام الليل. قال القرطبي: و الأول أصح؛ فإن قيام الليل ما فرض كله قط. قال مقاتل و غيره: لما نزل: قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا- نَصِيْفُهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا- أَوْ زِدْ عَلَيْهِ شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِم، و كان الرجل لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ، فانتفتحت أقدامهم و انتفعت ألوانهم، فرحمهم الله، و خفف عنهم، فقال: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ أى: علم أن لن تحصوه؛ لأنكم إن زدتم ثقل عليكم، و احتجتم إلى تكلف ما ليس فرضا، و إن نقصتم شق ذلك عليكم فتاب عَلَيْكُمْ أى: فعاد عليكم بالعفو، و رخص لكم فى ترك القيام. و قيل: فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم، و أصل التوبة: الرجوع، كما تقدّم؛ فالمعنى: رجع بكم من التثقل إلى التخفيف، و من العسر إلى اليسر فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ أى: فاقروا فى الصلاة بالليل ما خفّ عليكم و تيسر لكم منه؛

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٨٦

من غير أن ترقبوا وقتا. قال الحسن: هو ما نقرأ فى صلاة المغرب و العشاء. قال السدى: ما تيسر منه هو مائة آية. قال الحسن: أيضا



من قرأ مائة آية في ليله لم يحاجه القرآن: و قال كعب: من قرأ في ليله مائة آية كتب من القانتين، و قال سعيد: خمسون آية، و قيل: معنى فَأَقْرَأُوا ما تيسر منه فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، و الصلاة تسمى قرآنا كقوله: وَقُرْآنَ الْفَجْرِ (١) قيل: إن هذه الآية نسخت قيام الليل و نصفه، و النقصان من النصف، و الزيادة عليه. فيحتمل أن يكون ما تضمنته هذه الآية فرضا ثابتا، و يحتمل أن يكون منسوخا لقوله: وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٢).

قال الشافعي: الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين، فوجدنا سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس. و قد ذهب قوم إلى أن قيام الليل نسخ في حقه صلى الله عليه و سلم و في حق أمته. و قيل: نسخ التقدير بمقدار، و بقي أصل الوجوب. و قيل: إنه نسخ في حق الأمة، و بقي فرضا في حقه صلى الله عليه و سلم، و الأولى القول بنسخ قيام الليل على العموم في حقه صلى الله عليه و سلم و في حق أمته، و ليس في قوله: فَأَقْرَأُوا ما تيسر منه ما يدل على بقاء شيء من الوجوب؛ لأنه إن كان المراد به القراءة من القرآن فقد وجدت في صلاة المغرب و العشاء و ما يتبعهما من النوافل المؤكدة، و إن كان المراد به الصلاة من الليل؛ فقد وجدت صلاة الليل بصلاة المغرب و العشاء و ما يتبعهما من التطوع. و أيضا الأحاديث الصحيحة المصرحة بقول السائل لرسول الله صلى الله عليه و سلم: هل علي غيرها؟ يعني الصلوات الخمس فقال: «لا، إلا أن تطوع» تدل على عدم وجوب غيرها، فارتفع بهذا وجوب قيام الليل و صلاته على الأمة، كما ارتفع وجوب ذلك على النبي صلى الله عليه و سلم بقوله:

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ (٣) قال الواحدي: قال المفسرون في قوله: فَأَقْرَأُوا ما تيسر منه كان هذا في صدر الإسلام، ثم نسخ بالصلوات الخمس عن المؤمنين، و ثبت على النبي صلى الله عليه و سلم خاصة، و ذلك قوله: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ. ثم ذكر سبحانه عذرهم فقال: عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى فَلَا يَطِيقُونَ قِيَامَ اللَّيْلِ وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أَي: يسافرون فيها للتجارة و الأرباح يطلبون من رزق الله ما يحتاجون إليه في معاشهم، فلا يطيقون قيام الليل و آخرون يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يعني المجاهدين فلا يطيقون قيام الليل. ذكر سبحانه ها هنا ثلاثة أسباب مقتضية للترخيص، و رفع وجوب قيام الليل، فرفعه عن جميع الأمة لأجل هذه الأعذار التي تنوب بعضهم. ثم ذكر ما يفعلونه بعد هذا الترخيص فقال: فَأَقْرَأُوا ما تيسر منه و قد سبق تفسيره قريبا، و التكرير للتأكيد وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ يعني المفروضة، و هي الخمس لوقتها وَ آتُوا الزَّكَاةَ يعني الواجبة في الأموال. و قال الحارث العكلي: هي صدقة الفطر؛ لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك، و قيل: صدقة التطوع، و قيل: كل أفعال الخير وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا أَي: أنفقوا في سبيل الخير من أموالكم إنفاقا حسنا. و قد مضى تفسيره في سورة الحديد.

قال زيد بن أسلم: القرض الحسن: النفقة على الأهل، و قيل: النفقة في الجهاد، و قيل: هو إخراج الزكاة

(١). الإسراء: ٧٨.

(٢). الإسراء: ٧٩.

(٣). الإسراء: ٧٩.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٨٧

المفترضة على وجه حسن، فيكون تفسيره لقوله: وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ الْأَوَّلَ أُولَى لقوله: وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ ظَاهَرَهُ الْعَمُومُ، أَي: أي خير كان ممّا ذكر و ممّا لم يذكر هو خيرا وَ أَعْظَمَ أَجْرًا مما تؤخرونه إلى عند الموت، أو توصون به ليخرج بعد موتكم، و انتصاب خيرا على أنه ثانى مفعولى تجدوه، و ضمير هو ضمير فصل، و بالنصب قرأ الجمهور، و قرأ أبو السيمال و ابن السيميق بالرفع على أن يكون هو مبتدأ، و خير خبره، و الجملة في محل نصب على أنها ثانى مفعولى تجدوه، قال

أبو زيد: و هي لغة تميم يرفعون ما بعد ضمير الفصل، و أنشد سيبويه:

تحنّ إلى ليلي و أنت تركتهاو كنت عليها بالملاء أنت أقدر

و قرأ الجمهور أيضاً: وَ أَعْظَمَ بِالنَّصَبِ عَطْفًا عَلَى خَيْرًا: و قرأ أبو السَّيِّمَالِ و ابن السَّمِيقِ بالرفع، كما قرأ برفع خَيْرٍ و انتصاب أَجْرًا على التمييز وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ أَي: اطلبوا منه المغفرة لذنوبكم؛ فإنكم لا تخلون من ذنوب تقترفونها إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَي: كثير المغفرة لمن استغفره، كثير الرحمة لمن استرحمه.

و قد أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الطبراني عن ابن عباس عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ قَالَ: مائة آية. و أخرج الدار قطنى، و البيهقى فى سننه، و حسنه، عن قيس بن أبى حازم قال: «صليت خلف ابن عباس، فقرأ فى أول ركعة بالحمد لله رب العالمين، و أول آية من البقرة ثم ركع، فلما انصرفنا أقبل علينا فقال: إن الله يقول: فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ قَالَ ابن كثير: و هذا حديث غريب جداً، لم أره إلما فى معجم الطبراني. و أخرج أحمد، و البيهقى فى سننه، عن أبى سعيد قال: «أمرنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أن نقرأ بفاتحة الكتاب و ما تيسر». و قد قدمنا فى البحث الأول من هذه السورة ما روى أن هذه الآيات المذكورة هنا هى النسخة لوجوب قيام الليل، فارجع إليه.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٨٨

## سورة المدثر

### إشارة

و هى مكية بلا خلاف و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة المدثر بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، و سيأتى أن أول هذه السورة أول ما نزل من القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة المدثر (٧٤): الآيات ١ الى ٣٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَ رَبِّكَ فَكْبُرُ (٣) وَ تِيَابِكَ فَطَهَّرْ (٤)

وَ الرَّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَ لَا تَمُنَّنِ تَشْتَكِرُ (٦) وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩)

عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذُرْنِي وَ مَنِ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَ جَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (١٢) وَ بَيْنَ شُهُوداً (١٣) وَ مَهَّدْتُ لَهُ

تَمْهيداً (١٤)

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ (١٨) فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩)

ثُمَّ قَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤)

إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُضِلِّيهِ سَقَرَ (٢٦) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَ لَا تَدْرُ (٢٨) لَوْ أَحَ لَلْبَشَرِ (٢٩)

عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)

قال الواحدى: قال المفسرون: لما بدئ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ بالوحي أتاه جبريل، فرآه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ على سرير بين السماء و الأرض كالنور المتلألئ، ففزع و وقع مغشياً عليه، فلما أفاق دخل على خديجة و دعا بماء فصبّه عليه، و

قال: «دثروني دثروني» فدثروه بقطيفه، فقال: يا أَيُّهَا الْمِدَّثُرُّ - قُمْ فَأَنْذِرْ و معنى يا أَيُّهَا الْمِدَّثُرُّ: يا أَيُّهَا الَّذِي قَدْ تَدَثَّرَ بِثِيَابِهِ، أَى: تَغَشَّى بِهَا، وَ أَصْلُهُ الْمَتَدَثِّرُ، فَأَدْغَمْتَ التَّاءَ فِي الدَّالِ لِتَجَانِسِهِمَا. وَ قَدْ قَرَأَ الْجُمْهُورُ بِالْإِدْغَامِ، وَ قَرَأَ أَبِي «الْمَتَدَثِّرُ» عَلَى الْأَصْلِ، وَ الدَّثَارُ: هُوَ مَا يَلْبَسُ فَوْقَ الشَّعَارِ، وَ الشَّعَارُ: هُوَ الْعَلْدَى عَلَى الْجَسَدِ، وَ قَالَ عِكْرَمَةُ: الْمَعْنَى يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ بِالنَّبُوَّةِ وَ أَثْقَالِهَا. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَ هَذَا مَجَازٌ بَعِيدٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا إِذْ ذَاكَ. قُمْ فَأَنْذِرْ أَى: انْهَضْ فَخَوْفَ أَهْلِ مَكَّةَ، وَ حَذَّرْهُمْ الْعَذَابَ إِنْ لَمْ يَسْلَمُوا، أَوْ قُمْ مِنْ مَضْجَعِكَ، أَوْ قُمْ قِيَامَ عَزْمٍ وَ تَصْمِيمٍ. وَ قِيلَ: الْإِنْذَارُ هُنَا هُوَ إِعْلَامُهُمْ بِنَبُوَّتِهِ، وَ قِيلَ:

إِعْلَامُهُمْ بِالتَّوْحِيدِ. وَ قَالَ الْفَرَاءُ: الْمَعْنَى قُمْ فَصَلِّ وَ أَمْرٌ بِالصَّلَاةِ وَ رَبِّكَ فَكَبِّرْ أَى: وَ اخْتَصَّ سَيِّدَكَ وَ مَالِكَ وَ مَصْلَحَ أُمُورِكَ بِالتَّكْبِيرِ، وَ هُوَ وَصْفُهُ سُبْحَانَهُ بِالكِبْرِيَاءِ وَ الْعِظَمَةِ، وَ أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكَ كَمَا يَعْتَقِدُهُ الْكُفَّارُ، وَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ، أَوْ وَلَدٌ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: الْمُرَادُ بِهِ تَكْبِيرُ التَّقْدِيسِ وَ التَّنْزِيهِ بِخَلْقِ الْأَضْدَادِ وَ الْأَنْدَادِ وَ الْأَصْنَامِ، وَ لَا يَتَّخِذُ وَلِيًّا غَيْرَهُ، وَ لَا يَعْبُدُ سِوَاهُ، وَ لَا يَرَى لغيره فَعَلًا إِلَّا لَهُ، وَ لَا نِعْمَةً إِلَّا مِنْهُ. قَالَ الزَّجَّاجُ: إِنْ الْفَاءُ فِي «فَكْبِرْ» دَخَلَتْ عَلَى مَعْنَى الْجِزَاءِ كَمَا دَخَلَتْ فِي «فَأَنْذِرْ». وَ قَالَ ابْنُ جَنِيٍّ: هُوَ كَقَوْلِكَ زَيْدًا فَاضْرِبْ، أَى: زَيْدًا اضْرِبْ، فَالْفَاءُ زَائِدَةٌ وَ ثِيَابُكَ فَطَهَّرَ الْمُرَادُ بِهَا الثِّيَابَ

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٨٩

الملبوسة على ما هو المعنى اللغوي، أمره الله سبحانه بتطهير ثيابه و حفظها عن النجاسات، و إزالة ما وقع فيها منها، و قيل: المراد بالثياب العمل، و قيل: القلب، و قيل: النفس، و قيل: الجسم، و قيل: الأهل، و قيل: الدين، و قيل: الأخلاق. قال مجاهد و ابن زيد و أبو رزين: أَى عملك فأصلح. و قال قتادة: نفسك فطهر من الذنب، و الثياب عبارة عن النفس. و قال سعيد بن جبيرة: قلبك فطهر، و من هذا قول امرئ القيس:

فسلى ثيابي من ثيابك تنسل «١» و قال عكرمة: المعنى البسها على غير غدره و غير فجرة «٢». و قال: أما سمعت قول الشاعر:

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر ليست و لا من غدره أتقنع

و الشاعر هو غيلان بن سلمة الثقفي. و من إطلاق الثياب على النفس قول عنترة:

فشككت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرّم

و قول الآخر «٣»:

ثياب بني عوف طهاري نقيّة «٤» و قال الحسن و القرظي: إِنْ الْمَعْنَى: وَ أَخْلَاقُكَ فَطَهَّرْ؛ لِأَنَّ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَحْوَالِهِ اشْتِمَالِ ثِيَابِهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَ مِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

و يحيى لا يلام بسوء خلق و يحيى طاهر الأثواب حرّ

و قال الزجّاج: المعنى و ثيابك فقصر؛ لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسات إذا انجز على الأرض، و به قال طاوس، و الأوّل أولى لأنه المعنى الحقيقي. و ليس في استعمال الثياب مجاز عن غيرها لعلاقة مع قرينه ما يدل على أنه المراد عند الإطلاق، و ليس في مثل هذا الأصل، أعنى: الحمل على الحقيقة عند الإطلاق خلاف، و في الآية دليل على وجوب طهارة الثياب في الصلاة و الرّجز فَاهْجُرْ الرّجزَ مَعْنَاهُ فِي اللَّغَةِ:

العذاب، و فيه لغتان كسر الراء و ضمّها، و سمى الشرك و عبادة الأوثان رجزا لأنها سبب الرجز. قرأ الجمهور: الرجز بكسر الراء. و قرأ الحسن و مجاهد و عكرمة و حفص و ابن محيصن بضمها. و قال مجاهد و عكرمة: الرّجز الأوثان كما في قوله: فَاجْتَبِئُوا الرّجسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ بِهِ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ. وَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: الرّجز: المأثم، و الهجر: الترك. و قال قتادة: الرّجز: إساف و نائلة، و هما صنمان كانا عند البيت. و قال أبو العالیه و الربيع و الكسائي: الرّجز بالضم الوثن و بالكسر العذاب. و قال السدي: الرّجز بضم الراء الوعيد، و الأوّل أولى وَ لَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ قَرَأَ الْجُمْهُورُ لَا تَمْنُنْ بِفِكَ الْإِدْغَامِ، وَ قَرَأَ الْحَسَنُ

(١). و صدر البيت: و إن كنت قد ساءت ك منى خليفة.

(٢). «الفجرة»: الكذبة العظيمة.

(٣). هو ابن أبي كبشة، و ينسب لامرئ القيس.

(٤). و عجز البيت: و أوجههم بيض المسافر غرّان.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٩٠

و أبو اليمان (١) و الأشهب العقيلي بالإدغام، و قرأ الجمهور: تَسْتَكْتِرُ بالرفع على أنه حال، أى: و لا تمنن حال كونك مستكثرا، و قيل: على حذف أن، و الأصل: و لا تمنن أن تستكثر، فلما حذف رفع. قال الكسائي: فإذا حذف أن رفع الفعل. و قرأ يحيى بن وثاب و الأعمش تَسْتَكْتِرُ بالنصب؛ على تقدير أن و بقاء عملها، و يؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود «و لا تمنن أن تستكثر» بزيادة أن. و قرأ الحسن أيضا و ابن أبي عبلة تَسْتَكْتِرُ بالجزم على أنه بدل من تمنن كما فى قوله: يَلْتَقِ أَثَامًا - يُضَاعَفُ لَهُ (٢)، و قول الشاعر:

متى تأتانا تلمم بنا فى ديارنا تجد حطبا جزلا و نارنا تأججا

أو الجزم لإجراء الوصل مجرى الوقف، كما فى قول امرئ القيس:

فاليوم أشرب غير مستحقب إنما (٣) من الله و لا واغل

بتسكين أشرب. و قد اعترض على هذه القراءة؛ لأن قوله «تستكثر» لا يصح أن يكون بدلا من «تمنن»، لأن المن غير الاستكثار، و لا يصح أن يكون جوابا للنهى.

و اختلف السلف فى معنى الآية، فقيل: المعنى: لا تمنن على ربك بما تتحملة من أعباء النبوة كالذى يستكثر ما يتحملة بسبب الغير، و قيل: لا تعط عطية تلمس فيها أفضل منها، قاله عكرمة و قتادة. قال الضحاك:

هذا ما حزمه الله على رسوله؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب و أجل الأخلاق، و أباحه لأمته. و قال مجاهد:

لا- تضعف أن تستكثر من الخير، من قولك: «حبل متين» إذا كان ضعيفا. و قال الربيع بن أنس: لا تعظم عملك فى عينك أن تستكثر من الخير. و قال ابن كيسان: لا تستكثر عملك فتراه من نفسك، إنما عملك منه من الله عليك؛ إذ جعل لك سبيلا إلى عبادته. و قيل: لا تمنن بالنبوة و القرآن على الناس فتأخذ منهم أجرا تستكثر به. و قال محمد بن كعب: لا تعط مالك مصانعة. و قال زيد بن أسلم: إذا أعطيت عطية فأعطها لربك. وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ أى: لوجه ربك فاصبر على طاعته و فرائضه، و المعنى: لأجل ربك و ثوابه.

و قال مقاتل و مجاهد: اصبر على الأذى و التكذيب. و قال ابن زيد: حملت أمرا عظيما فحاربتك العرب و العجم؛ فاصبر عليه لله. و قيل: اصبر تحت موارد القضاء لله، و قيل: فاصبر على البلوى، و قيل: على الأوامر و النواهي. فإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ الناقور: فاعول من النقر، كأنه من شأنه أن ينقر فيه للتصويت، و النقر فى كلام العرب: الصوت، و منه قول امرئ القيس:

أخفّضه بالنقر لَمَّا علوته (٤)

(١). فى تفسير القرطبي: أبو السّمّال.

(٢). الفرقان: ٦٨ - ٦٩.

(٣). «استحقب الإثم»: ارتكبه.

(٤). و عجز البيت: و يرفع طرفا غير خاف غضيف.

ويقولون: نَقَرُ باسم الرجل إذا دعاه، والمراد هنا النفخ في الصور، والمراد النفخة الثانية، وقيل: الأولى، وقد تقدّم الكلام في هذا في سورة الأنعام و سورة النحل، و الفاء للسبيبة، كأنه قيل: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أمرهم، و العامل في «إذا» ما دلّ عليه قوله: فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ - عَلَى الْكَافِرِينَ فَإِنْ مَعْنَاهُ عَسِرَ الْأَمْرُ عَلَيْهِمْ، وقيل: العامل فيه ما دلّ على فَذَلِكَ لأنه إشارة إلى النقر، و «يومئذ» بدل من «إذا»، أو مبتدأ و خبره «يوم عسير»، و الجملة خبر فذلك، وقيل: هو ظرف للخبر؛ لأن التقدير وقوع يوم عسير، و قوله: غَيْرُ يَسِيرٍ تأكيد لعسره عليهم؛ لأن كونه غير يسير قد فهم من قوله: «يوم عسير». ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً أَى: دعنى، و هى كلمة تهديد و وعيد، و المعنى:

دعنى و الذى خلقته حال كونه وحيداً فى بطن أمه لا مال له و لا ولد، هذا على أن «وحيداً» منتصب على الحال من الموصول، أو من الضمير العائد إليه المحذوف، و يجوز أن يكون حالاً من الياء فى «ذرنى»، أَى:

دعنى وحدى معه، فإنى أكفيك فى الانتقام منه، و الأوّل أولى. قال المفسرون: و هو الوليد بن المغيرة. قال مقاتل: يقول: خلّ بينى و بينه فأنا أنفرد بهلكته، و إنما خصّ بالذكر لمزيد كفره و عظيم جوده لنعم الله عليه، و قيل: أراد بالوحيد الذى لا يعرف أبوه، و كان يقال فى الوليد بن المغيرة: إنه دعى. وَ جَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً أَى: كثيراً، أو يمدّ بالزيادة و النماء شيئاً بعد شىء. قال الزجاج: مالا غير منقطع عنه، و قد كان الوليد بن المغيرة مشهوراً بكثرة المال على اختلاف أنواعه، قيل: كان يحصل له من غلّة أمواله ألف ألف دينار، و قيل: أربعة آلاف دينار، و قيل: ألف دينار. وَ بَيْنَ شُهُوداً أَى: و جعلت له بنين حضوراً بمكة معه لا يسافرون و لا يحتاجون إلى التفرق فى طلب الرزق؛ لكثرة مال أبيهم. قال الضحّاك: كانوا سبعة ولدوا بمكة. و خمسة ولدوا بالطائف. و قال سعيد بن جبيرة: كانوا ثلاثة عشر ولداً. و قال مقاتل: كانوا سبعة كلهم رجال، أسلم منهم ثلاثة خالد و هشام و الوليد بن الوليد، فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقصان من ماله و ولده حتى هلك. و قيل: معنى شهوداً أنه إذا ذكر ذكروا معه، و قيل: كانوا يشهدون معه ما كان يشهده، و يقومون بما كان يباشره. وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهيداً أَى: بسطت له فى العيش و طول العمر و الرياسة فى قريش، و التمهيد عند العرب: التوطئة، و منه: مهد الصبي. و قال مجاهد: إنه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ أَى: يطمع بعد هذا كله فى الزيادة لكثرة حرصه و شدة طمعه مع كفرانه للنعم و إشراكه بالله. قال الحسن: ثم يطمع أن أدخله الجنة، و كان يقول: إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة إلا لى. ثم ردعه الله سبحانه و زجره فقال: كَلَّا أَى: لست أزيده. ثم علل ذلك بقوله: إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً أَى: معانداً لها كافراً بما أنزلناه منها على رسولنا. يقال: عند يعند بالكسر إذا خالف الحق و رده، و هو يعرفه، فهو عنيد و عاند، و العاند: البعير الذى يجور عن الطريق و يعدل عن القصد، و منه قول الحارثي:

إذا ركبت فاجعلانى وسطائى كبير لا أطيع العنّدا

قال أبو صالح: «عنيدا» معناه مابعدا. و قال قتادة: جاحداً، و قال مقاتل: معرضاً. سَأَرْهُقُهُ صَعُوداً

أَى: سأكلّفه مشقّة من العذاب، و هو مثل لما يلقاه من العذاب الصعب الذى لا يطاق، و قيل:

المعنى: إنه يكلف أن يصعد جبلاً من نار، و الإرهاق فى كلام العرب: أن يحمل الإنسان الشىء الثقيل.

و جملة: إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ تعليل لما تقدّم من الوعيد، أَى: إنه فكّر فى شأن النبيّ صلى الله عليه و سلّم، و ما أنزل عليه من القرآن، و قدّر فى نفسه، أَى: هيأ الكلام فى نفسه، و العرب تقول: هيأت الشىء؛ إذا قدرته، و قدرت الشىء؛ إذا هيأته، و ذلك أنه لما سمع القرآن لم يزل يفكر ماذا يقول فيه، و قدّر فى نفسه ما يقول، فذمّه الله و قال: فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ أَى: لعن و عذب كيف قدّر، أَى:

على أى حال قدر ما قدر من الكلام، كما يقال فى الكلام: لأضربنه كيف صنع، أى: على أى حال كانت منه، وقيل: المعنى: قهر و غلب كيف قدر، و منه قول الشاعر «١»:

و ما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وقال الزهرى: عدب، و هو من باب الدعاء عليه. و التكرير فى قوله: ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ للمبالغة و التأكيد ثُمَّ نَظَرَ أى: بأى شىء يدفع القرآن و يقصد فيه، أو فكّر فى القرآن و تدبّر ما هو ثُمَّ عَبَسَ أى: قطّب وجهه لِمَا لم يجد مطعنا يطعن به فى القرآن، و العبس: مصدر عبس مخففا يعبس عبسا و عبوسا؛ إذا قطّب، و قيل: عبس فى وجوه المؤمنين، و قيل: عبس فى وجه النبى صلّى الله عليه و سلّم وَ بَسَرَ أى: كلح وجهه و تغير، و منه قول الشاعر «٢»:

صبحنا تميما غداة الجفار بشهبا ملمومة بأسره «٣»

و قول الآخر «٤»:

و قد رابنى منها صدود رأيتها و إعراضها عن حاجتى و بسورها

و قيل: إن ظهور العبوس فى الوجه يكون بعد المحاورة، و ظهور البسور فى الوجه قبلها، و العرب تقول:

وجه باسر؛ إذا تغير و اسودّ. و قال الراغب: البسر: استعجال الشّرّ قبل أوانه، نحو بسر الرجل حاجته، أى: طلبها فى غير أوانها. قال: و منه قوله: عَبَسَ وَ بَسَرَ أى: أظهر العبوس قبل أوانه و قبل وقته، و أهل اليمن يقولون: بسر المركب و أبسر، أى: وقف لا يتقدّم و لا- يتأخر، و قد أبسرنّا، أى: صرنا إلى البسور ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ أى: أعرض عن الحقّ، و ذهب إلى أهله، و تعظّم عن أن يؤمن، فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤَثِّرُ أى: يآثره عن غيره و يرويه عنه. و السحر: إظهار الباطل فى صورة الحقّ، أو

(١). هو امرؤ القيس.

(٢). هو بشر بن أبى خازم.

(٣). «الجفار»: اسم موضع. «لملومة»: مجتمعة.

(٤). هو توبة بن الحمير.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٩٣

الخدیعة؛ على ما تقدّم بيانه فى سورة البقرة، يقال: أثرت الحديث آثره؛ إذا ذكرته عن غيرك، و منه قول الأعشى:

إِنَّ الَّذِي فِيهِ تَمَارِيْتَمَائِيْنِ لِلْسَّامِعِ وَالْآثِرِ

إِنَّ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ يعنى أنه كلام الإنس، و ليس بكلام الله، و هو تأكيد لما قبله، و سيأتى أن الوليد بن المغيرة إنما قال هذا القول إرضاء لقومه بعد اعترافه أن له حلاوة، و أن عليه طلاوة إلى آخر كلامه.

و لما قال هذا القول الذى حكاه الله عنه قال الله عزّ و جلّ: سَأُضِلُّهُ سَقَرٌ أى: سأدخله النار، و سقر من أسماء النار، و من دركات جهنم، و قيل: إن هذه الجملة بدل من قوله: سَأُرْهِقُهُ صَيْحُودًا ثم بالغ سبحانه فى وصف النار و شدة أمرها فقال: وَ مَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ أى: و ما أعلمك أى شىء هى؟ و العرب تقول: و ما أدراك ما كذا؛ إذا أرادوا المبالغة فى أمره و تعظيم شأنه و تهويل خطبه، و «ما» الأولى مبتدأ، و جملة «ما سقر» خبر المبتدأ. ثم فسّر حالها فقال: لا تُبْقَى وَ لا تَدْرُ و الجملة مستأنفة لبيان حال سقر، و الكشف عن وصفها، و قيل: هى فى محل نصب على الحال، و العامل فيها معنى التعظيم، لأن قوله: وَ مَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ يدلّ على التعظيم، فكأنه قال: استعظموما سقر فى هذه الحال، و الأوّل أولى، و مفعول الفعلين محذوف. قال السدى: لا تبقى لهم لحما و لا تذر لهم عظما. و قال عطاء: لا تبقى من فيها حيا و لا تذر ميتا، و قيل: هما لفظان بمعنى واحد، كزرا للتأكيد، كقولك: صدّ

عنى، و أعرض عنى. لَوَاحِيَهُ لِلْبَشَرِ قرأ الجمهور: لَوَاحِيَهُ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ خَيْرٌ مَبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، وَقِيلَ: عَلَى أَنَّهُ نَعْتٌ لِسَقَرٍ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى وَقُرَأَ الْحَسَنُ وَعَطِيَةُ الْعَوْفَى وَنَصْرُ بْنُ عَاصِمٍ وَعَيْسَى بْنُ عَمْرِو بْنِ أَبِي عِبْلَةَ وَزَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بِالنَّصْبِ عَلَى الْحَالِ أَوْ الْإِخْتِصَاصِ لِلتَّهْوِيلِ، لِأَنَّ يَلُوحُ، وَالمَعْنَى: أَنَّهَا تَظْهَرُ لِلْبَشَرِ. قَالَ الْحَسَنُ: تَلُوحُ لَهُمْ جَهَنَّمُ حَتَّى يَرَوْنَهَا عَيْنَانَا كَقَوْلِهِ: وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى «١» وَقِيلَ: مَعْنَى لَوَاحِيَهُ لِلْبَشَرِ أَيْ: مَغْيِرَةٌ لَهُمْ وَمَسْوَدَةٌ. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَالْعَرَبُ تَقُولُ: لِأَحَى الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالسَّقَمِ وَالْحَزَنِ؛ إِذَا غَيَّرَهُ، وَهَذَا أَرْجَحُ مِنَ الْأَوَّلِ؛ وَإِلَيْهِ ذَهَبَ جُمْهُورُ الْمُفْسِرِينَ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

و تعجب هند أن رأتنى شاحباتقول لشيء لؤحته السمائم «٢»

أى: غيرته. ومنه قول رؤبة بن العجاج:

لَوْحٌ مِنْهُ بَعْدَ بَدَنِ وَ سَنَقٌ تَلْوِيحُكَ الضَّامِرُ يَطْوِي لِلسَّبْقِ «٣»

(١). النازعات: ٣٦.

(٢). «السمائم»: جمع سموم، وهى الريح الحارّة.

(٣). «البدن»: السمن و اكتناز اللحم. «السنق»: الشيع حتى يكون كالتخمة. «الضامر»: الفرس. «يطوى»: يجوع.

يجوع.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٩٤

و قال الأخفش: المعنى أنها معطّشهُ للبشر، و أنشد:

سقتنى على لوح من الماء شربة سقاها به الله الرّهام الغواديا «١»

و المراد بالبشر إما جلده الإنسان الظاهرة كما قاله الأكثر، أو المراد به أهل النار من الإنس كما قال الأخفش، عَلَيَّهَا تَسْبِيحَةٌ عَشَرَ قَالَ الْمُفْسِرُونَ: يَقُولُ: عَلَى النَّارِ تِسْعَةٌ عَشَرَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ هُمْ خَزَنَتُهَا، وَقِيلَ: تِسْعَةٌ عَشَرَ صِنْفًا مِنْ أَصْنَافِ الْمَلَائِكَةِ، وَقِيلَ: تِسْعَةٌ عَشَرَ صِنْفًا مِنْ صِفْوَفِهِمْ، وَقِيلَ: تِسْعَةٌ عَشَرَ نَقِيبًا، مَعَ كُلِّ نَقِيْبٍ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى. قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: وَ لَا يَنْكُرُ هَذَا، فَإِذَا كَانَ مَلِكٌ وَاحِدٌ يَقْبِضُ أَرْوَاحَ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ كَانَ أُخْرَى أَنْ يَكُونُوا تِسْعَةٌ عَشَرَ عَلَى عَذَابِ بَعْضِ الْخَلْقِ. قرأ الجمهور: تِسْعَةٌ عَشَرَ بفتح الشين من عشر. و قرأ أبو جعفر بن القعقاع و طلحة بن سليمان بإسكانها.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن جابر بن عبد الله أن أبا سلمة بن عبد الرحمن قال: إن أول ما نزل من القرآن: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ فَقَالَ لَهُ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ: يَقُولُونَ: إن أول ما نزل: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ «٢» فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، قلت له مثل ما قلت، فقال جابر: لا أحدثنك إلا ما حدثنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «جاورت بحراء؛ فلما قضيت جوارى هبطت، فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا، ونظرت خلفي فلم أر شيئا، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض، فجثيت منه رعبا، فرجعت فقلت: دثروني فدثروني، فنزلت: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ إِلَى قَوْلِهِ: وَالرُّجْزَ فَاهْجُزْ وَ سَيَأْتِي فِي سُورَةِ أَقْرَأَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا أَوَّلُ سُورَةٍ أَنْزَلَتْ، وَ الْجَمْعُ مُمْكِنٌ. وَ أَخْرَجَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ؛ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ فَقَالَ: دَثْرَ هَذَا الْأَمْرُ، فَقَمَّ بِهِ. وَ أَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ وَ ابْنَ الْمُنْذِرِ وَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَ ابْنَ مَرْدُويَةَ عَنْهُ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ فَقَالَ: النَّائِمُ وَ ثِيَابَكَ فَطَهَّرْ قَالَ: لَا تَكُنْ ثِيَابَكَ الَّتِي تَلْبَسُ مِنْ مَكْسَبٍ بَاطِلٍ وَ الرَّجْزَ فَاهْجُزْ قَالَ: الْأَصْنَامُ وَ لَا تَمُنُّنْ تَسْبِيحَتُكَ قَالَ: لَا تَعْطُ تَلْتَمِسُ بِهَا أَفْضَلَ مِنْهَا. وَ أَخْرَجَ الْفَرِيَابِيَّ وَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَ ابْنَ الْمُنْذِرِ وَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ، عَنْهُ أَيْضًا وَ ثِيَابَكَ فَطَهَّرْ قَالَ:

من الإثم. قال: و هى فى كلام العرب نقى الثياب. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا وَ ثِيَابَكَ فَطَهَّرْ قَالَ:

من الغدر، لا تكن غداراً. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن الأنباري و ابن مردويه عن عكرمة عنه أيضا أنه سئل عن قوله: وَ ثِيَابِكَ فَطَهَّرُ قَالَ: لا تلبسها على غدره، ثم قال: ألا تسمعون قول غيلان بن سلمة:

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر ليست و لا من غدره أتقنع

(١). «اللوح»: شدة العطش. «الرهام»: جمع رهمه و هي المطرة الضعيفة.

(٢). العلق: ١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٩٥

و أخرج الطبراني، و البيهقي في سننه، عنه أيضا: وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ قَالَ: لا تعط الرجل عطاء رجاء أن يعطيك أكثر منه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عنه أيضا: فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ قَالَ:

الصور يَوْمَ عَيْبِيرٍ قَالَ: شديد. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا دَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً قَالَ الوليد بن المغيرة. و أخرج الحاكم و صححه، و البيهقي في الدلائل، عنه أيضا: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رَقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له، و أنك كاره له، قال: و ماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه و لا بقصيده و لا بأشعار الجن، و الله ما يشبه هذا الذي يقول شيئا من هذا، و الله إن لقوله ألمدى يقول لحلاوة، و إن عليه لطلاوة و إنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، و إنه ليعلو و ما يعلى، و إنه ليحطم ما تحته؛ قال: و الله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت: دَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً. و قد أخرج هذا عبد الرزاق عن عكرمة مرسلا، و كذا أخرجه ابن جرير و ابن إسحاق و ابن المنذر و غير واحد. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن قوله: وَ جَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً قَالَ: غلة شهر بشهر. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ جَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً قَالَ: ألف دينار. و أخرج هناد عن أبي سعيد الخدري في قوله: سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً قَالَ: هو جبل في النار يكلفون أن يصعدوا فيه، فكلما وضعوا أيديهم عليه ذابت، فإذا رفعوها عادت كما كانت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس عِينِدَا قَالَ: جحودا.

و أخرج أحمد و الترمذي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن حبان، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و البيهقي عن أبي سعيد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَالَ: «الصعود جبل في النار؛ يصعد فيه الكافر سبعين خريفا، ثم يهوى و هو كذلك فيه أبدا». قال الترمذي بعد إخرجه: غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن دراج.

قال ابن كثير: و فيه غرابة و نكارة، انتهى. و قد أخرجه جماعة من قول أبي سعيد. و أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: صَعُوداً صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه. و أخرج ابن المنذر عنه قال:

جبل في النار. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا في قوله: لا تُبْقَى وَ لا تَدْرُ قَالَ: لا تبقى منهم شيئا، و إذا بدلوا خلقا آخر لم تذر أن تعاودهم سبيل العذاب الأول. و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ قَالَ: تلوح الجلد فتحرقه و تغير لونه، فيصير أسود من الليل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا:

لَوَاحَةٌ قَالَ: محرقة. و أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه، و البيهقي في البعث، عن البراء: أن رهطا من اليهود سألوا بعض أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عن خزنة جهنم، فقال: الله و رسوله أعلم، فجاء جبريل، فأخبر النبي، فنزلت عليه ساعتئذ عَليها تَسْبِغَةٌ



## [سورة المدثر (٧٤): الآيات ٣١ الى ٣٧]

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيزداد الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا وَلَا يَزْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا اسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِخْدَى الْكُبْرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧)

لما نزل قوله سبحانه: عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ قال أبو جهل: أما لمحمد من الأعوان إلا تسعة عشر يخوفكم محمد بتسعة عشر و أنتم اللهم «١»، أفيعجز كل مائة رجل منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم يخرجون من النار؟ فقال أبو الأشد، وهو رجل من بنى جمح: يا معشر قريش إذا كان يوم القيامة، فأنا أمشى بين أيديكم، فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن و تسعة بمنكبي الأيسر و نمضى ندخل الجنة، فأنزل الله: وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً يعني: ما جعلنا المدبرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة، فمن يطيق الملائكة؟

و من يغلبهم؟ فكيف تتعاطون أيها الكفار مغالبتهم؟ و قيل: جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المخلوقين من الجن و الإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجالس من الرقة و الرأفة، و قيل: لأنهم أقوم خلق الله بحقه و الغضب له، و أشدهم بأسا و أقواهم بطشا و ما جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً أَى: ضلالة للذين استقلوا عددهم، و محنة لهم، و المعنى: ما جعلنا عددهم هذا العدد المذكور في القرآن إلا ضلالة و محنة لهم، حتى قالوا ما قالوا ليتضاعف عذابهم، و يكثر غضب الله عليهم. و قيل: معنى إلا فتنه إلا عذابا؛ كما في قوله: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ «٢» أَى: يعذبون، و اللام في قوله: لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ متعلق بجعلنا، و المراد بأهل الكتاب اليهود و النصارى لموافقة ما نزل من القرآن بأن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر لما عندهم.

قاله قتادة و الضحّاك و مجاهد و غيرهم، و المعنى: أن الله جعل عدّة الخزنة هذه العدة ليحصل اليقين لليهود و النصارى بنبوّة محمد صلى الله عليه و سلم لموافقة ما في القرآن لما في كتبهم و يزيداد الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا و قيل: المراد الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، و قيل: أراد بالذين آمنوا: المؤمنين من أمه محمد صلى الله عليه و سلم، و المعنى: ليزدادوا يقينا إلى يقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم، و جملة: وَلَا يَزْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ مقررّة لما تقدّم من الاستيقان و ازدياد الإيمان، و المعنى: نفى الارتياب عنهم في الدين، أو: في أن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر، و لا ارتياب في الحقيقة من المؤمنين، و لكنه من باب التعريض لغيرهم ممن في قلبه شك و ليقول الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا المراد بالذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، و السورة و إن كانت مكية و لم يكن إذ ذاك نفاق، فهو إخبار بما سيكون في المدينة، أو المراد بالمرض مجرّد حصول الشكّ و الريب، و هو كائن في الكفار. قال الحسين بن الفضل: السورة مكية و لم يكن بمكة نفاق، فالمرض في هذه الآية الخلاف، و المراد بقوله: وَالْكَافِرُونَ كفار العرب من أهل

(١). «الدهم»: العدد الكثير.

(٢). الذاريات: ١٣.

مكة وغيرهم، ومعنى ما إذا أراد الله بهذا مثلاً أى شىء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل. قال الليث: المثل: الحديث، و منه قوله: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ \* «١» أى: حديثها والخبر عنها كذلك يُضِلُّ الله مَنْ يَشَاءُ أى: مثل ذلك الإضلال المتقدّم ذكره، وهو قوله: وَ مَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَ الْكَافِرُ نَعْتٌ مَصْدَرٌ مَحذُوفٌ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَ الْمَعْنَى: مثل ذلك الإضلال للكافرين والهداية للمؤمنين يضلّ الله من يشاء إضلاله ويهدى من يشاء هدايته. وقيل: المعنى: كذلك يضلّ الله عن الجنة من يشاء ويهدى إليها من يشاء وَ مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ أى: ما يعلم عدد خلقه ومقدار جموعه من الملائكة وغيرهم إلا هو وحده لا يقدر على علم ذلك أحد. وقال عطاء: يعنى من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدّتهم إلا الله، والمعنى:

أن خزنة النار وإن كانوا تسعة عشر فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه. ثم رجع سبحانه إلى ذكر سقر فقال: وَ مَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ أى: وما سقر وما ذكر من عدد خزنتها إلا تذكرة وموعظة للعالم، وقيل: وَ مَا هِيَ أى: الدلائل والحجج والقرآن إلا تذكرة للبشر. وقال الزجاج: نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة، وهو بعيد. وقيل: ما هي أى عدّة خزنة جهنم إلا تذكرة للبشر؛ ليعلموا كمال قدرة الله وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار. وقيل: الضمير فى وَ مَا هِيَ يرجع إلى الجنود. ثم ردع سبحانه المكذبين وزجرهم فقال: كَلَّا وَ الْقَمَرِ قَالَ الْفَرَاءُ: كلا صلة للقسم. التقدير: أى والقمر، وقيل: المعنى: حقا والقمر. قال ابن جرير: والمعنى ردّ زعم من زعم أنه يقاوم خزنة جهنم، أى: ليس الأمر كما يقول، ثم أقسم على ذلك بالقمر وما بعده، وهذا هو الظاهر من معنى الآية وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ أَى ولى. قرأ الجمهور: إذا بزيادة الألف، دبر بزنة ضرب على أنه ظرف لما يستقبل من الزمان، وقرأ نافع وحفص وحمزة: إِذْ بـدون ألف، أدبر بزنة أكرم ظرف لما مضى من الزمان، و دبر و أدبر لغتان، كما يقال: أقبل، وقبل الزمان، يقال: دبر الليل و أدبر؛ إذا تولى ذاهبا وَ الصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ أى: أضواء وتبين إنَّهَا لِأَخْدَى الْكُبْرِ هذا جواب القسم، والضمير راجع إلى سقر، أى: إن سقر لإحدى الدواهي أو البلايا الكبرى، والكبر: جمع كبرى، وقال مقاتل: إن الكبر اسم من أسماء النار، وقيل:

إنها: أى: تكذيبهم لمحمد لإحدى الكبر، وقيل: إن قيام الساعة لإحدى الكبر، ومنه قول الشاعر:

يا ابن المعلّى نزلت إحدى الكبرداهية الدّهر و صمّاء الغير

قرأ الجمهور: لِأَخْدَى بالهمزة، وقرأ نصر بن عاصم وابن محيصن وابن كثير فى روايته عنه: إنها لحدى بدون همزة. وقال الكلبي: أراد بالكبر دركات جهنم وأبوابها نذيراً لِلْبَشْرِ انتصاب نذيراً على الحال من الضمير فى إنها، قاله الزجاج. و روى عنه وعن الكسائى وأبى علىّ الفارسى أنه حال من قوله:

قُمْ فَأَنْذِرْ أى: قم يا محمد فأنذر حال كونك نذيراً للبشر. وقال الفراء: هو مصدر بمعنى الإنذار

(١). الرعد: ٣٥.

منصوب بفعل مقدّر، وقيل: إنه منتصب على التمييز لإحدى لتضمنها معنى التعظيم؛ كأنه قيل: أعظم الكبر إنذاراً، وقيل: إنه مصدر منصوب بأنذر المذكور فى أوّل السورة، وقيل: منصوب بإضمار أعنى، وقيل:

منصوب بتقدير: ادع، وقيل: منصوب بتقدير: ناد أو بلغ، وقيل: إنه مفعول لأجله، والتقدير: وإنها لإحدى الكبر لأجل إنذار البشر. قرأ الجمهور بالنصب، وقرأ أبى بن كعب وابن أبى عبله بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هي نذير، أو هو نذير.

و قد اختلف في النذير، فقال الحسن: هي النار، و قيل: محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. و قال أبو رزين: المعنى أنا نذير لكم منها، و قيل: القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد و الوعيد لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ هو بدل من قوله للبشر، أى: نذيرا لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى الطاعة أو يتأخر عنها، و المعنى: أن الإنذار قد حصل لكل من آمن و كفر، و قيل: فاعل المشيئة هو الله سبحانه، أى: لمن شاء أن يتقدّم منكم بالإيمان أو يتأخر بالكفر، و الأول أولى. و قال السدي: لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى النار المتقدم ذكرها، أو يتأخر إلى الجنة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما سمع أبو جهل عَلِيَّهَا تِسْعَةَ عَشَرَ. قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر و أنتم اللّهم «١»، أ فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟. و أخرج ابن مردويه عنه فى قوله: وَ مَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا قال: قال أبو الأشد: خلوا بينى و بين خزنة جهنم أنا أكفيكم مؤونتهم، قال: و حدثت أن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصف خزان جهنم فقال: «كأن أعينهم البرق، و كأن أفواههم الصياصى، يجزون أشعارهم، لهم مثل قوّة الثقلين، يقبل أحدهم بالأمة من الناس يسوقهم و على رقبته جبل حتى يرمى بهم فى النار فيرمى بالجبل عليهم». و أخرج الطبرانى فى الأوسط و أبو الشيخ عن أبى سعيد الخدرى: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدّثهم عن ليلة أسرى به قال: «فصعدت أنا و جبريل إلى السماء الدنيا، فإذا أنا بملك يقال له إسماعيل و هو صاحب سماء الدنيا و بين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف، و تلا هذه الآية: وَ مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ». و أخرج أحمد عن أبى ذر قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أطت السماء و حقّ لها أن تنط، ما فيها موضع إصبع إلا عليه ملك ساجد». و أخرجه الترمذى و ابن ماجه. قال الترمذى:

حسن غريب، و يروى عن أبى ذرّ موقوفا.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس: إِذْ أذْبَرَ قَالَ: دبور ظلامه. و أخرج مسدّد فى مسنده و عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: سألت ابن عباس عن قوله: وَ اللَّيْلِ إِذْ أذْبَرَ فَسَكَتَ عَنِى حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ وَ سَمِعَ الْأَذَانَ نادانى: يا مجاهد هذا حين دبر الليل. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ قال: من شاء اتبع طاعة الله، و من شاء تأخّر عنها.

(١). «الدهم»: أى العدد الكثير و الشجعان.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٣٩٩

### [سورة المدثر (٧٤): الآيات ٣٨ الى ٥٦]

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢)

قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ (٤٤) وَ كُنَّا نَحْوُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَ كُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧)

فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَزَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (٥٢)

كَلَّا- بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (٥٥) وَ مَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَ أَهْلُ

قوله: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ أَى: مأخوذة بعملها و مرتتهن به، إما خلصها و إما أوبقها، و الرهينة: اسم بمعنى الرهن، كالشئمة بمعنى الشتم، و ليست صفة، و لو كانت صفة ل قيل: رهين؛ لأن فعلا يستوى فيه المذكر و المؤنث، و المعنى: كل نفس رهن بكسبها غير مفكوكه إلا أصحاب اليمين فإنهم لا يرتنون بذنوبهم، بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم.

و اختلف فى تعيينهم، فقيل: هم الملائكة، و قيل: المؤمنون، و قيل: أولاد المسلمين، و قيل: الذين كانوا عن يمين آدم، و قيل: أصحاب الحق، و قيل: هم المعتمدون على الفضل دون العمل، و قيل: هم الذين اختارهم الله لخدمته، فى جنات هو فى محل رفع على أنه خير مبتدأ محذوف، و الجملة استئناف جوابا عن سؤال نشأ مما قبله، و يجوز أن يكون فى جنات حالا من أصحاب اليمين، و أن يكون حالا من فاعل يتساءلون، و أن يكون ظرفا ليتساءلون، و قوله: يتساءلون يجوز أن يكون على بابه، أَى: يسأل بعضهم بعضا، و يجوز أن يكون بمعنى يسألون، أَى: يسألون غيرهم، نحو دعيتته و تداعيته، فعلى الوجه الأول يكون عن المجرمين متعلقا يتساءلون، أَى: يسأل بعضهم بعضا عن أحوال المجرمين، و على الوجه الثانى تكون عن زائدة، أَى: يسألون المجرمين، و قوله: ما سلككم فى سقر هو على تقدير القول، أَى: يتساءلون عن المجرمين يقولون لهم: ما سلككم فى سقر، أو يسألونهم قائلين لهم: ما سلككم فى سقر، و الجملة على كلا التقديرين فى محل نصب على الحال، و المعنى: ما أدخلكم فى سقر، تقول: سلكت الخيط فى كذا؛ إذا دخلته فيه. قال الكلبى: يسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه، فيقول له: يا فلان ما سلكك فى النار؟ و قيل: إن المؤمنين يسألون الملائكة عن أقربائهم، فتسأل الملائكة المشركين يقولون لهم: ما سلككم فى سقر؟ قال الفراء: فى هذا ما يقوى أن أصحاب اليمين هم الولدان؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب. ثم ذكر سبحانه ما أجاب به أهل النار عليهم فقال: قالوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ أَى: من المؤمنين الذين يصلون لله فى الدنيا و لَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ أَى: لم نتصدق على المساكين، قيل: و هذان محمولان على الصلاة الواجبة و الصدقة الواجبة؛ لأنه لا تعذيب على غير الواجب، و فيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالشرعيات، و كُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ أَى: نخالط أهل الباطل فى باطلهم. قال قتادة: كلما غوى غاؤ غوينا معه. و قال السدى: كنا نكذب مع المكذبين. و قال ابن زيد: نخوض مع الخائضين فى أمر محمد صلى الله عليه و سلم و هو قولهم: كاذب، مجنون، ساحر، شاعر و كُنَّا نَكُذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ أَى: بيوم الجزاء و الحساب

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٠٠

فتح القدير ج ٥، ص: ٤٤٩

حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ و هو الموت، كما فى قوله: وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ «١».

فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ أَى: شفاعه الملائكة و النبيين كما تنفع الصالحين فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ التذكرة: التذكير بمواعظ القرآن، و الفاء لترتيب إنكار إعراضهم عن التذكرة على ما قبله من موجبات الإقبال عليها، و انتصاب معرضين على الحال من الضمير فى متعلق الجارّ و المجرور، أَى: أى شىء حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن الذى هو مشتمل على التذكرة الكبرى و الموعظة العظمى.

ثم شبههم فى نفورهم عن القرآن بالحر فقال: كَانَهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ و الجملة حال من الضمير فى معرضين على التداخل، و معنى مستنفرة: نافرة، يقال: نفر و استنفر، مثل عجب و استعجب، و المراد:

الحر الوحشية. قرأ الجمهور: مُسْتَنْفِرَةٌ بكسر الفاء، أَى: نافرة، و قرأ نافع و ابن عامر بفتحها، أَى: منفرة مذعورة، و اختار القراءة الثانية أبو حاتم و أبو عبيد. قال فى الكشف: المستنفرة: الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها فى جمعها له، و حملها عليه فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ أَى: من رماة يرمونها، و القسور: الرامى، و جمعه قسورة قاله سعيد بن جبير و عكرمة و مجاهد و قتادة و ابن

كيسان، وقيل: هو الأسد، قاله عطاء و الكلبي. قال ابن عرفة من القسر بمعنى القهر؛ لأنه يقهر السباع، وقيل: القسورة: أصوات الناس، وقيل: القسورة بلسان العرب: الأسد، و بلسان الحبشة: الرماة. و قال ابن الأعرابي: القسورة: أول الليل، أى: فزت من ظلمة الليل، و به قال عكرمة، و الأول أولى، و كل شديد عند العرب فهو قسورة، و منه قول الشاعر:

يا بنت كوني خيرةً لخيره أحوالها الجنّ و أهل القسورة  
و منه قول لييد:

إذا ما هتفنا هتفه في ندينا أانا الرجال العابدون القساور

و من إطلاقه على الأسد قول الشاعر:

مضمّر تحذره الأبطال كأنه القسور الرّهال

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً عطف على مقدر يقتضيه المقام، كأنه قيل:

لا يكتفون بتلك التذكرة بل يريد ... قال المفسرون: إن كفار قريش قالوا لمحمد صلى الله عليه و سلم: ليصبح عند رأس كل

رجل منا كتاب منشور من الله أنك رسول الله. و الصحف: الكتب، واحداً منها صحيفة، و المنشرة:

المنشورة المفتوحة، و مثل هذه الآية قوله سبحانه: حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ «٢» قرأ الجمهور:

مُنَشَّرَةً بالتشديد. و قرأ سعيد بن جبیر بالتخفيف. و قرأ الجمهور: أيضا بضم الحاء من صحف. و قرأ سعيد بن جبیر بإسكانها. ثم

ردعهم الله سبحانه عن هذه المقالة و زجرهم فقال: كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ

(١). الحجر: ٩٩.

(٢). الإسراء: ٩٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٠١

يعنى عذاب الآخرة؛ لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات، و قيل: كلاً بمعنى حقاً. ثم كرّر الردع و الزجر لهم فقال: كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرَةٌ يعنى القرآن؛ أو حقاً إنه تذكرة، و المعنى: أنه يتذكر به و يتعظ بمواعظه فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ أى: فمن شاء أن يتعظ به اتعظ، ثم ردّ سبحانه المشيئة إلى نفسه فقال:

وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ قَرَأَ الْجُمُورُ: يَذْكُرُونَ بالياء التحتية. و قرأ نافع و يعقوب بالفوقية، و اتفقوا على التخفيف، و قوله: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ استثناء مفرغ من أعم الأحوال. قال مقاتل: إلا أن يشاء الله لهم الهدى هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى أى: هو الحقيق بأن يتقيه المتقون بترك معاصيه و العمل بطاعاته وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ أى: هو الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب، و الحقيق بأن يقبل توبه التائبين من العصاة فيغفر ذنوبهم.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ قال: مأخوذة بعملها.

و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ قال: هم المسلمون. و أخرج عبد الرزاق و الفريابي و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبه و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، عن على بن أبى طالب إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ قال: هم أطفال المسلمين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ قال: الموت. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، عن أبى موسى الأشعري فى قوله: فَزَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ قال: هم الرماة رجال القسي. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس قال: القسورة: الرجال الرماة رجال القنص.

و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى حمزة قال: قلت لابن عباس:

القسورة الأسد؟ فقال: ما أعلمه بلغة أحد من العرب الأسد! هم عصبه الرجال. و أخرج سفيان ابن عيينه و عبد الرزاق و ابن المنذر عن ابن عباس مِنْ قَسَوْرَةٍ قال: هو ركز الناس، يعنى أصواتهم.

و أخرج أحمد و الدارمي، و الترمذى و حسنه، و النسائي و ابن ماجه و البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن عدى و صححه، و ابن مردويه عن أنس «أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قرأ هذه الآية: هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ فقال: قال ربكم أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله، فمن اتقانى فلم يجعل معى إلهاً فأنا أهل أن أغفر له». و أخرج ابن مردويه عن أبى هريره و ابن عمر و ابن عباس مرفوعاً نحوه.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٠٢

## سورة القيامة

### إشارة

و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة القيامة، و فى لفظ: سورة لا أقسم بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزلت سورة لا أقسم بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة القيامة (٧٥): الآيات ١ الى ٢٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَ لَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَ حَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَ أَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤)

وَ لَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥) لَا تَحْرُكَ بِهِ لِسَانُكَ لِنَعَجَلٍ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) وَ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)

قوله: لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ قال أبو عبيدة و جماعة من المفسرين: إِنَّ لَا زَائِدَةَ، و التقدير: أقسم.

قال السمرقندى: أجمع المفسرون أن معنى لَا أُقْسِمُ: أقسم، و اختلفوا فى تفسير لا، فقال بعضهم: هى زائدة، و زيادتها جارية فى كلام العرب كما فى قوله: ما مَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ (١) يعنى أن تسجد، و لئلا يعلم أهل الكتاب و من هذا قول الشاعر:

تذكرت لىلى فاعترتنى صبا به فكداد صميم القلب لا يتقطع

و قال بعضهم: هى ردّ لكلامهم حيث أنكروا البعث؛ كأنه قال: ليس الأمر كما ذكرتم أقسم بيوم القيامة، و هذا قول الفراء و كثير من النحويين، كقول القائل: لا، و الله، ف: لا. ردّ لكلام قد تقدّمها، و منه قول الشاعر (٢):

فلا و أيبك ابنه العامرى (م) (٣) لا يدعى القوم أنى أفر

(١). الأعراف: ١٢.

(٢). هو امرؤ القيس.

(٣). يشير هذا الحرف إلى أن البيت مدور، يعنى: أن آخر الصدر و أول العجز مشتركان فى الحرف المشدد.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٠٣

وقيل: هى للنفى، لكن لا لنفى الإقسام، بل لنفى ما ينبى عنه من إعظام المقسم به و تفخيمه، كأن معنى لا أقسم بكذا: لا أعظمه بإقسامى به حقّ إعظامه، فإنه حقيق بأكثر من ذلك و قيل: إنها لنفى الإقسام لوضوح الأمر، و قد تقدّم الكلام على هذا فى تفسير قوله: فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ «١» و قرأ الحسن و ابن كثير فى رواية عنه و الزهرى و ابن هرمز لأقسام بدون ألف على أن اللام لام الابتداء، و القول الأوّل هو أرجح هذه الأقوال، و قد اعترض عليه الرازى بما لا يقدر فى قوته و لا يفتّى فى عضد رجحانه، و إقسامه سبحانه بيوم القيامة لتعظيمه و تفخيمه، و لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته و لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامِيَةِ ذهب قوم إلى أنه سبحانه أقسم بالنفس اللوامة كما أقسم بيوم القيامة، فيكون الكلام فى «لا» هذه كالكلام فى الأولى، و هذا قول الجمهور. و قال الحسن: أقسم بيوم القيامة و لم يقسم بالنفس اللوامة. قال الثعلبى:

و الصحيح أنه أقسم بهما جميعاً، و معنى النفس اللوامة: النفس التى تلوم صاحبها على تقصيره، أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها. قال الحسن: هى و الله نفس المؤمن، لا يرى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أردت بكذا؟

ما أردت بكذا؟ و الفاجر لا يعاتب نفسه. قال مجاهد: هى التى تلوم على ما فات و تندم، فتلوم نفسها على الشرّ لم تعمله؟ و على الخير لم تستكثر منه؟ قال الفراء: ليس من نفس برّة و لا فاجرة إلا و هى تلوم نفسها، إن كانت عملت خيراً قالت: هلا ازددت! و إن كانت عملت سوءاً قالت: ليتنى لم أفعل. و على هذا فالكلام خارج مخرج المدح للنفس، فيكون الإقسام بها حسناً سائغاً. و قيل: اللوامة هى الملومة المذمومة، فهى صفة ذمّ، و بهذا احتج من نفى أن يكون قسماً، إذ ليس لنفس العاصى خطر يقسم له. قال مقاتل: هى نفس الكافر يلوم نفسه و يتحسر فى الآخرة على ما فرط فى جنب الله، و الأوّل أولى.

أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمِعَ عِظَامَهُ الْمَرَادُ بِالْإِنْسَانِ الْجِنْسُ، و قيل: الإنسان الكافر، و الهمزة للإنكار، و أن هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن محذوف، و المعنى: أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمِعَ عِظَامَهُ بَعْدَ أَنْ صَارَتْ رِفَاتًا، فنعيدها خلقاً جديداً، و ذلك حسبان باطل، فإننا نجمعها، و ما يدلّ عليه هذا الكلام هو جواب القسم. قال الزجاج: أقسم بيوم القيامة و بالنفس اللوامة ليجمعنّ العظام للبعث، فهذا جواب القسم. و قال النحاس: جواب القسم محذوف، أى: ليعثنّ، و المعنى: أن الله سبحانه يبعث جميع أجزاء الإنسان، و إنما خصّ العظام لأنها قالب الخلق بلى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بِنَانَهُ بلى إيجاب لما بعد النفى المنسحب إليه الاستفهام، و الوقف على هذا اللفظ وقف حسن، ثم يتبدى الكلام بقوله:

قَادِرِينَ و انتصاب قَادِرِينَ على الحال، أى: بلى نجمعها قَادِرِينَ، فالحال من ضمير الفعل المقدّر، و قيل:

المعنى: بلى نجمعها نقدر قَادِرِينَ. قال الفراء: أى نقدر، و نقوى، قَادِرِينَ على أكثر من ذلك. و قال أيضاً:

إنه يصلح نصبه على التكرير، أى: بلى فليحسبنا قَادِرِينَ، و قيل: التقدير: بلى كنا قَادِرِينَ. و قرأ ابن أبى عبلة و ابن السّميقع بلى قَادِرِينَ على تقدير مبتدأ، أى: بلى نحن قَادِرُونَ، و معنى عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بِنَانَهُ

(١). الواقعة: ٧٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٠٤

على أن نجمع بعضها إلى بعض، فردّها كما كانت مع لطافتها و صغرها، فكيف بكبار الأعضاء، فتبه سبحانه بالبنان، و هي الأصابع على بقية الأعضاء، و أن الاقتدار على بعثها و إرجاعها كما كانت أولى في القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل و الأظافر و العروق اللطاف و العظام الدقاق، فهذا وجه تخصيصها بالذكر، و بهذا قال الزجاج و ابن قتيبة. و قال جمهور المفسرين: إن معنى الآية أن نجعل أصابع يديه و رجليه شيئاً واحداً، كخف البعير و حافر الحمار صفيحةً واحدةً لا شقوق فيها، فلا يقدر على أن ينتفع بها في الأعمال كالكتابة و الخياطة و نحوهما، و لكننا فرقنا أصابعه لينتفع بها. و قيل: المعنى: بل نقدر على أن نعيد الإنسان في هيئته البهائم، فكيف في صورته التي كانت عليها، و الأوّل أولى، و منه قول عنتره:

و أنّ الموت طوع يدي إذا ما وصلت بنانها بالهندواني

فنه بالبنان على بقية الأعضاء. يَلُّ يُرِيدُ الْإِنْسَانَ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ هُوَ عَطْفٌ عَلَى أَيْحَسْبُ، إما على أنه استفهام مثله، و أضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا، أو على أنه إيجاب انتقل إليه من الاستفهام.

و المعنى: بل يريد الإنسان أن يقدم فجوره فيما بين يديه من الأوقات، و ما يستقبله من الزمان، فيقدم الذنب و يؤخر التوبة. قال ابن الأنباري: يريد أن يفجر ما امتدّ عمره، و ليس في نيته أن يرجع عن ذنب يرتكبه.

قال مجاهد و الحسن و عكرمة و السديّ و سعيد بن جبير: يقول سوف أتوب و لا- يتوب حتى يأتيه الموت. و هو على أشْر أحواله. قال الضحّاك: هو الأمل، يقول سوف أعيش و أصيب من الدنيا، و لا يذكر الموت.

و الفجور: أصله الميل عن الحقّ، فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل، و منه قول الشاعر:

أقسم بالله أبو حفص عمر ما مسّها من نقب و لا دبر

فاغفر له اللهم إن كان فجر و جملةً يَسِيئُلُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مستأنفةً لبيان معنى يفجر، و المعنى: يسأل متى يوم القيامة سؤال استبعاد و استهزاء فإِذَا بَرَقَ الْبَصْرُ أَي: فزع و تحير، من برق الرجل؛ إذا نظر إلى البرق فدهش بصره.

قرأ الجمهور: بَرِقَ بكسر الراء. قال أبو عمرو بن العلاء و الزجاج و غيرهما: المعنى تحير فلم يطرف، و منه قول ذي الرّمة:

و لو أنّ لقمان الحكيم تعرّضت لعينيه مئى سافرا كاد يبرق

و قال الخليل و الفراء: برق بالكسر: فرع و بهت و تحير، و العرب تقول للإنسان المبهوت: قد برق فهو برق، و أنشد الفراء:

فنفسك فانع و لا تنعنى و داو الكلوم و لا تبرق «١»

أى: لا تفزع من كثرة الكلوم التي بك. و قرأ نافع و أبان عن عاصم بَرِقَ بفتح الراء، أى: لمع

(١). البيت لطرفة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٠٥

بصره من شدة شخوصه للموت. قال مجاهد و غيره: هذا عند الموت، و قيل: برق يبرق: شق عينيه و فتحهما. و قال أبو عبيدة: فتح الراء و كسرهما لغتان بمعنى. وَ حَسَفَ الْقَمَرُ قرأ الجمهور: حَسَفَ بفتح الخاء و السين مبنيًا للفاعل. و قرأ ابن أبي إسحاق و عيسى و الأعرج و ابن أبي عبلة و أبو حيوة بضم الخاء و كسر السين مبنيًا للمفعول، و معنى خسف القمر: ذهب ضؤوه و لا يعود كما يعود إذا خسف في الدنيا، و يقال: خسف؛ إذا ذهب جميع ضؤوه، و كسف: إذا ذهب بعض ضؤوه وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ أى: ذهب ضؤؤهما جميعاً، و لم يقل جمعت لأن التانيث مجازي، قاله المبرد. و قال أبو عبيدة: هو لتغليب المذكر على المؤنث. و قال الكسائي: حمل على معنى جمع الثيران. و قال الزجاج و الفراء: و لم يقل جمعت لأن المعنى جمع بينهما في ذهاب نورهما، و قيل: جمع بينهما في طلوعهما من الغرب أسودين مكورين مظلمين.



قال عطاء: يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان في البحر فيكونان نار الله الكبرى. وقيل: تجمع الشمس والقمر فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار. وقرأ ابن مسعود: «و جمع بين الشمس والقمر». يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيَّنَ الْمَفْرُؤِ أَي: يقول عند وقوع هذه الأمور أين المفر؟ أي: الفرار، والمفرّ: مصدر بمعنى الفرار.

قال الفراء: يجوز أن يكون موضع الفرار، ومنه قول الشاعر:

أين المفرّ والكباش تنتطح وكلّ كبش فرّ منها يفتضح

قال الماوردي: يحتمل وجهين: أحدهما: أين المفرّ من الله سبحانه استحياء منه. والثاني: أين المفرّ من جهنم حذرا منها. قرأ الجمهور: أَيَّنَ الْمَفْرُؤِ بفتح الميم والفاء كما تقدّم. وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة بفتح الميم وكسر الفاء على أنه اسم مكان: أي: أين مكان الفرار؟ وقال الكسائي: هما لغتان مثل مدب ومدب ومصح ومصح، وقرأ الزهري بكسر الميم وفتح الفاء على أن المراد به الإنسان الجيد الفرار، ومنه قول امرئ القيس:

مكّر مفرّ مقبل مدبر معاكجلمود صخر حطّه السّيل من عل

أي: جيد الفرّ والكّر. كَلَّا لا وَزَرَ أَي: لا جبل ولا حصن ولا ملجأ من الله. وقال ابن جبير:

لا محيص ولا منعة. والوزر في اللغة: ما يلجأ إليه الإنسان من حصن، أو جبل أو غيرهما، ومنه قول طرفه:

ولقد تعلم بكر أنّافاضلو الرّأى وفي الرّوع وزر

وقال آخر:

لعمري ما للفتى من وزر من الموت يدركه والكبير

قال السّدي: كانوا إذا فرعوا في الدنيا تحصنوا بالجبال، فقال لهم الله: ولا وزر يعصمكم مني يومئذ، وكلّا: للردع، أو لنفي ما قبلها، أو بمعنى حقا إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ أَي: المرجع والمنتهى والمصير لا إلى غيره، وقيل: إليه الحكم بين العباد لا إلى غيره، وقيل: المستقر: الاستقرار حيث يقره الله يُتَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ أَي: يخبر يوم القيامة بما عمل من خير وشرّ. و قال قتادة: بما عمل من طاعة،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٠٦

وما أخّر من طاعة فلم يعمل بها. وقال زيد بن أسلم: بما قدّم من أمواله وما خلف للورثة. وقال مجاهد:

بأول عمله وآخره. وقال الضحّاك: بما قدّم من فرض وأخّر من فرض. قال القشيري: هذا الإناء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال، ويجوز أن يكون عند الموت. قال القرطبي: والأوّل أظهر بِلِ الْإِنْسَانِ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ارتفاع بصيرة على أنها خبر الإنسان، «على نفسه» متعلق ببصيرة. قال الأخفش: جعله هو البصيرة كما تقول للرجل: أنت حجة على نفسك، وقيل المعنى: إن جوارحه تشهد عليه بما عمل، كما في قوله: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١»، وأنشد الفراء:

كأنّ على ذى العقل عينا بصيرة بمقعده أو منظر هو ناظره

فيكون المعنى: بل جوارح الإنسان عليه شاهدة. قال أبو عبيدة والقتيبي: إن هذه الهاء في بصيرة هي التي يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة، كما في قولهم: علامة. وقيل: المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير وشرّ، والتاء على هذا للتأنيث. وقال الحسن: أي بصير بعيوب نفسه وَ لَوْ أَلْقَى مَعَاذِرَهُ أَي: ولو اعتذر و جادل عن نفسه لم ينفعه ذلك. يقال: معذرة و معاذير. قال الفراء: أي:

و إن اعتذر فعليه من يكذب عذره «٢». وقال الزجاج: المعاذير: الستور، والواحد معذار، أي: و إن أرخى الستور يريد أن يخفي نفسه فنفسه شاهدة عليه، كذا قال الضحّاك و السّدي: و الستر بلغة اليمن يقال له معذار.

كذا قال المبرد. و منه قول الشاعر:

و لَكِنَّهَا ضَنْتَ بِمَنْزَلِ سَاعَةِ عَلَيْنَا وَ أَطَّتْ يَوْمَهَا بِالْمَعَادِرِ

و الأوّل أولى، و به قال مجاهد و قتادة و سعيد بن جبیر و ابن زید و أبو العالیة و مقاتل، و مثله قوله: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ

مَعْدِرَتُهُمْ «٣» و قوله: وَ لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ «٤» و قول الشاعر:

فما حسن أن يعذر المرء نفسه و ليس له من سائر الناس عاذر

لَا تُحَرِّكَ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَحْرُكُ شَفْتَيْهِ وَ لِسَانَهُ بِالْقُرْآنِ إِذَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ قَبْلَ فِرَاقِ جَبْرِيلَ

مِنَ قِرَاءَةِ الْوَحْيِ حِرْصًا عَلَى أَنْ يَحْفَظَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، أَيْ: لَا تُحَرِّكَ بِالْقُرْآنِ لِسَانَكَ عِنْدَ إِقَاءِ الْوَحْيِ

لِتَأْخُذَهُ عَلَى عَجَلٍ مَخَافَةَ أَنْ يَتَفَلَّتَ مِنْكَ، وَ مِثْلُ هَذَا قَوْلُهُ: وَ لَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ «٥» الْآيَةُ. إِنَّ عَلَيْنَا

جَمْعَهُ فِي صَدْرِكَ حَتَّى لَا يَذْهَبَ عَلَيْكَ مِنْهُ شَيْءٌ وَ قُرْآنُهُ أَيْ: إِثْبَاتُ قِرَاءَتِهِ فِي لِسَانِكَ. قَالَ الْفَرَّاءُ: الْقِرَاءَةُ وَ الْقُرْآنُ مُصْدَرَانِ.

وَ قَالَ قَتَادَةُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ

(١). النور: ٢٤.

(٢). في القرطبي [١٩٠ / ١٩٠]: أَيْ وَ لَوْ اعْتَذَرَ فَقَالَ لَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا لَكَانَ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ مَنْ يَشْهَدُ عَلَيْهِ مِنْ جَوَارِحِهِ.

(٣). غافر: ٥٢.

(٤). المرسلات: ٣٦.

(٥). طه: ١١٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٠٧

أَيْ: شَرَائِعُهُ وَ أَحْكَامُهُ فَإِذَا قَرَأْتَهُ أَيْ: أَتَمَمْنَا قِرَاءَتَهُ عَلَيْكَ بِلِسَانِ جَبْرِيلَ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ أَيْ: قِرَاءَتَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانُهُ أَيْ: تَفْسِيرُ مَا فِيهِ

مِنَ الْحَلَالِ وَ الْحَرَامِ، وَ بَيَانُ مَا أَشْكَلَ مِنْهُ. قَالَ الزَّجَّاجُ:

الْمَعْنَى عَلَيْنَا أَنْ نَنْزِلَهُ عَلَيْكَ قَرَأْنَا عَرَبِيًّا فِيهِ بَيَانٌ لِلنَّاسِ. وَ قِيلَ: الْمَعْنَى: إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ كَلَّا لِلرَّدْعِ

عَنِ الْعَجَلَةِ وَ التَّرْغِيبِ فِي الْأَنْاءِ، وَ قِيلَ: هِيَ رَدْعٌ لِمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ وَ بَكُونَهُ بَيْنَا مِنَ الْكُفَّارِ. قَالَ عَطَاءٌ: أَيْ: لَا يُؤْمِنُ أَبُو جَهْلٍ

بِالْقُرْآنِ وَ بَيَانُهُ. قَرَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَ الْكُوفِيِّونَ: بَلْ تُحِبُّونَ وَ تَذَرُونَ بِالْفُوقِيَّةِ فِي الْفَعْلَيْنِ جَمِيعًا. وَ قَرَأَ الْبَاقُونَ بِالتَّحْتِيَّةِ فِيهِمَا، فَعَلَى

الْقِرَاءَةِ الْأُولَى يَكُونُ الْخُطَابُ لَهُمْ تَقْرِيعًا وَ تَوْبِيخًا، وَ عَلَى الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ يَكُونُ الْكَلَامُ عَائِدًا إِلَى الْإِنْسَانِ لِأَنَّهُ بِمَعْنَى النَّاسِ، وَ

الْمَعْنَى:

تُحِبُّونَ الدُّنْيَا وَ تَتْرَكُونَ الْآخِرَةَ فَلَا تَعْمَلُونَ لَهَا وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ أَيْ: نَاعِمَةٌ غَضَّةٌ حَسَنَةٌ، يُقَالُ: شَجَرَ نَاضِرٌ وَ رَوْضٌ نَاضِرٌ، أَيْ:

حَسَنٌ نَاعِمٌ، وَ نَضَارَةُ الْعَيْشِ: حَسَنَةٌ وَ بَهْجَتُهُ. قَالَ الْوَاحِدِيُّ وَ الْمَفْسُورُونَ: يَقُولُونَ مُضِيئَةً مَسْفَرَةٌ مَشْرُقَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ هَذَا مِنَ

النَّظَرِ، أَيْ: إِلَى خَالِقِهَا وَ مَالِكِ أَمْرِهَا نَاضِرَةٌ أَيْ: تَنْظُرُ إِلَيْهِ، هَكَذَا قَالَ جَمْهُورُ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَ الْمُرَادُ بِهِ مَا تَوَاتَرَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ

الصَّحِيحَةُ مِنْ أَنَّ الْعِبَادَ يَنْظُرُونَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَ هَذَا بِحَمْدِ اللَّهِ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ

الصَّحَابَةِ وَ التَّابِعِينَ وَ سَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمَا هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ وَ هِدَاةِ الْأَنْامِ. وَ قَالَ مُجَاهِدٌ:

أَنَّ النَّظَرَ هُنَا انْتِظَارٌ مَا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ، وَ رَوَى نَحْوَهُ عَنْ عِكْرَمَةَ، وَ قِيلَ: لَا يَصِحُّ هَذَا إِلَّا عَنْ مُجَاهِدٍ وَحْدِهِ. قَالَ الْأَزْهَرِيُّ:

وَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ خَطَأٌ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ: نَظَرَ إِلَى كَذَا بِمَعْنَى الْإِنْتِظَارِ. وَ إِنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ:

نَظَرْتُ إِلَى فَلَانٍ لَيْسَ إِلَّا رُؤْيُ عَيْنٍ، إِذَا أَرَادُوا الْإِنْتِظَارَ قَالُوا: نَظَرْتَهُ، كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى أم جندب  
فإذا أرادوا نظر العين قالوا: نظرت إليه، كما قال الشاعر «١»:  
نظرت إليها و النجوم كأنها مصاييح رهبان تشب لقفال «٢»  
وقول الآخر:

إني إليك لما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغني الموسر

أى: أنظر إليك نظر ذل كما ينظر الفقير إلى الغني. و أشعار العرب و كلماتهم فى هذه كثيرة جدًا.

و «وجه» مبتدأ، و جاز الابتداء به مع كونه نكرة، لأن المقام مقام تفصيل، و «ناصرة» صفة لوجه، و «يومئذ» ظرف لناصرة، و لو لم يكن المقام مقام تفصيل لكان وصف النكرة بقوله: ناصرة مسوغا للابتداء بها، و لكن مقام التفصيل بمجرد مسوغ للابتداء بالنكرة و وجوه يومئذ بأسره أى: كالحه

(١). هو امرؤ القيس.

(٢). «تشب»: توقد. «القفال»: جمع قافل، و هو الراجع من السفر.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٠٨

عابسه كئيبه. قال فى الصحاح: بسر الرجل وجهه بسورا، أى: كلعج. قال السدي: بأسره أى:

متغيره، و قيل: مصفرة، و المراد بالوجه هنا وجه الكفار تظن أن يفعل بها فاقرة الفاقة: الداهية العظيمة، يقال: فقرته الفاقة، أى: كسرت فقار ظهره. قال قتادة: الفاقة: الشر، و قال السدي:

الهلاك، و قال ابن زيد: دخول النار. و أصل الفاقة: الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم، كذا قال الأصمعي، و من هذا قولهم: قد عمل به الفاقة. قال النابغة:

أبى لى قبر لا يزال مقابلى و ضربة فأس فوق رأسى فاقره

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: لا أقسم بيوم القيامة قال: يقسم ربك بما شاء من خلقه، قلت: و لا أقسم باللوامة قال: النفس اللوامة قال: النفس اللوامة «١»، قلت: أ يحسب الإنسان أن نجتمع عظامه - بلى قادرين على أن نسوي بنانه قال: لو شاء لجعله خفا أو حافرا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه اللوامة قال:

المذمومة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا قال: التى تلوم على الخير و الشر، تقول: لو فعلت كذا و كذا. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال: تندم على ما فات و تلوم عليه. و أخرج ابن جرير عنه أيضا بل يريد الإنسان ليفجر أمامة قال: يمضى قدما. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال:

هو الكافر الذى يكذب بالحساب. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: يعنى الأمل، يقول: أعمل ثم أتوب. و أخرج ابن أبى الدنيا فى ذم الأمل، و البيهقى فى الشعب، عنه أيضا فى الآية قال: يقدم الذنب و يؤخر التوبة. و أخرج الفريابي و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب، عنه أيضا بل يريد الإنسان ليفجر أمامة يقول: سوف أتوب يسئل أيان يوم القيامة قال: يقول متى يوم القيامة، قال: فبين له فإذا برق البصر. و أخرج ابن جرير عنه قال:

فإذا برق البصر يعنى الموت.

و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: لا وزر قال: لا حصن. و أخرج عبد

بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن ابي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله:  
 لا- وَزَرَ قَالَ: لا حصن و لا ملجأ، و في لفظ: لا حرز، و في لفظ: لا جبل. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن  
 المنذر عن ابن مسعود في قوله: يُتَّبِعُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَ أَخَّرَ قَالَ:  
 بما قَدَّمَ من عمل، و آخر من سنَّه عمل بها من بعده من خير أو شرّ. و أخرج ابن المنذر و ابن ابي حاتم عن ابن عباس نحوه. و  
 أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: بما قَدَّمَ من المعصية و آخر من الطاعة فينبأ بذلك.  
 و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر من طرق عنه في قوله: بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ قَالَ:  
 شهد على نفسه وحده وَ لَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ قَالَ: و لو اعتذر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن ابي

(١). في الدر المنثور (٨/ ٣٤٢): الملوثة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٠٩

حاتم عنه بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ قَالَ: سمعه و بصره و يديه و رجليه و جوارحه وَ لَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ قَالَ: و لو تجرّد من ثيابه.  
 و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يعالج من التنزيل شدة، فكان  
 يحرك به لسانه و شفّيته مخافة أن يتفلت منه يريد أن يحفظه، فأنزل الله: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ  
 قَالَ: يقول إن علينا أن نجتمع في صدرك ثم تقرأه فإذا قرأناه يقول: إذا أنزلناه عليك فاتبع قرآنه فاستمع له و أنصت ثم إن علينا  
 بيانه أن نبيّه بلسانك، و في لفظ: علينا أن نقرأه، فكان رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق. و في  
 لفظ: استمع، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن ابي حاتم عنه فإذا قرأناه قال: بيناه فاتبع قرآنه  
 يقول:

اعمل به. و أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، عن ابن مسعود في قوله: كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ قَالَ: عجلت لهم الدنيا شرّها  
 و خيرها، و غيبت الآخرة.

و أخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ قَالَ: ناعمة. و أخرج ابن المنذر، و الآجري في الشريعة، و اللالكائي في  
 السنة، و البيهقي في الرؤية، عنه وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ قَالَ: يعنى حسنها إلى ربّها ناظرة قال: نظرت إلى الخالق. و أخرج ابن مردويه  
 عنه أيضا إلى ربّها ناظرة قال:

تنظر إلى وجه ربّها. و أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ - إلى  
 ربّها ناظرة قال: ينظرون إلى ربهم بلا كيفية و لا حدّ محدود و لا صفة معلومة». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابي  
 هريرة قال: قال الناس: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال:

«هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فهل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟  
 قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث ابي هريرة نحوه. و  
 قد قدّمنا أن أحاديث الرؤية متواترة فلا نطيل بذكرها، و هى تأتى في مصنف مستقلّ، و لم يتمسك من نفاها و استبعدها بشيء  
 يصلح للتمسك به لا من كتاب الله و لا من سنّته رسوله.

و قد أخرج ابن ابي شيبة و عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و الدارقطنى و الحاكم و ابن مردويه و  
 البيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه و أزواجه و نعيمه  
 و خدمه و سريره مسيرة ألف سنة، و أكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة و عشية، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه و سلم:

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ - إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ». و أخرجه أحمد في المسند من حديثه بلفظ: «إن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين». و أخرج النسائي، و الدار قطنى و صححه، و أبو نعيم عن أبي هريرة قال: «قلنا: يا رسول الله هل نرى ربنا، قال: هل ترون الشمس في يوم لا غيم فيه، و ترون القمر في ليلة لا غيم فيها؟ قلنا: نعم، قال: فإنكم سترون ربكم عز و جل، حتى إن أحدكم فتح القدير، ج ٥، ص: ٤١٠

ليحضره ربّه محاضرة، فيقول: عبدى هل تعرف ذنب كذا و كذا؟ فيقول: أ لم تغفر لى؟ فيقول: بمغفرتى صرت إلى هذا».

## [سورة القيامة (٧٥): الآيات ٢٦ الى ٤٠]

كَأَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالتَّفْتِ السَّاقِ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَ لَكِنْ كَذَبَ وَ تَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥)

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠)

قوله: كَلَّا ردع و زجر، أى: بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة، ثم استأنف، فقال: إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ أى: بلغت النفس أو الروح التراقى، و هى جمع ترقوة، و هى عظم بين نقرة النحر و العاتق، و يكنى ببلوغ النفس التراقى عن الإشفاء على الموت، و مثله قوله: فَلَوْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ «١» و قيل:

معنى كَلَّا حقا، أى: حقا أن المساق إلى الله إذا بلغت التراقى، و المقصود تذكيرهم شدة الحال عند نزول الموت. قال دريد بن الصَّمَّة:

و ربّ كريهه دافعت عنهم و قد بلغت نفوسهم التراقى

وَ قِيلَ مَنْ رَاقٍ أى: قال من حضر صاحبها: من يرقيه و يشطفى برقيته؟ .. قال قتادة: التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئا، و به قال أبو قلابه، و منه قول الشاعر:

هل للفتى من بنات الدهر من واق أم هل له من حمام الموت من راق

و قال أبو الجوزاء: هو من رقى يرقى؛ إذا سعد، و المعنى: من يرقى بروحه إلى السماء أم ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ و قيل: إنه يقول ذلك ملك الموت، و ذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ أى: و أيقن العدى بلغت روحه التراقى أنه الفراق من الدنيا و من الأهل و المال و الولد وَ التَّفْتِ السَّاقِ بِالسَّاقِ أى: التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به. و قال جمهور المفسرين: المعنى تتابعت عليه الشدائد. و قال الحسن: هما ساقاه إذا التفتا فى الكفن. و قال زيد بن أسلم: التفت ساق الكفن بساق الميت، و قيل: ماتت رجلاه و يبست ساقاه فلم تحملاه، و قد كان جوالا عليهما. و قال الضحّاك: اجتمع عليه أمران شديدان: الناس يجهزون جسده، و الملائكة يجهزون روحه. و به قال ابن زيد. و العرب لا تذكر الساق إلا فى الشدائد الكبار، و المحن العظام، و منه قولهم: قامت الحرب على ساق. و قيل: الساق الأول تعذيب روحه عند خروج نفسه، و الساق الآخر شدة البعث و ما بعده إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ أى: إلى خالقك يوم القيامة المرجع، و ذلك جمع العباد إلى الله يساقون إليه فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى أى: لم يصدق بالرسالة

ولا بالقرآن، ولا صلى لربه، والضمير يرجع إلى الإنسان المذكور في أول هذه السورة. قال قتادة: فلا صدق بكتاب الله ولا صلى لله، وقيل: فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه. قال الكسائي لا بمعنى لم، وكذا قال الأخفش:

والعرب تقول: لا ذهب، أى: لم يذهب، وهذا مستفيض في كلام العرب، ومنه:

إن تغفر اللهم تغفر جمّوا أى عبد لك لا ألما

وَ لَكِنْ كَذَبَ وَ تَوَلَّى أَى: كذّب بالرسول وبما جاء به، وتولّى عن الطاعة والإيمان ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى أَى: يتبختر و يختال فى مشيته افتخارا بذلك. وقيل: هو مأخوذ من المطى وهو الظهر، والمعنى: يلوى مطاه. وقيل: أصله يتمطط، وهو التمدد والتناقل، أى: يتناقل ويتكاسل عن الداعى إلى الحق أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى أَى: وليك الويل، وأصله أولاك الله ما تكرهه، واللام مزيدة كما فى رَدِفَ لَكُمْ «١» وهذا تهديد شديد، والتكرير للتأكيد، أى: يتكرر عليك ذلك مرة بعد مرة.

قال الواحدى: قال المفسرون: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد أبى جهل، ثم قال: أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى فقال أبو جهل: بأى شىء تهددنى لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلابى شيئا، وإنى لأعزّ أهل هذا الوادى، فنزلت هذه الآية. وقيل: معناه: الويل لك، ومنه قول الخنساء:

هممت بنفسى كل الهموم فأولى لنفسى أولى لها

وعلى القول بأنه الويل، قيل: هو من المقلوب كأنه قيل: أويل لك، ثم أآخر الحرف المعتل. قيل: ومعنى التكرير لهذا اللفظ أربع مرات، والويل لك حيا، والويل لك ميتا، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تدخل النار. وقيل: المعنى: إن الذم لك أولى لك من تركه. وقيل: المعنى: أنت أولى وأجدر بهذا العذاب قاله ثعلب. وقال الأصمعى: أولى فى كلام العرب معناه مقاربة الهلاك. قال المبرد: كأنه يقول: قد وليت الهلاك وقد دانيت، وأصله من الولى، وهو القرب، وأنشد الفراء:

فأولى أن يكون لك الولاء «٢» أى: قارب أن يكون لك، وأنشد أيضا:

أولى لمن هاجت له أن يكمدأ أ يحسب الإنسان أن يترك سدى أى: هملا، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يحاسب ولا يعاقب، وقال السدى: معناه المهمل، ومنه إبل سدى، أى: ترعى بلا راع، وقيل: المعنى: أ يحسب أن يترك فى قبره كذلك أبدا لا يبعث. و جملة أ لَمْ يَكُ نُظْفَةً مِّنْ مَّنِيٍّ يُمْنَى مستأنفة، أى: ألم يك ذلك الإنسان قطرة من منى يراق فى الرحم، و سَمَى المني منيا لإراقته، والنطفة: الماء القليل، يقال: نطف الماء؛ إذا قطر.

(١). النمل: ٧٢.

(٢). فى القرطبي قاله الأصمعى هكذا: وأولى أن يكون له الولاء.

قرأ الجمهور أ لَمْ يَكُ بِالتَّحْتِيَةِ عَلَى إِرْجَاعِ الضَّمِيرِ إِلَى الْإِنْسَانِ. وقرأ الحسن بالفوقية على الالتفات إليه تويخا له. وقرأ الجمهور أيضا: تمنى بالفوقية على أن الضمير للنطفة. وقرأ حفص وابن محيصن ومجاهد ويعقوب بالتحتية على أن الضمير للمنى، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو، واختارها أبو حاتم ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً أَى: كان بعد النطفة علقه، أى: دما فخلق أى: فقدّر بأن جعلها مضغة مخلّقة فسوّى أى: فعدّله و كمل نشأته و نفخ فيه الروح فَجَعَلَ مِنْهُ أَى: حصل من الإنسان، وقيل: من المنى الزّوجين أى: الصنفين من نوع الإنسان. ثم بين ذلك فقال: الدّكر وَ الأُنثى أى: الرجل والمرأة أ لَيْسَ ذَلِكَ أَلْدَى أَنشأ هذا

الخلق البديع و قدر عليه بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى أَى: يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه فى الدنيا؛ فإن الإعادة أهون من الابتداء، و أيسر مؤنة منه. قرأ الجمهور: بِقَادِرٍ و قرأ زيد بن على: يقدر فعلا مضارعاً، و قرأ الجمهور: يُحْيِي بنصبه بأن. و قرأ طلحة بن سليمان و الفياض بن غزوان بسكونها تخفيفاً، أو على إجراء الوصل مجرى الوقف كما مرّ فى مواضع.

و قد أخرج ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ قال: تنتزع نفسه حتى إذا كانت فى تراقيه، قيل: من يرقى بروحه؛ ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب؟

وَ التَّفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ قال: التفت عليه الدنيا و الآخرة و ملائكة العذاب أيهم يرقى به. و أخرج عبد ابن حميد عنه وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ قال: من راق يرقى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أَيْضاً وَ التَّفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ يقول: آخر يوم من أيام الدنيا و أول يوم من أيام الآخرة، فتلتقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أَيْضاً يَتَمَطَّى قال: يختال.

و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن سعيد بن جبيرة قال: سألت ابن عباس عن قوله: أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى أ شىء قاله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ لأبى جهل من قبل نفسه، أم أمره الله به؟ قال: بل قاله من قبل نفسه، ثم أنزله الله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أَنَّ يُتْرَكَ سَيْدِيَّ قال: هملاً. و أخرج عبد بن حميد و ابن الأنبارى عن صالح أبى الخليل قال: «كان النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ إِذَا قرأ هذه الآية أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى قال: سبحانك اللهم و بلى». و أخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال: لما نزلت هذه الآية أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «سبحانك ربى و بلى». و أخرج ابن النجار فى تاريخه عن أبى أمامة أنه سمع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يقول عند قراءته لهذه الآية: «بلى و أنا على ذلك من الشاهدين». و أخرج أحمد و أبو داود و الترمذى و ابن المنذر، و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «من قرأ منكم و التين و الزيتون فانتهى إلى آخرها»: أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ «١» فليقل: بلى و أنا على ذلك من الشاهدين. و من قرأ: لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فانتهى

(١). التين: ٨.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤١٣

إلى قوله: أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى فليقل: بلى، و من قرأ: وَ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فبلغ فَبَأَى حَيْثُ بَعِيدُهُ يُؤْمِنُونَ «١» فليقل: آمنا بالله» و فى إسناده رجل مجهول. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «إذا قرأت: لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فبلغت أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى فقل: بلى».

(١). سورة المرسلات بتمامها.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤١٤

## سورة الإنسان

### إشارة

قال الجمهور: هى مدنية. و قال مقاتل و الكلبي: هى مكية. و أخرج النحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة. و أخرج ابن مردويه

عن ابن الزبير مثله، وقيل: فيها مكي من قوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (١) إلى آخر السورة، و ما قبله مدني. و أخرج الطبراني و ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عمر قال: جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم، فقال له رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم: «سل و استفهم»، فقال:

يا رسول الله فضلتنا بالألوان و الصور و النبوءة، أ فرأيت إن آمنت بما آمنت به و عملت بما عملت به؛ أنى كائن معك فى الجنة؟ قال: «نعم و الذى نفسى بيده إنه ليرى بياض الأسود فى الجنة من مسيرة ألف عام، ثم قال: من قال: لا إله إلا الله كان له عهد عند الله. و من قال: سبحان الله و بحمده كتب له مائة ألف حسنة و أربعة و عشرون ألف حسنة» و نزلت هذه السورة: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ إِلَى قَوْلِهِ: مُلْكًا كَبِيرًا فَقَالَ الْحَبَشِيُّ: و إن عيني لترى ما ترى عيناك فى الجنة؟ قال: «نعم»، فاشتكى حتى فاضت نفسه. قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم يديه فى حفرة بيده.

و أخرج أحمد فى الزهد عن محمد بن مطرف قال: حدثنى الثقة: أن رجلاً أسود كان يسأل رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم عن التسييح و التهليل، فقال له عمر بن الخطاب: أكثرت على رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم، فقال: مه يا عمر. و أنزلت على النبى صَلَّى الله عليه و سلم هَيْلُ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى ذِكْرِ الْجَنَّةِ زَفْرَ الْأَسْوَدِ زَفْرَةً خَرَجَتْ نَفْسُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَاتَ شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ».

و أخرج نحوه ابن وهب عن ابن زيد مرفوعاً مرسلًا. و أخرج أحمد و الترمذى و حسنه و ابن ماجه و ابن منيع، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صححه، و الضياء عن أبى ذرّ قال: «قرأ رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حَتَّى خْتَمَهَا، ثم قال: إنى أرى ما لا ترون و أسمع ما لا تسمعون، أ طت السماء و حقّ لها أن تتط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا و ملك واضع جبهته ساجدا لله، و الله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً- و لبكيتم كثيراً، و ما تلذذتم بالنساء على الفرش، و لخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عزّ و جلّ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## [سورة الإنسان (٧٦): الآيات ١ الى ١٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَ أَغْلَالًا وَ سَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَ يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَ يَتِيمًا وَ أَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لُؤْجِهَ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَ لَا شُكُورًا (٩)

إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبَّوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَ لَفَاقَهُمْ نَصْرُهُ وَ سُورًا (١١) وَ جَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيرًا (١٢)

(١). الإنسان: ٢٣.



أبو عبيدة. قال الفراء: «هل» تكون جحدا، و تكون خيرا، فهذا من الخبر، لأنك تقول: هل أعطيتك؟ تقرره بأنك أعطيته، و الجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا؟ و قيل:

هي و إن كانت بمعنى قد ففيها معنى الاستفهام، و الأصل: أهل أتى، فالمعنى: أقدم أتى، و الاستفهام للتقرير و التقريب، و المراد بالإنسان هنا آدم، قاله قتادة و الثوري و عكرمة و السدي و غيرهم حين من الدهر قيل: أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح، و قيل: إنه خلق من طين أربعين سنة، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة، ثم من صلصال أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة و عشرين سنة. و قيل: الحين المذكور هنا لا يعرف مقداره، و قيل: المراد بالإنسان بنو آدم، و الحين مدة الحمل، و جملة: لم يكن شيئا مذكورا في محل نصب على الحال من الإنسان، أو في محل رفع صفة لحين. قال الفراء و قطرب و ثعلب: المعنى أنه كان جسدا مصورا ترابا و طينا لا يذكر و لا يعرف و لا يدري ما اسمه و لا ما يراد به، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكورا.

و قال يحيى بن سلام: لم يكن شيئا مذكورا في الخلق و إن كان عند الله شيئا مذكورا، و قيل: ليس المراد بالذكر هنا الإخبار، فإن إخبار الرب عن الكائنات قديم، بل هو الذكر بمعنى الخطر و الشرف، كما في قوله: وَ إِنَّهُ لَمَذْكُرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ (١). قال القشيري: ما كان مذكورا للخلق و إن كان مذكورا لله سبحانه. قال الفراء:

كان شيئا و لم يكن مذكورا. فجعل النفي متوجها إلى القيد. و قيل: المعنى: قد مضت أزمنته و ما كان آدم شيئا و لا مخلوقا و لا مذكورا لأحد من الخلق. و قال مقاتل: في الكلام تقديم و تأخير، و تقديره: هل أتى حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله، و لم يخلق بعده حيوان إنا خلقنا الإنسان من نطفة المراد بالإنسان هنا ابن آدم. قال القرطبي: من غير خلاف، و النطفة: الماء الذي يقطر، و هو المنى، و كل ماء قليل في وعاء فهو نطفة، و جمعها نطف، و أمشاج صفة لنطفة، و هي جمع مشج، أو مشيج، و هي الأخلاط، و المراد نطفة الرجل و نطفة المرأة و اختلاطهما. يقال: مشج هذا بهذا فهو ممشوج، أي: خلط هذا بهذا فهو مخلوط. قال المبرد: مشج يمشج إذا اختلط، و هو هنا اختلاط النطفة بالدم. قال رؤبة بن العجاج: يطرحن كل معجل نشاج لم يكس جلدا في دم أمشاج

(١). الزخرف: ٤٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤١٦

قال الفراء: أمشاج: اختلاط ماء الرجل و ماء المرأة و الدم و العلقه، و يقال: مشج هذا؛ إذا خلط، و قيل: الأمشاج: الحمرة في البياض و البياض في الحمرة. قال القرطبي: و هذا قول يختاره كثير من أهل اللغة. قال الهذلي:

كأن الرّيش و الفوقين منه خلاف النّصل سيّط به (١) مشج

و ذلك لأن ماء الرجل أبيض غليظ و ماء المرأة أصفر رقيق فيخلق منهما الولد. قال ابن السكيت: الأمشاج: الأخلاط لأنها ممتزجة من أنواع يخلق الإنسان منها ذا طباع مختلفة. و قيل: الأمشاج لفظ مفرد كبرمة أعشار، و يؤيد هذا وقوعه نعتا لنطفة، و جملة: نبتليه في محل نصب على الحال من فاعل خلقنا، أي: مريدين ابتلاءه، و يجوز أن يكون حالا من الإنسان، و المعنى: نبتليه بالخير و الشرّ و بالتكاليف. قال الفراء: معناه و الله أعلم: فجعلناه سميعا بصيرا لنبتليه و هي مقدّمة معناها التأخير؛ لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقه، و على هذا تكون هذه الحال مقدّرة، و قيل: مقارنه. و قيل: معنى الابتلاء: نقله من حال إلى حال على طريقه الاستعارة، و الأوّل أولى. ثم ذكر سبحانه أنه أعطاه ما يصحّ معه الابتلاء فقال: إنا هدينا السبيل إنا شاكرا و إنا كفورا أي: بينا له، و عرفناه طريق الهدى و الضلال و الخير و الشرّ؛ كما في قوله:

وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (٢) قال مجاهد: أى بينا السبيل إلى الشقاء والسعادة. وقال الضحاك والسدى وأبو صالح: السبيل هنا خروجه من الرحم، وقيل: منافعه ومضاره التى يهتدى إليها بطبعه وكمال عقله، وانتصاب شاكرا وكفورا على الحال من مفعول هَدَيْنَاهُ أى: مكناه من سلوك الطريق فى حالتيه جميعا، وقيل:

على الحال من سبيل على المجاز، أى: عرّفناه السبيل إما سبيلا شاكرا وإما سبيلا كفورا. وحكى مكى عن الكوفيين أن قوله: إما: هى إن شرطية زيدت بعدها ما، أى: بينا له الطريق إن شكر وإن كفر. واختار هذا الفراء، ولا يجيزه البصريون لأن إن الشرطية لا تدخل على الأسماء إلا أن يضم بعدها فعل، ولا يصح هنا إضمار الفعل لأنه كان يلزم رفع شاكرا وكفورا. ويمكن أن يضم فعل ينصب شاكرا وكفورا، وتقديره:

إن خلقناه شاكرا فشكور وإن خلقناه كافرا فكفور، وهذا على قراءة الجمهور: إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَافُرًا بكسر همزة إما. وقرأ ابن السكيت وأبو العجاج بفتحها، وهى على الفتح إما العاطفة فى لغة بعض العرب، وهى التفصيلية وجوابها مقدر، وقيل: انتصب شاكرا وكفورا بإضمار كان، والتقدير: سواء كان شاكرا أو كان كفورا. ثم بين سبحانه ما أعد للكافرين فقال: إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا قرأ نافع والكسائى وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر سلاسل بالتثنية، ووقف قبل ابن كثير وحمزة بغير ألف، والباقون وقفوا بالألف. ووجه من قرأ بالتثنية فى سلاسل مع كون فيه صيغة منتهى الجموع أنه قصد بذلك التناسب لأن ما قبله وهو: إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَافُرًا، وما بعده وهو أَغْلَالًا وَسَعِيرًا

(١). «سيط به»: أى خرج شىء من الريش مختلط من الدم والماء.

(٢). البلد: ١٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤١٧

منون؛ أو على لغة من يصرف جميع ما لا ينصرف كما حكاها الكسائى وغيره من الكوفيين عن بعض العرب. قال الأخفش: سمعنا من العرب من يصرف كل ما لا ينصرف، لأن الأصل فى الأسماء الصرف وترك الصرف لعارض فيها. قال الفراء: هو على لغة من يجز الأسماء كلها إلا قولهم: هو أظرف منك فإنهم لا يجرونه، وأنشد ابن الأنبارى فى ذلك قول عمرو بن كلثوم:

كَأَنَّ سَيُوفَنَا فِينَا وَفِيهِمْ مَخَارِيقُ بِأَيْدِي لَاعِينَا

و من ذلك قول الشاعر:

وَإِذَا الرِّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُمْ خَضَعَ الرِّقَابَ نَوَاقِسَ الْأَبْصَارِ

بكسر السين من نواكس، وقول لبيد:

وَجَزُورِ أَسْتَارِ دَعْوَتِ لِحْتَفْهَابِ مِغَالِقِ مِثْلِهَا أَعْلَاقُهَا

وقوله أيضا:

فَضْلًا وَذُو كَرَمٍ يَعْينُ عَلَى النَّدى سَمَحَ كَسُوبِ رِغَائِبِ غَنَامِهَا

وقيل: إن التثنية لموافقته رسم المصاحف المكية والمدنية والكوفية فإنها بالألف، وقيل: إن هذا التثنية بدل من حرف الإطلاق، ويجرى الوصل مجرى الوقف، والسلاسل قد تقدم تفسيرها، والخلاف فيها هل هى القيود، أو ما يجعل فى الأعناق، كما فى قول الشاعر:

... و لكن أحاطت بالرقاب السلاسل والأغلال

جمع غلّ تغل به الأيدي إلى الأعناق، و السعير: الوقود الشديد، و قد تقدّم تفسير السعير.

ثم ذكر سبحانه ما أعدّه للشاكرين فقال: إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ الْأَبْرَارِ: أهل الطاعة و الإخلاص و الصدق، جمع برّ أو: بارّ. قال في الصحاح: جمع البرّ الأبرار، و جمع البارّ البررة، و فلان يبرّ خالقه و يبرره، أى: يطيعه. و قال الحسن: البرّ الذى لا يؤذى الذرّ. و قال قتادة: الأبرار الذين يؤدّون حق الله و يوفون بالندر. و الكأس فى اللغة هو الإناء الذى فيه الشراب، و إذا لم يكن فيه الشراب لم يسمّ كأساً، و لا وجه لتخصيصه بالزجاج، بل يكون من الزجاج و من الذهب و الفضة و الصينى و غير ذلك، و قد كانت كاسات العرب من أجناس مختلفة، و قد يطلق الكأس على نفس الخمر كما فى قول الشاعر:

و كأس شربت على لذّه و أخرى تداويت منها بها

كان مزاجها كافوراً أى: يخالطها و تمزج به، يقال مزجه يمزجه مزجا، أى: خلطه يخلطه خلطاً، و منه قول الشاعر «١»:

(١). هو حسان.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤١٨ كأنّ سبيته من بيت رأس كان مزاجها عسل و ماء

و قول عمرو بن كلثوم:

صددت الكأس عناً أمّ عمروو كان الكأس مجراها اليمين

معتقة «١» كأنّ الحصّ «٢» فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

و منه مزاج البدن، و هو ما يمازجه من الأخلاط، و كافوراً قيل: هو اسم عين فى الجنة يقال لها الكافور تمزج خمر الجنة بماء هذه العين. و قال قتادة و مجاهد: تمزج لهم بالكافور و تختم لهم بالمسك. و قال عكرمة: مزاجها طعمها، و قيل: إنما الكافور فى ريحها لا فى طعمها. و قيل: إنما أراد الكافور فى بياضه و طيب رائحته و برده، لأن الكافور لا يشرب كما فى قوله: حتّى إذا جعله ناراً «٣» أى ك: نار. و قال ابن كيسان:

طيبها المسك و الكافور و الزنجبيل. و قال مقاتل: ليس هو كافور الدنيا، و إنما سمي الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدى له القلوب، و الجملة فى محل جرّ صفة لكأس. و قيل: إن كان هنا زائدة، أى: من كأس مزاجها كافوراً عيناً يشرب بها عباد الله انتصاب عينا على أنها بدل من كافوراً، لأن ماءها فى بياض الكافور. و قال مكى: إنها بدل من محل من كأس على حذف مضاف، كأنه قيل: يشربون خمرا خمر عين، و قيل: إنها منتصبه على أنها مفعول يشربون، أى: عينا من كأس، و قيل: هى منتصبه على الاختصاص، قاله الأخفش، و قيل: منتصبه بإضمار فعل يفسره ما بعده، أى: يشربون عينا يشرب بها عباد الله، و الأوّل أولى، و تكون و جملة يشرب بها عباد الله صفة لعينا. و قيل: إن الباء فى يشرب بها زائدة، و قيل: بمعنى من، قاله الزجاج، و يعضده قراءة ابن أبى عبله «يشربها عباد الله». و قيل:

إن يشرب مضمن معنى يلتدّ، و قيل: هى متعلقة بيشرب، و الضمير يعود إلى الكأس. و قال الفراء: يشربها و يشرب بها سواء فى المعنى، و كأنّ يشرب بها يروى بها و ينتفع بها، و أنشد قول الهذلى:

شربن بماء البحر ثم ترفعت «٤» قال: و مثله تكلم بكلام حسن، و تكلم كلاماً حسناً يُفجّرونها تفجيراً أى: يجرونها إلى حيث يريدون و ينتفعون بها كما يشاءون، و يتبعهم ماؤها إلى كل مكان يريدون وصوله إليه، فهم يشقونها شقاً كما يشقّ النهر و يفجر إلى هنا و هنا. قال مجاهد: يقودونها حيث شاؤوا، و تتبعهم حيث مالوا مالت معهم، و الجملة صفة أخرى لعينا، و جملة يوفون بالندر مستأنفة مسوقة لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر. و كذا ما عطف عليها، و معنى النذر فى اللغة الإيجاب، و المعنى: يوفون بما أوجبه الله عليهم من الطاعات. قال قتادة و مجاهد: و يوفون بطاعة الله

(١). فى شرح المعلقات السبع: مشعشة.

(٢). «الحص»: الورس، و هو نبت له نوار أحمر؛ يشبه الزعفران.

(٣). الكهف: ٩٦.

(٤). و عجز البيت: متى لجج خضر لهنّ نثيج. و «نثيج»: أى: مرّ سريع مع صوت.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤١٩

من الصلاة و الحج و نحوهما. و قال عكرمة: يوفون إذا نذروا فى حق الله سبحانه، و النذر فى الشرع: ما أوجه المكلف على نفسه، فالمعنى: يوفون بما أوجبه على أنفسهم. قال الفراء: فى الكلام إضمار، أى: كانوا يوفون بالنذر فى الدنيا. و قال الكلبى: يُوفُونَ بِالنَّذْرِ أى: يتممون العهد. و الأولى حمل النذر هنا على ما أوجه العبد على نفسه من غير تخصيص. وَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا المراد يوم القيامة، و معنى استطارة شرّه: فشوّه و انتشاره، يقال: استطار يستطير استطارة فهو مستطير، و هو استفعل من الطيران، و منه قول الأعشى:

فبانّت و قد أسارت فى الفؤاد صدعا على نأيها مستطيرا

و العرب تقول: استطار الصدع فى القارورة و الزجاج؛ إذا امتدّ، و يقال: استطار الحرق؛ إذا انتشر.

قال الفراء: المستطير: المستطيل. قال قتادة: استطار شرّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات و الأرض. قال مقاتل: كان شرّه فاشيا فى السموات فانشقت و تناثرت الكواكب و فرعت الملائكة، و فى الأرض نسفت الجبال و غارت المياه. وَ يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشِيكِينَ وَ يَتِيمًا وَ أَسِيرًا أى: يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف الطعام على حبه لديهم و قلته عندهم. قال مجاهد: على قلته و حبه إياه و شهوتهم له؛ فقله على حبه فى محل نصب على الحال، أى: كائنين على حبه، و مثله قوله: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ «١» و قيل: على حبّ الإطعام لرغبتهم فى الخير. قال الفضيل بن عياض: على حبّ إطعام الطعام. و قيل: الضمير فى حبه يرجع إلى الله، أى: يطعمون الطعام على حبّ الله، أى: يطعمون إطعاما كائنا على حبّ الله، و يؤيد هذا قوله: إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ وَ الْمَسْكِينِ: ذو المسكنة، و هو الفقير، أو من هو أفقر من الفقير، و المراد باليتيم يتامى المسلمين، و الأسير: الذى يؤسر فيحبس. قال قتادة و مجاهد: الأسير: المحبوس. و قال عكرمة: الأسير: العبد. و قال أبو حمزة الثمالي: الأسير: المرأة. قال سعيد بن جبير: نسخ هذا الإطعام آية الصدقات و آية السيف فى حق الأسير الكافر. و قال غيره: بل هى محكمة، و إطعام المسكين و اليتيم على التطوع، و إطعام الأسير لحفظ نفسه إلهما أن يتخير فيه الإمام، و جملة إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ فى محل نصب على الحال بتقدير القول، أى: يقولون إنما نطعمكم، أو قائلين: إنما نطعمكم، يعنى: أنهم لا يتوقعون المكافأة و لا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك. قال الواحدى: قال المفسرون: لم يستكملوا بهذا، و لكن علمه الله من قلوبهم فأثنى عليهم، و علم من ثنائه أنهم فعلوا ذلك خوفا من الله و رجاء ثوابه لا نريدُ مِنْكُمْ جزاءً وَ لا سُكُوراً أى: لا نطلب منكم المجازاة على هذا الإطعام و لا نريد منكم الشكر لنا، بل هو خالص لوجه الله، و هذه الجملة مقررة لما قبلها، لأن من أطعم لوجه الله لا يريد المكافأة و لا يطلب الشكر له مِمَّنْ أطعمه إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا أى: نخاف عذاب يوم متّصف بهاتين الصفتين. و معنى عبوسا: أنه يوم تعبس فيه الوجوه من هول و شدته، فالمعنى: أنه ذو عبوس. قال الفراء و أبو عبيدة و المبرد: يوم قمطير

(١). آل عمران: ٩٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٢٠

و قماطر؛ إذا كان صعباً شديداً، و أنشد الفراء:

بنى عمنا هل تذكرون بلاءنا عليكم إذا ما كان يوم قماطر

قال الأخفش: القمطير أشد ما يكون من الأيام و أطوله في البلاء، و منه قول الشاعر:

ففرّوا إذا ما الحرب ثار غبارها و لَجَّ بها اليوم العبوس القماطر

قال الكسائي: اقمطرَ اليوم و ازمهزّ؛ إذا كان صعباً شديداً، و منه قول الشاعر «١»:

بنو الحرب أرضعنا لهم مقمطره و من يلق منا ذلك اليوم يهرب

و قال مجاهد: إن العبوس بالشفتين، و القمطير بالجبهة و الحاجبين، فجعلهما من صفات المتغيّر في ذلك اليوم لما يراه من

الشدائد، و أنشد ابن الأعرابي:

يغدو على الصّيد يعود منكسرو يقمطر ساعة و يكفهر

قال أبو عبيدة: يقال قمطير، أى: متقبض ما بين العينين و الحاجبين. قال الزجاج: يقال اقمطرّت الناقة؛ إذا رفعت ذنبها و جمعت

قطريها و زمت بأنفها، فاشتقّه من القطر، و جعل الميم مزيدة. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ أى: دفع عنهم شرّه بسبب خوفهم منه و

إطعامهم لوجهه و لَقَاهُمْ نَضْرَةً و سُوراً أى:

أعطاهم بدل العبوس في الكفار نضرة في الوجوه و سرورا في القلوب. قال الضحاك: و النضرة: البياض و النقاء في وجوههم. و

قال سعيد بن جبير: الحسن و البهاء، و قيل: النضرة أثر النعمة. و جَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا أى: بسبب صبرهم على التكليف، و قيل: على

الفقر، و قيل: على الجوع، و قيل: على الصوم. و الأولى حمل الآية على الصبر على كل شىء يكون الصبر عليه طاعة لله سبحانه،

و «ما» مصدرية، و التقدير: بصبرهم جنةً و حريراً أى: أدخلهم الجنة و ألبسهم الحرير، و هو لباس أهل الجنة عوضاً عن تركه في

الدنيا امتثالاً. لما ورد في الشرع من تحريمه، و ظاهر هذه الآيات العموم في كل من خاف من يوم القيامة و أطمع لوجه الله و

خاف من عذابه، و السبب و إن كان خاصاً كما سيأتى فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و يدخل سبب التنزيل تحت

عمومها دخولاً أولياً.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ قَالَ: كل إنسان. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن

مسعود في قوله: أمشاجٍ قال: أمشاجها: عروقتها. و أخرج سعيد ابن منصور و ابن أبي حاتم أمشاجٍ قال: العروق. و أخرج عبد بن

حميد و ابن أبي حاتم عن ابن عباس مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ قال: ماء الرجل و ماء المرأة حين يختلطان. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي

حاتم عنه قال:

أَمْشَاجٍ ألوان؛ نطفة الرجل بيضاء و حمراء، و نطفة المرأة خضراء و حمراء. و أخرج ابن أبي حاتم عنه

(١). حذيفة بن أنس الهذلي.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٢١

أيضاً قال: الأمشاج: الئدى يخرج على أثر البول كقطع الأوتار، و منه يكون الولد «١». و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه

أيضاً كان شَرُّهُ مُسْتَطِيراً قال: فاشيا.

و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: وَ أَسِيرًا قال: هو المشرك. و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم عن أبي سعيد

الخدري عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ في قوله: مِسْكِينًا قال: فقيراً وَ يَتِيمًا قال:

لا أب له وَ أَسِيرًا قال: المملوك و المسجون. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: وَ يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ الآية قال: نزلت هذه

الآية في علي بن أبي طالب و فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه في قوله: يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا قال: طويلاً. و أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه و سلم في قوله: يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا قال: يقبض ما بين الأبصار. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر من طرق عن ابن عباس قال: القمطيرير الرجل المنقبض ما بين عينيه و وجهه.  
و أخرج ابن المنذر عنه وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُورًا قال: نضرة في وجوههم و سرورا في صدورهم.

## [سورة الإنسان (٧٦): الآيات ١٣ الى ٢٢]

مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَارَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَ دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَ ذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا (١٤) وَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَاتِهِ مِنْ فَضَّةٍ وَ أَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٥) قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَ يُشَقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا (١٨) وَ يُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلِدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَثُورًا (١٩) وَ إِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سَيْدَسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَ كَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢)

قوله: مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَارَائِكِ منصوب على الحال من مفعول جزاهم، و العامل فيها جزى، و لا يعمل فيها صبروا؛ لأن الصبر إنما كان في الدنيا، و جوز أبو البقاء أن يكون صفة لجنة. قال الفراء: و إن شئت جعلت متكئين تابعاً، كأنه قال: جزاهم لجنة متكئين فيها. و قال الأخفش: يجوز أن يكون منصوباً على المدح، و الضمير من فيها يعود إلى الجنة، و الأرائك: السرر في الحجال، و قد تقدّم تفسيرها في سورة الكهف لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَ لَا زَمْهَرِيرًا الجملة في محل نصب على الحال من مفعول «جزاهم»، فتكون من الحال المترادفة، أو من الضمير في متكئين، فتكون من الحال المتداخلة، أو صفة أخرى للجنة، و الزمهير: أشد البرد، و المعنى: أنهم لا يرون في الجنة حرّ الشمس و لا برد الزمهير، و منه قول الأعشى:

منعمة طفلة كالمهأة لم تر شمسا و لا زمهيرا

و قال ثعلب: الزمهير: القمر؛ بلغة طيبي، و أنشد لشاعرهم:

و ليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها و الزمهير ما زهر

(١). هذان الأثران لا يستندان إلى دليل شرعى فلا يعتد بهما.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٢٢

و يروى: ما ظهر، أى: لم يطلع القمر. و قد تقدّم تفسير هذا في سورة مريم. وَ دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا قرأ الجمهور «دانية» بالنصب عطفاً على محل «لا يرون»، أو على «متكئين»، أو صفةً لمحذوف، أى:

و جنة دانية، كأنه قال: و جزاهم جنة دانية. و قال الزجاج: هو صفة لجنة المتقدم ذكرها. و قال الفراء:

هو منصوب على المدح. و قرأ أبو حيوة «و دانية» بالرفع على أنه خبر مقدم، و ظلالها مبتدأ مؤخر، و الجملة في موضع نصب على الحال. و المعنى: أن ظلال الأشجار قريبة منهم، مظلة عليهم، زيادة في نعيمهم و إن كان لا شمس هنالك. قال مقاتل: يعنى شجرها قريب منهم. و قرأ ابن مسعود: «و دانيا عليهم».

وَ ذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا معطوف على دانية، كأنه قال: و مدلل. و يجوز أن تكون الجملة في محل نصب على الحال من الضمير في عليهم، و يجوز أن تكون مستأنفة، و القطوف: الثمار، و المعنى: أنها سخرت ثمارها لمتناولها تسخيراً كثيراً، بحيث يتناولها القائم

و القاعد و المضطجع، لا يردُّ أيديهم عنها بعد و لا شوكت. قال النحاس: المذلل: القريب المتناول، و منه قولهم: حائط ذليل، أى: قصير. قال ابن قتيبة: ذُلَّتْ

أدنت، من قولهم حائط ذليل، أى: كان قصير السِّمَك. و قيل: ذُلَّتْ أى: جعلت منقادة، لا- تمتنع على قَطَافها كيف شاؤوا و يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَيِّئِهِ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوَابٍ أى: يدور عليهم الخدم إذا أرادوا الشراب بآنية الفضة، و الأ-كواب: جمع كوب، و هو الكوز العظيم الذى لا أذن له و لا عروة، و منه قول عدى:

مَتَكْنَا تَقْرَعُ أَبْوَابَهُ يَسْعَى عَلَيْهِ الْعَبْدُ بِالْكُوبِ

و قد مضى تفسيره فى سورة الزخرف كانت قَوَارِيرًا- قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ أى: فى صفاء القوارير و فى بياض الفضة، فصفاء صفاء الزجاج و لونها لون الفضة. قرأ نافع و الكسائى و أبو بكر قَوَارِيرًا- قَوَارِيرًا بالتونين فيهما مع الوصل، و بالوقف عليهما بالألف، و قد تقدم وجه هذه القراءة فى تفسير قوله:

سلاسل من هذه السورة، و بينا هنالك وجه صرف ما فيه صيغة منتهى الجموع فارجح إليه. و قرأ حمزة بعدم التنوين فيهما و عدم الوقف بالألف، و وجه هذه القراءة ظاهر؛ لأنهما ممتنعان لصيغة منتهى الجموع.

و قرأ هشام بعدم التنوين فيهما مع الوقف عليهما بالألف، و قرأ ابن كثير بتنوين الأوّل دون الثانى و الوقف على الأوّل بالألف دون الثانى. و قرأ أبو عمرو و حفص و ابن ذكوان بعدم التنوين فيهما، و الوقف على الأوّل بالألف دون الثانى، و الجملة فى محل جرّ صفة لأكواب. قال أبو البقاء: و حسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلها.

قال الواحدي: قال المفسرون: جعل الله قوارير أهل الجنة من فضة، فاجتمع لها بياض الفضة و صفاء القوارير.

قال الزجاج: القوارير التى فى الدنيا من الرمل، فأعلم الله فضل تلك القوارير أن أصلها من فضة يرى من خارجها ما فى داخلها، و جملة قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا صفة لقوارير. قرأ الجمهور: «قَدَرُوهَا» بفتح القاف على البناء للفاعل، أى: قَدَرُوهَا السِّقَاءُ من الخدم الذين يطوفون عليهم على قدر ما يحتاج إليه الشاربون من أهل الجنة من دون زيادة و لا نقصان. قال مجاهد و غيره: أتوا بها على قدر رِيَّهم بغير زيادة و لا نقصان. قال الكلبي: و ذلك ألدّ و أشهى، و قيل: قَدَرُوهَا الملائكة، و قيل: قَدَرُوهَا أهل الجنة الشاربون على مقدار شهواتهم

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٢٣

و حاجتهم؛ فجاءت كما يريدون فى الشكل لا تزيد و لا تنقص. و قرأ على و ابن عباس و السلمي و الشعبي و زيد ابن على و عبيد بن عمير و أبو عمرو، و فى روايه عنه «قَدَرُوهَا» بضم القاف و كسر الدال مبنيًا للمفعول، أى: جعلت لهم على قدر إرادتهم. قال أبو على الفارسى: هو من باب القلب، قال: لأن حقيقة المعنى أن يقال: قَدَرْت عليهم لا قَدَرُوهَا، لأنه فى معنى قدروا عليها. و قال أبو حاتم: التقدير: قَدَرْت الأوانى على قدر رِيَّهم، فمفعول ما لم يسم فاعله محذوف. قال أبو حيان: و الأقرب فى تخريج هذه القراءة الشاذة أن يقال:

قَدَر رِيَّهم منها تقديرا، فحذف المضاف فصار: قَدَرُوهَا. و قال المهدوى: إن القراءة الأخيرة يرجع معناها إلى معنى القراءة الأولى، و كأن الأصل قَدَرُوا عليها فحذف حرف الجرّ، كما أنشد سيبويه:

آلَيْت حَبَّ الْعِرَاقِ الدَّهْرَ آكَلَهُو الْحَبَّ يَأْكُلُهُ فِي الْقَرْيَةِ السُّوسِ

أى: آلَيْت على حبّ العراق و يُسَيِّقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِرْاجُهَا زَنْجَبِيلًا قد تقدّم أن الكأس هو الإناء فيه الخمر، و إذا كان خاليا عن الخمر فلا يقال له كأس، و المعنى: أن أهل الجنة يسقون فى الجنة كأسا من الخمر، ممزوجة بالزنجبيل. و قد كانت العرب تستلذ مزج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته. و قال مجاهد و قتادة:

الزنجبيل: اسم للعين التي يشرب بها المقربون. و قال مقاتل: هو زنجبيل لا يشبه زنجبيل الدنيا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَيْلَسِيًّا انتصاب عينا على أنها بدل من كأسا. و يجوز أن تكون منصوبه بفعل مقدر، أى: يسقون عينا، و يجوز أن تكون منصوبه بنزع الخافض، أى: من عين، و السلسيل: الشراب اللذيذ، مأخوذ من السلاسه، تقول العرب: هذا شراب سلس، و سلسال، و سلسيل، أى: طيب لذيذ. قال الزجاج: السلسيل فى اللغة: اسم لماء فى غايه السلاسه حديد الجريه يسوغ فى حلوقهم، و منه قول حسان بن ثابت:

يسقون من ورد البريص عليهم كأسا (١) يصفق بالرحيق السلسل (٢)

وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلِدَانٌ مُّخَلَّدُونَ لما فرغ سبحانه من وصف شرابهم، و وصف آنتهم، و وصف السيقاء الذين يسقونهم ذلك الشراب. و معنى: مُّخَلَّدُونَ باقون على ما هم عليه من الشباب و الطراوه و النضاره، لا يهرمون و لا يتغيرون، و قيل: معنى مُّخَلَّدُونَ لا يموتون، و قيل: التخليد: التحليه، أى محلون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم و صفاء ألوانهم و نضاره و جوههم لؤلؤا مفرقا. قال عطاء: يريد فى بياض اللون و حسنه، و اللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوما. قال أهل المعانى: إنما شبّهوا بالمنتور لانتشارهم فى الخدمه، و لو كانوا صفا لشبهوا بالمنظوم، و قيل: إنما شبّههم بالمنتور لأنهم سراع فى الخدمه؛ بخلاف الحور العين فإنه شبّهن باللؤلؤ المكنون لأنهن لا يمتهن بالخدمه.

(١). فى تفسير القرطبي: بردى. و هو نهر بدمشق.

(٢). «البريص»: نهر بدمشق. «يصفق»: يمزج. «الرحيق»: الخمر البيضاء.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٢٤

وَ إِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا كَبِيرًا أى: و إذا رميت ببصرك هناك، يعنى فى الجنه رأيت نعيما لا يوصف، و ملكا كبيرا لا يقادر قدره، و «ثم» ظرف مكان، و العامل فيها «رأيت». قال الفراء: فى الكلام «ما» مضمره، أى: و إذا رأيت ما ثم، كقوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ (١) أى: ما بينكم. قال الزجاج معترضاً على الفراء: إنه لا- يجوز إسقاط الموصول و ترك الصيغه، و لكن «رأيت» يتعدى فى المعنى إلى «ثم». و المعنى: إذا رأيت ببصرك ثم، و يعنى بثم الجنه، قال السدى: النعيم: ما يتنعم به، و الملك الكبير: استئذان الملائكة عليهم، و كذا قال مقاتل و الكلبي. و قيل: إن «رأيت» ليس له مفعول ملفوظ و لا مقدر و لا منوي، بل معناه: أن بصرك أينما وقع فى الجنه رأيت نعيما و ملكا كبيرا عاليهم ثياب سندس قرأ نافع و حمزه و ابن محيصن «عاليهم» بسكون الياء و كسر الهاء على أنه خبر مقدم، و ثياب مبتدأ مؤخر، أو على أن عاليهم مبتدأ، و ثياب مرتفع بالفاعليه؛ و إن لم يعتمد الوصف كما هو مذهب الأخفش. و قال الفراء:

هو مرفوع بالابتداء، و خبره: ثياب سندس، و اسم الفاعل مراد به الجمع. و قرأ الباقون بفتح الياء و ضم الهاء على أنه ظرف فى محل رفع على أنه خبر مقدم، و ثياب مبتدأ مؤخر، كأنه قيل: فوقهم ثياب. قال الفراء:

إن عاليهم بمعنى فوقهم، و كذا قال ابن عطيه. قال أبو حيان: عال و عاليه اسم فاعل، فىحتاج فى كونها ظرفين إلى أن يكون منقولاً من كلام العرب، و قد تقدّمه إلى هذا الزجاج و قال: هذا مما لا نعرفه فى الظروف، و لو كان ظرفاً لم يجر إسكان الياء، و لكنه نصب على الحال من شيئين: أحدهما الهاء و الميم فى قوله: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ أى: على الأبرار ولدان عاليا الأبرار ثياب سندس أى: يطوف عليهم فى هذه الحال.

و الثانى أن يكون حالا من الولدان، أى: إذا رأيتهم حسبهم لؤلؤا منثورا فى حال علو الثياب أبدانهم. و قال أبو على الفارسي: العامل فى الحال إما «لقاهم نضرة و سرورا»، و إما «جزاهم بما صبروا». قال: و يجوز أن يكون ظرفاً. و قرأ ابن سيرين و مجاهد و أبو حيوة و ابن أبى عبله: «عليهم»، و هى قراءة واضحة المعنى ظاهره الدلاله. و اختار أبو عبيد القراءه الأولى لقراءه ابن مسعود:



«عاليتهم». وقرأ الجمهور بإضافة ثياب إلى سندس. وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبله بتنوين ثياب وقطعها عن الإضافة ورفع سندس، وخصرٌ وإستبرقٌ على أن السندس نعت للثياب؛ لأن السندس نوع من الثياب، وعلى أن خضر نعت لسندس؛ لأنه يكون أخضر وغير أخضر، وعلى أن إستبرق معطوف على سندس، أى: وثياب إستبرق، والجمهور من القراء اختلفوا فى خضر وإستبرق مع اتفاقهم على جرّ سندس بإضافة ثياب إليه؛ فقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم وابن محيصن بجرّ خضر نعتا لسندس، ورفع إستبرق عطفاً على ثياب، أى: عليهم ثياب سندس وعليهم إستبرق. وقرأ أبو عمرو وابن عامر برفع خضر نعتا لثياب، وجرّ إستبرق نعت لسندس. واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتا للثياب فهى مرفوعة، والإستبرق من جنس السندس. وقرأ نافع وحفص برفع: «خضر وإستبرق» لأن خضر نعت للثياب، وإستبرق عطف على

(١). الأنعام: ٩٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٢٢٥

الثياب. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي بجرّ: «خضر وإستبرق» على أن خضر نعت للسندس، وإستبرق معطوف على سندس. وقرأوا كلهم بصرف إستبرق إلا- ابن محيصن فإنه لم يصرفه، قال: لأنه أعجمى، ولا وجه لهذا لأنه نكرة إلا أن يقول إنه علم لهذا الجنس من الثياب. والسندس: ما رقّ من الديباج.

والإستبرق: ما غلظ منه، وقد تقدّم تفسيرهما فى سورة الكهف وحلوا أساور من فضة عطف على يطوف عليهم ذكر سبحانه هنا أنهم يحلون بأساور الفضة وفى سورة فاطر يحلون فيها من أساور من ذهب (١) وفى سورة الحج يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً (٢) ولا تعارض بين هذه الآيات لإمكان الجمع بأن يجعل لهم سوارات من ذهب وفضة ولؤلؤ، أو بأن المراد أنهم يلبسون سوارات الذهب تارة، وسوارات الفضة تارة، وسوارات اللؤلؤ تارة، أو أنه يلبس كل أحد منه ما تميل إليه نفسه من ذلك، ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محلّ نصب على الحال من ضمير عاليهم بتقدير قد سقاهم ربهم شراباً طهوراً هذا نوع آخر من الشراب الذى يمن الله عليهم به. قال الفراء: يقول: هو طهور ليس بنجس كما كان فى الدنيا موصوفاً بالنجاسة. والمعنى: أن ذلك الشراب طاهر ليس كخمر الدنيا. قال مقاتل: هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع الله ما كان فى قلبه من غش وغلّ وحسد. قال أبو قلابه وإبراهيم النخعى: يؤتون بالطعام، فإذا كان آخره أتوا بالشراب الطهور، فيشربون فتضمير بطونهم من ذلك، ويفيض عرق من أبدانهم مثل ريح المسك إن هذا كان لكم جزاء أى: يقال لهم: إن هذا الذى ذكر من أنواع النعم كان لكم جزاء بأعمالكم، أى: ثواباً لها وكان سعيكم مشكوراً أى: كان عملكم فى الدنيا بطاعة الله مرضياً مقبولاً، وشكر الله سبحانه لعمل عبده هو قبوله لطاعته.

وقد أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: الزمهير هو البرد الشديد. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: ربّ أكل بعضى بعضاً، فجعل لها نفسين: نفساً فى الصيف، ونفساً فى الشتاء، فشدّة ما تجدون من البرد من زمهيريها، وشدّة ما تجدون فى الصيف من الحرّ من سموها». وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبه وهناد بن السرى وعبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقى فى البعث، عن البراء بن عازب فى قوله: وداية عليهم ظلالها قال: قريبة وذلك قطوفها تدليلاً قال: إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ومضطجعين وعلى أى حال شاؤوا. وفى لفظ قال: ذلت فيتناولون منها كيف شاؤوا. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، والبيهقى فى البعث، عن ابن عباس قال: بآية من فضة وصفاء القوارير قدروها تقديراً قال: قدرت للكف. وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور و

(١). فاطر: ٣٣.

(٢). الحج: ٢٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٢٦

الدنيا فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها، ولكن قوارير الجنة بياض الفضة في صفاء القوارير. و أخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال: ليس في الجنة شيء إلا وقد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة. و أخرج الفريابي عنه أيضا في قوله: قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا قَالَ: أتوا بها على قدر الفم لا يفضّلون شيئا ولا يشتهون بعدها شيئا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا قَالَ: قَدَّرَتَهَا السَّقَاءَةُ. و أخرج ابن المبارك و هناد و عبد بن حميد، و البيهقي في البعث، عن ابن عمرو قال: إن أدنى أهل الجنة منزلا- من يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه، و تلا هذه الآية: إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا.

### [سورة الإنسان (٧٦): الآيات ٢٣ إلى ٣١]

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أُصِيلًا (٢٥) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَ شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَ إِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَ مَا تَشَاوُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) قوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا أَي: فَرَقْنَاهُ فِي الْإِنْزَالِ وَ لَمْ نَنْزِلْهُ جَمْلَةً وَاحِدَةً. وَ قِيلَ:

المعنى: نزلناه عليك و لم تأت به من عندك كما يدعيه المشركون فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ أَي: لقضائه، و من حكمه و قضائه تأخير نصرته إلى أجل اقتضته حكمته. قيل: و هذا منسوخ بآية السيف وَ لَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا أَي: لا تطع كل واحد من مرتكب لإثم و غال في كفر، فنهاه الله سبحانه عن ذلك.

قال الزجاج: إن الألف هنا أكد من الواو وحدها لأنك إذا قلت: لا تطع زيدا و عمرا، فأطاع أحدهما كان غير عاص؛ لأنه أمره أن لا يطيع الاثنين، فإذا قال: لا تطع منهم آثما أو كفورا دل ذلك على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى، كما أنك إذا قلت: لا تخالف الحسن أو ابن سيرين، فقد قلت إنهما أهل أن يتبعوا، و كل واحد منهما أهل أن يتبع. و قال الفراء: «أو» هنا بمنزلة لا، كأنه قال: و لا كفورا. و قيل: المراد بقوله:

آثِمًا عْتَبَهُ بِن رِبْعِيَّةَ، وَ بِقَوْلِهِ: أَوْ كَفُورًا الْوَلِيدَ بِن الْمَغِيرَةَ؛ لِأَنَّهُمَا قَالَا- لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: ارجع عن هذا الأمر و نحن نرضيك بالمال و التزويج وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أُصِيلًا أَي: دم على ذكره في جميع الأوقات. و قيل: المعنى: صلّ لربك أول النهار و آخره، فأول النهار صلاة الصبح، و آخره صلاة العصر وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ أَي: صلّ المغرب و العشاء. و قيل: المراد الصلاة في بعضه من غير تعيين، و من:

للتبعض على كل تقدير وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا أَي: نزهه عما لا يليق به، فيكون المراد الذكر بالتسبيح سواء كان في الصلاة أو في غيرها. و قيل: المراد التطوع في الليل. قال ابن زيد و غيره: إن هذه الآية منسوخة بالصلوات الخمس. و قيل: الأمر للندب. و قيل: هو مخصوص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ

يعنى كفار مكه و من هو موافق لهم. و المعنى: أنهم يحبون الدار العاجله، و هى دار الدنيا وَ يَدْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا أَى: يتركون و يدعون وراءهم، أَى: خلفهم أو بين أيديهم و أمامهم يوما شديدا عسيرا، و هو يوم القيامة، و سمى ثقيلًا لما فيه من الشدائد و الأهوال. و معنى كونه يذرونه وراءهم: أنهم لا يستعدون له و لا يعبئون به، فهم كمن ينبذ الشيء وراء ظهره تهاونا به و استخفافا بشأته، و إن كانوا فى الحقيقة مستقبلين له و هو أمامهم نَحْنُ خَلَقْنَاَهُمْ أَى: ابتدأنا خلقهم من تراب، ثم من نطفة ثم من علقه، ثم من مضغه إلى أن كمل خلقهم، و لم يكن لغيرنا فى ذلك عمل و لا سعى لا اشتراكا و لا استقلالًا وَ شَدَدْنَا أَسْرَهُمُ الأسر: شدّة الخلق، يقال: شدّ الله أسر فلان: أَى قوّى خلقه. قال مجاهد و قتاده و مقاتل و غيرهم: شددنا خلقهم. قال الحسن: شددنا أوصالهم بعضا إلى بعض بالعروق و العصب. قال أبو عبيد: يقال فرس شديد الأسر، أَى: الخلق. قال لييد:

ساهم الوجه شديد أسره مشرف الحارك محبوك الكتد

و قال الأخطل:

من كل مجتنب شديد أسره سلس القيادة تخاله مختالا

و قال ابن زيد: الأسر القوّة، و اشتقاقه من الإسار، و هو القدّ الذى تشدّ به الأقتاب. و منه قول ابن أحمري يصف فرسا:

يمشى بأوظفه شداد أسرهاصم السنايك لا تقى بالجدجد (١)

وَ إِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا أَى: لو شئنا لأهلكناهم و جئنا بأطوع لله منهم. و قيل: المعنى:

مسخناهم إلى أسمح صورة و أقبح خلقه إِنَّ هَذِهِ تَذِكْرَةٌ يعنى إن هذه السورة تذكير و موعظة فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا أَى: طريقا يتوصّل به إليه، و ذلك بالإيمان و الطاعة، و المراد: إلى ثوابه أو إلى جنّته وَ مَا تَشَاوُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ أَى: و ما تشاؤون أن تتخذوا إلى الله سبيلا إلا أن يشاء الله، فالأمر إليه سبحانه ليس إليهم، و الخير و الشّر بيده، لا مانع لما أعطى، و لا معطى لما منع، فمشيئة العبد مجردة لا تأتى بخير و لا تدفع شرّا، و إن كان يثاب على المشيئة الصالحة، و يؤجر على قصد الخير كما فى حديث: «إنما الأعمال بالنيّات، و إنما لكل امرئ ما نوى». قال الزجاج: أَى لستم تشاؤون إلا بمشيئة الله إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا فى أمره و نهيّه، أَى: بليغ العلم و الحكمة يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فى رَحْمَتِهِ أَى: يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها، أو يدخل فى جنّته من يشاء من عباده. قال عطاء: من صدقت نيته أدخله جنّته وَ الظّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا انتصاب الظالمين بفعل مقدّر يدل عليه ما قبله، أَى: يعذب الظالمين، نصب الظالمين لأن ما قبله منصوب، أَى: يدخل من يشاء فى رحمته و يعذب الظالمين، أَى: المشركين،

(١). «الجدجد»: الأرض الصلبة.

و يكون «أعدّ لهم» تفسيراً لهذا المضمّر، و الاختيار النصب و إن جاز الرفع، و بالنصب قرأ الجمهور. و قرأ أبان بن عثمان بالرفع على الابتداء، و وجهه أنه لم يكن بعده فعل يقع عليه.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ قال: خلقهم. و أخرج ابن جرير عن أبى هريرة وَ شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ قال: هى المفاصل.

وهي مكية في قول الحسن وعكرمة و عطاء و جابر. قال قتادة: إلا آية منها وهي قوله: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ «١» فإنها مدنية، و روى هذا عن ابن عباس. و أخرج النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة المرسلات بمكة. و أخرج البخاري و مسلم و غيرهما عن ابن مسعود قال:

«بينما نحن مع النبي صلى الله عليه و سلم في غار بمنى إذا نزلت سورة: المرسلات عرفا، فإنه ليتلوها و إنى لأتلقاها من فيه، و إن فاه لرتب بها، إذ وثبت علينا حية، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: اقتلوها، فابتدرناها فذهبت؛ فقال النبي صلى الله عليه و سلم: وقيت شر كم كما وقيتم شرها». و أخرج البخاري و مسلم و غيرهما عن ابن عباس أن أم الفضل سمعته و هو يقرأ و المرسلات عرفا فقالت: يا بنى لقد ذكرتني بقرءتك هذه السورة، إنها آخر ما سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقرأ بها في المغرب. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة المرسلات (٧٧): الآيات ١ الى ٢٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَ النَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا (٤)

فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعَ (٧) فَإِذَا التُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَ إِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩)

وَ إِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقْتَتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفُضْلِ (١٣) وَ مَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفُضْلِ (١٤)

وَ يُلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَ يُلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩)

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَصَدَرْنَا مِنْهُ الْفَارِغُونَ (٢٣) وَ يُلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤)

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءَ وَ أَمْوَاتًا (٢٦) وَ جَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَ أَشْفَيْنَاكُمْ مَاءَ فُرَاتًا (٢٧) وَ يُلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)

قوله: وَ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا قال جمهور المفسرين: هي الرياح، و قيل: هي الملائكة، و به قال مقاتل و أبو صالح و الكلبي، و قيل: هم الأنبياء، فعلى الأول أقسم سبحانه بالرياح المرسله لما يأمرها به كما في قوله:

وَ أَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ «٢» و قوله: يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ \* «٣» و غير ذلك. و على الثاني أقسم سبحانه بالملائكة المرسله بوحيه و أمره و نهييه. و على الثالث أقسم سبحانه برسله المرسله إلى عباده لتبليغ شرائعه، و انتصاب عُرْفًا إما على أنه مفعول لأجله، أى: المرسلات؛ لأجل العرف و هو ضد النكر، و منه قول الشاعر:

(١). المرسلات: ٤٨.

(٢). الحجر: ٢٢.

(٣). النمل: ٦٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٣٠ من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله و الناس أو على أنه حال بمعنى متابعه؛ و يتبع بعضها بعضا كعرف الفرس، تقول العرب: سار الناس إلى فلان عرفا واحدا؛ إذا توجهوا إليه، و هم على فلان كعرف الضبع؛ إذا تألبوا عليه، أو على أنه مصدر كأنه قال: والمرسلات إرسالات أى: متتابعة، أو على أنه منصوب بنزع الخافض، أى: والمرسلات بالعرف. قرأ الجمهور: «عرفا» بسكون الراء، و قرأ عيسى بن عمر بضمها، و قيل: المراد بالمرسلات السحاب لما فيها من نعمه و نعمة فآلعاصم فآت عصفاً و هى الرياح الشديدة الهبوب. قال القرطبي: بغير اختلاف، يقال: عصف بالشىء؛ إذا أباده و أهلكه، و ناقة عصف، أى: تعصف براكبها فتمضى كأنها ربح فى السرعة، و يقال: عصفت الحرب بالقوم؛ إذا ذهبت بهم، و قيل: هى الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها، و قيل: يعصفون بروح الكافر، و قيل: هى الآيات المهلكة كالزلازل و نحوها و النَّاشِرَاتِ نَشْرًا يعنى الرياح تأتى بالمطر و هى تنشر السحاب نشرا، أو الملائكة الموكلون بالسحاب ينشرونها، أو ينشرون أجنحتهم فى الجوّ عند النزول بالوحى، أو هى الأمطار لأنها تنشر النبات. و قال الضحاك: يريد ما ينشر من الكتب و أعمال بنى آدم. و قال الربيع: إنه البعث للقيامة بنشر الأرواح، و جاء بالواو هنا لأنه استئناف قسم آخر فالفارقات فرقا يعنى الملائكة تأتى بما يفرق بين الحق و الباطل و الحلال و الحرام. و قال مجاهد: هى الرياح تفرق بين السحاب فتبدده. و روى عنه أنها آيات القرآن تفرق بين الحق و الباطل، و قيل: هى الرسل فرقوا ما بين ما أمر الله به و نهى عنه، و به قال الحسن، فالملقيات ذكرا هى الملائكة. قال القرطبي: بإجماع، أى: تلقى الوحى إلى الأنبياء، و قيل: هو جبريل، و سمى باسم الجمع تعظيما له، و قيل: هى الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم، قاله قطرب. قرأ الجمهور: «فالملقيات» بسكون اللام و تخفيف القاف اسم فاعل، و قرأ ابن عباس بفتح اللام و تشديد القاف من التلقية و هى إيصال الكلام إلى المخاطب، و الراجح أن الثلاثة الأول للرياح، و الرابع و الخامس للملائكة، و هو الذى اختاره الزجاج و القاضى و غيرهما عذرا أو نذرا انتصابهما على البدل من ذكرا، أو على المفعولية، و العامل فيهما المصدر المنون، كما فى قوله: أو إطعام فى يوم ذى مشية - يتيما «١» أو على المفعول لأجله: أى للإعذار و الإنذار، أو على الحال بالتأويل المعروف، أى: معذرين أو منذرين. قرأ الجمهور بإسكان الذال فيهما. و قرأ زيد بن ثابت و ابنه خارجه ابن زيد و طلحة بضمهما. و قرأ الحرميان و ابن عامر و أبو بكر بسكونها فى عذرا و ضمها فى نذرا.

و قرأ الجمهور: «عذرا أو نذرا» على العطف بأو. و قرأ إبراهيم التيمى و قتادة على العطف بالواو بدون ألف، و المعنى: أن الملائكة تلقى الوحى عذرا إلى خلقه و إنذارا من عذابه، كذا قال الفراء: و قيل: عذرا للمحقين و نذرا للمبطلين. قال أبو على الفارسي: يجوز أن يكون العذر و النذر بالثقل جمع عاذر و ناذر كقوله: هذا نذير من النذر الأولى «٢» فيكون نصبا على الحال من الإلقاء، أى: يلقون الذكر فى حال العذر و الإنذار،

(١). البلد: ١٤ - ١٥.

(٢). النجم: ٥٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٣١

أو مفعولا لذكرا، أى: تذكر عذرا أو نذرا. قال المبرد: هما بالثقل جمع، و الواحد عذير و نذير. ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال: إنما توعدون لواقع أى: إن الذى توعدونه من مجيء الساعة و البعث كائن لا محالة، ثم بين سبحانه متى يقع ذلك فقال: فإذا النجوم طمست أى محى نورها و ذهب ضوءها، يقال: طمس الشىء؛ إذا درس و ذهب أثره و إذا السماء فرجت أى: فتحت

و شقت، و مثله قوله: وَ فُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١﴾ وَ إِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ أَى قَلَعَتْ مِنْ مَكَانِهَا بِسُرْعَةٍ، يُقَالُ نَسَفْتُ الشَّيْءَ وَ أَنْسَفْتُهُ؛ إِذَا أَخَذْتَهُ بِسُرْعَةٍ. وَ قَالَ الْكَلْبِيُّ: سَوَّيْتُ بِالْأَرْضِ، وَ الْعَرَبُ تَقُولُ:

نَسَفْتُ النَّاقَةَ الْكَلَاءُ؛ إِذَا رَعْتَهُ، وَ قِيلَ: جَعَلْتُ كَالْحَبِّ الَّذِي يَنْسِفُ بِالْمَنْسَفِ، وَ مِنْهُ قَوْلُهُ: وَ بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٢﴾ وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى. قَالَ الْمَبْرَدُ: نَسَفْتُ: قَلَعْتُ مِنْ مَوَاضِعِهَا وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقْتُتِ الْهَمْزَةُ فِي أَقْتِ بَدَلٍ مِنَ الْوَاوِ الْمَضْمُومَةِ، وَ كَلَّ وَ اَوَّانِضْتُ وَ كَانَتْ ضَمَّتْهَا لِزَمَةِ يَجُوزُ إِبْدَالُهَا بِالْهَمْزَةِ، وَ قَدْ قَرَأَ بِالْوَاوِ أَبُو عَمْرٍو وَ شَيْبَةُ وَ الْأَعْرَجُ وَ قَرَأَ الْبَاقُونَ بِالْهَمْزَةِ، وَ الْوَقْتُ: الْأَجَلُ الَّذِي يَكُونُ عِنْدَهُ الشَّيْءُ الْمَوْخِرَ إِلَيْهِ، وَ الْمَعْنَى:

جَعَلَ لَهَا وَقْتُ الْفَصْلِ وَ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْأُمَمِ كَمَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ﴿٣﴾ وَ قِيلَ:

هَذَا فِي الدُّنْيَا، أَى: جَمَعْتُ الرُّسُلَ لِمِيقَاتِهَا الَّذِي ضَرَبَ لَهَا فِي أَنْزَالِ الْعَذَابِ بِمَنْ كَذَبَهَا، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى. قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارَسِيُّ: أَى جَعَلَ يَوْمَ الدِّينِ وَ الْفَصْلَ لَهَا وَقْتًا، وَ قِيلَ: أَقْتُتُ: أَرْسَلْتُ لِأَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا عَلَّمَ اللَّهُ بِهِ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ هَذَا الْاسْتِفْهَامُ لِلتَّعْظِيمِ وَ التَّعْجِيبِ، أَى: لِأَيِّ يَوْمٍ عَظِيمٍ يَعْجَبُ الْعِبَادُ مِنْهُ لِشِدَّتِهِ وَ زَيْدِ أَهْوَالِهِ ضَرَبَ لَهُمُ الْأَجَلَ لِجَمْعِهِمْ، وَ الْجُمْلَةُ مَقُولٌ قَوْلِ مَقْدَرٍ هُوَ جَوَابٌ لِإِذَا، أَوْ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي «أَقْتُتُ». قَالَ الرَّجَاجُ: الْمَرَادُ بِهَذَا التَّأْقِيتِ تَبْيِينُ الْوَقْتِ الَّذِي يَحْضُرُونَ فِيهِ لِلشَّهَادَةِ عَلَى أَمْمِهِمْ، ثُمَّ بَيْنَ هَذَا الْيَوْمِ فَقَالَ: لِيَوْمِ الْفَضْلِ قَالَ قَتَادَةُ: يَفْصَلُ فِيهِ بَيْنَ النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَ النَّارِ، ثُمَّ عَظَّمَ ذَلِكَ الْيَوْمَ فَقَالَ: وَ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَضْلِ أَى: وَ مَا أَعْلَمَكَ بِيَوْمِ الْفَضْلِ يَعْنِي أَنَّهُ أَمْرٌ بِدِيحٍ هَائِلٌ لَا يَقَادِرُ قَدْرَهُ، وَ «مَا» مُبْتَدَأٌ وَ «أَدْرَاكَ» خَبْرُهُ، أَوْ الْعَكْسُ كَمَا اخْتَارَهُ سَيَبَوِيه. ثُمَّ ذَكَرَ حَالَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِذَلِكَ الْيَوْمِ فَقَالَ: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ أَى: وَيْلٌ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْهَائِلِ، وَ وَيْلٌ:

أَصْلُ مَصْدَرٌ سَادٌّ مَسْدٌ فَعْلُهُ، وَ عَدَلَ بِهِ إِلَى الرَّفْعِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الثَّبَاتِ، وَ الْوَيْلُ: الْهَلَاكُ؛ أَوْ هُوَ: اسْمٌ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ، وَ كَرَّرَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ لِأَنَّهُ قَسَمَ الْوَيْلَ بَيْنَهُمْ عَلَى قَدَرِ تَكْذِيبِهِمْ، فَإِنَّ لِكُلِّ مَكْذُوبٍ شَيْءٌ عَذَابًا سِوَى تَكْذِيبِهِ بِشَيْءٍ آخَرَ، وَ رَبِّ شَيْءٌ كَذَبَ بِهِ هُوَ أَعْظَمُ جُرْمًا مِنَ التَّكْذِيبِ بغيرِهِ، فَيُقَسَّمُ لَهُ مِنَ الْوَيْلِ عَلَى قَدَرِ ذَلِكَ التَّكْذِيبِ. ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ مَا فَعَلَ بِالْكَفَّارِ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ فَقَالَ: أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِإِهْلَاكِ الْكَفَّارِ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ مِنْ لَدُنِ آدَمَ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ. قَالَ مِقَاتِلٌ: يَعْنِي بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا حِينَ كَذَبُوا رَسُلَهُمْ ثُمَّ نَتَّبَعُهُمُ الْآخِرِينَ يَعْنِي كَفَّارَ مَكَّةَ، وَ مِنْ وَاقِفِهِمْ حِينَ كَذَبُوا مُحَمَّدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ. قَرَأَ الْجُمْهُورُ: «نَتَّبَعُهُمْ» بِالرَّفْعِ عَلَى الْاسْتِثْنَاءِ، أَى: ثُمَّ نَحْنُ نَتَّبَعُهُمْ. قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ لَيْسَ بِمَعْطُوفٍ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ

(١). النَّبَأُ: ١٩.

(٢). الْوَاقِعَةُ: ٥.

(٣). الْمَائِدَةُ: ٩.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٣٢

يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَهْلَكْنَا الْأَوَّلِينَ ثُمَّ أَتْبَعْنَاهُمْ الْآخِرِينَ فِي الْإِهْلَاكِ. وَ لَيْسَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ إِهْلَاكَ الْآخِرِينَ لَمْ يَقَعْ بَعْدَ. وَ يَدُلُّ عَلَى الرَّفْعِ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ «ثُمَّ سَتَّبَعَهُمُ الْآخِرِينَ». وَ قَرَأَ الْأَعْرَجُ وَ الْعَبَّاسُ عَنْ أَبِي عَمْرٍو وَ «نَتَّبَعَهُمْ» بِالْجُزْمِ عَطْفًا عَلَى «نَهْلِكُ». قَالَ شَهَابُ الدِّينِ: عَلَى جَعْلِ الْفِعْلِ مَعْطُوفًا عَلَى مَجْمُوعِ الْجُمْلَةِ مِنْ قَوْلِهِ: «أَلَمْ نُهْلِكُ». كَذَلِكَ نَفْعُ الْبِالْمُجْرِمِينَ أَى: مِثْلُ ذَلِكَ الْفِعْلِ الْفُطْيُوعِ نَفْعُ بِهِمْ، يَرِيدُ مِنْ يَهْلِكُهُ فِيمَا بَعْدَ، وَ الْكَافُ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى النَّعْتِ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أَى: مِثْلُ ذَلِكَ الْإِهْلَاكِ نَفْعُ بِكُلِّ مُشْرِكٍ إِمَّا فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ أَى: وَيْلٌ يَوْمَ ذَلِكَ الْإِهْلَاكِ لِلْمُكَذِّبِينَ

بكتب الله و رسله، قيل: الويل الأول لعذاب الآخرة، و هذا لعذاب الدنيا أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ أَى: ضعيف حثير، و هو النطفة فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ أَى: مكان حريز، و هو الرحم إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ أَى: إلى مقدار معلوم، و هو مدة الحمل، و قيل: إلى أن يَصُورَ فَقَدَرْنَا قَرَأَ الجمهور: «فقدرنا» بالتخفيف. و قرأ نافع و الكسائي بالتشديد من التقدير. قال الكسائي و الفراء: و هما لغتان بمعنى، تقول:

قَدَرْتُ كَذَا، و قدرته فَنَعَمَ الْقَادِرُونَ أَى: نعم المقدرون نحن، قيل: المعنى: قَدَرْنَاهُ قَصِيرًا أَوْ طَوِيلًا، و قيل: معنى قَدَرْنَا مَلَكْنَا وَئِيلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ بقدرتنا على ذلك. ثم يَبِينُ لَهُمْ بَدِيعَ صَنَعِهِ و عظيم قدرته ليعتبروا، فقال: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا معنى الكفت فى اللغة: الضم و الجمع، يقال: كفت الشيء؛ إذا ضَمَّه و جمعه، و من هذا يقال للجراب و القدر: كفت، و المعنى: ألم نجعل الأرض ضامة للأحياء على ظهرها و الأموات فى باطنها تضمهم و تجمعهم. قال الفراء: يريد تكفتهم أحياء على ظهرها فى دورهم و منازلهم، و تكفتهم أمواتا فى بطنها، أَى: تحوزهم، و هو معنى قوله: أَحْيَاءٌ وَ أَمْوَاتًا وَ أنشد سيويه:

كرام حين تنكفت الأفاعي إلى أبحارهن من الصقيع

قال أبو عبيدة: كِفَاتًا أَوْعِيَهُ، و منه قول الشاعر:

فَأنت اليوم فوق الأرض حَيَاو أنت غدا تَضْمُك فى كفات

أَى: فى قبر، و قيل: معنى جعلها كفاتا؛ أنه يدفن فيها ما يخرج من الإنسان من الفضلات. قال الأخفش و أبو عبيدة: الأحياء و الأموات وصفان للأرض، أَى: الأرض منقسمة إلى حَيٍّ و هو الأذى ينبت، و إلى ميت و هو الأذى لا ينبت. قال الفراء: انتصاب أحياء و أمواتا بوقوع الكفات عليه، أَى: ألم نجعل الأرض كفات أحياء و أموات، فإذا نَوَّنَ نصب ما بعده، و قيل: نصبا على الحال من الأرض، أَى: و منها كذا، و قيل:

هو مصدر نعت به للمبالغة. و قال الأخفش: كفاتا جمع كافته، و الأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع.

و قال الخليل: التكفيت: تقليب الشيء ظهرا لبطن أو بطنا لظهر، و يقال: انكفت القوم إلى منازلهم، أَى:

ذهبوا وَ جَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ أَى: جبالا-طوالا- و الرواسي: الثوابت، و الشامخات: الطوال، و كل عال فهو شامخ وَ أَشْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا أَى: عذبا، و الفرات: الماء العذب يشرب منه و يسقى به.

قال مقاتل: و هذا كله أعجب من البعث وَئِيلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ بما أنعمنا عليهم من نعمنا التى هذه من جملتها.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٣٣

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، عن أبى هريرة وَ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا قال: هى الملائكة أرسلت بالعرف. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود: وَ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا قال: الريح فَالْعَاصِفَاتِ عَصِفًا قال: الريح وَ النَّاشِرَاتِ نَشْرًا قال: الريح. و أخرج ابن راهويه و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب، أنه جاء رجل إلى على بن أبى طالب، فقال: ما العاصفات عصفًا؟ قال:

الرياح. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا قال: الريح فَالْعَاصِفَاتِ عَصِفًا قال:

الريح فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا قال: الملائكة فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا قال: الملائكة. و أخرج ابن المنذر عنه وَ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا قال: الملائكة فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا قال: الملائكة، فرقت بين الحق و الباطل فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا بالتنزيل. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن ابن مسعود قال: ويل: واد فى جهنم يسيل فيه صديد أهل النار، فجعل للمكذبين. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ قال:

ضعيف. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه كِفَاتًا قال: كنا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أَيْضًا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ قال: جبالا مشرفات، و فى قوله: فُرَاتًا قال: عذبا.

انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعَنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ (٣٨)

فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)

انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ هُوَ بِتَقْدِيرِ الْقَوْلِ، أَيْ: يُقَالُ لَهُمْ تَوَيْخًا وَتَقْرِيعًا انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ فِي الدُّنْيَا، تَقُولُ لَهُمْ ذَلِكَ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ، أَيْ: سِيرُوا إِلَى مَا كُنتُمْ تَكْذِبُونَ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ أَيْ: إِلَى ظِلِّ مِنْ دِخَانِ جَهَنَّمَ قَدْ سَطَعَ، ثُمَّ افْتَرَقَ ثَلَاثَ فُرُقٍ تَكُونُونَ فِيهِ حَتَّى يَفْرَغَ الْحِسَابُ، وَهَذَا شَأْنُ الدِّخَانِ الْعَظِيمِ إِذَا ارْتَفَعَ تَشَعَّبَ شَعْبًا. قَرَأَ الْجُمْهُورُ:

«انطلقوا» فى الموضوعين على صيغة الأمر على التأکید. وقرأ رويس عن يعقوب بصيغة الماضى فى الثانى:

أى لما أمروا بالانطلاق امتثلوا ذلك فانطلقوا. وقيل: المراد بالظل هنا هو السرادق، وهو لسان من النار يحيط بهم. ثم يتشعب ثلاث شعب فيظلمهم حتى يفرغ من حسابهم، ثم يصيرون إلى النار. وقيل: هو الظل من يحموم كما فى قوله: فى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ- وَظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ «١» على ما تقدم. ثم وصف سبحانه هذا الظل

(١). الواقعة: ٤٢-٤٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٣٤

تهكما بهم فقال: لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ أَيْ: لَا يَظِلُّ مِنَ الْحَرِّ وَلَا يَغْنَى مِنَ اللَّهَبِ. قال الكلبى:

لَا يَرِدُ حَرَّ جَهَنَّمَ عَنْكُمْ. ثم وصف سبحانه النار فقال: إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ أَيْ: كُلُّ شَرِّهِ مِنْ شَرِّهَا الَّتِي تَرْمِي بِهَا كَالْقَصْرِ مِنَ الْقُصُورِ فِي عَظْمِهَا، وَالشَّرْرُ: مَا تَطَّيَّرَ مِنَ النَّارِ مَتَفَرِّقًا، وَالْقَصْرُ: الْبِنَاءُ الْعَظِيمُ. وقيل: القصر جمع قصره ساكنة الصاد، مثل جمر وجمرة، وتمر وتمره، وهى الواحدة من جزل الحطب الغليظ. قال سعيد بن جبيرة والضحاك: وهى أصول الشجر العظام، وقيل: أعناقها. قرأ الجمهور:

«كَالْقَصْرِ» بِاسْكَانِ الصَّادِ، وَهُوَ وَاحِدُ الْقُصُورِ كَمَا تَقَدَّمَ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَحَمِيدٌ وَالسَّيْلَمِيُّ بِفَتْحِ الصَّادِ، أَيْ: أَعْنَاقِ النَّخْلِ، وَالْقَصْرَةُ: الْعَنْقُ، جَمْعُهُ قَصْرٌ وَقَصْرَاتٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَعْنَاقُ الْإِبِلِ. وَقَرَأَ سَعِيدُ ابْنُ جُبَيْرٍ بِكَسْرِ الْقَافِ وَفَتْحِ الصَّادِ، وَهِيَ أَيْضًا جَمْعُ قَصْرَةٍ مِثْلُ بَدْرٍ وَبَدْرَةٍ، وَقَصْعٌ وَقَصْعَةٌ. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ:

«بِشَرِّ» بِفَتْحِ الشَّيْنِ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَقْسَمٍ بِكَسْرِهَا مَعَ أَلْفٍ بَيْنَ الرَّاءَيْنِ. وَقَرَأَ عِيسَى كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ يَفْتَحُ الشَّيْنِ، وَهِيَ لُغَاتٌ، ثُمَّ شَبَّهَ الشَّرْرَ بِاعْتِبَارِ لَوْنِهِ فَقَالَ: كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ وَهِيَ جَمْعُ جِمَالٍ، وَهِيَ الْإِبِلُ، أَوْ جَمْعُ جِمَالَةٍ. قرأ الجمهور:



«جماليات» بكسر الجيم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص «جمالة» جمع جمل. وقرأ ابن عباس والحسن وابن جبير وقاتدة وأبو رجاء «جماليات» بضم الجيم، وهي جبال السفن. قال الواحدي: والصفير معناها السود في قول المفسرين. قال الفراء: الصفير: سواد الإبل، لا يرى أسود من الإبل إلا وهو مشرب صفرة، لذلك سمّيت العرب سود الإبل صفرا. قيل: والشر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه بالإبل السود. ومنه قول الشاعر:

تلك خيلي منه وتلك ركابي هنّ صفر أولادها كالزبيب

أى: هنّ سود، قيل: وهذا القول محال في اللغة أن يكون شيء يشوبه شيء قليل، فينسب كله إلى ذلك الشائب، فالعجب لمن قال بهذا، وقد قال تعالى: جِمالَتْ صُفْرًا. وأجيب بأن وجهه: أن النار خلقت من النور فهي مضيئة، فلما خلق الله جهنم، وهي موضع النار حشى ذلك الموضع بتلك النار، وبعث إليها سلطانها وغضبه فاسودت من سلطانها وازدادت سوادا، وصارت أشدّ سوادا من كل شيء، فيكون شررها أسود لأنه من نار سواد.

قلت: وهذا الجواب لا يدفع ما قاله القائل؛ لأنّ كلامه باعتبار ما وقع في الكتاب العزيز هنا من وصفها بكونها صفراء، فلو كان الأمر كما ذكره المجيب من اسوداد النار، و اسوداد شررها، لقال الله: كأنها جمالات سود، ولكن إذا كانت العرب تسمى الأسود أصفر لم يبق إشكال، لأن القرآن نزل بلغتهم، وقد نقل الثقات عنهم ذلك، فكان ما في القرآن هنا واردا على هذا الاستعمال العربي وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ لرسَل الله وآياته هذا يَوْمٌ لا يَنْتَقُونَ أَى: لا يتكلمون، قال الواحدي: قال المفسرون: في يوم القيامة مواقف، ففي بعضها يتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم فلا يتكلمون، وقد قدّمنا الجمع بهذا في غير موضع.

وقيل: إن هذا إشارة إلى وقت دخولهم النار وهم عند ذلك لا ينطقون؛ لأن مواقف السؤال والحساب قد انقضت. وقال الحسن: لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون. قرأ الجمهور برفع «يوم» على أنه خير لاسم

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٣٥

الإشارة. وقرأ زيد بن علي والأعرج والأعمش وأبو حيوة وعاصم في رواية عنه بالفتح على البناء لإضافته إلى الفعل، ومحلّه الرفع على الخبرية، وقيل: هو منصوب على الظرفية، والإشارة بهذا إلى ما تقدّم من الوعيد كأنه قيل: هذا العقاب المذكور كائن يوم لا ينطقون ولا يؤذّن لهم فيعتدّون قرأ الجمهور:

«يؤذّن» على البناء للمفعول، وقرأ زيد بن علي: «ولا يؤذّن» على البناء للفاعل، أى: لا يأذن الله لهم، أى: لا يكون لهم إذن من الله فيكون لهم اعتذار من غير أن يجعل الاعتذار مسببا عن الإذن كما لو نصب.

قال الفراء: الفاء في فيعتدّون نسق على يؤذّن وأجيز ذلك لأن أواخر الكلام بالنون، ولو قال فيعتدّوا لم يوافق الآيات، وقد قال: لا يُفْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا «١» بالنصب، والكل صواب وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ بما دعتهم إليه الرسل وأنذرتهم عاقبه هذا يَوْمُ الْفُضْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَى أَى: ويقال لهم: هذا يوم الفصل الذي يفصل فيه بين الخلائق ويتميز فيه الحق من الباطل، والخطاب في جمعناكم للكفار في زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والمراد بالأولين كفار الأمم الماضية فإن كان لكم كيد أَى: إن قدرتم على كيد الآن فكيدون وهذا تقريع وتوبيخ لهم. قال مقاتل: يقول إن كان لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم، وقيل المعنى: فإن قدرتم على حرب فحاربون، وقيل: إن هذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم، فيكون كقول هود:

فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظَرُونَ «٢». وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ لأنه قد ظهر لهم عجزهم و بطلان ما كانوا عليه في الدنيا. ثم ذكر سبحانه المؤمنين فقال: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ أَى: في ظلال الأشجار وظلال القصور، لا كالظل الذي للكفار من الدخان، أو من النار كما تقدّم. قال مقاتل والكلبي: المراد بالمتقين الذين يتقون الشرك بالله؛ لأن السورة من أولها إلى آخرها في تقريع الكفار على كفرهم. قال الرازي: فيجب أن تكون هذه الآية مذكورة لهذا الغرض وإلا لتفككت السورة في نظمها وترتيبها و

إنما يتمّ النظم بأن يكون الوعد للمؤمنين بسبب إيمانهم، فأما جعله سببا للطاعة فلا يليق بالنظم كذا قال. و المراد بالعيون الأنهار، و بالفواكه ما يتفكه به مما تطلبه أنفسهم و تستدعيه شهواتهم كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَيْئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَى:

يقال لهم ذلك، فالجملة مقدّرة بالقول، و هى فى محل نصب على الحال من ضمير المتقين، و الباء للسببية:

أى بسبب ما كنتم تعملونه فى الدنيا من الأعمال الصالحة إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أَى: مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي المحسنين فى أعمالهم، قرأ الجمهور: «فى ظلال». و قرأ الأعمش و الزهري و طلحة و الأعرج «فى ظلل» جمع ظلمة و يُلُّ يَوْمئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ حيث صاروا فى شقاء عظيم، و صار المؤمنون فى نعيم مقيم كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ الجملة بتقدير القول فى محل نصب على الحال من المكذبين:

أى الويل ثابت لهم فى حال ما يقال لهم ذلك تذكيرا لهم بحالهم فى الدنيا، أو يقال لهم هذا فى الدنيا، و المجرمون: المشركون بالله، و هذا و إن كان فى اللفظ أمرا فهو فى المعنى تهديد و زجر عظيم و يُلُّ يَوْمئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ كثره لزيادة التوبيخ و التقرع وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ أَى: و إذا أمروا بالصلاة لا يصلون.

(١). فاطر: ٣٦.

(٢). هود: ٥٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٣٦

قال مقاتل: نزلت فى ثقيف امتنعوا من الصلاة بعد أن أمرهم النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ بها فقالوا: لا ننحنى فإنها مسبة علينا، فقال النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «لا خير فى دين ليس فيه ركوع و لا سجود». و قيل: إنما يقال لهم ذلك فى الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون. و قيل: المعنى بالركوع: الطاعة و الخشوع و يُلُّ يَوْمئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ بأوامر الله سبحانه و نواهيه فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعِيدَةٍ يُؤْمِنُونَ أَى: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بعد القرآن يصدقون إذا لم يؤمنوا به. قرأ الجمهور: «يؤمنون» بالتحية على الغيبة. و قرأ ابن عامر فى روايه عنه، و يعقوب: بالفوقية على الخطاب.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ قال: كالقصر العظيم، و قوله: جِمَالَتْ صُفْرًا قال: قطع النحاس. و أخرج عبد الرزاق و الفريابي و هناد و عبد بن حميد و البخارى و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و ابن مردويه من طريق عبد الرحمن بن عباس قال: سمعت ابن عباس يسأل عن قوله: إِنَّهَا تَزْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ قال: كنا نرفع الخشب بقدر ثلاثة أذرع أو أقل، فنرفعه للشتاء فنسميه القصر. قال: و سمعته يسأل عن قوله: جِمَالَتْ صُفْرًا قال: حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى يكون كأوساط الرجال. و لفظ البخارى: كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع و فوق ذلك فنرفعه للشتاء فنسميه القصر كَأَنَّهُ جِمَالَتْ صُفْرًا حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أنه قرأ: «كالقصر» بفتح القاف و الصاد. و قال: قصر النخل: يعنى الأعناق. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: كانت العرب فى الجاهلية تقول: أقصروا لنا الحطب، فيقطع على قدر الذراع و الذراعين. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، عن ابن مسعود فى قوله: تَزْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ قال: إنها ليست كالشجر و الجبال، و لكنها مثل المدائن و الحصون. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: كَالْقَصْرِ قال: هو القصر، و فى قوله: جِمَالَتْ صُفْرًا قال: الإبل. و أخرج الحاكم و صححه من طريق عكرمة قال: سأل نافع ابن الأزرق ابن عباس عن قوله: هذا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا «١» وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ\* «٢» وَ هَاؤُمُ أَقْرَأُ كِتَابِيَهٗ «٣» فقال له: ويحك هل سألت عن هذا أحد قبلى؟ قال لا، قال: أما إنك لو كنت سألت هلكت، أليس قال الله: وَ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ «٤» قال: بلى، قال:

فإن لكل مقدار يوم من هذه الأيام لونا من الألوان. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس و إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون يقول: يدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا.

(١). طه: ١٠٨.

(٢). الصفات: ٢٧.

(٣). الحاقة: ١٩.

(٤). الحج: ٤٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٣٧

## سورة النبأ

### إشارة

و هي مكية عند الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت عمّ يتساءلون بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة النبأ (٧٨): الآيات ١ إلى ٣٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤)

ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَ الْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَ خَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَ جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتًا (٩)

وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا (١٠) وَ جَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَ بَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَ جَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا (١٣) وَ أَنْزَلْنَا مِنَ

الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤)

لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَبَاتًا (١٥) وَ جَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَ فُتِحَتْ

السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩)

وَ سُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مآبًا (٢٢) لَا يَبِثْنَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَ

لَا شَرَابًا (٢٤)

إِلَّا حَمِيمًا وَ عَسَاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَزْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَّابًا (٢٨) وَ كُلَّ شَيْءٍ أَخْصَيْنَاهُ كِتَابًا

(٢٩)

فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)

قوله: عمّ يتساءلون أصله عن ما؛ فأدغمت النون في الميم؛ لأن الميم تشاركها في الغنة، كذا قال الزجاج، و حذف الألف لتمييز الخبر عن الاستفهام، و كذلك فيم و مم و نحو ذلك، و المعنى: عن أي شيء يسأل بعضهم بعضا. قرأ الجمهور: «عم» بحذف

الألف لما ذكرنا، و قرأ أبي و ابن مسعود و عكرمة و عيسى بإثباتها، و منه قول الشاعر:

علام قام يشتمنى لئيم كخنزير تمرغ في دمان؟!

ولكنه قليل لا يجوز إلا للضرورة، وقرأ البزى بهاء السكت عوضا عن الألف، وروى ذلك عن ابن كثير.

قال الزجاج: اللفظ لفظ استفهام، والمعنى تفخيم القصة، كما تقول: أى شيء تريد؛ إذا عظمت شأنه.

قال الواحدي: قال المفسرون: لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهم بتوحيد الله والبعث بعد الموت وتلا عليهم

القرآن، جعلوا يتساءلون بينهم يقولون: ماذا جاء به محمد وما العدى أتى به؟ فأنزل الله: عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ قال الفراء: التساؤل هو أن

يسأل بعضهم بعضا كالتقابل، وقد يستعمل أيضا في أن يتحدثوا به وإن لم يكن

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٣٨

بينهم سؤال. قال الله تعالى: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ- قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ «١» الآية، وهذا يدل على أنه

التحدث، ولفظ «ما» موضوع لطلب حقائق الأشياء، وذلك يقتضى كون المطلوب مجهولا، فجعل الشيء العظيم العدى يعجز

العقل عن أن يحيط بكنهه كأنه مجهول، ولهذا جاء سبحانه بلفظ ما. ثم ذكر سبحانه تساؤلهم عن ماذا وبيّنه فقال: عَنِ النَّبِيِّ

الْعَظِيمِ فأورده سبحانه أولا على طريقة الاستفهام، مبهما لتوجه إليه أذهانهم، وثلثت إليه أفهامهم، ثم بينه بما يفيد تعظيمه و

تفخيمه كأنه قيل:

عن أى شيء يتساءلون هل أخبركم به؟ ثم قيل: بطريق الجواب: «عن النبأ العظيم» على منهاج قوله: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ

الْقَهَّارِ «٢» فالجاء والمجرور متعلق بالفعل العدى قبله، أو بما يدل عليه. قال ابن عطية: قال أكثر النحاة: عن النبأ العظيم متعلق

بیتساءلون الظاهر، كأنه قال: لم يتساءلون عن النبأ العظيم، وقيل: ليس بمتعلق بالفعل المذكور؛ لأنه كان يلزم دخول حرف

الاستفهام فيكون التقدير: أعن النبأ العظيم؟

فلزم أن يتعلق بیتساءلون آخر مقدر، وإنما كان ذلك النبأ، أى: القرآن، عظيما؛ لأنه ينبئ عن التوحيد وتصديق الرسول ووقوع

البعث والنشور. قال الضحاك: يعنى نبأ يوم القيامة، وكذا قال قتادة، وقد استدلل على أن النبأ العظيم هو القرآن بقوله: الَّذِي هُمْ

فِيهِ مُخْتَلِفُونَ فَإِنَّهُمْ اختلفوا فى القرآن، فجعله بعضهم سحرا، وبعضهم شعرا، وبعضهم كهانة، وبعضهم قال: هو أساطير الأولين.

وأما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره. ويمكن أن يقال: إنه قد وقع الاختلاف فى البعث فى الجملة، فصدق به

المؤمنون وكذب به الكافرون، فقد وقع الاختلاف فيه من هذه الحثية، وإن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم على

التسليم والتنزل، ومما يدل على أنه القرآن قوله سبحانه: قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ- أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ «٣» ومما يدل على أنه البعث أنه

أكثر ما كان يستنكره المشركون وتأباه عقولهم السخفية. وأيضا فطوائف الكفار قد وقع الاختلاف بينهم فى البعث؛ فأثبت

النصارى المعاد الروحاني، وأثبت طائفة من اليهود المعاد الجسماني، وفى التوراة التصريح بلفظ الجنة باللغة العبرانية بلفظ

«جنعيذا» بجيم مفتوحة ثم نون ساكنة ثم عين مكسورة مهملة ثم تحتية ساكنة ثم ذال معجمة بعدها ألف. وفى الإنجيل فى

مواضع كثيرة التصريح بالمعاد، وأنه يكون فيه النعيم للمطيعين والعذاب للعاصين، وقد كان بعض طوائف كفار العرب ينكر

المعاد كما حكى الله عنهم بقوله: مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ \* «٤» وكانت

طائفة منهم غير جازمة بنفيه، بل شاكة فيه، كما حكى الله عنهم بقوله: إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُشْتَقِينَ «٥» وما حكاها عنهم

بقوله: وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى «٦» فقد حصل الاختلاف بين طوائف الكفر على هذه

الصفة. وقد قيل: إن الضمير فى قوله: يتساءلون يرجع إلى المؤمنين والكفار لأنهم جميعا كانوا يتساءلون عنه، فأما المسلم فيزداد

يقينا واستعدادا وبصيرة فى دينه، وأما

(١). الصفات: ٥٠-٥١.

(٢). غافر: ١٦.

(٣). ص: ٦٧-٦٨.

(٤). الجاثية: ٢٤.

(٥). الجاثية: ٣٢.

(٦). فصلت: ٥٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٣٩

الكافر فاستهزاء و سخرية. قال الرازي: و يحتمل أنهم يسألون الرسول و يقولون: ما هذا الذي يعدنا به من أمر الآخرة، و الموصول في محل جرّ صفة للنبا بعد وصفه بكونه عظيماً، فهو متّصف بوقوع الاختلاف فيه كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ردع لهم و زجر، و هذا يدل على أن المختلفين فيه هم الكفار، و به يندفع ما قيل إن الخلاف بينهم و بين المؤمنين، فإنه إنما يتوجه الردع و الوعيد إلى الكفار فقط، و قيل: «كلاماً» بمعنى حقاً، ثم كرّر الردع و الزجر فقال: ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ للمبالغة في التأكيد و التشديد في الوعيد. قرأ الجمهور بالياء التحتية في الفعلين على الغيبة. و قرأ الحسن و أبو العالیه و ابن دينار و ابن عامر في رواية عنه بالفوقية على الخطاب.

و قرأ الضحّاك الأوّل بالفوقية و الثاني بالتحية. قال الضحّاك: أيضاً كَلَّا سَيَعْلَمُونَ يعنى الكافرين عاقبه تكذيبهم ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ يعنى المؤمنين عاقبه تصديقهم، و قيل: بالعكس، و قيل: هو وعيد بعده وعيد، و قيل: المعنى كَلَّا سَيَعْلَمُونَ عند النزاع، ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ عند البعث. ثم ذكر سبحانه بديع صنعه و عظيم قدرته ليعرفوا توحيده و يؤمنوا بما جاء به رسوله فقال: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا- وَ الْجِبَالَ أُوْتَادًا أى: قدرتنا على هذا الأمور المذكورة أعظم من قدرتنا على الإعادة بالبعث. و المهاد: الوطاء و الفراش كما فى قوله: الَّذِي جَعَلْ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا «١» قرأ الجمهور: «مهادا» و قرأ مجاهد و عيسى و بعض الكوفيين «مهدا» و المعنى: أنها كالمهد للصبي و هو ما يمهد له فينوم عليه. و الأوتاد جمع وتد، أى: جعلنا الجبال أوتادا للأرض لتسكن و لا تتحرك كما ترسى الخيام بالأوتاد، و فى هذا دليل على أن التساؤل الكائن بينهم هو عن أمر البعث، لا عن القرآن، و لا عن نبوة محمد صلى الله عليه و سلم كما قيل؛ لأن هذا الدليل إنما يصلح للاستدلال به على البعث وَ خَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا مَعْطُوفٌ عَلَى الْمَضَارِعِ المنفى داخل فى حكمه، فهو فى قوّة: أما خلقناكم، و المراد بالأزواج هنا الأصناف، أى: الذكور و الإناث، و قيل: المراد بالأزواج الألوان، و قيل:

يدخل فى هذا كلّ زوج من المخلوقات من قبيح و حسن و طويل و قصير وَ جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتًا أى: راحة لأبدانكم. قال الزجاج: السبات أن ينقطع عن الحركة و الروح فى بدنه، أى: جعلنا نومكم راحة لكم.

قال ابن الأنبارى: جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم؛ لأن أصل السبت القطع، و قيل: أصله التمدد، يقال:

سبتت المرأة شعرها؛ إذا حلّته و أرسلته، و رجل مسبوت الخلق: أى ممدودة، و الرجل إذا أراد أن يستريح تمدد، فسُمى النوم سباتاً، و قيل: المعنى: و جعلنا نومكم موتاً، و النوم أحد الموتين، فالمسبوت يشبه الميت و لكنه لم تفارقه الروح، و منه قول الشاعر «٢»:

و مطوية الأقراب أمّا نهارها فسبت و أمّا ليلها فذميل «٣»

(٢). هو حميد بن ثور.

(٣). «السبت»: السير السريع. «الذميل»: السير اللين. استشهد القرطبي بهذا البيت بعد أن قال: سير سبت: أى سهل لين.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٤٠

ومن هذا قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا «١» الْآيَةَ، وقوله: وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ «٢» وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا أَى: نلبسكم ظلمته و نغشيكم بها كما يغشيكم اللباس.

وقال سعيد بن جبير و السدي: أى سكننا لكم، و قيل: المراد به ما يستره عند النوم من اللحاف و نحوه، و هو بعيد؛ لأن جعل وقع على الليل، لا على ما يستتر به النائم عند نومه وَ جَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا أَى:

وقت معاش، و المعاش: العيش، و كل شىء يعاش به فهو معاش، و المعنى: أن الله جعل لهم النهار مضيئاً ليسعوا فيما يقوم به معاشهم و ما قسمه الله لهم من الرزق وَ بَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا يريد سبع سماوات قوية الخلق محكمة البناء، و لهذا وصفها بالشدّة و غلظ كلّ واحدة منها مسيرة خمسمائة عام، كما ورد ذلك وَ جَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا المراد به الشمس، و جعل هنا بمعنى خلق، و هكذا قوله: وَ جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتًا و ما بعده؛ لأن هذه الأفعال قد تعدّت إلى مفعولين فلا بدّ من تضمينها معنى فعل يتعدى إليهما كالخلق و التصيير و نحو ذلك. و قيل: إن الجعل بمعنى الإنشاء و الإبداع فى جميع هذه المواضع، و المراد به الإنشاء التكويني الذى بمعنى التقدير و التسوية. قال الزجاج: الوهاج: الوقاد، و هو الذى وهج، يقال: وهجت النار تهج و هجا و هجانا. قال مقاتل: جعل فيه نورا و حرّاً، و الوهج يجمع النور و الحرارة وَ أَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا المعصرات: هى السحاب التى تنعصر بالماء و لم تمطر بعد، كالمراة المعتصرة التى قد دنا حيضها، كذا قال سفيان و الربيع و أبو العالية و الضحاك. و قال مجاهد و مقاتل و قتادة و الكلبي: هى الرياح، و الرياح تسمى معصرات، يقال: أعصرت الريح تعصر إعصاراً؛ إذا أثارت العجاج. قال الأزهرى:

هى الرياح ذوات الأعاصير و ذلك أن الرياح تستدرّ المطر. و قال الفرّاء: المعصرات: السحاب التى يتحلّب منها المطر. قال النحاس: و هذه الأقوال صحاح، يقال للريح التى تأتى بالمطر معصرات، و الرياح تلقح السحاب فيكون المطر. و يجوز أن تكون هذه الأقوال قولاً واحداً، و يكون المعنى: و أنزلنا من ذوات المعصرات ماء ثجاجاً. قال فى الصحاح: و المعصرات السحاب تعصر بالمطر و عصر القوم أى مطروا. قال المبرد: يقال سحاب معصر، أى: ممسك للماء يعصر منه شىء بعد شىء. و قال أبى بن كعب و الحسن و ابن جبير و زيد ابن أسلم و مقاتل بن حيان: المعصرات: السماوات، و الثجاج: المنصبّ بكثرة على جهة التتابع، يقال:

ثَجَّ الماء، أى: سال بكثرة، و ثَجَّه، أى: أساله. قال الزجاج: الثجاج: الصّبّاب. قال ابن زيد: ثجاجاً:

كثيراً لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَبَاتًا أَى: لنخرج بذلك الماء حبا يقات، كالحنطة و الشعير و نحوهما، و النبات:

ما تأكله الدواب من الحشيش و سائر النبات وَ جَنَّتِ أَلْفافًا أَى: بساتين ملتفّ بعضها ببعض لتشعب أغصانها، و لا واحد للألفاف، كالأوزاع و الأخياف، و قيل: واحدها لف بكسر اللام و ضمها، ذكره الكسائى. و قال أبو عبيدة: واحدها لفيّف؛ كشريف و أشراف، و روى عن الكسائى أنها جمع الجمع يقال جنة لفاء و نبت لف، و الجمع لفّ بضم اللام مثل حمر، ثم يجمع هذا الجمع على ألاف، و قيل: هو جمع

(١). الزمر: ٤٢.

(٢). الأنعام: ٦٠.

ملتنفه بحذف الزوائد. قال الفراء: الجنة: ما فيه النخيل، و الفردوس: ما فيه الكرم إنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا أَى: وقتا و مجمعا و ميعادا للأولين و الآخرين يصلون فيه إلى ما وعدوا به من الثواب و العقاب، و سَمِيَ يَوْمَ الْفُضْلِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَفْضِلُ فِيهِ بَيْنَ خَلْقِهِ، و هذا شروع فى بيان ما يتساءلون عنه من البعث، و قيل: معنى ميقاتا؛ أنه حدّ توقت به الدنيا و تنتهى عنده، و قيل: حدّ للخلائق ينتهون إليه يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا أَى: يوم ينفخ فى الصور، و هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل، و المراد هنا النفخة الثانية التى تكون للبعث فَيَأْتُونَ أَى: إلى موضع العرض أفواجا أَى: زمرا زمرا، و جماعات جماعات، و هى جمع فوج، و انتصاب يَوْمَ يُنْفَخُ عَلَى أَنَّهُ بَدَلٌ مِنْ يَوْمِ الْفُضْلِ، أو بيان له مفيد لزيادة تفخيمه و تهويله و إن كان الفصل متأخرا عن النفخ، و يجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى، و انتصاب أفواجا على الحال من فاعل «تأتون»، و الفاء فى «فتأتون» فصيحة تدل على محذوف، أَى: فتأتون إلى موضع العرض عقيب ذلك أفواجا وَ فُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا مَعْطُوفٌ عَلَى «ينفخ»، و صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع أى فتحت لنزول الملائكة فَكَانَتْ أَبْوَابًا كَمَا فِي قَوْلِهِ: وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا «١» و قيل: معنى فتحت قطعت فصارت قطعاً كالأبواب، و قيل: أبوابها: طرقها، و قيل: تنحلّ و تتناثر حتى تصير فيها أبواب، و قيل: إن لكل عبد بابين فى السماء؛ باب لرزقه و باب لعمله، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب، و ظاهر قوله: فَكَانَتْ أَبْوَابًا أَنَّهُ صَارَتْ كُلُّهَا أَبْوَابًا، و ليس المراد ذلك، بل المراد أنها صارت ذات أبواب كثيرة. قرأ ابن عامر و حمزة و الكسائى «فتحت» مخففا. و قرأ الباقون بالتشديد وَ سَيِّرَتِ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سِرَابًا أَى: سيرت عن أماكنها فى الهواء، و قلعت عن مقارها، فكانت هباء منبثا يظن الناظر أنها سراب، و المعنى: أن الجبال صارت كلاً شىء؛ كما أن السراب يظن الناظر أنه ماء، و ليس بماء، و قيل: معنى سيرت: أنها نسفت من أصولها، و مثل هذا قوله: وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ «٢» و قد ذكر سبحانه أحوال الجبال بوجوه مختلفة، و لكن الجمع بينها أن نقول: أول أحوالها الاندكاك، و هو قوله: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً «٣» و ثانى أحوالها أن تصير كالعهن المنفوش كما فى قوله: وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ «٤» و ثالث أحوالها أن تصير كالهباء، و هو قوله: وَ بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا - فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا «٥» و رابع أحوالها: أن تنسف و تحملها الرياح كما فى قوله: وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ وَ خَامِسُ أَحْوَالِهَا أَنْ تَصِيرَ سِرَابًا، أَى: لا شىء كما فى هذه الآية.

ثم شرع سبحانه فى تفصيل أحكام الفصل فقال: إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا قَالَ الْأَزْهَرِيُّ:

المرصاد: المكان الذى يرصد الراصد فيه العدو. قال المبرد: مرصادا يرصدون به، أَى: هو معد لهم يرصد به خزنتها الكفار. قال الحسن: إن على الباب رصدا لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليهم، فمن جاء بجواز

(١). الفرقان: ٢٥.

(٢). النمل: ٨٨.

(٣). الحاقة: ١٤.

(٤). القارعة: ٥.

(٥). الواقعة: ٥-٦.

جاز، و من لم يجيء بجواز حبس. و قال مقاتل: محبسا، و قيل: طريقا و ممرا، قال فى الصحاح: الراصد للشىء الرقيب له، يقال: رصده يرصده رصدا، و الترضيد: الترقب، و المرصد: موضع الرصد. قال الأصمعى: رصده أرصده: ترقبته، و معنى الآية: إن

جهنم كانت في حكم الله و قضائه موضع رصد؛ يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها، أو هي في نفسها متطلعة لمن يأتي إليها من الكفار كما يتطلع الرصد لمن يمر به و يأتي إليهم، و المرصد مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار و المغيار، فكأنه يكتر من جهنم انتظار الكفار. ثم ذكر من هي مرصد له فقال: لِلطَّاعِينَ مَأْبَأُ أَي: مرجعا يرجعون إليه، و المآب: المرجع، يقال: آب يؤوب؛ إذا رجع، و الطاغى: هو من طغى بالكفر، و «للتاغيين» نعت «لمرصادا» متعلق بمحذوف، و «مآبا» بدل من «مرصادا»، و يجوز أن يكون للتاغيين في محل نصب على الحال من «مآبا» قدّمت عليه لكونه نكرة، و انتصاب لاثنيين فيها على الحال المقدّرة من الضمير المستكّر في التاغيين.

قرأ الجمهور: لا يثين بالألف. و قرأ حمزة و الكسائي: «لثين» بدون ألف، و انتصاب أحقاباً على الظرفية، أي: ما كثر في النار ما دامت الأحقاب، و هي لا تنقطع، و كلما مضى حقب جاء حقب، و هي جمع حقب بضمين، و هو الدهر، و الأحقاب: الدهور، و الحقب بضم الحاء و سكون القاف: قيل:

هو ثمانون سنة، و حكى الواحدى عن المفسرين أنه بضع و ثمانون سنة، السنة ثلاثمائة و ستون يوماً، اليوم ألف سنة من أيام الدنيا. و قيل: الأحقاب: وقت لشربهم الحميم و الغساق، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العذاب، و قال السدي: الحقب سبعون سنة. و قال بشير بن كعب: ثلاثمائة سنة. و قال ابن عمر: أربعون سنة، و قيل: ثلاثون ألف سنة. قال الحسن: الأحقاب لا يدرى أحدكم هي، و لكن ذكروا أنها مائة حقب، و الحقب الواحد منها سبعون ألف سنة، اليوم منها كألف سنة. و قيل: الآية محمولة على العصاة الذين يخرجون من النار، و الأولى ما ذكرناه أولاً من أن المقصود بالآية التأييد لا التقييد. و حكى الواحدى: عن الحسن أنه قال: و الله ما هي إلا- أنه إذا مضى حقب دخل آخر، ثم كذلك إلى الأبد، و جملة لا يذوقون فيها بزداً و لا شراباً- إلا حميماً و غساقاً مستأنفه لبيان ما اشتملت عليه من أنهم لا يذوقون في جهنم أو في الأحقاب برداً ينفعهم من حرّها و لا شراباً ينفعهم من عطشها إلا- حميماً، و هو الماء الحارّ، و غساقاً و هو صديد أهل النار. و يجوز أن تكون في محل نصب على الحال من ضمير التاغيين، أو صفة للأحقاب، و الاستثناء منقطع عند من جعل البرد النوم، و يجوز أن يكون متصلاً من قوله: شراباً و قال مجاهد و السدي و أبو عبيدة و الكسائي و الفضل بن خالد و أبو معاذ النحوي: البرد المذكور في هذه الآية هو النوم، و منه قول الكندي:

بردت مراشفها على فصدني\* عنها و عن تقييلها البرد أي: النوم. قال الزجاج: أي: لا يذوقون فيها برد ريح و لا ظل و لا نوم، فجعل البرد يشمل هذه الأمور.

و قال الحسن و عطاء و ابن زيد: برداً، أي: روحاً و راحة. قرأ الجمهور: غساقاً بالتخفيف. و قرأ حمزة و الكسائي بتشديد السين، و قد تقدّم تفسيره و تفسير الحميم و الخلاف فيهما في سورة ص جزاءً وفاقاً أي: موافقاً لأعمالهم، و جزاء منتصب على المصدر، و وفاقاً نعت له. قال الفراء و الأخفش: جازيناهم جزاء

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٤٣

وافق أعمالهم، قال الزجاج: جوزوا جزاء وافق أعمالهم. قال الفراء: الوفاق: جمع الوفاق، و الوفاق و الموافق «١» واحد. قال مقاتل: وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك و لا عذاب أعظم من النار.

و قال الحسن و عكرمة: كانت أعمالهم سيئة، فأثامهم الله بما يسوءهم إنهم كانوا لا يزجون حساباً أي:

لا- يرجون ثواب حساب. قال الزجاج: كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم، و الجملة تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور و كذبوا بآياتنا كذباً أي: كذبوا بالآيات القرآنية، أو كذبوا بما هو أعم منها تكديماً شديداً، و فعال من مصادر التفعّل. قال الفراء: هي لغة فصيحة يمانية، تقول: كذبت كذاباً، و خرقت القميص خرقاً. قال في الصحاح: و كذبوا بآياتنا كذاباً هو أحد مصادر



المشدد؛ لأن مصدره قد يجيء على تفعيل مثل التكليم، و على فَعَال مثل كَذَاب، و على تفعلة مثل توصية، و على مَفْعَل مثل وَ مَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ قرأ الجمهور: كَذَابًا بالتشديد. و قرأ علي بن أبي طالب بالتخفيف. و قال أبو علي الفارسي التخفيف و التشديد جميعا مصدر المكاذبة. و قرأ ابن عمر «كذابا» بضم الكاف و التشديد، جمع كاذب.

قال أبو حاتم و نصبه على الحال. قال الزمخشري: و قد يكون يعنى على هذه القراءة بمعنى الواحد البليغ فى الكذب، تقول: رجل كذّاب كقولك حسن و بخال و كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا قرأ الجمهور:

و كُلِّ بالنصب على الاشتغال، أى: و أحصينا كل شىء أحصيناه. و قرأ أبو السّيمال برفعه على الابتداء، و ما بعده خبره، و هذه الجملة معترضة بين السبب و المسبب، و انتصاب «كتابا» على المصدرية لأحصيناه؛ لأن أحصيناه فى معنى كتبه، و قيل: هو منتصب على الحال، أى: مكتوبا، قيل: المراد كتبه فى اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة، و قيل: أراد ما كتبه الحفظة على العباد من أعمالهم، و قيل: المراد به العلم لأن ما كتب كان أبعد من النسيان، و الأول أولى لقوله: و كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ «٢» فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا هذه الجملة مسيبة عن كفرهم و تكذيبهم بالآيات. قال الرّازي: هذه الفاء للجزاء، فنبه على أن الأمر بالذوق معلل بما تقدّم شرحه من قبائح أفعالهم؛ و من الزيادة فى عذابهم أنها كلما نضجت جلودهم بدلهم جلودا غيرها. و كلما خبت النار زادهم الله سعيرا.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ قَالَ: الْقُرْآنُ: وَ هَذَا مَرْوَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ، وَ أَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: وَ جَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا قَالَ: مُضِيئًا وَ أَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ قَالَ: السَّحَابَ مَاءً تَجَّاجًا قَالَ: مَنْصَبًا. وَ أَخْرَجَ عَبْدُ بَنِ حَمِيدٍ وَ أَبُو يَعْلَى وَ ابْنُ جُرَيْرٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْهُ أَيْضًا تَجَّاجًا قَالَ: مَنْصَبًا. وَ أَخْرَجَ الشَّافِعِيُّ وَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ وَ عَبْدُ ابْنِ حَمِيدٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: وَ أَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً تَجَّاجًا قَالَ: يَبْعَثُ اللَّهُ الرِّيحَ، فَتَحْمِلُ الْمَاءَ فَيَمْرُ بِهِ السَّحَابُ، فَتَدْرُ كَمَا تَدْرُ اللَّقْحَةُ، وَ التَّجَّاجُ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ أَمْثَالَ

(١). فى تفسير القرطبي (١٩ / ١٨١): اللفق.

(٢). يس: ١٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٤٤

الغزالي «١» فتصرّفه الرياح فينزل متفرقا. و أخرج ابن جرير، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن قتادة قال: فى قراءة ابن عباس وَ أَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ بِالرِّيحِ. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه فى قوله: وَ جَنَاتٍ أَلْفًا قَالَ: ملتفة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: يقول: التّفّ بعضها ببعض.

و أخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: وَ سُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا قَالَ: سراب الشمس: الآل «٢». و أخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا لا يثين فيها أحقابا قال: سنين. و أخرج عبد الرزاق و الفريابي و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن سالم بن أبى الجعد قال: سأل علي بن أبى طالب هلال الهجرى: ما تجدون الحقب فى كتاب الله؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة منها اثنا عشر شهرا كل شهر ثلاثون يوما كل يوم ألف سنة. و أخرج سعيد بن منصور، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود فى الآية قال: الحقب الواحد ثمانون سنة. و أخرج البزار عن أبى هريرة رفته قال: «الحقب ثمانون سنة، و السنة ثلاثمائة و ستون يوما، و اليوم كألف سنة مما تعدون». و أخرج عبد بن حميد عنه قال: الحقب ثمانون عاما اليوم منها كسدس الدنيا. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه- قال السيوطى: بسند ضعيف- عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه و سلم لا يثين فيها أحقابا قال: الحقب ألف شهر، و الشهر ثلاثون يوما، و السنة اثنا عشر شهرا ثلاثمائة و ستون يوما كل يوم منها ألف سنة مما تعدون،

فالحقبة ثلاثون ألف ألف سنة. و أخرج البزار و ابن مردويه و الديلمى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: «و الله لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقاباً، و الحقبة بضع و ثمانون سنة، كل سنة ثلاثمائة و ستون يوماً، و اليوم ألف سنة مما تعدون». قال ابن عمر: فلا يتكلم أحد أنه يخرج من النار. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال: الحقبة الواحد ثمانون سنة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «الحقبة أربعون سنة». و أخرج ابن جرير عن خالد بن معدان فى قوله: لا يبين فيها أحقاباً و قوله: إلّا ما شاء ربك\* إنهما فى أهل التوحيد من أهل القبلة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: زهير جهنم يكون لهم من العذاب؛ لأن الله يقول: لا يذوقون فيها بزداءً و لا شراباً. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه و سلم «فى قوله: لا يذوقون فيها بزداءً و لا شراباً إلّا حميماً قال: قد انتهى حرّه و عساقاً قد انتهى برده، و إن الرجل إذا أدنى الإناء من فيه سقط فروة و وجهه، حتى يبقى عظاما تقعقع». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس جزاءً وفاقاً قال: وافق أعمالهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال: ما أنزلت على أهل النار آية قط أشد منها فذوقوا فلن تزيدكم إلّا عذاباً فهم فى مزيد من عذاب الله أبداً.

(١). العزالي: جمع عزلاء، و هى مصب الماء من الراوية و نحوها.

(٢). فى لسان العرب: الآل: هو الذى يكون ضحى كالماء بين السماء و الأرض.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٤٥

### [سورة النبأ (٧٨): الآيات ٣١ الى ٤٠]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأَسَاءَ دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لَا كِذَابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صِيْفًا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَن أَدْنَىٰ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ يَوْمَ الْحَقِّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠)

قوله: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا هذا شروع فى بيان حال المؤمنين، و ما أعد الله لهم من الخير بعد بيان حال الكافرين و ما أعد الله لهم من الشر، و المفاز مصدر؛ بمعنى الفوز و الظفر بالنعمة و المطلوب و النجاة من النار، و منه قيل: للفلاة مفازة تفاعلاً بالخلوص منها. ثم فسّر سبحانه هذا المفاز فقال: حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا و انتصابهما على أنهما بدل من «مفازا» بدل اشتمال، أو بدل كل من كل على طريق المبالغة بجعل نفس هذه الأشياء مفازة، و يجوز أن يكون النصب بإضمار أعنى، و إذا كان مفازا بمعنى الفوز، فيقدر مضاف محذوف، أى: فوز حدائق، و هى جمع حديقة، و هى البستان المحوَّط عليه، و الأعناب: جمع عنب، أى: كروم أعناب و كوَاعِبَ أَتْرَابًا الكواعب: جمع كاعبة، و هى الناهدة، يقال: كعبت الجارية تكعب تكعييا و كعوبا، و نهدت تنهد نهودا، و المراد أنهم نساء كواعب تكعبت ثديهن و تفلكت، أى: صارت ثديهن كالكعب فى صدورهن. قال الضحاك: الكواعب: العذارى. قال قيس بن عاصم:

و كم من حصان قد حوينا كريمه و من كاعب لم تدر ما البؤس معصر

و قال عمر بن أبى ربيعة:

و كان مجنى دون ما كنت أتقى ثلاث شخوص كاعبان و معصر

و الأتراب: الأقران في السن، وقد تقدّم تحقيقه في سورة البقرة وَ كَأَسَا دِهَاقًا أَي: ممتلئاً. قال الحسن و قتادة و ابن زيد: أي مترعة مملوءة، يقال: أدهقت الكأس، أي: ملأتها، و منه قول الشاعر:

ألا فاسقني صرفا سقاني الساقى من مائها بكأسك الدهاق

و قال سعيد بن جبیر و عكرمة و مجاهد: دِهَاقًا متتابعه يتبع بعضها بعضا. و قال زيد بن أسلم:

دِهَاقًا صافية، و المراد بالكأس الإناء المعروف، و لا يقال له الكأس إلا إذا كان فيه الشراب لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًّا وَ لا كِذَابًا أَي: لا يسمعون في الجنة لَغَوًّا وَ هو الباطل من الكلام، وَ لا كِذَابًا أَي: و لا يكذب بعضهم بعضا. قرأ الجمهور: كِذَابًا بالتشديد، و قرأ الكسائي هنا بالتخفيف، و وافق الجماعة على التشديد في قوله: وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا المتقدم في هذه السورة للتصريح بفعله هناك، و قد قدّمنا الخلاف في كذابا هل هو من مصادر التفعيل أو من مصادر المفاعلة. جزاءً مِنْ رَبِّكَ أَي: جازاهم بما تقدّم ذكره جزاء. قال الزجاج: المعنى جزاهم جزاء، و كذا عطاءً أَي:

و أعطاهم عطاء حساباً قال أبو عبيدة: كافيا. و قال ابن قتيبة: كثيرا، يقال: أحسبت فلانا، أي:

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٤٦

أكثر له العطاء، و منه قول الشاعر «١»:

و نقفى «٢» وليد الحى إن كان جائعاو نحسبه إن كان ليس بجائع

قال ابن قتيبة: أي: نعطيه حتى يقول حسبي. قال الزجاج: حساباً أَي: ما يكفيهم. قال الأخفش: يقال: أحسبني كذا، أي: كفاني. قال الكلبي: حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشرا. و قال مجاهد:

حسابا لما عملوه، فالحساب بمعنى القدر، أي: يقدر ما وجب له في وعد الرب سبحانه، فإنه وعد للحسنة عشرا، و وعد لقوم سبعمائة ضعف، و قد وعد لقوم جزاء لا نهاية له و لا مقدار كقوله: إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ «٣» و قرأ أبو هاشم «حسابا» بفتح الحاء و تشديد السين، أي: كفافا. قال الأصمعي: تقول العرب: حسبت الرجل بالتشديد؛ إذا أكرمته، و منه قول الشاعر:

إذا أتاه ضيفه يحسبه و قرأ ابن عباس: «حسانا» بالنون. رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ قرأ ابن مسعود و نافع و أبو عمرو و ابن كثير و زيد عن يعقوب و المفضل عن عاصم برفع رب و الرحمن على أن رب مبتدأ و الرحمن خبره، أو على أن رب خبر مبتدأ مقدر: أي: هو رب، و الرحمن صفته، و لا يَمْلِكُونَ خبر رب، أو على أن رب مبتدأ، و الرحمن مبتدأ ثان، و لا يملكون خبر المبتدأ الثاني، و الجملة خبر المبتدأ الأول. و قرأ يعقوب في رواية عنه و ابن عامر و عاصم في رواية عنه بخفضهما على أن رب بدل من ربك، و الرحمن صفة له. و قرأ ابن عباس و حمزة و الكسائي بخفض الأول على البدل، و رفع الثاني على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الرحمن، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و قال هذه القراءة أعدلها، فخفض رب لقربه من ربك، فيكون نعتا له و رفع الرحمن لبعده منه على الاستئناف، و خبره: لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا أَي:

لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه. و قال الكسائي: لا يملكون منه خطابا بالشفاعة إلا بإذنه، و قيل:

الخطاب الكلام، أي: لا يملكون أن يخاطبوا الرب سبحانه إلا بإذنه، دليhle: لا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ «٤». و قيل: أراد الكفار، و أما المؤمنون فيشفعون. و يجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال على ما تقدّم بيانه، و يجوز أن تكون مستأنفة مقررة لما تفيده الربوبية من العظمة و الكبرياء يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلَائِكَةُ صِفًا الظرف منتصب بلا يتكلمون، أو بلا يملكون، و «صفا» منتصب على الحال، أي:

مصطفين، أو على المصدرية، أي: يصفون صفا، و قوله: لا يَتَكَلَّمُونَ فِي محل نصب على الحال، أو مستأنف لتقرير ما قبله.

(١). القائل: امرأة من بنى قشير.

(٢). «نقفيه»: أى نؤثره بالتفقيه، وهى ما يؤثر به الضيف و الصبى.

(٣). الزمر: ١٠.

(٤). هود: ١٠٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٤٧

و اختلف فى الروح؛ فقيل: إنه ملك من الملائكة أعظم من السماوات السبع و من الأرضين السبع و من الجبال، و قيل: هو جبريل، قاله الشعبي و الضحاك و سعيد بن جبير. و قيل: الروح جند من جنود الله ليسوا ملائكة، قاله أبو صالح و مجاهد، و قيل: هم أشرف الملائكة، قاله مقاتل بن حيان. و قيل: هم حفظة على الملائكة، قاله ابن أبى نجیح. و قيل: هم بنو آدم، قاله الحسن و قتادة. و قيل: هم أرواح بنى آدم تقوم صفا و تقوم الملائكة صفا، و ذلك بين النفختين قبل أن ترد إلى الأجسام، قاله عطية العوفى. و قيل: إنه القرآن، قاله زيد بن أسلم. و قوله: **إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ ضَمِيرٍ يَتَكَلَّمُونَ**، و أن يكون منصوبا على أصل الاستثناء، و المعنى: لا يشفعون لأحد إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة، أو لا يتكلمون إلا فى حق من أذن له الرحمن و كان ذلك الشخص ممن قال صواباً قال الضحاك و مجاهد:

صواباً يعنى حقا. و قال أبو صالح: لا إله إلا الله. و أصل الصواب السداد من القول و الفعل. قيل:

لا يَتَكَلَّمُونَ يعنى الملائكة و الروح الذين قاموا صفا هيبة و إجلالا إلا من أذن له الرحمن منهم فى الشفاعة، و هم قد قالوا صوابا. قال الحسن: إن الروح يقول يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة، و لا النار إلا بالعمل. قال الواحدى: فهم لا يَتَكَلَّمُونَ يعنى الخلق كلهم إلا من أذن له الرحمن و هم المؤمنون و الملائكة، و قال فى الدنيا صواباً أى: شهد بالتوحيد، و الإشارة بقوله: **ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ قِيَامِهِمْ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ**، و هو مبتدأ و خبره **الْيَوْمِ الْحَقُّ** أى الكائن الواقع المتحقق فمن شاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَا بَأَى أى: مرجعا يرجع إليه بالعمل الصالح؛ لأنه إذا عمل خيرا قربه إلى الله، و إذا عمل شرا باعده منه، و معنى **إِلَى رَبِّهِ** إلى ثواب ربه، قال قتادة: **مَا بَأَى**: سبيلا. ثم زاد سبحانه فى تخويف الكفار فقال: **إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَعْنِي الْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ**، و كل ما هو آت فهو قريب، و مثله قوله:

**كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا** «١» كذا قال الكلبي و غيره. و قال قتادة: هو عذاب الدنيا لأنه أقرب العذابين. قال مقاتل: هو قتل قريش ببدر، و الأول أولى لقوله: **يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ فَإِنَّ الظَّرْفَ** إما بدل من عذاب، أو ظرف لمضممر هو صفة له، أى: عذابا كائنا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ أى: يشاهد ما قدمه من خير أو شر، و «ما» موصولة أو استفهامية. قال الحسن: و المرء هنا هو المؤمن، أى: يجد لنفسه عملا، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا فيتمنى أن يكون ترابا، و قيل: المراد به الكافر على العموم، و قيل: أبى بن خلف و عقبه بن أبى معيط، و الأول أولى لقوله: **وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا** فإن الكافر واقع فى مقابلة المرء، و المراد جنس الكافر يتمنى أن يكون ترابا لما يشاهده مما قد أعدّه الله له من أنواع العذاب، و المعنى: أنه يتمنى أنه كان ترابا فى الدنيا فلم يخلق، أو ترابا يوم القيامة. و قيل:

المراد بالكافر أبو جهل، و قيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى، و قيل: إبليس، و الأول أولى اعتبارا بعموم اللفظ، و لا ينافيه خصوص السبب كما تقدّم غير مرّة.

وقد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و البيهقي عن ابن عباس في قوله: **إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا** قال: منتزها و كَوَاعِبَ قال: نواهد أتراباً قال: مستويات و كَأْسًا دِهَاقًا قال: ممتلئاً.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقي في البعث، عن ابن عباس في قوله: **و كَأْسًا دِهَاقًا** قال: هي الممتلئة المترعة المتتابعة، و ربما سمعت العباس يقول: يا غلام اسقنا و ادهق لنا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه: **دِهَاقًا** قال: دراكا.

و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال: إذا كان فيها خمر فهي كأس، و إذا لم يكن فيها خمر فليس بكأس. و أخرج ابن أبي حاتم، و أبو الشيخ في العظمة، و ابن مردويه عنه أيضا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قال: «الروح جند من جنود الله، ليسوا بملائكة، لهم رؤوس و أيدي و أرجل» ثم قرأ: **يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ المَلَائِكَةُ صِيْفًا** قال: هؤلاء جند و هؤلاء جند. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ، و البيهقي في الأسماء و الصفات، عن ابن عباس **يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ** قال: هو ملك من أعظم الملائكة خلقا. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: «الروح في السماء الرابعة، و هو أعظم من السموات و الجبال و من الملائكة، يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسيحة، يخلق الله من كل تسيحة ملكا من الملائكة يجيء يوم القيامة صفا وحده».

و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: «إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار ترعد فرائضه فرقا من عذاب الله، يقول: سبحانك لا إله إلا أنت ما عبدناك حق عبادتك، ما بين منكبيه كما بين المشرق و المغرب، أما سمعت قول الله: **يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ المَلَائِكَةُ صِيْفًا**». و أخرج البيهقي في الأسماء و الصفات عنه في قوله: **يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ** قال: يعني حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن ترد الأرواح إلى الأجساد.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقي في الأسماء و الصفات، عنه أيضا **و قال صَوَابًا** قال:

لا إله إلا الله. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و البيهقي في البعث و النشور، عن أبي هريرة قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم و الدواب و الطير و كل شيء، فيبلغ من عدل الله أن يؤخذ للجَمَاء «١» من القرناء، ثم يقول: كوني ترابا، فذلك حين يقول الكافر يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا.

(١). «الجماء»: التي لا قرون لها.

## سورة النازعات

### إشارة

و تسمى سورة الساهرة، هي خمس و أربعون آية، و قيل: ست و أربعون آية و هي مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة النازعات بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ النَّازِعَاتِ غَرَقًا (١) وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَ السَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤)

فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتَّبِعُنَّ الرَّادِفَةَ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩)

يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أ إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣)

فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤)

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَفَعَلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ

تَزَكَّى (١٨) وَ أَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩)

فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَ عَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَفَتَحَ الْقَدِيرَ ج ٥

٤٧٩

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦)

أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها، و هي الملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسادهم؛ كما ينزع النازع في القوس فيبلغ بها

غاية المد، و كذا المراد بالناشطات و السابحات و السابقات و المدبرات، يعني:

الملائكة، و العطف مع اتحاد الكل لتتزيل التغيرات الوصفية منزلة التغيرات الذاتية، كما في قول الشاعر:

إلى الملك القرم و ابن الهمام و ليث الكتيبة في المزدهم

و هذا قول الجمهور من الصحابة و التابعين و من بعدهم. و قال السدي: النَّازِعَاتِ هي النفوس حين تغرق في الصدور. و قال

مجاهد: هي الموت ينزع النفس. و قال قتادة: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق، من قولهم: نزع إليهم إذا ذهب، أو من قولهم

نزعت بالحبل، أي: إنها تغرب و تغيب و تطلع من أفق آخر. و به قال أبو عبيدة و الأخفش و ابن كيسان. و قال عطاء و عكرمة:

النازعات: القسي تنزع بالسهم، و إغراق النازع في القوس أن يمدّه غاية المدّ حتى ينتهي به إلى النصب. و قال يحيى بن سلام:

تنزع من الكلا و تنفر، و قيل: أراد بالنازعات: الغزاة الرّماة، و انتصاب غَرَقًا على أنه مصدر بحذف الزوائد، أي:

إغراقا، و الناصب له ما قبله لملاقاته له في المعنى، أي: إغراقا في النزاع حيث تنزعها من أقاصى الأجسام، أو على الحال، أي:

ذوات إغراق، يقال: أغرق في الشيء يغرق فيه؛ إذا أوغل فيه و بلغ غايته و معنى النَّاشِطَاتِ أنها تنشط النفوس، أي: تخرجها من

الأجساد كما ينشط العقال من يد البعير؛ إذا

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٥٠

حلّ عنه، و نشط الرجل الدلو من البئر؛ إذا أخرجها، و النَّشْطُ: الجذب بسرعة، و منه الأنشطة للعقدة التي يسهل حلّها. قال أبو

زيد: نشطت الحبل أنشطه عقده، و أنشطته، أي: حللته، و أنشطت الحبل، أي: مددته. قال الفراء: أنشط العقال، أي: حلّ، و نشط،

أي: ربط الحبل في يديه. قال الأصمعي:

بئر أنشاط، أي: قريبة القعر، تخرج الدلو منها بجذبة واحدة، و بئر نشوط، و هي التي لا يخرج منها الدلو حتى ينشط كثيرا. و قال

مجاهد: هي الموت ينشط نفس الإنسان. و قال السدي: هي النفوس حين تنشط من القدمين. و قال عكرمة و عطاء: هي الأوهاق

«١» التي تنشط السهام، و قال قتادة و الحسن و الأخفش:

هي النجوم تنشط من أفق إلى أفق، أي: تذهب. قال في الصحاح: وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا يعنى النجوم من برج إلى برج؛ كالثور الناشط

من بلد إلى بلد. و الهموم تنشط بصاحبها. و قال أبو عبيدة و قتادة: هي الوحوش حين تنشط من بلد إلى بلد. و قيل: الناشطات

لأرواح المؤمنين، و النازعات لأرواح الكافرين؛ لأنها تجذب روح المؤمن برفق و تجذب روح الكافر بعنف، و قوله: نَشْطًا

مصدر، و كذا سبحا و سبحا.

و السَّابِحَاتِ الملائكة تسبح في الأبدان لإخراج الروح كما يسبح الغواص في البحر لإخراج شيء منه.

وقال مجاهد و أبو صالح: هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله، كما يقال للفرس الجواد سابح؛ إذا أسرع في جريه.

وقال مجاهد أيضا: السابحات: الموت يسبح في نفوس بني آدم. وقيل: هي الخيل السابحة في الغزو، و منه قول عنترة:

والخيل تعلم حين تسبح في حياض الموت سبحا

وقال قتادة و الحسن: هي النجوم تسبح في أفلاكها، كما في قوله: وَ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبُحُونَ «٢» و قال عطاء: هي السفن تسبح في

الماء، و قيل: هي أرواح المؤمنين تسبح شوقا إلى الله فَالسَّابِقَاتِ سَبِقًا هم الملائكة على قول الجمهور كما سلف. قال مسروق و

مجاهد: تسبق الملائكة الشياطين بالوحي إلى الأنبياء.

وقال أبو روق: هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير و العمل الصالح، و روى نحوه عن مجاهد. و قال مقاتل:

هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. و قال الربيع: هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقا إلى الله. و قال مجاهد

أيضا: هو الموت يسبق الإنسان. و قال قتادة و الحسن و معمر: هي النجوم يسبق بعضها في السير بعضا. و قال عطاء: هي الخيل

التي تسبق إلى الجهاد. و قيل: هي الأرواح التي تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار. قال الجرجاني: عطف السابقات بالفاء؛ لأنها

مسيبة من التي قبلها، أي: و اللاتي يسبحن فيسبقن، تقول: قام فذهب، فهذا يوجب أن يكون القيام سببا للذهاب، و لو قلت قام و

ذهب بالواو لم يكن القيام سببا للذهاب. قال الواحدى: و هذا غير مطرد في قوله: فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا لأنه يبعد أن يجعل السبق سببا

للتدبر، قال الرازى: و يمكن الجواب عما قاله الواحدى: بأنها لما أمرت سبحت فسبقت

---

(١). «الأوهاق»: جمع وهق، الحبل تشد به الإبل و الخيل لثلاث تند.

(٢). يس: ٤٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٥١

فدبرت ما أمرت بتدييره، فتكون هذه أفعالا يتصل بعضها ببعض، كقوله: قام زيد فذهب. و لما سبقوا في الطاعات و سارعوا إليها

ظهرت أمانتهم ففوض إليهم التدبير. و يجاب عنه بأن السبق لا يكون سببا للتدبير كسببية السبح للسبق و القيام للذهاب، و مجرد

الاتصال لا يوجب السببية و المسيبية. و الأولى أن يقال العطف بالفاء في المدبرات طويق به ما قبله من عطف السابقات بالفاء، و

لا يحتاج إلى نكتة كما احتاج إليها ما قبله لأن النكتة إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق لا لمطابقته و موافقته فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا قال

القشيري: أجمعوا على أن المراد هنا الملائكة. و قال الماوردي: فيه قولان: أحدهما: الملائكة و هو قول الجمهور، و الثانى: أنها

الكواكب السبع، حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل. و فى تدبيرها الأمر و جهان: أحدهما: تدبر طلوعها و أفولها. الثانى:

تدبر ما قضاه الله فيها من الأحوال. و معنى تدبير الملائكة للأمر نزولها بالحلال و الحرام و تفصيلهما و الفاعل للتدبير فى الحقيقة

و إن كان هو الله عز و جل، لكن لما نزلت الملائكة به و صفت به. و قيل:

إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض فى الرياح و الأمطار و غير ذلك قيل لها: مدبرات. قال عبد الرحمن ابن سابط: تدبير

أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة: جبريل و ميكائيل و عزرائيل و إسرافيل، فأما جبريل فموكل بالرياح و الجنود، و أما ميكائيل

فموكل بالقطر و النبات، و أما عزرائيل فموكل بقبض الأنفس، و أما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم، و جواب القسم بهذه

الأمر التى أقسم الله بها محذوف، أى: و النازعات، و كذا و كذا لتبعثن. قال الفراء: و حذف لمعرفة السامعين به، و يدل عليه

قوله: أ إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخْرَةً «١» و قيل:

إن جواب القسم قوله: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى** «٢» أى: إن فى يوم القيامة ذكر و موسى و فرعون لعبرة لمن يخشى. قال ابن الأنبارى: و هذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال بينهما، و قيل: جواب القسم هل أتاك حديث موسى «٣» لأن المعنى: قد أتاك، و هذا ضعيف جدا. و قيل: الجواب **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ** على تقدير: ليوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة. و قال السجستاني: يجوز أن يكون هذا من التقديم و التأخير، كأنه قال: فإذا هم بالساهرة و النازعات. قال ابن الأنبارى: و هذا خطأ لأن الفاء لا يفتح بها الكلام، و الأول أولى **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ** انتصاب هذا الظرف بالجواب المقدر للقسم، أو يا ضمرا: اذكر، و الراجفة: المضطربة، يقال: رجف يرجف؛ إذا اضطرب، و المراد هنا الصيحة العظيمة التى فيها تردّد و اضطراب كالرعد، و هى النفخة الأولى التى يموت بها جميع الخلائق، و الرادفة: النفخة الثانية التى تكون عند البعث، و سميت رادفة لأنها ردت النفخة الأولى، كذا قال جمهور المفسرين. و قال ابن زيد: الراجفة: الأرض، و الرادفة: الساعة. و قال مجاهد: الرادفة: الزلزلة تتبعها الرادفة الصيحة، و قيل: الراجفة: اضطراب الأرض، و الرادفة: الزلزلة، و أصل الراجفة: الحركة، و ليس المراد التحرك هنا فقط؛ بل الراجفة هنا مأخوذة من قولهم: رجف الرعد يرجف رجفا و رجيفا؛ إذا ظهر صوته، و منه سميت الأراجيف؛ لاضطراب الأصوات بها و ظهور الأصوات فيها، و منه قول الشاعر «٤»:

(١). النازعات: ١١.

(٢). النازعات: ٢٦.

(٣). طه: ٩.

(٤). هو منازل بن ربيعة المنقرى.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٥٢ أ بالأراجيف يا ابن اللؤم توعدنى و فى الأراجيف خلت اللؤم و الخورا و محل **تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ** النصب على الحال من الراجفة، و المعنى: لتبعنّ يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها قلوب **يَوْمَ تَدِ اجِفَةٌ** قلوب مبتدأ، و يومئذ منصوب بواجفة، و واجفة صفة قلوب، و جملة **أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ** خبر قلوب، و الواجفة: المضطربة القلقة لما عاينت من أهوال يوم القيامة. قال جمهور المفسرين: أى خائفة و جلة. و قال السدى: زائلة عن أماكنها، نظيره **إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ** «١» و قال المورج: قلقة مستوفزة. و قال المبرد: مضطربة، يقال: وجف القلب يجف و جيفا؛ إذا خفق، كما يقال: وجب يجب و جيبا، و الإيجاف: السير السريع، فأصل الوجيف اضطراب القلب، و منه قول قيس بن الخطيم:

إِنَّ بَنِي جَحْجَبِي وَ قَوْمَهُمْ أَكْبَادَنَا مِنْ وَرَائِهِمْ تَجْفِ

**أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ** أى: أبصار أصحابها، فحذف المضاف، و الخاشعة: الدليّة، و المراد أنها تظهر عليهم الذلة و الخضوع عند معاينة أهوال يوم القيامة؛ كقوله: **خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ** «٢» قال عطاء: يريد أبصار من مات على غير الإسلام، و يدلّ على هذا أن السياق فى منكرى البعث **يَقُولُونَ** **أَنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ** هذا حكاية لما يقوله المنكرون للبعث إذا قيل لهم إنكم تبعثون، أى: أن نردّ إلى أوّل حالنا و ابتداء أمرنا فنصير أحياء بعد موتنا، يقال: رجع فلان فى حافرتة، أى: رجع من حيث جاء، و الحافرة عند العرب اسم لأوّل الشىء و ابتداء الأمر، و منه قولهم: رجع فلان على حافرتة، أى: على الطريق الذى جاء منه، و يقال: اقتتل القوم عند الحافرة، أى: عند أوّل ما التقوا؛ و سميت الطريق التى جاء منها حافرة لتأثيره فيها بمشيئه فيها فهى حافرة بمعنى محفورة، و من هذا قول الشاعر:

أ حافرة على صلح و شيب معاذ الله من سفه و عار

أى: أ أرجع إلى ما كنت عليه فى شبابى من الغزل بعد الشيب و الصلح. و قيل: الحافرة: العاجلة، و المعنى: إننا لمرردون إلى



الدنيا، و قيل: الحافرة: الأرض التي تحفر فيها قبورهم، و منه قول الشاعر:

آليت لا أنساكم فاعلمواحتى يردّ النَّاسُ فى الحافرة

و المعنى: إنا لمردودون فى قبورنا أحياء، كذا قال الخليل و الفراء، و به قال مجاهد. و قال ابن زيد: الحافرة: النار، و استدللّ بقوله: تَلَمَّكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ. قرأ الجمهور: فى الحافرة و قرأ أبو حيوة «فى الحفرة». أ إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخْرَةً أَى: بالية متفتتة. يقال: نخر العظم بالكسر؛ إذا بلى، و هذا تأكيد لإنكار البعث، أَى: كيف نردّ أحياء و نبعث إذا كنا عظاما نخرة، و العامل فى «إذا» مضمّر يدلّ عليه مردودون، أَى: أ إذا كنا عظاما بالية نرد و نبعث مع كونها أبعد شىء من الحياة. قرأ الجمهور: نَخْرَةً

(١). غافر: ١٨.

(٢). الشورى: ٤٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٥٣

و قرأ حمزة و الكسائى و أبو بكر «ناخرة» و اختار القراءة الأولى أبو عبيد و أبو حاتم، و اختار القراءة الثانية الفراء و ابن جرير و أبو معاذ النحوى. قال أبو عمرو بن العلاء: الناخرة التى لم تنخر بعد، أَى: لم تبلى و لا بدّ أن تنخر. و قيل: هما بمعنى، تقول العرب: نخر الشىء فهو ناخر و نخر، و طمع فهو طامع و طمع و نحو ذلك. قال الأخفش: هما جميعا لغتان أيهما قرأت فحسن. قال الشاعر:

يظلّ بها الشيخ الذى كان بادنايدبّ على عوج له نخرات

يعنى على قوائم عوج، و قيل: الناخرة التى أكلت أطرافها و بقيت أوساطها، و النخرة: التى فسدت كلّها. و قال مجاهد نَخْرَةً أَى: مرفوته، كما فى قوله: رُفَاتًا\* «١»، و قرئ إِذَا كُنَّا و أ إِذَا كُنَّا بالاستفهام و بعده. ثم ذكر سبحانه عنهم قولاً آخر قالوه فقال: قالوا تَلَمَّكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ أَى: رجعة ذات خسرة لما يقع على أصحابها من الخسران، و المعنى: أنهم قالوا: إن رددنا بعد الموت لنخسرنّ بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد. و قيل: معنى خاسرة كاذبة، أَى: ليست بكائنة، كذا قال الحسن و غيره. و قال الربيع بن أنس: خاسرة على من كذب بها. و قال قتادة و محمد بن كعب: أَى لئن رجعنا بعد الموت لنخسرنّ بالنار، و إنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار، و الكرة: الرجعة، و الجمع كرات.

و قوله: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ تعليل لما يدل عليه ما تقدّم من استبعادهم لبعث العظام النخرة و إحياء الأموات، و المعنى: لا تستبعدوا ذلك فإنما هى زجرة واحدة، و كان ذلك الإحياء و البعث، و المراد بالزجرة الصيحة و هى النفخة الثانية التى يكون البعث بها. و قيل: إن الضمير فى قوله: فَإِنَّمَا هِيَ راجع إلى الرادفة المتقدّم ذكرها فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ أَى: فإذا الخلائق الذين قد ماتوا و دفنوا أحياء على وجه الأرض، قال الواحدى: المراد بالساهرة وجه الأرض، و ظهرها فى قول الجميع. قال الفراء: سميت بهذا الاسم لأن فيها نوم الحيوان و سهرهم، و قيل: لأن يسهر فى فلاتها خوفا منها، فسميت بذلك، و منه قول أبى كبير الهذلي:

يرتدن ساهرة كأنّ جميمها و عميمها أسداف ليل مظلم «٢»

و قول أمية بن أبى الصلت:

و فيها لحم ساهرة و بحرو ما فاهوا به لهم مقيم

يريد لحم حيوان أرض ساهرة. قال فى الصحاح: الساهرة: وجه الأرض، و منه قوله: فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ. و قال: الساهرة: أرض بيضاء، و قيل: أرض من فضة لم يعص الله سبحانه فيها، و قيل:

الساهرة: الأرض السابعة يأتى بها الله سبحانه فيحاسب عليها الخلائق. و قال سفيان الثورى: الساهرة: أرض

(١). الإسراء: ٤٩.

(٢). «الجميم»: النبت الذى قد نبت و ارتفع قليلا و لم يتم كل التمام. «العميم»: المكتمل التام من النبت. «الأسداف»:

جمع سدف، و هو ظلمة الليل.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٥٤

الشام. و قال قتادة: هى جهنم، أى: فإذا هؤلاء الكفار فى جهنم، و إنما قيل: لها ساهرة لأنهم لا ينامون فيها لاستمرار عذابهم. و جملة هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى مستأنفة مسوقة لتسليّة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عن تكذيب قومه، و أنه يصيهم مثل ما أصاب من كان قبلهم ممّن هو أقوى منهم، و معنى هَلْ أَتَاكَ

قد جاءك و بلغك، هذا على تقدير أن قد سمع من قصص فرعون و موسى ما يعرف به حديثهما، و على تقدير أن هذا ما نزل عليه فى شأنهما؛ فيكون المعنى على الاستفهام، أى: هل أتاك حديثه أنا أخبرك به إذ ناداه رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى الظرف متعلق بحديث لا بأتاك لاختلاف وقتيهما، و قد مضى من خبر موسى و فرعون فى غير موضع ما فيه كفاية، و قد تقدّم الاختلاف بين القرآء فى طوى فى سورة طه. و الواد المقدّس:

المبارك المطهر. قال الفراء: طوى واد بين المدينة و مصر. قال: و هو معدول من طاو، كما عدل عمر من عامر. قال: و الصرف أحبّ إذ لم أجد فى المعدول نظيرا له. و قيل: طوى معناه يا رجل بالعبرانية، فكأنه قيل يا رجل اذهب، و قيل: المعنى: إن الوادى المقدّس بورك فيه مرتين، و الأوّل أولى. و قد مضى تحقيق القول فيه اذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قيل: هو على تقدير القول، و قيل: هو تفسير للنداء، أى:

ناداه نداء هو قوله: اذهب. و قيل: هو على حذف أن المفسرة، و يؤيده قراءة ابن مسعود أن اذهب؛ لأن فى النداء معنى القول، و جملة إِنَّهُ طَغَى تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال، أى: جاوز الحدّ فى العصيان و التكبر و الكفر بالله فَقُلْ لَهُ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزْكَى أى: قل له بعد و صولك إليه: هل لك رغبة إلى التزكى؟ و هو التطهر من الشرك، و أصله تتركى فحذفت إحدى التاءين. قرأ الجمهور: تَزْكَى بالتخفيف. و قرأ نافع و ابن كثير بتشديد الزاى على إدغام التاء فى الزاى. قال أبو عمرو بن العلاء: معنى قراءة التخفيف تكون زكيا مؤمنا، و معنى قراءة التشديد الصدقة، و فى الكلام مبتدأ مقدر يتعلق به إلى، و التقدير: هل لك رغبة أو هل بك توجه أو هل لك سبيل إلى التزكى، و مثل هذا قولهم: هل لك فى الخير؟

يريدون: هل لك رغبة فى الخير، و من هذا قول الشاعر «١»:

فهل لكم فيها إلى فإنتى طيب بما أعيان الطاسى حديما «٢»

وَ أَهْدَيْكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى أى: أرشدك إلى عبادته و توحيده فتخشى عقابه، و الفاء لترتيب الخشية على الهداية؛ لأن الخشية لا تكون إلا من مهتد راشد فأراه الآيَةَ الْكُبْرَى هذه الفاء هى الفصيحة لإفصاحها عن كلام محذوف، يعنى: فذهب فقال له ما قال مما حكاه الله فى غير موضع، و أجاب عليه بما أجب إلى أن قال: إِنَّ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا «٣» فعند ذلك أراه الآيَةَ الْكُبْرَى. و اختلف فى الآيَةَ الْكُبْرَى ما هى؟ فقيل: يده، و قيل: فلق البحر، و قيل: هى جميع ما جاء به من الآيات التسع فَكَذَّبَ وَ عَصَى أى: فلما أراه الآيَةَ الْكُبْرَى كذّب بموسى و بما جاء به، و عصى الله عزّ

(١). هو أوس بن أوس.

(٢). أى: ابن حذيم.

و جلّ فلم يطعه ثمّ أذبر أي: تولّى و أعرض عن الإيمان يسّعى أي: يعمل بالفساد فى الأرض و يجتهد فى معارضة ما جاء به موسى، و قيل: أدبر هارباً من الحيّة يسعى خوفاً منها. و قال الرازى: معنى أذبر يسعى أقبل يسعى، كما يقال: أقبل يفعل كذا، أي: أنشأ يفعل كذا، فوضع أدبر موضع أقبل لثلاث- يوصف بالإقبال. فحشّر أي: فجمع جنوده للقتال و المحاربة، أو جمع السحرة للمعارضة؛ أو جمع الناس للحضور ليشاهدوا ما يقع، أو جمعهم ليمنعوه من الحيّة فنأدى فقال أنا ربُّكم الأعلى أي:

قال لهم بصوت عال، أو أمر من ينادى بهذا القول. و معنى أنا ربُّكم الأعلى أنه لا ربّ فوقى. قال عطاء: كان صنع لهم أصناماً صغاراً و أمرهم بعبادتها و قال: أنا ربّ أصنامكم، و قيل: أراد بكونه ربهم أنه قائدهم و سائدهم. و الأوّل أولى لقوله فى آية أخرى: ما علّمت لكم من إله غيرى (١) فأخذه الله نكال الآخرة و الأولى النكال نعت مصدر محذوف، أي: أخذه أخذ نكال، أو هو مصدر لفعل محذوف، أي: أخذه الله فنكله نكال الآخرة و الأولى، أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة، و المراد بنكال الآخرة عذاب النار و نكال الأولى عذاب الدنيا بالغرق. و قال مجاهد: عذاب أوّل عمره و آخره، و قال قتادة: الآخرة قوله:

أنا ربُّكم الأعلى و الأولى تكذيبه لموسى. و قيل: الآخرة قوله: أنا ربُّكم الأعلى و الأولى قوله:

ما علّمت لكم من إله غيرى و كان بين الكلمتين أربعون سنة، و يجوز أن يكون انتصاب نكال على أنه مفعول له، أي: أخذه الله لأجل نكال، و يجوز أن ينتصب بنزع الخافض، أي: بنكال. و رجح الزجاج أنه مصدر مؤكد، قال: لأن معنى أخذه الله: نكل الله به، فأخرج من معناه لا من لفظه. و قال الفراء:

أى أخذه الله أخذاً نكالاً- أى: للنكال، و النكال: اسم لما جعل نكالاً للغير، أى: عقوبة له، يقال: نكل فلان بفلان: إذا عاقبه، و أصل الكلمة من الامتناع، و منه النكول عن اليمين، و النكل القيد إن فى ذلك ليعبرة لمن يخشى أى: فيما ذكر من قصة فرعون و ما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى الله و يتقيه، و يخاف عقوبته و يحاذر غضبه.

و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن عليّ بن أبى طالب فى قوله: و النَّازِعَاتِ غَرْقًا قال:

هى الملائكة تنزع روح الكفار و النَّاشِطَاتِ نَشْطًا قال: هى الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار و الجلد حتى تخرجها و السَّابِحَاتِ سَبْحًا هى الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء و الأرض فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا هى الملائكة يسبق بعضها بعضاً بأرواح المؤمنين إلى الله فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً هى الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس و النَّازِعَاتِ غَرْقًا قال: هى أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق فى النار. و أخرج الحاكم و صححه عنه و النَّازِعَاتِ غَرْقًا- و النَّاشِطَاتِ نَشْطًا قال: الموت.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود و النَّازِعَاتِ غَرْقًا قال: الملائكة الذين يلون أنفس الكفار

إلى قوله: و السَّابِحَاتِ سَبْحًا قال: الملائكة.

و أخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل قال: قال لى رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: «لا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار، قال الله: و النَّاشِطَاتِ نَشْطًا أ تدري ما هو؟ قلت: يا نبى الله ما هو؟ قال: كلاب فى النار تنشط اللحم و العظم». و أخرج ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب أن ابن الكواء سأله عن فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً قال: هى الملائكة يدبرون ذكر الرّحمن و أمره. و أخرج ابن أبى

الدنيا في «ذكر الموت» عن ابن عباس قال: المدبرات أمرا ملائكة يكونون مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم، فمنهم من يعرج بالروح، ومنهم من يؤمن على الدعاء، ومنهم من يستغفر للميت حتى يصلى عليه و يدلى في حفرته. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ قال: النفخة الأولى تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ قال: النفخة الثانية قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ قال: خائفَةٌ أِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ قال:

الحياة. وأخرج أحمد وعبد بن حميد، والترمذي وحسبته، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربيع الليل قام فقال: «أيها الناس اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه». وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ترجف الأرض رجفا، وتزلزل بأهلها، وهي التي يقول الله:

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ - تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ يقول: مثل السفينة في البحر تكفأ بأهلها مثل القنديل المعلق بأرجائه». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ قال: وجله متحركة. وأخرج عبد بن حميد عنه أِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ قال: خلقا جديدا. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن الأنباري في الوقف والابتداء، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا أنه سئل عن قوله: فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ فقال: الساهرة وجه الأرض، وفي لفظ قال: الأرض كلها ساهرة، ألا ترى قول الشاعر:

صيد بحر وصيد ساهرة وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضا هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَرَكِّي قال: هل لك أن تقول: لا- إله إلا- الله. وأخرج ابن جرير عنه أيضا فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ قال: قوله: أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى وَالأولى قال: قوله: ما عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عبد الله ابن عمرو قال: كان بين كلمتيه أربعون سنة.

### [سورة النازعات (٧٩): الآيات ٢٧ الى ٤٦]

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بِنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَ أَغْطَشَ لَيْلَهَا وَ أَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَ الأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَ مَرَعَاهَا (٣١)

وَ الْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَ لِلْأَنْعَامِ كُفًى (٣٣) فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَ بُرِّرَتْ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦)

فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)

يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعِيَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٥٧

قوله: أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ أَى: أخلقكم بعد الموت و بعثكم أشد عندكم و فى تقديركم أم خلق السماء، و الخطاب لكفار مكة، و المقصود به التوبيخ لهم و التبكيث؛ لأن من قدر على خلق السماء التى لها هذا الجرم العظيم و فيها من عجائب الصنع و بدائع القدرة ما هو بين للناظرين كيف يعجز عن إعادة الأجسام التى أماتها بعد أن خلقها أول مرّة؟ و مثل هذا قوله سبحانه: لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ «١» و قوله: أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ «٢» ثم بين سبحانه كيفية خلق السماء فقال: بناها- رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا أَى: جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض، و رفع سمكها، أَى: أعلاه فى الهواء، فقوله: رَفَعَ سَمَكَهَا بيان للبناء، يقال سمكت الشىء، أَى: رفعته فى الهواء، و سمك الشىء سموكا: ارتفع. قال الفراء:

كل شيء حمل شيئاً من البناء أو غيره فهو سمك، و بناء مسموك، و سنام سامك، أى: عال، و المسموكات: السماوات: و منه قول الفرزدق:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

قال البغوي: رَفَعَ سَمَكَهَا أَي: سَقَفَهَا. قال الكسائي و الفراء و الزجاج: تَمَّ الْكَلَامَ عِنْدَ قَوْلِهِ:

أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا لِأَنَّهُ مِنْ صِلَةِ السَّمَاءِ، وَ التَّقْدِيرُ: أَمِ السَّمَاءَ الَّتِي بَنَاهَا، فَحَذَفَ الَّتِي، وَ مِثْلُ هَذَا الْحَذْفِ جَائِزٌ. وَ مَعْنَى فَسَّوَاهَا فَجَعَلَهَا مَسْتَوِيَةً الْخَلْقِ مَعْدَلُهُ الشَّكْلُ لَا تَفَاوُتَ فِيهَا وَ لَا اعْوِجَاجَ وَ لَا فَطُورَ وَ لَا شَقُوقَ وَ أَعْطَشَ لِيَلْبِهَا الْغَطْشَ: الظلمة، أى: جعله مظلماً، يقال: غطش الليل و أغطشه الله، كما يقال: أظلم الليل و أظلمه الله، و رجل أغطش و امرأة غطشى لا يهتديان. قال الراغب: و أصله من الأَـغْطَشَ، وَ هُوَ الَّهِدَى فِي عَيْنِهِ عَمَشَ، وَ مِنْهُ فَلَائَةُ غَطْشَى لَا- يَهْتَدِي فِيهَا «٣»، وَ التَّغَاطُشُ: التَّعَامَى. قَالَ الْأَعْشَى:

وَ يَهْمَاءُ بِاللَّيْلِ غَطْشَى الْفَلَائَةُ يُؤَنِّسُنِي صَوْتُ فَيَادِهَا «٤»

و قوله:

وَ غَامِرُهُمْ مَدْلَهُمْ غَطْشَ «٥» يَعْنِي: غَمِرَهُمْ سَوَادَ اللَّيْلِ، وَ أَضَافَ اللَّيْلَ إِلَى السَّمَاءِ لِأَنَّ اللَّيْلَ يَكُونُ بِغُرُوبِ الشَّمْسِ وَ الشَّمْسُ مَضَافَةٌ إِلَى السَّمَاءِ وَ أَخْرَجَ ضُحَاهَا أَي: أَبْرَزَ نَهَارَهَا الْمَضِيءَ بِإِضَاءَةِ الشَّمْسِ، وَ عَبَّرَ عَنِ النَّهَارِ بِالضَّحَى؛ لِأَنَّهُ

(١). غافر: ٥٧.

(٢). يس: ٨١.

(٣). فى تفسير القرطبي: لها.

(٤). «الفياد»: ذكر البوم.

(٥). و صدر البيت: عقرت لهم موهنا ناقتي.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٥٨

أشرف أوقاته و أطيبها، و أضافه إلى السماء لأنه يظهر بظهور الشمس، و هى منسوبة إلى السماء وَ الْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَي: بعد خلق السماء، و معنى دحاهها: بسطها، و هذا يدل على أن خلق الأرض بعد خلق السماء، و لا معارضة بين هذه الآية و بين ما تقدّم فى سورة فصلت من قوله: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ «١» بل الجمع بأنه سبحانه خلق الأرض أولاً غير مدحوة ثم خلق السماء ثم دحا الأرض، و قد قدّمنا الكلام على هذا مستوفى هنالك، و قدّمنا أيضاً بحثاً فى هذا فى أول سورة البقرة عند قوله: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً «٢» و ذكر بعض أهل العلم أن بعد بمعنى مع كما فى قوله: عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنِيمٍ «٣»؛ و قيل: بعد بمعنى قبل كقوله: وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ «٤» أى: من قبل الذكر.

و الجمع الّذى ذكرناه أولى، و هو قول ابن عباس و غير واحد، و اختاره ابن جرير. يقال: دحوت الشيء أدحوه؛ إذا بسطته، و يقال لعش النعام: أدحى، لأنه مبسوط على الأرض، و أنشد المبرد:

دحاهها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا

و قال أمية بن أبى الصلت:

و بثّ الخلق فيها إذ دحاهفهم قطنها حتى التنادى

و قال زيد بن عمرو بن نفيل:

و أسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرًا ثقلاً

دحاها فلما استوت شدّها بأيدٍ و أرسى عليها الجبالا

قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال، وقرأ الحسن و عمرو بن ميمون و ابن أبي عبلة و أبو حيوة و أبو السيمال و عمرو بن عبيد و نصر بن عاصم بالرفع على الابتداء أخرج منها ماءها و مرعاها أي: فجر من الأرض الأنهار و البحار و العيون أخرج منها ماءها- و مرعاها أي: النبات الذي يرعى، و مرعاها مصدر ميمي، أي: رعيها، و هو في الأصل موضع الرعى، و الجملة إما بيان و تفسير لدحاها؛ لأنّ السيمال لا تتأتى بمجرد البسط بل لا بد من تسوية أمر المعاش من المأكل و المشرب. و إما في محل نصب على الحال و الجبال أرساها أي: أثبتها في الأرض و جعلها كالأوتاد للأرض لتثبت و تستقرّ و أن لا تميد بأهلها. قرأ الجمهور بنصب الجبال على الاشتغال. وقرأ الحسن و عمرو بن ميمون و أبو حيوة و أبو السيمال و عمرو بن عبيد و نصر ابن عاصم بالرفع على الابتداء، قيل: و لعل وجه تقديم ذكر إخراج الماء و المرعى على إرساء الجبال مع تقدم الإرساء عليه للاهتمام بأمر المأكل و المشرب متاعاً لكمّ و لأنعامكم أي: منفعة لكم و لأنعامكم من البقر و الإبل و الغنم، و انتصاب «متاعاً» على المصدرية، أي: متعكم بذلك متاعاً، أو هو مصدر من غير لفظه، لأن قوله: أخرج منها ماءها و مرعاها بمعنى متع بذلك، أو على أنه مفعول له، أي: فعل ذلك لأجل

(١). فصلت: ١١.

(٢). البقرة: ٢٩.

(٣). القلم: ١٣.

(٤). الأنبياء: ١٠٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٥٩

التمتع، و إنما قال: لكمّ و لأنعامكم لأن فائدة ما ذكر من الدحوّ و إخراج الماء و المرعى كائنه لهم و لأنعامهم، و المرعى: يعمّ ما يأكله الناس و الدواب فإذا جاءت الطامة الكبرى أي: الداهية العظمى التي تطمّ على سائر الطامات. قال الحسن و غيره: و هي النفخة الثانية. و قال الضحّاك و غيره: هي القيامة سميت بذلك لأنها تطمّ على كل شيء لعظم هولها. قال المبرد: الطامة عند العرب: الداهية التي لا تستطاع، و إنما أخذت فيما أحسب من قولهم: طمّ الفرس طميماً؛ إذا استفرغ جهده في الجرى، و طمّ الماء؛ إذا ملأ النهر كله. و قال غيره: هو من طمّ السيل الركية «١»، أي: دفنها، و الطمّ: الدفن. قال مجاهد و غيره: الطامة الكبرى هي التي تسلّم أهل الجنة إلى الجنة و أهل النار إلى النار، و الفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها، و جواب «إذا» قيل هو قوله: فأما من طغى و قيل: محذوف، أي: فإن الأمر كذلك، أو عاينوا، أو علموا، أو أدخل أهل النار أهل الجنة الجنة. و قال أبو البقاء: العامل فيها جوابها، و هو معنى يؤمئذ يتذكر الإنسان فإنه منصوب بفعل مضمر، أي: أعنى يوم يتذكر، أو يوم يتذكر يكون كيت و كيت. و قيل: إن الظرف بدل من إذا، و قيل: هو بدل من الطامة الكبرى؛ و معنى يتذكر الإنسان ما سعى أنه يتذكر ما عمله من خير أو شر؛ لأنه يشاهده مدوّناً في صحائف عمله، و «ما» مصدرية، أو موصولة و برزت الجحيم لمن يرى معطوف على جاءت، و معنى برزت: أظهرت إظهاراً لا يخفى على أحد. قال مقاتل: يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق، و قيل: لمن يرى من الكفار، لا من المؤمنين؛ و الظاهر أن تبرز لكلّ راء، فأما المؤمن فيعرف برؤيتها قدر نعمه الله عليه بالسلامة منها، و أما الكافر فيزداد غمّاً إلى غمّه، و حسرة إلى حسرته. قرأ الجمهور: لمن يرى بالتحية، و قرأت عائشة و مالك ابن دينار و عكرمة و زيد بن عليّ بالفوقية، أو: لمن تراه الجحيم، أو لمن تراه أنت يا محمد. و قرأ ابن مسعود:

«لمن رأى» على صيغة الفعل الماضي فَأَمَّا مَنْ طَغَى أَي: جاوز الحد في الكفر والمعاصي وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا أَي: قدّمها عن الآخرة و لم يستعدّها لها و لا عمل عملها فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى أَي:

مأواه، و الألف و اللام عوض عن المضاف إليه، و المعنى: أنها منزله اللّذى ينزله، و مأواه اللّذى يأوى إليه؛ لا غيرها. ثم ذكر القسم الثّانى من القسمين فقال: وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ أَي: حذر مقامه بين يدي ربه يوم القيامة. قال الربيع: مقامه يوم الحساب. قال قتادة: يقول: إن الله عزّ و جلّ مقاما قد خافه المؤمنون. و قال مجاهد: هو خوفه في الدنيا من الله عزّ و جلّ عند مواقعه الذّنب فيقلع عنه، نظيره قوله: وَ لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَتَّتَانِ «٢» و الأوّل أولى وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى أَي: زجرها عن الميل إلى المعاصي و المحارم التي تشتهيها. قال مقاتل: هو الرجل يهّم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى أَي: المنزل اللّذى ينزله و المكان اللّذى يأوى إليه لا غيرها يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَانُ مَرْسَاهَا أَي: متى وقوعها و قيامها؟ قال الفراء: أَي: منتهى قيامها كرسو السفينة. قال أبو عبيدة: و مرسى السفينة

(١). أَي البئر؛ أَي جرى سيل الوادى.

(٢). الرّحمن: ٥٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٦٠

حين تنتهى، و المعنى: يسألونك عن الساعة متى يقيمها الله، و قد مضى بيان هذا في سورة الأعراف فيم أنت من ذكرها أَي: فى أى شىء أنت يا محمد من ذكر القيامة و السؤال عنها، و المعنى: لست فى شىء من علمها و ذكرها إنما يعلمها الله سبحانه، و هو إنكار و ردّ لسؤال المشركين عنها، أَي: فيم أنت من ذلك حتى يسألونك عنه و لست تعلمه إلى ربك مُتّهاها أَي: منتهى علمها، فلا- يوجد علمها عند غيره، و هذا كقوله: قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي «١» و قوله: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ «٢» فكيف يسألونك عنها و يطلبون منك بيان وقت قيامها إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا أَي: مخوف لمن يخشى قيام الساعة، و ذلك وظيفتك ليس عليك غيره من الإخبار بوقت قيام الساعة و نحوه مما استأثر الله بعلمه، و خصّ الإنذار بمن يخشى؛ لأنهم المنتفعون بالإنذار و إن كان منذرا لكلّ مكلف من مسلم و كافر. قرأ الجمهور بإضافة مُنذِرٌ إلى ما بعده. و قرأ عمر بن عبد العزيز و أبو جعفر و طلحة و ابن محيصن و شيبه و الأعرج و حميد بالتّنين، و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو. قال الفراء: و التّنين و تركه فى منذر صواب، كقوله: بِالْبُحْرِ أَمْرِهِ «٣» و مُوَهِنَ كَيْدِ الْكَافِرِينَ «٤». قال أبو على الفارسي: يجوز أن تكون الإضافة للماضى، نحو ضارب زيد أمس كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها أَي: إلا قدر آخر نهار أو أوّل، أو قدر الضحى اللّذى يلي تلك العشيّة، و المراد تقليل مدّة الدنيا، كما قال: لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ «٥» و قيل: لم يلبثوا فى قبورهم إلا عشية أو ضحاها. قال الفراء و الزّجاج: المراد بإضافة الضحى إلى العشيّة إضافته إلى يوم العشيّة على عادة العرب، يقولون: آتيك الغداة أو عشيّتها، و آتيك العشيّة أو غداتها فتكون العشيّة فى معنى آخر النهار، و الغداة فى معنى أوّل النهار. و منه قول الشاعر:

نحن صبحنا عامرا فى دارها جردا تعادى طرفى نهارها

عشيّة الهلال أو سرارها و الجملة تقرير لما يدل عليه الإنذار من سرعة مجيء المنذر به.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: رَفَعَ سَيْمُكَهَا قال: بناها وَ أَعْطَشَ لَيْلَهَا قال: أظلم ليلها. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه وَ أَعْطَشَ لَيْلَهَا قال:

و أظلم ليلها وَ أَخْرَجَ ضُحَاهَا قال: أخرج نهارها. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا وَ الْأَرْضَ بَعِيدَ ذَلِكَ دَحَاهَا قال: مع ذلك. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أيضا أن رجلا قال له: آيتان فى كتاب الله تخالف إحداهما الأخرى، فقال: إنما أتيت

من قبل رأيك، قال: اقرأ: قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ حَتَّىٰ بَلَغَ: ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ «٦» وقوله: وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا

(١). الأعراف: ١٨٧.

(٢). لقمان: ٣٤.

(٣). الطلاق: ٣.

(٤). الأنفال: ١٨.

(٥). الأحقاف: ٣٥.

(٦). فصلت: ٩-١١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٦١

قال: خلق الله الأرض قبل أن يخلق السماء، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض بعد ما خلق السماء، و إنما قوله: دحاهما: بسطها. و أخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال: دحاهما أن أخرج منها الماء و المرعى و شقق فيها الأنهار و جعل فيها الجبال و الرمال و السبل و الآكام و ما بينهما في يومين. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا قال: الطامة من أسماء يوم القيامة. و أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب: «كان النبي صلى الله عليه و سلم يسأل عن الساعة فنزلت: فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا». و أخرج البزار و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن عائشة قالت: «ما زال رسول الله صلى الله عليه و سلم يسأل عن الساعة حتى أنزل الله فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُتْتَهَاها فانتهى فلم يسأل عنها». و أخرج عبد بن حميد و النسائي و ابن جرير و الطبراني و ابن مردويه عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يكثر ذكر الساعة حتى نزلت: فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُتْتَهَاها فكف عنها. و أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس - قال السيوطي: بسند ضعيف - أن مشركي مكة سألوا النبي صلى الله عليه و سلم فقالوا: متى الساعة؟ استهزاء منهم. فأنزل الله: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا يَعْنِي مجيئها فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا يعنى ما أنت من علمها يا محمد إِلَى رَبِّكَ مُتْتَهَاها يعنى منتهى علمها. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت:

«كانت الأعراب إذا قدموا على النبي صلى الله عليه و سلم سألوه عن الساعة فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول: إن يعيش هذا قرنا قامت عليكم ساعتكم» (١).

(١). انظر رأى الإمام النووي و الحافظ ابن حجر حول هذا الحديث في فتح الباري (١٠/٥٥٧)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٦٢

**سورة عبس**

**إشارة**

و تسمى سورة السفر، و هى إحدى و أربعون، أو اثنتان و أربعون آية و هى مكية فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة عبس بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.



عَبَسَ وَ تَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤)  
 أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَ مَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَّكَّى (٧) وَ أَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَ هُوَ يَخْشَى (٩)  
 فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤)  
 بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩)  
 ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤)  
 أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَتْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَ عَبًّا وَ قَضْبًا (٢٨) وَ زَيْتُونًا وَ نَخْلًا (٢٩)  
 وَ حَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَ فَاكِهَةً وَ أَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفُؤُ الْمَرْءُ مِنْ أُخِيهِ (٣٤)  
 وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ (٣٥) وَ صَاحِبَتِهِ وَ بَيْنِهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَ جُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩)  
 وَ جُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)

قوله: عَبَسَ وَ تَوَلَّى أى: كلىح بوجهه و أعرض. و قرئ «عبس» بالتشديد أن جاءه الأعمى مفعول لأجله، أى: لأن جاءه الأعمى، و العامل فيه إما عبس أو تولى على الاختلاف بين البصريين و الكوفيين فى التنازع هل المختار إعمال الأول أو الثانى؟.

و قد أجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية: أن قوما من أشرف قريش كانوا عند النبى صلى الله عليه و سلم، و قد طمع فى إسلامهم، فأقبل عبد الله بن أم مكتوم، فكره رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يقطع عليه ابن أم مكتوم كلامه، فأعرض عنه فنزلت، و سيأتى فى آخر البحث بيان هذا إن شاء الله، و ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى التفت سبحانه إلى خطاب نبيه صلى الله عليه و سلم، لأن المشافهة أدخل فى العتاب، أى: أى شىء يجعلك داريا بحاله حتى تعرض عنه، و جملة لَعَلَّهُ يَزَّكَّى مستأنفة لبيان أن له شأنًا ينافى الإعراض عنه، أى: لعله يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك، فالضمير فى «لعله» راجع إلى «الأعمى»، و قيل: هو راجع إلى الكافر، أى: و ما يدريك أن ما طعمت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكى أو يذكر، و الأول أولى. و كلمة الترجى باعتبار من وجه إليه الخطاب للتنبية على أن الإعراض عنه مع كونه مرجو التزكى مما

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٦٣

لا يجوز. قرأ الجمهور: أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى على الخبر بدون استفهام، و وجهه ما تقدم. و قرأ الحسن:

«آن جاءه» بالمد على الاستفهام، فهو على هذه القراءة متعلق بفعل محذوف دل عليه عَبَسَ وَ تَوَلَّى و التقدير: آن جاءه الأعمى تولى و أعرض، و مثل هذه الآية قوله فى سورة الأنعام: وَ لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ «١» و كذلك قوله فى سورة الكهف: وَ لَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا «٢» و قوله: أَوْ يَذَّكَّرُ عطف على يزكى داخل معه فى حكم الترجى، أى: أو يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أى: الموعدة. قرأ الجمهور: «فتنفعه» بالرفع، و قرأ عاصم ابن أبى إسحاق و عيسى و السلمي و زر بن حبیش بالنصب على جواب الترجى أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى أى كان ذا ثروة و غنى، أو استغنى عن الإيمان و عما عندك من العلم فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى أى: تصغى لكلامه، و التصدى: الإصغاء. قرأ الجمهور: «تصدى» بالتخفيف على طرح إحدى التاءين تخفيفا، و قرأ نافع و ابن محيصن بالتشديد على الإدغام، و فى هذا مزيد تنفير له صلى الله عليه و سلم عن الإقبال عليهم و الإصغاء إلى كلامهم وَ مَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَّكَّى أى: أى شىء عليك فى أن لا يسلم و لا يهتدى، فإنه ليس عليك إلا

البلاغ، فلا تهتم بأمر من كان هكذا من الكفار، و يجوز أن تكون «ما» نافية، أى: ليس عليك بأس فى أن لا يتركى من تصديت له و أقبلت عليه، و تكون الجملة فى محل نصب على الحال من ضمير تصدى. ثم زاد سبحانه فى معاتبته رسوله صلى الله عليه و سلم فقال: وَ أَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى أَى: وصل إليك حال كونه مسرعا فى المعجى إليك؛ طالبا منك أن ترشده إلى الخير و تعظه بمواعظ الله، و جملة وَ هُوَ يَخْشَى حَال من فاعل يسعى على التداخل، أو من فاعل جاءك على الترادف فَأَنْتَ عَنْهُ تَلْهَى أَى: تتشاغل عنه، و تعرض عن الإقبال عليه، و التلهى:

التشاغل و التغافل، يقال: لهيت عن الأمر ألهى، أى: تشاغلته عنه، و كذا تلهيت. و قوله: كَلَّا رَدَعْ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عَمَّا عَوْتَبَ عَلَيْهِ، أَى: لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الإعراض عن الفقير، و التصدى للغنى و التشاغل به، مع كونه ليس ممن يتركى عن إرشاد من جاءك من أهل التركى و القبول للموعظة، و هذا الواقع من النبى صلى الله عليه و سلم هو من باب ترك الأولى، فأرشده الله سبحانه إلى ما هو الأولى به إِنَّهَا تَذَكِّرُهُ أَى: إن هذه الآيات أو السورة موعظة، حقا أن تتعظ بها و تقبلها و تعمل بموجبها و يعمل بها كل أمتك فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ أَى: فمن رغب فيها اتعظ بها و حفظها و عمل بموجبها، و من رغب عنها كما فعله من استغنى فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره. قيل: الضميران فى «إنها»، و فى «ذكرة» للقرآن، و تأنيث الأول لتأنيث خبره. و قيل: الأول للسورة، أو للآيات السابقة، و الثانى للتذكرة لأنها فى معنى الذكر، و قيل: إن معنى فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ فَمَنْ شَاءَ اللهُ أَلْهَمَهُ وَ فَهَمَهُ الْقُرْآنَ حَتَّى يَذْكُرَهُ وَ يَتَعَطَّ بِهِ، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى. ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التذكرة و جلالتها فقال: فِى صُحُفٍ أَى: إنها تذكرة كائنة فى صحف، فالجار و المجرور صفة لتذكرة، و ما بينهما اعتراض، و الصّحف: جمع صحيفه، و معنى مُكْرَمَةٌ أَنَّهَا مُكْرَمَةٌ عِنْدَ اللهِ

(١). الأنعام: ٥٢.

(٢). الكهف: ٢٨.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٦٤

لما فيها من العلم و الحكمة، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ، و قيل: المراد بالصحف كتب الأنبياء، كما فى قوله: إِنَّ هَذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى «١». و معنى مَرْفُوعَةٍ أَنَّهَا رَفِيعَةٌ الْقَدْرِ عِنْدَ اللهِ، و قيل: مرفوعة فى السماء السابعة. قال الواحدى: قال المفسرون: مكرمة يعنى اللوح المحفوظ مَرْفُوعَةٍ يعنى فى السماء السابعة. قال ابن جرير: مرفوعة القدر و الذكر، و قيل: مرفوعة عن الشبه و التناقض مُطَهَّرَةٌ أَى: منزّهة لا يمسها إلا المطهرون. قال الحسن: مطهرة من كل دنس. قال السدى: مصانته عن الكفار لا ينالونها بِأَيْدِي سَفَرَةِ السَّفَرَةِ: جمع سافر ككتبه و كاتب، و المعنى: أنها بأيدى كتبه من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ. قال الفراء: السفرة هنا الملائكة الذين يسفرون بالوحى بين الله و رسوله، من السفارة و هو السعى بين القوم، و أنشد:

فما أَدَعِ السَّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي وَ لَا أَمْشِي بَعْشَ إِنْ مَشَيْتَ «٢»

قال الزجاج: و إنما قيل للكتاب سفر بكسر السين، و الكاتب سافر، لأن معناه أنه يبين، يقال أسفر الصبح؛ إذا أضاء، و أسفرت المرأة؛ إذا كشفت النقاب عن وجهها، و منه سفرت بين القوم أسفر سفارة، أى: أصلحت بينهم. قال مجاهد: هم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد. و قال قتادة: السفرة هنا هم القراء لأنهم يقرءون الأسفار. و قال وهب بن منبه: هم أصحاب النبى صلى الله عليه و سلم. ثم أثنى سبحانه على السفرة فقال: كِرَامٌ بَرَرَةٌ أَى: كرام على ربهم، كذا قال الكلبي. و قال الحسن: كرام عن المعاصى، فهم يرفعون أنفسهم عنها. و قيل: يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته، أو قضى حاجته. و قيل:

يؤثرون منافع غيرهم على منافع. وقيل: يتكرمون على المؤمنين بالاستغفار لهم. و البررة: جمع بارّ، مثل كفره و كافر، أى: أتقياء مطيعون لربهم صادقون فى إيمانهم، و قد تقدّم تفسيره.

قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ أَى: لعن الإنسان الكافر ما أشدّ كفره! وقيل: عدّب، قيل: والمراد به عتبه بن أبى لهب، و معنى ما أَكْفَرَهُ التعجب من إفراط كفره. قال الزجاج: معناه اعجبوا أنتم من كفره، وقيل: المراد بالإنسان من تقدم ذكره فى قوله: أَمَّا مَنْ اسْتَتَنَى وقيل: المراد به الجنس، و هذا هو الأولى، فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر، و يدخل تحته من كان سببا لنزول الآية دخولا أوّليا.

ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغي لهذا الكافر أن ينظر فيه حتى ينزجر عن كفره و يكفّ عن طغيانه فقال:

مِنْ أَى شَىءٍ خَلَقَهُ أَى: من أى شىء خلق الله هذا الكافر، و الاستفهام للتقرير. ثم فسّر ذلك فقال:

مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ أَى من ماء مهين، و هذا تحقير له. قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرّتين، و معنى فَكَدَّرَهُ أَى: فسوّاه و هيّأه لمصالح نفسه، و خلق له اليدين و الرجلين و العينين و سائر الآلات و الحواسّ، و قيل: قدره أطوارا من حال إلى حال، نطفة ثم علقه إلى أن تمّ خلقه ثمّ السبيل يسره

(١). الأعلى: ١٨-١٩.

(٢). فى المطبوع: و لا أمشى بغير أب نسيب.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٦٥

أى: يسرّ له الطريق إلى الخير و الشرّ. و قال السدى و مقاتل و عطاء و قتادة: يسره للخروج من بطن أمه، و الأوّل أولى. و مثله قوله: وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١) و انتصاب السبيل بمضمّر يدل عليه الفعل المذكور، أى: يسّر السبيل يسره ثمّ أماته فأقبره أى: جعله بعد أن أماته ذا قبر يوارى فيه إكراما له، و لم يجعله مما يلقي على وجه الأرض تأكله السباع و الطير، كذا قال الفراء: و قال أبو عبيدة: جعل له قبرا و أمر أن يقبر فيه. و قال أقبره، و لم يقل قبره، لأن القابر هو الدافن بيده، و منه قول الأعشى:

لو أسندت ميتا إلى صدرها (٢) عاش و لم ينقل إلى قابر

ثمّ إذا شاء أنشره أى: ثم إذا شاء إنشاره أنشره، أى: أحياه بعد موته، و علق الإنشار بالمشيئة للدلالة على أن وقته غير متعين، بل هو تابع للمشيئة. قرأ الجمهور: «أنشره» بالألف، و روى أبو حيوة عن نافع و شعيب بن أبى حمزة «نشره» بغير ألف، و هما لغتان فصيحتان كلّا لهما يقض ما أمره كلا:

ردع و زجر للإنسان الكافر، أى: ليس الأمر كما يقول. و معنى: «لما يقض ما أمره»: لم يقض ما أمره الله به من العمل بطاعته و اجتناب معاصيه، و قيل: المراد الإنسان على العموم، و أنه لم يفعل ما أمره الله به مع طول المدّة لأنه لا يخلو من تقصير. قال الحسن: أى حقا لم يعمل ما أمر به. و قال ابن فورك: أى كلّا لما يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان، بل أمره بما لم يقض له. قال ابن الأنبارى: الوقف على كلا قبيح و الوقف على أمره جيد، و كلّا على هذا بمعنى حقا. و قيل: المعنى: لما يقض جميع أفراد الإنسان ما أمره، بل أحلّ به؛ بعضها بالكفر، و بعضها بالعصيان، و ما قضى ما أمره الله إلا القليل.

ثم شرع سبحانه فى تعداد نعمه على عباده ليشكروها، و ينزجروا عن كفرانها بعد ذكر النعم المتعلقة بحدوثه فقال: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَى: ينظر كيف خلق الله طعامه الذى جعله سببا لحياته؟ و كيف هيا له أسباب المعاش يستعدّ بها للسعادة الأخرى؟ قال مجاهد: معناه فلينظر الإنسان إلى طعامه، أى: إلى مدخله و مخرجه، و الأوّل أولى. ثم بين ذلك سبحانه فقال: أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا قرأ الجمهور: «إنا» بالكسر على الاستئناف. و قرأ الكوفيون و رويس عن يعقوب بالفتح على أنه بدل من طعامه بدل اشمال؛

لكون نزول المطر سببا لحصول الطعام، فهو كالمشتمل عليه، أو بتقدير لام العلة. قال الزجاج: الكسر على الابتداء والاستئناف، و  
الفتح على معنى البدل من الطعام. المعنى: فليُنظر الإنسان إلى أنا صبينا الماء صبًا، و أراد بصب الماء المطر. و قرأ الحسن بن علي  
بالفتح والإمالة ثُمَّ شَقَّقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا أَى: شققناها بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر شقا بديعا لائقا بما يخرج منه فى الصغر  
والكبر والشكل والهيئة. ثم يبين سبب هذا الشق و ما وقع لأجله فقال: فَأَبْتُنَّا فِيهَا حَبًّا يعنى الحبوب الذى يتغذى بها، والمعنى:  
أن النبات لا يزال ينمو و يتزايد إلى أن يصير حبا، وقوله: وَ عِنَبًا معطوف على «حبا»، أَى: و أنبتنا فيها عنبًا، قيل: و ليس من لوازم  
العطف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه، فلا ضمير فى خلق إنبات العنب عن شق

(١). البلد: ١٠.

(٢). فى تفسير القرطبي (١٩/٢١٩): نحرها.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٦٦

الأرض، و القضب: هو القتب الرطب الذى يقضب مرّة بعد أخرى تعلق به الدواب، و لهذا سمى قضا على مصدر قضبه، أَى:  
قطعه؛ كأنه لتكرّر قطعها نفس القطع. قال الخليل: القضب: الفصفصة الرطبة، فإذا يبست فهى القتب. قال فى الصحاح: و القضبة و  
القضب الرطبة، قال: و الموضع الذى ينبت فيه مقضبة.

قال القتبى و ثعلب: و أهل مكة يسمون القتب القضب. و الزيتون: هو ما يعصر منه الزيت، و هو شجرة الزيتون المعروفة، و النخل  
هو جمع نخلة و حَدَائِقَ غُلْبًا جمع حديقة، و هى البستان، و الغلب: العظام الغلاظ الرقاب. و قال مجاهد و مقاتل: الغلب: الملتف  
بعضها ببعض، يقال: رجل أغلب؛ إذا كان عظيم الرقبة، و يقال للأسد أغلب؛ لأنه مصمت العنق؛ لا يلتفت إلا جميعا. قال العجاج:  
ما زلت يوم البين ألقى صلبى والرأس حتى صرت مثل الأغلب

و جمع أغلب و غلباء غلب، كما جمع أحمر و حمراء على حمر. و قال قتادة و ابن زيد: الغلب: النخل الكرام.

و عن ابن زيد أيضا و عكرمة: هى غلاظ الأوساط و الجذوع. و الفاكهة: ما يأكله الإنسان من ثمار الأشجار كالعنب و التين و  
الخوخ و نحوها. و الأب: كل ما أنبت الأرض مما لا يأكله الناس و لا يزرعونه من الكلا و سائر أنواع المرعى، و منه قول الشاعر:  
جذمنا قيس و نجد دارنا و لنا الأب به و المكرع «١»

قال الضحاك: الأب كل شىء ينبت على وجه الأرض. و قال ابن أبى طلحة: هو الثمار الرطبة. و روى عن الضحاك أيضا أنه  
قال: هو التين خاصة، و الأول أولى. ثم شرع سبحانه فى بيان أحوال المعاد فقال:

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ يعنى صيحة يوم القيامة، و سميت صاخة لشدة صوتها لأنها تصخ الآذان، أَى:

تصمها فلا تسمع، و قيل: سميت صاخة لأنها يصيح لها الأسماع، من قولك أصاخ إلى كذا، أَى: استمع إليه، و الأول أصح. قال  
الخليل: الصاخة: صيحة تصخ الآذان حتى تصمها بشدة وقعها، و أصل الكلمة فى اللغة مأخوذة من الصك الشديد، يقال: صخه  
بالحجر؛ إذا صكه بها، و جواب إذا محذوف يدل عليه قوله: لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ أَى: فإذا جاءت الصاخة اشتغل  
كل أحد بنفسه، و الظرف فى قوله: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ - وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ - وَ صَاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ إما بدل من «إذا جاءت»، أو منصوب  
بمقدّر، أَى: أعنى و يكون تفسيرها للصاخة، أو بدلا منها مبنى على الفتح، و خص هؤلاء بالذكر لأنهم أخص القرابة، و أولاهم  
بالحنو و الرأفة، فالفرار منهم لا- يكون إلا- لهول عظيم، و خطب فطيع لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ أَى: لكل إنسان يوم  
القيامة شأن يشغله عن الأقرباء و يصرفه عنهم. و قيل: إنما يفر عنهم حذرا من مطالبتهم إياه بما بينهم، و قيل: يفر عنهم لثلا يروا  
ما هو فيه من الشدة، و قيل: لعلمه أنهم لا- ينفعون و لا- يغنون عنه شيئا كما قال تعالى: يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً «٢» و

(١). «الجدم»: الأصل. «المكرع»: مفعول من الكرع، أراد به الماء الصالح للشرب.

(٢). الدخان: ٤١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٦٧

مسوقه لبيان سبب الفرار. قال ابن قتيبة: يُغْنِيهِ أَيْ: يصرفه عن قرابته، و منه يقال: أغن عني وجهك، أَيْ: اصرفه. قرأ الجمهور: «يغنيه» بالغين المعجمة. و قرأ ابن محيصن بالعين المهملة مع فتح الياء، أَيْ:

يهمه، من عناه الأمر إذا أهمه وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ وجوه مبتدأ و إن كان نكرة؛ لأنه في مقام التفصيل، و هو من مسوغات الابتداء بالنكرة، و «يومئذ» متعلق به، و «مسفرة» خبره، و معنى مسفرة: مشرقة مضيئة، و هى وجوه المؤمنين لأنهم قد علموا إذ ذاك ما لهم من النعيم و الكرامة، يقال: أسفر الصبح؛ إذا أضاء. قال الضحاك: مسفرة من آثار الضوء، و قيل: من قيام الليل ضاحكة مُسْتَبَشِرَةٌ أَيْ: فرحة بما نالته من الثواب الجزيل. ثم لما فرغ من ذكر حال المؤمنين ذكر حال الكفار فقال: وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبْرَةٌ أَيْ: غبار و كدوره لما تراه مما أعدّه الله لها من العذاب تَزْهَقُهَا قَتْرَةٌ أَيْ: يغشاها و يعلوها سواد و كسوف، و قيل: ذلّة، و قيل: شدة، و القتر فى كلام العرب: الغبار، كذا قال أبو عبيدة، و أنشد قول الفرزدق:

متّوج برداء الملك يتبعه موج ترى فوّه الرايات و القترا

و يدفع ما قاله أبو عبيدة تقدم ذكر الغبرة فإنها واحدة الغبار. و قال زيد بن أسلم: القتره ما ارتفعت إلى السماء، و الغبرة ما انحطت إلى الأرض أو لِيَكَّ يعنى أصحاب الوجوه هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ أَيْ:

الجامعون بين الكفر بالله و الفجور، يقال: فجر؛ أى فسق، و فجر، أَيْ: كذب، و أصله الميل، و الفاجر:

المائل عن الحق.

و قد أخرج الترمذى و حسنه، و ابن المنذر و ابن حبان، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن عائشة قالت:

«أنزلت عبس و تولى فى ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله صلى الله عليه و سلم فجعل يقول: يا رسول الله أرشدنى و عند رسول الله صلى الله عليه و سلم رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله صلى الله عليه و سلم يعرض عنه و يقبل على الآخر و يقول:

«أ ترى بما أقول بأساً؟» فيقول: لا، ففى هذا أنزلت». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و أبو يعلى عن أنس قال: «جاء بن أم مكتوم، و هو يكلم أبى بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله عَبَسَ وَ تَوَلَّى - أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى فكان النبى صلى الله عليه و سلم بعد ذلك يكرمه». و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس قال:

«بينما رسول الله صلى الله عليه و سلم يناجى عتبة بن ربيعة و العباس بن عبد المطلب و أبا جهل بن هشام، و كان يتصدى لهم كثيراً، و يحرض عليهم أن يؤمنوا، فأقبل عليهم رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم يمشى، و هو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرئ النبى صلى الله عليه و سلم آية من القرآن قال: يا رسول الله علمنى مما علمك الله، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه و سلم و عبس فى وجهه و تولى، و كره كلامه، و أقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه و سلم نجواه، و أخذ ينقلب إلى أهله أمسك الله ببعض بصره، ثم خفق برأسه، ثم أنزل الله: عَبَسَ وَ تَوَلَّى الْآيَةَ، فلما نزل فيه ما نزل أكرمه نبى الله صلى الله عليه و سلم و كلمه و قال له: «ما حاجتك؟ هل تريد منى شيء؟»

و إذا ذهب من عنده قال: «هل لك حاجة فى شيء؟» قال ابن كثير: فيه غرابه، و قد تكلم فى إسناده.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس بِأَيْدِي سَفَرَةٍ قَالَ: كَتَبَهُ. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٦٨

حاتم عنه بِأَيْدِي سَفَرَةٍ قَالَ: هُم بِالنَّبِيَّةِ الْقِرَاءِ. و أخرج ابن جرير عنه أيضا كِرَامِ بَرَزَةٍ قَالَ:

الْمَلَائِكَةُ. و أخرج البخاري و مسلم و غيرهما عن عائشة قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَدَى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَ هُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَ الَّذِي يَقْرَأُهُ وَ هُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ».

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ قَالَ: يَعْنِي بِذَلِكَ خُرُوجَهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ يَسْرُهُ لَهُ. و أخرج ابن المنذر عن عبد الله بن الزبير في قوله: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ قَالَ: إِلَى مَدْخَلِهِ وَ مَخْرَجِهِ. و أخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ قَالَ: إِلَى خُرْثِهِ. و أخرج ابن المنذر عنه أَنَا صَيِّبُنَا الْمَاءَ صَيِّبًا قَالَ: الْمَطْرُ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا قَالَ: عَنِ النَّبَاتِ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله: وَ قَضَبًا قَالَ: الْفَصْفَصَةُ، يَعْنِي الْقَتَّ، وَ حَدَائِقَ غُلْبًا قَالَ: طَوَالًا وَ فَكِيهَةً وَ أَبًا قَالَ: الثَّمَارِ الرُّطْبَةَ. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا قال: الْحَدَائِقُ: كُلُّ مَلْتَفٍّ، وَ الْغَلْبُ: مَا غَلِظَ، وَ الْأَبُّ: مَا أَنْبَتِ الْأَرْضُ مِمَّا تَأْكُلُهُ الدُّوَابُّ وَ لَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا وَ حَدَائِقَ غُلْبًا قَالَ: شَجَرٌ فِي الْجَنَّةِ يَسْتِظِلُّ بِهِ لَا يَحْمَلُ شَيْئًا. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الْأَبُّ: الْكَلَأُ وَ الْمَرْعَى. و أخرج أبو عبيد في فضائله، و عبد بن حميد عن إبراهيم التيمي قال: سَأَلَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقَ عَنِ الْأَبِّ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: أَيُّ سَمَاءٍ تَظَلْنِي وَ أَيُّ أَرْضٍ تَقْلَنِي إِذَا قَلْتِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ؟. و أخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن يزيد: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ عَمْرَ عَنْ قَوْلِهِ: وَ أَبًا فَلَمَّا رَأَوْهُم بِالذَّرَّةِ. و أخرج ابن سعد و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و البيهقي في الشعب، و الخطيب عن أنس أن عمر قرأ على المنبر: فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَ عِنَبًا إِلَى قَوْلِهِ: وَ أَبًا قَالَ: كُلُّ هَذَا قَدْ عَرَفْنَا، فَمَا الْأَبُّ؟ ثُمَّ رَفَضَ «١» عَصَا كَانَتْ فِي يَدِهِ فَقَالَ: هَذَا لِعَمْرِ اللَّهِ هُوَ التَّكْلُفُ، فَمَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَدْرِي مَا الْأَبُّ، اتَّبِعُوا مَا بَيْنَ لَكُمْ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ فَاعْمَلُوا عَلَيْهِ، وَ مَا لَمْ تَعْرِفُوهُ فَكَلِمَةٌ إِلَى رَبِّهِ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قال: الصَّاحَةُ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: مُسْفِرَةٌ قَالَ: مَشْرَقَةٌ، وَ فِي قَوْلِهِ: تَرَهَّقُهَا قَتْرَةٌ قَالَ: تَغْشَاهَا شَدَّةٌ وَ ذَلَّةٌ. و أخرج ابن أبي حاتم عنه قَتْرَةٌ قَالَ: سَوَادُ الْوَجْهِ.

(١). في اللسان: رفض الشيء: تركه.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٦٩

## سورة التكوير

### إشارة

و هي مكية بلا-خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة إذا الشمس كُوِّرَتْ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن عائشة و ابن الزبير مثله. و أخرج أحمد و الترمذي و حسنه و ابن المنذر و الطبراني، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن ابن عمر قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ، وَ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤)

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)  
وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا  
أَحْضَرَتْ (١٤)

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُوسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩)  
ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى  
الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاوَنَ  
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)

قوله: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ارتفاع الشمس بفعل محذوف يفسره ما بعده على الاشتغال، وهذا عند البصريين، و أما عند الكوفيين و  
الأخفش فهو مرتفع على الابتداء. و التكوير: الجمع، و هو مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها. قال الزجاج: لفت كما تلف  
العمامة، يقال: كورت العمامة على رأسى أكورها كورا، و كورتها تكويرا؛ إذا لفتها. قال أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة  
تلف فتجمع. قال الربيع ابن خثيم: كُوِّرَتْ أى رمى بها، و منه كَوَّرْتَه فتكَّور، أى: سقط. و قال مقاتل و قتادة و الكلبي:  
ذهب ضوءها. و قال مجاهد: اضمحلت. قال الواحدى: قال المفسرون: تجمع الشمس بعضها إلى بعض ثم تلف فيرمى بها.  
فالحاصل أن التكوير إما بمعنى لَفَّ جرمها، أو لَفَّ ضوءها، أو الرمى بها وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ أى: تهافت و انقضت و تناثرت،  
يقال: انكدر الطائر من الهواء؛ إذا انقض، و الأصل فى الانكدار الانصباب. قال الخليل: يقال انكدر عليهم القوم؛ إذا جاءوا أرسالا  
فانصبوا عليهم. قال أبو عبيدة:

انصبت كما ينصب العقاب. قال الكلبي و عطاء: تمطر السماء يومئذ نجوما، فلا يبقى نجم فى السماء إلا وقع

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٧٠

على الأرض، و قيل: انكدارها: طمس نورها وَ إِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ أى: قلعت عن الأرض، و سيرت فى الهواء، و منه قوله: وَ يَوْمَ  
نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً «١». وَ إِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ العشار: النوق الحوامل التى فى بطونها أولادها، الواحدة عشاء، و هى  
التي قد أتى عليها فى الحمل عشرة أشهر ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع. و خصص العشار لأنها أنفس مال عند العرب، و أعزّه  
عندهم، و معنى «عطلت»: تركت هملا بلا راع؛ و ذلك لما شاهدوا من الهول العظيم، قيل: و هذا على وجه المثل لأن يوم القيامة  
لا تكون فيه ناقة عشاء، بل المراد أنه لو كان للرجل ناقة عشاء فى ذلك اليوم أو نوق عشار لتركها و لم يلتفت إليها؛ اشتغالا بما  
هو فيه من هول يوم القيامة، و سيأتى آخر البحث إن شاء الله ما يفيد أن هذا فى الدنيا. و قيل: العشار: السحاب، فإن العرب  
تشبهها بالحامل، و منه قوله: فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا «٢» و تعطيلها عدم إمطارها. قرأ الجمهور: «عطلت» بالتشديد، و قرأ ابن كثير فى  
روايه عنه بالتخفيف. و قيل:

المراد أن الديار تعطّل فلا تسكن، و قيل: الأرض التى يعشّر زرعها تعطّل فلا تزرع وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ الوحوش: ما توحش  
من دواب البر، و معنى حشرت: بعثت حتى يقتص بعضها من بعض، فيقتص للجماء من القرناء. و قيل: حشرها: موتها، و قيل: إنها

مع نفرتها اليوم من الناس و تبددها في الصحارى تضم ذلك اليوم إليهم. قرأ الجمهور: «حشرت» بالتخفيف، و قرأ الحسن و عمرو بن ميمون بالتشديد وَ إِذَا الْبِحَارُ سَـجَّـرَتْ أَي: أو قادت فصارت نارا تضطرم. و قال الفراء: ملئت بأن صارت بحرا واحدا و كثر ماؤها، و به قال الربيع بن خثيم و الكلبى و مقاتل و الحسن و الضحاك. و قيل: أرسل عذبتها على مالحتها و مالحتها على عذبتها حتى امتلأت، و قيل: فجرت فصارت بحرا واحدا. و روى عن قتادة و ابن حبان أن معنى الآية: يبست و لا يبقى فيها قطرة، يقال: سجرت الحوض أسجره سجرا؛ إذا ملأته. و قال القشيري: هو من سجرت التنور أسجره سجرا؛ إذا أحميته. قال ابن زيد و عطية و سفيان و وهب و غيرهم:

أوقدت فصارت نارا، و قيل: معنى سجرت أنها صارت حمراء كالدم، من قولهم عين سجراء، أى: حمراء.

قرأ الجمهور: «سجرت» بتشديد الجيم، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بتخفيفها، وَ إِذَا النَّفُوسُ زُوِّجَتْ أَي: قرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، و قرن بين رجل السوء مع رجل السوء في النار.

و قال عطاء: زوّجت نفوس المؤمنين بالبحور العين، و قرنت نفوس الكافرين بالشياطين. و قيل: قرن كل شكل إلى شكله في العمل، و هو راجع إلى القول الأول. و قيل: قرن كل رجل إلى من كان يلازمه من ملك أو سلطان، كما فى قوله: احشروا الذين ظلموا و أزواجهم ﴿٣﴾ و قال عكرمة وَ إِذَا النَّفُوسُ زُوِّجَتْ يعنى قرنت الأرواح بالأجساد. و قال الحسن: ألحق كل امرئ بشيعته؛ اليهود باليهود، و النصرارى بالنصارى، و المجوس بالمجوس، و كل من كان يعبد شيئا من دون الله يلحق بعضهم ببعض و المنافقون بالمنافقين، و المؤمنون بالمؤمنين. و قيل: يقرن الغاوى بمن أغواه من شيطان أو إنسان، و يقرن المطيع بمن دعاه

(١). الكهف: ٤٧.

(٢). الذاريات: ٢.

(٣). الصافات: ٢٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٧١

إلى الطاعة من الأنبياء و المؤمنين. و قيل: قرنت النفوس بأعمالها وَ إِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ أَي: المدفونة حية، و قد كان العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنها حية مخافة العار أو الحاجة، يقال: وأد يئد وأدا فهو وائد، و المفعول به موءود، و أصله مأخوذ من الثقل لأنها تدفن، فيطرح عليها التراب فيثقلها فتموت، و منه:

وَ لَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا ﴿١﴾ أَي: لا يثقله، و منه قول متمم بن نويرة:

و موءودة مقبورة فى مفازة ﴿٢﴾ و منه قول الراجز:

سميتها إذ ولدت تموت و القبر صهر ضامن رميت

قرأ الجمهور: «الموءودة» بهمزة بين واوين ساكنين كالموعودة. و قرأ البزى فى روايته عنه بهمزة مضمومة ثم واو ساكنة. و قرأ الأعمش: «المودة» بزنة الموزة. و قرأ الجمهور: «سئلت» مبنيا للمفعول، و قرأ الحسن بكسر السين من سال يسيل. و قرأ الجمهور: «قتلت» بالتخفيف مبنيا للمفعول، و قرأ أبو جعفر بالتشديد على التكثير. و قرأ على و ابن مسعود و ابن عباس سألت مبنيا للفاعل «قتلت» بضم التاء الأخيرة.

و معنى «سئلت» على قراءة الجمهور: أن توجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كان لا يستحق أن يخاطب و يسأل عن ذلك، و فيه تبيك لقاتلها و توبيخ له شديد. قال الحسن: أراد الله أن يوبخ قاتلها لأنها قتلت بغير ذنب، و فى مصحف أبى «و إذا الموءودة سألت بأى ذنب قتلتنى». وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ يعنى صحائف الأعمال نشرت للحساب، لأنها تطوى عند



الموت و تنشر عند الحساب، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها، فيقول: ما لهذا الكتاب لا يُغادرُ صَغيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا (٣) قرأ نافع و عاصم و ابن عامر و أبو عمرو: «نشرت» بالتخفيف. و قرأ الباقون بالتشديد على الكثير. وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ الكِشْطُ: قلع عن شدّة التراق، [فالسماء تكشط كما] (٤) يكشط الجلد عن الكبش، و القشط بالقاف لغه في الكشط، قال الزجاج: قلعت كما يقلع السقف. و قال الفراء:

نزعت فطويت. و قال مقاتل: كسفت عما فيها. قال الواحدي: و معنى الكشط رفعك شيئا عن شيء قد غطاه وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ أَى: أوقدت لأعداء الله إيقادا شديدا. قرأ الجمهور: «سعرت» بالتخفيف، و قرأ نافع و ابن ذكوان و حفص بالتشديد لأنها أوقدت مرّة بعد مرّة. قال قتادة: سَعَرَهَا غضب الله و خطايا بني آدم وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ أَى: قُرِبَتْ إِلَى الْمُتَّقِينَ و أدنيت منهم. قال الحسن: إنهم يقربون منها لا- أنها تزول عن موضعها. و قال ابن زيد: معنى أزلفت تزيّنت. و الأوّل أولى لأنّ الزلْفَى فى كلام العرب القرب. قيل: هذه الأمور الاثنا عشر؛ ستّ منها فى الدنيا، و هى من أوّل السورة إلى قوله: وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ

(١). البقرة: ٢٥٥.

(٢). و عجز البيت: بآمتها موسودة لم يمهد.

(٣). الكهف: ٤٩.

(٤). من تفسير القرطبي (١٩ / ٢٣٥)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٧٢

، و ستّ فى الآخرة و هى: وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ إِلَى هُنَا، و جواب الجميع قوله: عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ عَلَى أَنْ الْمَرَادُ الزَّمَانُ الْمَمْتَدُّ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ، لكن لا- بمعنى أنها تعلم ما تعلم فى كلّ جزء من أجزاء هذا الوقت الممتدّ، بل المراد علمت ما أحضرته عند نشر الصحف، يعنى ما عملت من خير أو شرّ، و معنى ما أَحْضَرَتْ ما أحضرت من أعمالها، و المراد حضور صحائف الأعمال، أو حضور الأعمال نفسها، كما ورد أن الأعمال تصوّر بصور تدلّ عليها و تعرف بها، و تنكير «نفس» المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس، أو لبعض منها للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها من الظهور و الوضوح بحيث لا يخفى على أحد، و يدلّ على هذا قوله: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا (١) و قيل: يجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت و جب على كلّ نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هى تلك التى علمت ما أحضرت، فكيف و كلّ نفس تعلمه على طريقه قولك لمن تنصحه: لعلك ستندم على ما فعلت، و ربما ندم الإنسان على فعله فَلَا- أَقْسِمُ بِالْخُنُسِ «لا» زائدة كما تقدّم تحقيقه و تحقيق ما فيه من الأقوال فى أوّل سورة القيامة، أَى: فأقسم بالخنس، و هى الكواكب؛ و سميت الخنس من خنس؛ إذا تأخر؛ لأنها تخنس بالنهار فتخفى و لا ترى، و هى زحل و المشترى و المريخ و الزهرة و عطارد كما ذكره أهل التفسير. و وجه تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم أنها تستقبل الشمس و تقطع المجرة. و قال فى الصحاح:

الخنس: الكواكب كلها؛ لأنها تخنس فى المغيب، أو لأنها تخفى نهارا، أو يقال هى الكواكب السيارة منها دون الثابتة. قال الفراء: إنها الكواكب الخمسة المذكورة، لأنها تخنس فى مجراها، و تكنس، أَى: تستر كما تكنس الأطباء فى المغار، و يقال: سميت خنسا لتأخرها؛ لأنها الكواكب المتحيزة التى ترجع و تستقيم. يقال:

خنس عنه يخنس خنوسا؛ إذا تأخر، و أخنسه غيره؛ إذا خلفه و مضى عنه، و الخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة، و معنى الجوار أنها تجرى مع الشمس و القمر، و معنى الكُنُسِ أنها ترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس؛ فخنوسها

رجوعها، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوءها، وقيل:

خنوسها: خفاؤها بالنهار، وكنوسها: غروبها. قال الحسن و قتادة: هي النجوم التي تخنس بالنهار و إذا غربت، و المعنى متقارب لأنها تتأخر في النهار عن البصر لخفائها فلا ترى، و تظهر بالليل و تكنس في وقت غروبها. و قيل: المراد بها بقر الوحش لأنها تتصف بالخنس و بالجوار و بالكنس. و قال عكرمة: الخنس: البقر و الكنس الطباء، فهي تخنس إذا رأت الإنسان و تنقبض و تتأخر و تدخل كناسها. و قيل: هي الملائكة. و الأول أولى لذكر الليل و الصبح بعد هذا، و الكنس مأخوذ من الكناس الذي يختفى فيه الوحش، و الخنس: جمع خانس و خانسة، و الكنس: جمع كانس و كانسة و اللَّيْلُ إِذَا عَسَيْتَ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: هُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ، يُقَالُ: عَسَسَ اللَّيْلُ؛ إِذَا أَقْبَلَ، وَ عَسَسَ؛ إِذَا أَدْبَرَ، وَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ هُنَا أَدْبَرَ قَوْلَهُ: وَ الصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ قَالَ الْفَرَاءُ: أَجْمَعَ الْمَفْسُرُونَ عَلَى أَنَّ مَعْنَى عَسَسَ أَدْبَرَ، كَذَا حَكَاهُ عَنْهُ الْجَوْهَرِيُّ، وَ قَالَ الْحَسَنُ:

(١). آل عمران: ٣٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٧٣

أقبل بظلامه. قال الفراء: العرب تقول عسعس الليل؛ إذا أقبل، و عسعس الليل؛ إذا أدبر، و هذا لا ينافي ما تقدّم عنه، لأنه حكى عن المفسرين أنهم أجمعوا على حمل معناه في هذه الآية على أدبر، و إن كان في الأصل مشتركا بين الإقبال و الإدبار. قال المبرد: هو من الأضداد. قال: و المعنيان يرجعان إلى شيء واحد، و هو ابتداء الظلام أوله و إدباره في آخره. قال رؤبة بن العجاج:

يا هند ما أسرع ما تعسعسان بعد ما كان فتى ترعرا (١)

و قال امرؤ القيس:

عسعس حتى لو يشاء إدنا كان لنا من ناره مقبس

و قوله:

أَلْمَا عَلَى الرَّبْعِ الْقَدِيمِ بَعْسَعَسَا «٢» وَ الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ التَّنَفُّسُ الْأَصْلُ: خُرُوجُ النَّسِيمِ مِنَ الْجَوْفِ، وَ تَنَفُّسُ الصُّبْحِ: إِقْبَالُهُ؛ لِأَنَّهُ يَقْبَلُ بَرُوحَ وَ نَسِيمٍ، فَجَعَلَ ذَلِكَ تَنَفُّسًا لَهُ مَجَازًا. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: تَنَفَّسَ أَيَّ امْتَدَّ ضَوْؤُهُ حَتَّى يَصِيرَ نَهَارًا، وَ مِنْهُ يُقَالُ لِلنَّهَارِ إِذَا زَادَ تَنَفُّسًا. وَ قِيلَ: إِذَا تَنَفَّسَ إِذَا انشَقَّ وَ انْفَلَقَ، وَ مِنْهُ تَنَفَّسَتِ الْقَوْسُ، أَي:

تصدّعت. ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ يَعْنِي جَبْرِيلَ؛ لِكَوْنِهِ نَزَلَ بِهِ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، وَ أَضَافَ الْقَوْلَ إِلَى جَبْرِيلَ لِكَوْنِهِ مَرْسَلًا بِهِ، وَ قِيلَ: الْمُرَادُ بِالرَّسُولِ فِي الْآيَةِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى. ثُمَّ وَصَفَ الرَّسُولَ الْمَذْكُورَ بِأَوْصَافٍ مَحْمُودَةٍ فَقَالَ: ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ أَي: ذِي قُوَّةٍ شَدِيدَةٍ فِي الْقِيَامِ بِمَا كَلَّفَ بِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: شَدِيدُ الْقُوَى «٣»، وَ مَعْنَى عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ أَنَّهُ ذُو رَفْعَةٍ عَالِيَةٍ وَ مَكَانَةٍ مَكِينَةٍ عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ هُوَ فِي مَحَلِّ نَصَبٍ عَلَى حَالٍ مِنَ «مَكِينٍ»، وَ أَصْلُهُ الْوَصْفُ فَلَمَّا قَدَّمَ صَارَ حَالًا، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَعْتًا لِرَسُولٍ، يُقَالُ: مَكَّنَ فُلَانٌ عِنْدَ فُلَانٍ مَكَانَهُ، أَي: صَارَ ذَا مَنْزِلَةٍ عِنْدَهُ وَ مَكَانَهُ. قَالَ أَبُو صَالِحٍ: مِنْ مَكَانَتِهِ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ أَنَّهُ يَدْخُلُ سَبْعِينَ سَرَادِقًا بِغَيْرِ إِذْنٍ، وَ مَعْنَى مُطَاعٍ أَنَّهُ مُطَاعٌ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَ يَطِيعُونَهُ ثُمَّ أَمِينٌ قَرَأَ الْجُمْهُورَ بِفَتْحٍ «ثُمَّ» عَلَى أَنَّهَا ظَرْفٌ مَكَانٌ لِلْبَعِيدِ، وَ الْعَامِلُ فِيهِ «مُطَاعٍ» أَوْ مَا بَعْدَهُ، وَ الْمَعْنَى: أَنَّهُ مُطَاعٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ أَمِينٌ فِيهَا، أَي: مُؤْتَمَنٌ عَلَى الْوَحْيِ وَ غَيْرِهِ، وَ قَرَأَ هَشِيمٌ وَ أَبُو جَعْفَرٌ وَ أَبُو حَيَوَةَ بِضَمِّهَا عَلَى أَنَّهَا عَاطِفَةٌ، وَ كَانَ الْعَطْفُ بِهَا لِلتَّرَاخِي فِي الرَّتْبَةِ؛ لِأَنَّ مَا بَعْدَهَا أَعْظَمُ مِمَّا قَبْلَهَا، وَ مِنْ قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالرَّسُولِ مُحَمَّدٌ

(١). فى لسان العرب: تسعسع بدل تعسعس و سرعرع بدل ترعرع و معنى «تسعسع»: أدبر و فنى. و «السرعرع»:

الشاب الناعم.

(٢). و عجز البيت: كأنى أنادى أو أكلم أحرسا.

(٣). النجم: ٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٧٤

صلى الله عليه و سلم فالمعنى: أنه ذو قوّة على تبليغ الرسالة إلى الأمة «مطاع» يطيعه من أطاع الله «أمين» على الوحي و ما صاحبكم بمجنون الخطاب لأهل مكة، و المراد بصاحبهم رسول الله صلى الله عليه و سلم، و المعنى: و ما محمد يا أهل مكة بمجنون، و ذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره، و أنه ليس ممّا يرمونه به من الجنون و غيره فى شىء، و أنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس و أكملهم، و هذه الجملة داخلة فى جواب القسم، فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل، و أن محمدا صلى الله عليه و سلم ليس كما يقولون من أنه مجنون، و أنه يأتى بالقرآن من جهة نفسه و لقد رآه بالأفق الميّن اللام واقعة جواب قسم محذوف، أى: و تالله لقد رأى محمد جبريل بالأفق الميّن، أى: بمطلع الشمس من قبل المشرق؛ لأن هذا الأفق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو ميّن؛ لأن من جهته ترى الأشياء. و قيل: بالأفق الميّن أقطار السماء و نواحيها، و منه قول الشاعر:

أخذنا بأفاق السماء عليكم لنا قمرها و النجوم الطوالع

و إنما قال سبحانه: و لقد رآه بالأفق الميّن مع أنه قد رآه غير مرّة؛ لأنه رآه هذه المرّة فى صورته له ستمائة جناح، قال سفيان: إنه رآه فى أفق السماء الشرقى. و قال ابن بحر: فى أفق السماء الغربى. و قال مجاهد: رآه نحو أجياد، و هو مشرق مكة، و «الميّن» صفة للأفق، قاله الربيع. و قيل: صفة لمن رآه قاله مجاهد، و قيل: معنى الآية: و لقد رأى محمد ربه عزّ و جلّ، و قد تقدّم القول فى هذا فى سورة النجم و ما هو أى: محمد صلى الله عليه و سلم على الغيب يعنى خبر السماء و ما اطلع عليه ممّا كان غائبا علمه عن أهل مكة بضنينّ بمتهم، أى: هو ثقة فبما يؤدى عن الله سبحانه. و قيل: «بضنين»: ببخيل، أى: لا يبخل بالوحي، و لا يقصر فى التبليغ، و سبب هذا الاختلاف القراء؛ فقرأ ابن كثير و أبو عمرو و الكسائى «بظنين» بالطاء المشالة، أى: بمتهم، و الظنة: التهمة، و اختار هذه القراءة أبو عبيد قال: لأنهم لم يبخلوه و لكن كذبوه. و قرأ الباقون بضنين بالضاد، أى: ببخل، من ضننت بالشىء أضنّ ضنا؛ إذا بخلت. قال مجاهد: أى لا يضنّ عليكم بما يعلم بل يعلم الخلق كلام الله و أحكامه. و قيل: المراد جبريل إنه ليس على الغيب بضنين، و الأوّل أولى و ما هو بقول شيطان رجيم أى: و ما القرآن بقول شيطان من الشياطين المستترقة للسمع المرجومة بالشهب. قال الكلبي: يقول إن القرآن ليس بشعر و لا كهانة كما قالت قريش. قال عطاء:

يريد بالشيطان: الشيطان الأبيض الذى كان يأتى النبى صلى الله عليه و سلم فى صورة جبريل يريد أن يفتنه. ثم بكتهم سبحانه و وبخهم فقال: فأين تذهبون أى: أين تعدلون عن هذا القرآن و عن طاعته، كذا قاله قتادة. و قال الزجاج: معناه أى طريق تسلكون أيمن من هذه الطريقه التى قد بينت لكم، يقال: أين تذهب؟ و إلى أين تذهب؟ و حكى الفراء عن العرب: ذهب الشام، و خرجت العراق، و انطلقت السوق، أى: إليها. قال:

سمعناه فى هذه الأحرف الثلاثة، و أنشد لبعض بنى عقيل:

تصبح بنا حنيفه إذ رأتنا- و أى الأرض تذهب بالصياح

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٧٥

تريد إلى أى الأرض تذهب، فحذف إلى إن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ أى: ما القرآن إلا موعظةٌ للخلق أجمعين، و تذكير لهم، و قوله: لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ بدل من العالمين بإعادة الجار و مفعول المشيئة «أن يستقيم» أى: لمن شاء منكم الاستقامة على الحق و الإيمان و الطاعة و ما تشاؤون إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أى: و ما تشاؤون الاستقامة إلا أن يشاء الله تلك المشيئة، فأعلمهم سبحانه أن المشيئة فى التوفيق إليه، و أنهم لا- يقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله و توفيقه، و مثل هذا قوله سبحانه: وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوَمِّنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ «١» و قوله: وَ لَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَ حَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ «٢» و قوله: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ «٣» و الآيات القرآنية فى هذا المعنى كثيرة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ قال: أظلمت و إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ قال: تغيرت. و أخرج ابن أبى حاتم و الديلمى عن أبى مريم أن النبى صلى الله عليه و سلم قال فى قوله: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ قال: كُوِّرَتْ فى جهنم و إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ قال: انكدرت فى جهنم، فكل من عبد من دون الله فهو فى جهنم، إلا ما كان من عيسى و أمه، و لو رضى أن يعبد لدخلها. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن أبى العالیه قال: ست آيات من هذه السورة فى الدنيا، و الناس ينظرون إليها، و ست فى الآخرة إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ إِلَى وَ إِذَا الْبِحَارُ سَاجِدَاتٌ هَذِهِ فى الدنيا و الناس ينظرون إليها وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ إِلَى وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ هَذِهِ فى الآخرة.

و أخرج ابن أبى الدنيا فى الأهوال، و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى بن كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس فى أسواقهم؛ إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت و اضطربت و اختلطت، ففرعت الجن إلى الإنس و الإنس إلى الجن، و اختلطت الدواب و الطير و الوحش فماجوا بعضهم فى بعض وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ قال: اختلطت وَ إِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ قال: أهملها أهلها وَ إِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ قال: قالت الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة و إلى السماء السابعة، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ قال: حشر البهائم: موتها، و حشر كل شىء الموت غير الجن و الإنس فإنهما يوفيان يوم القيامة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الخطيب فى المتفق و المفترق، عنه فى قوله: وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ قال: يحشر كل شىء يوم القيامة حتى أن الدواب لتحشر. و أخرج البيهقى فى البعث عنه أيضا فى قوله: وَ إِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ قال: تسجر حتى تصير نارا. و أخرج الطبرانى عنه سُجِّرَتْ قال: اختلط ماؤها بماء الأرض. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى

(١). يونس: ١٠٠.

(٢). الأنعام: ١١١.

(٣). القصص: ٥٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٧٦

و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبه و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى البعث، عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب فى قوله:

وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ قال: يقرن بين الرجل الصالح مع الصالح فى الجنة و يقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار، كذلك تزويج الأنفس: و فى روايه: ثم قرأ: احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوَاجَهُمْ «١» و أخرج نحوه ابن مردويه عن النعمان بن بشير

مرفوعا. و أخرج البزار، و الحاكم فى الكنى، و البيهقى فى سننه، عن عمر بن الخطاب قال: جاء قيس بن عاصم التميمى إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: إنى و أدت ثمان بنات لى فى الجاهلية، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أعتق عن كل واحدة رقبة»، قال: إنى صاحب إبل، قال: «فأهد عن كل واحدة بدنة». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس و إذا الجئة أزلقت قال: قربت. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، من طرق عن على بن أبى طالب فى قوله: فلا- أقسم بالخنس قال: خمسة أنجم؛ زحل و عطارد و المشترى و بهرام و الزهرة، ليس شىء يقطع المجرة غيرها. و أخرج ابن مردويه، و الخطيب فى كتاب النجوم، عن ابن عباس فى الآية قال: هى النجوم السبعة: زحل و بهرام و عطارد و المشترى و الزهرة و الشمس و القمر، خنوسها: رجوعها، و كنوسها: تغييبها بالنهار. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن سعد و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صححه، من طرق عن ابن مسعود فى قوله: بالخنس الجوار الكنس قال: هى بقر الوحش. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: هى البقر تكنس إلى الظل. و أخرج ابن المنذر عنه قال: تكنس لأنفسها فى أصول الشجر و تتوارى فيه.

و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: هى الظباء. و أخرج ابن راهويه و عبد بن حميد، و البيهقى فى الشعب، عن على بن أبى طالب فى قوله: الجوار الكنس قال: هى الكواكب. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس الخنس البقر الجوار الكنس الظباء، ألم ترها إذا كانت فى الظل كيف تكنس بأعناقها و مدت نظرها. و أخرج أبو أحمد الحاكم فى الكنى، عن أبى العديس قال: كنا عند عمر بن الخطاب فأتاه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين ما الجوار الكنس فطعن عمر بمحضرة معه فى عمامة الرجل فألقاها عن رأسه، فقال عمر: أحرورى؟ و الذى نفس عمر بن الخطاب بيده لو وجدتكم مخلوقا لأنحيت القمل عن رأسك.

و هذا منكر، فالحرورية لم يكونوا فى زمن عمر و لا- كان لهم فى ذلك الوقت ذكر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: و الليل إذا عسعس قال: إذا أدبر و الصبح إذا تنفس قال: إذا بدا النهار حين طلوع الفجر. و أخرج الطبرانى عنه إذا عسعس قال: إقبال سواده. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا إنه لَقَوْلُ رَسُولِ كَرِيمٍ قال: جبريل. و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم فى الدلائل عن ابن مسعود و لَقَدْ رَأَهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ قال: رأى جبريل له ستمائة جناح قد سد الأفق.

(١). الصافات: ٢٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٧٧

و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: إنما عنى جبريل و أن محمدا رآه فى صورته عند سدره المنتهى. و أخرج ابن مردويه عنه بالأفق المبين، قال: السماء السابعة. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ: بَصْنِينٍ بِالضَّادِ، و قال: ببخيل.

و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ: «و ما هو على الغيب بظنين» بالطاء قال: ليس بمتهم. و أخرج الدار قطنى فى الأفراد، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و الخطيب فى تاريخه، عن عائشة أن النبى صلى الله عليه و سلم كان يقرؤه «بظنين» بالطاء. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: لما نزلت لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَتِيمَ قالوا: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا و إن شئنا لم نستقم، فهبط جبريل على رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال:

كذبوا يا محمد و ما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٧٨

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت إذا السماء انفطرت بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج النسائي عن جابر قال: «قام معاذ فصلّى العشاء فطوّل، فقال النبي صلّى الله عليه و سلم: أفتيان أنت يا معاذ؟ أين أنت عن: سيح اسم ربك الأعلى، و الضحى، و إذا السماء انفطرت» و أصل الحديث فى الصحيحين، و لكن بدون ذكر إذا السماء انفطرت و قد تفرد بها النسائي، و قد تقدّم فى سورة التكويد حديث: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة رأى عين فليقرأ إذا الشمس كورت، و إذا السماء انفطرت، و إذا السماء انشقت».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الانفطار (٨٢): الآيات ١ الى ١٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَ أَخْرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالذِّينِ (٩)

وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصِيلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَ مَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)

قوله: إذا السماء انفطرت قال الواحدى: قال المفسرون: انفطرتها: انشققها، كقوله:

وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا «١» و الفطر: الشق، يقال: فطرته فانفطر، و منه فطر ناب البعير؛ إذا طلع، قيل: و المراد أنها انفطرت هنا لنزول الملائكة منها، و قيل: انفطرت لهيبه الله، و إذا الكواكب انتثرت أى: تساقطت متفرقة، يقال: نثرت الشيء أنثره نثرًا. و إذا البحار فُجِّرت أى: بعضها فى بعض فصارت بحرا واحدا، و اختلط العذب منها بالمالح. و قال الحسن: معنى فجرت: ذهب ماؤها و يبست، و هذه الأشياء بين يدي الساعة كما تقدّم فى السورة التى قبل هذه، و إذا القُبُورُ بُعْثِرَتْ أى: قلب ترابها و أخرج الموتى الذين هم فيها، يقال: بعثر يبعثر بعثره؛ إذا قلب التراب، و يقال: بعثر المتاع:

قلبه ظهرا لبطن، و بعثرت الحوض و بحثرته؛ إذا هدمته و جعلت أعلاه أسفله. قال الفراء: بعثرت: أخرجت ما فى بطنها من الذهب و الفضة، و ذلك من أشرط الساعة أن تخرج الأرض ذهبا و فضتها. ثم ذكر سبحانه

(١). الفرقان: ٢٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٧٩

الجواب عما تقدّم فقال: عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَ أَخْرَتْ و المعنى: أنها علمته عند نشر الصحف لا عند البعث؛ لأنه وقت واحد من عند البعث إلى عند مصير أهل الجنة إلى الجنة و أهل النار إلى النار، و الكلام فى أفراد نفس هنا كما تقدّم فى السورة الأولى فى قوله: عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ «١». و معنى ما قَدَّمَتْ وَ أَخْرَتْ ما قدمت من عمل خير أو شر، و ما أخرت من سنّته

حسنه أو سيئه؛ لأن لها أجر ما سنته من السنن الحسنه و أجر من عمل بها، و عليها وزر ما سنته من السنن السيئه و وزر من عمل بها. و قال قتاده:

ما قدمت من معصية و أخرت من طاعة، و قيل: ما قدم من فرض و أخر من فرض، و قيل: أول عمله و آخره، و قيل: إن النفس تعلم عند البعث بما قدمت و أخرت علما إجماليا؛ لأن المطيع يرى آثار السعادة، و العاصي يرى آثار الشقاوة، و أما العلم التفصيلي فإنما يحصل عند نشر الصحف يا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ما عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ هذا خطاب للكافر، أي: ما أَلْذَى غَرَّكَ و خدعك حتى كفرت بربك الكريم أَلْذَى تَفَضَّلَ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا بِإِكْمَالِ خَلْقِكَ وَ حِوَاشِكَ، و جعلك عاقلا فاهما، و رزقك و أنعم عليك بنعمه التي لا تقدر على جحد شيء منها. قال قتاده: غَرَّ شَيْطَانَهُ الْمَسْلُطَ عَلَيْهِ. و قال الحسن: غَرَّ شَيْطَانَهُ الْخَبِيثَ، و قيل: حمقه و جهله، و قيل: غَرَّ عَفْوُ اللَّهِ إِذْ لَمْ يَعاْجِلْهُ بِالْعُقُوبَةِ أَوَّلَ مَرَّةٍ. كذا قال مقاتل، أَلْذَى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ أَي: خَلَقَكَ مِنْ نَظْفَةٍ وَ لَمْ تَكْ شَيْئًا، فَسَوَّاكَ رَجُلًا تَسْمَعُ وَ تَبْصُرُ وَ تَعْقِلُ، فَعَدَلَكَ: جَعَلَكَ مَعْتَدَلًا. قال عطاء: جعلك قائما معتدلا حسن الصورة. و قال مقاتل: عدل خلقك في العينين و الأذنين و اليدين و الرجلين، و المعنى: عدل بين ما خلق لك من الأعضاء. قرأ الجمهور: فَعَدَلَكَ مُشَدِّدًا، و قرأ عاصم و حمزة و الكسائي بالتخفيف، و اختار أبو حاتم و أبو عبيد القراءه الأولى. قال الفراء و أبو عبيد: يدل عليها قوله:

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٢) و معنى القراءة الأولى: أنه سبحانه جعل أعضائه متعادلة لا تفاوت فيها؛ و معنى القراءة الثانية: أنه صرفه و أماله إلى أي صورة شاء، إما حسنا و إما قبيحا، و إما طويلا و إما قصيرا، في أي صورة شاء رَكَّبَكَ في أي صورة متعلق بركبك، و ما مزیده، و شاء صفه لصورة، أي: ركبك في أي صورة شاءها من الصور المختلفة، و تكون هذه الجملة كاليان لقوله: فَعَدَلَكَ وَ التَّقْدِيرُ: فَعَدَلَكَ: رَكَّبَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ شَاءَهَا، وَ يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَحذُوفٍ عَلَى أَنَّهُ حَالٌ، أَي: رَكَّبَكَ حَاصِلًا فِي أَيِّ صُورَةٍ. و نقل أبو حيان عن بعض المفسرين أنه متعلق بعدلك. و اعترض عليه بأن أي لها صدر الكلام فلا يعمل فيها ما قبلها. قال مقاتل و الكلبي و مجاهد: في أي شبه من أب أو أم أو خال أو عم. و قال مكحول: إن شاء ذكرا و إن شاء أنثى، و قوله: كَلَّا لِلرَّدْعِ وَ الزَّجْرِ عَنِ الْإِغْتِرَارِ بِكَرَمِ اللَّهِ وَ جَعَلَهُ ذَرِيعَةً إِلَى الْكُفْرِ بِهِ وَ الْمَعَاصِي لَهُ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى حَقًّا. و قوله: بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ إِضْرَابٌ عَنْ جَمَلَةٍ مُقَدَّرَةٍ يَسَاقُ إِلَيْهَا الْكَلَامُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: بَعْدَ الرَّدْعِ وَ أَنْتُمْ لَا تَرْتَدِعُونَ عَنْ ذَلِكَ بَلْ تَجَاوِزُونَهُ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنَ التَّكْذِيبِ بِالذِّينِ وَ هُوَ الْجِزَاءُ، أَوْ بِدِينِ الْإِسْلَامِ. قال ابن الأنباري: الوقف الجيد على «الدين» و على

(١). التكوير: ١٤.

(٢). التين: ٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٨٠

فتح القدير ج ٥ ٤٩٩

«ركبك»، و على «كلا» قبيح، و المعنى: بل تكذبون يا أهل مكة بالدين، أي: بالحساب، و بل لنفى شيء تقدم و تحقيق غيره، و إنكار البعث قد كان معلوما عندهم و إن لم يجر له ذكر. قال الفراء: كلا- ليس الأمر كما غررت به. قرأ الجمهور: «تكذبون» بالفوقية على الخطاب. و قرأ الحسن و أبو جعفر و شيبه بالتحية على الغيبة، و جملة و إِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ فِي مَحَلِّ نَصَبِ عَلَى الْحَالِ مِنْ فَاعِلٍ تَكْذِبُونَ، أَي: تَكْذِبُونَ، وَ الْحَالُ أَنْ عَلَيْكُمْ مِنْ يَدْفَعُ تَكْذِيبَكُمْ، وَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُسْتَأْنَفَةٌ مَسْوُوقَةٌ لِيَانِ مَا يَبْطُلُ تَكْذِيبُهُمْ، وَ الْحَافِظِينَ الرِّقْبَاءُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ عَلَى الْعِبَادِ أَعْمَالَهُمْ وَ يَكْتُبُونَهَا فِي الصُّحُفِ. و وصفهم سبحانه بأنهم

كرام لديه يكتبون ما يأمرهم به من أعمال العباد، وجملة يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ في محل نصب على الحال من ضمير كاتبين، أو على النعت، أو مستأنفة. قال الرازي: والمعنى التعجب من حالهم، كأنه قال: إنكم تكذبون بيوم الدين، و ملائكة الله موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة، ونظيره قوله تعالى: عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ- ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ «١». ثم بين سبحانه حال الفريقين فقال: إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ- وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ و الجملة مستأنفة لتقرير هذا المعنى العذى سيقته له، وهى كقوله سبحانه: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ «٢» و قوله: يَصِلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ صَفَةً لِحَجِيمٍ؛ و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من الضمير فى متعلق الجارّ والمجرور، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ما حالهم؟ فقيل يَصِلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ أى يوم الجزاء الذى كانوا يكذبون به، ومعنى يصلونها: أنهم يلزمونها مقاسين لوهجها و حرّها يومئذ. قرأ الجمهور: «يصلونها» مخففا مبني للفاعل، و قرئ بالتشديد مبني للمفعول و ما هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ أى: لا يفارقونها أبدا و لا يغيبون عنها، بل هم فيها، و قيل المعنى: و ما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجردون حرّها فى قبورهم.

ثم عظم سبحانه ذلك اليوم فقال: وَ ما أَدْرَاكَ ما يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ ما أَدْرَاكَ ما يَوْمُ الدِّينِ أى: يوم الجزاء و الحساب، و كثره تعظيما لقدرة و تفخيما لشأنه، و تهويلا لأمره كما فى قوله: الْقَارِعَةُ- ما الْقَارِعَةُ- وَ ما أَدْرَاكَ ما الْقَارِعَةُ «٣» و الْحَاقَّةُ- ما الْحَاقَّةُ- وَ ما أَدْرَاكَ ما الْحَاقَّةُ «٤» و المعنى: أى شىء جعلك داريا ما يوم الدين. قال الكلبي: الخطاب للإنسان الكافر. ثم أخبر سبحانه عن اليوم فقال: يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ قرأ ابن كثير و أبو عمرو برفع «يوم» على أنه بدل من يوم الدين، أو خبر مبتدأ محذوف. و قرأ أبو عمرو فى رواية: «يوم» بالتونين، و القطع عن الإضافة. و قرأ الباقر بفتحها على أنها فتحة إعراب بتقدير أعنى أو اذكر، فيكون مفعولا به، أو على أنها فتحة بناء لإضافته إلى الجملة على رأى الكوفيين، و هو فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو على أنه بدل من يوم الدين. قال الزجاج:

يجوز أن يكون فى موضع رفع إلا أنه مبنى على الفتح لإضافته إلى قوله: لا تَمْلِكُ و ما أضيف إلى غير المتمكن فقد بينى على الفتح، و إن كان فى موضع رفع، و هذا الذى ذكره إنما تجوز عند الخليل و سيويه إذا

(١). ق: ١٧-١٨.

(٢). الشورى: ١٧.

(٣). القارعة: ١-٣.

(٤). الحاققة: ١-٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٨١

كانت الإضافة إلى الفعل الماضى، و أما إلى الفعل المستقبل فلا يجوز عندهما، و قد وافق الزجاج على ذلك أبو على الفارسي و الفراء و غيرهما، و المعنى: أنها لا تملك نفس من النفوس لنفس أخرى شيئا من النفع أو الضرر و الأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ وحده لا يملك شيئا من الأمر غيره كائنا ما كان. قال مقاتل: يعنى لنفس كافر شيئا من المنفعة. قال قتادة: ليس ثم أحد يقضى شيئا، أو يصنع شيئا إلا الله رب العالمين، و المعنى: أن الله لا يملك أحدا فى ذلك اليوم شيئا من الأمور كما ملكهم فى الدنيا، و مثل هذا قوله: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ «١».

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ قال: بعضها فى بعض، و فى قوله: وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ قال: بحثت. و أخرج ابن المبارك فى الزهد و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: عَلِمْتَ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ قال:



ما قَدَّمت من خير و ما أخرت من سنَّة صالحهٗ يعمل بها [بعده، فإن له مثل أجر من عمل بها] «٢» من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، أو سنَّة سيئة تعمل بعده، فإن عليه مثل وزر من عمل بها و لا ينقص من أوزارهم شيئاً. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس نحوه. و أخرج الحاكم و صححه، عن حذيفة قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ:

«من استنَّ خيراً فاستنَّ به فله أجره و مثل أجور من اتبعه من غير منتقص من أجورهم، و من استنَّ شراً فاستنَّ به فعليه وزره و مثل أوزار من اتبعه من غير منتقص من أوزارهم، و تلا- حذيفة عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا قَدَّمتْ وَ أَخَّرْتُ . و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية: مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ قال: غَرَّه و الله جهله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل و حافظين في النهار يحفظان عمله و يكتبان أثره.

(١). غافر: ١٦.

(٢). ما بين حاصرتين سقط من الأصل و استدر كناه من الدر المنثور (٨ / ٤٣٨)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٨٢

## سورة المطففين

### إشارة

قال القرطبي: و هي مكية في قول ابن مسعود و الضحاك و مقاتل، و مدنية في قول الحسن و عكرمة. و قال مقاتل أيضاً: هي أوّل سورة نزلت بالمدينة. و قال ابن عباس و قتادة: هي مدنية إلا- ثمان آيات من قوله: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا إِلَى آخِرِهَا. و قال الكلبي و جابر بن زيد: نزلت بين مكة و المدينة. و أخرج النحاس و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة المطففين بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: آخر ما نزل بمكة سورة المطففين. و أخرج ابن مردويه، و البيهقي في الشعب: قال السيوطي بسند صحيح: عن ابن عباس قال: لما قدم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ المدينة كانوا من أخصب الناس كيلاً، فأنزل الله: وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ فَأَحْسِنُوا الْكَيْلَ بعد ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة المطففين (٨٣): الآيات ١ الى ١٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَ إِذَا كَالُواهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤)

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٍ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩)

وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَ مَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)

قوله: وَيَلُّ لِلْمُطَفِّينَ «ويل» مبتدأ، و سَوْغُ الابتداء به كونه دعاء، و لو نصب لجاز. قال مكي و المختار في ويل و شبهه: إذا كان غير مضاف الرفع، و يجوز النصب، فإن كان مضافا أو معرّفا كان الاختيار فيه النصب؛ نحو قوله: وَيَلُّكُمْ لَا تَفْتَرُوا «١» و للمطففين خبره، و المطفّف: المنقص، و حقيقته:

الأخذ في الكيل أو الوزن شيئا طفيفا، أي: نزرا حقيرا. قال أهل اللغة: المطفّف مأخوذ من الطّفيف، و هو القليل، فالمطفّف هو المقلّل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن. قال الزجاج: إنما قيل للذي ينقص المكيال و الميزان مطفف لأنه لا يكاد يسرق في المكيال و الميزان إلا الشيء اليسير الطفيف. قال أبو عبيدة و المبرد:

المطفّف الّذى يبخس في الكيل و الوزن. و المراد بالويل هنا شدّة العذاب، أو نفس العذاب، أو الشرّ الشديد، أو هو واد في جهنم. قال الكلبي: قدم رسول الله صلّى الله عليه و سلّم المدينة و هم يسيئون كيلهم و وزنهم لغيرهم، و يستوفون لأنفسهم، فنزلت هذه الآية. و قال السدي: قدم رسول الله صلّى الله عليه و سلّم المدينة، و كان بها رجل يقال له أبو جهينة،

(١). طه: ٦١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٨٣

و معه صاعان يكيل بأحدهما و يكتال بالآخر، فأنزل الله هذه الآية. قال الفراء: هم بعد نزول هذه الآية أحسن الناس كيلا إلى يومهم هذا. ثم بيّن سبحانه المطففين من هم، فقال: الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ أي: يستوفون الاكتيال و الأخذ بالكيل. قال الفراء: يريد اکتالوا من الناس، و «على» و «من» في هذا الموضع يعتقان، يقال: اکتلت منك، أي: استوفيت منك، و تقول: اکتلت عليك، أي: أخذت ما عليك. قال الزجاج: إذا اکتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل، و لم يذكر اتزنوا لأن الكيل و الوزن بهما الشراء و البيع، فأحدهما يدل على الآخر. قال الواحدي: قال المفسرون: يعنى الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا في الكيل و الوزن، و إذا باعوا و وزنوا لغيرهم نقصوا، و هو معنى قوله: وَ إِذَا كَالُوا هُمْ أَوْ وَزَنُوا هُمْ يُخْسِرُونَ أي: كالوا لهم أو وزنوا لهم، فحذفت اللام فتعدى الفعل إلى المفعول، فهو من باب الحذف و الإيصال، و مثله: نصحتك و نصحت لك، كذا قال الأخفش و الكسائي و الفراء. قال الفراء:

و سمعت أعرابية تقول: إذا صدر الناس أتينا التاجر فيكيلنا المدّ و المدّين إلى الموسم المقبل. قال: و هو من كلام أهل الحجاز و من جاورهم من قيس. قال الزجاج: لا يجوز الوقف على «كالوا» حتى يوصل بالضمير، و من الناس من يجعله توكيدا، أي توكيدا للضمير المستكنّ في الفعل، فيجوز الوقف على كالوا أو وزنوا.

قال أبو عبيدة: و كان عيسى بن عمر يجعلها حرفين، و يقف على كالوا أو وزنوا، ثم يقول: هم يخسرون.

قال: و أحسب قراءة حمزة كذلك. قال أبو عبيد: و الاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين: إحداهما الخط، و لذلك كتبهما بغير ألف، و لو كانتا مقطوعتين لكانتا كالوا أو وزنوا بالألف. و الأخرى أنه يقال:

كلتک و وزنتک بمعنى: كلت لك و وزنت لك، و هو كلام عربي؛ كما يقال: صدتک و صدت لك، و كسبتک و كسبت لك، و شكرتک و شكرت لك و نحو ذلك. و قيل: هو على حذف المضاف و إقامة المضاف إليه مقامه، و المضاف المكيل و الموزون، أي: و إذا كالوا مكيلهم، أو وزنوا موزونهم، و معنى يخسرون:

ينقصون، كقوله: وَ لَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ «١» و العرب تقول: خسرت الميزان و أخسرته. ثم خوّفهم سبحانه فقال: أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ و الجملة مستأنفة مسوقة لتحويل ما فعلوه من التطفيف و تفضيحه و للتعجب من حالهم في الاجتراء عليه، و الإشارة بقوله: أُولَئِكَ إِلَى الْمُطَفِّينَ، و المعنى: أنهم لا يخطر عليهم أنهم مبعوثون فمسؤولون عما يفعلون. قيل: و الظنّ هنا بمعنى

اليقين، أى: لا- يوقن أولئك، و لو أيقنوا ما نقصوا الكيل و الوزن، و قيل: الظن على بابه، و المعنى: إن كانوا لا يستيقنون البعث، فهلاً ظنوه حتى يتدبروا فيه و يبحثوا عنه و يتركوا ما يخشون من عاقبته. و اليوم العظيم هو يوم القيامة، و وصفه بالعظم لكونه زماناً لتلك الأمور العظام من البعث و الحساب و العقاب، و دخول أهل الجنة الجنة، و أهل النار النار. ثم أخبر عن ذلك اليوم فقال: **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** انتصاب الظرف بمبعوثون المذكور قبله، أو بفعل مقدر يدل عليه مبعوثون، أى: يبعثون يوم يقوم الناس، أو على البدل من محل ليوم، أو بإضمار

(١). الرحمن: ٩.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٨٤

أعنى، أو هو فى محل رفع على أنه خير لمبتدأ محذوف، أو فى محل جرّ على البدل من لفظ ليوم، و إنما بنى على الفتح فى هذين الوجهين لإضافته إلى الفعل. قال الزجاج: «يوم» منصوب بقوله «مبعوثون»، المعنى: ألا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة، و معنى يوم يقوم الناس: يوم يقومون من قبورهم لأمر رب العالمين، أو لجزائه، أو لحسابه، أو لحكمه و قضائه. و فى وصف اليوم بالعظم مع قيام الناس لله خاضعين فيه و وصفه سبحانه بكونه رب العالمين دلالة على عظم ذنب التطفيف، و مزيد إثمه و فظاعة عقابه. و قيل: المراد بقوله: **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ قِيَامَهُمْ** فى رشحهم إلى أنصاف آذانهم، و قيل: المراد قيامهم بما عليهم من حقوق العباد، و قيل:

المراد قيام الرسل بين يدي الله للقضاء، و الأول أولى. قوله: **كَلَّا هِيَ لَلرَّدْعِ وَ الزَّجْرِ لِلْمُطَفِّفِينَ** الغافلين عن البعث و ما بعده. ثم استأنف فقال: **إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِّينٍ** أن كلا بمعنى حقا متصله بما بعدها على معنى: حقا إن كتاب الفجار لفي سجين، و سجين هو ما فسره به سبحانه من قوله: **وَ مَا أَذْرَاكَ مَا سَجِّينٌ - كِتَابٌ مَرْقُومٌ** فأخبر بهذا أنه كتاب مرقوم، أى: مسطور، قيل: هو كتاب جامع لأعمال الشرّ الصادر من الشياطين و الكفرة و الفسقة، و لفظ سجين علم له. و قال قتادة و سعيد بن جبير و مقاتل و كعب: إنه صخرة تحت الأرض السابعة تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها، و به قال مجاهد، فيكون فى الكلام على هذا القول مضاف محذوف، و التقدير: محل كتاب مرقوم. و قال أبو عبيدة و الأخفش و المبرد و الزجاج لفي سَجِّينٍ لفي حبس و ضيق شديد، و المعنى: كأنهم فى حبس، جعل ذلك دليلا على حساسة منزلتهم و هوانها. قال الواحدي: ذكر قوم أن قوله: **كِتَابٌ مَرْقُومٌ** تفسير لسجين، و هو بعيد لأنه ليس السجين من الكتاب فى شىء على ما حكيناه عن المفسرين، و الوجه أن يجعل بيانا لكتاب المذكور فى قوله: **إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ عَلَى تَقْدِيرِ هُوَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ**، أى: مكتوب قد بينت حروفه. انتهى. و الأولى ما ذكرناه، و يكون المعنى: إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون، أى: ما يكتب من أعمالهم أو كتابه أعمالهم لفي ذلك الكتاب المدوّن للقبائح المختصّ بالشر، و هو سجين. ثم ذكر ما يدل على تهويله و تعظيمه، فقال: **وَ مَا أَذْرَاكَ مَا سَجِّينٌ** ثم بينه بقوله: **كِتَابٌ مَرْقُومٌ** قال الزجاج: معنى قوله: **وَ مَا أَذْرَاكَ مَا سَجِّينٌ** ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت و لا قومك. قال قتادة: و معنى مرقوم: رقم لهم بشرّ، كأنه أعلم بعلامه يعرف بها أنه كافر. و كذا قال مقاتل. و قد اختلفوا فى نون سجين، فقيل: هى أصلية و اشتقاقه من السجن، و هو الحبس، و هو بناء مبالغة كخمير و سكير و فسق، من الخمر و السكر و الفسق. و كذا قال أبو عبيدة و المبرد و الزجاج. قال الواحدي: و هذا ضعيف لأن العرب ما كانت تعرف سجينا. و يجاب عنه بأن روايته هؤلاء الأئمة تقوم بها الحجة، و تدل على أنه من لغة العرب، و منه قول ابن مقبل:

و رفقة يضربون البيض ضاحية ضربا تواصت به الأبطال سَجِينَا

و قيل: النون بدل من اللام، و الأصل: سجيل؛ مشتقا من السجل، و هو الكتاب. قال ابن عطية:

من قال إن سجيناً موضع فكتاب مرفوع على أنه خبر إن، و الظرف و هو قوله: لَفِي سَجِينٍ مَلغى، و من جعله عبارة عن الكتاب، فكتاب خبر مبتدأ محذوف، التقدير: هو كتاب، و يكون هذا الكلام مفسراً

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٨٥

لسجين ما هو؟ كذا قال. قال الضحّاك: مرقوم: محتوم بلغه حمير، و أصل الرقم الكتابة. قال الشاعر:

سأرقم بالماء القراح (١) إليكم على بعد كم إن كان للماء راقم

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ هَذَا مَتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ: يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ و ما بينهما اعتراض، و المعنى: و يل يوم القيامة لمن وقع منه التكذيب بالبعث و بما جاءت به الرسل. ثم بين سبحانه هؤلاء المكذبين فقال: الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ و الموصول صفة للمكذبين، أو بدل منه و ما يُكذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ أى: فاجر جائر، متجاوز فى الإثم، منهمك فى أسبابه إذا تُتلى عَلَيْهِ آياتنا المنزلة على محمد صلى الله عليه و سلم قالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى: أحاديثهم و أباطيلهم التى زخرفوها. قرأ الجمهور إذا «تلى» بفوقيتين.

و قرأ أبو حيوة و أبو السَّمَال و الأشهب العقيلي و السلمى بالتحية، و قوله: كَلَّا لِلرَّدَعِ و الزجر للمعتدى الأ-ثيم عن ذلك القول الباطل و تكذيب له، و قوله: يَلِ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ما كانوا يَكْتَسِبُونَ بيان للسبب الذى حملهم على قولهم بأن القرآن أساطير الأولين. قال أبو عبيدة: ران على قلوبهم: غلب عليها رينا و ريونا، و كل ما غلبك و علاك فقد ران بك عليك. قال الفراء: هو أنها كثرت منهم المعاصى و الذنوب فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها. قال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب. قال مجاهد: القلب مثل الكف، و رفع كفه، فإذا أذنب انقبض، و ضم إصبعه، فإذا أذنب ذنبا آخر انقبض، و ضم أخرى؛ حتى ضم أصابعه كلها، حتى يطبع على قلبه. قال: و كانوا يرون أن ذلك هو الرين. ثم قرأ هذه الآية.

قال أبو زيد: يقال: قد رين بالرجل رينا؛ إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه و لا قبل له به. و قال أبو معاذ النحوي: الرين: أن يسود القلب من الذنوب، و الطبع: أن يطبع على القلب، و هو أشد من الرين، و الإقفال: أشد من الطبع. قال الزجاج: الرين هو كالصدإ يغشى القلب كالغيم الرقيق، و مثله الغين. ثم كرر سبحانه الردع و الزجر فقال: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ و قيل: كلا- بمعنى حقا، أى: حقا إنهم، يعنى الكفار، عن ربهم يوم القيامة لا- يرونه أبدا. قال مقاتل: يعنى أنهم بعد العرض و الحساب لا ينظرون إليه نظر المؤمنين إلى ربهم. قال الحسين بن الفضل: كما حجبهم فى الدنيا عن توحيد حجبهم فى الآخرة عن رؤيته. قال الزجاج: فى هذه الآية دليل على أن الله عزّ و جلّ يرى فى القيامة، و لو لا ذلك ما كان فى هذه الآية فائدة. و قال جلّ ثناؤه: وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ- إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢) فأعلم جلّ ثناؤه أن المؤمنين ينظرون، و أعلم أن الكفار محجوبون عنه. و قيل: هو تمثيل لإهانتهم بإهانة من يحجب عن الدخول على الملوك. و قال قتادة و ابن أبى مليكة: هو أن لا ينظر إليهم برحمته و لا يزيكهم. و قال مجاهد:

محجوبون عن كرامته، و كذا قال ابن كيسان ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ أى: داخلوا النار و ملازموها غير خارجين منها، و «ثم» لتراخى الرتبة؛ لأن صلى الجحيم أشد من الإهانة و حرمان الكرامة

(١). «القراح»: الماء الذى لا ثقل فيه.

(٢). القيامة: ٢٢- ٢٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٨٦

ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ أى: تقول لهم خزنة جهنم تكيتا و تويخا: هذا الذى كنتم به تكذبون فى الدنيا، فانظروه و

ذوقوه.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين». وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه». وأخرج الطبراني وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ قال: فكيف إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم». وأخرج أبو يعلى وابن حبان وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ بمقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة، فيهون ذلك على المؤمن كتدلى الشمس إلى الغروب إلى أن تغرب». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: إذا حشر الناس قاموا أربعين عاما. وأخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعا. وأخرج الطبراني عن ابن عمر أنه قال: يا رسول الله كم مقام الناس بين يدي رب العالمين يوم القيامة؟ قال: «ألف سنة لا يؤذن لهم». وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله: كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ قال: إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها، فيهبط بها إلى الأرض فتأبى أن تقبلها، فيدخل بها تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجين، وهو خد إبليس، فيخرج لها من تحت خد إبليس كتابا فيختم ويوضع تحت خد إبليس. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: سِجِّينُ أسفل الأرضين.

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الفلق جب في جهنم مغطى، وأما سجين فمفتوح». قال ابن كثير: هو حديث غريب منكر لا يصح. وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: سِجِّينُ الأرض السابعة السفلى. وأخرج ابن مردويه عن جابر نحوه مرفوعا. وأخرج عبد بن حميد وابن ماجه والطبراني، والبيهقي في البعث، عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: لما حضرت كعبا الوفاة أتته أم بشر بنت البراء فقالت: إن لقيت ابني فأقرئه مني السلام، فقال: غفر الله لك يا أم براء نحن نحن أشغل من ذلك، فقالت: أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن نسمة المؤمن تسرح في الجنة حيث شاءت، وإن نسمة الكافر في سجين»؟ قال: بلى، قالت: فهو ذلك. وأخرج ابن المبارك نحوه عن سلمان. وأخرج أحمد وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله سبحانه في القرآن كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٨٧

### [سورة المطففين (٨٣): الآيات ١٨ إلى ٣٦]

كَلَّا- إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَذْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢)

عَلَى الْأَرْئِثِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسِيقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧)

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا

إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكَيْهِنَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ (٣٢)  
وَ مَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤْتَبُ الْكُفَّارُ مَا  
كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)

قوله: كَلَّا للردع و الزجر عما كانوا عليه، و التكرير للتأكيد، و جملة إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ مستأنفة لبيان ما تضمنته، و يجوز  
أن يكون «كلا» بمعنى حقا، و الأبرار: هم المطيعون، و كتابهم:

صحائف حسناتهم. قال الفراء: «عليين» ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له، و وجه هذا أنه منقول من جمع على من العلو. قال الزجاج:  
هو أعلى الأمكنة. قال الفراء و الزجاج: فأعرب كإعراب الجمع لأنه على لفظ الجمع و لا واحد له من لفظه نحو ثلاثين و عشرين  
و قسرين، قيل: هو علم لديوان الخير الذي دَوَّن فيه ما عمله الصالحون. و حكى الواحدى عن المفسرين أنه السماء السابعة. قال  
الضحاك و مجاهد و قتادة: يعنى السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين. و قال الضحاك: هو سدره المنتهى ينتهى إليه كل شىء  
من أمر الله لا يعدوها، و قيل: هو الجنة. و قال قتادة أيضا: هو فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى، و قيل: إن عليين صفة  
للملائكة فإنهم فى الملاء الأعلى، كما يقال: فلان فى بنى فلان، أى: فى جملتهم و ما أدراك ما عِلِّيُّونَ - كِتَابٌ مَرْقُومٌ أَى: و ما  
أعلمك يا محمد أَى شىء عليون؟ على جهة التفضيم و التعظيم لعلين، ثم فسره فقال:

كِتَابٌ مَرْقُومٌ أَى: مسطور، و الكلام فى هذا كالكلام المتقدم فى قوله: و ما أدراك ما سَجِّينٌ - كِتَابٌ مَرْقُومٌ و جملة يَشْهَدُهُ  
الْمُقَرَّبُونَ صفة أخرى لكتاب، و المعنى: أن الملائكة يحضرون ذلك الكتاب المرقوم، و قيل: يشهدون بما فيه يوم القيامة. قال  
وهب و ابن إسحاق: المقربون هنا إسرئيل، فإذا عمل المؤمن عمل البر سعدت الملائكة بالصحيفة و لها نور يتلأأ فى السماوات  
كنور الشمس فى الأرض حتى تنتهى بها إلى إسرئيل فيختم عليها. ثم ذكر سبحانه حالهم فى الجنة بعد ذكر كتابهم فقال: إِنَّ  
الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ أَى: إن أهل الطاعة لفى تنعم عظيم لا يقادر قدره عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظُرُونَ الْأَسْرَةَ التى فى الحجال «١»، و  
قد تقدّم أنها لا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان فى حجلة. قال الحسن: ما كنا ندرى ما الأرائك حتى قدم علينا رجل من  
اليمن، فزعم أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير. و معنى يُنظُرُونَ أنهم ينظرون إلى ما أعدّ الله لهم من الكرامات، كذا  
قال عكرمة و مجاهد و غيرهما. و قال مقاتل:

ينظرون إلى أهل النار، و قيل: ينظرون إلى وجهه و جلاله تَعْرِفُ فى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ أَى: إذا

---

(١). الحجال: جمع الحجلة، و هى سائر كالتبته يتخذ للعروس، يزين بالثياب و الستور و الأسرّة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٨٨

رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة لما تراه فى وجوههم من النور و الحسن و البياض و البهجة و الرونق، و الخطاب لكلّ راء  
يصلح لذلك، يقال: أنضر النبات؛ إذا أزهو و نور. قال عطاء: و ذلك أن الله زاد فى جمالهم و فى ألوانهم ما لا يصفه و اصف.  
قرأ الجمهور: «تعرف» بفتح الفوقية و كسر الراء، و نصب نضرة، و قرأ أبو جعفر بن القعقاع و يعقوب و شيبه و طلحة و ابن أبى  
إسحاق بضم الفوقية و فتح الراء على البناء للمفعول، و رفع «نضرة» بالنيابة يُسَيِّقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ قال أبو عبيدة و الأخفش و  
المبرد و الزجاج: الرحيق من الخمر ما لا غشّ فيه و لا شىء يفسده، و المختوم: الذى له ختام. و قال الخليل: الرحيق أجود الخمر.  
و فى الصحاح:

الرحيق: صفرة الخمر. و قال مجاهد: هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية، و منه قول حسان:

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

قال مجاهدٌ مَخْتُومٌ مطينٌ كأنه ذهبٌ إلى معنى الختم بالطين، و يكون المعنى: أنه ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه للأبرار. قال سعيد بن جبير و إبراهيم النخعي: ختامه: آخر طعمه، و هو معنى قوله:

خِتامُهُ مِسْكٌ أى: آخر طعمه ريح المسك إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك.

وقيل: مختوم أوانيه من الأكواب و الأباريق بمسك مكان الطين، و كأنه تمثيل لكمال نفاسته و طيب رائحته.

و الحاصل أن المختوم و الختام إما أن يكون من ختام الشيء و هو آخره، أو من ختم الشيء و هو جعل الخاتم عليه كما تختم الأشياء بالطين و نحوه. قرأ الجمهور: «ختامه» و قرأ عليٌ و علقمةٌ و شقيق و الضحاك و طاوس و الكسائي «خاتم» بفتح الخاء و التاء و ألف بينهما. قال علقمة: أما رأيت المرأة تقول للعطار: اجعل خاتم مسكا، أى: آخره، و الخاتم و الختام يتقاربان فى المعنى، إلا- أن الخاتم الاسم و الختام المصدر، كذا قال الفراء قال فى الصحاح: و الختام الطين الذى يختم به، و كذا قال ابن زيد. قال الفرزدق:

و بتن بجانبى مصرعات- و بت أفصّ أغلاق الختام و فى ذلِكَ فليتنافس المُنْتَفِسُونَ أى: فليرغب الراغبون، و الإشارة بقوله: «ذلِكَ» إلى الرحيق الموصوف بتلك الصفة، و قيل: إن «فى» بمعنى إلى: أى و إلى ذلك فليتبادر المتبادرون فى العمل كما فى قوله:

لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (١) و أصل التنافس: التشاجر على الشيء و التنازع فيه؛ بأن يحب كل واحد أن يتفرد به دون صاحبه، يقال: نفست الشيء عليه أنفسه نفاسةً: أى ظننت به و لم أحب أن يصير إليه.

قال البغوى: أصله من الشيء النفيس الذى تحرص عليه نفوس الناس فيريده كل واحد لنفسه، و ينفس به على غيره، أى: يضمن به. قال عطاء: المعنى فليستبق المستبقون. و قال مقاتل بن سليمان: فليتنازع المتنازعون، و قوله: و مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ معطوف على خِتامُهُ مِسْكٌ صفةً أخرى لرحيق، أى:

و مزاج ذلك الرحيق من تسنيم، و هو شراب ينصب عليهم من علو، و هو أشرف شراب الجنة، و أصل التسنيم فى اللغة: الارتفاع، فهى عين ماء تجرى من علو إلى أسفل، و منه سنام البعير لعلوه من بدنه، و منه تسنيم

(١). الصافات: ٦١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٨٩

القبور، ثم بين ذلك فقال: عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ و انتصاب عينا على المدح. و قال الزجاج: على الحال، و إنما جاز أن تكون عينا حالا مع كونها جامدة غير مشتقة لاتصافها بقوله: يَشْرَبُ بِهَا و قال الأخفش: إنها منصوبة بيسقون، أى: يسقون عينا، أو من عين. و قال الفراء: إنها منصوبة بتسنيم على أنه مصدر مشتق من السنام كما فى قوله: أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبَةٍ - يَتِيمًا (١) و الأول أولى، و به قال المبرد. قيل و الباء فى بها زائدة، أى: يشربها، أو بمعنى من، أى: يشرب منها. قال ابن زيد: بلغنا أنها عين تجرى من تحت العرش، قيل: يشرب المقربون صرفا، و يمزج بها كأس أصحاب اليمين.

ثم ذكر سبحانه بعض قبائح المشركين فقال: إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا و هم كفار قريش و من وافقهم على الكفر كانوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَصْحَكُونَ أى: كانوا فى الدنيا يستهزئون بالمؤمنين، و يسخرون منهم و إذا مرّوا بهم أى: مرّ المؤمنون بالكفار و هم فى مجالسهم يتغامزون من الغمز، و هو الإشارة بالجفون و الحواجب، أى: يغمز بعضهم بعضا، و يشيرون بأعينهم و حواجبهم، و قيل: يعيرونهم بالإسلام و يعيرونهم به و إذا انقلّبوا أى: الكفار إلى أهلهم من مجالسهم انقلّبوا فكهيّن أى: معجبين بما هم فيه متلذذين به، يتفكّهون بذكر المؤمنين و الطعن فيهم و الاستهزاء بهم و السخرية منهم. و الانقلاب:

الانصراف. قرأ الجمهور: «فاكهين» وقرأ حفص و ابن القعقاع و الأعرج و السلمى «فكهين» بغير ألف. قال الفراء: هما لغتان، مثل طمع و طامع، و حذر و حاذر. و قد تقدّم بيانه فى سورة الدخان أن الفكه: الأشر البطر، و الفاكه: الناعم المتنعم و إذا رَأَوْهُمْ أى: إذا رأى الكفار المسلمين فى أى مكان قالوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَصَالُّونَ فى اتباعهم محمداً، و تسميتهم بما جاء به، و تركهم التنعم الحاضر، و يجوز أن يكون المعنى:

و إذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا القول، و الأول أولى، و جملة و ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ فى محل نصب على الحال من فاعل قالوا، أى: قالوا ذلك أنهم لم يرسلوا على المسلمين من جهة الله موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم و أعمالهم فاليوم الَّذِينَ آمَنُوا المراد باليوم: اليوم الآخر مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ و المعنى: أن المؤمنين فى ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين قد نزل بهم ما نزل من العذاب، كما ضحك الكفار منهم فى الدنيا، و جملة عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ فى محل نصب على الحال من فاعل يضحكون، أى: يضحكون منهم ناظرين إليهم و إلى ما هم فيه من الحال الفظيع، و قد تقدّم تفسير الأرائك قريبا. قال الواحدي: قال المفسرون: إن أهل الجنة إذا أرادوا نظروا من منازلهم إلى أعداء الله و هم يعذبون فى النار، فضحكوا منهم كما ضحكوا منهم فى الدنيا. و قال أبو صالح: يقال لأهل النار اخرجوا و يفتح لهم أبوابها، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج و المؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم، فذلك قوله: فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ هَلْ تُؤْتَى الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ الجملة مستأنفة لبيان أنه قد وقع الجزاء للكفار بما كان يقع منهم فى الدنيا من الضحك

(١). البلد: ١٤ - ١٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٩٠

من المؤمنين و الاستهزاء بهم، و الاستفهام للتقرير، و ثوب بمعنى أثير، و المعنى: هل جوزى الكفار بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين؟ و قيل: الجملة فى محل نصب بينظرون، و قيل هى على إضمار القول، أى: يقول بعض المؤمنين لبعض هل ثوبت الكفار، و الثواب ما يرجع على العبد فى مقابلة عمله و يطلق على الخير و الشر.

و قد أخرج ابن المبارك فى الزهد و عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله: إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ قال: روح المؤمن إذا قبضت عرج بها إلى السماء، ففتح لها أبواب السماء و تلقاها الملائكة بالبشرى حتى تنتهى بها إلى العرش و تعرج الملائكة، فيخرج لها من تحت العرش رقّ فيرقم و يختم و يوضع تحت العرش لمعرفة النجاة لحساب يوم الدين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس لَفِي عِلِّيِّينَ قال: الجنة، و فى قوله: يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ قال: أهل السماء.

و أخرج أحمد و أبو داود و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى أمامة قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب فى عليين». و أخرج ابن المنذر عن علي بن أبى طالب فى قوله: نَضْرَةَ النَّعِيمِ قال: عين فى الجنة يتوضؤون منها و يغتسلون فتجرى عليهم نضرة النعيم. و أخرج عبد بن حميد و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و هناد و ابن المنذر، و البيهقى فى البعث، عن ابن مسعود فى قوله: يُشِيقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ قال: الرحيق: الخمر، و المختوم: يجدون عاقبتها طعم المسك. و أخرج ابن أبى شيبة و هناد و ابن المنذر عنه فى قوله: مَخْتُومٍ قال: ممزوج ختامه مسك قال: طعمه و ريحه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس فى قوله: مِنْ رَحِيقٍ قال: خمر، و قوله: مَخْتُومٍ قال: ختم بالمسك. و أخرج الفريابى و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و البيهقى عن ابن مسعود فى قوله: خِتَامُهُ مِسْكٌ



قال: ليس بخاتم يختم به، و لكن خلطه مسك، ألم تر إلى المرأة من نسائكُم تقول:

خلطه من الطيب كذا و كذا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و البيهقي عن أبي الدرداء ختامة مسك قال:

هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم، و لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل إصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريحها. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: تَسْنِيمٌ أشرف شراب أهل الجنة، و هو صرف للمتقين، و يمزج لأصحاب اليمين. و أخرج ابن المبارك و سعيد بن منصور و ابن أبي شيبة و هناد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن مسعود مزاجه من تَسْنِيمٍ قال: عين في الجنة تمزج لأصحاب اليمين و يشربها المقربون صرفا.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: وَ مِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ قال: هذا مما قال الله: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴿١﴾.

(١). السجدة: ١٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٩١

## سورة الانشقاق

### إشارة

و هي ثلاث و عشرون آية، و قيل خمس و عشرون آية و هي مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الانشقاق بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البخاري و مسلم و غيره عن أبي رافع قال: «صليت مع أبي هريرة العتمة فقرا: إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ فسجد، فقلت له، فقال: سجدت خلف أبي القاسم صلى الله عليه و سلم فلا- أزال أسجد فيها حتى ألقاه». و أخرج مسلم و أهل السنن و غيره عن أبي هريرة قال: «سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ و اقرأ باسم ربك . و أخرج ابن خزيمة، و الروياني في مسنده، و الضياء المقدسي في المختارة، عن بريده «أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يقرأ في الظهر إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ و نحوها».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الانشقاق (٨٤): الآيات ١ الى ٢٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَ أذِنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُكَّتْ (٢) وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَ تَخَلَّتْ (٤)

وَ أذِنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُكَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَمَا مَآ مِنْ أُوْتِي كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَ يَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩)

وَ أَمَّا مَنْ أُوْتِي كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (١١) وَ يُضَلَّى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤)

بلى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) فَلَا أُفْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَ اللَّيْلِ وَ مَا وَسَقَ (١٧) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبِقِ (١٩)

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمِعُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣)  
فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤)

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)

قوله: إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ هو كقوله: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ «١» في إضمار الفعل و عدمه.

قال الواحدي: قال المفسرون: انشقاقها من علامات القيامة، ومعنى انشقاقها: انفطارها بالغمام الأبيض كما في قوله: وَ يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ بِالْغَمَامِ «٢» وقيل: تنشق من المجرة، و المجرة باب السماء.

و اختلف في جواب إذا، فقال الفراء: إنه أذنت، و الواو زائدة، و كذلك أقلت. قال ابن الأنباري:

هذا غلط، لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع حتى إذا كقوله: حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا وَ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا «٣» و مع لما كقوله: فَلَمَّا أَسْلَمَا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ - وَ نَادَيْنَاهُ «٤» و لا تقحم مع غير هذين. و قيل: إن الجواب

(١). التكوير: ١.

(٢). الفرقان: ٢٥.

(٣). الزمر: ٧٣.

(٤). الصفات: ١٠٣-١٠٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٩٢

قوله: فَمَلَأَقِيهِ أَى: فأنت ملاقيه، و به قال الأخفش. و قال المبرد: إن في الكلام تقديمًا و تأخيرًا، أَى: يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه إذا السماء انشقت. و قال المبرد أيضا: إن الجواب قوله: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ و به قال الكسائي، و التقدير: إذا السماء انشقت فمن أوتى كتابه بيمينه فحكمه كذا، و قيل: هو يا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ على إضمار الفاء، و قيل: إنه يا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ على إضمار القول، أَى: يقال له يا أيها الإنسان، و قيل: الجواب محذوف تقديره بعثتم، أو لاقى كل إنسان عمله، و قيل: هو ما صرح به في سورة التكوير، أَى: علمت نفس هذا، على تقدير أن إذا شرطية، و قيل:

ليست بشرطية و هي منصوبة بفعل محذوف، أَى: اذكر، أو هي مبتدأ و خبرها إذا الثانية و الواو مزيدة، و تقديره: وقت انشقاق السماء وقت مد الأرض، و معنى وَ أَدْنَتْ لِرَبِّهَا أَنَّهَا أَطَاعَتْهُ فِي الانشِقَاقِ، من الإذن، و هو: الاستماع للشىء و الإصغاء إليه وَ حَقَّتْ أَى: و حق لها أن تطيع و تنقاد و تسمع، و من استعمال الإذن في الاستماع قول الشاعر:

صَمَّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذَكَرْتُ بِهِوَ إِنْ ذَكَرْتُ بِسُوءِ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا

و قول الآخر:

إِنْ يَأْذَنُوا رِيْبَةً طَارُوا بِهَا فِرْحَامِنِي وَ مَا أَذْنُوا مِنْ صَالِحِ دَفْنُوا

و قيل: المعنى: و حقق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق، أَى: جعلها حقيقة بذلك. قال الضحاک:

حَقَّتْ: أطاعت، و حق لها أن تطيع ربها لأنه خلقها، يقال: فلان محقوق بكذا، و معنى طاعتها: أنها لا تمتنع ممَّا أَرَادَهُ اللهُ بِهَا. قال قتادة: حق لها أن تفعل ذلك، و من هذا قول كثير:

فَإِنْ تَكُنِ الْعَتْبَى فَأَهْلًا وَ مَرْحَبًاو حَقَّتْ لَهَا الْعَتْبَى لِدِينَا وَ قَلَّتْ

وَ إِذَا الْمَارِضُ مُيِّدَتْ أَى: بسطت كما تبسط الأدم؛ و دكت جبالها حتى صارت قاعا صفصفا، لا ترى فيها عوجا و لا أمتا. قال مقاتل: سوّيت كمدّ الأديم فلا يبقى عليها بناء و لا جبل إلا دخل فيها، و قيل:

مَدَّت: زيد في سعتها، من المدد، و هو الزيادة وَ أَلْقَتْ ما فِيها أَى: أخرجت ما فيها من الأموات و الكنوز و طرحتهم إلى ظهرها وَ تَخَلَّتْ من ذلك. قال سعيد بن جبیر: أَلَقْتُ ما فِي بطنها من الموتى و تخلت ممّن على ظهرها من الأحياء، و مثل هذا قوله: وَ أَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَها «١» وَ أَدْنَتْ لِرَبِّها أَى:

سمعت و أطاعت لما أمرها به من الإلقاء و التخلي وَ حُقَّتْ أَى: و جعلت حقيقة بالاستماع لذلك و الانقياد له، و قد تقدّم بيان معنى الفعلين قبل هذا يا أَيُّها الإنسانُ المراد جنس الإنسان فيشمل المؤمن و الكافر، و قيل: هو الإنسان الكافر، و الأوّل أولى لما سيأتى من التفصيل إِنَّكَ كادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحًا الكدح فى كلام العرب: السعى فى الشىء بجهد من غير فرق بين أن يكون ذلك الشىء خيراً أو شراً، و المعنى:

(١). الزلزلة: ٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٩٣

أَنَّكَ ساع إلى ربك فى عملك، أو إلى لقاء ربك، مأخوذ من كدح جلده؛ إذا خدشه قال ابن مقبل:

و ما الدَّهرُ إلا تارتان فمَنهما موت و أخرى أبتغى العيش أكدح

قال قتادة و الضحاک و الكلبي: عامل لربك عملاً فَمُلاقِيهِ أَى: فملاق عملك، و المعنى: أنه لا محالة ملاق لجزاء عمله و ما يترتب عليه من الثواب و العقاب. قال القتيبي: معنى الآية: إِنَّكَ كادِح، أَى:

عامل ناصب فى معيشتك إلى لقاء ربك، و الملاقاة بمعنى اللقاء، أَى: تلقى ربك بعملك، و قيل: فملاق كتاب عملك، لأن العمل قد انقضى فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ و هم المؤمنون فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً لا مناقشة فيه. قال مقاتل: لأنها تغفر ذنوبه و لا يحاسب بها. و قال المفسرون: هو أن تعرض عليه سيئاته ثم يغفرها الله، فهو الحساب اليسير وَ يَنْقَلِبُ إلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً أَى: و ينصرف بعد الحساب اليسير إلى أهله الذين هم فى الجنة من الحور العين و الولدان المخلدن، أو إلى جميع هؤلاء مسرورا الأولاد و قد سبقوه إلى الجنة، أو إلى من أعدّه الله له فى الجنة من الحور العين و الولدان المخلدن، أو إلى جميع هؤلاء مسرورا مبتهجا بما أُوتى من الخير و الكرامة وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ قال الكلبي: لأن يمينه مغلوله إلى عنقه، و تكون يده اليسرى خلفه. و قال قتادة و مقاتل: تفكّ ألواح صدره و عظامه، ثم تدخل يده و تخرج من ظهره فيأخذ كتابه كذلك فَسَوْفَ يَدْعُوا تُبُوراً أَى: إذا قرأ كتابه قال: يا ويلاه! يا ثبوراه! و الثبور:

الهلاك وَ يَصِلُ إلى سَجِيرًا أَى: يدخلها و يقاسى حرّ نارها و شدّتها. قرأ أبو عمرو و حمزة و عاصم بفتح الياء و سكون الصاد و تخفيف اللام. و قرأ الباقون بضم الياء و فتح اللام و تشديدها، و روى إسماعيل المكي عن ابن كثير و كذلك خارجة عن نافع و كذلك روى إسماعيل المكي عن ابن كثير أنهم قرءوا بضم الياء و إسكان الصاد من أصلى يصلى إِنَّهُ كَانَ فى أَهْلِهِ مَسْرُوراً أَى كان بين أهله فى الدنيا مسرورا باتباع هواه و ركوب شهوته بطرا أشرا لعدم حضور الآخرة بباله، و الجملة تعليل لما قبلها، و جملة إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ تعليل لكونه كان فى الدنيا فى أهله مسرورا، و المعنى: أن سبب ذلك السرور ظنه بأنه لا يرجع إلى الله و لا يبعث للحساب و العقاب لتكذيبه بالبعث و جحده للدار الآخرة، و أن فى قوله: أَنْ لَنْ يَحُورَ هى المخففة من الثقيلة سادة مع ما فى حيزها مسدّ مفعولى ظنّ، و الحور فى اللغة: الرجوع، يقال: حار يحور؛ إذا رجع، و قال الراغب:

الحور: التردّد فى الأمر، و منه: نعوذ بالله من الحور بعد الكور، أَى: من التردّد فى الأمر بعد المضىّ فيه، و محاوره الكلام مراجعته، و المحار: المرجع و المصير. قال عكرمة و داود بن أبى هند: يحور كلمة بالحشية و معناها يرجع. قال القرطبي: الحور فى كلام العرب: الرجوع، و منه قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور» يعنى من الرجوع إلى

النقصان بعد الزيادة، وكذلك الحور بالضم، وفي المثل: «حور في محارة» أى: نقصان فى نقصان، ومنه قول الشاعر «١»:

و الذّم يبقى و زاد القوم فى حور «٢»

(١). هو سبيع بن الخطيم.

(٢). و صدر البيت: و استعجلوا عن خفيف المضغ فازدردوا.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٩٤

و الحور أيضا الهلكة، و منه قول الراجز «١»:

فى بئر لا حور سرى و ما شعر قال أبو عبيدة: أى فى بئر حور، و لا زائدة بلى إنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا «بلى» إيجاب للمنفى بلى، أى: بلى ليحورنَّ و ليعثنَّ. ثم علل ذلك بقوله: إنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا أى: كان به و بأعماله عالما لا يخفى عليه منها خافية. قال الزجاج: كان به بصيرا قبل أن يخلقه عالما بأن مرجعه إليه فلا أُقْسِمُ بِالشَّقَقِ «لا» زائدة كما تقدّم فى أمثال هذه العبارة، و قد قدّمنا الاختلاف فيها فى سورة القيامة فارجع إليه، و الشفق:

الحمرة التى تكون بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة. قال الواحدى: هذا قول المفسرين و أهل اللغة جميعا. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق؛ و كان أحمر، و حكاه القرطبي عن أكثر الصحابة و التابعين و الفقهاء. و قال أسد بن عمرو و أبو حنيفة؛ فى إحدى الروايتين عنه: إنه البياض، و لا وجه لهذا القول و لا متمسك له لا من لغة العرب و لا من الشرع. قال الخليل: الشفق:

الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة. قال فى الصحاح: الشفق: بقية ضوء الشمس و حمرتها فى أول الليل إلى قريب العتمة، و كتب اللغة و الشرع مطبقة على هذا، و منه قول الشاعر:

قم يا غلام أعنى غير مرتبك على الزمان بكأس حشوها شفق

و قال آخر:

و أحمر اللون كمحمّر الشفق و قال مجاهد: الشفق: النهار كله، ألا تراه قال: وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ و قال عكرمة: هو ما بقى من النهار، و إنما قال هذا لقوله بعده: وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ فكأنه تعالى أقسم بالضياء و الظلام، و لا وجه لهذا، على أنه قد روى عن عكرمة أنه قال: الشفق: الهدى يكون بين المغرب و العشاء، و روى عن أسد بن عمرو الرجوع وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ الوسق عند أهل اللغة: ضمّ الشىء بعضه إلى بعض، يقال: استوسقت الإبل؛ إذا اجتمعت و انضمت، و الراعى يسقها، أى: يجمعها. قال الواحدى: المفسرون يقولون: و ما جمع و ضمّ و حوى و لف، و المعنى: أنه جمع و ضمّ ما كان منتشرا بالنهار فى تصرّفه، و ذلك أن الليل إذا أقبل آوى كل شىء إلى مأواه، و منه قول ضابى بن الحارث البرجمي:

فإنى و إياكم و شوقا إليكم كقابض شيئا لم تنله أنامله «٢»

و قال عكرمة: وَ ما وَسَقَ أى: و ما ساق من شىء إلى حيث يأوى، فجعله من السوق لا من الجمع، و قيل: وَ ما وَسَقَ أى: و ما جنّ و ستر، و قيل: «و ما وسق» أى: و ما حمل، و كل شىء حملته فقد

(١). هو العجاج.

(٢). فى تفسير القرطبي: كقابض ماء لم تسقه أنامله.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٩٥

و سقته، و العرب تقول: لا أحمله ما وسقت عيني الماء، أى: حملته، و وسقت الناقة تسق و سقا، أى:

حملت. قال قتادة والضحاك ومقاتل بن سليمان: وَمَا وَسَقَ وَمَا حَمَلَ مِنَ الظُّلْمَةِ، أَوْ حَمَلَ مِنَ الكَوَاكِبِ. قال القشيري: و معنى حمل: ضَمَّ و جمع، و الليل يحمل بظلمته كل شيء. و قال سعيد بن جبير: وَمَا وَسَقَ أَي: و ما عمل فيه من التهجد و الاستغفار بالأسحار، و الأول أولى وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ أَي: اجتمع و تكامل. و قال الفراء: اتساقه امتلاؤه و اجتماعه و استواؤه ليلة ثالث عشر و رابع عشر إلى ست عشرة، و قد افتعل من الوسق المذى هو الجمع. قال الحسن: اتسق: امتلأ و اجتمع. و قال قتادة: استدار، يقال: و سقته فاتسق، كما يقال: وصلته فاتصل، و يقال: أمر فلان متسق، أَي: مجتمع منتظم، و يقال:

اتسق الشيء؛ إذا تتابع لَتَرَكِبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ هذا جواب القسم. قرأ حمزة و الكسائي و ابن كثير و أبو عمرو لَتَرَكِبَنَّ بفتح الموحدة على أنه خطاب للواحد، و هو النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، أو لكل من يصلح له، و هى قراءة ابن مسعود و ابن عباس و أبى العالیه و مسروق و أبى وائل و مجاهد و النخعى و الشعبى و سعيد بن جبير و قرأ الباقون بضم الموحدة خطابا للجمع و هم الناس. قال الشعبى و مجاهد: لتركبن يا محمد سماء بعد سماء. قال الكلبي: يعنى تصعد فيها، و هذا على القراءة الأولى، و قيل: درجة بعد درجة، و رتبة بعد رتبة، فى القرب من الله و رفعة المنزلة، و قيل: المعنى: لتركبن حالا بعد حال كل حالة منها مطابقة لأختها فى الشدة، و قيل المعنى: لتركبن أيها الإنسان حالا بعد حال من كونك نطفة، ثم علقه، ثم مضغه، ثم حيا و ميتا و غنيا و فقيرا، فالخطاب للإنسان المذكور فى قوله: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا و اختار أبو عبيد و أبو حاتم القراءة الثانية قالوا: لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ. و قرأ عمر «ليركبن» بالتحية و ضم الموحدة على الإخبار، و روى عنه و عن ابن عباس أنهما قرأا بالغيبة و فتح الموحدة، أَي: ليركبن الإنسان، و روى عن ابن مسعود و ابن عباس أنهما قرأا بكسر حرف المضارعة و هى لغة، و قرئ بفتح حرف المضارعة و كسر الموحدة على أنه خطاب للنفس. و قيل: إن معنى الآية: ليركبن القمر أحوالا- من سرار و استهلال، و هو بعيد. قال مقاتل: طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ يعنى الموت و الحياة. و قال عكرمة: رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم شيخ.

و محل عن طبق النصب على أنه صفة لطبقا أى طبقا مجاوزا لطبق، أو على الحال من ضمير لتركبن، أى: مجاوزين، أو مجاوزا فما لهم لا- يُؤْمِنُونَ الاستفهام للإنكار، و الفاء لترتيب ما بعدها من الإنكار و التعجيب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة أو من غيرها على الاختلاف السابق، و المعنى: أى شىء للكفار لا يؤمنون بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ و بما جاء به من القرآن مع وجود موجبات الإيمان بذلك وَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ هذه الجملة الشرطية و جوابها فى محل نصب على الحال، أى: أى مانع لهم حال عدم سجودهم و خضوعهم عند قراءة القرآن؟ قال الحسن و عطاء و الكلبي و مقاتل: ما لهم لا يصلون؟ و قال أبو مسلم:

المراد الخضوع و الاستكانة. و قيل: المراد نفس السجود المعروف بسجود التلاوة. و قد وقع الخلاف هل هذا الموضع من مواضع السجود عند التلاوة أم لا؟ و قد تقدم فى فاتحة هذه السورة الدليل على السجود بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ أَي: يكذبون بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ و بما جاء به من الكتاب المشتمل على إثبات التوحيد و البعث

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٩٦

و الثواب و العقاب وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ أَي: بما يضمرونه فى أنفسهم من التكذيب، و قال مقاتل: يكتبون من أفعالهم. و قال ابن زيد: يجمعون من الأعمال الصالحة و السيئة، مأخوذ من الوعاء المذى يجمع ما فيه، و منه قول الشاعر:

الخير أبقي و إن طال الزمان بهو الشرِّ أخبث ما أوعيت من زاد

و يقال: وعاه: حفظه، و وعيت الحديث أعياه وعيا، و منه: أذُنٌ وَاَعِيَّةٌ. فَبَشَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أَى: اجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم؛ لأن علمه سبحانه بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم، و الأليم: المؤلم الموجه، و الكلام خارج مخرج التهكم بهم إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ هذا الاستثناء منقطع، أَى: لكن الذين جمعوا بين الإيمان بالله و العمل الصالح لهم أجر عند الله غير ممنون، أَى: غير مقطوع، يقال: مننت الحبل؛ إذا قطعته، و منه قول الشاعر:

فترى خلفهن من سرعة الرجع منينا كأنه أهباء

قال المبرد: المنين: الغبار؛ لأنها تقطعه وراءها، و كل ضعيف منين و ممنون. و قيل: معنى غير ممنون أنه لا يمن عليهم به، و يجوز أن يكون الاستثناء متصلا إن أريد من آمن منهم.

و قد أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله: إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ قال: تنشق السماء من المجرة. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ أَذِنْتَ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ قال: سمعت حين كلمها. و أخرج ابن أبي حاتم عنه وَ أَذِنْتَ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ قال: أطاعت و حُقَّتْ بالطاعة. و أخرج الحاكم عنه و صححه قال: سمعت و أطاعت وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ قال: يوم القيامة وَ أَلْقَتْ ما فيها قال: أخرجت ما فيها من الموتى وَ تَخَلَّتْ عنهم. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا وَ أَلْقَتْ ما فيها قال: سوارى الذهب.

و أخرج الحاكم- قال السيوطي: بسند جيد- عن جابر قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «تمد الأرض يوم القيامة مدّ الأديم، ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه».

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَادِحًا قال: عامل عملا فملاقيه قال: فملاق عملك. و أخرج البخاري و مسلم و غيرهما عن عائشة قالت: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «ليس أحد يحاسب إلا هلك، فقلت: أليس يقول الله: فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا؟ قال: ليس ذلك بالحساب و لكن ذلك العرض، و من نوقش الحساب هلك». و أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن عائشة قالت: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يقول في بعض صلواته: «اللهم حاسبني حسابا يسيرا، فلما انصرف قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟

قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحساب هلك» و في بعض ألفاظ الحديث الأوّل و هذا الحديث الآخر: «من نوقش الحساب عذب». و أخرج البزار، و الطبراني في الأوسط، و البيهقي و الحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «ثلاث من كنّ فيه يحاسبه الله حسابا يسيرا و يدخله الجنة

فتح القدير، ج 5، ص: 497

برحمته: تعطى من حرمك، و تعفو عن ظلمك، و تصل من قطعك». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: يَدْعُوا تُبُورًا قال: الويل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه: إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ قال: يبعث. و أخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا أَنْ لَنْ يَحُورَ قال: أن لن يرجع. و أخرج سمويه في فوائده عن عمر بن الخطاب قال: الشفق الحمراء. و أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس مثله.

و أخرج عبد الرزاق و ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: الشفق النهار كله. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: وَ اللَّيْلِ وَ مَا وَسَقَ قال: و ما دخل فيه. و أخرج أبو عبيد في فضائله، و ابن أبي شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عنه وَ مَا وَسَقَ قال: و ما جمع. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله: وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ قال: إذا استوى. و أخرج عبد بن حميد و ابن الأنباري من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: وَ اللَّيْلِ وَ مَا وَسَقَ قال: و ما جمع، أما سمعت قوله:

إِنَّ لَنَا قَلَائِصًا نَقَانِقًا مَسْتُوسَقَاتٍ لَوْ يَجِدُن سَائِقًا

و أخرج عبد بن حميد عنه وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ قَالَ: ليله ثلاثة عشر. و أخرج عبد بن حميد عن عمر ابن الخطاب لَتَرْكَبَنَّ قَالَ: حالا بعد حال. و أخرج البخارى عن ابن عباس لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ حالا بعد حال، قال: هذا نبيكم صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ. و أخرج أبو عبيد فى القراءات و سعيد بن منصور و ابن منيع و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ يعنى بفتح الباء من تركبَنَّ. و قال: يعنى نبيكم صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ حالا بعد حال. و أخرج الطيالسى و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و الطبرانى عنه قال: لَتَرْكَبَنَّ يا محمد السماء طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم فى الكنى، و الطبرانى و ابن مندة و ابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ: لَتَرْكَبَنَّ يعنى بفتح الباء. و قال: لتركبَنَّ يا محمد سماء بعد سماء. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عنه لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ قال: يعنى السماء تنفطر، ثم تنشق، ثم تحمر. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و البيهقى عنه أيضا فى الآية قال: السماء تكون كالمهل، و تكون وردة كالدّهان، و تكون واهية، و تشقق فتكون حالا- بعد حال. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ قَالَ: يسرون.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٩٨

## سورة البروج

### إشارة

هى اثنتان و عشرون آية، و هى مكية بلا خلاف، و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ بمكة. و أخرج أحمد قال: حدّثنا عبد الصمد، حدّثنا رزيق بن أبى سلمى، حدّثنا أبو المهزّم، عن أبى هريرة: أن رسول الله صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ كان يقرأ فى العشاء الآخرة بالسّماء ذات البروج، و السماء و الطارق. و أخرج الطيالسى، و ابن أبى شيبه فى المصنف، و أحمد و الدارمى و أبو داود، و الترمذى و حسنه، و النسائى و ابن حبان و الطبرانى، و البيهقى فى سننه، عن جابر بن سمرة: أن النبى صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ كان يقرأ فى الظهر و العصر بالسّماء و الطارق، و السماء ذات البروج.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة البروج (٨٥): الآيات ١ الى ٢٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤)  
النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَ هُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ  
الْحَمِيدِ (٨) الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)  
إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ (١٣) وَ هُوَ الْعَفُورُ  
الْوَدُودُ (١٤)

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنٌ وَ ثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ (١٩)

وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)

قوله: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ قد تقدّم الكلام في البروج عند تفسير قوله: جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا «١» قال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك: هي النجوم، والمعنى: والسماء ذات النجوم. وقال عكرمة ومجاهد أيضا: هي قصور في السماء. وقال المنهال بن عمرو: ذات الخلق الحسن. وقال أبو عبيدة ويحيى بن سلام وغيرهما: هي المنازل للكواكب، وهي اثنا عشر برجا لاثني عشر كوكبا، وهي الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدى، والدلو، والحوت. والبروج في كلام العرب: القصور: ومنه قوله: وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ «٢» شبهت منازل هذه النجوم بالقصور لكونها تنزل فيها، وقيل: هي أبواب السماء، وقيل: هي منازل القمر، وأصل

(١). الفرقان: ٦١.

(٢). النساء: ٧٨.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٤٩٩

البرج: الظهور، سميت بذلك لظهورها وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ أَي: الموعود به، وهو يوم القيامة. قال الواحدي: في قول جميع المفسرين وَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ المراد بالشاهد من يشهد في ذلك اليوم من الخلائق، أَي: يحضر فيه، والمراد بالمشهود ما يشهد في ذلك اليوم من العجائب وذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الشاهد يوم الجمعة، وأنه يشهد على كل عامل بما عمل فيه، و المشهود: يوم عرفة؛ لأنه يشهد الناس فيه موسم الحج، وتحضره الملائكة. قال الواحدي: وهذا قول الأكثر. وحكى القشيري عن ابن عمر وابن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى. وقال سعيد بن المسيب: الشاهد: يوم التروية، و المشهود: يوم عرفة.

وقال النخعي: الشاهد: يوم عرفة، و المشهود: يوم النحر، وقيل: الشاهد: هو الله سبحانه. و به قال الحسن وسعيد بن جبير، لقوله: وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا\* وقوله: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ «١» وقيل: الشاهد: محمد صلى الله عليه وسلم لقوله: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا «٢» وقوله: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا «٣» وقوله: وَ يَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا «٤» وقيل: الشاهد: جميع الأنبياء لقوله: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ «٥» وقيل: هو عيسى ابن مريم لقوله: وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ «٦» و المشهود على هذه الأقوال الثلاثة إما: أمه محمد، أو: أمم الأنبياء، أو: أمه عيسى. وقيل: الشاهد آدم. و المشهود ذريته.

وقال محمد بن كعب: الشاهد: الإنسان لقوله: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا «٧» وقال مقاتل:

أَعْضَاؤُهُ لِقَوْلِهِ: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٨» وقال الحسين بن الفضل: الشاهد: هذه الأمة، و المشهود: سائر الأمم لقوله: وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ «٩» وقيل: الشاهد: الحفظة، و المشهود: بنو آدم، وقيل: الأيام والليالي. وقيل: الشاهد:

الخلق يشهدون لله عز وجل بالوحدانية، و المشهود له بالوحدانية: هو الله سبحانه، و سيأتى بيان ما ورد في تفسير الشاهد و المشهود، و بيان ما هو الحق إن شاء الله قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخُدُودِ هَذَا جَوَابَ الْقَسَمِ، و اللام فيه مضمرة، و هو الظاهر، و به قال الفراء وغيره، وقيل تقديره: لقد قتل، فحذفت اللام و قد، و على هذا تكون الجملة خبرية، و الظاهر أنها دعائية؛ لأن معنى قتل لعن. قال الواحدي: في قول الجميع، و الدعائية لا تكون جوابا للقسم، فقيل: الجواب قوله: إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ قَتَلُوا: قوله:



إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ و به قال المبرد، و اعترض عليه بطول الفصل، و قيل: هو مقدر يدلّ عليه قوله: قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ كَأَنَّهُ قَالَ: أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود، و قيل: تقدير الجواب: لتبعثن، و اختاره ابن الأنباري. و قال أبو حاتم السجستاني و ابن الأنباري أيضا: فى الكلام تقديم و تأخير، أى: قتل أصحاب الأخدود و السماء ذات البروج، و اعترض عليه بأنه لا يجوز أن

(١). الأنعام: ١٩.

(٢). النساء: ٤١.

(٣). الأحزاب: ٤٥.

(٤). البقرة: ١٤٣.

(٥). النساء: ٤١.

(٦). المائدة: ١١٧.

(٧). الإسراء: ١٤.

(٨). النور: ٢٤.

(٩). البقرة: ١٤٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٠٠

فتح القدير ج ٥ ٥٤٩

يقال: و الله قام زيد، و الأخدود: الشقّ العظيم المستطيل فى الأرض كالخندق، و جمعه أخايد، و منه الخدّ لمجارى الدموع، و المخدّة لأن الخد يوضع عليها، و يقال: تخدّد وجه الرجل؛ إذا صارت فيه أخايد من خراج، و منه قول طرفه:

و وجه كأنّ الشمس ألقّت رداءها عليه نقى اللون لم يتخدّد

و سيأتى بيان حديث أصحاب الأخدود إن شاء الله. قرأ الجمهور: النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ بجر النار على أنها بدل اشتمال من الأخدود؛ لأن الأخدود مشتمل عليها، و ذات الوقود وصف لها بأنها نار عظيمة، و الوقود: الحطب الذى توقد به، و قيل: هو بدل كل من كل، لا بدل اشتمال. و قيل: إن النار مخفوضة على الجوار، كذا حكى مكى عن الكوفيين. و قرأ الجمهور بفتح الواو من الوقود، و قرأ قتادة و أبو رجاء و نصر ابن عاصم بضمها. و قرأ أشهب العقيلي و أبو حيوة و أبو السيمال العدوى و ابن السميع و عيسى برفع النار على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى: هى النار، أو على أنها فاعل فعل محذوف، أى: أحرقتهم النار إذ هم عليها قعود العامل فى الظرف «قتل» أى: لعنوا حين أهدقوا بالنار قاعدين على ما يدنو منها، و يقرب إليها.

قال مقاتل: يعنى عند النار قعود يعرضونهم على الكفر. و قال مجاهد: كانوا قعودا على الكراسى عند الأخدود و هم على ما يفعلون بالمؤمنين شهوداً أى: الذين خدّوا الأخدود، و هم الملك و أصحابه، على ما يفعلون بالمؤمنين من عرضهم على النار ليرجعوا إلى دينهم شهود، أى: حضور، أو يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به. و قيل: يشهدون بما فعلوا يوم القيامة، ثم تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم.

و قيل: على بمعنى مع، و التقدير: و هم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود. قال الزجاج: أعلم الله قصة قوم بلغت بصيرتهم و حقيقة إيمانهم إلى أن صبروا على أن يحرقوا بالنار فى الله و ما نَقَمُوا مِنْهُمْ أى: ما أنكروا عليهم و لا عابوا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد أى: إلا أن صدّقوا بالله الغالب المحمود فى كل حال.

قال الزجاج: ما أنكروا عليهم ذنبا إلا إيمانهم، وهذا كقوله: هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ «١» و هذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم، كما فى قوله:

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم  
وقول الآخر:

ولا عيب فيها غير شكله عينها كذاك عتاق الطير شكل عيونها

قرأ الجمهور: نَقَمُوا بفتح النون، وقرأ أبو حيوه بكسرهما، والفصيح الفتح. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على العظم والفخامة فقال: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنَهُ، فهو حقيق بأن يؤمن به ويوحده وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ من فعلهم بالمؤمنين لا يخفى عليه منهم خافية،

(١). المائدة: ٥٩.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٠١

وفى هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود، و وعد خير لمن عذبه على دينه من أولئك المؤمنين. ثم بين سبحانه ما أعد لأولئك الذين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من التحريق فقال: إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ أى: حرقهم بالنار، والعرب تقول: فتنت الشيء، أى:

أحرقته، و فتنت الدرهم والدينار؛ إذا أدخلته النار لتنظر جودته. ويقال: دينار مفتون، و يسمى الصائغ:

الفتان، و منه قوله: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ «١» أى: يحرقون، وقيل: معنى فتنتوا المؤمنين: محنهم فى دينهم ليرجعوا عنه، ثم لم يتوبوا من قبيح صنعهم و يرجعوا عن كفرهم و فتنتهم، فلهم عذاب جهنم، أى:

لهم فى الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم، و الجملة فى محل رفع على أنها خبر إن؛ أو الخبر: لهم، و عذاب جهنم مرتفع به على الفاعلية، و الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، و لا يضر نسخه بأن، خلافا للأخفش، وَ لَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ أى: و لهم عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم، و هو عذاب الحريق الذى وقع منهم للمؤمنين، وقيل: إن الحريق اسم من أسماء النار ك السعير، وقيل: إنهم يعذبون فى جهنم بالزمهرير ثم يعذبون بعذاب الحريق؛ فالأول: عذاب بيردها، و الثانى: عذاب بحرّها. و قال الربيع بن أنس: إن عذاب الحريق أصيبوا به فى الدنيا، و ذلك أن النار ارتفعت من الأخدود إلى الملك و أصحابه فأحرقتهم، و به قال الكلبي.

ثم ذكر سبحانه ما أعد للمؤمنين الذين أحرقوا بالنار فقال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ ظَاهَرَ الآيَةُ العموم، فيدخل فى ذلك المحرقون فى الأخدود بسبب إيمانهم دخولا- أوليا، و المعنى: أن الجامعين بين الإيمان و عمل الصالحات لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أى: لهم بسبب الإيمان و العمل الصالح جنات متصفة بهذه الصفة. و قد تقدم كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات فى غير موضع، و أوضحنا أنه إن أريد بالجنات الأشجار فجرى الأنهار من تحتها واضح، و إن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر و هو الشجر لأنها ساترة لساحتها، و الإشارة بقوله: ذَلِكَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ مِمَّا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ، أى: ذلك المذكور الْفَوْزُ الْكَبِيرُ الَّذِي لا يعدله فوز و لا يقاربه و لا يدانيه، و الفوز: الظفر بالمطلوب، و جملة إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ مستأنفة لخطاب النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ مبينة لما عند الله سبحانه من الجزاء لمن عصاه، و المغفرة لمن أطاعه، أى: أخذه للجبايرة و الظلمة شديد، و البطش: الأخذ بعنف، و وصفه بالشدة يدل على أنه قد تضاعف و تفاقم، و مثل هذه قوله: إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ «٢» إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَ يُعِيدُ أى: يخلق الخلق أولا فى الدنيا و يعيدهم أحياء بعد الموت. كذا قال الجمهور، و قيل: يبدي للكفار عذاب الحريق فى الدنيا ثم يعيده لهم فى الآخرة، و اختار هذا ابن جرير، و الأول أولى وَ هُوَ الْعَفْوُ الْوَدُودُ

أى: بالغ المغفرة لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها، بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه. قال مجاهد: الواد لأوليائه، فهو فعول بمعنى فاعل. وقال ابن زيد: معنى الودود الرحيم. وحكى المبرد عن إسماعيل القاضي أن الودود هو الذى لا ولد له، وأنشد:

(١). الذاريات: ١٣.

(٢). هود: ١٠٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٠٢ وأركب فى الرّوع عريانه ذلول الجناح لقاحا ودودا  
أى: لا ولد لها تحنّ إليه. وقيل: الودود بمعنى المودود، أى: يؤدّه عباده الصالحون و يحبونه، كذا قال الأزهري. قال: ويجوز أن يكون فعول بمعنى فاعل، أى: يكون محبا لهم. قال: وكلتا الصفتين مدح، لأنه جلّ ذكره إن أحبّ عباده المطيعين فهو فضل منه، وإن أحبه عباده العارفون فلما تقرّر عندهم من كريم إحسانه. قرأ الجمهور ذُو العَرْشِ المَجِيدُ برفع المجيد على أنه نعت لذو، واختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم قالوا: لأنّ المجد هو النهاية فى الكرم والفضل، والله سبحانه هو المنعوت بذلك. وقرأ الكوفيون إلا عاصما بالجر على أنه نعت للعرش. وقد وصف سبحانه عرشه بالكرم كما فى آخر سورة المؤمنون. وقيل: هو نعت لربك، ولا يضّرّ الفصل بينهما لأنها صفات لله سبحانه. وقال مكى: هو خير بعد خير، والأوّل أولى. ومعنى ذو العرش: ذو الملك و السلطان كما يقال: فلان على سرير ملكه، ومنه قول الشاعر:

رأوا عرشى تتلمّ جانباه فلما أن تتلمّ أفردونى

وقول الآخر:

إن يقتلوك فقد ثلثت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب

وقيل: المراد خالق العرش فعّال لما يُريدُ أى: من الإبداء و الإعادة. قال عطاء: لا يعجز عن شىء يريد و لا يمتنع منه شىء طلبه، و ارتفاع «فعال» على أنه خير مبتدأ محذوف. قال الفراء: هو رفع على التكرير و الاستئناف، لأنه نكرة محضة، قال ابن جرير: رفع «فعال»، و هو نكرة محضة على وجه الإتيان لإعراب الغفور الودود، و إنما قال: فعال لأن ما يريد و يفعل فى غاية الكثرة. ثم ذكر سبحانه خبر الجموع الكافرة فقال: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ و الجملة مستأنفة مقرّرة لما تقدّم بطشه سبحانه و كونه فعلا لما يريد، و فيه تسليّة لرسول الله صلى الله عليه و سلّم، أى: هل أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم المتجندة عليها.

ثم بينهم فقال: فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ و هو بدل من الجنود، و المراد بفرعون هو و قومه، و المراد بتمود القوم المعروفون، و المراد بحدِيثهم ما وقع منهم من الكفر و العناد و ما وقع عليهم من العذاب، و قصتهم مشهورة قد تكرر فى الكتاب العزيز ذكرها فى غير موضع، و اقتصر على الطائفتين لاشتغال أمرهما عند أهل الكتاب و عند مشركى العرب و دلّ بهما على أمثالهما. ثم أضرب عن مماثلة هؤلاء الكفار الموجودين فى عصره صلى الله عليه و سلّم لمن تقدّم ذكره، و بين أنهم أشدّ منهم فى الكفر و التكذيب فقال: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ أى بل هؤلاء المشركون من العرب فى تكذيب شديد لك، و لما جئت به، و لم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار و الله من ورائهم مُحِيطٌ أى: يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك، و الإحاطة بالشىء: الحصر له من جميع جوانبه، فهو تمثيل لعدم نجاتهم بعدم فوت المحاط به على المحيط. ثم ردّ سبحانه تكذيبهم بالقرآن فقال بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ أى: متناه فى الشرف و الكرم و البركة لكونه بيانا لما شرعه الله لعباده من أحكام الدين و الدنيا، و ليس هو كما يقولون إنه شعر و كهانة و سحر فى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ أى: مكتوب فى لوح، و هو أم الكتاب

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٠٣

محفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه. قرأ الجمهور محفوظ بالجرّ على أنه نعت للوح وقرأ نافع برفعه على أنه نعت للقرآن، أى: بل هو قرآن مجيد محفوظ فى لوح. واتفق القراء على فتح اللام من لوح إلا- يحيى بن يعمر و ابن السّميّع فإنهما قرءا بضمها. قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش. قيل: والمراد باللوح بضم اللام: الهواء العذى فوق السماء السابعة. قال أبو الفضل: اللوح بضم اللام: الهواء، وكذا قال ابن خالويه. قال فى الصحاح: اللوح بالضم: الهواء بين السماء والأرض.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: البُرُوج قصور فى السماء. وأخرج ابن مردويه عن جابر ابن عبد الله أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم سئل عن السّماء ذات البُرُوج فقال: الكواكب، وسئل عن قوله: الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا «١» قال: الكواكب، و عن قوله: فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ «٢» قال: القصور.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ - وَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ قال: اليوم الموعود: يوم القيامة، والشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة، وهو الحج الأكبر، فيوم الجمعة جعله الله عيداً لمحمد وأمته، وفضّله بها على الخلق أجمعين، وهو سيد الأيام عند الله، وأحبّ الأعمال فيه إلى الله، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلى يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه. وأخرج عبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى سننه، عن أبى هريرة. قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

«اليوم الموعود يوم القيامة، واليوم المشهود يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا- استجاب الله له، ولا يستعيد من شىء إلا- أعاده منه». وأخرج الحاكم و صححه، وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة رفعه: وَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ قال: «الشاهد يوم عرفة و يوم الجمعة، والمشهود هو الموعود يوم القيامة». وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر عن على بن أبى طالب قال: اليوم الموعود: يوم القيامة، والمشهود: يوم النحر، والشاهد: يوم الجمعة. وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه من طريق شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعري قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «اليوم الموعود: يوم القيامة، والشاهد: يوم الجمعة، والمشهود:

يوم عرفة». وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى الآية: «الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة». وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس وأبى هريرة مثله موقوفاً. وأخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إن سيد الأيام يوم الجمعة وهو الشاهد، والمشهود: يوم عرفة» وهذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب. وأخرج ابن ماجه والطبرانى وابن جرير عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

«أكثرنا من الصلاة على يوم الجمعة؛ فإنه يوم مشهود تشهد الملائكة». وأخرج عبد الرزاق والفريابى و عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن على بن أبى طالب فى الآية قال: الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود:

(١). الفرقان: ٦١.

(٢). النساء: ٧٨.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٠٤

يوم عرفة. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن الحسن بن على أن رجلاً سأله عن قوله: وَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ قال: هل سألت أحدا قبلى؟ قال: نعم سألت ابن عمرو وابن الزبير فقالا: يوم الذبح و يوم الجمعة. قال:

لا، ولكن الشاهد محمد صلّى الله عليه وسلّم، ثم قرأ: وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا «١» والمشهود: يوم القيامة، ثم قرأ: ذَلِكَ

يَوْمَ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ «٢». و أخرج عبد بن حميد، و الطبراني فى الأوسط و الصغير، و ابن مردويه عن الحسين بن على فى الآيه قال: الشاهد: جدى رسول الله صلى الله عليه و سلم، و المشهود:

يوم القيامة، ثم تلا: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا\* «٣» وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ «٤». و أخرج عبد بن حميد و النسائي و ابن أبى الدنيا و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و ابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال:

اليوم الموعود: يوم القيامة، و الشاهد: محمد صلى الله عليه و سلم، و المشهود: يوم القيامة، ثم تلا: ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ. و أخرج ابن جرير عنه قال: الشاهد: الله، و المشهود: يوم القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الشاهد: الله. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال:

الشاهد: الله، و المشهود: يوم القيامة.

قلت: و هذه التفاسير عن الصحابة رضى الله عنهم قد اختلفت كما ترى، و كذلك اختلفت تفاسير التابعين بعدهم، و استدل من استدل منهم بآيات ذكر الله فيها أن ذلك الشىء شاهد أو مشهود، فجعله دليلا على أنه المراد بالشاهد و المشهود فى هذه الآيه المطلقة، و ليس ذلك بدليل يستدل به على أن الشاهد و المشهود المذكورين فى هذا المقام هو ذلك الشاهد و المشهود الذى ذكر فى آيه أخرى، و إلا لزم أن يكون قوله هنا:

وَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ هو جميع ما أطلق عليه فى الكتاب العزيز أو السنه المطهره أنه يشهد أو أنه مشهود، و ليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض، و لم يقل قائل بذلك. فإن قلت: هل فى المرفوع الذى ذكرته من حديثى أبى هريره، و حديث أبى مالك، و حديث جبير بن مطعم و مرسل سعيد بن المسيب ما يعين هذا اليوم الموعود، و الشاهد و المشهود؟ قلت: أما اليوم الموعود فلم تختلف هذه الروايات التى ذكر فيها، بل اتفقت على أنه يوم القيامة، و أما الشاهد ففى حديث أبى هريره الأول أنه يوم الجمعة، و فى حديثه الثانى أنه يوم عرفه و يوم الجمعة، و فى حديث أبى مالك أنه يوم الجمعة، و فى حديث جبير أنه يوم الجمعة، و فى مرسل سعيد أنه يوم الجمعة، فاتفقت هذه الأحاديث عليه، و لا تضر زياده يوم عرفه فى حديث أبى هريره الثانى؛ و أما المشهود ففى حديث أبى هريره الأول أنه يوم عرفه، و فى حديثه الثانى أنه يوم القيامة، و فى حديث أبى مالك أنه يوم عرفه، و فى حديث جبير بن مطعم أنه يوم عرفه، و كذا فى حديث سعيد فقد تعين فى هذه الروايات أنه يوم عرفه، و هى أرجح من تلك الروايه التى صرح فيها بأنه يوم القيامة، فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابه و التابعين و بعدهم أن الشاهد يوم الجمعة و المشهود يوم عرفه، و أما اليوم الموعود فقد قَدَمْنَا أنه وقع الإجماع على أنه يوم القيامة.

(١). النساء: ٤١.

(٢). هود: ١٠٣.

(٣). الأحزاب: ٤٥.

(٤). هود: ١٠٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٥٥

و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبه و أحمد و عبد بن حميد و مسلم و الترمذى و النسائي و الطبراني عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم، و كان لذلك الملك كاهن يكهن له فقال له ذلك الكاهن: انظروا لى غلاما فهما، أو قال فطنا لقنا فأعلمه علمى، فإنى أخاف أن أموت فيقطع منكم هذا العلم و لا يكون فيكم من يعلمه، قال: فظنوا له على ما وصف، فأمره أن يحضر ذلك الكاهن و أن يختلف إليه، فجعل الغلام يختلف إليه، و كان على

طريق الغلام راهب في صومعه، فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مرّ به، فلم يزل به حتى أخبره فقال: إنما أعبد الله، فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب و يبطئ على الكاهن، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرني، فأخبر الغلام الراهب بذلك، فقال له الراهب: إذا قال لك أين كنت؟ فقل عند أهلي، وإذا قال لك أهلك أين كنت؟ فأخبرهم أنني كنت عند الكاهن، فبينما الغلام على ذلك إذ مرّ بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة، يقال: إنها كانت أسدا، فأخذ الغلام حجرا فقال: اللهم إن كان ما يقول ذلك الراهب حقا فأسألك أن أقتلها، ثم رمى فقتل الدابة، فقال الناس: من قتلها؟ فقالوا: الغلام، ففزع الناس وقالوا: قد علم هذا الغلام علما لم يعلمه أحد، فسمع أعمى فجاءه فقال له: إن أنت رددت على بصري فلك كذا وكذا، فقال الغلام: لا أريد منك هذا، ولكن أريت إن رجعت عليك بصرك أتؤمن بالذي رده عليك؟ قال: نعم، فدعا الله فردّ عليه بصره فأمن الأعمى، فبلغ الملك أمرهم فبعث إليه فأتى بهم فقال: لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه، فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله، و قتل الآخر بقتله أخرى، ثم أمر بالغلام فقال: انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فألقوه من رأسه، فانطلقوا به إلى ذلك الجبل، فلما انتهوا إلى ذلك المكان الذي أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافون من ذلك الجبل و يترددون حتى لم يبق منهم إلا الغلام، ثم رجعت الغلام فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقوه فيه، فانطلقوا به إلى البحر، فغرق الله الذين كانوا معه و أنجاه، فقال الغلام للملك: إنك لن تقتلني حتى تصلبني و ترميني و تقول إذا رميتني: بسم الله رب الغلام، فأمر به فصلب ثم رماه و قال: بسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ثم مات، فقال الناس: لقد علم هذا الغلام علما ما علمه أحد، فإننا نؤمن برّب هذا الغلام، فليل للملك: أجزعت أن خالفك ثلاثة؟ فهذا العالم كلهم قد خالفوك، قال: فخذ أخذودا ثم ألقى فيه الحطب و النار، ثم جمع الناس فقال: من رجعت عن دينه تركناه، و من لم يرجع ألقيناه في هذه النار، فجعل يلقيناهم في تلك الأخدود: فقال: يقول الله: قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ - النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ حَتَّىٰ بَلَغَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ.

فأما الغلام فإنه دفن، ثم أخرج، فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب و إصبغه على صدغه كما وضعها حين قتل. و لهذه القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف. و قد رواها مسلم في أواخر الصحيح عن هديبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب. و أخرجها أحمد من طريق عفان عن

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٠٦

حماد به. و أخرجها النسائي عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به. و أخرجها الترمذي عن محمود بن غيلان و عبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله: أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ قال: هم الحبشة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: هم ناس من بني إسرائيل خدّوا أخذودا في الأرض أوقدوا فيها نارا، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالا و نساء، فعرضوا عليها. و أخرج ابن المنذر و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال: وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ إِلَى قَوْلِهِ: وَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ قال: هذا قسم على إِنْ بَطَشَ رَبُّكَ لَشَدِيدٍ إِلَى آخِرِهَا. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ قال: يبدي العذاب و يعيده. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقي في الأسماء و الصفات، عن ابن عباس في قوله: الْوُدُودُ قال: الحبيب، و في قوله: ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ قال: الكريم. و أخرج ابن المنذر عنه في قوله: فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ قال: أخبرت أنه لوح الذكر لوح واحد فيه الذكر. و إن ذلك اللوح من نور، و إنه مسيرة ثلاثمائة سنة. و أخرج ابن جرير عن أنس قال: إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله في قوله:

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ - فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ فِي جِبْهَةِ إِسْرَافِيلَ. و أخرج أبو الشيخ - قال السيوطي: بسند جيد - عن ابن عباس قال: خلق

اللّه اللوح المحفوظ كمسيرة مائه عام، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق:  
اكتب علمى فى خلقى، فجرى ما هو كائن إلى يوم القيامة. ٥١.  
فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٠٧

## سورة الطارق

### إشارة

هى سبع عشرة آية، و هى مكية بلا خلاف، و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت و السماء و الطارق بمكة، و أخرج أحمد، و البخارى فى تاريخه، و الطبرانى و ابن مردويه عن خالد العدوانى: «أنه أبصر رسول الله صلى الله عليه و سلم فى سوق ثقيف و هو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم بيتغى النصر عندهم، فسمعه يقرأ: وَ السَّمَاءِ وَ الطَّارِقِ حتى ختمها، قال: فوعيتها فى الجاهلية، ثم قرأتها فى الإسلام، قال: فدعنتى ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل، فقرأتها، فقال من معهم من قريش:

نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقًا لاتبعناه».

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

### [سورة الطارق (٨٦): الآيات ١ الى ١٧]

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وَ السَّمَاءِ وَ الطَّارِقِ (١) وَ مَا أَذْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمِ الثَّاقِبِ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)  
فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩)

فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لَا نَاصِرٍ (١٠) وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَ الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ (١٣) وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤)  
إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَ أَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا (١٧)

أقسم سبحانه بالسماء و الطارق، و هو النجم الثاقب كما صرح به التنزيل قال الواحدى: قال المفسرون:

أقسم الله بالسماء و الطارق، يعنى الكواكب تطرق بالليل و تخفى بالنهار. قال الفراء: الطارق: النجم لأنه يطلع بالليل، و ما أتاك ليلا فهو طارق. و كذا قال الزجاج و المبرد: و منه قول امرئ القيس:

و مثلك حبلى قد طرقت و مرضعاً فلهيتها عن ذى توائم محول «١»

و قوله أيضاً:

ألم تريانى كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً و إن لم تطيب

و قد اختلف فى الطارق هل هو نجم معين أو جنس النجم؟ فقيل: هو زحل، و قيل: الثريا، و قيل:

هو الذى ترمى به الشياطين. و قيل: هو جنس النجم. قال فى الصحاح: و الطارق: النجم الذى يقال له كوكب الصبح، و منه قول هند بنت عتبة:

نحن بنات طارق نمشى على النمارق

(١). «التمايم»: التعاويد التي تعلق في عنق الصبي. و ذو التمايم: هو الصبي. «المحول»: الذي أتى عليه الحول.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٠٨

أى: إن أبانا في الشرف كالنجم المضىء، و أصل الطروق: الدق، فسّمى قاصد الليل طارقا لاحتياجه في الوصول إلى الدق. و قال قوم: إن الطروق قد يكون نهارا، و العرب تقول: أتيتك اليوم طرقتين، أى:

مرتين، و منه قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «أعوذ بك من شرّ طوارق الليل و النهار إلا طارقا يطرق بخير». ثم بيّن سبحانه ما هو الطارق، تفخيما لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به فقال: وَ مَا أَذْرَاكَ مَا الطَّارِقُ - النَّجْمُ الثَّاقِبُ الثَّاقِبُ: المضىء، و منه يقال: ثقب النجم ثقبوا و ثقباه؛ إذا أضاء، و ثقبه: ضوءه، و منه قول الشاعر:

أذاع به في الناس حتى كأنه بعلياء نار أوقدت بثقوب

قال الواحدى: الطارق يقع على كل ما طرق ليلا، و لم يكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يدرى ما المراد به لو لم يبينه بقوله: النَّجْمُ الثَّاقِبُ قال مجاهد: الثاقب: المتوهج. قال سفيان: كل ما فى القرآن وَ ما أَذْرَاكَ\* فقد أخبره [به «١»]، و كل شىء قال: وَ مَا يُدْرِيكَ\* لم يخبره به، و ارتفاع قوله: النَّجْمُ الثَّاقِبُ على أنه خبر مبتدأ محذوف، و الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر نشأ مما قبله، كأنه قيل: ما هو؟ فقيل: هو النجم الثاقب إن كُلتُ نفسٍ لَمَّا عَلَيَّهَا حَافِظٌ هذا جواب القسم، و ما بينهما اعتراض، و قد تقدّم فى سورة هود اختلاف الفراء فى لَمَّا فمّن قرأ بتخفيفها كانت إن هنا هى المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدر، و هو اسمها، و اللام هى الفارقة، و «ما» مزيدة، أى: إن الشأن كل نفس لعلها حافظ، و من قرأ بالتشديد فإن نافية، و لما بمعنى إلا، أى: ما كل نفس إلا عليها حافظ، و قد قرأ هنا بالتشديد ابن عامر و عاصم و حمزة. و قرأ الباقون بالتخفيف. قيل: و الحافظ: هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها و قولها و فعلها، و يحصون ما تكسب من خير و شرّ، و قيل: الحافظ هو الله عزّ و جلّ، و قيل: هو العقل يرشدهم إلى المصالح، و يكفهم عن المفسد. و الأوّل أولى لقوله: وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ «٢» و قوله: وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً «٣» و قوله: لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ «٤» و الحافظ على الحقيقة هو الله عزّ و جلّ كما فى قوله: فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا «٥» و حفظ الملائكة من حفظه لأنهم بأمره فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ الفاء للدلالة على أن كون على كل نفس حافظ يوجب على الإنسان أن يتفكر فى مبتدأ خلقه؛ ليعلم قدرة الله على ما هو دون ذلك من البعث. قال مقاتل: يعنى المكذب بالبعث مِمَّ خُلِقَ من أى شىء خلقه الله، و المعنى: فلينظر نظر التفكير و الاستدلال حتى يعرف أن الذى ابتدأه من نطفة قادر على إعادته.

ثم بين سبحانه ذلك فقال: خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ و الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، و الماء: هو المنى، و الدفق: الصبّ، يقال: دفقت الماء، أى: صببته، يقال: ماء دافق، أى: مدفوق، مثل: عَيْشَةٌ رَاضِيَةٌ\* «٦» أى: مرضية. قال الفراء و الأخفش: ماء دافق. أى مصبوب فى الرحم. قال الفراء: و أهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول فى كثير من كلامهم، كقولهم: سرّ كاتم، أى: مكنوم، و هم ناصب،

(١). من تفسير القرطبي (٣/٢٠)

(٢). الانفطار: ١٠.

(٣). الأنعام: ٦١.

(٤). الرعد: ١١.



(٥). يوسف: ٦٤.

(٦). القارعة: ٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٠٩

أى: منصوب، و ليل نائم و نحو ذلك. قال الزجاج: من ماء ذى اندفاق، يقال: دارع و قايس و نابل، أى: ذو درع و قوس و نبل، و أراد سبحانه ماء الرجل و المرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لكن جعلهما ماء واحدا لامتزاجهما، ثم وصف هذا الماء فقال: **يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ** أى: صلب الرجل، و ترائب المرأة، و الترائب: جمع تريبة، و هى موضع القلادة من الصدر، و الولد لا يكون إلا من المائين. قرأ الجمهور:

**يَخْرُجُ** مبنيا للفاعل. و قرأ ابن أبى عبلة و ابن مقسم مبنيا للمفعول. و فى الصلب، و هو الظهر، لغات.

قرأ الجمهور بضم الصاد و سكون اللام، و قرأ أهل مكة بضم الصاد و اللام. و قرأ اليماني بفتحهما، و يقال:

صالب على وزن قالب. و منه قول العباس بن عبد المطلب:

تنقل من صالِبِ إلى رحم «١» فى آياته المشهورة فى مدح النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ. و قد تقدّم كلام فى هذا عند تفسير قوله:

**الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ** «٢» و قيل: الترائب: ما بين الثديين. و قال الضحاك: ترائب المرأة: اليدين و الرجلين و العينين.

و قال سعيد بن جبير: هى الجيد. و قال مجاهد: هى ما بين المنكبين و الصدر. و روى عنه أيضا أنه قال:

هى الصدر، و روى عنه أيضا أنه قال: هى التراقي. و حكى الزجاج: أن الترائب عصاره القلب، و منه يكون الولد، و المشهور فى

اللغة أنها عظام الصّدر و النّحر، و منه قول دريد بن الصّمة:

**فإن تدبروا نأخذكم فى ظهوركم و إن تقبلوا نأخذكم فى الترائب**

قال عكرمة: الترائب: الصدر، و أنشد:

نظام درّ على ترائبها قال فى الصّيحاح: التريبة: واحدة الترائب، و هى عظام الصدر. قال أبو عبيدة: جمع التريبة تريب، و منه قول

المثقّب العبدى:

و من ذهب يلوح على تريب كلون العاج ليس بذى غضون

و قول امرئ القيس:

ترائبها مصقولة كالسّجنجل «٣» و محكى الزجاج: أن الترائب أربع أضلاع من يمينه الصدر، و أربع أضلاع من يسره الصدر. قال

قتادة و الحسن: المعنى و يخرج من صلب الرجل و ترائب المرأة. و حكى الفراء أن مثل هذا يأتى عن العرب يكون

---

(١). و تمام البيت: إذا مضى عالم بدا طبق.

(٢). النساء: ٢٣.

(٣). و صدر البيت: مهفهفة بيضاء غير مفاضة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥١٠

معنى من بين الصلب، و من الصلب، و قيل: إن ماء الرجل ينزل من الدماغ، و لا يخالف هذا ما فى الآية لأنه إذا نزل من الدماغ نزل من بين الصلب و الترائب، و قيل: إن المعنى: يخرج من جميع أجزاء البدن، و لا يخالف هذا ما فى الآية، لأن نسبة خروجه إلى بين الصلب و الترائب باعتبار أن أكثر أجزاء البدن هى الصلب و الترائب و ما يجاورها و ما فوقها مما يكون تنزله منها إنّه على رَجْعِهِ لِقَادِرِ الضمير فى إنه يرجع إلى الله سبحانه لدلالة قوله: **خُلِقَ عَلَيْهِ**، فإن الذى خلقه هو الله سبحانه، و الضمير فى رجعه

عائد إلى الإنسان، و المعنى: أن الله سبحانه قادر على رجوع الإنسان، أى: إعادته بالبعث بعد الموت لقادر هكذا قال جماعة من المفسرين. و قال مجاهد: على أن يردّ الماء في الإحليل. و قال عكرمة و الضحاك: على أن يردّ الماء في الصلب.

و قال مقاتل بن حيان يقول: إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، و من الشباب إلى الصبا، و من الصبا إلى النطفة. و قال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر، و الأوّل أظهر، و رجحه ابن جرير و الثعلبي و القرطبي يوم تُبلى السرائر العامل في الظرف على التفسير الأوّل، هو «رجعه»، و قيل:

«لقادر». و اعترض عليه بأنه يلزم تخصيص القدرة بهذا اليوم، و قيل: العامل فيه مقدر، أى: يرجعه يوم تبلى السرائر، و قيل: العامل فيه مقدر، و هو اذكر، فيكون مفعولاً- به؛ و أما على قول من قال: إن المراد رجح الماء، فالعامل في الظرف مقدر، و هو اذكر، و معنى تبلى السرائر: تختبر و تعرف، و منه قول الراجز:

قد كنت قبل اليوم تزدريني فاليوم أبلوك و تبليني

أى: أختبرك و تختبرني، و أمتحنك و تمتحنني، و السرائر: ما يسر في القلوب من العقائد و النيات و غيرها، و المراد هنا عرض الأعمال و نشر الصحف، فعند ذلك يتميز الحسن منها من القبيح، و الغث من السمين فما له من قوّة و لا ناصرٍ أى: فما للإنسان من قوّة في نفسه يمتنع بها عن عذاب الله، و لا ناصر ينصره ممّا نزل به. قال عكرمة: هؤلاء الملوك ما لهم يوم القيامة من قوّة و لا ناصر. قال سفيان: القوّة: العشيّة، و الناصر: الحليف، و الأوّل أولى و السّماء ذات الرّجح المطر. قال الزجاج: الرجح: المطر؛ لأنه يجيء و يرجع و يتكرر. قال الخليل: الرجح: المطر نفسه، و الرجح: نبات الربيع. قال أهل اللغة:

الرجح: المطر. قال المتنخل يصف سيفاً له:

أبيض كالرّجح رسوب إذا ما ثاخ في محتفل يختلى (١)

قال الواحدي: الرجح: المطر في قول جميع المفسرين، و في هذا الذي حكاه عن جميع المفسرين نظر، فإن ابن زيد قال: الرجح الشمس و القمر و النجوم يرجعون في السماء من ناحية و تغيب في أخرى. و قال بعض المفسرين: ذات الرجح ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد. و قال بعضهم: معنى «ذات الرجح»:

ذات النفع، و وجه تسمية المطر رجعا ما قاله القفال إنه مأخوذ من ترجيع الصوت و هو إعادته، و كذا المطر لكونه يعود مرّة بعد أخرى سمي رجعا. و قيل: إن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار

(١). «ثاخ» خاض. «المحتفل»: أعظم موضع في الجسد. «يختلى»: يقطع.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥١١

الأرض، ثم يرجعه إلى الأرض، و قيل: سمّته العرب رجعا لأجل التفاؤل ليرجع عليهم، و قيل: لأن الله يرجعه وقتا بعد وقت و الأرض ذات الصّدع هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات و الثمار و الشجر، و الصّدع: الشق؛ لأنه يصدع الأرض فتصدع له. قال أبو عبيدة و الفراء: تتصدّع بالنبات. قال مجاهد:

و الأرض ذات الطّرق التي تصدعها المياه، و قيل: ذات الحرث لأنه يصدعها، و قيل: ذات الأموات لانصداعها عنهم عند البعث. و الحاصل أن الصّدع إن كان اسماً للنبات فكأنه قال: و الأرض ذات النبات؛ و إن كان المراد به الشق فكأنه قال: و الأرض ذات الشق الذي يخرج منه النبات و نحوه، و جواب القسم قوله: إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضَّلُ أَي:

إن القرآن لقول يفصل بين الحق و الباطل بالبيان عن كل واحد منهما و ما هو بالهزل أى: لم ينزل باللعب، فهو جدّ ليس بالهزل، و الهزل ضد الجدّ. قال الكميّ:

يَجِدُ بِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَ نَهْزَلُ «١» إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا أَيْ: يَمَكُرُونَ فِي إِبْطَالِ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الدِّينِ الْحَقِّ. قَالَ الرَّجَّاجُ: يَخَاتَلُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُظْهِرُونَ مَا هُمْ عَلَى خِلافِهِ وَ أَكِيدُ كَيْدًا أَيْ: أَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَ أَجَازِيهِمْ جِزَاءَ كَيْدِهِمْ، قِيلَ: هُوَ مَا أَوْقَعَ اللَّهُ بِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْقَتْلِ وَ الْأَسْرِ فَمَهْلُ الْكَاْفِرِينَ أَيْ: أَخْرَهُمْ، وَ لَا تَسْأَلُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ تَعْجِيلَ هَلَاكِهِمْ، وَ أَرْضُ بِمَا يَدْبِرُهُ لَكَ فِي أُمُورِهِمْ، وَ قَوْلُهُ:

أَمْهَلُهُمْ بَدَلَ مِنْ مَهْلٍ. وَ مَهْلٌ وَ أَمْهَلٌ بِمَعْنَى، مِثْلُ: نَزَلَ وَ أَنْزَلَ، وَ الْإِمْهَالُ: الْإِنْظَارُ، وَ تَمْهَلُ فِي الْأَمْرِ اتَّأَدُ، وَ انْتِصَابُ رُوَيْدًا عَلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ لِلْفِعْلِ الْمَذْكُورِ أَوْ نَعْتٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: أَمْهَلُهُمْ إِمْهَالًا رُوَيْدًا، أَيْ: قَرِيبًا أَوْ قَلِيلًا. قَالَ أَبُو عِيْدَةَ: وَ الرَّوَيْدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ تَصْغِيرُ الرَّوْدِ، وَ أَنْشَدَ:

كَأَنَّهَا تَمَلُّ يَمْشِي عَلَى رُودٍ «٢» أَيْ: عَلَى مَهْلٍ، وَ قِيلَ: تَصْغِيرُ إِرْوَادٍ مَصْدَرٌ أُرُودٌ تَصْغِيرُ التَّرْخِيمِ، وَ يَأْتِي اسْمُ فِعْلِ نَحْوِ: رُوَيْدٌ زَيْدًا، أَيْ: أَمْهَلُهُ، وَ يَأْتِي حَالًا نَحْوِ سَارِ الْقَوْمِ رُوَيْدًا، أَيْ: مَتَمَهِّلِينَ، ذَكَرَ مَعْنَى هَذَا الْجَوْهَرِيُّ، وَ الْبَحْثُ مُسْتَوْفَى فِي عِلْمِ النُّحُوِّ. وَ قَدْ أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدُويَه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: وَ السَّمَاءُ وَ الطَّارِقُ قَالَ: أَقْسَمُ رَبِّكَ بِالطَّارِقِ، وَ كُلُّ شَيْءٍ طَرَقَكَ بِاللَّيْلِ فَهُوَ طَارِقٌ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيَّهَا حَافِظٌ قَالَ: كُلُّ نَفْسٍ عَلَيْهَا حَفِظَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَ أَخْرَجَ عَبْدُ بَنِ حَمِيدٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَ أَبُو الشَّيْخِ فِي الْعِظْمَةِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: النَّجْمُ الثَّاقِبُ قَالَ: النَّجْمُ الْمَضِيءُ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيَّهَا حَافِظٌ

(١). وَ صَدَرَ الْبَيْتُ: أَرَانَا عَلَى حُبِّ الْحَيَاةِ وَ طَوْلِهَا.

(٢). وَ صَدَرَ الْبَيْتُ: تَكَادُ لَا تَتَلَمَّ الْبَطْحَاءُ وَ طَأْتَهَا.

فَتْحُ الْقَدِيرِ، ج ٥، ص: ٥١٢

قَالَ: إِلَّا- عَلَيْهَا حَافِظٌ. وَ أَخْرَجَ عَبْدُ بَنِ حَمِيدٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْهُ: يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ قَالَ: مَا بَيْنَ الْجَيْدِ وَ النُّحْرِ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ فِي الْآيَةِ قَالَ: تَرْيِبَةُ الْمَرْأَةِ، وَ هِيَ مَوْضِعُ الْقَلَادَةِ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْهُ أَيْضًا قَالَ: التَّرَائِبُ: بَيْنَ ثَدْيِي الْمَرْأَةِ. وَ أَخْرَجَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ عَنْهُ أَيْضًا قَالَ: التَّرَائِبُ أَرْبَعَةُ أَضْلاعٍ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ أَسْفَلِ الْأَضْلاعِ. وَ أَخْرَجَ عَبْدُ بَنِ حَمِيدٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْهُ أَيْضًا: إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ قَالَ: عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الشَّيْخَ شَابًا وَ الشَّابَّ شَيْخًا. وَ أَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَ الْفَرِيَابِيُّ وَ عَبْدُ بَنِ حَمِيدٍ، وَ الْبَخَّارِيُّ فِي تَارِيخِهِ، وَ ابْنُ جَرِيرٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَ أَبُو الشَّيْخِ فِي الْعِظْمَةِ، وَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ، وَ ابْنُ مَرْدُويَه مِنْ طَرَفِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: وَ السَّمَاءُ ذَاتِ الرَّجْعِ قَالَ: الْمَطَرُ بَعْدَ الْمَطَرِ وَ الْأَرْضُ ذَاتِ الصَّدْعِ قَالَ: صَدَعَهَا عَنِ النَّبَاتِ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَ الْأَرْضُ ذَاتِ الصَّدْعِ تَصَدَّعُ الْأُودِيَةَ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ مَنْدَةَ وَ الدِّيلَمِيُّ عَنْ مَعَاذِ بَنِ أَنْسٍ مَرْفُوعًا وَ الْأَرْضُ ذَاتِ الصَّدْعِ قَالَ:

«تَصَدَّعُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَنِ الْأَمْوَالِ وَ النَّبَاتِ». وَ أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ قَالَ: حَقٌّ وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ قَالَ: بِالْبَاطِلِ، وَ فِي قَوْلِهِ: أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا قَالَ: قَرِيبًا.

فَتْحُ الْقَدِيرِ، ج ٥، ص: ٥١٣

سُورَةُ الْأَعْلَى

إِشَارَةٌ

و يقال: سورة سَبِّح، و هي تسع عشرة آية و هي مكيه في قول الجمهور. و قال الضحاك: هي مدنيه.

و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى بمكّه. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير و عائشه مثله. و أخرج البخاري و غيره عن البراء بن عازب قال: «أول من قدم علينا من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ مصعب بن عمير و ابن أم مكتوم، فجعلنا يقرئنا القرآن، ثم جاء عمار و بلال و سعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد و الصبيان يقولون: هذا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قد جاء، فما جاء حتى قرأت: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى في سور مثلها». و أخرج أحمد و البزار و ابن مردويه عن عليّ قال:

«كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يحب هذه السورة: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى و أخرجه أحمد عن وكيع عن إسرائيل عن ثوير بن أبي فاخته عن أبيه عن عليّ. و أخرج أحمد و مسلم و أهل السنن عن النعمان بن بشير:

أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ كان يقرأ في العيدين و في الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى، و هل أتاك حديث الغاشية، و إن وافق يوم جمعة قرأهما جميعا» و في لفظ «و ربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما» و في الباب أحاديث.

و أخرج مسلم و غيره عن جابر بن سمرة أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ «كان يقرأ في الظهر بسبح اسم ربك الأعلى».

و أخرج أبو داود و النسائي و ابن ماجه و الدارقطني و الحاكم و البيهقي عن أبي بن كعب قال: «كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يوتر بسبح اسم ربك الأعلى، و قل يا أيها الكافرون، و قل هو الله أحد». و أخرج أبو داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجه، و الحاكم و صححه، و البيهقي عن عائشه قالت: «كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يقرأ في الوتر في الركعة الأولى بسبح، و في الثانية قل يا أيها الكافرون، و في الثالثة قل هو الله أحد و المعوذتين».

و في الصحيحين أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قال لمعاذ: «هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، و الشمس و ضحاها، و الليل إذا يغشى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## [سورة الأعلى (٨٧): الآيات ١ الى ١٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَ الَّذِي قَدَّرَ فْهَدَى (٣) وَ الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُفِرُّكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا- مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ مَا يَخْفَى (٧) وَ يُسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكَرْ إِذْ نَفَعْتَ الذُّكْرَى (٩)

سَيِّدَ كُرٍّ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَ يَتَجَبَّبَهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصِيلِي النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا- يَمُوتُ فِيهَا وَ لَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤)

وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَ أَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى (١٩)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥١٤

قوله: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى أي: نزهه عن كل ما لا يليق به. قال السدي: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى أي: عظمه، قيل: و الاسم هنا مقحم لفصد التعظيم، كما في قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما من ييك حولاً كاملاً فقد اعتذر

والمعنى: سبح ربك الأعلى. قال ابن جرير: المعنى نزه اسم ربك أن يسمّى به أحد سواه، فلا تكون على هذا مقحمة. وقيل: المعنى: نزه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم، ولذكره محترم. وقال الحسن: معنى سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى صَلَّ له. وقيل: المعنى: صلّ بأسماء الله لا كما يصلّي المشركون بالمكاء والتصديء. وقيل المعنى: ارفع صوتك بذكر ربك، ومنه قول جرير:

قَبَّحَ الْإِلَهَ وَجَوْهَ تَغْلَبَ كَلْمَا سَبَّحَ الْحَجِيجَ وَكَبَّرُوا تَكْبِيرًا

و الأعلى صفة للرب، وقيل: للاسم، والأول أولى، وقوله: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى صفة أخرى للرب. قال الزجاج: خلق الإنسان مستويا، ومعنى سَوَّى: عدل قامته. قال الضحّاك: خلقه فسوى خلقه، وقيل: خلق الأجساد فسوى الأفهام، وقيل: خلق الإنسان هياها للتكليف وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى صفة أخرى للرب، أو معطوف على الموصول الذي قبله. قرأ علي بن أبي طالب والكسائي والسلمي قَدَّرَ مخففاً، وقرأ الباقون بالتحديد. قال الواحدي: قال المفسرون: قَدَّرَ: خلق الذكر والأنثى من الدواب فهدي الذكر للأنثى كيف يأتيها. وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشر، والسعادة والشقاوة.

وروى عنه أيضاً أنه قال في معنى الآية: قَدَّرَ السعادة والشقاوة، وهدى للرشد والضلالة، وهدى الأنعام لمراعيها. وقيل: قَدَّرَ أرزاقهم وأقواتهم، وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنسا، ولمراعيهم إن كانوا وحشا. وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له. وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها. وقال السدي: قَدَّرَ مدّة الجنين في الرحم تسعة أشهر وأقلّ وأكثر، ثم هداه للخروج من الرحم. قال الفراء: أي: قَدَّرَ فهدي وأصل، فاكتفى بأحدهما، وفي تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا. والأولى عدم تعيين فرد أو أفراد مما يصدق عليه قَدَّرَ وهدى إلا بدليل يدلّ عليه، ومع عدم الدليل يحمل على ما يصدق عليه معنى الفعلين، إما على البدل أو على الشمول، والمعنى: قَدَّرَ أجناس الأشياء وأنواعها وصفاتها وأفعالها وأقوالها وأجاليها، فهدي كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له، ويسيره لما خلق له، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه. وَ الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى صفة أخرى للرب، أي: أنبت العشب وما ترعاه النعم من النبات الأخضر فَجَعَلَهُ غُثَاءً أُخْرَى أي: فجعله بعد أن كان أخضر غثاء، أي: هشيمًا جافًا كالغناء الذي يكون فوق السيل، أحوى: أي: أسود بعد اخضراره، وذلك أن الكلاء إذا يبس اسودّ. قال قتادة: الغناء:

الشيء اليابس، ويقال للبقل والحشيش إذا انحطم و يبس: غثاء و هشيم. قال امرؤ القيس:

كَأَنَّ ذُرًّا رَأْسَ الْمُجِيمِرِ غَدْوَةٌ مِنَ السَّيْلِ وَالْأَغْنَاءُ فَلَكُهُ مَغْزَلٌ (١)

(١). «المجيمر»: أرض لبني فزارة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥١٥

و انتصاب غثاء على أنه المفعول الثاني، أو على الحال، وأحوى صفة له. وقال الكسائي: هو حال من المرعى، أي: أخرجه أحوى من شدّة الخضرة والرّي فَجَعَلَهُ غُثَاءً بعد ذلك، والأحوى مأخوذ من الحوّة، وهي سواد يضرب إلى الخضرة. قال في الصحاح: و الحوّة: سمرة الشفة، ومنه قول ذي الرمة:

لمياء في شفيتها حوّة لعس وفي اللثات وفي أنيابها شنب (١)

سُنْفُرُكَ فَلَا تَنْسَى أي: سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ما تقرؤه، والجمل مستأنفة لبيان هدايته صلّى الله عليه وسلم الخاصة به بعد بيان الهداية العامة، وهي هدايته صلّى الله عليه وسلم لحفظ القرآن. قال مجاهد والكلبي:

كان النبي صَلَّى اللهُ عليه و سلم إذا نزل عليه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبي صَلَّى اللهُ عليه و سلم بأولها مخافة أن ينساها، فنزلت: سَنُنْقِرُكَ فَلَا تَنْسَى و قوله: إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل، أى: لا تنسى مما تقرأه شيئاً من الأشياء إلا- ما شاء الله أن تنساه. قال الفراء: و هو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد صَلَّى اللهُ عليه و سلم شيئاً كقوله: خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ\* «٢» و قيل: إلا ما شاء الله أن تنسى ثم تذكر بعد ذلك، فإذا قد نسى و لكنه يتذكر و لا ينسى شيئاً نسيانا كلياً. و قيل بمعنى النسخ: أى إلا ما شاء الله أن ينسخه مما نسخ تلاوته. و قيل: معنى فلا تنسى: فلا- تترك العمل إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه و رفع حكمه. و قيل: المعنى: إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله. و قيل: «لا» فى قوله:

فَلَا تَنْسَى لِلنَّهْيِ. و الألف مزيدة لرعاية الفاصلة، كما فى قوله: فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَا «٣» يعنى فلا تغفل قراءته و تذكره إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ مَا يَخْفَى الجملة تعليل لما قبلها، أى: يعلم ما ظهر و ما بطن و الإعلان و الإسرار، و ظاهره العموم فيندرج تحته ما قيل إن الجهر ما حفظه رسول الله صَلَّى اللهُ عليه و سلم من القرآن، و ما يخفى هو ما نسخ من صدره، و يدخل تحته أيضاً ما قيل من أن الجهر: هو إعلان الصدقة، و ما يخفى، هو إخفاؤها، و يدخل تحته أيضاً ما قيل: إن الجهر جهره صَلَّى اللهُ عليه و سلم بالقرآن مع قراءة جبريل مخافة أن يتفلت عليه، و ما يخفى ما فى نفسه مما يدعو إلى الجهر وَ يُسِّرُكَ لِلْيُسْرَى معطوف على «سنقرئك»، و ما بينهما اعتراض.

قال مقاتل: أى نهون عليك عمل الجنة، و قيل: نوقفك للطريقة التى هى أيسر و أسهل، و قيل: للشريعة اليسرى، و هى الحنيفية السهلة، و قيل: نهون عليك الوحي حتى تحفظه و تعمل له، و الأولى حمل الآية على العموم، أى: نوقفك للطريقة اليسرى فى الدين و الدنيا فى كل أمر من أمورهما التى تتوجه إليك فَذَكَّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى أى: عظ يا محمد الناس بما أوحينا إليك و أرشدهم إلى سبل الخير و اهدهم إلى شرائع الدين. قال الحسن: تذكرة للمؤمن و حجة على الكافر. قال الواحدى: إن نفعت أو لم تنفع، لأن النبي صَلَّى اللهُ عليه و سلم بعث مبلغاً للإعذار و الإنذار، فعليه التذكير فى كل حال نفع أو لم ينفع، و لم يذكر الحالة الثانية كقوله:

سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ «٤» الآية. قال الجرجاني: التذكير واجب و إن لم ينفع، فالمعنى: إن نفعت

(١). «اللمياء»: الشفة اللطيفة القليلة الدم. «اللعس»: لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلاً و ذلك يستملح.

«الشب»: برودة و عدوبة فى الفم، و رقه فى الأسنان.

(٢). هود: ١٠٧.

(٣). الأحزاب: ٦٧.

(٤). النحل: ٨١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥١٦

الذكري أو لم تنفع. و قيل: إنه مخصوص فى قوم بأعيانهم، و قيل: إن بمعنى «ما»، أى: فذكر ما نفعت الذكري؛ لأن الذكري نافعة بكل حال، و قيل: إنها بمعنى قد، و قيل: إنها بمعنى إذ. و ما قاله الواحدى و الجرجاني أولى، و قد سبقهما إلى القول به الفراء و النحاس. قال الرازى: إن قوله: إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى للتنبيه على أشرف الحالين و هو وجود النفع الهدى لأجله شرعت الذكري، و المعلق بان على الشيء لا يلزم أن يكون عدما عند عدم ذلك الشيء، و يدل عليه آيات: منها هذه الآية، و منه قوله تعالى: وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ «١» و منها قوله: فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ «٢» فَإِنَّ الْقَصْرَ

جائز عند الخوف و عدمه، و منها قوله: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ «٣» و المراجعة جائزة بدون هذا الظنّ، فهذا الشرط فيه فوائد: منها ما تقدّم، و منها البعث على الانتفاع بالذكرى، كما يقول الرجل لمن يرشده: قد أوضحت لك إن كنت تعقل، و هو تنبيه للنبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ على أنها لا تنفعهم الذكرى، أو يكون هذا في تكرير الدعوة، فأما الدعاء الأوّل فعامّ انتهى.

ثم بيّن سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرى و من لا تنفعه فقال: سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى أَى: سيستعظ بوعظك من يخشى الله فيزداد بالتذكير خشية و صلاحا وَ يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى أَى: و يتجنب الذكرى و يبعد عنها الأشقى من الكفار؛ لإصراره على الكفر بالله و انهما كه في معاصيه. ثم وصف الأشقى فقال: الَّذِي يَصِلَى النَّارَ الْكُبْرَى أَى: العظيمة الفظيعة؛ لأنها أشدّ حزا من غيرها. قال الحسن: النار الكبرى: نار جهنم، و النار الصغرى: نار الدنيا. و قال الزجاج: هي السفلى من أطباق النار. ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى أَى: لا يموت فيها فيستريح مما هو فيه من العذاب، و لا يحيا حياة ينتفع بها، و منه قول الشاعر:

ألا ما لنفس لا تموت فينقضى عنها و لا تحيا حياة لها طعم

و «ثم» للتراخي في مراتب الشدّة؛ لأن التردّد بين الموت و الحياة أضعف من صلى النار الكبرى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى أَى: من تطهر من الشرك فأمن بالله و وحده و عمل بشرائه. قال عطاء و الربيع: من كان عمله زاكيا ناميا. و قال قتادة: تزكى بعمل صالح. قال قتادة و عطاء و أبو العالية: نزلت في صدقة الفطر. قال عكرمة: كان الرجل يقول: أقدم زكاتي بين يدي صلاتي. و أصل الزكاة في اللغة: النماء. و قيل: المراد بالآية زكاة الأموال كلها، و قيل: المراد بها زكاة الأعمال لا زكاة الأموال، لأن الأكثر أن يقال في الأموال زكى لا- تزكى وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى أَى: المعنى: ذكر اسم ربّه بالخوف فعبدته و صلّى له، و قيل: ذكر اسم ربه بلسانه فصلى، أَى: فأقام الصلوات الخمس، و قيل: ذكر موقفه و معاده فعبدته، و هو كالقول الأوّل.

و قيل: ذكر اسم ربه بالتكبير في أوّل الصلاة لأنها لا- تنعقد إلا- بذكره، و هو قوله: الله أكبر. و قيل: ذكر اسم ربه في طريق المصلى فصلى، و قيل: هو أن يتطوّع بصلاة بعد زكاة، و قيل: المراد بالصلاة هنا صلاة العيد، كما أن المراد بالتركي في الآية زكاة الفطر، و لا يخفى بعد هذا القول لأن السورة مكية، و لم

(١). البقرة: ١٧٢.

(٢). النساء: ١٠١.

(٣). البقرة: ٢٣٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥١٧

تفرض زكاة الفطر و صلاة العيد إلا بالمدينة بل تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا هذا إضراب عن كلام مقدّر يدل عليه السياق، أَى: لا تفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات الفانية في الدنيا، قرأ الجمهور تُؤَثِّرُونَ بالفوقية على الخطاب، و يؤيدها قراءة أبي «بل أنتم تؤثرون»، و قرأ أبو عمرو بالتحتية على الغيبة. قيل: و المراد بالآية الكفرة، و المراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا بها و الاطمئنان إليها و الإعراض عن الآخرة بالكلية، و قيل: المراد بها جميع الناس من مؤمن و كافر، و المراد بإيثارها ما هو أعمّ من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من تأثير جانب الدنيا على الآخرة، و التوجّه إلى تحصيل منافعها و الاهتمام بها اهتماما زائدا على اهتمامه بالطاعات. و جملة وَ الْمَآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى في محل نصب على الحال من فاعل تؤثرون، أَى: و الحال أن الدار الآخرة التي هي الجنة أفضل و أدوم من الدنيا. قال مالك بن دينار: لو كانت الدنيا من ذهب يفتنى، و الآخرة من خزف يبقى؛ لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفتنى، فكيف و الآخرة من ذهب يبقى، و الدنيا من خزف يفتنى؟. و الإشارة بقوله: إِنَّ هَذَا إِلَى مَا

تقدّم من فلاح من تزكى و ما بعده، و قيل إنه إشارة إلى جميع السورة، و معنى لَفَى الصُّحُفِ المَأُولَى أى: ثابت فيها، و قوله: صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى بدل من الصحف الأولى. قال قتادة و ابن زيد: يريد بقوله: إِنَّ هَذَا: و الآخرة خير و أبقى. و قالوا: تتابعت كتب الله عزّ و جلّ أنّ الآخرة خير و أبقى من الدنيا. و قال الحسن: تتابعت كتب الله جلّ ثناؤه إن هذا لفي الصحف الأولى، و هو قوله: قَدْ أَفْلَحَ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. قرأ الجمهور: لَفَى الصُّحُفِ المَأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ بضم الحاء فى الموضعين، و قرأ الأعمش و هارون و أبو عمرو فى روايته عنه بسكونها فيهما، و قرأ الجمهور: إِبْرَاهِيمَ بالألف بعد الراء و بالياء بعد الهاء. و قرأ أبو رجاء بحذفهما و فتح الهاء، و قرأ أبو موسى و ابن الزبير «إبراهام» بالفاء.

و قد أخرج أحمد و أبو داود و ابن ماجه و ابن المنذر و ابن مردويه عن عقبه بن عامر الجهنى قال: «لما نزلت فَسَيِّحُ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ\* قال لنا رسول الله صلى الله عليه و سلم: اجعلوها فى ركوعكم، فلما نزلت سَيِّحُ اسْمِ رَبِّكَ المَأَعْلَى قال: اجعلوها فى سجودكم» و لا مطعن فى إسناده. و أخرج أحمد و أبو داود و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس: «أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال: سبحان ربى الأعلى»: قال أبو داود: خولف فيه و كيع، فرواه شعبة عن أبى إسحاق عن سعيد عن ابن عباس موقوفا. و أخرجه موقوفا أيضا عبد الرزاق و ابن أبى شيبه و عبد بن حميد و ابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال: سبحان ربى الأعلى و فى لفظ لعبد بن حميد عنه قال: «إذا قرأت سبح اسم ربك الأعلى فقل: سبحان ربى الأعلى». و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبه و عبد بن حميد و ابن الأنبارى فى «المصاحف» عن على بن أبى طالب أنه قرأ: سبح اسم ربك الأعلى، فقال: سبحان ربى الأعلى و هو فى الصلاة، فقل له: أ تزيد فى القرآن؟ قال: لا، إنما أمرنا بشيء فقلته. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبه و عبد بن حميد و ابن المنذر عن أبى موسى الأشعري أنه قرأ فى الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى فقال: سبحان ربى الأعلى. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥١٨

و صححه، عن سعيد بن جبیر قال: سمعت ابن عمر يقرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال: سبحان ربى الأعلى، و كذلك هى فى قراءة أبى بن كعب. و أخرج ابن أبى شيبه عن عمر أنه قال: إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال: سبحان ربى الأعلى. و أخرج ابن أبى شيبه و عبد بن حميد عن عبد الله بن الزبير أنه قرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال: سبحان ربى الأعلى، و هو فى الصلاة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

فَجَعَلَهُ غُثَاءً قَالَ: هشيمًا أخوى قال: متغيرا. و أخرج ابن مردويه عنه قال: «كان النبى صلى الله عليه و سلم يستذكر القرآن مخافة أن ينسى، فقل له: قد كفيناك ذلك، و نزلت: سُنْفِرُكَ فَلَا تَنْسَى . و أخرج الحاكم عن سعد بن أبى وقاص نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس إلّا ما شاء الله يقول: إلا ما شئت أنا فأنسيك. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا وَ نُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى قال: للخير. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود وَ نُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى قال: الجنة.

و أخرج البزار و ابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه و سلم فى قوله: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى قال: «من شهد أن لا إله إلا الله، و خلق الأنداد، و شهد أنى رسول الله وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى قال:

هى الصلوات الخمس، و المحافظه عليها و الاهتمام بمواقيتها». قال البزار: لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى قال:

من الشرك وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ قال: وخذ الله فصلي لى قال: الصلوات الخمس. و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى قال: من قال لا إله إلا الله. و أخرج البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم فى الكنى، و ابن مردويه، و



البيهقي في سننه، عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جدّه عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلى صلاة العيد، و يتلو هذه الآية قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى - وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . و في لفظ قال: «سئل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن زكاة الفطر، فقال: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى قال: هي زكاة الفطر» و كثير بن عبد الله ضعيف جداً، قال فيه أبو داود: هو ركن من أركان الكذب، و قد صحّح الترمذى حديثاً من طريقه، و خطيء في ذلك، و لكنه يشهد له ما أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى - وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر» و ليس في هذين الحديثين ما يدل على أن ذلك سبب النزول، بل فيهما أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلا الآية. و قوله: هي زكاة الفطر، يمكن أن يراد به أنها مما يصدق عليه التزكي، و قد قدّمنا أن السورة مكية، و لم تكن في مكة صلاة عيد و لا فطرة.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن أبي سعيد الخدري: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى قال: أعطى صدقة الفطر قبل أن يخرج إلى العيد وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى قال: خرج إلى العيد و صلى. و أخرج ابن مردويه و البيهقي عن ابن عمر قال: «إنما أنزلت هذه الآية في إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى - وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . و أخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال: قلت لابن عباس: أ رأيت قوله:

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى للفطر؟ قال: لم أسمع بذلك، و لكن للزكاة كلها. ثم عاودته فقال لي: و الصدقات

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥١٩

كلها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و الطبراني، و البيهقي في شعب الإيمان، عن عرفة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود: سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْمَعْلَى فلما بلغ: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ترك القراءة، و أقبل على أصحابه فقال: آثرنا الدنيا على الآخرة، فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا لأننا رأينا زينتها و نساءها و طعامها و شرابها، و زويت عنا الآخرة فآخترنا هذا العاجل و تركنا الآجل، و قال: بل يؤثرون الحياة الدنيا بالياء. و أخرج البزار و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هي كلها في صحف إبراهيم و موسى». و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عنه في الآية قال:

نسخت هذا السورة من صحف إبراهيم و موسى، و في لفظ: هذه السورة في صحف إبراهيم و موسى. و أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه و ابن عساكر عن أبي ذرّ قال: «قلت: يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟ قال:

مائة كتاب و أربعة كتب» الحديث.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٢٠

## سورة الغاشية

### إشارة

هي ست و عشرون آية، و هي مكية بلا خلاف، أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الغاشية بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، و قد تقدّم حديث النعمان بن بشير أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «كان يقرأ سبح اسم ربك الأعلى، و الغاشية في صلاة العيد، و يوم الجمعة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلِي نَارًا حَامِيَةً (٤)  
تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آيِنَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩)

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَغْيَةٍ (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤)  
وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى  
الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩)

وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ  
الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤)

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ (٢٦)

قوله: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ قال جماعة من المفسرين: هل هنا بمعنى قد، و به قال قطرب، أى: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية، و هى القيامة لأنها تغشى الخلائق بأهوالها. وقيل: إن بقاء هل هنا على معناها الاستفهامى المتضمن للتعجب مما فى خبره، و التشويق إلى استماعه أولى. و قد ذهب إلى أن المراد بالغايشية هنا القيامة أكثر المفسرين. و قال سعيد بن جبیر و محمد بن كعب: الغاشية: النار تغشى وجوه الكفار كما فى قوله: وَ تَغْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ «١». وقيل: الغاشية أهل النار لأنهم يغشونها و يقتحمونها و الأول أولى. قال الكلبي: المعنى إن لم يكن أتاك حديث الغاشية، فقد أتاك، وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ما هو؟ أو مستأنفة استئنافا نحويا لبيان ما تضمنته من كون ثم وجوه فى ذلك اليوم متصفة بهذه الصفة المذكورة، و وجوه مرتفع على الابتداء و إن كانت نكرة لوقوعه فى مقام التفصيل، و قد تقدم مثل هذا فى سورة القيامة، و فى سورة النازعات. و التثوين فى يومئذ عوض عن المضاف إليه، أى: يوم غشيان الغاشية، و الخاشعة: الدليلة الخاضعة، و كل متضائل ساكن يقال له خاشع، يقال: خشع الصوت؛ إذا خفى، و خشع فى صلاته؛ إذا تذل و نكس رأسه. و المراد بالوجوه هنا أصحابها.

(١). إبراهيم: ٥٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٢١

قال مقاتل: يعنى الكفار لأنهم تكبروا عن عبادة الله. قال قتادة و ابن زيد: خاشعة فى النار، و قيل: أراد وجوه اليهود و النصارى على الخصوص، و الأول أولى. قوله: عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ معنى عاملة أنها تعمل عملا شاقا. قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب فى سيره: عمل يعمل عملا، و يقال للسحاب إذا دام برقه:

قد عمل يعمل عملا. قيل: و هذا العمل هو جزر السلاسل و الأغلال و الخوض فى النار. ناصبة أى:

تعبة، يقال: نصب بالكسر ينصب نصبا؛ إذا تعب، و المعنى: أنها فى الآخرة تعبة لما تلاقيه من عذاب الله.

وقيل: إن قوله: عَامِلَةٌ فى الدنيا إذ لا عمل فى الآخرة، أى: تعمل فى الدنيا بالكفر و المعاصى، و تنصب فى ذلك. وقيل: إنها عاملة فى الدنيا ناصبة فى الآخرة، و الأول أولى. قال قتادة: عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تكبرت فى الدنيا عن طاعة الله؛ فأعملها الله، و أنصبها فى

النار بجزر السلاسل الثقال و حمل الأغلال و الوقوف حفاة عراه في العرصات في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة (١) قال الحسن و سعيد بن جبیر: لم تعمل لله في الدنيا و لم تنصب فأعملها و أنصبها في جهنم. قال الكلبي: يجزون على وجوههم في النار. و قال أيضا:

يكلّفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب بمعالجة السلاسل و الأغلال و الخوض في النار كما تخوض في الوحل. قرأ الجمهور: عاملة ناصبة بالرفع فيهما على أنهما خيران آخران للمبتدأ، أو على تقدير مبتدأ، و هما خيران له، و قرأ ابن محيصن و عيسى و حميد و ابن كثير في رواية عنه بنصبهما على الحال أو على الذم. و قوله: تضيلى ناراً حامياً خبر آخر للمبتدأ، أى: تدخل ناراً متناهية في الحرّ، يقال: حمى النهار و حمى التنور، أى: اشتد حرهما. قال الكسائي: يقال: اشتد حمى النهار و حموه بمعنى.

قرأ الجمهور: «تصلى» بفتح التاء مبنيًا للفاعل. و قرأ أبو عمره و يعقوب و أبو بكر بضمها مبنيًا للمفعول.

و قرأ أبو رجاء بضم التاء و فتح الصاد و تشديد اللام، و الضمير راجع إلى الوجوه على جميع هذه القراءات، و المراد أصحابها كما تقدّم، و هكذا الضمير يُسقى من عَيْن آيَةٍ و المراد بالعين الآيَةُ: المتناهية في الحرّ، و الآيَةُ: الذى قد انتهى حره، من الإيئة (٢) بمعنى التأخر، يقال: آناه يؤنيه إيئة، أى: أخره و حبسه كما في قوله: يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ حَمِيمِ آنِ (٣) قال الواحدي: قال المفسرون: لو وقعت منها نقطة على جبال الدنيا لذابت. و لما ذكر سبحانه شرابهم عقبه بذكر طعامهم فقال: لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ هو نوع من الشوك يقال له الشبرق في لسان قريش إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو الضريع. كذا قال مجاهد و قتادة و غيرهما من المفسرين. قيل: و هو سمّ قاتل، و إذا يبس لا تقربه دابة و لا ترعاه، و قيل: هو شىء يرمى به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام، لا من أقوات الناس، فإذا رعت منه الإبل لم تشبع و هلكت هزالاً.

قال الخليل: الضريع نبات أخضر منتن الريح يرمى به البحر. و جمهور أهل اللغة و التفسير قالوا: بالأول،

(١). المعارج: ٤.

(٢). الصواب أن يقول: من: أنى يأنى، كرمى يرمى. و ليس من الإيئة مصدر أنى بمعنى آخر.

(٣). الرحمن: ٤٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٢٢

و منه قول أبى ذؤيب:

رعى الشبرق الزيان حتى إذا ذوى و عاد ضريعا بان عنه النحاص (١)

و قال الهذلي يذكر إبلاء و سوء مرعاها:

و حبسن فى هزم الضريع فكلها حذاء دامية اليدى حرود (٢)

و قال سعيد بن جبیر: الضريع: الحجارة، و قيل: هو شجرة في نار جهنم. و قال الحسن: هو بعض ما أخفاه الله من العذاب. و قال ابن كيسان: هو طعام يضرعون عنده و يذلون و يتضرعون إلى الله بالخلاص منه، فسّمى بذلك؛ لأن آكله يتضرع إلى الله فى أن يعفى عنه لكراهته و خشونته. قال النحاس: قد يكون مشتقاً من الضارع و هو الدليل، أى: من شربه يلحقه ضراعه و ذلّه. و قال الحسن أيضاً: هو الزقوم، و قيل:

هو واد فى جهنم، و قد تقدّم فى سورة الحاقة فليس له اليوم هاهنا حميم - و لا طعام إلا من غسيلين (٣) و الغسلين غير الضريع كما تقدّم، و جمع بين الآيتين بأن النار دركات، فمنهم من طعامه الضريع، و منهم من طعامه الغسلين. ثم وصف سبحانه الضريع فقال:

لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ أَى: لَا يَسْمَنُ الضَّرِيعَ آكَلَهُ وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ مَا بِهِ مِنَ الْجُوعِ. قَالَ الْمَفْسُورُونَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. قَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنْ إِبْلَانَا تَسْمَنُ مِنَ الضَّرِيعِ، فَنَزَلَتْ: لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ وَكَذَبُوا فِي قَوْلِهِمْ هَذَا، فَإِنَّ الْإِبِلَ لَا تَأْكُلُ الضَّرِيعَ وَلَا تَقْرِبُهُ. وَقِيلَ: اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُ فَظَنُّوهُ كَغَيْرِهِ مِنَ النَّبَاتِ النَّافِعِ. ثُمَّ شَرَعَ سَبْحَانَهُ فِي بَيَانِ حَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ بَعْدَ الْفِرَاقِ مِنْ بَيَانِ حَالِ أَهْلِ النَّارِ فَقَالَ: وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ أَى: ذَاتُ نَعْمَةٍ وَبَهْجَةٍ، وَهِيَ وَجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ صَارَتْ وَجُوهَهُمْ نَاعِمَةً لَمَّا شَاهَدُوا مِنْ عَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ وَمَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي يَفُوقُ الْوَصْفَ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: تَعْرِفُ فِي وَجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٤) ثُمَّ قَالَ: لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ أَى: لِعَمَلِهَا الَّذِي عَمَلْتَهُ فِي الدُّنْيَا رَاضِيَةٌ؛ لِأَنَّهَا قَدْ أُعْطِيَتْ مِنَ الْأَجْرِ مَا أَرْضَاهَا وَقَرَّتْ بِهِ عَيْونَهَا، وَالْمُرَادُ بِالْوَجُوهِ هُنَا أَصْحَابُهَا كَمَا تَقَدَّمَ فِي جَنَّةِ عَالِيَةٍ أَى عَالِيَةِ الْمَكَانِ مَرْتَفَعَةً عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأَمْكَانِ، أَوْ عَالِيَةٍ لِأَنَّ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلذُّ الْأَعْيُنَ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَغْيَةٍ قَرَأَ الْجُمْهُورُ: لَا تَسْمَعُ بَفَتْحِ الْفَوْقِيَّةِ وَنَصْبِ لِأَغْيَةٍ، أَى: لَا تَسْمَعُ أَنْتِ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ، أَوْ لَا تَسْمَعُ تِلْكَ الْوَجُوهَ. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو بِالتَّحْتِيَّةِ مضمومةً مبنياً للمفعول وَرَفَعِ لِأَغْيَةٍ. وَقَرَأَ الْفَضْلُ وَالْجَحْدَرِيُّ بِفَتْحِ التَّحْتِيَّةِ مبنياً للفاعل وَنَصْبِ لِأَغْيَةٍ، وَاللُّغُو: الْكَلَامُ السَّاقِطُ. قَالَ الْفَرَّاءُ وَالْأَخْفَشُ: أَى لَا تَسْمَعُ فِيهَا كَلِمَةً لُغُو.

(١). «النحائص»: جمع نحوص، وهى الأتان الوحشية التى فى بطنها ولد.

(٢). «هزيم الضريع»: ما تكسر منه. «الحدباء»: الناقة التى بدت حراقفها وعظم ظهرها. «الحرود»: التى لا تكاد تدر.

(٣). الحاقّة: ٣٥-٣٦.

(٤). المطففين: ٢٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٢٣

قِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْكُذْبِ وَالْبُهْتَانِ وَالْكَفْرِ قَالَهُ قَتَادَةُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَى الشَّتْمِ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: لَا تَسْمَعُ فِيهَا حَالِفًا يَحْلِفُ بِكَذْبٍ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: لَا تَسْمَعُ فِي الْجَنَّةِ حَالِفًا يَمِينُ بَرَّةً وَلَا فَاجِرَةً. وَقَالَ الْفَرَّاءُ أَيْضًا: لَا تَسْمَعُ فِي كَلَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَلِمَةً تَلْغِي؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا بِالْحِكْمَةِ وَحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنَ النِّعَمِ الدَّائِمِ، وَهَذَا أَرْجَحُ الْأَقْوَالِ لِأَنَّ النِّكْرَةَ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ مِنْ صَيْغِ الْعُمُومِ، وَلَا وَجْهَ لِتَخْصِيسِ هَذَا بِنَوْعٍ مِنَ اللَّغُوِّ خَاصٍ إِلَّا بِمَخْصَصٍ يَصِلِحُ لِلتَّخْصِيسِ، وَ لِأَغْيَةٍ: إِمَّا صِفَةً مُوصُوفٍ مَحْذُوفٍ، أَى: كَلِمَةً لِأَغْيَةٍ، أَوْ نَفْسَ لِأَغْيَةٍ، أَوْ مُصَدَّرٍ، أَى: لَا تَسْمَعُ فِيهَا لُغُوًّا فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ قَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ أَنَّ فِيهَا عَيْونًا، وَالْعَيْنُ هُنَا بِمَعْنَى: الْعَيْونُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: عَلِمَتْ نَفْسٌ \* (١) وَمَعْنَى جَارِيَةٌ أَنَّهَا تَجْرِي مِيَاهَهَا وَتَتَدَقَّقُ بِأَنْوَاعِ الْأَشْرِبَةِ الْمَسْتَلْذَةِ. قَالَ الْكَلْبِيُّ: لَا- أَدْرَى بِمَاءٍ أَوْ بِغَيْرِهِ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ أَى: عَالِيَةٌ مَرْتَفَعَةُ السَّمَكِ، أَوْ عَالِيَةُ الْقَدْرِ وَ أَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْأَكْوَابَ جَمْعُ كُوبٍ، وَأَنَّهُ الْقَدْحُ الَّذِي لَا عُرُوهَ لَهُ، وَمَعْنَى مَوْضُوعَةٌ: أَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَشْرَبُونَ مِنْهَا وَنَمَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ النَّمَارِقُ: الْوَسَائِدُ. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: فِي قَوْلِ الْجَمِيعِ، وَاحِدَتُهَا نَمْرَقَةٌ بضم النون، وَزَادَ الْفَرَّاءُ سَمَاعًا عَنِ الْعَرَبِ نَمْرَقَةٌ بِكسرها. قَالَ الْكَلْبِيُّ: وَسَائِدٌ مَصْفُوفَةٌ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَإِنَّا لَنَجْرِي الْكَأْسَ بَيْنَ شَرُوبِنَاوِ بَيْنَ أَبِي قَابُوسٍ فَوْقَ النَّمَارِقِ

وَقَالَ الْآخَرُ:

كُهول و شبان حسان وجوهم على سرر مصفوفة و نمارق

قَالَ فِي الصَّحَاحِ: النَّمْرُقُ وَ النَّمْرَقَةُ: وَ سَادَةٌ صَغِيرَةٌ، وَ كَذَلِكَ النَّمْرَقَةُ بِالْكَسْرِ لُغَةٌ حَكَاهَا يَعْقُوبُ وَ زَرَابِيُّ مَبْتُوثَةٌ يَعْنِي الْبَسْطَ، وَاحِدَتُهَا: زَرَبِيَّةٌ. قَالَ أَبُو عَيْبَةَ وَ الْفَرَّاءُ: الزَّرَابِيُّ: الطَّنَافِسُ الَّتِي لَهَا خَمَلٌ رَقِيقٌ، وَاحِدَتُهَا زَرَبِيَّةٌ، وَ الْمَبْتُوثَةُ: الْمَبْسُوطَةُ، قَالَ قَتَادَةُ. وَ

قال عكرمة: بعضها فوق بعض. قال الواحدى: و يجوز أن يكون المعنى: أنها مفرقة في المجالس. و به قال القتبى. و قال الفراء: معنى مبثوثة:

كثيرة، و الظاهر أن معنى البث: التفرق مع كثرة، و منه وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُؤُلٍ دَابَّةٍ\* (٢). أَ فَلَا- يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و الفاء للعطف على مقدر كما في نظائره مما مرّ غير مرّة، و الجملة مسوقة لتقرير أمر البعث و الاستدلال عليه، و كذا ما بعدها، و كيف منصوبة بما بعدها، و الجملة في محل جر على أنها بدل اشتمال من الإبل، و المعنى: أ ينكرون أمر البعث و يستبعدون وقوعه، أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي غالب مواشيهم و أكبر ما يشاهدونه من المخلوقات كَيْفَ خُلِقَتْ على ما هي عليه من الخلق البديع من عظم جثتها و مزيد قوتها و بديع أوصافها. قال أبو عمرو بن العلاء: إنما خصّ الإبل لأنها من ذوات الأربع تبرك فتحمل عليها الحموله، و غيرها من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا و هو قائم: قال الزجاج:

(١). التكوير: ١٤.

(٢). البقرة: ١٦٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٢٤

تبههم على عظيم من خلقه قد ذلّه الله للصغير يقوده و ينخه و ينهضه و يحمل عليه الثقل من الحمل و هو بارك، فينهض بثقل حمله، و ليس ذلك في شيء من الحوامل غيره، فأراهم عظيما من خلقه ليدلّ بذلك على توحيده. و سئل الحسن عن هذه الآية، و قيل له: الفيل أعظم في الأعجوبة، فقال: أما الفيل فالعرب بعيدة العهد به، ثم هو خنزير لا يركب ظهره و لا- يؤكل لحمه و لا يحلب دّره، و الإبل من أعزّ مال العرب و أنفسه، تأكل النوى و القتّ، و تخرج اللبن، و يأخذ الصبي بزمامها فيذهب بها حيث شاء مع عظمها في نفسها. و قال المبرد:

الإبل هنا هي القطع العظيمة من السحاب، و هو خلاف ما ذكره أهل التفسير و اللغة. و روى عن الأصمعي أنه قال: من قرأ خُلِقَتْ بالتخفيف عنى به البعير، و من قرأ بالتشديد عنى به السحاب. وَ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ أَى: رفعت فوق الأرض بلا عمد على وجه لا يناله الفهم و لا يدركه العقل، و قيل: رفعت فلا ينالها شيء وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ على الأرض مرساء راسخه لا تميد و لا تزول وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ أَى: بسطت، و السطح: بسط الشيء، يقال: لظهر البيت إذا كان مستويا: سطح.

قرأ الجمهور: سَطِحَتْ مبنيا للمفعول مخففا. و قرأ الحسن: بالتشديد. و قرأ عليّ بن أبي طالب و ابن السيميع و أبو العالية: خلقت و رفعت و نصبت و سطحت على البناء للفاعل، و ضم التاء فيها كلها. ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه و سلم بالتذكير فقال: فَذَكَّرْ و الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أَى: فعظّمهم يا محمد و خوّفهم، ثم علل الأمر بالتذكير فقال: إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ أَى: ليس عليك إلا ذلك، و لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ بِمُصَيِّرِ الْمَصِيطِرِ و المسيطر بالسين و الصاد: المسلط على الشيء ليشرف عليه و يتعهد أحواله كذا في الصحاح، أَى: لست عليهم بمصيطر حتى تكرهم على الإيمان، و هذا منسوخ بآية السيف. قرأ الجمهور:

بِمُصَيِّرٍ بِمُصَيِّرِ الْبِصَادِ، و قرأ هشام و قنبل في رواية بالسين. و قرأ خلف بإشمام البصَاد زايًا. و قرأ هارون الأعور بفتح الطاء اسم مفعول إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ هذا استثناء منقطع، أَى: لكن من تولى عن الوعظ و التذكير فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ و هو عذاب جهنم الدائم، و قيل: هو استثناء متصل من قوله: فَذَكَّرْ أَى: فذكر كلّ أحد إلا من انقطع طمعك عن إيمانه و تولى فاستحق العذاب الأكبر، و الأوّل أولى. و إنما قال:

الأكبر لأنهم قد عذبوا في الدنيا بالجوع و القحط و القتل و الأسر. و قرأ ابن مسعود: «فإنه يعذبه الله» و قرأ ابن عباس و قتادة: «ألا من تولى» على أنها ألا- التي للتنبية و الاستفتاح إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ أَى: رجوعهم بعد الموت، يقال آب يؤوب: إذا رجع، و منه قول

عبيد بن الأبرص:

و كل ذى غيبة يؤوب و غائب الموت لا يؤوب

قرأ الجمهور: إِيَابُهُمْ بالتخفيف، وقرأ أبو جعفر و شيبه بالتشديد. قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد و لو جاز لجاز مثله فى الصيام و القيام، و قيل: هما لغتان بمعنى. قال الواحدي: و أما إِيَابُهُمْ بتشديد الياء فإنه شاذ لم يجزه أحد غير الزجاج ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ يعنى جزاءهم بعد رجوعهم إلى الله بالبعث، و «ثم» للتراخى فى الرتبة؛ لبعده منزلة الحساب فى الشدة عن منزلة الإياب.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٢٥

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الغاشية من أسماء القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ قَالَ: السَّاعَةُ وَجُوهٌ يُؤْمِنُ خَاشِعَةً - عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ قَالَ: تعمل و تنصب فى النار تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ قَالَ: هى التى قد طال أنيها ليس لهم طعام إلا من ضريع قال: الشبرق. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا وَجُوهٌ يُؤْمِنُ خَاشِعَةً - عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ قَالَ:

يعنى اليهود و النصارى تخشع و لا ينفعها عملها تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ قَالَ: قد أنى غليانها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: تُصَلِّى نَارًا حَامِيَةً قَالَ: حَارَّةٌ، تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ قَالَ: انتهى حزها ليس لهم طعام إلا من ضريع يقول: من شجر من نار. و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ قَالَ: الشبرق اليابس. و أخرج ابن جرير عنه أيضا لا تَسْمَعُ فِيهَا لَاجِيَةً يقول: لا تسمع أذى و لا باطل و فى قوله: فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ قَالَ: بعضها فوق بعض وَ نَمَارِقُ قَالَ: مجالس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا وَ نَمَارِقُ قَالَ: المرافق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ قَالَ: جبار إلا من تولى وَ كَفَرَ قَالَ:

حسابه على الله. و أخرج أبو داود فى ناسخه عنه أيضا لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ثُمَّ نَسَخَ ذَلِكَ فَقَالَ: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «١». و أخرج ابن المنذر عنه أيضا إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ قَالَ: مرجعهم

(١). التوبة: ٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٢٦

## سورة الفجر

### إشارة

هى ثلاثون آية، و قيل: تسع و عشرون آية و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس، و النحاس فى ناسخه، و ابن مردويه و البيهقى من طرق عن ابن عباس قال: نزلت وَ الْفَجْرِ بِمَكَّةَ. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير و عائشة مثله. و أخرج النسائى عن جابر قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه فطول، فصلى فى ناحية المسجد ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذ فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: يا رسول الله جئت أصلى فطول على، فانصرفت فصليت فى ناحية المسجد فعلفت ناضحى؛ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أفتان أنت يا معاذ؟ أين أنت من سبوح اسم ربك الأعلى، و الشمس و ضحاها، و الفجر، و الليل إذا يغشى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 وَالْفَجْرِ (١) وَ لَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ (٣) وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤)  
 هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَ ثَمُودَ  
 الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩)  
 وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبُّكَ  
 لِبَالِمٍرٍصَادٍ (١٤)

أقسم سبحانه بهذه الأشياء كما أقسم بغيرها من مخلوقاته. و اختلف في الفجر الذي أقسم الله به هنا؛ فقيل:  
 هو الوقت المعروف، و سُمي فجرًا لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم. و قال قتادة: إنه فجر أول يوم من شهر محرّم؛  
 لأن منه تتفجر السنة. و قال مجاهد: يريد يوم النحر. و قال الضحاك: فجر ذى الحجة؛ لأن الله قرن الأيام به فقال: وَ لَيَالٍ عَشْرٍ أَي:  
 ليال من ذى الحجة، و به قال السدي و الكلبي.

و قيل المعنى: و صلاة الفجر أو ربّ الفجر. و الأول أولى. و جواب هذا القسم و ما بعده هو قوله: إِنَّ رَبُّكَ لِبَالِمٍرٍصَادٍ كذا قال  
 ابن الأنباري، و قيل: محذوف لدلالة السياق عليه، أي: ليجازين كل أحد بما عمل، أو ليعذبين، و قدّره أبو حيان بما دلت عليه  
 خاتمة السورة التي قبله، أي: و الفجر إلخ ... لإيابهم إلينا و حسابهم علينا، و هذا ضعيف جدًا. و أضعف منه قول من قال: إن  
 الجواب من قوله: هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ و أن هل بمعنى قد؛ لأن هذا لا يصح أن يكون مقسما عليه أبداً وَ لَيَالٍ عَشْرٍ هي  
 عشر ذى الحجة في قول جمهور المفسرين. و قال الضحاك: إنها الأواخر من رمضان، و قيل: العشر الأول من المحرم إلى  
 عاشرها يوم عاشوراء. قرأ الجمهور: لَيَالٍ بالتونين، و «عشر» صفة لها. و قرأ ابن عباس: و ليالى عشر بالإضافة، قيل: و المراد ليالى  
 أيام عشر، و كان حقه على هذا أن يقال عشرة،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٢٧

لأن المعدود مذكر. و أوجب عنه بأنه إذا حذف المعدود جاز الوجهان. وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ يَعْمَانُ كُلَّ الْأَشْيَاءِ شَفْعَهَا وَ  
 وَتَرَهَا، و قيل: شفع الليالي و وترها. و قال قتادة: الشفع و الوتر شفع الصلاة و وترها، منها شفع و منها وتر. و قيل: الشفع يوم عرفة  
 و يوم النحر، و الوتر: ليلة يوم النحر. و قال مجاهد و عطية العوفى: الشفع: الخلق، و الوتر: الله الواحد الصمد، و به قال محمد بن  
 سيرين و مسروق و أبو صالح و قتادة. و قال الربيع بن أنس و أبو العالية: هي صلاة المغرب فيها ركعتان و الوتر الركعة. و قال  
 الضحاك:

الشفع: عشر ذى الحجة، و الوتر: أيام منى الثلاثة، و به قال عطاء. و قيل: هما آدم و حواء، لأن آدم كان و ترا فشفع بحواء. و قيل:  
 الشفع: درجات الجنة و هي ثمان، و الوتر: دركات النار و هي سبع، و به قال الحسين بن الفضل. و قيل: الشفع الصفا و المروة، و  
 الوتر: الكعبة. و قال مقاتل: الشفع: الأيام و الليالي، و الوتر: اليوم الذي لا ليلة بعده، و هو يوم القيامة. و قال سفيان بن عيينة: الوتر:  
 هو الله سبحانه، و هو الشفع أيضا لقوله: مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ «١» الآية. و قال الحسن: المراد بالشفع و الوتر:  
 العدد كله؛ لأن العدد لا يخلو عنهما. و قيل: الشفع: مسجد مكة و المدينة، و الوتر: مسجد بيت المقدس. و قيل: الشفع حج  
 القران، و الوتر: الأفراد. و قيل: الشفع: الحيوان لأنه ذكر و أنثى، و الوتر:

الجماد. و قيل: الشفع: ما سُمي، و الوتر: ما لا يسمّى. و لا يخفاك ما في غالب هذه الأقوال من السقوط البين و الضعف الظاهر،

و الإنكار فى التعيين على مجرد الرأى الزائف، و الخاطر الخاطئ.

و الّذى ينبغى التعميل عليه و يتعين المصير إليه ما يدل عليه معنى الشفع و الوتر فى كلام العرب، و هما معروفان واضحان، فالشفع عند العرب: الزوج، و الوتر: الفرد. فالمراد بالآية إما نفس العدد أو ما يصدق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر. و إذا قام دليل على تعيين شىء من المعدودات فى تفسير هذه الآية، فإن كان الدليل يدلّ على أنه المراد نفسه دون غيره فذاك، و إن كان الدليل يدلّ على أنه مما تناولته هذه الآية لم يكن ذلك مانعا من تناولها لغيره. قرأ الجمهور «و الوتر» بفتح الواو. و قرأ حمزة و الكسائى و خلف بكسرها، و هى قراءة ابن مسعود و أصحابه و هما لغتان، و الفتح لغة قريش و أهل الحجاز، و الكسر لغة تميم، قال الأصمعى: كلّ فرد وتر، و أهل الحجاز يفتحون فيقولون وتر فى الفرد. و حكى يونس عن ابن كثير أنه قرأ بفتح الواو و كسر التاء، فيحتمل أن تكون لغة ثالثة، و يحتمل أنه نقل كسرة الرءاء إلى التاء إجراء للوصل مجرى الوقف و اللّيل إذا يَسِرّ قرأ الجمهور يَسِرّ بحذف الياء وصلًا و وقفا اتباعا لرسم المصحف. و قرأ نافع و أبو عمرو بحذفها فى الوقف و إثباتها فى الوصل. و قرأ ابن كثير و ابن محيىصن و يعقوب بإثباتها فى الوصل و الوقف. قال الخليل: تسقط الياء موافقة لرؤوس الآى. قال الزجاج: و الحذف أحب إلّى لأنها فاصلة و الفواصل تحذف منها الياءات. قال الفرّاء: قد تحذف العرب الياء و تكتفى بكسر ما قبلها، و أنشد بعضهم:

كفّاك كفّ ما تليق درهما جودا و أخرى تعطى بالسيف الدّما

(١). المجادلة: ٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٢٨

ما تليق؛ أى: ما تمسك. قال المؤرّج: سألت الأخصش عن العلة فى إسقاط الياء من يسر فقال: لا أجيبك حتى تبيت على باب دارى سنة، فبتّ على باب داره سنة فقال: الليل لا يسرى، و إنما يسرى فيه، فهو مصروف عن جهته، و كلّ ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه، ألا ترى إلى قوله: و ما كانت أمّك بعيا «١» و لم يقل بغية؛ لأنه صرفها من باغية.

و فى كلام الأخصش هذا نظر، فإن صرف الشىء عن معناه لسبب من الأسباب لا يستلزم صرف لفظه عن بعض ما يستحقه، و لو صحّ ذلك للزم فى كلّ المجازات العقلية و اللفظية، و اللازم باطل فالملزوم مثله، و الأصل ها هنا إثبات الياء؛ لأنها لام الفعل المضارع المرفوع، و لم تحذف لعله من العلل إلا لاتباع رسم المصحف و موافقة رؤوس الآى إجراء للفواصل مجرى القوافى، و معنى و اللّيل إذا يَسِرّ إذا يمضى، كقوله:

و اللّيل إذ أدبر «٢». و اللّيل إذا عسعس «٣» و قيل: معنى يسر: يسار فيه، كما يقال: ليل نائم و نهار صائم، كما فى قول الشاعر «٤»:

لقد لمتنا يا أمّ غيلان فى السرى و نمت و ما ليل المطى بنائم

و بهذا قال الأخصش و القتبى و غيرهما من أهل المعانى، و بالأوّل قال جمهور المفسرين. و قال قتادة و أبو العالية: و اللّيل إذا يَسِرّ أى جاء و أقبل. و قال النخعى: أى استوى. قال عكرمة و قتادة و الكلبى و محمد ابن كعب: هى ليلة المزدلفة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله سبحانه، و قيل: ليلة القدر لسراية الرحمة فيها. و الراجح عدم تخصيص ليلة من الليالى دون أخرى هيل فى ذلك قسّم لئدى حجّر هذا الاستفهام لتقرير تعظيم ما أقسم سبحانه به و تفخيمه من هذه الأمور المذكورة، و الإشارة بقوله:

ذالك إلى تلك الأمور، و التذكير بتأويل المذكور، أى: هل فى ذلك المذكور، من الأمور التى أقسمنا بها قسم، أى مقسم به حقيق بأن تؤكد به الأخبار لئدى حجّر أى: عقل و لب، فمن كان ذا عقل و لب علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن



يقسم به، و مثل هذا قوله: وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ «٥». قال الحسن: لِدَى حِجْرٍ أَى: لذى حلم. و قال أبو مالك: لذى ستر من الناس. و قال الجمهور: الحجر: العقل. قال الفراء: الكل يرجع إلى معنى واحد، لذى عقل و لذى حلم و لذى ستر، الكل بمعنى العقل. و أصل الحجر: المنع، يقال لمن ملك نفسه و منعها: إنه لذو حجر، و منه سمي الحجر لامتناعه بصلابته، و منه حجر الحاكم على فلان، أَى: منعه. قال و العرب تقول: إنه لذو حجر؛ إذا كان قاهرا لنفسه ضابطا لها. ثم ذكر سبحانه على طريقة الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم و عنادهم و تكذيبهم للرسول تحذيرا للكفار فى عصر نبينا صلى الله عليه و سلم و تخويفا لهم أن يصيبهم ما أصابهم

(١). مريم: ٢٨.

(٢). المدثر: ٣٣.

(٣). التكويز: ١٧.

(٤). هو جرير.

(٥). الواقعة: ٧٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٢٩

فقال: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ - إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ قرأ الجمهور بتنوين: عاد على أن يكون إرم عطف بيان لعاد، و المراد بعاد اسم أبيهم، و إرم: اسم القبيلة أو بدلا منه، و امتناع صرف إرم للتعريف و التأنيث. و قيل: المراد بعاد أولاد عاد، و هم عاد الأولى، و يقال لمن بعدهم عاد الأخرى، فيكون ذكر إرم على طريقة عطف البيان أو البدل؛ للدلالة على أنهم عاد الأولى لا عاد الأخرى، و لا بد من تقدير مضاف على كلا القولين: أَى أهل إرم، أو سبط إرم؟ فإن إرم هو جد عاد، لأنه عاد بن إرم بن عوص بن سام ابن نوح. و قرأ الحسن و أبو العالیه بإضافة عاد إلى إرم. و قرأ الجمهور: إِرَمَ بكسر الهمزة. و فتح الراء و الميم. و قرأ الحسن و مجاهد و قتادة و الضحاک إِرَمَ بفتح الهمزة و الراء، و قرأ معاذ بسكون الراء تخفيفا، و قرئ بإضافة إرم إلى ذات العماد. قال مجاهد: من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالإرم التى هى الأعلام واحدا إرم، و فى الكلام تقديم و تأخير، أَى: و الفجر كذا و كذا إِنَّ رَبُّكَ لِبِالْمِرْصَادِ أَلَمْ تَرَ، أَى: ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد، و هذه الرؤية رؤية القلب، و الخطاب للنبي، أو لكل من يصلح له، و قد كان أمر عاد و ثمود مشهورا عند العرب؛ لأن ديارهم متصله بديار العرب، و كانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر فرعون. و قال مجاهد أيضا: إرم: أمة من الأمم، و قال قتادة: هى قبيلة من عاد، و قيل: هما عادان، فالأولى هى إرم، و منه قول قيس بن الرقيات:

مجدا تليدا بناه أولهم أدرك عادا و قبله إرما

قال معمر: إرم إليه مجتمع عاد و ثمود، و كان يقال: عاد إرم و عاد و ثمود، و كانت القبيلتان تنسب إلى إرم. قال أبو عبيدة: هما عادان، فالأولى إرم. و معنى ذات العماد: ذات القوة و الشدة، مأخوذ من قوة الأعمدة، كذا قال الضحاک: و قال قتادة و مجاهد: إنهم كانوا أهل عمد سياره فى الربيع، فإذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم. و قال مقاتل: ذات العماد يعنى طولهم، كان طول الرجل منهم اثنى عشرة ذراعا، و يقال رجل طويل العماد: أَى القامة. قال أبو عبيدة: ذات العماد ذات الطول، يقال رجل معمد: إذا كان طويلا.

و قال مجاهد و قتادة: أيضا كان عمادا لقومهم، يقال: فلان عميد القوم و عمودهم، أَى: سيدهم. و قال ابن زيد: ذات العماد يعنى إحكام البنيان بالعمد. قال فى الصحاح: و العماد: الأبنية الرفيعة، تذكر و تؤنث، قال عمرو بن كلثوم:

و نحن إذا عماد الحى خرت على الأخفاض نمنع من يلينا

وقال عكرمة وسعيد المقبرى: هى دمشق، ورواه ابن وهب وأشهب عن مالك. وقال محمد بن كعب:

هى الإسكندرية. التى لم يخلق مثلها فى البلاد هذه صفة لعاد، أى: لم يخلق مثل تلك القبيلة فى الطول والشدة والقوة، وهم الذين قالوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً «١» أو صفة للقريه على قول من قال: إن إرم اسم

(١). فصلت: ١٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٣٠

لقريتهم أو للأرض التى كانوا فيها. والأولى أولى. ويدل عليه قراءة أبى التى لم يخلق مثلهم فى البلاد وقيل: الإرم: الهلاك. قال الضحاك إرم ذات العماد: أى أهلكهم فجعلهم رميما، وبه قال شهر بن حوشب. وقد ذكر جماعة من المفسرين أن إرم ذات العماد اسم مدينة مبنية بالذهب والفضة قصورها ودورها وساتينها، وإن حصباها جواهر و ترابها مسك، و ليس بها أنيس ولا فيها ساكن من بنى آدم، وإنها لا تزال تنتقل من موضع إلى موضع، فتارة تكون باليمن، وتارة تكون بالشام، وتارة تكون بالعراق، وتارة تكون بسائر البلاد، وهذا كذب بحت لا ينفق على من له أدنى تمييز. وزاد الثعلبى فى تفسيره فقال: إن عبد الله ابن قلابه فى زمان معاوية دخل هذه المدينة، وهذا كذب على كذب و افتراء على افتراء، وقد أصيب الإسلام وأهله بداهية دهياء وفاقره عظمى و رزية كبرى من أمثال هؤلاء الكذابين الدجالين الذين يجترءون على الكذب، تارة على بنى إسرائيل، وتارة على الأنبياء، وتارة على الصالحين، وتارة على رب العالمين، وتضاعف هذا الشر و زاد كثرة بتصدّر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضعيفها من موضوعها للتصنيف والتفسير للكتاب العزيز، فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة والأقاصيص المنحولة والأساطير المفتعلة فى تفسير كتاب الله سبحانه، فحرّفوا وغيروا وبدّلوا. و من أراد أن يقف على بعض ما ذكرنا فلينظر فى كتابى الذى سمّيته:

«الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعه».

ثم عطف سبحانه القبيلة الآخرة، وهى ثمود على قبيلة عاد فقال: وَ تَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَ هم قوم صالح سموا باسم جدّهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، ومعنى جابوا الصخر: قطعوه، والجوب القطع، ومنه جاب البلاد: إذا قطعها، ومنه سمى جيب القميص لأنه جيب، أى: قطع. قال المفسرون: أوّل من نحت الجبال و الصخور ثمود، فبنوا من المدائن ألفا و سبعمائة مدينة كلها من الحجارة، و منه قوله سبحانه: وَ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا «١» و كانوا ينحتون الجبال و ينقبونها و يجعلون تلك الأنقاب بيوتا يسكنون فيها، وقوله: بِالْوَادِ مُتَّعِينَ بِجَبَابِ، أو بمحذوف على أنه حال من الصخر، و هو وادى القرى. قرأ الجمهور: تَمُودَ بمنع الصرف على أنه اسم للقبيلة، ففیه التأنيث و التعريف.

و قرأ يحيى بن وثّاب بالصرف على أنه اسم لأبيها. و قرأ الجمهور أيضا بالواد بحذف الياء وصلا و وفقا اتباعا لرسم المصحف. و قرأ ابن كثير بإثباتها فيهما. و قرأ قبل فى رواية عنه بإثباتها فى الوصل دون الوقف وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ أى: ذو الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد، أو جعل الجنود أنفسهم أوتادا لأنهم يشدون الملك كما تشد الأوتاد الخيام، و قيل: كان له أوتاد يعذب الناس بها و يشدهم إليها. و قد تقدم بيان هذا فى سورة ص الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ الموصول صفة لعاد و ثمود و فرعون، أى: طغت كل طائفة منهم فى بلادهم و تمرّدت و عتت، و الطغيان: مجاوزة الحدّ فَكَثُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ بالكفر و معاصى الله و الجور على عباده، و يجوز أن يكون الموصول فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هم الذين طغوا،

(١). الشعراء: ١٤٩.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٣١

أو في محل نصب على الذمّ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ أَيْ: أفرغ عليهم و ألقى على تلك الطوائف سوط عذاب، و هو ما عَذَّبَهُمْ بِهِ. قال الزجاج: جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب، يقال: صبّ على فلان خلعة، أَيْ: ألقاها عليه، و منه قول النابغة: فَصَبَّ عَلَيْهِ اللَّهُ أَحْسَنَ صَنْعِهِ وَ كَانَ لَهُ بَيْنَ الْبَرِيَّةِ نَاصِرًا وَ مِنْهُ قَوْلُ الْآخِرِ:

ألم تر أنّ الله أظهر دينه و صبّ على الكفار سوط عذاب

و معنى سوط عذاب: نصيب عذاب، و ذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم هو بالنسبة إلى ما أعدّه لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به. و قيل: ذكر السوط للدلالة على شدة ما نزل بهم، و كان السوط عندهم هو نهاية ما يعذب به. قال الفراء: هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب، و أصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يعذبون به، فجرى لكل عذاب إذا كان فيه عندهم غاية العذاب. و قيل معناه: عذاب يخالط اللحم و الدم، من قولهم: يسوطه سوطاً، أَيْ: خلطه، فالسوط: خلط الشيء بعضه ببعض، و منه قول كعب بن زهير:

لكنّها خلّة قد سيط من دمها فجع و ولع «١» و إخلاف و تبديل

و قال الآخر:

أ حارث إنّا لو تساط دماؤنا ترايلن حتّى لا يمسّ دم دما

و قال آخر:

فسطها ذميم الرأى غير موفّق فلست على تسويتها بمعان

إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ قَدْ قَدَّمْنَا قَوْلَ مَنْ قَالَ إِنَّ هَذَا جَوَابُ الْقِسْمِ. و الأولى أن الجواب محذوف، و هذه الجملة تعليل لما قبلها، و فيها إرشاد إلى أن كفار قومه صلّى الله عليه و سلّم سيصيبهم ما أصاب أولئك الكفار، و معنى بالمرصاد: أنه يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه عليه بالخير خيراً و بالشرّ شرّاً. قال الحسن و عكرمة: أى عليه طريق العباد لا يفوته أحد، و الرصد و المرصاد: الطريق. و قد تقدّم بيانه في سورة براءة، و تقدّم أيضاً عند قوله: إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً «٢».

و قد أخرج الفريابي و ابن جرير و ابن أبي حاتم، و الحاكم و صححه، و البيهقي في الشعب، عن ابن عباس في قوله: وَ الْفَجْرِ قَالَ: فجر النهار. و أخرج ابن جرير عنه قال: يعنى صلاة الفجر. و أخرج سعيد

(١). «فجع»: إصابته بمكروه. «ولع»: كذب.

(٢). النبأ: ٢١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٣٢

ابن منصور و البيهقي في الشعب و ابن عساكر عنه أيضاً في قوله: وَ الْفَجْرِ قَالَ: هو المحرّم فجر السنّة، و قد ورد في فضل صوم شهر محرّم أحاديث صحيحة، و لكنها لا تدلّ على أنه المراد بالآية لا مطابقتها و لا تضمنا و لا التزاماً. و أخرج أحمد و النسائي و البزار و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب، عن جابر «أن النبي صلّى الله عليه و سلّم قال: وَ الْفَجْرِ - وَ لِيَالِ عَشْرِ - وَ الشَّفَعِ وَ الْوَتْرِ قَالَ: إن العشر عشر الأضحى، و الوتر: يوم عرفه، و الشفع: يوم النحر. و في لفظ: هي ليالي من ذى الحجة».

و أخرج عبد بن حميد عن طلحة بن عبد الله أنه دخل على ابن عمر هو و أبو سلمة بن عبد الرحمن فدعاهم ابن عمر إلى الغداء يوم عرفته، فقال أبو سلمة: أليس هذه الليالي العشر التي ذكرها الله في القرآن؟ فقال ابن عمر:

و ما يدريك؟ قال: ما أشك، قال: بلى فشكك. و قد ورد في فضل هذه العشر أحاديث. و ليس فيها ما يدل على أنها المرادة بما في القرآن هنا بوجه من الوجوه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله:

وَ لَيَالٍ عَشْرٍ قال: هي العشر الأواخر من رمضان. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و الترمذي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و صححه عن عمران بن حصين «أن النبي صلى الله عليه و سلم سئل عن الشفع و الوتر، فقال:

هي الصلاة بعضها شفع و بعضها وتر». و في إسناده رجل مجهول، و هو الراوى له عن عمران بن حصين.

و قد روى عن عمران بن عصام عن عمران بن حصين بإسقاط الرجل المجهول. و قال الترمذي بعد إخراجه بالإسناد الذي فيه الرجل المجهول: هو حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة. قال ابن كثير: و عندي أن وقفه على عمران بن حصين أشبه، و

الله أعلم. قال: و لم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشفع و الوتر. و قد أخرج هذا الحديث موقوفا على عمران بن حصين عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير، فهذا يقوى ما قاله ابن كثير. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله: وَ

الشَّفْعُ وَ الوُتْرُ فقال: كل شيء شفع فهو اثنان، و الوتر واحد. و أخرج الطبراني و ابن مردويه - قال السيوطي: بسند ضعيف - عن أبي أيوب عن النبي صلى الله عليه و سلم: «أنه سئل عن الشفع و الوتر فقال: يومان و ليلة، يوم عرفته، و يوم النحر، و الوتر ليلة

النحر ليلة جمع». و أخرج ابن جرير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «الشفع اليومان، و الوتر اليوم الثالث». و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن سعد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير أنه سئل عن الشفع و الوتر فقال: الشفع: قول الله فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ «١» و الوتر: اليوم الثالث. و في لفظ: الوتر

أوسط أيام التشريق. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب، من طرق عن ابن عباس قال: الشفع:

يوم النحر، و الوتر: يوم عرفته. و أخرج ابن جرير عنه وَ اللَّيْلُ إِذَا يَسَّرَ قال: إذا ذهب. و أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ وَ الفَجْرِ إِلَى قوله: إِذَا يَسَّرَ قال: هذا قسم على إن ربك بالمرصاد.

و أخرج الفريابي و ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و البيهقي في الشعب،

(١). البقرة: ٢٠٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٣٣

من طرق عن ابن عباس في قوله: قَسَمَ لِأَيِّ حِجْرٍ قال: لذى حجي و عقل و نهى. و أخرج ابن جرير عنه في قوله: بِعَادٍ - إِرْمَ قال: يعني بالإيرم: الهالك، ألا ترى أنك تقول: أرم بنو فلان، ذات العِمَادِ يعني طولهم مثل العماد. و أخرج ابن أبي حاتم و ابن

مردويه عن المقدم بن معدى كرب عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه ذكر إِرْمَ ذاتِ العِمَادِ فقال: «كان الرجل منهم يأتي إلى الصخرة فيحملها على كاهله فيلقبها على أي حَيٍّ» أراد فيهلكهم. و في إسناده رجل مجهول؛ لأن معاوية بن صالح رواه عن

حدّثه عن المقدم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ قال: و أخرج ابن جرير عنه في الآية قال: كانوا ينحتون من الجبال بيوتا وَ فِرْعَوْنُ ذِي الأوتادِ قال: الأوتاد: الجنود الذين يشدون أمره. و أخرج

الحاكم و صححه، عن ابن مسعود في قوله: ذِي الأوتادِ قال: وتد فرعون لامراته أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رحي عظيمة حتى ماتت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و البيهقي عن ابن عباس في قوله: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ قال: يسمع و

يرى. و أخرج الحاكم و صححه، و البيهقي في الأسماء و الصفات، عن ابن مسعود في قوله: إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ قَالَ: من وراء الصراط جسر: جسر عليه الأمانة، و جسر عليه الرحم، و جسر عليه الرب عز و جل.

### [سورة الفجر (٨٩): الآيات ١٥ الى ٣٠]

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَ لَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَ تَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَ تَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلَّا- إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَ جَاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صِفًّا صَفًّا (٢٢) وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَ أُنَىٰ لَهُ الذُّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا (٢٥) وَ لَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا (٢٦) يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَ ادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)

لما ذكر سبحانه أنه بالمرصاد ذكر ما يدل على اختلاف أحوال عباده عند إصابه الخير و عند إصابه الشر، و أن مطمح أنظارهم و معظم مقاصدهم هو الدنيا فقال: فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ أَى: امتحنه و اختبره بالنعم فأكرمه وَ نَعَّمَهُ أَى: أكرمه بالمال و وسّع عليه رزقه فيقول رَبِّي أَكْرَمَنِ فرحا بما نال و سرورا بما أعطى، غير شاكر لله على ذلك و لا خاطر بباله أن ذلك امتحان له من ربه و اختبار لحاله و كشف لما يشتمل عليه من الصبر و الجزع و الشكر للنعمة و كفرانها، و «ما» فى قوله: فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ تفسير للابتلاء. و معنى أَكْرَمَنِ أَى: فضلنى بما أعطانى من المال و أسبغنى على من النعم لمزيد استحقاقى لذلك و كونى موضعا له، و الإنسان مبتدأ، و خبره «فيقول ربى أكرمن» و دخلت الفاء فيه لتضمن أما معنى الشرط، و الظرف المتوسط بين المبتدأ و الخبر و إن تقدّم لفظا فهو مؤخر فى المعنى، أَى: فأما الإنسان فيقول ربى أكرمنى وقت ابتلائه بالإنعام. قال الكلبي: الإنسان هو الكافر أبى بن خلف. و قال مقاتل: نزلت فى أمية بن خلف،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٣٤

وقيل: نزلت فى عتبة بن ربيعة و أبى حذيفة بن المغيرة وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ أَى: اختبره و عامله معاملته من يختبره فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ أَى: ضيقه و لم يوسعه له، و لا بسط له فيه فيقول رَبِّي أَهَانَنِ أَى:

أولانى هوانا. و هذه صفة الكافر العذى لا يؤمن بالبعث، لأنه لا كرامه عنده إلا الدنيا فى متاعها، و لا إهانة عنده إلا فوتها و عدم وصوله إلى ما يريد من زيتها، فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته و يوفقه لعمل الآخرة، و يحتمل أن يراد الإنسان على العموم لعدم تيقظه أن ما صار إليه من الخير و ما أصيب به من الشر فى الدنيا ليس إلا للاختبار و الامتحان، و أن الدنيا بأسرها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، و لو كانت تعدل جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء. قرأ نافع بإثبات الياء فى «أكرمن و أهانن» وصلا و حذفهما وقفا، و قرأ ابن كثير فى رواية البزى عنه و ابن محيصن و يعقوب بإثباتهما وصلا و وقفا، و قرأ الباقون بحذفهما فى الوصل و الوقف اتباعا لرسم المصحف و لموافقته رؤوس الآى، و الأصل إثباتها لأنها اسم، و من الحذف قول الشاعر:

و من كاشح ظاهر غمره إذا ما انتصبت له أنكرن

أى: أنكرنى. و قرأ الجمهور «فقدر» بالتخفيف، و قرأ ابن عامر بالتشديد، و هما لغتان. و قرأ الحرميان و أبو عمرو «ربى» بفتح الياء فى الموضعين و أسكنها الباقون. و قوله: كَلَّا ردع للإنسان القائل فى الحالين ما قال: و زجر له، فإن الله سبحانه قد يوسع الرزق و

يسقط النعم للإنسان لا- لكرامته، و يضيفه عليه لا- لإهانتته، بل للاختبار و الامتحان كما تقدّم. قال الفراء: كلّاً في هذا الموضع بمعنى أنه لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا، و لكن يحمّد الله على الغنى و الفقر. ثم انتقل سبحانه من بيان سوء أقوال الإنسان إلى بيان سوء أفعاله فقال: بَيْلٌ لا- تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ و الالتفات إلى الخطاب لقصد التوبيخ و التقرّيع على قراءة الجمهور بالفوقية. و قرأ أبو عمرو و يعقوب بالتحتيّة على الخبر، و هكذا اختلفوا فيما بعد هذا من الأفعال، فقرأ الجمهور «تحضون، و تأكلون، و تحبون» بالفوقية على الخطاب فيها. و قرأ أبو عمرو و يعقوب بالتحتيّة فيها، و الجمع في هذه الأفعال باعتبار معنى الإنسان، لأن المراد به الجنس، أى: بل لكم أفعال هى أقبح مما ذكر، و هى أنكم تتركون إكرام اليتيم فتأكلون ماله و تمنعونه من فضل أموالكم. قال مقاتل: نزلت في قدامة بن مظعون و كان يتيما في حجر أمية بن خلف. وَ لا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ قرأ الجمهور «تحضون» من حَضَّه على كذا، أى: أغراه به، و مفعوله محذوف، أى: لا- تحضون أنفسكم، أو لا- يحضّ بعضكم بعضا على ذلك و لا- يأمر به و لا- يرشد إليه، و قرأ الكوفيون «تحاضون» بفتح التاء و الحاء بعدها ألف، و أصله تتحاضون، فحذف إحدى التاءين، أى: لا يحضّ بعضكم بعضا. و قرأ الكسائي في رواية عنه و السلمي «تحاضون» بضم التاء من الحضّ، و هو الحث. و قوله: عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ متعلّق بتحضون، و هو إما اسم مصدر، أى: على إطعام المسكين، أو اسم للمطعم، و يكون على حذف مضاف، أى: على بذل طعام المسكين، أو على إعطاء طعام المسكين وَ تَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أصله الوراث، فأبدلت التاء من الواو المضمومة، كما في تجاه و جاه، و المراد به أموال اليتامى الذين يرثونه من قراباتهم، و كذلك أموال النساء،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٣٥

و ذلك أنهم كانوا لا- يورثون النساء و الصبيان و يأكلون أموالهم أَكْلًا لَمَّا أى: أكلا شديدا، و قيل معنى لَمَّا: جمعا، من قولهم: لممت الطعام؛ إذا أكلته جميعا. قال الحسن: يأكل نصيبه و نصيب اليتيم، و كذا قال أبو عبيدة: و أصل اللَّمَّ في كلام العرب: الجمع، يقال: لممت الشيء ألمه لما: جمعته، و منه قولهم: لَمَّ اللهُ شعثه: أى جمع ما تفرّق من أموره، و منه قول النابغة: و لست بمستبق أخا لا تلمّه على شعث أى الرّجال المهذب

قال الليث: اللَّمَّ: الجمع الشديد، و منه حجر ملموم، و كتيبة ملمومة، و للاكل: يلمّ الثريد فيجمعه ثم يأكله. و قال مجاهد: يسفّه سفا. و قال ابن زيد: هو إذا أكل ماله ألم غيره فأكله و لا يفكر فيما أكل من خبيث و طيب وَ تُجْبُونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا أى: حبا كثيرا، و الجَمُّ: الكثير، يقال: جمّ الماء في الحوض؛ إذا كثر و اجتمع، و الجملة: المكان الذى يجتمع فيه الماء. ثم كثر سبحانه الردع لهم و الزجر فقال كلّاً أى: ما هكذا ينبغي أن يكون عملكم. ثم استأنف سبحانه فقال إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا و فيه وعيد لهم بعد الردع و الزجر، و الدكّ: الكسر و الدق، و المعنى هنا: أنها زلزلت و حركت تحريكا بعد تحريك. قال ابن قتيبة: دكّت جبالها حتى استوت. قال الزّجاج: أى: تزلزلت فدكّ بعضها بعضا. قال المبرد: أى: بسطت و ذهب ارتفاعها. قال: و الدكّ: حطّ المرتفع بالبسط، و قد تقدّم الكلام على الدكّ في سورة الأعراف، و فى سورة الحاقة. و المعنى: أنها دكت مرة بعد أخرى، و انتصاب «دكا» الأوّل على أنه مصدر مؤكد للفعل، و «دكا» الثانى تأكيد للأوّل، كذا قال ابن عصفور. و يجوز أن يكون النصب على الحال، أى: حال كونها مدكوكة مرة بعد مرة، كما يقال: علّمته الحساب بابا بابا، و علّمته الخطّ حرفا حرفا، و المعنى: أنه كثر الدكّ عليها حتى صارت هباء منبثا. وَ جَاءَ رَبُّكَ أى: جاء أمره و قضاؤه و ظهرت آياته، و قيل: المعنى: أنها زالت الشبه في ذلك اليوم، و ظهرت المعارف، و صارت ضرورية، كما يزول الشكّ عن مجيء الشيء الذى كان يشكّ فيه، و قيل: جاء قهر ربك و سلطانه و انفراده و التدبير من دون أن يجعل إلى أحد من عباده شيئا من ذلك وَ الْمَلِكُ صَيِّفًا صَفًّا انتصاب «صفا صفا» على الحال، أى:

مصطفين، أو ذوى صفوف. قال عطاء: يريد صفوف الملائكة، وأهل كل سماء صف كل على حدة.

قال الضحاك: أهل كل سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفا محيطين بالأرض و من فيها، فيكونون سبعة صفوف و جىء يومئذ بجهنم «يومئذ» منصوب بجىء، والقائم مقام الفاعل بجهنم، و جوز مكى أن يكون يومئذ هو القائم مقام الفاعل، و ليس بذاك. قال الواحدى: قال جماعة من المفسرين: جىء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجزونها حتى تنصب عن يسار العرش، فلا يبقى ملك مقرب و لا نبي مرسل إلا جثا لركبته يقول: يا رب نفسى نفسى. و سيأتى الذى نقله هذا عن جماعة المفسرين مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم إن شاء الله. يومئذ يتذكر الإنسان «يومئذ» هذا بدل من يومئذ الذى قبله، أى: يوم جىء بجهنم يتذكر الإنسان، أى: يتعظ و يذكر ما فرط منه و يندم على ما قدمه فى الدنيا من الكفر و المعاصى. و قيل: إن قوله «يومئذ» الثانى بدل من قوله «إذا دكت» و العامل فيهما هو قوله:

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٣٦

يتذكر الإنسان و أنى له الذكرى أى: و من أين له التذكر و الاعتاظ، و قيل: هو على حذف مضاف، أى: و من أين له منفعة الذكرى. قال الزجاج: يظهر التوبة و من أين له التوبة؟ يقول يا ليتنى قدمت لحياتى الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا يقول الإنسان، و يجوز أن تكون بدل اشتمال من قوله: يتذكر، و المعنى: يتمنى أنه قدم الخير و العمل الصالح، و اللام فى لحياتى بمعنى لأجل حياتى، و المراد حياة الآخرة، فإنها الحياة بالحقيقة؛ لأنها دائمة غير منقطعة. و قيل: إن اللام بمعنى فى، و المراد حياة الدنيا، أى: يا ليتنى قدمت الأعمال الصالحة فى وقت حياتى فى الدنيا أنتفع بها هذا اليوم، و الأول أولى.

قال الحسن: علم و الله أنه صادف حياة طويلة لا موت فيها فيؤمئذ لا يعذب عذابه أحد أى: يوم يكون زمان ما ذكر من الأحوال لا يعذب كعذاب الله أحد و لا يوثق ك وثاقه أحد أو لا يتولى عذاب الله و وثاقه أحد سواء إذ الأمر كله له، و الضميران على التقديرين فى عذابه و وثاقه لله عز و جل، و هذا على قراءة الجمهور يعذب و يوثق مبنيين للفاعل. و قرأ الكسائى على البناء للمفعول فيهما، فيكون الضميران راجعين إلى الإنسان، أى: لا يعذب كعذاب ذلك الإنسان أحد و لا يوثق كوثاقه أحد، و المراد بالإنسان الكافر، أى: لا يعذب من ليس بكافر كعذاب الكافر، و قيل: إبليس، و قيل: المراد به أبى بن خلف.

قال الفراء: المعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد، و لا يوثق بالسلاسل و الأغلال كوثاقه أحد لتناهيه فى الكفر و العناد. و قيل: المعنى: أنه لا يعذب مكانه أحد و لا يوثق مكانه أحد، و لا تؤخذ منه فدية، و هو كقوله: و لا تزر وازرة وزر أخرى «١» و العذاب بمعنى التعذيب، و الوثاق بمعنى التوثيق، و اختار أبو عبيد و أبو حاتم قراءة الكسائى، قال: و تكون الهاء فى الموضوعين ضمير الكافر؛ لأنه معروف أنه لا يعذب أحد كعذاب الله. قال أبو على الفارسى: يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة، أى: لا يعذب أحد أحدا مثل تعذيب هذا الكافر.

و لما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء ذكر بعض أحوال السعداء فقال يا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ الْمُطْمَئِنَّةُ: هى الساكنة الموقنة بالإيمان و توحيد الله، الواصلة إلى ثلج اليقين؛ بحيث لا يخالطها شك و لا يعترها ريب. قال الحسن: هى المؤمنة الموقنة. و قال مجاهد: الراضية بقضاء الله التى علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، و أن ما أصابها لم يكن ليخطئها. و قال مقاتل، هى الآمنة المطمئنة. و قال ابن كيسان: المطمئنة بذكر الله، و قيل: المخلصة. قال ابن زيد: المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت و عند البعث ارجعى إلى ربك أى: ارجعى إلى الله راضيةً بالثواب الذى أعطاك مرضيةً عنده، و قيل: ارجعى إلى مواعده، و قيل: إلى أمره. و قال عكرمة و عطاء: معنى ارجعى إلى ربك إلى جسدك الذى كنت فيه، و اختاره ابن جرير، و يدل على هذا قراءة ابن عباس «فادخلى فى عبدى» بالفراد، و الأول أولى فأدخلى فى عبادى أى: فى زمرة عبادى الصالحين، و كونى من جملتهم، و انتظمتى فى سلكهم

(١). الأنعام: ١٦٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٣٧

وَ ادْخُلِي جَنَّتِي معهم، قيل: إنه يقال لها ارجعي إلى ربك عند خروجها من الدنيا، و يقال لها: ادخلي في عبادي و ادخلي جنتي يوم القيامة، و المراد بالآية كل نفس مطمئنة على العموم، و لا- ينافي ذلك نزولها في نفس معينة، فالاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: أَكَلًا لَمَّا قَالَ: سفا، و في قوله: حُبًّا جَمًّا قال: شديدا، و أخرج ابن جرير عنه أَكَلًا لَمَّا قَالَ: شديدا.

و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله: إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا قال: تحريكها. و أخرج مسلم و الترمذي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«يُوتَى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجزونها». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس وَ أَنَّى لَهُ الذُّكْرَى يقول: و كيف له؟ و أخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: فَيَوْمَئِذٍ لَا- يُعَذِّبُ الْآيَةَ قال: لا يعذب بعذاب الله أحد و لا يوثق بوثق الله أحد. و أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه، و الضياء في المختارة، عنه أيضا في قوله: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ قال: المؤمنة ارجعي إلى ربك يقول: إلى جسدك. قال: «نزلت هذه الآية و أبو بكر جالس، فقال: يا رسول الله ما أحسن هذا، فقال: أما إنه سيقال لك هذا». و أخرج عبد بن حميد و ابن أبي حاتم و ابن مردويه، و أبو نعيم في الحلية، عن سعيد بن جبيرة نحوه مرسلا. و أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول نحوه عن أبي بكر الصديق و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ قال: هو النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ المصدقة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا في الآية قال: تردّ الأرواح يوم القيامة في الأجساد. و أخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله: ارجعي إلى ربك راضية قال: بما أعطيت من الثواب مَرْضِيَّةً عنها بعملها فَادْخُلِي فِي عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ. و أخرج ابن أبي حاتم و الطبراني عن سعيد بن جبيرة قال: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طير لم ير على خلقته فدخل نعشه، ثم لم ير خارجا منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفيع القبر لا ندرى من تلاها يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ- ارجعي إلى ربك راضية مَرْضِيَّةً- فَادْخُلِي فِي عِبَادِي- وَ ادْخُلِي جَنَّتِي و أخرج أبو نعيم في الدلائل عن عكرمة مثله.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٣٨

## سورة البلد

### إشارة

و يقال سورة: لا أقسم، هي عشرون آية و هي مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة لا أقسم بهذا البلد بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة البلد (٩٠): الآيات ١ الى ٢٠]



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَ وَالِدٍ وَ مَا وَلَدٌ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤)  
أَ يُحْسِبُ أَنَّ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَّا لُبُدًا (٦) أَ يَحْسِبُ أَنَّ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَ لِسَانًا وَ  
شَفَتَيْنِ (٩)

وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤)  
يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ  
الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩)  
عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢٠)

قوله: لا أُقْسِمُ لا زائدة، و المعنى أقسم بهذا البلد و قد تقدّم الكلام على هذا في تفسير لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ «١»، و من زيادة «لا»  
في الكلام في غير القسم قول الشاعر:

تذكرت ليلي فاعترتني صبا به و كاد صميم القلب لا يتصدّع «٢»

أى: يتصدّع، و من ذلك قوله: ما منعك ألا تسجد «٣» أى: أن تسجد. قال الواحدي:

أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام و هو مكة. قرأ الجمهور «لا أقسم» و قرأ الحسن و الأعمش «لأقسم» من غير ألف،  
و قيل: هو نفى للقسم، و المعنى: لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه. و قال مجاهد: إن «لا» ردّ على من أنكر  
البعث، ثم ابتداء فقال أقسم، و المعنى: ليس الأمر كما تحسبون، و الأول أولى. و المعنى: أقسم بالبلد الحرام الذي أنت حلّ فيه. و  
قال الواحدي: إن المراد بالبلد المدينة، و هو مع كونه خلاف إجماع المفسرين هو أيضا مدفوع لكون السورة مكية لا مدنية، و  
جملة قوله: وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ معترضة، و المعنى: أقسم بهذا البلد وَ وَالِدٍ وَ مَا وَلَدٌ - لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ و اعترض  
بينهما بهذه الجملة، و المعنى: و من المكابد أن مثلك على عظيم حرمة يستحل بهذا البلد كما يستحل الصيد في غير الحرم. و  
قال الواحدي: الحلّ و الحلال و المحل واحد، و هو ضدّ المحرم، أحلّ الله لنيبه صلى الله عليه و سلم مكة يوم

(١). القيامة: ١.

(٢). في تفسير القرطبي: لا يتقطع.

(٣). الأعراف: ١٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٣٩

الفتح حتى قاتل، و قد قال صلى الله عليه و سلم: «لم تحل لأحد قبلي، و لا تحل لأحد بعدى، و لم تحل لى إلا ساعة من نهار». قال: و المعنى أن الله لما ذكر القسم بمكة دلّ ذلك على عظم قدرها مع كونها حراما، فوعد نبيه صلى الله عليه و سلم أن يحلّها له حتى يقاتل فيها و يفتحها على يده، فهذا وعد من الله تعالى بأن يحلّها له حتى يكون بها حلا، انتهى. فالمعنى: و أنت حلّ بهذا البلد في المستقبل، كما في قوله: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ «١» قال مجاهد: المعنى ما صنعت فيه من شيء فأنت حلّ. قال قتادة: أنت حلّ له لست بأثم، يعنى: أنك غير مرتكب في هذه البلد ما يحرم عليك ارتكابه، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر و المعاصى. و قيل: المعنى: لا أقسم بهذا البلد و أنت حالّ به و مقيم فيه و هو محلّك، فعلى القول بأن لا نافية غير زائدة يكون المعنى: لا أقسم به و أنت حالّ به، فأنت أحقّ بالإقسام بك، و على القول بأنها زائدة يكون المعنى: أقسم بهذا البلد الذي أنت مقيم به تشريفا لك و تعظيما لقدرك؛ لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيما شريفا، و زاد على ما كان عليه من الشرف و العظم، و

لكن هذا إذا تقرر في لغة العرب أن لفظ حلّ يجيء بمعنى حلّ، و كما يجوز أن تكون الجملة معترضة يجوز أن تكون في محل نصب على الحال و الإيد و ما و لمدّ عطف على البلد. قال قتادة و مجاهد و الضحاك و الحسن و أبو صالح و والد أي: آدم و ما و لمدّ أي: و ما تناسل من ولده أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان و العقل و التدبير، و فيهم الأنبياء و العلماء و الصالحون. و قال أبو عمران الجوني: الوالد: إبراهيم و ما ولد: ذريته. قال الفراء: إن «ما» عبارة عن الناس كقوله: ما طاب لكم «٢» و قيل: الوالد: إبراهيم، و الولد: إسماعيل و محمد صلى الله عليه و سلم. و قال عكرمة و سعيد بن جبير: و والدٍ يعنى الذى يولد له و ما و لمدّ يعنى العاقر الذى لا يولد له، و كأنهما جعلاً «ما» نافية، و هو بعيد، و لا يصحّ ذلك إلا بإضمار الموصول: أي: و والد و الذى ما ولد، و لا يجوز إضمار الموصول عند البصريين، و قال عطية العوفى: هو عام فى كل والد و مولود من جميع الحيوانات، و اختار هذا ابن جرير لقد خلقنا الإنسان فى كيدٍ هذا جواب القسم، و الإنسان هو هذا النوع الإنسانى، و الكبد: الشدة و المشقة، يقال: كابدت الأمر: قاسيت شدته، و الإنسان لا يزال فى مكابدة الدنيا و مقاساة شدائدها حتى يموت، و أصل الكبد: الشدة، و منه تكبد اللبن: إذا غلظ و اشتدّ، و يقال: كبد الرجل؛ إذا وجعت كبده، ثم استعمل فى كل شدة و مشقة، و منه قول أبي الأصمغ:

لى ابن عمّ لو أن الناس فى كبدلظّل محتجرا بالنبل يرميني

قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا و شدائد الآخرة. و قال أيضا: يكابد الشكر على السراء، و يكابد الصبر على الضراء، لا يخلو عن أحدهما. قال الكلبي: نزلت هذه الآية فى رجل من بنى جمح يقال له أبو الأشدين «٣»، و كان يأخذ الأديم العكاظي و يجعله تحت رجله، و يقول: من أزالنى عنه فله كذا، فيجذبه

(١). الزمر: ٣٠.

(٢). النساء: ٣.

(٣). فى الكشاف: أبو الأشدّ.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٤٠

عشره حتى يتمزق و لا تزول قدماه، و كان من أعداء النبي صلى الله عليه و سلم و فيه نزل: أ يحسب أن لن يقدر عليه أحد يعنى لقوته، و يكون معنى فى كيدٍ على هذا: فى شدة خلق، و قيل: معنى فى كيدٍ أنه جرىء القلب غليظ الكبد أ يحسب أن لن يقدر عليه أحد أي: يظنّ ابن آدم أن لن يقدر عليه و لا ينتقم منه أحد، أو يظنّ أبو الأشدين أن لن يقدر عليه أحد، و أن هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن مقدّر. ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان فقال: يقول أهلكت ما لأبدأ أي: كثيرا مجتمعا بعضه على بعض. قال الليث: مال لبد لا يخاف فناؤه من كثرته. قال الكلبي و مقاتل: يقول أهلكت فى عداوة محمد مالا كثيرا. و قال مقاتل: نزلت فى الحارث بن عامر بن نوفل؛ أذنب فاستفتى النبي صلى الله عليه و سلم فأمره أن يكفر، فقال: لقد ذهب مالى فى الكفارات و النفقات منذ دخلت فى دين محمد. قرأ الجمهور «لبدا» بضم اللام و فتح الباء مخففا، و قرأ مجاهد و حميد بضم اللام و الباء مخففا. و قرأ أبو جعفر بضم اللام و فتح الباء مشددا. قال أبو عبيدة: لبد: فعل من التلييد، و هو المال الكثير بعضه على بعض. قال الزجاج: فعل للكثرة، يقال رجل حطم: إذا كان كثير الحطم. قال الفراء: واحده لبدة و الجمع لبد. و قد تقدّم بيان هذا فى سورة الجنّ أ يحسب أن لم يره أحد أي: أ يظنّ أنه لم يعاينه أحد، قال قتادة: أ يظنّ أن الله سبحانه لم يره و لا يسأله عن ماله من أين كسبه، و أين أنفقه؟ و قال الكلبي: كان كاذبا لم ينفق ما قال، فقال الله: أ يظنّ أن الله لم ير ذلك منه، فعل أو لم يفعل، أنفق أو لم ينفق.

ثم ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم ليعتبروا فقال: أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ يَبْصُرَ لهما وَ لِسَاناً يَنْطِقُ بِهِ وَ شَفَتَيْنِ يَسْتُرُ بِهِمَا ثَغْرَهُ. قال الزجاج: المعنى ألم نفعل به ما يدل على أن الله قادر على أن يبعثه، و الشفة محذوفة الهاء، و أصلها شففة بدليل تصغيرها على شففة و هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ النجد: الطريق في ارتفاع. قال المفسرون: بيّنا له طريق الخير و طريق الشر. قال الزجاج: المعنى ألم نعرفه طريق الخير و طريق الشر، مبيّنين كتيبين الطريقين العاليتين. و قال عكرمة و سعيد بن المسيب و الضحاك: النجدان: الشديان لأنهما كالطريقين لحياء الولد و رزقه، و الأول أولى. و أصل النجد المكان المرتفع، و جمعه نجد، و منه سميت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة، فالنجدان: الطريقان العاليان، و منه قول امرئ القيس:

فريقان منهم قاطع بطن نخله و آخر منهم قاطع نجد كبكب

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ الاقتحام: الرمي بالنفس في شيء من غير روية، يقال منه: قحم في الأمر قحوماً، أى: رمى بنفسه فيه من غير روية، و تقحيم النفس في الشيء: إدخالها فيه من غير روية، و القحمة بالضم:

المهلكة. و العقبة في الأصل: الطريق التي في الجبل؛ سميت بذلك لصعوبة سلوكها، و هو مثل ضربه سبحانه لمجاهدة النفس و الهوى و الشيطان في أعمال البر، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة. قال الفراء و الزجاج:

ذكر سبحانه هنا «لا» مرة واحدة، و العرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع حتى يعيدوها

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٤١

في كلام آخر كقوله: فَلَا صَدَقَ وَ لَا صَلَّى «١» و إنما أفردا هنا للدلالة آخر الكلام على معناه، فيجوز أن يكون قوله: ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا قائماً مقام التكرير، كأنه قال: فلا اقتحم العقبة، و لا آمن.

قال المبرد و أبو على الفارسي: إن «لا» هنا بمعنى لم، أى: فلم يقتحم العقبة، و روى نحو ذلك عن مجاهد، فهذا لم يحتج إلى التكرير، و منه قول زهير:

و كان طوى كشحا على مستكنة فلا هو أبداها و لم يتقدم

أى: فلم يبدها و لم يتقدم، و قيل: هو جار مجرى الدعاء كقولهم: لا نجأ. قال أبو زيد و جماعة من المفسرين: معنى الكلام هنا الاستفهام الذي بمعنى الإنكار، تقديره: أفلا اقتحم العقبة، أو هلا اقتحم العقبة.

ثم بين سبحانه العقبة فقال وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ أى: أى شيء أعلمك ما اقتحامها فك رَقَبَةُ أى هي إعتاق رقبة و تخليصها من أسار الرق، و كل شيء أطلقته فقد فككته، و منه: فك الرهن، و فك الكتاب، فقد بين سبحانه أن العقبة هي هذه القرب

المذكورة التي تكون بها النجاة من النار. قال الحسن و قتادة: هي عقبة شديدة في النار دون الجسر، فاقتموها بطاعة الله. و قال مجاهد و الضحاك و الكلبي: هي الصراط الذي يضرب على جهنم كحد السيف. و قال كعب: هي نار دون الجسر. قيل: و في

الكلام حذف، أى: و ما أدراك ما اقتحام العقبة؟ قرأ أبو عمرو و ابن كثير و الكسائي «فك رقبة» على أنه فعل ماض و نصب رقبة على المفعولية، و هكذا قرءوا أو أطعم: على أنه فعل ماض. و قرأ الباقون فك أو إطعام على أنهما مصدران و جر رقبة

بإضافة المصدر إليها، فعلى القراءة الأولى يكون الفعلان بدلا من اقتحم أو بيانا له كأنه قيل: فلا فك و لا أطعم، و الفك في الأصل: حلّ القيد، سمى العتق فكاً لأن الرق كالقيد، و سمى المرقوق رقبة لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته أو إطعام في يوم

ذِي مَسْعِيَةِ المسغبة: المجاعة، و السغب: الجوع، و الساغب: الجائع. قال الراغب: يقال منه: سغب الرجل سغبا و سغوبا فهو ساغب و سغبان، و المسغبة مفعلة منه، و أنشد أبو عبيدة:

فلو كنت حراً يا ابن قيس بن عاصم لما بتّ شعبانا و جارك ساغبا

قال النخعي في يوم ذِي مَسْعِيَةِ أى: عزيز فيه الطعام يتيماً ذا مَقْرَبَةٍ أى: قرابه، يقال:

فلان ذو قرابتي و ذو مقربتي، و اليتيم فى الأصل: الضعيف، يقال: يتم الرجل: إذا ضعف، و اليتيم عند أهل اللغة: من لا أب له، و قيل: هو من لا أب له و لا أم، و منه قول قيس بن الملقح:  
إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكالى إلى الله فقد الوالدين يتيم  
أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَثْرَبَةٍ أَي: لا شىء؛ له كأنه لصق بالتراب لفقره، و ليس له مأوى إلا التراب، يقال: ترب الرجل يترب تربا و متربَةً: إذا افتقر حتى لصق بالتراب ضرًا. قال مجاهد: هو الذى لا يقية

(١). القيامة: ٣١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٤٢

من التراب لباس و لا غيره. و قال قتادة: هو ذو العيال. و قال عكرمة: هو المديون. و قال أبو سنان: هو ذو الزمانة. و قال ابن جبير: هو الذى ليس له أحد. و قال عكرمة: هو البعيد التربة الغريب عن وطنه، و الأول أولى، و منه قول الهذلي:

و كُنَّا إِذَا مَا الضَّيْفَ حَلَّ بِأَرْضِنَا سَفَكْنَا دِمَاءَ الْبَدَنِ فِي تَرَبَةِ الْحَالِ

قرأ الجمهور «ذى مسغبة» على أنه صفة ليوم، و يتيما هو مفعول إطعام. و قرأ الحسن «ذا مسغبة» بالنصب على أنه مفعول إطعام، أى: يطعمون ذا مسغبة، و يتيما بدل منه ثمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا عَطَفَ عَلَى الْمُنْفَى بِلَاءٍ و جاء بتم للدلالة على تراخى رتبة الإيمان و رفعة محلّه. و فيه دليل على أن هذه القرب إنما نفع مع الإيمان، و قيل: المعنى: ثم كان من الذين آمنوا بأن هذا نافع لهم. و قيل المعنى: أنه أتى بهذه القرب لوجه الله وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ مَعُطُوفٍ عَلَى آمَنُوا، أى: أوصى بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله، و عن معاصيه، و على ما أصابهم من البلايا و المصائب وَ تَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أَي: بالرحمة على عباد الله فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم و المسكين، و استكثرنا من فعل الخير بالصدقة و نحوها، و الإشارة بقوله:

أُولَئِكَ\* إِلَى الْمَوْصُولِ بِاعْتِبَارِ اتِّصَافِهِ بِالصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ هُمَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ أَي: أصحاب جهة اليمين، أو أصحاب اليمن، أو الذين يعطون كتبهم بأيمانهم، و قيل غير ذلك مما قد قدّمنا ذكره فى سورة الواقعة وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا أَي: بالقرآن، أو بما هو أعم منه، فتدخل الآيات التنزيلية و الآيات التكوينية التى تدلّ على الصانع سبحانه هُمَ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ أَي: أصحاب الشمال، أو أصحاب الشؤم، أو الذين يعطون كتبهم بشمالهم، أو غير ذلك مما تقدّم عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ أَي: مطبقة مغلقة، يقال:

أصدت الباب و أوصدته؛ إذا أغلقته و أطبقته، و منه قول الشاعر:

تَحَنَّنْ إِلَى أَجْبَالِ مَكَّةَ نَاقَتِي وَ مِنْ دُونِهَا أَبْوَابِ صِنْعَاءِ مُؤَصَّدِهِ

قرأ الجمهور «موصدة» بالواو. و قرأ أبو عمرو و حمزة و حفص بالهمزة مكان الواو، و هما لغتان، و المعنى واحد.

و قد أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: لا أُقسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ قال: مكة وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ يعنى بذلك النبى صلى الله عليه و سلم، أحلّ الله له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء و يستحيى من شاء، فقتل له يومئذ ابن خطل صبيرا، و هو آخذ بأستار الكعبة، فلم يحلّ لأحد من الناس بعد النبى صلى الله عليه و سلم أن يفعل فيها حراما حرّمه الله، فأحلّ الله له ما صنع بأهل مكة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى قوله: لا أُقسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ قال مكة وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ قال: أنت يا محمد يحلّ لك أن تقاتل فيه، و أما غيرك فلا. و أخرج ابن مردويه عن أبى برزة الأسلمى قال: نزلت هذه الآية لا أُقسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ- وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ فى، خرجت فوجدت عبد الله بن خطل و هو متعلق بأستار الكعبة، فضربت عنقه بين الركن و المقام. و أخرج الحاكم و صححه عن ابن عباس لا أُقسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ- وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٤٣

الْبَلَدِ قَالَ: أَحَلَّ لَهُ أَنْ يَصْنَعَ فِيهِ مَا شَاءَ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ قَالَ: يَعْنِي بِالْوَالِدِ: آدَمَ، وَمَا وَلَدَ: وَلَدَهُ. وَأَخْرَجَ الْفَرِيَابِي وَعَبْدَ بْنَ حَمِيدٍ وَابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ الْمُنْذِرِ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ فِي الْآيَةِ. قَالَ:

الْوَالِدِ: الَّذِي يُلِدُ، وَمَا وَلَدَ: الْعَاقِرُ لَا يُلِدُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ وَطَبْرَانِي عَنْهُ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ قَالَ: مَكَّةُ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ قَالَ: مَكَّةُ وَالْإِدِّ وَمَا وَلَدَ قَالَ: آدَمُ (١) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ قَالَ: اعْتَدَالَ وَانْتَصَابَ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ عَنْهُ أَيْضًا لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ قَالَ: فِي شِدَّةٍ. وَأَخْرَجَ الْفَرِيَابِي وَعَبْدَ بْنَ حَمِيدٍ وَابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ الْمُنْذِرِ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ أَيْضًا: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ قَالَ: فِي شِدَّةٍ خَلَقَ وَلَادَتَهُ وَنَبَتَ أَسْنَانَهُ وَمَعِيشَتَهُ وَخْتَانَهُ. وَأَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ وَابْنَ الْمُنْذِرِ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ أَيْضًا لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ كُلَّ شَيْءٍ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ فَإِنَّهُ خَلَقَ مُنْتَصِبًا. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَابُو الشَّيْخِ فِي الْعِظْمَةِ، عَنْهُ أَيْضًا لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ قَالَ: مُنْتَصِبًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَنَّهُ قَدْ وَكَلَّ لَهُ مَلِكٌ إِذَا نَامَتِ الْأُمُّ أَوْ اضْطَجَعَتْ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَ لَوْ لَا- ذَلِكَ لَفُرِقَ فِي الدَّمِ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ عَنْهُ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: مَا لَأُكْبِدُ قَالَ: كَثِيرًا. وَأَخْرَجَ عَبْدَ الرَّزَاقِ وَالْفَرِيَابِي وَعَبْدَ بْنَ حَمِيدٍ وَابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ الْمُنْذِرِ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَطَبْرَانِي، وَالْحَاكِمُ وَصَحْحُهُ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ قَالَ: سَبِيلَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ الْمُنْذِرِ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ قَالَ: الْهُدَى وَالضَّلَالَةَ. وَأَخْرَجَ عَبْدَ بْنَ حَمِيدٍ وَابْنَ جَرِيرٍ عَنْهُ قَالَ: سَبِيلَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ سَنَانَ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هُمَا نَجْدَانِ، فَمَا جَعَلَ نَجْدَ الشَّرِّ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ نَجْدِ الْخَيْرِ».

تَفَرَّدَ بِهِ سَنَانُ بْنُ سَعْدٍ، وَيُقَالُ: سَعْدُ بْنُ سَنَانَ. وَقَدْ وَثَّقَهُ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَالْجَوْزْجَانِيُّ: مَنْكَرُ الْحَدِيثِ. وَقَالَ أَحْمَدُ: تَرَكْتُ حَدِيثَهُ لِاضْطِرَابِهِ، قَدْ رَوَى خَمْسَةَ عَشَرَ حَدِيثًا مَنْكَرَةً كُلِّهَا، مَا أَعْرَفَ مِنْهَا حَدِيثًا وَاحِدًا، يُشْبِهُ حَدِيثَهُ حَدِيثَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، لَا يُشْبِهُ حَدِيثَ أَنَسٍ. وَأَخْرَجَهُ عَبْدَ الرَّزَاقِ وَعَبْدَ بْنَ حَمِيدٍ وَابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرَفِ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: ذَكَرْنَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ، فَذَكَرَهُ. وَهَذَا مَرْسَلٌ، وَكَذَا رَوَاهُ قَتَادَةُ مَرْسَلًا. أَخْرَجَهُ عَنْهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَيَشْهَدُ لَهُ مَا أَخْرَجَ طَبْرَانِي عَنْ أَبِي أَمَامَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُمَا نَجْدَانِ: نَجْدُ خَيْرٍ، وَنَجْدُ شَرٍّ، فَمَا جَعَلَ نَجْدَ الشَّرِّ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ نَجْدِ الْخَيْرِ»، وَيَشْهَدُ لَهُ أَيْضًا مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«إِنَّمَا هُمَا نَجْدَانِ: نَجْدُ الْخَيْرِ، وَنَجْدُ الشَّرِّ، فَلَا يَكُنْ نَجْدَ الشَّرِّ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ نَجْدِ الْخَيْرِ». وَأَخْرَجَ عَبْدَ الرَّزَاقِ وَعَبْدَ بْنَ حَمِيدٍ وَابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرَفِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ قَالَ: الثَّوْدِيِّينَ.

(١). مَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ سَقَطَ مِنَ الْأَصْلِ وَاسْتَدْرَكَ مِنَ الدَّرِّ الْمَشْهُورِ (٨/ ٥١٩)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٤٤

وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي شَيْبَةَ وَابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ فِي قَوْلِهِ: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ قَالَ: جَبَلٌ زَلَالٌ فِي جَهَنَّمَ. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْعَقَبَةُ النَّارُ. وَأَخْرَجَ عَبْدَ بْنَ حَمِيدٍ عَنْهُ قَالَ: عَقَبَةُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ وَصَحْحُهُ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي سَنَنِهِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عِنْدَ أَحَدُنَا مَا يَعْتَقُ إِلَّا أَنْ عِنْدَ أَحَدُنَا الْجَارِيَةُ السُّودَاءُ تَخْدُمُهُ، فَلَوْ أَمْرُنَاهُنَّ بِالزَّنَا فَجِئْنَ بِالْأَوْلَادِ فَأَعْتَقْنَاهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَنْ أَمْتَعَ بِسُوطٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمَرَ بِالزَّنَا ثُمَّ أَعْتَقْتُ الْوَالِدَ». وَأَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْهَا بَلْفِظٍ: «لِعَلَّاقَةُ سُوطٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ هَذَا».

و قد ثبت الترغيب فى عتق الرقاب بأحاديث كثيرة: منها فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى الفرج بالفرج». و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى يوم ذي مسغية قال: مجاعة.

و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى يوم ذي مسغية قال: جوع. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا يتيماً ذا مقرية قال: ذا قرابه، و فى قوله: ذا مترية قال: بعيد التربة، أى: غريبا عن وطنه. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، عنه أيضا أو مسكيناً ذا مترية قال: هو المطروح الذى ليس له بيت. و فى لفظ للحاكم: هو الذى لا يقيه من التراب شىء. و فى لفظ: هو اللازق بالتراب من شدة الفقر.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم مسكيناً ذا مترية قال: «الذى مأواه المزابل». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس و تواصوا بالمرحمة يعنى بذلك رحمة الناس كلهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه مؤصدة قال: مغلقة الأبواب. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة مؤصدة قال: مطبقة.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٤٥

## سورة الشمس

### إشارة

و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت «و الشمس و ضحاها» بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج أحمد، و الترمذى و حسنه، و النسائى عن بريدة: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى صلاة العشاء و الشمس و ضحاها و أشباهها من السور». و قد تقدم حديث جابر فى الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ: «هلاً صليت بسبح اسم ربك الأعلى، و الشمس و ضحاها، و الليل إذا يغشى». و أخرج الطبرانى عن ابن عباس: أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره أن يقرأ فى صلاة الصبح بالليل إذا يغشى و الشمس و ضحاها. و أخرج البيهقى فى الشعب عن عقبه ابن عامر قال: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نصلى ركعتى الضحى بسورتيهما بالشمس و ضحاها و الضحى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الشمس (٩١): الآيات ١ الى ١٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا (١) وَ الْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَ النَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤)

وَ السَّمَاءِ وَ مَا بَنَاهَا (٥) وَ الْأَرْضِ وَ مَا طَحَاهَا (٦) وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤)

أقسم سبحانه بهذه الأمور، و له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، و قال قوم: إن القسم بهذه الأمور و نحوها مما تقدّم، و مما سيأتى هو على حذف مضاف، أى: و ربّ الشَّمْسِ و ربّ القمر، و هكذا سائرهما، و لا ملجئ إلى هذا و لا موجب له، و قوله: وَ ضَحَاهَا هو قسم ثان، قال مجاهد: وَ ضَحَاهَا أى: ضوؤها و إشراقها، و أضاف الضحى إلى الشمس لأنه إنما يكون عند ارتفاعها، و كذا قال الكلبي. و قال قتادة: ضَحَاهَا: نهارها كله. قال الفراء: الضحى: هو النهار. و قال المبرد: أصل الضحى، الصبح، و هو نور الشمس. قال أبو الهيثم: الضحى: نقيض الظلّ، و هو نور الشمس على وجه الأرض، و أصله:

الضحى فاستثقلوا الياء فقلبوها ألفا. قيل: و المعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس و بعيد ذلك قليلا، فإذا زاد فهو الضحاء بالمد. قال المبرد: الضحى و الضحوه مشتقان من الضحّ و هو النور، فأبدلت الألف و الواو من الحاء.

و اختلف فى جواب القسم ماذا هو؟ فقيل: هو قوله: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا قاله الزجاج و غيره.

قال الزجاج: و حذفت اللام؛ لأن الكلام قد طال، فصار طوله عوضا منها، و قيل: الجواب محذوف، أى:

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٤٦

و الشمس، و كذا: لتبعثنّ، و قيل: تقديره: ليدمدنّ الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلّى الله عليه و سلّم كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحا، و أما قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا فكلام تابع لقوله: فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا على سبيل الاستطراد، و ليس من جواب القسم فى شىء، و قيل: هو على التقديم و التأخير بغير حذف، و المعنى: قد أفلح من زكّاهَا و قد خاب من دسّاهَا و الشمس و ضحاهَا، و الأوّل أولى. وَ الْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا أى: تبعها، و ذلك بأن طلع بعد غروبها، يقال: تلا يتلو تلوًا؛ إذا تبع. قال المفسيرون: و ذلك فى النصف الأوّل من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر فى الإضاءة و خلفها فى النور. قال الزجاج: تلاها حين استدار، فكان يتلو الشمس فى الضياء و النور، يعنى إذا كمل ضوءه فصار تابعا للشمس فى الإنارة، ليلة الهلال إذا سقطت رؤى الهلال. قال ابن زيد: إذا غربت الشمس فى النصف الأوّل من الشهر تلاها القمر بالطلوع، و فى آخر الشهر يتلوها بالغروب، و قال الفراء: تلاها: أخذ منها، يعنى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس وَ النَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا أى: جلىّ الشمس، و ذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجليّ تمام الانجلاء، فكأنه جلاها مع أنها التى تبسطه. و قيل: الضمير عائد إلى الظلمة، أى: جلىّ الظلمة، و إن لم يجر للظلمة ذكر، لأن المعنى معروف. قال الفراء: كما تقول أصبحت باردة، أى: أصبحت غداتنا باردة، و الأوّل أولى. و منه قول قيس بن الخطيم:

تجلّت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها و ضنّت بحاجب

و قيل: المعنى: جلىّ ما فى الأرض من الحيوانات و غيرها بعد أن كانت مستترّة فى الليل، و قيل: جلىّ الدنيا، و قيل: جلىّ الأرض وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا أى: يغشى الشمس فيذهب بضوئها فتغيب و تظلم الآفاق، و قيل: يغشى الآفاق، و قيل: الأرض، و إن لم يجر لهما ذكر لأن ذلك معروف، و الأوّل أولى وَ السَّمَاءِ وَ مَا بَنَاهَا يجوز أن تكون ما مصدرية، أى: و السماء و بنيانها. و يجوز أن تكون موصولة، أى: و الهدى بناها، و إيثار «ما» على من لإدارة الوصفية لقصد التفتيح؛ كأنه قال: و القادر العظيم الشأن الهدى بناها. و رجح الأوّل الفراء و الزجاج، و لا وجه لقول من قال: إن جعلها مصدرية مخلّ بالنظم. و رجح الثانى ابن جرير وَ الْأَرْضِ وَ مَا طَحَّاهَا الكلام فى «ما» هذه كالكلام فى التى قبلها، و معنى طحّاهَا:

بسطها، كذا قال عامة المفسرين، كما فى قوله: دَحَّاهَا «١» قالوا: طحّاهَا و دحّاهَا واحد، أى:

بسطها من كل جانب، و الطّحو: البسط، و قيل: معنى طحّاهَا قسمها، و قيل: خلقها، و منه قول الشاعر:

و ما تدرى جذيمة من طحّاهَا و لا من ساكن العرش الرّفيع

و الأول أولى. و الطحو أيضا: الذهاب. قال أبو عمرو بن العلاء: طحا الرجل؛ إذا ذهب في الأرض،

(١). النازعات: ٣٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٤٧

يقال: ما أدري أين طحا! و يقال: طحا به قلبه، و منه قول الشاعر «١»:

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا الْكَلَامُ فِي «مَا» هَذِهِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَ مَعْنَى سَوَّاهَا: خَلَقَهَا وَ أَنْشَأَهَا وَ سَوَّى أَعْضَاءَهَا. قَالَ عَطَاءٌ: يَرِيدُ جَمِيعَ مَا خَلَقَ مِنَ الْجَنِّ وَ الْإِنْسِ، وَ التَّنْكِيرُ لِلتَّفْخِيمِ، وَ قِيلَ: الْمُرَادُ نَفْسَ آدَمَ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا أَيْ: عَرَّفَهَا وَ أَفْهَمَهَا حَالَهُمَا وَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْحَسَنِ وَ الْقَبِيحِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: عَرَّفَهَا طَرِيقَ الْفُجُورِ وَ التَّقْوَى وَ الطَّاعَةَ وَ الْمَعْصِيَةَ. قَالَ الْفَرَاءُ: فَأَلْهَمَهَا: عَرَّفَهَا طَرِيقَ الْخَيْرِ وَ طَرِيقَ الشَّرِّ، كَمَا قَالَ:

وَ هَدَيْتَاهُ النَّجْدَيْنِ «٢». قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَهُ خَيْرًا أَلْهَمَهُ الْخَيْرَ فَعَمِلَ بِهِ، وَ إِذَا أَرَادَ بِهِ الشَّرَّ أَلْهَمَهُ الشَّرَّ فَعَمِلَ بِهِ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: جَعَلَ فِيهَا ذَلِكَ بِتَوْفِيقِهِ إِيَّاهَا لِلتَّقْوَى، وَ خَذَلَانَهُ إِيَّاهَا لِلْفُجُورِ، وَ اخْتَارَ هَذَا الزَّجَاجُ، وَ حَمَلَ الْإِلْهَامَ عَلَى التَّوْفِيقِ وَ الْخَذَلَانَ. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: وَ هَذَا هُوَ الْوَجْهُ لِتَفْسِيرِ الْإِلْهَامِ؛ فَإِنَّ التَّيْبِينَ وَ التَّعْلِيمَ وَ التَّعْرِيفَ دُونَ الْإِلْهَامِ، وَ الْإِلْهَامُ: أَنْ يَوْقَعَ فِي قَلْبِهِ وَ يَجْعَلُ فِيهِ، وَ إِذَا أَوْقَعَ اللَّهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ شَيْئًا أَلْزَمَهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ. قَالَ: وَ هَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ فِي الْمُؤْمِنِ تَقْوَاهُ، وَ فِي الْكَافِرِ فُجُورَهُ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا أَيْ: قَدْ فَازَ مِنْ زَكَّى نَفْسَهُ وَ أَنْمَاهَا وَ أَعْلَاهَا بِالتَّقْوَى بِكُلِّ مَطْلُوبٍ وَ ظَفَرَ بِكُلِّ مَحْبُوبٍ، وَ قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا جَوَابُ الْقِسْمِ عَلَى الزَّاجِحِ، وَ أَسْلُ الْزَكَاةِ: النَّمُوُّ وَ الزِّيَادَةُ، وَ مِنْهُ زَكَ الزَّرْعُ؛ إِذَا كَثُرَ وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا أَيْ: خَسِرَ مِنْ أَضْلَاهَا وَ أَغْوَاهَا. قَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ: دَسَّاهَا أَصْلُهُ دَسَّسَهَا، مِنْ التَّدْسِيسِ، وَ هُوَ إِخْفَاءُ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ، فَمَعْنَى دَسَّاهَا فِي الْآيَةِ: أَخْفَاهَا وَ أَهْمَلَهَا وَ لَمْ يَشْهَرَهَا بِالطَّاعَةِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَ كَانَتْ أَجْوَادُ الْعَرَبِ تَنْزِلُ الْأَمَكْنَةَ الْمُرْتَفِعَةَ لِشَتْهَرِ مَكَانِهَا فَيَقْصِدُهَا الضِّيُوفُ، وَ كَانَتْ لِنَامِ الْعَرَبِ تَنْزِلُ الْهَضَابِ وَ الْأَمَكْنَةَ الْمُنْخَفِضَةَ لِيخْفِيَ مَكَانَهَا عَنِ الْوَافِدِينَ. وَ قِيلَ: مَعْنَى دَسَّاهَا: أَغْوَاهَا، وَ مِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَ أَنْتَ الَّذِي دَسَّيْتَ عَمْرًا فَأَصْبَحَتْ حَلَالَتُهُ مِنْهُ أَرَامِلٌ ضَيْعًا

وَ قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا أَيْ: دَسَّ نَفْسَهُ فِي جَمَلَةِ الصَّالِحِينَ وَ لَيْسَ مِنْهُمْ كَذَّبَتْ تَمُودُ بِطَغْوَاهَا الطَّغْوَى: اسْمٌ مِنَ الطَّغْيَانِ؛ كَالدَّعْوَى مِنَ الدَّعَاءِ. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: قَالَ الْمَفْسُرُونَ: كَذَّبَتْ تَمُودُ بِطَغْيَانِهَا، أَيْ: الطَّغْيَانِ حَمَلَهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ، وَ الطَّغْيَانُ: مَجَاوِزَةُ الْحَدِّ فِي الْمَعَاصِي، وَ الْبَاءُ لِلْسَبِيَةِ.

وَ قِيلَ: كَذَّبَتْ تَمُودُ بِطَغْوَاهَا أَيْ: بَعَذَابِهَا الَّذِي وَعَدَتْ بِهِ، وَ سَمِيَ الْعَذَابُ طَغْوَى؛ لِأَنَّهُ طَغَى عَلَيْهِمْ، فَتَكُونُ الْبَاءُ عَلَى هَذَا لِلتَّعْدِيَةِ. وَ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: بِطَغْوَاهَا أَيْ: بِأَجْمَعِهَا. قَرَأَ الْجُمْهُورُ:

بِطَغْوَاهَا بِفَتْحِ الطَّاءِ. وَ قَرَأَ الْحَسَنُ وَ الْجَحْدَرِيُّ وَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَ حَمَادُ بْنُ سَلْمَةَ بِضَمِّ الطَّاءِ، فَعَلَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى هُوَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الطَّغْيَانِ، وَ إِنَّمَا قَلَبْتُ الْبَاءَ وَ الْوَاوَ لِلْفَرْقِ بَيْنَ الْاسْمِ وَ الصِّفَةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقْبَلُونَ الْبَاءَ فِي الْأَسْمَاءِ كَثِيرًا نَحْوَ تَقْوَى وَ سُرْوَى، وَ عَلَى الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ هُوَ مَصْدَرٌ كَالرَّجْعِيِّ وَ الْحَسَنِيِّ وَ نَحْوَهُمَا، وَ قِيلَ: هُمَا لُغَتَانِ.

إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا الْعَامِلُ فِي الظَّرْفِ كَذَّبَتْ، أَوْ بِطَغْوَاهَا، أَيْ: حِينَ قَامَ أَشْقَى تَمُودَ، وَ هُوَ قَدَارُ بْنُ

(١). هُوَ عَلَقْمَةُ.



سالف فعقر الناقئة، و معنى انبعث: انتدب لذلك و قام به، يقال: بعثته على الأمر فانبعث له، و قد تقدّم بيان هذا فى الأعراف فقال لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ يعنى صالحا ناقئةً اللهُ قال الزجاج: ناقئةُ الله منصوبَةٌ على معنى: ذروا ناقئةَ الله. قال الفراء: حدّهم إياها، و كل تحذير فهو نصب و سقيها معطوف على ناقئة، و هو شربها من الماء. قال الكلبي و مقاتل: قال لهم صالح: ذروا ناقئةَ الله فلا تعقروها و ذروا سقيها، و هو شربها من النهر فلا تعرّضوا له يوم شربها، فكذبوا بتحذيره إياهم فعقروها أى: عقرها الأشتى، و إنما أسند العقير إلى الجميع لأنهم رضوا بما فعله. قال قتادة: إنه لم يعقروها حتى تابعه صغيرهم و كبيرهم و ذكرهم و أنثاهم. قال الفراء: عقرها اثنان، و العرب تقول: هذان أفضل الناس، و هذان خير الناس، فلهذا لم يقل أشقيها فدمدمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِحَدْنِهِمْ فَسَوَّاهَا أى: أهلكتهم و أطبق عليهم العذاب، و حقيقة الدمدمة:

تضعيف العذاب و ترديده، يقال: دمدمت على الشيء، أى: أطبقت عليه، و دمدم عليه القبر، أى: أطبقه، و ناقئة مدمومة؛ إذا لبسها الشمم، و الدمدمة: إهلاك باستئصال، كذا قال المؤرّج. قال فى الصحاح:

دمدمت الشيء: إذا أزلته بالأرض و طحطحته، و دمدم الله عليهم، أى: أهلكتهم. و قال ابن الأعرابي:

دمدم: إذا عذب عذابا تاما. و الضمير فى «فسوّاها» يعود إلى الدمدمة، أى: فسوى الدمدمة عليهم و عمّم بها فاستوت على صغيرهم و كبيرهم، و قيل: يعود إلى الأرض، أى: فسوى الأرض عليهم فجعلهم تحت التراب، و قيل: يعود إلى الأمة، أى: ثمود. قال الفراء: سوى الأمة: أنزل العذاب بصغيرها و كبيرها بمعنى سوى بينهم. قرأ الجمهور: فدمدمَ بميم بين الدالين، و قرأ ابن الزبير: «فدهدم» بهاء بين الدالين.

قال القرطبي: و هما لغتان كما يقال: امتنع لونه، و اهتقع لونه و لا يخافُ عقبها أى: فعل الله ذلك بهم غير خائف من عاقبه و لا تبعه، و الضمير فى عقبها يرجع إلى الفعل، أو إلى الدمدمة المدلول عليها بدمدم.

و قال السدى و الضحّاك و الكلبي: إن الكلام يرجع إلى العاقر لا إلى الله سبحانه، أى: لم يخف الذى عقرها عقبي ما صنع. و قيل: لا يخاف رسول الله صلى الله عليه و سلم عاقبة إهلاك قومه و لا يخشى ضررا يعود عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، و الأول أولى. قرأ الجمهور: و لا يخافُ بالواو، و قرأ نافع و ابن عامر بالفاء.

و قد أخرج الحاكم و صحّحه عن ابن عباس و ضحاها قال: ضوءها و القمر إذا تلاها قال:

تبعها و النهار إذا جلاها قال: أضاءها و السماء و ما بناها قال: الله بنى السماء و الأرض و ما طحاها قال: دحاها فألهمها فجورها و تقواها قال: علّمها الطاعة و المعصية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه و الأرض و ما طحاها يقول: قسمها فألهمها فجورها و تقواها قال: من الخير و الشر. و أخرج الحاكم و صحّحه عنه أيضا فألهمها قال: ألزمها فجورها و تقواها.

و أخرج أحمد و عبد بن حميد و مسلم و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عمران بن حصين «أن رجلا قال: يا رسول الله أ رأيت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه، شىء قد قضى عليهم، و مضى فى قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون ممّا أتاهم نبيهم و اتّخذت عليهم به الحجّة، قال: بل شىء قد قضى عليهم، قال: فلم يعملون إذن؟ قال: من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين يهينّه لعملها و تصديق ذلك فى كتاب

الله: و نفس و ما سوّاها- فألهمها فجورها و تقواها و سيأتى فى السورة التى بعد هذه نحو هذا الحديث.

و أخرج ابن أبى شيبه و أحمد و النسائي عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «اللهم آت نفسى

تقواها، و زكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها و مولاها». و أخرجه ابن المنذر و الطبراني و ابن مردويه من حديث ابن عباس، و زاد: «كان إذا تلا هذه الآية و نفّس و ما سواها- فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا قال: فذكره» و زاد أيضا: «و هو في الصلاة». و أخرج حديث زيد بن أرقم مسلم أيضا. و أخرج نحوه أحمد من حديث عائشة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا يقول: قد أفلح من زكى الله نفسه و قد خاب من دسّ الله نفسه فأضله و لا يخاف عقباها قال: قال: لا يخاف من أحد تبعه. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عنه و قد خاب من دسّاهها يعنى مكر بها. و أخرج ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى من طريق جويبر عن الضحّاك عن ابن عباس: «سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول في قوله قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا الآية: أفلحت نفس زكاها الله، و خابت نفس خبيها الله من كل خير و جويبر ضعيف. و أخرج ابن جرير عنه أيضا بطغواها قال: اسم العذاب الذى جاءها الطغوى، فقال: كذبت ثمود بعدابها. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن عبد الله بن زمعة قال: «خطب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فذكر الناقة و ذكر الذى عقرها، فقال إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا قال: «انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه مثل أبى زمعة». و أخرج أحمد و ابن أبي حاتم و البغوى و الطبراني و ابن مردويه و الحاكم، و أبو نعيم فى الدلائل، عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لعلى: «ألا أحدثك بأشقى الناس؟ قال: بلى. قال: رجلان:

أحيمر ثمود الذى عقّر الناقة، و الذى يضربك على هذا» يعنى قرنه «حتى تبتل منه هذه» يعنى لحيته.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٥٠

## سورة الليل

### إشارة

فتح القدير ج ٥ ٥٩٩

و هى مكية عند الجمهور، و قيل: مدنية. و أخرج ابن الضريس و النحاس و البيهقى عن ابن عباس قال:

نزلت سورة و اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى مَكَّةً. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البيهقى فى سننه عن جابر بن سمرة قال: «كان النبى صلى الله عليه و سلم يقرأ فى الظهر و العصر و اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى و نحوها». و أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس: «أن رسول الله صلى الله عليه و سلم صلى بهم الهاجرة فرفع صوته، فقرأ وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا وَ اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى فقال له أبى بن كعب: يا رسول الله أمرت فى هذه الصلاة بشىء؟

قال: لا، و لكن أردت أن أوقت لكم»، و قد تقدّم حديث: «فهلّا صلّيت بسبح اسم ربك الأعلى، و الشمس و ضحاها، و الليل إذا يغشى؟». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إني لأقول إن هذه السورة نزلت فى السماحة و البخل و اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الليل (٩٢): الآيات ١ الى ٢١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى (١) وَ النَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى (٥) وَ صَدَقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنَى (٨) وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩)

فَسَيُسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَ مَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤)

لَا يَصِيْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (١٦) وَ سَيَجْتَبِيهَا الْأَتَقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَ مَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩)

إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَ لَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)

و قوله: وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى أَى: يغطي بظلمته ما كان مضيئاً. قال الزجاج: يغطي الليل الأفق و جميع ما بين السماء و الأرض فيذهب ضوء النهار، و قيل: يغطي النهار، و قيل: يغطي الأرض، و الأول أولى وَ النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى أَى: ظهر و انكشف و وضع لزوال الظلمة التي كانت فى الليل، و ذلك بطلوع الشمس وَ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى «ما» هنا هى الموصولة، أَى: و الذى خلق الذكر و الأنثى، و عبر عن من بما للدلالة على الوصفية و لقصد التفخيم، أَى: و القادر العظيم الذى خلق الذكر و الأنثى. قال الحسن و الكلبي: معناه و الذى خلق الذكر و الأنثى، فيكون قد أقسم بنفسه. قال أبو عبيدة: وَ مَا خَلَقَ أَى:

و من خلق. و قال مقاتل: يعنى و خلق الذكر و الأنثى، فتكون «ما» على هذا مصدرية. قال الكلبي و مقاتل:

يعنى آدم و حواء، و الظاهر العموم. قرأ الجمهور: وَ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى و قرأ ابن مسعود:

«و الذكر و الأنثى» بدون ما خلق إِنَّ سَيُعْجِبُكُمْ لَشَيْءٍ هَذَا جَوَابُ الْقِسْمِ، أَى: إن عملكم لمختلف؛ فمنه عمل للجنة، و منه عمل للنار. قال جمهور المفسرين: السعى: العمل، فساع فى فكاك نفسه، و ساع

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٥١

فى عطبها، و شئى: جمع شئيت، كمرضى و مريض، و قيل للمختلف: شئى؛ لتباعد ما بين بعضه و بعض فأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَ اتَّقَى أَى: بذل ماله فى وجوه الخير و اتقى محارم الله التي نهى عنها وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى أَى: بالخلف من الله. قال المفسرون: فأما من أعطى المعسرين. و قال قتادة: أعطى حق الله الذى عليه.

و قال الحسن: أعطى الصدق من قبله و صدق بالحسنى، أَى: بلا إله إلا الله، و به قال الضحّاك و السلمى.

و قال مجاهد: بالحسنى: بالجنة. و قال زيد بن أسلم: بالصلاة و الزكاة و الصوم، و الأول أولى. قال قتادة:

بِالْحُسْنَى أَى بموعود الله الذى وعده أن يشبهه. قال الحسن: بالخلف من عطائه، و اختار هذا ابن جرير فَسَيُسِّرُهُ لِلْعُسْرَى أَى: فسنيهته للخصلة الحسنى، و هى عمل الخير، و المعنى: فسيسر له الإنفاق فى سبيل الخير و العمل بالطاعة لله. قال الواحدى: قال المفسرون: نزلت هذه الآيات فى أبى بكر الصديق اشترى ستته نفر من المؤمنين كانوا فى أيدى أهل مكة يعدّبونهم فى الله وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَيْغَى أَى: بخل بماله فلم يبذله فى سبيل الخير وَ اسْتَيْغَى أَى: زهد فى الأجر و الثواب، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنَى أَى: بالخلف من الله عزّ و جلّ، و قال مجاهد: بالجنة؛ و روى عنه أيضا أنه قال: بلا إله إلا الله فَسَيُسِّرُهُ لِلْعُسْرَى أَى: فسنيهته للخصلة العسرى و نسهلها له حتى تتعسر عليه أسباب الخير و الصلاح و يضعف عن فعلها فيؤديه ذلك إلى النار. قال مقاتل: يعسر عليه أن يعطى خيراً.

قيل: العسرى: الشر؛ و ذلك أن الشرّ يؤدى إلى العذاب، و العسرة فى العذاب، و المعنى: سنهيهته للشرّ بأن نجريه على يديه. قال الفراء: سنيسره: سنهيهته، و العرب تقول: قد يسرت الغنم؛ إذا ولدت أو تهيات للولادة. قال الشاعر «١»:

هَمَّا سَيِدَانَا يَزْعَمَانِ وَ إِنَّمَا يَسُودَانَا إِنْ يَسَّرْتَ غَنَمَاهُمَا

وَ مَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى أَى: لا يغنى عنه شيئاً ماله الذى بخل به، أو: أى شىء يغنى عنه إذا تردى، أَى: هلك، يقال: ردى الرجل يردى ردى، و تردى يتردى؛ إذا هلك. و قال قتادة: و أبو صالح و زيد بن أسلم: إِذَا تَرَدَّى إِذَا سَقَطَ فى جهنم، يقال: ردى

فى البئر و تردى: إذا سقط فيها، و يقال: ما أدري أين ردى، أى: أين ذهب؟ إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَى هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ مُقَرَّرَةٌ لَمَّا قَبْلَهَا، أى: إِنَّ عَلَيْنَا الْبَيَانَ. قال الزجاج: علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال. قال قتادة: على الله البيان؛ بيان حرامه و طاعته و معصيته. قال الفراء: من سلك الهدى فعلى الله سبيله، لقوله: وَ عَلَى اللَّهِ قَصِيدُ السَّبِيلِ «٢» يقول: من أراد الله فو على السبيل القاصد. قال الفراء أيضا: المعنى إن علينا للهدى و الإضلال، فحذف الإضلال كقوله: سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ «٣» و قيل المعنى: إن علينا ثواب هدائه الذى هديناه وَ إِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَ الْأُولَى أَى: لنا كل ما فى الآخرة، و كل ما فى الدنيا نتصرف به كيف نشاء، فمن أرادهما أو إحداهما فليطلب ذلك منا، و قيل: المعنى: إن لنا ثواب الآخرة و ثواب الدنيا فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَطَّى

(١). هو أبو أسيدة الدبيري.

(٢). النحل: ٩.

(٣). النحل: ٨١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٥٢

أى: حذرتكم و خوفتكم نارا تتوقد و توهج، و أصله تَلَطَّى فحذفت إحدى التاءين تخفيفا.

و قرأ على الأصل عبيد بن عمير و يحيى بن يعمر و طلحة بن مصرّف لا يَصِيْلُهَا إِلَّا الْأَشْقَى أَى: يصلها صليا لازما على جهة الخلود إلا الأشقى و هو الكافر، و إن صليها غيره من العصاة فليس صليه كصليه، و المراد بقوله: يَصِيْلُهَا: يدخلها أو يجد صلاحها، و هو حرّها. ثم وصف الأشقى فقال: الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى أَى: كذّب بالحق الذى جاءت به الرسل و أعرض عن الطاعة و الإيمان. قال الفراء إِلَّا الْأَشْقَى إِلَّا- من كان شقيا فى علم الله جلّ ثناؤه. قال أيضا: لم يكن كذب بردّ ظاهر، و لكن قصير عمّا أمر به من الطاعة فجعل تكذيبا، كما تقول: لقي فلان العدو فكذب؛ إذا نكل و رجع عن اتباعه. قال الزجاج: هذه الآية هى التى من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فرعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ و لأهل النار منازل، فمنها أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار. و الله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب؛ فجدير أن يعذب به، و قد قال: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ\* «١» فلو كان كل من لم يشرك لم يعذب لم يكن فى قوله: وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ\* فائدة. و قال فى الكشف: الآية واردة فى الموازنة بين حالتى عظيم من المشركين و عظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ فى صفتيهما المتناقضتين، فقيل: الأشقى، و جعل مختصا بالصلى؛ كأن النار لم تخلق إلا له، و قيل: الأتقى، و جعل مختصا بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له، و قيل: المراد بالأشقى أبو جهل أو أمية بن خلف، و بالأتقى أبو بكر الصديق، و معنى سَيَجْتَبِيهَا الْأَتَقَى سيباعد عنها المتقى للكفر اتقاء بالغا. قال الواحدى: الأتقى أبو بكر الصديق فى قول جميع المفسرين، انتهى. و الأولى حمل الأشقى و الأتقى على كل متّصف بالصفتين المذكورتين، و يكون المعنى أنه لا يصلها صليا تاما لازما إلا الكامل فى الشقاء و هو الكافر، و لا- يجنبها و يبعد عنها تبعيذا كاملا بحيث لا يحوم حولها فضلا عن أن يدخلها إلا الكامل فى التقوى، فلا ينافى هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولا غير لازم، و لا تبعيد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيذا غير بالغ مبلغ تبعيد الكامل فى التقوى عنها. و الحاصل أن من تمسك من المرجئة بقوله: لا يَصِيْلُهَا إِلَّا الْأَشْقَى زاعما أن الأشقى الكافر، لأنه الذى كذّب و تولى، و لم يقع التكذيب من عصاة المسلمين، فيقال له: فما تقول فى قوله:

وَ سَيَجْتَبِيهَا الْأَتَقَى فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجْنُبُ النَّارَ إِلَّا الْكامل فى التقوى، فمن لم يكن كاملا فيها كعصاة المسلمين لم يكن ممن يجنب النار، فإن أولت الأتقى بوجه من وجوه التأويل لزمك مثله فى الأشقى فخذ إليك هذه مع تلك، و كن كما قال الشاعر:

على أئننى راض بأن أحمل الهوى و أخرج منه لا على و لا ليه

وقيل: أراد بالأشقى و الأتقى الشقى و التقى، كما قال طرفه بن العبد:  
تمنى رجال أن أموت و إن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

(١). النساء: ٤٨.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٥٣

أى: بواحد. و لا يخفاك أنه ينافى هذا وصف الأشقى بالتكذيب، فإن ذلك لا يكون إلا من الكافر فلا يتم ما أراده قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين.

ثم ذكر سبحانه صفه الأتقى فقال: الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ أَى: يعطيه و يصرفه فى وجوه الخير، و قوله:

يَتَرَكَّى فى محل نصب على الحال من فاعل يؤتى، أى: حال كونه يطلب أن يكون عند الله زكياً لا يطلب رياء و لا سمعة، و يجوز أن يكون بدلا من يؤتى داخلا معه فى حكم الصلة. قرأ الجمهور: يَتَرَكَّى مضارع تركى. و قرأ على بن الحسين بن على تركى بإدغام التاء فى الزاى و ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من كون التركى على جهة الخلوص غير مشوب بشائبة تنافى الخلوص، أى: ليس ممن يتصدق بماله ليجازى بصدقته نعمة لأحد من الناس عنده و يكافئه عليها، إنما يتغى بصدقته وجه الله تعالى. و معنى الآية: أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها أن يجازى عليها حتى يقصد بإيتاء ما يؤتى من ماله مجازاتها، و إنما قال «نجزى» مضارعا مبنيا للمفعول لأجل الفواصل، و الأصل يجزيها إياه، أو يجزيه إياها إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى قرأ الجمهور: إلا ابتغاء بالنصب على الاستثناء المنقطع لعدم اندراجها تحت جنس النعمة، أى: لكن ابتغاء وجه ربه الأعلى، و يجوز أن يكون منصوبا على أنه مفعول له على المعنى، أى: لا يؤتى إلا لابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة. قال الفراء: هو منصوب على التأويل، أى: ما أعطيتك ابتغاء جزائك بل ابتغاء وجه الله، و قرأ يحيى بن وثاب بالرفع على البدل من محل نعمة، لأن محلها الرفع إما على الفاعلية و إما على الابتداء و من مزيدة، و الرفع لغه تميم، لأنهم يجوزون البدل فى المنقطع و يجرونه مجرى المتصل. قال مكى: و أجاز الفراء الرفع فى ابتغاء على البدل من موضع نعمة، و هو بعيد.

قال شهاب الدين: كأنه لم يطلع عليها قراءة، و استبعاده هو البعيد فإنها لغه فاشية، و قرأ الجمهور أيضا ابتغاء بالمد، و قرأ ابن أبى عبله بالقصر، و الأعلى نعت للرب و لسوف يرضى اللام هى الموطئة للقسم، أى: و تالله لسوف يرضى بما نعطيه من الكرامة و الجزاء العظيم. قرأ الجمهور: يرضى مبنيا للفاعل، و قرئ مبنيا للمفعول.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس و الليل إذا يغشى قال: إذا أظلم. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن عساكر عن ابن مسعود قال: إن أبا بكر الصديق اشترى بلالا من أمية بن خلف و أبى بن خلف ببرد و عشر أواق فأعتقه لله، فأنزل الله: و الليل إذا يغشى إلى قوله: إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى سعى أبى بكر و أمية و أبى إلى قوله: وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنَى قال: لا-إله إلا الله إلى قوله: فَسَيُسِّرُهُ لِلْعُسْرَى قال: النار. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى مِنَ الْفَضْلِ وَ اتَّقَى قال: اتقى ربه وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى قال: صدق بالخلف من الله فَسَيُسِّرُهُ لِلْعُسْرَى قال: للخير من الله وَ أَمَّا مَنْ بَخَلَ وَ اسْتَغْنَى قال: بخل بماله و استغنى عن ربه وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنَى قال: بالخلف من الله فَسَيُسِّرُهُ لِلْعُسْرَى قال: للشّر من الله. و أخرج ابن جرير عنه وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى قال: أيقن بالخلف. و أخرج

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٥٤

ابن جرير عنه أيضا وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى يقول: صدق بلا إله إلا الله وَ أَمَّا مَنْ بَخَلَ وَ اسْتَغْنَى يقول:

من أغناه الله فبخل بالزكاة. و أخرج ابن جرير و ابن عساكر عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر يعتقد على الإسلام

بمكته، و كان يعتق عجائز و نساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أى بنى أراك تعتق أناسا ضعفا، فلو أنك تعتق رجالا جلدا يقومون معك و يمنعونك و يدفعون عنك. قال: أى أبت إنما أريد ما عند الله، قال: فحدثنى بعض أهل بيتى أن هذه الآية نزلت فيه فأما مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَ أُخْرَجَ عَبْدُ بِنِ حَمِيدٍ وَ ابْنُ مَرْدُويهِ وَ ابْنُ عَسَاكِرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى قَالَ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَتَعَنَى وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنَى قَالَ: أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ. وَ أُخْرَجَ الْبَخَارِيُّ وَ مُسْلِمٌ وَ أَهْلُ السُّنَنِ وَ غَيْرُهُمْ عَنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فِي جَنَازَةٍ، فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَ قَدْ كَتَبَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا تَتَّكِلُ؟ قَالَ: اْعْمَلُوا فَكُلَّ مَيْسِرٍ لَمَا خَلَقَ لَهُ؛ أَمَا مِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيَسِّرَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَ أَمَا مِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيَسِّرَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ، ثُمَّ قَرَأَ: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى إِلَى قَوْلِهِ لِلْعُسْرَى . وَ أُخْرَجَ أَحْمَدٌ وَ مُسْلِمٌ وَ غَيْرُهُمَا عَنِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ «أَنْ سَرَّاقَةً بِنَ مَالِكٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي أَيْ شَيْءٍ نَعْمَلُ؟ أَمْ فِي شَيْءٍ يَسْتَقْبَلُ فِيهِ الْعَمَلُ؟ قَالَ: بَلْ فِي شَيْءٍ ثَبَّتَ فِيهِ الْمَقَادِيرَ وَ جَرَتْ فِيهِ الْأَقْلَامُ، أَمْ فِي شَيْءٍ يَسْتَقْبَلُ فِيهِ الْعَمَلُ؟ قَالَ: اْعْمَلُوا فَكُلَّ مَيْسِرٍ لَمَا خَلَقَ لَهُ، وَ قَرَأَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى إِلَى قَوْلِهِ: فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى . وَ قَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُ عِمْرَانَ بْنِ حَصِينٍ فِي السُّورَةِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ. وَ فِي الْبَابِ أَحَادِيثٌ مِنْ طَرِيقِ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ.

وَ أُخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «لَتَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ يُأْتِي، قَالُوا: وَ مَنْ يُأْتِي أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟ فَقَرَأَ الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى . وَ أُخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرُ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَ ابْنُ مَرْدُويهِ عَنِ أَبِي أَمَامَةَ قَالَ: لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا -أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، إِلَّا مَنْ شَرَدَ عَلَى اللَّهِ كَمَا يَشْرُدُ الْبَعِيرُ السَّوَّى عَلَى أَهْلِهِ، فَمَنْ لَمْ يَصِدَّقْنِي فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى - الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى وَ كَذَّبَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ تَوَلَّى عَنْهُ. وَ أُخْرَجَ أَحْمَدُ وَ الْحَاكِمُ وَ الضَّيَاءُ عَنِ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ أَلَيْنَ كَلِمَةٌ سَمِعَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَقُولُ: «أَلَا كَلِّكُمْ يَدْخُلُ اللَّهُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ شَرَدَ عَلَى اللَّهِ شَرَادَ الْبَعِيرِ عَلَى أَهْلِهِ». وَ أُخْرَجَ أَحْمَدُ وَ ابْنُ مَاجَةَ وَ ابْنُ مَرْدُويهِ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ:

«لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا الشَّقِيُّ. قِيلَ: وَ مَنْ الشَّقِيُّ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَعْمَلُ لِلَّهِ بَطَاعَةً وَ لَا يَتْرَكَ لِلَّهِ مَعْصِيَةً.»

وَ أُخْرَجَ أَحْمَدُ وَ الْبَخَارِيُّ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «كُلُّ أُمَّتِي تَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أَبِي، قَالُوا: وَ مَنْ أَبِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَ مَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبِي.»

وَ أُخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ عُرْوَةَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ أَعْتَقَ سَبْعَةَ كَلْبِهِمْ يَعْدَبُ فِي اللَّهِ: بِلَالٍ، وَ عَامِرُ بْنُ فَهَيْرَةَ، وَ النَّهْدِيُّ وَ ابْنَتُهَا، وَ زَنْبِرَةَ، وَ أُمَّ عَيْسَى، وَ أُمَّةَ بَنِي الْمُؤْمَلِ، وَ فِيهِ نَزَلَتْ: وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى إِلَى

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٥٥

آخر السورة. وَ أُخْرَجَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الزُّبَيْرِ مَا قَدَّمْنَا عَنْهُ، وَ زَادَ فِيهِ: فَنَزَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةُ: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى إِلَى قَوْلِهِ: وَ مَا لِأَخِيَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَ لَسَوْفَ يَرْضَى وَ أُخْرَجَ الْبَزَارِيُّ وَ ابْنُ جَرِيرٍ وَ ابْنُ الْمُنْذِرُ وَ الطَّبْرَانِيُّ وَ ابْنُ مَرْدُويهِ وَ ابْنُ عَسَاكِرَ عَنْهُ نَحْوُ هَذَا مِنْ وَجْهِ آخَرَ. وَ أُخْرَجَ ابْنُ مَرْدُويهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى قَالَ: هُوَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٥٦

و هي مكيه بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس: نزلت وَ الضُّحَى بمكّه. و أخرج الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب، من طريق أبي الحسن المقرئ قال: سمعت عكرمة بن سليمان يقول: «قرأت على إسماعيل بن قسطنطين، فلما بلغت و الضُّحَى قال: كبر حتى تختم، و أخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك. و أخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك. و أخبره ابن عباس أن أبي بن كعب أمره بذلك. و أخبره أبي أن رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم أمره بذلك».

و أبو الحسن المقرئ المذكور هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ. قال ابن كثير: فهذه سنة تفرّد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزّي من ولد القاسم بن أبي بزة، و كان إماماً في القراءات. و أما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي و قال: لا أخذت عنه، و كذلك أبو جعفر العقيلي قال: هو منكر الحديث. قال ابن كثير: ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير و كيفيته، فقال بعضهم: يكبر من آخر الليل إذا يغشى، و قال آخرون: من آخر الضُّحَى. و كيفية التكبير عند بعضهم أن يقول: الله أكبر، و يقتصر، و منهم من يقول: الله أكبر، لا- إله إلا الله، الله أكبر. و ذكروا في مناسبة التكبير من أول الضُّحَى أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم و فتر تلك المدّة، ثم جاء الملك، فأوحى إليه: وَ الضُّحَى وَ اللَّيْلُ إِذَا سَجَى السورة كبر فرحاً و سروراً، و لم يرووا ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة و لا- ضعف. و أخرج البخاري و مسلم و غيرهما عن جندب الجلي قال: اشتكى النبي صَلَّى الله عليه و سلم فلم يقدّم ليلتين أو ثلاثاً، فأتته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك لم يقربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله: وَ الضُّحَى وَ اللَّيْلُ إِذَا سَجَى ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلَى . و أخرج الفريابي و عبد بن حميد و سعيد بن منصور و ابن جرير و الطبراني و ابن مردويه عن جندب قال: أبطأ جبريل عن النبي صَلَّى الله عليه و سلم، فقال المشركون: قد ودّع محمد، فنزلت: ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلَى و أخرج الطبراني عن جندب قال: احتبس جبريل عن النبي صَلَّى الله عليه و سلم، فقالت بعض بنات عمه: ما أرى صاحبك إلا قد قلاك، فنزلت: وَ الضُّحَى. و أخرجه الترمذي و صححه و ابن أبي حاتم عن جندب، و فيه: فقالت له امرأة: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فنزلت: وَ الضُّحَى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الضحى (٩٣): الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ الضُّحَى (١) وَ اللَّيْلُ إِذَا سَجَى (٢) ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلَى (٣) وَ لِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَ وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩)

وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٥٧

و المراد بالضحي هنا النهار كله، لقوله: وَ اللَّيْلُ إِذَا سَجَى فلما قابل الضحى بالليل دلّ على أن المراد به النهار كله لا بعضه. و هو في الأصل اسم لوقت ارتفاع الشمس كما تقدّم في قوله: وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا «١» و الظاهر أن المراد به الضحى من غير تعيين. و قال قتادة و مقاتل و جعفر الصادق: إن المراد الضحى الذي كلم الله فيه موسى، و المراد بقوله: وَ اللَّيْلُ إِذَا سَجَى ليله المعراج، و

قيل: المراد بالضحى هو الساعة التي خزر فيها السحرة سجدا، كما فى قوله: «وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحَى (٢)» وقيل: المقسم به مضاف مقدر كما تقدم فى نظائره، أى: وربّ الضحى، وقيل: تقديره: وضحاه الضحى، ولا وجه لهذا، فله سببانه أن يقسم بما شاء من خلقه، وقيل: الضحى: نور الجنة، و الليل: ظلمة النار، وقيل: الضحى:

نور قلوب العارفين، و الليل: سواد قلوب الكافرين، وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى أَى: سكن، كذا قال قتادة و مجاهد و ابن زيد و عكرمة و غيرهم. يقال: ليلة ساجية: أى ساكنة، و يقال للعين إذا سكن طرفها: ساجية، يقال: سجا الشيء يسجو سجوا؛ إذا سكن. قال عطاء: سجا: إذا غطى بالظلمة. و روى ثعلب عن ابن الأعرابى: سجا: امتدّ ظلامه. و قال الأصمعى: سجو الليل: تغطيته النهار، مثل ما يسجى الرجل بالثوب.

و قال الحسن: غشى بظلامه. و قال سعيد بن جبیر: أقبل. و قال مجاهد أيضا: استوى، و الأوّل أولى، و عليه جمهور المفسرين و أهل اللغة. و معنى سكونه: استقرار ظلامه و استواؤه، فلا يزداد بعد ذلك. ما ودّعَكَ رَبُّكَ هذا جواب القسم، أى: ما قطعك قطع المودع. قرأ الجمهور: «ما ودّعَكَ» بتشديد الدال من التوديع، و هو توديع المفارق، و قرأ ابن عباس و عروة بن الزبير و ابنه هاشم و ابن أبى عبلة و أبو حيوه بتخفيفها، من قولهم ودعه، أى: تركه، و منه قول الشاعر:

سل أميرى ما الذى غيره عن وصالى اليوم حتى ودعه

و التوديع أبلغ فى الوداع؛ لأنّ من ودّعَكَ مفارقا فقد بالغ فى تركك. قال المبرد: لا يكادون يقولون ودع و لا وذر، لضعف الواو إذا قدمت، و استغنوا عنها بترك. قال أبو عبيدة: ودّعَكَ: من التوديع كما يودّع المفارق. و قال الزجاج: لم يقطع الوحى، و قد قدّمنا سبب نزول هذه الآية فى فاتحة هذه السورة و ما قلّى القلى: البغض، يقال: قلاه يقلبه قلاء. قال الزجاج: و ما أبغضك، و قال: و ما قلّى، و لم يقل و ما قلاك؛ لموافقه رؤوس الآى، و المعنى: و ما أبغضك، و منه قول امرئ القيس:

و لست بمقلّى الخلال و لا قال «(٣)» وَ لِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى اللام جواب قسم محذوف، أى: الجنة خير لك من الدنيا، مع أنه صلى الله عليه و سلم قد أوتى فى الدنيا من شرف النبوة ما يصغر عنده كل شرف، و يتضاءل بالنسبة إليه كل مكرمه فى الدنيا، و لكنها لما كانت الدنيا بأسرها مشوبة بالأكدار، منغصة بالعوارض البشرية، و كانت الحياة فيها

(١). الشمس: ١.

(٢). طه: ٥٩.

(٣). و صدر البيت: صرفت الهوى عنهن من خشية الردى.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٥٨

كأحلام نائم، أو كظل زائل، لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئا؛ و لما كانت طريقا إلى الآخرة و سببا لنيل ما أعدّه الله لعباده الصالحين من الخير العظيم بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة؛ كان فيها خير فى الجملة من هذه الحيثية. و لسوف يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى هذه اللام قيل: هى لام الابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة، و المبتدأ محذوف تقديره: و لأنت سوف يعطيك إلخ، و ليست للقسم لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة، و قيل: هى للقسم. قال أبو على الفارسى: ليست هذه اللام هى التى فى قولك: إن زيدا لقائم، بل هى التى فى قولك: لأقومنّ، و نابت سوف عن إحدى نونى التأكيد، فكأنه قال: و يعطينك. قيل: المعنى: و لسوف يعطيك ربك الفتح فى الدنيا و الثواب فى الآخرة فترضى.

و قيل: الحوض و الشفاعة، و قيل: ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك، و قيل: غير ذلك. و الظاهر أنه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيرى الدنيا و الآخرة، و من أهم ذلك عنده و أقدمه لديه قبول شفاعته لأمته.



أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى هذا شروع فى تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم، أى: وجدك يتيماً لا أب لك فأوى، أى: جعل لك مأوى تأوى إليه، قرأ الجمهور: «فأوى» بألف بعد الهمزة رباعياً، من آواه يؤويه، وقرأ أبو الأشهب: «فأوى» ثلاثياً، وهو إما بمعنى الرباعى، أو هو من أوى له إذا رحمه.

و عن مجاهد معنى الآية: ألم يجدك واحدا فى شرفك لا نظير لك فأواك الله بأصحاب يحفظونك و يحوطونك، فجعل يتيماً من قولهم: درّة يتيمه، و هو بعيد جدا، و الهمزة لانكار النفى و تقرير المنفى على أبلغ وجه، فكأنه قال: قد وجدك يتيماً فأوى، و الوجود بمعنى العلم، و يتيماً مفعوله الثانى، و قيل: بمعنى المصادفة، و يتيماً حال من مفعوله وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى معطوف على المضارع المنفى، و قيل: هو معطوف على ما يقتضيه الكلام الذى قبله كما ذكرنا، أى: قد وجدك يتيماً فأوى و وجدك ضالًّا فهدى، و الضلال هنا بمعنى الغفلة، كما فى قوله: لَا يَضِلُّ رَبِّيَ وَلَا يَنسَى «١» و كما فى قوله: وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ «٢» و المعنى: أنه وجدك غافلاً- عما يراد بك من أمر النبوة، و اختار هذا الزجاج. و قيل: معنى ضالاً: لم تكن تدرى القرآن و لا الشرائع فهداك لذلك. و قال الكلبي و السدى و الفراء: وجدك فى قوم ضلال فهداهم الله لك. و قيل: وجدك طالبا للقبلة فهداك إليها كما فى قوله: قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا «٣» و يكون الضلال بمعنى الطلب. و قيل: وجدك ضائعاً فى قومك فهداك إليه، و يكون الضلال بمعنى الضياع. و قيل: وجدك محبا للهداية فهداك إليها، و يكون الضلال بمعنى المحبة، و منه قول الشاعر:

عجبا لعزة فى اختيار قطيعتى بعد الضلال فحبها قد أخلقا

و قيل: وجدك ضالاً فى شعاب مكة فهداك، أى: ردك إلى جدك عبد المطلب وَ وَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى

(١). طه: ٥٢.

(٢). يوسف: ٣.

(٣). البقرة: ١٤٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٥٩

أى: وجدك فقيراً لا مال لك فأغناك، يقال: عال الرجل يعيل عيلة؛ إذا افتقر، و منه قول أحيحة بن الجلاح:

فما يدرى الفقير متى غناه و ما يدرى الغنى متى يعيل

أى: يفتقر. قال الكلبي: فأغنى أى: رضاك بما أعطاك من الرزق، و اختار هذا الفراء، قال:

لأنه لم يكن غنيا من كثرة، و لكن الله سبحانه رضا بما آتاه، و ذلك حقيقة الغنى. و قال الأخفش:

عائلاً ذا عيال، و منه قول جرير:

الله أنزل فى الكتاب فريضة لابن السبيل و للفقير العائل

و قيل: فأغنى بما فتح لك من الفتوح، و فيه نظر؛ لأن السورة مكية، و قيل: بمال خديجة بنت خويلد، و قيل: وجدك فقيراً من

الحجج و البراهين فأغناك بها. قرأ الجمهور: «عائلاً» و قرأ محمد بن السميع و اليماني «عَيْلاً» بكسر الياء المشددة كسيد.

ثم أوصاه سبحانه باليتامى و الفقراء فقال: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ أى: لا تقهره بوجه من وجوه القهر كائنا ما كان. قال مجاهد: لا

تحقر اليتيم فقد كنت يتيماً. قال الأخفش: لا تسلط عليه بالظلم، ادفع إليه حقه، و اذكر يتمك. قال الفراء و الزجاج: لا تقهره على

ماله فتذهب بحقه لضعفه، و كذا كانت العرب تفعل فى حق اليتامى تأخذ أموالهم و تظلمهم حقوقهم، و كان رسول الله صلى

الله عليه و سلم يحسن إلى اليتيم و يبّره و يوصى باليتامى. قرأ الجمهور: «فلا تقهر» بالقاف، و قرأ ابن مسعود و النخعي و الشعبى

و الأشهب العقيلي:

«تكهر» بالكاف، والعرب تعاقب بين القاف والكاف. قال النحاس: إنما يقال كهره؛ إذا اشتد عليه و غلظ. وقيل: القهر: الغلبة، و الكهر: الزجر. قال أبو حيان: هي لغه، يعنى قراءة الكاف مثل قراءة الجمهور، و اليتيم منصوب بتقهر. و أمَّا السائل فلا تنهز يقال: نهه و انتهره؛ إذا استقبله بكلام يزجره، فهو نهى عن زجر السائل و الإغلاظ له، و لكن يبذل اليسير أو يرده بالجميل. قال الواحدى: قال المفسرون:

يريد السائل على الباب، يقول: لا تنهره إذا سألك فقد كنت فقيرا، فإما أن تطعمه، و إما أن ترده ردًا لينا.

قال قتادة: معناه ردّ السائل برحمه و لين. و قيل: المراد بالسائل الذى يسأل عن الدين، فلا تنهره بالغلظة و الجفوه، و أجه برفق و لين، كذا قال سفيان، و السائل منصوب بتنهر، و التقدير: مهما يكن من شىء فلا تقهر اليتيم و لا تنهر السائل و أمَّا نِعْمَةُ رَبِّكَ فَحَدِّثْ أمره سبحانه بالتحدّث بنعم الله عليه و إظهارها للناس و إشهارها بينهم، و الظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها أو نوع من أنواعها. و قال مجاهد و الكلبي: المراد بالنعمة هنا القرآن. قال الكلبي: و كان القرآن أعظم ما أنعم الله بن عليه فأمره أن يقرأه.

قال الفراء: و كان يقرؤه و يحدث به. و قال مجاهد أيضا: المراد بالنعمة النبوة التى أعطاه الله، و اختار هذا الزجاج فقال: أى بلغ ما أرسلت به و حدّث بالنبوة التى آتاك الله، و هى أجلّ النعم. و قال مقاتل: يعنى اشكر ما ذكر من النعمة عليك فى هذه السورة من الهدى بعد الضلالة و جبر اليتيم، و الإغناء بعد العيلة فاشكر هذه النعم. و التحدث بنعمة الله شكر، و الجازّ و المجرور متعلق بحدّث، و الفاء غير مانعة من تعلقه به، و هذه

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٦٠

النواهي لرسول الله صلى الله عليه و سلّم هى نواه له و لأمته لأنهم أسوته، فكلّ فرد من أفراد هذه الأمة منهى بكلّ فرد من أفراد هذه النواهي.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس و اللّيل إذا سيجى قال: إذا أقبل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه إذا سيجى قال: إذا ذهب ما ودّعك ربك قال: ما تركك و ما قلبى قال: ما أبغضك. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى فى الدلائل، عنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلّم: «عرض علىّ ما هو مفتوح لأمتى بعدى، فأنزل الله و للآخرة خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى .

و أخرج ابن أبى شيبه و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و البيهقى و أبو نعيم عنه أيضا قال: «عرض على رسول الله صلى الله عليه و سلّم ما هو مفتوح على أمته من بعده فسّر بذلك، فأنزل الله: وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى فأعطاه فى الجنة ألف قصر من لؤلؤ ترابه المسك، فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج و الخدم». و أخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى قال: رضاه أن يدخل أمته كلهم الجنة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: من رضا محمد صلى الله عليه و سلّم أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار. و أخرج الخطيب فى التلخيص من وجه آخر عنه أيضا فى الآية قال:

لا يرضى محمد صلى الله عليه و سلّم و أحد من أمته فى النار، و يدلّ على هذا ما أخرجه مسلم عن ابن عمرو «أن النبى صلى الله عليه و سلّم تلا- قول الله فى إبراهيم: فَمَنْ تَبِعَنِ فَإِنَّهُ مِنِّي (١) و قول عيسى إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدَاكَ (٢) الآية، فرفع يديه و قال: اللهم أمتى أمتى، و بكى، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك فى أمتك و لا نسوءك». و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، من طريق حرب بن شريح قال: قلت لأبى جعفر محمد بن على بن الحسين: أ رأيت

هذه الشفاعة التي يتحدث بها أهل العراق أحق هي؟

قال: إى و الله، حدثنى محمد بن الحنفية عن على أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «أشفع لأمتى حتى ينادينى ربي: أرضيت يا محمد؟ فأقول: نعم يا رب رضيت، ثم أقبل على فقال: إنكم تقولون يا معشر أهل العراق إن أرحمى آية فى كتاب الله: يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً» (٣) قلت إنا لنقول ذلك، قال: فكنا أهل البيت نقول: إن أرحمى آية فى كتاب الله و لسوف يعطيك ربك فترضى و هى الشفاعة». و أخرج ابن أبى شيبه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، و لسوف يعطيك ربك فترضى». و أخرج العسكرى فى المواعظ، و ابن مردويه و ابن النجار عن جابر بن عبد الله قال: «دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم على فاطمة و هى تطحن بالرحى، و عليها كساء من جلد الإبل، فلما نظر إليها قال: يا فاطمة تعجلى مرارة الدنيا بنعيم الآخرة، فأنزل الله و لسوف يعطيك ربك فترضى . و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و البيهقى و أبو نعيم و ابن عساکر عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه و سلم قال: «سألت

(١). إبراهيم: ٣٦.

(٢). المائدة: ١١٨.

(٣). الزمر: ٥٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٦١

ربى مسألة وددت أنى لم أكن سألته، قلت: قد كانت قبلى أنبياء منهم من سخرت له الريح، و منهم من كان يحيى الموتى، فقال تعالى: يا محمد ألم أجدك يتيماً فأوتيتك؟ ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أضع عنك وزرك؟ ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى يا رب». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت و الضحى على رسول الله صلى الله عليه و سلم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: و سلم:

«يمن على ربي، و أهل أن يمن ربي». و أخرج ابن مردويه عنه فى قوله: و وجدك ضالاً فهدى قال:

وجدك بين الضالين فاستنقذك من ضالتهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن بن على فى قوله: و أما ينعمه ربك فحدث قال: ما علمت من الخير. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: إذا أصبت خيراً فحدث إخوانك. و أخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند، و البيهقى فى الشعب، و الخطيب فى المتفق - قال السيوطى: بسند ضعيف - عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم على المنبر: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، و من لم يشكر الناس لم يشكر الله، و التحدث بنعمة الله شكر، و تركها كفر، و الجماعة رحمة». و أخرج أبو داود، و الترمذى و حنه، و أبو يعلى و ابن حبان و البيهقى و الضياء عن جابر ابن عبد الله عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: «من أبلى بلاء فذكره فقد شكره، و إن كتبه فقد كفره». و أخرج البخارى فى الأدب، و أبو داود و الضياء عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من أعطى عطاء فوجد فليجز به، فإن لم يجد فليش به، فمن أثنى به فقد شكره، و من كتبه فقد كفره، و من تحلى بما لم يعط فإنه كلابس ثوبى زور». و أخرج أحمد، و الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من أولى معروفا فليكافئ به، فإن لم يستطع فليذكره، فإن من ذكره فقد شكره».

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٦٢

و هي مكيه بلا- خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ألم نشرح بمكه، و زاد: بعد الضحى. و أخرج ابن مردويه عن عائشه قالت: نزلت سورة ألم نشرح بمكه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الشرح (٩٤): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَ وَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)  
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)

معنى شرح الصدر: فتحه بإذهاب ما يصد عن الإدراك، و الاستفهام إذا دخل على النفي قرره، فصار المعنى: قد شرحنا لك صدرك، و إنما خص الصدر لأنه محل أحوال النفس من العلوم و الإدراكات، و المراد الامتنان عليه صلى الله عليه و سلم بفتح صدره و توسيعه حتى قام بما قال به من الدعوة، و قدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة و حفظ الوحي، و قد مضى القول فى هذا عند تفسير قوله: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ «١». وَ وَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ معطوف على معنى ما تقدم، لا على لفظه: أى قد شرحنا لك صدرك و وضعنا إلك، و منه قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان:

ألستم خير من ركب المطايا و أندى العالمين بطون راح

أى: أنتم خير من ركب المطايا، و أندى إلخ. قرأ الجمهور: نَشْرَحْ بسكون الحاء بالجزم، و قرأ أبو جعفر المنصور العباسى بفتحها. قال الزمخشري: قالوا: لعله بين الحاء و أشبعها فى مخرجها، فظن السامع أنه فتحها. و قال ابن عطية: إن الأصل ألم نشرحن بالنون الخفيفة، ثم إبدالها ألفا، ثم حذفها تخفيفا كما أنشد أبو زيد:

من أى يومى من الموت أفترأ يوم لم يقدر أم يوم قدر

بفتح الراء من لم يقدر، و مثله قوله:

اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس

بفتح الباء من اضرب، و هذا مبنى على جواز توكيد المجزوم بلم، و هو قليل جدا كقوله:

يحسبه الجاهل ما لم يعلم شيئا على كرسيه معما

(١). الزمر: ٢٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٦٣

فقد تركبت هذه القراءة من ثلاثة أصول كلها ضعيفة، الأول: توكيد المجزوم بلم، و هو ضعيف. الثانى:

إبدالها ألفا، و هو خاص بالوقف، فإجراء الوصل مجرى الوقف ضعيف. و الثالث: حذف الألف، و هو ضعيف أيضا لأنه خلاف

الأصل، و خرّجها بعضهم على لغة بعض العرب الذين ينصبون بلم و يجزمون بلم، و منه قول الشاعر:

فى كل ما همّ أمضى رأيه قدماو لم يشاور فى إقدامه أحدا

بنصب الرء من يشاور، و هذه اللغة لبعض العرب ما أظنها تصح، و إن صحت فليست من اللغات المعتبرة فإنها جاءت بعكس ما عليه لغة العرب بأسرها. و على كل حال فقراءة هذا الرجل مع شدة جوره و مزيد ظلمه و كثرة جبروته و قلته علمه ليست بحقيقة بالاشتغال بها. و الوزر: الذنب، أى: وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية. قال الحسن و قتادة و الضحاك و مقاتل: المعنى حططنا عنك الذى سلف منك فى الجاهلية، و هذا كقوله: لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ «١» ثم وصف هذا الوزر فقال: الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ قال المفسرون: أى أثقل ظهرك. قال الزجاج: أثقله حتى سمع له نقيض، أى: صوت، و هذا مثل معناه: أنه لو كان حملا يحمل لسمع نقيض ظهره، و أهل اللغة يقولون: أنقض الحمل ظهر الناقة؛ إذا سمع له صرير، و منه قول جميل:

و حتى تداعت بالنقيض حباله و همّت بوانى زوره «٢» أن تحطما

و قول العباس بن مرداس:

و أنقض ظهري ما تطويت منهم و كنت عليهم مشفقا متحننا

قال قتادة: كان للنبي صلى الله عليه و سلم ذنوب قد أثقلته فغفرها الله له، و قوم يذهبون إلى أن هذا تخفيف أعباء النبوة التى تثقل الظهر من القيام بأمرها سهل الله ذلك عليه حتى تيسرت له، و كذا قال أبو عبيدة و غيره و قرأ ابن مسعود: «و حللنا عنك و وقرك».

ثم ذكر سبحانه منته عليه و كرامته فقال: وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ قال الحسن: و ذلك أن الله لا يذكر فى موضع إلا ذكر معه صلى الله عليه و سلم. قال قتادة: رفع الله ذكره فى الدنيا و الآخرة، فليس خطيب و لا متشهد و لا صاحب صلاة إلا ينادى فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمدا رسول الله. قال مجاهد: وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ يعنى بالتأذين. و قيل المعنى: ذكرناك فى الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك، و أمرناهم بالبشارة بك، و قيل: رفعنا ذكرك عند الملائكة فى السماء و عند المؤمنين فى الأرض. و الظاهر أن هذا الرفع لذكره

(١). الفتح: ٢.

(٢). «بوانى زوره»: أى أصول صدره.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٦٤

الذى امتن الله به عليه يتناول جميع هذه الأمور، فكل واحد منها من أسباب رفع الذكر، و كذلك أمره بالصلاة و السلام عليه، و إخباره صلى الله عليه و سلم عن الله عز و جل أن من صلى عليه واحدة صلى عليه بها عشرا، و أمر الله بطاعته كقوله: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ \* «١» و قوله: وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا «٢» و قوله: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ \* «٣» و غير ذلك. و بالجملة فقد ملأ ذكره الجليل السماوات و الأرضين، و جعل الله له من لسان الصدق و الذكر الحسن و الثناء الصالح ما لم يجعله لأحد من عباده ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم \* «٤» اللهم صل و سلم عليه و على آله عدد ما صلى عليه المصلون بكل لسان فى كل زمان، و ما أحسن قول حسان:

أغرّ عليه للنبوة خاتم من الله مشهود يلوح و يشهد

و ضم الإله اسم النبي مع اسمه إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد

و شق له من اسمه ليحمله فذو العرش محمود و هذا محمد

فإن مع العشير يُشيرا أى: إن مع الضيقة سعة، و مع الشدة رخاء، و مع الكرب فرج. و فى هذا وعد منه سبحانه بأن كل عسر يتيسر،

و كل شديد يهون، و كل صعب يلين. ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقريراً و تأكيداً، فقال مكرراً له بلفظ **إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** أى: إن مع ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً آخر لما تقرّر من أنه إذا أعيد المعرّف يكون الثانى عين الأول؛ سواء كان المراد به الجنس أو العهد، بخلاف المنكر إذا أعيد فإنه يراد بالثانى فرد مغاير لما أريد بالفرد الأول فى الغالب، و لهذا قال النبىّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فى معنى هذه الآية:

«لن يغلب عسر يسرين» قال الواحدى: و هذا قول النبىّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ و الصحابة و المفسرين على أن العسر واحد و اليسر اثنان. قال الزجاج: ذكر العسر مع الألف و اللام ثم ثنى ذكره، فصار المعنى: إن مع العسر يسرين.

قيل: و التنكير فى اليسر للتفخيم و التعظيم، و هو فى مصحف ابن مسعود غير مكرّر. قرأ الجمهور بسكون السين فى العسر و اليسر فى الموضوعين. و قرأ يحيى بن وثاب و أبو جعفر و عيسى بضمها فى الجميع فإذا فرغت فأنصب أى: إذا فرغت من صلاتك، أو من التبليغ، أو من الغزو فانصب، أى: فاجتهد فى الدعاء و اطلب من الله حاجتك، أو فانصب فى العبادة، و النصب: التعب، يقال: نصب ينصب نصباً، أى: تعب.

قال قتادة و الضحاك و مقاتل و الكلبي: إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك فى الدعاء، و ارغب إليه فى المسألة يعطك، و كذا قال مجاهد. قال الشعبي: إذا فرغت من التشهد فادع لدنياك و آخرتك، و كذا قال الزهري. و قال الكلبي أيضاً: إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب: أى استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات. و قال الحسن و قتادة: إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب لعبادة ربك. و قال مجاهد أيضاً: إذا فرغت من دنياك فانصب فى صلاتك، و إلى ربك فأرغب قال الزجاج: أى اجعل رغبتك إلى الله وحده. قال عطاء: يريد أن يضرع إليه راهباً من النار، راغباً فى الجنة، و المعنى: أنه يرغب إليه سبحانه

(١). النور: ٥٤.

(٢). الحشر: ٧.

(٣). آل عمران: ٢١.

(٤). الحديد: ٢١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٦٥

لا إلى غيره كائناً من كان، فلا يطلب حاجاته إلا منه، و لا يعول فى جميع أموره إلا عليه. قرأ الجمهور:

فَارْغَبْ و قرأ زيد بن عليّ و ابن أبي عبله «فرغب» بتشديد الغين، أى: فرغب الناس إلى الله و شوقهم إلى ما عنده من الخير. و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ** قال: شرح الله صدره للإسلام. و أخرج أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن حبان و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، عن أبي سعيد الخدرى عن النبىّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قال: «أتانى جبريل فقال: إن ربك يقول:

تدرى كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله و رسوله أعلم، قال: إذا ذكرت ذكرت معى» و إسناد ابن جرير هكذا: حدّثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد. و أخرجه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج. و أخرجه ابن أبي حاتم من طريق يونس بن عبد الأعلى به. و أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس فى قوله: **وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** الآية قال: لا يذكر الله إلا ذكر معه. و أخرج البزار و ابن أبي حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أنس قال: «كان النبىّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ جالساً و حياله جحر، فقال: «لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر فدخل عليه فأخرجه، فأنزل الله: **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** - **إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**». و أخرج ابن

النجار عنه مرفوعا نحوه. و أخرج الطبراني و ابن مردويه عنه أيضا مرفوعا نحوه- قال السيوطي: و سنده ضعيف- و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن أبي الدنيا في الصبر و ابن المنذر و البيهقي في الشعب عن ابن مسعود مرفوعا: «لو كان العسر في جحر لتبعه اليسر حتى يدخل فيه فيخرجه، و لن يغلب عسر يسرين إن الله يقول: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا- إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا قال البزار: لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح. قال فيه أبو حاتم الرازي: في حديثه ضعف، و لكن رواه شعبه عن معاوية بن قرّة عن رجل عن عبد الله بن مسعود. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و الحاكم و البيهقي عن الحسن قال: خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يوما فرحا مسرورا و هو يضحك و يقول: «لن يغلب عسر يسرين، إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا» و هذا مرسل. و روى نحوه مرفوعا مرسلا عن قتادة.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله: فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبِ الآية، قال: إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء و أسأل الله و ارغب إليه.

و أخرج ابن مردويه عنه قال: قال الله لرسوله: إذا فرغت من الصلاة و تشهدت فانصب إلى ربك و أسأله حاجتك. و أخرج ابن أبي الدنيا في الذكر عن ابن مسعود: فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبِ إِلَى الدِّعَاءِ وَ إِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ فِي الْمَسْأَلَةِ. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه: فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبِ قَالَ: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٦٦

## سورة التين

### إشارة

و هي مكية في قول الجمهور، و روى القرطبي عن ابن عباس أنها مدنية، و يخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: أنزلت سورة التين بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البخاري و مسلم و أهل السنن و غيرهم عن البراء بن عازب قال: «كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ في سفر، فصلى العشاء، فقرأ في إحدى الركعتين بالتين و الزيتون، فما سمعت أحدا أحسن صوتا و لا قراءة منه». و أخرج الخطيب عنه قال: «صليت مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ المغرب، فقرأ بالتين و الزيتون». و أخرج ابن أبي شيبة في المصنف، و عبد بن حميد في مسنده، و الطبراني عن عبد الله بن يزيد «أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قرأ في المغرب و التين و الزيتون». و أخرج ابن قانع و ابن السكن، و الشيرازي في الألقاب، عن زرعة بن خليفة قال: «أتيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ من اليمامة، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا، فلما صلينا الغداة قرأ بالتين و الزيتون، و إنا أنزلناه في ليلة القدر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة التين (٩٥): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ (١) وَ طُورِ سِينِينَ (٢) وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)

قال أكثر المفسرين: هو التين الذى يأكله الناس وَ الزَيْتُونِ الذى يعصرون منه الزيت، و إنما أقسم بالتين؛ لأنه فاكهه مخلصه من شوائب التنغيص، و فيها أعظم عبرة لدلالاتها على من هياها لذلك، و جعلها على مقدار اللقمة. قال كثير من أهل الطب: إن التين أنفع الفواكه و أكثرها غذاء، و ذكروا له فوائد كما فى كتب المفردات و المركبات، و أما الزيتون فإنه يعصر منه الزيت الذى هو إدام غالب البلدان و دهنهم، و يدخل فى كثير من الأدوية. و قال الضحاك: التين: المسجد الحرام، و الزيتون: المسجد الأقصى. و قال ابن زيد:

التين: مسجد دمشق، و الزيتون: مسجد بيت المقدس. و قال قتادة: التين: الجبل الذى عليه دمشق، و الزيتون: الجبل الذى عليه بيت المقدس. و قال عكرمة و كعب الأحبار: التين: دمشق، و الزيتون: بيت المقدس. و لبت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقى فى اللغة العربية، و العدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى؛ المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل و لا نقل. و أعجب من هذا اختيار ابن فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٦٧

جرير للآخر منها مع طول باعه فى علم الرواية و الدراية. قال الفراء: سمعت رجلا يقول: التين: جبال حلوان إلى همدان، و الزيتون: جبال الشام. هب أنك سمعت هذا الرجل، فكان ماذا؟ فليس بمثل هذا تثبيت اللغة، و لا هو نقل عن الشارع. و قال محمد بن كعب: التين: مسجد أصحاب الكهف، و الزيتون: مسجد إيلياء، و قيل: إنه على حذف مضاف، أى: و منابت التين و الزيتون. قال النحاس: لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل، و لا من قول من لا يجوز خلافه. وَ طُورِ سَيْنِينَ هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى اسمه الطور، و معنى سينين: المبارك الحسن بلغة الحبشة، قاله قتادة. و قال مجاهد: هو المبارك بالسريانية. و قال مجاهد و الكلبي: سينين: كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين و سيناء بلغة النبط. قال الأخفش: طور: جبل، و سينين: شجر، و واحدته سينينية. قال أبو على الفارسي: سينين فعليل، فكررت اللام التى هى نون فيه، و لم ينصرف سينين كما لم ينصرف سيناء لأنه جعل اسما للبقعة، و إنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام، و هى الأرض المقدسة كما فى قوله: إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ (١) و أعظم بركة حلت به و وقعت عليه تكليم الله لموسى عليه. قرأ الجمهور: سَيْنِينَ بكسر السين، و قرأ ابن إسحاق و عمرو بن ميمون و أبو رجاء بفتحها، و هى لغة بكر و تميم. و قرأ عمر بن الخطاب و ابن مسعود و الحسن و طلحة سَيْنَاء بالكسر و المد. وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ يعنى مكة، سمّاه أمينا لأنه آمن كما قال: أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا (٢) يقال أمن الرجل أمانة فهو أمين. قال الفراء و غيره: الأمين بمعنى الآمن، و يجوز أن يكون فعلا بمعنى مفعول من أمنه؛ لأنه مأمون الغوائل لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ هذا جواب القسم، أى: خلقنا جنس الإنسان كائنا فى أحسن تقويم و تعديل. قال الواحدى: قال المفسرون: إن الله خلق كل ذى روح مكبا على وجهه إلا الإنسان، خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده، و معنى التقويم: التعديل، يقال: قَوْمته فاستقام.

قال القرطبي: هو اعتداله و استواء شأنه، كذا قال عامة المفسرين. قال ابن العربي: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حيا عالما قادرا مريدا متكلم سميعا بصيرا مدبرا حكيما، و هذه صفات الرب سبحانه، و عليها جعل بعض العلماء قوله صلى الله عليه و سلم: «إن الله خلق آدم على صورته» يعنى على صفاته التى تقدم ذكرها. قلت: و ينبغى أن يضم إلى كلامه هذا قوله سبحانه: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (٣) و قوله: وَ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (٤) و من أراد أن يقف على حقيقة ما اشتمل عليه الإنسان من بديع الخلق و عجيب الصنع فلينظر فى كتاب «العبر و الاعتبار» للجاحظ، و فى الكتاب الذى عقده النيسابورى على قوله: وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥) و هو فى مجلدين ضخمين. ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ أى: رددناه إلى أرذل العمر، و هو الهرم و الضعف بعد الشباب و القوّة حتى يصير كالصبي فيخرف و ينقص عقله، كذا قال جماعة من المفسرين. قال الواحدى: و السافلون: هم الضعفاء و الزمنا و الأطفال، و الشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعا.



(١). الإسراء: ١.

(٢). العنكبوت: ٦٧.

(٣). الشورى: ١١.

(٤). طه: ١١٠.

(٥). الذاريات: ٢١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٦٨

وقال مجاهد و أبو العالیه و الحسن: المعنى: ثم رددنا الكافر إلى النار، و ذلك أن النار درجات بعضها أسفل من بعض، فالكافر يردّ إلى أسفل الدرجات السافلة، و لا- ينافى هذا قوله تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَجَاتِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ «١» فلا- مانع من كون الكفار و المنافقين مجتمعين في ذلك الدرجات الأسفل، و قوله: أَسْفَلَ سَافِلِينَ إما حال من المفعول، أى: رددناه حال كونه أسفل سافلين، أو صفة لمقدر محذوف، أى: مكانا أسفل سافلين إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هذا الاستثناء على القول الأول منقطع، أى: لكن الذين آمنوا ... إلخ، و وجهه أن الهرم و الردّ إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن كما يصاب به الكافر، فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الاتصال معنى. و على القول الثاني يكون الاستثناء متصلا من ضمير «رددناه»، فإنه فى معنى الجمع، أى: رددنا الإنسان أسفل سافلين من النار إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ أى: غير مقطوع، أى: فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم؛ فهذه الجملة على القول الأول مبنية لكيفية حال المؤمنين، و على القول الثاني مقررة لما يفيد الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الردّ، و قال: أسفل سافلين على الجمع؛ لأن الإنسان فى معنى الجمع، و لو قال أسفل سافل لجاز؛ لأن الإنسان باعتبار اللفظ واحد. و قيل: معنى «رددناه أسفل سافلين»: رددناه إلى الضلال، كما قال: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ - إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ «٢» أى: إلا- هؤلاء؛ فلا يردون إلى ذلك فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ الْخَطَابِ لِلْإِنْسَانِ الْكَافِرِ، و الاستفهام للتقرير و التوبيخ و إلزام الحجة، أى: إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك فى أحسن تقويم، و أنه يردّك أسفل سافلين، فما يحملك على أن تكذب بالبعث و الجزاء؟ و قيل:

الخطاب للنبي صلى الله عليه و سلم، أى: أى شىء يكذبك يا محمد بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة، فاستيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين. قال الفراء و الأخفش: المعنى: فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين، كأنه قال: من يقدر على ذلك؟ أى: على تكذيبك بالثواب و العقاب بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان ما ظهر، و اختار هذا ابن جرير. و الدين: الجزاء، و منه قول الشاعر:

دنا تميما كما كانت أوائل نادانت أوائلهم من سالف الزمن

و قال الآخر:

ولما صرح الشرفأمسى و هو عريان

و لم يبق سوى العدوان دنأهم كما دانوا

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ أى: أليس الذى فعل ما فعل مما ذكرنا بأحكم الحاكمين صنعا و تدبيراً؟

حتى تتوهم عدم الإعادة و الجزاء، و فيه وعيد شديد للكفار، و معنى أحكم الحاكمين: أتقن الحاكمين فى كل ما يخلق، و قيل: أحكم الحاكمين قضاء و عدلا. و الاستفهام إذا دخل على النفى صار الكلام إيجابا كما تقدّم تفسير قوله: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ «٣».

(١). النساء: ١٤٥.

(٢). العصر: ٢-٣.

(٣). الشرح: ١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٦٩

وقد أخرج الخطيب و ابن عساكر- قال السيوطي: بسند فيه مجهول- عن الزهري عن أنس قال: لما أنزلت سورة التين و الزيتون على رسول الله صلى الله عليه و سلم فرح فرحا شديدا؛ حتى تبين لنا شدة فرحه، فسألنا ابن عباس عن تفسيرها فقال: التين: بلاد الشام، و الزيتون: بلاد فلسطين، و طور سيناء: العذى كلم الله عليه موسى، و هذا البلد الأمين: مكة لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم محمدا ثم ردذناه أسفل سافلين عبده اللات و العزى إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون أبو بكر و عمر و عثمان و علي فما يكذبك بعد بالدين - أليس الله بأحكم الحاكمين إذ بعثك فيهم نبيا و جمعك على التقوى يا محمد، و مثل هذا التفسير من ابن عباس لا تقوم به حجة لما تقدم من كون في إسناده ذلك المجهول. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ قال: مسجد نوح العذى بنى على الجودي، و الزيتون قال: بيت المقدس و طور سينين قال: مسجد الطور و هذا البلد الأمين قال: مكة لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم - ثم ردذناه أسفل سافلين يقول: يرد إلى أرذل العمر كبر حتى ذهب عقله، هم نفر كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم، فسل رسول الله صلى الله عليه و سلم حين سفهت عقولهم، فأنزل الله عذرهم أن لهم أجرهم العذى عملوا قبل أن تذهب عقولهم فما يكذبك بعد بالدين يقول: بحكم الله. و أخرج ابن مردويه عنه نحوه. و أخرج ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه عنه أيضا و التين و الزيتون قال: الفاكهة التي يأكلها الناس و طور سينين قال: الطور: الجبل، و السينين:

المبارك. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا قال: سينين: هو الحسن. و أخرج سعيد ابن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عنه أيضا لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم قال: في أعدل خلق ثم ردذناه أسفل سافلين يقول: إلى أرذل العمر إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون يعني: غير منقوص، يقول: فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر و كان يعمل في شبابه عملا صالحا كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته و شبابه و لم يضره ما عمل في كبره، و لم تكتب عليه الخطايا التي يعمل بعد ما يبلغ أرذل العمر. و أخرج الحاكم و صححه، و البيهقي في الشعب، عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، و ذلك قوله: ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ - إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قال: لا- يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئا. و أخرج ابن أبي حاتم عنه ثم ردذناه أسفل سافلين يقول: إلى الكبر و ضعفه، فإذا كبر و ضعف عن العمل كتب له مثل أجر ما كان يعمل في شبابه. و أخرج أحمد و البخاري و غيرهما عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

«إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحا مقيما». و أخرج الترمذي و ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعا: «من قرأ التين و الزيتون، فقرأ: أليس الله بأحكم الحاكمين فليقل: بلى و أنا على ذلك من الشاهدين». و أخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا: «إذا قرأت التين و الزيتون فقرأت أليس الله بأحكم الحاكمين فقل: بلى». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ: أليس الله بأحكم الحاكمين قال: سبحانك اللهم فبلى.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٧٠

و يقال سورة العلق، و هي تسع عشرة آية، و قيل: عشرون آية و هي مكية بلا خلاف، و هي أول ما نزل من القرآن. و أخرج ابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: أول ما نزل من القرآن اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ و أخرج ابن أبي شيبة و ابن الضريس و ابن الأنباري و الطبراني و الحاكم و صححه و ابن مردويه و أبو نعيم في الحلية عن أبي موسى الأشعري قال: اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ أول سورة أنزلت على محمد صلى الله عليه و سلم. و أخرج ابن جرير، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقي و صححه، عن عائشة قالت: إن أول ما نزل من القرآن: اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ و يدل على أن هذه السورة أول ما نزل: الحديث الطويل الثابت في البخاري و مسلم و غيرهما من حديث عائشة، و فيه: «فجاءه الحق و هو في غار حراء، فقال له: اقرأ» الحديث، و في الباب أحاديث و آثار عن جماعة من الصحابة. و قد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة العلق (٩٦): الآيات ١ الى ١٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَاذِبٌ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤)

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَه لِنَسْفِ فَعَا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَدِّدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ (١٩)

قرأ الجمهور: اقرأ بسكون الهمزة أمرا من القراءة. وقرأ عاصم في روايته عنه بفتح الراء، و كأنه قلب الهمزة ألفا ثم حذفها للأمر، و الأمر بالقراءة يقتضى مقروءا، فالتقدير: اقرأ ما يوحى إليك، أو ما نزل عليك، أو ما أمرت بقراءته، و قوله: باسم ربك متعلق بمحذوف هو حال: أى: اقرأ متلبسا باسم ربك أو مبتدئا باسم ربك أو مفتتحا، و يجوز أن تكون الباء زائدة، و التقدير: اقرأ اسم ربك، كقول الشاعر (١):

سود المحاجر لا يقرآن بالسور (٢)

(١). هو الراعى.

(٢). و صدر البيت: هنّ الحرائر لا ربّات أحمره.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٧١

قاله أبو عبيدة. و قال أيضا: الاسم صلة، أى: اذكر ربك. و قيل: الباء بمعنى على، أى: اقرأ على اسم ربك، يقال: افعل كذا بسم الله، و على اسم الله، قاله الأخفش. و قيل: الباء للاستعانة، أى: مستعينا باسم ربك، و وصف الربّ بقوله: الَّذِي خَلَقَ لِنَذْكُرِ النِّعْمَةَ؛ لأنّ الخلق هو أعظم النعم، و عليه يترتب سائر النعم. قال الكلبي: يعنى الخلائق خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ يعنى بنى آدم، و العلقة: الدم الجامد، و إذا جرى فهو المسفوح. و قال: «من علق» بجمع علق لأن المراد بالإنسان الجنس، و المعنى: خلق جنس

الإنسان من جنس العلق، و إذا كان المراد بقوله: «الَّذِي خَلَقَ» كلَّ المخلوقات، فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشريفا له لما فيه من بديع الخلق و عجيب الصنع، و إذا كان المراد بالذی خلق الذی خلق الإنسان فيكون الثاني تفسيراً للأول. و النكتة ما في الإبهام، ثم التفسير من التفات الذهن و تطلعه إلى معرفته ما أبهم أولا ثم فسّر ثانيا. ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد و التقرير فقال: اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ أَي: افعل ما أمرت به من القراءة، و جملة وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ من قوله: «ما أنا بقارئ»، يريد أن القراءة شأن من يكتب و يقرأ و هو أمي، فقيل له: اقرأ، و ربك الذي أمرك بالقراءة هو الأكرم. قال الكلبي: يعنى الحليم عن جهل العباد فلم يعجل بعقوبتهم، و قيل: إنه أمره بالقراءة أولا لنفسه، ثم أمره بالقراءة ثانيا للتبليغ، فلا يكون من باب التأكيد، و الأول أولى الذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ أَي: عَلَّمَ الإنسان الخط بالقلم، فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب، قال الزجاج: علم الإنسان الكتابة بالقلم.

قال قتادة: القلم نعمة من الله عزّ و جلّ عظيمة، لو لا ذلك لم يقيم دين و لم يصلح عيش، فدلّ على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا و نقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، و تبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، و ما دوّنت العلوم و لا قيدت الحكم و لا ضبطت أخبار الأولين و مقالاتهم و لا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، و لو لا هي ما استقامت أمور الدين و لا أمور الدنيا، و سمى قلما لأنه يقلم، أَي: يقطع، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ ما لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ هذه الجملة بدل اشتمال من التي قبلها، أَي: علمه بالقلم من الأمور الكلية و الجزئية ما لم يعلم به منها، قيل: المراد بالإنسان هنا آدم كما في قوله: وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا «١» و قيل: الإنسان هنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ. و الأولى حمل الإنسان على العموم، و المعنى: أن من علمه الله سبحانه من هذا الجنس بواسطة القلم فقد علمه ما لم يعلم، و قوله: كَلَّا رَدَعُ وَ زَجَرَ لِمَنْ كَفَرَ نَعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بسبب طغيانه، و إن لم يتقدم له ذكر، و معنى إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغِي أَنَّهُ يَجَاوِزُ الْحَدَّ و يستكبر على ربه. و قيل: المراد بالإنسان هنا أبو جهل، و هو المراد بهذا و ما بعده إلى آخر السورة، و أنه تأخر نزول هذا و ما بعده عن الخمس الآيات المذكورة في أول هذه السورة. و قيل «كلا» هنا بمعنى حقا، قاله الجرجاني، و علل ذلك بأنه ليس قبله و لا بعده شيء يكون كلا ردّا له، و قوله: أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى عِلْمَهُ لَيْطَغِي، أَي:

ليطغي أن رأى نفسه مستغنيا، أو لأن رأى نفسه مستغنيا، و الرؤية هنا بمعنى العلم، و لو كانت البصرية لامتنع

(١). البقرة: ٣١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٧٢

الجمع بين الضميرين في فعلها لشيء واحد لأن ذلك من خواص باب علم، و نحوه. قال الفراء: لم يقل رأى نفسه، كما قيل: قتل نفسه؛ لأن رأى من الأفعال التي تريد اسما و خبرا نحو الظنّ و الحساب؛ فلا يقتصر فيه على مفعول واحد، و العرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول: رأيتني و حسبتني، و متى تراك خارجا، و متى تظنك خارجا، قيل: و المراد هنا أنه استغنى بالعشيرة و الأنصار و الأموال. قرأ الجمهور: «أن رآه» بمد الهمزة. و قرأ قنبل عن ابن كثير بقصرها. قال مقاتل: كان أبو جهل إذا أصاب مالا زاد في ثيابه و مركبه و طعامه و شرابه؛ فذلك طغيانه، و كذا قال الكلبي. ثم هدّد سبحانه و خوّف، فقال: إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرَّجْعِي أَي: المرجع، و الرجعي و المرجع و الرجوع: مصادر، يقال: رجع إليه مرجعا و رجوعا و رجعي، و تقدّم الجار و المجرور للقصر، أَي: الرجعي إليه سبحانه لا- إلى غيره أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى قَالَ الْمَفْسُورُونَ: الذی ينهى أبو جهل، و المراد بالعبد محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، و فيه تقبيح لصنعه و تشنيع لفعله؛ حتى كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى يعنى العبد المنهى إذا صَلَّى، و هو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى أَي: بالإخلاص و التوحيد و العمل

الصالح الذي تتقى به النار أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى يَعْنِي أبا جهل، كَذَّبَ بما جاء به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَوَلَّى عن الإيمان، وقوله:

أَرَأَيْتَ فِي الثَّلَاثَةِ الْمَوَاضِعِ بِمَعْنَى: أَخْبَرْنِي؛ لِأَنَّ الرَّوْيَةَ لِمَا كَانَتْ سَبَبًا لِلْإِخْبَارِ عَنِ الْمَرْتَبِيِّ أَجْرِي الِاسْتِفْهَامُ عَنْهَا مَجْرِي الِاسْتِفْهَامِ عَنْ مَتَلَقِّهَا، وَالْخَطَابُ لِكُلِّ مَنْ يَصْلِحُ لَهُ. وَقَدْ ذَكَرْنَا هُنَا أَرَأَيْتَ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، وَصَرَّحَ بَعْدَ الثَّلَاثَةِ مِنْهَا بِجُمْلَةٍ اسْتِفْهَامِيَّةٍ فَتَكُونُ فِي مَوْضِعِ الْمَفْعُولِ الثَّانِي لَهَا، وَمَفْعُولُهَا الْأَوَّلُ مَحذُوفٌ، وَهُوَ ضَمِيرٌ يَعُودُ عَلَى الْعَدِيِّ يَنْهَى الْوَاقِعَ مَفْعُولًا أَوَّلًا لِأَرَأَيْتَ الْأَوَّلِي، وَمَفْعُولُ أَرَأَيْتَ الْأَوَّلِي الثَّانِي مَحذُوفٌ، وَهُوَ جُمْلَةٌ اسْتِفْهَامِيَّةٌ كَالْجُمْلَةِ الْوَاقِعَةُ بَعْدَ أَرَأَيْتَ الثَّانِيَّةِ، وَأَمَّا أَرَأَيْتَ الثَّانِيَّةُ فَلَمْ يَذَكَرْ لَهَا مَفْعُولٌ لَا أَوَّلٌ وَلَا ثَانٍ، حَذَفَ الْأَوَّلَ لِلدَّلَالَةِ مَفْعُولُ أَرَأَيْتَ الثَّلَاثَةَ عَلَيْهِ فَقَدْ حَذَفَ الثَّانِي مِنَ الْأَوَّلِي، وَالْأَوَّلُ مِنَ الثَّلَاثَةِ، وَالْإِثْنَانُ مِنَ الثَّانِيَّةِ، وَلَيْسَ طَلَبُ كُلِّ مَنْ رَأَيْتَ لِلْجُمْلَةِ الِاسْتِفْهَامِيَّةِ عَلَى سَبِيلِ التَّنَازُعِ لِأَنَّهُ يَسْتَدْعِي إِضْمَارًا، وَالْجُمْلَةُ لَا تَضْمُرُ، إِنَّمَا تَضْمُرُ الْمَفْرَدَاتِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْحَذْفِ لِلدَّلَالَةِ، وَأَمَّا جَوَابُ الشَّرْطِ الْمَذْكُورَةِ مَعَ أَرَأَيْتَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ الْآخَرَيْنِ. فَهُوَ مَحذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: إِنْ كَانَ عَلَى الْهَدْيِ أَوْ أَمْرًا بِالتَّقْوَى أَلَمْ يَتَّقُوا بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى وَإِنَّمَا حَذَفَ لِلدَّلَالَةِ ذَكَرَهُ فِي جَوَابِ الشَّرْطِ الثَّانِي، وَمَعْنَى أَلَمْ يَتَّقُوا بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى أَي: يَطَّلِعُ عَلَى أَحْوَالِهِ، فَيَجَازِيهِ بِهَا، فَكَيْفَ اجْتَرَأَ عَلَى مَا اجْتَرَأَ عَلَيْهِ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ، وَقِيلَ: أَرَأَيْتَ الْأَوَّلِي مَفْعُولُهَا الْأَوَّلُ الْمَوْصُولُ، وَمَفْعُولُهَا الثَّانِي الشَّرْطِيَّةُ الْأَوَّلِي بِجَوَابِهَا الْمَحذُوفِ الْمَدْلُولُ عَلَيْهِ بِالْمَذْكُورِ، وَأَرَأَيْتَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ تَكَرَّرَ لِلتَّأْكِيدِ، وَقِيلَ: كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ أَرَأَيْتَ بَدَلَ مِنَ الْأَوَّلِي، وَأَلَمْ يَتَّقُوا بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى الْخَيْرِ. قَوْلُهُ:

كَلَّا رَدَعٌ لِلنَّاهِي، وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: لَكِنَّ لَمْ يَنْتَهَ هِيَ الْمَوْطِئَةُ لِلْقَسَمِ، أَي، وَاللَّهُ لَكِنَّ لَمْ يَنْتَهَ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ وَ لَمْ يَنْزَجِرْ لَنْسِفَعًا بِالنَّاصِيَّةِ السَّفْعِ: الْجَذْبُ الشَّدِيدُ، وَالْمَعْنَى: لِنَأْخُذَنَّ بِنَاصِيَّتِهِ وَنَنْجِزَنَّهُ إِلَى النَّارِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَ الْأَقْدَامِ «١» وَيُقَالُ: سَفَعْتُ الشَّيْءَ إِذَا قَبَضْتَهُ وَجَذَبْتَهُ،

(١). الرَّحْمَنُ: ٤١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٧٣

و يُقَالُ: سَفَعْتُ نَاصِيَّةَ فَرَسِهِ. قَالَ الرَّاعِبُ: السَّفْعُ: الْأَخْذُ بِسَفْعَةِ الْفَرَسِ، أَي: بِسَوَادِ نَاصِيَّتِهِ، وَبِاعْتِبَارِ السَّوَادِ قِيلَ: بِهِ سَفْعَةٌ غَضَبٌ؛ عَتَبَارًا بِمَا يَلْعُو مِنَ اللَّوْنِ الدَّخَانِيِّ وَجِهٍ مِنْ اشْتَدَّ بِهِ الْغَضَبُ، وَقِيلَ لِلصَّقْرِ:

أَسْفَعُ لِمَا فِيهِ مِنْ لَمَعِ السَّوَادِ، وَامْرَأَةٌ سَفَعَاءُ اللَّوْنِ. انْتَهَى، وَقِيلَ: هُوَ مَا خُوِذَ مِنْ سَفْعِ النَّارِ وَالشَّمْسِ؛ إِذَا غَيَّرَتْ وَجْهَهُ إِلَى سَوَادٍ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ «١»:

أَثَافِي سَفَعًا فِي مَعْرَسٍ مَرَجَلٍ «٢». وَقَوْلُهُ: نَاصِيَّةٌ بَدَلَ مِنَ النَّاصِيَّةِ، وَإِنَّمَا أَبْدَلَ النِّكَرَةَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ لَوْصَفَهَا بِقَوْلِهِ: كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ وَ هَذَا عَلَى مَذْهَبِ الْكُوفِيِّينَ فَإِنَّهُمْ لَا يَجِيزُونَ إِبْدَالَ النِّكَرَةِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ إِلَّا بِشَرْطٍ وَصَفَهَا. وَأَمَّا عَلَى مَذْهَبِ الْبَصْرِيِّينَ، فَيَجُوزُ إِبْدَالُ النِّكَرَةِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِلَا شَرْطٍ، وَأَنْشَدُوا:

فَلَا وَ أَيْبِكَ خَيْرٌ مِنْكَ إِنِّي لِيُؤْذِنِي التَّحْمِيمُ وَالصَّهِيلُ

قَرَأَ الْجُمْهُورُ بِجَزِّ «نَاصِيَّةٍ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ» وَالْوَجْهَ مَا ذَكَرْنَا. وَقَرَأَ الْكَسَائِيُّ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ بِرَفْعِهَا عَلَى إِضْمَارٍ مُبْتَدَأً، أَي: هِيَ نَاصِيَّةٌ، وَقَرَأَ أَبُو حَيَوَةَ وَابْنُ أَبِي عِبْلَةَ وَزَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بِنَصْبِهَا عَلَى الذَّمِّ. قَالَ مِقَاتِلٌ: أَخْبَرَ عَنْهُ بِأَنَّهُ فَاجِرٌ خَاطِئٌ، فَقَالَ: «نَاصِيَّةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ»، وَتَأْوِيلُهَا: صَاحِبُهَا كَاذِبٌ خَاطِئٌ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ أَي: أَهْلُ نَادِيِهِ، وَالنَّادِي: الْمَجْلِسُ الْعَدِيُّ يَجْلِسُ فِيهِ الْقَوْمُ وَيَجْتَمِعُونَ فِيهِ مِنَ الْأَهْلِ وَالْعَشِيرَةِ؛ وَالْمَعْنَى:

ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه، و منه قول الشاعر (٣):

واستبَّ بعدك يا كليب المجلس (٤) أى: أهله. قيل: إن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أ تهددنى و أنا أكثر الوادى ناديا؟ فنزلت: فليدع ناديه - سَدْعُ الزَّبَانِيَةِ أى: الملائكة الغلاظ الشداد، كذا قال الزجاج. قال الكسائى والأخفش وعيسى ابن عمر: واحدهم زابن، وقال أبو عبيدة: زبنيه، وقيل: زباني، وقيل: هو اسم للجمع لا واحد له من لفظه كعباديد وأبايل. وقال قتادة: هم الشرط فى كلام العرب، وأصل الزَّين الدَّفْع، و منه قول الشاعر:

ومستعجب ممَّا يرى من أناتناو لو زبنته الحرب لم يترمرم

والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتدَّ بطشه، و منه قول الشاعر:

مطاعيم فى القصى مطاعين فى الوغى زبانية غلب (٥) عظام حلومها

قرأ الجمهور: «سندع» بالنون، و لم ترسم الواو كما فى قوله: يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ (٦) وقرأ ابن أبى

(١). هو زهير بن أبى سلمى.

(٢). و عجز البيت: و نؤيا كجذم الحوض لم يتثلم.

(٣). هو المهلهل.

(٤). و صدر البيت: نبئت أن النار بعدك أوقدت.

(٥). «غلب»: جمع أغلب، و هو الغليظ الرقبة.

(٦). القمر: ٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٧٤

عبله: «سيدعى» على البناء للمفعول و رفع الزبانية على النيابة. ثم كرّر الردع و الزجر فقال: كَلَّا لَا تُطِغُهُ أى: لا تطعه فيما دعاك إليه من ترك الصلاة و اشيجد أى: صل لله غير مكترث به، و لا مبال بنهيه و اقترَبَ أى: تقرب إليه سبحانه بالطاعة و العبادة. و قيل: المعنى: إذا سجدت اقترب من الله بالدعاء. و قال زيد بن أسلم: و اسجد أنت يا محمد، و اقترب أنت يا أبا جهل من النار، و الأول أولى.

و السجود هذا الظاهر أن المراد به الصلاة، و قيل: سجود التلاوة، و يدل على هذا ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من السجود عند تلاوة هذه الآية، كما سيأتى إن شاء الله.

و قد أخرج ابن أبى شيبه و ابن جرير، و أبو نعيم فى الدلائل، عن عبد الله بن شداد قال: «أتى جبريل محمدا صلى الله عليه و سلم فقال: يا محمد اقرأ، فقال: و ما اقرأ؟ فضمه ثم قال: يا محمد اقرأ، قال: و ما اقرأ؟ قال اقرأ باسم ربك الذى خلق حتى بلغ ما لم يعلم. و فى الصحيحين و غيرهما من حديث عائشة: «فجاءه الملك، فقال: اقرأ، فقال: قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد فقال: اقرأ باسم ربك الذى خلق - خلق الإنسان من علق - اقرأ و ربك الأكرم - الذى علم بالقلم الآية. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و البخارى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدا يصلى عند الكعبة لأطأن عنقه، فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عيانا». و أخرج ابن أبى شيبه و أحمد، و الترمذى و صححه، و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عنه قال:

«كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصَلِي، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ إنك لتعلم أن ما بها رجل أكثر ناديا مني، فأَنْزَلَ اللهُ: فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ- سَيَدْعُ الزَّبَانِيَةَ فجاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصَلِي، فقيل: ما يمنعك؟ فقال: قد اسودَّ ما بيني وبينه». قال ابن عباس: والله لو تحرك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه. وأخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا نعم، قال: واللات والعزى لئن رأيتني يصلي كذلك لأطأن على رقبتك ولأعفرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يصلي ليظأ على رقبتك، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه، فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقا من نار وهولا وأجنحة، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا» قال: وأنزل الله: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ أَنْ رَأَاهُ اسْتِغْنَى إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، يعني أبا جهل فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ يعني قومه: سَيَدْعُ الزَّبَانِيَةَ يعني الملائكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى قَالَ:

أبو جهل بن هشام حين رمى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسلي على ظهره وهو ساجد لله عز وجل. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: لَنَسِيْفَعًا قَالَ: لناخذن. وأخرج ابن جرير عنه أيضا فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ قَالَ: ناصره، وقد قدمنا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يسجد في إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَفِي أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٧٥

## سورة القدر

### إشارة

وهي مكية عند أكثر المفسرين. كذا قال الماوردي. وقال الثعلبي: هي مدنية في قول أكثر المفسرين، وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة أنها نزلت بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة القدر (٩٧): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَ مَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَ الرُّوحِ فِيهَا يَأْتِي رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤)  
 سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ (٥)

الضمير في أنزلناه للقرآن، وإن لم يتقدم له ذكر، أنزل جملة واحدة في ليلة القدر إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ، وكان ينزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نجوما على حسب الحاجة، وكان بين نزول أوله وآخره على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاث وعشرون سنة، وفي آية أخرى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ «١» وهي ليلة القدر، وفي آية أخرى شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ «٢» وليلة القدر في شهر رمضان. قال مجاهد: في ليلة القدر ليلة الحكم وما أذراك ما ليلة القدر ليلة الحكم، قيل: سميت ليلة القدر لأن الله سبحانه يقدر فيها ما شاء من أمره إلى السنة القابلة. وقيل: إنها سميت بذلك لعظيم قدرها وشرفها، من قولهم: لفلان قدر، أي:

شرف و منزلة، كذا قال الزهري. وقيل: سميت بذلك؛ لأن للطاعات فيها قدرا عظيما و ثوابا جزيلا.

وقال الخليل: سميت ليلة القدر؛ لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة، كقوله: وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴿٣﴾ أى: ضيق.

وقد اختلف فى تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولاً، قد ذكرناها بأدلتها و بينا الراجح منها فى شرحنا للمنتقى و ما أدراك ما ليلة القدر هذا الاستفهام فيه تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق لا يديرها إلا الله سبحانه. قال سفيان: كل ما فى القرآن من قوله: و ما أدراك؛ فقد أدراه، و كل ما فيه: و ما يدريك؛ فلم يدره، و كذا قال الفراء. و المعنى: أى شىء تجعله داريا بها؟ و قد قدمنا الكلام فى إعراب هذه الجملة فى قوله: و ما أدراك ما الحاقه ﴿٤﴾ ثم قال: ليلة القدر خير من ألف شهر قال كثير من المفسرين: أى العمل فيها خير من العمل فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، و اختار هذا الفراء و الزجاج، و ذلك أن الأوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير و النفع، فلما جعل الله الخير الكثير فى

(١). الدخان: ٣.

(٢). البقرة: ١٨٥.

(٣). الطلاق: ٧.

(٤). الحاقه: ٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٧٦

ليلة كانت خيرا من ألف شهر لا يكون فيها من الخير و البركة ما فى هذه الليلة. وقيل: أراد بقوله: ألف شهر جميع الدهر؛ لأن العرب تذكر الألف فى كثير من الأشياء على طريق المبالغة. وقيل: وجه ذكر الألف الشهر: أن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابدا حتى يعبد الله ألف شهر، و ذلك ثلاث و ثمانون سنة و أربعة أشهر، فجعل الله سبحانه لأمة محمد عبادة ليلة خيرا من عبادة ألف شهر كانوا يعبدونها. وقيل: إن النبى صلى الله عليه و سلم رأى أعمار أمته قصيرة، فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم فى طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر و جعلها خيرا من ألف شهر لسائر الأمم، و قيل غير ذلك مما لا طائل تحته، و جملة تنزل الملائكة و الروح فيها بإذن ربهم مستأنفة مبينة لوجه فضلها، موضحة للعلّة التى صارت بها خيرا من ألف شهر، و قوله:

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يَتَلَقُّ بِنُزُولٍ أَوْ بِمَحْذُوفٍ هُوَ حَالٌ، أى: متلبسين بإذن ربهم، و الإذن: الأمر، و معنى «تنزل»: تهبط من السماوات إلى الأرض. و الروح: هو جبريل عند جمهور المفسرين، أى: تنزل الملائكة و معهم جبريل. و وجه ذكره بعد دخوله فى الملائكة التعظيم له و التشريف لشأنه. وقيل: الروح صنف من الملائكة هم أشرفهم، وقيل: هم جند من جنود الله من غير الملائكة، و قيل: الروح: الرحمة، و قد تقدم الخلاف فى الروح عند قوله: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلَائِكَةُ صَفًّا ﴿١﴾ قرأ الجمهور: «تنزل» بفتح التاء، و قرأ طلحة بن مصرف و ابن السميع بضمها على البناء للمفعول، و قوله: مِنْ كُلِّ أَمْرٍ أَيْ: من أجل كل أمر من الأمور التى قضى الله بها فى تلك السنة، و قيل: إن «من» بمعنى اللام، أى: لكل أمر، و قيل:

هى بمعنى الباء، أى: بكل أمر، قرأ الجمهور: «أمر» و هو واحد الأمور، و قرأ على و ابن عباس و عكرمة و الكلبي «امرئ» مذكر امرأة، أى: من أجل كل إنسان، و تأولها الكلبي على أن جبريل ينزل مع الملائكة فيسلمون على كل إنسان، فمن على هذا بمعنى على، و الأول أولى. و قد تم الكلام عند قوله: من كل أمر، ثم ابتداء فقال: سلام هي أى: ما هي إلا سلامة و خير كلها لا شر فيها، و قيل: هي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان من مؤمن أو مؤمنة. قال مجاهد: هي ليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا و لا أذى. و قال الشعبي: هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر يمرّون على كل



مؤمن و يقولون: السلام عليك أيها المؤمن، و قيل: يعنى سلام الملائكة بعضهم على بعض.  
قال عطاء: يريد سلام على أولياء الله و أهل طاعته حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ أى حتى وقت طلوعه. قرأ الجمهور: «مطلع» بفتح اللام. و قرأ الكسائي و ابن محيصن بكسرها، فقليل: هما لغتان فى المصدر، و الفتح أكثر؛ نحو: المخرج و المقتل، و قيل: بالفتح اسم مكان، و بالكسر المصدر، و قيل: العكس، و «حتى» متعلقة بتنزل؛ على أنها غاية لحكم التنزل، أى: لمكثهم فى محل تنزلهم؛ بأن لا ينقطع تنزلهم فوجا بعد فوج إلى طلوع الفجر، و قيل: متعلقة بسلام بناء على أن الفصل بين المصدر و معموله بالمبتدأ مغتفر.  
و قد أخرج ابن الضريس و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقي

(١). النبأ: ٣٨.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٧٧

فى الدلائل، عن ابن عباس فى قوله: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ قال: أنزل القرآن فى ليلة القدر حتى وضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا، ثم جعل جبريل ينزل على محمد بجواب كلام العباد و أعمالهم. و أخرج عبد بن حميد عن أنس قال: العمل فى ليلة القدر و الصدقة و الصلاة و الزكاة أفضل من ألف شهر. و أخرج الترمذى و ضعفه، و ابن جرير و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقي فى الدلائل، عن الحسن بن على بن أبى طالب أن النبى صلى الله عليه و سلم أرى بنى أمية على منبره فساءه ذلك، فنزلت: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ «١» يا محمد يعنى: نهرا فى الجنة، و نزلت: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ - وَ مَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ - لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ يملكها بعدك بنو أمية. قال القاسم: فعددنا فإذا هى ألف شهر لا تزيد يوما و لا تنقص يوما، و المراد بالقاسم هو الفضل المذكور فى إسناده. قال الترمذى: إن يوسف هذا مجهول، يعنى:  
يوسف بن سعد الأذى رواه عن الحسن بن على. قال ابن كثير: فيه نظر، فإنه قد روى عنه جماعة: منهم حماد بن سلمة و خالد الحذاء و يونس بن عبيد. و قال فيه يحيى بن معين: هو مشهور. و فى روايته عن ابن معين قال: هو ثقة، و رواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى بن مازن. قال ابن كثير: ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جدا. قال المزي: هو حديث منكر، و قول القاسم بن الفضل إنه حسب مدة بنى أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد و لا تنقص ليس بصحيح، فإن جملة مدتهم من عند أن استقل بالملك معاوية و هى سنة أربعين إلى أن سلبهم الملك بنو العباس، و هى سنة اثنين و ثلاثين و مائة مجموعها اثنتان و تسعون سنة.

و أخرج الخطيب فى تاريخه؛ عن ابن عباس نحو ما روى عن الحسن بن على. و أخرج الخطيب عن سعيد بن المسيب مرفوعا مرسلا نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: سَيَلَامٌ قال: فى تلك الليلة تصفد مرده الشياطين، و تغل عفاريت الجن، و تفتح فيها أبوابها السماء كلها، و يقبل الله فيها التوبة لكل تائب، فلذا قال: سَيَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ قال: و ذلك من غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر. و الأحاديث فى فضل ليلة القدر كثيرة، و ليس هذا موضع بسطها، و كذلك الأحاديث فى تعيينها و الاختلاف فى ذلك.

(١). الكوثر: ١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٧٨

وهي مدينة في قول الجمهور، وقيل: مكية. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة لم يكن بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة لم يكن بمكة. و أخرج أبو نعيم في المعرفة عن إسماعيل بن أبي حكيم المزني، حدثني فضل: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله يستمع قراءة لم يكن الذين كفروا فيقول: أبشر عدي وعزتي و جلالى لأمكنن لك في الجنة حتى ترضى» قال ابن كثير:

حديث غريب جداً. و أخرجه أبو موسى المديني عن مطر المزني، أو المدنى بنحوه. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بن كعب: «إن الله أمرنى أن أقرأ عليك لم يكن الذين كفروا قال: و سمانى لك؟ قال: نعم، فبكى». و أخرج أحمد، و ابن قانع فى معجم الصحابة، و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى حية البدرى قال: «لما نزلت لم يكن الذين كفروا من أهيل الكتاب إلى آخرها قال جبريل: يا رسول الله إن ربك يأمرك أن تقرئها آتياً، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى: إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة، فقال أبى: و قد ذكرت ثم يا رسول الله؟ قال: نعم، فبكى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة البينة (٩٨): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صِيْحًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ (٣) وَ مَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَ مَا أَمَرُوا إِلَّا ليعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُفَاءً وَ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَ ذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)

المراد ب الذين كفروا من أهيل الكتاب اليهود و النصارى، و المراد ب المشركين مشركو العرب، هم عبدة الأوثان، و منفكين خبر كان، يقال: فككت الشيء فانفك، أى:

انفصل، و المعنى: أنهم لم يكونوا مفارقين لكفرهم و لا- منتهين عنه حتى تأتيهم البيئنة و قيل: الانفكاك بمعنى الانتهاء و بلوغ الغاية، أى: لم يكونوا يبلغون نهاية أعمارهم فيموتوا حتى تأتيهم البيئنة، و قيل: منفكين:

زائلين، أى: لم تكن مدتهم لتزول حتى تأتيهم البيئنة، يقال: ما انفك فلان قائماً، أى: ما زال قائماً، و أصل الفك: الفتح، و منه فك الخلل. و قيل: منفكين: بارحين، أى: لم يكونوا ليبرحوا أو يفارقوا

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٧٩

الدنيا حتى تأتيهم البيئنة. و قال ابن كيسان: المعنى لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد صلى الله عليه وسلم حتى بعث، فلما بعث حسدوه و جحدوه، و هو كقوله: فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به «١» و على هذا فيكون قوله: و المشركين أنهم ما كانوا يسيئون القول فى محمد صلى الله عليه وسلم حتى بعث، فإنهم كانوا يسمونه الأمين، فلما بعث عادوه و أساؤوا القول فيه. و قيل: مُنْفَكِينَ هالكين، من قولهم: انفك صلبه، أى: انفصل فلم يلتصم فيهلك، و المعنى: لم يكونوا معذبين و لا هالكين إلا بعد قيام

الحجّة عليهم. وقيل: إن المشركين هم أهل الكتاب، فيكون وصفهم لأنهم قالوا: المسيح ابن الله و عزير ابن الله. قال الواحدى: ومعنى الآية إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لن ينتهوا عن كفرهم و شركهم بالله حتى أتاهم محمد صلى الله عليه و سلم بالقرآن، فبين لهم ضلالتهم و جهالتهم و دعاهم إلى الإيمان، و هذا بيان عن النعمة و الانقياد به من الجهل و الضلالة و الآية فيمن آمن من الفريقين. قال: و هذه الآية من أصعب ما فى القرآن نظما و تفسيرا، و قد تحبّط فيها الكبار من العلماء، و سلكوا فى تفسيرها طرقا لا تفضى بهم إلى الصواب. و الوجه ما أخبرتك، فاحمد الله إذ أتاك بيانها من غير لبس و لا إشكال. قال: و يدل على أن البيئنة محمد صلى الله عليه و سلم أنه فسرها و أبدل منها فقال: رَسُوْلٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً يعنى ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها، و هو القرآن، و يدل على ذلك أنه كان يتلو على ظهر قلبه، لا عن كتاب. انتهى كلامه. وقيل: إن الآية حكاية لما كان يقوله أهل الكتاب و المشركون إنهم لا يفارقون دينهم حتى يبعث النبي الموعود به، فلما بعث تفرّقوا كما حكاها الله عنهم فى هذه السورة. و البيئنة على ما قاله الجمهور هو محمد صلى الله عليه و سلم؛ لأنه فى نفسه بينة و حجة و لذلك سمّاه سراجا منيرا، و قد فسر الله سبحانه هذه البيئنة المجملّة بقوله: رَسُوْلٌ مِّنَ اللَّهِ فَاتَّضِحَ الْأَمْرُ و تبين أنه المراد بالبيئنة. و قال قتادة و ابن زيد: البيئنة هى القرآن كقوله: أَوْ لَمْ تَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى «٢» و قال أبو مسلم: المراد بالبيئنة مطلق الرسل، و المعنى: حتى تأتيهم رسل من الله، و هم الملائكة يتلون عليهم صحفا مطهرة، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور: «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين» و قرأ ابن مسعود: «لم يكن المشركون و أهل الكتاب» قال ابن العربي: و هى قراءة فى معرض البيان، لا فى معرض التلاوة، و قرأ الأعمش و النخعي:

و المشركون بالرفع عطفا على الموصول. و قرأ أبى «فلما كان الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركون» قرأ الجمهور: رَسُوْلٌ مِّنَ اللَّهِ برفع رسول على أنه بدل كل من كلّ مبالغة، أو بدل اشتمال. قال الزجاج:

رسول رفع على البدل من البيئنة. و قال الفراء: رفع على أنه خبر مبتدأ مضمّر، أى: هى رسول أو هو رسول.

و قرأ أبى و ابن مسعود «رسولا» بالنصب على القطع، و قوله: مِّنَ اللَّهِ متعلق بمحذوف هو صفة لرسول، أى: كائن من الله، و يجوز تعلّقه بنفس رسول، و جوز أبو البقاء أن يكون حالا من صحف، و التقدير: يتلو صحفا مطهرة منزلة من الله، و قوله: يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً يجوز أن تكون صفة أخرى لرسول، أن حالا- من متعلق الجار و المجرور قبله. و معنى يتلو: يقرأ، يقال: تلا- يتلو تلاوة، و الصحف:

(١). البقرة: ٨٩.

(٢). طه: ١٣٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٨٠

جمع صحيفة، و هى ظرف المكتوب، و معنى مطهرة: أنها منزّهة من الزور و الضلال. قال قتادة: مطهرة من الباطل، و قيل: مطهرة من الكذب و الشبهات و الكفر، و المعنى واحد؛ و المعنى: أنه يقرأ ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها لأنه كان صلى الله عليه و سلم يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب كما تقدّم، و قوله: فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ صَفْهُ لصفحا، أو حال من ضميرها، و المراد الآيات و الأحكام المكتوبة فيها، و القيمة: المستقيمة المستوية المحكمة، من قول العرب: قام الشىء؛ إذا استوى و صحّ. و قال صاحب النظم: الكتب بمعنى الحكم كقوله: كَتَبَ اللَّهُ لِمَا غَلِبَنَّا أَنَا وَ رُسُلِي «١» أى: حكم، و قوله صلى الله عليه و سلم فى قصة العسيف «لأفضين بينكما بكتاب الله» ثم قضى بالرجم، و ليس الرجم فى كتاب الله، فالمعنى: لأفضين بينكما بحكم الله، و بهذا يندفع ما قيل إن الصحف هى الكتب، فكيف قال صُحُفًا مُّطَهَّرَةً- فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ و قال الحسن: يعنى بالصحف المطهرة: التى فى السماء،

يعنى فى اللوح المحفوظ كما فى قوله: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ- فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ «٢». وَ مَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ هذِهِ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ لِتَوْبِيخِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ تَقْرِيعِهِمْ، وَ بَيَانِ أَنَّ مَا نَسَبَ إِلَيْهِمْ مِنْ عَدَمِ الْإِنْفِكَاحِ لَمْ يَكُنْ لِاسْتِثْنَاءِ الْأَمْرِ، بَلْ كَانَ بَعْدَ وَضُوحِ الْحَقِّ وَ ظُهُورِ الصَّوَابِ.

قال المفسرون: لم يزل أهل الكتاب مجتمعين حتى بعث الله محمدا، فلما بعث تفرقوا فى أمره و اختلفوا، فآمن به بعضهم و كفر آخرون. و خصَّ أهل الكتاب، و إن كان غيرهم مثلهم فى التفرُّق بعد مجيء البينة لأنهم كانوا أهل علم، فإذا تفرَّقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف، و الاستثناء فى قوله: إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ مَفْرُغٌ مِنْ أَعْمِ الْأَوْقَاتِ، أَى: وَ مَا تَفَرَّقُوا فى وقت من الأوقات إلا- من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة، و هى بعثه رسول الله صلى الله عليه و سلم بالشريعة الغراء و المحجَّة البيضاء. و قيل: البينة: البيان الذى فى كتبهم أنه نبي مرسل، كقوله: وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ «٣» قال القرطبي: قال العلماء: من أول السورة إلى قوله: كُتِبَ قِيَمَةٌ حَكْمَهَا فِيمَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ، وَ قَوْلِهِ: وَ مَا تَفَرَّقَ إِلَّا فِيمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ بعد قيام الحجج، و جملة وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبُدُوا اللَّهَ فى محل نصب على الحال مفيدة لتقريعهم و توبيخهم بما فعلوا من التفرُّق بعد مجيء البينة، أَى: وَ الْحَالِ أَنَّهُمْ مَا أُمِرُوا فى كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا الله و يوحدوه حال كونهم مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أَى: جاعلين دينهم خالصا له سبحانه أو جاعلين أنفسهم خالصة له فى الدين، و قيل:

إن اللام فى ليعبدوا بمعنى أن، أَى: مَا أُمِرُوا إِلَّا بِأَنْ يَعْبُدُوا كقوله: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ «٤» أَى: أَنْ يَبِينَنَّ، وَ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ «٥» أَى: أَنْ يَطْفِئُوا. قرأ الجمهور: «مخلصين» بكسر اللام، و قرأ الحسن بفتحها. و هذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية فى العبادات لأن الإخلاص من عمل القلب،

(١). المجادلة: ٢١.

(٢). البروج: ٢١-٢٢.

(٣). آل عمران: ١٩.

(٤). النساء: ٢٦.

(٥). الصف: ٨.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٨١

و انتصاب حُنفَاءَ على الحال من ضمير مخلصين، فتكون من باب التداخل، و يجوز أن تكون من فاعل يعبدوا، و المعنى: مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام. قال أهل اللغة: أصله أن يحنف إلى دين الإسلام، أَى: يميل إليه وَ يَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ أَى: يفعلوا الصلوات فى أوقاتها، و يعطوا الزكاة عند محلها، و خصَّ الصلاة و الزكاة لأنهما من أعظم أركان الدين. قيل: إن أريد بالصلاة و الزكاة ما فى شريعة أهل الكتاب من الصلاة و الزكاة فالأمر ظاهر، و إن أريد ما فى شريعتنا فمعنى أمرهم بهما فى الكتابين أمرهم باتباع شريعتنا، و هما من جملة ما وقع الأمر به فيها وَ ذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ أَى: وَ ذَلِكَ الْمَذْكُورُ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَ إِخْلَاصِهَا وَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ دِينُ الْقِيَمَةِ أَى دِينِ الْمِلَّةِ الْمُسْتَقِيمَةِ. قال الزجاج: أَى ذَلِكَ دِينِ الْمِلَّةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، فالقيمة صفة لموصوف محذوف. قال الخليل: القيمة جمع القيم، و القيم: القائم. قال الفراء:

أضاف الدِّينَ إِلَى الْقِيَمَةِ، وَ هُوَ نَعْتُهُ لِاخْتِلَافِ اللَّفْظَيْنِ. وَ قَالَ أَيْضًا: هُوَ مِنْ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَى نَفْسِهِ، وَ دَخَلَتْ الْهَاءُ لِلْمَدْحِ وَ الْمُبَالِغَةِ.

ثم بين سبحانه حال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا فقال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ الْمُوصُولِ اسْمِ إِنَّ، وَ الْمُشْرِكِينَ مَعْطُوفٍ عَلَيْهِ، وَ خَبَرَهَا: فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَ خَالِدِينَ فِيهَا حَالٍ مِنَ الْمُسْتَكْنَ فِي الْخَيْرِ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ وَ الْمُشْرِكِينَ مَجْرُورًا عَطْفًا عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَ مَعْنَى كَوْنِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَنَّهُمْ يَصِيرُونَ إِلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: أُولَئِكَ إِلَى مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ الْمُتَّصِفِينَ بِالْكَوْنِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَ الْخُلُودِ فِيهَا هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ أَي: الْخَلِيقَةِ، يُقَالُ بَرَأَ، أَي: خَلَقَ، وَ الْبَارِي: الْخَالِقُ، وَ الْبَرِيَّةُ: الْخَلِيقَةُ. قَرَأَ الْجُمْهُورُ: «الْبَرِيَّةُ» بِغَيْرِ هَمْزٍ فِي الْمَوْضِعَيْنِ وَ قَرَأَ نَافِعٌ وَ ابْنُ ذَكْوَانَ فِيهِمَا بِالْهَمْزِ. قَالَ الْفَرَاءُ: إِنْ أَخَذْتَ الْبَرِيَّةَ مِنَ الْبَرَاءِ وَ هُوَ التَّرَابُ لَمْ تَدْخُلِ الْمَلَائِكَةُ تَحْتَ هَذَا اللَّفْظِ، وَ إِنْ أَخَذْتَهَا مِنْ بَرِيَةِ الْقَلَمِ، أَي: قَدَّرْتَهُ دَخَلَتْ. وَ قِيلَ: إِنْ الْهَمْزُ هُوَ الْأَصْلُ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ:

بَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ بِالْهَمْزِ، أَي: ابْتَدَعَهُ وَ اخْتَرَعَهُ، وَ مِنْهُ قَوْلُهُ: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا «١» وَ لَكِنَّا خَفَفْتَ الْهَمْزَةَ، وَ التَّرْمُ تَخْفِيفُهَا عِنْدَ عَامَّةِ الْعَرَبِ. ثُمَّ بَيَّنَّ حَالَ الْفَرِيقِ الْآخِرِ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَي: جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ أُولَئِكَ الْمَنْعُوتُونَ بِهَذَا هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ قَالَ: وَ الْمُرَادُ أَنْ أُولَئِكَ شَرُّ الْبَرِيَّةِ فِي عَصْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، وَ لَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ فِي كِفَارِ الْأُمَمِ مِنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُمْ، وَ هُوَ لِأَنَّ خَيْرَ الْبَرِيَّةِ فِي عَصْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، وَ لَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ فِي مُؤْمِنِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ جَزَائُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ أَي: ثَوَابُهُمْ عِنْدَ خَالِقِهِمْ بِمُقَابَلَتِهِ مَا وَقَعَ مِنْهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ جَنَاتٍ عِدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ الْمُرَادُ بِجَنَاتِ عِدْنٍ هِيَ أَوْسَطُ الْجَنَاتِ وَ أَفْضَلُهَا، يُقَالُ: عِدْنٌ بِالْمَكَانِ يَعِدُنْ عِدْنَا، أَي: أَقَامَ، وَ مَعْدَنُ الشَّيْءِ: مَرْكَزُهُ وَ مُسْتَقَرُّهُ، وَ مِنْهُ قَوْلُ الْأَعْمَشِيِّ:

وَ إِنْ يَسْتَضَافُوا إِلَى حُكْمِهِ يَضَافُوا إِلَى رَاجِحِ قَدِّ عِدْنِ

(١). الْحَدِيدُ: ٢٢.

فَتْحُ الْقَدِيرِ، ج ٥، ص: ٥٨٢

وَ قَدْ قَدَّمْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُ إِنْ أُرِيدَ بِالْجَنَاتِ الْأَشْجَارُ الْمَلْتَفَةُ، فَجُرْيَانُ الْأَنْهَارِ مِنْ تَحْتِهَا ظَاهِرٌ، وَ إِنْ أُرِيدَ مَجْمُوعُ قَرَارِ الْأَرْضِ وَ الشَّجَرِ، فَجُرْيُ الْأَنْهَارِ مِنْ تَحْتِهَا بِاعْتِبَارِ جُزْئِهَا الظَّاهِرِ، وَ هُوَ الشَّجَرُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَ لَا يَظْعَنُونَ عَنْهَا، بَلْ هُمْ دَائِمُونَ فِي نَعِيمِهَا مُسْتَمِرُونَ فِي لَذَاتِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ الْجَمْلَةَ مُسْتَأْنَفَةً لِيَبَانَ مَا تَفَضَّلَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى مَجْرَدِ الْجَزَاءِ، وَ هُوَ رِضْوَانُهُ عَنْهُمْ حَيْثُ أَطَاعُوا أَمْرَهُ وَ قَبِلُوا شَرَائِعَهُ، وَ رِضَاهُمْ عَنْهُ حَيْثُ بَلَّغُوا مِنَ الْمَطَالِبِ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَ لَا أُذُنَ سَمِعَتْ، وَ لَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْجَمْلَةُ خَبْرًا ثَانِيًا، وَ أَنْ تَكُونَ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ بِإِضْمَارِ قَدِّ ذَلِكَ لِمَنْ حَبِطَتْ رِبَّةُ أَي: ذَلِكَ الْجَزَاءُ وَ الرِّضْوَانُ لِمَنْ وَقَعَتْ مِنْهُ الْخَشْيَةُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ فِي الدُّنْيَا وَ انْتَهَى عَنْ مَعْاصِيهِ بِسَبَبِ تِلْكَ الْخَشْيَةِ الَّتِي وَقَعَتْ لَهُ لَا مَجْرَدِ الْخَشْيَةِ مَعَ الْإِنْهَمَاكِ فِي مَعْاصِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِخَشْيَةٍ عَلَى الْحَقِيقَةِ.

وَ قَدْ أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: مُنْفَكِّينَ قَالَ: بَرَحِينَ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَتَعْجَبُونَ مِنْ مَنزَلَةِ الْمَلَائِكَةِ مِنَ اللَّهِ، وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَمَنزَلَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمُ مِنْ مَنزَلَةِ مَلِكٍ، وَ اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ.

وَ أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدُويَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ أَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ؟ قَالَ: يَا عَائِشَةُ أَمَا تَقْرئين: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ». وَ أَخْرَجَ ابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ هَذَا وَ شِيعَتُهُ لَهُمُ الْفَائِزُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَ نَزَلَتْ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ فَكَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ إِذَا أَقْبَلُوا قَالُوا: قَدْ جَاءَ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ». وَ

أخرج ابن عدى و ابن عساكر عن أبى سعيد مرفوعاً: «علّى خير البرية». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لعلّى: «هو أنت و شيعتك يوم القيامة راضين مرضيين». و أخرج ابن مردويه عن علّى مرفوعاً نحوه. و أخرج أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: رجل أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله كلما كانت هيعه (١) استوى عليه، ألا- أخبركم بشر البرية؟ قالوا: بلى. قال: الذى يسأل بالله و لا يعطى به». قال أحمد: حدّثنا إسحاق بن عيسى، حدّثنا أبو معشر عن أبى وهب مولى أبى هريرة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم، فذكره.

(١). الهيعه: الصوت الذى تفرع منه و تخافه من عدو.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٨٣

## سورة الزلزلة

### إشارة

و هى مدينة فى قول ابن عباس و قتاده، و مكية فى قول ابن مسعود و عطاء و جابر. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت إذا زُلزَلتِ بالمدينة. و أخرج أحمد و أبو داود و النسائى و محمد بن نصر، و الحاكم و صححه، و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن عبد الله بن عمرو قال: «أتى رجل رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: أفرئتى يا رسول الله، قال: اقرأ ثلاثاً من ذوات الرّاء، فقال الرجل: كبر سنّى، و اشتدّ قلبى، و غلظ لسانى، قال: اقرأ ثلاثاً من ذوات حم، فقال مثل مقالته الأولى، فقال: اقرأ ثلاثاً من المسبحات، فقال مثل مقالته الأولى، و قال: و لكن أفرئتى يا رسول الله سورة جامعة، فأقرأه: إذا زُلزَلتِ المأزُصُ زِلْزَالَهَا حتى فرغ منها، قال الرجل: و الذى بعثك بالحق لا أزيد عليها، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: أفلح الرويجل، أفلح الرويجل». و أخرج الترمذى و ابن مردويه و البيهقى عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من قرأ إذا زلزلت الأرض عدلت له بنصف القرآن، و من قرأ: قل هو الله أحد عدلت له بثلث القرآن، و من قرأ: قل يا أيها الكافرون عدلت له بربع القرآن». و أخرج الترمذى و ابن الضريس و محمد بن نصر، و الحاكم و صححه، و البيهقى عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، و قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، و قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن». قال الترمذى: غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة. و أخرج الترمذى عن أنس: «أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لرجل من أصحابه: هل تزوّجت يا فلان؟ قال: لا و الله يا رسول الله، و لا عندى ما أتزوّج به، قال: أليس معك قل هو الله أحد؟ قال: بلى، قال: ثلث القرآن، قال: أليس معك إذا جاء نصر الله و الفتح؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك قل يا أيها الكافرون؟ قال: بلى، قال:

ربع القرآن، قال: أليس معك إذا زلزلت الأرض؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، تزوّج». قال الترمذى: هذا حديث حسن. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «من قرأ فى ليلة إذا زلزلت كان له عدل نصف القرآن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤)  
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ  
شَرًّا يَرَهُ (٨)

قوله: إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا أَى: إِذَا حَرَكْتَ حَرَكَةً شَدِيدَةً، وَ جَوَابَ الشَّرْطِ: تُحَدِّثُ،

فَتَحَ الْقَدِيرِ، ج ٥، ص: ٥٨٤

و المراد تحركها عند قيام الساعة فإنها تضطرب حتى يتكسر كل شىء عليها. قال مجاهد: و هى النفخة الأولى لقوله تعالى: يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ - تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ «١» و ذكر المصدر للتأكيد ثم أضافه إلى الأرض فهو مصدر مضاف إلى فاعله، و المعنى: زلزالها المخصوص الذى يستحقه و يقتضيه جرمها و عظمها. قرأ الجمهور:

«زلزالها» بكسر الزاى، و قرأ الجحدري و عيسى بفتحها، و هما مصدران بمعنى، و قيل: المكسور مصدر و المفتوح اسم. قال القرطبي: و الزلزال بالفتح مصدر كالوسواس و القلقال «٢» وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا أَى: مَا فِى جَوْفِهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ وَ الدَّفَائِنِ، وَ الْأَثْقَالِ: جَمْعُ ثَقُلَ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَ الْأَخْفَشُ: إِذَا كَانَ الْمَيِّتُ فِى بَطْنِ الْأَرْضِ فَهُوَ ثَقُلَ لَهَا، وَ إِذَا كَانَ فَوْقَهَا فَهُوَ ثَقُلَ عَلَيْهَا. قَالَ مُجَاهِدٌ: أَثْقَالَهَا مَوَاتُهَا تَخْرُجُهُمْ فِى النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ، وَ قَدْ قِيلَ لِلْإِنْسَانِ وَ الْجَنِّ الثَّقَلَانِ، وَ إِظْهَارِ الْأَرْضِ فِى مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ لَزِيَادَةِ التَّقْرِيرِ وَ قَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا أَى: قَالَ كُلُّ فَرْدٍ مِنَ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ مَا لَهَا زَلْزَلَتْ؟ لِمَا يَدْهَمُهُ مِنْ أَمْرٍ وَ يَبْهَرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ، وَ قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ الْكَافِرِ، وَ قَوْلُهُ: مَا لَهَا مَبْتَدَأٌ وَ خَبْرٌ، وَ فِيهِ مَعْنَى التَّعْجِيبِ، أَى: أَى شَيْءٍ لَهَا، أَوْ لِأَيِّ شَيْءٍ زَلْزَلَتْ وَ أَخْرَجَتْ أَثْقَالَهَا؟ وَ قَوْلُهُ: يَوْمَئِذٍ بَدَلَ مِنْ إِذَا، وَ الْعَامِلُ فِيهِمَا قَوْلُهُ: تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْعَامِلُ فِى إِذَا مُحذُوفًا وَ الْعَامِلُ فِى يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ، وَ الْمَعْنَى: يَوْمَ إِذَا زَلْزَلَتْ وَ أَخْرَجَتْ تَخْبِرُ بِأَخْبَارِهَا وَ تُحَدِّثُهُمْ بِمَا عَمِلَ عَلَيْهَا مِنْ خَيْرٍ وَ شَرٍّ، وَ ذَلِكَ إِمَّا بِلِسَانِ الْحَالِ حَيْثُ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ دَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ، أَوْ بِلِسَانِ الْمَقَالِ، بِأَنْ يَنْطِقَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ. وَ قِيلَ: هَذَا مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ: وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا أَى: قَالَ مَا لَهَا تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا مُتَّعِجًا مِنْ ذَلِكَ، وَ قَالَ يَحْيَى بْنُ سَلَامٍ: تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِمَا أَخْرَجَتْ مِنْ أَثْقَالِهَا، وَ قِيلَ:

تُحَدِّثُ بَقِيَامِ السَّاعَةِ، وَ أَنَّهَا قَدْ أَتَتْ وَ أَنَّ الدُّنْيَا قَدْ انْقَضَتْ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: تَبَيَّنَ أَخْبَارُهَا بِالرَّجْفَةِ وَ الزَّلْزَلَةِ وَ إِخْرَاجِ الْمَوْتَى، وَ مَفْعُولُ تُحَدِّثُ الْأَوَّلُ مُحذُوفٌ وَ الثَّانِي هُوَ أَخْبَارُهَا، أَى: تُحَدِّثُ الْخَلْقَ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا مُتَّعِلَقٌ بِتُحَدِّثُ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَتَّعِلَقَ بِنَفْسِ أَخْبَارِهَا، وَ قِيلَ: الْبَاءُ زَائِدَةٌ، وَ أَنَّ وَ مَا فِى حِيْزِهَا بَدَلَ مِنْ أَخْبَارِهَا، وَ قِيلَ: الْبَاءُ سَبْبِيَّةٌ، أَى: بِسَبَبِ إِحْيَاءِ اللَّهِ إِلَيْهَا. قَالَ الْفَرَّاءُ: تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِوَحْيِ اللَّهِ وَ إِذْنِهِ لَهَا، وَ اللَّامُ فِى أَوْحَى لَهَا بِمَعْنَى إِلَى وَ إِنَّمَا أَثَرَتْ عَلَى إِلَى لِمُوَافَقَةِ الْفَوَاصِلِ، وَ الْعَرَبُ تَضَعُ لَامَ الصِّفَةِ مَوْضِعَ إِلَى، كَذَا قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ. وَ قِيلَ: إِنْ أَوْحَى يَتَّعِدَى بِاللَّامِ تَارَةً، وَ بِأَلْيِ أُخْرَى، وَ قِيلَ: إِنْ اللَّامُ عَلَى بَابِهَا مِنْ كَوْنِهَا لِلْعَلَّةِ، وَ الْمَوْحَى إِلَيْهِ مُحذُوفٌ، وَ هُوَ الْمَلَائِكَةُ، وَ التَّقْدِيرُ: أَوْحَى إِلَى الْمَلَائِكَةِ لِأَجْلِ الْأَرْضِ: أَى لِأَجْلِ مَا يَفْعَلُونَ فِيهَا، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا الظَّرْفُ إِمَّا بَدَلَ مِنْ يَوْمَئِذٍ الَّذِى قَبْلَهُ، وَ إِمَّا مَنْصُوبٌ بِمُقَدَّرٍ هُوَ إِذْكَرُ، وَ إِمَّا مَنْصُوبٌ بِمَا بَعْدَهُ، وَ الْمَعْنَى: يَوْمَ إِذْ يَقَعُ مَا ذَكَرَ يَصْدُرُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى مَوْضِعِ الْحِسَابِ أَشْتَاتًا، أَى: مُتَفَرِّقِينَ، وَ الْمَصْدَرُ: الرَّجُوعُ وَ هُوَ ضِدُّ الْوُرُودِ، وَ قِيلَ: يَصْدُرُونَ مِنْ مَوْضِعِ الْحِسَابِ إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ، وَ انْتِصَابُ أَشْتَاتًا عَلَى الْحَالِ، وَ الْمَعْنَى: أَنْ بَعْضُهُمْ آمَنَ وَ بَعْضُهُمْ خَافَ، وَ بَعْضُهُمْ بَلُونَ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَ هُوَ الْبِياضُ، وَ بَعْضُهُمْ بَلُونَ أَهْلَ النَّارِ وَ هُوَ السَّوَادُ، وَ بَعْضُهُمْ يَنْصَرِفُ إِلَى جِهَةٍ

(١). النزاعات: ٦-٧.

(٢). «القلقال»: من قلقل الشيء إذا حرّكه.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٨٥

اليمن و بعضهم إلى جهة الشمال، مع تفرّقهم في الأديان و اختلافهم في الأعمال لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ متعلق بيبصدر، و قيل: فيه تقديم و تأخير، أى: تحدّث أخبارها بأن ربك أوحى لها ليروا أعمالهم يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا. قرأ الجمهور: «ليروا» مبني للمفعول، و هو من رؤية البصر، أى: ليريهم الله أعمالهم.

و قرأ الحسن و الأعرج و قتادة و حماد بن سلمة و نصر بن عاصم و طلحة بن مصرف على البناء للفاعل، و رويت هذه القراءة عن نافع، و المعنى: ليروا جزاء أعمالهم فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ أى: وزن نملة، و هى أصغر ما يكون من النمل. قال مقاتل: فمن يعمل فى الدنيا مثقال ذرّة خيرا يره يوم القيامة فى كتابه فيفرح به، و كذلك مَنْ يَعْمَلْ فى الدنيا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ يوم القيامة فيسوؤه، و مثل هذه الآية قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ (١). و قال بعض أهل اللغة: إن الذرّة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض فما علق من التراب فهو الذرّة، و قيل: الذرّ ما يرى فى شعاع الشمس من الهباء، و الأوّل أولى، و منه قول امرئ القيس:

من القاصرات الطرف لو دبّ محول من الذرّ فوق الأتب منها لأثرا

و «من» الأولى عبارة عن السعداء، و «من» الثانية عبارة عن الأشقياء. و قال محمد بن كعب: فمن يعمل مثقال ذرّة من خير من كافر يرى ثوابه فى الدنيا و فى نفسه و ماله و أهله و ولده حتى يخرج من الدنيا، و ليس له عند الله خير، و من يعمل مثقال ذرّة من شرّ من مؤمن يرى عقوبته فى الدنيا فى ماله و نفسه و أهله و ولده حتى يخرج من الدنيا، و ليس له عند الله شرّ، و الأوّل أولى. قال مقاتل: نزلت فى رجلين كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة و الكسرة، و كان الآخر يتهاون بالذنب اليسير و يقول: إنما أوعد الله النار على الكافرين. قرأ الجمهور «يره» فى الموضوعين بضم الهاء و صلا و سكونها وقفا، و قرأ هشام بسكونها و صلا و وقفا، و نقل أبو حيان عن هشام و أبى بكر سكونها، و عن أبى عمرو ضمها مشبعة، و باقى السبعة بإشباع الأولى و سكون الثانية، و فى هذا النقل نظر، و الصواب ما ذكرنا. و قرأ الجمهور: «يره» مبني للفاعل فى الموضوعين. و قرأ ابن عباس و ابن عمر و الحسن و الحسين ابنا عليّ و زيد بن عليّ و أبو حيوة و عاصم و الكسائي فى رواية عنهما و الجحدري و السلمى و عيسى على البناء للمفعول فيهما، أى: يريه الله إياه. و قرأ عكرمة «يراه» على توهم أن من موصوله، أو على تقدير الجزم بحذف الحركة المقدّرة فى الفعل.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس: إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا قَالَ: تحركت من أسفلها وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا قَالَ: الموتى وَ قَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا قَالَ: الكافر يقول: ما لها يَوْمَئِذٍ تُخَرِّجُ أَخْبَارَهَا قَالَ: قال لها ربك قولى فقالت. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا قَالَ: أوحى إليها يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا قَالَ: من كل من هاهنا و هاهنا. و أخرج ابن المنذر عنه وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا قَالَ: الكنوز و الموتى. و أخرج مسلم و الترمذى عن أبى هريرة قال:

(١). النساء: ٤٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٨٦

قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: «تقىء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب و الفضة، فيجىء القاتل فيقول: فى هذا قتلت، و يجىء القاطع فيقول: فى هذا قطعت رحمى، و يجىء السارق فيقول: فى هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون



منه شيئاً». و أخرج أحمد و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة قال:

«قرأ رسول الله صلى الله عليه و سلم: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا فقال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله و رسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد و أمه بما عمل على ظهرها، تقول: عمل كذا و كذا، فهذا أخبارها». و أخرج ابن مردويه و البيهقى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «إن الأرض لتجىء يوم القيامة بكل عمل على ظهرها، وقرأ رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا زُلزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا حتى بلغ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا». و أخرج الطبرانى عن ربيعة الحرشى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، و إنه ليس من أحد عامل عليها خيرا أو شرا إلا و هى مخبرة». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و الحاكم فى تاريخه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أنس قال: «بينما أبو بكر الصديق يأكل مع النبى صلى الله عليه و سلم إذ نزلت عليه: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ- وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ فرفع أبو بكر يده و قال: يا رسول الله إنى لراء ما عملت من مثقال ذرة من شر، فقال: يا أبا بكر أ رأيت ما ترى فى الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر و يدخر لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة». و أخرج إسحاق بن راهويه و عبد بن حميد و الحاكم و ابن مردويه عن أبى أسماء قال: «بينما أبو بكر يتغدى مع رسول الله صلى الله عليه و سلم إذ نزلت هذه الآية: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ- وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ فأمسك أبو بكر و قال: يا رسول الله ما عملنا من شر رأينا، فقال:

ما ترون مما تكرهون فذاك مما تجزون و يؤخر الخير لأهله فى الآخرة». و أخرج ابن أبى الدنيا و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن عبد الله بن عمر بن العاص قال: «أنزلت إذا زلزلت الأرض زلزالها و أبو بكر الصديق قاعد فبكى، فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم: ما يبكيك يا أبا بكر؟ قال: يبكىنى هذه السورة، فقال: لو لا أنكم تخطئون و تذبون فيغفر لكم خلق الله قوما يخطئون و يذبون فيغفر لهم».

و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «الخیل لثلاثة: لرجل أجر، و لرجل ستر، و على رجل وزر» الحديث. و قال: «و سئل عن الحمر فقال: ما أنزل على فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ- وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٨٧

## سورة العاديات

### إشارة

و هى مكية فى قول ابن مسعود و جابر و الحسن و عكرمة و عطاء، و مدينة فى قول ابن عباس و أنس بن مالك و قتادة. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة و العاديات بمكة. و أخرج أبو عبيد فى فضائله عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، و العاديات تعدل نصف القرآن»، و هو مرسل. و أخرج محمد بن نصر من طريق عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس مرفوعا مثله، و زاد: «و قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، و قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَنْزَنَ بِهِ نَعْمًا (٤)

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكِ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِعًا إِلَىٰ قَبْرِ أَبِي لَهَبٍ (٩)

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)

العاديات جمع عادية، وهي الجارية بسرعة، من العدو: وهو المشى بسرعة، فأبدلت الواو ياء لكسر ما قبلها كالغازيات من الغزو، والمراد بها الخيل العادية في الغزو نحو العدو، وقوله: ضَبْحًا مصدر مؤكد لاسم الفاعل، فإن الضبح نوع من السير ونوع من العدو، يقال: ضبح الفرس؛ إذا عدا بشدة، مأخوذ من الضبح، وهو الدفع، وكأن الحاء بدل من العين. قال أبو عبيدة والمبرد: الضبح من أضباعها في السير، ومنه قول عنترة:

والخيل تعلم حين تضح في حياض الموت ضبحا

ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال، أي: ضابحات، أو ذوات ضبح، ويجوز أن يكون مصدرا لفعل محذوف، أي: تضح ضبحا، وقيل: الضبح: صوت حوافرها إذا عدت، وقال الفراء: الضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدت. قيل: كانت تكعم «١» لثلا تسهل فيعلم العدو بهم، فكانت تتنفس في هذه الحالة بقوة، وقيل: الضبح: صوت يسمع من صدور الخيل عند العدو ليس بصهيل. وقد ذهب الجمهور إلى ما ذكرنا من أن «العاديات ضبحا» هي الخيل. وقال عبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسدي: هي الإبل، ومنه قول صفية بنت عبد المطلب:

(١). «تكعم»: الكعام: شيء يجعل على فم البعير.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٨٨ فلا والعاديات غداة جمع بأيديها إذا سطع الغبار ونقل أهل اللغة أن أصل الضبح للثعلب فاستعير للخيل، ومنه قول الشاعر:

تضح في الكف ضباح الثعلب فالْمُورِيَاتِ قَدْحًا هي الخيل حين توري النار بسنابكها، والإبراء: إخراج النار، والقدرح: الصك، فجعل ضرب الخيل بحوافرها كالقدرح بالزناد. قال الزجاج: إذا عدت الخيل بالليل وأصاب حوافرها الحجارة انقدح منها النيران، والكلام في انتصاب قدحا كالكلام في انتصاب ضبحا، والخلاف في كونها الخيل أو الإبل كالخلاف الذي تقدم في العاديات، والراجح أنها الخيل كما ذهب إليه الجمهور، وكما هو الظاهر في هذه الأوصاف المذكورة في هذه السورة ما تقدم منها وما سيأتي، فإنها في الخيل أوضح منها في الإبل، وسيأتي ما في ذلك من الخلاف بين الصحابة فالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا أي: التي تغير على العدو وقت الصباح، يقال: أغار يغير إغارة: إذا باغت عدوه بقتل أو أسر أو نهب وأسند الإغارة إليها وهي لأهلها للإشعار بأنها عمدتهم في إغارتهم، وانتصاب صبحا على الظرفية فَأَنْزَنَ بِهِ نَعْمًا معطوف على الفعل الذي دل عليه اسم الفاعل، إذ المعنى:

واللاتي عدون فأثرن، أو على اسم الفاعل نفسه لكونه في تأويل الفعل لوقوعه صلة للموصول، فإن الألف واللام في الصفات أسماء موصولة، والكلام في قوة: واللاتي عدون فأغرن فأثرن، والنقع: الغبار الذي أثرته في وجه العدو عند الغزو، وتخصيص إثارته بالصبح لأنه وقت الإغارة، و لكونه لا يظهر أثر النقع في الليل الذي اتصل به الصبح. وقيل: المعنى: فأثرن بمكان عدوهن نقعا، يقال ثار النقع وأثرته: أي هاج أو هيجته.

قرأ الجمهور: فَأَثَرَنَ بتخفيف المثلثة. وقرأ أبو حيوة و ابن أبي عبيدة بالتشديد، أى: فأظهروا به غبارا.

وقال أبو عبيدة: النقع: رفع الصوت، و أنشد قول لبيد:

فمتى ينقع صراخ صادق يحلبوها ذات جرس و زجل

يقول حين سمعوا صراخا: أحلبوا الحرب، أى: جمعوا لها. قال أبو عبيدة: و على هذا رأيت قول أكثر أهل العلم انتهى، و

المعروف عند جمهور أهل اللغة و المفسرين أن النقع الغبار، و منه قول الشاعر:

يخرجن من مستطار النقع دامية كأنّ أذنانها أطراف أقلام

و قول عبد الله بن رواحة:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع من كنفى كداء

و قول الآخر:

كأنّ مثار النقع فوق رؤوسناو أسيفنا ليل تهاوى كواكبه

و هذا هو المناسب لمعنى الآية، و ليس لتفسير النقع بالصوت فيها كثير معنى، فإن قولك أغارت الخيل على بنى فلان صباحا

فأثرن به صوتا، قليل الجدوى مغسول المعنى بعيد من بلاغة القرآن المعجزة. و قيل:

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٨٩

النقع: شقّ الجيوب، و قال محمد بن كعب: النقع ما بين مزدلفة إلى منى، و قيل: إنه طريق الوادى. قال فى الصّيحاح: النقع: الغبار،

و الجمع: أنقاع، و النقع: محبس الماء، و كذلك ما اجتمع فى البئر منه، و النقع:

الأرض الحرّة الطين يستنقع فيها الماء فَوَسَيْطَنَ بِهِ جَمْعاً أى: توسطن بذلك الوقت، أو توسطن متلبسات بالنقع جمعا من جموع

الأعداء، أو صرن بعدوهن وسط جمع الأعداء، و الباء إما للتعدية، أو للحالية، أو زائدة؛ يقال: وسطت المكان، أى: صرت فى

وسطه، و انتصاب «جمعا» على أنه مفعول له، و الفاءات فى المواضع الأربعة للدلالة على ترتب ما بعد كل واحد منها على ما

قبلها. قرأ الجمهور: فَوَسَيْطَنَ بتخفيف السين، و قرئ بالتشديد إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ هذا جواب القسم، و المراد بالإنسان بعض

أفراده، و هو الكافر، و الكنود: الكفور للنعمة، و قوله: لِرَبِّهِ متعلق بكنود، قدّم لرعاية الفواصل، و منه قول الشاعر:

كنود لنعماء الرّجال و من يكن كنودا لنعماء الرّجال يبعّد

أى: كفور لنعماء الرجال، و قيل: هو الجاحد للحقّ، قيل: إنها إنما سميت كنده لأنها جحدت أباها.

و قيل: الكنود مأخوذ من الكند، و هو القطع، كأنه قطع ما ينبغى أن يواصله من الشكر. يقال كند الحبل:

إذا قطعه، و منه قول الأعشى:

وصول حبال و كنادها «١» و قيل: الكنود: البخيل، و أنشد أبو زيد:

إنّ نفسى لم تطب منك نفسا غير أنّى أمسى بدين كنود

و قيل: الكنود: الحسود، و قيل: الجهول لقدره، و تفسير الكنود بالكفور للنعمة أولى بالمقام، و الجاحد للنعمة كافر لها، و لا

يناسب المقام سائر ما قيل، وَ إِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ أى: و إن الإنسان على كنوده لشهيد يشهد على نفسه به لظهور أثره عليه؛ و

قيل المعنى: و إن الله جلّ ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد، و به قال الجمهور. و قال بالأوّل الحسن و قتادة و محمد بن

كعب، و هو أرجح من قول الجمهور لقوله: وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ فإنّ الضمير راجع إلى الإنسان، و المعنى: إنه لحبّ المال

قوى مجدّ فى طلبه و تحصيله متهالك عليه، يقال: هو شديد لهذا الأمر و قوى له؛ إذا كان مطيقا له، و منه قوله تعالى: إِنَّ تَرَكَ

خَيْراً «٢» و منه قول عدى بن حاتم:

(١). و صدر البيت: أميطى تميطى بصلب الفؤاد.

(٢). البقرة: ١٨٠.

(٣). أى غامها، من كربه الأمر: أى اشتد عليه.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٩٠

وقيل: المعنى: و إن الإنسان من أجل حب المال لبخيل، و الأول أولى. و اللام فى لِحَبٍ متعلقه بشديد. قال ابن زيد: سمى الله المال خيرا، و عسى أن يكون شرًا، و لكن الناس يجدونه خيرا، فسماه خيرا. قال الفراء: أصل نظم الآية أن يقال: و إنه لشديد الحب للخير، فلما قدم الحب قال: لشديد، و حذف من آخره ذكر الحب، لأنه قد جرى ذكره، و لرؤوس الآية كقوله: فى يوم عاصفٍ (١) و العصف للريح لا لليوم، كأنه قال: فى يوم عاصف الريح أ فلا يعلم إذا بعث ما فى القبور الاستفهام للإنكار، و الفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أى: يفعل ما يفعل من القبائح فلا يعلم، و بعث معناه: نشر و بحث، أى: نثر ما فى القبور من الموتى و بحث عنهم و أخرجوا. قال أبو عبيدة: بعثت المتاع: جعلت أسفله أعلاه. قال الفراء: سمعت بعض العرب من بنى أسد يقول: بخر بالحاء مكان العين، و قد تقدم الكلام على هذا فى قوله: و إذا القبور بعثت (٢) و حصل ما فى الصدور أى: ميز و بين ما فيها من الخير و الشر، و التحصيل: التمييز، كذا قال المفسرون، و قيل: حصل: أبرز. قرأ الجمهور: حصل بضم الحاء و تشديد الصاد مكسورا مبنيًا للمفعول، و قرأ عبيد بن عمير و سعيد بن جبير و يحيى بن يعمر و نصر بن عاصم «حصل» بفتح الحاء و الصاد و تخفيفها مبنيًا للفاعل، أى: ظهر إن ربهم بهم يومئذ لخير أى:

إن رب المبعوثين بهم لخبير، لا تخفى عليه منهم خافية؛ فيجازيهم بالخير خيرا، و بالشر شرًا. قال الزجاج:

الله خبير بهم فى ذلك اليوم و فى غيره، و لكن المعنى: إن الله يجازيهم على كفرهم فى ذلك اليوم، و مثله قوله تعالى: أولئك اللذين يعلم الله ما فى قلوبهم (٣) معناه: أولئك الذين لا يترك الله مجازاتهم. قرأ الجمهور إن ربهم بكسر الهمزة و باللام فى «الخبير»، و قرأ أبو السمال بفتح الهمزة و إسقاط اللام من «الخبير».

و قد أخرج البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الدار قطنى فى الأفراد، و ابن مردويه عن ابن عباس قال:

«بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم خيلا فاستمرت شهرا لا يأتيه منها خبر، فنزلت: و العاديات ضبحا ضبحا بأرجلها» و لفظ ابن مردويه: ضبحت بمنآخرها فالْمُورِيَاتِ قَدْحًا قَدَحَتْ بِحَوَافِرِهَا الْحِجَارَةَ فَأَوْرَتْ نَارًا فَالْمُغِيرَاتِ ضُبْحًا صَبَحَتْ الْقَوْمَ بَغَارَةً فَأَثْرَنَ بِهِ نَقْعًا أَثَارَتْ بِحَوَافِرِهَا التَّرَابَ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا صَبَحَتْ الْقَوْمَ جَمِيعًا. و أخرج ابن مردويه من وجه آخر عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم سرية إلى العدو فأبطأ خبرها، فشق ذلك عليه، فأخبره الله خبرهم و ما كان من أمرهم، فقال: و العاديات ضبحا قال: «هى الخيل». و الضبح: نخير الخيل حين تنخر، فالْمُورِيَاتِ قَدْحًا قال: حين تجرى الخيل تورى نارا أصابت سنابكها الحجاره فالْمُغِيرَاتِ ضُبْحًا قال: هى الخيل أغارت فصبحت العدو، فَأَثْرَنَ بِهِ نَقْعًا قال: هى الخيل أثرن بحوافرها، يقول: بعدو الخيل، و النقع: الغبار، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا قال: الجمع: العدو. و أخرج عبد بن حميد عن أبى صالح قال: تقاولت أنا و عكرمة فى شأن العاديات، فقال: قال ابن عباس: هى الخيل فى القتال، و ضبحتها حين ترخى مشافرها إذا عدت فالْمُورِيَاتِ قَدْحًا

(١). إبراهيم: ١٨.

(٢). الانفطار: ٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٩١

أرت المشركين مكرهم فَأَلْمَغِيرَاتِ ضَبْحًا قَالَ: إِذَا أَصْبَحَتِ الْعَدُوُّ فَوَسَّيَطْنَ بِهِ جَمْعًا قَالَ: إِذَا تَوَسَّطَتِ الْعَدُوُّ. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَقُلْتُ: قَالَ عَلِيٌّ: هِيَ الْإِبِلُ فِي الْحَجِّ، وَمَوْلَايَ كَانَ أَعْلَمَ مِنْ مَوْلَا-ك. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فِي كِتَابِ الْأَضْدَادِ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَجْرِ جَالِسٌ إِذْ أَتَانِي رَجُلٌ يَسْأَلُ عَنِ «الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا» فَقُلْتُ: الْخَيْلُ حِينَ تَغْيِرُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى اللَّيْلِ؛ فَيَصْنَعُونَ طَعَامَهُمْ وَيُورُونَ نَارَهُمْ، فَيَنْفَتِلُ عَنِّي فَذَهَبَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ جَالِسٌ تَحْتَ سَقَايَةِ زَمْزَمَ، فَسَأَلَهُ عَنِ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا، فَقَالَ: سَأَلْتُ عَنْهَا أَحَدًا قَبْلِي؟ قَالَ:

نَعَمْ سَأَلْتُ عَنْهَا ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: هِيَ الْخَيْلُ حِينَ تَغْيِرُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ: أَذْهَبُ فَادْعُهُ لِي، فَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَى رَأْسِهِ قَالَ: تَفْتِي النَّاسَ بِمَا لَا-عِلْمَ لَكَ، وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لِأَوَّلِ غَزْوَةٍ فِي الْإِسْلَامِ لِبَدْرٍ، وَمَا كَانَ مَعَنَا إِلَّا فَرَسَانُ فَرَسٍ لِلزَّبِيرِ وَفَرَسٌ لِلْمَقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ، فَكَيْفَ تَكُونُ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا إِنَّمَا الْعَادِيَاتُ ضَبْحًا مِنْ عَرَفَةَ إِلَى الْمَزْدَلِفَةِ، فَإِذَا أُوْوَا إِلَى الْمَزْدَلِفَةِ أَوْ قَدُوا النَّيْرَانَ، فَأَلْمَغِيرَاتِ ضَبْحًا مِنَ الْمَزْدَلِفَةِ إِلَى مَنَى، فَذَلِكَ جَمْعٌ، وَآمَّا قَوْلُهُ: فَأَتَزْنَ بِهِ نَقْعًا فَهِيَ نَقَعُ الْأَرْضِ تَطْوُهُ بِأَخْفَافِهَا وَحَوَافِرِهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَزَعْتُ عَنْ قَوْلِي، وَرَجَعْتُ إِلَى الْمَذْيِ قَالَ عَلِيٌّ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا قَالَ: الْإِبِلُ، أَخْرَجُوهُ عَنْهُ مِنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ:

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: هِيَ الْإِبِلُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ الْخَيْلُ، فَلَبَّغَ عَلِيًّا قَوْلَ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَقَالَ: مَا كَانَتْ لَنَا خَيْلٌ يَوْمَ بَدْرٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّمَا كَانَتْ تِلْكَ فِي سَرِيَّةٍ بَعَثْتُ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ عَنْ عَامِرِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: تَمَارِي عَلِيٌّ وَابْنُ عَبَّاسٍ فِي الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ الْخَيْلُ؛ وَقَالَ عَلِيٌّ: كَذَبْتَ يَا ابْنَ فَلَانَةَ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مَعَنَا يَوْمَ بَدْرٍ فَارِسٌ إِلَّا الْمَقْدَادُ كَانَ عَلَى فَرَسٍ أَبْلَقَ قَالَ: وَكَانَ يَقُولُ هِيَ الْإِبِلُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلَا تَرَى أَنَّهَا تَشِيرُ نَقْعًا فَمَا شَيْءٌ تَشِيرُ إِلَّا بِحَوَافِرِهَا. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، مِنْ طَرِيقِ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا قَالَ: الْخَيْلُ فَأَلْمَغِيرَاتِ قَدْحًا قَالَ: الرَّجُلُ إِذَا أَوْرَى زَنْدَهُ فَأَلْمَغِيرَاتِ ضَبْحًا قَالَ: الْخَيْلُ تَصْبِحُ الْعَدُوُّ فَأَتَزْنَ بِهِ نَقْعًا قَالَ: التَّرَابُ فَوَسَّيَطْنَ بِهِ جَمْعًا قَالَ: الْعَدُوُّ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:

الْقِتَالِ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: الْحَجُّ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقُ وَسَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ عَمْرٍو بْنِ دِينَارٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا قَالَ: لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الدَّوَابِّ يَضْبِحُ إِلَّا الْكَلْبُ أَوِ الْفَرَسُ فَأَلْمَغِيرَاتِ قَدْحًا قَالَ: هُوَ مَكْرُ الرَّجُلِ قَدْحٌ فَأَوْرَى فَأَلْمَغِيرَاتِ ضَبْحًا قَالَ:

غَارَةُ الْخَيْلِ صَبْحًا فَأَتَزْنَ بِهِ نَقْعًا قَالَ: غَبَارٌ وَقَعَ سَنَابِكُ الْخَيْلِ فَوَسَّيَطْنَ بِهِ جَمْعًا قَالَ: جَمْعُ الْعَدُوِّ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا قَالَ: الْخَيْلُ ضَبْحًا زَحِيرَهَا، أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَرَسَ إِذَا عَدَا قَالَ: أَحُّ أَحُّ، فَذَلِكَ ضَبْحُهَا. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: الضَّبْحُ مِنَ الْخَيْلِ الْحَمْحَمَةُ، وَمِنَ الْإِبِلِ النَّفْسُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا قَالَ: هِيَ الْإِبِلُ فِي الْحَجِّ فَأَلْمَغِيرَاتِ قَدْحًا إِذَا سَفَتِ الْحَصَى بِمَنَاسِمِهَا فَضَرَبَ الْحَصَى بَعْضُهُ بَعْضًا فَيَخْرُجُ مِنْهُ النَّارُ

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٩٢

فَأَلْمَغِيرَاتِ ضَبْحًا حِينَ يَفِيضُونَ مِنْ جَمْعٍ فَأَتَزْنَ بِهِ نَقْعًا قَالَ: إِذَا سَرَنَ يَثْرَنَ التَّرَابِ.

وَأَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْكَنْوُدُ بِلِسَانِنَا أَهْلَ الْبَلَدِ الْكُفُورُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ عَسَاكِرٍ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ قَالَ لِكُفُورٍ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْبَخَّارِيُّ فِي الْأَدَبِ، وَالحَكِيمُ التَّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ قَالَ: الْكَنْوُدُ

الْعَدَى يَمْنَعُ رَفْدَهُ، وَيَنْزِلُ وَحْدَهُ، وَيَضْرِبُ عَبْدَهُ. وَرَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَ الطَّبْرَانِيُّ وَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَ الدَّيْلَمِيُّ وَ ابْنُ عَسَاكِرٍ مَرْفُوعًا- وَ ضَعَّفَ إِسْنَادَهُ السَّيُوطِيُّ- وَ فِي إِسْنَادِهِ جَعْفَرُ بْنُ الزَّبِيرِ وَ هُوَ مَتْرُوكٌ، وَ الْمَوْقُوفُ أَصَحُّ لِأَنَّهُ لِمَنْ يَكُنْ مِنْ طَرِيقِهِ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذَرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَ إِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لِشَهِيدٌ قَالَ: الْإِنْسَانُ وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ قَالَ: الْمَالُ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَ ابْنُ الْمُنْذَرِ عَنْهُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ قَالَ: بَحْثٌ وَ حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ قَالَ: أُبْرُزُ.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٩٣

## سورة القارعة

### إشارة

هي إحدى عشرة آية، وقيل: عشر آيات وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة القارعة بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة القارعة (١٠١): الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَ مَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤)  
وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩)

وَ مَا أَذْرَاكَ مَا هِيَّةُ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)

الْقَارِعَةُ مِنْ أَسْمَاءِ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّهَا تَقْرَعُ الْقُلُوبَ بِالْفَزَعِ، وَ تَقْرَعُ أَعْدَاءَ اللَّهِ بِالْعَذَابِ، وَ الْعَرَبُ تَقُولُ: قَرَعْتَهُمُ الْقَارِعَةَ؛ إِذَا وَقَعَ بِهِمْ أَمْرٌ فَظِيعٌ. قَالَ ابْنُ أَحْمَرَ:  
وَ قَارِعَةٌ مِنَ الْأَيَّامِ لَوْلَا سَيْلُهُمْ لَرَأَتْ عِنَّا حِينًا  
وَ قَالَ آخَرُ:

مَتَى تَقْرَعُ بِمَرُوتِكُمْ «١» نَسُوكُمْ وَ لَمْ تَوْقِدْ لَنَا فِي الْقَدْرِ نَارَ

وَ الْقَارِعَةُ مَبْتَدَأٌ وَ خَبَرُهَا قَوْلُهُ: مَا الْقَارِعَةُ وَ بِالرَّفْعِ قَرَأَ الْجُمْهُورُ، وَ قَرَأَ عَيْسَى بِنَصْبِهَا عَلَى تَقْدِيرِ:

احذروا القارعة، و الاستفهام للتعظيم و التفخيم لشأنها، كما تقدّم بيانه في قوله: الْحَاقَّةُ- مَا الْحَاقَّةُ- وَ مَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ «٢» وَ قِيلَ: مَعْنَى الْكَلَامِ عَلَى التَّحْذِيرِ. قَالَ الزَّجَّاجُ: وَ الْعَرَبُ تَحْذَرُ وَ تَغْرَى بِالرَّفْعِ كَالنَّصَبِ، وَ أَنْشَدَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

لَجْدِيرون بِالْوَفَاءِ إِذَا قَالَ أَخُو النَّجْدَةِ السَّلَاحِ السَّلَاحِ

وَ الْحَمْلُ عَلَى مَعْنَى التَّفْخِيمِ وَ التَّعْظِيمِ أَوْلَى، وَ يُؤَيِّدُهُ وَضْعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ، فَإِنَّهُ أَدَلُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَ يُؤَيِّدُهُ أَيْضًا قَوْلُهُ: وَ مَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ فَإِنَّهُ تَأْكِيدٌ لِشِدَّةِ هَوْلِهَا وَ مَزِيدٌ فَظَاعَتِهَا؛ حَتَّى كَأَنَّهَا خَارِجَةٌ عَنْ دَائِرَةِ عُلُومِ الْخَلْقِ بِحَيْثُ لَا تَنَالُهَا دَرَايَةُ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَ مَا الْاسْتِفْهَامِيَّةُ مَبْتَدَأٌ، وَ أَذْرَاكَ خَبَرُهَا وَ مَا الْقَارِعَةُ مَبْتَدَأٌ

(١). «المروءة»: حجر يقدر منه النار.

(٢). الحاقه: ١-٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٩٤

وخبر، و الجملة في محل نصب على أنها المفعول الثاني؛ والمعنى: و أى شىء أعلمك ما شأن القارعة؟ ثم بين سبحانه متى تكون القارعة فقال: يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ و انتصاب الظرف بفعل محذوف تدلّ عليه القارعة، أى: تفرعهم يوم يكون الناس ... إلخ، و يجوز أن يكون منصوبا بتقدير اذكر. و قال ابن عطية و مكى و أبو البقاء: هو منصوب بنفس القارعة، و قيل: هو خير مبتدأ محذوف، و إنما نصب لإضافته إلى الفعل، فالفتحة فتحة بناء لا فتحة إعراب، أى: هى يوم يكون ... إلخ، و قيل التقدير: ستأتيكم القارعة يوم يكون. و قرأ زيد بن علقمى برفع يوم على الخبرية للمبتدأ المقدر. و الفراش: الطير الذى تراه يتساقط فى النار و السراج، و الواحدة: فراشة، كذا قال أبو عبيدة و غيره. قال الفراء: الفراش: هو الطائر من بعوض و غيره. و منه الجراد. قال: و به يضرب المثل فى الطيش و الهوج، يقال: أطيش من فراشة، و أنشد:

فراشة الحلم فرعون العذاب و إن يطلب نداء فكلب دونه كلب

و قول آخر:

و قد كان أقوام رددت حلومهم عليهم و كانوا كالفراش من الجهل

و المراد بالمبثوث المتفرق المنتشر، يقال بته: إذا فرقه، و مثل هذا قوله سبحانه فى آية أخرى: كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (١) و قال المبثوث و لم يقل المبثوثة، لأن الكلى جائز؛ كما فى قوله: أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢) و أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٣) و قد تقدّم بيان وجه ذلك و تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمُنْفُوشِ أى:

كالصوف الملوّن بالألوان المختلفة الذى نفس بالندف، و العهن عند أهل اللغة: الصوف المصبوغ بالألوان المختلفة، و قد تقدّم بيان هذا فى سورة سأل سائل، و قد ورد فى الكتاب العزيز أوصاف للجبال يوم القيامة، و قد قدّمنا بيان الجمع بينها. ثم ذكر سبحانه أحوال الناس و تفرّقهم فريقين على جهة الإجمال فقال: فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ - فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ قد تقدّم القول فى الميزان فى سورة الأعراف و سورة الكهف و سورة الأنبياء.

و قد اختلف فيها هنا، فقيل: هى جمع موزون، و هو العمل الذى له وزن و خطر عند الله، و به قال الفراء و غيره، و قيل: هى جمع ميزان، و هو الآلة التى توضع فيها صحائف الأعمال، و عبر عنه بلفظ الجمع، كما يقال لكلّ حادثة ميزان، و قيل: المراد بالموازن الحجج و الدلائل، كما فى قول الشاعر:

قد كنت قبل لقائكم ذا مرّة عندى لكلّ مخاصم ميزانه

و معنى عيشة راضية: مرضية يرضاها صاحبها. قال الزجاج: أى ذات رضى يرضاها صاحبها، و قيل:

«عيشة راضية» أى: فاعلة للرضى، و هو اللين، و الانقياد لأهلها. و العيشة: كلمة تجمع النعم التى فى الجنة و أمّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ أى: رجحت سيئاته على حسناته أو لم تكن له حسنات يعتدّ بها فأُمَّهُ هَاوِيَةٌ

(١). القمر: ٧.

(٢). القمر: ٢٠.

(٣). الحاقه: ٧.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٩٥

أى: فمسكنه جهنم، و سمّاها أمه؛ لأنه يأوى إليها كما يأوى إلى أمه، و الهاوية من أسماء جهنم، و سميت هاوية؛ لأنه يهوى فيها مع بعد قعرها، و منه قول أمية بن أبى الصلت: فالأرض معقلنا و كانت أمتافها مقابرنا و فيها نولد و قول الآخر:

يا عمرو لو نالتك أرماحنا كنت كمن تهوى به الهاوية

و المهوى و المهواة: ما بين الجبلين، و تهاوى القوم فى المهواة؛ إذا سقط بعضهم فى إثر بعض. قال قتادة: معنى فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ فمصيره إلى النار. قال عكرمة: لأنه يهوى فيها على أم رأسه. قال الأخفش: أمه مستقرّة و ما أدراك ما هيّة هذا الاستفهام للتحويل و التفضيح؛ بيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لا تحيط بها علوم البشر و لا تدرى كنهها. ثم بينها سبحانه فقال: نارٌ حاميةٌ أى: قد انتهى حرّها و بلغ فى الشدّة إلى الغاية و ارتفاع نار على أنها خير مبتدأ محذوف، أى: هى نار حامية. و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال: الْقَارِعِيَّةُ من أسماء يوم القيامة. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ قال: كقوله هوت أمه. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ قال: أم رأسه هاوية فى جهنم. و أخرج ابن مردويه عن أنس قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: «إذا مات المؤمن تلقته أرواح المؤمنين يسألونه: ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟ فإذا كان مات و لم يأتهم قالوا خولف به إلى أمه الهاوية، فبئست الأمّ و بئست المربية». و أخرج ابن مردويه من حديث أبى أيوب الأنصارى و نحوه. و أخرج ابن المبارك من حديث أبى أيوب نحوه أيضا.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٩٦

## سورة التكاثر

### إشارة

و هى مكية عند الجميع. و روى البخارى أنها مدنية. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزل بمكة ألهاكم التكاثر. و أخرج الحاكم، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية فى كل يوم؟ قالوا: و من يستطيع أن يقرأ ألف آية فى كل يوم؟ قال: أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر؟!». و أخرج الخطيب فى المتفق و المفترق، و الديلمى عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: «من قرأ فى ليلة ألف آية لقي الله و هو ضاحك فى وجهه، قيل: يا رسول الله و من يقوى على ألف آية؟ فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ألهاكم التكاثر إلى آخرها، ثم قال: و الذى نفسى بيده إنها لتعدل ألف آية». و أخرج مسلم و الترمذى و النسائى و غيرهم عن عبد الله بن الشخير قال: «انتهيت إلى رسول الله صلّى الله عليه و سلّم و هو يقرأ ألهاكم التكاثر، و فى لفظ: و قد أنزلت عليه ألهاكم التكاثر، و هو يقول: «يقول ابن آدم: مالى مالى، و هل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت؟». و أخرجه مسلم و غيره من حديث أبى هريرة و لم يذكر فيه قراءة هذه السورة و لا نزولها بلفظ: «يقول العبد: مالى مالى، و إنّما له من ماله ثلاثة: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدّق فأفنى، و ما سوى ذلك فهو ذاهب و تاركه للناس».

و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و البيهقى فى الشعب، و ضعّفه، عن جرير بن عبد الله قال:

قال لنا رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: «إنى قارئ عليكم سورة ألهاكم التكاثر، فمن بكى فله الجنة، فقرأها فمنا من بكى و منا



من لم يبكى، فقال الذين لم يبكوا: قد جهدنا يا رسول الله أن نبكى فلم نقدر عليه، فقال:  
إني قارئها عليكم الثانية فمن بكى فله الجنة، و من لم يقدر أن يبكى فليتبأكى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## [سورة التكاثر (١٠٢): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)  
كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)  
قوله: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ أى: شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد والتفاخر بكثرتها والتغالب فيها.  
يقال: ألهاه عن كذا وألهاه؛ إذا شغله، و منه قول امرئ القيس:

فألهيته عن ذى تمانم محول «١»

(١). و صدر البيت: فممتلك حبلى قد طرقت و مرضع.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٩٧

و قال الحسن: معنى ألهاكم: أنساكم حَيَّتِي زُرْتُمُ الْمَقَابِرِ أى: حتى أدر ككم الموت و أنتم على تلك الحال. و قال قتادة: إن التكاثر: التفاخر بالقبائل والعشائر. و قال الضحاك: ألهاكم التشاغل بالمعاش. و قال مقاتل و قتادة أيضا و غيرهما: نزلت فى اليهود حين قالوا: نحن أكثر من بنى فلان، و بنو فلان أكثر من بنى فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا. و قال الكلبي: نزلت فى حين من قريش: بنى عبد مناف، و بنى سهم، تعادوا و تكاثروا بالسيادة و الأشراف فى الإسلام، فقال كل حَيٍّ منهم: نحن أكثر سيदा، و أعز عزيزا، و أعظم نفرا، و أكثر قائدا، فكثر بنو عبد مناف بنى سهم، ثم تكاثروا بالأموال فكثرتهم سهم، فنزلت: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ فلم ترضوا حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ مفتخرين بالأموال. و قيل: نزلت فى حين من الأنصار.

و المقابر: جمع مقبرة بفتح الباء و ضمها. و فى الآية دليل على أن الاشتغال بالدنيا و المكاثرة بها و المفاخرة من الخصال المذمومة. و قال سبحانه أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ و لم يقل عن كذا، بل أطلقه لأن الإطلاق أبلغ فى الذم، لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، و لأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم، كما تقرّر فى علم البيان؛ و المعنى أنه شغلكم التكاثر عن كل شىء يجب عليكم الاشتغال به من طاعة الله و العمل للأخرة، و عبر عن موتهم بزيارة المقابر لأن الميت قد صار إلى قبره كما يصير الزائر إلى الموضع الذى يزوره هذا على قول من قال: إن معنى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ متم، و أما على قول من قال: إن معنى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ذكرتم الموتى و عدّتموهم للمفاخرة و المكاثرة، فيكون ذلك على طريق التهكم بهم، و قيل: إنهم كانوا يزورون المقابر، فيقولون هذا قبر فلان، و هذا قبر فلان يفتخرون بذلك كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ردع و زجر لهم عن التكاثر و تنبيه على أنهم سيعلمون عاقبه ذلك يوم القيامة و فيه وعيد شديد. قال الفراء: أى ليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر و التفاخر، ثم كرّر الردع و الزجر و الوعيد فقال: ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ و ثم للدلالة على أن الثانى أبلغ من الأوّل، و قيل: الأوّل عند الموت أو فى القبر، و الثانى يوم القيامة. قال الفراء:

هذا التكرار على وجه التعليل و التأكيد. قال مجاهد: هو وعيد بعد وعيد. و كذا قال الحسن و مجاهد كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ أى: لو تعلمون الأمر الذى أنتم صائرون إليه علما يقينا كعلمكم ما هو متيقن عندكم فى الدنيا، و جواب لو محذوف، أى: لشغلكم ذلك عن التكاثر و التفاخر، أو لعلتم ما ينفعكم من الخير و تركتم ما لا ينفعكم مما أنتم فيه، و كلا فى هذا الموضع

الثالث للزجر و الردع كالموضعين الأولين. و قال الفراء:

هى بمعنى حقا، و قيل: هى فى المواضع الثلاثة بمعنى ألا. قال قتادة: اليقين هنا الموت، و روى عنه أيضا أنه قال: هو البعث. قال الأخفش: التقدير لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم، و قوله: لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ جواب قسم محذوف، و فيه زيادة و عيد و تهديد، أى: و الله لترون الجحيم فى الآخرة. قال الرازى: و ليس هذا جواب لو؛ لأن جواب لو يكون منفيًا، و هذا مثبت و لأنه عطف عليه ثُمَّ لَتَشِيئُنَّ وَ هُوَ مُسْتَقْبَلٌ لِـ بَدَّ مِنْ وَقْعِهِ، قَالَ: وَ حَذَفَ جَوَابَ «لَوْ» كَثِيرًا، وَ الْخَطَابُ لِلْكَفَّارِ، وَ قِيلَ: عَامٌ كَقَوْلِهِ: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا «١» قرأ الجمهور: لَتَرَوُنَّ بفتح التاء مبنيًا للفاعل، و قرأ الكسائى و ابن عامر بضمها مبنيًا

(١). مريم: ٧١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٩٨

للمفعول، ثم كرر الوعيد و التهديد للتأكيد فقال: ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ أى: ثم لترون الجحيم الرؤية التى هى نفس اليقين، و هى المشاهدة و المعاينة، و قيل: المعنى: لترون الجحيم بأبصاركم على البعد منكم، ثم لترونها مشاهدة على القرب. و قيل: المراد بالأول رؤيتها قبل دخولها، و الثانى رؤيتها حال دخولها، و قيل:

هو إخبار عن دوام بقائهم فى النار، أى: هى رؤية دائمة متصلة. و قيل المعنى: لو تعلمون اليوم علم اليقين و أنتم فى الدنيا لترون الجحيم بعيون قلوبكم، و هو أن تتصوروا أمر القيامة و أهوالها ثُمَّ لَتَشِيئُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ أى عن نعيم الدنيا الذى ألهاكم عن العمل للآخرة. قال قتادة: يعنى كفار مكة كانوا فى الدنيا فى الخير و النعمة، فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه، و لم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره و أشركوا به. قال الحسن: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار. و قال قتادة: إن الله سبحانه سائل كل ذى نعمة عما أنعم عليه، و هذا هو الظاهر، و لا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد، أو نوع من الأنواع؛ لأن تعريفه للجنس أو الاستغراق، و مجرد السؤال لا يستلزم تعذيب المسؤول على النعمة التى يسأل عنها، فقد يسأل الله المؤمن عن النعم التى أنعم بها عليه فىم صرفها، و بم عمل فيها؟ ليعرف تقصيره و عدم قيامه بما يجب عليه من الشكر، و قيل: السؤال عن الأمن و الصحة، و قيل: عن الصحة و الفراغ، و قيل: عن الإدراك بالحواس، و قيل:

عن ملاذ المأكول و المشروب، و قيل: عن الغداء و العشاء، و قيل: عن بارد الشراب و ظلال المساكن، و قيل:

عن اعتدال الخلق، و قيل: عن لذة النوم، و الأولى العموم كما ذكرنا.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بردة فى قوله: أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ قَالَ: نزلت فى قبيلتين من قبائل الأنصار فى بنى حارثة و بنى الحارث تفاخروا و تكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان و فلان، و قال الآخرون مثل ذلك. تفاخروا بالأحياء. ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول:

فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبر، و مثل فلان، و فعل الآخرون كذلك، فأنزل الله: أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ - حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ لقد كان لكم فيما زرتم عبرة و شغل. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله:

أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ قَالَ: فى الأموال و الأولاد. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه و سلم أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ يعنى عن الطاعة حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ يقول: حتى يأتيكم الموت كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ يعنى لو دخلتم قبوركم ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ يقول: لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ قَالَ: لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدي ربكم لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ و ذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم، فجاج مسلم، و مخدوش مسلم، و مكدوش فى نار جهنم ثُمَّ لَتَشِيئُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ يعنى شبع البطون، و بارد الشرب، و ظلال المساكن، و اعتدال الخلق، و لذة النوم. و

أخرج ابن مردويه عن عياض بن غنم مرفوعا نحوه. وأخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب، عن ابن عباس في قوله: **ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** قال:

صحة الأبدان و الأسماع و الأبصار، و هو أعلم بذلك منهم، و هو قوله: **إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤَادَ كُلُّ**

فتح القدير، ج ٥، ص: ٥٩٩

**أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا** (١). و أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه و سلم: **ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** قال: «الأمن و الصحة». و أخرج البيهقي عن علي بن أبي طالب قال: **النعيم العافية**. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه في الآية قال:

من أكل خبز البرّ، و شرب ماء الفرات مبردا، و كان له منزل يسكنه، فذلك من النعيم الذي يسأل عنه.

و أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم في الآية: «أكل خبز البرّ، و النوم في الظل، و شرب ماء الفرات مبردا». و لعل رفع هذا لا يصح، فربما كان من قول أبي الدرداء. و أخرج أحمد في الزهد، و ابن مردويه عن أبي قلابه عن النبي صلى الله عليه و سلم في الآية قال: «ناس من أمتي يعقدون السمن و العسل بالتقى فيأكلونه» و هذا مرسل. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية.

قال الصحابة: يا رسول الله أي نعيم نحن فيه؟ و إنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير، فأوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه و سلم أن قل لهم: «أليس تحتذون النعال، و تشربون الماء البارد، فهذا من النعيم». و أخرج ابن أبي شيبة و هناد و أحمد و ابن جرير و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب، عن محمود بن لبيد قال: لما نزلت **أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ فِقْرًا** حتى بلغ: **ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** قالوا: يا رسول الله أي نعيم نسأل عنه؟ و إنما هما الأسودان: الماء و التمر، و سيوفنا على رقابنا، و العدو حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: «أما إن ذلك سيكون». و أخرجه عبد بن حميد و الترمذي و ابن مردويه من حديث أبي هريرة. و أخرجه أحمد، و الترمذي و حسيّنه، و ابن ماجه و ابن المنذر و ابن مردويه من حديث الزبير بن العوام. و أخرج أحمد في الزهد، و عبد ابن حميد و الترمذي و ابن جرير و ابن حبان و ابن مردويه و الحاكم، و البيهقي في الشعب، عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نصح لك جسدك و نروك من الماء البارد؟». و أخرج أحمد و عبد بن حميد و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب، عن جابر بن عبد الله قال: «جاءنا رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبو بكر و عمر فأطعمناهم رطبا و سقيناهم ماء، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: هذا من النعيم الذي تسألون عنه». و أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه و البيهقي من حديث جابر بن عبد الله نحوه. و أخرج مسلم و أهل السنن و غيرهم عن أبي هريرة قال:

«خرج النبي صلى الله عليه و سلم فإذا هو بأبي بكر و عمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما الساعة؟ قالوا: الجوع يا رسول الله، قال: و الذي نفسى بيده لأخرجني الذي أخرجكما فقوما، فقاما معه، فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رآته المرأة قالت: مرحبا، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: أين فلان؟ قالت: انطلق يستعذب لنا الماء؛ إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى النبي صلى الله عليه و سلم و صاحبيه فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا مني، فانطلق فجاء بعدق فيه بسر و تمر. فقال: كلوا من هذا و أخذ المدينة، فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم: إياك و الحلوب، فذبح لهم فأكلوا من الشاة، و من ذلك العذق و شربوا، فلما شبعوا و روي قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لأبي بكر و عمر: و الذي نفسى بيده لنسألن عن هذا النعيم يوم القيامة» و في الباب أحاديث.

(١). الإسراء: ٣٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٠٠

## سورة العصر

### إشارة

فتح القدير ج ٥، ص ٦٥٠

و هي مكية عند الجمهور. و قال قتادة: هي مدنية. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة العصر بمكة. و أخرج الطبراني في الأوسط، و البيهقي في الشعب، عن ابن مزينه الدارمي، و كانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر.

ثم يسلم أحدهما على الآخر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة العصر (١٠٣): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ الْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)

أقسم سبحانه بالعصر و هو الدهر، لما فيه من العبر من جهة مرور الليل و النهار على تقدير الأدوار و تعاقب الظلام و الضياء، فإن في ذلك دلالة بينة على الصانع عزّ و جلّ و على توحيده، و يقال ليل: عصر و للنهار:

عصر، و منه قول حميد بن ثور:

و لم يلبث العصران يوم و ليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمّما

و يقال للغداة و العشي: عصران، و منه قول الشاعر:

و أمطله العصرين حتّى يملّنى و يرضى بنصف الدين و الأنف راغم

و قال قتادة و الحسن: المراد به في الآية العشي، و هو ما بين زوال الشمس و غروبها، و منه قول الشاعر:

تروّح بنا يا عمرو و قد قصر العصور في الزوحة الأولى الغنيمه و الأجر

و روى عن قتادة أيضا أنه: آخر ساعة من ساعات النهار، و قال مقاتل: إن المراد به صلاة العصر و هي الصلاة الوسطى التي أمر

الله سبحانه بالمحافظة عليها، و قيل: هو قسم بعصر النبي صلى الله عليه و سلم. قال الزجاج: قال بعضهم؛ معناه و رب العصر، و

الأول أولى إن الإنسان لفي خسر هذا جواب القسم. الخسر و الخسران: النقصان و ذهاب رأس المال، و المعنى: أن كل إنسان

في المتاجر و المساعي و صرف الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص و ضلال عن الحق حتى يموت. و قيل: المراد بالإنسان

الكافر، و قيل: جماعة من الكفار، و هم الوليد بن المغيرة، و العاص بن وائل، و الأسود بن عبد المطلب بن أسد، و الأول أولى

لما في لفظ الإنسان من العموم و لدلالة الاستثناء عليه. قال الأخفش: لفي خسر فيهلكه. و قال الفراء:

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٠١

عقوبة، و قال ابن زيد: لفي شراً. قرأ الجمهور: «و العصر» بسكون الصاد. و قرءوا أيضا: خسر بضم الخاء و سكون السين. و قرأ

يحيى بن سلام وَ الْعَصْرِ بِكسر الصاد. و قرأ الأعرج و طلحة و عيسى:

خُسْرٍ بضم الخاء و السين، و رويت هذه القراءة عن عاصم إلاً الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَى: جمعوا بين الإيمان بالله و العمل الصالح، فإنهم فى ربح لا فى خسر؛ لأنهم عملوا للآخرة و لم تشغلهم أعمال الدنيا عنها، و الاستثناء متصل، و من قال: إن المراد بالإنسان الكافر فقط؛ فيكون منقطعاً، و يدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن و مؤمنة، و لا وجه لما قيل من أن المراد الصحابة أو بعضهم، فإن اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان و العمل الصالح وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ أَى: وصى بعضهم بعضاً بالحق الذى يحق القيام به، و هو الإيمان بالله و التوحيد، و القيام بما شرعه الله، و اجتناب ما نهى عنه. قال قتادة:

«بالحق» أَى: بالقرآن، و قيل: بالتوحيد، و الحمل على العموم أولى وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ أَى: بالصبر عن معاصى الله سبحانه، و الصبر على فرائضه. و فى جعل التواصى بالصبر قريناً للتواصى بالحق دليل على عظيم قدره و فخامة شرفه، و مزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ\* (١) و أيضاً التواصى بالصبر مما يندرج تحت التواصى بالحق، فإفراجه بالذكر و تخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق، و مزيد شرفه عليها، و ارتفاع طبقته عنها. و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ الْعَصْرِ قال: الدهر. و أخرج ابن جرير عنه قال:

هو ساعة من ساعات النهار. و أخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: هو ما قبل مغيب الشمس من العشى. و أخرج الفريابى، و أبو عبيد فى فضائله، و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن على بن أبى طالب أنه كان يقرأ: «و العصر، و نوائب الدهر، إن الإنسان لفى خسر، و إنه فيه إلى آخر الدهر». و أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: «و العصر، إن الإنسان لفى خسر، و إنه لفيه إلى آخر الدهر».

(١). البقرة: ١٥٣.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٠٢

## سورة الهمزة

### إشارة

هى تسع آيات، و هى مكية بلا خلاف و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ بمكة. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الهمزة (١٠٤): الآيات ١ الى ٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَ عَدَدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤)  
وَ مَا أَذْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْفُؤَادِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)  
الويل: هو مرتفع على الابتداء، و سوغ الابتداء به مع كونه نكرة كونه دعاء عليهم، و خبره لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ و المعنى: خزى، أو عذاب، أو هلكة، أو واد فى جهنم لكل همزة لمزة. قال أبو عبيدة و الزجاج: الهمزة اللمزة الذى يغتاب الناس، و على هذا هما بمعنى. و قال أبو العالبيه و الحسن و مجاهد و عطاء ابن أبى رباح: الهمزة: الذى يغتاب الرجل فى وجهه، و اللمزة: الذى يغتابه من

خلفه. و قال قتادة عكس هذا. و روى عن قتادة و مجاهد أيضا أن الهمزة: الّذى يغتاب الناس فى أنسابهم. و روى عن مجاهد أيضا أن الهمزة: الّذى يهزم الناس بيده، و اللمزة: الّذى يلمزهم بلسانه. و قال سفيان الثورى: يهزمهم بلسانه و يلمزهم بعينه. و قال ابن كيسان: الهمزة: الّذى يؤذى جلساءه بسوء اللفظ، و اللمزة: الّذى يكسر عنه على جلسه و يشير بيده و برأسه و بحاجبه، و الأوّل أولى، و منه قول زياد الأعجم:

تدلى بوذى إذا لاقيتنى كذباو إن أعيب فأنت الهامز اللمزه

و قول الآخر:

إذا لقيتك عن سخط تكاشرنى و إن تغيبت كنت الهامز اللمزه

و أصل الهمز الكسر، يقال: همز رأسه كسره، و منه قول العجاج:

و من همزنا رأسه تهشما و قيل: أصل الهمز و اللمز: الضرب و الدفع، يقال: همزه يهزمه همزا، و لمزه يلمزه لمزا: إذا دفعه و ضربه، و منه قول الشاعر:

و من همزنا عزّه تبركعاعلى استه زوبعة أو زوبعا

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٠٣

البركة: القيام على أربع، يقال: بركعه فتركع، أى: صرعه فوق على استه، كذا فى الصحاح.

و بناء فعلة يدل على الكثرة، ففيه دلالة على أن يفعل ذلك كثيرا، و أنه قد صار ذلك عادة له، و مثله ضحكة و لعنة. قرأ الجمهور هُمَزَةً لَمَزَةً بضم أولهما و فتح الميم فيهما. و قرأ الباقر و الأعرج بسكون الميم فيهما.

و قرأ أبو وائل و النخعي و الأعمش «ويل للهمزة لللمزة»، و الآية تعم كل من كان متصفا بذلك، و لا ينافيه نزولها على سبب خاص، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الّذى جمّع مالا و عِدَدَهُ الموصول بدل من كل، أو فى محل نصب على الذم، و هذا أرجح؛ لأن البدل يستلزم أن يكون المبدل منه فى حكم الطرح، و إنما وصفه سبحانه بهذا الوصف لأنه يجرى مجرى السبب، و العلة فى الهمز و اللمز، و هو إعجابه بما جمع من المال و ظنه أنه الفضل، فلأجل ذلك يستقصر غيره. قرأ الجمهور: جمّع مخففا. و قرأ ابن عامر و حمزة و الكسائي بالتشديد. و قرأ الجمهور: و عِدَدَهُ بالتشديد، و قرأ الحسن الكلبى و نصر بن عاصم و أبو العالية بالتخفيف، و التشديد فى الكلمتين يدل على التكثير، و هو جمع الشىء بعد الشىء، و تعديده مرّة بعد أخرى. قال الفراء: معنى عدده: أحصاه. و قال الزجاج: و عدده لنوائب الدهور. يقال أعددت الشىء و عددته: إذا أمسكته. قال السدى: أحصى عدده. و قال الضحّاك: أعدّ ماله لمن يرثه. و قيل المعنى:

فاخر بكثرته و عدده، و المقصود ذمه على جمع المال، و إمساكه و عدم إنفاقه فى سبيل الخير. و قيل: المعنى على قراءة التخفيف فى عدده؛ أنه جمع عشيرته و أقاربه. قال المهدوى: من خفف «و عدده» فهو معطوف على المال، أى: و جمع عدده، و جملة يحسب أنّ ماله أخلّده مستأنفة لتقرير ما قبلها، و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال، أى: يعمل عمل من يظن أن ماله يتركه حيا مخلدا لا يموت. و قال عكرمة: يحسب أن ماله يزيد فى عمره، و الإظهار فى موضع الإضمار للتقريع و التوبيخ. و قيل: هو تعريض بالعمل الصالح، و أنه الّذى يخلد صاحبه فى الحياة الأبدية، لا المال. و قوله: كلاً ردع له عن ذلك الحسبان، أى: ليس الأمر على ما يحسبه هذا الّذى جمع المال و عدده، و اللام فى لَيْبَدَنَّ فى الحُطْمَةِ جواب قسم محذوف، أى: ليطرحن فى التّيار و ليلقين فيها. قرأ الجمهور: لَيْبَدَنَّ و قرأ على و الحسن و محمد بن كعب و نصر ابن عاصم و مجاهد و حميد و ابن محيصن: «لينبدان» بالثنية، أى: لينبذ هو و ماله فى النار. و قرأ الحسن أيضا:

«لينبذن» أى: لينبذن ماله فى النار و ما أدراك ما الحُطْمَةُ هذا الاستفهام للتحويل و التفتيح؛ حتى كأنها ليست مما تدركه العقول

و تبلغه الأفهام. ثم بينها سبحانه فقال: نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ أَي: هي نار الله الموقدة بأمر الله سبحانه، و في إضافتها إلى الاسم الشريف تعظيم لها و تفخيم، و كذلك في وصفها بالإيقاد، و سُميت حطمة لأنها تحطم كل ما يلقي فيها و تهشمه، و منه: إِنَّا حَطَمْنَا بِالْقَضِيبِ مِصْعَابِيَوْمَ كَسَرْنَا أَنْفَهُ لِيَغْضِبَا

قيل: هي الطبقة السادسة من طبقات جهنم، و قيل: الطبقة الثانية منها، و قيل: الطبقة الرابعة الَّتِي تَطَّلُعُ عَلَيَّ الْأَفِيدَةَ أَي: يخلص حرّها إلى القلوب فيعلوها و يغشاها، و خصّ الأفئدة مع كونها تغشى جميع أبدانهم؛ لأنها محلّ العقائد الزائغة، أو لكون الألم إذا وصل إليها مات صاحبها، أَي: إنهم في حال من يموت

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٠٤

و هم لا يموتون. و قيل: معنى تَطَّلُعُ عَلَيَّ الْأَفِيدَةَ أَنَّهَا تَعْلَمُ بِمِقْدَارِ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، و ذلك بأمارات عرفها الله بها إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّيَةٌ أَي: مطبقة مغلقة؛ كما تقدّم بيانه في سورة البلد، يقال: آصدت الباب؛ إذا أغلقتة، و منه قول ابن قيس الرقيات:

إِنَّ فِي الْقَصْرِ لَوْ دَخَلْنَا غَزَالًا مِصْفَقًا «١» موصدا عليه الحجاب

فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ فِي محلّ نصب على الحال من الضمير في عليهم، أَي: كائنين في عمد ممدّدة موثقين فيها، أو في محلّ رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف: أَي هم في عمد، أو صفة لمؤصدة، أَي: مؤصدة بعمد ممدّدة. قال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم؛ ثم شدّت بأوتاد من حديد، فلا يفتح عليهم باب، و لا يدخل عليهم روح. و معنى كون العمدة ممدّدة: أنها مطوّلة، و هي أرسخ من القصيرة. و قيل: العمدة أغلال في جهنم، و قيل: القيود. قال قتادة: المعنى هم في عمد يعذبون بها، و اختار هذا ابن جرير: قرأ الجمهور فِي عَمَدٍ بفتح العين و الميم. قيل: هو اسم جمع لعمود. و قيل: جمع له. قال الفراء: هي جمع لعمود كأديم و آدم. و قال أبو عبيدة: هي جمع عماد. و قرأ حمزة و الكسائي و أبو بكر بضم العين و الميم، جمع عمود.

قال الفراء: هما جمعان صحيحان لعمود. و اختار أبو عبيد و أبو حاتم قراءة الجمهور. قال الجوهري: العمود:

عمود البيت، و جمع القلّة: أعمدة، و جمع الكثرة: عمد و عمد، و قرئ بهما. قال أبو عبيدة: العمود:

كلّ مستطيل من خشب أو حديد.

و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن أبي الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: وَإِلَّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ قال: هو المشاء بالنميمة، المفترق بين الجمع، المغرى بين الإخوان. و أخرج ابن جرير عنه وَإِلَّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ قال: طعان لُّمَزَةٌ قال: مغتاب.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا في قوله: إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّيَةٌ قال: مطبقة فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ قال: عمد من نار. و أخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: هي الأدهم. و أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأبواب هي الممدّدة. و أخرج ابن جرير عنه في الآية قال: أدخلهم في عمد فمدّت عليهم في أعناقهم فشددت بها الأبواب.

(١). «صق الباب و أصفقه»: أغلقه.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٠٥

هي خمس آيات، وهي مكيه بلا خلاف و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت بمكة ألم تر كيف فعل ربك  
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الفيل (١٠٥): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ (٢) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَزِمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ  
سِجِّيلٍ (٤)  
فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)

الاستفهام في قوله: ألم تر لتقرير رؤيته صلى الله عليه وسلم بإنكار عدمها. قال الفراء: المعنى ألم تخبر. وقال الزجاج: ألم تعلم، وهو تعجب له صلى الله عليه وسلم بما فعله الله بأصحاب الفيل الذين قصدوا تخريب الكعبة من الحبشة، و «كيف» منصوبة بالفعل المذى بعدها، ومعلقة لفعل الرؤية، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ويجوز أن يكون لكل من يصلح له. والمعنى: قد علمت يا محمد، أو علم الناس الموجودون في عصرك ومن بعدهم بما بلغكم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفيل وما فعل الله بهم، فما لكم لا تؤمنون؟ والفيل هو الحيوان المعروف، وجمعه أفيال، و فيول، وفيلة. قال ابن السكيت: ولا تفل أفيلة، وصاحبه فيال، وسيأتي ذكر قصة أصحاب الفيل إن شاء الله ألم يجعل كيدهم في تضليل أي: ألم يجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة واستباحة أهلها في تضليل عما قصدوا إليه؛ حتى لم يصلوا إلى البيت، ولا إلى ما أرادوه بكيدهم، والهمزة للتقرير، كأنه قيل: قد جعل كيدهم في تضليل، والكيد: هو إرادة المضرّة بالغير؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشا بالقتل والسبي، ويكيدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم و أرسل عليهم طيرا أبابيل أي: أقاطيع يتبع بعضها بعضا كالإبل المؤبلة. قال أبو عبيدة: أبابيل: جماعات في تفرقة، يقال: جاءت الخيل أبابيل، أي: جماعات من هاهنا و هاهنا. قال النحاس: و حقيقته أنها جماعات عظام، يقال: فلان توبل على فلان، أي: تعظم عليه و تكبر، و هو مشتق من الإبل، و هو من الجمع الذي لا واحد له. و قال بعضهم:

واحد إبول مثل عجول. و قال بعضهم: إليل. قال الواحدي: و لم نر أحدا يجعل لها واحدا. قال الفراء:

لا واحد له من لفظه. و زعم الرؤاسي، و كان ثقة، أنه سمع في واحدها: إبال مشددا. و حكى الفراء أيضا:

إبال بالتخفيف. قال سعيد بن جبير: كانت طيرا من السماء لم يربها ولا بعدها. قال قتادة: هي طير سود جاءت من قبل البحر فوجا فوجا مع كل طائر ثلاثة أحجار؛ حجران في رجله، و حجر في منقاره، لا يصيب شيئا إلا هشمه. و قيل: كانت طيرا خضرا خرجت من البحر لها رؤوس كرووس السباع. و قيل:

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٠٦

كان لها خراطيم كخراطيم الطير و أكف كأكف الكلاب. و قيل في صفتها غير ذلك، و العرب تستعمل الأبابيل في الطير، كما في قول الشاعر:

تراهم إلى الداعي سراعا كأنهم أبابيل طير تحت دجن مسخن «١»

و تستعملها في غير الطير، كقول الآخر:

كادت تهد من الأصوات راحلتى إذ سالت الأرض بالجرد «٢» الأبابيل

تزميهم بحجارة من سجيل الجملة في محل نصب صفة لطير. قرأ الجمهور: تزميهم بالفوقية.



و قرأ أبو حنيفة و أبو معمر و عيسى و طلحة بالتحية، و اسم الجمع يذكر و يؤنث. و قيل: الضمير في القراءة الثانية لله عز و جل. قال الزجاج من سَجَّيلٍ أى: مما كتب عليهم العذاب به، مشتقا من السجل.

قال في الصحاح: قالوا: هى حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم. قال عبد الرحمن ابن أبى: من سَجَّيلٍ من السماء، و هى الحجارة التى نزلت على قوم لوط، و قيل: من الجحيم التى هى سجين، ثم أبدلت النون لاما، و منه قول ابن مقبل:

ضربا تواصت به الأبطال سَجَّيلا (٣) و إنما هو سَجَّينا. قال عكرمة: كان ترميهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدرى، و كان الحجر كالحمص و فوق العدسة، و قد قدمنا الكلام فى سجيل فى سورة هود فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ أى: جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب فرمت به من أسفل، شبه تقطع أوصالهم بتفترق أجزائه. و قيل: المعنى: أنهم صاروا كورق زرع قد أكلت منه الدواب و بقى منه بقايا، أو أكلت حبة فبقى بدون حبة. و العصف جمع عصفه و عصفه و عصفه، و قد قدمنا الكلام فى العصف فى سورة الرحمن فارجع إليه.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن ابن عباس قال: جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح فأتاهم عبد المطلب فقال: إن هذا بيت الله لم يسلط عليه أحدا، قالوا: لا نرجع حتى نهدمه و كانوا لا يقدمون فيلهم إلا تأخر، فدعا الله الطير الأبايل، فأعطاها حجارة سودا عليها الطين، فلما حاذتهم رمتهم فما بقى منهم أحد إلا أخذته الحكمة، فكان لا يحك الإنسان منهم جلده إلا تساقط لحمه.

و أخرج ابن المنذر و الحاكم و أبو نعيم و البيهقى عنه قال: أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب، فقال لملكهم. ما جاء بك إلينا؟ ألا بعثت فنأتيك بكل شىء؟ فقال: أخبرت بهذا البيت الذى

---

(١). قال فى حاشية القرطبي: لعل صوابه: مسخر.

(٢). «الجرد»: الخيل لا رجالة فيها.

(٣). و صدر البيت: و رجلة يضربون البيض عن عرض.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٠٧

لا يدخله أحد إلا أمن، فجنّت أخيف أهله، فقال: إنا نأتيك بكل شىء تريد فارجع، فأبى إلا أن يدخله، و انطلق يسير نحوه، و تخلف عبد المطلب، فقام على جبل فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت و أهله، فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلتهم طير أبايل التى قال الله: تَزْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَ الْفِيلَ يَعْجُ عَجَا فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ وَ قَصِيَهُ أَصْحَابُ الْفِيلِ مَبْسُوطَةً مَطْوَلَةً فى كتب التاريخ و السير فلا نطول بذكرها. و أخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: تَزْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ قال: حجارة مثل البندق و بها نضح حمرة مختمة مع كل طائر ثلاثة حجار. حجران فى رجليه، و حجر فى منقاره حلقت عليه من السماء ثم أرسلت عليهم تلك الحجارة فلم تعد عسكرهم. و أخرج أبو نعيم من طريق عطاء و الضحاك عنه: أن أبرهه الأشرم قدم من اليمن يريد هدم الكعبة. فأرسل الله عليهم طيرا أبايل يريد مجتمعة، لها خراطيم تحمل حصاة فى منقارها و حصاتين فى رجليها. ترسل واحدة على رأس الرجل فيسيل لحمه و دمه و يبقى عظاما خاوية لا لحم عليها و لا جلد و لا دم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى فى الدلائل عنه أيضا: فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ يقول: كالتين. و أخرج ابن إسحاق فى السيرة، و الواقدي و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل و سائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان.

و أخرج الواقدي نحوه عن أسماء بنت أبي بكر. و أخرج أبو نعيم و البيهقي عن ابن عباس قال: ولد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عام الفيل. و أخرج ابن إسحاق و أبو نعيم و البيهقي عن قيس بن مخرمة قال: ولدت أنا و رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عام الفيل.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٠٨

## سورة قريش

### إشارة

و يقال: سورة لإيلاف، و هي أربع آيات و هي مكية عند الجمهور. و قال الضحاك و الكلبي: هي مدنية. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة لإيلاف بمكة. و أخرج البخاري في تاريخه، و الطبراني، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و البيهقي عن أم هانئ بنت أبي طالب، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قال: «فُضِّلَ اللهُ قَرِيْشًا بِسَبْعِ خِصَالٍ لَمْ يَعْطَاهَا أَحَدًا قَبْلَهُمْ وَ لَا يُعْطِيهَا أَحَدًا بَعْدَهُمْ: أُنِي فِيهِمْ. وَ فِي لَفْظِ: النَّبُوَّةِ فِيهِمْ، وَ الْخِلَافَةِ فِيهِمْ، وَ الْحِجَابَةِ فِيهِمْ، وَ السَّقَايَةَ فِيهِمْ، وَ نَصَرُوا عَلَى الْفِيلِ، وَ عَبَدُوا اللَّهَ سَبْعَ سِنِينَ. وَ فِي لَفْظِ: عَشْرَ سِنِينَ لَمْ يَعْبُدْهُ أَحَدٌ غَيْرَهُمْ، وَ نَزَلَتْ فِيهِمْ سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ لَمْ يَذْكَرْ فِيهَا أَحَدٌ غَيْرَهُمْ لِإِيْلَافِ قُرَيْشٍ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: هُوَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَ يَشْهَدُ لَهُ مَا أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَ ابْنُ عَسَاكِرَ عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «فُضِّلَ اللهُ قَرِيْشًا بِسَبْعِ خِصَالٍ: فَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُمْ عَبَدُوا اللَّهَ عَشْرَ سِنِينَ لَا يَعْبُدُهُ إِلَّا قَرِيْشٌ، وَ فَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُ نَصَرَهُمْ يَوْمَ الْفِيلِ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ، وَ فَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِمْ سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ لَمْ يَدْخُلْ فِيهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ غَيْرَهُمْ، وَ هِيَ لِإِيْلَافِ قَرِيْشٍ، وَ فَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُمْ فِيهِمْ النَّبُوَّةُ، وَ الْخِلَافَةُ، وَ السَّقَايَةُ». وَ أَخْرَجَ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ، عَنِ سَعِيدِ بْنِ الْمَسِيْبِ مَرْفُوعًا نَحْوَهُ، وَ هُوَ مَرْسَلٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة قريش (١٠٦): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِإِيْلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَ الصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ أَمَنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)

اللام في قوله: لإيلاف قيل: هي متعلقة بآخر السورة التي قبلها، كأنه قال سبحانه: أهلك أصحاب الفيل لأجل تألف قريش. قال الفراء: هذه السورة متصلة بالسورة الأولى؛ لأنه ذكر سبحانه أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة، ثم قال: لإيلاف قريش أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش، و ذلك أن قريشا كانت تخرج في تجارتها فلا يغار عليها في الجاهلية، يقولون: هم أهل بيت الله عز و جل، حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة و يأخذ حجارتها فيبني بها بيتا في اليمن يحج الناس إليه، فأهلكهم الله عز و جل، فذكرهم نعمته، أي: فعل ذلك لإيلاف قريش، أي: ليألفوا الخروج و لا يجترأ عليهم، و ذكر نحو هذا ابن قتيبة. قال الزجاج: و المعنى: فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش أي: أهلك الله أصحاب الفيل لتبقي قريش و ما قد ألفوا من رحلة الشتاء و الصيف. و قال في الكشاف: إن اللام متعلق بقوله: فَلْيَعْبُدُوا أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين، و دخلت الفاء لما في الكلام

من معنى الشرط؛ لأن المعنى: أما لا فليعبدوه. وقد تقدّم صاحب الكشاف إلى هذا القول الخليل بن أحمد، والمعنى: إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة. وقال الكسائي والأخفش: اللام لام التعجب، أى: اعجبوا لإيلاف قريش. وقيل: هى بمعنى إلى. قرأ الجمهور: لإيلافٍ بالياء مهموزا من ألفت أولف إيلافا. يقال: ألفت الشيء إيلافا وإلفا، وألفته إيلافا بمعنى، ومنه قول الشاعر:

المنعمين إذا النجوم تغيّرت و الظّاعنين لرحله الإيلاف

و قرأ ابن عامر: «لإيلاف» بدون الياء، و قرأ أبو جعفر: «لإلف» و قد جمع بين هاتين القراءتين الشاعر، فقال:

زعمتم أنّ إخوتكم قريش لهم إلف و ليس لكم إيلاف

و قرأ عكرمة: «ليألف قريش» بفتح اللام على أنها لام الأمر، و كذلك هو فى مصحف ابن مسعود، و فتح لام الأمر لغة معروفة. و قرأ بعض أهل مكة: «إيلاف قريش»، و استشهد بقول أبى طالب:

تذود الورى «١» عن عصبه هاشمية إيلافهم فى الناس خير إيلاف

و قريش هم: بن و النضر بن كنانة بن خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر. فكل من كان من ولد النضر فهو قريشى، و من لم يولد النضر فليس بقريشى، و قريش يأتى منصرفا إن أريد به الحى، و غير منصرف إن أريد به القبيلة، و منه قول الشاعر «٢»:

و كفى قريش المعضلات و سادها «٣» و قيل: إنّ قريشا بنو فهر بن مالك بن النضر، و الأوّل أصح، و قوله: إيلافهم بدل من

إيلاف قريش، و رِخْلَةٌ مفعول به لإيلافهم و أفردها، و لم يقل رحلتى الشتاء و الصيف لأمن الإلباس، و قيل:

إن إيلافهم تأكيد للأوّل لا بدل، و الأوّل أولى. و رجحه أبو البقاء، و قيل: إن رحلة منصوبه بمصدر مقدّر، أى: ارتحالهم رحلة

الشتاء و الصيف و قيل: هى منصوبه على الظرفية، و الرحلة: الارتحال، و كانت إحدى الرحلتين إلى اليمن فى الشتاء لأنها بلاد

حارّة، و الرحلة الأخرى إلى الشام فى الصيف لأنها بلاد باردة.

و روى أنهم كانوا يشتون بمكة، و يصيفون بالطائف. و الأوّل أولى، فإن ارتحال قريش للتجارة معلوم معروف فى الجاهلية و

الإسلام. قال ابن قتيبة: إنما كانت تعيش قريش بالتجارة و كانت لهم رحلتان فى كل سنة؛ رحلة فى الشتاء إلى اليمن، و رحلة فى

الصيف إلى الشام، و لو لا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام، و لو لا الأمن بجوارهم البيت لم يقدروا على التصرف فليعبدوا ربّ

هذا البيت أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن ذكر لهم ما أنعم

(١). فى تفسير القرطبي (٢٠ / ٢٠٢): العدا.

(٢). هو عدى بن الرقاع.

(٣). و صدر البيت: غلب المساميح الوليد سماحة.

به عليهم، أى: إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الخاصة المذكورة، و البيت: الكعبة. و عرفهم سبحانه بأنه ربّ هذا

البيت؛ لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها، فميّز نفسه عنها. و قيل: لأنهم بالبيت تشرفوا على سائر العرب، فذكر لهم ذلك تذكيرا

لنعمته الذى أطعمهم من جوع أى: أطعمهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، و قيل: إن هذا الإطعام هو

أنهم لما كذبوا النبيّ صلى الله عليه و سلّم دعا عليهم، فقال: اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف، فاشتد القحط، فقالوا: يا

محمد ادع الله لنا فإننا مؤمنون، فدعا؛ فأخصبوا، و زال عنهم الجوع، و ارتفع القحط و آمنهم من خوف أى: من خوف شديد

كانوا فيه. قال ابن زيد: كانت العرب يغير بعضها على بعض، و يسبى بعضها بعضا، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم. و قال الضحاك و الربيع و شريك و سفيان: آمنهم من خوف الحبشة مع الفيل.

وقد أخرج أحمد و ابن أبي حاتم عن أسماء بنت يزيد قالت: «سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: لِيَلِافِ قُرَيْشٍ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَ الصَّيْفِ وَ يحكم يا قريش، اعبدوا ربَّ هذا البيت الذي أطعمكم من جوع و آمنكم من خوف». و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: لِيَلِافِ قُرَيْشٍ قَالَ: نعمتي على قريش إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَ الصَّيْفِ كانوا يشتون بمكة، و يصيفون بالطائف فليعبدوا ربَّ هذا البيت قال: الكعبة الذي أطعمهم من جوع و آمنهم من خوف قال:

الجدام. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عنه: لِيَلِافِ قُرَيْشٍ إِيْلَافِهِمْ قَالَ: لزومهم الذي أطعمهم من جوع يعني قريشا أهل مكة بدعوة إبراهيم حيث قال: وَ ارزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ «١»، وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ حيث قال إبراهيم رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا «٢». و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه أيضا في قوله: لِيَلِافِ قُرَيْشٍ الْآيَةَ، قال: نهاهم عن الرحلة و أمرهم أن يعبدوا ربَّ هذا البيت، و كفاهم المؤنة، و كانت رحلتهم في الشتاء و الصيف و لم يكن لهم راحة في شتاء و لا صيف، فأطعمهم الله بعد ذلك من جوع، و آمنهم من خوف فألفوا الرحلة و كان ذلك من نعمة الله عليهم. و أخرج ابن جرير عنه أيضا في الآية قال: أمروا أن يألفوا عبادة ربَّ هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء و الصيف، و قد وردت أحاديث في فضل قريش و إن الناس تبع لهم في الخير و الشر، و إن هذا الأمر يعني الخلافة لا تزال فيهم ما بقي اثنان، و هي في دواوين الإسلام.

(١). البقرة: ١٢٦.

(٢). إبراهيم: ٣٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦١١

## سورة الماعون

### إشارة

و يقال: سورة الدين، و يقال: سورة الماعون، و يقال: سورة اليتيم، و هي سبع آيات و هي مكية في قول عطاء و جابر، و أحد قولى ابن عباس، و مدنية في قول قتادة و آخرين. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ بِمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة الماعون (١٠٧): الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَ لَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤)

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ (٦) وَ يَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)

الخطاب لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو لكل من يصلح له، والاستفهام لقصد التعجب من حال من يكذب بالدين. والرؤية: بمعنى المعرفة؛ والدين: الجزاء والحساب في الآخرة. قيل: وفي الكلام حذف، والمعنى: رأيت الذي يكذب بالدين أمصيب هو أم مخطئ. قال مقاتل والكلبي: نزلت في العاص بن وائل السهمي. وقال السدي: في الوليد بن المغيرة. وقال الضحّاك: في عمرة بن عائذ. وقال ابن جرير في أبي سفيان، وقيل:

في رجل من المنافقين. قرأ الجمهور أَرَأَيْتَ بِإِثْبَاتِ الْهَمْزِ الثَّانِيَةِ. وقرأ الكسائي بإسقاطها. قال الزجاج: لا يقال في رأيت ريت، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفا. وقيل: الرؤية: هي البصرية، فيتعدى إلى مفعول واحد، وهو الموصول، أي: أ أبصرت المكذب. وقيل: إنها بمعنى أخبرني؛ فيتعدى إلى اثنين. الثاني محذوف، أي: من هو فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ الْفَاءَ جَوَابَ شَرْطِ مَقْدَرٍ، أي إن تأملته أو طلبته فذلك الذي يدعُ اليتيم، ويجوز أن تكون عاطفة على الذي يكذب، إما عطف ذات على ذات، أو صفة على صفة. فعلى الأول يكون اسم الإشارة مبتدأ وخبره الموصول بعده، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي:

فهو ذلك، والموصول صفته. وعلى الثاني يكون في محل نصب لعطفه على الموصول الذي هو في محل نصب.

ومعنى يدعُ: يدفع دفعا بعنف و جفوة، أي: يدفع اليتيم عن حقه دفعا شديدا، ومنه قوله سبحانه: يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً «١» وقد قدمنا أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ولا يحضُّ على طعامِ الْمَسْكِينِ أَي: لا يحضُّ نفسه ولا أهله ولا غيرهم على ذلك؛ بخلاف المال، أو تكذبا بالجزاء، وهو مثل قوله في سورة الحاقةَ وَ لا يَحْضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ «٢» فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُصَلِّينَ الْفَاءَ جَوَابَ

(١). الطور: ١٣.

(٢). الحاقة: ٣٤.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦١٢

لشروط محذوف، كأنه قيل: إذا كان ما ذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين فويل للمصلين الذين هم عن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ أَي: لعذاب لهم، أو هلاك، أو واد في جهنم لهم كما سبق الخلاف في معنى الويل، ومعنى ساهون: غافلون غير مباليين بها، ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذكر من قبائحهم، ووضع المصلين موضع ضمير هم للتوصل بذلك إلى بيان أن لهم قبائح أخرى غير ما ذكر. قال الواحدي: نزلت في المنافقين الذين لا يرجون بصلاتهم ثوابا إن صلوا، ولا يخافون عليها عقابا إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها، وإذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلوا، وهو معنى قوله: الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ أَي: يراءون الناس بصلاتهم إن صلوا، أو يراءون الناس بكل ما علموه من أعمال البر ليشوا عليهم. قال النخعي: الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ هو المذموم إذا سجد قال برأسه هكذا وهكذا ملتفتا. وقال قطرب: هو الذي لا يقرأ ولا يذكر الله. وقرأ ابن مسعود: الذين هم عن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ أَي: يمانعون زكاة أموالهم. وقال الزجاج والناس بينهم: من الدلو والفأس والقدر، وما لا يمنع كالماء والملح. وقيل: هو الزكاة، أي: يمانعون زكاة أموالهم. وقال الزجاج وأبو عبيد والمبرد: الماعون في الجاهلية: كل ما فيه منفعة حتى الفأس والدلو والقدر والقداحة، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير، وأنشدوا قول الأعشى:

بأجود منه بماعونه إذا ما سماؤهم لم تغم

قال الزجاج وأبو عبيد والمبرد أيضا: والماعون في الإسلام: الطاعة والزكاة، وأنشدوا قول الراعي:

أخليفة الرحمن إننا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله من أموالنا حق الزكاة منزلاً تنزيلاً

قوم على الإسلام لما يمنعونهم و يضيّعوا التهليلة

وقيل: الماعون: الماء. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: الماعون: الماء، وأنشدني:

يمج صبيره الماعون صباً و الصبير: السحاب، وقيل: الماعون: هو الحق على العبد على العموم، وقيل: هو المستغل من منافع الأموال، مأخوذ من المعن، و هو القليل. قال قطرب: أصل الماعون من القلة، و المعن: الشيء القليل، فسَمِيَ الله الصدقة و الزكاة و نحو ذلك من المعروف ماعونا؛ لأنه قليل من كثير، وقيل: هو ما لا يبخل به كالماء و الملح و النار.

وقد أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أ رأيت الذي يكذب بالدين قال: يكذب بحكم الله فذلك الذي يدع اليتميم قال: يدفعه عن حقه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في الشعب عنه فويل للمصلين - الذين هم عن صلاتهم ساهون قال: هم المنافقون يراءون الناس بصلاتهم إذا حضروا و يتركونها إذا غابوا، و يمنعونهم العارية بغضا لهم، و هي الماعون. و أخرج

فتح القدير، ج 5، ص: 613

ابن جرير و ابن مردويه عنه أيضا الذين هم عن صلاتهم ساهون قال: هم المنافقون يتركون الصلاة في السر، و يصلون في العلانية. و أخرج الفريابي و سعيد بن منصور و ابن أبي شيبة و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقي في سننه، عن مصعب بن سعد قال: قلت لأبي: أ رأيت قول الله: الذين هم عن صلاتهم ساهون أينا لا يسهو؟ أينا لا يحدث نفسه؟ قال: إنه ليس ذلك، إنه إضاعة الوقت.

و أخرج أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و الطبراني في الأوسط، و ابن مردويه، و البيهقي في سننه، عن سعد بن أبي وقاص قال: سألت النبي صلى الله عليه و سلم عن قوله: الذين هم عن صلاتهم ساهون قال: هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها. و قال الحاكم و البيهقي: الموقوف أصح. قال ابن كثير: و هذا يعني الموقوف أصح إسنادا. قال: و قد ضعف البيهقي رفعه و صحه وقفه، و كذلك الحاكم. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه - قال السيوطي: بسند ضعيف - عن أبي برزة الأسلمي قال: «لما نزلت هذه الآية الذين هم عن صلاتهم ساهون قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: الله أكبر، هذه الآية خير لكم من أن يعطى كل رجل منكم جميع الدنيا، هو الذي إن صلى لم يرج خير صلاته، و إن تركها لم يخف ربّه». و في إسناده جابر الجعفي، و هو ضعيف، و شيخه مبهم لم يسم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: هم الذين يؤخرونها عن وقتها. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبي شيبة و أبو داود و النسائي و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و الطبراني في الأوسط، و ابن مردويه، و البيهقي في سننه، من طرق عن ابن مسعود قال:

كنا نعد الماعون على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم عارية الدلو و القدر و الفأس و الميزان و ما تتعاطون بينهم. و أخرج ابن مردويه عنه قال: كان المسلمون يستعيرون من المنافقين القدر و الفأس و شبهه فيمنعونهم، فأنزل الله:

و يَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ و أخرج أبو نعيم و الديلمي و ابن عساكر عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم في الآية قال:

ما تعاون الناس بينهم الفأس و القدر و الدلو و أشباهه. و أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن قرّة بن دعموص النميري: «أنهم وفدوا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقالوا: يا رسول الله ما تعهد إلينا؟ قال: لا تمنعوا الماعون، قالوا: و ما الماعون؟ قال: في الحجر و الحديد و في الماء، قالوا: فأى الحديد؟ قال: قدوركم النحاس و حديد الفأس الذي تمتهنون به، قالوا: و ما الحجر؟ قال: قدوركم الحجارة». قال ابن كثير: غريب جدا، و رفعه منكر، و في إسناده من لا يعرف. و أخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير عن سعيد بن عياض عن أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم: الماعون: الفأس و القدر و الدلو. و أخرج سعيد بن منصور و ابن

أبى شيبه و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و البيهقى، و الضياء فى المختارة، من طرق عن ابن عباس فى الآيه قال: عاريه متاع البيت. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم، و البيهقى فى سننه، عن علي بن أبى طالب قال: الماعون: الزكاه المفروضه يراؤن بصلاتهم و يَمْنَعُونَ زكاتهم. فتح القدير، ج ٥، ص: ٦١٤

## سورة الكوثر

### إشارة

و هى مكيهه فى قول ابن عباس و الكلبى و مقاتل، و مدينه فى قول الحسن و عكرمه و مجاهد و قتاده. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن الزبير و عائشه أنها نزلت سورة الكوثر بمكه. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الكوثر (١٠٨): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)

قرأ الجمهور: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ وَ قرأ الحسن و ابن محيصن و طلحه و الزعفرانى «أعطيناك» بالنون. قيل: هى لغه العرب العاربه. قال الأعشى:

حباؤك خير حبا الملوك يسان الحلال و تنطى الحلولا

و الْكَوْثَرُ فوعل من الكثره، و صف به للمبالغه فى الكثره، مثل النوفل من النفل، و الجوهر من الجهر، و العرب تسمى كل شىء كثير فى العدد أو القدر أو الخطر كوثرًا، و منه قول الشاعر «١»:

و قد ثار نقع الموت حتى تكوثرًا «٢» فالمعنى على هذا: إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير البالغ فى الكثره إلى الغايه. و ذهب أكثر المفسرين كما حكاه الواحدى إلى أن الكوثر نهر فى الجنه، و قيل: هو حوض النبى صلى الله عليه و سلم فى الموقف، قاله عطاء. و قال عكرمه: الكوثر: النبوه. و قال الحسن: هو القرآن. و قال الحسن بن الفضل: هو تفسير القرآن و تخفيف الشرائع. و قال أبو بكر بن عياش: هو كثره الأصحاب و الأمه. و قال ابن كيسان: هو الإيثار. و قيل:

هو الإسلام، و قيل: رفعه الذكر، و قيل: نور القلب، و قيل: الشفاعه، و قيل: المعجزات، و قيل: إجابة الدعوه، و قيل: لا إله إلا الله، و قيل: الفقه فى الدين، و قيل: الصلوات الخمس، و سيأتى بيان ما هو الحق.

فَصَلِّ لِرَبِّكَ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و المراد الأمر له صلى الله عليه و سلم بالدوام على إقامة الصلوات المفروضه وَ انْحَرْ البدن التى هى خيار أموال العرب. قال محمد بن كعب: إن ناسا كانوا يصلون لغير الله، و ينحرون لغير الله، فأمر الله نبيه صلى الله عليه و سلم أن تكون صلاته و نحره له. و قال قتاده و عطاء و عكرمه: المراد صلاة العيد، و نحر الأضحيه. و قال سعيد بن جبیر: صلّ لربك صلاة الصبح المفروضه بجمع، و انحر البدن

(١). هو حسان بن نشبه.

(٢). و صدر البيت: أبوا أن يببوا جارهم لعدوهم.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦١٥

فى منى: وقيل: النحر: وضع اليمنى على اليسرى فى الصلاة حذاء النحر، قاله محمد بن كعب. وقيل: هو أن يرفع يديه فى الصلاة عند التكبير إلى حذاء نحره. وقيل: هو أن يستقبل القبلة بنحره، قاله الفراء والكلبى وأبو الأحوص. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: نتناحر، أى: نتقابل؛ نحر هذا إلى نحر هذا، أى:

قبالته، و منه قول الشاعر:

أبا حكم ما أنت عمّ مجالدو سيد أهل الأبطح المتناحر

أى: المتقابل. وقال ابن الأعرابى: هو انتصاب الرجل فى الصلاة بإزاء المحراب، من قولهم: منازلهم تتناحر، أى: تتقابل. و روى عن عطاء أنه قال: أمره أن يستوى بين السجدين جالسا حتى يبدو نحره.

وقال سليمان التيمى: المعنى: و ارتفع يديك بالدعاء إلى نحر، و ظاهر الآية الأمر له صلى الله عليه و سلم بمطلق الصلاة و مطلق النحر، و أن يجعلهما لله عزّ و جلّ لا لغيره، و ما ورد فى السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص فهو فى حكم التقييد له، و سيأتى إن شاء الله. إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ أَى: إن مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم، فيعمّ خيرى الدنيا و الآخرة، أو الذى لا عقب له، أو الذى لا يبقى ذكره بعد موته. و ظاهر الآية العموم، و أن هذا شأن كل من يبغض النبى صلى الله عليه و سلم، و لا ينافى ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما مرّ غير مرّة. قيل: كان أهل الجاهلية إذا مات الذكور من أولاد الرجل قالوا: قد بتر فلان، فلما مات ابن رسول الله صلى الله عليه و سلم إبراهيم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بتر محمد، فنزلت الآية. وقيل: القائل بذلك عقبه بن أبى معيط. قال أهل اللغة: الأبتَر من الرجال؛ الذى لا ولد له، و من الدواب؛ الذى لا ذنب له، و كل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتَر، و أصل البتر: القطع، يقال: بترت الشىء بترًا؛ قطعته.

وقد أخرج ابن أبى شيبه و أحمد و أبو داود و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن أنس قال: «أغفى رسول الله صلى الله عليه و سلم إغفاءً، فرفع رأسه مبتسماً فقال: إنه أنزل على آنفاء سورة، فقرأ بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثَرَ حَتَّى خْتَمَهَا قَالَ: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا:

الله و رسوله أعلم، قال: هو نهر أعطانيه ربى فى الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتى يوم القيامة، آيته كعدد الكواكب يختلج «١» العبد منهم فأقول: يا ربّ إنه من أمتى، فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك». و أخرجه أيضا مسلم فى صحيحه، و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافته خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجرى فيه الماء فإذا مسك أذفر، قلت: ما هذا يا جبريل، قال: هذا الكوثر الذى أعطاكه الله» و قد روى عن أنس من طرق كلها مصرحة بأن الكوثر هو النهر الذى فى الجنة. و أخرج ابن أبى شيبه و البخارى و ابن جرير و ابن مردويه عن عائشة أنها سئلت عن قوله: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثَرَ قَالَتْ: هو نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه و سلم فى بطنان الجنة.

(١). أى ينتزع و يقتطع.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦١٦

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه نهر فى الجنة. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، عن حذيفة فى قوله: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثَرَ قال: نهر فى الجنة، و حسن السيوطى إسناده. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن أسامة ابن زيد مرفوعا «أنه قيل لرسول الله



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّكَ أُعْطِيتَ نَهْرًا فِي الْجَنَّةِ يَدْعَى الْكَوْثَرُ، فَقَالَ: أَجَلٌ، وَ أَرْضُهُ يَاقُوتٌ وَ مَرْجَانٌ وَ زَبْرُجَدٌ وَ لَوْلَا. وَ أَخْرَجَ ابْنَ مَرْدَوَيْهِ عَنْ عَمْرٍو بْنِ شَعِيبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ:

«أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْكَوْثَرُ؟ قَالَ: هُوَ نَهْرٌ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ أُعْطِيتَنِيهِ اللَّهُ».

فهذه الأحاديث تدلّ على أن الكوثر هو النهر الذي في الجنة، فيتعين المصير إليها، و عدم التعويل على غيرها، و إن كان معنى الكوثر: هو الخير الكثير في لغة العرب، فمن فسره بما هو أعمّ مما ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو تفسير ناظر إلى المعنى اللغوي. كما أخرج ابن أبي شيبة و أحمد، و الترمذي و صححه، و ابن ماجه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عطاء بن السائب قال: قال محارب بن دثار: قال سعيد بن جبير في الكوثر:

قلت: حدّثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخير الكثير فقال: صدق إنه للخير الكثير. و لكن حدّثنا ابن عمر قال: نزلت إنا أعطيناك الكوثر فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الكوثر نهر في الجنة، حافظه من ذهب يجري على الدرّ و الياقوت، تربته أطيب من المسك، و ماؤه أشدّ بياضا من اللبن و أحلى من العسل». و أخرج البخاري و ابن جرير و الحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: في الكوثر هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير فإن ناسا يزعمون أنه نهر في الجنة، قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه. و هذا التفسير من حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنه ناظر إلى المعنى اللغوي كما عرّفناك، و لكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد فسّره فيما صحّ عنه أنه النهر الذي في الجنة، و إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل. و أخرج ابن أبي حاتم و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقي في سننه، عن عليّ بن أبي طالب قال: «لما نزلت هذه السورة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنا أعطيناك الكوثر فصلّ لربّك و انحرّ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لجبريل: ما هذه النخيرة التي أمرني بها ربي؟ فقال: إنها ليست بنخيرة، و لكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت، و إذا ركعت، و إذا رفعت رأسك من الركوع، فإنها صلاتنا و صلاة الملائكة الذين هم في السماوات السبع، و إن لكل شيء زينه، و زينه الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله: فَمَا اسْتَيْكُنُوا لِربِّهِمْ وَ مَا يَتَضَرَّعُونَ وَ هُوَ مِنْ طَرِيقِ مَقَاتِلِ بْنِ حِيَانَ، عَنْ الْأَصْبَغِ بْنِ نَبَاتَةَ، عَنْ عَلِيٍّ. وَ أَخْرَجَ ابْنَ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى رَسُولِهِ أَنْ أَرْفَعُ يَدَيْكَ حِذَاءَ نَحْرِكَ إِذَا كَبُرْتَ لِلصَّلَاةِ، فَذَاكَ النَّحْرُ». وَ أَخْرَجَ ابْنَ أَبِي شَيْبَةَ، وَ الْبُخَارِيُّ فِي تَارِيخِهِ، وَ ابْنَ جَرِيرٍ وَ ابْنَ الْمُنْذِرِ وَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَ الدَّارِقُطَنِي فِي الْأَفْرَادِ، وَ أَبُو الشَّيْخِ وَ الْحَاكِمُ وَ ابْنَ مَرْدَوَيْهِ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي سَنَنِهِ، عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي قَوْلِهِ: فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرِّ قَالَ: وَضَعُ يَدَيْهِ الْيَمْنَى عَلَى وَسْطِ سَاعِدِهِ الْيَسْرَى، ثُمَّ وَضَعَهُمَا عَلَى صَدْرِهِ فِي الصَّلَاةِ. وَ أَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي سَنَنِهِ، عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَهُ. وَ أَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَ ابْنَ شَاهِينَ فِي سَنَنِهِ، وَ ابْنَ مَرْدَوَيْهِ وَ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرِّ قَالَ: إِذَا صَلَّيْتَ فَرَفَعْتَ رَأْسَكَ مِنَ الرُّكُوعِ فَاسْتَوْقِئْهُمَا. وَ أَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ وَ ابْنَ

فتح القدير، ج 5، ص: 617

المنذر عن ابن عباس في الآية قال: الصلاة المكتوبة، و الذبح يوم الأضحى. و أخرج البيهقي في سننه؛ عنه وَ انْحَرِّ قَالَ: يَقُولُ: وَ اذْبَحْ يَوْمَ النَّحْرِ. وَ أَخْرَجَ الْبَزَارُ وَ ابْنَ جَرِيرٍ وَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَ ابْنَ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ. فَقَالَتْ لَهُ قَرِيشٌ: أَنْتَ خَيْرُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ سَيِّدُهُمْ، أَلَا تَرَى إِلَى هَذَا الصَّبَإِ الْمُنْتَبِرِ مِنْ قَوْمِهِ يَزْعَمُ أَنَّهُ خَيْرُ مَنْأَ، وَ نَحْنُ أَهْلُ الْحَجِيجِ وَ أَهْلُ السَّقَايَةِ وَ أَهْلُ السَّدَانَةِ؟! قَالَ: أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْهُ، فَنَزَلَتْ: إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ وَ نَزَلَتْ: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ إِلَى قَوْلِهِ: فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا «1» قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَ إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. وَ أَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ وَ ابْنَ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ: لَمَّا مَاتَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَشَى الْمَشْرُكُونَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الصَّبَإِ قَدْ بَتَرَ اللَّيْلَةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: إنا

أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. و أَخْرَجَ ابْنَ سَعْدٍ وَ ابْنَ عَسَاكِرَ مِنْ طَرِيقِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ أَكْبَرَ وَلَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ الْقَاسِمُ، ثُمَّ زَيْنَبُ، ثُمَّ عَبْدُ اللَّهِ، ثُمَّ أُمُّ كَلْثُومٍ، ثُمَّ فَاطِمَةُ، ثُمَّ رَقِيَّةُ، فَمَاتَ الْقَاسِمُ وَ هُوَ أَوَّلُ مَيِّتٍ مِنْ أَهْلِهِ، وَ وَلَدَهُ بِمَكَّةَ، ثُمَّ مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ، فَقَالَ الْعَاصِمُ بْنُ وَائِلِ السَّهْمِيِّ: قَدْ انْقَطَعَ نَسْلُهُ؛ فَهُوَ أَبْتَرٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ وَ فِي إِسْنَادِهِ الْكَلْبِيُّ. وَ أَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَ ابْنُ الْمُنْذَرُ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَ ابْنُ مَرْدُويهَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ قَالَ: أَبُو جَهْلٍ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ إِنَّ شَانِئَكَ يَقُولُ: عَدْوُكَ.

(١). النساء: ٤٤-٥٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦١٨

## سورة الكافرون

### إشارة

و هي مكية في قول ابن مسعود و الحسن و عكرمة. و مدنية في أحد قولي ابن عباس و قتادة و الضحاك. و أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدُويهَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَنْزَلَتْ سُورَةُ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ بِمَكَّةَ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدُويهَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: أَنْزَلَتْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ بِالْمَدِينَةِ. وَ قَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَرَأَ بِهَذِهِ السُّورَةِ، وَ بَقِلَ هُوَ اللَّهُ، فِي رَكْعَتِي الطَّوَّافِ». وَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَرَأَ بِهِمَا فِي رَكْعَتِي الْفَجْرِ. وَ أَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَ التِّرْمِذِيُّ وَ حَسَنُ بْنُ هَبِيبٍ، وَ النَّسَائِيُّ وَ ابْنُ مَاجَةَ وَ ابْنُ حَبَانَ وَ ابْنُ مَرْدُويهَ عَنْ ابْنِ عَمْرٍ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَرَأَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ وَ الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرَبِ بَضْعًا وَ عَشْرِينَ مَرَّةً، أَوْ بَضْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ وَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ». وَ أَخْرَجَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ، عَنْ أَبِي قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يوترُ بِسَبْحِ، وَ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ وَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ». وَ أَخْرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ، وَ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، عَنْ ابْنِ عَمْرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ، وَ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ تَعْدِلُ رُبْعَ الْقُرْآنِ، وَ كَانَ يَقْرَأُ بِهِمَا فِي رَكْعَتِي الْفَجْرِ». وَ أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدُويهَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ قَرَأَ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ كَانَتْ لَهُ عِدْلُ رُبْعِ الْقُرْآنِ». وَ أَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي الصَّغِيرِ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ فَكَأَنَّمَا قَرَأَ رُبْعَ الْقُرْآنِ، وَ مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فَكَأَنَّمَا قَرَأَ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ». وَ أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَ ابْنُ الضَّرِيرِ وَ الْبَغَوِيُّ، وَ حَمِيدُ بْنُ زَنْجَوِيهِ فِي تَرْغِيْبِهِ، عَنْ شَيْخِ أَدْرَكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَالَ: «خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَمَرَّ بِرَجُلٍ يَقْرَأُ: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ فَقَالَ: أَمَا هَذَا فَقَدْ بَرِيَ مِنَ الشَّرْكِ، وَ إِذَا آخِرُ يَقْرَأُ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: بِهَا وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، وَ فِي رِوَايَةٍ: «أَمَا هَذَا فَقَدْ غُفِرَ لَهُ». وَ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ أَحْمَدُ وَ أَبُو دَاوُدَ وَ التِّرْمِذِيُّ وَ النَّسَائِيُّ، وَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فِي الْمَصَاحِفِ، وَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ، وَ ابْنُ مَرْدُويهَ، وَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ، عَنْ فَرَوَةَ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ مَعَاوِيَةَ الْأَشْجَعِيِّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي مَا أَقُولُ إِذَا أَوَيْتُ إِلَى فِرَاشِي قَالَ: «اقْرَأْ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ثُمَّ نَمِ عَلَى خَاتَمَتِهَا فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشَّرْكِ». وَ أَخْرَجَهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ وَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ ابْنُ مَرْدُويهَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَوْفَلِ الْأَشْجَعِيِّ عَنْ أَبِيهِ مَرْفُوعًا مِثْلَهُ. وَ أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدُويهَ عَنْ الْبَرَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ لِنَوْفَلِ بْنِ مَعَاوِيَةَ الْأَشْجَعِيِّ: «إِذَا أَتَيْتَ مُضْجِعَكَ لِلنَّوْمِ فَاقْرَأْ: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَهَا فَقَدْ بَرَيْتَ

من الشرك». و أخرج أحمد، و الطبراني في الأوسط، عن الحارث بن جبلة، و قال الطبراني: عن جبلة بن حارثة، و هو أخو زيد ابن حارثة قال: «قلت: يا رسول الله علمنى شيئاً أقوله عند منامى قال: إذا أخذت مضجعتك من الليل فقرأ قل يا أيها الكافرون حتى تمرّ بأخرها فإنها براءة من الشرك». و أخرج البيهقي في الشعب،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦١٩

عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لمعاذ: «اقرأ قل يا أيها الكافرون عند منامك فإنها براءة من الشرك». و أخرج أبو يعلى و الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «ألا أدلكم على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله؟ تقرأون قل يا أيها الكافرون عند منامكم». و أخرج البزار و الطبراني و ابن مردويه عن خباب أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «إذا أخذت مضجعتك فقرأ قل يا أيها الكافرون و إن النبي صلى الله عليه و سلم لم يأت فراشه قط إلا قرأ: قل يا أيها الكافرون حتى يختم». و أخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من لقي الله بسورتين فلا حساب عليه قل يا أيها الكافرون و قل هو الله أحد». و أخرج أبو عبيد في فضائله، و ابن الضريس عن أبي مسعود الأنصاري قال: من قرأ قل يا أيها الكافرون و قل هو الله أحد في ليلة فقد أكثر و أطاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الكافرون (١٠٩): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤)  
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ (٦)

الألف و اللام فى يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ للجنس، و لكنها لما كانت الآية خطاباً لمن سبق فى علم الله أنه يموت على كفره؛ كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك؛ لأنّ من الكفار عند نزول هذه الآية من أسلم و عبد الله سبحانه. و سبب نزول هذه السورة أن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يعبد آلهتهم سنه و يعبدوا إلهه سنه، فأمره الله سبحانه أن يقول لهم: لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ أى: لا أفعل ما تطلبون منى من عبادة ما تعبدون من الأصنام، و قيل: و المراد فيما يستقبل من الزمان لأن لا النافية لا تدخل فى الغالب إلا على المضارع الذى فى معنى الاستقبال، كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الحال و لا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ أى: و لا أنتم فاعلون فى المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهى و لا أنا عابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ أى: و لا أنا قط فيما سلف عابد ما عبدتم فيه، و المعنى: أنه لم يعهد منى ذلك و لا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ أى: و ما عبدتم فى وقت من الأوقات ما أنا على عبادته، كذا قيل، و هذا على قول من قال: إنه لا تكرر فى هذه الآيات؛ لأن الجملة الأولى لنفى العبادة فى المستقبل لما قدّمنا من أن «لا» لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الاستقبال، و الدليل على ذلك أن لن تأكيد لما تنفيه لا. قال الخليل فى لن: إن أصله لا، فالمعنى:

لا أعبد ما تعبدون فى المستقبل، و لا أنتم عابدون فى المستقبل ما أطلبه من عبادة إلهى. ثم قال: و لا أنا عابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ أى: و لست فى الحال بعباد معبودكم، و لا- أنتم فى الحال بعبادين معبودى. و قيل: بعكس هذا، و هو أن الجملتين الأوليين للحال، و الجملتين الأخريين للاستقبال بدليل قوله: و لا أنا عابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ كما لو قال القائل: أنا ضارب زيداً، و أنا قاتل عمراً، فإنه لا يفهم منه إلا الاستقبال. قال الأخفش و الفراء: المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون، و لا أنتم عابدون الساعة ما أعبد، و لا أنا عابد فى المستقبل ما عبدتم،

ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد. قال الزجاج: نفى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه السورة عبادة آلهم عن نفسه في الحال وفيما يستقبل، ونفى عنهم عبادة الله في الحال وفيما يستقبل. وقيل: إن كل واحد منهما يصلح للحال والاستقبال، ولكننا نخصّ أحدهما بالحال، والثاني بالاستقبال دفعا للتكرار. وكل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لا يخفى على منصف، فإن جعل قوله: ولا أعبد ما تعبدون للاستقبال. وإن كان صحيحا على مقتضى اللغة العربية، ولكنه لا يتم جعل قوله: ولا أنتم عابدون ما أعبد للاستقبال؛ لأن الجملة اسمية تفيد الدوام والثبات في كل الأوقات فدخل النفي عليها يرفع ما دلت عليه من الدوام، والثبات في كل الأوقات، ولو كان حملها على الاستقبال صحيحا للزم مثله في قوله: ولا أنا عابد ما عبدتم وفي قوله: ولا أنتم عابدون ما أعبد فلا يتم ما قيل من حمل الجملتين الأخريين على الحال، وكما يندفع هذا يندفع ما قيل من العكس؛ لأن الجملة الثانية والثالثة والرابعة كلها جمل اسمية، مصدره بالضمائر التي هي المبتدأ في كل واحد منها، مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيما بعده منفية كلها بحرف واحد، وهو لفظ لا في كل واحد منها، فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها في الحال والاستقبال مختلفة. وأما قول من قال: إن كل واحد منها يصلح للحال والاستقبال، فهو إقرار منه بالتكرار؛ لأن حمل هذا على معنى وحمل هذا على معنى مع الاتحاد يكون من باب التحكم الذي لا يدل عليه دليل. وإذا تقرّر لك هذا فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب، ومن مذهبهم التي لا تجحد، واستعمالاتهم التي لا تنكر أنهم إذا أرادوا التأكيد كزروا، كما أن من مذهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أو جزوا، هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب، وهذا مما لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه لأنه إنما يستدل على ما فيه خفاء ويبرهن على ما هو متنازع فيه. وأما ما كان من الوضوح والظهور والجلء بحيث لا يشك فيه شاك، ولا يرتاب فيه مرتاب، فهو مستغن عن التطويل، غير محتاج إلى تكثير القول والقيل.

وقد وقع في القرآن من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن، وربما يكثر في بعض السور كما في سورة الرحمن وسورة المرسلات وفي أشعار العرب من هذا ما لا يتأتى عليه الحصر، ومن ذلك قول الشاعر «١»:

يا لبكر أنشروا لي كلييا لبكر أين أين الفرار؟

وقول الآخر:

هلا سألت جموع كنده يوم ولوا أين أيننا

وقول الآخر:

يا علقمه يا علقمه يا علقمه خير تميم كلها وأكرمه

وقول الآخر:

ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثم اسلمي ثلاث تحيات وإن لم تكلم

(١). هو المهلهل بن ربيعة.

بالكلمة أعادها ثلاث مرات، و إذا عرفت هذا ففائدة ما وقع في السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم، و إنما عبر سبحانه بما التي لغير العقلاء في المواضع الأربعة لأنه يجوز ذلك، كما في قولهم: سبحانه ما سخر كَنَ لنا، و نحوه، و النكتة في ذلك أن يجرى الكلام على نمط واحد و لا يختلف. و قيل: إنه أراد الصفة كأنه قال: لا أعبد الباطل و لا تعبدون الحق. و قيل: إن «ما» في المواضع الأربعة هي المصدرية لا الموصولة، أي: لا أعبد عبادتكم و لا أنتم عابدون عبادتي ... إلخ، و جملة لكم دِينُكُمْ مستأنفة لتقرير قوله: لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ و قوله: و لا أنا عابدٌ ما عَبَدْتُمْ كما أن قوله: و لِي دِينٍ تقرير لقوله: و لا أَنْتُمْ عَابِدُونَ ما أَعْبُدُ في الموضعين، أي: إن رضيتم بدينكم فقد رضيت بديني، كما في قوله: لَنَا أَعْمَالُنَا و لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ\* (٢) و المعنى: أن دينكم الذي هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول لي كما تطمعون، و ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم. و قيل المعنى: لكم جزاؤكم و لي جزائي؛ لأن الدين الجزاء. قيل: و هذه الآية منسوخة بآية السيف، و قيل: ليست بمنسوخة؛ لأنها أخبار، و الأخبار لا يدخلها النسخ. قرأ الجمهور بإسكان الياء من قوله: «ولي» قرأ نافع و هشام و حفص و البزى بفتحها. و قرأ الجمهور أيضا بحذف الياء من ديني وقفا و وصلا، و أثبتها نصر بن عاصم و سلام و يعقوب و صلا و وقفا. قالوا لأنها اسم فلا تحذف. و يجاب بأن حذفها لرعاية الفواصل سائغ و إن كانت اسما.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و الطبراني عن ابن عباس: «أن قريشا دعت رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة، و يزوجه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد و كف عن شتم آلهتنا، و لا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فإننا نعرض عليك خصلة واحدة و لك فيها صلاح، قال: ما هي؟

قالوا: تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهك سنة، قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي، فجاء الوحي من عند الله قُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ - لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ إلى آخر السورة، و أنزل الله: قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ إلى قوله: يَلِ اللَّهُ فَاَعْبُدْ و كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٣). و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم،

(١). و صدره: فأين إلى أين النجاة بيغلتى.

(٢). البقرة: ١٣٩.

(٣). الزمر: ٦٤-٦٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٢٢

و ابن الأنباري في المصاحف، عن سعيد بن مينا مولى البختری قال: «لقى الوليد بن المغيرة و العاص بن وائل و الأسود بن المطلب و أمية بن خلف رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم قالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد و تعبد ما نعبد، و نشترك نحن و أنت في أمرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظا، و إن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظا، فأنزل الله: قُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ إلى آخر السورة». و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس أن قريشا قالت:

لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك، فأنزل الله: قُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ السورة كلها.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٢٣

و تسمى سورة التوديع، هي ثلاث آيات و هي مدنيّة بلا خلاف. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزل بالمدينة إذا جاء نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ و أخرج ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و البزار و أبو يعلى و ابن مردويه، و البيهقي في الدلائل، عن ابن عمر قال: هذه السورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه و سلم أوسط أيام التشريق بمنى، و هو فى حجّة الوداع إذا جاء نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ حتى ختمها فعرف رسول الله صلى الله عليه و سلم أنها الوداع. و أخرج أحمد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت إذا جاء نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: نعت إلى نفسى». و أخرج ابن مردويه عنه قال: «لما نزلت إذا جاء نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: نعت إلى نفسى، و قرب إلى أجلى». و أخرج النسائى، و عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عنه أيضا قال: لما نزلت إذا جاء نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ نعت لرسول الله نفسه حين أنزلت، فأخذ فى أشد ما كان قط اجتهدا فى أمر الآخرة. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أم حبيبة قالت: «لما أنزل إذا جاء نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن الله لم يبعث نبيا إلا عمر فى أمته شطر ما عمر النبى الماضى قبله، فإن عيسى ابن مريم كان أربعين سنة فى بنى إسرائيل، و هذه لى عشرون سنة، و أنا ميت فى هذه السنة، فبكت فاطمة، فقال النبى صلى الله عليه و سلم: أنت أول أهلى بى لحوقا، فبسمت». و أخرج البيهقي عن ابن عباس قال «لما نزلت إذا جاء نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ دعا رسول الله صلى الله عليه و سلم فاطمة و قال: إنه قد نعت إلى نفسى، فبكت ثم ضحكت، و قالت: أخبرنى أنه نعت إليه نفسه فبكت؟ فقال: اصبرى فإنك أول أهلى لحاقا بى فضحكت» و قد تقدّم فى تفسير سورة الزلزلة أن هذه السورة تعدل ربع القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة النصر (١١٠): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (١) وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)  
النصر: العون: مأخوذ من قولهم: قد نصر الغيث الأرض: إذا أعان على نباتها و منع من قحطها، و منه قول الشاعر «١»:  
إذا انصرف الشهر الحرام فودّعى بلاد تميم و انصرى أرض عامر

(١). هو الراعى.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٢٤

يقال: نصره على عدوّه ينصره نصرًا؛ إذا أعانه، و الاسم: النصر، و استنصره على عدوّه؛ إذا سأله أن ينصره عليه، قال الواحدى: قال المفسرون: إذا جاءك يا محمد نَصْرُ اللَّهِ على من عاداك، و هم قريش و الْفَتْحُ فتح مكّة، و قيل: المراد نصره صلى الله عليه و سلم على قريش من غير تعيين، و قيل: نصره على من قاتله من الكفار، و قيل: هو فتح سائر البلاد، و قيل: هو ما فتحه الله عليه من العلوم، و عبّر عن حصول النصر و الفتح بالمجىء للإيدان بأنهما متوجّهان إليه صلى الله عليه و سلم. و قيل: إذا: بمعنى: قد، و قيل: بمعنى: إذ. قال الرازى: الفرق بين النصر و الفتح؛ أن الفتح هو تحصيل المطلوب الذى كان مغلقًا؛ كالسبب للفتح، فلهذا بدأ بذكر النصر و عطف عليه الفتح؛ أو يقال النصر كمال الدين، و الفتح: إقبال الدنيا الذى هو تمام النعمة؛ أو يقال: النصر: الظفر، و

الفتح: الجنة، هذا معنى كلامه. و يقال: الأمر أوضح من هذا و أظهر؛ فإن النصر: هو التأيد الذي يكون به قهر الأعداء و غلبهم و الاستعلاء عليهم، و الفتح: هو فتح مساكن الأعداء و دخول منازلهم و رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا أَي: أبصرت الناس من العرب و غيرهم يدخلون في دين الله الذي بعثك به جماعات فوجا بعد فوج. قال الحسن: لما فتح رسول الله صلى الله عليه و سلم مكة قال العرب: أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم، و قد أجارهم الله من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجا، أي: جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحدا واحدا، و اثنين اثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام. قال عكرمة و مقاتل: أراد بالناس: أهل اليمن، و ذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين. و انتصاب أفواجا على الحال من فاعل يدخلون، و محل قوله «يدخلون في دين الله» النصب على الحال إن كانت الرؤية بصرية، و إن كانت بمعنى العلم فهو في محل نصب على أنه المفعول الثاني. فَسَيِّحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ هذا جواب الشرط، و هو العامل فيه، و التقدير: فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله. و قال مكى: العامل في إذا هو جاء، و رجحه أبو حيان و ضعف الأول بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها، و قوله: بِحَمْدِ رَبِّكَ في محل نصب على الحال، أي: فقل سبحان الله متلبسا بحمده، أو حامدا له. و فيه الجمع بين تسييح الله المؤذن بالتعجب مما يسره الله له مما لم يكن يخطر بباله و لا بال أحد من الناس، و بين الحمد له على جميل صنعه له و عظيم منته عليه بهذه النعمة التي هي النصر و الفتح لأم القرى التي كان أهلها قد بلغوا في عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة، و الأكاذيب المختلفة ما هو معروف من قولهم: هو مجنون، هو ساحر، هو شاعر، هو كاهن، و نحو ذلك. ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه صلى الله عليه و سلم بالاستغفار: أي اطلب منه المغفرة لذنبك هضمًا لنفسك و استقصارا لعملك، و استدراكا لما فرط منك من ترك ما هو الأولى، و قد كان صلى الله عليه و سلم يرى قصوره عن القيام بحق الله و يكثر من الاستغفار و التضرع و إن كان قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر. و قيل: إن الاستغفار منه صلى الله عليه و سلم و من سائر الأنبياء هو تعبد تعبدهم الله به، لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم. و قيل: إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيها لأمته و تعريضا بهم، فكانهم هم المأمورون بالاستغفار. و قيل: إن الله سبحانه أمره بالاستغفار لأمته لا لذنبه. و قيل: المراد بالتسييح هنا: الصلاة. و الأولى حملة على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سرورا بالنعمة،

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٢٥

و فرحا بما هيأه الله من نصر الدين، و كبت أعدائه و نزول الذل بهم و حصول القهر لهم. قال الحسن: أعلم الله رسوله صلى الله عليه و سلم أنه قد اقترب أجله؛ فأمر بالتسييح و التوبة ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح، فكان يكثر أن يقول: «سبحانك اللهم و بحمدك اغفر لى إنك أنت التواب». قال قتادة و مقاتل: و عاش صلى الله عليه و سلم بعد نزول هذه السورة سنتين، و جملة إنّه كَانَ تَوَابًا تَعْلِيلَ لِأَمْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالِاسْتِغْفَارِ، أَي: من شأنه التوبة على المستغفرين له يتوب عليهم و يرحمهم بقبول توبتهم، و تَوَابٌ مِنْ صَيْغِ الْمُبَالَغَةِ، فففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ في قبول توبة التائبين. و قد حكى الرازى في تفسيره اتفاق الصحابة على أن هذه السورة دلت على نعي رسول الله صلى الله عليه و سلم.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن عمر سأله عن قول الله: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ فَقَالُوا:

فتح المدائن و القصور، قال: فأنت يا ابن عباس ما تقول؟ قال: قلت مثل ضرب لمحمد صلى الله عليه و سلم نعت له نفسه. و أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه فقال: لم يدخل هذا معنا و لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليربهم، فقال: ما تقولون في قول الله عزّ و جلّ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَ نَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نَصَرْنَا وَ فَتَحَ

علينا، و سكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أ كذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلمه الله له، قال: إِذَا جَاءَ نَصِيرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ فَذَلِكَ عَلَامَةٌ أَجْلُكَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول. و أخرج ابن النجار عن سهل بن سعد عن أبي بكر أن سورة إِذَا جَاءَ نَصِيرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ حين أنزلت على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نفسه نعتت إليه. و أخرج ابن أبي شيبه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عائشة قالت: «كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر من قول سبحان الله و بحمده، و أستغفر الله و أتوب إليه، فقلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله و بحمده و أستغفر الله و أتوب إليه، فقال: خبرني ربي أنى سأرى علامه من أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله و بحمده، و أستغفر الله و أتوب إليه، فقد رأيتها إِذَا جَاءَ نَصِيرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ فَتَحَ مَكَّةَ وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا- فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا».

و أخرج البخارى و مسلم و أبو داود و النسائى و ابن ماجه و غيرهم عن عائشة قالت: «كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول فى ركوعه و سجوده: سبحانك اللهم و بحمدك اللهم اغفر لى، يتأول القرآن» يعنى إذا جاء نصر الله و الفتح، و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: «لما نزلت إِذَا جَاءَ نَصِيرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جاء أهل اليمن هم أرق قلوبا، الإيمان يمان، و الفقه يمان، و الحكمة يمانية». و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «بينما رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى المدينة إذ قال: الله أكبر قد جاء نصر الله و الفتح، و جاء أهل اليمن، قوم رقيقة قلوبهم، لينه طاعتهم، الإيمان يمان، و الفقه

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٢٦

يمان، و الحكمة يمانية». و أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجا و سيخرجون منه أفواجا». و أخرج الحاكم و صححه، عن أبى هريرة قال: «تلا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا قال: ليخرجن منه أفواجا كما دخلوا فيه أفواجا».

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٢٧

## سورة المسد

### إشارة

و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن الزبير و عائشة قالوا: نزلت تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ بِمَكَّةَ. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة المسد (١١١): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَ مَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤)  
فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ (٥)

معنى تَبَّتْ هلكت. و قال مقاتل: خسرت، و قيل: خابت. و قال عطاء: ضلّت. و قيل:

صفرت من كل خير، و خصّ اليمين بالتباب؛ لأن أكثر العمل يكون بهما. و قيل: المراد باليدين نفسه، و قد يعبر باليد عن النفس،



كما في قوله: بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ «١» أى: نفسك، و العرب تعبّر كثيرا ببعض الشيء عن كله، كقولهم: أصابته يد الدهر، و أصابته يد المنايا، كما في قول الشاعر:

لَمَّا أَكْبَتَ يَدَ الرَّزَايَا عَلَيْهِ نَادَى أَلَا مَجِير

و أبو لهب اسمه: عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم، و قوله: وَ تَبَّ أَى: هلك. قال الفراء:

الأول دعاء عليه، و الثانى خبر، كما تقول: أهلكه الله، و قد هلك. و المعنى: أنه قد وقع ما دعا به عليه. و يؤيده قراءة ابن مسعود: «و قد تبَّ». و قيل: كلاهما إخبار، أراد بالأول هلاك عمله، و بالثانى هلاك نفسه.

و قيل: كلاهما دعاء عليه، و يكون فى هذا شبه من مجيء العام بعد الخاص، و إن كان حقيقة اليدى غير مرادة، و ذكره سبحانه بكنيته لاشتهاره بها، و لكون اسمه كما تقدّم عبد العزى، و العزى: اسم صنم، و لكون فى هذه الكنية ما يدلّ على أنه ملابس للنار؛ لأنّ اللهب هو لهب النار، و إن كان إطلاق ذلك عليه فى الأصل لكونه كان جميلا، و أن وجهه يتلهب لمزيد حسنه كما تتلهب النار. قرأ الجمهور: «لهب» بفتح اللام و الهاء. و قرأ مجاهد و حميد و ابن كثير و ابن محيصن بإسكان الهاء، و اتفقوا على فتح الهاء فى قوله: ذَاتَ لَهَبٍ و روى صاحب الكشاف أنه قرئ «تبت يدا أبو لهب»، و ذكر وجه ذلك ما أغنى عنه ماله و ما كَسَبَ أَى: ما دفع عنه ما حلّ به من التباب و ما نزل به من عذاب الله ما جمع من المال و لا ما كسب من الأرباح و الجاه؛ أو المراد بقوله: ماله: ما ورثه من أبيه، و بقوله: وَ مَا كَسَبَ الَّذِى كَسَبَهُ بنفسه. قال مجاهد:

(١). الحج: ١٠.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٢٨

و ما كسب من ولد، و ولد الرجل من كسبه، و يجوز أن تكون «ما» فى قوله: ما أغنى استفهامية، أى: أى شىء أغنى عنه؟ و كذا يجوز فى قوله: وَ مَا كَسَبَ أَنْ تَكُونَ استفهامية، أى: و أى شىء كسب؟ و يجوز أن تكون مصدرية، أى: و كسبه. و الظاهر أن ما الأولى نافية، و الثانية موصولة. ثم أوعده سبحانه بالنار فقال: سَيَصِلُنِي نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ قرأ الجمهور: «سيصلى» بفتح الياء و إسكان الصاد و تخفيف اللام، أى: سيصلى هو بنفسه، و قرأ أبو رجاء و أبو حيوة و ابن مقسم و الأشهب العقيلي و أبو السّمّال و الأعمش و محمد بن السّميق بضم الياء و فتح الصاد و تشديد اللام، و رويت هذه القراءة عن ابن كثير، و المعنى سيصليه الله، و معنى ذَاتَ لَهَبٍ ذات اشتعال و توقد، و هى نار جهنم وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ معطوف على الضمير فى يصى، و جاز ذلك للفصل، أى: و تصلى امرأته نارا ذات لهب، و هى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان، و كانت تحمل الغضى و الشوك، فنطرحه بالليل على طريق النبى صلى الله عليه و سلّم، كذا قال ابن زيد و الضحّاك و الربيع بن أنس و مرّة الهمداني. و قال مجاهد و قتادة و السدى: إنها كانت تمشى بالنميمة بين الناس. و العرب تقول: فلان يحطب على فلان؛ إذا نمّ به، و منه قول الشاعر:

إِنَّ بَنِي الْأَدْرَمِ حَمَالُو الْحَطَبِ هُمُ الْوَشَاءُ فِي الرِّضَا وَ فِي الْغَضَبِ

عليهم اللعنة تترى و الحرب و قال آخر:

من البيض لم تصطد على ظهر لأمه و لم تمش بين الناس بالحطب الرطب

و جعل الحطب فى هذا البيت رطبا؛ لما فيه من التدخين الذى هو زيادة فى الشر، و من الموافقة للمشى بالنميمة، و قال سعيد بن جبير: معنى حمالة الحطب أنها حمالة الخطايا و الذنوب، من قولهم: فلان يحطب على ظهره، كما فى قوله: وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ «١» و قيل: المعنى: حمالة الحطب فى النار. قرأ الجمهور: «حمالة» بالرفع على الخبرية على أنها جملة مسوقة للإخبار بأن امرأة أبى لهب حمالة الحطب، و أما على ما قدّمنا من عطف و امرأته على الضمير فى تصلى، فيكون رفع

حمالته على النعت لامراته، و الإضافة حقيقية لأنها بمعنى المضى، أو على أنه خير مبتدأ محذوف: أى هى حمالة. و قرأ عاصم بنصب «حمالة» على الذم، أو على أنه حال من امرأته. و قرأ أبو قلابه: «حاملة الحطب» فى جيدها حَبْلٌ مِنْ مَسَدِ الْجَمَلَةِ فى محل نصب على الحال من امرأته، و الجيد: العنق، و المسد: الليف الذى تفتل منه الحبال، و منه قول النابغة: مقدوفة بدخيس النحض بازلهاله صريف صريف القعو بالمسد (٢)

(١). الأنعام: ٣١.

(٢). «مقدوفة»: مرمية باللحم. «الدخيس»: الذى قد دخل بعضه فى بعض من كثرته. «النحض»: اللحم. «البازل»: الكبير. «الصريف»: الصبح. «القعو»: ما يضم البكرة إذا كان خشبا.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٢٩

و قول الآخر:

يا مسد الخوص تعوذ منى إن كنت لدنا لئنا فإنى

و قال أبو عبيدة: المسد: هو الحبل يكون من صوف. و قال الحسن: هى حبال تكون من شجر ينبت باليمن تسمى بالمسد. و قد تكون الحبال من جلود الإبل أو من أوبارها. قال الضحاك و غيره: هذا فى الدنيا، كانت تعير النبى صلى الله عليه و سلم بالفقر، و هى تحتطب فى حبل تجعله فى عنقها، فخنقها الله به فأهلكها، و هو فى الآخرة حبل من نار. و قال مجاهد و عروة بن الزبير: هو سلسلة من نار تدخل فى فيها و تخرج من أسفلها. و قال قتادة:

هو قلادة من ودع كانت لها. قال الحسن: إنما كان خرزا فى عنقها. و قال سعيد بن المسيب: كان لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: و اللات و العزى لأنفقنها فى عداوة محمد، فيكون ذلك عذابا فى جسدها يوم القيامة. و المسد: القتل، يقال: مسد حبله يمسده مسدا؛ أجاد فتله.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عباس قال: «لما نزلت: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (١)» خرج النبى صلى الله عليه و سلم حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه، فاجتمعوا إليه، فقال: أ رأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أ كنتم مصدقى؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد؛ فقال أبو لهب: تبا لك إنما جمعتنا لهذا؟ ثم قام فنزلت هذه السورة تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ . قال: خسرت. و أخرج ابن أبى حاتم عن عائشة قالت: إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، و إن ابنه من كسبه، ثم قرأت: مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَ مَا كَسَبَ قَالَتْ: و ما كسب ولده.

و أخرج عبد الرزاق و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ مَا كَسَبَ قَالَتْ: كسبه ولده. و أخرج ابن جرير، و البيهقى فى الدلائل، و ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله: وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ قَالَتْ:

كانت تحمل الشوك فتطرحة على طريق النبى صلى الله عليه و سلم ليعقره و أصحابه، و قال: حَمَّالَةَ الْحَطَبِ نَقَالَةُ الْحَدِيثِ حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ قَالَتْ: هى حبال تكون بمكة. و يقال: المسد: العصا التى تكون فى البكرة.

و يقال المسد: قلادة من ودع. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو زرعة عن أسماء بنت أبى بكر قالت «لما نزلت تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ أَقْبَلْتُ الْعُرَاءَ أُمَّ جَمِيلَ بِنْتِ حَرْبٍ وَ لَهَا وَلَوْلَاءُ، وَ فِى يَدَيْهَا فَهْرٌ (٢)»، و هى تقول:

مذمما أبنائنا دينه قلينا

و أمره عصينا و رسول الله صلى الله عليه و سلم جالس فى المسجد و معه أبو بكر، فلما رآه أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت، و أنا أخاف أن تراك، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إنها لن ترانى و قرأ قرآنا، اعتصم به، كما قال تعالى: وَ إِذَا قَرَأْتَ

الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٣﴾ فَأَقْبَلْتُ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَى أَبِي

(١). الشعراء: ٢١٤.

(٢). «الفهر»: الحجر.

(٣). الإسراء: ٤٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٣٠

بكر و لم تر رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا ورب البيت ما هجاك، فولت و هي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها» و أخرجه البزار بمعناه، و قال: لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٣١

## سورة الإخلاص

### إشارة

و هي مكية في قول ابن مسعود و الحسن و عطاء و عكرمة و جابر، و مدنية في أحد قولي ابن عباس و قتادة و الضحاك و السدي. و أخرج أحمد، و البخاري في تاريخه، و الترمذي و ابن جرير و ابن خزيمة، و ابن أبي عاصم في السنه، و البغوي في معجمه، و ابن المنذر، و أبو الشيخ في العظمة، و الحاكم و صححه، و البيهقي في الأسماء و الصفات، عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه و سلم: يا محمد انب لنا ربك، فأنزل الله: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ - اللَّهُ الصَّمَدُ - لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ. ليس شيء يولد إلا - سيموت، و ليس شيء يموت إلا سيورث، و إن الله لا يموت و لا يورث و لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ قال: لم يكن له شبيه و لا عدل، و ليس كمثلته شيء» و رواه الترمذي من طريق أخرى عن أبي العالیه مرسلًا و لم يذكر أبيًا، ثم قال: و هذا أصح. و أخرج أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر، و الطبراني في الأوسط، و أبو نعيم في الحلية، و البيهقي عن جابر قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال: انب لنا ربك، فأنزل الله: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ إلى آخر السورة» و حسن السيوطي إسناده. و أخرج الطبراني، و أبو الشيخ في العظمة، عن ابن مسعود قال: قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه و سلم:

انب لنا ربك. فنزلت هذه السورة: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. و أخرج ابن أبي حاتم و ابن عدى، و البيهقي في الأسماء و الصفات، عن ابن عباس: أن اليهود جاءت إلى النبي صلى الله عليه و سلم، منهم كعب بن الأشرف و حبي بن أخطب، فقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك، فأنزل الله: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ - اللَّهُ الصَّمَدُ - لَمْ يَلِدْ فَيُخْرِجْ مِنْهُ الْوَلَدَ وَ لَمْ يُولَدْ فَيُخْرِجْ مِنْ شَيْءٍ. و أخرج أبو عبيدة في فضائله، و أحمد، و النسائي في اليوم و الليلة، و ابن منيع و محمد بن نصر و ابن مردويه، و الضياء في المختارة، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن». و أخرج ابن الضريس و البزار، و البيهقي في الشعب، عن أنس عن النبي صلى الله عليه و سلم: «من قرأ قل هو الله أحد مائتي مرة غفر له ذنب مائتي سنة».

قال البزار: لا نعلم رواه عن أنس إلا الحسن بن أبي جعفر و الأغل بن تميم، و هما يتقاربان في سوء الحفظ.

و أخرج أحمد و الترمذي و ابن الضريس، و البيهقي في سننه، عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: إني أحب هذه السورة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «حبك إياها أدخلك الجنة».

و أخرج ابن الضريس و أبو يعلى، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن أنس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «أما يستطيع أحدكم أن يقرأ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثلاث مرّات فى ليلة؟ فإنها تعدل ثلث القرآن» و إسناده ضعيف. و أخرج محمد بن نصر و أبو يعلى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «من قرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ خمسين مرّة غفر له ذنوب خمسين سنة» و إسناده ضعيف. و أخرج الترمذى و ابن عدى، و البيهقى فى الشعب، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من قرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مائتى مرّة، كتب الله له ألفا و خمسمائة حسنة، و محاه عنه ذنوب خمسين سنة، إلا أن يكون عليه دين» و فى إسناده حاتم بن ميمون ضعّفه البخارى

فتح القدير، ج 5، ص: 632

و غيره، و لفظ الترمذى: «من قرأ فى يوم مائتى مرّة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، محى عنه ذنوب خمسين سنة، إلا أن يكون عليه دين»، و فى إسناده حاتم بن ميمون المذكور. و أخرج الترمذى و محمد بن نصر و أبو يعلى و ابن عدى و البيهقى عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من أراد أن ينام على فراشه من الليل فنام على يمينه، ثم قرأ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مائة مرّة، فإذا كان يوم القيامة يقول له الربّ: يا عبدى ادخل على يمينك الجنة» و فى إسناده أيضا حاتم بن ميمون المذكور. قال الترمذى بعد إخراجها: غريب من حديث ثابت. و قد روى من غير هذا الوجه عنه. و أخرج ابن سعد و ابن الضريس و أبو يعلى، و البيهقى فى الدلائل، عن أنس قال: كان النبى صلى الله عليه و سلم بالشام، - و فى لفظ: بتبوك - فهبط جبريل فقال: «يا محمد إن معاوية ابن معاوية المزنى هلك، أفتحب أن تصلى عليه؟ قال: نعم، فضرب بجناحه الأرض فتضعع له كل شىء و لزق بالأرض و رفع سريره فصلى عليه، فقال النبى صلى الله عليه و سلم: من أى شىء أوتى معاوية هذا الفضل، صلى عليه صفان من الملائكة فى كل صف ستة آلاف ملك؟ قال: بقراءة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ كان يقرؤها قائما و قاعدا و جاثيا و ذاهبا و نائما»، و فى إسناده العلاء بن محمد الثقفى، و هو متهم بالوضع. و روى عنه من وجه آخر بأطول من هذا، و فى إسناده هذا المتهم. و فى الباب أحاديث فى هذا المعنى و غيره.

و قد روى من غير هذا الوجه أنها تعدل ثلث القرآن، و فيها ما هو صحيح و فيها ما هو حسن؛ فمن ذلك ما أخرجه مسلم، و الترمذى و صححه، و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «احشدوا فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج نبى الله صلى الله عليه و سلم فقرأ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: إنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا و إنها تعدل ثلث القرآن». و أخرج أحمد و البخارى و غيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «و اللذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن» يعنى قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. و أخرج أحمد و البخارى و غيرهما من حديث أبى سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة؟ فشق ذلك عليهم و قالوا: أينا يطيق ذلك؟ فقال:

الله الواحد الصمد ثلث القرآن». و أخرج مسلم و غيره من حديث أبى الدرداء نحوه. و قد روى نحو هذا بإسناد صحيح من حديث أبى هريرة و حديث ابن مسعود، و حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط، و روى نحو هذا عن غير هؤلاء بأسانيد بعضها حسن و بعضها ضعيف، و لو لم يرد فى فضل هذه السورة إلا حديث عائشة عند البخارى و مسلم و غيرهما: أن النبى صلى الله عليه و سلم بعث رجلا فى سرية، فكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه و سلم، فقال: «سلوه لأى شىء يصنع ذلك؟»

فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن و أنا أحب أن أقرأ بها، فقال: «أخبروه أن الله تعالى يحبه» هذا لفظ البخارى فى كتاب التوحيد.

و أخرج البخارى أيضا فى كتاب الصلاة من حديث أنس قال: «كان رجل من الأنصار يؤمهم فى مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة فقرأ بها لهم فى الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، و كان يصنع ذلك فى كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٣٣

بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإذا أن تقرأ بها و إما أن تدعها و تقرأ بأخرى، قال: ما أنا بتاركها إن أحببت أن أوامكم بذلك فعلت، و إن كرهتم تركتكم، و كانوا يرون أنه من أفضلهم فكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبى صلى الله عليه و سلم أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك و ما حملك على لزوم هذه السورة فى كل ركعة؟» فقال: «إنى أحبها»، قال: «حبك إياها أدخلك الجنة» و قد روى بهذا اللفظ من غير وجه عند غير البخارى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الإخلاص (١١٢): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ (٣) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

قوله: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ الضمير يجوز أن يكون عائدا إلى ما يفهم من السياق لما قدمنا من بيان سبب النزول، و أن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك، فيكون مبتدأ، و الله مبتدأ ثان، و أحد خبر المبتدأ الثانى، و الجملة خبر المبتدأ الأول، و يجوز أن يكون الله بدلا من هو، و الخبر أحد. و يجوز أن يكون الله خبرا أول، و أحد خبرا ثانيا، و يجوز أن يكون أحد خبرا لمبتدأ محذوف، أى: هو أحد. و يجوز أن يكون هو ضمير شأن لأنه موضع تعظيم، و الجملة بعده مفسرة له و خبر عنه، و الأول أولى. قال الزجاج: هو كناية عن ذكر الله، و المعنى: إن سألتهم تبين نسبه هو الله أحد، قيل: و همزة أحد بدل من الواو و أصله واحد. و قال أبو البقاء: همزة أحد أصل بنفسها غير مقلوبة، و ذكر أن أحد يفيد العموم دون واحد، و ممّا يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهري: أنه لا يوصف بالأحديّة غير الله تعالى، لا يقال: رجل أحد، و لا درهم أحد؛ كما يقال:

رجل واحد و درهم واحد، قيل: و الواحد يدخل فى الأحد و الأحد لا يدخل فيه، فإذا قلت: لا يقاومه واحد؛ جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف قولك لا يقاومه أحد. و فرّق ثعلب بين واحد و بين أحد بأن الواحد يدخل فى العدد، و أحد لا يدخل فيه. و ردّ عليه أبو حيان بأنه يقال: أحد و عشرون و نحوه فقد دخله العدد، و هذا كما ترى. و من جملة القائلين بالقلب الخليل. قرأ الجمهور: «قل هو الله أحد» بإثبات قل.

و قرأ عبد الله بن مسعود و أبى: «الله أحد» بدون قل. و قرأ الأعمش «قل هو الله الواحد»، و قرأ الجمهور بتنوين أحد، و هو الأصل. و قرأ زيد بن عليّ و أبان بن عثمان و ابن أبى إسحاق و الحسن و أبو السيمال و أبو عمرو فى روايه عنه بحذف التنوين للخفة؛ كما فى قول الشاعر:

عمرو الذى هشم الثريد لقومه و رجال مكّة مستنون عجاج

و قيل: إن ترك التنوين لملاقاته لآيم التعريف، فيكون الترك لأجل الفرار من التقاء الساكنين. و يجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأول منهما بالكسر الله الصمّد الاسم الشريف مبتدأ، و الصمد خبره، و الذى هو الذى يصمد إليه فى الحاجات، أى: يقصد؛ لكونه قادرا على قضائها، فهو فعل بمعنى مفعول كالمقبوض بمعنى المقبوض؛ لأنه مصمود

إليه، أى: مقصود إليه، قال

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٣٤

الزجاج: الصمد: السند الذى انتهى إليه السؤدد، فلا سيد فوقه. قال الشاعر:

ألا بكر الناعى بخير بنى أسدبعمرو بن مسعود و بالسيد الصمد

وقيل: معنى الصمد: الدائم الباقي الذى لم يزل ولا يزول. وقيل: معنى الصمد ما ذكره بعده من أنه الذى لم يلد ولم يولد. وقيل: هو المستغنى عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد. وقيل: هو المقصود فى الرغائب، والمستعان به فى المصائب، وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأول. وقيل: هو الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقيل: هو الكامل الذى لا عيب فيه. وقال الحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبيرة وسعيد بن المسيب ومجاهد وعبد الله بن بريده وعطاء وعطية العوفى والسدى: الصمد: هو المصمت الذى لا جوف له، ومنه قول الشاعر:

شهاب حروب لا تزال جواده عوابس يعلكن الشكيم المصمدا «١»

وهذا لا ينافى القول الأول لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد، ثم استعمل فى السيد المصمود إليه فى الحوائج، ولهذا أطبق على القول الأول أهل اللغة وجمهور أهل التفسير، ومنه قول الشاعر:

علوته بحسام ثم قلت له خذها حذيف فانت السيد الصمد

وقال الزبير بن بدر:

سيروا جميعا بنصف الليل واعتمدوا ولا رهينة إلا سيد صمد

وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية، وحذف العاطف من هذه الجملة لأنها كالتيجة للجملة الأولى، وقيل: إن الصمد صفة للاسم الشريف والخبر هو ما بعده، والأول أولى؛ لأن السياق يقتضى استقلال كل جملة لم يلد ولم يولد أى: لم يصدر عنه ولد، ولم يصدر هو عن شىء؛ لأنه لا يجانس شىء، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقا ولا حقا. قال قتادة: إن مشركى العرب قالوا: الملائكة بنات الله. وقالت اليهود: عزيز ابن الله. وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فأكذبهم الله فقال: لم يلد ولم يولد قال الرازى: قدّم ذكر نفي الولد، مع أن الولد مقدّم للاهتمام، لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين: إن الملائكة بنات الله، واليهود: عزيز ابن الله، والنصارى: المسيح ابن الله، ولم يدع أحد أن له والدا، فلهذا السبب بدأ بالأهم فقال: لم يلد ثم أشار إلى الحجّة فقال: ولم يولد كأنه قيل: الدليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان ولدا لغيره، وإنما عبر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد ولم يولد فى الماضى ولم يذكر ما يفيد انتفاء كونه كذلك فى المستقبل لأنه ورد جوابا عن قولهم:

ولد الله كما حكى الله عنهم بقوله: أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ - وَلَدَ اللَّهُ «٢» فلما كان المقصود من

(١). «علكت الدابة اللجام»: لا كتبه و حرّكته. «الشكيم»: الحديد المعترضة فى فم الدابة.

(٢). الصافات: ١٥١-١٥٢.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٣٥

هذه الآية تكذيب قولهم، وهم إنما قالوا ذلك بلفظ يفيد النفي فيما مضى، وردت الآية لدفع قولهم هذا ولم يكن له كفوفاً أحد هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها؛ لأنه سبحانه إذا كان متصفا بالصفات المتقدمة كان متصفا بكونه لم يكافئه أحد، ولا يماثله، ولا يشاركه فى شىء، وأخر اسم كان لرعاية الفواصل، وقوله:

«له» متعلق بقوله: «كفوا» قدم عليه لرعايته الاهتمام؛ لأن المقصود نفى المكافأة عن ذاته. وقيل: إنه في محل نصب على الحال، و الأول أولى. وقد ردّ المبرد على سيبويه بهذه الآية لأن سيبويه قال: إنه إذا تقدّم الظرف كان هو الخبر، و هاهنا لم يجعل خبراً مع تقدّمه، و قد ردّ على المبرد بوجهين: أحدهما: أن سيبويه لم يجعل ذلك حتماً بل جَوْزه. و الثاني: أنا لا نسلم كون الظرف هنا ليس بخبر، بل يجوز أن يكون خبراً و يكون كفوا منتصباً على الحال. و حكى في الكشف عن سيبويه على أن الكلام العربيّ الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقرّ، و اقتصر في هذه الحكاية على نقل أول كلام سيبويه و لم ينظر إلى آخره، فإنه قال في آخر كلامه: و التقديم و التأخير و الإلغاء و الاستقرار عربيّ جيد كثير، انتهى. قرأ الجمهور:

«كفوا» بضم الكاف و الفاء و تسهيل الهمزة، و قرأ الأعرج و سيبويه و نافع في رواية عنه بإسكان الفاء، و روى ذلك عن حمزة مع إبداله الهمزة واوا وصلوا و وقفا، و قرأ نافع في رواية عنه «كفاً» بكسر الكاف و فتح الفاء من غير مدّ، و قرأ سليمان بن عليّ بن عبد الله بن العباس كذلك مع المدّ، و أنشد قول النابغة:

لا تقذفني بركن لا كفاء له و الكفاء في لغة العرب النظير، يقول: هذا كفؤك، أى: نظيرك، و الاسم الكفاء بالفتح.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و المحاملي في أماليه، و الطبراني، و أبو الشيخ في العظمة، عن بريده، لا أعلمه إلا- رفعه. قال: الصَّمْدُ: الذي لا جوف له، و لا يصحّ رفع هذا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: الصَّمْدُ: الذي لا جوف له، و في لفظ: ليس له أحشاء.

و أخرج ابن أبي عاصم و ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقي في الأسماء و الصفات، عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن المنذر عنه قال: الصَّمْدُ: الذي لا يطعم، و هو المصمت. و قال: أو ما سمعت النائحة و هي تقول:

لقد بكرّ الناعي بخير بنى أسدبعمرو بن مسعود و بالسيد الصَّمْد

و كان لا يطعم عند القتال، و قد روى عنه أن الذي يصمد إليه في الحوائج، و أنه أنشد البيت، و استدلّ به على هذا المعنى، و هو أظهر في المدح و أدخل في الشرف، و ليس لوصفه بأنه لا يطعم عند القتال كثير معنى.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و أبو الشيخ في العظمة، و البيهقي في الأسماء و الصفات، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: الصَّمْدُ: السيد الذي قد كمل في سؤدده، و الشريف الذي قد كمل في شرفه، و العظيم الذي قد كمل في عظّمته، و الحليم الذي قد كمل في حلمه، و الغنيّ الذي قد كمل في غناه، و الجبار الذي قد كمل في جبروته، و العالم الذي قد كمل في علمه، و الحكيم الذي قد كمل في حكمته، و هو الذي قد كمل في أنواع الشرف و السؤدد، و هو الله سبحانه

هذه صفة لا تنبغى إلا

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٣٦

له ليس له كفو و ليس كمثلته شيء. و أخرج ابن أبي حاتم و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقي عن ابن مسعود قال:

الصَّمْدُ: هو السيد الذي قد انتهى سؤدده فلا شيء أسود منه. و أخرج ابن أبي حاتم، و أبو الشيخ في العظمة، عن ابن عباس قال: الصَّمْدُ: الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كرب أو بلاء. و أخرج ابن جرير من طرق عنه في قوله: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ قال: ليس له كفو و لا مثل.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٣٧

سورة الفلق

إشارة

وهي مكية في قول الحسن وعكرمة و عطاء و جابر، و مدنية في أحد قولي ابن عباس و قتادة، و أخرج أحمد و البزار و الطبراني و ابن مردويه من طرق - قال السيوطي: صحيح - عن ابن مسعود أنه كان يحكّ المعوذتين في المصحف يقول: لا تخلطوا القرآن بما ليس منه، إنهما ليستا من كتاب الله، إنما أمر النبي صلى الله عليه و سلم أن يتعوذ بهما، و كان ابن مسعود لا يقرأ بهما. قال البزار: لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة. و قد صحّ عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قرأ بهما في الصلاة و أثبتا في المصحف. و أخرج أحمد و البخاري و النسائي و غيره عن زر بن حبيش قال: «أتيت المدينة فلقيت أبي بن كعب، فقلت له: أبا المنذر إنني رأيت ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فقال: أما و الذي بعث محمدا بالحق لقد سألت رسول الله صلى الله عليه و سلم عنهما و ما سألتني عنهما أحد منذ سألته غيرك، قال: «قيل لي: قل، فقلت: فقولوا» فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم». و أخرج الطبراني عن ابن مسعود «أن النبي صلى الله عليه و سلم سئل عن هاتين السورتين، فقال: «قيل لي، فقلت فقولوا كما قلت».

و أخرج مسلم و الترمذي و النسائي و غيره عن عقبه بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أنزلت عليّ الليلة آيات لم أر مثلهن قط قل أعوذ برب الفلق و قل أعوذ برب الناس . و أخرج ابن الضريس و ابن الأنباري، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب عن عقبه بن عامر قال: قلت يا رسول الله:

أقرئني سورة يوسف و سورة هود، قال: «يا عقبه اقرأ بقل أعوذ برب الفلق، فإنك لن تقرأ سورة أحبّ إلى الله و أبلغ منها، فإذا استطعت أن لا تفوتك فافعل». و أخرج ابن سعد و النسائي و البغوي و البيهقي عن أبي حابس الجهني أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «يا أبا حابس أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون؟ قال بلى يا رسول الله، قال: قل أعوذ برب الفلق و قل أعوذ برب الناس هما المعوذتان».

و أخرج الترمذي و حسيّنه، و ابن مردويه و البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: «كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يتعوذ من عين الجانّ و من عين الإنس، فلما نزلت سورة المعوذتين أخذ بهما و ترك ما سوى ذلك». و أخرج أبو داود و النسائي، و الحاكم و صححه، عن ابن مسعود: «أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يكره عشر خصال، و منها أنه كان يكره الرقي إلا بالمعوذتين». و أخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من أحب السور إلى الله قل أعوذ برب الفلق و قل أعوذ برب الناس . و أخرج النسائي و ابن الضريس، و ابن حبان في صحيحه، و ابن الأنباري و ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: «أخذ بمنكبي رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم قال: اقرأ، قلت: ما أقرأ بأبي أنت و أمي؟ قال: قل أعوذ برب الفلق، ثم قال اقرأ، قلت: بأبي أنت و أمي ما أقرأ؟ قال: قل أعوذ برب الناس، و لم تقرأ بمثلهما». و أخرج مالك في الموطأ، عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة: «أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين و ينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه و أمسح بيده عليه رجاء بركتهما». و أخرجه البخاري و مسلم في

فتح القدير، ج 5، ص: 638

صحيحهما، من طريق مالك بالإسناد المذكور. و أخرج عبد بن حميد في مسنده، عن زيد بن أرقم قال:

«سحر النبي رجل من اليهود، فاشتكى، فأثاه جبريل، فنزل عليه بالمعوذتين، و قال: إن رجلا من اليهود سحرك، و السحر في بشر فلان، فأرسل عليا، فجاء به، فأمره أن يحلّ العقد، و يقرأ آية و يحلّ، حتى قام النبي صلى الله عليه و سلم كأنما نشط من عقال». و أخرجه ابن مردويه و البيهقي من حديث عائشة مطولا، و كذلك أخرجه من حديث ابن عباس.

و قد ورد في فضل المعوذتين، و في قراءة رسول الله صلى الله عليه و سلم لهما في الصلاة و غيرهما أحاديث، و فيما ذكرناه كفاية. و أخرج الطبراني في الصغير، عن علي بن أبي طالب قال: «لدغت النبي صلى الله عليه و سلم عقرب و هو يصلي، فلما فرغ



قال: لعن الله العقرب لا تدع مصليا ولا غيره، ثم دعا بماء و ملح و جعل يمسح عليها و يقرأ:  
قل يا أيها الكافرون، و قل هو الله أحد، و قل أعوذ برب الفلق، و قل أعوذ برب الناس».   
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الفلق (١١٣): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)  
وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)

الْفَلَقِ الصَّبْحِ، يقال: هو أبين من فلق الصبح، و سمي فلقا لأنه يفلق عنه الليل، و هو فعل بمعنى مفعول، قال الزجاج: لأن الليل ينفلق عنه الصبح، و يكون بمعنى مفعول، يقال: هو أبين من فلق الصبح، و من فرق الصبح، و هذا قول جمهور المفسرين، و منه قول ذى الرمة:

حَتَّى إِذَا مَا انجلى عن وجهه فلق هاديه «١» فى أخريات الليل منتصب  
و قول الآخر:

يا ليلة لم أمها بت مرتفقا «٢» أرى النجوم إلى أن نور الفلق

وقيل: هو سجن فى جهنم، و قيل: هو اسم من أسماء جهنم، و قيل: شجرة فى النار، و قيل: هو الجبال و الصخور، لأنها تفلق بالمياه، أى: تشقق، و قيل: هو التفليق بين الجبال؛ لأنها تشقق من خوف الله. قال النحاس: يقال لكل ما اطمأن من الأرض فلق، و منه قول زهير:

ما زلت أرمقهم حتى إذا هبطت أيدي الركاب بهم من راکس فلقا  
و الرکس: بطن الوادى، و مثله قول النابغة:

(١). «هاديه»: أى أوله.

(٢). «مرتفقا»: أى متكنا على مرفق يده.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٣٩ أتانى و دونى راکس فالصّواجم «١» و قيل: هو الرحم تنفلق بالحيوان، و قيل: هو كل ما انفلق عن جميع ما خلق الله من الحيوان و الصبح و الحبّ و النوى، و كلّ شىء من نبات و غيره، قاله الحسن و الضحاک. قال القرطبي: هذا القول يشهد له الانشقاق، فإن الفلق: الشق، فلقت الشىء فلقا: شققته، و التفليق مثله، يقال: فلقته فانفلق و تفلق، فكل ما انفلق عن شىء من حيوان و صبح و حبّ و نوى و ماء فهو فلق. قال الله سبحانه: فالتق الأصباح «٢» و قال: فالتق الحبّ و النوى «٣» انتهى. و القول الأول أولى لأن المعنى و إن كان أعتم منه و أوسع مما تضمّنه لكنه المتبادر عند الإطلاق. و قد قيل فى وجه تخصيص الفلق: الإيماء إلى أن القادر على إزالته هذه الظلمات الشديدة عن كلّ هذا العالم يقدر أيضا أن يدفع عن العائد كل ما يخافه و يخشاه، و قيل: طلوع الصبح كالمثال لمجىء الفرح؛ فكما أن الإنسان فى الليل يكون منتظرا لطلوع الصباح، كذلك الخائف يكون مترقبا لطلوع صباح النجاح، و قيل: غير هذا مما هو مجرّد بيان مناسبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسير من شَرِّ مَا خَلَقَ متعلق بأعوذ، أى: من شرّ كلّ ما خلقه سبحانه من جميع مخلوقاته فيعمّ جميع الشرور، و قيل: هو إبليس و ذرّيته، و قيل: جهنم، و لا وجه لهذا التخصيص، كما أنه لا وجه لتخصيص من خصّص هذا العموم بالمضارّ البدنية. و قد حرّف بعض المتعصّبين هذه

الآية مدافعة عن مذهبه و تقويما لباطله، فقرأوا بتنوين شرّ على أن «ما» نافية، و المعنى: من شرّ لم يخلقه، و منهم عمرو بن عبيد و عمرو بن عائذ و من شرّ غاسقٍ إذا وقب الغاسق: الليل، و الغسق: الظلمة، يقال: غسق الليل يغسق؛ إذا أظلم. قال الفراء: يقال: غسق الليل و أغسق؛ إذا أظلم، و منه قول قيس بن الرقيات:

إنّ هذا الليل قد غسقاو اشتكيت الهمّ و الأرقا

و قال الزجاج: قيل لليل: غاسق؛ لأنه أبرد من النهار، و الغاسق، البارد، و الغسق: البرد، و لأن في الليل تخرج السباع من آجامها، و الهوامّ من أماكنها، و ينبعث أهل الشرّ على العيث و الفساد، كذا قال، و هو قول بارد، فإن أهل اللغة على خلافه، و كذا جمهور المفسرين. و وقبه: دخول ظلامه، و منه قول الشاعر:

وقب العذاب عليهم فكأنّهم لحقتهم نار السموم فأحصدوا

أى: دخل العذاب عليهم، و يقال: وقبت الشمس؛ إذا غابت، و قيل: الغاسق: الثريا، و ذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام و الطواعين، و إذا طلعت ارتفع ذلك، و به قال ابن زيد. و هذا محتاج إلى نقل عن العرب أنهم يصفون الثريا بالغسوق. و قال الزهرى: هو الشمس إذا غربت، و كأنه لاحظ معنى الوقوب و لم يلاحظ معنى الغسوق، و قيل: هو القمر إذا خسف، و قيل: إذا غاب. و بهذا قال قتادة و غيره، و استدلوا بحديث أخرجه أحمد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صحّحه، و ابن

(١). و صدر البيت: وعيد أبى قابوس فى غير كنهه.

(٢). الأنعام: ٩٦.

(٣). الأنعام: ٩٥.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٤٠

مردويه عن عائشة قالت: «نظر رسول الله صلى الله عليه و سلم يوما إلى القمر لما طلع فقال: يا عائشة استعيذى بالله من شرّ هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب». قال الترمذى: بعد إخراجه حسن صحيح، و هذا لا ينافى قول الجمهور، لأن القمر آية الليل و لا يوجد له سلطان إلا فيه، و هكذا يقال فى جواب من قال: إنه الثريا.

قال ابن الأعرابى: فى تأويل هذا الحديث: و ذلك أن أهل الريب يتحنون و جبه القمر. و قيل: الغاسق: الحية إذا لدغت. و قيل الغاسق: كلّ هاجم يضرب كائنا من كان، من قولهم غسقت القرحة؛ إذا جرى صديدها.

و قيل: الغاسق: هو السائل، و قد عرّفناك أن الراجح فى تفسير هذه الآية هو ما قاله أهل القول الأوّل، و وجه تخصيصه أن الشرّ فيه أكثر، و التحرز من الشرور فيه أصعب، و منه قولهم: الليل أخفى للويل و من شرّ النَّفَّاتِ فى العُقَدِ النَّفَّاتِ: هنّ السواحر، أى: و من شر النفوس النَّفَّاتِ، أو النساء النَّفَّاتِ، و النفث: النفخ كما يفعل ذلك من يرقى و يسحر، قيل: مع ريق، و قيل: بدون ريق، و العقد: جمع عقدة، و ذلك أنهنّ كن ينفثن فى عقد الخيوط حين يسحرن بها، و منه قول عنترة:

فإن يبرأ فلم أنفث عليه و إن يفقد فحقّ له الفقود

و قول متمم بن نويرة:

نفث فى الخيط شبيه الرقى من خشية الجنّة و الحاسد

قال أبو عبيدة: النَّفَّاتِ هنّ بنات لبيد الأعصم اليهودى، سحرن النّبى صلى الله عليه و سلم. قرأ الجمهور:

النَّفَّاتِ جمع: نفاثة؛ على المبالغة. و قرأ يعقوب و عبد الرحمن بن سابط و عيسى بن عمر النَّفَّاتِ جمع: نافثة. و قرأ الحسن

النَّفَّاثَاتِ بضم النون. وقرأ أبو الربيع النفثات بدون ألف. وَ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ الحسد: تمنى زوال النعمة التي أنعم الله بها على إيقاع الشرّ بالمحسود.

قال عمر بن عبد العزيز: لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد. وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال:  
قل للحسود إذا تنفّس طعنةً يا ظالماً و كأنه مظلوم

ذكر الله سبحانه في هذه السورة إرشاد رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الاستعاذة من شرّ كل مخلوقاته على العموم، ثم ذكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجه تحت العموم لزيادة شرّه و مزيد ضرّه، و هو الغاسق و النفثات و الحاسد، فكان هؤلاء لما فيهم من مزيد الشرّ حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر.

و قد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن عبسة قال: «صلى بنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقراً: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ فقال: يا ابن عبسة أتدرى ما الفلق؟ قلت: الله و رسوله أعلم، قال: بئرا في جهنم». و أخرجه ابن أبي حاتم من قول عمرو بن عبسة غير مرفوع. و أخرج ابن مردويه عن عقبه بن عامر قال: قال لى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقرأ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ هل تدرى ما الفلق؟ باب في النار إذا فتح سمرت جهنم».

و أخرج ابن مردويه و الدليمى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قول الله فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٤١

عزّ و جلّ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ فقال: هو سجن في جهنم، يحبس فيه الجبارون و المتكبرون، و إن جهنم لتتعوذ بالله منه». و أخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الفلق جبّ في جهنم».

و هذه الأحاديث لو كانت صحيحة ثابتة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكان المصير إليها واجبا، و القول بها متعينا.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الفلق سجن في جهنم. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: الفلق: الصبح. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه قال: الفلق: الخلق. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى قوله: وَ مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ قال: النجم: هو الغاسق، و هو الثريا. و أخرجه ابن جرير و ابن أبي حاتم، و من وجه آخر عنه غير مرفوع. و قد قدمنا تأويل هذا، و تأويل ما ورد أن الغاسق القمر. و أخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا ارتفعت النجوم رفعت كلّ عاهة عن كلّ بلد». و هذا لو صحّ لم يكن فيه دليل على أن الغاسق هو النجم أو النجوم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ قال: الساحرات. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: هو ما خالط السحر من الرقى. و أخرج النسائي و ابن مردويه عن أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، و من سحر فقد أشرك، و من تعلق شيئا و كل إليه». و أخرج ابن سعد و ابن ماجه و الحاكم و ابن مردويه عن أبي هريرة قال: «جاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعودنى فقال: ألا أرقيك برقية رقانى بها جبريل؟ فقلت:

بلى بأبى أنت و أمى، قال: بسم الله أرقيك و الله يشفيك من كل داء فيك» مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ - وَ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ فرقى بها ثلاث مرات». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ قال: نفس ابن آدم و عينه.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٤٢

و الخلاف في كونها مكية أو مدنية كالخلاف الذي تقدم في سورة الفلق. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزل بمكة قل أعوذ برب الناس و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزل بالمدينة قل أعوذ برب الناس و قد قدمنا في سورة الفلق ما ورد في سبب نزول هذه السورة، و ما ورد في فضلها، فارجع إليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### [سورة الناس (١١٤): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤)  
الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)

قرأ الجمهور: قل أعوذ بالهمزة. و قرئ بحذفها و نقل حركتها إلى اللام، وقرأ الجمهور بترك الإمالة في الناس، وقرأ الكسائي بالإمالة. و معنى رب الناس: مالك أمرهم و مصلح أحوالهم، و إنما قال رب الناس مع أنه رب جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم، و لكون الاستعاذة وقعت من شر ما يوسوس في صدورهم، و قوله: ملك الناس عطف بيان جيء به لبيان أن ربيته سبحانه ليست كربيته سائر الملائك لما تحت أيديهم ممن ممالئكم، بل بطريق الملك الكامل، و السلطان القاهر إله الناس هو أيضا عطف بيان كالذي قبله؛ لبيان أن ربوبيته و ملكه قد انضم إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية، المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي بالاتحاد و الإعدام، و أيضا الرب قد يكون ملكا، و قد لا يكون ملكا، كما يقال رب الدار و رب المتاع، و منه قوله: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ «١» فبين أنه ملك الناس. ثم الملك قد يكون إلهها، و قد لا يكون، فبين أنه إله؛ لأن اسم الإله خاص به لا يشاركه فيه أحد، و أيضا بدأ باسم الرب و هو اسم لمن قام بتدبيره و إصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلا كاملا، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك فذكر أنه ملك الناس. ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه، و أنه عبد مخلوق و أن خالقه إله معبود بين سبحانه أنه إله الناس، و كرر لفظ الناس في الثلاثة المواضع لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية الإظهار، و لأن التكرير يقتضى مزيد شرف الناس من شر الوسواس قال الفراء: هو بفتح الواو بمعنى الاسم، أى: الوسوس، و بكسرهما المصدر، أى: الوسوسة، كالزلال بمعنى الزلزلة، و قيل: هو بالفتح اسم بمعنى

(١). التوبة: ٣١.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٤٣

الوسوسة، و الوسوسة: هى حديث النفس: يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة، أى: حدثته حديثا، و أصلها، الصوت الخفى، و منه قيل: لأصوات الحلى وسواس، و منه قول الأعشى:

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت «١» قال الزجاج: الوسواس هو الشيطان، أى: ذى الوسواس، و يقال: إن الوسواس ابن إبليس، و قد سبق تحقيق معنى الوسوسة فى تفسير قوله: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ «٢» و معنى الخناس كثير الخنس، و هو التأخر، يقال: خنس يخنس؛ إذا تأخر، و منه قول أبى العلاء الحضرمي يمدح رسول الله صلى الله عليه و سلم:

فإن دحسوا بالشّر فاعف تکرّما و إن خنسوا عند الحديث فلا تسل

قال مجاهد: إذا ذكر الله خنس و انقبض، و إذا لم يذكر انبسط على القلب. و وصف بالخناس لأنه كثير الاختفاء، و منه قوله تعالى: فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ «٣» يعنى النجوم لاختفائها بعد ظهورها كما تقدّم، و قيل: الخناس اسم لابن إبليس كما تقدّم فى الوسواس الذى يُوسوسُ فى صُدُورِ النَّاسِ الموصول يجوز أن يكون فى محل جرّ نعتا للوسواس، و يجوز أن يكون منصوبا على الدم، و يجوز أن يكون مرفوعا على تقدير مبتدأ. و قد تقدّم معنى الوسوسة. قال قتادة: إن الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب فى صدر الإنسان، فإذا غفل ابن آدم عن ذكر الله وسوس له، و إذا ذكر العبد ربّه خنس. قال مقاتل: إن الشيطان فى صورة خنزير يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى عروقه، سلّطه الله على ذلك، و وسوسته: هى الدعاء إلى طاعته بكلام خفى يصل إلى القلب من غير سماع صوت.

ثم بيّن سبحانه الذى يوسوس بأنه ضربان: جنى و إنسى، فقال: مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أما شيطان الجنّ فيوسوس فى صدور الناس، و أما شيطان الإنس فوسوسته فى صدور الناس: أنه يرى نفسه كالناصح المشفق فيوقع فى الصدر من كلامه الذى أخرجه مخرج النصيحة ما يوقع الشيطان فيه بوسوسته كما قال سبحانه:

شَاطِطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ «٤» و يجوز أن يكون متعلقا ب «يوسوس» أى يوسوس فى صدورهم من جهة الجنّة و من جهة الناس، و يجوز أن يكون بيانا للناس. قال الرازى و قال قوم: من الجنّة و الناس قسمان مندرجان تحت قوله: فى صُدُورِ النَّاسِ لأن القدر المشترك بين الجنّ و الإنس يسمّى إنسانا، و الإنسان أيضا يسمّى إنسانا، فيكون لفظ الإنسان واقعا على الجنس و النوع بالاشتراك. و الدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه لفظ الإنس و الجنّ ما روى أنه جاء نفر من الجنّ، فقيل لهم: من أنتم؟ قالوا: ناس من الجنّ. و أيضا قد سمّاهم الله رجالا فى قوله: وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالًا مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ «٥» و قيل: يجوز أن يكون المراد أعوذ برّبّ الناس من الوسواس الخناس؛ الذى يوسوس فى صدور الناس، و من الجنّة و الناس،

(١). و عجز البيت: كما استعان بريح عشرق زجل. و العشرق: نبت له ورق فإذا يبس طار. و نبت زجل: صوت فيه الريح.

(٢). الأعراف: ٢٠.

(٣). التكوير: ١٥.

(٤). الأنعام: ١١٢.

(٥). الجن: ٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٤٤

كانه استعاذ ربه من ذلك الشيطان الواحد، ثم استعاذ بربه من جميع الجنّة و الناس، و قيل: المراد بالناس الناسى و سقطت الياء كسقوطها فى قوله: يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ «١» ثم بيّن بالجنّة و الناس؛ لأن كل فرد من أفراد الفريقين فى الغالب مبتلى بالنسيان، و أحسن من هذا أن يكون قوله: وَ النَّاسِ معطوفا على الوسواس، أى: من شرّ الوسواس و من شرّ الناس؛ كأنه أمر أن يستعيذ من شرّ الجنّ و الإنس. قال الحسن: أما شيطان الجنّ فيوسوس فى صدور الناس، و أما شيطان الإنس فيأتى علانية. و قال قتادة: إن من الجنّ شياطين، و إن من الإنس شياطين، فنعوذ بالله من شياطين الجنّ و الإنس، و قيل: إن إبليس يوسوس فى صدور الجنّ كما يوسوس فى صدور الإنس، و واحد الجنّة: جنّى، كما أن واحد الإنس إنسى. و القول الأوّل هو أرجح هذه الأقوال، و إن كان وسوسة الإنس فى صدور الناس لا تكون إلا بالمعنى العذى قدّمنا، و يكون هذا البيان تذكير الثقلين للإرشاد إلى أن من استعاذ بالله منهما ارتفعت عنه محن الدنيا و الآخرة.

و قد أخرج ابن أبى داود عن ابن عباس فى قوله: الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ قال: مثل الشيطان كمثل ابن عرس واضح فمه على فم القلب

فيوسوس إليه، فإن ذكر الله خنس، وإن سكت عاد إليه، فهو الوسواس الخناس.

وأخرج ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان، وأبو يعلى وابن شاهين، والبيهقي في الشعب، عن أنس عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعَ خَطْمَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِنْ ذَكَرَ اللهُ خَنَسَ، وَإِنْ نَسِيَهِ التَّقَمَ قَلْبُهُ، فَذَلِكَ الْوَسْوَسُ الْخَنَاسُ». وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَابْنُ جُرَيْرٍ وَابْنُ مَرْدُويه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: الْوَسْوَسُ الْخَنَاسُ قَالَ: الشَّيْطَانُ جَاثٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسُوسَ، وَإِذَا ذَكَرَ اللهُ خَنَسَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَابْنُ جُرَيْرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَرْدُويه، وَالضَّيَاءُ فِي الْمُخْتَارَةِ، وَالْبَيْهَقِيُّ عَنْهُ قَالَ: مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى قَلْبِهِ الْوَسْوَسُ، فَإِذَا ذَكَرَ اللهُ خَنَسَ، وَإِذَا غَفَلَ وَسُوسَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ:

الْوَسْوَسُ الْخَنَاسُ وَقَدْ وَرَدَ فِي مَعْنَى هَذَا غَيْرُهُ، وَظَاهِرُهُ أَنَّ مَطْلُقَ ذِكْرِ اللهِ يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِ الاسْتِعَاذَةِ، وَذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ فَوَائِدٌ جَلِيلَةٌ؛ حَاصِلُهَا: الْفَوْزُ بِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وإلى هنا انتهى هذا التفسير المبارك بقلم مؤلفه محمد بن علي بن محمد الشوكاني، غفر الله له ذنوبه، وكان الفراغ منه في ضحوة يوم السبت؛ لعله الثامن والعشرون من شهر رجب، أحد شهور سنة تسع وعشرين بعد مائتين وألف سنة من الهجرة النبوية.

اللهم كما مننت عليّ يا كمال هذا التفسير، وأعتنتني على تحصيله، وتفصّلت عليّ بالفراغ منه، فامنن عليّ بقبوله، واجعله لي ذخيرة عندك، وأجزل لي المثوبة بما لاقيته من التعب والنصب في تحريره وتقريره، وانفع به من شئت من عبادك ليدوم لي الانتفاع به بعد موتي، فإن هذا هو المقصد الجليل من التصنيف، واجعله

(١). القمر: ٦.

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٤٥

خالصا لك، وتجاوز عني إذا خطر لي من خواطر السوء ما فيه شائبة تخالف الإخلاص، واغفر لي ما لا يطابق مرادك، فإنني لم أقصد في جميع أبحاثي فيه إلا-إصابة الحق وموافقته ما ترضاه، فإن أخطأت فأنت غافر الخطيئات، ومسبل ذيل الستر على الهفوات، يا باري البريات، وأحمدك لا أحصى حمدا لك، وأشكرك لا أحصى شكرك، أنت كما أثبتت علي نفسك، وأصلي وأسلم علي رسولك.

تمّ سماعا علي مؤلفه، حفظ الله عزّته يوم الاثنين؛ صبح اليوم الخامس من شهر ربيع الأول سنة (١٢٤١) هـ.

كتبه يحيى بن علي الشوكاني غفر الله لهما

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٤٧

## فهرس الموضوعات

الآيات الصفحة الآيات الصفحة سورة الجاثية (٤٥) تفسير الآيات (١-١٥) ٥ تفسير الآيات (١٦-٢٦) ٩ تفسير الآيات (٢٧-٣٧) ١٢ سورة الأحقاف (٤٦) تفسير الآيات (١-٩) ١٦ تفسير الآيات (١٠-٣٦) ١٩ تفسير الآيات (١٧-٢٠) ٢٤ تفسير الآيات (٢١-٢٨) ٢٧ تفسير الآيات (٢٩-٣٥) ٣٠ سورة محمد (٤٧) تفسير الآيات (١-١٢) ٣٥ تفسير الآيات (١٣-١٩) ٤٠ تفسير الآيات (٢٠-٣١) ٤٥ تفسير الآيات (٣٢-٣٨) ٤٩ سورة الفتح (٤٨) تفسير الآيات (١-٧) ٥٢ تفسير الآيات (٨-١٥) ٥٦ تفسير الآيات (١٦-٢٤) ٥٩ تفسير الآيات (٢٥-٢٩) ٦٣ سورة الحجرات (٤٩) تفسير الآيات (١-٨) ٦٩ تفسير الآيات (٩-١٢) ٧٣ تفسير

الآيات (١٣-١٨) ٧٨ سورة ق (٥٠) تفسير الآيات (١-١٥) ٨٣ تفسير الآيات (١٦-٣٥) ٨٨ تفسير الآيات (٣٦-٤٥) ٩٤ سورة  
الذاريات (٥١) تفسير الآيات (١-٢٣) ٩٨ تفسير الآيات (٢٤-٣٧) ١٠٥ تفسير الآيات (٣٨-٦٠) ١٠٧ سورة الطور (٥٢) تفسير  
الآيات (١-٢٠) ١١٣ تفسير الآيات (٢١-٣٤) ١١٧ تفسير الآيات (٣٥-٤٩) ١٢١ سورة النجم (٥٣) تفسير الآيات (١-٢٦) ١٢٥  
تفسير الآيات (٢٧-٤٢) ١٣٤ تفسير الآيات (٤٣-٦٢) ١٣٩ سورة القمر (٥٤) تفسير الآيات (١-١٧) ١٤٤ تفسير الآيات (١٨-  
٤٠) ١٥٠ تفسير الآيات (٤١-٥٥) ١٥٤ سورة الرحمن (٥٥) تفسير الآيات (١-٢٥) ١٥٧ تفسير الآيات (٢٦-٤٥) ١٦٣ تفسير  
الآيات (٤٦-٧٨) ١٦٧

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٤٨

سورة الواقعة (٥٦) تفسير الآيات (١-٢٦) ١٧٦ تفسير الآيات (٢٧-٥٦) ١٨٢ تفسير الآيات (٥٧-٧٤) ١٨٨ تفسير الآيات (٧٥-  
٩٦) ١٩١ سورة الحديد (٥٧) تفسير الآيات (١-٦) ١٩٨ تفسير الآيات (٧-١١) ١٩٩ تفسير الآيات (١٢-١٥) ٢٠٢ تفسير الآيات  
(١٦-١٩) ٢٠٦ تفسير الآيات (٢٠-٢٤) ٢٠٩ تفسير الآيات (٢٥-٢٩) ٢١٢ سورة المجادلة (٥٨) تفسير الآيات (١-٤) ٢١٧  
تفسير الآيات (٥-١٠) ٢٢٢ تفسير الآيات (١١-١٣) ٢٢٥ تفسير الآيات (١٤-٢٢) ٢٢٩ سورة الحشر (٥٩) تفسير الآيات (١-٧)  
٢٣٢ تفسير الآيات (٨-١٠) ٢٣٨ تفسير الآيات (١١-٢٠) ٢٤٢ تفسير الآيات (٢١-٢٤) ٢٤٦ سورة الممتحنة (٦٠) تفسير الآيات  
(١-٣) ٢٥٠ تفسير الآيات (٤-٩) ٢٥٢ تفسير الآيات (١٠-١٣) ٢٥٥ سورة الصف (٦١) تفسير الآيات (١-٩) ٢٦١ تفسير الآيات  
(١٠-١٤) ٢٦٤ سورة الجمعة (٦٢) تفسير الآيات (١-٨) ٢٦٧ تفسير الآيات (٩-١١) ٢٧٠ سورة المنافقون (٦٣) تفسير الآيات  
(١-٨) ٢٧٤ تفسير الآيات (٩-١١) ٢٧٨ سورة الطلاق (٦٥) تفسير الآيات (١-٥) ٢٨٧ تفسير الآيتين (٦-٧) ٢٩٢ تفسير الآيات  
(٨-١٢) ٢٩٤ سورة التحريم (٦٦) تفسير الآيات (١-٥) ٢٩٧ تفسير الآيات (٦-٨) ٣٠١ تفسير الآيات (٩-١٢) ٣٠٤ سورة  
الملك (٦٧) تفسير الآيات (١-١١) ٣٠٧ تفسير الآيات (١٢-٢١) ٣١٢ تفسير الآيات (٢٢-٣٠) ٣١٤ سورة ن (٦٨) تفسير الآيات  
(١-١٦) ٣١٨ تفسير الآيات (١٧-٣٣) ٣٢٣ تفسير الآيات (٣٤-٥٢) ٣٢٦ سورة التغابن (٦٤) تفسير الآيات (١-٦) ٢٨٠ تفسير  
الآيات (٧-١٣) ٢٨٢ تفسير الآيات (١٤-١٨) ٢٨٤ سورة الحاقة (٦٩) تفسير الآيات (١-١٨) ٣٣٣ تفسير الآيات (١٩-٥٢) ٣٣٨  
سورة سأل سائل (٧٠) تفسير الآيات (١-١٨) ٣٤٤ تفسير الآيات (١٩-٣٩) ٣٤٩ تفسير الآيات (٤٠-٤٤) ٣٥٢

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٤٩

سورة نوح (٧١) تفسير الآيات (١-٢٠) ٣٥٥ تفسير الآيات (٢١-٢٨) ٣٥٩ سورة الجن (٧٢) تفسير الآيات (١-١٣) ٣٦٣ تفسير  
الآيات (١٤-٢٨) ٣٦٩ سورة المزمل (٧٣) تفسير الآيات (١-١٨) ٣٧٧ تفسير الآيات (١٩-٢٠) ٣٨٥ سورة المدثر (٧٤) تفسير  
الآيات (١-٣٠) ٣٨٨ تفسير الآيات (٣١-٣٧) ٣٩٦ تفسير الآيات (٣٨-٥٦) ٣٩٩ سورة القيامة (٧٥) تفسير الآيات (١-٢٥) ٤٠٢  
تفسير الآيات (٢٦-٤٠) ٤١٠ سورة الإنسان (٧٦) تفسير الآيات (١-١٢) ٤١٤ تفسير الآيات (١٣-٢٢) ٤٢١ تفسير الآيات (٢٣-  
٣١) ٤٢٦ سورة المرسلات (٧٧) تفسير الآيات (١-٢٨) ٤٢٩ تفسير الآيات (٢٩-٥٠) ٤٣٣ سورة عمّ (٧٨) تفسير الآيات (١-٣٠)  
٤٣٧ تفسير الآيات (٣١-٤٠) ٤٤٥ سورة النازعات (٧٩) تفسير الآيات (١-٢٦) ٤٤٩ تفسير الآيات (٢٧-٤٦) ٤٥٦ سورة عبس  
(٨٠) تفسير الآيات (١-٤٢) ٤٦٢ سورة التكويد (٨١) تفسير الآيات (١-٢٩) ٤٦٩ سورة الانفطار (٨٢) تفسير الآيات (١-١٩)  
٤٧٨ سورة المطففين (٨٣) تفسير الآيات (١-١٧) ٤٨٢ تفسير الآيات (١٨-٣٦) ٤٨٧ سورة الانشقاق (٨٤) تفسير الآيات (١-٢٥)  
٤٩١ سورة البروج (٨٥) تفسير الآيات (١-٢٢) ٤٩٨ سورة الطارق (٨٦) تفسير الآيات (١-١٧) ٥٠٧ سورة الأعلى (٨٧) تفسير  
الآيات (١-١٩) ٥١٣ سورة الغاشية (٨٨) تفسير الآيات (١-٢٦) ٥٢٠ سورة الفجر (٨٩) تفسير الآيات (١-١٤) ٥٢٦ تفسير  
الآيات (١٥-٣٠) ٥٣٣ سورة البلد (٩٠) تفسير الآيات (١-٢٠) ٥٣٨ سورة الشمس (٩١) تفسير الآيات (١-١٥) ٥٤٥ سورة الليل

(٩٢) تفسير الآيات (١- ٢١) ٥٥٠ سورة الضحى (٩٣) تفسير الآيات (١- ١١) ٥٥٦ سورة ألم نشرح (٩٤) تفسير الآيات (١- ٨)

٥٦٢

فتح القدير، ج ٥، ص: ٦٥٠

سورة التين (٩٥) تفسير الآيات (١- ٨) ٥٦٦ سورة اقرأ (٩٦) تفسير الآيات (١- ١٩) ٥٧٠ سورة القدر (٩٧) تفسير الآيات (١- ٥) ٥٧٥ سورة لم يكن (٩٨) تفسير الآيات (١- ٨) ٥٧٨ سورة الزلزلة (٩٩) تفسير الآيات (١- ٨) ٥٨٣ سورة العاديات (١٠٠) تفسير الآيات (١- ١١) ٥٨٧ سورة القارعة (١٠١) تفسير الآيات (١- ١١) ٥٩٣ سورة التكاثر (١٠٢) تفسير الآيات (١- ٨) ٥٩٦ سورة العصر (١٠٣) تفسير الآيات (١- ٣) ٦٠٠ سورة الهزلة (١٠٤) تفسير الآيات (١- ٩) ٦٠٢ سورة الفيل (١٠٥) تفسير الآيات (١- ٥) ٦٠٥ سورة قريش (١٠٦) تفسير الآيات (١- ٤) ٦٠٨ سورة أ رأيت (١٠٧) تفسير الآيات (١- ٧) ٦١١ سورة الكوثر (١٠٨) تفسير الآيات (١- ٣) ٦١٤ سورة الكافرون (١٠٩) تفسير الآيات (١- ٦) ٦١٩ سورة النصر (١١٠) تفسير الآيات (١- ٣) ٦٢٣ سورة تبت (١١١) تفسير الآيات (١- ٥) ٦٢٧ سورة الإخلاص (١١٢) تفسير الآيات (١- ٤) ٦٣٣ سورة الفلق (١١٣) تفسير الآيات (١- ٥) ٦٣٨ سورة الناس (١١٤) تفسير الآيات (١- ٦) ٦٤٢ فهرس الموضوعات ٦٤٧

## تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).  
قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَيْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَارِ - فِي تَلْخِصِ بَحَارِ الْأَنْوَارِ، لِلْعَلَّامَةِ فِيضِ الْإِسْلَامِ، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا(ع)، الشَّيْخِ الصَّدُوقِ، الْبَابُ ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحداً من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبي (صلواتُ الله عليهم) و لاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و يساحة صاحب الزمان (عجلَ اللهُ تعالى فرجه الشريف)؛ و لهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفئ مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقفٍ كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: ديتيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافه الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشبّاب و عموم الناس إلى التحرّي الأدقّ للمسائل الديتيه، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايت المبتدله أو الرديئه - في המחامل (=الهواتف المنقوله) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيه واسعه جامعته ثقافيه على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافه القراءه و إغناء أوقات فراغه هواه برامج العلوم الإسلاميه، إناله المنابع اللازمه لتسهيل رفع الإبهام و الشبّهات المنتشرة في الجامعه، و...

- منها العداله الاجتماعيه: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافه الإسلاميه و الإيرانيه - في أنحاء العالم - من جهه أخرى.



- من الأنشطة الواسعة للمركز:

- (الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة
- (ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل فى الحاسوب و المحمول
- (ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركه و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...
- (د) إبداع الموقع الانترنتى "القائمه" [www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com) و عدده مواقع أخر
- (ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض فى القنوات القمرية
- (و) الإطلاق و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)
- (ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كسك، و الرسائل القصيره SMS
- (ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسه" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركون فى الجلسه

(ى) إقامة دورات تعليميه عموميه و دورات تربيه المرى (حضوراً و افتراضاً) طيله السنه

المكتب الرئيسى: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيد"/ ما بين شارع "پنج رمضان" و "مفترق" و فائى "بنايه" القائمه

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسيه (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: [www.ghaemiyeh.com](http://www.ghaemiyeh.com)

البريد الالكترونى: [Info@ghaemiyeh.com](mailto:Info@ghaemiyeh.com)

المتجر الانترنتى: [www.eslamshop.com](http://www.eslamshop.com)

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكوميه، و غير ربحيه، اقتشيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكتها لا تتوافى الحجم المتزايد و المتسع للامور الدينيه و العلميه الحاليه و مشاريع التوسعه الثقافيه؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمه) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحه بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفيق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - فى حد التمكن لكل احد منهم - إيانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولى التوفيق.

مركز  
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية  
اصبهان  
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم  
**www.Ghaemiyeh.com**

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

